فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الأول

محمد عابد الجابري

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الأول

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني رقم : 2008/0480
ردمك 2 - 3083 - 0 - 9954
طبع بدار النشر المغربية - الدار البيضاء - المغرب
الطبعة الأولى : 2008

فهم القرآن الحكيم
التفسير الواضح
حسب ترتيب النزول

3

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة

كيف نفهم القرآن؟

سؤال يستعيد، على مستوى آخر، السؤال الذي كنا طرحناه في مستهل مقدمة كتابنا الأخير "مدخل إلى القرآن الكريم" الذي خصصناه لـ"التعريف بالقرآن ". كنا قد صغنا ذلك السؤال كما يلي: "هل يحتاج القرآن إلى تعريف"؟ ومع أن هذا السؤال كان بمثابة تحد لأمر واقع، وهو اعتقاد معظم الناس بأن القرآن لا يحتاج إلى تعريف لكونه أشهر من أن يعرَّف به – عند قراء العربية على الأقل- فإن الاهتمام الذي أثاره ما كتبناه في ذلك "التعريف" قد كشف فعلا عن الحاجة إلى استئناف القول في هذا الموضوع.

كان طرح السؤال حول "التعريف بالقرآن" ينطوي، كما قلنا، على نوع من التحدي لأمر واقع، وبالتالي كان يحتاج إلى نوع من المغامرة، أعني إلى الجرأة التي تفرضها الفلسفة على من ينتسب إلى حقلها، بوصفها "البحث عن الحقيقة". أما الإجابة عنه فقد كانت سهلة –على المؤلف– لأنه لم يجد نفسه مطالبا بالبحث عن حقيقة مجهولة أو ضائعة، بل كل ما وجد نفسه مطالبا به هو إعادة طرح أسئلة سبق أن طرحت من قبل، واستعادة مناقشات واجتهادات تنقل النظر إلى أبعد من سياج "العادة" المجمدة الرؤية، لتستحث الفكر المتقاعس على العمل لاكتساب رؤية جديدة أكثر استجابة لروح العصر.

أما السؤال الذي نستعيده هنا، كـ"ارتفاع" بسؤال "المدخل/التعريف"، فهو يقع على مستوى آخر. إنه لا ينطوي كسابقه على أي تحد لأي واقع، باعتبار أن "فهم القرآن" مهمة مطروحة في كل وقت ومطلوبة في كل زمان. وقد يكفي التذكير بأن اقتناعنا بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان يفرض علينا اكتساب فهم متجدد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر. وإذن، فطرح السؤال بصيغة "كيف نفهم القرآن؟" لا ينطوي على أية مغامرة؛ لكن الإجابة عنه، على ضوء معطيات العصر الذي نعيش فيه، هي المغامرة الكبرى.

ذلك لأن سؤال "فهم القرآن" يستعيد، كما قلنا، سؤال "التعريف بالقرآن"، بكل حمولته وآفاقه. وهكذا فكما وجدنا أنفسنا مطالبين، في السؤال

الأول، بـ"إعادة طرح أسئلة سبق أن طرحت، واستعادة مناقشات واجتهادات" الخ، فإننا في سؤال "الفهم" مطالبون كذلك بالمهمة ذاتها، وهي هنا أشق وأثقل بما لا يقاس. إننا لن نتعامل مع القرآن كنص على بياض، نكتب على هوامشه وحواشيه ما تلهمنا به العبارة والمثل والقصة والوعد والوعيد الخ، وما يسعفنا به الخيال وتدفعنا إليه الميول والرغبات الخ، لا. إن المنهج الذي اتبعناه على مستوى "التعريف" يفرض نفسه علينا على مستوى "الفهم" كذلك.

لقد أوضحنا في "التعريف" كيف أن "القرآن" ليس هو مجرد كم من الصفحات ينتظمها غلاف "المصحف"، بل هو نص اجتاز مسار الكون والتكوين خلال مسيرة تجاوزت عشرين سنة، ما بين ابتداء الوحي حتى وفاة متلقيه ومبلغه، صلوات الله وسلامه عليه؟ وإلى مثل هذا كان يطمح ما كنا نفكر في الكتابة عنه على مستوى الفهم. لقد كنا نطمح إلى أن نوضح كيف أن "فهم القرآن" ليس هو مجرد نظرٍ في نص مُلئت هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات بل هو أيضا "فصلُ" هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي، ليس من أجل الإلقاء بها في سلة المهملات، بل من أجل ربطها بزمانها ومكانها، كي يتأتى لنا "الوصل" بيننا، نحن في عصرنا، وبين "النص" نفسه كما هو في أصالته الدائمة [1].

وما نقصد بـ"أصالة النص" ليس النص كما نزل، فهو معطى بكامل أصالته في "المصحف" الذي بين أيدينا، إذ "هو/هو" منذ أن جُمع في زمن الخليفة عثمان، بل المقصود بـ"الأصالة" هنا، على صعيد الفهم، هو هذا النص مجردا عن أنواع الفهم له، التي دونت في كتب التفسير باختلاف أنواعها واتجاهاتها. إن الأمر يتعلق هنا أساسا بعزل المضامين الإيديولوجية لتلك الأنواع من الفهم. أما المحتوى المعرفي في كتب التفسير فلأنها، في الجملة، يكرر بعضها بعضا فإنه يمكن الاستغناء عن كثير منها والاقتصار على المؤلفات المؤسِّسة: مثل التفاسير التي ألفها بعض علماء اللغة، وبعناوين لغوية الطابع مثل "مجاز القرآن" و"معاني القرآن"، والتفسيرين اللذين يمكن اعتبارهما بحق عمدة التفاسير اللاحقة لهما وهما "جامع البيان في تفسير القرآن"، الذي كتبه

1- بخصوص مفهوم "الفصل والوصل" كما نستعمله هنا، انظر كتابنا "نحن والتراث"، المدخل العام فقر 4: ب- فصل المقروء عن القارئ... مشكلة الموضوعية. ج- وصل القارئ بالمقروء... مشكل الاستمرارية.

"العالم، الفقيه، المقرئ، المؤرخ، اللغوي، المفسر"، محمد بن جرير الطبري (225-310 هـ)، وتغلب فيه المرويات حتى إنه يكاد يستقصيها من جهة، و"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم جار الله محمد بن عمر بن محمد الزمخشري (467-538هـ) من جهة أخرى، والذي يمكن وضعه على رأس التفاسير "البيانية"، أعني التي اعتمدت المنهج البياني العربي. أما التفاسير الأخرى التي لا يكرر بعضها بعضا كحلقات متفرعة عن سلسلة الطبري أو الزمخشري، فهي في الغالب تتحرك، بوضوح وسبق نية، في إطار مذهب من المذاهب التي عرفها تاريخ الفكر الإسلامي. ومع أننا لم نقص هذه من اهتمامنا إقصاء، فإننا قد تجنبنا صحبتها لما يغمرها من "مياه" إيديولوجية متدفقة.

***

وبعد، فلعل القارئ يتذكر أننا قد صرحنا في السطور الأولى من *التقديم* الذي صدرنا به "المدخل إلى القرآن الكريم" بأن هدفنا منه هو أن "يلقي بعض الأضواء على ما نعتقد أنه الخلفية التي تؤطر" ذلك الكتاب، فحكينا، بل كررنا حكاية توالد وتناسل الأجزاء الأربعة لكتابنا "نقد العقل العربي" منذ الإعلان عنه في "نحن والتراث" (1980) إلى صدور جزئه الأخير "العقل الأخلاقي العربي" (2001). وتشاء الأقدار أن يتكرر نفس التوالد والتناسل مع "المدخل إلى القرآن" نفسه!

لقد كانت النية متجهة إلى كتابة جزء ثان له، في "فهم القرآن" على غرار "التعريف بالقرآن". وكما تطلب مني "التعريف" الرجوع إلى جميع ما أمكنني الحصول عليه من المؤلفات السابقة في الموضوع، ومعظمها تقع تحت الاسم الجامع "علوم القرآن"، فقد كان علـي هنا الرجوع إلى جميع ما أمكنني الحصول عليه من المؤلفات السابقة التي لها علاقة بـ "فهم القرآن"، ويقع جلها تحت عنوان "التفسير". والتفاسير كثيرة جدا: منها الطويل والوسيط والوجيز، ومنها السني والشيعي والصوفي، ومنها الذي يغلب عليه الاعتماد على المأثور ومنها الذي يغلب عليه الرأي، ومنها الذي يهيمن فيه المنظور الفقهي، ومنها الذي يستهوي صاحبه الجدل "الكلامي" (نسبة إلى علم الكلام)؛ كما أن منها من ليس تفسيرا للقرآن بالمعنى الاصطلاحي بل حديثا تحت ظلاله، أو اجتهادا على ضوء مناره الخ، الخ.

لقد خرجت من مصاحبة هذه التفاسير مدة من الزمن، مستعينا بالحاسوب وما يرتبط به من مكونات ووسائل تمكن مستعملها من الجولة في الكتب بسهولة، مهما كبر حجمها وتعددت مجلداتها، والقيام بعمليات البحث والضبط والتجميع والتأليف والتفريق والتصنيف في ثوان معدودات، أقول: خرجت من مصاحبة جميع التفاسير المتوفرة، ككتب على الورق أو كنصوص على الأقراص أو على الانترنيت، بنتيجة عامة وهامة: وهي أن كتابة الجزء الثاني الذي وعدت به في "التعريف بالقرآن"، ليكون موضوعه "فهم القرآن"، لن يرقى إلى مستوى الرؤى والآفاق التي طرحها هذا الأخير، ما لم يتجاوز مجرد الاقتصار على جملة موضوعات في القرآن، إلى فهم للقرآن ككل، إلى تفسير.

لقد عمق هذا الشعور في نفسي "كلام" وجيز ولكنه عميق جدا، قرأته للشاطبي في "الموافقات" التي عدت إليها في إطار الجولة التي أشرت إليها قبل، "كلام" بدا لي كأنني أقرؤه لأول مرة مع أني "مررت" عليه مرارا، ولكني لم "أسمعه" بنفس القوة التي سمعته بها هذه المرة. أما نص هذا "الكلام" -الذي استهل به الشاطبي المسألة الحادية عشرة من المسائل التي تكلم فيها عن "الكتاب" بوصفه الدليل الأول في "الأدلة الشرعية"[2]- فهو كما يلي، قال: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزَّلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح"[3]، (والضمير يعود على "الفهم" في قوله : منزَّلا في الفهم). ومع أني كنت أكدت في "*التعريف*" على ضرورة الاهتمام بترتيب النزول، إلا أن ما سمعته من الشاطبي هذه المرة، وهو يتكلم عن "الكتاب"، قد ولد في شعورا عميقا بأن "فهم القرآن" يعني فهم "الكتاب". لقد تحدثت في "التعريف" عن "القرآن/الكتاب"[4] وأكدت على أهمية فعل "القراءة" (التلاوة) في تسمية القرآن قرآنا، ولكنني لم أكن أعي بما يكفي من العمق "الحكمة" من إطلاق اسمين على مسمى واحد. أما الآن فقد غدا من السهل علـــيَّ القول إننا نستطيع أن نتعامل مع أية سورة أو أية مجموعة من آيات القرآن المتلو، ولا نحتاج في التواصل

2- التي هي: القرآن السنة والإجماع والقياس، وتسمى أيضا أصول التشريع في الإسلام.
3- أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات ج3. ص406
4- الفصل السادس، خصوصا الفقرة رقم 4، وخلاصة الفصل.

معها سوى إلى مقرئ يجيد التلاوة. ذلك لأن معنى القرآن المتلو يكون "أصل انفجاره من القلب"، كما يقول الشاطبي في معرض كلامه عن الفهم الصوفي والباطني للقرآن، أما معنى القرآن المكتوب فيتطلب فهمه تتبع ترتيبه ككتاب، فيه السابق واللاحق، على أساس- ولا ضير في تكرار كلام الشاطبي- أن: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح" الفهم.

إن انبثاق "فهم الكتاب الحكيم" في العقل، يتطلب، من "الجهد الذهني"، ربما أكثر كثيرا مما يتطلبه "انفجار القرآن الكريم" في القلب من "فراغ الذهن". ذلك لأن الجهد المطلوب في عملية الفهم، بالنسبة لعملنا هنا، جهد مضاعف: سيكون علينا في البداية التأكد من مصداقية أي ترتيب للنزول نأخذ به، وذلك يعني إعادة بناء الترتيب الذي تعطيه اللوائح المروية على أساس الأخذ بالاعتبار المرويات التي تتحدث عن تاريخ نزول هذه السورة أو تلك، أو عن مناسبات نزول بعض آياتها، سواء وافق ذلك ترتيب اللوائح أو خالفه. هذا فضلا عن أن إعادة النظر في ترتيب النزول يجب أن تنطلق أولا من الفصل في مسألة المكي والمدني من السور والآيات ... ومع أن المادة في هذا المجال موجودة بغزارة، في التفاسير المطولة وكتب علوم القرآن وكتب الحديث وكتب التاريخ الخ، إلا أن كثيرا منها يطرح مشكلة التوافق مع السياق ومع مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا"، وسنرى في صفحات هذا الكتاب، بأقسامه الثلاثة، أمثلة كثيرة؛ مزعجة حقا!

لنقل إذن إن النتيجة العامة والعملية التي خرجت بها من مصاحبة التفاسير الموجودة هي أن المكتبة العربية الإسلامية تفتقر إلى تفسير يستفيد في عملية "الفهم" من جميع التفاسير السابقة ولكنه يعتمد ترتيب النزول [5]، ويسلك طريقة في "الإفهام" ألصق بالطريقة التي تعتمد اليوم في الكتابة مع

5- هناك محاولتان في هذا الموضوع: محاولة المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير الذي قام بترجمة معاني القرآن إلى الفرنسية (1947-1950) على أساس " ترتيب النزول" الذي وضعه المستشرق الألماني نلدكه، وقد عدل عنه في الطبعة الثانية لكتابه فرجع إلى ترتيب المصحف، ثم محاولة الدكتور محمد عزة دروزة، "التفسير الحديث" 1961-1964. وقد تحدثنا عن هاتين المحاولتين وأبدينا رأينا فيهما في "المدخل إلى القرآن الكريم" (التعريف). الفصل العاشر: ثانيا، فقرة 2 و 3

الاستفادة مما يقدمه الحاسوب من إمكانيات على مستوى التنظيم والتصنيف واستعمال العلامات الخ.

***

كانت الكتابة إلى وقت قريب سجينة فقر هائل على مستوى "أدوات الإفهام"، أفقر كثيرا مما كان متوافرا على مستوى الكلام. كان المتكلم والخطيب والمجادل الخ، وما يزال، يستعين، في عملية الإفهام، بالإشارة بيده وعصاه ورأسه وحاجبيه، بابتسامته وعبوسه وضحكه وبكائه. كان جسمه كله مجندا في عملية الإرسال، وكان المتلقي يتلقى تلك الإشارات فتسد لديه ثغرات الصوت وتقطعه وارتجاجه... أما الكاتب فلم يكن يملك سوى أن يبدأ من أقصى نقطة في الورقة (على اليمين إن كانت اللغة تبدأ من اليمين، أو على اليسار إن كانت بالعكس)، راصًا الحروف والكلمات جنبا إلى جنب، حتى إذا انتهت الورقة انتقل إلى أخرى واضعا علامة يفهم منها ما يفهم من كلمة "يتبع"، ثم يستمر هكذا. وإذا ما هو شعر بأن ما سيكتب لا يشكل جزءا من الكلام الصامت الذي ينقله إلى "الخط" وضع كلمة "فصل"، إشعارا بأن ما سيخط في تلك اللحظة، منفصل عما مضى وعما سيأتي.

هذا الأسلوب في الخط والكتابة هو نفسه ما كان يجري به العمل في "التفسير". يبدأ المفسر -بعد البسملة- بكلمة من سورة يخطها، مميزة بعض التمييز عن كلامه هو، ثم يستمر في شرحها بإيجاز لا "يسمن ولا يغني من جوع" إن كان يكتب تفسيرا موجزا؛ أما إن كان تفسيره من الطوال فهو يبدأ بذكر نوع "القراءة" أو القراءات التي قرئت بها الكلمة ثم يأتي بما قاله فيها أهل اللغة والنحو والصرف قبل أن ينتقل إلى إيراد مرويات ترافقها استطرادات الخ، ليتحول بعد ذلك إلى اللفظ التالي من ألفاظ السورة بعد أن يكون قد مر كمٌّ هائل من الكلام عن اللفظ السابق، وهكذا... بعض المفسرين يسلك طريقة مختلفة، طريقة "التفسير بالجملة" بدل "التفسير بالتقسيط"، فيورد عدة آيات أو سورة بكاملها من المفصل، ثم ينطلق في الشرح والتعليق والاقتباس والاستشهاد والرد. مفترضا أن ألفاظ الآية أو السورة "محفوظة في صدر" القارئ -وقد كان الأمر كذلك لأن من ينتقل إلى "التفسير"، قراءة أو كتابة كان يحفظ القرآن في الأغلب الأعم. وغني عن البيان القول إن هذا الفقر الهائل الذي عانت منه الكتابة -عندنا وعند غيرنا- قد عمق الهوة بين الناس وبين ممارسة عملية

الفهم لنصوصهم الدينية، وذلك إلى درجة انتقلت معها قداسة النص الديني إلى ما كتب عليه. وأمام غياب الفهم وانتشار الأمية صار المقدس ليس هو النص مستقلا عن المكتوب فيه، بل هو المكتوب فيه نفسه، تماما كما أن الاحترام للشخص المتوفى ينتقل منه، ككائن حي، إلى قبره وضريحه.

وفي المقابل من ذلك كله، يجب استحضار ذلك المجهود الكبير الذي بُذل بتقنيات عالية في تجهيز القراءة في المصحف. لقد كانت الكتابة العربية زمن النبي (ص) والخلفاء الراشدين تخط بدون نقط وبدون شكل وبدون ترقيم للآيات، حتى إن الفصل بين سورة وأخرى كان بكتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" بينها... ولكن لم يمر وقت طويل حتى صار المصحف يكتب بالنقط والشكل مع ترقيم الآيات، مجهزا بعلامات خاصة بالقراءة والتلاوة والتجويد، وهكذا انتقل إلى كلمات المصحف ما كان يخزن في جهاز الصوت عند المقرئ، فصارت طريقة قراءة القرآن رموزا مسجلة في النص، لا بد من مراعاتها عند التلاوة.

لكن هذا المجهود التقني الذي بذله المختصون في "تلاوة القرآن" منذ وقت طويل لم يبذل مثله في مجال "التفسير"، رغم تطور الكتابة وأدوات "الإفهام". نقصد بذلك ما نجهز به نصوصنا اليوم من علامات تعين على الفهم وتقوم في الكتابة مقام "علامات التلاوة" في المصحف وأيضا مقام "إشارات" المتكلم والخطيب. من ذلك الرجوع إلى أول السطر عند اكتمال التعبير عن الفكرة والانتقال إلى فكرة جديدة، ووضع نقطة عند اكتمال الجملة، والفاصلة بين الكلمات عندما يتعلق الأمر بعملية تعداد، أو للفصل بين أجزاء الجملة، للتمييز فيها بين ما هو أساسي وما هو فضلة، ووضع نقطة فاصلة بين جملتين مستقلين ولكن مترابطتين، ووضع علامة للاستفهام وأخرى للتعجب، واستعمال المزدوجتين عند الاقتباس أو عند تسجيل نوع من التحفظ، والهلالين للتفسير أو العزل وما أشبه، والمعقوفتين عند إضافة المحقق أو المقتبس كلمة أو عبارة إلى النص الأصلي، عند شعوره بسقوط تلك الكلمة أو العبارة...

بهذه العلامات يتم التغلب في الكتابة المعاصرة على كمٍّ هائل من الصعوبات التي كانت تعترض القارئ في الماضي، سواء في اللغات التي تحتاج الكتابة فيها إلى "الشكل" لإبانة المعنى أو في التي تكتب فيها علامات الشكل مع حروف الكلمات؛ فبتلك العلامات يتم التمييز في النص بين أجزاء الكلام المكتوب، مشكولا أو غير مشكول.

إن استعمال "علامات الإفهام"، هذه، يشكل جزء أساسيا مما ندعيه من الوضوح لهذه المحاولة في التفسير، التي لم نتردد في تسميتها بـ" التفسير الواضح". ذلك أنه فضلا عن دور تلك العلامات في عملية الإفهام، كما بينا أعلاه، فإنها تمكننا من جعل القارئ يرافق باستمرار نص القرآن وهو يقرأ، بين هلالين وبخط مختلف، معنى اللفظ أو العبارة من غير انتقال إلى خارج ذلك النص للبحث عن المعنى الذي قد لا يجده في التفاسير المكتوبة بالطريقة القديمة، خاصة المطولة منها، إلا بمشقة؛ أعني بعد استعراض صفحة أو صفحات يعود بعدها إلى "مكانه" مشتت الذهن، تعب البصر. وقد تمكنا في الوقت نفسه من اعتبار تموجات المعنى، باستعمال علامات الفهم والإفهام، والحفاظ في الوقت نفسه على حدود الآيات بكتابة أرقامها بحجم مصغر فوق آخر حرف من الآية، وذلك كي لا تختلط بالأرقام التي تحيل إلى الهوامش والتي ميزناها هي الأخرى بوضعها بين هلالين مرفوعة بحجم مختلف.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى عمدنا، توخيا لأكبر قدر من الوضوح، إلى تنظيم ما تورده التفاسير -من نقول ومعلومات واجتهادات متداخلا متراكما في الغالب- تنظيما مبنيا على طبيعة الموضوع. وهكذا وزعنا مادة "التفسير" في كل سورة إلى ثلاثة أقسام : تقديم، وهوامش، وتعليق.

1- أما التقديم فقوامه عرض مختصر، صدرنا به كل سورة، خصصناه لأهم المرويات التي وردت حولها كسورة، أو حول بعض آياتها، مما يعتبر من "أسباب النزول" أو ما هو مجرد مرويات تعين على الفهم أو على تحديد تاريخ نزول السورة أو ظروف نزولها الخ، مع التخفيف من سلاسل السند إلى أقصى حد؛ إذ ما الفائدة من ذكر السند لغير المختص فيه؟ أما المختص فله مراجعه ومقاييسه. كما استغنينا عن ذكر المصدر، والجزء، ورقم الصفحة، والطبعة الخ، بالاكتفاء بذكر مؤلف التفسير (مثل الطبري، الزمخشري، الرازي الخ)، لأن تفاسيرهم معروفة، ولأن الطريق إلى النص الذي نحيل إليه تقود إليه الآية ورقمها، مهما كانت الطبعة. وفي أحيان كثيرة نكتفي بعبارة "يقول المفسرون" وما في معناها لأن الأمر يتعلق برواية موجودة لدى معظمهم، والغالب ما يكفي فيها الرجوع إلى الطبري، فجل المفسرين، إن لم يكن جميعهم، عالة عليه في المرويات.

2- أما الهوامش أسفل الصفحات فقد أدرجنا فيها الشروح أو التعليقات التي نحتاج من حين لآخر إلى تسجيلها لكونها تُطلع القارئ على رأي خاص بمفسر معين، أو على مرويات أو ملاحظات يتعذر إدراجها بين الهلالين داخل النص، بسبب طولها أو عدم وجود علاقة مباشرة بينها وبين النص.

3- وكما صدرنا كل سورة بتقديم خاص بها، ختمنا تعاملنا معها بتعليق نستعيد فيه أهم القضايا التي تناولتها في شكل خلاصة مركزة، مع إبداء الرأي في هذه المسألة أو تلك.

وقبل ذلك وبعده، لا بد من الإشارة إلى أننا ميزنا في تسلسل السور حسب ترتيب النزول بين مراحل، راعينا فيها التطابق، النسبي على الأقل، بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، وسيلمس القارئ بنفسه أن ما قمنا به في هذا المجال لا يعدو أن يكون مجرد وضع عناوين لكل مرحلة. وهكذا نتبين بكل وضوح أنه، مع أن القرآن نزل منجما وخلال أزيد من عشرين سنة، فإن تسلسل سوره -حسب ترتيب النزول- يباطنه تسلسل منطقي سرعان ما نكتشفه عندما ننتبه إلى الموضوع الذي تركز عليه هذه المجموعة من السور أو تلك في تسلسلها؛ وبالرجوع إلى وقائع السيرة نكتشف أن ذلك المنطق، الذي يباطن تسلسل السور داخل كل مجموعة، يتطابق في مضمونه مع تسلسل هذه الوقائع؛ الشيء الذي نتبين منه بوضوح أن مسار التنزيل مساوق فعلا لمسيرة الدعوة[6].

6- وهذا مصداقا لقوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَلِكَ، لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا؛ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" (الفرقان 32-33). فالحكمة من تنزيله مفرقا هو تثبيت فؤاد النبي عليه السلام بالجواب في الحين وفي كل مرة على اعتراضات قريش واستهزاءاتهم وإحراجاتهم واعتداءاتهم. وهذا التنزيل المفرق قد جاء "مرتلا ترتيلا" أي متتابعا شيئا فشيئا، منضدا مرتبا. وهكذا فما من مثل يضربه مشركو مكة لتعزيز اعتراضاتهم وتقوية حججهم إلا ويأتي الرد عليه من القرآن بما هو أوضح بيانا للحق وأحسن تفسيرا، وهذا جعل مسار التنزيل مساوقا أصلا لوقائع السيرة النبوية. وهذه الآية نفسها نزلت ردا على قريش عندما استصغروا من شأن القرآن وقالوا ما هو إلا أقاويل يأتيها محمد من حين لآخر. قالوا: فلو كان نبيا حقا لجاء مجموعا، مثل كتاب موسى، غافلين أو متغافلين عن أن التوراة كتبها موسى (بعدما أخذ الألواح التي أعطاه الله) يحكي فيها قصة الخليقة بهدف الوصول إلى نشوء بني إسرائيل وتقلبات الأحوال والظروف بهم، وقصة شيوخهم الأولين، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب (واسمه الأصلي إسرائيل)، وقصة التحاق هذا الأخير بابنه يوسف في مصر حيث تكاثروا، ثم خروجهم منها بعد أربعمائة سنة=

وهكذا ميزنا في مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، خلال العهد المكي، بين ست مراحل :

- المرحلة الأولى : في النبوة والروبية والألوهية.
- المرحلة الثانية: في البعث والجزاء ومشاهد القيامة.
- المرحلة الثالثة: في إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام.

وهذه المراحل الثلاثة هي التي تشكل محتوى هذا القسم الأول الذي يضم اثنتين وخمسين سورة : من سورة العلق ("اقرأ باسم ربك" وهي أول سورة نزلت)، إلى سورة يوسف التي ختمنا بها هذا القسم. أما السور الأخرى الباقية من القرآن المكي فتضمها المراحل، الرابعة والخامسة والسادسة، وهي موضوع القسم الثاني من الكتاب. أما القرآن المدني فسيستقل به القسم الثالث. وكما صدرنا كل مرحلة باستهلال، موجز في الغالب، ختمناها باستطراد استشرافي، طويل في الأغلب الأعم، قدمنا فيه ما يناسب المرحلة من بيانات إضافية تتعلق بموضوع من الموضوعات التي ركزت عليه سور المرحلة.

ولا بد من الإفصاح هنا عن مدى شعورنا بالرضى والتوفيق ببناء هذا التفسير على أساس ترتيب النزول، ليس فقط على مستوى ما عبرنا عنه في "التعريف بالقرآن" بمسار "الكون والتكوين"، ونعبر عنه هنا بـ"مسار التنزيل"، بل أيضا على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية والسيرة النبوة. والواقع أنه إذا كان من الضروري التعبير، في كلمات معدودة، عن جوهر ما دشنا القول فيه بهذا العمل، فنحن لا نتردد في ادعاء أننا نشعر بالتوفيق في "قراءة القرآن بالسيرة وقراءة السيرة بالقرآن". ذلك أن هذا النوع من القراءة المزدوجة قد مكنني من التعرف على حقيقة ذلك السر الذي أشرت إليه في نهاية خاتمة "المدخل إلى القرآن" عندما كتبت أقول : "وعلي أن أعترف الآن أن هناك سرا لم يستطع عقلي اكتناه حقيقته: إنه هذا الذي عبرنا عنه بـ "العلاقة الحميمية" بين الرسول محمد بن عبد الله وبين القرآن الحكيم".

* * *

بقيادة موسى الذي كلفه الله بذلك الخ. أما القرآن فهو كتاب دعوة إلى الله موجهة إلى قوم أعرضوا عنها وحاجوها وقاوموها فكان الرد عليه مفرقا تفرق رد فعلهم إزاءها الخ.

كلمة أخيرة بصدد أقسام هذا الكتاب : لقد كانت النية متجهة في الأصل إلى كتابة جزء ثان لـ"المدخل" كما أعلنا عن ذلك، لكن عندما قادنا البحث إلى مشروع كتابة "تفسير"، حسب ترتيب النزول، بديلا عنه، قررنا جعله جزأين: الأول في القرآن المكي ومحوره العقيدة والأخلاق، والثاني في القرآن المدني ومحوره الأحكام والتشريع للدولة. واشتغلنا على هذا الأساس. غير أن طول الجزء الأول الذي كان من المفترض أن يكون بين يدي القارئ الآن بكامله، جعلنا نفضل جعله قسمين الأول هو هذا الذي بين يدي القارئ، والثاني سيليه، إن شاء الله، بعد نحو شهرين أو ثلاثة. أما القسم الثالث الذي سيكون خاصا بالقرآن المدني فأملنا أن يكون بين أيدي القراء مع نهاية السنة.

عسى أن أكون دائما عند حسن الظن. وما توفيقي إلا بالله.

الدار البيضاء فاتح يناير 2008

محمد عابد الجابري

المرحلة الأولى

النّبوّة والربوبية والألوهية

استهلال

تتميز السور الأولى في لائحة ترتيب النزول بقصرها وقصر آياتها وأسلوبها الخاص؛ كما يتوجه الخطاب فيها أساسا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ويكاد مضمونها يختص به : إما بالحديث إليه أو عنه، وإما بالرد على خصومه المكذبين برسالته. ومن أبرز ما تتميز به هذه السور، بالنسبة لموضوعنا هنا، استعمال اسم الرب: "اقرأ اسم ربك" (العلق)، "وربك فكبر" (المدثر)، "سبح اسم ربك" (الأعلى)، "ابتغاء وجه ربه" (الليل)، "كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ" (الفيل)، "إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ" (الفجر)، "ما ودعك ربك وما قلى" (الضحى) الخ؛ والملاحظ أن اسم الجلالة (الله) لم يستعمل إلا ابتداء من سورة "الإخلاص" السورة الثانية والعشرين وما بعدها (حسب ترتيب النزول المعتمد، 19 حسب ترتيبنا)[1]، أما قبل ذلك فالخطاب القرآني كان يتحرك على مستوى النبوة والربوبية. وسيتوسع بعد ذلك من خلال الاتصال والحوار، ثم الجدل، مع قريش لإبراز جانب الألوهية في الربوبية، ليطرح بعد ذلك اسم الرحمان كاسم من أسماء الله الحسنى.

النبوة والربوبية والألوهية ثلاثة محاور يتحرك فيها الخطاب القرآني فيما نطلق عليه هنا المرحلة الأولى من مسار الخطاب القرآني المكي بتساوق مع وقائع السيرة النبوة، التي اتسمت خلال هذه المرحلة بنوع من "السرية"؛ كانت الدعوة المحمدية خلالها تقتصر أو تكاد على الاتصالات الفردية في إطار من الثقة يحميها الكتمان والتستر. أما عدد السور التي نزلت خلال هذه المرحلة فهو سبع وعشرون سورة، من سورة العلق (اقرأ باسم ربك) إلى سورة قريش، حسب ترتيب النزول المعتمد (27 حسب ترتيبنا).

تبتدئ هذه المجموعة بسورة "العلق" كما قلنا. وما نعنيه بـ"السورة" هنا، ليس السورة بكاملها بل الآيات الأولى منها فقط (وسنعيِّنها). يصدق هذا على سورة العلق وسورة المدثر اللتين تحتلان المرتبة الأولى والثانية في لائحة ترتيب النزول، حسب أشهر الأقوال وأقواها. أما بقية هاتين السورتين فقد نزلت في مرحلة لاحقة.

---

1 - سنوضح فيما بعد الفارق بين الترتيبين.

وحفاظا على "وحدة السورة"، لكونها توقيفية، سنذكر هاتين السورتين مرتين : نشرح في المرة الأولى الآيات التي نزلت في هذه المرحلة، مرجئين بقيتها إلى المكان الذي نرى أنه أنسب، سواء بترجيح من مضمونهما أو بتعزيز مما ورد في شأنهما من أخبار.

1- سورة العـلـق

- تقديـــم

تبدأ سورة "العلق" [1] بعبارة "اقرأ باسم ربك"، والمعنى: ابدأ القراءة بذكر "اسم ربك"، تيمنا وتبركا. وهذا يجري مجرى عادة العرب في التبرك بذكر واحد من آلهتهم. فكانوا يقولون باسم اللات، باسم العزى... وفي الحديث أنه عندما أخذ النبي عليه السلام يملي على علي بن أبي طالب نص وثيقة صلح الحديبية قائلا: "اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، اعترض ممثل قريش وقال: "مَا نَدْرِي "مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". وَلَـكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ". وتعني : باسمك يا الله؛ وقد احتفظ الإسلام بهذا التعبير، ففي القرآن: "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ" (يونس 10)، وأيضا: "قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ" الآية (آل عمران 26). كان العرب يستعملون هذا التعبير لأنهم كانوا يعرفون الله، ويؤمنون به، ولكنهم كانوا يشركون معه وسطاء من الملائكة والكواكب والنجوم والأصنام، معتقدين أن هؤلاء الوسطاء يقربونهم إلى الله ويشفعون لهم الخ.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ[1]: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ[2]؛ اقْرَأْ. وَرَبُّكَ (هو) الْأَكْرَمُ[3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ[4]، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ[5]".

بقية السورة (وسنعود إليها لاحقا)

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ

1- وقد سميت بهذا الاسم لورود كلمة "العلق" فيها. وبالمناسبة ننبه إلى أن أسماء السور لا تدل بالضرورة على موضوع السورة ولا على مضمونها، والغالب ما يكون السبب في حملها اسما معينا هو -فقط- ورود ذلك الاسم فيها.

إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19).

- تعليق :

ما يلفت النظر في هذه الآيات الخمس أنها تقرر العقيدة الإسلامية من خلال التركيز على مبدأين اثنين: خَلَق-عَلَّم، وربطهما أولا بمحور واحد هو الإنسان الشخص، والمقصود هنا هو محمد (ص) بالذات، ثم ربطهما ثانيا بمعطيات التجربة اليومية للإنسان المفهومة من قوله: "علم الإنسان بالقلم". والمعنى : تبركْ يا محمد باسم ربك، واعلم أن هذا الرب الذي يوحي إليك هو الذي خلقك من دم علِق برحم أمك، تحولت إليه نطفة من أبيك. واعلم كذلك أنه هو نفسه الذي علّم بالقلم، وعلّمك ما لم تكن تعلم.

وما يرجح لدينا هذا المعنى هو أن حديث القرآن عن الخلق قد ورد على ثلاث مستويات : 1) خلق الإنسان الشخص من علق، 2) خلق الإنسان النوع (آدم) من طين، 3) خلق الكون (السماوات والأرض من دخان) كما سيرد ذلك مفصلا. أما العلق فجمع علقة، وهي الدم الجامد، "سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه، فإذا جفت لم تكن عَلَقة". ونحن نرى أنه لا معنى لاستنتاج القرطبي[2] من كون الآية استعملت "العلق"، بالجمع، أن المراد هو "الإنسان الجمع"، يعني بني آدم". ذلك أنه لا معنى لمقولة "الإنسان الجمع". فالإنسان إما شخص مشار إليه (مفردا أو جمعا) وإما نوع (نوع الإنسان، أي مفهومه). وفي القرآن : الإنسان النوع الذي هو آدم قد خلقه الله من طين، أما الإنسان الشخص وهو متعدد (بنو آدم) فقد خلقه من علق. أما الإنسان الشخص الواحد غير المتعدد فلا وجود له. يشهد بالصحة لما قلناه قوله تعالى: "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى". والخطاب هنا عن الإنسان الشخص، هو حسب الروايات، شخص معين وهو الوليد بن المغيرة "الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى" (النجم 33-46)، ومثل ذلك قوله: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى" (القيامة 36-39)، فالخطاب فيه عن أبي جهل بن هشام.

2- سنقتصر على ذكر المفسرين بأسمائهم المشهورة مثل (القرطبي، الزمخشري، الرازي...)، وواضح أنه فيما يخص التفسير فالمرجع هو السورة ورقم الآية وبالتالي لا حاجة إلى ذكر رقم الصفحة ولا الطبعة.

وأما قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ" (المؤمنون 12-14)، فالمقصود به الإنسان الشخص كذلك، والمخاطب هنا متعدد، هم كفار قريش (وهم من سلالة آدم). أما عندما يتعلق الأمر بالبشرية جمعاء فالقرآن يستعمل في الغالب عبارة "بني آدم" مثل قوله تعالى: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (يس-60).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هنا هو التالي: كيف نفهم هذا الربط بين "الخلق من علقة"، و"التعليم بالقلم"؟ والجواب في نظرنا يجب أن يكون مقيدا بالمفكر فيه زمن النبوة، أعني معهود العرب آنذاك. وبناء عليه يمكن صياغة الجواب كما يلي: إنه كما خلق ربك الإنسان من قطعة من دم متجمد، جعل الكتابة والقراءة وسيلة لتعليمه. وهذه العلاقة بين "اقرأ" و"القلم"، بين القراءة والكتابة، يشرحها حديث النبي عليه السلام عن ابتداء نزول الوحي عليه، حيث قال: "جاءني جبريل، وأنا نائم (في رؤيا المنام)، بنمط (وعاء) من ديباج (ثوب فارسي مزركش) فيه <u>كتاب</u>، فقال: اقرأ! قال (النبي): ما أقرأ؟ (وفي رواية أخرى ماذا أقرأ، وفي أخرى ما أنا بقارئ"؟). إن قوله عليه السلام إن جبريل جاءه : "بنمط من ديباج فيه كتاب" يحتمل معنيين: إما أن جبريل أراد منه أن يقرأ في ذلك الكتاب (وقد سبق أن أثبتنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة)[3]، وإما أن جبريل جاء يحمل إليه "كتابا"، أي الوحي الذي سيسمى أولا بـ "القرآن"، ثم بـ"الكتاب".[4] وفي كلتا الحالتين يكون الوحي الذي سينزل على محمد (ص) هو المقصود بـ "علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم". كما قررنا أعلاه. وعلى هذا يكون الخطاب، في الآيات الخمس التي نحن بصددها، موجها كله إليه وحده : اعلم يا محمد، أن ربك الذي خلقك من علق، هو الذي أكرمك بالوحي الذي سيصير كتابا، والذي ستعلم من خلاله ما لم تكن تعلم. هناك عدة آيات تسند هذا المعنى، منها قوله تعالى: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (البقرة-129)، وقوله: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" (النساء-113) الخ.

---

3 - انظر <u>التعريف بالقرآن</u> : الفصل الثالث. (من الآن فصاعدا سنحيل على "مدخل إلى القرآن" باسمه الخاص: "<u>التعريف بالقرآن</u>"، تجنبا للخلط).

4 -نفس المرجع.

2- سورة المــدثــر

- تقديــم

وردت هذه السورة في الرتبة الرابعة في لوائح ترتيب النزول مع أن معظم المفسرين والرواة يعتبرونها في الرتبة الثانية، أي مباشرة بعد سورة "العلق". ونحن نرجح أنها فعلا ثاني سورة نزلت، أعني الآيات العشر الأولى منها على أكثر تقدير. وأنها السورة الأولى التي نزلت بعد سورة العلق، عقب انقطاع الوحي مدة من الزمن قدرها بعضهم بخمسة عشر يوما، وقال آخرون إنها دامت سنتين، والمشهور أنها دامت أربعين يوما[1]. وخلال هذه المدة كان خبر اتصال جبريل بالنبي عليه السلام قد شاع في أوساط قريش، وقد اكتسى رد فعلهم نوعا من السخرية غير جارح، في البداية، مراعاة منهم للعلاقات القبلية، التي كان لها دور كبير في المجتمع المكي آنذاك. يتجلى هذا من خلال ما يمكن اعتباره أول رد فعل تهكمي أثار احتجاجا لم يكن الدافع إليه شيئا آخر غير النعرة القبلية. يروى أن النبي (ص) مر على أبي جهل وأبي سفيان[2] وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : "هذا نبي بني عبد مناف!". فغضب أبو سفيان، وهو بعد خصما للدعوة المحمدية، وقال مستنكرا : "أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي"؟

1- تجد التفاصيل في التعريف بالقرآن: الفصل الرابع فقرة 3

2- أما أبو جهل فقد كان أحد رجالات قبيلة بني مخزوم المنافسة لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية معا)، وكان يكنى بـ"أبي الحكم" واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة، -ونظرا لشدة خصومته للدعوة المحمدية كني بـ"أبي جهل"- وهو أخو الوليد بن المغيرة الذي كان عميد المخزوميين زمن الرسول، ومن كبار "الملأ من قريش" (خصوم الدعوة المحمدية) ولكنه لم يكن في قساوة أخيه أبي جهل. وأما أبو سفيان فقد كان عميد بني أمية من أبناء عمومة النبي عليه السلام، وكان من خصوم الدعوة المحمدية، وزعيم قريش بعد وفاة أبي طالب عم النبي (ص). وقد انتهى به الأمر إلى أن فاوض النبي عليه السلام بواسطة عمه العباس على الدخول إلى مكة ففتحت بدون حرب، وكان قد أسلم. وكان ابنه معاوية من كتاب الوحي لدى الرسول (ص)، ثم صار عاملا على دمشق، ثم مؤسس الدولة الأموية بعد حربه مع علي بن ابن أبي طالب وانتزاع الخلافة منه.

ومن جملة ما استهزأ به خصوم الدعوة المحمدية لما فتر الوحي قولهم: "لو كان من عند الله لتتابع"، فشق ذلك على الرسول عليه السلام فأخذ يتردد على جبل حراء والجبال المجاورة لعله يسعد بلقاء جبريل ثانية. لكن جبريل أبطأ أكثر مما كان ينتظر، فحزن لذلك حزنا بليغا دفعه إلى الصعود إلى قمم الجبال ليلقي بنفسه من هناك على الأرض. لكنه كان بمجرد ما يصل قمة جبل يتبدى له جبريل ليقول: "يا محمد، إنك رسول الله حقا"، فيسكن لذلك جأشه وتقرُّ نفسه، فيرجع". وتكرر المشهد عدة مرات دون أن يصحبه نزول الوحي. وأخيرا قرر الرجوع إلى بيته، وهو في حالة من الفزع والخوف. وتضيف الرواية على لسان النبي (ص): "فقلت زمّلوني زمّلوني، فدثروني"[3].

ولعل ورود كلمة "زملوني" في هذا الحديث هو ما جعل واضعي لوائح ترتيب النزول يصنفون سورة "المزمل" قبل المدثر، مضيفين إليها سورة "القلم". ونحن نرى أن سورتي المزمل والقلم لا تنتميان إلى هذه المرحلة المبكرة. ذلك أننا لو قارنا بين ما نزل من سورة المدثر، في هذه المرحلة، مع سورتي القلم والمزمل اللتين رتبتا الثانية والثالثة على التوالي في لوائح النزول، لتبين بسهولة أن ما نزل من هاتين السورتين لا يتناسب مع ظروف هذه المرحلة من النبوة ولا حتى مع ردود فعل خصومها. ذلك أن هاتين السورتين تتحدثان من موقف الرد على منكري النبوة المحمدية بمضمون لا يستقيم مع ما نزل قبلهما من آيات سورة "العلق". فنحن نقرأ في الآيات الأولى من سورة "القلم" قوله تعالى: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ، فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القلم 1-7). وأول ما يلاحظ هو أن استعمال القسم في فواتح السور لم يبدأ إلا في مرحلة لاحقة، عندما كانت قريش تتهم النبي عليه السلام بالجنون والكهانة والسحر الخ، كما أن توجيه التهديد والوعيد من جانب القرآن إلى قريش لم يبدأ هو الآخر إلا في مرحلة لاحقة.

---

3 - البخاري. باب التعبير. وقد تناقل مؤلفو التفاسير هذه الرواية. غير أن هناك روايات أخرى أقرب في نظرنا من حيث اللفظ إلى القول بأولوية المدثر، منها رواية جابر بن عبد الله، مفادها أن النبي عليه السلام قال وهو يحدث عن بداية الوحي: "فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رُعبا فأتيت خديجة فقلت: دثّروني فدثروني" وفي إحدى الروايات إضافة "وصبّوا عليّ ماء باردا".

ومثل سورة المزمل في ذلك مثل سورة القلم. فنحن نقرأ في مستهلها قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا" (المزمل 1-10). فقوله تعالى "رتل القرآن ترتيلا" يقتضي أن يكون قد نزل منه ما يكفي لترتيله طول الليل أو قسم منه، والحال أن كل ما كان قد نزل هو بضع آيات.

هذا على مستوى المضمون، أما على مستوى الروايات فالسورتان محل خلاف كبير : بعضهم يقول إنهما مكيتان جملة وتفصيلا وبعضهم يقولون إنهما بالعكس مدنيتان الخ. أما الرواية المنسوبة إلى ابن عباس حول سورة القلم فتوزعها كما يلي: "من أولها إلى قوله تعالى: "سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ": مكيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: "أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" : مدنيّ". ومن بعد ذلك إلى قوله: "يَكْتُبُونَ": مكي. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: "ٱلصَّالِحِينَ" : مدنيّ، وما بقي مكيّ" (القرطبي)! وهذا التجزيء المنسوب إلى ابن عباس يلغي السياق تماما...

أما عن سورة المزمل فتذكر الروايات أن عائشة زوج النبي عليه السلام قالت : "إن الثوب الذي كان الرسول متزملا به حين خاطبته السورة ("يأيها المزمل") كان عبارة عن 'مرطٍ (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي". يقول القرطبي وهذا القول من عائشة دليل على أن السورة نزلت في المدينة-لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة". ومن جهة أخرى روي عن سعيد بن جبير أنه قال: "مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ" (المزمل الآية 20) فخفّف الله عنهم". ومعنى ذلك أن السورة نزلت في العهد المكي، حوالي السنة العاشرة من النبوة.

كل هذه المعطيات تسمح بتعديل رتبتي هاتين السورتين، على لائحة ترتيب النزول، بوضعهما في المرحلة التي تناسب مضمونهما وما ورد عنهما من أخبار على لسان الصحابة. وبالتالي فالسورة التي تأتي بعد سورة العلق هي سورة المدثر.

– نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ[1] (المتدثر بثيابه المستلقي على الفراش)، قُمْ فَأَنذِرْ[2] (بلغ ما يوحى إليك)، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ[3] (جاعلا ربك أكبر من كل رب)، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ[4] (مما قد

يكون لصق بها من تراب أو غبار عندما كان يتنقل بين الجبال)، **وَالرُّجْزَ** (القلق والاضطراب)(4) **فَاهْجُرْ**[5]، **ولا تَمْنُن تَسْتَكْثِر**[6] (لا تستكثر ما تعاني منه فتمنن به)، **وَلِرَبِّكَ فاصبِرْ**[7] (وفي سبيل الله فاصبر على ما تلقى من المكاره والمتاعب). **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ**[8] (نفخ في الصور: صيحة القيامة)، **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ**[9]، **عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ**"[10].

بقية السورة :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا(12) وَبَنِينَ شُهُودًا(13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا(14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ 15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا 16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا 17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ 18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20) ثُمَّ نَظَرَ(21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ(29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

4- كنا قد فسرنا "الرُّجز" في التعريف بالقرآن بـ"الأصنام" سيرا مع ما ارتآه معظم المفسرين. أما الآن وقد تتبعنا مضمون هذه الآيات حسب سياق نزولها وترتيبه، فقد اتضح لنا أن معنى "الرجز" في هذه الآية هو نفسه المعنى اللغوي الأصلي، أي" الاضطراب". قال في مقاييس اللغة : "رجز: الراء والجيم والزاي، أصل يدل على اضطراب"، وفي لسان العرب: "والرَّجَز: أن تضطرب رجْل البعير أو فخذاه إذا أراد القيام... ثم أضاف : "قال أبو إسحاق: قرئ والرجْز والرُّجْز، بالكسر والضم، ومعناهما واحد، وهو العمل الذي يُؤدي إلى العذاب". أما الطبري فقد ميز بينهما، فقال: "وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ : اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء الكوفة: «والرجْز» بكسر الراء، وقرأه بعض المكيين والمدنيين: والرُّجْزَ بضم الراء، فمن ضمّ الراء وجهه إلى الأوثان، وقال: معنى الكلام: والأوثان فاهجر عبادتها، واترك خدمتها، ومن كسر الراء وجّهه إلى العذاب، وقال: معناه: والعذاب فاهجر، أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر". قلت: وهذا المعنى يتفق تماما مع ظروف نزول الآية، أعني انقطاع الوحي وما تعرض له الرسول عليه السلام من اضطراب وقلق. هذا من جهة ومن جهة أخرى ذهب المفسرون في معنى قوله تعالى: "وثيابك فطهر" مذاهب شتى، وجلهم مع القول بأن المقصود الطهارة من المعاصي. أي لا تلبس ثيابك على معصية، ثم اختلفوا في "المعصية" (انظر الطبري والقرطبي). أما نحن فنرى أن المعنى الذي يعطيه السياق هو غسل الثياب التي على جسمه كما شرحنا في النص، باعتبار أنه جاء إلى بيته مضطربا من التجربة التي كانت له في الجبال المحيطة بمكة بسبب انقطاع الوحي، التجربة التي ذكرنا بها قبل وفصلنا القول فيها في التعريف بالقرآن. المعطيات السابقة. فقرة 3ب.

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)31) كَلَّا وَالْقَمَرِ32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ56).

- تعليق :

ونعود إلى الآيات العشر الأولى من سورة المدثر التي تنتمي إلى أوائل ما نزل من القرآن. ولا شك أن القارئ قد لاحظ بنفسه الفرق بين مضمونها وأسلوبها وبين مضمون وأسلوب بقية آياتها التي سنعود إلى الكلام عنها لاحقا. وكما سبق أن ذكرنا قبل، هناك من الرواة من يقول إن سورة المدثر كانت أول سورة نزلت، ولكن الاتجاه العام يجعلها بعد سورة العلق.

هناك تأويلات عدة للآيات العشر التي شرحنا تبتعد في نظرنا عن الإطار الذي نزلت فيه. من ذلك أن بعضهم يفسر "المدثر" بمعنى "اللابس لباس النبوة"، وبعضهم يفسر "وثيابك فطهر" بدعوته إلى "تطهير نفسه" الخ-مثل هذه التأويلات تعبر عن اتجاه صاحبها أكثر مما تعبر عن الحقيقة التاريخية. وإنما قلنا إنها لا تعبر عن الحقيقة التاريخية لأنها تبتعد عن الواقع الملموس الذي نزلت فيه، واقع انقطاع الوحي وحزن النبي (ص)، ثم استئنافه. إن عبارة "لباس النبوة" وكذا "طهارة النفس" من العبارات التي لم تكن تنتمي إلى المجال التداولي عند ابتداء نزول الوحي، إنها تعكس معطيات مجال آخر سيظهر فيما بعد مع تيارات التصوف وما أشبه.

لقد استؤنف الوحي لينتقل من "اقرأ باسم ربك" إلى "قم فأنذر"، من الإشعار بالنبوة إلى الأمر بالتبليغ. من مستوى البدء في عرض "العقيدة" إلى مستوى الشروع في "الدعوة" إليها. والمسألة التي يمكن أن تثار هنا هي اقتصار السورة على دعوته (ص) إلى "الإنذار"، بينما تقوم رسالته على التبشير والإنذار معا، وقد وصف الله رسوله بأنه "بشير ونذير" في غير ما آية ؟!

الواقع أن معظم المفسرين قد تجاوزوا هذا السؤال، من الطبري والمفسرين الأوائل الذين نقل عنهم إلى الذين جاءوا من بعده، بمن فيهم الزمخشري والرازي

والقرطبي! أقصد إغفالهم لفت الانتباه إلى أن أول أمر حمله جبريل إلى النبي (ص)، بعد "اقرأ"، هو "الإنذار" (قم فأنذر!). والإنذار هو التخويف والتوعد بالسوء، أو على الأقل التحذير من الوقوع في مكروه. وهو عكس "التبشير". وقد أثار بعض المتأخرين هذه المسألة. ففي تفسير الألوسي: "ولم يقل هنا "وبشر" لأنه كان في ابتداء النبوة، والإنذار هو الغالب إذ ذاك. أو هو اكتفاء بأن الإنذار يلزمه التبشير". أما صاحب "أضواء البيان" فقد لاحظ أن الإنذار "قد يكون للكافرين، كما في قوله تعالى: "وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً" (مريم 97) : تخويفاً لهم، "وقد يكون للمؤمنين، لأنهم المنتفعون به كما في قوله: "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ" (يس-10)، وقد يكون للجميع أي لعامة الناس كما في قوله تعالى: "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءامَنُوٓا" (يونس-2). وأما المنذَر به فهو ما يكون يوم القيامة". ثم أضاف بصدد إنذار "من اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب" : "إن إنذاره صلى الله عليه وسلم محصور في الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة و[قد جاء] هذا الحصر الإضافي لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار كأنه هو والذي لم ينذر سواء، بجامع عدم النفع في كلّ منهما". وهذا التأويل في نظري بعيد، ذلك أن "الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة" لم يكونوا موجودين حين نزول قوله تعالى "يأيها المدثر قم فأنذر"، فلم يكن قد آمن به آنذاك غير زوجته خديجة، وقد نضيف ابن عمه علي، وقد كان طفلا، ومولاه زيد ابن حارثة". وعبارة "الذين يخشون ربهم بالغيب" معناها : المؤمنون الذين لم يطالبوا مقابل إيمانهم بأن يأتيهم الرسول بشيء ملموس يدل على نبوته على غرار معجزات الأنبياء السابقين. ومثل هذا الطلب والرد عليه أو استحضاره لم يكن من المفكر فيه ولا القابل للتفكير فيه أثناء نزول هذه الآيات.

على أن هذا الإشكال لا تطرحه صيغة "الحصر"، بل هو مطروح في آيات أخرى لا حصر فيها مثل قوله تعالى: "وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" (الأنعام-51). وقوله: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي" (النحل-2). والظاهر من هذه الآيات ومن مثيلاتها أن المقصود بـ"الإنذار" هو مجرد الإعلام والتبليغ، وهذا -فيما يبدو- هو المعنى الأصلي للكلمة. ففي لسان العرب "وأنذرَه بالأمر إنذارا ونُذُرا ..: أعلمه". وأيضا: "ويقال: أنذرت القوم سير العدو إليهم فنُذِروا أي أعلمتهم ذلك فعلموا وتحرزوا". ومع أن معنى التخويف والتحذير مفهوم من "الإنذار" كما يشير إلى ذلك صاحب لسان العرب فإن هذا الأخير يؤكد في نهاية شرحه أن "أصل الإنذار : الإعلام. يقال أنذرته، أُنذره، إنذارا، إذا أعملته. فأنا منذر

ونذير، أي معلّم ومخوّف ومحذّر". والحق أن استحضار هذا المعنى، المتدرج من مجرد الإعلام، إلى التخويف والتحذير، هو الذي ترتفع معه الإشكالات التي يمكن أن تثار في هذا الصدد.

وعلى هذا فليس من الضروري أن يفهم هنا لفظ "أنذر" وما اشتق منه على أنه عكس "بشر" وما اشتق منه. ذلك أنه إذا كان "الإنذار" يحيل في بادئ الرأي إلى ما هو شر، بينما يحيل "التبشير" إلى ما هو خير، فقد يحدث أن يستعمل فعل "بَشَّر" للإخبار بما هو شر، مثل قوله تعالى: "إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغَيْرِ حَق وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ أَلِيمٍ" (آل عمران 21)، وقوله : "وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بعَذَابٍ أَلِيمٍ" (التوبة 3)، ونظيره قوله تعالى : "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ" (يس-10).

وبهذا المعنى المزدوج خاطب القرآن النبي (ص) بقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" (الإسراء 105). والحصر هنا يدل على أن مهمته تنحصر في الإعلام والتبليغ، على الأقل في المرحلة المكية. يبقى أن نضيف أن القرآن قد اقتصر في أول الأمر على ربط الدعوة بـ"الإنذار" فقال "قم فأنذر" ولم يقل مثلا: "قم فبشر وأنذر". وما يفسر ذلك في نظرنا هو أن المخاطبين وهم أهل مكة كانوا جميعا في موقع "الإنذار" بوصفهم مشركين يعبدون الأصنام لم يسبق أن جاءهم رسول من قبل ولذلك وصفوا بـ"الأميين". وهذا المعنى قد صرح به القرآن في مرحلة لاحقة كما في قوله تعالى: "لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (القصص-46)، وقوله: "لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" (يس6).

3- سورة المسد:

- تقديـــم

رُتِّبت سورة المسد، في لائحة الترتيب المعتمد، في الرتبة السادسة بعد سورة الفاتحة (الخامسة). وهناك اختلاف كبير بين المفسرين والرواة حول الفاتحة : من ذلك اختلافهم هل هي مكية أم مدنية؟ هناك من قال إن نصفها مكي والنصف الآخر مدني. ومنهم من يرى أنها دعاء وليست جزءا من القرآن، مستندين في ذلك إلى كون عبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوذتين (الفلق، والناس) اعتقادا منه أنهما دعاءان تعوذ بهما النبي (ص)، وأنهما ليستا من القرآن". ولم ترد سورة الفاتحة كذلك في مصحف أبي بن كعب، وهو من كبار كتاب الوحي وكان على رأس اللجنة التي كلفها عثمان بجمع القرآن في مصحف واحد. (انظر ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب في الإتقان للسيوطي). كما لم تدرج في ثلاث لوائح من لوائح ترتيب النزول هي: لائحة البيهقي عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن، ولائحة قال ابن الضريس إنها عن ابن عباس، ولائحة الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" وقد اعتمد فيها على "الثقات" كما قال. ويؤكد بعض العلماء، ومنهم الطبري في تفسيره، أنها نزلت عند فرض الصلاة، فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها باعتبار أن لا صلاة بدون الفاتحة. وقد فرضت الصلاة ليلة الإسراء. وتاريخ هذه الليلة مختلف فيه، بعضهم يجعله في السنة الخامسة للنبوة وجلهم يقول إنه حصل في التاسعة أو العاشرة للنبوة. وفي كلتا الحالتين فالفاتحة لا تنتمي إلى المرحلة التي نحن بصددها هنا الآن. ولابد أنها نزلت بعد سورة الإخلاص وبعد سورة الرحمان -على أقل تقدير- كما سنبين ذلك في حينه.

أما سورة المسد التي نحن بصددها فقد اختلف المفسرون والرواة حول تحديد تاريخ نزولها وسببه: هناك رواية تذكر أن أبا لهب [1] قال للنبي عليه السلام: "ماذا أعطَى يا محمد إن آمنت بك؟ قال: "كمَا يُعْطَى المُسْلِمُونَ"، فقال: مالي عليهم فضل؟ قال: وأيَّ شَيْءٍ تَبْتَغِي؟ قال: "تبا لهذا من دين تبا، أن أكون أنا وهؤلاء (المسلمون وكانوا من الفقراء والموالي والعبيد) سواء! فأنزل الله: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي

1- واسمه: اسمه: عبد العزّى وهو عم النبي (ص).

لَهَبٍ" (الطبري وغيره). وفي رواية أخرى "أن امرأة أبي لهب كانت تلقي الشوك في طريق النبي (ص)، فنزلت "تبت يدا أبي لهب" إلى قوله" "وامرأته حمالة الحطب". ومما يعزز هاتين الروايتين رواية تذكر -إذا صحت- أنه لما نزلت: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ"، قيل لامرأة أبي لهب إن محمدا يهجوكِ، قالت: علام يهجوني؟ هل رأيتموني كما قال محمد أحمل حطبا (كما في السورة: "في جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ")؟ فمكثت، ثم أتته (بعد أن أبطأ الوحي عليه أياما)، فقالت: إن ربك قلاك وودّعك، فأنزل الله: "وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى". ووفقا لهذه الروايات الثلاث تكون هذه السورة قد نزلت في المرحلة التي نتحرك فيها فعلا، وتكون الرتبة الثالثة، في ترتيب النزول، مناسبة لها. ويمكن لقائل أن يقول إن لهجتها الحادة ضد أبي لهب لا تناسب هذه المرحلة، وهذا اعتراض يمكن دفعه بكون الدعوة كانت في ذلك الوقت محدودة وسرية وأن طول المدة الفاصلة بين نزول سورة العلق وسورة المدثر، وهي مدة انقطاع الوحي لمدة يقدرها بعضهم بأزيد من سنتين سادت فيها الاتهامات والسخرية يمكن أن تبرر لهجة هذه السورة. وما يجري على هذه السورة لا يمكن تعميمه على سورتي المزمل والقلم -اللتين أخرنا ترتيبهما- لأن مضمون هاتين السورتين وشكل الخطاب فيهما وحجمهما الخ، كل ذلك يرجح نزولهما في مرحلة لاحقة كما سيتضح بعد.

نعم، يميل معظم المفسرين إلى اعتبار الرواية التي تقول إنه لما خاطب الله تعالى في سورة الشعراء رسوله الكريم قائلا: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، بادر إلى الاستجابة فصعد الصفا ونادى قومه، وخطب فيهم فأخبرهم بأنه رسول الله. وعندما انتهى قال له أبو لهب -وكان من أشد خصوم الإسلام-"تبا لك ألهذا جمعتنا"؟ [2] فنزلت سورة المسد في موضع الرد عليه. أما نحن فنميل إلى مضمون الروايات السابقة، بمعنى أن هذه السورة هي من أوائل السور. أما سورة الشعراء التي تضم الآية السابقة ("وأنذر عشيرتك الأقربين") فهي من السور الطوال التي نزلت في مرحلة متأخرة عن المرحلة التي نتحرك داخلها، وهي مصنفة في لوائح ترتيب النزول في رتبة 47/46. ومن المحتمل جدا أن يكون النبي (ص) قد قرأ سورة المسد ردا على ما قاله أبو لهب، بعد أن كانت قد نزلت من قبل، وليس بمعنى أنها نزلت في تلك اللحظة. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار ق وله تعالى في هذه السورة: "مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" رجحت الرواية الأولى التي ورد فيها أن أبا لهب قد عَيَّر أتباع النبي (ص) بكونهم من الفقراء الخ.

2- سنفصل القول في هذا الموضوع عند شرحنا لسورة الشعراء.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
"تَبَّتْ (خسرت) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ[1]، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ[2]، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ[3]، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ[4]، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ"[5](3).

- تعليق

أبو لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب (عم النبي) هو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن بالاسم من بين خصوم الدعوة المحمدية. كان ذا مال ونفوذ في الوسط المكي، وبالتالي عضوا بارزا في "الملأ من قريش" (كبراء ووجهاء وأغنياء). وهناك آخرون كانوا يؤذون النبي (ص) مثل أبي لهب بالأقوال والأفعال وقد رد القرآن عليهم ولكن دون ذكر أسمائهم، وقد احتفظت لنا كتب السيرة بأسمائهم وبما نزل فيهم من القرآن، وسنشير إلى بعض ذلك في حينه.

ومما يجدر ذكره هنا ما أورده ابن إسحق عن أبي لهب وكان أحد جيران الرسول عليه السلام. قال : كان من بين "النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته : أبو لهب، والحكم بن العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي؛ وكانوا جيرانه، لم يُسْلِم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص: فكان أحدهم يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمته (قِدْر من حجر) إذا نُصبت له، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرا يستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ... يخرج به (ص) على العود، فيقف به (بالعود وعليه الأذى) على بابه، ثم يقول : يا بني عبد مناف، أي جوار هذا! ثم يُلقيه في الطريق".

على أن أبا لهب كان رغم عداوته الشديدة للرسول (ص) يراعي القرابة التي تربطه به، فهو عمه، وكان أبو طالب أخوه هو الذي يجير النبي ويحميه. وهكذا فعندما توفي أبو طالب في السنة العاشرة للنبوة شددت قريش أذاها على الرسول

3- اختلفوا في معنى "حمالة الحطب" فقال بعضهم: "كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليدخل في قدمه إذا خرج إلى الصلاة". وقال آخرون: "قيل لها ذلك: لأنها كانت تحطب الكلام، وتمشي بالنميمة، وتعير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر" الخ. هذا والسورة كاملة، ليس لها بقية.

عليه السلام حتى إنه يروى عنه أنه كان يقول: "ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه ــ أي أشد الكراهة ــ حتى مات أبو طالب"، وأنه عليه السلام قال مستذكرا أبا طالب لما رأى قريشاً تهجموا عليه ذلك الهجوم، قائلا : "يا عم ما أسرع ما وجدتُ فَقدَك". ويضيف ابن إسحق : "ولما بلغ أبا لهب ذلك، قام بنصرته أياماً وقال له: "يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه. لا، واللات والعزى، لا يوصَل إليك حتى أموت". غير أن هذا الوعد لم يدم طويلا. ذلك أنه بمجرد ما علمت قريش به حتى سارع رجالها إلى أبي لهب وقالوا له : "أفارقت دين عبد المطلب؟ (أبوه) فقال: "ما فارقت دين عبد المطلب، ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم؟ ويضيف ابن إسحاق: "فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياماً لا يتعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء أبو جهل (ألد خصوم الرسول وهو من بني مخزوم منافسي عشيرة النبي) وعقبة بن أبي معيط إلى أبي لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك (عبد المطلب؟ يعني: هل هو في الجنة أم في النار)، فلما سأل الرسول قائلا: "يا محمد أيدخل عبد المطلب النار" ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم! ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار". فقال أبو لهب: لا برحت لك عدواً (لا أرد عنك أذى) وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار". فاشتد عليه هو وسائر قريش.

4- سورة التكوير

- تقديـــم

صنفت هذه السورة في لوائح ترتيب النزول في الرتبة السابعة، أي بعد العلق والمدثر، ثم القلم والمزمل والفاتحة والمسد. وقد تحدثنا عن القلم والمزمل والفاتحة ودواعي تأخير رتبتها. أما هذه السورة، أعني سورة التكوير، فلم يرد عنها ما يشير إلى مناسبة نزولها ولا إلى أي خلاف حول رتبتها. كل ما ذكرته مصادرنا لا يتعدى رواية تقول: "لما نزل قوله تعالى في هذه السورة : "لمن شاء منكم أن يستقيم"، قال أبو جهل بعدها: "ذاك إلينا، إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم"، فأنزل الله "وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين". وهذا نموذج من نماذج كثيرة من روايات "أسباب النزول"، حيث تقتطع آية واحدة، وأحيانا جزء من آية، ليؤتى لها بسبب نزول يخصها بمفردها من غير اعتبار لما قبلها وما بعدها، ولا للسياق الذي تنتمي إليه. والحق أن النموذج الذي بين أيدينا هنا أخف من نماذج كثيرة، لأنه يتعلق بآخر آية من السورة. الشيء الذي يسمح بافتراض أن السورة كانت قد ختمت أصلا بقوله تعالى: "لمن شاء منكم أن يستقيم". ثم كان تعليق أبي جهل، ثم جاء الرد عليه. ولو فرضنا أن أبا جهل لم يتدخل لكانت السورة قد ختمت بهذه الآية. أعني قوله تعالى : "لمن شاء منكم أن يستقيم". لكن هذا لا يغير من الأمر شيئا، فقد وردت آيات بهذا المعنى، أي دون استدراك، مثل قوله تعالى: "نَذِيرًا لِلْبَشَرِ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ" (المدثر 36-37) وقوله : "كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ" (عبس 11-12)، وقوله : "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف 29). كما وردت آيات أخرى مصحوبة باستدراك مماثل للسابق كقوله تعالى: "كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ" (المدثر 56). وإذن فإقحام رواية تدخل أبي جهل هنا فضل وزيادة. ونحن إنما أثرناها هنا لأننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية وضعت تحت تأثير الخلاف الحاد الذي نشب بين المعتزلة من جهة وأهل السنة والأشاعرة من جهة أخرى حول مسألة الجبر والاختيار. أما هذه المسألة بذاتها فهي تتطلب قولا مفصلا سيأتي في حينه.

- نص السورة

1- إذا الشمس كورت ... علمت نفس ما أحضرت.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ[1] (أظلمت)، **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**[2] (تناثرت)، **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**[3] (وقعت على الأرض)، **وَإِذَا الْعِشَارُ** (الإبل) **عُطِّلَتْ**[4] (أهملت)، **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**[5] (جُمعت واختلطت)، **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**[6] (فُجِّرت وفاضت)، **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**[7] (مع أجسادها من جديد حين البعث)، **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ** (المدفونة حية) **سُئِلَتْ**[8] (قرئ سألت)، **بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**[9]، **وَإِذَا الصُّحُفُ** (سِجِلّ أعمال الناس) **نُشِرَتْ**[10]، **وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ**[11] (طويت)، **وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ**[12] (أحميت)، **وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ**[13] (قُرِّبت)، **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**"[14] (ما عملته في دنيا من خير أو شر وما سيكون مصيرها: الجنة أم النار. وهذا جواب القسم)

2- إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ[15] (النجوم)، **الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**[16] (تجري في مداراتها فتكنس–تختفي–في النهار وتظهر في الليل)، **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**[17] (أدبر)، **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**[18] (أقبل)، **إِنَّهُ** (أي القرآن) **لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**[19] (هو جبريل، وهذا جواب القسم)، **ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ** (الله) **مَكِينٍ**[20]، **مُطَاعٍ ثَمَّ** (في السماء: تطيعه الملائكة) **أَمِينٍ**[21] (على وحي الله). **وَمَا صَاحِبُكُمْ** (محمد) **بِمَجْنُونٍ**[22]، **وَلَقَدْ رَآهُ** (رأى جبريل) **بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**[23]، **وَمَا هُوَ** (جبريل) **عَلَى الْغَيْبِ** (الوحي الذي كلف بتبليغه إلى محمد) **بِضَنِينٍ**[24] (ببخيل به عليه)، **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**[25] (مطرود من السماء فلا يستطيع استراق السمع)، **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**[26] (بتكذيبكم هذا الوحي)؟ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**[27] : **لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**[28]، **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**"[29].

- تعليق

في هذه السورة قَسَمان كما هو واضح: الأول قسَم بالظواهر الكارثية التي تدل على قيام القيامة –وتسمى أشراط الساعة– وجوابه "علمت نفس ما أحضرت" أي

أن كل نفس ستحاسب على ما جاءت به في سجل حسناتها وسيئاتها، والمقصود إثبات البعث والحساب. أما القسَم الثاني –والمُقسَم به هنا هو النجوم التي تجري في مداراتها، وما ينشأ عن ذلك من تعاقب الليل والنهار– وجواب القسَم هو أن محمدا (ص) ليس بمجنون وأن القرآن ليس من تأثير الجن بل هو من عند الله : ذكرٌ للعالمين يُـريهم طريق الرشاد والاستقامة.

والجمع بين القسمين في هذه السورة يشير إلى أن الإفلات من العقاب والجحيم الذي أكده القسَم الأول ممكن بسلوك الطريق المستقيم الذي هو التصديق بنبوة محمد والإيمان بما جاء في القرآن الذي يوحيه الله إليه بواسطة جبريل. أما مسألة القسَم في القرآن فسنتناولها لاحقا في تعليق خاص.

وإذا نحن ألقينا الآن نظرة إجمالية إلى الآيات السابقة من سورتي العلق والمدثر، فإننا سنتبين فيها بسهولة أنها أفصحت –مع ابتداء نبوة محمد عليه السلام– عن ركنين أساسيين من أركان العقيدة الإسلامية هما : الرب الخالق المعلم، والرسول الأمين المبلغ عنه (مع الردّ على المكذبين)، وهو ما عبرنا عنه في عنوان هذه المرحلة بـ"النبوة والربوبية". أما السورة الحالية (التكوير) فتشكل نوعا من الجسر بين السورتين السابقتين والسور الثلاث التالية لها (الأعلى، والليل، والفجر) من حيث إنها طرحت، من خلال القسَم الذي استعملته في القِسْم الأول منها، مسألة البعث (والحساب والجزاء: الجنة أو النار)، وهو ركن آخر في العقيدة الإسلامية يطلق عليه في اصطلاح المتكلمين اسم "المعاد".

هناك مسألة أخرى يجب التنبيه إليها وردت في القِسْم الثاني من السورة التي نحن ضيوف عليها، هي مسألة "الرؤية" في قوله تعالى : وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ"! فعلى من يعود الضمير هنا؟ وبعبارة أخرى: من رأى الرسول بالأفق المبين؟ هل جبريل أم الله؟ وكيف كانت هذه الرؤية : هل هي رؤية بصرية أم رؤيا منامية؟ لقد رجحنا في النص أن يكون الضمير يعود على جبريل. أما نوع الرؤية فسنعرض له لاحقا.

5- سورة الأعلى

- تقديـــم

لم يرد حول هذه السورة وظروف نزولها ما يستحق الذكر، ولذلك سننتقل مباشرة إلى محتواها. في هذه السورة ثلاثة أقسام:

قسم ينتمي إلى محور "الربوبية" يتوجه فيه الخطاب إلى النبي عليه السلام، يطلب منه أن يعظم ربه الذي خلق الأشياء وقدر نظامها، وأرشد إلى طرق الاستقامة وجعل لكل شيء نهاية.

وقسم ينتمي إلى محور "النبوة" وفيه يطمئنه ربه بأنه سيقرئه القرآن فلا ينسى منه إلا ما شاء الله، وأنه سيهديه للسبيل الأسهل لتبليغ رسالته، وأن عليه أن يذكر الناس بعظمة ربه ويبلغهم رسالاته.

أما القسم الثالث فينتمي إلى محور "المعاد" وفيه بيان أن الناس إزاء النبوة سيكونون فريقين: فريق يخشى فيؤمن فيذكر اسم ربه ويدعوه، ومصيره الحياة الهينة الدائمة: الجنة. وفريق يكفر فيشقى، ومصيره نار جهنم. أما مشركو مكة فهم يفضلون الحياة الدنيا بينما الآخرة خير ولا تفنى. وهذا قد جاءت به الرسل من قبل وموجود في صحف إبراهيم وموسى.

وهكذا يتبين أن الغرض الذي تريد السورة تأكيده هو وقوع البعث والحساب، ثم المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار. إذن ها هنا انتقال، دون انفصال أو انقطاع، من النبوة إلى الربوبية إلى المعاد. وسنلاحظ في كثير من السور هذا النوع من المزاوجة بين هذه المحاور الثلاثة، وغالبا ما يستعمل القرآن المماثلة في البرهان عليها، كما في الفقرة الأولى من السورة، التي ربطت بين "خلق فسوى"، و"قدر فهدى"، و"أخرج المرعى" "فجعله غثاء أحوى" (يابسا، ميتا، ثم يؤتي بالمطر فيخرجه مرعى ثانية: البعث بعد الموت) [1].

1- وهذا وفق السلسلة التي تتكرر في القرآن والتي تستعمل في العادة الاستدلال بالشاهد على الغائب لإثبات التوحيد وتنتهي صراحة أو ضمنا بالاستدلال عن طريق المماثلة على البعث والقيامة: المعاد. وسنشرح هذين المنهجين لاحقا

- نص السورة

1- خلق فسوى.. قدر فهدى. أخرج المرعى أخضر، ثم جعله يابسا!

بسم الله الرحمن الرحيم

"سَبِّحِ (عظم ونزِّه) اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى[1] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى[2] (خلق الأشياء فسوّى خلقها)، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى[3] (قدر نظام الأشياء وبين سبيل الخير وسبيل الشر)، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى[4] (أخضر)، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى[5] (يابسا أسود).

2- سنقرئك فلا تنسى ... فذكِّر إن نفعت الذكرى...

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى[6] إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى[7]؛ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى[8] (لما هو أسهل) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى[9]. سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى[10]، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى[11] الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى[12] (الذي مصيره جهنم)، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا[13] (لا هو حي ولا هو ميت).

3- قد أفلح من تزكى ... والآخرة خير وأبقى!

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى[14] (اتبع الطريق المستقيم)، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى[15] (وحّد الله ودعاه، وأنتم أيها المشركون لا تتزكون) بَلْ تُؤْثِرُونَ (تفضلون) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[16]، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[17]. إِنَّ هَذَا (الذي ذكرنا حول مصير من يتزكى ومن لا يتزكى) لَفِي الصُّحُفِ (الكتب السماوية) الْأُولَى[18]، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى[19] (لم يذكر عيسى لأنه لم يكن له كتاب).

- تعليق

فلا تنسى!

إن أكثر ما اختلف حوله المفسرون، في معاني آيات هذه السورة، هو قوله تعالى: "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ". والمسألة تدور كلها حول نفي النسيان عن الرسول في التبليغ. بمعنى أن النسيان مطلقا ليس مما يدخل في عصمة الأنبياء (عند كثيرين من أهل السنة بخلاف الشيعة الذين يقول بعصمة الأنبياء والأئمة مطلقا : أئمتهم). أما أهل السنة فيجوزون أن تنسى الرسل في حدود أقل ما ينسب إلى البشر من النسيان. ولكن لا يمكن أن ينسب إليهم النسيان فيما كلفوا بتبليغه عن الله.

وعلى هذا الأساس اختلفوا في تفسير الآية المذكورة. ومركز الاختلاف هو قوله تعالى "إلا ما شاء الله". منهم من قال إن الرسول لا ينسى (من القرآن) "إلا ما شاء الله أن ينسى، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك"، ويروُون، لتأييد قولهم هذا خبرا يفيد أن الرسول قد ينسى ولكنه يتذكر ما ينسى فلا يكون نسيانه مطلقا. ومن هذا القبيل ما ذكر من أن النبي (ص) "أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحَسِبَ أُبَيُّ (جامع القرآن) أنها نسخت، فسأله، فقال: نسيتها". ومنهم من قال : إن الرسول لا ينسى "إلا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإنساء ههنا نسخه"، كما قال تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا" (البقرة 106)، فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به، فيصير ذلك سبباً لنسيانه، وزواله عن الصدور". ومنهم من ارتأى: أن يكون معنى قوله "إلاّ مَا شاء اللّهُ": القلة والندرة، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع، بل من الآداب والسنن، فإنه لو نسي شيئاً من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وإنه غير جائز". وهناك من خرج عن هذا النطاق فقال إن "معنى النسيان في هذا الموضع: الترك وقالوا: معنى الكلام: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه، إلاّ ما شاء الله أن تترك العمل به، مما ننسخه". أما الطبري الذي أورد كثيرا من الأقوال في الموضوع فيقول: "والقول الذي هو أولى بالصواب عندي، قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلاّ أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه"، ويضيف: "وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك أظهر معانيه".

أما نحن فقد نؤيد الطبري في قوله "ذلك أظهر معانيه". ولكننا نرى أن هناك حاجة إلى التدقيق في النص. فمن جهة، قوله تعالى : "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى"، غير ظاهر منه أن المفعول الثاني لـ "سنقرئك" هو القرآن. إن اللفظ الذي يستعمله القرآن بكثرة في هذا المجال هو الوحي: "أوحينا إليك". وعلى كل حال فالضمير في "سنقرئك" لا يعود بالضرورة على القرآن، ولا على شيء معين من أمور الشرع، فالباب مفتوح: فما قبل هذا القول (أي القسم الأول من السورة) يتعلق بـ "المعاد" كما أشرنا إلى ذلك في الشرح، أما ما بعده، أعني قوله : "إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" فمعناه أن الله يعلم ما تذكره ولم تنسه (أي ما تجهر به منه) كما يعلم "ما يَخفى"، أي ما لم تجهر به لنسيانك إياه. ويأتي قوله تعالى" وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" كإشارة إلى أن النسيان، وعدم النسيان، كلاهما يمكن أن يكون وسيلة للتيسير، حسب مقتضى الأحوال.

ما نريد تأكيده هنا هو ضرورة التفكير في آي الذكر الحكيم بعيدا عن الأفكار المسبقة، مثل فكرة العصمة التي اكتست طابعا مذهبيا سياسيا في الفكر الإسلامي :

لأهل السنة رأي، وللمعتزلة رأي، وللشيعة رأي وهكذا. والغالب ما يقول صاحب المذهب برأي في مسألة من المسائل، ليس لأنه عنصر في أصل مذهبه، بل لكون هذا الرأي يدفع به احتمال أن يؤيد به رأي خصمه.

يبقى القسم الثالث من السورة وهو نوع من التكملة والشرح للقسم الثاني على صعيد المضمون. لقد طلب تعالى من نبيه الكريم في القسم الثاني من السورة أن يُذكر بالقرآن وأخبره أن الناس سيكونون فريقين إزاءه: فريق سيُقبل على القرآن و"يخشى" به، ولكن لم يبين جزاءه، وفريق سيعرض عنه وسيشقى وقد بين مصيره وهو جهنم التي "لا يموت فيها ولا يحيى". ويأتي القسم الثالث من السورة ليبين مصير الفريق الأول الذي يقبل على القرآن و"تزكى"، أي اتبع الطريق المستقيم وذكر اسم ربه وصلى.

لنختم إذن بما ختمت به السورة، وهو أن الناس (والخطاب إلى قريش) يفضلون الحياة الدنيا على الأخرى مع أن هذه خير وأبقى، كما أوضحت ذلك "الصحف الأولى" أي الكتب السماوية منذ إبراهيم موسى. وهكذا تختم السورة بالتذكير بـ "المعاد" بعد أن بدأت بالنبوة والربوبية. وتلك هي الأركان الرئيسية في العقيدة المحمدية.

6- سورة الليل

- تقديـــم

رتبت هذه السورة، في لوائح ترتيب النزول، مباشرة بعد السورة السابقة (الأعلى)، وكذلك الشأن في السور التالية، التي سنتناولها حسب رتبها في لائحة ترتيب النزول المعتمد[1]، وإذا كان هناك تعديل فسنشير إليه في حينه.

تبدأ السورة بالقسَم بظاهرة الاختلاف في الكون: فقد خلق الله الليل بظلامه، والنهار بنوره، كما خلق بني آدم نوعين: الذكور والإناث. وهذا الاختلاف الذي يعم ظواهر الكون وأنواع المخلوقات يتبدى أيضا في سلوك الإنسان وأعماله. فمنها أعمال تستهدف الخير وأخرى تستهدف شيئا آخر. ومن هنا كان ما سيكون عليه الإنسان في الآخرة متوقفا على نوع سعيه وعمله، وبالتالي يكون هناك نوعان من الجزاء : الثواب (الجنة)، والعقاب (النار).

ووفق هذا المنظور الذي تُرى الأشياء من خلاله "أزواجا" ينقسم الناس إلى أغنياء وفقراء. وكما أنه ليس ثمة انقطاع بين الليل وظلامِهِ والنهار وضيائه فكذلك يجب أن لا يكون هناك انقطاع بين الفقراء والأغنياء، والعلاقة بينهما يجب تكون علاقة بذل وعطاء. ومن هنا كان السبيل المؤدي، في الدنيا، إلى الحياة الهينة في الآخرة هو البذل للفقراء والمحتاجين، أي جعل الحياة هينة عليهم، والتصديق بأن وعد الله للمحسنين وعد سيتحقق. أما البخل وإهمال الفقراء والانصراف إلى طلب الغنى وعدم التصديق بوعد الله فذلك طريق الشقاوة، الطريق إلى النار.

1- "الترتيب المعتمد" هو الترتيب المعمول به في الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية السنية. وهو المنقول عن أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي. وهو لا يختلف عن لائحة الجعبري ولائحة ابن الضريس ولائحة البيهقي ولائحة الزركشي إلا في ترتيب سور محدودة، ولا يرقى الاختلاف إلى أكثر من رتبة أو رتبتين. ويبدو أن مصدر جميع هذه اللوائح هي "دائرة ابن عباس"، أعني المحيطين به والآخذين منه. وكيفما كان الحال فترتيب سور القرآن مسألة اجتهاد. وإذا كان ترتيب المصحف قد تم على يد الصحابة زمن عثمان فصار نهائيا فإن ترتيب النزول بقي مفتوحا.

– نص السورة

1- إن سعيكم لشتى ... وكذلك المصير!

بسم الله الرحمن الرحيم

"**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**[1] (يغطي الأفق بظلمته)، **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**[2] (طلع وأضاء)، **وَمَا خَلَقَ** (الله من) **الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**[3]، **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**[4] (جواب القسم : عملكم ليس واحدا: هناك عمل المؤمن، وهناك عمل الكافر).

2- من أعطى من ماله ... ومن بخل واستغنى.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى (من ماله) **وَاتَّقَى**[5]، (ولم يعتد ولم يظلم)، **وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى**[6] (لم يكذب بوعد الله الحسن)، **فَسَنُيَسِّرُهُ** (نهيئه) **لِلْيُسْرَى**[7] (للمصير الأسهل). **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ** (بماله) **وَاسْتَغْنَى**[8] (استقل به واكتفى)، **وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى**[9] (بوعد الله الحسن)، **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**[10] (للمصير الأصعب). **وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**[11] (مات وكان مصيره جهنم).

3- النار للأشقى ... وسيتجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى[12] (الإرشاد إلى طريق الخير) **وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى**[13] (الدنيا)، **فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى**[14] (تتوهج)، **لَا يَصْلَاهَا** (يحترق بها) **إِلَّا الْأَشْقَى**[15] **الَّذِي كَذَّبَ** (بالقرآن) **وَتَوَلَّى**[16] (أعرض عن العطاء). **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى**[(17)] (الذي يعمل بما يأمر به الله) **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**[18] (يتصدق من ماله، فيتطهر من ذنوبه). **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى**[19] (وهو يفعل ذلك ليس ردا لجميل أُسْدِيَ إليه من أحد)، **إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى**[20] (بل إنما يفعله طلبا لمرضاة الله)، **وَلَسَوْفَ يَرْضَى**[21] (وسوف ينالها).

– تعليق

نحن هنا، في هذه السورة، أمام خطاب واضح مباشر حول البعث والحساب (المعاد). وهي تشبه في تركيبها ونظمها سورة التكوير (أعلاه) : أولا من حيث إنها تؤسس لخطاب القرآن حول مسألة المعاد، وثانيا من حيث إنها تتناول –وهذا لأول

مرة- محورا آخر جديدا، يتعلق هذه المرة بالمسألة الاجتماعية : الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

لقد بدأت سورة التكوير بذكر الظواهر الكارثية التي تحدث عند قيام القيامة لتنتقل بعد ذلك إلى طرح مسألة الحساب والجزاء، ثم إلى محور النبوة الذي تنتظم حوله هذه المجموعة من السور القصيرة، لتؤكد على صحة نبوة محمد عليه السلام، من خلال بيان علاقته بالملاك جبريل الذي ينقل إليه الوحي.

أما هذه السورة (الليل) فتنتقل من القسَم بتعاقب بعض الظواهر الطبيعية، عبر أنماط من الحركة، مختلفة متنوعة، إلى ربطها بنمط آخر من الحركة هو أفعال الإنسان، لا من حيث هي مجرد حركة بل من حيث هي أعمال هادفة يترتب عنها جزاء عند المعاد. وهذه الأعمال المنوه بها هنا ليست من قبيل العبادات الموجهة إلى الله، بل هي فعل اجتماعي موجه إلى التخفيف من الفقر والحرمان اللذين يعاني منهما كثير من الناس في معاشهم. وهكذا يمكن أن نسجل أن أول عبادة يقررها القرآن هي "التزكي"، أي التطهر بأداء مسؤولية الأمانة التي جعلها الله في عنق الإنسان، مسؤولية الغنى والثروة، وذلك بالبذل والعطاء للفقراء والمحتاجين.

7- سورة الفجر

- تقديـــم

تتألف هذه السورة من أربع فقرات تشكل سياقا واحدا، توظف فيه ثلاثة عناصر أساسية، من العناصر التي يعتمدها الخطاب القرآني في البيان والإقناع:

1) التنبيه إلى نظام الكون وأنه من الإتقان والاطراد بحيث يرتفع إلى الدرجة التي تجعل صاحب العقل المستنير يراه أهلا لأن يقسم به. والقسَم يكون بالأمور العظيمة كما هو معروف.

2) التذكير بالعقاب الذي نزل باطراد كذلك على الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، والذين طغوا وأكثروا من الفساد، وكيف أن الله كان لهم بالمرصاد.

3) التنبيه إلى سلوك الملأ من قريش -الذين كان الواحد منهم إذا ما اختبره ربه بالغنى والثروة فرح وقال "ربي أكرمني"، وأما إذا اختبره بالفقر والحاجة فهو يشتكي ويقول : "ربي أهانني". وترد السورة بأن هذه الإهانة في الدنيا لا تأتيهم بدون سبب، بل هي جزاء لهم على بخلهم على الفقراء والمساكين وأكلهم أموال اليتامى وانشغالهم التام بجمع المال.

4) هذا في الدنيا، أما عندما تقوم القيامة ويحين وقت الحساب ويؤتى بجهنم لتستقبل أصحابها فحينئذ يستولي الندم على أولئك الذين غلب عليهم حب المال فيتذكرون الشره الذي تصرفوا به في الدنيا، ويتمنون لو أنهم قدَّموا في حياتهم ما ينفعهم في آخرتهم حيث لا ينوب أحد عن أحد في الحساب. أما الذين لم يستسلموا لشهوة المال ولم يتوانوا في فعل الخيرات فستأتي نفوسهم مطمئنة راضية بالثواب مرضية عند ربها، فتنضم إلى الذين وعدهم الله بالجنة، وتصير من أهلها.

- نص السورة:

1- قسم لذي حجر...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ[1]، وَلَيَالٍ عَشْرٍ[2]، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ[3]، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ[4] (إذا ذهب)، هَلْ (إن) فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ[5] (لصاحب عقل: جواب القسم).

2- أقوام كذبوا رسلهم فأهلكوا...

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ[6] (قوم النبي هود سكان مدينة) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ[7]، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ (لم ينشأ) مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ[8] (العربية)، وَثَمُودَ (قوم النبي صالح) الَّذِينَ جَابُوا (قطعوا) الصَّخْرَ بِالْوَادِ[9] (وادي القرى، وصنعوا منها قصورهم)، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[10] (فرعون وأركان جيشه وكبراء دولته) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ[11]، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ[12]، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ[13] (عذاب السوط)، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ[14].

3- جشع الإنسان : أكل مال اليتيم وعدم الاهتمام بالفقراء...

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ (قريش) [(1)] إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ[15]. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ[16]! كَلَّا! بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ[17]، وَلَا تَحَاضُّونَ (لا يحض بعضكم بعضا) عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ[18]، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ (ميراث اليتامى) أَكْلًا لَمًّا[19] (تلمونه لا تتركون لهم منه شيئا)، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا"[20].

4- البعث والحساب: الجنة أو النار

كَلَّا! إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[21]، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[22]، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى[23]! يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي[24] (ما ينفعني في آخرتي)؛ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ[25]، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ"[26]. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ[27] (التي لم تأكل مال الغير...): ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً[28] ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي[29] (المرضيين) وَادْخُلِي جَنَّتِي"[30].

- تعليق

الأشياء الخمسة المقسم بها هنا لابد أن تكون معروفة عند العرب قبل الإسلام. بعض المفسرين يقولون إن المقصود بها هو ما يجري فيها من مناسك الحج، وهذا لا يصح – من الناحية المبدئية- إلا إذا كانت هذه المناسك متطابقة مع ما

---

1 – ذلك ما يعطيه السياق على سبيل العموم. وروي أن المقصود أشخاص من قريش ذكروا أسماءهم. وعندما يذكر الإنسان في مثل هذا السياق فالمراد به في الغالب خصوم الدعوة المحمدية.

كان العرب يفعلونه قبل الإسلام. وجواب القسم هو : إن هذه المناسك -المفروض أنها موروثة من زمن إبراهيم عليه السلام- تستحق في نظر العاقل العارف بأصلها ومصدرها أن يقسم بها قسما عظيما. هذا التفسير كان سيكون مقبولا لو أن السورة نزلت بعد أن فرضت فريضة الحج بمضامينها الإسلامية. ولكن هذا غير وارد. وإنما ذهب المفسرون إلى هذا المنحى في التفسير لأنهم يتبعون ترتيب المصحف فيبدؤون بالبقرة متتبعين القرآن المدني ليعودوا بعد ذلك القهقرى مع القرآن المكي من أواخر ما نزل منه إلى أوائله. والسورة التي نحن بصددها من الأوائل. ولكنها عندما يأتي دورها في التفسير ضمن الأواخر فهي تفسر على ضوء ما مضى، ومنها تُفهم مناسك الحج كما أقرها القرآن والسنة. وهذا النوع من القلب يطال كتب التفسير كلها، أعني أن عملية التفسير تتعامل مع القرآن مقلوبا. نعم ينتبه المفسر من حين لآخر إلى زمن نزول الآية، ولكن ذلك لا يحصل -في الغالب- إلا عندما يتعلق الأمر بآيات الأحكام؟ من أجل ما تقدم، وبسببه، لا نرى في تفسير الموضوعات الخمسة المقسم بها ما يبرر القسم بها، خصوصا ومناسك الحج في الجاهلية كانت مناسك وثنية قد اختلطت مع عبادة الأصنام، وبالتالي لم تكن قد اكتست بعد ما أضفاه عليها القرآن من خلقية إسلامية. ولذلك نرى أن الأنسب هو القول إن المقصود بالأشياء المقسم بها هو تعاقبها كظواهر طبيعية تدل على خالقها وعلى بديع صنعه : تعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشفع والوتر، وتعاقب "الليالي العشر" (المفترض أنها معروفة عند العرب). وهذا التعاقب يستحق أن يكون قسما عظيما، لأنه قانون يجري في الكون كما يجري في التاريخ : بيان ذلك تقرير السورة لما فعل الله بأقوام تعاقبت، كذّبت رسلها وطغت : عاد، ثمود، فرعون... لقد كان الله لهم بالمرصاد، يراقبهم فعاقبهم بأن سلط عليهم سوط العذاب، كما في السورة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تأتي سورة الفجر هذه لتؤكد ما قررته السورة السابقة، من طريق آخر سيعرض هنا لأول مرة. لقد كان بيان القرآن معتمدا حتى الآن على التنبيه إلى الدرس الذي يجب استخلاصه من انتظام الظواهر الكونية كالشمس والنجوم والظلام والفجر، وتعاقب الليل والنهار الخ، لإقناع قريش بصدق نبوة محمد (ص) وبالبعث والجزاء. أما هنا فنحن أمام نوع آخر من البيان القرآني، نصادفه لأول مرة، هو الدعوة إلى استخلاص العبرة مما جرى للأقوام الماضية الذين كذّبوا رسلهم واشتغلوا ببناء القصور ومارسوا الطغيان، وكانوا أكثر قوة من قريش كما يدل على ذلك ما بقي من آثارهم التي يعرفها تجار قريش معرفة جيدة لأنهم يمرون عليها في أسفارهم، ويتوارثون أخبارهم وقصصهم. وأخيرا لابد من الإشارة إلى أن هذه السورة ترتبط بالسورة السابقة، وبصورة مباشرة، بطرحها للمسألة

14- سورة الماعون

- تقديـــم

وهاهنا نص قرآني آخر اختلف المفسرون في شرحه لوجود مسافة بين مبناه ومعناه يعمرها ما تراكم في ذهن المفسر من تصورات تستمد وجودها ومفعولها من مراحل متأخرة عن زمن النص. إن الأمر يتعلق بقراءة نص بما لم يكن قد تقرر بعد. ومع أن جل المفسرين ينتبهون، وينبهون، إلى ضرورة الاستعانة بـ "أسباب النزول" إلا أن ميلهم إلى ربط كل آية بسبب نزول خاص، حتى ولو كانت هذه الآية مرتبطة بما قبلها مندرجة تحت سبب نزوله، قد أوقع الكثيرين منهم تحت طائلة النظرة التجزيئية، التي كثيرا ما تؤدي إلى مآزق يصعب الخروج منها، كما هو الحال في تعاملهم مع السورة التالية.

- نص السورة

1- الذين يظلمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ[1] (هل عرفت يا محمد الذي يكذب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه) ؟ **فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**[2] (إنه الذي يظلم اليتيم ويقهره)، **وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**[3] (ولا يحث على إطعام المحتاج إلى الطعام).

2- ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون...

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ[4]، **الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**[5]، **الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ**[6]، **وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**[7].

– تعليق

يذهب معظم المفسرين إلى أن المقصود في هذه السورة، خصوصا منها القسم رقم 2، هم المنافقون : فهم "الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ"، أي لا يحافظون على أوقات الصلاة بل يتشاغلون عنها، وإذا صلوا فعلوا ذلك بصورة تلفت انتباه الناس لهم ليروهم يصلون: "الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ". وإذا جاءهم فقير أو مسكين يطلب الصدقة، أو محتاج يطلب إناء أو آلة للانتفاع بها، يمتنعون عن تلبية طلبه: "وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ". هؤلاء يَعِدُهم القرآن بـــ "الويل" وهو واد في جهنم.

وواضح أن هذا التأويل لا يستقيم إلا بافتراض أن هذه السورة نزلت في المدينة، لأن الأوصاف المذكورة هي أوصاف المنافقين، "فهم الذين جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال". غير أن ظاهرة "المنافقين" لم تبرز إلا في المدينة وهذه السورة مكية بامتياز: إن أسلوبها وموقعها في لوائح ترتيب النزول (تقع ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة)، يجعلانها تنتمي إلى المرحلة التي نحن بصددها، خصوصا وهي ترتبط بنفس السياق الذي يجمع السور السابقة بانتمائها، على مستوى الموضوع والأسلوب، إلى المسألة الاجتماعية كما طرحت لحد الآن (اليتيم، المسكين).

وبما أن قوله تعالى: "فويل للمصلين" لا يمكن أن يكون المقصود به –في نظر بعضهم– هم المؤمنون، قالوا إن القسم الأول من السورة (أرأيت الذي يكذب بالدين الخ) نزل بمكة والقسم الثاني (ويل للمصلين الخ...) نزل في المنافقين بالمدينة. وبالتالي خصوا كلا من القسمين بسبب نزول: قالوا عن القسم الأول: "كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصا فأنزل الله تعالى "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ". وقالوا عن آيات القسم الثاني إنها "في المنافقين أشبه، وبهم أَخْلَق" الخ. هذا بينما ذهب بعضهم إلى تفسير "الماعون" بفريضة الزكاة! (انظر: الطبري، القرطبي...).

أما نحن فنرى أن السورة كيان واحد لا يمكن الفصل فيه بين ما بعد قوله "فويل للمصلين" وبين ما قبله، وذلك لوجود فاء العطف التي تفيد الترتيب والتعقيب والمشاركة، كما تفيد علاقة السببية بين السابق واللاحق، بين المعطوف والمعطوف عليه، مثل "رمى الصياد الطائر فقتله". هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا شيء في السورة يصرف معنى الصلاة إلى المعنى الاصطلاحي الشرعي، خصوصا والصلاة والزكاة لم تكونا معروفتين بهذا المعنى الشرعي في المرحلة التي نزلت فيها هذه السورة. كل ذلك يحملنا على اعتبار المعنى اللغوي وحده، أعني الزكاة بمعنى

الصدقة. أما الصلاة فيمكن أن يكون المقصود بها في السورة هو الدعاء أو العبادة على العموم أو الصلاة كما مورست في العهد المكي (مرتان في اليوم)، وبالتالي يكون قوله تعالى "فويل للمصلين" عبارة عن وعيد للمتعبدين الذين هم عن "عبادتهم" ساهون أي غافلون. والغفلة هنا لا تعني عدم أدائها في وقتها فحسب، بل تعني، بالأولى والأحرى، عدم مراعاة المضامين الاجتماعية في العبادة التي من بينها الرأفة باليتيم والحض على طعام المسكين والتواضع وعدم المراءاة وابتغاء ما ينفع الناس الخ. هذا مع العلم أن "الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" ("اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (العنكبوت 45)، وبالتالي فـ"الذين عن صلاتهم ساهون" يمكن تفسيره على ضوء هذه الآية بالذين يسهون عن اجتناب الفحشاء والمنكر. وهذه الآية مكية ولو أنها نزلت في مرحلة لاحقة فإنها تتحرك في مجال المفكر فيه في مكة، أعني قبل الهجرة وظهور فئة المنافقين.

15- سورة الكافرون

- تقديـــم

ذكر ابن إسحاق في "السيرة" أن رجالا من كبار قريش اعترضوا الرسولَ صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالكعبة فقالوا: "يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبدُ، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظِّك منه".

وهذه الرواية، إن صحت، والغالب أنها صحيحة، تنسجم مع سياق السور السابقة فضلا عن أنها تعكس فعلا "عقلية" كبار قريش التجارية: لقد كانوا تجارا وكانوا يمارسون دياناتهم بوصفها جزءا من تجارتهم. فما كان يهمهم من الأصنام هو المنافع الاقتصادية التي كانوا يجنونها من حج القبائل العربية إلى مكة وتقديم الهدايا إلى أصنامها.

وكان الرسول يعرف ذلك، أعني أن ما يهم الملأ من قريش هو مصالحهم الاقتصادية، وأنهم لن يتخلوا عن أصنامهم ما دامت تلك المصالح مرتبطة بها، ولذلك استهدف هذه المصالح في غزواته عندما هاجر إلى المدينة.

هناك رواية أخرى يربطها المفسرون بأسباب نزول هذه السورة ومؤداها أن كبار قريش عرضوا على النبي عليه السلام المال والملك والتزويج الخ، قبل أن يعرضوا عليه "المشاركة" في العبادة.

وهذه الرواية لا تستقيم مع المرحلة التي رتبت ضمنها هذه السورة. ذاك أنها تذكر أنهم طلبوا كمقابل أن "يكف عن شتم آلهتهم"! والرسول عليه السلام لم يكن قد بدأ بعد في التعرض لآلهتهم، فهذه السورة خالية من ذلك كالسور السابقة، وإنما سيبدأ في التعرض إلى أصنامهم في مرحلة لاحقة.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ[1](1): لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ[2] (الآن)، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[3] (الآن). وَلَا أَنَا عَابِدٌ (في المستقبل) مَا عَبَدْتُمْ[4]، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ (في المستقبل) مَا أَعْبُدُ[5]. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"[6] (لا مجال للمساومة).

- تعليق

واضح أن هذه السورة لا تتعرض لأصنام قريش لا بالمدح ولا بالذم. كل ما تقرره هو أن الرسول يرفض بشكل قاطع أن يعبد ما تعبد قريش من أصنام، تماما كما يعرف أنها لن تعبد هي ما يعبد هو. ذلك أن "الحل الوسط" الذي طرحته عليه قريش مغشوش من أساسه، بمعنى أن قريشا هي التي ستستفيد منه وحدها. فإذا عبَد الرسول ما تعبد قريش فمعنى ذلك أن عليه أن يتخلى عن دينه الذي لا يعترف بإله آخر غير الله. أما إذا عبدت هي "الله" مع الحفاظ على عبادتها لأصنامها الذين تعتبرهم شفعاء إلى الله، فهي لن تخسر شيئا. بل ستحافظ على دينها كما كان. لأن دينها لا يستغني عن الله وإنما يضع معه شركاء.

هذا المنطق التجاري المكشوف أرادت قريش أن تمرره بحمل النبي على تبني موقفها الانتهازي، عندما قالت له: "فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنتَ قد أخذت بحظك منه". ما يهم قريش، هو ما سيكسبون في الدنيا بواسطة الدين. ولذلك جاء الرفض قاطعا، رفض ما تعبد قريش في الحاضر والمستقبل. وقد حاول النبي عليه السلام استمالتهم من هذا الجانب في مناسبة أخرى –سنتحدث عنها في حينه– وذلك عندما حاولوا مفاوضته عند عمه أبي طالب، فأكثروا من الإغراءات المادية، فرفض. ولما طلبوا منه أن يقول لهم ما يريده منهم –إحراجا له– رد عليهم بقوله : إنها ""كلمة"واحدة" تملكون بها العرب والعجم، يقصد : "شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ففهموا... وانصرفوا يائسين.

1– يميزون في الكفر بين جحود النعمة، وجُحُودُ الوَحْدَانِيَة أو النُبُوَةِ وهذا هو المقصود هنا.

16- سورة الفيل

- تقديـــم

تتصل هذه السورة بالتي سبقتها؛ ذلك أن العرض الذي قدمه الملأ من قريش للرسول عليه السلام في السورة السابقة، والذي كان الدافع إليه الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية، يبرر تذكيرهم بقضية لم يكن قد مر عليها وقت طويل، وهو ما تعرضت له مكة من هجوم صاحب الحبشة بهدف استتباعها والسيطرة عليها بوصفها موقعا استراتيجيا اقتصاديا دوليا، وأن الذي أنقذها ليس أصنامهم بل التدخل الإلهي، كما تشرح السورة.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ[1]؟ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**[2] (أفسد كيدهم: هدم الكعبة)، **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**[3] (متتابعة تأتيهم من كلّ جهة)، **تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ**[4] (من طين. قيل: إذا أصاب أحدهم خرج به الجُدَريّ)، **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**[6]؟ (كتبن أكلته الدواب فصار روثا تدوسه بأقدامها).

- تعليق :

حملة أبرهة على مكة

لفهم عبارات هذه السورة نورد هنا ملخصا لقصة "أصحاب الفيل"، كما احتفظت بها ذاكرة القرشيين وهي التي خاطبتها هذه السورة :

كانت لمكة أهمية خاصة قبل الإسلام، ففضلا عن أنها كانت من أهم المركز الدينية في الجزيرة العربية، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، كانت أيضا مركزا تجاريا إقليميا وموقعا استراتيجيا بالغ الأهمية مما جعلها تتعرض لمحاولات غزو من القوى الكبرى قبل الإسلام. وعندما قامت الدعوة المحمدية كانت ذكرى الحملة التي تعرضت

لها مكة من طرف أبرهة، عامل ملك الحبشة على اليمن، ما تزال حية في مخيال قريش. لقد وقعت في نفس السنة التي ولد فيها محمد (ص)، وهي السنة المعروفة بـ "عام الفيل (570 ميلادية). ومع أن الحملة كانت ترمي أساسا إلى التخلص من تحكم مكة في التجارة الدولية بين اليمن والشام، بنقلها إلى يد اليمنيين، وبالتالي إلى الحبشة حليفة بيزنطة، فإن تحقيق هذا كان يتطلب القضاء عليها كمركز ديني. ومن هنا استهدفت حملة أبرهة هدم الكعبة وتحويل حج العرب إلى "القليس" (الكنيس، الكنيسة؟) وهو معبد أقامه أبرهة في اليمن.

اتجه أبرهة وجيشه إلى مكة ومعه الفيل، "فعسكر خارجها. ولما علمت قريش بما يريد بعثت إليه كبيرها يومئذ وهو عبد المطلب جد النبي محمد (ص) مصحوبا بسيد بني بكر وبني هذيل لمفاوضته : "فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة (المنطقة المحاذية للبحر من مكة إلى اليمن) على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم... وانصرف عبد المطلب إلى قريش فاخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعاب الجبال (المواضع الخفية بين الجبال)... فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعـبّي جيشه". غير أن الحملة فشلت : أصيب أبرهة في جسده، وفر هو وجيشه وعادوا إلى صنعاء حيث مات. قال ابن إسحاق الذي اعتمدناه في هذا الملخص: "حدثني يعقوب بن عُتبة أنه حُدِّث: أن أولَ ما رُوِيت الحصبةُ والجُدَري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رُؤي بها مرائر الشجر: الحرمل والحنظل والعُشَر ذلك العام".

17- سورة الفلق

- تقديــــم

قيل: إن سبب نزول المُعَوِّذَتَيْن (سورة الفلق وسورة الناس) أن قريشا كلفوا أحد المشهورين عندهم بـ "الإصابة بالعين" أن يصيب النبي(ص) بعينه فنزلت السورتان. وإذا صح لجوء قريش إلى ذلك، فإنه سيكون بمثابة رد فعل منهم إزاء رفض النبي عليه السلام عرضهم السابق. وقد سميت هاتان السورتان بـ"المعوذتين" لكون النبي قد تعوذ بهما حسب بعض الروايات. أما قول بعضهم إن سبب نزولهما مرتبط -كما زعموا- بما تعرض له النبي (ص) من سحر من طرف اليهود في المدينة فيقتضي أن تكونا مدنيتين، وهذا بعيد لأن حجم السورتين وأسلوبهما يدلان على مكيتهما، هذا فضلا عن ورودهما في لوائح ترتيب النزول في نفس الرتبة (19-20) الشيء الذي يعني أنهما من أوائل القرآن المكي. هذا واشتهر عن عبد الله بن مسعود أنه كان ينكر أن تكون هاتان السورتان من القرآن، وأنه قال: "إنما أُمِر رسول الله أن يتعوذ بهما، ولم يؤمَر بأنهما من القرآن". وقد رُدَّ عليه بأن الصحابة كانوا يقرءونهما في الصلاة مما يدل على أنهما من القرآن وليستا مجرد دعاء. كما روى أن النبي قرأهما في صلاته.

- نص السورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ (ألجأ وأحتمي) بِرَبِّ الْفَلَقِ[1] (الصبح، فلق النهار)، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ[2]، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ[3] (الليل إذا أظلم)، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ[4] ("الساحرات اللائي ينفثن في عُقَد الخيط)، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ[4].

تعليق : السحر

لن نعلق هنا على حقيقة السحر من منظور الفكر العلمي المعاصر، بل نفضل أن ننقل هنا للقارئ وجهة نظر فقهية في السحر مما كتبه القرطبي في تفسيره.

والقرطبي فقيه من متشددي أهل السنة، وتفسيره محكوم بنظرته الفقهية. قال: "قيل: السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني فيُخيّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيُخيّل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً يُخيّل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه. وقيل: هو مشتقّ من سَحرتُ الصبيَّ إذا خدعته، وكذلك إذا عللته. والتسحير مثله (...). وقوله تعالى: "قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" (الشعراء 153). يقال: المُسَحّر الذي خُلِق ذا سحر؛ ويقال من المعلّلين أي ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب. وقيل: أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله في خفية. وقيل: أصله الصَّرف؛ يقال: ما سَحَرك عن كذا، أي ما صرفك عنه؛ فالسّحر مصروف عن جهته. وقيل: أصله الاستمالة؛ وكلُّ مَن استمالك فقد سحرك. وقيل في قوله تعالى: "لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" (الحجر 15) أي سُحِرنا، فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا. وقال الجوهري: السِّحر الأُخْذَة؛ وكلُّ ما لَطُف مأخذه ودَقّ فهو سحر. وقد سحره يسحره سِحراً. والساحر: العالم. وسحره أيضاً بمعنى خدعه. وقال ابن مسعود: كنّا نُسَمّي السحر في الجاهلية العِضَة.. والعِضَهُ عند العرب: شدّة البَهْت وتمويه الكذب" (...).

واختلف هل له حقيقة أم لا؛ فذكر الغَزْنَويّ الحنفي في عيون المعاني له: أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض. قال: وعندنا أصله طِلّسم (حرز) يُبنى على تأثير خصائص الكواكب؛ كتأثير الشمس في زئبق عِصيّ (سحرة) فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهّلوا له ما عَسُر.

قلت: وعندنا (القرطبي: أهل السنة) أنه حقّ وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء، على ما يأتي. وأضاف: "ذهب أهل السُّنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة. وذهب عامّة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضَرْب من الخفّة والشّعوذة؛ كما قال تعالى: "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى" (طه 66) ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال "يُخَيَّلُ إِلَيْهِ". وقال أيضاً: "قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ" (الأعراف 116). وهذا لا حجة فيه؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل وورَد بها السمع. فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس، فدلّ على أن له حقيقة. وقوله تعالى في قصة سَحَرة فرعون: "قَالَ أَلْقَوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ

عَظِيمٌ". وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحُثَالَةِ(؟) المعتزلة ومخالفتهم "أهل الحق"!. ولقد شاع السِحر وذاع في سابق الزمان وتكلّم الناس فيه، ولم يَبْدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله. وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال: عُلِّم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها: "الفَرَما" فمن كذّب به فهو كافر، مكذِّب لله ورسوله، منكرٌ لما عُلم مشاهدةً وعِياناً".

وأضاف: "قال علماؤنا: لا يُنكر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضْو، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد. قالوا: ولا يبعد في السحر أن يستدِق جسم الساحر حتى يتولّج في الكوّاتِ والخوخات والانتصاب على رأس قصبة، والجَرْيِ على خيط مستدق، والطيران في الهواء والمشيِ على الماء وركوب كلب وغير ذلك. ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علّةً لوقوعه ولا سبباً مولداً، ولا يكون الساحر مستقلا به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدِثها عند وجود السّحر؛ كما يخلق الشبع عند الأكل، والرّي عند شرب الماء. روى سفيان عن عمار الذّهبي أن ساحراً كان عند الوليد بن عُقْبة يمشي على الحبل، ويدخل في استْ الحمار ويخرج من فيه؛ فاشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله. (...) أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل اللــــه عنده إنزال الجراد والقُمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء (التي لا تتكلم)، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعلـــه الله عند إرادة الساحر. قال القاضي أبو بكر بن الطيّب: وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه".

ويواصل القرطبي: "في الفرق بين السحر والمعجزة: قال علماؤنا السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد. والمعجزة لا يمكن اللــــه أحداً أن يأتي بمثلــــها وبمعارضتها. ثم الساحر لم يدّع النبوّة فالذي يصدر منه متميِّز عن المعجزة، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوّة والتحدّي بها. واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذّمِيّ؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته، لأنه أمرٌ يستَـــسِـــرّ به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سَمَّى السحر كفراً بقوله: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا

هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (البقرة 102) ... وهو (قتل الساحر) قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحق والشافعي وأبي حنيفة. ورُوي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين. ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم: "حَدُّ الساحر ضَرْبَةٌ بالسيف"، خرّجه الترمذي وليس بالقويّ (...). قال ابن المنذر: وإذا أقرّ الرجل أنه سحر بكلامٍ يكون كفراً وجب قتله إن لم يَتُب، وكذلك لو ثبتت به عليه بيّنة ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً. وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سَحَرَ به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتُصّ منه إن كان عَمَد ذلك؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دِيَة ذلك. (القرطبي في تفسيره لقوله تعالى "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ" (البقرة 102).

وبعد، فكيف نفهم هذا الاختلاف في وجهة نظر القرطبي: تارة ينفي وجود السحر ويورد مواقف فقهية بوجوب قتل الساحر، وتارة يقول بوجود السحر ويهاجم نفاته ومنكريه! الجواب هو: أن أصل هذا التناقض في موقف القرطبي ومن ذهب مذهب الأشاعرة عموما يرجع إلى المسألة التي عبر عنها المعتزلة بـ"خلق الأفعال"، أي إثبات القدرة للإنسان على إتيان أفعاله بحرية وإرادة، وهدفهم من ذلك إثبات المسؤولية، وبالتالي سريان الوعد والوعيد. وهذه مسائل سنوضحها لاحقا، كل في المكان المناسب له.

18- سورة الناس

- تقديـــم

في السورة السابقة كان العياذ بــ "رب الفلق"، والفلق كما قلنا هو الصبح، والصبح يفيد طلوع النهار: نهار الحقيقة، نهار العدل والحق! والعياذ كان من الشر، شر المخلوقات : من الإنسان والشيطان والهوام إلى شر الظلام إذا عم الكون، ومنه الظلمة في القمر حين الكسوف، إلى شر الساحرات، إلى شر الحساد... وإذن فالتركيز هناك في سورة الفلق كان على ما منه كان العياذ والهروب، أي من الشر بكلمة واحدة. أما هنا في سورة الناس فالتركيز واقع على الذي وقع العياذ به، أي اللجوء إليه، وهو: رب الناس، ملك الناس، إله الناس. والمتعوذ منه هو وسواس الشيطان، شيطان الإنس وشيطان الجن. كان اللجوء في سورة الفلق إلى "رب الفلق"، الرب الذي يفلق ظلام الليل ويأتي بالنهار، الرب الذي يأتي بالفرج إلى المنعم عليه، الرب الذي يربي ويرعى ... أما هنا فاللجوء إلى رب الناس، ملك الناس، إله الناس. الرب هنا هو الملك، الإله، القادر على كل شيء، على قهر وسوسة الإنسان ووسوسة الشيطان.

هذا إذا نظرنا إلى سياق السورة من خلال التي سبقتها. أما إذا نظرنا إليها من خلال السورة التي بعدها فإننا ستتبين شيئا آخر: إنه لفظ "الله" الذي سيبرز كاسم آخر للرب كما سنرى.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ[1]، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ[3]، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ[4] (من طبعه أنه يختفي) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ[5]، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ[6]" (شيطان الجن وشيطان الإنس).

– تعليق :

الوسواس

وقع التركيز في السورة السابقة على السحر، أما هنا فالتركيز على الوسواس. وكما فعلنا في التعليق السابق فلن ننقل رأي الفكر المعاصر في الوسواس، ولا حكم الدين فيه كما يقرره الفقهاء، فالوسواس ليس فيه حكم فقهي لأنه ليس من أفعال الإنسان الإرادية بل هو ظاهرة بشرية. ولذلك رأينا أنه من الأنسب في هذه المسألة إطلاع القارئ على تحليل الفكر النظري "العلمي الفلسفي الديني"، كما كان في أوج الحضارة العربية الإسلامية. يتعلق الأمر أساسا بوجهة نظر "متكلمين متفلسفين" أشعريين هما الفخر الرازي (صاحب التفسير) وأبو حامد الغزالي (صاحب إحياء علوم الدين).

الوسوسة من الشيطان. هذا ما يقرره القرآن. يبقى "الكلام" في "كيف يقوم الشيطان بالوسوسة" في نفس الإنسان. قال الرازي: "ذكروا أنه (الشيطان) يغوص في باطن الإنسان ويضع رأسه على حبة قلبه، ويلقي إليه الوسوسة. واحتجوا عليه بما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: "إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، ألا فضيقوا مجاريه بالجوع". وقال عليه السلام: "لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات".

ثم يضيف الرازي: "ومن الناس من قال: هذه الأخبار لا بد من تأويلها، لأنه يمتنع حملها على ظواهرها، واحتج عليه بوجوه: الأول: أن نفوذ الشياطين في بواطن الناس محال؛ لأنه يلزم إما اتساع تلك المجاري أو تداخل تلك الأجسام. الثاني: ما ذكرنا من أن العداوة الشديدة حاصلة بينه وبين أهل الدين. فلو قدر على هذا النفوذ فلم لا يخصهم بمزيد الضرر؟ الثالث: أن الشيطان مخلوق من النار (قصة إبليس في القرآن)، فلو دخل في داخل البدن لصار كأنه نفذ النار في داخل البدن، ومعلوم أنه لا يُحَس بذلك. الرابع: أن الشياطين يحبون المعاصي وأنواع الكفر والفسق، ثم إنا نتضرع بأعظم الوجوه إليهم ليظهروا أنواع الفسق فلا نجد منه أثراً ولا فائدة، وبالجملة فلا نرى لا من عداوتهم ضرراً ولا من صداقتهم نفعاً".

ذلك ما احتج به منكرو وسوسة الشيطان. "وأجاب مثبتوها عن السؤال الأول: بأنه على القول بأنها نفوس مجردة فالسؤال زائل، وعلى القول بأنها أجسام لطيفة كالضوء والهواء فالسؤال أيضاً زائل، وعن الثاني: لا يبعد أن يقال: إن الله وملائكته يمنعونهم عن إيذاء علماء البشر، وعن الثالث: أنه لما جاز أن يقول الله

تعالى لنار إبراهيم "قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" (الأنبياء: 69) فلمَ لا يجوز مثله ههنا؟ وعن الرابع: إن الشياطين مختارون، ولعلهم يفعلون بعض القبائح دون بعض".

ذلك "تحليل للمسألة" من زاوية ما ورد في الأخبار (الأحاديث). أما من ناحية "الرأي" فالرازي يورد أولا ما قاله الغزالي في هذا الشأن ثم يدلي فيه برأيه. قال: "قال (الغزالي): القلب مثل قبة لها أبواب تنصبُّ إليها الأحوال من كل باب، أو مثل هدف ترمى إليه السهام من كل جانب، أو مثل مرآة منصوبة تجتاز عليها الأشخاص، فتتراءى فيها صورة بعد صورة، أو مثل حوض تنصب إليه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة. واعلم أن مداخل هذه الآثار متجددة في القلب ساعة فساعة: "إما من الظاهر كالحواس الخمس، وإما من البواطن كالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة في مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذا إذا هاجت الشهوة أو الغضب حصل من تلك الأحوال آثار في القلب، وأما إذا منع الإنسان عن الإدراكات الظاهرة فالخيالات الحاصلة فيْ النفس تبقى، وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال، فالقلب دائماً في التغير والتأثر من هذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر، وأعني بالخواطر ما يعرض فيه من الأفكار والأذكار، وأعني بها إدراكات وعلوماً إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر. وإنما تسمى خواطر من حيث أنها تخطر بالخيال بعد أن كان القلب غافلاً عنها. فالخواطر هي المحركات للإرادات، والإرادات محركة للأعضاء. ثم هذه الخواطر المحركة لهذه الإرادات تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر، أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما ينفع، أعني ما ينفع في العاقبة، فهما خاطران مختلفان، فافتقرا إلى اسمين مختلفين: فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والمذموم يسمى وسواساً. ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر أحوال حادثة فلا بدّ لها من سبب، والتسلسل محال، فلا بدّ من انتهاء الكل إلى واجب الوجود" (الله). قال الرازي "وهذا ملخص كلام الشيخ الغزالي بعد حذف التطويلات منه".

بعد هذا ينتقل الرازي إلى "تحقيق الكلام فيما ذكره الغزالي" فيذكر ست مقدمات "منطقية" لا حاجة لنا بها هنا، خصوصا وهو يعود فيلخص نتائجها فيما يلي، قال : "إذا عرفت هذا فاعلم أن نفاة الشيطان ونفاة الوسوسة قالوا: ثبت أن المصدر القريب للأفعال الحيوانية هو هذه القوى المذكورة في العضلات والأوتار، فثبت أن تلك القوى لا تصير مصادر للفعل والترك إلا عند انضمام الميل والإرادة إليها، وثبت أن تلك الإرادة من لوازم حصول الشعور بكون ذلك الشيء لذيذاً أو مؤلماً، وثبت أن حصول ذلك الشعور لا بدّ وأن يكون بخلق الله تعالى ابتداء أو بواسطة مراتب، شأن

كل واحد منها في استلزام ما بعده على الوجه الذي قررناه، وثبت أن كل واحد من هذه المراتب ترتب على ما قبله، أو لازم لزوماً ذاتياً واجباً، فإنه إذا أحس بالشيء وعرف كونه ملائماً مال طبعه إليه، وإذا مال طبعه إليه تحركت القوة إلى الطلب، فإذا حصلت هذه المراتب حصل الفعل لا محالة، فلو قدرنا شيطاناً من الخارج وفرضنا أنه حصلت له وسوسة كانت تلك الوسوسة عديمة الأثر؛ لأنه إذا حصلت تلك المراتب المذكورة حصل الفعل سواء حصل هذا الشيطان أو لم يحصل. فإن لم يحصل مجموع تلك المراتب امتنع حصول الفعل سواء حصل هذا الشيطان أو لم يحصل. فعلمنا أن القول بوجود الشيطان وبوجود الوسوسة قول باطل، بل الحق أن نقول: إن اتفق حصول هذه المراتب في الطرف النافع سميناها بالإلهام، وإن اتفق حصولها في الطرف الضار سميناها بالوسوسة، هذا تمام الكلام في تقرير الإشكال" وهذا رأي نفاة الوسواس والشياطين.

"والجواب (على الرأي السابق، رأي نفاة الوسوسة والشياطين) هو (يقول الرازي): "إن كل ما ذكرتموه حق وصدق، إلا أنه لا يبعد أن يكون الإنسان غافلاً عن الشيء، فإذا ذكره الشيطان ذلك الشيء تذكره، ثم عند التذكر يترتب الميل عليه، ويترتب الفعل على حصول ذلك الميل، فالذي أتى به الشيطان الخارجي ليس إلا ذلك التذكر، وإليه الإشارة بقوله تعالى حاكياً عن إبليس أنه قال: "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" (إبراهيم: 22). إلا أنه بقي لقائل أن يقول: فالإنسان إنما قدم على المعصية بتذكير الشيطان، فالشيطان إن كان إقدامه على المعصية بتذكير شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين، وإن كان عمل ذلك الشيطان ليس لأجل شيطان آخر، ثبت أن ذلك الشيطان الأول إنما أقدم على ما أقدم عليه لحصول ذلك الاعتقاد في قلبه، ولا بدّ لذلك الاعتقاد الحادث من سبب، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى. وعند هذا يظهر أن الكل من الله تعالى، فهذا غاية الكلام في هذا البحث الدقيق العميق" (الرازي في سياق تفسيره لسورة الفاتحة. ج1 ص27)

هذا ولابد من الإشارة إلى أنه باستثناء ما ورد من تدخل الشيطان وما له علاقة بالقرآن والحديث فيما ذكر، أقول باستثناء ذلك فإن ما ذكره الغزالي والرازي مأخوذ من شروح الفارابي وابن سينا على نظرية النفس عند كل من أفلاطون وأرسطو. وإذن فالأساس العلمي لما ذكر هو علم النفس الأرسطي أما الباقي فمن الشراح والمفسرين. لقد حلل أرسطو النفس البشرية تحليلا خاليا من أي رغبة، غير الرغبة في المعرفة، ففرق في النفس بين النفس الشهوانية والغضبية والعاقلة والنزوعية الخ مما بسطنا القول فيه في "بنية العقل العربي" و"العقل الأخلاقي العربي": الجزء الثاني والرابع من كتابنا "نقد العقل العربي".

19- سورة الإخلاص

- تقديـــم:

تدشن هذه السورة الانتقال من استعمال لفظ "الرب" كاسم للإله الذي تبشر به الدعوة المحمدية إلى استعمال اسم آخر هو "الله" مع الاحتفاظ بالأول[1]. وتقول أشهر رواية في موضوع "سبب نزول" سورة "قل هو الله أحد" : إن أناسا من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلّم: "انسُبْ لنا ربك"! فنزلت : "قل هو الله أحد إلى آخرها". وعلى هذا تكون هذه السورة مكية، وقد رتبت في لوائح ترتيب النزول في رتبة 22 أو قريبا منها (وفي ترتيبنا تقع في رتبة 19 بسبب تأجيل سور المزمل والقلم والفاتحة، وهذا يهم السور السابقة كلها).

هناك روايات أخرى تفيد أن سورة الإخلاص نزلت بالمدينة، فقد ذكروا "أن عامر بن الطفيل وأرْبَد بن ربيعة (أخا لبيد) أتيا النبي صلى الله عليه وسلّم، فقال عامر: "إلامَ تدعونا" (يا محمد)؟ قال: "إلى الله"، قال: "صفه لنا : أمن ذهب هُو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب؟ (ومن هذه المواد كانوا يصنعون آلهتهم) فنزلت هذه السورة". وفي رواية أخرى أن اليهود سألوه، فقالوا له: "هذا الله خلَق الخلْق، فمن خلق الله؟ فأُنزلت جوابا لهم" (الطبري).

1-أما عبارة "باسم الله"، ومعناها "أبدأ بتسمية الله وذِكره قبل كل شيء"، فقد [illegible]رت هي الأخرى في الخطاب القرآني. من ذلك قوله تعالى: "فَكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ" (الأنعام 118)، وقوله: "ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا" (هود 41). والمعنى "متبركين" باسمه. وقد "ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال" (القرطبي)، وفي الحديث : "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر". أما البسملة (باسم الله الرحمان الرحيم) فقد اختلف المفسرون في شأنها: هل هي جزء من كل سورة أم أنها مجرد فاصلة بين السور وضعت زمن جمع القرآن على عهد عثمان، وعلى هذا الرأي تكون آية فقط في قصة سليمان بسورة النمل وذلك في مطلع رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ، حيث نقرأ: "إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" (النمل 30-31). وابتداء سورة العلق بقوله تعالى: "اقرأ باسم ربك" يمكن الاستناد إليه لتعزيز موقف القائلين بأن البسملة ليست جزاء من كل سورة، لأنها إذا اعتبرت كذلك فستكون تكرارا لقوله "اقرأ باسم ربك" لأن المعنى واحد والقصد واحد وهو التبرك.

ونحن نرى أن الروايات التي تفيد أن هذه السورة نزلت في المدينة وليس في مكة لا تستقيم مع ورود اسم "الله" في القرآن المكي مرات عديدة، هي من الكثرة بحيث لا تكاد تحصى، وبالتالي فمن المستبعد أن يسأل النبي عنه في المدينة. ثم إن اسم الله" كان معروفا عند العرب وكانوا يؤمنون به، والفرق بين معتقدهم فيه وبين الإسلام أنهم كانوا يجعلون له شركاء من الملائكة والأصنام. أما اليهود فلا يعقل أن يسألوه ذلك السؤال المنسوب إليهم لأنه مردود عليهم. على أن سؤال "من خلق الله" كان مطروحا خارج اليهود(2).

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ[1] (لا أحد يشاركه في الألوهية)، **اللَّهُ الصَّمَدُ**[2] (المصمت، لا جوف له كالأصنام) (3)، **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**[3] (ليس هو كآلهة العرب التي يجعلونها بنات الله)، **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**[4] (لا يماثله أو يكافئه أحد فيما خلق).

- تعليق:

أفاض المفسرون القول في كلمات هذه السورة. فن كلمة "قل" إلى "كفوًا أحد"، مواقف مختلفة متنوعة بعضها يكرر بعض الخ. فبخصوص كلمة "قل" التي هي أول كلمة في السورة كما هي مدونة في المصحف، هناك من يثبتها ومن يحذفها : فقد روي أن أبي وابن مسعود قرءا السورة بغير "قل" هكذا: " هُوَ ٱللَّهُ أَحَد "..."، وروي أن النبي قرأ "الله أحد" بغير "قل هو". وهناك من قرأ: "قل هو الله الواحد".

2-في رواية عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله تسألون حتى تقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله، قال أبو هريرة فوالله إني لجالس يوما إذ قال لي رجل من أهل العراق هذا الله خلقنا فمن خلق الله، قال أبو هريرة فجعلت أصبعي في أذني ثم صحت صدق رسول الله، الله الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وبإسناد عن عائشة قالت قال رسول الله إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول من خلق السموات والأرض؟ فيقول الله، فيقول من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله".

3- كان العرب يصنعون أصنامهم مجوفة يدعونها للتبرك بها فتجيبهم من أجوافها كما يزعمون! من ذلك ما روى عن عبد اللـــه بن ساعدة الـــهذلي أنه قال: كنا نعبد صنماً يقال لـــه سُواع، وكانت لي غنم فجَربت فسُقْتُها إليه وأدْنَيتُها منه أرجو بركته، فسمعت منادياً من جوف الصنم يقول...

واختلفوا في "أحد" هل هو بالتنوين أم بغيره. وعلق الرازي على هذا الاختلاف فقال: "اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة "قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ" من "قل" وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة: "تبت يدا "، وأما في هذه السورة فقد اختلفوا"، وأضاف: "فمن أثبت قل" قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكي كل ما يقال له، ومن حذفه قال: لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام". بمعنى أن إثبات "قل" لازم لأن النبي (ص) ليس في مقدوره تعديل أو تغيير نظم الكلام في القرآن لأنه وحي كله، معنى ولفظا. أما عدم إثباتها فمن أجل أن لا يتوهم السامع أن النبي لم يكن يعرف أن "الله أحد ..." قبل نزول هذه السورة".

واختلفوا في معنى "الصمد" فقال بعضهم هو "السيد الذي يُصمَد إليه في النوازل والحوائج". وقال آخرون هو "الدائم الباقي"، ومنهم من قال: "الصمَد: هو السيد الذي قد انتهى سُودَدُه في أنواع الشرف والسُّودَد"، وآخرون قالوا: "إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد". ومنهم من قال: إنه "المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب". وآخر قال : "إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد". وآخر قال: إنه "الكامل الذي لا عيب فيه". وغيره قال : "الصمد معناه لا يقبل التغير في ذاته".

وفي معنى "أحد" قال بعضهم "الأحد والواحد سواء"، وقال غيره "الأحد الذي لا يدخل في العدد، والواحد يدخل في العدد، لأنك تقول للواحد ثانياً، وبمعنى آخر: "الأحد يستوعب جنسه والواحد لا يستوعبه لأنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان ولا أكثر فالأحد أبلغ من الواحد".

وأما قوله "لم يلد ولم يولد" فقد انصرفت الشروح إلى أنه ليس أبا لابن، ولا ابنا لأب، كما تقول المسيحية". وكذلك قوله "ولم يكن له كفوًا أحد" اتفقوا على أنه بمعنى "ليس كمثل شيء".

أما نحن فقد فضلنا استقاء المعنى من نفس ما كان يعتقده مشركو مكة زمن النبي من معتقدات أضافوها إلى اعتقادهم في الله. وبعبارة أخرى فضلنا فهم السورة من موقع أن الإسلام يشترك مع قريش في الاعتراف بالله ولكنه ينفي عن فكرة الله كل ما أضافوه لها. وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالإيجاب باستعمال لفظ "الحنيف" الذي جاء مقرونا في أغلب الأحيان بسلب "الشريك"، مثل قوله تعالى: "وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يونس 105).

20- الفاتـــحة

- تقديـــم

لسورة الفاتحة أسماء متعددة أشهرها: فاتحة الكتاب على غرار "مقدمة الكتاب"، ويقال إن الرسول (ص) هو الذي سماها بهذا الاسم، ووضعها في مكانها كأول سورة تقرأ في الكتاب/القرآن. وقد روي عن النبي أنه سماها كذلك باسم "أم القرآن" أو "أم الكتاب" بمعنى "مبدؤه ومفتتحه"، وقيل إنه سماها أيضا بــ"السبع المثاني" بمعنى أنها سبع آيات تتكرر في الصلاة، إذ تقرأ في كل ركعة" [1]. واختلفوا في مكان نزولها: أفي مكة أم المدينة؟ معظمهم قال إنها مكية، وأنها "نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها"[2]. وقال آخرون إنها مدنية، بينما ذهب بعضهم إلى أنها نزلت مرتين : مرة في مكة ومرة في المدينة. وهناك من قال إنها ليست من القرآن، فعبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوذتين، لكونه اعتبرهما دعاء كان النبي يتعوذ به. لكن الذي عليه جمهور المفسرين أنها نزلت في مكة. وقد رتبت الخامسة في ترتيب النزول المعتمد وترتيب جابر بن زيد؛ أما الزركشي فقد رتبها السادسة والثمانين قبل البقرة، على غرار ترتيبها في المصحف. ولم ترتب في لائحة البيهقي ولا في لائحة ابن الضريس. ونحن قد رتبناها حسب مضمونها، بعد سورة الإخلاص. ذلك لأنه لما كانت هذه الأخيرة قد نزلت، كما رأينا، جوابا على سؤال قريش للنبي عليه السلام : "انسب لنا ربك"، فإن سورة الفاتحة هي أقرب السور إلى تكملة جواب "قل هو الله أحد" من حيث إنها تدشن مثل سورة الإخلاص استعمال لفظ الجلالة "الله" إلى جانب اسم "الرب"، وقد بينت أن الاسمين هما لمسمى واحد: "الحمد لله رب العالمين". وواضح أن هذا الترتيب لا ينال من كونها فاتحة الكتاب حسب ترتيب المصحف، وعملا بهذه السنة صدرنا بها هذا الكتاب. وقد ذهب جمهور القراء والمفسرين إلى أنها سبع آيات، "ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصري فقال: هي ثمان آيات، وإلا الحسين الجعفي فقال: هي ست=

1- سنعود إلى هذه المسألة في مرحلة لاحقة.

2 - ومعلوم أن الصلاة فرضت في مكة وكانت ركعتين في الصباح وركعتين في المساء.

آيات، وقال آخرون هي: تسع آيات. والذين قالوا هي سبع آيات يتعين عليهم القول حينئذٍ بأن البسملة ليست من الفاتحة. ومن عدّ البسملة آية أدمج الآيتين الأخيرتين"، كما في المصحف الذي اعتمدنا.

ويلخص الزمخشري موقف الفقهاء في الموضوع فيقول: "قرّاء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدىء بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه اللــه ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم اللــه، ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا "أمينّ". فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها".

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم[1]، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[2] (الله ملك المخلوقات بجميع أنواعها، كل نوع عالَم). الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ[3] (3)، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ[4] (القاضي يوم القيامة) (4). إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ[5]، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[6]، (وهو) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ[7] (معظم الرواة على أن "المغضوب عليهم" و"الضالين" أنهم اليهود والنصارى على التوالي) (5).

3- من جملة ما يستدل به على كون البسملة ليست آية من الفاتحة أنها لو كانت كذلك لكان ورود عبارة "الرحمن الرحيم" هنا تكرار.

4- قال الزمخشري: قُرئ: ملِك يوم الدين، ومالك وملك بتخفيف اللام. وقرأ أبو حنيفة: مَلَكَ يومَ الدين، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة: مالكَ بالنصب. وقرأ غيره: مَلك، وهو نصب على المدح؛ ومنهم من قرأ: مالكٌ، بالرفع. وملِك: هو الاختيار (اختيار الزمخشري)، لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقولــه: "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" (غافر: 16)، ولقولــه: "مَلِكِ النَّاسِ" (الناس: 2)، ولأن المُلك يعم، والمِلك يَخص. ويوم الدين: يوم الجزاء.

5- يقول الزمخشري معللا كون المغضوب عليهم "هم اليهود لقولــه عز وجل: "مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ" (المائدة: 60 والضمير يعود على اليهود). والضالين: هم النصارى؛ لقوله تعالى: "قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ" (المائدة: 77 والضمير يعود عليهم). ومعنى غضبُ الله: "هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم".

- تعليق :

اهتم معظم المفسرين بذكر فضائل بعض السور والآيات ورووا في ذلك أحاديث وأخبارا، من ذلك سورة الفاتحة وسورة الإخلاص الخ. غير أن فريقا من أيمة الدين لا يرون مبررا لتفضيل بعض القرآن على بعض. وفيما يلي نورد ما ذكره القرطبي عن وجهة نظر هذا الفريق. قال: "اختلف العلماء في تفضيل بعض السُّوَر والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البُستي، وجماعة من الفقهاء. ورُوي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه".

21- سورة الرحــمان

- تقديــم

صنفت سورة الرحمان في لوائح ترتيب النزول مع القرآن المدني، بناء على القول إنها مدنية. غير أن هذا القول يتناقض مع روايات عديدة تثبت وتؤكد أن هذه السورة نزلت في مكة، وعلى هذا الرأي جمهور الصحابة والتابعين. ففي رواية عن عُرْوة بن الزبير قال: "أوّل من جهر بالقرآن بمكة (بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم) ابن مسعود"؛ وذلك أن الصحابة قالوا: "ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط،! فمَن رجل يُسمِعْهُمُوه؟ فقال ابن مسعود: أنا؛ فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه [1]، فأبى، ثم قام عند المقام (مقام إبراهيم) فقال: "بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ، ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ"، ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: "ما يقول ابن أمِّ عَبْد"؟ قالوا: "هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه"، ثم ضربوه حتى أثّروا في وجهه". وتلتقي مع هذه الرواية رواية عن أسماء بنت أبي بكر ورد فيها أنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نحوَ الرُكن قبلَ أن يصدَع بما يؤمر، والمشركون يسمعون يقرأ: "فبأي آلاء ربكما تكذبان. وهناك رواية ثالثة تقول إن سورة الرحمان "نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلّمه بشر وهو رحمان اليمامة؛ يعنون مسيلِمة الحنفي، فأنزل الله تعالى: "ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ".

وإذا أخذنا بهذه المعطيات فإنه سيكون من المبرر تماما القول إن أول صورة من صور الانتقال من "المرحلة السرية" في الدعوة إلى مرحلة الجهر قد بدأت

1- كان عبد الله بن مسعود حليفا لبني زهرة وقد أسلم في وقت مبكر قبل عمر ابن الخطاب، وربما كان مِن العشر الأوائل الذين أسلموا: "أسلَمَ بمكة قديما، وهاجرَ الهجرتين، وشهدَ بدْراً والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله. وهو صاحب نَعْل رسول الله. كان يُلبسه إياها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعِهِ". توفي حوالي سنة 32هـ وعمره يزيد عن اثنين وستين.

بسورة الرحمان، وأن أول صحابي تلا القرآن جهرة في المسجد الحرام وكبراء قريش في نواديها بالكعبة يسمعون هو عبد الله بن مسعود. وبما أن هناك روايات تفيد أن أول سورة قرأها الرسول عليه السلام في المسجد جهرة هي سورة النجم – كما سنرى وكان ذلك بعد قراءة "الرحمان" من طرف عبد الله بن مسعود- وبما أن رقم ترتيب سورة النجم في لوائح ترتيب النزول يتحرك بين 21 و23 فإن رتبة سورة الرحمان ستكون قبل رتبة سورة النجم ولذلك وضعناها هنا في الرتبة 21.

– نص السورة

1- مقدمة: الرحمان ... علم القرآن.. علم البيان!

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَانُ[1]، **عَلَّمَ** (محمدا) **الْقُرْآنَ**[2]، **خَلَقَ الْإِنسَانَ**[3]، **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**[4] (النطق والتعبير).

2- الكون قائم على التوازن .. فلا تخسروا الميزان!

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[5] (يجريان بحركات محسوبة منتظمة)، **وَالنَّجْمُ** (النبات الذي لا ساق له) **وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**[6] (بتمايلها مع الريح: وهنا مقابلة بين الشمس والقمر في السماء، والنجم والشجر في الأرض)، **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا** (إلى أعلى) **وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**[7] (في الأرض، كأنه معلق في السماء)، **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**[8] (لا تخلوا الوزن في البيع والشراء وغيره)، **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ** (بالعدل) **وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**[9] (بالزيادة أو النقصان).

3- الأرض وما ينبت فيها خلقهما للكائنات الحية، فهل تنكرون ذلك؟

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ[10] (كل ما فيه نفس، للكائنات الحية) [(2)]، **فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ**[11] (وعاء في وسط جريد النخلة فيه حبات التمر قبل نضجها)، **وَالْحَبُّ** (كحبة الشعير) **ذُو الْعَصْفِ** (الساق والأوراق وما يصير منهما

2- ربما تكون هذه الكلمة معربة من "أنيما" anima التي تعني باللاتينية واليونانية "النفس"، أو مبدأ الحياة" أي ما يجعل موجودا ما ينتمي إلى "الكائنات الحية". وما زال هذا المعنى حاضرا في اللغات الأوروبية.

تبنا تعصف به الريح) **وَالرَّيْحَانُ**[12] (النبات الذي لا يؤكل لكن له رائحة طيبة)، **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[13] (تلك نعم من ربكم، فأيها يمكنكم تكذيبها)؟ [(3)].
خَلَقَ الْإِنسَانَ (آدم) مِنْ **صَلْصَالٍ** (طين يابس) **كَالْفَخَّارِ**[14]، **وَخَلَقَ الْجَانَّ**

3- اختلف المفسرون في تفسير خطاب التثنية هنا : بعضهم صرف المعنى إلى الإنس والجن، مع أن التثنية لم تذكر قبل. يقول الطبري في هذا الصدد: "فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبان فخاطب اثنين، وإنما ذكر في أوّل الكلام واحدا، وهو الإنسان؟ قيل: عاد بالخطاب في قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ إلى الإنسانِ والجانّ، ويدل على أن ذلك كذلك فيما بعد هذا من الكلام، وهو قوله: خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفخار وَخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نار. وقد اعترض فريق على هذا التأويل بكون الضمائر في العربية تعود على ما قبلها وليس على ما بعدها". من أجل هذا ذهب آخرون إلى اعتبار التثنية هنا جارية على عادة العرب في مخاطبة المفرد بصيغة المثنى أو بصيغة الجمع، مثل قولهم: خليليَّ وصاحبيَّ، وقِفَا وأسعِدَا،" وقد ورد ذلك في آيات أخرى من الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى " وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (ق. 23-25) وذلك بناء على أنه خطاب منه تعالى للسائل والشهيد بناء على أنهما اثنان لا واحد جامع للوصفين أو للملكين من خزنة النار. أما الزمخشري فقد اكتفى بالقول "والخطاب في "رَبِّكمَا تكَذِّبَانِ" (الآية الآتية بعد 31) للثقلين بدلالة الأنام عليهما" في الآية التالية وقوله: "سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ" باعتبار أن الثقلين هما الإنس والجن، لكن الملاحظ أن أنه أغفل كون الخطاب موجها لهما بصيغة الجمع إذ استعمل لفظ "لكم" وليس "لكما". وقد ذهب الرازي في تفسير التثنية هنا مذهبا آخر فقال: "التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان ، كما في المنافقين، وقد يكون باللسان دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعا، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال: يا أيها القلب واللسان فبأي آلاء ربكما تكذبان فإن النعم بلغت حدا لا يمكن المعاند أن يستمر على تكذيبها"! ونحو نرى أن المسألة هنا ربما يجب النظر إليها من زاوية نظم الكلام. ذلك أن حرفي الفاصلة في آيات السورة، ابتداء من "الرحمان علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان... " هما الألف والنون (آن)، وهما بمثابة القافية في الشعر. فاقتضى نظم الكلام استعمال نفس الحرفين في مخاطبة الإنسان في قوله تعالى "فبأي آلاء ربكما تكذبان"، ولو استعمل المفرد لاختل ميزان الكلام، خصوصا وهذه العبارة تتكرر، وتكرارها عنصر أساسي في البناء الذي شيدت عليه السورة. على أن في السياق ما يفيد أن المخاطب هم قريش لكون عبارة "فبأي آلاء ربكم تكذبان" جاء بعدها خطاب بلفظ الجمع (سنفرغ لكم أيها الثقلان أي المثقلون بالمعاصي والذنوب، بالكفر والشرك الخ)، أضف إلى ذلك أن من خصائص الخطاب القرآني استعمال الأزواج : السماء والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الذكر والأنثى الخ، ونادرا ما يذكر أحد الأزواج دون أن يذكر بعده الزوج الثاني المقابل له، والمقابل لـ"لإنس" هنا هو "الجن". وهذه مسألة سنخصها بقول لاحقا. وعلى أساس هذه الخاصية القرآنية يمكن القول إن ذكر الإنس اقتضى ذكر زوج له وهو الجن، لا أن الخطاب موجه إلى الجن أصالة، بل هو موجه إلى قريش.

(إبليس) مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ[15] (خليط أظهر شيء فيه: النار)، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[16]. رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ[17] (مشرق الشمس والقمر ومغربهما)، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[18].

4- بالتوازن تستقر البحار ويتكون اللؤلؤ والمرجان وتجري السفن.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ[19] (أطلقهما بدون حواجز، فهما يلتقيان)، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ (فاصل) لَا يَبْغِيَانِ[20] (لا يعدو أحدهما على الآخر). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[21]. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ[22] (4). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[23]. وَلَهُ الْجَوَارِي (السفن) الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[24]، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[25].

5- بفساد التوازن تقوم الساعة ويفنى كل شيء .. ويبقى الله وحده.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ[26]، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ[27] (5). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[28]. يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ[29] (6)، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[30]. سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ[31] (من في السماوات والأرض) (7). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[32]. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا (أن تهربوا من قضائي) مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا، لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ[33] (ومن أين لكم بهذا السلطان؟). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[34]. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ (لهب) مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ (دخان) فَلَا تَنتَصِرَانِ[35] (فلا

4- ربما تكون الإشارة هنا إلى نهر الفرات (بحر حلو) ومصبه في الخليج العربي (بحر مالح)، يرجح ذلك ذكر اللؤلؤ والمرجان...

5- وجه ربك: الزمخشري: "والوجه يعبر به عن الجملة والذات، ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان". وقد كان هذا الموضوع مجال خلاف كبير بين المعتزلة القائلين بالتنزيه المطلق وأهل السنة الصفاتية وغيرهم من الفرق المشبهة والمجسمة. وسنخص هذا الموضوع بقول مفصل لاحقا.

6- الزمخشري: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: "من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين".

7- الخطاب هنا جاء بالجمع"سنفرغ لكم". والسياق المباشر يقتضي ما ذكرنا: ويمكن أن يكون المقصود الإنس والجن أو هما وغيرهما، ممن يسألون السؤال المذكور (يسأله من في السماوات والأرض). على أن في قوله: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" الخ تخصيص.

تستطيعان الاختراق، والهروب من المصير، من جهنم). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[36].

6- حينئذ تنشق السماء وتنكشف الذنوب، والمصير الجنة أو النار.

فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ (عند قيام الساعة) **فَكَانَتْ وَرْدَةً** (حمراء) **كَالدِّهَانِ**[37] (جلد أحمر). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[38]. **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ**[39] (لأن ذنوبهم كتبت يوم اقترفت). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[40]. **يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ** (بسواد وجوههم) **فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**[41] (يؤخذ كل منهم من الرأس والرجلين ويلقى به في جهنم). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[42]. (يقال لهم) **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ**[43]. **يَطُوفُونَ بَيْنَهَا** (جهنم) **وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**[44] (ماء حار بلغ شدة حره). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[45]. **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ** (مقامه عند ربه) **جَنَّتَانِ**[46] (بستانان). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[57]. **ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**[48] (أشجار كثيفة). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[49]. **فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ**[50]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[51]. **فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**[52]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[53]. **مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ** (ديباج)، **وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ**[54] (ثمار أشجار البستانين قريبة متدلية). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[55]. **فِيهِنَّ** (في الفرش) **قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** (نساء يقصرن النظر على أزواجهن) **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ** (لم يجامعهن) **إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**[56]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[57]. **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ**[58]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[59]. **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**[60] (جزاء من أحسن في الدنيا هو أن يحسن إليه في الآخرة). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[61]. **وَمِن دُونِهِمَا** (أسفل الجنتين المذكورتين) **جَنَّتَانِ** (أخريان)[62]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[63]. **مُدْهَامَّتَانِ**[64] (مخضرتان). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[65]. **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**[66] (فوارتان). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[67]. **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**[68]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[69]. **فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ** (نساء) **حِسَانٌ**[70]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[71]. **حُورٌ** (بياض أعينهن ناصع، وسوادها شديد) **مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**[72] (مستورات فيها). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[73]. **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**[74]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[75]. **مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ** (فضول الفرش) **خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ** (ثياب منقوشة تبسط) **حِسَانٍ**[76]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[77].

7- خاتمة: تبارك اسم ربك ...

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ (الرحمان) ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ[78].

- تعليق

لنسجل بدئ ذي بدء التشابه بين هذه السورة وبين الآيات الخمس الأولى التي كانت أول ما نزل من القرآن (انظر سورة العلق رقم 1). فتلك الآيات تبتدئ بفكرتين: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" من جهة، و"علم الإنسان ما لم يعلم" من جهة أخرى. وتأتي سورة الرحمان لتعبر عن الفكرتين بطريقة أخرى: "الرحمان علم القرآن" (لـــمحمد عليه السلام، كما في: "علم بالقلم")، و"خلق الإنسان علمه البيان" (خلق محمدا وعلمه ما لم يكن يعلم، أي القرآن وبيانه). وابتداء من هذه السورة ستستقر بنية السور فتبتدئ بمقدمة وتنتهي بخاتمة تستعيد المقدمة كما هو واضح هنا في هذه السورة. أما أسلوبها فهو نموذج في البلاغة والبيان، كما أن استعمال الفاصلة "آن" قد أضفى عليها وضعا بيانيا خاصة.

بعد المقدمة تنتقل السورة إلى أغراضها التي سنتعرف عليها بعد أن نشير إلى أنها استعادت في آخرها فكرة "اقرأ باسم ربك" بصيغة أخرى مناسبة حيث نقرأ قوله تعالى: تَبَارَكَ (علا) اسْمُ رَبِّكَ (الرحمان) ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ".

يمكن أن نضيف إلى الشبه بين سورة العلق وسورة الرحمان شبها آخر بين هذه من جهة وسورة الإخلاص من جهة أخرى، وذلك من حيث أن كلتيهما تجيبان عن سؤالين ذي مضمون واحد: "فقوله تعالى: قل هو الله أحد..." كان جوابا عن طلب قريش من النبي عليه السلام، الذي كان يتكلم باسم "الرب" وحده، أن ينسب ربه، فجاء الجواب بـــ "قل هو الله أحد..."، فصار الرسول عليه السلام يبلغ عن الله ويتوجه إليه بالدعاء إلى أن سمِعه أحد رجال قريش يدعو الله بـــ اسم "الرحمان" فسألوه : "وما الرحمان"، فكان الجواب: "الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان" الخ. إذن، فالرب الذي خلق وعلم (هناك في سورة العلق) هو نفسه الرحمان الذي خلق وعلم (هنا في سورة الرحمان).

بعد هذا تنتقل السورة إلى التعريف بـــ الرحمان" بقول مفصل: الرحمان هو الذي خلق الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والعشب والشجر الخ ورتبها ترتيبا منظما بحيث يخدم الواحد منها الباقي ولا يتعارض معه ولا يتصادم؛ والرحمان هو الذي جعل الأرض وما عليها من خيرات لفائدة الإنسان. ومن هنا الاستفهام الإنكاري الموجه لخصوم الدعوة المحمدية الذين أنكروا على النبي عليه السلام الدعاء باسم

"الرحمان" بعد أن اعتادوا منه الدعاء باسم الله. إن عبارة "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"؟ التي تتكرر مع ذكر أصناف النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، واستعمال التثنية هنا مكان المفرد فيه إشعار بأن اسم الله واسم الرحمان هما لذات واحدة. كما بينت آيةَ أخرى هي قوله تعالى: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" (الإسراء 110).

22- سورة النجم

- تقديـــم

يمكن اعتبار سورة النجم أول سورة -حسب ترتيب النزول المعتمد- تعرض فيها عليه السلام للأصنام، ورتبتها في ذاك الترتيب 23، وقد نزلت حوالي السنة الخامسة للنبوة. وحسب رواية عبد الله بن مسعود فهذه أول سورة قرأها النبي عليه السلام بمكة وقريش يستمعون.

على أن أهمية سورة النجم تتمثل بالنسبة لعملنا هذا ليس فقط في كونها أول سورة قرأها الرسول عليه على مسامع قريش، مِما يجعلها تسجل بداية مرحلة الجهر في الدعوة المحمدية[1] بل تتمثل أهميتها كذلك في كونها تعرض للأركان الأساسية في العقيدة الإسلامية (النبوة، التوحيد، المعاد)، الأركان التي يعترض عليها كفار قريش ويُمانعون في التصديق بها، والتي سيتوالى الجدال حولها معهم إلى أن تم فتح مكة؛ وتتمثل أهميتها كذلك في كونها طرحت لأول مرة وبعبارات قوية واضحة، وردت بالقصد الأول، قضية أساسية في العقيدة الإسلامية، سيحتدّ الجدال حولها مباشرة إثر الفتنة الكبرى (الحرب بين علي ومعاوية)، جدال سرّعان ما سيفضي إلى قيام "علم الكلام" (وموضوعه الجدل بين المسلمين حول قضايا العقيد). هذه القضية التي طرحت لأول مرة (حسب ترتيب النزول) هي تلك التي ستتسمى في علم الكلام بـ "مسألة المشيئة"، وهي المعروفة في الفكر الفلسفي بقضية الجبر والاختيار. وسنفرد لها قولا خاصا.

يدور الخطاب في سورة النجم، إذن، حول المسائل الأربعة التالية:

1-التأكيد على نبوة محمد (ص) وعلى أن القرآن وحي من الله إليه بواسطة جبريل، والرد على المكذبين.

2-التأكيد على وحدانية الله ونفي الشريك عنه، والتعرض للأصنام. في ثلاثة أمور: أولا لقد رأى النبي عليه السلام مشهد جبريل وهو ينقل إليه الوحي، فماذا رأى مشركو قريش في أصنامهم التي تمثل "الملائكة": آلهتهم؟ هم يتمنون شفاعة

1- راجع ما قلناه في هذا الموضوع في التعريف بالقرآن. الفصل العاشر: ثانيا.

الملائكة؟ كلا، لا أحد يشفع إلا بإذن الله. سموا الملائكة تسمية الأنثى فجعلوها بنات الله! كيف يعبدونها وهم لا يرحبون بالمولود إذا جاءهم أنثى.

3- التأكيد على وجود حياة أخرى بعد الممات يكون فيها الثواب والعقاب على ما قدم الإنسان في الدنيا من الأعمال.

4- التأكيد على أن كل ما يحدث فبمشيئة الله يحدث، مع التذكير بما آلت إليه مصائر الأقوام الذين كذبوا رسلهم فدمر الله مدنهم وانمحى وجودهم ولم يبق إلا بقايا آثارهم وأخبارهم.

- نص السورة

1- مقدمة: ما ضل صاحبكم وما غوى، وهذا مشهد تلقي الوحي!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى[1] (تحرك في السماء نحو الأفق)، **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**[2] (ما حاد صاحبكم –محمد– عن الحق)، **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**[3] (وما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه)، **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**[4]، **عَلَّمَهُ** (لمحمد) **شَدِيدُ الْقُوَى**[5] (جبريل)، **ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى**[6] (صاحب قوة استوى مرتفعا)، **وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى**[7]، **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**[8] (اقترب جبريل وتدلى نحو محمد)، **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**[9] (على مسافة ذراع أو ذراعين منه)، **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**[10] (فأبلغ جبريل إلى محمد ما أوحى الله إليه).

2- هذا مشهد تلقي الوحي؟ أخبرونا عما ترون في أصنامكم !

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى[11] (لم يشك في حقيقة الذي رآه بقلبه). **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**[12] (أفتجادلونه في ذلك)؟، **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**[13] (رأى جبريل مرة أخرى)، **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**[14] (شجرة الأنوار في السماء العلا)، **عِنْدَهَا** (هناك حيث) **جَنَّةُ الْمَأْوَى**[15] (مآل المؤمنين)، **إِذْ يَغْشَى** (يغطي) **السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**[16] (من الأنوار)، **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**[17] (ما انحرف بصر محمد ولا تجاوز حدوده)، **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**[18]. **أَفَرَأَيْتُمْ** (أخبرونا أنتم يا قريش عما ترون في) **اللَّاتَ وَالْعُزَّى**[19]، **وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**[20]؟ (آلهتكم التي تعتبرونها بنات الله)! **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى**[21] (تفضلون الذكور وتخصون الله بالإناث)، **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**[22] (غير عادلة)، (آلهتكم تلك) **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ! إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، وَلَقَدْ**

جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى[23] (مع أن الحق جاءهم مع القرآن). أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى[24] (هل تنال قريش ما تتمنى من شفاعة الأصنام؟ لا...) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (الدنيا)[25]. وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى[26]. إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى[27] (بينما الملائكة جمع ملك، وهو مذكر)، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا[28].

3- ذلك مبلغهم من العلم، وسيعرفون الحقيقة يوم الجزاء...

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[29]، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى[30]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى[31]: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ (الكفر) وَالْفَوَاحِشَ (الزنا) إِلَّا اللَّمَمَ(2)، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ. هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى[32].

4- لا تزر وازرة وزر أخرى... ليس للإنسان إلا ما سعى...

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى[33] وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى[34] (3) (ثم توقف عن العطاء)، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى[35] (4)، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى[36] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى[37]: أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى[38] (لا أحد يَنُوب عن أحد في تحمل

2- "قال المفسرون "اللمم ما دون الوطء: من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة". وفي البخاري ومسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالةً: فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه". والمعنى: "أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج، وغيرهُ له حظ من الإثم. (عن القرطبي).

3- ذُكر أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئا من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، ففعل، فأعطاه أياما ثم بخل وتوقف. وقيل: "نزلت في عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق في الخير فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئا. فقال عثمان: إن لي ذنوبا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله وأرجو عفوه. فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة.

4 - أيعلم الغيب هذا الذي وعده صاحبه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، فصدقه ووثق به؟

مسؤولية فعله)، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى[39] وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى[40]، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى[41]، وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى[42]. وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى[43]، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا[44]، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى[45] مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى[46]، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى[47]. وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى[48] (أغنى الأغنياء ومنحهم أملاكهم وقنياتهم). وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى[49] (نجم كان يعبده بعض العرب في الجاهلية). وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى[50] (5) (قوم النبي هود)، وَثَمُودَ (قوم النبي صالح) فَمَا أَبْقَى[51]، وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى[52]، وَالْمُؤْتَفِكَةَ (قرى قوم لوط) أَهْوَى[53] (خسف بها الأرض)، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى[54] (علاها ركام الهدم من حجارة وغيرها)! فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى[55] (ترتاب وتشك يا ابن آدم)؟ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى[56] (ورد في الصحف الأولى)، أَزِفَتِ الْآزِفَةُ[57] (اقتربت الساعة)، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ[58] (الله وحده يعلم).

5- خاتمة: أفمن هذا الحديث تعجبون..؟

أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ (القرآن) تَعْجَبُونَ[59]، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ[60]، وَأَنتُمْ سَامِدُونَ[61] (لاهون غافلون). فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا[62].

- تعليق

مما يتصل بموضوع هذه السورة ما يعرف بقصة "الغرانيق"(6) وذلك في سياق تعرضها لأصنام قريش، اللات والعزى ومناة، وهي أهم الأصنام عندهم، وكانوا يقولون إنها "بنات الله" وبالتالي يرجون شفاعتها. وقد أورد كثير من المؤرخين، وفي مقدمتهم الطبري في تاريخه وتفسيره وابن سعد في طبقاته، روايات عن هذه القصة تختلف في بعض ألفاظها ولكنها ذات مضمون واحد تقريبا. وفيما يلي الرواية التي ذكرها الطبري في تاريخه. تقول الرواية: "لما رأى رسول الله تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره -مع حبه قومه وحرصه عليهم- أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدّث بذلك نفسه وتمناه وأحبه(7) فأنزل الله

---

5 - يميزون بين عاد الأولى التي أهلكت بريح صرصر وبين بقية منهم لم تهلك.

6- الغرانيق جمع غُرْنُوق، وهو طائر أبيض من طيور الماء؛ مثل الكراكي.

7- في ابن سعد: "رأى الرسول (ص) من قومه كفا عنه فتمنى ...

عز وجل سورة "والنجم إذ هوى"، فلما انتهى إلى قوله "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان[8] على لسانه ما كان يُحَدِّث به نفسَه ويتمنَّى أن يأتي به قومَه فقال: "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لتُرتَجَى"[9]. فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له ... فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون ... وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لمَا سمعوا من ذكر آلهتهم ... ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون: قد ذَكر محمد آلهتَنا بأحسن الذكر"[10].

ويقول المفسرون والمهتمون بأسباب النزول إنه نزلت بعد ذلك آيات في عتاب النبي عليه السلام على ما فعل، منها قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (الإسراء 73-75). وبعضهم يقول إن الآية التي نزلت في الموضوع هي قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (الحج 52-53). لكن مؤرخين ومفسرين آخرين يشككون في هذه الروايات ويطعنون في رواتها. ونحن، من جانبنا، نرى أن قصة الغرانيق هذه مختلقة تماما. ذلك لأن سورة النجم لابد أن تكون قد نزلت قبل الهجرة إلى الحبشة، لأن هذه الهجرة إنما كانت بسبب اضطهاد قريش للمسلمين بعد أن أخذ النبي (ص) يتهجم على آلهتهم، هذا في حين أن القصة المذكورة مبنية على كون سورة النجم نزلت بعد الهجرة إلى الحبشة، وبالتالي فالمفروض أنها سبقتها سور فيها تعرض لآلهة قريش، وهذا ما لم يحدث، فالسور التي سبقتها -حسب ترتيب النزول- ليس فيها مثل هذا التعرض. فها هنا إذن تناقض داخلي في الرواية التي تتحدث عن الموضوع. وفضلا عن ذلك فإن سورة النجم وحدة متكاملة قوية اللهجة تنبئ عن موقف قوة وليس عن موقف

8- ومن هنا اسم رواية سليمان رشدي: "الآيات الشيطانية".

9- في رواية أخرى : "«تلك الغرانيق العُلَى، وشفاعتهن ترجي، مثلهن لا يُنسى»، وفي أخرى: "إن تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى»، وفي أخرى "شفاعتهن ترتضى". الطبري تفسير آية 52 سورة الحج.

10- جاء في الرواية التي ذكرها ابن سعد أنهم قد "قالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده. وأما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك"!

ضعف. وحتى لو فرضنا أنه ورد معها القول بأن "شفاعتهم لترتجى"، فيمكن أن يحمل ذلك على أن هذا القول وصف لواقع حال، أي حكاية لمعتقدات قريش، مع تعجب واستهزاء! أما القول بأن مشركي مكة قد سجدوا مع النبي (ص) عندما بلغ موضع السجدة في قراءته للسورة، فإنه إن صح لا يدل بالضرورة على أنهم فعلوا ذلك استجابة للقرآن، فهم كانوا يسجدون لأصنامهم. على أن قضية سجود قريش فيها نظر! ذلك أن موضع السجدة يقع في خاتمة السورة أي بعد أن تعرضت إلى آلهتهم بالطعن والهجوم وبعد أن أنكرت شفاعتها وبعد أن أسهبت في النقد والتقريع لبعض رجال قريش، وكل ذلك لا يتفق مع القول إن قريشا سجدت مع النبي (ص).

أما المناسبة التي حيكت حولها هذه القصة، وهي رجوع بعض المسلمين من الحبشة بعد أن وصلهم خبر هذه القصة وما قيل من أن قريشا تصالحت مع الرسول بعد أن ذكر آلهتهم بخير واعترف لها بالشفاعة، فيمكن أن يكون لذلك - لرجوع بعض المسلمين من الحبشة- أسباب أخرى تلاقت مع سورة النجم إذ لا يعقل أن يعود المسلمون المهاجرون بعد شهرين فقط لمجرد سماعهم إشاعة تقول بحدوث مصالحة بين النبي (ص) وقريش، خصوصا وقد كانوا في الحبشة في وضع مريح. أما السبب الذي جعل فريقا من المهاجرين إلى الحبشة يعودون إلى مكة بعد شهرين فقط من هجرتهم فلا بد أن يكون شيئا أكبر من مجرد إشاعة بحدوث المصالحة بين محمد (ص) وقريش. ويمكن أن يكون السبب الفعلي في رجوعهم هو خوفهم على أنفسهم من الثورة التي كانت قد نشبت ضد النجاشي ملك الحبشة، ويمكن أن يكون السبب شيئا آخر.

أما ما ورد من روايات حول ارتباط الآيات أعلاه (الإسراء 73-75، الحج 52-53)، بهذه القصة فلا دليل عليه، خصوصا ورواة "أسباب النزول" يذكرون لها مناسبات متعددة.

23- سورة عبس

- تقديــم

روي من جهات متعددة أن هذه السورة نزلت عتابا للرسول عليه السلام على موقفه من رجل أعمى جاء يطلب منه أن يُقرئه القرآن. أما الرجل فهو ابن أم كلثوم الأعمى، ابن خالة خديجة زوجته، جاء النبي في وقت كان مشغولا فيه بالحديث إلى أحد كبار قريش يحاول استمالته "فجعل رسول الله (ص) يعرض عنه (عن الأعمى) ويقبل على الآخر فيقول له : أترى بما أقول بأسا" ؟

وكما جرت عادة رواة أسباب النزل" في التماس سبب نزول لكل آية فقد أضيفت إلى الرواية المذكور رواية أخرى تقول إن قوله تعالى في هذه السورة: "قتل الإنسان ما أكفره" نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم. أما قوله "لكُلِّ أمريءٍ مِنهُم يَومَئذٍ شَأنٌ يُغنيهِ". فقيل إنه نزل عندما سألت عائشة النبي قائلة : "أنحشر عراة" قال: نعم. قالت: واسوأتاه"!

ومهما كان من أمر صحة هذه الروايات فهي، كسائر روايات أسباب النزول، تعكس في هذه المرحلة، جوانب من واقع الدعوة المحمديةِ، وعلاقتها بقريش. إنها علاقات تبدو سلمية في الغالب، إما علاقات حوار يحاول كل طرف فيه استمالة الطرف الآخر، وإما ردود أفعال "سلمية" من قبيل التعجب أو الاستفسار أو اتخاذ موقف مضاد ولكن دون عدوان في الغالب. هذا يعني أنه لم يكن الصدام قد بدأ بعد، فالرسول لم يبدأ بعد في التعرض لأصنام قريش وما ورد في سورة النجم لا يرقى إلى مستوى الشجب والإبطال، خصوصا وقد ورد في سياق شرح ظاهرة النبوة وليس في سياق شجب الشرك. وما نريد إبرازه هو أن القرآن قد اقتصر، طوال هذه المرحلة الأولى من مسار التنزيل بارتباطها مع وقائع السيرة، على طرح قضيا العقيدة (النبوة والتوحيد والمعاد) طرحا مخففا من دون المس بالأصنام ولا انتقاد للشرك بالصورة التي تستثير قريش وتؤدي إلى القطيعة كما سيحدث لاحقا. ومع أن لهجة بعض السور السابقة كانت ترتفع لتمارس نقدا لاذعا، أحيانا ضمنيا وأحيانا صريحا، من خلال طرح تساؤلات كما في سورتي الرحمان والنجم، فإنه يمكن القول إجمالا إن الاستمرارية هي السائدة، بمعنى أنه لم تكن ثمة بعد قطيعة. وفي هذا الإطار تندرج السورة التي نحن ضيوف عليها الآن،

1- تبدأ السورة بعتاب النبي (ص) عتابا جاء في صورة استفسار: انشغلت برجل من الأغنياء تريد استمالته، وما يضيرك أن لا يتطهر من كفره؟ أما من جاءك يطلب القرآن وهو يخشى الله فقد صرفته منشغلا بذلك الرجل الغني! لا تَعُد إلى فعل مثل ذلك؟ هذه تذكرة، فلتكن عبرة لك ولغيرك! إنها تذكرة مكتوبة بأيد ملائكة بررة في صحف مكرمة في السماء.

2- بعد هذا العتاب الموجه إلى النبي تتجه السورة إلى بيان حقيقة ذلك الرجل الغني المعتد بنفسه الذي لم يستجب للرسول: إنه مجرد بشر خلقه الله من نطفة ثم هيأ له سبيل الخروج من بطن أمه والعمل في الحياة حتى كبر فأعطاه أموالا وبنين، لكن نهايته ستكون: القبر. وهكذا سيبعث، وسجله خال مما أوصى الله به من النفقة والإحسان إلى الفقراء الخ. ألا ينظر هذا الإنسان إلى سنة الله في الكون، إلى الكيفية التي أجرى بها ظواهر الطبيعة وشؤون الإنسان؟ لينظر مثلا إلى طعامه الذي يلتذ به! إنه لم يأته عفوا ولا من دون تخطيط وتدبير. لقد كان لابد من مطر ينزل من السماء، ولابد من شق الأرض وحرثها، ولا بد من نباتات وأشجار تنتج غذاء للإنسان، وأيضا غذاء للأنعام التي منها يتغذى الإنسان وعليها يسافر للتجارة وغيرها.

3- غير أن جميع هذه المشاغل الدنيوية ستفقد كل قيمتها حين يأتي الإعلان بقيام القيامة. حينها سينصرف كل إنسان إلى نفسه وحدها لا يهتم بولده ولا بأبيه ... ولا بمن كانوا له في الدنيا ندماء. سينقسم الناس حينئذ إلى صنفين: فريق وجوههم مشرقة، مستبشرة خيرا، وفريق وجوههم كالحة عابسة مظلمة، ومن هؤلاء ذلك الرجل الذي كنت نريد استمالته فأعرَض وفضل البقاء على كفره وفجوره.

- نص السورة

1- مقدمة: تعرض عن الفقير الأعمى.. وتنشغل بمن استغنى!

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ (الرسول) **وَتَوَلَّى**[1] (بسبب) **أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى**[2] (يطلب معرفة الدين)! **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**[3] (يتطهر من ذنوب الكفر) (1) **أَوْ يَذَّكَّرُ** (يتعظ) **فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى**[4] ؟ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى**[5] (صاحب الغنى والمال) **فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**[6]

1- لنلاحظ أن لفظ "مسلم" و "مؤمن" لم يستعملا بعد، فلا زال فعل "تزكى" يقوم مقامهما.

(تستقبله وتتصت إليه)! وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى[7] (ماذا عليك إن لم يسلم، إنما عليك البلاغ)؟ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى[8] وَهُوَ يَخْشَى[9] فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى[10] (تتشاغل)؟!

2- هذا الذي تريد استمالته معاند كافر، لا يرى نعم الله عليه!

كَلَّا (لا تعد إلى مثل هذا السلوك) إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ[11]: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ[12]؛ (وقد سبق التنبيه إلى مثل هذه الأمور) فِي صُحُفٍ (رسالات سماوية) مُكَرَّمَةٍ[13] مَرْفُوعَةٍ -مُطَهَّرَةٍ[14]- بِأَيْدِي سَفَرَةٍ[15] كِرَامٍ بَرَرَةٍ[16] (ملائكة تنقل الوحي إلى الرسل). قُتِلَ الْإِنْسَانُ (هذا الذي تريد استمالته) مَا أَكْفَرَهُ[17] (ما أشد عناده وكفره)! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ[18] (الله)؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ[19] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ[20] ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ[21] ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ[22] (أحياه بعد موته). كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ[23] (لم يقم في حياته بما أمره الله، من ترك الشرك وعبادة الأصنام! وهو لا يؤمن بالبعث مع أن أطوار الحياة تقتضيه، وللتأكد من ذلك) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ[24] (كيف مر بأطوار): أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا[25] (أنزلنا المطر)، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا[26] (لتخرج البذور)، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا[27] وَعِنَبًا وَقَضْبًا[28] (وأغصانا) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا[29] وَحَدَائِقَ غُلْبًا[30] (كثيرة الأشجار) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا[31] (وكلأ)، مَتَاعًا (منفعة) لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[32] (والبقية مفهومة: ثم موت يليه خلق جديد: تخرجون من القبر كالنبات تخرج بذوره من الأرض، ثم تتجهون إلى الحساب).

3- خاتمة: سيندم عندما تقوم الساعة ويكون الجزاء ...

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ[33] (صيحة القيامة)، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ[34] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ[35] وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ[36]، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ[37] (يشغله عن غيره: جواب إذا). وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ[38] (مشرقة) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ[39]، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[40] (غبار)، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[41] (تغشاها ظلمة). أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ[42].

- تعليق

موضوع السورة يخص ليس الدعوة بالذات بل ما يمكن التعبير عنه بأخلاقية الدعوة. الرسول مكلف بالتبليغ للناس جميعا وبالتي هي أحسن. والدعوة تدعو إلى العدل والمساواة، فعلى المكلف بها أن يطبق العدل والمساواة مع جميع الناس عند ممارستها. فلا تفضيل للغني على الفقير. نعم قد يكون وزن الغني إذا أسلم أكبر من وزن الفقير، ولكن مبدأ المساواة يقتضي التعامل مع الناس بدون تمييز. خصوصا ولا

أحد يعلم هل سيلبي الغني الدعوة أم سيرفض وماذا سيكون منه من بعد، خصوصا ومن مبادئ الدعوة إنصاف الفقراء، لأن لهم في أموال الأغنياء حقوق. ذلك لأن أموالهم لم يصنعوها من لا شيء، لم يهيئوا لها الأسباب بل الله هو الذي فعل ذلك. وكمثال على هذا وجود الإنسان ذاته: فقد خلقه من نطفة ثم دبر أمره عبر أطوار حياته الخ، ويسر له السبل... ولكن ما ينساه الإنسان هو أن هناك نهاية هي الموت، وأن بعد هذه النهاية بعث وحساب وعقاب.

وهكذا فمن خلال هذا المثل تعرض السورة لأركان العقيدة : 1) النبوة بالحرص على ربطها بالعدل والمساواة، أي المسألة الاجتماعية، وذلك بطرح ظاهرة الغنى وما عليه تقوم من أسباب. 2) التوحيد ببيان أن أسباب الغنى هي من الله فهو الخالق وهو المدبر عبر سلسلة الأسباب. 3) بعد ذلك تستحضر السورة مسألة المعاد كخاتمة.

وهكذا يتبين كيف أن السورة تشكل وحدة نصية: فالعتاب ليس من أجل العتاب بل من أجل التأسيس للعقيدة: شجب الاستغناء والاستعلاء، الاهتمام بالمستضعفين. الله هو الذي هيأ الأسباب للغنى، تماما كما أجرى نظام الطبيعة لفائدة الإنسان (المطر، النبات ...)، وأخيرا البعث والحساب: إما السعادة (الجنة) وإما الشقاء (النار).

24- سورة الشمس

- تقديـــم

مباشرة بعد الدرس الذي أعطته سورة عبس من خلال نمطين من البشر: رجل استغنى ولم يستجب للدعوة، ورجل جاء يسعى إليها، تأتي سورة الشمس لِتؤكد هذا الانقسام في الطبيعة نفسها: ضياء النهار وظلمة الليل، وارتفاع السماء وانخفاض الأرض، والنفس الفاجرة، والنفس التقية، والسعادة لمن طهرها، والشقاء لمن تركها على هواها. كان الانتقال في سورة عبس من ذات الإنسان (خلقه ومساره) إلى عالمه الخارجي المباشر (غذائه ومسار تكونه ونضجه)، أما هنا، مع سورة التكوير، فالانتقال سيكون من نظام الطبيعة وثنائيته إلى سير التاريخ ومعارجه. وهكذا، فكما أن الطبيعة نهار وليل الخ، فكذلك صيرورة التاريخ: أنبياء وأقوام مكذبون : قوم ثمود طغوا فجاءهم النبي صالح يريد هدايتهم فطلبوا منه آية (علامة، معجز) فقال لهم هذه الناقة التي منها تغتذون اقتسموا معها الماء: يوم لكم ويوم لها وستعطيكم ما يكفيكم من الحليب، فكذبوه، وجاء أشقى رجل فيهم فعقرها برضاهم، فكان العقاب أن أهلكهم الله جميعا، ولا لوم في ذاك على نبيهم صالح، وإنما هو جزاء على ما اقترفوا من ذنوب (سترد تفاصيل القصة في سور أخرى)

- نص السورة

1- القسم بنظام الطبيعة...

بسم الله الرحمن الرحم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا[1]، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا[2]، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا[3] (أظهر الشمس) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا[4] (سترها) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا[5] (وبنائها ورفعِها) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[6] (وبسطِها)، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا[7] (وتسوية طبعها وخلْقِها) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[8]. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا[9] (سعد من طهرها) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[10] (أهملها وتركها على هواها).

2- ثمود: نظام التاريخ المقدس

كَذَّبَتْ ثَمُودُ (الرسل) **بِطَغْوَاهَا**[11] (بطغيانها، جواب القسم)، **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا**[12] (ليعقر الناقة)، **فَقَالَ لَهُمْ** رَسُولُ اللَّهِ (صالح هذه) **نَاقَةَ اللَّهِ** [(1)] **وَسُقْيَاهَا**[13] (ذروها وموردها، يوم لكم ويوم لها، تعطيكم فيه الحليب بدل الماء)، **فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ** (أهلكهم) **بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا**[14] (سوى الدمدمة فيهم فهلكوا جميعا)، **وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا**[15] (تلك عاقبة تكذيبهم رسولهم، ولا لوم على صالح فقد أنذرهم).

- تعليق

هذه أول سورة (حسب ترتيب النزول) ذكرت فيها فصول من وقائع القصص القرآني. ففي هذه السورة نجد بعض التفاصيل عن قصة ثـــمود في سياق يستعيد نفس القضايا التي أبرزناها في سورة الفجر (رقم 7) : جشع الإنسان، البعث والحساب؟ ومع أن المؤلفين في أسباب النزول وكذلك المفسرون لا يذكرون مرويات حول هذه السورة فإن في مرويات أخرى ما يلقي بعض الضوء على ظروف نزولها. فقد روي أن النبي (ص) سئل عن المقصود بــ "أشقاها" في قوله تعالى في هذه السورة "إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا" فأجاب عليه السلام : "انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أبي زَمَعَةَ". وفي رواية ذكرها الطبري أن عظماء المستهزئين بالنبي (ص) كانوا خمسة نَفَر من قومِه، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم يأتي على رأسهم الأسود بن المطلب أبو زَمَعة من بني أسد بن عبد العُزّي بن قُصَيّ، "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيما بلغني -يقول الطبري- "قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: "اللهمّ أعم بصره، وأثْكِلْهُ وَلَدَهُ". إذن يمكن القول إن سورة الشمس لها علاقة بواحد من كبار قريش هو المذكور قبل، تماما مثلما أن السورة التي قبلها لها علاقة، ليس فقط بالأعمى ابن أم كلثوم، بل أيضا وفي الدرجة الأولى بعضو آخر من كبار قريش هو عُتبة بن أبي لهب، الذي كان النبي يحاول استمالته. وإذن فالسورتان متصلتان مضمونا وسياقا.

وهكذا فبعد أن نزعت سورة النجم من الأصنام أي قدرة على الشفاعة لمن يعبدها تمهيدا لشجبب الشرك الذي يمارس من خلالها، وبعد العتاب الذي وجهه

1- سترد قصة هذه الناقة مفصلة في سورة أخرى، مع بيان مناسبة تسميتها بهذا الاسم. انظر أيضا التعريف بالقرآن: قسم القصص. المرحلة الثانية. فقرة 3-ب

الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه السلام بسبب طمعه في استمالة أحد أغنياء قريش على حساب الاستجابة الفورية لأحد الفقراء، وبعد التذكير بالبعث و الحساب والجزاء الخ، تأتي سورة الشمس لتتعرض ضمنيا لأحد كبار قريش الذين مارسوا الطغيان على الرسول وصحبه مشبهة إياه بطغاة قوم ثمود، لافتة نظر تجار قريش إلى مساكن هؤلاء القوم –المهدمة- والتي يمرون عليها في أسفارها إلى الشام. وقصة هؤلاء القوم هي من قصص "أهل القرى" التي افتتح الله بها قصص القرآن، وهي غير موجودة لا في التوراة ولا في الإنجيل، ولكن العرب يتناقلونها جيلا بعد جيل، فهي أقرب من غيرها إلى موروثهم الحاضر في مخيالهم التاريخي الشعبي. وثمود هم سكان مدينة الحجر(2)، وقد سميت بها سورة في القرآن كما سنرى لاحقا.

2- انظر معلومات معاصرة حول مدينة الحجر في: التعريف بالقرآن . القصص المكي. المرحلة الأولى. هامش رقم 2

25- البروج

- تقديــــم

ومن قصة قوم ثمود الذين حدثتنا عنهم سورة الشمس باقتضاب، تنتقل بنا السورة التالية لها (سورة البروج) من شمال الجزيرة إلى جنوبها. من قصة "ناقة الله" إلى قصة "أصحاب الأخدود". وقد وردت قصة هؤلاء في كتب التفسير بصيغ مختلفة. وأقرب رواية إلى ظروف نزول هذه السورة، وإلى ما ذكرناه في السورتين السابقتين، رواية أوردها الطبري منسوبة إلى النبي (ص)، سنوردها في "التعليق" أسفله، لما تحمله من مغزى.

بدأت السورة بمقدمة مناسبة للقصة: القسم بالسماء ذات البروج وهي تبدو للناظر وكأن فيها حفرا وأخاديد، وبيوم القيامة حيث يشهد الشهود (من الناس أو الملائكة) على المشهود عليهم، مؤمنين ومشركين، فيختلف وضع الناس في ذلك المشهد كما يختلف مشهد السماء ببروجها وأخاديدها. ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى هدفها لتقرر أن من يفتن المؤمنين اليوم (كفار قريش) سيكون مصيرهم كمن فتنوا المؤمنين بالأمس: جهنم. أما المؤمنون اليوم (المسلمون) فمصيرهم الجنة كالمؤمنين بالأمس (نصارى اليمن). وكما هو واضح فالقرآن يسوي هنا بين المؤمنين بالنصرانية وبين المؤمنين بالإسلام، باعتبار أنهم جميعا يؤمنون بالله. وقد سبق من قبل التأكيد على أن ما يقرره القرآن موجود في صحف إبراهيم وموسى. وتأتي الخاتمة لتؤكد للمكذبين بأن هذا الذي قصه القرآن قصة يعرفونها، وليست مما يستطيعون تكذيبه.

- نص السورة

1- مقدمة: قسم مناسب للمشهد...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[1] (منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجا حسب علم الفلك القديم)، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ[2] (يوم القيامة، الموعود للفصل،

للجزاء ثوابا وعقابا)، **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**[3] (شاهد يشهد على ما فعل الناس ومشهود يسمع حسابه!).

2- يحرقون المؤمنين ويتفرجون ...

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ[4] (لعنوا، لقد حفروا حفرة : جواب القسم) **النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**[5] (أشعلوا فيها النار)، **إِذْ هُمْ** (بجانبها) **عَلَيْهَا قُعُودٌ**[6] **وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ**(1) **شُهُودٌ**[7] (وأخذوا يلقون فيها المؤمنين ويتفرجون)، **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**[8] **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**[9].

3- بطش ربك شديد لمن بقي على عناده .. وإلا فهو الغفور الودود

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ[10] (2)**. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**[11]**. إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**[12] (انتقام ربك يا محمد من قريش سيكون شديدا)، **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ**[13] (سيعيد عليهم ما بدأه مع أصحاب الأخدود)، **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**[14]، (لمن تزكى منهم)، **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**[15]، **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**[16].

4- خاتمة: أقوام الرسل كذبوا، وقريش تكذب القرآن! إنه محفوظ.

هَلْ (قد) **أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ**[17] (الذين تجندوا لمحاربة رسل الله)، **فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ**[18]. **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ**[19] **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**[20] (الكفار في الحاضر كما في الماضي يكذبون أنبياءهم، وعلم الله محيط بما يقولون). **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ**[21] **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**[22] (وهذا رد مباشر على قريش التي كذبت برسالة محمد : فالقرآن الذي يكذبون به هو عالي المنزلة وهو مصان ومكنون في اللوح المحفوظ من طرف الملائكة في السماء).

1- هنا بدأ استعمال لفظ "المؤمنين" مع الفعل "يؤمنوا" وكانت المرة الأولى التي استعمل فيها هذا الفعل –حسب ترتيب النزول– في سورة "العصر" (إلا الذين آمنوا).

2- هذا تنبيه لقريش إلى أنهم إذا أخذوا يفتنون المؤمنين فسيكون مصيرهم هو نفس المصير الذي لقيه أمثالهم في الماضي والذين لم يعد في إمكانهم الاستفادة من التوبة بعد أن ماتوا على كفرهم. وإذن فبإمكان قريش أن يتجنبوا نفس المصير إذا هم تابوا الآن قبل أن يفوت الأوان. وإذا هم استجابوا وتابوا الآن فإن الله سيقبل منهم : فهو الغفور الودود.

- تعليق

إن أحسن صياغة لمضمون قصة "أصحاب الأخدود" الصياغة التالية التي رواها الطبري في تفسيره منسوبة إلى النبي عليه السلام، وقد جاء فيها قوله عليه السلام : "كان فِيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وكانَ لَهُ ساحِرٌ، فأَتى السَّاحِرُ المَلِكَ، فَقالَ: قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَدَنا أَجَلِي، فادْفَعْ لي غُلاما أُعَلِّمْهُ السِحْرَ. فَدَفَعَ إليهِ غُلاما يُعَلِّمُهُ السِحْرَ، فَكانَ الغُلامُ يَخْتَلِفُ إلى السَّاحِرِ، وكانَ بَينَ السَّاحِرِ وبَينَ المَلِكِ راهِبٌ، فَكانَ الغُلامُ إذَا مَرَّ بالرَّاهِبِ قَعَدَ إلَيْهِ، فَسَمِعَ مِنْ كَلامِهِ، فَأُعْجِبَ بِكَلامِهِ فكان الغُلامُ إذَا أَتى السَّاحِرُ ضَرَبَهُ وَقالَ: ما حَبَسَكَ؟ وَإذَا أَتى أَهْلَه قَعَدَ عِنْدَ الرَّاهِبِ يَسْمَعُ كَلامَهُ، فإذَا رَجَعَ إلى أَهْلِهِ ضَرَبُوهُ وَقالُوا: ما حَبَسَكَ؟ فَشَكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ لَهُ الرَّاهِبُ: إذَا قالَ لكَ السَّاحِرُ: ما حَبَسَكَ؟ قُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي، وإذَا قالَ أَهْلُكَ: ما حَبَسَكَ؟ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَما هُوَ كَذلكَ إذْ مَرَّ فِي طَرِيقٍ، وإذَا دَابَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الطَّرِيقِ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ لا تَدَعُهُمْ يَجُوزُونَ! فَقالَ الغلامُ: الآنَ أَعْلَمُ: (هل) أَمْرُ السَّاحِرِ أَرْضَى عِنْدَ اللَّهِ أَمْ أَمْرُ الرَّاهِبِ؟ فأَخَذَ حَجَرا، وَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَاحِرِ فإنِّي أَرْمِي بِحَجَرِي هَذَا فَيَقْتُلُها (الدابة) وَيَمُرُّ النَّاسُ. فَرَماها فَقَتَلَها، وَجازَ النَّاسُ فَبَلَغَ ذلكَ الرَّاهِبَ. وأَتاهُ الغُلام فَقالَ الرَّاهِبُ للغُلامِ: إنَكَ خَيْرٌ مِنِّي، وَإنِ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّنَّ عَلَيَّ. وكانَ الغُلامُ، يُبْرِىء الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، وَسائِرَ الأَدْوَاءِ. وكان للمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِيَ، فَقِيلَ له: إنَّ هاهُنا غُلاما يُبْرِىءُ الأكمَهَ والأَبْرَص وَسائِرَ الأَدْوَاءِ، فَلَوْ أَتَيْتَهُ؟ فاتَّخَذَ لَهُ هَدَايا ثُمَّ أَتاهُ فَقالَ : يا غُلامُ إنْ أَبْرَأْتَنِي فَهَذه الهَدَايا كُلُّها لَكَ، فَقال: ما أنا بطَبِيب يَشْفِيكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَشْفِي، فَإذَا آمَنْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكَ، فَآمَنَ الأَعْمَى، فَدَعا (الغُلام) اللَّهَ فَشَفَاهُ. فَقَعَدَ الأَعْمَى إلى المَلِكِ كَمَا كانَ يَقْعُدُ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: أَلَيْسَ كُنْتَ أَعْمَى؟ قالَ: نَعَمْ قالَ: فَمَنْ شَفَاكَ؟ قالَ: رَبِّي قالَ: ولَكَ رَبٌّ غَيرِي؟ قَال: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ بالعَذَابِ وَقالَ: لَتَدُلَّنِّي عَلى مَنْ عَلَّمَكَ هَذا، فَدَلَّ عَلى الغُلامِ، فَدَعا الغُلامَ، فقالَ له: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فأَبى الغُلامُ فأَخَذَهُ بالعَذَابِ فَدَلَّ عَلى الرَّاهِبِ، فأَخَذَ الرَّاهِبَ، فَقالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فأَبى. فَوَضَعَ المِنْشارَ عَلى هامَتِهِ فَشَقَّهُ حتى بَلَغَ الأَرْضَ، وأَخَذَ الأَعْمَى فَقالَ: لَتَرْجِعَنَّ أَوْ لأَقْتُلَنَّكَ فأَبى الأَعمَى، فَوَضَعَ المِنْشارَ عَلى هامَتِهِ، فَشَقَّهُ حتى بَلَغَ الأَرْضَ. ثُمَّ قالَ للغُلامِ: لَتَرْجِعَنَّ أَوْ لأَقْتُلَنَّكَ فأَبى. فقال (لجنده): اذْهَبُوا بِهِ حتى تَبْلُغوا بِهِ ذِرْوَةَ الجَبَلِ، فَإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإلاّ فَدَهْدِهُوهُ (دحرجوه مع الجبل). فَلَمَّا بَلَغوا به ذِرْوَةَ الجَبَلِ فَوقَعُوا فَمَاتُوا كُلُّهُمْ. وَجاءَ الغُلامُ يَتَلَمَّسُ حتى دَخَلَ عَلى المَلِكِ، فَقَال: أَيْنَ أَصحَابُكَ؟ قال: كَفانِيهِمُ اللَّهُ. قال: فاذْهَبُوا بهِ فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ (سفِينة عظيمة)، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإلاّ فَغَرِّقُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ قالَ الغُلامُ: اللَّهُمَّ اكفِنِيهِمْ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَفِينَةُ. وَجاءَ الغُلامُ=

يَتلَمَّسُ حتى دَخَلَ على المَلِكِ فَقالَ المَلِكُ: أيْنَ أصحَابُكَ؟ فقال: دَعَوْتُ اللّهَ فَكَفانِيهِمْ، قال: لأَقْتُلَنَّكَ، قال: ما أنتَ بِقاتِلي حتى تَصنَعَ ما آمُرُكَ : اجْمَعِ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ، ثُمَّ اصْلُبْنِي، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنانَتي فارْمِنِي وَقُلْ: باسْمِ رَبِّ الغُلامِ، فإنّكَ ستَقْتُلُنِي. قال: فَجَمَعَ النّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ قال: وَصَلَبَهُ وأخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنانَتِهِ، فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ رَمى، فَقال: باسْمِ رَبِّ الغُلامِ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِ الغُلامِ، فَوَضَعَ يَدَهُ هَكَذا عَلَى صُدْغِهِ، وَماتَ الغُلامُ. فَقالَ النّاسُ: آمَنّا بِرَبِّ الغُلامِ! فَقالُوا لِلْمَلِكِ: ما صَنَعْتَ؟ الّذِي كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَ، قَدْ آمَنَ النّاسُ. فأمَرَ بِأفْوَاهِ السِّكَكِ (حديد المحراث) فأُخِذَتْ، وخَدَّ الأُخْدُودَ وضَرَّمَ فِيهِ النِّيرَانَ، وأخَذَهُمْ وَقَالَ: إنْ رَجَعُوا وَإلاّ فألْقُوهُمْ فِي النّارِ، فَكانُوا يُلْقُونَهُمْ فِي النّارِ، فَجاءَتِ امْرأةٌ مَعَها صَبِيٌّ لَهَا. فَلَمّا ذَهَبَتْ تَقْتَحِمُ وَجَدَتْ حَرَّ النّارِ، فَنَكَصَتْ، فَقَالَ لَهَا صَبِيُّها يا أُمّاهُ، <u>امْضِي فإنّك عَلى الحَقّ، فاقْتَحَمَتْ فِي النّارِ».</u>

26- سورة التيــن

- تقديـــم

يتوقف فهم معاني هذه السورة والقصد منها على فهم العلاقة بين العناصر الأربعة التي وقع القسم بها في مستهلها: التين، الزيتون، طور سينين، والبلد الأمين.

والإشكال الذي يطرح نفسه على مستوى القسم بهذه العناصر ذو شقين: أحدهما معنى "التين والزيتون"، والثاني علاقتهما بالعنصرين الآخرين (طور سنين، والبلد الأمين). أما طور سينين (أي جبل سينين أو سيناء) فمعروف. إنه الجبل الذي كلم الله فيه موسى في جزيرة سينا. و"البلد الأمين" معروف كذلك وهو مكة المكرمة. كل ذلك معروف على مستوى معهود العرب زمن نزول هذه السورة. وكما قلنا، وكررنا القول، فالقرآن لا يخاطب العرب، ولا يعقل أن يخاطبهم، إلا بما يفهمون، أي بما يقع على مستوى معهودهم.

يبقى "التين والزيتون" وهما معروفان لدى العرب على مستوى المعنى اللغوي: التين: ثَمر معروف، والزيتون ثَمر معروف كذلك. لكن الذي ليس معروفا هو العلاقة بينهما وبين "طور سنين والبلد الأمين".

ذهب المفسرون في هذه المسألة مذاهب شتى، وأقرب الأقوال إلى سياق السورة قول القائل :"التين هو الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس". وأبيـــن منه ما ذُكر من أن الأمر يتعلق بجبلين من الأرض المقدسة، "يقال لهما بالسريانية طور تيناً، وطور زيتاً، لأنهما منبتا التين والزيتون؛ فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء: فجبل التين بفلسطين وهو لعيسى عليه السلام. وجبل الزيتون وهو بالشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل[1]. وطور سنين (سيناء) مبعث موسى عليه السلام، و"البلد الأمين" (مكة) مبعث محمد صلى الله عليه وسلم". وإذن فعناصر القسم رموز للأنبياء الأربعة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وأيضا تأكيد لوحدة رسالاتهم.

1- قال في معجم البلدان : "طُورُ زَيتَا علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زَيتون عذري يسقيه المطر ولذلك سُمّي طور زيتا.

- نص السورة

1- أقسم بمواطن الأنبياء أن البعث والجزاء حق ...

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ[1]، وَطُورِ سِينِينَ[2]، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ[3]، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[4] (جواب القسم: خلقنا الإنسان في أحسن صورة)، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ[5] (جعلنا مصيره جهنم، باستثناء الذين آمنوا) [(2)]، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[6] (غير مقطوع).

2- فما الذي يحمل الإنسان بعد هذا على التكذيب بهما؟

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ[7] (بالحساب: والثواب والعقاب)؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ[8]! (يجازي الإنسان يوم القيامة حسب عمله).

- تعليق

بهذه السورة تنتهي المجموعة الأولى من السور القصار التي يبتدئ الخطاب فيها بالقسم بالأشياء الطبيعية كمقدمة عامة تقرر الأساس العقدي الذي ينبني عليه موضوع السورة. وكما أبرزنا في السور السابقة فإن فهم بنية القسَم، تتوقف على استحضار العلاقات التي تربط بين عناصره، خاصة بين القسم وجوابه، بين المقدمة العامة التي يعبر عنها القسم بهذه الصيغة أو تلك، وبين مضمون جوابه. إنه بدون الربط بين القسم وجوابه لا يمكن فهم القصد من الخطاب الذي يعبر عنهما، سواء كان هذا الخطاب سورة كاملة أو جزءا منها.

اختلف المفسرون في المقصود من قوله تعالى " ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ"، بعضهم قال: المقصود : "أرذل العمر"، وآخرون قالوا المقصود : "جهنم". وفي كلتا الحالتين يبقى الاستثناء في قوله "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون" يحتاج إلى توضيح. فعلى القول الأول : يطرح السؤال : ألا ينتهي "الذين آمنوا" الخ هم أيضا إلى أرذل العمر؟ أما على القول الثاني فإذا كان "الذين آمنوا" يردون هم أيضا إلى "أرذل العمر" فما معنى تخصيصهم بـــ"أجر غير ممنون" ؟

---

2 – نظيره قوله تعالى: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" (انظر قبله: سورة العصر رقم 10).

ونحن نرى أن هذه الإشكالات لا تطرح إلا إذا فهم لفظ "الإنسان" في السورة على أنه نوع الإنسان. أما إذ خصصناه بشخص بعينه كما هو الحال في سورة الشمس وسورة عبس فإن اللبس سيزول. والواقع أن ظروف نزول هذه المجموعة من السور التي تبدأ بأول ما نزل وهي سورة العلق، ظروف واحدة، والمخاطب فيها واحد بعينه: إما النبي عليه السلام لتسليته وتثبيت فؤاده إزاء استهزاء مشركي قريش ... وإما للرد على هؤلاء كجماعة أو كأفراد أو لامتداح المؤمنين الذي دخلوا في الإسلام وتعرضوا لما يستلزم تسليتهم. والغالب ما يقع التلميح في كل سورة إلى شخص معين من هؤلاء وأولئك بدون ذكر اسمه. علينا إذن أن نوجه تفكيرنا هنا إلى أحد رجالات قريش ممن يمكن أن ينطبق عليهم مضمون السورة. وفي هذا الإطار يخطر بالبال الوليد بن المغيرة أحد كبار زعماء قريش الذي نزلت فيه آيات عديدة (دون أن تذكر اسمه) والذي ورد اسمه في قائمة من سجد بعد قراءة الرسول لسورة النجم، وقد قيل عنه إنه لم يستطع السجود لأنه كان شيخا كبيرا "فرفع ترابا إلى جبهته فسجد عليه". فهذا الرجل تنطبق عليه الآيات التي نحن بصددها: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ" بمعنى أرذل العمر. ولكي لا يلتبس الأمر على الناس فيحملون لفظ "الإنسان" على النوع الإنساني، مؤمنين وكافرين، ولفظ "رددناه أسفل سافلين" على جهنم، جاء الاستثناء ليبين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل شيخوختهم وأثناءها "لهم أجر" وهذا الأجر "غير ممنون" أي غير مقطوع بسبب الدخول في حالة "أرذل العمر" التي يفقد الإنسان فيها تماسكه العقلي ويصبح غير مكلف لأن تمام الصحة العقلية شرط في التكليف. وبما أن الوليد بن المغيرة، أو من هو في مثل حاله، لا يدخل في "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" فهو لا يدخل في الاستثناء، وبالتالي لا إشكال في صرف معنى "أسفل سافلين" إلى جهنم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أثار المفسرون مسألة المقسم به في أقسام القرآن، من زاوية أن المقسم به يجب أن يكون شريفا يستحق القسم به، وظهرت آراء تتساءل كيف يقسم الله بمخلوقاته، ومنها ما هو خال من أي شرف يؤهله لذلك، مثل التين والزيتون والليل والنجوم والأفراس الخ؟

والواقع أن الداعي إلى مثل هذا السؤال هو الوقوف عند الألفاظ وحدها، ذلك أن السياق يوضح أن القسم ليس بهذه الأشياء منعزلة، بل هو قسم بالنظام الذي ينظم هذه الأشياء، والذي هو مظهر من مظاهر نظام الكون كله. والغالب ما يكون الغرض من القسم إبراز كيف أن ترابط الظواهر الكونية وتسلسلها عبر مراحل وأطوار تنطلق من بداية السلسلة (الخلق) لتنتهي إلى آخرها المحتوم (الفناء)، هو – أعني الغرض من القسم– إثبات إمكانية إيجاد هذه الأشياء من جديد، والغرض العام

الذي يقف وراء ذلك هو البرهنة بالمماثلة على أن أطوار حياة الإنسان مماثلة لأطوار الظواهر الكونية كلها: خلق من نطفة في أحسن صورة: وهل هناك ما هو أجمل وأطهر من صورة الصبي؟ ثم بعدها يأتي الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم أرذل العمر، ثم موت فبعث فعقاب أو ثواب ينتهيان بالخلود في الجنة أو في النار. تلك هي سنة رب العالمين أي القانون العام الذي أجرى عليه العوالم كلها: عالم الطبيعة الجامدة وعالم النبات والحيوان وعالم الإنسان... يبقى السؤال: لماذا هذه الأطوار، وخصوصا بالنسبة للإنسان؟ والبحث في هذا السؤال موضوعه تفصيل القول في المآل... ولم يحن وقته بعد.

27- سورة قريش

- تقديـــم

هذه هي المرة الوحيدة التي ذكر فيها القرآن "قريش" بالاسم، فما معنى قريش؟ في لسان العرب: "القَرْشُ: الـجمع والكسبُ والضم من ههنا وههنا، يُضَم بعضُه إلـى بعض... ومنه: قُرَيْشٌ، لِتَجَمُّعِهِم إلى الحَرَم، أو لأَنـهم كانوا يَتَقَرَّشُونَ البياعاتِ، فَيَشْتَرونَها". وفي معجم البلدان: "وقيل: سمّيت قريش قريشاً لتقرّشها إلى مكة من حواليها. وقيل سمّيت قريش لأنهم كانوا أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع".

عنصران اثنان تتحدد بهما قريش:

- أولهما: الإقامة في مكة وهي قلب الحَرَم. وتمنَع التقاليد العربية منذ القدم الإغارة عليها أو الحرب داخلها أو القيام فيها بأي نوع من أنواع الظلم والجور؛ ومن هنا اسم "البلد الأمين" الذي أطلقه عليها القرآن في السورة السابقة[1]. وقد ورد اسمها في القرآن المكي باسم "أم القرى" وهو من أسمائها، وذلك في قوله تعالى: "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا" (الأنعام 92). أما في القرآن المدني فقد وردت مرتين: مرة باسمها الشائع "مكة" : يقول تعالى: "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ" (الفتح 24)، ومرة باسم "بكة" في قوله تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

1- مما عزز الأمن والأمان في مكة إحلف الفضول الذي حضره النبي عليه السلام وكان شابا، وسببه أن أحد التجار اليمنيين قدم ذات مرة إلى مكة وباع سلعة إلى العاصي بن وائل، زعيم بنى سهم، فأبطأ هذا الأخير في دفع الثمن إليه وماطله كثيرا حتى يئس، فجاء اليمني إلى مكة وعرض ظلامته على رجال قريش، فوقف إلى جانبه بنو هاشم (وهاشم زوجته من بني النجار من يثرب وهم من اليمن) ومعهم بنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر الذين عقدوا إثر ذلك حلفا بينهم : "تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف : "حلف الفضول". وكان هذا الحلف نوعا من تطوير لحلف سابق سمي بحلف المطيبين. انظر كتابنا: العقل السياسي العربي. الفصل الثاني. ف 1

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ"، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" (آل عمران 96-97).

- وثاني العنصرين اللذين تتحدد بهما قريش هو التجارة. فعلا، كان أهل مكة "أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع". وهذا واضح من استعمال الخطاب القرآني لعبارات ومفردات من عالم التجارة والمال. ففي القرآن المكي نقرأ قوله تعالى: "فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (من القرآن) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" (المزمل 20). وقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ"" (فاطر 29). وقد استمر القرآن المدني في توظيف المفردات التجارية مثل قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الصف 10-11).

إن اعتبار لغة الخطاب، من هذا المنظور، يرفع كثيرا من التأويلات والشكوك التي شغلت المفسرين في محاولتهم تفسير الآيات الأربع التي تتألف منها سورة قريش.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ[1]، **إِيلَافِهِمْ** (اعتيادهم) **رِحْلَةَ الشِّتَاءِ** (للتجارة إلى اليمن) **وَالصَّيْفِ**[2] (إلى الشام شمالا)، **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**[3] (الكعبة)، **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ** (بالتجارة) **وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**[4] (تحريم الاعتداء والسرقة والغزو الخ احتراما لهذا البيت).

- تعليق

ومما استعصى على المفسرين فهمه حرف "اللام" في "لإيلاف"، ثم حرف الفاء الرابطة بين الآيتين (2-3). لقد ذهب كثير منهم إلى ربط بداية هذه السورة بنهاية سورة الفيل (رقم 16) بناء على أنهما تشكلان سورة واحدة -كما ذكرت ذلك بعض الروايات- أو بناء على أنهما سورتان اثنتان متصلتان بحيث يكون قوله تعالى في أول سورة قريش "لإيلاف قريش" بيانا للسبب الذي من أجله دمرت الطير الأبابيل - التي سلطها الله على أصحاب الفيل- المهاجمين لمكة، كما ورد في آخر سورة الفيل: "فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ" (الفيل 5). وبذلك يكون المعنى : "أهلكت أصحاب الفيل من

أجل إيلاف قريش، أي لكي تتمكن قريش من مواصلة رحلتيها للتجارة : رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام". قال صاحب الكشاف: "وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصحّ إلاّ به". وبذلك تكون "الفاء" في "فليعبدوا" في معنى الشرط بمعنى : "أنّ نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة" (الكشاف). وإلى جانب هذا التأويل الذي يبدو معقولا ولكن على حساب الجمع بين سورة الفيل وسورة قريش [2]، هناك تأويلات عديدة أضعف كثيرا من هذه مثل تلك التي تعتبر اللام هنا حرف تعجب...

أما التأويل الذي نرجحه نحن فهو التالي: من أجل إيلاف قريش ... فليعبدوا ... بمعنى أن هناك عملية "تقديم وتأخير" (لتعبد قريش... لإيلافها) وهذا النوع من "التقديم والتأخير" كثير في القرآن. والمعنى: إن على قريش أن تعترف بنعم الله عليها فتعبده وتؤمن برسوله : وهذه النعم صنفان: أنعم عليها أولا بالسكنى في مكة هذا "البلد الأمين"، الذي يأمَنون فيه من الخُوف، لوجود الكعبة "بيت الله" فيه، مما جعل منه أحد الأمكنة الثلاثة المقدسة، بعد طور تينا (القدس: مهد عيسى) وطور سيناء (الذي كلم الله فيه موسى). وأنعم عليها ثانيا بكون موقع هذا البلد قد مكنهم من القيام برحلتين على مستوى التجارة الدولية: واحدة في الشتاء إلى اليمن، والثانية في الصيف إلى الشام، وبذلك آمنهم من جوع.

2- هذا الجمع لا يستقيم إلا على أساس ترتيب المصحف حيث وردت سورة الفيل وبعدها سورة قريش مباشرة. أما على ترتيب النزول فالمسافة بينهما واسعة: رتبة سورة الفيل تتحرك في اللوائح ما بين 17 و 19 بينما تتحرك رتبة سورة قريش ما بين 28 و29! وإذن فهذا التأويل لا يستقيم.

استطراد واستشراف.

الرب، الله، الرحمان

سبعة وعشرون سورة مرت حسب "ترتيب النزول" الذي اعتمدنا فيه مرجعيات ثلاث: 1) لوائح ترتيب النزول المتوفرة. 2) ما ورد من أخبار ومرويات حول أسباب نزول هذه السورة أو تلك، هذه الآية أو تلك. 3) ما استفدناه من السور نفسها، من آياتها وسياقها، ووجوه اتصال بعضها مع بعض. لقد قطعنا الآن المرحلة الأولى من مراحل التنزيل، وبالتالي من مسار الدعوة المحمدية، قرآنا منجما وسيرة نبوية.

ولكي نجعل القارئ يشعر معنا بأهمية هذه المرحلة لن نحتاج إلى تكرار ما كان حاضرا معنا خلال تحركنا على مسارها، وليس العهد ببعيد، ولذلك سنحاول القيام بنوع من الاستطراد أو الاستشراف نحو ما لم يحضر بعد. إن قراءنا، والمسلمين منهم خاصة، يعرفون، ولو بالاسم وحده، أهم "مفردات" الخطاب الديني الإسلامي، أعني المصطلحات والمفاهيم، العقدية منها والفقهية. وبما أن القرآن المكي هو أساسا كتاب عقيدة وأخلاق، وبما أننا الآن في نهاية مرحلة بدأ فيها تشكل العقيدة حسب سنة القرآن في التدرج، فإن سؤال الحضور والغياب الذي سنطرحه لا ينبغي أن يتجاوز الآن هذا النطاق.

الرب ...

أبرزنا في الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة أن الخطاب فيها يدور حول ثلاثة محاور: الرب، الله، الرحمان. ونستطيع الآن أن نلاحظ أن من الأسماء التي لم تكن حاضرة بشكل محوري: لفظ "المسلمون" ولفظ "المؤمنون". وهذه الملاحظة تطرح سؤالا، لا يخلو من أهمية على مستوى الربط بين التنزيل ووقائع السيرة، هذا السؤال هو: كيف سمى القرآن أتباع الدعوة المحمدية في هذه المرحلة؟ إذا نحن عدنا إلى السور التي سبقت فإن المعنى الذي سيعبَّــر عنه لاحقا بلفظ "مسلم" و"مؤمن" قد تم التعبير عنه فيما سبق بلفظ "من تزكى". وقد استعمل هذا الفعل مرارا كما رأينا ولكنه لم يستعمل كـ "اسم" وإنما استعملت بدله عبارة "من تزكى"، كما استعمل لفظ

"الأتقى" كمقابل لـ "الأشقى". أما لفظ "الكافرون" فمع أنه سميت به سورة خاصة، فلم يستعمل مقابله بعد، أعني : "المؤمنون".

سنقف عند هذه الملاحظات في ما يتعلق بالألفاظ الأخيرة. وسنخصص هذا الاستطراد الاستشرافي للفظ "الرب" الذي تم التعبير عنه أيضا، باسم "الله"، ثم باسم الرحمان.

لفظ الرب في اللغة هو مِنْ "رَبَّــهُ يَرُبُّــه رَبّــاً: مَلَكَه". يقال: ""طالَتْ مَرَبَّــتُهم الناسَ وربابَــتُهم أي مَمْلَكَتُهم". والعِبادُ مَرْبُوبونَ للّهِ عزّ وجلّ، أي مَمْلُوكونَ". "ورَبــبْتُ القومَ: سُسْتُهم أي كنتُ فَوْقَهم"... ويقال: ورَبَّاد تَرْبِيَةً: أحسَنَ القِيامَ عليه، كان ابْنَه أو لم يكن" (لسان العرب).

هذا في اللغة. أما في القرآن فقد ورد اسم "الرب" مرات كثيرة (ربي، ربك، ربكم الخ)، كما ورد في قصص الأنبياء والرسل بنفس المعنى والصيغ [1]. ولفظ "الرب من صفات الفعل، (فهو كما رأينا من فعل "رَبَّهُ يَرُبُّهُ رَبّاً: مَلَكَه")، وهو يطلق على "السيد والمدبر والمالك والمنعم والقيم" الخ، وبصفة عامة "رب كل شيء: مالكه ومستحقه". فيقال مضافا: رب الدار، ورب البيت، وربات الحجال (قبّة العروس)، ولكنه لا يطلق غير مضاف (هكذا: الرب) إلا على الله. ومؤنث الرب: الربة. وكان هذا الاسم يطلق على الصخرة التي كان أهل ثقيف يعبدونها، واسمها اللات (أصلها "اللاة"، وقد فتحت التاء تجنبا للخلط مع "الله"). وكان لها بيت يضاهئون به الكعبة. هذا كما يجمع الرب على "أرباب"، وفي الإسلام يختص الله بلفظ "رب الأرباب". ومع أن هذا الاسم لم يرد في القرآن فهو شائع في الحديث والتفاسير الخ. أما "الرب الأعلى" فقد ورد في قوله تعالى: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" (الأعلى 1) ، وفي قوله : "إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى" (الليل 20)، كما ورد حكاية عن فرعون : "فَقَالَ (فرعون) أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" (النازعات 24).

ورد لفظ "الربّ" بصيغه المختلفة في القرآن (ربك، ربي، ربكم، ربه، ربهم، رب العالمين...) 767 مرة. لكن في السور الأولى، حسب ترتيب النزول، يكاد الخطاب باسم الرب ينحصر -كما رأينا- في الرسول عليه السلام. فمنذ "اقرأ باسم ربك" إلى

---

1 - وفي هذا الإطار نشير إلى أن لفظ "الرب" ورد في التوراة منفردا لأول مرة في الإصحاح الرابع من سفر التكوين (ت-د: الترجمة الدولية) هكذا: "وَعَاشَرَ آدَمُ حَوَّاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». أما قبل ذلك فكان اللفظ المستعمل هو "الرب الإله". أما (ت-ب: الترجمة البيروتية) فتارة تستعمل اسم الله، وتارة اسم "الرب" وتارة لفظ "الرب الإله". وسنشرح فيما بعد الاعتبارات التي تقف وراء هذا الاختلاف.

"قل هو الله أحد"، والرب هنا هو رب محمد عليه السلام، بمعنى أنه مربيه ومعلمه والمدبر لأمره وراعيه الخ. وبمعنى آخر منذ ابتداء الوحي وهو خاضع لتربية ربانية خاصة.

من جملة ما انصب عليه فعل "التربية الربانية" تعليمه كيفية تلقي الوحي وكيفية تقبُّل أن يكون نبيا رسولا، والاطمئنان إلى أن ذلك حق وأنه ليس من قبيل الشعر ولا من وسوسة الشيطان أو تأثير الجنون، وأن غياب حامل الوحي إليه (جبريل) لبعض الوقت لا يعني أن ربه تركه وتخلى عنه. وكيف يتخلى عنه وهو الذي رعاه منذ طفولته، يتيما، فقيرا، تائها في الطريق..! كان هذا الخطاب، خطاب التربية والرعاية، يتجدد كلما جد جديد. يدعوه إلى الصبر إزاء استهزاء قريش وإذايتهم له ولأصحابه، ويؤكد له غير ما مرة أن "بعد العسر يسرا". وأن النصر سيكون حليفه في النهاية.

وعندما كبرت الجماعة الإسلامية وأخذت الدعوة في الانتشار والتوسع، وبدأ الوحي يوجهه نحو آفاق جديدة، نبهه إلى ثقل المهمة التي اختاره لها، وأنها تتطلب الصبر الجميل، وأن الله سيكون معه يرعاه ويوجهه[2]. وفي الوقت نفسه أخذ خطاب الرب يوسع من مجاله ليشمل محمدا عليه السلام والمؤمنين برسالته، يواسيهم ويضرب لهم الأمثال ويقص عليهم ما جرى للأقوام الماضية الذين كذبوا برسلهم، ومن ثم يدعوهم إلى استخلاص العبرة من ذلك. وبالدخول في مجال تاريخ الأنبياء والرسل أصبح القرآن، الذي كان ينزل مفرقا ليقرأه على الناس على مكث، ينمو ويتطور ليصبح كتابا موجها للأميين (العرب) ليحولهم هم أيضا إلى "أهل كتاب" بعد أن عاشوا أمة أمية لا كتاب لها. ويتلقى الرسول من ربه خطابا يشعره بهذا التطور الذي سيسجل خطوة جديدة على مسار الدعوة، ويدعوه إلى عدم الدهشة والاستغراب من أن يكون القرآن كتابا في نفس الوقت. قال تعالى "المص، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" (الأعراف 1-3).

ومباشرة تشرع السورة في بيان أن هذا الرب الذي يخاطب محمدا وأصحابه هو أيضا رب جميع الأنبياء والمرسلين السابقين. ثم تتوالى سور القرآن المكية منها والمدنية لتؤكد أن الرب الذي خاطب محمدا أول مرة بـ "اقرأ باسم ربك" هو "رب الناس أجمعين"، "رب السماوات والأرض"، "رب العرش العظيم". وأنه كما يرعى

2- "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" (المزمل 5)، "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (الطور 48-49) الخ.

محمدا ودعوته قد فعل الشيء نفسه مع أنبياء ورسل سابقين، منهم من قص عليه أخبارهم وشرح له تجاربهم، ومنهم من لم يقصص عليه. وأنه كما يعاني هو، أعني محمدا عليه السلام، من قومه، من تكذيبهم وسخريتهم وأذاهم، عانى أولئك الأنبياء والرسل من أقوامهم ما يماثل ذلك أو أشد، وبالتالي فحاله ليست فريدة ولا استثناء، بل هي مظهر من سنة الله على أرضه، سنته التي تحكم حركات الظواهر الطبيعية كما تحكم تحركات التاريخ البشري بما في ذلك تحركات الأنبياء والرسل : "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الفتح 23). ولقد كان من الطبيعي تماما أن يعتري النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ما يعتري البشر -وهو واحد منهم- من أحوال نفسية وتمنيات من هذا النوع أو ذاك. وكان من الطبيعي كذلك أن ينتابه الأسى والأسف، من حين لآخر، بسبب إصرار قومه على الإعراض عن دعوته، خاصة منهم أولئك الذين كان لهم شأن قبلي أو اقتصادي والذين يفترض الإنسان أنهم إذا أسلموا تبعهم الناس، فيكون في ذلك اختصار للصعوبات والمشاق التي تعترض بإصرار طريق الدعوة.

كانت هذه المشاعر مبررة، على كل حال، من إنسان يعيش وضعا بشريا، يتمتع فيه أناس بالمال والسعة بينما يعاني آخرون من ضيق العيش. وقد حدث للرسول عليه السلام أن عانى من هذه الوضعية وما يتبعها من حزن وإحساس بالضيق، عندما شاهد ما كانت تتمتع به قريش من زينة وما كان يعانيه هو من ضيق العيش... فجاء خطاب الرب يواسيه ويبين له أن تغيير الوضعية محكوم بكلمة (=قرار) سبقت من ربه الذي قدر لكل شيء أجلا مسمى، وأن مصير خصومه سيكون كمصير الأمم الماضية التي كذبت رسلها وضيقت عليهم. يقول تعالى: "أَفَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لَهُمْ (للمشركين) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (العقول). وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بأن عيَّن لكل أمر أجلا) لَكَانَ لِزَامًا (هلاكهم الآن، لكن سبقت كلمة ربك) وَأَجَلٌ مُسَمًّى (لذلك)، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا (رجالا ونساء) مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى" (طه 128-132).

لكن توالي الشدائد وإصرار قريش على العناد وكثرة تدخلاتهم من أجل حل وسط (وهم تجار مستعدون دائما لحل وسط)، جعل النبي عليه السلام يأسف لعدم استجابتهم وأحيانا يخطر له أن يجرب استمالتهم بوعد من الوعود. لكن ربه كان

حاضرا دائما يثبته، وأحيانا يحذره ويعاتبه: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (يونس 109). وهكذا فعندما طلبت منه قريش أن يبعد عنه من سموهم بـ "الأراذل" أي الفقراء والموالي حتي يمكن أن يجلسوا معه، جاء القرآن بالأمر التالي: "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الكهف 52). وفي نفس المعنى خاطبه ربه: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَقُلِ: (هذا هو) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ". (الكهف 29). وأيضا : "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" (الروم 60)، "وَاصْبِرْ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" (نوح 127). وكان قد سبق له أن تلقى عتابا بسبب موقفه من رجل أعمى، ابن خال خديجة زوجته، عندما جاء يطلب أن يستقبله بينما كان منشغلا ببعض كبار قريش. كما رأينا في سورة "عبس".

ولاشك أن الرسول (ص) كان يحس في بعض الأحيان، إزاء إصرار قومه على الإعراض عن دعوته، بما يشبه الشعور بالفشل في المهمة، وفي هذه الحال يأتيه الوحي ليذكره بحدود مهمته، فهو ليس مكلفا بإجبارهم علي الإيمان وإنما المطلوب منه أن يذكرهم بالقرآن: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ" (ق- 45). وإذا كانوا قد أغلقوا باب الاستجابة وصاروا كالأموات لا يسمعون فليس على الرسول أن يُسمع الموتى : "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ" (فاطر 22- 23). وإذا كانوا قد اتخذوا موقف الذي لا يرى ولا يسمع فالواجب أن يعرض عنهم : "وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ" (النمل 81).

على أن منهم من يستمعون إليه ولكن بآذانهم فقط إنهم لا يستعملون عقولهم ولا يتدبرون ما يسمعون: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ! أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ" (يونس 42-43). ثم إن حرصه على أن يؤمنوا، وقلقه من إعراضهم عنه، شيء أراده الله، فليس علي النبي أن يحاول عبثا إكراههم علي الإيمان: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا! أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"؟ (يونس 99)، "إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ

عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ". (الزمر 41)، "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ" (الغاشية 21- 22).

وكانت قريش قد تحدوا النبي عليه السلام : "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا" (الإسراء 90-91)، فأثر ذلك في نفسه تأثيرا كبيرا، فجاء القرآن يواسيه ويثبته، قال تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ (مهلك) نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا! إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا" (ترابا لا نبات فيه. الكهف 6-8) وحدث "أن قريشاً خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلّم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه، ويسوّدونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيّدُنا الخ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم صرفه الله من ذلك"، وفي هذا نزلت هذه الآية : "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" (الإسراء 73-74). وعندما عزمت قريش على إخراجه من مكة جاءه الأمر من ربه بالهجرة، وقيل في ذلك نزل قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ (مكة) لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ (وراءك) إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" (الإسراء 75-77). تلك هي عناصر من "التربية الربانية" التي تلقاها محمد بن عبد الله في دعوته الناس إلى الإسلام: تربية تمارس على المكلف بالدعوة نوعا من النقد الذاتي البناء لا ينتهي. وما يميز هذه التربية هو غياب العنف غياباً تاما عن أفقها. إن شعارها : الصبر والمثابرة ومحاسبة النفس والسير وفق سنة الحياة التي هي سنة الله التي خلت من قبل ولا يمكن تغييرها: "فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (فاطر 43). خطاب الرب خطاب أخلاق، خطاب سلم وسلام.

على أن خطاب "الرب" لم يكن مخصوصا بمحمد عليه الصلاة والسلام، بل لقد أخذت دائرة المخاطبين به تتسع مع انتشار الدعوة ليصبح "رب الناس" جميعا، المؤمنين منهم وغير المؤمنين. ومع أن المرء قد يتوقع أن خطاب الرب إلى المؤمنين سيكون إيجابيا واعدا دائما، وأن خطابه إلى غير المؤمنين من كفار قريش وغيرهم سيكون متوعدا دائما، فإن استقراء القرآن يكذب هذا التوقع. ذلك أنه يمكن القول، بصورة عامة، إن جميع ما ورد في القرآن مقترنا بـ "الرب"، أو محيلا إليه، قد جاء كله في عبارات تحمل معنى إيجابيا، ولم يقترن اسم "الرب" بما هو سلبي إلا نادرا كما في قوله: "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ

يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى" (الفجر 21-23)، وقوله: "فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا" (الشمس -14)، وقوله "إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (البروج 12)، وقوله: "قَالَ (هود) قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ (قوم عاد) مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ" (الأعراف 71). وغني عن البيان القول إنه حتى في هذه الحالات النادرة يتعلق الأمر بـ "الإخبار"، من دون وعيد أو تهديد صريحين.

وهناك آيات ورد فيها اسم "الرب" في موقف إيجابي وبعده يأتي اسم "الله" في موقف يشعر بالشدة، مثل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" (البقرة 26)، وقوله: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (البقرة 149). وقوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ (تتوسلون به في الطلب من بعضكم بعضا) وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء 1).

أما فيما عدا ذلك فالسائد هو المعنى الإيجابي بإطلاق، من ذلك قوله تعالى: "إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ" (النجم 32). وقوله: "وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف 153). وإذا كان الموقف يقتضي الشدة واللين، فاللين يأتي لاحقا ليكون هو المصير. من ذلك قوله تعالى في عدة آيات: "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ (الشديد) الرَّحِيمُ (الشعراء 9)، وقوله "إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف 167). أما الدعاء فهو يتضمن -في سياق التوجه إلى "الرب"- الاعتراف بالضعف والذنب كما يعترف كل من يرجو خيرا ممن يوجه إليه الدعاء: "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (البقرة 286).

ونعود فنلخص ما سبق في كلمات، فنقول : إن لفظ "الرب" من أسماء الأفعال لا من أسماء الذات. وكونه من أسماء الأفعال وأن معناه الاشتقاقي يعود بنا إلى الفعل التربوي، فعل المربي، فإن معناه في القرآن الكريم ينصرف -حتى في حال دلالته على ما يفيد الشدة- إلى ما يفيد الرعاية والإنعام وحسن التدبير وأيضا التنبيه إلى مكامن الخطأ والضرر.

الله ...

تحدثنا عن معنى لفظ "الرب" الذي استعمله القرآن في السور السابقة وقلنا عنه إنه من أسماء الأفعال، ولذلك اقترن بفعلي "خلق" و "علم" في سورة "اقرأ باسم ربك الذي خلق من علق"، "الذي علم بالقلم". أما اسم "الله" فهو من أسماء الذات وأصله "الإله". يقول أهل اللغة "هو نظير لفظ "الناس" الذي أصله "الأناس": حذفت الهمزة وعوّض عنها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا ألله بالقطع، كما يقال: يا إله. و"الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه". وأما لفظ "الله" بحذف الـــهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الاسم اشتق: تألّه، وألّه، واستأله. كما قيل: استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر. فهو إذن اسم وليس صفة. يقول الزمـــخشري: "ألا تراك تصفه ولا تصف به، لا تقول : شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل. وتقول: إله واحد صمد، كما تقول: رجل كريم خيِّر. وأيضاً فإنّ صفاته تعالى لا بدّ لها من موصوف تجرى عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال". ويضيف: "فإن قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنىً واحدٌ، وصيغة هذا الاسم صيغة قولهم: ألِهَ، إذا تحيَّر، ومن أخواته: دلِه، وعلِه، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أنّ الأوهام تتحير في معرفة المَعبود وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقلّ النظر الصحيح. فإن قلت: هل تفخم لامه (لام الله)؟ قلت: نعم قد ذكر الزجاج أنّ تفخيمها سنة، وعلى ذلك العرب كلهم، وإطباقهم عليه (موافقتهم) دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر" .

هذا التعدد في بيان أصل لفظ "الله" في لغة العرب، أعني عدم استقرار لغوييهم على جذر واحد واضح للكلمة، دفع بعضهم إلى البحث له عن أصل ما، في اللغات الأجنبية، فقال بعضهم إن أصله من السريانية "لاَها"، حيث أطلق هذا اللفظ علَما على الله فعُرِّب بحذف الألف وإدخال اللام عليه. وهناك من رجع بأصله إلى كلمة "إلوهيم" بالعبرانية وهي جمع "إلو" أو "إلوه"، وتطلق على اسم الجلالة : الله. وقد عرض الأستاذ المرحوم محمد تقي الدين الهلالي لهذا الموضوع في مقال له بعنوان "ما وقع في القرآن بغير لغة العرب" ورد فيه ما يلي، قال: "ومن ذلك المعركة الكبرى التي خاضها علماء العربية في لفظ الجلالة "الله" أهو مرتجل أم مشتق؟ وإن كان مشتقا فهل اشتقاقه من "أله" أو من "وله" أو من "لاه"، وما هو أصله على كل من هذه الأوجه؟ وماذا جرى عليه من الحذف والإدغام حتى بلغ صورته التي هو عليها"؟

وأضاف: "ومن تعلَّم شيئا من اللغات السامية، أخوات اللغة العربية، لا ينقضي عجبه من الخائضين في تلك المعركة، ويرى جهودهم ضائعة ويحكم يقينا أن الاسم الكريم مرتجل بلا مرية، وهو بعيد كل البعد من الاشتقاق، فإنه ثابت بهذا اللفظ في جميع اللغات السامية ففي السريانية "ألاها" والشرقيون منهم ينطقون به "ألاهو" وهو كذلك في الآشورية، بفتح الهمزة في اللغات الثلاث. وبالعبرانية "ألوهيم".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك جدل حول لفظ "ألوهيم" بالعبرانية؛ فقد ورد في التوراة هكذا على صيغة الجمع (المفرد : أيلو، والجمع ألوهيم)، الشيء الذي دفع بعض علماء المسيحية إلى القول إن التثليث ليس خاصا بالمسيحية بل هو أصل أصيل في التوراة. وحسب المختصين في الموضوع هناك تصوران للألوهية في التوراة. الأول يعبِّر عنه بـ"ألوهيم" (الإله، أو الله)، والثاني يُعبِّر عنه بالاسم المفرد "يهوه". ألوهيم (الإله) يدل على معنى الألوهية عند جميع الشعوب السامية تقريبا، الشيء الذي يعكس الاستمرارية بين "إله الأمم" (إله القبائل والشعوب غير اليهودية) وبين إله بني إسرائيل. وعندما كشف الرب عن اسمه لموسى فإن هذا اللفظ الذي كان مستعملا عند الفينيقيين وغيرهم قبل العبرانيين، لم يعد له من معنى خاص إلا بالنسبة لبني إسرائيل الذين خاضوا تجربة "القرب من الله" عندما كلم الله موسى تكليما. "فعندما جرى اللقاء بين الله وموسى في شجرة العليقة وتم تكليفه بإخراج بني إسرائيل من مصر" : "13قَالَ مُوسَى للهِ: حِينَمَا أُقْبِلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ إِلَهَ آبَائِكُمْ قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، وَسَأَلُونِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟ 14فَأَجَابَهُ اللهُ : «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ» (وَمَعْنَاهُ أَنَا الْكَائِنُ الدَّائِمُ). وَأَضَافَ: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: "أَهْيَهْ" (أَنَا الْكَائِنُ)، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ" (الخروج 3، 13-15، د-ت)، ومن هنا اسم "يهوه" ومعناه "الذي هو"، أي الإله القومي لبني إسرائيل. واحتراما منهم لهذه التجربة تجنبوا النطق بهذا الاسم عند أدائهم لشعائرهم في بيعهم، واستعملوا بدله اسم "أدوناي" أي "السيد، المولى" Seigneur، أو "ألوهيم"، وهذا في التوراة خاصة، وذلك عندما يأتي اسم "الرب" مباشرة قبل اسم "يهوه" في عبارة "الرب يهوه" (الرب الإله)، الذي أصبح عندهم إلها كونيا. ومن هنا اتخذ يهوه عندهم -على صعيد الاشتقاق اللغوي- معنى "الموجود" أو "الصيرورة"، ومن ثم "الموجد" أو "الخالق.

هذا، وقد انعكس هذا الطابع "الجمعي" للفظ "ألوهيم" في الترجمات العربية للتوراة. ففي (ت-د) ورد التعبير عن ألوهيم بلفظين "الرب الإله" وأحيانا يضاف إليهما لفظ ثالث كما في النصوص التالية: "4هَذَا وَصْفُ مَبْدَئِيٌّ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ (التكوين 2). "22فَأَجَابَهُ أَبْرَامُ: "لَقَدْ أَقْسَمْتُ بِالرَّبِّ الإِلَهِ الْعَلِيِّ، مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ". (التكوين 14). "33وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ شَجَرَ أَثْلٍ فِي بِئْرِ سَبْعٍ،

وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ الإِلهِ السَّرْمَدِيِّ، 34وَمَكَثَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِلاَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ فَتْرَةً طَوِيلَةً (التكوين 21). "17لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ إِلهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، الإِلهُ الْعَظِيمُ الْجَبَّارُ الْمَهِيبُ" (التثنية).

أما في القرآن الكريم فقد ورد جواب الله على سؤال موسى على ثلاث صيغ: "إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا" (طه 14)، و"إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (القصص 30)، و"يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (النمل 9). (بخصوص هذا اللقاء راجع التعريف بالقرآن: القصص في القرآن المكي. 3-المرحلة الثانية. قصة موسى وفرعون. د- في سورة القصص).

كان ذلك ملخصا عن مفهوم الإله في اليهودية، أما في المسيحية فالأمر يختلف، إذ يؤمن المسيحيون بالتثليث أي يتصورن الله "ثالث ثلاثة" : الآب والابن والروح القدس، بمعنى أن هذه الأقانيم الثلاثة عبارة عن ثلاث خواص جوهرية لإله واحد ورب واحد. وهذه الوحدة بين هذه الأقانيم هي عندهم أسرارا كشفها الله، وطريق التسليم بها هو الإيمان، أما العقل البشري فقاصر عن إدراكها، "وهل يمكن للمخلوق أن يدرك ذات الخالق"؟! ومن هنا اعتقاد المسيحية في أن حقيقة الله لا يعرفها إلا من أراد الله أن يكشفها له.

- الرحْمان ...الرحيم

سبق القول إن لفظ "الرحمان" هو ثالث الأسماء التي سمى الله به نفسه : لقد تعرفنا على معنى الرب، وعلى ما قيل في اسم الجلالة (الله)، فلننقل الآن في اسم "الرحمان" الذي ورد لأول مرة في سورة الفاتحة[3] في قوله تعالى "الرحمان الرحيم".

كان العرب قبل الإسلام يعرفون اسم الجلالة (الله) بشهادة القرآن في آيات عديدة مثل قوله تعالى: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" (لقمان 25)، لكن يبدو أن اسم "الرحمان" لم يكن ضمن قاموسهم الديني، أو على الأقل لم يكونو ا يعترفون به بوصفه كذلك. ذلك ما يستفاد من عدة آيات منها قوله تعالى: "كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ، لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ! قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ" (الرعد 30)، وقوله: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا" (الفرقان 60).

3- هذا صحيح بقطع النظر عن الترتيب الذي اخترناه، لأن رتبة الفاتحة في ترتيب النزول المعتمد هي الخامسة.

بوسع المرء أن يفترض أن قريشا كانت تعرف لفظ الرحمان بوصفه مشتقا من "رحم يرحم فهو رحمان"، كـ "غضب يغضب فهو غضبان" الخ، وأنها إنـما كانت تعترض على الـمسمى بهذا الاسم في الخطاب القرآني بوصفه "الله"، وبالتالي فالإله الذي يوحي إلى الرسول عليه السلام ليس هو الله في نظر قريش، ولذلك قالوا : "إنـما يعلمه صاحب "رحمان اليمامة"، أي الإله الذي كان مدعي النبوة في شرق الجزيرة مسيلمة الحنفي يدعو إليه باسم "الرحمان". وهذا الاعتراض على "رحمان اليمامة" من طرف قريش يمكن النظر إليه على أنه من مظاهر التنافس التاريخي بين "ربيعة" (قبائل شرق الجزيرة) و"مضر" (قبائل غرب الجزيرة). ومما يزكي هذا الافتراض ما رواه الطبري وغيره من "أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم كان يتهجّد بمكة ذات ليلة، يقول في سجوده: "يا رَحْمَنُ يا رَحيـمُ"، فسمعه رجل من المشركين، فلما أصبح قال لأصحابه: انظروا ما قال ابن أبي كبشة (يعنون النبي عليه السلام)[4]، يدعو الليلة الرحمن الذي باليمامة".

هناك من اللغويين القدامى من إعتبر اسم "الرحمان" معربا من العبرانية. ذكر القرطبي عن ابن الأنباري عن المبرد "أن الرحمن اسم عبراني نقل إلى العربية. قال: وأصله بالخاء المعجمة، أبدلت خاؤه حاء مهملة عند أكثر العرب كشأن التغيير في التعريب". وأضاف القرطبي: قال أبو إسحق الزجاج نقلا عن أحمد بن يحيى: "الرحيم" عربي، و"الرحمان" عبراني، فلهذا جُمع بينهما" (الرحمان الرحيم)!

وقد ناقش المرحوم محمد تقي الدين الهلالي في المقال المشار إليها آنفا هذا الرأي فكتب يقول: "الرحمن كلمة عربية خالصة من الرحمة بزيادة الألف والنون كظمآن وعطشان، وكانت العرب تعرفه وتفهم معناه وقد سموا به مسيلمة الكذاب فكانوا يدعونه (رحمان اليمامة) ولكنهم لجهلهم لم يكونوا يعلمون أنه من أسماء الله". وأضاف: "ومن أعجب العجب قولهم (اللغويين) إنه عبراني وإن أصله بالخاء المعجمة، والخاء المعجمة لا وجود لها في العبرانية استقلالا، وإنما تنطق الكاف بها إذا جاءت قبلها حركة مثل (هبراخا) البركة ومثل باروخ، أي مبارك. ومعناه (يعني

4- هناك عدة روايات في السبب الذي من أجله كانوا يكنون رسول الله بابن أبي كبشة، ذكر منها صاحب لسان العرب ما يلي، قال: "أَصلُه أَنّ أَبا كِبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأَوثان وعَبَدَ الشِعْرَى العَبُور، فسَمّى المشركون سيدَنا رسول الله، ابن أَبي كَبشة لخلافه إِياهم إِلى عبادة الله تعالى، تشبـيهاً به، كما خالفهم أَبو كَبْشة إِلى عبادة الشِّعْرَى". وقال آخرون: أَبو كَبْشَةَ كنية وهب بن عبد مناف جدّ سيدنا رسول الله، من قِبَل أُمّه، فنسب إِليه لأَنَّه كان نَزَعَ إِليه في الشبَه، وقيل: إِنّما قيل له ابن أَبي كَبْشَةَ لأَنَّ أَبا كَبْشة كان زَوْجَ المرأَة التي أَرْضَعَتْه".

الرحمان) بالعبرانية هو معناه بالعربية، إلا أنه في اللغة العبرانية، صفة عامة لكل من في قلبه رحمة ليس خاصا بالله تعالى. إذن فهو من الكلمات المشتركة بين العبرانية والعربية، وهي كثيرة تعد بالآلاف. والكلمات الأربع التي في البسملة كلها مشتركة بين اللغتين، فالاسم (شم) بإبدال السين شينا وذلك كثير في العبرانية، والله (الوهيم) والرحمن لفظه بالعبرانية كلفظه بالعربية إلا أداة التعريف فإنها بالعبرانية (هارحمان) والرحيم بالعبرانية (هارحوم). وهذه الكلمات الكثيرة المشتركة بين اللغات السامية هي أصلية في كل واحدة منها، لا يقال إن إحداهن أخذتها من الأخرى".

هذا عن اسم "الرحمان"، أما عن الفرق بينه وبين لفظ "الرحيم" فقد أكد جميع المفسرين أن "لفظ "الرحمان" يستقي معناه الشرعي من قوله تعالى: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (الأعراف-156) ولذلك "لا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له". أما الرحيم فيستعمل فيه وفي غيره، وأن معناه هو "مَن كثرت رحمته". قال تعالى: "إن الله غفور رحيم" (كثير المغفرة كثير الرحمة- البقرة 182)، وقال في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة-128)

والذي يبدو لي من هذا الذي أوردناه، وأيضا من استقراء آي الذكر الحكيم، هو أن "الرحمان" اسم للذات بينما الرحيم اسم للفعل. ومع أن كليهما من صيغ المبالغة لكن جهة المبالغة تختلف فيهما: فالمبالغة في فعلان، مثل غضبان وعطشان، تفيد الامتلاء والغلبة، امتلاء الذات بتلك الصفة إلى الدرجة التي تجعل منها جزءا من ماهيتها. أما مبالغة فعيل كرحيم وكريم فتفيد الكثرة والتكرار-تكرار فعل الرحمة والكرم. فهي إذن من صفات الفعل.

الرحمان اسم ذات ولا يطلق إلا على الله تعالى، فكيف نرتب علاقته مع اسم الجلالة "الله" وهو أيضا اسم ذات؟ يجيب الفخر الرازي عن هذا السؤال في مستهل تفسيره لسورة الرحمان فيقول: "إن الفرق بين اسم "الله" واسم "الرحمان" كالفرق بين الاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول، كما في قولنا: عمر الفاروق، وعليٌّ المرتضَى، وموسى الرِّضا، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرِّفة لهم، التي كانت لهم وصفاً، وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعَلَم. فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصاً بأولئك".

هذا وقد ورد لفظ "الرحمان" في القرآن 48 مرة منفردا بمعنى الرب، الله، كما في الآيات التاليات :" إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ". "قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ". "أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً! إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ". "قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" (يس 11 و 52). كما ورد مقترنا بـــ "الرحيم" في البسملة والفاتحة وفي قوله تعالى: "حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (فصلت 1-3)، وفي قوله : "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (الحشر 22) الخ.

أما لفظ "الرحيم" فلم يرد منفرا في أية آية بل يسبقه دوما اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته، مثل "الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ" (يس-5) وقد تكرر، و"الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (القصص 16)، و"التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (البقرة 37) تكرر. والْبَرُّ (اللطيف) الرَّحِيمُ (الطور 28)، والرَّحِيمُ الْغَفُورُ (سبأ 2) [5].

الرحمة ...

وأما لفظ "الرَّحْمة" فيدل في اللغة: على "الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والـــمَرْحَمَةُ مثله، وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بعضهم بعضاً. والرَّحْمَةُ: الـــمغفرة". أما في القرآن فيقول عنه صاحب مفردات القرآن (الراغب الإصبهاني): والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف". قال رسول الله (ص) : "قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته"، فذلك إشارة إلى ما تقدم، وهو أن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان، فصار كما أن لفظ الرحم من الرحمة، فمعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله تعالى، فتناسب معناهما تناسب لفظيهما ... وقال

5- هنا ورد "الرحيم"، أولا، على غير العادة وذلك في قوله تعالى: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ". ولم أطلع على مفسر انتبه إلى هذا القلب سوى الفخر الرازي الذي فسر هذه الآيات كما يلي: "قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً". و"قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة "إلى" للغاية" .... وأضاف الرازي "قال: "وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" : رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال، فرحم أولاً بالإنزال وغفر ثانياً عند العروج". وإذن فقوله "الرحيم الغفور" بدل "الغفور الرحيم" قد جاء متناغما مع ما سبق.

تعالى في صفة النبي (ص): "قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم (شديد عليه ما تلاقونه من مكروه)، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم" (التوبة-128). وقيل: إن الله تعالى: هو رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين، وعلى هذا قال: "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون" (الأعراف-156)، تنبيها إلى أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين؛ وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين". بعبارة أخرى: إن الرحمان بوصفه اسم ذات، بوصفه ماهية ووجودا، فمعنى الرحمة فيه وهو الإحسان، لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة، وأما الرحيم فبما أنه اسم فعل فهو خاص بالجزاء : رحيم بالمؤمنين في الدنيا والآخرة ثوابا لهم، ولكنه غير رحيم بالكافرين في الآخرة لأنهم رفضوا الإيمان في الدنيا فحرموا من ثوابه في الآخرة. وهذا هو معنى الاستثناء في الآية : "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون". سيكتبها : ستكون ملازمة لهم كملازمة الأمور الحتمية، لأنهم استحقوها بتقواهم. أما الذين لا يتقون، فهم برفضهم التقوى يرفضون المغفرة والرحمة.

هذا المعنى يجب استحضاره لأنه هو الذي يعطي معنى للعقاب الإلهي في الدنيا والآخرة. الله رحمان رحيم بالنسبة للذين يقبلون الرحمة، ويعملون من أجلها هي والمغفرة، أما الذين يرفضون الاستجابة لمتطلبات الرحمة : لا يؤمنون بأن الله رحمان رحيم ولا يمارسون الرحمة في الدنيا على مستواهم واستطاعتهم وفق مبدأ : "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، فهؤلاء قد رفضوا بناء أية علاقة مع رحمة الله وبالتالي سيحرمون منها. هنا تنسحب الرحمة لأنها فقدت موجبها ولا يبقى إلا الجزاء على الأفعال والنوايا. والجزاء لمن رفض الرحمة وامتنع عن اتباع سبيلها هو العقاب.

هنا ستحل محل صفة الرحمة صفات أخرى، صفات القوة والبطش والانتقام. وستتكرر، مكان عبارات "الرب الودود"، و"الرب الغفور ذو الرحمة"، و"الغفور الرحيم"، و"اللطيف بعباده" الخ، عبارات أخرى: "القوي العزيز"، "شديد العذاب"، "عزيز ذو انتقام"، "المهيمن العزيز الجبار المتكبر" الخ.

إنها مفردات خطاب ستسود في المرحلة التالية من تطور الدعوة المحمدية، مرحلة الرد على المشركين ومقاومة سخرياتهم واستهزاءاتهم، مرحلة الوعد والوعيد والترغيب والترهب.

المرحلة الثانية

البعث الجزاء ومشاهد القيامة



استهلال

ينتقل بنا خطاب القرآن المكي، في هذه المرحلة:

1- صعيد الموضوع: من التركيز على محور التوحيد (النبوة والربوبية والألوهية) إلى التركيز على محور البعث والجزاء.

2- أما على صعيد أسلوب الخطاب ومنهجيته فالانتقال سيكون من تأكيد نبوة محمد عليه السلام وتسليته وتثبيت فؤاده من جهة، ومن إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته بالدعوة إلى تأمل نظام الكون ككل، من جهة أخرى، إلى تأكيد البعث ورسم مشاهد متنوعة لقيام الساعة وما يتلوها من حساب فثواب أو عقاب. إن الأمر يتعلق بالانتقال من خطاب التسلية والتثبيت والتعامل مع قريش بأسلوب "إياك أعني واسمعي يا جارة"، إلى خطاب الوعد والوعيد وتحميل المسؤولية.

بعبارة أخرى: إذا كان الحديث عن النبوة والربوبية والألوهية والحياة الأخرى، حاضرا باستمرار في القرآن ككل، فإن ما تتميز به سور هذه المرحلة الثانية من مسار التنزيل وتطور الدعوة، هو أنها ستهتم بشكل لافت للنظر بموضوع المعاد. أما لماذا الانتقال إلى التركيز على هذا الموضوع، فذلك ما سيتبين خلال تتبعنا للمسيرة القرآنية خلال هذه المرحلة.

28- سورة القارعة

تقديـــم

قيل : القارعة والواقعة والحاقة معناها: القيامة. وهي أسماء لسور. لم يرد أي شيء حول هذه السورة، سوى ترتيبها على لوائح النزول في رتبة 29 عند بعضهم و 30 عن آخرين، وهي في الحالتين تلي سورة قريش. وكل ما يمكن قوله كتقديم لها هو أنها اقتصرت على تعريف القيامة مبرزة هولها وبيان المصير بعد الحساب، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهي إذن بمثابة مدخل لموضوع هذه المرحلة.

- نص السورة

1- قيام القيام حادثة مهولة، شديدة الهول.

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ[1] **مَا الْقَارِعَةُ**[2] (قيام الساعة)؟ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**[3] (ما أعظمها وأشدها فهي تقرع النفوس بأهوالها، هي) : **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**[4] (المفرق المتزاحم)، **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**[5] (كالصوف المفتت).

2- يلي ذلك الثواب والعقاب:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ[6] (كثرت حسناته)، **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**[7]. **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**[8] (قلت حسناته وكثرت سيئاته)، **فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**[9] (مصيره جهنم)(1). **وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ**[10] (ما هي؟ هي:) **نَارٌ حَامِيَةٌ**[11].

- تعليق

تتميز هذه السورة بكونها خاصة بالتعريف بموضوع واحد هو يوم "قيام الساعة" مبرزة هول مشهده من خلال تشبيه حالة الإنسان خلاله بالفراش المنتشر

1- قيل: كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، قالوا: هوت أمه.

الذي يتحرك على غير هدى من جهة، وتشبيه حالة الجبال بالصوف المفتت. ثم تنتقل السورة من لحظة البداية إلى لحظة النهاية وهي المصير النهائي بعد الحساب، ولا شيء غير ذلك. والسور التالية لهذه ستفصل القول فيما أوجزته هذه السورة.

وفي تشبيه بليغ، مليء بالدلالة يصور الرسول عليه السلام موقفه -وقد جاءه القرآن لينذر ويبشر بهدف تجنيب الناس الوقوع في الهاوية (النار الحامية) عند قيام الساعة- كما يلي: قال: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ[2] (صغار الجراد) وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي" (رواه مسلم).

---

2 – جنادب : صغر الجراد. جمع جُنْدَب

29- سورة الزلزلة

- تقديـــم

صنفت هذه السورة في المصحف مع السور المدنية (رتبة 93). لكن معظم المصادر وكثير من المفسرين يعتبرونها مكية (ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وجابر وعطاء والضحاك... والبغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري الخ). ونحن قد رجحنا هذا الرأي باعتبار موضوع السورة وأسلوبها، وقد وضعناها في هذا الموقع للشبه الكبير بينها وبين السورة السابقة. ولابد من التنبيه إلى أن التعديلات البسيطة التي نجريها من حين لآخر على لائحة ترتيب النزول المعتمد نلتزم فيها ما ورد من روايات تفرض هذا التعديل.

ومهما يكن وسواء عملنا بهذه التعديلات أو لم نعمل بها، فمسار ترتيب النزول يبقى هو هو، وبالتالي فالانتقال من مجموعة السور السابقة إلى هذه المجموعة وإلى التي ستتلوها، واختصاص كل مجموعة بمحور معين هو ما يعطيه ترتيب النزول في جميع اللوائح.

وبعبارة أخرى فإذا كان القارئ قد لاحظ وجود نوع من المنطق الداخلي في تتابع السور، غير ترتيب النزول المروي، فإن هذا المنطق ليس من عندنا، ولا هو من عند واضعي لوائح ترتيب النزول الذين اعتمدوا في عملهم على المرويات، بل هو منطق داخلي لعملية نزول القرآن منجما حسب مقتضى الأحوال. دليل ذلك أن واضعي ترتيب النزول صنفوا هذه السورة مع القرآن المدني مع أن وضعها المنطقي يفرض وضعها مع القرآن المكي وفي الرتبة التي حددناها لها -تقريبا.

- نص السورة

1- مشهد قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا[1]، **وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**[2] (ما في جوفها والمقصود: من في القبور)، **وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا**[3] (ما الذي جرى بها)، **يَوْمَئِذٍ**

تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا[4]، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا[5] (أمرها أن تتحرك وتتزلزل، كمظهر من مظاهر قيام الساعة).

2- الجزاء

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ (يخرج) النَّاسُ أَشْتَاتًا (متفرقين) لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ[6] (ليحاسبوا)، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه[7] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه[8].

تعليق

أثار المفسرون نقاشا واسعا حول معنى قوله تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه". والإشكال المطروح هو التالي: هل يعم هذا القول المؤمن والكافر سواء بسواء؟ فإذا كان مفهوما أن المؤمنَ سيُثاب في الآخرة على كل عمل قام به في الدنيا فهل سيعاقب في الآخرة على كل ذرة شر قام بها؟ وإذا كان مفهوما أن الكافر سيعاقب يوم القيامة على كل ذرة من أعمال الشر قام بها في الدنيا فهل سيثاب يوم القيامة على ما فعل من خير في الدنيا؟ منهم من قال: "ليس مؤمن ولا كافر عمِل خيرا ولا شرّا في الدنيا، إلا أتاه الله إياه : فأما المؤمن فيُريه حسناته وسيئاته، فيغفر الله له سيئاته. وأما الكافر فيردّ حسناته، ويعذّبه بسيئاته". ومنهم من قال: "من يعمل مثقال ذرّة من خير مِنْ كافر يَرَ ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عنده خير، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، مِنْ مؤمن، يَـــرَ عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس عنده شيء.

ويروون في ذلك حديثا للنبي عليه السلام مفاده "أن أبا بكر رضي الله عنه كان يأكل مع النبيّ (ص)، فنزلت هذه الآية: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرا يَرَهُ وَمَنْ يَعمَلْ مثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله إني أُجْزَى بما عملت من مثقال ذرّة من شرّ؟ فقال: "يا أبا بَكْر، ما رأيْتَ فِي الدنيا مِمَّا تَكْرَهُ فَمَثاقِيلُ (جمع مثقال) ذَرّ الشّرّ، وَيَدّخِرُ لَكَ اللّهُ مَثاقِيلَ الْخَيْرِ حتى يتَوَفّاك يَوْمَ الْقِيامَةِ". ومعنى هذا أن سيئات المؤمن يقع الاقتصاص منها في الدنيا، بما يلحقه من مكاره، أما حسناته فتبقى محفوظة إلى يوم القيامة. وفي رواية أخرى أن جواب النبي كان كما يلي: "لَوْلا أنّكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ، لخَلَقَ اللّهُ أُمةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ". ويرون تصديق ذلك في قوله تعالى: "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ" (الشورى 30). كما يروون عن عائشة أنها قالت: "قلت: يا

رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا يَنْفَعُهُ، إنّهُ لم يَقُلْ يَوْماً: رَبّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

ويعلق الطبري على هذه "الأخبار" التي أوردها بقوله: "فهذه الأخبار عن رسول الله (ص) تنبئ عن أن المؤمن إنما يَرَى عقوبة سيئاته في الدنيا، وثواب حسناته في الآخرة، وأن الكافر يرى ثواب حسناته في الدنيا، وعقوبة سيئاته في الآخرة، وأن الكافر لا ينفعه في الآخرة ما سلف له من إحسان في الدنيا مع كُفره".

وهناك من حاول رفع الإشكال بالقول: إن حسنات الكافر تقلل من كفره، كما أن سيئات المؤمن تقلل من إيمانه"، "فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية". وبالعكس من هذا هناك من ارتأى تخصيص الآية بالقول : "فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره".

ونحن نرى أن أقرب الروايات إلى سياق السورة ومضمونها وعلاقتها بالسور السابقة هي رواية مقاتل بن سليمان التي ورد فيها : "نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل (يرى قليلا) أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، ويقول ما هذا بشيء، وإنما نؤجَّرُ على ما نُعطِي؛ وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، ويقول: لا شيء على من قام بهذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر، ولهذا قال عليه السلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة". (تفسير مقاتل بن سليمان).

30- سورة القيامة

- تقديـــم

ذكر المفسرون والمؤلفون في أسباب النزول أكثر من رواية حول بعض آيات هذه السورة. منها أن قوله تعالى "أَيَحسَبُ الإنسانُ أَلَّن نَّجمَعَ عِظامَهُ" قد نزل في عمر بن ربيعة وذلك أنه أتى النبي (ص) فقال: حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي (ص) بذلك. فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به! أوَ يجمع الله هذه العظام؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومنها أن قوله : "أولى لك فأولى" نزل في أبي جهل. تقول الرواية كان أبو جهل، "يتمطى" (يتبختر) في مشيته، فأمسكه النبي عليه السلام ذات يوم وأخذه بمجامع ثيابه فقال له: "أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى"، فرد أبو جهل قائلا : "يا محمد ما تستطيع أنت وربك فيّ شيئا، إني لأعزّ من مشى بين جبلَيها" (جبلي مكة). . وعنه أيضا قال : لما نزلت عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فإن سياق السورة متصل بسياق التي قبلها والتي نزلت هي الأخرى في أشخاص من زعماء قريش.

- نص السورة

1- مقدمة: يوم القيامة، " قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ[1] (النفي لتأكيد الإثبات: يوم الحساب)، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ[2] (التي تحاسب صاحبها)! أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ[3] (حين البعث)؟ بَلَى، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ[4] (أجزاءه الصغيرة. والسؤال وجوابه جواب القسم)

2- مشهد آخر من مشاهد القيامة

بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ[5] (أن يواصل تكذيب البعث فيمضي في فجوره) **يَسْأَلُ أَيَّانَ** (متى) **يَوْمُ الْقِيَامَةِ**[6]؟ (استهزاء وإنكارا، والجواب:) **فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ**[7] (بُهت)، **وَخَسَفَ الْقَمَرُ**[8]، **وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**[9] (ذهب ضوءهما معا)، **يَقُولُ** (هذا) **الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ: أَيْنَ الْمَفَرُّ**[10] (من هذا الظلام، من قيام الساعة).

3- الحساب كائن، لا مجال للإنكار أو الاعتذار

كَلَّا، لَا وَزَرَ[11] (لا ملجأ)، **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**[12] (المآب): **يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ** (يوم القيامة) **بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**[13]؛ **بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**[14] (هو نفسه يعرف ما فعل)، **وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**[15] (حتى ولو التمس لنفسه أعذارا. يقال له وهو يعتذر ويتلعثم حين ينبأ بما قدم وأخر): **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**[16]، **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**[17] (وقراءته عليك)، **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**[18]، **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**[19]"(1) : (يقال له في هذا البيان) **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**[20]، **وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**[21]!

1- جل المفسرين على أن هاتين الآيات (16-19) عبارة عن جملة اعتراضية، ويفسرونها على ضوء روايات متعددة بنيت على هذه الآيات، ومفادها أن النبي كان يحرك لسانه أثناء نزول الوحي عليه، مكررا ما ينزل خوف نسيانه، وأنه ربما كان يفعل الشيء نفسه أثناء نزول هذه السورة فجاءت الآية "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ..."، كجملة اعتراضية تطلب منه أن يمسك عن ذلك. ثم تواصلت السورة مستمرة في سياقها الأصلي. غير أن هذا التأويل الذي أخذنا به في (التعريف بالقرآن الكريم) محل نظر : فالمفروض أن النبي عليه السلام كان يأمر بوضع كل آية في سورة يسميها لكتاب الوحي، ثم إنه كان يراجع القرآن حتى لا يكون هناك قلق في عباراته، كما هو الحال هنا مع هذه "الجملة الاعتراضية". من أجل ذلك نرجح رأي القفال كما ذكره الفخر الرازي في تفسيره. قال: "إن قوله: "لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ" ليس خطابا مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: "يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ" (القيامة: 13)، فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له: "اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً" (الإسراء 14)، فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع عملك عليك وأن نقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ذلك، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته". وأضاف القفال: "فهذا وجه حسن، ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به". ونحن نرجح هذا التفسير ليس فقط لأنه يعالج قلق العبارة الذي تحدثه مثل هذه "الجملة الاعتراضية"، بل أيضا لأنه يحافظ على وحدة السياق بين السابق واللاحق، بين قوله: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" وقوله: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ" ... فالبيان الذي سيعطى لهم هو أنهم كانوا يحبون الدنيا ويفضلونها على الآخرة...

4- فرحون وخائفون ... جزاء على سلوكهم

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ[22]، **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**[23] (2)، **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ**[24] (كالحة من شدة الخوف)، **تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**[25] (أن يكون مصيرها داهية عظيمة). **كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ**[26] (إذا بلغ النفس أعلى الحنجرة وبدأت الحشرة)، **وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ**[27] (هل هناك من يكتب رقية لعلاجه)، **وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**[28] (وتيقن أنه الموت)، **وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ**[29] (ساقا رجليه، تيقن أنه)، **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**[30] (يساق إلى الحساب، وسيتبين أنه): **فَلَا صَدَّقَ** (لم يكن يصدق على الفقراء) **وَلَا صَلَّى**[31] (ولم يكن يدعو الله)، **وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**[32] (كذب بالقرآن وأعرض عنه)، **ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى**[33] (يتبختر. هذا الرجل نقول له): **أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى**[34]، **ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى**[35] (ويل له، ثم ويل له).

5- خاتمة: الذي خلقه أول مرة ... يعيده إلى الحياة بعد الممات

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى[36] (أن يهمل، فلا يحاسب)، **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى**[37]، **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى**[38] (خلق الله منها الجنين وسوى تكوينه)، **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**[39]، **أَلَيْسَ ذَلِكَ** (الله الذي فعل هذا) **بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى**[40]؟ (أليس من خلق الإنسان أول مرة بقادر على أن يحييه بعد موته).

- تعليق:

مسألة الرؤية

قوله تعالى : "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" (أي أن أهل الجنة ستكون وجوههم يوم القيامة "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ")، موضوع اختلاف كبير بين المعتزلة وأهل السنة بما فيهم الأشاعرة. ذلك أن نظرية التوحيد عند المعتزلة تقتضي نفي الصفات، أي عدم وصف الله بصفة زائدة عن ذاته، لأن ذلك يقتضي أن يكون موصوفا بها منذ الأزل، إذ لا يلحقه التغير من أي وجه، واتصافه بها منذ الأزل معناه أنها قديمة مثله، وهذا يؤدي إلى تعدد القدماء وهو الشرك بعينه.

2 - تأويل هذه الآية موضوع خلاف بين المعتزلة من الأشاعرة وغيرهم. انظر التعليق.

ولذلك قالوا صفات الله هي عين ذاته، وذاته ليست جسمية وبالتالي لا يمكن أن تكون موضوعا للرؤية البصرية. ومن هنا قالوا بضرورة تأويل قوله تعالى "إلى ربها ناظرة" تأويلا ينزهه عن أن يكون موضوعا للرؤية البصرية التي هي خاصة بالمحسوسات، فقالوا: إن معنى "ناظرة" هو: منتظرة، بمعنى تنتظر ثواب ربها. وهذه المسألة تسمى في علم الكلام بـ"مسألة الرؤية". وقد عرض الرازي المتكلم الأشعري لهذه المسألة فسرد حجج المعتزلة ثم رد عليها. لنتعرف على ذلك أولا ثم نقول رأينا في الموضوع. يمكن تلخيص ما قاله الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية كما يلي، قال:

"اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة. أما المعتزلة فيعترضون على ذلك بحجج من الاستعمال اللغوي وبأخرى من التأويل: فعلى المستوى الأول قالوا: النظر المقرون بحرف "إلى" ليس اسماً للرؤية، بل لمقدمة الرؤية، وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسا لرؤيته، ونظرُ العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع.

قالوا: والذي يدل على أن النظر ليس اسماً للرؤية: قوله تعالى: "وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" (الأعراف 198): أثبت النظر حال عدم الرؤية، فدل على أن النظر غير الرؤية. ثم إن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية، يقال: نظر إليه نظراً شرزاً، ونظر غضبان، ونظر راض، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك، فلا يقال: رآه شزراً، ورآه رؤية غضبان، أو رؤية راض. كما يقال انظر إليه حتى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية. يقال أيضا دُور فلان متناظرة، أي متقابلة، فمسمى النظر حاصل ههنا، ومسمى الرؤية غير حاصل. وبناء على ذلك كون قوله تعالى: "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" معناه عند المعتزلة: أنها تنظر إلى ربها خاصة، ولا تنظر إلى غيره. ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين "لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (يونس 62). فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله، ودل العقل على أنهم يرون غير الله، علمنا ان المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية. يؤيد ذلك قوله تعالى: "وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (آل عمران 77) ولو قال: لا يراهم كفي، فلما نفى النظر، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة، فثبت بهذه الوجوه، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية". ذلك ما يستدل به المعتزلة من المنقول لإثبات رأيهم.

أما ما يثبتون به المسألة نفسها على مستوى التأويل، مستوى المعقول : فيعرضه الرازي قائلا: "هو من وجهين الأول:

أن يكون الناظر بمعني المنتظر، أي أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله، كقوله تعالى: "فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" (النمل 35) أي منتظرة، وقوله: "وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ" (البقرة 280) أي في انتظار المسيرة.

الوجه الثاني لاستدلال المعتزلة عقليا: أن يضمر المضاف، والمعنى : إلى ثواب ربها ناظرة.

والوجه الثالث من التأويل: أن يكون معنى: "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: "اعبد الله كأنك تراه"، فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه.

يرد الرازي على هذه الحجج بحجج أخرى:

الأولى: ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله: "أَنظُرْ إِلَيْكَ" (الأعراف 143) فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكاناً وذلك محال.

الثانية: أنه جعل النظر أمراً مرتباً على الإرادة فيكون النظر متأخراً عن الإرادة، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي.

الحجة الثالثة: إذا سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، فإنه لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسبِّبه وهو الرؤية، إطلاقاً لاسم السَّبَب على المسبِّب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية، ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار. ومع أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن، لكنه لم يقرن البتة بحرف "إلى" كقوله تعالى: "انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ" (الحديد 13) وقوله: "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ" (الأعراف 53) وقوله : "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ" (البقرة: 210).

ويضيف الرازي: والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف إلى، المُعدَّى إلى الوجوه، ليس إلا بمعنى الرؤية أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك... أما القول بأن المقصود هو انتظار ثواب ربها فهذا ترك للظاهر.

ذلك هو "كلام" المعتزلة والأشاعرة في مسألة الرؤية. أما نحن فنرى أن الذي أدى إلى الانسياق مع هذا النوع من "الكلام" هو الانغلاق في الألفاظ وإهمال السياق. ذلك أن قوله تعالى : "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"، ليس قولا مستقلا معزولا، بل هو مرتبط بما بعده أعني قوله : "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ": فلفظ "ناضرة" يقابله لفظ "باسرة" أي ضده (وهو كالحة)، كما أن لفظ "ناظرة" يقابله لفظ "فاقرة" بمعنى: عقاب. وغني عن البيان القول :إن انتظار العقاب ضدد انتظار الثواب. وإذن فالسياق التقابلي يقتضي أن يكون مقابل "أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ" (العقاب) هو "إلى ربها ناظرة": "تنتظر ثواب ربها". وهناك من المعتزلة من اقترح قراءة عبارة "إلى ربها ناظرة" هكذا: "آلاء ربها ناظرة"، أي تنتظر نعم ربها! ولكن الانتقال من "إلى" إلى "آلاء" يصعب تبريره، حتى ولو استحضرنا اختلاف القراءات، وعدم التنقيط في الكتابة العربية.

31- سورة الهمزة

- تقديـــم

ذكر المفسرون أن سورة "الهمزة" هذه قد نزلت في واحد -أو أكثر- من زعماء قريش ممن كانوا يقومون بحرب نفسية -بتعبيرنا المعاصر- على النبي وأصحابه، بغية إفساد العلاقات بينهم وزرع الشك في نفوس بعضهم ضد بعض. وربما كان هؤلاء المحاربون للدعوة المحمدية يؤجرون من يقوم بنشر دعايات من هذا القبيل، لورود الإشارة إلى المال مباشرة بعد ذكر الهمزة اللمزة. ومِمَّن ذكر من هؤلاء أمية بن خلف. ففي السيرة لابن إسحاق : "كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله (ص) همزه ولمزه، فأنزل الله "ويل لكل همزة لمزة"، السورة كلها".

- نص السورة

<u>1- وعيد للذين يحابون الدعوة</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ (مغتاب للناس) **لُمَزَةٍ**[1] (يعيب الناس)، **الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ**[2]، **يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**[3] (في الدنيا).

<u>2- من مشاهد جهنم</u>

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ[4] (سيقذف به يوم القيامة في نار جهنم)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**[5]! (تهويل)، **نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**[6]، **الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**[7] (تستغرق الجسم كله حتى القلوب)، **إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ**[8] (مغلقة)، **فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ**[9] (مسندة بأعمدة: محكمة الإغلاق).

- تعليق

هذه السورة من سور هذه المرحلة بامتياز: ترد على شخص آذى النبي عليه السلام، انطلاقا من مبدأ "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرا يَرَهُ، وَمَنْ يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ"، وهو المبدأ الذي يحكم يوم الحساب. والهمز واللمز من أعمال السوء ولكن ثقلهما بالقياس إلى الكبائر، كالقتل مثلا، أشبه بثقل الذرة. لكن بما أن الهمز واللمز كان بقصد إيذاء النبي (ص) ومحاربة الدعوة فقد جاء العقاب في مستوى هذا القصد: "نار الله الموقدة" : جهنم.

32- سورة المرسلات

- تقديـــم

في البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : "بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلَم في غار بِمِنى إذ نزلت عليه سورة "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً"، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه -وإن فاه لرطب بها- إذ خرجت علينا حية! فقال النبي صلى الله عليه وسلَم: اقتلوها فابتدرناها فسبقتنا فدخلت جحرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وُقِيَت شركُم كما وُقيتم شرها. ومع أن هذا الخبر لا يتصل بمضمون السورة فإن تحديد مكان نزولها من طرف ابن مسعود يفيد أن ذلك حدث عندما كان النبي عليه السلام مختبئا في منى مع بعض الصحابة. ولا يستبعد أن يكون ذلك قد حدث في هذه المرحلة التي بدأ يشتد فيها ضغط قريش على الرسول (ص). وهناك من المفسرين من قال إن آيات منها نزلت في المدينة، فعن مقاتل أنه قال : نزل قوله تعالى : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ" (الآية 48) في شأن وفد ثقيف حين أسلموا بعد غزوة هوازن وأتوا المدينة فأمرهم النبي بالصلاة، فقالوا: لا نُجَـبِّـي (من جب سنم الناقة : قطعه) فإنها مسبَّة علينا. فقال لهم: لا خير في دِين ليس فيه ركوع وسجود". وهذا ليست له علاقة مباشرة بنزول الآية، فالمقصود بالركوع في السورة هو الصلاة مطلقا، وجواب النبي مستقل عن نزول السورة، ولا يتناقض مع كون السورة نزلت في مكة. والضمير في "وإذا قيل لهم" يعود هو والضمائر السابقة له على المشركين المكذبين.

- نص السورة

1- مقدمة: إن ما توعدون به لواقع ...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا[1] (الملائكة تحمل المعرفة: الوحي)، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا[2] (سريعة الحركة)، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا[3] (تنشر أجنحتها)، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا[4] (تفرق بين الناس قاصدة الرسول)، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا[5] (القرآن)، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا[6] (إعذارا أو

إنذارا)، **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**[7] (جواب القسم: أقسم بالوحي، وهو ينزل من السماء، بأن الحساب والعقاب واقع على المكذبين لا محالة، وذلك عند قيام الساعة التي سيكون مشهدها كالتالي).

2- كيف سيقع ما توعدون به ...

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ[8] (ذهب ضياؤها)، **وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ**[9] (شقت وصدّعت)، **وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ**[10] (فكانت فتاتا)، **وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ**[11] (بلغ ميقاتها الذي كانت تنتظره)، **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ**[12] (لليوم الذي حدد أجلا لاجتماعها للإدلاء بشهادتها)، **لِيَوْمِ الْفَصْلِ**[13] (وهو يوم الحساب والجزاء)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ**[14]! **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[15] (أكبر السوء ينزل يومئذ بالمكذبين بالبعث وبالرسالات: جواب الشرط).

3- الهلاك الذي كان مصير الأولين سيكون مصير قريش...

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ[16] (الذين كذبوا رسلهم)، **ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ**[17] **كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**[18] (المشركين): **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[19]. **أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**[20] (نطفة ضعيفة)، **فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**[21] (رحم المرأة)، **إِلَى قَدَرٍ** (وقت) **مَعْلُومٍ**[22]، **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**[23] (حددنا وقت ميلاده ونحن القادرون على تقديره سلفا)، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[24] (بأن الله هو الخالق). **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا**[25] (وعاء)، **أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**[26] (منازل للأحياء وقبورا للأموات)، **وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ** (جبالاً ثابتات فيها)، **وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**[27] (عذبا من عيونها، وتلك كلها أدلة على وجود الله)، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[28] (بهذه النعم).

4- والويل بالمكذبين بجهنم

(عندما تقوم الساعة يقال لهؤلاء المكذبين) **انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**[29] (إلى الحساب والعقاب)، **انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ**[30] (دخان جهنم المتشعب)، **لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنْ اللَّهَبِ**[31] (لا يقي لا من الحرارة ولا من الاحتراق)، **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**[32] (خشب كان يُقطع في الجاهلية ذراعا وأقلّ أو أكثر، يُعْمَد به)، **كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ**[33] (قطع من النحاس)، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[34] (بالبعث). "**هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ**[35] (لا يستطيعون الكلام من هول المشهد)، **وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**[36]، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[37] (بهذا اليوم). **هَذَا يَوْمُ**

الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ[38] (الذين قصصنا أحوالهم) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِي[39]، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[40].

5- والويل للمكذبين بجنة النعيم

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ[41] (ظلال أشجار وعيون أنهار)، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ[42]، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[43]، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[44]، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[45] (بما أخبرت به رسلي من نعيم الجنة).

6- خاتمة: والويل لكم أيها المكذبون برسالة محمد.

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ[46] وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[47]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ[48] (لا يأتمرون بأوامر الله)، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[49]. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ[50]؟ (بعد هذا الذي سبق: حديث هذا القرآن).

- تعليق

واضح أن هذه السورة تنتمي بموضوعها وسياقها إلى السور السابقة وإن كانت تتميز بلهجتها الحادة ضد المكذبين وتكرار الوعيد لهم "ويل للمكذبين". كما تشترك مع السور السابقة في التمهيد لموضوعها بالقسم: قسم بالوحي وهو ينزل إلى الرسول من السماء ليؤكد أن البعث الذي يكذب به مشركو مكة واقع لا محالة؛ يلي ذلك القسم رسمُ مشهد لقيام الساعة يؤكد أن المصير الذي حل بالأقوام الماضية التي كذبت رسلها سيحل بالمكذبين بالرسول محمد (ص)، والله قادر على ذلك : فهو الذي خلق الإنسان ورعاه في جميع أطوار حياته، وهو الذي خلق الأرض وجعلها منازل للأحياء وقبورا للأموات، وجعل فيها جبالا تحفظ توازنها وعيونا من الماء العذب يشرب منها الأحياء، وعندما تقوم القيامة ويتم الحساب ينقسم المبعثون إلى فريقين، فريق يدفع به نحو النار وفريق يقاد نحو الجنة.

هذا وقد اختلف المفسرون في الأشياء المقسم بها في هذه السورة. فريق فسر "المرسلات" وما تلاها من الأوصاف المرتبطة بها تفسيرا حسيا فقال إن المقصود بها "الرياح" الخ. وفريق فسرها تفسيرا معنويا فقال إن المقصود هم "الملائكة". وقد رجحنا الرأي الأخير لأن قوله "فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا" لا يستقيم معناه -بدون تكلف تأويل- إذا صرف لغير الملائكة. أما كلمة "عرفا" فقد فسرها بعضهم بعرف الفرس وبعضهم بـ" أمر الله ونهيه"، وقد اخترنا هذا الأخير، باعتبار أن من معاني العرف في اللغة : المعرفة. وإذن فالمرسلات عرفا: معناه الملائكة المرسلات بالمعرفة أي بالوحي.

33- سورة ق

- تقديم

لم يرد شيء حول مناسبة نزول هذه السورة، أما خطابها فيدور حول الموضوعات التالية: إنكار قريش للبعث بعد الموت وإبطال حجتهم: قالوا كيف يمكن أن نحيا من جديد بعد أن نكون قد متنا وتحولت أجسامنا إلى تراب؟ ويأتي الرد عليهم بأن الله يعلم ما يأكل التراب منهم بعد الموت، ولديه كتاب فيه كل شيء مكتوب ومحفوظ لا يفنى ولا يزول، بما في ذلك مقدار أجسامهم وشكلها الخ. هذا ما أخبرهم به في القرآن، ولكنهم عاندوا فكذبوه وأبوا الاعتراف بالبعث، مع أنهم يعترفون بالله وبكونه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض. فهم في الحقيقة في حيرة من الأمر: يعترفون بأن الله هو خالقهم في الدنيا، ولا يعترفون بأنه سيعيد خلقهم في الآخرة.

وتعود السورة فتنبههم إلى أن خروجهم من قبورهم بعد الموت ليوم الحساب ليس بأصعب من خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النبات الذي يحصدون، والشجر الذي من ثماره يقطفون، رزقا لهم، منه غذاؤهم.

وكما جرت العادة في هذه السور، بل في القرآن كله، يأتي التذكير بالصيرورة التاريخية ليكمل شهادة نظام الطبيعة. وهكذا فكما أجرى الله الأشياء على سنة ونظام على مستوى الطبيعة فعل الشيء نفسه على مستوى مجرى حياة البشر: خلق الإنسان وبين له طريق الصواب وطريق الخطأ، وتركه يختار ويعمل إلى أن يحين وقت الحساب، فحينئذ يُبعَث ليُجزى خيرا إن كان الخير غالبا على ميزان أعماله، وشرا إن كان الشر أغلب. أما المكذبون بالرسل، أولئك الذي كادوا لهم وعملوا على تصفيتهم، فقد جاءهم العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

بعد ذلك تعود السورة إلى تفصيل القول في مشهد للبعث والحساب والجزاء، منطلقة من تسجيل أفعال الناس في سجلات محفوظة، يؤتى بها يوم القيامة ليحاسبوا على أساسها : كل فرد يصطحبه الشيطان الذي وسوس له فأغراه في الدنيا ليتبرأ منه في الآخرة، ومعهما ثالث هو الملاك الحفيظ (المسجل) لأعمال الشخص المحاسب. بعد ذلك يصدر الحكم فيلقى بذلك الشخص إمّا في جهنم وإما تفتح أمامه أبواب الجنة.

وتختم السورة بتوجيه الخطاب إلى الرسول عليه السلام توصيه بالصبر وتضرب له مثلا بالله الذي خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام دون أن يشعر بالتعب ولا بالإعياء، فعلى الرسول أن يقتدي بالله، فلا ينبغي له أن يستسلم. وعليه أن يتنبه إلى أن شق الأرض وإخراج الموتى أحياء كما خلقهم أول مرة أسهل من خلق السموات والأرض، عليه إذن أن ينتظر ويواصل أداء رسالته بصبر وثبات، فليس له أن يجبر أحدا على الإيمان بالقوة، وإنما عليه أن يواصل مهمته، مهمة الإنذار والتبشير اعتمادا على القرآن وما فيه من وعد ووعيد.

- نص السورة

1- مقدمة: قريش تنكر البعث ...

بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ[1] (عالي القدر. وجواب القسم مضمر: لتبعثن)! **بَلْ عَجِبُوا** (قريش) **أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** (هو محمد) **فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا** (الذي ينذرنا به محمد من البعث والقيامة) **شَيْءٌ عَجِيبٌ**[2]! **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَا تُرَابًا! ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**[3] (تلك مسافة طويلة بين تحولنا إلى تراب بعد الموت وبين رجوعنا أحياء بعد ذلك؟ والجواب:)

2- أفلم ينظروا إلى خلق السماء والأرض ...

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ (ما يأكله التراب من أجسامهم بعد الموت) **وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**[4] (كل شيء فيه محفوظ)؛ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ** (الذي في القرآن) **لَمَّا جَاءَهُمْ** (ينذرهم بالبعث) **فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ**[5] (ملتبس مختلط). **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ**[6] (من صدع أو فتوق)! **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ** (جبالا تجعلها راسية هادئة) **وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِ زَوْجٍ بَهِيجٍ**[7] (حسن)! **تَبْصِرَةً** (تنبيها) **وَذِكْرَى** (عبرة) **لِكُلِ عَبْدٍ مُنِيبٍ**[8] (مجيب). **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ**[9] (القمح والشعير)، **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ** (طوال) **لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ**[10] (هو ثمرها قبل أن يخرج من غلافه ويكون كالأسنان منضدا بعضه إزاء بعض) **-رِزْقًا لِلْعِبَادِ- وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا** (أرضا قاحلة)، **كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**[11] (كذلك نخرجكم من قبوركم).

3- أقوام كذبت الرسل فحق عليهم الوعيد

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ (=البئر: قوم دسوا نبيهم في بئر) **وَثَمُودُ**[12]، **وَعَادٌ، وَفِرْعَوْنُ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ**[13]، **وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** (الشجر الكثيف، بجانب مدين)، **وَقَوْمُ تُبَّعٍ** (رجل من اليمن كان قومه يعبدون الأوثان، فصلح أمره هو)، **كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**[14] (أن يكون مصيرهم جهنم). **أَفَعَيِينَا** (أتعبنا وعجزنا) **بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ** (في الدنيا)؟ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ** (حيرة) **مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**[15] (في الآخرة).

4- أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ : مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[16]: **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ** (ملكان) **عَنِ الْيَمِينِ** (يتلقى الحسنات ويكتبها) **وَعَنِ الشِّمَالِ** (يتلقى السيئات، كل منهما) **قَعِيدٌ**[17] (راصد)! **مَا يَلْفِظُ** (الإنسان) **مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**[18] (مقتدر). **وَجَاءَتْ** (ستأتي) **سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ** (بانقضاء أجله فيقال له:) **ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ**[19] (تهرب، أيها الإنسان). **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ** (فقامت القيامة) **ذَلِكَ يَوْمُ** (تنفيذ) **الْوَعِيدِ**[20]، **وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ** (سائقها: شيطانها) **وَشَهِيدٌ**[21] (يشهد عليها بما فعلت، هناك يقول الله له)، **لَقَدْ كُنْتَ** (أيها الإنسان) **فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ** (سجل أعمالك) **فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**[22] (حاد لا يكل: أنت ترى جيدا ما فعلت من سيئات). **وَقَالَ قَرِينُهُ** (سائقه -شيطانه- الذي كان يسوقه إلى طريق الضلال: ربي) **هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**[23] (ما لدي عنه محفوظ. قال الله للقرين/السائق وللشهيد): **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**[24] : **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ**[25]، **الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ! فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**[26]. **قَالَ قَرِينُهُ** (شيطانه) **رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**[27]. **قَالَ** (الله) **لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ** (أيها المشركون أنتم والموكلون بكم)، **وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ**[28] (سبق أن أنذرتكم) ! **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ! وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**"[29]. **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**"[30]! **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**[31] (قربت منهم)، **هَذَا مَا تُوعَدُونَ: لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ**[32] (لكل منكم حفيظ سجل أعماله، ويقال لهم). **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ** (قبل يوم القيامة) **وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**[33] (مخلص)، (يقال لهم) **ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**[34]. **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**[35]. **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ** (أمة) **هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ**

بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ (بحثوا) هَلْ مِنْ مَحِيصٍ[36] (مُنج من الهلاك)! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (عقل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (استمع لما أخبرنا به) وَهُوَ شَهِيدٌ[37] (واع متفهم).

<u>5- خاتمة: الله خلق السماوات، ولم يتعب فلا يتعبك ما يقولون ...</u>

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ[38] (إعياء). فَاصْبِرْ (يا محمد) عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ[39]، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ[40] (بعد الغروب) [(1)]. وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ[41]، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ (صيحة القيامة) بِالْحَقِ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ[42] (خروج أهل القبور). إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ[43]، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ[44] (نجمعهم بسهولة) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ (بمتسلط)! فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ[45].

- تعليق :

<u>القسم بالحروف</u>

تبتدئ هذه السور بالقسم: "ق والقرآن المجيد". والافتتاح بالقسم شيء ورد في السور المكية خاصة، وهو أنواع : أقسام بأسماء بعض الظواهر الكونية مثل الضحى، العصر، الشمس، الليل، الفجر، البروج، الطارق (النجم الثاقب)؛ وأقسام بأسماء بعض النباتات والأشجار مثل والتين والزيتون؛ أو بعض الحيوانات مثل العاديات (الخيل) والصافات والنازعات والمرسلات والذاريات (عند من يعتبرها حيوانات)؛ وأقسام ببعض حروف الهجاء، مثل ق، ص، ن الخ. كما استعمل القرآن بعض الحروف كفواتح للسور. ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل لسور أربعة عشر حرفا، تكرر بعضها ليرتفع عدد فواتح السور بالحروف إلى تسع وعشرين سورة، أغلبها سور مكية. فواتح بعض السور وردت بحرف واحد مثل ق، ص، وبعضها بحرفين مثل حم، طس، وبعضها بثلاثة أحرف مثل الم، الر، وبعضها

1 - ذكروا أن الصلاة كانت في مكة مرتين في اليوم : قبل غروب الشمس (أي العصر) وقبل طلوعها (أي الصبح).

بأربعة أحرف مثل المر، المص، وبعضها بخمسة أحرف وهي سورة كهيعص، وسورة حم عسق.

وقد ذهب المفسرون ومصادرهم كل مذهب في محاولة "الكشف" عن سر هذه الحروف التي وردت في فواتح السور، فكان منهم من قال: إنها فواتح سور، واكتفى بذلك؛ وكان منهم من قال: ذلك سر لا يعلمه إلا الله. وفي الطرف المقابل لهؤلاء نجد كثيرين اعتبروها رموزا ففتحوا لأنفسهم مجالات للتخمين لا حصر لها ولا حد. لكن "التفسير الرمزي" كيفما كان نوعه سرعان ما يتضح فشله، لأن ما قد ينطبق على حرف أو حرفين يصعب تطبيقه على ثلاثة أحرف أو أربعة أو خمسة. وبمعنى آخر: إنه ليست هناك قاعدة "كلية" يمكن أن تنطبق على الحروف التي وردت كفواتح للسور.

ولعل أقرب ما قيل في هذه الحروف إلى الصواب هو أنها استعملت للتنبيه، تنبيه السامع وجلب اهتمامه، وأن العرب كانت تفعل ذلك، وأنه كان من عادتهم. ومما يرجح هذا أن الصحابة سألوا النبي (ص) عن كثير من الأشياء في القرآن ولكن لم يرد عنهم أنهم سألوا عن معنى هذه الحروف مع تكرارها وورودها على رأس كثير من السور. وأيضا لو لم يكن ذلك من معهود العرب لأنكره خصوم الدعوة المحمدية من قريش، وهم كانوا يبحثون عن كل ما يمكن أن يطعنوا به في القرآن. وفي هذا الصدد قال القاضي أبو بكر بن العربي: "لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أن أنكر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، بل تلا عليهم "حم فصلت" و"ص" وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة".

34- سورة البلد

- تقديـــم

من القَسَم بالقيامة والنفس اللوامة وبالقرآن المجيد ننتقل إلى القسَم بمكة. لقد عالجت سورة "ق" مسألة البعث بتفصيل، وهي ترد على منكريه من قريش جملة، دون تخصيص. وتأتي هذه السورة -البلد- لترد على شخص معين، يبدو منه أنه يخشى أن يكون ما يقوله محمد (ص) بشأن البعث والحساب صحيحا، فيريد أن يتوب عما صدر منه من أفعال منهي عنها ويتدارك أخرى مطلوبة، ولكنه لا يفعل ذلك بصدق وإخلاص. كان هذا الرجل من كبار أغنياء قريش ووجهائهم، كان ذا مال وبنين. كان يظهر أنه يتصدق على الفقراء بينما هو في الواقع بخيل بماله، فكان قلبه يتأرجح ما بين الخوف من البعث والحساب والعقاب، وما بين حبه للمال وحرصه على جمعه.

لنقرأ السورة أولا، ثم نعود بعد إلى شرح حال هذا الرجل في التعليق.

- نص السورة

<u>1- مقدمة: الإنسان في كبد!</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ[1] (مكة) (1)، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ[2] (جملة اعتراضية)(2)، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ[3] (3)، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ[4] (في مشاقة مع نفسه : جواب

1- سبق القسم بـ"هذا البلد الأمين" (مكة) في سورة التين أعلاه (رقم 26)

2- ذهب معظم المفسرين إلى القول إن المعنى هو : "أنت به (بهذا البلد) حلال لك تقتل فيه من أردت، وأسِر من أردت. حجتهم في ذلك : اللغة، يقال "هو "حِلّ، وهو حلال، وهو حِرْم، وهو حرام (الطبري). وهذا الرأي لا يستقيم، لأن السورة مكية وأن القول بأن مكة حلال للنبي عليه السلام يفعل فيها ما يشاء من الأسر والقتل الخ، لا معنى له قبل فتحها. ومـن=

القسم): أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ[5]؟ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا[6] (كثيرا في الكفارات، وهذا كذب)! أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ[7]؟ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ[8]، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ[9] ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[10] (طريق الخير وطريق الشر، ويوم القيامة ستنطق جوارحه بما فعل).

2- اجتياز العقبة: تحرير رقبة

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ[11] (4) (لم يجتزها ولن يفعل)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ[12] (هل تعرفها؟ إنها)، فَكُّ رَقَبَةٍ[13] (تحرير عبد)، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ[14] (يوم مجاعة)، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ[15] (من الأقارب)، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[16] (لا يملك إلا التراب)، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ[17].

3-خاتمة: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ[18] (الميامين)، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ[19] (المشئومين)، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ[20] (مطبقة).

- تعليق

ركزت السورة كما رأينا على المسألة الاجتماعية، مع التفافة في خاتمتها إلى مسألة المعاد. ولعل هذه السور هي أكثر السور تركيزا على قضية العبيد والفقراء

أجل هذا قال بعضهم إن السورة مدنية، لكن وقع الاتفاق على أنها مكية. ونحن نميل مع الرأي القائل إن معنى "أنت حل بهذا البلد" هو "أنت مقيم فيه"، من الحل والترحال، مع أن هذا الرأي يقول عنه خصومه لا سند له من اللغة، إذ لا وجود في كتب اللغة لـ "الحِل" بالكسر، بمعنى الإقامة، وإنما معناه من الحلال ضد الحرام. وإذا سلمنا بهذا فإن أقرب المعاني إلى مضمون السياق هو القول : إن عبارة "وأنت حل بهذا البلد" جملة اعتراضية، بمعنى وأنت مستباح الآن من طرف المشركين، يؤذونك، في هذا البلد الذي يحرم فيه الظلم...

3- اعتبر بعضهم "ما" حرف نفي ففسروا الآية بالقول : "الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له". ونحن لا نرى مبررا لصرف المعنى إلى العاقر. فالأصل هو المعنى= الظاهر أي عملية التناسل، وهي خلق متجدد. والمعنى المناسب للفظ "الوالد" في السياق هو إبراهيم باني هذه المدينة، وبالتالي يكون "ما ولد" هو ذريته ابتداء من إسماعيل إلى محمد (ص).

4 - كثير من المفسرين قالوا إن المقصود بـ "العقبة" هي القيامة. وهي لم تقم بعد!؟ إن العقبة المعنية هنا لا تحتاج إلى تأويل إذ هي مشروحة بقوله: فك رقبة الخ أي: الكفارة.

والمساكين، وكانوا هم مادة الإسلام في هذه المرحلة من الدعوة. لقد جعلت السورة من هذه القضية السبيل الوحيد إلى "اقتحام العقبة"، إلى النجاة، مع شرط الإيمان وما يستلزمه من التواصي بالصبر والمرحمة. النجاة في الدنيا بالعيش بضمير مرتاح، والنجاة في الآخرة بالانضمام إلى صف الميامين، الذين وعدهم الله بالجنة والنعيم.

والواقع أن هذه السورة هي من السور التي تبدو للمستمع والقارئ واضحة المعنى بسيطة المبنى، ولكن ما أن يأخذ المرء في محاولة تحصيل معاني آياتها وتبين معقولية سياقها حتى يكتشف أن الأمر ليس بالسهولة التي تصور أول مرة. ولا شك أنه يندهش، إذا هو رجع إلى كتب التفسير، من تعدد التأويلات لكل لفظ من ألفاظها تقريبا، وهو تعدد تقف وراءه صعوبة اكتشاف معقولية العلاقة التي تربط بين الألفاظ والعبارات، أعني وجوه الاتصال فيما بينها.

من أجل ذلك كان لابد من "قراءة" هذه السور على ضوء ما قيل في سبب نزولها. ومع أن المفسرين الكبار يهتمون بذكر أسباب النزول، ويحاولون استقصاءها، إلا أن اهتمامهم باستقصاء معاني الألفاظ، كما يفعل أصحاب المعاجم، وذكر جميع التأويلات والافتراضات، دع عنك الميول المذهبية العقدية، كل ذلك يصرفهم، في معظم الأحوال، عن التركيز على فهم الألفاظ والعبارات داخل سياق السورة المدروسة، وفي إطار المرحلة التي تنتمي إليها هذه السورة من مراحل تدرج النزول.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشعر المرء إزاء هذه السورة، بما سبق أن نوهنا به، وهو أن كثيرا من الروايات التي تتحدث عن أسباب النزول تشي هي نفسها بما يطعن في صدقها، حتى أنها لتبدو وكأنها إنما حيكت من أجل "تفسير" لفظ أو عبارة. من ذلك مثلا الرواية التي تقول إن هذه السورة نزلت : "في رجل من بني جُمَحَ؛ كان يقال له أَبُو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العُكاظِيّ (جلد من عكاظ) فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق الجلد ولا تزول قدماه"! وتضيف الرواية : "وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم"... وتروى هذه الحكاية كسبب نزول لسورة أخرى. وقيل نزلت في رجل من خصوم الدعوة المحمدية اسمه الأشد بن كلدة كان يقول إنه انفق أمواله في إيذاء محمد، وصرف الناس عنه... وقيل نزلت في رجل كان كلما ارتكب ذنبا جاء رسول الله وسأله ما عليه أن يفعل ليغفر الله له، فكان جواب النبي في كل مرة أن عليه أن يُكَفِّر بما يستوجبه ذنبُه من الكفارات، ولما كثر عليه ذلك قال مشتكيا: "لقد أهلكت مالاً لبداً في الكفارات والتبعات منذ أطعت محمداً".

ومع أن الرواية الأخيرة يمكن الطعن فيها بسبب أن "الكفارات" لم تكن قد نزلت بعد، فإنه من الممكن أخذ "الكفارة" هنا بمعناها العام الذي ورد من قبل في سورة الفجر، أعني إتيان المال من أجل التزكية والتطهر : "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" (الفجر 18)، وفي هذه الحالة تكون هذه الرواية، في نظرنا، أولى بالقبول لأنها تنسجم إلى حد كبير مع منطوق ومفهوم آيات السورة. فالرجل الذي تتحدث عنه هذه السورة كان في "كبد"، كان في مُشاقة مع نفسه، لم يستطع كبح جماع نفسه عن المعاصي، وكان يعتقد أن ماله قد جعل منه رجلا قويا لا يقدر عليه أحد، فكان يأتي المعصية بعد الأخرى ثم يذهب يطلب الفتوى من النبي (ص) لدى كل ذنب فيأمره النبي بالكفارة، ثم يدعي أنه فعل ذلك، وهو كاذب يعتقد أنه غير مراقب. هذا في حين أن جميع أعضاء جسمه -تقول السورة- ستشهد عليه يوم القيامة: عينيه، شفتيه، عقله الذي يميز به بين طريق الخير وطريق الشر، وهو بكذبه اختار طريق الشر، وعقلُه شاهد عليه.

هذا الرجل يواصل ارتكاب الذنوب وفي نفس الوقت لا يتطهر منها ولا يستطيع التوبة والالتزام بها، يريد أن يتخلص من الذنب ولكنه لا يسترخص ما به يمكن محو الذنب. وهذه "عقبة"، أو كما نقول اليوم تناقض وجداني وأزمة نفسية. ولا يمكن اجتيازها إلا بالكفارة فهي وحدها تمحو الذنوب. والكفارة هنا أحد أمور: عتق عبد، أو إطعام يتيم من أقاربه، أو مسكين بلغ به الفقر أن صار ملتصقا بالتراب. ولكن الكفارة لا تكفي وحدها، فهي لا تؤدي وظيفتها إلا بالتوبة، أي بالتعهد بعدم الرجوع إلى ارتكاب تلك الذنوب... إلا إذا صار صاحبها من المؤمنين الذين يصبرون فلا ينساقون مع شهواتهم، والذين يتعاونون فيرحم بعضهم بعضا. هؤلاء هم الذين مصيرهم الجنة، أما غيرهم ممن لا يفعل ذلك فمصيرهم جهنم.

34م1- سورة العلق (بقية)

- تقديـــم

سبق أن تحدثنا عن الآيات الأولى، من سورتي العلق والمدثر، التي كانت أول ما نزل منهما حسب ترتيب النزول، وكنا قد أخرنا الكلام عن الآيات الباقيات فيهما، وهي القسم الأكبر منهما، إلى الرتبة التي تناسبها بناء على المرحلة التي ينتمي إليها مضمونها والتطورات التي عرفتها الدعوة المحمدية. وهذا التأخير لا يعني الفصل بين أجزاء السورة الواحدة، فترتيب الآيات داخل السور توقيفي باتفاق الأغلبية من المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن. غير أن هذا لا يغير شيئا من واقع أن القرآن قد نزل منجما، بشهادة القرآن نفسه[1]؛ وهذا يعني أن فهم القرآن يتطلب استحضار هذه الخاصية. وإذا كان من غير الممكن تطبيق ذلك على جميع السور، فإن التمييز في السورتين المذكورتين بين الآيات التي كانت أول ما نزل، باتفاق المفسرين، وبين الآيات التالية لها، إجراء منهجي ضروري في الفهم الذي يطمح إلى مصاحبة القرآن كما نزل بتساوق مع وقائع كفاح الرسول (ص) ومسار دعوته. وحفاظا على وحدة كل من السورتين سنعرض هنا نصوصهما كاملة كما هي في المصحف - وقد فعلنا الشيء نفسه عند تناولنا لآياتهما الأولى.

لقد أبرزنا في الآيات الخمس الأولى، من سورة العلق، مسألتين أساسيين: الأولى هي أن الخطاب الإلهي ورد فيها باسم "الرب" ("اقرأ بسم ربك")، وكما رأينا فقد استمر استعمال هذا الاسم وحده إلى أن نزلت سورة الإخلاص جوابا على طلب قريش من النبي أن "ينسب ربه". أما المسألة الثانية فهي أن الآيات الخمس المذكورة قد رسمت ملامح العقيدة الإسلامية من خلال "الخلق من علق، والتعليم بالقلم". والمقصود خلق الإنسان وبالتحديد محمد عليه السلام، إشارة إلى أن ربه الذي خلقه هو نفسه الذي يعلمه "ما لم يعلم"، أي القرآن. أما القسم الثاني من السورة وهو الذي سنعرض له الآن فالخطاب فيه موجه إلى أحد خصوم الدعوة المحمدية، بأسلوب

1- انظر التعريف بالقرآن الفصل السادس فقرة 5-ب

ومضمون يرتفعان إلى مستوى الرتبة التي وضعناه فيها هنا على مستوى الجدل مع المكذبين من قريش.

- نص السورة

أ- القسم الأول من السورة وقد شرحناه سابقا (سورة العلق رقم 1)

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (1-5).

ب- القسم الثاني

1- طغيان أبي جهل ...

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ (أبو جهل) **لَيَطْغَى**[6] **أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**[7] (طغيان أبي جهل راجع إلى اعتزازه بثروته)، **إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**[8] (هو ينسى أن المآب في النهاية إلى الله حيث لا ينفعه ماله). **أَرَأَيْتَ** (يا للعجب) **الَّذِي يَنْهَى**[9] **عَبْدًا** (محمدا) **إِذَا صَلَّى**[10]! [(2)] **أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ** (هذا المصلي: محمد) **عَلَى الْهُدَى**[11] (على الطريق المستقيم) **أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى**[12] (بالعمل الصالح)!

2- لا تطعه ...

أَرَأَيْتَ (يا محمد) **إِنْ كَذَّبَ** (أبو جهل بالقرآن) **وَتَوَلَّى**[13] (وأعرض عن الدعوة) **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**[14] (وأن أعماله تسجل عليه)! **كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ** (إن لم يجعل حدا لإذايته) **لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ**[15] (سنأخذه يوم القيامة من مقدمة رأسه ونلقي به في جهنم) **نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**[16] (ذلك الرأس المملوء كذبا وضلالا، وحينئذ) **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**[17] (أتباعه ومناصريه)، **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**[18] (الملائكة خزنة جهنم). **كَلَّا** (أعرض عنه وواصل صلاتك)، **لَا تُطِعْهُ، وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**[19] (من الله).

2- يتعلق الأمر بالصلاة كما كانت قبل فرض الصلوات الخمس عند الإسراء.

- تعليق

واضح أن الفرق كبير بين آيات القسم الأول التي نزلت من هذه السورة عند بداية الوحي وبين هذه الآيات، سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد المضمون. ففي القسم الأول كان الخطاب إلى النبي (ص) لأول مرة يبلغه ابتداء الرسالة ("اقرأ باسم ربك")، أما في القسم الثاني فالخطاب إلى عدو للنبي ومكذب برسالته. ويتفق معظم المفسرين على أن المعنيَّ هنا هو أبو جهل بن هشام، وهو من زعماء بني مخزوم المنافسين للهاشميين. وكان هذا الرجل من بين الذين آذوا النبي عليه السلام. كان ينهى الرسول عن الصلاة في المسجد الحرام، وكان الرسول يقاوم هذا الطغيان ويرد عليه بالقرآن. ومن المرويات في هذا الموضوع أن أبا جهل سأل أصحابه : "هل يُعفــر محمد وجهه (يضعه فوق التراب: يسجد) بين أظهركم؟ فقيل : نعم، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب (أحكه على الأرض)، فأنزل الله "كلا إن الإنسان ليطغى" الآيات. وفي رواية أخرى أن الرسول (ص) كان يصلي فجاءه أبو جهل فنهاه، فأنزل الله "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى" إلى قوله كاذبة خاطئة". وفي أخرى أنه وجد النبي يصلي فقال له: ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبي، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله فليدع ناديه سندع الزبانية". وواضح أن هذه الروايات المجزأة تتعلق بحادثة واحدة رويت فالتقط منها كل واحد من الرواة المذكورين العبارة التي ذكرها، وهي في مجموعها رد على أبي جهل.

34م2- سورة المدثر (بقية)

- تقديـــم:

كان سبب نزول القسم الأول من هذه السورة هو انقطاع الوحي وحزن النبي (ص) على ذلك (انظر المدثر رقم2)، فجاءت آيات ذلك القسم لتواسيه ولتثبت فؤاده بالتأكيد على استمرار مهمته كرسول، وأن عليه أن يقوم فينذر... أما سبب نزول هذا القسم الثاني من السورة فشيء آخر. يقول ابن إسحاق: "ثم إن الوليد بن المغيرة (زعيم بني مخزوم وكبيرهم) اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِن فيهم، وقد حضر الموسم (الموسم السنوي الذي يقام في مكة وتحضره القبائل العربية) فقال لهم: يا معشرَ قرَيش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمرِ صاحبكم هذا (نبوة محمد عليه السلام)، فأجمِعوا فيه رأياً واحداً (تجيبون به على من يسألكم من مرتادي السوق)، ولا تختلفوا فيكذب بعضُكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضَه بعضاً؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس (اقترح علينا) فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال : بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن! قال : لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمة (كلام) الكاهن ولا سَجْعه. قالوا: فنقول : مجنون! قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر! قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجَزَه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول : ساحر! قال : ما هو بساحر. لقد رأينا السُحَّار وسحرَهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال : واللّه إن لقوله لحلاوة وإن أصلَه لعَذْق (كالنخل) وإن فرعه لجَناة (حلو كالتمر)، وما أنتم بقائلين من هذا (الذي اقترحتم) شيئا إلا عُرِف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر: جاء بقول هو سحر، يفرِّق به بين المرءِ وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته" . فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم، ولا يَمُرُّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه (من النبي)، وذكروا لهم أمره. فأنزل اللّه تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله :" ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا..." (يعني الآيات التي ندرجها في القسم الثاني أسفله):

- نص السورة

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ، فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ. (1-10).

القسم الثاني

<u>1- رد على الوليد بن المغيرة في قوله عن القرآن: سحر يؤثر!</u>

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا[11] (خرج من بطن أمه لا ولد له ولا مال)، **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا**[12] (جعلت بعد ذلك ثروة كبيرة)، **وَبَنِينَ شُهُودًا**[13] (وبنين حاضرين معه في مكة وعددهم عشرة)، **وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا**[14] (جعلت حياته هادئة)، **ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ**[15]**! كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا (حججنا) عَنِيدًا**[16]**، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا**[17] (سأصيبه بمشاق). **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**[18] (لما تداولوا في أمر محمد)، **فَقُتِلَ** (عليه اللعنة) **كَيْفَ قَدَّرَ**[19]**، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**[20]**!؟، ثُمَّ نَظَرَ**[21]**، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ**[22] (واسود وجهه) **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ**[23]**، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**[24] (من المأثور: موروث عن السحرة)، **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ**[25] (ليس وحيا إلهيا). (انتظر يا محمد) **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**[26] (سأدخله جهنم)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ**[27]**! لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ**[28]**، لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ**[29] (تحرق جلودهم)، **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**[30] (حراسا من الملائكة).

<u>2- رد على استهزائهم بعدد حراس جهنم!</u>

- **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ** (حراسها) **إِلَّا مَلَائِكَةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**[31] (1).

1- يبدو واضحا أن هذه الجملة الطويلة هي جملة اعتراضية بمعنى أنها بين كلام متصل. ذلك أنها جواب على اعتراض قريش على الآية السابقة لها حين استصغروا عدد حراس جهنم (تسعة عشر). فلما انتهى الجواب رجع القول إلى ما قبله، أي إلى الفقرة الأولى=،

3- الجزاء واعترافات أصحاب جهنم...

كَلَّا وَالْقَمَرِ[32]، **وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ**[33] (أظلم)، **وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**[34] (أضاء) **إِنَّهَا** (أي سقر: جواب القسم) **لَإِحْدَى الْكُبَرِ**[35] (الأمور العظيمة)، **نَذِيرًا لِلْبَشَرِ**[36]، **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**[37] (2). (وبالتالي فـ) **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**[38] (كل نفس ألقي بها في جهنم مسجونة فيها مقيدة)، **إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ**[39] (المؤمنون فهم) **فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ**[40]، **عَنِ الْمُجْرِمِينَ**[41]: (يسألونهم) **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**[42]؟. **قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**[43]، **وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**[44]، **وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ**[45] (نكذب محمدا)، **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ**[46] (بيوم القيامة والجزاء)، **حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ**[47] (البعث والحساب)، **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**[48] (شفاعة الأصنام التي كانوا يعتقدون في شفاعتها).

4- خاتمة: لماذا هم عن القرآن معرضين: يريد كل منهم قرآنا!

فَمَا لَهُمْ (لماذا هم) **عَنِ التَّذْكِرَةِ** (التي تقوم بها يا محمد) **مُعْرِضِينَ**[49]، **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ** (وحش) **مُسْتَنْفِرَةٌ**[50] (فارة) **فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**[51] (من رمي الرماة)؟ **بَلْ** (السبب هو أنه) **يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً**[52] (3)، **كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ**[53]. **كَلَّا إِنَّهُ** (القرآن) **تَذْكِرَةٌ**[54] (وليس بسحر)؟ **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ**[55] (اتبعه واتعظ به)، **وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى** (أهلٌ أن يُتقى عقابه) **وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**[56] (أهلٌ أنْ يعمل بما يُؤدِي إلى مغفرته).

- تعليق

يتألف هذا المقطع من سورة المدثر من أربع فقرات، الأولى في الرد على الوليد بن المغيرة في وصفه القرآن بأنه "سحر يؤثر" (انظر التقديم) وتتوعده بجهنم (سقر)، والثانية في الرد على المستهزئين الذي سخروا من كون حفظة جهنم تسعة

وبالتالي فالضمير في "إنها لإحدى الكبر"، في الفقرة الثالثة، يعود إلى "سقر" في الفقرة الأولى. وقد أمر الرسول بوضع الجملة الاعتراضية حينما نزلت في مكانها الحالي بالمصحف حتى يكون الرد عليهم في الحين. انظر التعليق.

2- نظير قوله: "فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكفُر" (الكهف 29)

3- نظير قولهم : "لن نُؤمنَ لرقيِّك حتى تنزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه..."(الإسراء 93).

عشر من الملائكة، كما ورد في آخر الفقرة الأولى. وتأتي الفقرة الثالثة لتكمل الفقرة الأولى فترسم مشهدا للجنة والنار يعترف فيه أصحاب النار لأصحاب الجنة أنهم لم يكونوا في الدنيا من المصلين ولم يكونوا يطعمون المسكين، وأنهم كانوا بالعكس من ذلك يكذبون بيوم الدين الخ، وأما الفقرة الرابعة فتجيب عن سؤال: لماذا يعرضون عن القرآن؟ وتجيب بأنهم يريدون أن يؤتى كل منهم بكتاب خاص به، وهم يطالبون بهذا استهزاء لأنهم لا يخافون الآخرة، وتختم بأن القرآن كتاب منزل من عند الله فمن شاء آمن به ومن شاء كفر، وهم قد اختاروا الضلال والعناد ولذلك فإن الله لن يشاء لهم الإسلام فهم ليسوا أهلا له، والله يشاء الإسلام للمتقين الذي يطلبون منه المغفرة.

ومما يجدر التوقف عنده هنا هو ورود الفقرة الثانية على شكل جملة اعتراضية طويلة، تفصل بين الفقرة الأولى والثالثة. قال المفسرون: روي أنه لما نزل قوله تعالى: "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" (المدثر: 30) قال أبو جهل لقريش : "ثكلتكم أمهاتكم! قال ابن أبي كبشة (يعني الرسول عليه السلام): إن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين! فلما قال أبو جهل وأبو الأشد ذلك، قال المسلمون وَيْحَكُم! لا تقاس الملائكة بالحدادين، فجرى هذا مثلاً في كل شيئين لا يُسوَّى بينهما، والمعنى لا تقاس الملائكة بالسجانين والحدادين، والسجان (هنا) هو الذي يحبس النار. فأنزل الله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً" الآية. وعلى هذا فالآية 31 التيّ تشكل فقرة مستقلة (الفقرة الثانية)، والتي هي غير متناسبة الطول والأسلوب لا مع ما قبلها ولا ما بعدها، قد نزلت بمناسبة ما ذكر كسبب نزول لها، وبالتالي فهي آية أضافها الرسول عليه السلام عندما نزلت إلى أصل السورة ردا على استغراب قريش أن يكون عدد خزنة جهنم تسعة عشر وعلى استهزائهم بذلك. ومن هنا كان من الضروري ربط الفقرة الثالثة بالأولى وبالتالي جعل الضمير في "إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ" يعود على سقر.

35 – سورة القلم

– تقديـــم

رتبت سورة القلم في الرتبة الثانية في لوائح ترتيب النزول بعد سورة العلق مباشرة؛ وهذا يتناقض مع ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن سورة المدثر هي التي نزلت الثانية، بعد انقطاع الوحي لمدة، كما بينا ذلك في التقديم الذي صدرنا به سورة المدثر. والمرجع في ذلك حديث عائشة التي قالت: أول ما نزل من القرآن "أقرأ باسم ربك" ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر. وهذا يؤيده قول الصحابي الكبير جابر بن عبد الله، فقد سئل عن أول ما نزل من القرآن فأجاب السائل : "لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «جاوَرْتُ بحِرَاءٍ فلمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أرَ شَيْئًا، ونَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رأسي فرأيْتُ شيْئا، فأتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصبُّوا عَلَيَّ ماء بارِدا، فنزلت يا أيُّها المُدَّثِّرُ. وواضح أن الأمر يتعلق باستئناف الوحي بعد انقطاعه.

أما سورة القلم فلم يرد بشأنها ما يؤكد كونها الثانية أو الثالثة أو ... وما تردد في الروايات الخاصة بها هو كون آيات منها نزلت في المدينة. والآيات التي قالوا إنها مدنية لا سند لهم فيها إلا كونها تحتمل أن تكون أسبابُ نزولها أمورا حدثت في المدينة، وهذا على ما جرت عليه عادتهم في البحث عن أسباب لنزول هذه الآية أو تلك من خلال استعراض الوقائع لا العكس. وهكذا يذكر القرطبي نقلا عن الماوردي أن ابن عباس وقتادة قالا عن سورة القلم : "أولها مكي، إلى قوله: "عَلَى الْخُرْطُومِ" (الآية 16)، ومن قوله: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ إلى قوله "لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" (17–33) مدني، ومن قوله: "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ" إلى قوله: "فَهُمْ يَكْتُبُونَ" (34–47) مكي، ومن قوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ" إلى قوله: "مِنَ الصَّالِحِينَ" مدني، ومن قوله: "وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُواْ" (51) إلى آخر السورة مكي!

هذا التجزيء لآيات السورة بين المكي والمدني لا يستقيم مع وحدة السياق فيها كما سنرى. أما صاحب "الإتقان" فقد ذكر نقلا عن السخاوي : "أن المدني منها من قوله: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ" إلى "لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" ومن قوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ" إلى قوله: "مِنَ الصَّالِحِينَ" فلم يجعل قوله: "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ" إلى قوله: "فَهُمْ يَكْتُبُونَ" مدنياً خلافاً لما نسبه الماوردي إلى ابن عباس.

أما نحن فنرى أن هناك مبررات معقولة للقول إن السورة كلها نزلت بمكة وأنها نزلت في مرحلة متأخرة نسبيا، وقد اخترنا لها هذا المكان، أعني الرتبة 35، للاعتبارات التالية:

1-إن ابتداء السورة بالقسم بحرف (النون أو غيره) عملية بدأت متأخرة (سورة ق، التي رتبناها الرابعة والثلاثين، وقد رتبت في لوائح النزول كلها إما الثالثة والثلاثين وإما الرابعة والثلاثين). ومن المستبعد جدا أن تكون "ن والقلم" قد نزلت ثانية أو ثالثة. نعم كان يمكن أن نعتبر الآيات السبع منها ضمن مجموعة الآيات التي نزلت أولا (كما هو الحال في سورتي العلق والمدثر) لولا أن تلك الآيات، فضلا عن كونها تبدأ بالقسم وبحرف ن، تردُّ بلهجة قوية على الذين اتهموا النبي عليه السلام بالجنون عندما ذاع خبر نبوته، لهجة لا يتسق مع روح وأسلوب السور التي نزلت في المرحلة الأولى، مرحلة "اقرأ باسم ربك"، "ما ودعك ربك" و"ألم نشرح لك صدرك" الخ.

2- أما الآيات التي تلي الآيات السبع الأولى منها (من سورة القلم) فهي تنسجم تماما مع سور المرحلة التي نتحرك فيها الآن، خصوصا ابتداء من سورة الهمزة رقم 32. ذلك أنها ترد على أكثر من واحد من زعماء قريش الذين كانوا يؤذون الرسول عليه السلام، وقد سمى المفسرون منهم الأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف بني زُهرة، وقالوا هو المقصود بـ"الزنيم" في هذه السورة كما سيأتي، كما ذكروا الوليد بن المغيرة وقالوا هو المقصود بكونه صاحب المال والبنين، كما أشاروا إلى الأسود بن عبد يغوث ... المهم في الأمر هو أن هذه السورة تنتمي إلى الجو العام الذي أخذت فيها العلاقات بين الرسول والملأ من قريش تدخل في مرحلة من التوتر المتزايد. لقد أخذ زعماء قريش يضيقون ذرعا بالدعوة المحمدية في هذه المرحلة وبدأ صبرهم ينفذ. ولولا وقوف عميد بني هاشم آنذاك، أبو طالب، مع الرسول لذهبت قريش بعيدا في محاربتها للدعوة المحمدية في هذا الوقت بالذات، ولذلك نراهم يحاولون حمله على التخلي عن دعوته، متوعدين تارة مظهرين استعدادهم لاتباعه تارة، إذا هو وافق على أن يلين لهم مقابل أن يلينون له، فجاء القرآن يوصي الرسول عليه السلام برفض المساومة وعدم الاهتمام بالوعود الكاذبة.

وفي هذا الإطار تشير السورة إلى قصتين : واحدة تقارن بين موقف قريش وموقف "أصحاب الجنة"، مشيرة إلى أن مصير ثروات قريش يمكن أن يسلط الله عليها القحط والجفاف أو غيرهما فيصيبها ما أصاب مزرعة "أصحاب الجنة" التي التهمت النيران محصولها في ليلة اليوم الذي حددوه لجمع غلتها. أما القصة الثانية فهي موجهة إلى النبي نفسه، درسا وعبرة. ذلك أن قوم يونس قد أعرضوا عن

دعوته وكذبوه فضاق بهم ذرعا ولم يصبر فدعا عليهم بالهلاك وتركهم فارا بنفسه. فركب سفينة ناويا السفر بعيدا، فكان مصيره أن التهمه الحوت ليرمي به في الشاطئ.... وبين القصتين تهديد ووعيد للمكذبين من قريش بالقيامة والحساب.

- نص السورة

1- مقدمة: إنك لعلى خلق عظيم ... ستبصر ويبصرون ...

بسم الله الرحمن الرحيم

نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[1] (ما يكتبون) **مَا أَنْتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ** (مثل قولنا بحمد الله)، **بِمَجْنُونٍ**[2] (جواب القسم)، **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا** (مقابل أداء الرسالة) **غَيْرَ مَمْنُونٍ**[3] (غير منقوص)، **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**[3] (كان معروفا عند قومه بحسن الخلق حتى لقبوه بالأمين). **فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ**[5]، **بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ**[6] [(1)]. **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**[7].

2-. وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ... مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ[8] **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ** (تلين لهم) **فَيُدْهِنُونَ**[9] (فيلينون لك). **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ**[10] (كثير الحلف بالباطل) **هَمَّازٍ** (عياب) **مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**[11] (يسعى بالنميمة) **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**[12] **عُتُلٍّ** (جاف غليظ) **بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ**[13] (فاحش لئيم) **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ**[14]، **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**[15] **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**[16] (سنجعل على أنفه علامة تبقى طول حياته كما في الجمل).

3- أرادوا أن يجنوا زرعهم باكرا كيلا يدخل عليهم مسكين فاحترقت!

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ (اختبرنا قريش بالقحط والجوع) **كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** (أصحاب مزرعة باليمن) : **إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**[17] (ليجنونها باكرا حتى لا يطعم منها فقير) **وَلَا يَسْتَثْنُونَ**[18] (لم يقولوا إن شاء الله). **فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ** (نار أحرقتها) **وَهُمْ نَائِمُونَ**[19] **فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**[20] (رمادا). **فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ**[21] (في الصباح) **أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ**[22]

---

1 - اختلفوا في تفسير لفظ "بأيكم المفتون"، بسبب حرف الباء (بأيكم). وأقرب الأقوال إلى الفهم القول بأن "المفتون" هنا مصدر بمعنى الفتون، أي الجنون، قالوا: "والمصادر تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر، يقال: ليس له معقود رأي أي عقد رأي". وعلى هذا يكون "بأيكم المفتون معناه: بأيكم الجنون: أيكم هو المجنون".

(عازمين على جنيه). فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ[23] (يتسارُّون) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ[24]. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ (سوء قصدهم) قَادِرِينَ[25] (على تنفيذه). فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ[26]، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[27] (من غلة حرثنا)! قَالَ أَوْسَطُهُمْ (أفضلهم) أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا (هلا) تُسَبِّحُونَ[28]! قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[29]، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ[30] : قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ[31] عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ[32]. كَذَلِكَ الْعَذَابُ (من فقدان زرعهم)! وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[33]. إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ[34].

4- أنجعل المسلمين كالمجرمين؟

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ (المؤمنين بالدعوة المحمدية) كَالْمُجْرِمِينَ[35] (المكذبين) [(2)]؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[36] ! أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ (من عند الله) فِيهِ تَدْرُسُونَ[37] (تقرؤون) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ[38] (أن تختاروا على هواكم)؟ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ (عهود ومواثيق) عَلَيْنَا بَالِغَةٌ (صارمة تلزمنا) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ[39] (أن فيها أنكم تقضون حسب رغبتكم)؟ سَلْهُمْ (يا محمد) أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ[40] (يكفل لهم أن يحدث ما زعموا من ذلك)؟ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ (آلهة شركاء مع الله) فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ[41]! يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ (يوم القيامة، يوم الشدة والمحنة) وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ[42] (لتخشب ظهورهم): خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (منحنية ذليلة) تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (تتعبهم المهانة)، وَقَدْ كَانُوا (في الدنيا) يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ[43] (فكانوا يمتنعون).

5- خاتمة: اصبر ولا تكن كصاحب الحوت!

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ (القرآن، لا تشغل بالك بهم واترك أمرهم إلينا)! سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[44] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ[45]. (لماذا لا يستجيبون؟) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ[46] (هل تطلب منهم أجرا وثقل عليهم أداؤه)؟ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ[47] (يعلمون علم الغد)؟ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ (مستعجلا) كَصَاحِبِ الْحُوتِ (النبي يونس) إِذْ نَادَى (دعا ربه أن ينقذه من داخل بطن الحوت) وَهُوَ مَكْظُومٌ[48] (وهو حزين مهموم).

2- قيل كانت قريش تجادل المسلمين في شأن المصير في الآخرة ويقولون "إنْ كان ما تذكرون حقاً فإنَّ لنا في الآخرة أكثرَ ممَّا لكم"، فجاءت هذه الآية في الرد عليهم.

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ (لترك) بِالْعَرَاءِ (عندما ألقاه البحر على الأرض) وَهُوَ مَذْمُومٌ[49]. فَاجْتَبَاهُ (اختاره) رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[50] (3). وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ (يصرعونك حنقا) لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ (القرآن) وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ[51]. وَمَا هُوَ (القرآن) إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[52].

- تعليق :

المسلمون ...

لنلاحظ أولا أن هذه أول مرة يستعمل فيها القرآن لفظ "مسلم" (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ[35])... يمكن أن يقال إن ترتيب السورة من وضعكم، وأن هذه السورة في الرتبة الثانية في لوائح ترتيب النزول المروية (وهي كلها عن ابن

3- لا تذكر هذه السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة يونس مع قومه غير ما ورد أعلاه. والقصة مذكورة في التوراة واسم يونس هناك "يونان". وقد أورد القرطبي ملخصا عنها فقال : "إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فأبوا وامتنعوا. ولما يئس من إيمانهم قال لهم إن الدمار سيحل بمدينتكم خلال ثلاثة أيام. فقال قومه: هو رجل لا يكذب فلنرقبه، فإن أقام معنا فلا شيء علينا، وإن ارتحل عنا فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتابوا ودعوا الله أن يغفر لهم. أما يونس فكان قد التحق بسفينة فارا، فثقلت بمن فيها فاتفقوا على التخفيف من وزنها بإلقاء واحد منهم في البحر، وعملوا القرعة فجاءت في يونس، فألقوا به في البحر فالتقطه حوت كبير، ثم قذفه فحمله الموج إلى شاطئ البحر. وعاد ربه فكلفه بتبليغ الرسالة إلى أهل نينوى الذين كانوا يعبدون الأصنام فلما ذهب إليهم وجدهم قد أسلموا، فغضب وقال لربه لماذا لم تجعلهم مؤمنين في المرة الأولى. ثم قال لربه (والنص ننقله من التوراة): "3وَالآنَ دَعْنِي أَيُّهَا الرَّبُّ أَلْفِظْ أَنْفَاسِي لأَنَّهُ خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ أَحْيَا». 4فَقَالَ الرَّبُّ: "أَأَنْتَ مُحِقٌ فِي غَضَبِكَ"؟ 5وَخَرَجَ يُونَانُ (يونس) مِنْ نِينَوَى وَجَلَسَ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ... 6فَأَعَدَّ الرَّبُّ الإِلَهُ يَقْطِينَةً نَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَلَّلَتْ رَأْسَ يُونَانَ لِتَقِيَهُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فَلا يُؤْذِيَهُ. فَابْتَهَجَ يُونَانُ بِالْيَقْطِينَةِ ابْتِهَاجاً عَظِيماً. 7وَلَكِنْ فِي فَجْرِ الْيَوْمِ التَّالِي أَعَدَّ اللهُ دُودَةً قَرَضَتِ الْيَقْطِينَةَ فَجَفَّتْ. 8فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، أَرْسَلَ اللهُ رِيحاً شَرْقِيَّةً حَارَّةً لَفَحَتْ رَأْسَ يُونَانَ، فَأَصَابَهُ الإِعْيَاءُ وَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ الْمَوْتَ قَائِلاً: «خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ أَظَلَّ حَيّاً». 9فَقَالَ اللهُ لِيُونَانَ: «أَأَنْتَ مُحِقٌ فِي غَضَبِكَ مِنْ أَجْلِ الْيَقْطِينَةِ؟» فَأَجَابَ: «أَنَا مُحِقٌ فِي غَضَبِي حَتَّى الْمَوْتِ». 10فَقَالَ الرَّبُّ: «لَقَدْ أَشْفَقْتَ أَنْتَ عَلَى الْيَقْطِينَةِ الَّتِي لَمْ تَتْعَبْ فِي تَنْمِيَتِهَا وَتَرْبِيَتِهَا. هَذِهِ الْيَقْطِينَةُ الَّتِي تَرَعْرَعَتْ فِي لَيْلَةٍ وَذَوَتْ فِي لَيْلَةٍ، 11أَفَلا أُشْفِقُ أَنَا عَلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُقِيمُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ شَخْصٍ مِمَّنْ لاَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ يَمِينِهِمْ وَشِمَالِهِمْ، فَضْلاً عَمَّا فِيهَا مِنْ بَهَائِمَ كَثِيرَةٍ؟» (التوراة. سفر يونان).

عباس). وهذا في الحقيقة يزكي ترتيبنا، لأنه سواء وضعنا هذه السورة قبل هذه الرتبة أو بعدها فإنها في الحالتين معا لا يمكن أن تكون الثانية. ذلك أن القرآن يشهد بعضه لبعض. وشهادة القرآن هنا بصواب اختيارنا يمكن إبرازها كما يلي: إن المرة الأولى، غير هذه، التي ورد فيها فعل "أسلم" وما اشتق منه : إسلام، مسلم، مسلمون، هي في سورة الأعراف المرتبة إما الثامنة والثلاثين وإما التاسعة والثلاثين في لوائح ترتيب النزول وذلك عند قوله تعالى: "وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِآَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (الأعراف 126) (وذلك في حكاية جواب السحرة عن فرعون بعد أن اتهمهم بالتواطؤ مع موسى عندما فشل سحرهم أمام عصاه). ثم ورد اللفظ نفسه في سورة الجن وسورة النمل وسورة الأنعام، ورتب هذه السور في لوائح ترتيب النزول وردت بعد الرتبة التي وضعنا فيها هذه السورة (القلم). وحتى إذا وضعنا هذه السورة في الرتبة الثانية فإن تكرار فعل أسلم وما اشتق منه (مسلمون الإسلام الخ) لن نجده إلى في هذه السور المتأخرة النزول. وإذا نحن بحثنا عن السبب في تأخر استعمال هذا اللفظ في القرآن وجدناه معقولا تماما. فاصطلاح "الإسلام" يعني الاستسلام والخضوع ويكتسي في الحقل الدلالي العربي الخضوع لسلطة جماعة أو دولة. وهكذا لم يبدأ استعمال هذا اللفظ في القرآن إلا بعد أن صار من كانت تدعوهم قريش "أتباع محمد" جماعةً يجمعها كونها أتباع رئيس معين هو النبي عليه السلام من جهة وانفصالها عن قريش من جهة أخرى. وهكذا فعندما لم تكن هذه الجماعة قائمة كان الذي يستجيب للدعوة المحمدية يوصف بلفظ "تزكى"، "من تزكى"، وهذا اللفظ يدل على عمل فردي، وأتباع الرسول عليه السلام بدؤوا ينتظمون حوله فردا فردا. ثم بعد ذلك بدأ وصف هؤلاء بـ "الذين آمنوا" (سورة العصر المرتبة 12، 13) ثم "المؤمنين" (البروج المرتبة 25، 26، 27). ليأتي بعد ذلك لفظ الإسلام" الذي سيكثر استعماله مع توسع دائرة المؤمنين وانتظامهم في جماعة "روحية" في مكة ثم في دولة في المدينة.

القلم ...

بعد هذا لننتقل إلى القسم : "ن والقلم" ؟

سبق أن تكلمنا عن القسَم بالحروف في سورة ق (رقم 33)، ويبقى علينا هنا أن نقول في "القلم"، فالقسم هنا "ن والقلم" له شأن خاص من حيث الارتباط الذي يمكن إقامته بين حرف النون و"القلم". فعلا ذهب المفسرون في تفسير هذا الحرف مذاهب بعيدة عن السياق، غير مراعين علاقة هذه السورة بالتي قبلها. فمنهم من اعتبر أن "ن" حرف من الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور (ق، ص، يس، طه الخ)، وأخذوا في فك ما يرمز إليه على غرار ما فعلوا مع بقية فواتح

السور فقال بعضهم إنه "نون الرحمان"، وقال آخرون إن المقصود هو السمكة أو الحوت، وخصصه بعضهم بـــ "حوت يونس" عليه السلام، وقال آخرون إنه الحوت الذي "بُسطت على ظهره الأرض" يوم خلق الله السماوات من الماء. ومنهم من قال : "النون" هي الدواة عموما، وخصصها بعضهم بـــ"الدواة" التي كتَب بها "القلم" كل ما كان وسيكون.

أما "القلم" فمع أنهم جميعا يفسرونه بأداة الكتابة، فإن معظمهم مثل ابن عباس، وغيره ممن نقل عنه أو نقل عن مصادره، فسره بما روجته الفلسفة الدينية الهرمسية من أنه "أول ما خلق الله"، ويعنون به العقل الأول في سلسلة العقول السماوية، يليه في هذه السلسلة العقل الثاني وهو عندهم "اللوح" المحفوظ. ويكاد ما ينسب إلى ابن عباس في هذا الصدد يتطابق مع هذا التصور، فقد نسب إليه قوله : "أوّل ما خلق الله من شيء القلم، فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء، فخلق منه السموات، ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون (الحوت)، فتحرّكت الأرض فمادت، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض".

ومن العوامل التي سهلت الترويج لهذا المعنى الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة في موضوع "الجبر والاختيار". لقد بنى المعتزلة مذهبهم على مبدأين: العدل والتوحيد. ويقصدون "العدل الإلهي"، بمعنى أن الله عادل سيجري وعده ووعيده يوم القيامة على الناس ضرورة وبدون تمييز، لأنه وعد بذلك في القرآن. وكان الدافع إلى هذا ما كان الأمويون يروجونه من أن الله لن يعاقبهم يوم القيامة على ما فعلوا من اغتصاب الخلافة والعسف في الحكم الخ، مبررين ذلك بأنه كان قضاء وقدرا من الله، وأنهم بالتالي إنما نفذوا إرادة الله وما كان مقررا في سابق علمه.

وفي هذا الإطار فسر بعضهم "القلم" في السورة التي نحن بصددها بكونه "القلم الذي خلقه الله، تعالى ذكره، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة"، كما نسب إلى النبي عليه السلام حديث في هذا المعنى بصيغ مختلفة، أقصرها : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ العَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ . فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ. فَقَالَ: مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَشْرَفَ مِنْكَ، فَبِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي". وقد انتقل هذا المعنى إلى الباطنية فوظفته فرق من الشيعة والباطنية منها بكيفية خاصة (الإسماعيلية) كما وظفه المتصوفة المتفلسفة، هؤلاء الذين غرفوا جميعا من الفلسفة الهرمسية والتيارات الغنوصية القديمة خدمة لأغراضهم المذهبية السياسية وفي مقدمتها القول بـــ "الجبر"[4].

4 - رجع كتابنا العقل السياسي العربي. الفصل السابع. فقرة 7

بعيدا عن هذه التأويلات الإيديولوجية لنقل مع القائلين إن المقصود بـ "القلم" هو القلم كما يعرفه جميع الناس: أداة الكتابة وهو ما يدخل في معهود العرب زمن النبوة. أما حرف "ن" فمثله مثل الحروف الأخرى التي وردت في أوائل بعض السور سواء قبل القسم مثل "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ" و"ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ" و"يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ"، و"حم والكتاب المبين"، أو بدون قسم مثل (حم تنزيل الكتاب) و(ألم ذلك الكتاب)، وقد سبق أن قلنا رأينا في هذا الموضوع (انظر سورة ق).

36- سورة الطـارق

- تقديــم

ذكروا أن أبا طالب "أتى النبي (ص) بخبز ولبن، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلأ ما ثَمَّ ناراً، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال (النبي): هذا نجم رُمِي به وهو آية من آيات الله"؛ فعجب أبو طالب فأنزل الله تعالى: "والسماء والطارق". وفي رواية أخرى ما يفهم منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة المدثر، أعني القسم الثاني منها. فقد ذكروا أن قوله تعالى في هذه السورة "فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ" (الطارق 5) نزل في "أبي الأشد الذي كان يقوم على الأديم (الجلد) فيقول : يا معشر قريش من أزالني عنه فله كذا، ويقول إن محمدا يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا أكفيكم وحدي عشرة واكفوني أنتم تسعة"، كما رأينا في سورة المدثر[1]. وسورة الطارق مكية بالاتفاق.

وقد روي أيضا عن خالد بن أبي جَبَل العَدْواني من أنه قال : "أبصرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصاً حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول: "والسماء والطارق" حتى ختمَها، قال: "فوعيتُها في الجاهلية ثم قرأتُها في الإسلام". لكن هذا لا يعني أنها نزلت في ذلك الحين، فزيارة النبي عليه السلام للطائف المشار إليها هنا تمت سنة عشرة للنبوة، بعد الحصار. ومن الممكن أن يكون الرسول قد قرأ سورة الطارق بعد أن كانت قد نزلت قبل ذلك بمدة طويلة، أي قبل الحصار خصوصا، ورتبتها 36 في لوائح النزول تقتضي ذلك، وهي تندرج في سياق السور التي نتحرك بينها والتي تؤكد البعث بعد الموت، وما يتبعه من حساب وجزاء، كما تؤكد صدق نبوة محمد (ص)، وهذا هو نفسه موضوع سورة الطارق.

1- وهذا في سورة المدثر رقم 34م2، آية 30.

- نص السورة

1- مقدمة: كل نفس عليها حافظ يسجل ما عملت من خير أو غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ[1] (يطرق الباب ليلا)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**[2] (تهويل: إنه) **النَّجْمُ الثَّاقِبُ**[3] (المتوهج، كأنه يثقب السماء، يرمى به الشياطين عند محاولتهم استراق السمع منها) (2)، **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا** (إلا وعليها) **حَافِظٌ**[4] (جواب القسم : مثله مثل النجم الثاقب : يثقب دائرة أسرار النفس، فيَحْصِي عليها ما تكسب من خير أو شرّ وما توسوس لها به الشياطين).

2- لينظر الإنسان مم خلق ... إن الله على رجعه لقادر.

فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ (المكذب بالبعث المدعي للقوة على التخلص من حراس جهنم) **مِمَّ خُلِقَ**[5]! **خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**[6] (متدفق)، **يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**[7] (قيل: من الظهر والأضلاع التي تحته) (3). **إِنَّهُ** (الله) **عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**[8] **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**[9] (هنا تقديم وتأخير : قادر على بعثه يوم تبلى السرائر) (4)، **فَمَا لَهُ**

---

2 - قالوا: كانت الشياطين تسترق السمع من حديث الملائكة في السماء. ومن استعمال الشياطين كان المنجمون والكهنة يدعون معرفة الغيب. فلما بعث النبي محمد عليه السلام وضعت السماء تحت الحراسة الشديدة، فكل محاولة من الشياطين صارت تقذف بنجم ثاقب كالرمح فيفرون، والمقصود من هذا التصوير هو بينان بطلان التنجيم والكهانة بعد نبوة محمد. وأن اتهام قريش للنبي عليه السلام بالكهانة اتهام باطل لأن استراق الشياطين للسمع قد وضع له حد. ولم يبق إلا الوحي الذي ينقله جبريل إلى الرسول.

3- والغالب أن هذا التفسير القديم لمصدر المني مستقى من الملاحظة عند الممارسة الجنسية التي تشكل جزءا من معهود العرب التجريبي، وبه خاطبهم القرآن. أما العلم القديم فكان يرى : "أن المني إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع، وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته، فيصير مستعدا لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء، ولذلك فإن المفرط في الجماع يستولي الضعف على جميع أعضائه، ومعظم أجزاء المني إنما يتربى في الدماغ، والدليل عليه أن صورته يشبه الدماغ، ولأن المكثر منه يظهر الضعف أولا في عينيه، أما مستقر المني فهو أوعية المني، وهي عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين".

4- ذهب جل المفسرين إن لم يكن كلهم إلى أن المقصود بـ"السرائر" هنا "ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال وبلاؤها". وواضح أن هذا=

مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ[10] (لا قوة له في نفسه ولا من عشيرته تمنعه من المصير إلى العذاب).

3- **خاتمة: إنه لقول فصل ما هو بالهزل ...أمهل الكافرين قليلا..**

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ[11] (السحاب يرجع بالمطر)، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ[12] (الشق يخرج منه النبات)، إِنَّهُ (القرآن، البعث، الجنة والنار...) لَقَوْلٌ فَصْلٌ[13]، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ[14]. إِنَّهُمْ (المكذبون) يَكِيدُونَ كَيْدًا[15] (يتآمرون)، وَأَكِيدُ كَيْدًا[16] (وأنا أدبر الأمر من ورائهم) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا[17].

- تعليق

كانت قريش، كما قلنا، تنكر البعث والحساب، حجتها في ذلك استحالة عودة الموتى إلى الحياة بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى تراب، وبالتالي عدم إمكان محاسبة الناس على أعمالهم بعد الموت. وهذه السورة تؤكد العكس. فمن جهة تؤكد أن جميع أعمال الإنسان في الدنيا مسجلة ومحصية من طرف كائن ملائكي "حافظ" ملازم لكل إنسان، وعلى أساس هذا السجل سيتم حسابه يوم القيامة. ومن جهة أخرى تردُّ على الذين يقولون باستحالة بعث الموتى بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى تراب، ترد عليهم هنا كما في السور السابقة، بأن مَن خلق الإنسان أول مرة من "سائل منوي"، قادر على أن يعيده من جديد يوم القيامة دونما حاجة إلى المني، يوم تبلى سرائره، أي أعضاء جسمه التي تفرز المني عند الجماع. وحينئذ لن يجد في نفسه ولا في أقاربه وأشياعه قوة ولا نصيرا يدفع عنه ما يستحق من عقاب.، لأنه خلق مفرد جديد لا علاقة له النسب الذي أصله الحياة الجنسية المشتركة.

ومع هذه التأكيدات وما يرافقها من حجج على إثبات البعث والجزاء، تأبى قريش إلا أن تستمر في موقفها، موقف التكذيب والاستهزاء والكيد للدعوة=

لا يستقيم مع السياق: فالكلام هنا عن القوة البدنية التي افتخر بها الشخص المذكور في التقديم، يزكي ذلك قوله تعالى "فما له من قوة ولا ناصر". ولذلك فنحن نرجح أن معنى السرائر هنا هو ما ذكره صاحب القاموس المحيط. قال: "السرير : ج أسرارٌ وسَرائرُ، والجِماعُ، والذَّكَرُ، والنِكاحُ، والإفصاح به، والزِنا، وفَرْجُ المرأة، ومُسْتَهَلُّ الشهر أو آخِرُه أو وسَطُه، والأصل، والأرضُ الكريمةُ، وجَوْفُ كلِّ شيءٍ ولُبُّه، ومَحْضُ النَسَبِ وأفْضَلُهُ". والمعنى المناسب للسياق هو ما ذكره مما يتعلّق بـ "المني" الجماع، الذكر، فرج المرأة الخ): تبلى السائر: تبلى الأعضاء البدنية المفرزة للمني. والمعنى العام: إذا كان الله قد خلق الإنسان من مني فهو قادر على خلقه من جديد يوم القيامة بدون مني ولا جماع الخ.

المحمدية. وهذا ما ترد عليه السورة في الفقرة الثالثة حيث القسم بالسحاب الذي يأتي بالمطر ليشق صلابة الأرض فيجعلها رطبة مما يسمح بخروج النبات، ثم يرجع -أي المطر- في أوقات أخرى ليسقي هذا النبات ليمكنه من النمو وإعطاء ثمره، مما يدل على أن هناك غائية تحكم تكرار مثل هذه الظواهر، وأن هذه الغائية هي سنة الله وهي تَعُمّ سائر المخلوقات ... وهذا يدل على أن ما سبق تقريره من بعث وحساب وعقاب، أمور لا تختلف عن خروج النبات من جديد بعد الحصاد. فالإتيان بالسحاب والمطر والزرع ثم الحصاد وعودة النبات من جديد أمور ملموسة تشكل ما يطلق عليه العلم القديم "الدورة الطبيعية". وهكذا فكما أن هذه الأشياء جدية حقيقية، وليست من قبيل الهزل، لأن الإنسان يعرفها ويعيش بفضلها، فكذلك أمور البعث والحساب، أمور حقيقية وليست بالهزلية، وبناء عليه فهي تدخل في تلك "الدورة الطبيعية".

وتختم السورة بوعيدٍ موجه للمكذبين بما سبق تقريره، وعيدٍ ينبه إلى أن قدرة الله أكبر من قدرتهم وبالتالي فما سيصيبهم من عقاب جراء أعمالهم أكبر مما يستطيعون إلحاقه من أضرار بالدعوة المحمدية، ولذلك فهي تدعو النبي إلى الصبر وعدم استعجال العقاب لهم. فالله يستدرجهم ويمهلهم ويمنحهم الوقت لقيام الحجة عليهم. (قارن سورة القلم أعلاه).

هذا والمناسبة، بين المقسم به وهو "السماء والطارق، النجم الثاقب" وبين المضمون الذي يراد أن يؤكده القسم، -وهو أن لكل إنسان ملاك يسجل أعماله ويحفظها، كامنة -أعني المناسبة- فيما تشير إليه الفقرة الأولى من أن "الحافظ" الذي يلازم كل إنسان يسجل أعماله هو كـ"النجم الثاقب" الذي يحافظ على أسرار السماء.

أما القسَم الثاني (الفقرة الثالثة) وموضوعه السحاب الذي يأتي بالمطر ويعود ليسقي الزرع الخ، فوجه المناسبة بينه وبين جواب القسم ("إنه لقول فصل") واضح مما قدمنا. فالقسم هنا لتقرير أن جدية ما سبق من تأكيد البعث والحساب، كجدية ما ترونه من سحاب ومطر يأتيان في أوقاتهما المطلوبة.

37- سورة القمر

- تقديـــم

اهتم كثير من المفسرين بتتبع روايات "انشقاق القمر"، لدى تفسيرهم الآية التي افتتحت بها هذه السورة: "اقتربت الساعة وانشق القمر". فذهب معظمهم إلى أن الانشقاق حدث فعلا في مكة. وهناك من قال إن رؤية انشقاق القمر لم تكن عامة، ولا يكفي في إثبات وقوعه أن يراه بعض الناس في مكة، دون غيرها من الأقطار والآفاق. وقال آخرون إن انشقاق القمر هو، حسب القرآن، مظهر من مظاهر قيام الساعة، وبما أن الساعة لم تقم بعد فإن الآية يجب أن تفهم كما يلي : "اقتربت الساعة وسينشق القمر". ومنهم من قال إن الانشقاق الذي رآه بعض الناس في مكة كان عبارة كسوف، بناء على ما روي عن ابن عباس من أنه قال: "كسف القمر[1] على عهد رسول الله، فقالوا: سُحر القمر فنزلت "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ" الآية. وهذا المعنى، أي قولهم "سُحر القمر"، قد يجد ما يعضده في قوله تعالى حكاية لرد فعلهم : "وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ".[2] أما الرواية التي تقول: طلبت قريش من النبي معجزة، وذلك بأن ينشق القمر ويرونه بأعينهم، فلا تؤخذ بعين الاعتبار لأن القرآن كرر مرارا أنه لا فائدة في مثل هذه المعجزات مادام قد كذب بها أقوام أنبياء سابقين، وأن المعجزة الحقيقة التي جاء بها الرسول محمد عليه السلام هي القرآن، وهذا ما تقرره السورة.

- نص السورة

1- كذبوا بقرب قيام الساعة... فاتركهم فسوف يرونها!

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ[1]، **وَإِنْ يَرَوْا آيَةً** (من آيات الله الكونية) **يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**[2] (ذاك عمل من عمل السَّحَرة وسيمر كما مر

1- وفي الاصطلاح الحديث : الكسوف للشمس والخسوف للقمر.

2- تعبر العامة عن خسوف القمر بما يفيد أنه سحر (أصيب القمر به الخ)، فيخرج الأطفال حاملين أواني من نحاس يدقون عليها (كالدفوف) تنبيها للقمر وطردا للسحر الذي أصيب به.

سحر السابقين)، **وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ**[3] (هم مستقرون على التكذيب وإتباع الهوى). **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ** (في القرآن) **مِنَ الْأَنْبَاءِ** (عن هلاك الأقوام الماضية) **مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**[4] (رادع لهم): **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ** (فيها عِبَر ودروس لهم ومع ذلك لم يتعظوا)، **فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**[5]؟ (فما الفائدة في مواصلة الإنذار بالمعجزات؟)، **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** (فالإتيان بالمعجزات لا يفيد فيهم، ستراهم) **يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ**[6] (قيامة الساعة)، **خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ** (ذليلة أبصارهم)، **يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ** (من القبور) **كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**[7]، **مُهْطِعِينَ** (مسرعين) **إِلَى الدَّاعِي! يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**[8].

2- من الأنباء التي جاءتهم... إغراق قوم نوح ...

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ[9] (فزجروه وآذوه)، **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**[10] (انصرني وعاقبهم)، **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**[11] (متدفق)، **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا** (يتدفق منها الماء) **فَالْتَقَى الْمَاءُ** (ماء المطر وماء الأرض) **عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**[12] (على مستوى مقدر مرسوم)، **وَحَمَلْنَاهُ** (نوح) **عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ**[13] (على سفينة مصنوعة من ألواح ومسامير)، **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** (بتقديرنا ومراقبتنا وتركنا الباقي)، **جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ**[14] (على كفرهم بنوح). **وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً** (عبرة لمن بعدهم) **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[15]؟ (من متذكر معتبر)، **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[16]؟ (قد عرفت كيف كان عذابي وإنذاري لهم). **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ** (سهلناه) **لِلذِّكْرِ** (لأخذ العبرة من أخبار الماضين) **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[17] (متعظ).

3- ومن الأنباء التي جاءتهم ... إهلاك قوم عاد.

كَذَّبَتْ عَادٌ (نبيَّهم هودا) **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[18]؟ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا** (لصوتها صرير شديد) **فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**[19] (يوم شر وشؤم)، **تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**[20] (تقتلع الناس ثم ترمي على الأرض بأجسامهم وقد نزعت منها رؤوسهم، كأنهم أجسام نخل منقلب)، **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[21]! **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[22].

4- ومن الأنباء التي جاءتهم ... إهلاك قوم ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ (نبيَّهم صالحا) **بِالنُّذُرِ**[23] (التي أنذرهم بها)، **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ! إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**[24] (ضلال وعناء قالوا): **أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ**

مِنْ بَيْنِنَا (أيكون قد خص بالوحي دوننا ؟) **بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**[25] (متكبر متجبر). **سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ**[26]، **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ** (التي طلبوها من نبيهم صالح آية وحجة على نبوته)، **فِتْنَةً لَهُمْ** (ابتلاء واختبارا، وقلنا له:) **فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**[27] (راقب واصبر)، **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ** (يوم لهم ويوم لها) **كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ**[28] (يحضره من هو له: في اليوم الذي لها تشرب الماء كله، وفي اليوم الذي لهم، لا تشرب هي وهم يشربون الماء وتسقيهم اللبن)، **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ** (أحد رجالهم وطلبوا منه عقرها) **فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**[29] (فتناول الناقة بسلاحه فعقرها)، **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[30]؟ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً** (نفخة الصور) **فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**[31] (كهشيم حظيرة الغنم). **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[32].

5- ومن الأنباء التي جاءتهم إهلاك قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ[33] (التي جاءهم بها)، **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا** (حجارة) **إِلَّا آلَ لُوطٍ** (الذين صدقوه واتبعوه) **نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ**[34] (في وقت السحر بين أول الليل وآخره)، **نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا. كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ**[35]. **وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ**[36] (لم يصدقوه)، **وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ** (أرادوا اغتصاب ضيوفه، وكانوا ملائكة، وهم كانوا يحسبونهم رجالا) **فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ** (أصبناهم بالعمى فلم يبصروا الضيوف عندما دخلوا يبحثون عنهم). (قلنا لهم) **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**[37]. **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**[38] (زلزال وأحجار تسقط عليهم لم تتوقف حتى هلكوا)، **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**[39]! **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[40]. **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ**[41] (3)، **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**[42].

6- خاتمة: أكفاركم يا قريش خير من أولئك؟!

أَكُفَّارُكُمْ (يا قريش) **خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ** (الذين مضوا)؟ **أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ**[43] (ألكم في الكتب عهد يبرؤكم)؟ **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ**[44]، (عدد كبير وسننتصر) **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ** (جمع قريش) **وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**[45] (يهربون). **بَلِ السَّاعَةُ** (القيامة) **مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**[46] (من هزيمتهم تلك). **إِنَّ**

3- لم يقص القرآن بعد قصة موسى مع فرعون. وسيفعل ذلك ابتداء من سورة الأعراف.

الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ[47] (في عناء)، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (ويقال لهم) ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ[48] (جهنم)، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[49]. وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ (كلمة واحدة: كن) كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ[50]. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ (أمثالكم من الأمم الماضية) فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[51]؟ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ[52] (مدون في الكتب)، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ"[53] (مسطر مكتوب). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ[54] (وأنهار)، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ (مجلس حق) عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ[55] (الله).

- تعليق

مما تجدر ملاحظته في هذه السورة أن الخطاب فيها ينم عن توتر العلاقة بين مشركي قريش والنبي (ص). يشهد لهذه الملاحظة ورود آيات في هذه السورة تفيد صراحة أنه لم تعد ثمة فائدة لمواصلة إنذار قريش، منها قوله تعالى: "وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ (الأخبار عن هلاك الأقوام الماضية) مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (رادع لهم)، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ !(فيها عبر ودروس لهم ومع ذلك لم يتعظوا) فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ؟ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ". والموعد يوم القيامة. وهذه أول مرة -حسب ترتيب النزول- يأتي فيها الأمر بالإعراض عن المشركين بصيغة العموم. كان هذا الأمر، من قبل، محدودا في أشخاص، مثل قوله تعالى : "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (النجم 29). أما هنا فالموقف يشبه موقف الأنبياء السابقين من أقوامهم، موقف اليأس والدعاء عليهم بالهلاك، وقد ورد هذا بعبارات أوضح في سورة الأعراف: "كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ" (الأعراف 92-93)، "وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (الأعراف 77-79، وهي بعد السورة التالية).

على أن مواقف الأنبياء السابقين ليست واحدة ولا متطابقة فإذا كان اليأس يدفع الأنبياء أحيانا إلى الدعاء على أقوامهم بالهلاك فإن فيهم من كان موقفه الرجاء. وكما ضرب الله مثلا بيأس أولئك أبرز أيضا رجاء الآخرين. وفي السورة التي تلي سورة القمر مباشرة يأت الأمر إلى الرسول عليه السلام بالتزام الصبر : "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص 17). إن خطاب "الصبر" سابق ولاحق، وهو القاعدة، والباقي استثناء. والقرآن نزل منجما ولذلك راعى الكليات والجزئيات، فجاء خطابه حافلا بالقواعد العامة وبالاستثناءات، وكيف يصلح لكل زمان ومكان إن لم يكن كذلك؟

استطراد واستشرف

المعاد

1- خطاب الجنة والنار في القرآن : سلاح وأخلاق.

إذا كان لابد من خلاصة عامة، لمضمون ما سبق، نستهل بها هذا الاستطراد الذي نختم به رحلتنا مع مرحلة جديدة في مسار نزول القرآن وما رافقه من تطور في علاقة الدعوة المحمدية مع الملأ من قريش، فإن ما ينبغي إبرازه بادئ ذي بدء ذلك التناغم والتكامل بين بداية هذه المرحلة ونهايتها على صعيد مسيرة التنزيل. لقد بدأنا هذه المرحلة بسورة فرضت علينا نفسها، بما تضمنته من إشعار بالانتقال من التركيز على موضوع "النبوة والألوهية" إلى التركيز على ركن المعاد: البعث والحساب. لقد كان ذلك واضحا في عنوان السورة وفي أسلوبها ومضمونها : "القارعة"! لقد قرعت سمعنا فعلا بالإعلان عن يوم جديد : "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوش". وسرنا مع هذا الدرب الجديد نستمع إلى خطاب اليوم الموعود، ونتحسس ردود فعل الملأ من قريش، إلى أن وجدنا أنفسنا أمام إعلان جديد : "اقتربت الساعة وانشق القمر"!

لقد أصر الملأ من قريش على التكذيب، شأنهم شأن الأقوام الماضية، قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون... لقد رفض مشركو قريش أخذ العبرة من الماضي فليتركوا يواجهون القول الفصل، "يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ".

لم نخطط لبداية هذه المرحلة الثانية ولا لنهايتها، كما أننا لم نخطط للمرحلة السابقة لها، لقد تتبعناهما اعتمادا على ترتيب النزول المروي (مع تعديلات قليلة استندنا فيها على مرويات بدت لنا أكثر اتساقا مع مضمون السور ومساق التنزيل).

مرحلتان (أو قل خطوتان أو بابان أو محطتان -ولا مشاحة في الأسماء) سجلتا لحظات تأسيسية في السيرة النبوية المتناغمة مع مسير القرآن المنجَّم. وكما ختمنا المرحلة الأولى باستطراد تجاوزنا فيه الفهم النصي، للأسماء الحسنى الثلاثة (الرب، الله، الرحمان) كما عبر عنه اللسان العربي المبين، إلى التحليل المقارن الذي يستحضر تصورات الديانات التي كانت تشكل "محيط" الدين الجديد، سنختم هذه

المرحلة باستطراد استشراقي مماثل ينتقل بنا من معهود العرب إلى آفاق تجاوزته، عندما أصبح القرآن كتاب حضارة عالمية تعج بثقافات وديانات متنوعة متعددة.

لنبدأ أولا بنوع من الاسترجاع لمضمون مفهوم البعث والجنة والنار كما كان يفهم ويعترض عليه داخل معهود العرب زمن الدعوة المحمدية.

لعل أول ما ينبغي إبرازه هنا هو تميز القرآن عن كل من التوراة والإنجيل، بل، وربما، عن الديانات الكبرى كلها، بالاهتمام الكبير الذي أولاه لمسألة "البعث والجنة والنار"[1]. يتجلى هذا الاهتمام المتميز على صعيد شكل الخطاب كما على صعيد مضمونه. ولعل أكثر ما أبهر قريشا في الخطاب القرآني حتى عجزوا فعلا عن معارضته والإتيان بمثله هو خطابه عن الجنة والنار. وهذا قد يكون راجعا في جزء منه إلى أن قريشا لم تكن تؤمن بالبعث والحياة الأخرى، وبالتالي استحال عليها إنتاج

1- موقف التوراة من المعاد، الحساب والجنة والنار، غامض ملتبس ومتقلب. يقول د. عبد الوهاب المسيري في موسوعته "اليهود واليهودية والصهيونية" : "ولا توجد في كتب العهد القديم الأولى أية إشارات إلى بعث الموتى أو الحياة الأبدية، إذ يبدو أن العبرانيين القدامى لم يكونوا من المؤمنين بالبعث، وإنما كانوا يؤمنون بأن الإنسان جسد يفنى بالموت. وحتى بعد أن ظهرت فكرة خلود الروح، فإن هذه الفكرة لم تكن بعد مرتبطة بفكرة البعث والخير والشر والثواب والعقاب، أن الروح كانت تذهب بعد الموت إلى مكان مظلم يُسمَّى «شيول»، حيث تبقى إلى الأبد". ويؤكد المسيري أن فكرة البعث والحساب قد ارتبطت عند اليهود بالتقلبات التي عرفها تاريخهم. وأن مفهوم "العالم الآخر" الذي يقع في المستقبل خارج "الدنيا" لم يظهر إلا بعد الانتكاسات التي عرفها تاريخهم، وأن من أولى المحاولات التي ظهرت للإقرار بفكرة وجود حساب في "اليوم الآخر" قد ظهرت في آخر سفر دانيال. "وقد ازدادت الرؤية الأخروية اليهودية تبلوراً بعد ذلك، فظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد كتب الرؤى التي تدور حول موضوعات أخروية نشورية. ويُلاحَظ أن فكرة شيول غير المحددة اكتسبت تحددها في آخر هذه الفترة وأصبحت كلمة «جهنم» تدل عليها، ووُضعت «جهنم» مقابل «حديقة عدن» التي تحدَّد مفهومها هي الأخرى فأصبحت هي«الجنة». وأصبح الشيئان مرتبطين بفكرة البعث والثواب والعقاب في العالم الآخر". وهكذا "فإذا كانت بداية التاريخ اليهودي، من وجهة النظر الصهيونية- هي الخروج من أرض العبودية في مصر ودخول أرض الميعاد، فالنهاية الأخروية هي الخروج أيضاً من أرض العبودية في مصر أو روسيا أو أي منفى آخر، ودخول أرض الميعاد أيضاً... وإذا كان دخول كنعان قد أدَّى إلى إنشاء الهيكل والعبادة القربانية المركزية (حيث يحل الإله وسط الشعب في قدس الأقداس)، فإن الدخول الحديث إلى فلسطين يؤدى إلى إنشاء الدولة الصهيونية، بحيث يحل الإله فيها، بالنسبة للمتدينين اليهود فتصبح دولة مقدَّسة. أما بالنسبة إلى الملحدين، فهي دولة مقدَّسة بذاتها إذ أن حلوليتهم حلولية بدون إله ووحدة وجود مادية(المسيري). هذا عن اليهودية، أما المسيحية فلا تقول بوجود جنة ولا نار حسيتين، الجنة عندهم هي التحول إلى أرواح تقيم مع المسيح، مثل الملائكة مع الله. وأما النار، وهي لغير المسيحيين الذين لا يؤمنون بألوهية عيسى، فهي الهاوية حيث الموت الأبدي.

خطاب في موضوع لم تكن تؤمن بوجوده، هذا ممكن! لكن ذلك راجع بكيفية أساسية إلى أن القرآن لم يقتصر على إثبات وجود هذا الذي تنفي قريش وجوده، بل قدمه إليهم مشخصا في صور بيانية بلاغية تجلى فيها فعلا صدق الحديث النبوي "إن من البيان لسحرا".

لقد وجدت قريش في هذا الخطاب مستوى من الفصاحة والبلاغة أرقى كثيرا من سجع الكهان وقصائد الشعراء ورجزهم، حتى إنهم احتاروا في الوصف الذي يصدق عليه. لقد كانت قريش تنكر أن يكون بعد الممات حياة أخرى، وتجادل في هذا الأمر جدالا مقرونا بالاستهزاء، فجاءت لهجة القرآن في هذا الموضوع قوية تقريرية وجدالية متوعدة، تقدم عن البعث والحساب والجنة والنار مشاهدَ حيةً كأنها وصف لواقع حسي حي ملموس، مشاهدَ يتخللها، تارة حوار حي بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتارة أخرى شجار بين الملقى بهم في جهنم، يتلاومون ويُحمِّل بعضهم بعضا مسؤولية هذا المصير الذي آلوا إليه؛ وفي المقابل من ذلك حديث ودي هادئ ينبئ عن الفرحة والسعادة يجري بين أصحاب الجنة، بعضهم مع بعض، أو بينهم وبين الملائكة.

ومما يلفت النظر أن الوعيد بالعذاب يوم القيامة يُقدَّم في هذه المرحلة كعقاب على الطغيان بالمال وعدم الإحسان إلى اليتامى والفقراء والمساكين: وهكذا يخاطب القرآن أغنياء قريش وهم في النار ليبين لهم أسباب إلقائهم فيها، يقول لهم: "كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما، وتحبون المال حبا جما. (الفجر 17-20). ويكاد الباحث يستخلص النتيجة التالية من السور والآيات التي نزلت في هذه المرحلة، وهي أن الوحي جاء من الله لينذر الأغنياء الذين يستأثرون بالمال ويهضمون حقوق اليتامى ولا يحسنون إلى الفقراء بأن لهم جهنم، وليبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات -من الصدقات وغيرها- بان لهم الجنة. وبما أن القرآن يجعل مصير "المكذبين من أولي النعمة" اليوم، كمصير أمثالهم في القرون الماضية، ويشخص هذا المصير بصور بيانية يتزاحم فيها الماضي والحاضر والمستقبل في مشهد واحد، يتداخل فيه زمن المكذبين من الأقوام الماضية مع زمن المكذبين من قريش، وينتقل فيه الوصف والحوار من زمن الدنيا إلى زمن الآخرة بدون حواجز، فإن المخيال الديني الاجتماعي السياسي الذي يتشكل من خلال هذه المشاهد لا بد أن يزامن هو الآخر بين ما جرى في الماضي وما سيجري في المستقبل، وبالتالي فالجزاء في "الآخرة" ينسحب على الدنيا أيضا، إذ لا فاصل بينهما في المشهد. ومن هنا المضمون السياسي للدعوة المحمدية في هذه المرحلة: إن "الآخر"، المشركين الكافرين الخ سيعاقبون في الدنيا كما في الآخرة، ليس فقط بسبب

كفرهم وشركهم بل أيضا بسبب استئثارهم بالمال وعدم الإحسان إلى الفقراء. وهذا الاستئثار هو في الحقيقة نوع من "الكفر": هو كفر بالنعمة واستبداد بها. وبما أن مال الدنيا لن يمنع صاحبه من العقاب في الآخرة فهو لن يمنعه منه في الدنيا كذلك.

هذا النوع من العرض التشخيصي للحياة الأخرى كان سلاح الدعوة المحمدية للدفاع عن النفس إزاء خصومها من الملأ من قريش الذين استأثروا بالثروة التي كانوا يجنونها من موقع مكة كمركز ديني وتجاري، وفي نفس الوقت كان سلاحا "هجوميا" على الصعيدين النفسي والمعنوي –صعيد الترغيب والتخويف- يقوم بمهمتين في آن واحد: تخويف قريش بمشاهد جهنم وإغرائهم بمشاهد الجنة، الشيء الذي جعلهم يعيشون في تناقض وجداني عبر عنه القرآن بقوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ". هذا بالنسبة لكفار قريش، أما بالنسبة للمؤمنين، صحابة الرسول عليه السلام، فإن مشاهد الجنة، وهم يتسامرون فيها وينعمون في غرفها بكل ما لذ وطاب، تنسيهم الحرمان الذي يعانون منه في الدنيا، وفي الوقت نفسه تُحرّك "الطمع" في نفوس المشركين، علهم ينضمون إلى المؤمنين. وهذا الأسلوب في الدعوة الذي يجمع بين الترغيب والتخويف يوضحه القرآن في غير ما آية، من ذلك قوله تعالى: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف 55-56)، وقوله: "وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا. وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (كذلك)، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا" (الإسراء 59-60).

خطاب القيامة والجنة والنار في القرآن: أخلاق وسلاح. لقد أوضحنا جانب السلاح فيه بما يكفي لجعل القارئ يفرق بين زمن القراءة –زمنه هو- وبين زمن الدعوة. إن زمن القراءة زمن نفسي قد يطول وقد يقصر، ولكنه لا يتردد كتردد ضربات المطرقة، بينما زمن الدعوة هو "زمن المطرقة" بالذات، لا يُحسب بالطول ولا القصر بل بتكرار الضربات.

حديث الجنة والنار في القرآن حديث مكرر كما تتكرر الشعارات في كل دعوة. لكن ما يميز التكرار في القرآن هو أنه يفترق تماما عن تردد ضربات المطرقة وتكرار الشعارات عندما "يُسمع" (يُفهم) من خلال السياق. ذلك لأن السياق يحول المنفصل إلى متصل. وقد حرصنا على التنبيه إلى ذلك.

نأتي الآن إلى الجانب النظري في الموضوع. لقد احتجت قريش مرارا بما يمكن التعبير عنا بـــ"عدم معقولية البعث"، لقد تساءلوا باستنكار واستغراب : "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الواقعة 47-48)، وقالوا

باللهجة نفسها : قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يس 78) الخ. وكان جواب القرآن بسيطا واضحا محرجا: أنتم تؤمنون بأن الله هو الذي خلقكم ابتداء فكيف تنكرون أن يقدر على إعادة خلقكم كما فعل أول مرة، خصوصا وأنتم تعرفون أن صنع الشيء مرة أخرى أسهل من صنعه في المرة الأولى. لكن ما كان يمنع قريشا من قبول فكرة "البعث" ليس ما فيها من قوة أو ضعف على المستوى الحجاجي المنطقي. بل إن ما كانت ترفضه قريش، من عمق أعماقها، هو مضمونها الأخلاقي.

ذلك أن جوهر فكرة البعث في الإسلام، ومبررها والغرض منها، هو "الحساب". فالآخرة هي يوم الدين، يوم الحساب. اليوم الذي يطبق فيه مبدأ المسؤولية الفردية على الجميع : "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7-8)، "أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (النجم 38-41).

وهذا في الحقيقة ما كان يهرب منه الملأ من قريش. وقد سبق أن رأينا كيف أن بعض كبارهم كانوا يبحثون عن وسائل للتخلص من ذنوبهم، إما ببيعها أو بكراء من ينوب عنهم في تحمل عقابها! كانت عقليتهم التجارية تمتنع عن رؤية شيء آخر لا يقع تحت قانون الربح والخسارة. هم يربحون في الدنيا من حج القبائل إلى الأصنام، ومما يرافق ذلك من التسوق والبيع والشراء، ويمارسون الربا والقمار ويأكلون أموال اليتامى الخ، وفكرة "البعث" تعني الحساب الفردي على كل سلوك لا أخلاقي يأتيه الفرد في حياته. ولهذا السبب كان موقفهم منه حَدِّيا: الرفض الجامد المطلق.

ومن هنا تلك الظاهرة اللافتة للنظر: وهي أن قريشا لم تميز في البعث -كما فعلت شعوب وديانات وحضارات أخرى- بين بعث النفوس وبعث الأجساد. لقد لجأت ديانات وفلسفات منذ القدم إلى الخروج من "المأزق" الذي تطرحه فكرة البعث بالقول -بصور مختلفة- إن جوهر الإنسان هو روحه، نفسه، وإن البدن ليس سوى حامل أو سجن أو مادة لهذا الجوهر. وبالتالي فالبعث عند من يقولون به -من هذا المنظور- سيكون للنفوس وحدها، وبالتالي فالحساب، ثوابا وعقابا، سيكون للنفوس وحدها كذلك. أما الأجساد فلم تكن إلا آلات للنفوس، وهذا المنظور يجعل اعتراض قريش "من يحيي العظام وهي رميم" غير ذي موضوع.

ويهمنا هنا أن نقوم في هذا الاستطراد بإطلالة على هذا الجانب الذي كان له حضور قوي في الفكر الفلسفي في الإسلام خصوصا بعد ن كتب الغزالي "تهافت الفلاسفة" الذي كفر فيه الفلاسفة بسبب ما استنتجه من آرائهم في "المعادّ من إنكار لـ"بعث الأجساد".

2- الفارابي: النبي والفيلسوف

فكرة "المعاد" لدى فلاسفة الإسلام (الفارابي وابن سينا تخصيصا مع استبعاد المتصوفة والإشراقيين الخ)) مؤسسة، أو قل هي امتداد لنظريهم في المعرفة القائمة على فكرة الفيض: فيض العقل الأول (=الله في الخطاب الديني) -عبر العقول السماوية (=الملائكة في الخطاب الديني)- على النفوس البشرية تحت فلك القمر (عالم الأرض). والفرق بين النبي والفيلسوف على هذا المستوى هو أن الفيلسوفٌ يتلقى بعقله الحقائق من العقل الفعال (العقل المكلف بما تحت فلك القمر وهو جبريل في الخطاب الديني) في حين يتلقاها النبي منه بمخيلته. وهذا الذي يلقيه العقل الفعال، في عقل الفيلسوف أو في مخيلة النبي، يتلقاه هو من الله. وبما أن الإنسان عقل ومخيلة فيكون الله عز وجل يوحي إليه بتوسط العقل الفعال إلى عقله المنفعل (المتلقي) ثم إلى قوته المتخيلة. فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيما فيلسوفا ومتعقلا على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيا منذرا بما سيكون ومخبرا بما هو الآن من الجزئيات... وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة". ومن هنا كان ما يأتي به النبي يقدمه للجمهور على شكل مثالات وتشخيصات ومحاكيات كي يدركوه، لكونهم ليسوا أهل نظر عقلي. أما ما يأتي به الفيلسوف فهو يدركه إدراكا عقليا لا يحتاج فيه إلى مخيلة. ومن هنا قول الفارابي: ما في الدين مثالات لما ف الفلسفة، وبالتالي لا تناقض بينهما.

هذا من جهة ومن جهة أخرى يربط الفارابي كغيرِهِ من الفلاسفة القدماء السعادة بالمعرفة العقليةِ، إذ بهذه المعرفة تستكمل نفس الإنسان حقيقتها (تصير عقلا) وتصبح غير محتاجة في قوامها إلى مادة، فتكون بذلك من جملة الأشياء البريئة من المادة، أي من جملة الكائنات التي لا تحتاج في أن تدرك إلى عضو به تدرك (كالبصر مثلا)، ولا إلى جسم يكون كالمادة للصورة التي تريد إدراكها (في المبصرات). وهكذا فالسعادة هي أن تصير النفس، بواسطة المعرفة العقلية، "في جملة الجواهر المفارقة للمواد وأن تبقى على تلك الحال دائما أبدا (وذلك هو الخلود)، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال"، لأن هذا جوهر روحاني بطبيعته. أما النفس فليست كذلك، وإنما تكتسب تلك الصفة بالعلم والمعرفة. "أما ما دامت (النفس) لم تستكمل (=حقيقتها) ولم تفعل أفعالها (=العقلية التي بها تصير كاملة فإنها تبقى) قوى وهيئات فقط معدة لأن تقبل رسوم الأشياء مثل البصر قبل أن يبصر وقبل أن تحصل فيه رسوم المبصرات"[2].

---

2 - الفارابي. السياسة المدنية. ص 27

تلك هي السعادة عند الفارابي (أو لنقل "الجنة" في الدنيا والآخرة، جنة المعرفة العقلية). وطريقها، كما رأينا، هو العقل واستكمال النفس حقيقتها بالمعرفة النظرية، المعرفة بمبادئ الموجودات ونظام الكون والعقول المفارقة الخ. أما ابن سينا فهو يربط السعادة باللذة التي تحصل للنفس عند تحررها من البدن كما سنرى.

3- ابن سينا ومسألة المعاد

- اللذة والألم

يميز ابن سينا بين المعاد كما أخبر به الشرع ويقول عنه : "إنه لا سبيل إلى إثباته الا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للبدن عند البعث". وبين المعاد كما "هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني... وهو السعادة والشقاوة... اللتان للأنفس"[3]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يربط ابن سينا السعادة باللذة التي تحصل للنفس عند بلوغها كمالها الخاص بها أي عندما تصير عالما عقليا، مرتسما فيها صورة الكل، فتشاهد الحُسن المطلق والخير المطلق والجمال المطلق وتتحد به نوعا من الاتحاد! كما يربط الشقاوة بالألم الذي يحصل للنفس بسبب فقدان تلك اللذة. وإذا كانت النفس، وهي في البدن، لا تحس بالألم الناتج عن فقدان اللذة المذكورة فذلك لأن البدن يقوم حاجزا بينها وبين تلك اللذة، فإذا زال هذا الحاجز بسبب الموت أدركت فقدانها للذة وأحست بالألم، مثلها في ذلك مثل الشخص الذي يكمن الألم في عضو من أعضائه، غير أن وجود مانع للإحساس بالألم كالمخدر مثلا يجعله لا يحس به، حتى إذا زال المانع شعر بألم شديد. وإذن فالبدن يلعب دورين متكاملين : فمن جهة يشغل النفس عن استكمال جوهريتها وبلوغ اللذة العليا، ومن جهة أخرى يحول دونها ودون الشعور بالألم الذي يكمن وراء فقدان اللذة. فإذا تحرر الإنسان في حي·ه الدنيا من البدن وشواغله أحس باللذة حسب درجة تحرره، وإذا لم يتحرر شغله البدن ليس فقط عن الشعور باللذة بل أ·ضا عن الشعور بالألم الناجم عن فقدان اللذة، حتى إذا فارقت النفس البدن بالموت زال المانع فتعيش في سعادة كاملة أو ناقصة حسب درجة تحررها من شواغل البدن أثناء وجودها فيه، وتعاني من شقاء كامل أبدي أو مؤقت حسب درجة انشغالها بالبدن أثناء وجودها فيه[4].

- أصنف النفوس بعد الموت

وهكذا فالنفوس بعد الموت أصناف :

---

3 - ابن سينا : النجاة ص 326

4 - المصدر نفسه ص 328 وما بعدها

1- هناك النفوس العالمة الفاضلة، أي التي حصلت على كمالها الخاص بها قبل أن تفارق البدن بسبب الموت فتمكنت من المعرفة التامة بالوجود ومبادئه وعلله ومراتبه حتى صارت "عالما معقولا موازيا للعالم الموجود كله مشاهدا لما هو الحق المطلق والخير المطلق والجمال والحق"[5]. إن هذه النفوس، إذا استمرت على تلك الحال وهي بعد في بدنها ولم يشغلها شاغل حسي طارئ فإنها تبقى كذلك بعد الموت في لذة لا نهاية لها، فتتصل لذتها في الدنيا وهي في البدن بلذتها في الآخرة وقد فارقت البدن، ولذلك تعيش في سعادة لا يمكن قياسها ولا وصفها بأنها أعظم وأشد، لأنه ليس هناك سبيل إلى مقارنتها بأي سعادة أخرى، فهي السعادة الكاملة، والكامل يعرف بنفسه وليس بمقارنته بالناقص.

2- وهناك النفوس العالمة ولكن غير الفاضلة وهي التي تنبهت، وهي في البدن، لكمالها فعقلت بالفعل أنه موجود وأصبحت نازعة إليه، ولكنها مع ذلك لم تحصله لأن انشغالها بالبدن قد أنساها ذاتها ومعشوقها كما ينسي المرض الاستلذاذ بالحلو واشتهائه وكما تميل الشهوة بالمريض إلى المكروهات الحقيقية. فإذا فارقت هذه النفوس البدن عرض لها عارضان. أولهما اللذة التي تستلزم معرفتها بكمالها، وثانيهما الألم الناتج عن الإحساس بفقدان تلك اللذة بسبب انشغالها بالألم. وبذلك تتألم ألما عظيما عندما تفارق البدن بالموت، لأن البدن كان لها بمثابة المانع الذي يمنع الإحساس بالألم. وذلك الألم العظيم هو الشقاوة التي لا تعدلها شقاوة. غير أن هذا الألم لا يدوم إلى الأبد بل يبقى المدة اللازمة لتطهير تلك النفوس ثم يزول. هذه النفوس إذن لا تخلد في الشقاء بل تسعد في النهاية.

3- وهناك النفوس التي اكتسبت رأيا (=سمعت) بأن هاهنا أمورا يكتسب بها الشوق إلى كمال جوهرها، ولكنها وهي في بدنها لم تحصل ما تبلغ به، بعد مفارقتها البدن، كمالها التام. فإذا فارقت البدن على هذه الحال الناقصة وقعت في شقاء أبدي إذ لا يمكنها اكتساب أوائل الملكة العلمية لأن هذه إنما كانت تكتسب بالبدن، وهي قد فارقت البدن. والذين هم هذه حالهم إما مقصرون من السعي إلى اكتساب الكمال الإنساني وإما معاندون جاحدون متعصبون لآراء فاسدة، والجاحدون أسوأ حالا في الشقاء الأبدي من المقصرين.

4- وهناك النفوس السليمة التي هي على الفطرة، أي التي لم تعرف طريق استكمالها جوهرها ولا سمعت به والتي، بالإضافة إلى ذلك، لم تتدنس بالعقائد المخالفة، هذه النفوس "إذا سمعت ذكرا روحانيا يشير إلى أحوال المفارقات (أي إذا اتبعت دينا يذكرها بالجنة والنار) "حصل لها شوق وأصابها وجد مبرح مع لذة

---

5 - المصدر نفسه ص 328

مفرحة"[6]. فمن كان شوقه إلى الكمال راجعا إلى ذات الكمال، أي إلى مناسبة ذاته للكمال، لم يقنع إلا بالوصول إليه، وبالتالي يسعد السعادة القصوى. ومن كان شوقه إلى الكمال راجعا إلى أمور أخرى كطلب الحمد والمنافسة فإنه يقنع بما يحصل له من ذلك.

5- وأخيرا هناك نفوس "البله من الناس" التي لم تكتسب الشوق ولا عرفت كمالها، فإذا فارقت البدن وكانت غير مكتسبة للهيئات البدنية الرديئة وليس لها هيأة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه فإنها تعذب عذابا شديدا بمفارقة البدن ومقتضيات البدن، من غير أن يحصل لها شوق، لأن آلة ذلك، التي هي البدن، قد بطلت، وخلق التعلق بالبدن قد بقي"[7]. ويذكر ابن سينا رأيا آخر بصدد هذه النفوس ويرجحه. ومؤدى هذا الرأي أن هؤلاء البله إذا فارقت نفوسهم أبدانها، وهي بدنية لا تعرف غير البدنيات وليس لها تعلق بما هو أعلى من الأبدان فيشغلهم عنها، أمكن أن تستعمل هذه النفوس أجراما سماوية، لا بأن تصير أنفسا لتلك الأجرام أو مدبرة لها، بل تستعمل تلك الأجرام في التخيل، أي تتخيل بواسطتها ما قيل لها في الدنيا عن أحوال الآخرة : فالنفوس الزكية منها، أي التي اعتقدت الخير وعملته وهي في الدنيا. تشاهد الجنة وتنعم في هذه المشاهدة. والنفوس الشريرة التي عملت الشر في الدنيا تشاهد جهنم وتشقى بهذه المشاهدة. وسيكون ذلك بمثابة السعادة الحقيقية بالنسبة للنوع الأول والشقاوة الحقيقية بالنسبة للنوع الثاني، لأن الصور الخيالية ليست أقل وضوحا من الصور الحسية، بل إن قوتها تزداد كما في صور الأحلام حيث تتألم النفس ألما شديدا إذا كانت تلك الصور مزعجة[8].

تلك هي نظرية ابن سينا في المعاد وهي مؤسسة، كما رأينا، على نظريته في النفس. والواقع أن النظرية السينوية في النفس لا تؤسس نظريته في المعاد وحدها بل تؤسس كذلك نظريته في السعادة التي تحصل لبعض النفوس في هذه الدنيا، قبل مفارقتها أبدانها مفارقة نهائية. يتعلق الأمر إذن بما يعرف بـ "تصوف" ابن سينا، أو على الأصح بنظرية التصوف السينوية، وهذا موضوع آخر.[9]

---

6 - ابن سينا. الإشارات والتنبيهات. ج4، ص 34

7 -المصدر نفسه ص ج4 ص 35. أيضا: النجاة. ص 329 وما بعدها

8 - ابن سينا. شرح أوتولوجيا. المصدر نفسه ص 72. الإشارات والتنبيهات. ج4 ص 35

9- نذكر أننا قد استعدنا هنا هذه الفقرات من كتابنا "بنية العقل العربي". القسم الثالث. الفصل الثاني.

4- موقف ابن رشد.

ألف الغزالي كتابه الشهير "تهافت الفلاسفة" ليرد على الفلاسفة بنفس منطقهم –والمقصود ابن سينا– فحصر المسائل التي رأى أن آراءهم تخالف ما جاء به الإسلام في عشرين مسألة آخرها "مسألة بعث الأجساد"، وقد كفرهم في ثلاث مسائل، منها هذه الأخيرة. وقد رد عليه ابن رشد بكتاب سماه "تهافت التهافت" تتبع فيه ردود الغزالي في كل مسألة وبين أن ما نسبه للفلاسفة إنما يخص تأويلات ابن سينا لفلسفة أرسطو وليس آراء هذا الأخير. ويهمنا هنا أن ننقل رد ابن رشد في المسألة التي نحن بصددها هنا[10].

قال الغزالي: "مسألة في إبطال إنكارهم لبعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود النار الجسمانية، ووجود الجنة والحور العين، وسائر ما وُعِد به الناس. وقولهم: إن كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق لتفهيمهم ثوابا وعقابا روحانيَّيْن، هما أعلى رتبة من الجسمانيين".

قال ابن رشد تعقيبا على ذلك "ولما فرغ (الغزالي) من هذه المسألة (= المسألة السابقة 19) أخـذ يزعـم أنِ الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد! وهذا شيء ما وُجِـد، لواحد ممن تقدم، فيه قولٌ. والقول بحشر الأجساد أقلّ ما له منتشرٌ في الشرائع [=منذ] ألف سنة. والذين تأدت إلينا عنهم الفلسفة هم دون هذا العدد من السنين. وذلك أن أول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء بني إسرائيل، الذين أتوا بعد موسى عليه السلام. وذلك بيِّنٌ من الزبور، ومن كثير من الصحف المنسوبة لبني إسرائيل. وثبت ذلك أيضا في الإنجيل، وتواتر القول به عن عيسى عليه السلام. وهو قول الصابئة...

بل القوم (=الفلاسفة) يظهر من أمرهم أنهم أشد الناس تعظيما لها (للشرائع) وإيمانا بها. والسبب في ذلك أنهم يرون أنها (الشرائع) تنحو نحو تدبير النفس الذي بـه وجود الإنسان، بما هو إنسان. وبلوغه سعادته الخاصة به. وذلك أنها ضرورية في وجود الفضائل الخلقية للإنسان، والفضائل النظرية والصنائع العملية. وذلك أنهم يرون (يعني الفلاسفة) أن الإنسان لا حياة له في هذه الدار إلا بالصنائع العملية، ولا حياة له في هذه الدار ولا في الدار الآخرة إلا بالفضائل النظرية. وأنه ولا واحد من هذين يتم، ولا يبلغ إليه، إلا بالفضائل الخلقية. وأن

10- سبق أن أشرفنا على طبعة جديدة لكتب ابن رشد التالية (فصل المقال، الكشف عن مناهج الأدلة، تهافت التهافت، الكليات في الطب) مزودة بمداخل ومقدمات تحليلية وشروح وتعليقات. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ومن طبعتنا لكتاب "تهافت التهافت"، المشار إليها، نستعيد هنا هذه الفقرات. انظر: المسألة العشرون.

الفضائل الخلقية لا تتمكن إلا بمعرفة الله تعالى وتعظيمه بالعبادات المشروعة لهم، في ملة ملة، مثل القرابين والصلوات والأدعية ... ويرون بالجملة أن الشرائع هي الصنائع الضرورية المدنية التي تأخذ مبادئها من العقل والشرع -ولاسيما ما كان منها عاما لجميع الشرائع- وإن اختلفت في ذلك بالأقل والأكثر. ويرون مع هذا (=علاوة عليه) أنه لا ينبغي أن يُتَعرض بقول مُثبِت أو مُبطِل في مبادئها العامة، مثل: هل يجب أن يعبد الله أو لا يعبد؟ وأكثر من ذلك: هل هو موجود أم ليس بموجود؟ وكذلك يرون في سائر مبادئه: مثل القول في وجود السعادة الأخيرة وفي كيفيتها. لأن الشرائع كلها اتفقت على وجود أخروي بعد الموت، وإن اختلفت في صفة ذلك الوجود. كما اتفقت على معرفة وجوده وصفاته وأفعاله، وإن اختلفت فيما تقوله في ذات المبدأ وأفعاله، بالأقل والأكثر. وكذلك هي متفقة في الأفعال التي توصل إلى السعادة التي في الدار الآخرة، وإن اختلفت في تقدير هذه الأفعال.

فهي (الشرائع الدينية) بالجملة: لما كانت تنحو نحو الحكمة بطريق مشترك للجميع، كانت واجبة عندهم. لأن الفلسفة إنما تنحو نحو تعريف سعادة بعض الناس العقلية، وهو مَن شأنُه أن يتعلم الحكمة (الفلسفة). والشرائع تقصد تعليم الجمهور عامة. ومع هذا فلا نجد شريعة من الشرائع إلا وقد نبهت بما يخص الحكماء، وعنيت بما يشترك فيه الجمهور.

ولما كان الصنف الخاص من الناس (= العلماء) إنما يتم وجوده وتحصيل سعادته بمشاركة الصنف العام، كان التعليم العام ضروريا في وجود الصنف الخاص، وفي حياته: أما في وقت صباه ومنشئه فلا يشك أحد في ذلك، وأما عند نقلته إلى ما يخصه، فمن ضرورة فضيلته ألا يستهين بما نشأ عليه، وأن يتأول لذلك أحسن تأويل. وأن يعلم أن المقصود بذلك التعليم هو ما يعم لا ما يخص. وأنه إن صرح بشك في المبادئ الشرعية التي نشأ عليها، أو بتأويل، أنه مناقض للأنبياء صلوات الله عليهم وصادٌ عن سبيلهم، فإنه أحق الناس بأن يطلق عليه اسم الكفر. ويُوجِبُ له في الملة التي نشأ عليها عقوبة الكفر. ويجب عليه مع ذلك أن يختار أفضلها في زمانه، وإن كانت كلها عنده حقا. وأن يعتقد أن الأفضل يُنْسخ بما هو أفضل منه. ولذلك أسلم الحكماء الذين كانوا يعلمون الناس بالإسكندرية (=مدرستها الفلسفية العلمية) لما وصلتهم شريعة الإسلام، وتنصر الحكماء الذين كانوا ببلاد الروم لما وصلتهم شريعة عيسى عليه السلام. ولا يشك أحد أنه كان في بني إسرائيل حكماء كثيرون. وذلك ظاهر من الكتب التي تُلْفَى عند بني إسرائيل، المنسوبة إلى سليمان عليه السلام. ولم تزل الحكمة أمرا موجودا في أهل الوحي، وهم الأنبياء

عليهم السلام. ولذلك أصدق كل قضية، هي: أن كلُ نبي حكيم وليس كل حكيم نبيا. والحكماء (=هم) العلماء الذين قيل فيهم "إنهم ورثة الأنبياء".

وإذا كانت الصنائع البرهانية (كالرياضيات) في مبادئها المصادرات والأصول الموضوعة، فكم بالحَرِيِّ يجب أن يكون ذلك في الشرائعِ المأخوذة من الوحي والعقل. وكل شريعة كانت بالوحي، فالعقل يخالطها. ومن سلم أنه يمكن أن تكون هاهنا شريعة بالعقل فقط، فإنه يلزم ضرورة أن تكون أنقص من الشرائع التي استنبطت بالعقل والوحي. والجميع متفقون على أن مبادئ العمل (العبادات) يجب أن تؤخذ تقليدا، إذ كان لا سبيل إلى البرهان على وجوب العمل، إلا بوجود الفضائل الحاصلة عن الأعمال الخلقية والعملية.

فقد تبين من هذا القول: أن الحكماء بأجمعهم يرون في الشرائع هذا الرأي، أعني: أن يتقلد (=الإنسان) من الأنبياء والواضعين مبادئ العمل والسنن المشروعة، في ملة ملة. والممدوح عندهم من هذه المبادئ الضرورية هو ما كان منها أحث للجمهور على الأعمال الفاضلة، حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها، مثل كون الصلوات عندنا: فإنه لا يشك في أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى. وأن الصلاة الموضوعة في هذه الشريعة يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر الصلوات الموضوعة في سائر الشرائع، وذلك بما شرط في عددها وأوقاتها وأذكارها، وسائر ما شرط فيها من الطهارة، ومن التّروك، أعني: ترك الأفعال والأقوال المفسدة لها.

وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد فيها هو أحث على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها. ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية، كما قال سبحانه: "مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار" (الرعد 35). وقال النبي عليه السلام: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر". وقال ابن عباس: "ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء"، فدل على أن ذلك الوجود نشأة أخرى أعلى من هذا الوجود، وطور آخر أفضل من هذا الطور. وليس ينبغي أن يُنكِر ذلك من يعتقد أنا ندرك الموجود الواحد ينتقل من طور إلى طور، مثل انتقال الصور الجمادية إلى أن تصير مدركة بذواتها، وهي الصور العقلية.

والذين شكوا في هذه الأشياء وتعرضوا لذلك وأفصحوا به إنما هم الذين يقصدون إبطال الشرائع وإبطال الفضائل، وهم الزنادقة الذين يرون أن لا غاية للإنسان إلا التمتع باللذات. هذا مما لا يشك فيه أحد. ومن قُدِر عليه من هؤلاء فلا يشك أن أصحاب الشرائع والحكماء بأجمعهم يقتلونه. ومن لم يُقدر عليه فإن أتم الأقاويل التي يحتج بها عليه هي الدلائل التي تضمنها الكتاب العزيز.

وما قاله هذا الرجل (الغزالي) في معاندتهم (الفلاسفة) هو جيد. ولابد في معاندتهم أن توضع (تعتبر) النفس غير مائتة، كما دلت عليه الدلائل العقلية والشرعية، وأن يوضع (=أن يتم التسليم بـ) أن (=الأجسام) التي تعود (=تبعث يوم القيامة) هي أمثال هذه الأجسام التي كانت في هذه الدار، لا هي بعينها، لأن المعدوم لا يعود بالشخص وإنما يعود الموجود لمثل ما عُدم، لا لعين ما عدم، كما بين أبو حامد (الغزالي).

وهذا الرجل (الغزالي) كفر الفلاسفة بثلاث مسائل: أحدها هذه، وقد قلنا كيف رأيُ الفلاسفة في هذه المسألة، وأنها عندهم من المسائل النظرية. والمسألة الثانية قولهم: إنه (الله) لا يعلم الجزئيات. وقد قلنا أيضا إن هذا القول ليس من قولهم (=المسألة 13). والثالثة قولهم بقدم العالم، وقد قلنا أيضا إن الذي يعنون بهذا الاسم ليس هو المعنى الذي كفرهم به المتكلمون (= المسألة الأولى).

وقال الغزالي في هذا الكتاب (كتابه تهافت الفلاسفة) إنه لم يقل أحد من المسلمين بالمعاد الروحاني (وحده)، وقال في غيره، إن الصوفية تقول به. وعلى هذا فليس يكون تكفير من قال بالمعاد الروحاني ولم يقل بالمحسوس، إجماعا. وجوز هو القول بالمعاد الروحاني. وقد تردد أيضا في غير هذا الكتاب (من كتبه) في التكفير بالإجماع. وهذا كله كما ترى تخليط. ولاشك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة. والله الموفق للصواب والمختص بالحق من يشاء".

المرحلة الثالثة

إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام

استهلال

أبرزنا في التعليق الذي ختمنا به سورة القمر، آخر سور المرحلة الثانية، كيف أن الخطاب فيها ينم عن توتر العلاقة بين مشركي قريش والنبي عليه السلام. ونضيف الآن أن ذلك التوتر قد أدى بكبار قريش إلى التدخل لدى أبي طالب، عم النبي وعميد الهاشميين في ذلك الوقت، وكان قد تكفل به في صباه واستمر يحميه ويمنعه من خصوم نبوته ودعوته. وإذا كنا لا نستطيع الجزم بأن هذا التدخل أو ذلك كان أول تدخل منهم لديه، لأن روايات عديدة تحدثت عن تدخلات متعددة من دون ترتيب زمني واضح، فإن هذا التدخل الذي وردت عنه إشارة قوية في السورة التي نحن بصدد الانتقال إليها تجعل منه حدثا يسجل مرحلة ثالثة في الدعوة المحمدية، مرحلة ما يُعبَّـر عنه، في كتب التفسير والسيرة، بـ"التعرض للأصنام".

تتميز هذه المرحلة بكون الرسُول عليه السلام قد خاض خلالها مع الملأ من قريش معركة قوية وعنيفة ضد الشرك وعبادة الأصنام، فتعرض هو وأصحابه لشتى أنواع الإذايات والعسف كان من نتائجها اضطرار معظم الذين لَبـوا دعوته إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر منه، وكان ذلك بين الخامسة والسادسة للنبوة (وهي الهجرة الأولى)، ثم تواصلت الهجرة طيلة سنة أو يزيد، إلى أن قررت قريش محاصرة النبي (ص) وأهله في شعب أبي طالب بجبل أبي قُبيس المطل على مكة، فكانت الهجرة الثانية التي بلغ بها من هاجر إلى الحبشة من المسلمين أزيد من ثمانين رجلا وامرأة. وسنرى تفصيل ذلك في المرحلة الرابعة من كفاح النبي عليه الصلاة والسلام. أما الآن فسيكون علينا أن نتعرف على المرحلة الثالثة التي انتقلت فيها الدعوة المحمدية من التركيز على المعاد إلى التركيز على التوحيد وإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام.

كانت مرحلة جديدة في مسار الدعوة، سيكون علينا هنا التعرف على مسارها ونتوءاتها، إن على صعيد التنزيل أو على مستوى وقائع السيرة.

38- سورة ص

1- تقديـــم

تسجل هذه السورة والتي تليها (الأعراف) مرحلة جديدة سواء على صعيد مسيرة نزول القرآن أو صعيد علاقات الرسول عليه السلام مع الملأ من قريش.

1-فعلى الصعيد الأول تنتقل هذه السورة، على مستوى الشكل، من سلسلة السور الصغيرة والآيات القصار ذات الوقع الخاص الشبيه بالسجع -وما هو بسجع الشعراء- إلى سلسلة السور الطويلة ذات الآيات الطوال والعبارات الجدلية السجالية، البيانية، كما تنتقل على مستوى المضمون إلى التركيز على محور التوحيد مع شجب الشرك والتعرض للأصنام والاستهزاء بها وبمن يعبدها – مع حضور متفاوت للمحاور الأخرى (النبوة، البعث، المسألة الاجتماعية، إلى جانب توظيف قصص الأنبياء بصورة متكررة). وحسب تصنيفات المؤلفين في علوم القرآن يمكن القول إننا سننتقل مع سورة "ص" من مجموعة سور "المُفصّل" التي تمتد من سورة "ق" إلى سورة "الناس"، حسب تصنيف المصحف، إلى مجموعة السور "المثاني"[1]، التي تمتد من سورة "ق" إلى سورة الشعراء، في التصنيف نفسه.

هذا على مستوى مسار التنزيل أما على مستوى السيرة، وبالخصوص تطور العلاقة بين الرسول عليه السلام والملأ من قريش فيمكن أخذ فكرة عنها من المرويات التالية التي ننقلها عن المؤرخ ابن سعد، صاحب الطبقات الكبرى، حيث نقرأ :

1- "... عن الزهري[2] قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهرا، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال (شبان) وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول. فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه : إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء! فكان ذلك حتى

1- قيل سميت "المثاني" لأن القصص تتكرر فيها. وسندلي برأينا في هذه التسمية في حينه. أما إطلاق اسم المفصل على السور القصيرة فذلك لكونها قصيرة تفصل بينها البسملة ...

2- رواية الزهري لسيرة ابن إسحاق تختلف قليلا عن رواية ابن هشام.

عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (حقدوا عليه) عند ذلك، وعادوه".

2- وينقل ابن سعد عن راو آخر، قال: " لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضا؛ فكان أبو بكر يدعو ناحية سرا، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وكان عثمان مثل ذلك، وكان عمر يدعو علانية وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح، فغضبت قريش من ذلك وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغي، وأشخص به منهم رجال فبادوه (جاهروه بالعداوة)، وتستّر آخرون وهم على ذلك الرأي إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أهل العداوة والمباداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين يطلبون الخصومة والجدل: أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي وهو بن الغيطلة، والغيطلة أمه، والوليد بن المغيرة، وأمية وأُبَــيّ ابنا خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي بن عابد، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة بن أبي معيط، وابن الأصدى الهذلي ... والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء، وذلك أنهم كانوا جيرانه. والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم: أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط، وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة، ولكنهم لم يشخصوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، كانوا كنحو قريش. قال ابن سعد ولم يُسلم منهم أحد إلا أبو سفيان والحكم بن أبي العاص... وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت بين شر جارين: بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، كانا ليأتيان بالفروث (ما في الكرش) فيطرحانها على بابي". فيخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا! ثم يلقيه بالطريق"

3- وفي رواية أخرى من رواة متعددين: "دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا : لما رأت قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة سقط في أيديهم، فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا. وجاؤوا (يعني وفد قريش) بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا : قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعرا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمعُ للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة. قال أبو طالب : والله ما أنصفتموني! تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه! ما هذا بالنّصَــف! تسومونني سوم العرير (الغريب في القوم)

الذليل! قالوا فأرسِلْ إليه فلنعُطِه النَّصَف. فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال (أبو طالب): يا ابن أخي! هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا أسمَعُ. قالوا تدَعُنا وآلهتنا وندعك وإلهك. قال أبو طالب قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم! فقال أبو جهل: إن هذه لكلمة مربحة، نعم وأبيك لَنَقولنَّها وعشرَ أمثالها. قال : قولوا لا إله إلا الله. فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون : "اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد". ويقال : المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط، وقالوا : لا نعود إليه أبدا وما خير من أن يغتال محمد.

فلما كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع (أبو طالب) فتيانا من بني هاشم وبني المطلب ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم: فيهم ابن الحنظلية يعني أبا جهل، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل. فقال الفتيان نفعل. فجاء زيد بن حارثة (مولى الرسول) [3] فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال نعم كنت معه آنفا. فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبدا حتى أراه. فخرج زيد سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال نعم. قال أدخل بيتك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمُطّلِبيُّون. فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هَمَمْت به؟ قالوا لا. فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان أكشفوا عما في أيديكم فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال -أبو طالب- والله لو قتلتموه ما أبقَيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم؛ وكان أشدهم انكسارا أبو جهل".

ومن هذه الحادثة فصاعدا سيكون الرسول عليه السلام في حماية أبي طالب، وستتكرر تدخلات كبار قرش لدى هذا الأخير ولكن بدون جدوى.

---

3 - كان النبي (ص) قد اشترى زيد بن حارثة في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، حتى نزلت آية إبطال التبني، كما سنرى في حينه.

- نص السورة

1- مقدمة: أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ..؟

بسم الله الرحمن الرحيم

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ[1] (القصص والمواعظ)، بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا (قريش) فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ[2] (عناد وإعراض عن الدعوة المحمدية)،! كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ (من أمة كذبت رسلها) فَنَادَوْا (ربهم واستغاثوا بالتوبة إليه) وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ[3] (وقد فاتتهم الفرصة ولم يعد هناك مجال للنجاة). وَعَجِبُوا (قريش) أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ[4] (يعنون محمدا). أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ[5]! وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ (أشرافهم الذين كانوا عند أبي طالب، وقالوا) أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ[6] (مؤامرة على آلهتنا)! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ (النصرانية، وهي تقول بالتثليث)، إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ[7] (من محمد). أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (الوحي) مِنْ بَيْنِنَا (استفهام إنكاري)؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي (بل هم يشكون في القرآن وصحة مصدره الإلهي)، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ[8] (لم ينالوا بعدُ جزاء تكذيبهم)، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ[9] (فيمنعون إرسالنا لك ويرسلون من يشاءون)؟ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ[10]! (إذن فليصعدوا إلى السماء متخذين الوسائل لذلك، كالحبال)! جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ الْأَحْزَابِ[11] (لقد هزم هناك جند من أحزاب إبليس لما أرادوا استراق السمع) .

2- أقوام كذبت قبلهم ... فنزل عليها العقاب.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ[12] (دعائم حكمه)، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ[13]. إِنْ كُلٌّ (ما منهم) إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ[14]. وَمَا يَنظُرُ (ينتظر) هَؤُلَاءِ (المشركون من قريش) إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ[15] (لا تسكن ولا تهدأ). وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا (أطلعنا على أعمالنا) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ[16].

3- اصبر ... وتأس بتجربة داود.

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ (القوة) إِنَّهُ أَوَّابٌ[17] (مطيع)، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ[18]، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً

(مجموعة)، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ[19] (مطيع)؛ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ[20]. وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ (متخاصمان)[(4)] إِذْ تَسَوَّرُوا (تسلقوا سور) الْمِحْرَابَ[21] (مقدم الدار)، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ! قَالُوا لَا تَخَفْ (نحن) خَصْمَانِ (هما ملكان يمثلان داوود وزوج المرأة التي تزوجها غصبا) بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ[22]. إِنَّ هَذَا أَخِي (يعني داوود) لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً (امرأة) وَلِيَ نَعْجَةٌ (امرأة) وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا (تنازل عنها لي لأضمها إلى نسائي) وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ[23] (غلبني). قَالَ (داوود) لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ (بطلب) نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ (الشركاء) لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ! وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ (اختبرناه بضم زوجة ذلك الرجل إلى زوجاته) فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ[24] (ورجع إلى ربه). فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى (قربى) وَحُسْنَ مَآبٍ[25] (مصير) [(5)]. يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا (بنسيانهم) يَوْمَ الْحِسَابِ"[26].
(ومن جملة ما نسي هؤلاء أن الله ما خلق السماوات والأرض باطلا...) : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا! فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ[27]. أَمْ نَجْعَلُ (هل يريدون أن نجعل) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ[28]؟! (هذا) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ (يا محمد) مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ[29].

4- حاصل القصة (بعبارة الرازي) "أن داود عشق امرأة "أوريا"، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة" (الرازي). أما الزمخشري فقد حكى القصة كما يلي: قال: "كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك. فاتفق أنّ عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له "أوريا"، فأحبّها فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يردّه ففعل، فتزوجها وهي أمّ سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلا، ليس له إلا امرأة واحدة، النزول (عن امرأته لك)، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به" (الزمخشري: الكشاف).

5- وجه التأسي بقصة داود. انظر بعده: قصة سليمان.

4- ... وتأس بتجربة سليمان!

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[30]، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ[31] (الخيل رافعة قوائمها)، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ (أحببت الخيل حبا شغلني) عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ (الشمس) بِالْحِجَابِ[32] (غابت ولم أصل)، رُدُّوهَا عَلَيَّ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ[33] (يقطع سيقانها وأعناقها). وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا (صنما) ثُمَّ أَنَابَ[34] (تاب) (6)، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ[35]. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً (لينة طيعة) حَيْثُ أَصَابَ[36] (شاء)، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ[37]، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ[38] (مقيدين بالسلاسل)، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[39] (أعط ما شئت وامنع ما شئت)! وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ[40] (7).

5- ... وتأس بتجربة أيوب ...

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ[41] (بذهاب مالي وأهلي وعجز في جسدي. فاستجاب له الله وقال) ارْكُضْ (اضرب

---

6 - ذكر المفسرون عددا من الروايات حول هذا الموضوع، كثير منها أقرب إلى الخرافات، ولعل أقربها إلى السياق الرواية التالية ومفادها "أنّ سليمان تزوّج امرأة وهويها، وعبدت الصنم في داره، فنزع الله ملكه أيّاماً، وسلط شيطاناً على مملكته، ثمّ تاب سليمان فسأل الله أن يهب له ملكاً يدل على أنّه غفر له، فردّ عليه ما نزع منه". وهذه القصة مستقاة من التوراة (سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر)، ومما جاء فيه: "وَأُولِعَ سُلَيْمَانُ بِنِسَاءٍ غَرِيبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، فَضْلاً عَنِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، فَتَزَوَّجَ نِسَاءً مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصَيْدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ، 2وَكُلُّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ الأُمَمِ الَّتِي نَهَى الرَّبُّ بَنِي إِسْرَائِيل عَنِ الزَّوَاجِ مِنْهُمْ قَائِلاً لَهُمْ: «لاَ تَتَزَوَّجُوا مِنْهُمْ وَلاَ هُمْ مِنْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُغْوُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». وَلَكِنَّ سُلَيْمَانَ الْتَصَقَ بِهِنَّ لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُنَّ. 3فَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةِ زَوْجَةٍ، وَثَلاَثُ مِئَةِ مَحْظِيَّةٍ، فَانْحَرَفْنَ بِقَلْبِهِ عَنِ الرَّبِّ... 5وَمَا لَبِثَ أَنْ عَبَدَ عَشْتَارُوثَ آلِهَةَ الصَّيْدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ إِلَهَ الْعَمُّونِيِّينَ الْبَغِيضَ، 6وَارْتَكَبَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعْ سَبِيلَ الرَّبِّ بِكَمَالٍ كَمَا فَعَلَ أَبُوهُ دَاوُدُ. 7وَأَقَامَ عَلَى تَلٍّ شَرْقِيَّ أُورُشَلِيمَ مُرْتَفَعاً لِكَمُوشَ إِلَهِ الْمُوآبِيِّينَ الْفَاسِقِ. 8وَشَيَّدَ مُرْتَفَعَاتٍ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ، اللَّوَاتِي رُحْنَ يُوقِدْنَ الْبَخُورَ عَلَيْهَا وَيُقَرِّبْنَ الْمُحْرَقَاتِ لآلِهَتِهِنَّ: الخ الخ.

7- يجب أن نتذكر أن هذه السورة نزلت ردا على محاولة قريش مساومة النبي عليه السلام، بالاستعانة بعمه أبي طالب. لقد عرضوا عليه (ص) أمورا رفضها، وفي قصة داوود وسليمان عبرة، فقد فُتِنا ثم ندما وتابا فكان الجزاء أن جعل الله داود خليفة في الأرض الخ، وكان جزاء سليمان أن وهب له ما طلب: "ملكا لا ينبغي أن يكون لأحد من بعده، فسخر له الريح الخ. وفي ذلك وعد ضمني للرسول (ص) إن هو صبر ولم يستسلم لإغراءات قريش!

الأرض) بِرِجْلِكَ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ[42] (فتفجرت عينان واحدة للاغتسال والثانية للشرب)، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ (ففرّجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له زوجته)، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ (أولاده) رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ[43]، (وقلنا له) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا (عودا رطبا) فَاضْرِبْ بِهِ (زوجتك التي حلفت أن تضربها عقابا على ما كان إبليس قد أراد حملها عليه) وَلَا تَحْنَثْ. إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا (كان أيوب يتحمل البلاء)، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"[44].

6- وتأس بتجربة إبراهيم وإسحق ويعقوب

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ[45] (القوة البدنية والعقلية). إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ[46] (بالذكر الجميل في الدنيا)، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ[47]، وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ[48].

7- وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ.

هَذَا ذِكْرٌ (وعبرة). وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ[49]: جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ[50]، مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ[51]، وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ[52] (يغضضن من أبصارهن، متساويات)، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ[53]، إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ[54]. هَذَا، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ[55]: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ[56] (المصير). هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ: حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[57] (من دموع وقيح غليظ)، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ[58] (وسوائل أخرى، أنواع وأشكال. قيل لكفار الأقوام السابقة) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ (فوج آخر من قريش يدخل معكم، فأجابوا) لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ[59] (يضيقون علينا هنا في النار). قَالُوا (ر. عليهم فوج قريش) بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنْتُمْ (السابقون إلى الكفر) قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا! فَبِئْسَ الْقَرَارُ[60]. قَالُوا (وأضافوا) رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ[61]. وَقَالُوا (قريش) مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ[62] (فقراء المسلمين)؟ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا (هل لأننا كنا نسخر منهم فاختفوا الآن من أمامنا؟) أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ[63] (أبصارنا)؟ إِنَّ ذَلِكَ (ما ذكرنا هو) لَحَقٌّ: تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ[64].

8- ما أنا إلا نذير... عصيان إبليس وإغواء آدم!

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[65]، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ[66]. قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ[67]، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ[68].

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ[69] (لم يكن لدي علم بالملائكة حين اختلفوا في شأن خلق آدم، كما سيبين): إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ"[70]. (ومن جملة ما أوحي إلي أن أذكر ما يلي) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ[71]، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[72]، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[73]، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[74]! قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ[75]؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[76]. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[77]، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[78]. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[79]. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[80]، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[81]. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[82]، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[83] (الذي أخلصتهم لعبادتك أي الملائكة)، قَالَ (الله) فَالْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ[84]، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[85].

10- خاتمة: لتعلمنَّ نبأه بعد حين...

قُلْ (يا محمد لقريش) مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على القرآن) مِنْ أَجْرٍ (كما ظننتم عندما عرضتم علي المال والسلطة الخ) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[86] (من الذين يتكلفون اختلاقه)، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[87]، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ (حقيقته) بَعْدَ حِينٍ"[88].

- تعليق

تدشن هذه السورة مرحلة جديدة من مسار التنزيل موضوعها المركزي : التوحيد مع التعرض للأصنام. لقد انطلقت هذه السورة من إصرار قريش على تكذيب نبوة محمد عليه السلام بعد ما لمسوه من رفضه عليه السلام التفاوض معهم مؤكدا تشبثه بالدعوة إلى التوحيد وشجب الشرك. لقد كان لرجوع كبار قريش، من الاجتماع بالنبي لدى عمه أبي طالب، خائبين، أكبر الأثر في نفوسهم، لقد استنكروا أن يكون الله قد أرسل محمدا إليهم دون غيره من كبارهم ووجهائهم واعتبروا ذلك مؤامرة عليهم وعلى آلهتهم وأخذوا يفكرون في التخلص منه بقتله. لقد رد أبو طالب بفضحهم وإعلان حمايته وهددهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، حرب أهلية بين بني هاشم والمطلب ومن قد ينضم إليهم، وبين خصوم الدعوة المحمدية. والحرب الأهلية القبلية هي أكثر ما تتجنبه قريش، لأنها تمس بعمق مصالحها الاقتصادية: عائدات الحج والتجارة. وهذا كان النبي عليه السلام يعرفه جيدا، وهو ما يفسر تصرفه

باطمئنان ورفضه أية مساومة معهم والمضي في تبليغ رسالة التوحيد وشجب الشرك وتسفيه عقول من يعبدها.

وفي هذا الإطار نفسه دشنت السورة التي نحن ضيوف عليها توظيف قصص الأنبياء بالصورة التي يجد فيها النبي وصحبه ما يسليهم ويثبت أفئدتهم. فتجارب الأنبياء السابقين تعطي المثل والدرس والعبرة والأمل. إن المعركة مع "الملأ من قريش" مستمرة، وكما كانت مشاهد الجنة والنار سلاحا قويا في هذه المعركة، وستبقى، هاهي تجارب الأنبياء التي انتهت بهلاك المكذبين من أقوامهم وانتصار رسلهم، تقدم سلاحا آخر هو: "درس التاريخ".

لقد ذكّرت السورة بما نال الأقوام الماضية التي كذبت رسلها (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ) من عقاب وعذاب وهلاك -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة- لتتحدث بعدها -لأول مرة حسب ترتيب النزول- عن تجربة كل من داوود وسليمان، مركزة على ما تعرضا له من فتن انتهت بهما إلى التوبة وطلب المغفرة وبالتالي إلى تلبية طلبهما وتمتيعهما بقوة، ما سبق أن مُتع بها بشر. وما ذلك إلا لصبرهما وعدولهما عن الانسياق مع الهوى. والخطاب موجه هنا ضمنيا إلى الرسول محمد عليه السلام، ليقتدي بهما ولا ينساق مع مساومات قريش.

ثم تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة والجزاء، واستحضار تلاوم أهل النار، لتتخلص من ذلك إلى ما سيكون عليه مصير قريش عندما تلتحق بمكذبي الرسالات السابقة.

وقبل أن تختم السورة عرجت على قصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتؤكد أن الرسول محمد عليه السلام لم يكن حاضرا مع الملائكة وإنما هو الوحي الذي قص عليه ما جرى، وأن دوره هو الإنذار بالقرآن الذي يصرون على تكذيبه، مؤكدا لهم أن ما جاء به حق وهو من عند الله، وأنهم سيعلمون خبره وحقيقته في مستقبل الأيام.

39- سورة الأعراف

- تقديـــم

تقع سورة الأعراف مباشرة بعد سورة "ص" على لائحة ترتيب النزول، ورتبتها 39. تبدأ هذه السورة بمقدمة مماثلة لتلك التي وردت في سورة "ص"، ولكن مع طرح ما يمكن أن نعبر عنه بـ" برنامج جديد" للدعوة يتناسب مع المرحلة. ومما يفيد ذلك قوله تعالى في مستهلها : "المص (ألف، لام، ميم، صاد)، كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ". وما يلفت الانتباه في هذه الآية أمران:

- الأول استعمال اسم "الكتاب" كوصف لهذه السورة. وهذا ما قرره الزمخشري. فهو يرى أن المقصود بهذا اللفظ هو هذه السورة، باعتبار أن "المص" مبتدأ و"كتاب" خبر. وتسمية هذه السورة بـ "كتاب" يبررها في نظر القائلين بذلك كونها طويلة في "حجم كتاب من كتب أهل الكتاب"، وأنها نزلت مرة واحدة. ومنهم من يقول إن إطلاق اسم "كتاب" عليها هو بمثابة رد على قريش الذين طعنوا في كون القرآن مجرد أقوال يأتيها محمد من حين لآخر وأنه لم يأت بكتاب كما فعل موسى.

- أما الأمر الثاني الذي يشد الانتباه في مقدمة هذه السورة فهو قوله تعالى: "فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ". وهذا "الحرج" لا شيء يبرره لو كان المقصود بـ "الكتاب" هو القرآن. ذلك لأن الرسول عليه السلام كان ينذر بالقرآن من قبل، دون أن يشعر بالحرج. وإذن فلا بد أن يكون هناك شيء جديد في هذه السورة أو في ظروف نزولها، من شأنه أن يثير الحرج في نفس النبي عليه السلام.

ومن وجهة نظرنا هناك شيئان يمكن أن يبررا استعمال لفظ "الحرج" هنا.

أولهما هو تسمية هذه السورة "كتابا"، بينما كان اسم "الكتاب"، لحد الآن، خاصا بكتاب "أهل الكتاب" (التوراة). وما يمكن أن يكون مدعاة للحرج هنا هو هذا الانتقال بالوحي المحمدي إلى مستوى "الكتاب"، بعد أن كان يسمّي نفسه من قبل بالأسماء التالية على التوالي وحسب ترتيب النزول[1]: ذكر، ذكرى، تذكرة، حديث، ثم

1- لقد شرحنا هذه المسألة بتفصيل في الفصل السادس من التعريف بالقرآن .

قرآن. أما الآن، فإن سورة "المص" وحدها "كتاب"! وهذا الاسم أعني "الكتاب" سيسمى به القرآن كله، ولأول مرة في هذه السورة نفسها (الآية 52).

ثانيهما، وهذا أهم بالنسبة لموضوعنا هنا، هو أن النبي عليه السلام، الذي اعتاد من قبل القيام بالدعوة والتبشير والإنذار، بآيات تنزل مفرقة وحسب مقتضيات الأحوال، إما جوابا عن سؤال أو ردا على تهجم، أو بمناسبة نازلة من النوازل الخ، هو الآن مطالب بمتابعة رسالته من خلال "كتاب" : سورة طويلة نزلت مرة واحدة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تسجل هذه السورة إستراتيجية جديدة في القص القرآني: كان القص في القرآن [2] لحد الآن يتناول قصص أنبياء أقوام عربية كعاد وثمود (من العرب البائدة) أو مَن كان قومُه الذين أرسل إليهم عربا أو تجري قصصهم في بلاد العرب مثل لوط ومدين وأصحاب الأيكة في الشمال (بين مكة والشام)، وسبأ، وأصحاب الجنة وقوم تبع بالجنوب (اليمن)، وقوم يونس في الشرق (الموصل)، إضافة إلى ما انتشر في هذه المناطق وغيرها من أخبار فرعون وعلاقة سليمان بملكة سبأ الخ... أما في سورة الأعراف فسيعرف القصص القرآني نقلة نوعية، إذ ستطرح السورة أمامنا برنامجا وإستراتجية للقص القرآني، بحيث تعرض ضمن مخطط عام لقصص أنبياء أهل الكتاب، إضافة إلى قصص أنبياء العرب!

وهكذا، فبعد المقدمة التي نبهت النبي إلى أن الأمر يتعلق هذه المرة بسورة هي: "كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ"، تنتقل السورة مباشرة إلى التذكير بالمصير الذي خص الله به الأقوام التي كذبت رسلها: "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا (ليلا) أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" (في قيلولة)، (الأعراف 4). ثم تضيف السورة، وكأنها تجيب على اعتراض من قريش، تقول فيه: وما الدليل على ذلك؟ تجيب: "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (لننظر في أخبار الأقوام الماضية مع رسلهم)، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ (على مشركي مكة) بِعِلْمٍ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (عن مجرى الأحداث كما هو حال القصاص المحترفين المتصنعين)، بل لقد جرت تلك الأحداث بعلمنا وعلى مرأى منا! وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ" (الأعراف 6-9)[3].

2- انظر التفاصيل في التعريف بالقرآن : القصص في القرآن المكي : المرحلة الثانية.

3 - يمكن أن يفهم من هذا دعوة قريش إلى مقارنة ما سيقصه القرآن عن الأنبياء والرسل وأقوامهم بالقصص التي كان يقصها عليهم النضر بن الحرث الذي ذهب إلى الحيرة وجاء من هناك بقصص فارسية كما سيأتي لاحقا.

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ[69] (لم يكن لدي علم بالملائكة حين اختلفوا في شأن خلق آدم، كما سيبين): إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ"[70]. (ومن جملة ما أوحي إلي أن أذكر ما يلي) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ[71]، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[72]، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[73]، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[74]! قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ[75]؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[76]. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[77]، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[78]. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[79]. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[80]، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[81]. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[82]، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[83] (الذي أخلصتهم لعبادتك أي الملائكة)، قَالَ (الله) فَالْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ[84]، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[85].

10- خاتمة: لتعلمُنَّ نبأه بعد حين...

قُلْ (يا محمد لقريش) مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على القرآن) مِنْ أَجْرٍ (كما ظننتم عندما عرضتم علي المال والسلطة الخ) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[86] (من الذين يتكلفون اختلاقه)، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[87]، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ (حقيقته) بَعْدَ حِينٍ"[88].

- تعليق

تدشن هذه السورة مرحلة جديدة من مسار التنزيل موضوعها المركزي : التوحيد مع التعرض للأصنام. لقد انطلقت هذه السورة من إصرار قريش على تكذيب نبوة محمد عليه السلام بعد ما لمسوه من رفضه عليه السلام التفاوض معهم مؤكدا تشبثه بالدعوة إلى التوحيد وشجب الشرك. لقد كان لرجوع كبار قريش، من الاجتماع بالنبي لدى عمه أبي طالب، خائبين، أكبر الأثر في نفوسهم، لقد استنكروا أن يكون الله قد أرسل محمدا إليهم دون غيره من كبارهم ووجهائهم واعتبروا ذلك مؤامرة عليهم وعلى آلهتهم وأخذوا يفكرون في التخلص منه بقتله. لقد رد أبو طالب بفضحهم وإعلان حمايته وهددهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، حرب أهلية بين بني هاشم والمطلب ومن قد ينضم إليهم، وبين خصوم الدعوة المحمدية. والحرب الأهلية القبلية هي أكثر ما تتجنبه قريش، لأنها تمس بعمق مصالحها الاقتصادية: عائدات الحج والتجارة. وهذا كان النبي عليه السلام يعرفه جيدا، وهو ما يفسر تصرفه

باطمئنان ورفضه أية مساومة معهم والمضي في تبليغ رسالة التوحيد وشجب الشرك وتسفيه عقول من يعبدها.

وفي هذا الإطار نفسه دشنت السورة التي نحن ضيوف عليها توظيف قصص الأنبياء بالصورة التي يجد فيها النبي وصحبه ما يسليهم ويثبت أفئدتهم. فتجارب الأنبياء السابقين تعطي المثل والدرس والعبرة والأمل. إن المعركة مع "الملأ من قريش" مستمرة، وكما كانت مشاهد الجنة والنار سلاحا قويا في هذه المعركة، وستبقى، هاهي تجارب الأنبياء التي انتهت بهلاك المكذبين من أقوامهم وانتصار رسلهم، تقدم سلاحا آخر هو: "درس التاريخ".

لقد ذكّرت السورة بما نال الأقوام الماضية التي كذبت رسلها (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ) من عقاب وعذاب وهلاك -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة- لتتحدث بعدها -لأول مرة حسب ترتيب النزول- عن تجربة كل من داوود وسليمان، مركزة على ما تعرضا له من فتن انتهت بهما إلى التوبة وطلب المغفرة وبالتالي إلى تلبية طلبهما وتمتيعهما بقوة، ما سبق أن مُتع بها بشر. وما ذلك إلا لصبرهما وعدولهما عن الانسياق مع الهوى. والخطاب موجه هنا ضمنيا إلى الرسول محمد عليه السلام، ليقتدي بهما ولا ينساق مع مساومات قريش.

ثم تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة والجزاء، واستحضار تلاوم أهل النار، لتخلص من ذلك إلى ما سيكون عليه مصير قريش عندما تلتحق بمكذبي الرسالات السابقة.

وقبل أن تختم السورة عرجت على قصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتؤكد أن الرسول محمد عليه السلام لم يكن حاضرا مع الملائكة وإنما هو الوحي الذي قص عليه ما جرى، وأن دوره هو الإنذار بالقرآن الذي يصرون على تكذيبه، مؤكدا لهم أن ما جاء به حق وهو من عند الله، وأنهم سيعلمون خبره وحقيقته في مستقبل الأيام.

قلنا إن سورة الأعراف تشكل نقلة نوعية على مستوى "القصص في القرآن: ذلك أن القص المفصل، المستوفي لعناصره، إنما يبدأ معها. فكثير من القصص التي سترد في السور اللاحقة هي إما تفصيل لبعض الجوانب المذكورة في هذه السورة وإما صياغة لها جديدة حسب ما يقتضيه المقام. ففي هذه السورة نجد أنفسنا إزاء ما يشبه أن يكون مخططا (أو برنامجا) لقسم كبير من القصص القرآني يشمل قصص الأنبياء الذين لم يرد لهم ذكر في التوراة كما يعرض لمعظم أنبياء التوراة [4].

وهكذا فإذا كانت السور السابقة قد اقتصرت على عرض بعض جوانب القصص الخاصة بأنبياء "العرب البائدة" السابقين على أنبياء بني إسرائيل، دونما تقيد بـ"الترتيب الزمني"، فإن سورة الأعراف تعرض أنبياء "العرب البائدة" ضمن سلسلة الأنبياء المذكورين في التوراة، متقيدة بـ"الترتيب الزمني" انطلاقا من آدم... وهكذا، فبعد قصة آدم وإبليس، وقصة نوح والطوفان، تأتي قصص عاد، وثمود، ثم لوط (وإبراهيم)، وشعيب [5]، ثم قصة موسى مع فرعون التي، انطلاقا منها، سيدشن القرآن القول في قصص أنبياء بني إسرائيل. وبعد قصة الصراع بين موسى وفرعون تخلص السورة إلى عرض مباشر لصراع الرسول محمد عليه السلام مع مشركي قريش. وهذا هو الغرض من القصص في القرآن كما أوضحنا من قبل[6]، وسيتضح هذا أكثر من خلال التذكير بالاستراتيجيات التي سلكها القرآن في مجال القص، وهي استراتجيات ثلاثة هي:

أولا: مراعاة "التسلسل الزمني" للتاريخ المقدس الذي تروي هذه السورة فصوله من خلال قصص الأنبياء، انطلاقا من آدم وطرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض إلى النبي محمد عليه السلام.

4- الأنبياء الذين اختص القرآن بذكر أسمائهم وقصصهم ولم يرد لهم ذكر في التوراة هم : شعيب، ذو الكفل، إدريس، هود، صالح، لقمان، إسماعيل، مع ذكر قصة الطوفان، والإشارة إلى فرعون.. والمسرح الذي تجري فيه قصص هؤلاء (باستثناء فرعون) هو الجزيرة العربية، خصوصا المنطقة التي تمتد من مكة إلى الشام (حاليا: الأردن وفلسطين وسورية). أما أنبياء التوراة والإنجيل الذين ذكرهم القرآن فهم: نوح وإبراهيم وزكرياء ويعقوب (المسمى إسرائيل، وإليه ينسب بنو إسرائيل) ويوسف وموسى ويونس وأيوب وداود وسليمان وأشعياء ويـحيى (المعمدان، أو يوحنا)، والسيد المسيح.

5- يقول الطبري في تاريخه: وقال بعضهم لم يكن شعيب من ولد إبراهيم -وإنما هو من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم واتبعه على دينه وهاجر معه إلى الشام -ولكنه ابن بنت لوط، فجدة شعيب ابنة لوط ابن أخت إبراهيم. هذا وقد وردت أخبار أيوب بتفصيل في التوراة: سفر أيوب.

6- <u>التعريف بالقرآن</u>: خاصة المقدمة والخاتمة.

ثانيا: توظيف قصص الأنبياء في تحذير قريش من المصير المرعب الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في كفرهم وشركهم، وفي نفس الوقت تثبيت فؤاد النبي وتقوية معنويات أصحابه، وذلك بالتأكيد على أن جميع الرسل قد تعرضوا للتكذيب من طرف أقوامهم ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصر ربهم.

ثالثا: صب خطاب الرسل السابقين إلى أقوامهم في صيغة تحاكي وتعزز الخطاب الذي يوجهه محمد عليه السلام إلى قومه، فكأن خطاب الأنبياء السابقين إلى أقوامهم إنما يعبر عن حال النبي محمد مع قومه قريش.

وفي هذا الإطار جاءت الإشارة لأول مرة إلى العلاقة بين الرسالة المحمدية وما في كتب أهل الكتاب من التبشير به من جهة، وإلى عموم هذه الرسالة من جهة أخرى بحيث تشمل أهل الكتاب أنفسهم، هؤلاء "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". ليس هذا فحسب فالدعوة التي كانت موجهة في البداية إلى مشركي قريش، أصبحت الآن دعوة عالمية، دعوة إلى الناس جميعا: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (الأعراف 157-158). أضف إلى ذلك توجيه خطاب النصح والإرشاد إلى بني آدم، بعد أن تم ربط الضلال والانحراف بقصة إبليس الذي أضل آدم وتوعد ذريته.

وبالجملة فما كان من قبل تلميحا أو إشارة، يجد تفصيله في هذه السورة: سواء تعلق الأمر بأخبار الأمم الماضية والعبرة منها، أو بالخطاب إلى الرسول عليه السلام حيث اتسع هنا إلى نوع من تحذيره من الشيطان، أو بالخطاب إلى قريش حيث تتم مواجهتهم هنا مباشرة وبصورة صريحة، أو بالمواجهة بين المستضعفين والمستكبرين، يوم القيامة، أو رسم مشاهد لقيام الساعة والجنة والنار.

وأخيرا وليس آخرا، نقرأ في هذه السورة، ولأول مرة، التشنيع على قريش بالتجائهم إلى تبرير عبادتهم للأصنام، التي لا يقبلها عقل، بالقول: "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"!

ولابد من أن نضيف أنه في هذه السورة تعرض القرآن لأول مرة إلى الحلال والحرام، إلى نقد وشجب للإثم والبغي وبعض العادات التي كانت تمارس قبل الإسلام حين الطواف بالكعبة الخ (فقرة 5). إنه محور"الأخلاق" الذي ستدشن هذه السورة التحرك فيه إلى جانب محور العقيدة (النبوة والتوحيد والمعاد). إن الأخلاق في القرآن

المكي ستحتل ابتداء من هذه السورة المكانة التي تحتلها الشريعة في القرآن المدني. وسنرى أن الأخلاق في القرآن أساس الشريعة وليس العكس.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة: كتاب لتنذر به المشركين وذكرى للمؤمنين.

"المص[1]، (هذا) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ، لِتُنذِرَ بِهِ (المشركين) وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[2]. (يأمركم أن) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (أصناما)، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ[3]! وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا (ليلا) أَوْ هُمْ قَائِلُونَ[4] (من القيلولة)، فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"[5]. فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ[6]، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ (على قريش) بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ[7] (7)، وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ (بعد سماع القص) الْحَقُّ (العدل)(8)، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[8]، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ[9] (يكذبون ويستهزئون). وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ"[10].

7- يقول تعالى: سنقص على قريش تفاصيل ما جرى لتلك الأقوام وكيف تعاملوا مع رسلهم، وهذا القص ليس سماعا من أحد بل هو قص من شاهد مباشر، عالم بما كانوا يفعلون (وهو الله). والقص هنا ليس من أجل تسلية قريش كما يفعل القصاصون بل هو توبيخ وتقريع.

8- يمكن أن يكون قوله "والوزن يومئذ الحق" عائدا إلى قوله: "قالوا إنا كنا ظالمين"، ويكون المقصود: يوم القيامة. ويمكن أن يكون "الوزن يومئذ الحق" عائدا ما بعد الاستماع إلى قصص القرآن والمقارنة بينه وبين ما يقصه الآخرون من الأساطير. وفي هذه الحالة تكون "الإشارة هنا إلى القصاص النضر بن الحارث الذي يقول عنه ابن إسحاق : "كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثاً منه، فهلمّ إليَّ. فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُستم واسبنديار، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني؟. وقيل: وهو الذي قال: "سأنزل مثل ما أنزل الله". وقيل نزل في هذا الرجل ما ورد فيه لفظ "الأساطير".

2- السبب في ضلال قريش : اتباعهم شهواتهم كما حصل لآدم!

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ (يا بني آدم) ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ[11]، قَالَ (له الله) مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[12]! قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ[13] (الذليلين). قَالَ أَنْظِرْنِي (أمهلني) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[14]. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[15]. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي (فبسبب إغوائك لي بأولئك) لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ (انحرف بهم عن) صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ[16]، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ[17]. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا (ممقوتا ملعونا). لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ (أقول) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ[18].

3- طمع آدم وزوجته في أن يصيرا ملاكين أو يكونا من الخالدين!

"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ[19]؛ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ (أُخفِي) عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا [9] وَقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا (لكي لا تكونا) مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ[20]. وَقَاسَمَهُمَا (أقسم لهما) إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ[21]. فَدَلَّاهُمَا (أنزلهما إبليس من منزلتهما) بِغُرُورٍ (بسبب الطمع)، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (يلصقان) عَلَيْهِمَا

---

9 – العري الجسدي هنا رمز للكشف عن طبيعة النفس البشرية المركبة من ثلاث قوى: قوة الشهوة، وقوة الغضب، وقوة العقل، حسب تقسيم القدماء (منذ أفلاطون). والعري هنا بسبب تغلب قوة الشهوة على قوة العقل (وإغواء الشيطان رمز لتغلب الشهوة). ومن هنا سيختلف مصير الإنسان عن مصير الملائكة. الملائكة أرواح لا تعدد في نفوسهم فهم منقطعون لتسبيح الله ويعيشون في جواره في السماء. أما الإنسان فإنه بسبب إغواء الشيطان له أهبط وإياه إلى الأرض حيث سيقضيان مدة في (الحياة الدنيا) يختبر فيها الإنسان في مدى قدرته (أعني قوته العقلية) على التحكم في القوتين الأخريين، الغضبية والشهوانية. وعندما ينتهي أجله يحاسب ليكون مصيره إما النار مع إبليس وذريته وإما الجنة مع الملائكة. هذا هو، بالإجمال مغزى قصة إبليس مع آدم. وبنية القصة واحدة في الديانات والفلسفة: في الفلسفة اليونانية وما تفرع عنها من تيارات غنوصية صوفية يضعون "المعرفة" (معرفة الحقيقة، معرفة الله) مكان العبادة والتقوى في الدين، كما رأينا عند الفارابي وابن سينا في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة السابقة. وسنزيد بعض جوانب هذا الموضوع تفصيلا كلما تطلب الفهم ذلك.

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ! وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ"[22]. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ[23]. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[24]؛ قَالَ فِيهَا (في الأرض) تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"[25] (عند قيام الساعة).

4- يا آدم: لباس التقوى خير... ويا قريش: هذه سبيل التقوى!

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا (للزينة)، وَلِبَاسُ التَّقْوَى! ذَلِكَ خَيْرٌ. ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[26]. يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ (جنده) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ[27]. وَإِذَا فَعَلُوا (الذين لا يؤمنون) فَاحِشَةً[(10)] قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا! قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ. أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[28]؟ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ [(11)] وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ[29] [(12)]: فَرِيقًا هَدَى، وَفَرِيقًا حَقَّ

10- الفاحشة في القرآن معناها في الغالب: الزنا. وبما أن الأمر يتعلق هنا بالعري (وهو مقدمة الزنا كما يقال))، وبما أن العرب، أو بعضهم، كانوا في وقت من الأوقات يطوفون بالكعبة عراة، طلبا للمطر كما تفعل بعض الشعوب البدائية، أو اعتقادا منهم أن ذلك من شعائر الحج (هامش بعده 14)، فيمكن أن نفهم على ضوء هذا معنى قوله تعالى، لاحقا : "خذوا زينتكم عند كل مسجد" وقوله : "قل من حرم زينة الله" الخ.

11- القسط: العدل، وبه فسر جل المفسرين هذا اللفظ هنا، وبعضهم شرحه بـ"التوحيد". والقسط معناه العدل فعلا، ويقال هو معرب من اللاتينية Justas ، لكن هذا المعنى لا يناسب السياق الذي يتحدث عن الفاحشة والزينة الخ. لذلك نميل إلى القول إن معنى العدل هنا هو الاعتدال، والمقصود الاعتدال في الملبس، تجنب كل من العري والزينة المبالغ فيها عند الدخول إلى المسجد، وتجنب الفاحشة الكبيرة (أي الجماع مع من ليس زوجا أو زوجة)، وهذا المعنى ينسجم مع ما ذكرناه في الهامش السابق، وسنجد له تأكيدا في استثناء "اللمم" أي الزنا بغير الفرج، كالقبلة واللمس الخ، كما رأينا في سورة النجم.

12- جل المفسرين يفهمون هذا الآية خارج السياق، فيقولون إن المقصود : كما أنشأكم أول مرة تعودون، أي تبعثون ليوم الحساب. أي كأنه يرد على منكري البعث! وليس هذا هو موضوع الكلام هنا.وسياق الكلام يدور حول اللباس والعري. أي كما خلقكم عراة عند ميلادكم تعودون عراة: تخرجون عراة من القبر: فريق منكم كان قد اهتدى في الدنيا فهو إلى الجنة، وفريق كان قد ضل فهو إلى النار.

عَلَيهِمْ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ 30 (13). يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ31. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ(14)؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، خَالِصَةً (لهم وحدهم) يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ32. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ33. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ34".

5- فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ !

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا (إن ما: شرط) يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ35 (الجملة كلها جواب الشرط)، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ36. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (قال : له شريك، أو أنه ينزل عليه كتابا) أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ (بدلائله وحججه) أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنْ الْكِتَابِ (أي الوعيد الذي في القرآن)، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا (الملائكة) يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (أين الأصنام التي كنتم تعبدون) قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا (ضاعوا وفقدنا أثرهم)، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ37. قَالَ ادْخُلُوا، فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، فِي النَّارِ: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ

13- "حق عليهم الضلالة" : ليس منذ خلقهم، بل لأن هذا الفريق اتبعوا إبليس وجنده من الشياطين (أي اتبعوا أهواءهم). فاختاروا الضلالة على الهدى فصارت طبيعة فيهم فظلموا الحق وظلموا أنفسهم : اتبعوا هواهم: "بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (القصص 50)

14- روي عن ابن عباس أنه قال: "إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة. الرجال بالنهار، والنساء بالليل. كانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، ومنهم من يقول: نفعل ذلك تفاؤلا حتى نتعرى عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب، وكانت المرأة منهم تتخذ سترا تعلقه على حقويها، لتستتر به عن الحُمُس، وهم قريش، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك، وكانوا يصلون في ثيابهم، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتا، ولا يأكلون دسما، فقال المسلمون: يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي: "البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا"، يقصد معناها. أما نصها فهو أعلاه.

لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا (تلاحقوا) فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ. قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ[38]. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ (لم تستفيدوا عبرة بتأخركم في الزمان) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[39]. إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (في ثقب إبرة الخياط : مستحيل)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ[40]. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ (فراش) وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ (أغطية) وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[41]. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ -لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[(15)]- أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[42]. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ (من حقد كان بينهم في الدنيا. وأسكناهم مساكن)، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا (أنتم مستحقون لها) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[43].

6- أصحاب النار (المترفون) يستغيثون بأصحاب الجنة (الفقراء)!

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ : أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ : لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ[44] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ[45]. وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ (بين أصحاب الجنة وبين أصحاب النار)، وَعَلَى الْأَعْرَافِ (سور بالجنة) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ (بما يظهر على وجوههم من فرح أو خوف)، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ: (إنهم) لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ[46] (فيها بل ثوابا من ربهم). وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ (أصحاب الجنة) تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[47]. وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ[48]؟ أَهَؤُلَاءِ (ها هم الضعفاء) الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ (أن) لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ (قد قال لهم الله) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ[49]. وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ! قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ[50]. (ويقول تعالى): الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

15- جملة اعتراضية، والمعنى أننا لم نكلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأدخلناهم الجنة، إلا بما كانوا يقدرون عليه، وذلك كان في مقدور الذين جازيناهم بجهنم، ولكنهم لم يفعلوه.

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ (نهملهم) كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ"[51] (وبجحدهم آياتنا).

7- وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ!

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ (يعني قريشا) بِكِتَابٍ (هو القرآن) فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[52]. هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ (ما يؤول إليه أمرهم كما أخبرهم)؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ (يوم القيامة) يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[53] (لم يجدوا أثرا لما كانون يعبدون من شركاء مع الله). إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي (يُلبس) اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا (سريعا)، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (التدبير)، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[54]. ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً (بلا رياء) إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[55] (في الدعاء بالتشدق والرياء). وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، وَادْعُوهُ خَوْفًا (من عقابه) وَطَمَعًا (في ثوابه) إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ[56]. وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا (تبشر بالمطر) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الماء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[57] (16). وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا (بمشقة) (17)، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ (الدلائل والأمثال) لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ[58].

8- نوح لقومه: أعَجِبتم أن جاءكم منكم منذر من ربكم؟

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ(18) فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[59]، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي

16- كما يخرج النبت بالسحاب تسوقه الرياح فينزل المطر ويسقي الأرض فيخرج النبات وتلك هي نهاية السلسلة، فكذلك حياتكم في الدنيا حلقات من سلسلة تنتهي إلى إخراجكم من قبوركم: برهان بالمماثلة لحدوث البعث.

17 - كذلك منكم من يخرج من قبره "طيبا" وبسهولة ومآله الجنة، ومنكم من يخرج "خبيثا" وبمشقة ومصيره النار.

18 - ما ورد هنا في قصة نوح وعاد ... هو استعادة وتأكيد بالمثال لمقدمة السورة.

ضَلَالٍ مُبِينٍ[60]. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[61]. أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[63]. فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ"[64].

9- عادٌ لقومه... أعَجِبتم أن جاءكم منكم منذر من ربكم؟

وَإِلَى عَادٍ (أرسلنا) أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ[65]؟ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ (قلة عقل)، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[66]. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[67]، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ[68]. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[69]. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[70]! قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ (عذاب) وَغَضَبٌ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ (يعنى الأصنام: قارن مع سورة النجم23/22) مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ[71]. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ[72].

10- قوم ثمود: ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين!

وَإِلَى ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ : هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[73]. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[74]. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ[75]. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[76] فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[77]! فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (زلزال) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَاثِمِينَ[78]. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ (صالح) وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ"[79].

11- قوم لوط : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ!

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ[80]! إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ[81]. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ (سدوم على البحر الميت) إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ[82]. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[83] (الباقين في العذاب)[(19)]، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (أهلكهم)، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ[84].

12- قوم شعيب: لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا...

وَإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[85]. وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا. وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ[86]! وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[87]. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا. قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ[88]؟ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ـهُ مِنْهَا! وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ[89]. وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ[90]. فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ (الزلزلة) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[91]. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا (ديارهم خاوية كأنهم لم يقيموا فيها)، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ[92]. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ[93].

19- قيل لأنها كانت متواطئة مع قومها ترسل دخانا من بيتها لإخبارهم بوجود ضيوف عند زوجها.

13- مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ... لقد اختاروا الضلالة.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ[94]، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا (تعافوا وكثروا)، وَقَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ (فهذا أمر طبيعي يحدث من حين لآخر وليس له علاقة بمعتقداتنا وأفعالنا)، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[95]. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[96]. أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى (والمقصود قريش سكان أم القرى) أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ[97]؟ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ[98]؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ[99]. أَوَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ[100]؟ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ[101](20)، وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ"[102] (21).

14- قصة موسى : قَالَ فِرْعَوْنُ لِمَلَئِهِ: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ!

أ- قَالَ المؤمنون لموسى: أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا (لم يعتبروا بها) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ[103]. وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[104]، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ[105]. قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[106]، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ[107]، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ

20- هذه الآية تشرح جانبا من مسألة الهدى والضلال. فقوله : "فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"، معناه أنهم خيروا بين الهدى والضلال فاختاروا الضلال وسجنوا فيه أنفسهم، وأصبحوا لا يستطيعون التراجع، فصار ذلك كأنه طبع غرسه الله فيهم.

21- تلميح إلى أهل مكة (أم القرى) مثلها كمثل أهل القرى الذين قصت السورة أخبارهم، وأنهم لن يؤمنوا بما كفروا به من قبل، ولذلك فلا أمل فيهم. وهذا يستعيد ما ورد في سورة القمر (فقرة -1)

بَيْضَاءُ (في غير لون الأفعى، لم تعد أفعى) لِلنَّاظِرِينَ[108]. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ[109]. (قال فرعون) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[110]. قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ (هارون. أخر أمرهما) وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ (صعيد مصر) حَاشِرِينَ[111] (منادين)، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ[112]. وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ : قَالُوا (هل) إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ[113]؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[114]. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ[115]؟ قَالَ أَلْقُوا! فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ[116]، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ[117] (ما يموهون به من العِصِيِّ)، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[118]، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ[119]. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ[120]، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[121]، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ[122]. قَالَ فِرْعَوْنُ : آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[123]، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ؟ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ[124]، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ[126]. وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ. قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ(22) وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ[127]. قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[128]. قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا. قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[129].

ب- وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا..!

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ (من الجفاف) وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[130]، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ (شؤمهم) عِنْدَ اللَّهِ (ما حدث لهم هو جزاء لهم من عند الله) وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[131]. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ[132]، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ: آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ[133]. وَلَمَّا وَقَعَ

22- نُبقيهن على قيد الحياة ليلدن الخدم... ذكر المفسرون عدة أسباب لقرار فرعون ذبح أبناء بني إسرائيل: وكلها تدور حول ما قيل (تنجيما أو حلما...) من أن مولودا في بني إسرائيل سيكون على يديه سقوط ملك فرعون.

عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ (العذاب) قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ[134]. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[135]. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[136]. وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ[137] (يرفعون من البنيان).

ج- أَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..!

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا (بنو إسرائيل) يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[138] ! إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ (هالك) مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[139]، قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[140]. وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[141]. وَوَاعَدْنَا مُوسَى (من أجل لقائه) ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ (بعد) أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ، وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ[142]. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ. قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا! فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ[143]. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ[144]. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ (ألواح التوراة) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ (وقلنا له) فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ (بجد وحرص) وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ[145] (دار فرعون وملأه: مصر). سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[146]. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[147].

د- بنو إسرائيل يتخذون العجل صنما ... وموسى يستغفر لهم.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا (مجسما ليس من لحم ودم) لَهُ خُوَارٌ. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ[148]. وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[149]. وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي! أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ (ألواح التوراة) وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ (هارون) يَجُرُّهُ إِلَيْهِ. قَالَ (هرون) : ابْنَ أُمَّ (أخي) إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[150]. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[151]. (أجاب الله:) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ[152]. وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[153]. وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا (ما كتب فيها) هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ[154]. وَاخْتَارَ مُوسَى (من) قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا (لم يعبدوا العجل) لِمِيقَاتِنَا (للموعد الذي حددناه ليعتذروا عن قومهم) فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الهزة القوية) قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ[155]، وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ، إِنَّا هُدْنَا (تبنا) إِلَيْكَ.

هـ- رحمتي سأكتبها للذين يتقون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ[156]، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ (ما ثقل عليهم) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ (ووقروه) وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[157]. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[158] .

و- وقطعناهم -بني إسرائيل- في الأرض أمما ...

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[159]، وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا (فئات، قبائل) أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا. قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى(23): كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[160]. وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (بيت المقدس) وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ (استسلمنا) وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ[161]. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ[162]. وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ (مدينة أيلة) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ (البحر الأحمر) إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ(24) إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ. كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[163]. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا، اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا. قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[164]. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[165]. فَلَمَّا عَتَوْا (تكبروا) عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[166]. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ (قرر) لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ. إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[167]. وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ،

23– الْمَنّ: نبات يؤكل كالحلوى. وفي التوراة انه يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلا، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزا ذا طعم خاص. والسلوى الطير السماني. قيل يسافر في مجموعات كبيرة من إفريقيا متجها شمالا.

24 – يعتدون على حرمة يوم السبت الذي حرم عليهم الكسب فيه، قيل: إن الواحد منهم كان يأخذ مساء الجمعة خيطا ويضع فيه وَهَقَة، ويلقيه في البحر بينما الطرف الآخر من الخيط مربوط إلى وتِد، ثم يتركه كذلك إلى يوم الأحد. وفشا هذا فيهم حتى كثُرَ صيد الحوت، فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت عن ذلك. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القِردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم تنهكمْ فتقول برأسها نعم. قالوا: صار الشبان قِردة والشيوخ خنازير (كما سيأتي بعد)، فما نجا إلا الذين نهوْا وهلك سائرهم.

وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[168]. فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ! (25) أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ : أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ؟ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[169]؟. وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ[170]، وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ (اقتلعناه رفعناه) فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ! خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[171] (26).

15– وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (قريش) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

وَإِذْ أَخَذَ (خلق) رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا! (وقد فعلنا ذلك كي لا تستطيعون) أَنْ تَقُولُوا (27) يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ[172]، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ: أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[173]. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ (على قريش) نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا (28) فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ (أدركه وأضله) فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ[175]. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا (بآياتنا) وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ (لم يكافح من أجل التبليغ) وَاتَّبَعَ هَوَاهُ! فَمَثَلُهُ

25- يأخذون الرشوة على الفتاوى الدينية يحكمون لكل راش بالحكم الذي يريد.

26- "واذكر يا محمد إذ اقتلعنا الجبل، فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلام، وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم من فرائضنا بقوة ، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان. واذكروا ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه" (الطبري)

27- ذهب المفسرون في هذه الآية مذاهب بعيدة في التأويل، ليجعلوها متلائمة مع الفكر في زمانهم، وذلك لا يستقيم اليوم. وأقرب تفسير إلى معهود العرب وإلى النص، ما ذكره الزمخشري، إذ اعتبر النص عبارة عن تمثيل قال : "إخراجهم من أصلابهم نسلاً (عاقلا) وإشهادهم على أنفسهم". أما قوله تعالى: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا" –فهو- من باب التمثيل والتخييل. ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك".

28- ذكر المفسرون عدة روايات في من نزلت فيه هذه الآية، ولعل أقربها إلى السياق ومعهود العرب الرواية التالية، قالوا: "نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو، فلما أرسل الله محمداً (ص) حسده، ثم مات كافراً. وكان له شعر يعبر فيه عن ما يشبه عقيدة الإسلام.

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ. ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (29). فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتفكرُونَ[176]. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كذبُوا بِآيَاتِنَا، وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ[177]. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ[178]. وَلَقَدْ ذَرَأْنَا (خلقنا) لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ! أُولَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ[179] (يسمون الأصنام آلهة ويدعون الله بأسمائها). وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ (ينحرفون) فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[180]. وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[181] (هم المؤمنون). وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (مشركو قريش) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[182]، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ[183]. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا؟! مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ (ليس مجنونا كما ادعوا)! إِنْ هُوَ (القرآن) إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (وما يحدث في الكون من موت وحياة على جميع المستويات)، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ! فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟[185]. مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[186] (يتحيرون). يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، ثَقُلَتْ (عظم شأنها) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً! يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا (مهتم بها وخائف مثلهم)! قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[187]. قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ (متى قيام الساعة) لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[188] (إذن لكي تتجروا من الخوف من يوم الحساب آمنوا واستكثروا العمل الصالح). هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (30) لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا،

29- الكلب يخرج لسانه ويتنفس بقوة سواء كان ذلك بعد التعب أو حين يجلس مرتاحا. وكذلك هذا الرجل بقي ملتصقا بالأرض لم يرتفع إلى المستوى الذي تدل عليه آيات الله والذي نطق بها شعره، ولكن دون قلبه، لأنه لو آمن بقلبه لما حسد النبي الذي جاء بمثل= =ما كان يبشر به. ومثل هذا الرجل "مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا"، والمقصود هنا : قريش. لقد كانوا يقدرون محمدا ويصفونه بالأمين الخ، ولكن عندما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام وشجب تسميتهم لها بـ "بنات الله"، أعرضوا عنه وحاربوه.

30- اعتمد معظم المفسرين على الإسرائيليات في تفسير قوله تعالى: "وجعل منها زوجها" فقالوا إن "الله خلق حواء من ضلع آدم"، وهذا مذكور في التوراة. ولكن ليس في القرآن ما يدل على أن الله خلق حواء من ضلع آدم. وما يفهم من الآيات التي تعرضت لهذا الموضوع هو أن الله خلق آدم من طين". على أن هذه الآية وسياقها لا علاقة لهما -في نظرنا- بقصة آدم وحواء. إن الخطاب هنا موجه إلى مشركي قريش، إلى كل فرد منهم. والمعنى : هو الذي خلقكم -خلق كلا منكم- من نفس واحدة، هو الرجل، أي من مني الزوج، وجعل من

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا (جامعها) حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ (لم تهتم)، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ (ثقل بطنها وأيقنت بالحمل) دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا : لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا (ولدا سويا) لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[189]. فَلَمَّا آتَاهُمَا (مولودا) صَالِحًا جَعَلَا لَهُ (أي لله) شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا[(31)] فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[190]. أَيُشْرِكُونَ (مع الله) مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا (كالأصنام) وَهُمْ يُخْلَقُونَ[191]، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ[192]؟ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ؛ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ[193]! إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[194]! أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ، فَلَا تُنْظِرُونِ[195] (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ (الكتاب) وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ[196]. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ[197]! وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ (الأصنام) يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[198].

16- خاتمة: اسلك سبيل اليسر ولا تفكر في الانتقام...

خُذِ الْعَفْوَ (اسلك سبيل اليسر) وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[199] .
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إذا استهوتك الرغبة في الانتقام) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[200]. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ (رغبة شيطانية) تَذَكَّرُوا (فكروا) فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[201] (للعواقب). وَإِخْوَانُهُمْ (إخوان المشركين) يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ[202] (لا يكفون) [(32)]. وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (اختلقتها)! قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي. هَذَا

تلك النفس، أي من ذلك المني زوجها باختلاطه مع ماء المرأة. وهذا ما يقتضيه العلم القديم الموروث عن أرسطو والذي انتشر بين الأطباء القدامى، فقد كانوا يرون أن النفس (وهي الصورة) هي من مني الرجل، أما ماء المرأة فهو مجرد مادة للتغذية. فالمرمر (أو الرخام) مادة وهي لا شكل لها، وعندما تلبسها صورة معينة صورة رجل أو صورة امرأة، تصبح تمثالا للرجل أو المرأة. وكذلك ماء المرأة فهو كالمرمر، في هذا المثال، فعندما تلابسه صورة الرجل يكون المولود ذكرا وعندما تلابسه صورة المرأة يكون أنثى. ويبقى من يعطي الصورة؟ في الأفلاطونية المحدثة قالوا يعطيها واهب الصور، (وهو العقل السماوي العاشر مدبر ما تحت فلك القمر، ويناسب جبريل في الاصطلاح الديني). وهذا قريب من قوله تعالى "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (من جبريل-التغابن 12).

31- يمكن أن يكون المعنى : سمياه باسم فيه شرك، مثل عبد العزى، عبد اللات الخ.

32- قال الفراء : "وقوله "وَإِخْوَانُهُمْ..." إخوان المشركين "يَمُدُّونَهُم" في الغيّ، فلا يتذكرون ولا ينتهون، فذلك قوله: (ثم لا يُقْصِرُونَ) يعنى المشركين وشياطينهم. (معاني القرآن ج1).

بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[203]. وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[204]. وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ[205]. إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (أي الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ[206].

- تعليق

السورة كلها رد على قريش على إثر ذهابهم إلى أبى طالب، هي امتداد لسورة "ص". والقصص فيها موظف مباشرة في هذا الغرض. حوار الأنبياء مع أقوامهم هو حوار الرسول محمد عليه السلام مع قريش.

ترتبط بداية سورة الأعراف مباشرة بكل من بداية ونهاية السورة التي قبلها (سورة ص). فمن جهة تستعيد في مقدمتها موقف قريش وعجبهم من أن يكون محمد بن عبد الله مبعوثا من الله إليهم، كما فعلت سورة "ص" في بدايتها، ومن جهة أخرى تربط موقف قريش ذلك، بموقف إبليس من آدم، الذي شرحته السورة السابقة في نهايتها. وبالجملة يمكن القول إن سورة الأعراف التي نزلت مباشرة بعد سورة "ص"، حسب ترتيب النزول، قد جاءت، لا لتكرر ما سبق أن ورد في هذه الأخيرة، بل لتعيد صياغته بشكل أكثر تنظيما وتفصيلا.

وهكذا تـ[illegible] السورة -كما رأينا أعلاه- بمخاطبة النبي عليه السلام مؤكدة أن القرآن الذي يوحى إليه هو كتاب من عند الله تعالى، فعليه أن لا يشعر بأي ضيق أو حرج في تبليغه لقومه، ينذر المكذبين، ويذكر المؤمنين، داعيا إلى عدم اتخاذ أولياء لهم من دون الله كما كان يفعل أقوام من قبل فكان مصيرهم الهلاك. ثم تعلن السورة عن أن مدار القول فيها هو قص أحوا[illegible] هؤلاء الذين اتخذوا لهم أولياء من دون الله فعبدوا الأصنام أو أشياء أخرى غير الله، وما جرى بينهم وبين رسلهم من حوار وجدل، حتى يتبين السامع بنفسه، ومن خلال استعمال ميزان عقله، الصواب من الخطأ، والهدى من الضلال.

وهكذا تنطلق هذه السورة من استعادة القصة التي خُتمت بها السورة السابقة (قصة إبليس/آدم) ولكن مع تفاصيل أوفى: لقد ابتدأ مسلسل وجود البشر، الذين مكن لهم الله في الأرض (والخطاب موجه إلى قريش)، بدأ من خلق الله آدم في السماء وأمره الملائكة بالسجود له تكريما، فسجدوا إلا إبليس. ولما سأله تعالى عما منعه من السجود احتج بتفوق أصله على أصل آدم: "خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ". فكان جواب الرب على هذا "الاستكبار" الذي يماثل استكبار الملأ من قريش، الذين تساءلوا كما رأينا في أوائل السورة السابقة، "أأنزل عليه الذكر من بيننا" وأهمل

كبراءنا وأشرافنا! كان الجواب أن الله أمر إبليس بالهبوط من السماء إلى الأرض، ليريه مكانه الحقيقي بين "الصاغرين"[33]. هنا طلب إبليس من الله أن لا ينفذ فيه وعيده وأن يُمهلهُ إلى يوم القيامة، فاستجاب الله لطلبه. وهنا قال إبليس: بما أن مُقامي في الجنة قد فسد بسبب هذا المخلوق الجديد (آدم) فإني سأتَجند لأنتقم منه، سأفسد مُقامه هو وذريته في الأرض. فأجابه تعالى: أخرج من الجنة مذموما، وسأملأ جهنم منك وممن اتبعك منهم. ثم خاطب الله آدم: "اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ" (الأعراف 19).

وهنا يبدأ الجزء من القصة الذي لم يرد في السورة السابقة: إبليس يغري آدم وزوجه بالأكل من شجرة، كان الله قد نهاهما عنها، فانساقا لإغرائه ودفع بهما الطمع إلى الأكل من تلك الشجرة وما أن فعلا حتى بدت لهما عوراتهما (والمقصود ضعفهما الذي يكشف عن أنهما خلقا من مادة (طين) وليس من نور (كباقي الملائكة)، وطفقا ينتزعان من أوراق الشجر ما به يستر كل منهما عورته (كناية عن سعي الإنسان لستر جوانب الضعف فيه). ولما رأى الله فعلتهما اتجه إليهما باللوم والعتاب وأمرهما بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ليعيشا وفق طبيعتهما "الترابية"[34].

من هذا العرض المركز عن قصة آدم مع إبليس تنطلق السورة، سورة الأعراف، التي نحن ضيوف عليها، إلى تفصيل القول في العبرة التي يجب استخلاصها منها، متجهة بالخطاب إلى ذرية آدم لتنبيههم إلى أن الشيطان (الشهوة) الذي أخرج أبويهما من الجنة بعد أن كشف عن عوراتهما (عن جانب الضعف البشري فيهما) مصرٌ على مواصلة مهمته التضليلية بين صفوف البشر، وأن الله جعل الشياطين "أولياء الذين لا يؤمنون" (والمقصود المباشر هم قريش) يضلونهم

---

33 – لم يرد اسم إبليس في التوراة بل ورد اسم الحية (أو التنين) فهي التي أغرت حواء، وحواء أغرت معها آدم، بالأكل من الشجرة المحرمة. أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس (والشيطان) على أنه هو الحية ذاتها. على أني لم أعثر في التوراة ولا في الأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس بدعوى أنه من "نار" (نور) وآدم من طين (تراب). ولعل ذكر القرآن لهذا الجانب إشارة إلى ما تدعيه قريش من تفوق على المستضعفين من أتباع النبي (ص)، وقد سمتهم "الأراذل" وطلبت من النبي أن يطردهم كشرط للاعتراف به والانضمام إليه.

34 – والجدير بالذكر هنا أن خطيئة الأكل من الشجرة هي –في القرآن– خطيئة آدم وليس خطيئة حواء، فالمسؤولية تقع على الرجل وليس على المرأة/الحية (كما في التوراة). ولذلك طلب الله التوبة من آدم وليس من حواء. فلما أعلن آدم توبته سقطت الخطيئة.

ويوجهونهم ويُملون عليهم أفكارا كاذبة يبررون بها ما يرتكبونه من ضلالات، ويتمسكون به من مبررات وحجج.

وتستمر السورة في بيان أوامر الله ونواهيه وما يترتب عنها من ثواب أو عقاب يوم القيامة، ثم تقدم مشهدا من مشاهد الحوار الذي يجري في الآخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ـ وهذا المشهد هو المقصود بقوله تعالى عن قريش "هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟"، أي هل ينتظرون حصول ما سيؤول إليه ما في هذا الكتاب من وعد ووعيد؟ وبعبارة أخرى: هل ينتظرون قيام القيامة ليروا بأعينهم ما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب؟ إنهم إن كانوا يريدون ذلك فليعلموا أنه: "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ (أمثالهم من الأمم الماضية) قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ وكان الجواب، كلا: "قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (الأعراف 51/53).

من هنا تنتقل بنا السورة مباشرة إلى عرض قصص هؤلاء الذي وقفوا من قبل مع رسلهم الموقف نفسه الذي وقفه كفار قريش مع رسولهم العربي محمد بن عبد الله.

وهكذا فبعد قصة آدم وإبليس تنتقل بنا سورة الأعراف إلى قصة نوح لتؤكد ما سبق. فمن السهل وضع اسم محمد مكان اسم نوح، وصرف كلمتي "أنجيناه" و"أغرقنا" من صيغة الماضي (المناسبة لنوح) إلى صيغة الحاضر والمستقبل (المناسبة لمحمد)، لتبقى الحقيقة المراد تقريرها هي هي.

أما الطريق الذي سلكته سورة الأعراف في الانتقال من آدم وإبليس إلى نوح فهو كما يلي: بعد الفراغ من قصة آدم/إبليس اتجهت السورة بالخطاب إلى بني آدم لتذكرهم بإرشاد الله آدم وحواء إلى "اللباس" الذي يستر عوراتهما، ولتنبههم إلى أن "لباس التقوى" خير، لأنه هو الذي يقيهم من أن يفتنهم الشيطان/الشهوة كما فتن أبويهما فأخرجهما من الجنة. ولما كان عرب "الجاهلية" قد اعتادوا أن يطوفوا حول الكعبة عراة "كما خلقهم الله" تضرعا إليه، وكأنهم يتبرؤون من فعلة آدم وحواء التي اضطرتهم إلى البحث عما يستر عوراتهما، فقد نبهتهم السورة إلى أنه لا ينبغي أن يتخذوا العري وسيلة للتضرع إلى الله، وأن عليهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأن يأكلوا ويشربوا دون إسراف.

ثم تخاطب السورة بني آدم منبهة إلى أن عليهم أن يتبعوا ما تأتي به إليهم رسلهم من الله، وتستطرد في وصف مصير المتقين ومصير الكافرين يوم القيامة مستعيدة حوار أهل الجنة وأهل النار، مذكرة قريش بأن الله قد بعث إليهم رسولا ومعه كتاب هو "هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ". ثم تذكرهم بأن الله خلق السماوات

والأرض ورتب نظام الكون وسخره لخدمة من في الأرض، ثم تذكرهم بأن الله كما يرسل الرياح حاملة سحبا ومطرا ينبت نباتا، بعضه طيب وبعضه خبيث، كذلك يرسل الرسل لتبليغ رسالاته إلى الناس فيكون منهم الطيبون الذين يستجيبون، والخبيثون الذين يكذبون ويعرضون، وبعد الممات يبعثون من قبورهم: الطيبون بسهولة، والخبيثون بمشقة، ثم يحاسبون...

ومن هنا تنتقل السورة إلى التذكير بقصص الرسل مع أقوامهم، مبتدئة بقصة نوح، بوصفه أول رسول جاء بعد آدم. يتعلق الأمر بنص قصير لا يحكي وقائع القصة كما سنتعرف عليها لاحقا، بل يقتصر على التركيز على حوار نوح مع قومه، وهو لا يختلف في شيء عن الحوار الذي ورد في آيات عديدة بين النبي محمد عليه السلام وقومه قريش[35]. وهذا ينسجم مع الغرض من القصص القرآني جملة، بوصفه وسيلة تذكير وبيان ودعوة لقريش لاستخلاص العبرة من تجارب "التاريخ"، تجارب الرسل السابقين مع أقوامهم، تماما مثلما تدعوهم إلى استخلاص العبرة من آثار وبقايا قرى الأمم السابقة، ومن انتظام الظواهر الكونية انتظاما يخدم الإنسان في نهاية المطاف. من هذا المنظور نكتشف وحدة السياق بين الآيات التي عرضت لقصة نوح والآيات السابقة لها والتي جاءت كمقدمة لها.

بعد عرض قصة آدم/إبليس وقصة نوح تعود بنا سورة الأعراف، إلى قصص "أهل القرى" مع أنبيائهم، لتفصل القول فيها، ثم لتعرج على قصص أنبياء آخرين قبل أن تنتقل إلى قصة موسى مع فرعون وقومه. يتعلق الأمر هذه المرة، ليس بقرية يعبد أهلها الأصنام، وإن كان نقد عبادة الأصنام سيستأنف في مرحلة من مراحل هذه القصة، بل يتعلق الأمر أساسا بطاغية نصب نفسه إلها يضطهد شعبه ويستعمل قسما منهم -هم بنو إسرائيل- في الأعمال الشاقة، وقد ذهب به الطغيان إلى أقصى مداه عندما قرر ذبح أطفالهم الذكور والإبقاء على الأمهات والبنات لتأمين الخدمة له ولملأه.. ومن أجل إنقاذ هذا الشعب بعث الله موسى إلى فرعون.

وعلى خلاف القصص السابقة حيث كان التعريف بالنبي يقتصر على نسبته إلى قومه كـ"أخ" لهم ("إلى هود أخاهم عاد"، "إلى مدين أخاهم شعيب" الخ) فإن حكاية حياة موسى تحتل حجما كبيرا في قصته مع فرعون -كما سنرى في سورة

---

35 - نشير في هذا الإطار إلى التشابه بين ما ورد أعلاه من تعجب قوم نوح من أن يكون الله قد أرسله إليهم وهو مجرد واحد منهم، وبين ما ورد قبل في مقدمة سورة "ص"، المتصلة مباشرة مع سورة الأعراف على صعيد ترتيب النزول، من تعجب قريش من أن يكون النبي محمد عليه السلام قد أرسله الله إليهم وهو واحد منهم: "وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (ص 63).

طه- هذا بينما يقتصر التعريف بفرعون موسى على إبراز طغيانه وادعائه الألوهية -دون ذكر اسمه ولا أي شيء يمكن أن يعرف به من بين الفراعنة الآخرين- مما يوحي بأنه يتخذ هنا رمزا للطغيان وبالتالي ليس المقصود فرعون بعينه، من بين الملوك الفراعنة، بل المقصود كل من هو في معناه. ويتأيد هذا بكون فرعون صاحب يوسف لم يطلق القرآن عليه اسم فرعون بل سماه "الملك" (انظر لاحقا سورة يوسف).

ومع أن قصة موسى قد عرضت في عشر سور من القرآن المكي[36]، مجال بحثنا، فإن العرض الوارد في سورة الأعراف، منطلقنا المرجعي، يشكل ما يمكن اعتباره الصيغة الرئيسية للقصة. وهذا لا يقلل من أهمية الصيغ التي وردت فيها القصة في باقي السور؛ ففضلا عن أن هذه الصيغ تورد عناصر جديدة تفصيلية فهي تطرح القصة في سياقات أخرى، كثير منها متشابه فعلا، على صعيد بداية السورة وخاتمتها، ولكنها تختلف قليلا أو كثيرا على صعيد أسلوب العرض كما على صعيد المضمون.

تبدأ سورة الأعراف في عرضها لقصة موسى بربطها بقصص أهل القرى المذكورة قبلها، الشيء الذي يعنى أنها تندرج في نفس الإطار الذي حددته هذه السورة في بدايتها للقصص القرآني. أما المراحل التي ركزت عليها هذه السورة من قصة موسى، فقد عرضناها في فقرات داخل النص. وقد أبرزنا في عناوينها ردود فعل "الشعب"، قوم موسى وقوم فرعون.

بعد ذلك تعود السورة إلى قريش، في خاتِمة مطولة، تتميز بهجوم لاذع على الأصنام، فيه تسفيه لعقول الذين يعبدونها ثم تتحداهم أنْ يستعينوا بها وينفذوا ما يتحدثون به من ضرورة التخلص من محمد، الرسول الذي هد كيانهم وأقض مضاجعهم: "قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي، فَلَا تُنظِرُونِي[195] (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (الأعراف 195-196).

36- ذكر اسم موسى في القرآن كله 131 مرة. أما قصته في القرآن المكي فقد عرضت في عشر سور: حكاية، أو مجرد إشارة. أما هذه القصة في القرآن المدني فسنعرض لها لاحقا.

40- سورة الجن

- تقديم

ذكر ابن إسحق أن نزول هذه السورة كان عند رجوع النبي عليه السلام من الطائف التي ذهب إليها يطلب العون والنصرة من أهلها ثقيف بعد أن أشتد عليه ضغط قريش عقب وفاة أبي طالب، وقد كان رد فعل ثقيف سيئا جدا إذ أغروا به صبيانهم وسفهاءهم الخ، فرجع في حال أسوء من تلك التي ذهب بها...

وبناء على ذلك يكون تاريخ نزول سورة الجن في السنة العاشرة للنبوة (قبل ثلاث سنوات من الهجرة). غير أن هذا لا يستقيم مع ترتيب النزول، ففضلا عن أن هذه السورة مرتبة في لوائح ترتيب النزول في رتبة 40 بعد سورة الأعراف فإن سورة حم "الأحقاف" التي فيها آيات صريحة تشير إلى سورة الجن (انظر هامش1 أدناه) [1]، والتي رقم ترتيبها 66 في لوائح ترتيب النزول، قد نزلت مع الحواميم أثناء الحصار، كما سنبين بعد، ومعلوم أن ذهاب النبي عليه السلام إلى الطائف يطلب النصرة كان بعد انحلال الحصار في السنة العاشرة، وبالتالي فآيات سورة الأحقاف (أعلاه) لا يمكن أن تتحدث عن واقعة من وقائع السيرة حدثت بعد نزولها.

لذلك نرجح الرتبة التي أعطيت لسورة الجن في لوائح ترتيب النزول. ومما يزكي هذا الترجيح لدينا كون الرتبة التي أعطيت لها (رقم 40) تجعلها تالية لسورة الأعراف؛ وكما سنرى فإن مضمونها وسياقها يزكيان هذه الرتبة. فالسورة تتحرك في امتدا أفق سورة الأعراف، كما سيتضح.

تشتمل السورة كما هو واضح على قسمين: قسم يحكي قصة استماع رجال من الجن للقرآن وما كان رد فعلهم: لقد أعجبوا بالقرآن فآمنوا فتخلوا عن الشرك وانفصلوا عن المشركين من الجن والإنس. لقد تبين لهم أن هؤلاء كانوا يكذبون على الله، وأن مشركي قريش كانوا يحتمون بأمثالهم من الجن، وأن الجن كانوا من قبل

1- هي قوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (الأحقاف 29- 31)

يسترقون السمع من السماء للحصول على "الغيب" وأنه حدث أن تغير الأمر فصاروا يطردون بشهب من نار. وعندما بحثوا عن سبب هذا التغير اكتشفوا أن رسولا جديدا قد بعثه الله إلى العالمين، هو محمد (ص)، وأن باب السماء قد أغلقت فلم يعد من الممكن لا التنجيم ولا الكهانة، وأنه لم يعد هناك من سبيل لتلقي المعرفة الغيبية من السماء غير الوحي الذي ينزل على هذا الرسول. هذا وقد ذكر المحدثون ورواة أسباب النزول خبرا عن ابن عباس يقول فيه: "ما قرأ رسول الله (ص) على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشيطان وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم ، فقالوا : ما هذا إلا لشيء قد حدث فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بـ"نخلة" وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : "يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا" ، فأنزل الله على نبيه "قل أوحي إلي" وإنما أوحي إليه قول الجن.

أما القسم الثاني من السورة فهو موجه إلى قريش بخطاب يدعوهم إلى استخلاص الدرس من إسلام الجن: ذلك أنه لو استقاموا وأسلموا لغَيَّر الله حالهم بإمدادهم بالمطر، وهم في أمس الحاجة. فإذا هم رغبوا في ذلك حقا فليتركوا المساجد لله وحده وليسحبوا أصنامهم ولا يكرروا ما فعلوه حين تراموا على النبي يريدون خنقه عندما رأوه يصلي أمام نواديهم في المسجد، لا لذنب اقترفه بل فقط لكونه رسولا من الله جاء يحذرهم من الشرك ويبين لهم مصيرهم عند قيام الساعة. يسألون النبي عن وقتها! والجواب أن أمرها عند الله وأنه لم يتلق من عنده أي شيء عنها.

- نص السورة:

1- جماعة من الجن تستمع للقرآن... وتُسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

"قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا[1] يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ؛ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا[2]. وَأَنَّهُ، تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا (تعالى مقام ربنا)، مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا[3]؛ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا[4] (كذبا وغلوا بادعائه أن له صاحبة وولد)، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا،[5] [2]. وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ (من كفار قريش) يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ (يقولون أعوذ وأحتمي بجن هذا المكان) فَزَادُوهُمْ رَهَقًا[6] (انحرافا وطغيانا)، وَأَنَّهُمْ (رجال من الجن) ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ (يا كفار قريش) أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا[7]، وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا (ملائكة) وَشُهُبًا[8] (نجوما محرقة)، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ (كنا نسترق السمع من السماء) فَمَنْ يَسْتَمِعْ الْآنَ (بعد إرسال محمد رسولا) يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا[9] (حارسة تمنع من استراق الوحي)، وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا[10] (هل سيؤمنون بالرسالة المحمدية أم سيكفرون بها). وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ : كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا[11] (فرقا مختلفة)، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ (إن أراد منا أمرا) وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا[12] (إذا هربنا إلى السماء)، وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى (القرآن) آمَنَّا بِهِ، فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا[13]، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (الجائرون) فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا[14]. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا[15].

2- خطاب لقريش : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا

وَأَلَّوْ (وقل أوحي إلي أن لو) اسْتَقَامُوا (مشركو قريش) عَلَى الطَّرِيقَةِ (الطريق المستقيم) لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[16] (كثيرا، بعد جفاف)، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (نختبرهم به). وَمَنْ يُعْرِضْ (منهم) عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ (القرآن) يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا[17] (شاقا)، وَأَنَّ (وقل أوحي إلي أن) الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ (المسجد الحرام) فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا[18] (غيره)، وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ (محمد) يَدْعُوهُ (يعبد الله) كَادُوا (مشركو قريش الجالسون في نواديهم بالمسجد الحرام) يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا[19] (بعضهم فوق بعض مزدحمين عليه ليمنعوه من الصلاة). قُلْ (يا محمد لمشركي قريش) إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا[20]. قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا[21]. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا[22] (ملجأ). (قل لا أملك) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ، (من هذا البلاغ): وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا[23]، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا[24] (هل هم أم المسلمون)؟ قُلْ إِنْ أَدْرِي

2- المعنى: صدقنا قول "سفيهنا" لأنا ظننا أنه لا أحد يخطر على باله أن يكذب على الله، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا.

(ما أدري) **أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا**[25]! **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**[26]، **إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**(3) **فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**[27] (يوحي بهذا الغيب إلى الرسول محروسا بالملائكة)، **لِيَعْلَمَ** (الله) **أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا** (يعني الرسل) **رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ** (من الوحي) **وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**[28] (كل شيء عنده محصي، بما في ذلك عمل الرسل وردود فعل أقوامهم).

- تعليق واستطراد : في الجن والشيطان

1- في اللغة:

ذكر الجن في القرآن لأول مرة حسب ترتيب النزول في آخر سورة الناس رقم 18، في قوله تعالى "الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس")، الشيء الذي يفهم منه أن "الوسواس" قد يأتي من الجن وقد يأتي من الإنس. وفي سورة الرحمان ورد الخطاب موجها إلى الإنس والجن. أما هنا في السورة المسماة باسم "الجن" فموضوعها "إسلام الجن". وقد حاك الرواة والمفسرون وكتاب السيرة والمؤلفون في "الأدب والأخبار" حكايات لا حصر لها عن الجن، كما أن بعضهم أكثر في الحديث عن الجن في القرآن وعن علاقته بالسيرة النبوية ومسيرة القرآن الخ، لذلك ارتأينا تخصيص هذا التعليق لهذا الموضوع، متوخين الانتقاء والاختصار.

- الجن، إبليس، الشيطان، ثلاثة ألفاظ يتعين تحديد معناها قبل الخوض فيما نحن بصدده.

أما لفظ "الجن" فنقرأ عنه في "مقاييس اللغة" لابن فارس : "جَنّ : الجيم والنون أصل واحد، وهو (السَّتْر و) التستر. فالجنّة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستورٌ عنهم اليومَ. وَالجَنَّة : البستان، لأنَّ الشجر بورَقه يَستُر. وناسٌ يقولون: الجنّة عند العرب النّخْل الطّوَال ... وَالجنين: الولد في بطن أُمّه، وَالجنين: المقبور. وَالجَنَان: القَلْب. وَالمِجَنُّ: الترسُ، وكلُّ ما استُتِر به من السِّلاح فهو جُنّة. ... وَالجِنَّة: الجنون، وذلك أنّه يغطِّي العقل. وَجَنَانُ الليل: سوادُه وسَتْرُه الأشياءَ ... . وَالمَجَنَّة الجنون. فأمّا الحيّة الذي يسمّى الجانّ فهو تشبية له بالواحد من الجانّ. وَالجنُّ: سُمُّوا بذلك لأنهم متستِّرون عن أعيُنِ الخَلْق، قال تعالى: "إِنَّهُ

3- علق الزمخشري على هذه الآية بقوله: "إنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات؛ لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل.

(إبليس) يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ" (الأعراف 27). ولا تكاد المعاجم الأخرى تخرج عن هذه المعاني.

أما لفظ "الشيطان" فنقرأ عنه في لسان العرب لابن منظور ما يلي : "والشيطان: حَيَّةٌ لـه عُرْفٌ. والشَّاطِنُ: الخبيث... والشيطان: معروف، وكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان ... وتَشَيْطَنَ الرجل وشَيْطَن إذا صار كالشَّيْطان وفَعَلَ فِعْلَه ... وفي التنزيل العزيز: "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ" (الشعراء 210). وقوله تعالى: "طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ" (الصافات 65) ... والشيء إذا استُقْبِحَ شُبِّه بالشياطين. والشيطان لا يُرى، ولكنه يُسْتَشْعَر أنه أقبَحَ ما يكون من الأشياء، ولو رُؤِيَ لَرُؤِيَ في أقبح صورة ... بالغوا في تَمثيل ما يستقبح من المذكر بالشيطان وفيما يُسْتَقْبَح من المؤنث بالتشبيه له بالغول. وقيل: كأنه رؤوس الشياطين كأنه رؤوس حَيَّات، فإن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً، وقيل: هو حية له عُرْفٌ قبيح المَنْظَر.

هذا الفائض من الكلام حول معنى "الشيطان" والاختلاف بين اللغويين في تحديد أصله الاشتقاقي في اللغة العربية يدل على ضعف علاقة هذا اللفظ باللغة العربية. الشيء الذي يحمل على الاعتقاد بأن هذا اللفظ يجد أصله في لفظ Tzatanâ الذي يعني بالآرامية ما يعنيه لفظ الشيطان بالعربية. ويعتبر هذا اللفظ من قاموس الديانة الإبراهيمية إذ نجد له مقابلا بالعبرانية يعبر عن كائن استقاه اليهود من اللغة الكلدانية عندما كانوا مسبيين في بابل، ليدل على محامي الاتهام في المحكمة، فهو عدو. أما في المسيحية فقد تم التعبير عن هذا العدو في إنجيل متى (4-10) بلفظ satanas ، الذي صار علما على "الشيطان"، وأعطي له اسم ملائكي هو صمويل Samaël (ملاك الموت والدمار)[4].

أما لفظ "إبليس" فقد ورد عنه في لسان العرب: "أَبْلَسَ الرجلُ: قُطِعَ به. وأَبْلَس: سكت. وأَبْلَسَ من رحمة الله أَي يَئِسَ ونَدِمَ، ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل. وفي التنزيل العزيز : "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ (يندم) الْمُجْرِمُونَ" (الروم 12). وفي "مجاز القرآن" لأبي عبيدة أن لفظ "إبليس" ممنوع من الصرف لأنه أعجمي، وبذلك قال لغويون آخرون. وإذا صح أن هذا اللفظ أعجمي فقد يصح القول إن له علاقة باللفظ اليوناني Diabolos الذي يعني: الشيطان.

4- أسماء الملائكة في التوراة مثل صموائيل ورفائيل ومكائيل وجبريل وغيرها، هي من "الآلهة الصغرى" الكلدانية، وكانوا يعتبرونها جسمانية لها أرواح ومقرها السماء، ولكنها لا ترى من الأرض، وهي تمشي على الأرض بإذن الإله ألوهيم. وربما كان هذا من أصول عبادة الأصنام في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وسنفصل القول في موضوع الأصنام لاحقا.

والمفسرون للقرآن يعتبرون الجن جنسا، ويُميزون فيهم بين الأخيار والأشرار. "واختلفوا في الجن والشياطين فقيل: الشياطين جنس والجن جنس آخر، كما الناس جنس والأفراس جنس، وقيل: الجن منهم أخيار ومنهم أشرار، والشياطين اسم لأشرار الجن".

2- أخبار الجن في المؤلفات العربية

هذا على المستوى اللغوي. أما على مستوى المروث الثقافي العربي فلا نَحتاج هنا إلى عرض مفصل للتصورات التي بناها العرب لأنفسهم أو استقوها عن غيرهم من الأمم حول الجن. فالثقافة الشعبية العربية ما زالت محملة بما يسميه القدماء في مؤلفتهم بـ "أخبار الجن"، وهي مؤلفات عديدة بعضها خاص بهذا الموضوع وبعضها يضم أبوابا وفصولا تتحدث عنه. من هذه المؤلفات على سبيل المثال، لا الحصر: كتاب "أخبار الجن وأشعارهم" لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة 204 هـ) الذي تروى عنه كثير من مظاهر حياة العرب قبل الإسلام. ومنها كتاب "آكام المرجان في أحكام الجان" للقاضي بدر الدين: محمد بن عبد الله الشبلي (الحنفي 769 هـ)، رتبه على مائة وأربعين بابا في أخبار الجن وأحوالهم... ومن كتب "الأخبار" التي أفردت بابا في أخبار الجن كتاب أبي هلال لقيط بن بكير المحاربي كان من رواة الكوفة، وهو من المؤلفين الأوائل إذ توفي سنة 190هـ. وإضافة إلى هذه المؤلفات والنصوص ذات الطابع "الأدبي" هناك نصوص كثيرة كتبت كتقديمات أو كحواش وتعليقات حول ما ذكر عن الجن في القرآن أو في الحديث (وهو شيء كثير) سنأتي على ذكر بعضه في حينه.

لقد بقيت هذه المؤلفات تحكي عبر القرون موروثا شعبيا حول الجن (والشياطين وإبليس) يعبر بصيغ شتى عن التداخل الكبير بين حياة البشر وحياة الجن. ومع أن كثيرا من الناس، المثقفين منهم وغير المثقفين، يشكون في مصداقية ما يقال في هذا الصدد فإن الجميع يستلذ السماع لـ"حديث "الجن"، وحديث "الجنيّ والجنية" إما لما يشتمل عليه من مُلَح وغرائب أو للاعتقاد في ذلك نوعا من الاعتقاد... ومن الشائع في الموروث الشعبي العربي -وغيره- أن الجن يتقاسمون الحياة على الأرض مع الإنسان، فهم يسكنون مع الناس ويعملون في المهن كما يعمل الناس، ولكنهم يتميزون عنهم بخصائص: منها أنهم لا يُرون إلا نادرا وفي الغالب على "صورة" حيوان أو إنسان أو حشرات. ومنها أن لهم القدرة على النفاذ في جسم الإنسان فيوجهونه ويساعدونه أو يخنقونه أو يحدثون ضررا في عضو من أعضائه، ومنها أن للرجل جنية وللمرأة جني، وليس العكس.

والاعتقاد في وجود الجن اعتقاد قديم متأصل في الشعوب السامية خاصة وفي غيرها من الشعوب عامة. وهو حديث حاضر في التوراة والأناجيل، كما هو حاضر في القرآن. وما يهمنا هنا، ونحن نتحدث عن خطاب العقيدة في القرآن، هو بيان حقيقة مضمون الجن والشياطين في هذا الخطاب وفي هذا السورة بالذات.

3- في القرآن...

ورد لفظ إبليس في القرآن 11 مرة، تسع منها مكررة في قصة عصيانه أمر الله بامتناعه عن السجود لآدم. وبذلك يكون قد ذكر خارج هذه القصة مرتين فقط، مرة في قوله تعالى عن قوم نبي الله إبراهيم: "فَكُبْكِبُوا (جمعوا) فِيهَا (في جهنم) هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ" (الشعراء 94-95)، وقوله: "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ (على أهل سبأ) إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (سبأ 20). وباستثناء الحالة الأولى، حالة التمرد والعصيان في قصته مع آدم، فقد بقي مفهوم إبليس في الحالات الأخرى تعبيرا عن تنفيذه لما تعهد به أمام الله في تلك القصة من أنه سيصرف كل جهده لغواية آدم وذريته وتضليلهم وصرفهم عن طاعة الله ودفعهم إلى عصيانه مثلما عصاه هو نفسه. وفي ذلك الحوار الذي جرى بين الله وبينه في ثنايا تلك القصة توعده الله، بأن يَملأ جهنم، عندما تقوم القيامة، منه ومن جنوده وضحاياه من الإنس والجن. وكان أول ضحاياه آدم وزوجته حواء، فقد نجح في إغرائهما بالأكل من شجرة في الجنة كان الله قد نهاهما عن الأكل منها وأباح لهما كل ما عداها. لقد أغراهما إبليس بالأكل من تلك الشجرة: "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ" (الأعراف 20).

ومنذ تلك الواقعة صار اسم الشيطان، في الخطاب القرآني، مرادفا لاسم إبليس. لقد ورد ذكره 63 مرة مفردا و17 مرة جمعا (شياطين). وإذا جمعنا حصة إبليس إلى حصة الشيطان، وهما بمعنى واحد، كان المجموع 64 مرة بينما لم يرد لفظ الجن في القرآن سوى 19 مرة. ويتضح من هذه الأرقام أهمية الدور الذي يعطيه الخطاب القرآني لمفهوم "الشيطان" بوصفه العدو المبين للإنسان.

ولعل أهم ما يفترق به خطاب الجن عن خطاب الشيطان، في القرآن، هو أن هذا الأخير يقدَّم في كل حالة كعدو للإنسان، يوسوس له ويسعى لتضليله، بينما يقدم الجن والإنس كصنفين من مخلوقات الله، في كل منهما شياطين : "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا، شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا" (الأنعام 112)، وكثيرا ما يتجه الخطاب إليهما معا، خصوصا خطاب اللوم والعتاب في

الآخرة، وفي جهنم بالتخصيص. من ذلك قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ" (الأنعام 130).

هذا في الآخرة، أما في الدنيا فخطاب الجن، مقرونا بالإنس أو منفردا، يكتسي في الغالب نوعا من التحدي. من ذلك قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمان 33-35). والمقصود في هذه الآية ومثيلاتها نفي ما كان يعتقده العرب وغيرهم في الكهان والمنجمين من أنهم يطلعون على شيء من الغيب بواسطة ما يسرقه الشياطين من حديث الملائكة في السماء. ذلك أن الله خلق السماء محروسة فكلما حاول شيطان استراق السمع إلا ورُمي بأجسام نارية هي الشهب. وجاء هذا النفي بطريقة تبين إحكام نظام السماء وأن خلق السماوات والأرض بهذا النظام أكثر تعقيدا ودقة من خلق آدم من تراب.

الخطاب هنا موجه إلى خصوم الدعوة المحمدية من الإنس والجن. ويستهجن القرآن اعتقادات فريق من المشركين : "جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ، و(قد) خَلَقَهُمْ، وَخَرَقُوا (افتعلوا له) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (الأنعام 100). "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ (الله) وبينَ الجِنَّةِ نَسَباً" (الصافات 159)، ومما ورد في خطاب الجن، في سياق التحدي لقريش، قوله تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (الإسراء 88).[5]

4- مرويات حول الجن لها علاقة بالقرآن.

لقد كان من الطبيعي أن تنشط مخيلة رواة الأخبار للتوسع في إنتاج مادة غزيرة في موضوع الجن وعلاقته بالإسلام، مما قد يتفق من قريب أو بعيد، أوقد لا يتفق، مع ما تحتمله الآيات التي تتحدث عن الجن في القرآن. إن موضوع الجن هو من أكثر الموضوعات إثارة للاهتمام في المعهود العربي كما في معظم الثقافات، إن لم يكن في جميعها. وبالتالي فكل ما ينتمي إلى هذا

5- انظر كتتمة لهذا ما كتبناه حول وجود الجن ووسواس الشيطان في التعليق الذي كتبناه في سورة الناس 18.

الموضوع، ويمكن توظيفه في خدمة الإسلام، بصورة من الصور، داخل ذلك المعهود يمكن، ليس فقط التغاضي عنه بل أيضا الترحيب به، من طرف العقل الساهر على حماية الدين والعمل على انتشاره من دعاة وفقهاء، ما دام لا يحرم حلالا ولا يحلل حراما.

وبما أن الأمر يتعلق بمجال القص والرواية والتخييل فإن اختلاق مرويات فيه، وهو ما يسمى بـ "الوضع" في الحديث أو غيره، سيكون عملا إبداعيا يخلد اسم صاحبه، على مستوى الثقافة الشفوية كما على مستوى الروايات المكتوبة. أما مصداقية المرويات في هذا المجال فهي لا تلتمس -لا من طرف "الوُضَّاع" والرواة" ولا من جانب "المستهلكين"، ولا في وجود ما يشهد لها بالصحة بنوع من التأويل لآيات الذكر الحكيم، كلا. إن المصداقية هنا تلتمس في "المرجعية"، أي في الشخص الذي ينتهي إليه الإسناد وتقف عنده العنعنة. ومن هنا كثرة ما يروى عن شخصيات جعلتها الشهرة "كعبة" مفتوحة يعلق عليها كل راوٍ معلقاته الروائية الصحيحة وشبه الصحيحة والموضوعة.

من ذلك ما روي عن قتادة (أحد المرجعيات الرئيسة في التفسير السني للقرآن) في الموضوع نفسه من أنه قال في قوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ" (انظر الهامش رقم 1 أعلاه) ، قال: ذُكِر لنا أنهم صُرِفُوا إليه من نِينَوَى. قال: فإن نبيّ الله (ص) قال [لأصحابه]: "إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجنّ، فأيكم يتبعني"؟ فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فقال رجل: يا رسول الله إنك لذو بدئه، فاتبعه عبد الله بن مسعود، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلّم شِعبا يقال له شعب الحجون. قال: وخطّ نبيّ الله (ص) على عبد الله خطا ليثبّته به، قال [عبد الله]: فجعلت [الأرض] تهوي بي وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبيّ الله صلى الله عليه وسلّم. ثم تلا القرآن. فلما رجع نبيّ الله قلت: يا نبيّ الله ما اللغط الذي سمعت؟ قال: "اجتمعوا إليّ في قتيل كان بينهم، فقضي بينهم بالحقّ". وذُكر لنا أن ابن مسعود لما قَدِم الكوفة رأى شيوخا شمطا من الزُّط (من سود الهند)، فراعوه، قال: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء نفر من الأعاجم، قال: ما رأيت للذين قرأ عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم الإسلام من الجنّ شبها أدنى من هؤلاء.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس حول "تاريخ الجن" من أنه قال: "كان إبليس من حيّ (قبيلة) من أحياء الملائكة، يقال لهم "الجنّ"، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة. قال: فكان اسمه الحارث. قال: وكان خازنا من خزان الجنة. قال: وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحيّ. قال: وخلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت". وروي عنه أيضا في الموضوع نفسه أنه قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمون جنًا". كما روي عنه أنه قال: "أوّل من سكن الأرض الجنّ ، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال الله: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً". فعلى هذا القول إني جاعل في الأرض خليفة من الجنّ يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها. وفي رواية أخرى، قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض (عن الطبري وغيره).

وفي "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين، أحمد النويري، نقرأ صيغة أخرى للقصة المذكورة عن ابن مسعود رواها الشعبيّ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ منكم أحدٌ ؟ فقال: ما صحبه منّا أحدٌ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشرّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلما كان في وجه الصبّح أو قال في السّحر، إذا نحن به يجئ من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا الذي كانوا فيه، فقال: "إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم "قال: فانطلق فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم (موقدهم)، قال: وقال الشعبي فسألوه الزّاد، وكانوا من جن الجزيرة، فقال (ص): "كل عظمٍ ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحماً، وكل بعرةٍ أو روثةٍ علفٌ لدوابكم - قال- فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن" (رواه مسلم في صحيحه). وكان فيما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم : "الرحمن. علم القرآن" السورة؛ ويدل على ذلك ما رواه محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم "الرحمن" على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "لَلْجِنُّ كانوا أحسن جواباً منكم: لما قرأت عليهم "فبأيِ آلاء ربكما تكذبان"؟ قالوا: لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب". وروى عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أن نفراً من الجن خمسة عشر بني أخوةٍ وبني عمٍ يأتونني الليلة فأقرأ عليهم القرآن". وقيل: كانوا أكثر من هذا".

ومن ذلك ما روى في موضوع تبشير الجن بقرب مبعث النبي عليه السلام، كما بشرت به أحبار اليهود ورهبان النصارى (كما بينا ذلك في التعريف بالقرآن)(. قيل: "أول خبر قدم المدينة عن قرب مبعث النبي عليه السلام، أن امرأة من أهل يثرب تدعى فاطمة، كان لها تابع من الجن (يمارس الزنا معها) فجاءها يوماً فوقع على جدارها، فقالت: مالك لا تدخل؟ فقال: إنه قد بعث نبي يحرم الزنا، فحدَّثت بذلك المرأة عن تابعها من الجن". وقيل إن فلانا روى ما يلي، قال: : "سرت إلى الشام فأدركني الليل، فأتيت وادياً فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة (كانْ الوادي مسكنا للجن)، فلما أخذت مضجعي إذ قائلٌ لا أراه يقول: عذ بالله الأحد، فإن الجن لا تجير على الله أحدا، وأنه قد بعث رسول الأميين، وصلينا خلفه بالحجون، وأسلمنا واتبعناه، وآمنا به وصدقناه، فأسلم تسلم".

5- "الكلام" في الجن

تلك نماذج من حكايات الجن لها علاقة بالقرآن، وغني عن البيان القول إنها من جنس الإسرائيليات التي غصت بها كتب كثير من المفسرين. والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح بصدد هذه المرويات سيكون غير ذي معنى إذا هو انطلق من إشكاليات الفكر العلمي أو الفلسفي، المعاصر لنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين! إن محاكمة فكر القرون الوسطى هذا النوع من المحاكمة غير جائز. لكن السؤال الذي يطرح نفسه والذي له معنى، سواء بالنسبة للذين ابتدعوا أو رووا تلك الأخبار أو بالنسبة لمن يؤرخ لها نوعا من التأريخ هو التالي: كيف تعامل الخطاب العالم مع مضمون تلك الروايات والأخبار؟ وبعبارة أخرى كيف كان هذا الخطاب يحاول عقلنة مسألة الجن، ووسوسة الشيطان؟ وأعني بـ "العقلنة هنا" إدراجها في النسيج العام الذي يقيمه العقل حول الظواهر الكونية قصد فهمها وربما السيطرة عليها.

يعطينا الفخر الرازي ملخصا جيدا لآراء المفكرين إلى زمانه حول مسألة الجن نورد منه ما يلي:

قال في مستهل تفسيره لسورة الجن: "اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجن ونفيه، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء "الجن حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة"، ثم قال: "وهذا شرح للاسم". فقوله: وهذا شرح للاسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج. وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن. واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونها بالأرواح السفلية، وزعموا أن الأرواح السفلية أسرع إجابة إلا أنها أضعف، وأما الأرواح الفلكية فهي أبطأ إجابة إلا أنها أقوى".

"واختلف المثبتون (للجن) على قولين: فمنهم من زعم أنها ليست أجساماً ولا حالّةً في الأجسام بل هي جواهر قائمة بأنفسها. قالوا: ولا يلزم من هذا أن يقال: إنها تكون مساوية لذات الله لأن كونها ليست أجساماً ولا جسمانية سلوب[6]، والمشاركة في السلوب لا تقتضي المساواة في الماهية. قالوا: ثم إن هذه الذوات بعد اشتراكها في هذا السلب أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحل، فبعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها كريمة مُحبة للخيرات، وبعضها خسيسة مُحبة للشرور والآفات، ولا يعرف عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله.

"قالوا: وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخَبَريات قادرة على الأفعال، فهذه الأرواح يمكنها أن تسمع وتبصر وتعلم الأحوال الخبرية وتفعل الأفعال المخصوصة. ولما ذكرنا أن ماهياتها مختلفة، لا جرم لم يبعد أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر، ولا يبعد أيضاً أن يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم، وكما أنه دلت الدلائل الطبية على أن المتعلق الأول للنفس الناطقة التي ليس الإنسان إلا هي، هي الأرواح، وهي أجسام بخارية لطيفة تتولد من ألطف أجزاء الدم وتتكون في الجانب الأيسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس

6- أي مجرد نفي، تنفي عن الجن الجسمية.

بهذه الأرواح تصير متعلقة بالأعضاء التي تسري فيها هذه الأرواح، لم يبعد أيضاً أن يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من أجزاء الهواء، فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الأول لذلك الروح، ثم بواسطة سيران ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يحصل لتلك الأرواح تعلق وتصرف في تلك الأجسام الكثيفة (ذلك حسب التشريح والطب القديمين منذ اليونان، ولا علاقة لهما بالعلم الحديث).

ويضيف الرازي: "ومن الناس من ذكر في الجن طريقة أخرى فقال: هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية، فإذا اتفق أن حدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن، فسبب تلك المشاكلة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما بهذا البدن، وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن، فإن الجنسية علة الضم، فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة".

والقول الثاني في الجن أنهم أجسام، ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين، منهم من زعم أن الأجسام مختلفة في ماهياتها، إنما المشترك بينها صفة واحدة، وهي كونها بأسرها حاصلة في الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق، وهذه كلها إشارة إلى الصفات. والاشتراك في الصفات لا يقتضي الاشتراك في تمام الماهية لما ثبت أن الأشياء المختلفة في تمام الماهية لا يمتنع اشتراكها في لازم واحد. قالوا: وليس لأحد أن يحتج على تماثل الأجسام بأن يقال: الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد، وحقيقة واحدة، فيلزم أن لا يحصل التفاوت في ماهية الجسم من حيث هو جسم، بل إن حصل التفاوت حصل في مفهوم زائد على ذلك، وأيضاً فلأنه يمكننا تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف، والعلوي والسفلي، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، فالأقسام كلها مشتركة في الجسمية والتفاوت، إنما يحصل بهذه الصفات، وهي اللطافة والكثافة، وكونها علوية وسفلية، قالوا: وهاتان الحجتان ضعيفتان"...

40- سورة يس

- تقديـــم

لم يرد في "سبب نزولها" شيء يستحق الذكر، وما ذكروا من أن قوله تعـالى في هذه السورة "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" قد نزل في عائلة من الأنصار أرادت تغيير مـسكنها والاقتـراب مـن المسجد وأنهم استشاروا النبي في ذلك، وأنه عليه السلام رد عليهم بتلك الآية، أقول: هذا مردود، لأن السورة مكية والعائلة المشار إليها كانت من الأنصار تسكن المدينة. إذن كل ما يمكن أن يقال، إذا صحت تلك الرواية، هو أن النبي عليه السلام سـيكون قد قرأ عليهم الآية، وكانت قد نزلت من قبل في مكة، لا أنها نزلت حين قرأها.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة: حق القول على أكثرهم..أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

يس[1] (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ[2] (قَسَم) إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ[3] (جوابه) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[4]. (هذا القرآن) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ (القوي) الرَّحِيمِ[5]، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ(2)، فَهُمْ غَافِلُونَ[6]. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[7]. إِنَّا جَعَلْنَا

---

1 - أقوال عديدة في معنى لفظ "يس"، والأشهر أنه (ياء، سين)، مثل طاء هـ، حا ميم الخ.

2- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية فمنهم من جعل "ما" بمعنى "مثل" وبالتالي يكون معنى الآية "لتنذر قوما مثل الذين أنذر آباؤهم"، على معنى أنهم جاءتهم رسل من قبل. ومنهم من جعل "ما" زائدة تفيد النفي، وبالتالي يكون المعنى عكس السابق أي: ما جاءهم قبلك نذير. ونحن نرى أن معناها واضح، وهو أن العرب أمة أمية لم يسبق أن جاءهم نذير ولا كتاب، "ما أنذر آباؤهم من قبلٍ". وهذا مصداقا لقوله تعالى : " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (الجمعة. 2)

فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ[8] (لا يستطيعون تحريك رؤوسهم)[(3)]، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا (مضغوط عليهم لا يستطيعون حراكا: مسجونون في قالب الكفر) فَأَغْشَيْنَاهُمْ (وكان ذاك غشاوة وغطاء على أبصارهم) فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[9]، (والنتيجة) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[10]. إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ (ما يدعو إليه القرآن) وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ (بالعبرة والدليل) [(4)] فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ[11]. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ[12] (اللوح المحفوظ، وعلى أساسه يكون الثواب والعقاب).

2- أصحاب القرية : كذبوا المرسلين فهلكوا بالصيحة

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ [(5)] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ[13] (رسل عيسى إليهم)، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ[14]، قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ[15]. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ[16]، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[17]. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا (تشاءمنا) بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ[18]. قَالُوا (الرسل) طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (شؤمكم هو الكفر). أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ (إن خاطبناكم بالبرهان ترجموننا مع ذلك)؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ[19] (في الشرك والعناد)! وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا (هؤلاء) الْمُرْسَلِينَ[20]، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ[21]. وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[22]، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِي[23]، إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[24]. (قال الرجل للرسل) : إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِي[25]. قِيلَ (سيقال له يوم القيامة) ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ (وسيجيب): يَا لَيْتَ

3- يقال أقمح الدابة وأكمحها: إذا جذب -راكبه- لجامها عنده لترفع رأسها.

4- أي من آمن به عن طرق الاستدلال بالشاهد على الغائب، الاستدلال بنظام العالم على وجود صانع حكيم له الخ. أما من اشترط العيان، أي روية الله أو رؤية قيام القيامة، حتى يؤمن به، فهو في الكفر مسجون.

5- يجمع المفسرون على أن المقصود بهذه القرية هي "أنطاكية" بشمال سورية. وقد أشار كثير منهم إلى أن الأمر يتعلق برسولين بعثهما المسيح عليه السلام لنشر الدعوة فيها ثم عززهما بثالث. انظر تفاصيل أوفى في التعريف بالقرآن. القصص في القرآن الكريم. المرحلة الثانية فقرة 3-هـ

قَوْمِي يَعْلَمُونَ[26]، بِمَا غَفَرَ لِي (بغفران) رَبِّي وَجَعَلَنِي (وجعله إياي) مِنْ الْمُكْرَمِينَ[27]. وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ (ملائكة لإهلاكهم إذ استمروا على عبادة الأصنام) وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ[28] (محتاجين على ذلك). إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ[29]. يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[30].

3- آيات وأدلة لم يعتبروا بها... لقد بقوا معرضين.

أَلَمْ يَرَوْا (ألم تعتبر قريش) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ (الأمم) أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ[31]، وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا (إلا و) جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ[32]. (وإحياء الموتى من البشر مثل إحياء الأرض الميتة) : وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ[33] ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ[34]، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[35]. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ[36]. وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ[37]. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[38]، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ (في أول الشهر رقيقا كالعود) الْقَدِيمِ[39] (كما كان عند بداية ظهوره)! لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[40]. وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[41]، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ[42]، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ[43]، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ[44]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا (على سبيل الاحتياط إن لم يكن على سبيل اليقين) مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (من أمر محمد) وَمَا خَلْفَكُمْ (يوم الحساب) لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[45] (6). وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[46]، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[47]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[48]. مَا يَنظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[49] (يختصمون)، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ[50].

6- جواب "إذا قيل لهم" يدل عليه السياق وهو : كانوا معرضين.

4- قيام الساعة، ونعيم الجنة وعذاب النار

وَنُفِخَ (عندما ينفخ) فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ (القبور) إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[51] (يخرجون). قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا! (الجواب) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ[52]. إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ[53]. فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[54]. إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ[55]، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ[56]، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ[57] (يتمنون)، سَلَامٌ قَوْلًا (جاءهم) مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ[58]، وَامْتَازُوا (انعزلوا وانفردوا) الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ[59]. أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[60]، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[61]، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا (خلقا) كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ[62]، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ[63]، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[64]. الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[65]. وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ (مشوا في الطريق) فَأَنَّى يُبْصِرُونَ[66]؟ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (في مكانهم) فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ[67]، وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ (نضعفه) فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ[68].

5- خلقنا كل ما هو ضروري في حياتهم فاتخذوا الأصنام آلهة!

(وهذا القرآن ليس شعرا كما تقولون) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (ما علمنا محمدا...) وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ[69]، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا (حي العقل والبصيرة، مؤمنا) وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ[70]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (الإبل) فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ[71]، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ[72]، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[73]. وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ[74]، (هؤلاء الآلهة) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ (حتى) وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ[75]. فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ[76].

6- خاتمة: خلقنا الإنسان من نطفة، ويتساءل من يحيي العظام؟!

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ[77]! وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ: مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[78]؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[79]: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ[80]. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ؟ بَلَى، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ[81](7). إِنَّمَا أَمْرُهُ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ. فَيَكُونُ[82]! فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[83].

- تعليق

تناولت هذه السورة القضايا الرئيسية التي في القرآن المكي عموما : النبوة، التوحيد والبعث مع التعرض للأصنام. والمسألة التي وقف عندها المفسرون هي مضمون الآيات 7، 8، 9، 10 حيث يقول تعالى: "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُون، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ". وظاهر هذا الآيات يفيد أن الله أراد لقريش الكفر، وأنهم لن يؤمنوا، سواء دعاهم الرسول إلى الإسلام أم لم يدعهم، الشيء الذي ينفي عن الإنسان حرية الاختيار. وكان طبيعيا أن يختلف تأويل المعتزلة الذين بنوا مذهبهم على ما عبروا عنه بـ"خلق الأفعال"ـ بمعنى أن الله منح للإنسان حرية الاختيار وخلق فيه القدرة على الفعل، وبالتالي فالإنسان يتحمل مسؤولية أفعاله، والله ينفذ فيه وعده ووعيده. أما أهل السنة والأشاعرة فعارضوا هذا الفهم وقالوا : الله وحده الحر المختار، يفعل ما يشاء "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (الأنبياء 23)، والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف "يُسأل" الناس عن أفعالهم إذا لم يكونوا أحرارا مختارين. وقد حاول الأشعري الهروب من هذا السؤال بالقول إن الإنسان "يكتسب أفعاله" ومن هنا فكرة "الكسب" عند الأشعرية التي وصفت بالغموض الشديد حتى ضرب بها المثل فقيل: "أخفى من كسب الأشعرية". وتندرج هذه القضية في ما يعبر عنه في علم الكلام بـ"المشيئة" وسنخصها بقول لاحقا.

وبناء على هذا الاختلاف في أصول المذهب بين الفريقين قال الزمشخري في شرح الآيات أعلاه، من وجهة نظر المعتزلة: إن المقصود بـ"القول" في الآية رقم 7 ("لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فهم لا يؤمنون") هو قوله تعالى: "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (السجدة 13)، مضيفا: لقد تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم مصممون على الكفر، وبالتالي يموتون وقد اختاروا الكفر على الإيمان، بعد أن بين الله لهم طريق الجنة وطريق النار، فمن اختار منهم طريق النار حق عليهم قوله

7- قيل: جاء رجل إلى الرسول بعظم حائل ففتته بين يديه وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعد ما أرِم؟ قال: نعم يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت هذه الآيات".

"لأملأن جهنم... " الآية. أما القرطبي فهو يشرح الآية من وجهة نظر أهل السنة كما يلي، قوله تعالى: "لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ علـى أكْثَرِهِمْ فَهمْ لا يُؤْمِنُونَ" معناه: "لقـد وجـب العقاب علـى أكثرهم، لأن الله قد حتّـم علـيهم فـي أمّ الكتـاب أنهـم لا يؤمنـون بـالله، ولا يصدّقون رسوله! وقد حاول مفكرو الأشاعرة التخفيف من هذه الجبريـة القاسية بالتماس "فهم" وسط، عبر عنه الرازي في تفسيره كما يلـي ملخـصا: لقـد استمع أكثر مشركي قريش إلى الأدلة والبيانات التي تثبت صحة ما جاء به محمـد= من التوحيد والبعث الخ، ومع ذلك فهم لا يرجى منهم أن يؤمنـوا الآن أو غـدا، لأن الإنسان عندما يستمع إلى أدلة التوحيد يتوقف برهة من الزمن ليتأمل تلـك الأدلـة. وهذه البرهة من الزمن يسمونها "مهلة النظر"، وهي مهلة يرجى أن تنتهي بالنـاظر في تلك الأدلة إلى قرار. فإذا مرت هذه المهلة وانقضت ولم يؤمن فمعنى ذلـك أنـه مُصِرّ على عدم الإيمان. ولأن قريشا لم يؤمنوا عندما انتهت "مهلة النظر" حق القـول فيهم بأنهم كفار. فإذا قالوا لن نومن حتى نرى الله، أو نرى قيام الساعة الـخ، فهـم يرفضون الدليل والبرهان ويطلبون العيان (المعاينة)، أي قيام القيامة والحساب مثلا! "وعند العيان لا يفيد الإيمان" لأن الإيمان بالبعث يكون قبل البعث أي قبل قيام القيامة، أما إذا قامت القيامة فقد قضي الأمر ولا يبقى إلا الحساب. والهدف من هذا النوع من التأويل هو -كما قلنا- تجنب الشبهة التي تنسُب امتناعهم عن الإيمان إلى الله تعالى. ونحن نرى أن هذا النوع من الاستلال لا يساعد على الفهم بل يحـول دونـه. ومـا ذكرناه في النص هو أقرب إلى فهم الخاصة والعامة سواء بسواء. وهذا الـذي قالـه الرازي يلزم عنه نفي "التوبة" وهي لا تكون إلا بعد انتهاء "مهلة النظر"، فـإذا قـال تكون بعد تجدد النظر وقع في الدور أو التسلسل، وهما محالان عند المتكلمين.

هذا على مستوى "التفسير بالمعقول"، أما "التفسير بالمنقول" فيمدنا بالروايات التالية (نقلا عن القرطبي)، قال : إن الآيات الأربع التي نحن بصددها "قيل نزلت فـي أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمـداً يصلّي ليرضخنّ رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما؛ فهـو علـى هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غُلّت يدُه إلى عنقه. فلما عاد (أبو جهل) إلـى أصـحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضَخ رأسه (يعنـي رأس النبي عليه السلام). فأتاه وهو يصلّي على حالته ليرميه بـالحجر فـأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نـادوه فقـال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته. فقال الثالث: والله لأشدخنّ أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وانطلق، ثم رجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشيًا عليه. فقيـل

له: ما شأنك؟ قال شأني عظيم رأيت الرجل (محمدا) فلما دنوت منه وإذا فَحْل (حيوان ذكر قوي) يَخطِر (يضرب) بذنبه، ما رأيت فحلا قط أعظم منه، حال بيني وبينه، فواللاتِ والعُزّى لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى: "إنّا جَعَلْنَا فيّ أعْنَاقِهِمْ أغْلالا فهي إلَى الأذقان فَهُم مُقْمَحُونَ" . ويضيف القرطبي: "وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه؛ فخرج عليهم، عليه السلام، وهو يقرأ "يس" وفي يده تراب فرماهم= به وقرأ: "وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لايُبْصِرُونَ" فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام، أي غطينا أبصارهم".

وفي رأينا أن هذا النوع من التفسير بـ "خرق العادة" لا أصل له في القرآن. لقد تحدث القرآن بتفصيل عن معجزات موسى وعيسى (وهي من هذا القبيل) وبالمقابل حصر معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام في القرآن. ومن جملة الآيات التي كررت هذا المعنى، ما ورد في سورة العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكة، وبالتالي يمكن اعتبارها ختما للجدل مع قريش حول هذا الموضوع. قال تعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (50–52).

وواضح أننا هنا أمام إغلاق نهائي لمسألة إمكانية تخصيص خاتم النبيين والمرسلين بمعجزة من جنس ما طالبت به قريش. لقد قررت الآية أن القرآن كاف وحده كمعجزة للنبي عليه السلام، ثم أنهت الجدل في الموضوع بأن خاطبت النبي أن: "قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا". وقد أفصح النبي عليه السلام عن هذا المعنى في حديث ورد في صحيح مسلم، قال فيه: "«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيَ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيا أَوْحَى الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

42- سورة الفرقان

- تقديــــم

لم يذكر المفسرون ولا المؤلفون في أسباب النزول مناسبة أو سببا لنزول هذه السورة ككل. ولكنهم ذكروا عدة روايات تخص آيات منها، أعني أنها وقائع تصلح أن تكون تفسيرا لها دون أن تكون سببا لنزولها، كما يمكن أن تكون تلك الوقائع قد حدثت بالفعل وأن النبي عليه السلام سمع بها أو كان قد سئل عن بعضها فنزلت هذه السورة بعد ذلك بمدة قصيرة أو طويلة وفيها آيات تجيب عنها. إن هذا يعني أنه ليس هناك ما يربط هذه السورة ككل ولا آيات منها بتاريخ معين. ولكن طابعها العام يجعل منها سورة تنتمي بامتياز إلى هذه المرحلة، مرحلة الرد على قريش والتعرض لأصنامهم الخ. وما يهمنا هنا من ذكر هذه الروايات هو أنها تعطينا فكرة واضحة عن اللقاءات التي كانت للنبي عليه السلام مع قريش وأنواع الأسئلة التي كانوا يطرحون عليه. ولا شك أن ما تذكره الروايات التالية من أحاديث وأسئلة واستفسارات واعتراضات لم تحدث مرة واحدة ولا في أيام متقاربة، بل لا بد أن تكون قد حصلت متفرقة، خصوصا وبعضها يشير إلى آيات لم تكن قد نزلت وقت نزول هذه السورة. فمن أجل التعريف بالجانب "السلمي" الذي كان يطبع في الغالب علاقة الرسول بخصوم الدعوة المحمدية قبل هذه السورة نورد هذه الروايات. أما "الجوانب السلبية" المطبوعة بالعدوان والاضطهاد والاستهزاء فقد أشرنا إلى بعضها من قبل وسنتحدث عنها في مناسبة لاحقة.

من الوقائع التي ربطها المفسرون والمؤلفون بآيات من هذه السورة ما يلي: قالوا في قوله تعالى "وَيومَ يَعَضُّ الظالِمُ عَلى يَدَيهِ" : "كان أُبَيّ بن خلف يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به، فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك فنزلت هذه الآية. وفي رواية أخرى "كان عقبة خليلاً لأمية بن خلف، وحدث أن أسلم عقبة فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً! كفر عقبة وارتد لرضا أمية، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية. وفي رواية ثالثة: "أن أُبَـيًّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم. فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى طعامه، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه. وكان أبـيّ بن خلف غائباً، فلما أخبر بقصته قال: صبأت (يعني تركت دين قومك) يا عقبة؟ فقال: والله ما صبأت، ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت فطعِم. فقال أبيّ: ما أنا بالذي رضي منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه! ففعل ذلك عقبة : فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف". وتضيف الرواية: "فقتل عقبة يوم بدر صبرا (ضرب بالسيف وترك حيا حتى يموت).

وذكروا في شأن قوله تعالى : "وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ" إلى "غَفوراً رَّحيماً"... أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحَسَن لو تخبرنا أنا لما علمنا -يعني وقد سمعوا آيات الوعيد- لمن يعمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا أن تلك الأعمال جرائم وهم في جاهلية كفرة، فنزلت (وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ الله إلَهاً أخَرَ) الآيات. وفي رواية أخرى أن أحدهم سأل النبي عليه السلام: "أيُّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت ثم أيٌّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديقاً لذلك "وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ وَلا يَقتُلونَ النَفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقّ وَلا يَزنونَ". وفي أخرى أن أحدهم "أتى وحشي (وفزع) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله، قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله تعالى وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل "وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ وَلا يَقتُلونَ النَفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقّ وَلا يَزنونَ" إلى آخر الآية، فتلاها عليه فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً وأنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت "إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَن يُشرِكَ بِهِ وَيَغفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَن يَشاءُ"، فدعا به فتلاها عليه فقال: ولعلي ممن لا يشاء؟ أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت "قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أسرَفوا عَلى أَنفُسِهِم لا تَقنَطوا مِن رَّحمَةِ اللهِ"، فقال: الآن لا أرى شرطاً، فأسلم.

وفي رواية أخرى: "قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئا في الآخرة وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة قال: بل اجمعهما لي في الآخرة، فنزلت "تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك" الآية. وفي أخرى: "قال المشركون إن محمدا، كما يزعم، نبي! فلم يعذبه ربه؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فيُنزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة".

أما في شأن قوله تعالى : "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (القرآن) إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ"، فقد ذكروا أن المقصود بهم هم الآتية أسماؤهم : "عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار (غلام عامر) بن الحضرمي، وجبر مولى عامر، وهؤلاء (الموالي) الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرؤون التوراة ويحدثون أحاديث منها". وذكروا أن أشراف قريش اجتمعوا ذات ليلة بظهر الكعبة، وعرضوا علـيه أشياء، وسألوه الآيات. فكان فيما كلموه به : "أن قالوا له: فإن لم تفعل لنا هذا، يعني ما سألوه من تسيير جبالهم عنهم، وإحياء آبائهم، والمجيء بالله والملائكة قبيلاً، وما ذكره الله في سورة بني إسرائيل، فخذ لنفسك، سلْ ربك يبعثْ معك ملكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسَلْه فيجعل لك قصورا وجنانا وكنوزا من ذهب وفضة، تغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواقِ وتلتمس المعاش -كما نلتمسه- حتى نعلم فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "ما أنا بِفاعِلٍ".

- نص السورة

1- مقدمة: شجب الشرك وعبادة الأصنام.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ (كثر خيره) الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (محمد) لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا[1]، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا[2]. (أما قريش) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا[3].

2- اتهامهم النبي بافتراء القرآن، وتعييره بكونه يأكل الطعام ...

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (القرآن) إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ! فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا[4]. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا[5]! قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[5]. وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا[6]، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا! وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا[8] (انظر التقديم). انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا[9] (إلى الفهم والإيمان). تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُورًا[10].

3- كذبوا بالبعث: وجاء الرد بمشاهد من الجنة والنار.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (بيوم القيامة)، وَأَعْتَدْنَا (أعددنا) لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا[11]، إِذَا رَأَتْهُم (النار السعير) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا[12]. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا(1) ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ (مقيدين) دَعَوْا (تمنوا) هُنَالِكَ ثُبُورًا[13] (هلاكا)! (يقال لهم) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا[14]. قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ؟ كَانَتْ لَهُمْ (للمتقين) جَزَاءً وَمَصِيرًا[15] : لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ، كَانَ (هذا) عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا[16]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (من الملائكة) فَيَقُولُ (الله لهؤلاء الملائكة) : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ[17]؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا[18] (هالكين). فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ (كذبكم الملائكة) بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا (دفعا للعذاب عنهم) وَلَا نَصْرًا (لأنفسهم). وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ (يا مشركي قريش) نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا[19]. وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ! وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً، أَتَصْبِرُونَ(2)!؟ وَكَانَ رَبُّكَ

1- المعنى: إذا كانت النار منهم بعيدة سمعوا صوت غلياتها، وإذا ألقوا فيها وجدوا مكانا ضيقا.

2- اختلف تفسير الطبري لهذه الآية عن تفسير الزمخشري : فالطبري يقول بصددها: "وامتحناكم أيها الناس بعضكم ببعض، جعلنا هذا نبيًا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكا= وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمناه الدنيا، لنختبر الفقير بصبره على ما حُرم مما أعطيه

بَصِيرًا[20]. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا؟ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا[21] (تجاوزا الحد). يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ (يوم القيامة) لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ: حِجْرًا مَحْجُورًا[22] (3)، وَقَدِمْنَا (قصدنا) إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا[23]: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا[24]، وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا[25]. الْمُلْكُ -يَوْمَئِذٍ- الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا[26]. وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا[27]، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا[28]. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا[29].

4- الرسول يشتكي! والرد: كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا[30] (كذبوا به وأعرضوا عنه! وجاء الجواب): وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا[31]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا (هلا) نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَلِكَ (لم ننزله مرة واحدة) لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا[32] (4).

الغنيّ، والملك بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى وقَسِم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره : فمن أجل ذلك لم أعط محمدا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم ربكم وإجابتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه بغير عَرَض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا، لسارع كثير منكم إلى اتباعه طمعا في دنياه أن ينال منها". أما الزمخشري ففسر الآية كما يلي: "يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض: إنه أبتلى المرسلين بالمرسل إليهم، وبمناصبتهم لـــهم العداوة، وأقاويلـــهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل". وواضح عند المقارنة أن الطبري تجاوز السياق إلى تكريس نوع من "ليس في الإمكان أبدع مما كان" كقانون يحكم الفقر والغنى وما إلى ذلك. أما الزمخشري فقد حصر المسألة في سياق صراع النبي عليه السلام مع قريش. وبالتالي فالآية عنده لا تقرر حكما عاما وإنما هي محصورة في مجال ما دعاه : "وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه، من أكلــه الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل".

3- قيل : كان الرجل، في الجاهلية، إذا رأى الرجل الذي يخاف منه القتل في الأشهر الحرم يقول: "حجراً محجوراً"، أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر، فلا يبدؤه بشر.

4- مما قيل في ذلك: "كان القرآن ينزِّل عليه جوابا لقولهم: ليعلم محمد أن الله يجيب القوم بالحق عما يقولون. ويعني بقوله: لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك،

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (يعترضون به على القرآن) إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا[33]. (هؤلاء المشركون المعترضون) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا[34] (مكانهم في جهنم أكثرا شرا كما كان سبيلهم في الدنيا أكثر ضلالا).

5- تذكير بأقوام كذبوا رسلهم... وقريش كالأنعام أو أضل سبيلا!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا[35]، فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا[36] (بإغراقهم في البحر). وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا[37]. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا (أممًا) بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا[38]. وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا[39] (مزقنا وأهلكنا). وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ(5). أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا (في طريقهم) بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا[40] (بعثا). وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ (ما) يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (يستهزئون، ويقولون) أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا[41]؟ إِنْ (إنه) كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا (ثبتنا) عَلَيْهَا. وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا[42]! أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا[43]، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا[44]!

6- آيات تدل على أنهم لا يعقلون... وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا!

أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (جعله طويلا في الصباح) وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا! ثُمَّ جَعَلْنَا (حركة) الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا[45]، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ (في الظهر) إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا[46]؟ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا[47]، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا[48]، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا[49]. وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (الماء) بَيْنَهُمْ (في الوديان) لِيَذَّكَّرُوا (ليعتبروا) فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[50]. وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا[51]. فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ

ونشجعك به. وقوله وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً يقول: وشيئا بعد شيء علمناكهُ حتى تحفظنه. والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت" (الطبري).

5- قريش تمر في طريقها إلى الشام للتجارة على إحدى تلك القرى التي أهلك الله أهلها بالمطر القوي. يقال هي قرية سدوم، سكنى قوم لوط.

(القرآن) **جِهَادًا كَبِيرًا**[52]. **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ** (خلط ماء الأنهار بماء البحار): **هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ** (عذب) **وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** (شديد المرورة)! **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا**[53]، (لا البحر يغزو الأنهار فتصبح مالحة، ولا العكس)، **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ** (المنيّ) **بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**[54]. (ومع ذلك) **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ! وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا**[55] (حليفا للشيطان ضده).

7- قل ما أسألكم على القرآن أجرا إلا إيمانكم به.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[56]! **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا**[57] (فإيمانه هو أجري). **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا**[58]. **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**، (إنه) **الرَّحْمَانُ! فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**[59] (من يعرف الدين، أهل التوراة أو جبريل). **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ، قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟** (من غير أن نعرفه)، **وَزَادَهُمْ نُفُورًا**[60] (لأن مسيلمة الحنفي خصمهم القبلي التاريخي "ربيعة"، شرق الجزيرة، كان يدعو الله "الرحمان") **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا** (منازل النجوم) **وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا** (الشمس) **وَقَمَرًا مُنِيرًا**[61]، **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً** (أحدهما يخلف الآخر) **لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ** (يستنتج من ذلك وجود صانع حكيم) **أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**[62] (يعبد الله، فيهما، ويستريح).

8- خاتمة: رفضوا عبادة الرحمان فبين لهم خصال عباد الرحمان!

وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ (هم) **الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**[63]، **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**[64]، **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**[65] (لازما)، **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**[66]، **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ** (ما ينفقون) **بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**[67] (وسطا)، **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**[68]، **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**[69] **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**[70]. **وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ**

يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا[71] (6)، وَالَّذِينَ لايَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا[72]، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا (لم يتعاملوا معها) صُمًّا وَعُمْيَانًا[73] (بل واعين متدبرين)، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا[74]، أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ (الدرجة العالية في الجنة) بِمَا صَبَرُوا، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا[75]، خَالِدِينَ فِيهَا، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا[76]. قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (ادعاؤكم أن له شركاء) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ، فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا[77] (أداء جزاء هذا الكذب) (7).

– تعليق

جمعت هذه السورة جملة من الاعتراضات كان كفار قريش يعترضون بها على النبي عليه السلام فردت عليها بلهجة قوة، وحادة أحيانا. وقد تناولت هذه الردود قضايا تخص العناصر الأساسية التي أكد عليه القرآن في السور السابقة مثل التوحيد والنبوة ومشاهد القيامة، ثم ختمت بتعداد خصال عباد الرحمان، ردا على قريش الذين اعترضوا على هذا الاسم ورفضوا أن يكون من أسماء الله. وقد سبق أن بينا أن مسليمة الحنفي من شرق الجزيرة كان قد تنبأ وسمى إلهه الرحمان، وأن رفض قريش لهذا الاسم قد يرجع إلى التنافس القبلي التاريخي بين "مُضَر" سكان غرب الجزية و"ربيعة" سكان شرقها، وقد فصلنا القول في ذلك في "الاستطراد" الذي ختمنا به المرحلة الأولى (بعد سورة قريش رقم 27). جاء القرآن إذن ليغير هذا التأثير القبلي على تصور قريش لـ"الرحمان"، فجعل الرحمان أحد أسماء الله الحسنى، فأوضح أن عباد الرحمان لا يتحددون بالجغرافيا أو بالتاريخ أو بالانتماء القبلي بل يتميزون بخصال عالية، فقدمت ما يشبه أن يكون دستورا في الأخلاق للمسلمين. قسم منه يخص علاقة الإنسان مع الله، وقسم يتناول علاقة الناس بعضهم ببعض.

6- ذُكروا أن هذه الآية جاءت جوابا لقوم من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، وكانوا قد اقترفوا هذه الذنوب فاستفتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك". انظر التقديم.

7- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية، والذي نختاره أنه خطاب لقريش: والمعنى تلك خصال عباد الرحمان، أما انتم أيها المشركون فربي لا يكترث بكم، لولا أنكم تفترون عليه وتنسبون إليه البنين والبنات شركاء... وتكذبون رسله. من هذه الجهة سيعبأ بكم ويكون الحساب لزاما.

القسم الأول: 1- يشرح معنى العبادة والهدف منها : يعبدون الله وحده لا شريك له.. 2-يخافون عقابه. 3- إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِهِ لَمْ يعرضوا عنه.

لقسم الثاني: 1-التواضع : "يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا". 2-التسامح: "إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا".3-التوسط في المعاش: "إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا". 4- لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ. 5- لَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ عقابا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا. 6- لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ... 7- وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا فلا ينساقون معه. 8- يطلبون ذرية صالحة... 9- يجعلون من أنفسهم قدوة للمتقين ونموذجا لهم يحتذى.

هذا ولابد من التذكير هنا بما سبق أن قلناه في الاستطراد الذي ختمنا به سور المرحلة الأولى، والذي خصصناه لألفاظ "الرب، والله، والرحمان". إن استعادة ما قلنا هناك يدفع بنا إلى طرح السؤال التالي: إذا كانت تلك هي خصال "عباد الرحمان" فما هي خصال "عباد الله".

هنا يجب الرجوع إلى معنى "العباد". قال الراغب الأصفهاني في كتابه "مفردات القرآن: "العبودية: إظهار التذلل. والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى. ولهذا قال: "لا تعبدوا إلا إياه" (الإسراء-23).

ثم يضيف: "والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير، وهي عامة للمخلوقات، وهي الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها من خلق فاعل حكيم، كقوله: "ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون" (النحل-49). وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق (الإنسان)، وهي المأمور بها في نحو قوله: "اعبدوا ربكم" (البقرة-21)، "واعبدوا الله" (النساء-36).

"والعبد يقال على أربعة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه، نحو: "العبد بالعبد" (البقرة-178)، و "عبدا مملوكا لا يقدر على شيء" (النحل-75). الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: "إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا" (مريم-93). والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: [الأول] : عبد لله *مخلص*، وهو المقصود بقوله: "واذكر عبدنا أيوب) (ص-41)، "إنه كان عبدا شكورا" (الإسراء-3)، "نزل الفرقان على عبده" (الفرقان-1)، "على عبده الكتاب" (الكهف-1)، "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" (الحجر -42)، "كونوا عبادا لله" (آل عمران-79)، "إلا عبادك منهم المخلصين" (الحجر-40)، "وعد الرحمن عباده بالغيب" (مريم-61)، "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا" (الفرقان-63)، "فأسر بعبادي ليلا" (الدخان -23)،

"فوجدا عبدا من عبادنا" (الكهف-65). و[الثاني] *عبد للدنيا وأعراضها*، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار".

"وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبدا لله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد الله بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العبد الذي هو مسترق: عبيد، وقيل عبدَى، وجمع العبد الذي هو العابد عباد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد. ولهذا قال: "وما أنا بظلام للعبيد" (ق-29)، فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك".

تخلص من هذه التحديدات أن الفرق بين "عباد الرحمان" و"عباد الله" يتحدد باتجاه العلاقة بين الخلق والخالق: فاتجاه العلاقة في قولنا "عباد الله" هي من الخلق إلى الخالق: المخلوق يعبد الله بالتسخير أو بالاختيار. أما في قولنا: "عباد الرحمان" فاتجاه العلاقة هو من "الرحمان الرحيم" إلى المرحوم. ومن هنا كانت خصال "عباد الرحمان" تقتضي الاقتداء بصفات الرحمان وتتلخص في سلوك "الرحمة" بمخلوقات الله. وفي الحديث: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

45- سورة فاطر

- تقديـــم

وردت أخبار عن ما قيل إنه من "أسباب" نزول هذه السورة، ونحـــن نـــدرج بعض هذه الروايات لأنها تعبر عن جوانب من حياة النبي الاجتماعية وعـــن بعـــض الأسئلة التي كانت تطرح عليه. وهي في الجملة من نوع الأسئلة التي ما زال البـــدو يطرحونها في مثل هذه الأحوال: أقصد أنهم يفعلون ذلك بالفطرة وبدون تعقيـــدات أو "بروتوكول". عن ابن عباس قال : "تنزلت هذه الآية: "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَـــرَآهُ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَـــسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" (الآية 8) حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهـــم أعـــز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام فهدى الله عمر وأضل أبا جهل، ففيهما أنزلت. ومعنى هذا أن هذه السورة نزلت قبيل إسلام عمر في وسط الـــسنة الخامـــسة للنبوة. ومما روي بصدد آيات هذه السورة أن رجلا قال: يا رسول الله إن النوم ممـــا يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم؟ قال : لا، إن النوم شريك المـــوت، وليس في الجنة موت. قال فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول لله صلى الله عليه وســـلم وقال : ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة، فنزلت: "وَقَالُوا (أهل الجنة) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّـــذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ (الجنة) مِنْ فَضْلِهِ لَـــا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (إعياء) (34-35).

هذا من جهة ومن جهة أخرى قيل إن قريشا كانت تقول (قبل بعثة محمـــد) : "لو أن الله بعث فينا نبيا ما كانت أمة أطوع لخالقها ولا أسمع ولا أشد تمسكا بكتابهـــا منا، فأنزل الله "وَأَقْسَمُوا (قريش) بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُـــونُنَّ أَهْـــدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ" (اليهود) وكانت اليهود تستفتح بالنبي الجديد (تستقوي بمجيئه علـــى خصومهم لأنهم كانوا يجدون ذلك في كتبهم)، فيقولون : "إنا نجـــد نبيـــا". وتـــضيف الآية: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ الـــسَّيِّئِ، وَلَـــا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ".

- نص السورة

1- مقدمة: الله يرسل الرسل، وما يفتح من الرحمة فلا ممسك لها...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ، مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ(1). يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ1. مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ (القوي) الْحَكِيمُ2 (يتصرف بحكمة).

2- نعمة الخلق والإيجاد ... ونعمة الرزق من السماوات والأرض.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ، يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (2). لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ3 (تتصرفون). وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ4 يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ5 (الشيطان: وظيفته التغرير). إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ6 (جهنم). الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ7. أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا(3)، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ8. وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ النُّشُورُ9 (البعث: يخرج الناس من القبور كما يخرج النبات من الأرض بعد المطر). مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا،

1- من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ...

2 -الرازي: نعمة الله مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء. فقال تعالى: "هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ" إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء. وقال تعالى: "يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء.

3- المعنى: أيكون الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات متساويين: أيكون الذي زين الشيطان له الكفر فسار عليه كمن لم يغتر بالشيطان فاجتنب الكفر؟ يشهد لهذا المعنى قوله : "أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ" (محمد: 14).

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (يرفع قيمته) [4]. وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ (المؤامرات) لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ[10] (يفسد). وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (آدم)[5] ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ. إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[11]. وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[6] (يكسر العطش) سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (شديد الملوحة) وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (السمك) وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً (لؤلؤا) تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (بالتجارة) وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[12]. يُولِجُ (يدخل) اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (الأصنام) مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ[13] (لفافة النواة)؛ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (يتبرؤون من إشراككم لهم في الألوهية مع الله)، وَلَا يُنَبِّئُكَ (بحقيقة الأمر) مِثْلُ خَبِيرٍ[14] (الله).

3- لا تزر وازرة وزر أخرى، وما أنت بمسمع من في القبور!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[15]. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[16]، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ[17]. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَإِنْ تَدْعُ (نفس رجل) مُثْقَلَةٌ (بوزرها) إِلَى حِمْلِهَا (أحدا إلى مساعدتها عليه) لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ. وَمَنْ تَزَكَّى (تطهر من الشرك) فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ[18]. وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ[19]، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ[20]، وَلَا

4- "كان كفار مكة يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، لأن البعد من الملك ذلة، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب، فمن قُبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رُدَّ كلامه في وجه فهو ذليل، وأما هذه الأصنام فلا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها، فكل أحد يمسها" (الرازي).

5 - الخلق من تراب (أو من الطين) يفسر في الفهم "العلمي" القديم على مثال تكوُّن الدود في التراب والطين ...

6- أصل البَحْر (في اللغة) كلُّ مكانٍ واسعٍ جَامعٍ للمَاءِ الْكثيرِ، ويصدق هذا على الأنهار الكبرى مثل النيل والفرات.

الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ[21] (الجنة والنار)، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ[22] (الكفار المعرضون لا يسمعون، هم كالموتى فلا تأسف لعدم استجابتهم). إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ[23]. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ[24]. وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ (صحف كصحف موسى) وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ[25] (التوراة)، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[26] (أنت تعرف العقاب الذي نزل بهم)! أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ (ألم ترى في الجبال طرقا شقت ملونة بلون الصخر) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (صخور) سُودٌ[27]، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ (ألم ترى فيها ما هو) مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (الذين يلاحظون ما في الكون من كائنات بديعة دالة على صانعها)، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ[28]. إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ[29]، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ[30].

4- الناس ثلاثة: مقصر غير ملتزم، ملتزم مقتصد، مسابق للخيرات..

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ (الدين) هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (من الديانات السماوية) إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ[31]. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ (أي هذا الدين لهؤلاء) الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (أي من بلغته الدعوة إلى الإسلام) فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ (لا يلتزم به) وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ (لا يتجاوز الواجبات)، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ[32]: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ[33]. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ[34]، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ (الجنة) مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ[35] (إعياء). وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا. كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ[36]. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ (يصرخون مستغيثين) فِيهَا (في جهنم، قائلين): رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ. (يقال لهم) أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا (زمنا كافيا) يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ (خصوصا) وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ[37]. إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ[38]. هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا (كرها وغضبا)، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا[39].

5- ماذا خلق شركاؤكم ... يؤخرهم إلى أجل مسمى!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ (المشركون) بَعْضُهُمْ بَعْضًا (بشفاعة أصنامهم) إِلَّا غُرُورًا[40] (باطلا). إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ (=ما) أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا[41]. وَأَقْسَمُوا (قريش) بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (اليهود)، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا[42]، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. فَهَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إلا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ (إهلاكهم كما أهلك الأولون)؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا[43]. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من قوم عاد وثمود الخ) وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً! وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا[44].

6- خاتمة : ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا لانقرضوا منذ البداية.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ (المقصود الإنسان منذ آدم الذي كان أول من عصى) بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (من نفس). وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا[45] (يغفر ذنوب من تاب، ويوازن بين الحسنات والسيئات).

- تعليق

بدأت السورة بطرح العلاقة بين الله والعالم وفي مركزه الإنسان. الله خالق العالم فهو الإله ولا إله غيره: إنه مشرف على العالم ومدبر لأموره. هو في السماء العليا يرسل الملائكة بالعدد المطلوب تنزل بالوحي وغيره، فيفتح من الرحمة بالقدر الذي يراه مناسبا للإنسان. والرحمة تشمل الوحي والعلم والمعرفة والحياة وبما به قوامها.

وانطلاقا من هذه المقدمة تعرض السورة بواسطة خطاب جدلي موجه إلى قريش كيف أن الله أنعم عليهم نعمتين: نعمة الإيجاد، إذ لم يكونوا شيئا فخلقهم بشرا يسمعون ويبصرون ويفهمون ويعقلون فيسمَوْن على غيرهم من الكائنات. ونعمة الرزق، خلق لهم ما به قوام حياتهم من المأكل والملبس ويسخر مخلوقات أخرى كثيرة لفائدتهم، وجعل الظواهر الطبيعية كتعاقب الليل والنهار الخ لفائدتهم... وإذن فمن الواجب عليهم أن يعترفوا بهذه النعم وأن لا يكفروا بها، ولا يليق بعقلاء مثلهم أن يعبدوا أصناما ويجعلوها شركاء لله وهم يعرفون أنها من صنع أيديهم وأنها لا تضر ولا تنفع ولا تشفع، بل لا تسمع ولا تبصر... مثل هذا الكفر والجحود ظلم للنفس وظلم للنعم ولذلك لابد من حسابهم، وسيكون ذلك بعد قيام القيامة التي يكذبون بها ظلما. ألا يعرفون أن الله الذي خلقهم وأنعم عليهم لم يفعل ذلك عبثا، بل ليبلوهم ويختبرهم، ثم يجازيهم يوم الحساب حيث "لا تزر وازرة وزر أخرى" لا أحد يحمل ذنوب غيره ولا أحد يحاسب عليها غير مقترفها...

ثم تتوجه السورة بالخطاب إلى الرسول لتسليه وتثبت فؤاه وتقوي عزيمته طالبة منه الصبر والمثابرة ومواصلة تبليغ رسالته. أما كونهم يكذبونه ويرفضون الاستجابة لدعوته فذلك ما حصل للأنبياء السابقين الذي خاضوا معارك الفهم والإفهام مع أقوامهم، وكان النصر حليفهم في نهاية الأمر؟ أما المصرُّون على العناد والتكذيب والذين بلغ بهم الاستكبار أن تآمروا على رسلهم مخططين لقتلهم فقد جاءهم الهلاك من عند الله، إما بواسطة كوارث طبيعية أو بوضعهم في موضع يجعل الهلاك حتما عليهم.

أما غير هؤلاء الذين كذبوا وأعرضوا، ففضلوا الهدى على الضلال فآمنوا وانكبوا على عمل الصالحات، فمنهم متهاون مقصر، ومنهم من اقتصر على ما يجب، ومنهم السباقون إلى عمل الخير.

وتختم السورة بالرد على سؤال طالما طرحه خصوم الدعوة المحمدية، سؤال فيه نوع من التحدي، يقولون: أين هذا الوعد والوعيد الذي يكرره علينا محمد؟ ويأتي الجواب: الأمر يتعلق بحساب وجزاء مؤجل إلى أجل، الله وحده يعرفه. ولو أن الله أردف الحساب والجزاء بكل فعل يفعله الناس لما بقي على الأرض أحد. إن آدم أول من عصى، ولو عاقبه الله يوم عصى لا انقطع وجود البشر. ولكن ألهمه التوبة فتاب عليه، وترك بني آدم يتناسلون، -ومعهم الكائنات الأخرى لأنها خلقت ليسخروها في حياتهم- وذلك من أجل أن يتيح لذرية آدم فرصة الحياة بدون تكرار خطيئة آدم ولا الشعور بثقلها. فالتوبة محتها، والتوبة تمحي ذنوب كل من تاب واستقام.

44- سورة مريم

- تقديـــم

رتبت هذه السورة -سورة مريم- قبل سورة طه. وتفيد الروايـات أن هـذه الأخيرة نزلت قبيل إسلام عمر بن الخطاب، وكان إسلامه ما بين الخامسة والسادسة من البعثة. وبالتالي تكون سورة مريم قد نزلت خلال السنة السادسة، أي في ظـروف الهجرة إلى الحبشة. وفي هذه الحالة يمكن أن يكون جعفر بن أبي طالب -الذي كـان على رأس المهاجرين إلى الحبشة كما سنرى- قد أخذ معه هذه السورة (حفظـا أو مكتوبة) فالروايات تؤكد أنه قرأها أو قسما منها على النجاشي (ملك الحبشة الـذي كان مسيحيا) عندما سأله عما يقول القرآن الكريم عن مريم،[1] وبالتالي عن طبيعـة عيسى الذي تقول عنه النصارى إنه ابن الله. هذا وتضم السورة أجزاء مـن قـصص أخرى مما يدخل في موضوعها المركزي، موضوع التوحيد وإبطال الشرك.

ربما كان من المفيد التذكير بأننا نقتصر هنا على القصص الواردة في القرآن المكي، خصوصا وقصة مريم قد ورد قسم منها في القرآن المكي وقسم فـي القـرآن المدني. وقد سبق أن قلنا إن للقرآن في القصص التي يعرضها زمانا خاصا بـه هـو زمان الدعوة. أما زمان القصة المفترض فيه أن يكون موازيا للزمن الطبيعـي فهـو جملة أحداث يذكر منها القرآن في كل مقال ما يناسب المقام. ومقام الدعوة في مكـة غير مقام الدولة في المدينة، وما يناسب تطور الدعوة قد يختلف عما يناسب تطـور الدولة. وهكذا فما ذكرته هذه السورة من قصة مريم لا يخص مـريم بمفردهـا بـل يخص عيسى ابنها أيضا، وبالتحديد حملها به من غير أن يَمسسْها بشر، كما سنرى. والهدف إبراز هذا الجانب/المعجزة في القصة كبرهان على"التوحيد" ضدا على الشرك، سواء اتخذ شكل عبادة الأصنام كما هو حال قوم إبراهيم ومن سار على دربهـم، أو شكل ادعاء أن لله ولدا، بما في ذلك تثليث النصارى وعبادة الملائكة بوصـفها بنـات الله كما كان الحال عند العرب.

1- انظر التفاصيل في التعريف بالقرآن الفصل الثاني.

- نص السورة

1- مقدمة: زكريا الشيخ يطلب ابنا: يئس من الإنجاب وامرأته عاقر.

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص[1] (هذا) **ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا**[2] (2)، **إِذْ نَادَى** (زكريا) **رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**[3]، **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** (ضعفت صحتي) **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ** (بدعائي إياك من قبل) **رَبِّ شَقِيًّا**[4] (خائبا). **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ** (الذين يلونني في النسب مثل بني العم) **مِنْ وَرَائِي** (بعد موتي، أن يبدلوا الدين) **وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا** (منذ زمن الشباب) **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**[5] (ولدا، على غرار ما نقول : ولي العهد)، **يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**[6].

2- الله يستجيب ويبشره بغلام أتاه الحكمة والنبوة؟

(فأجابه الرب) **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا**[7] (3). **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**[8] (نهاية السن)! **قَالَ: كَذَلِكَ** (سيكون)! **قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا**[9]. **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً** (علامة عندما تحمل امرأتي) **قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**[10]. **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ** (المسجد) **فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ** (أشار إليهم) **أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**[11]. (ولد يحيى، وبعد أن كبر وصار رجلا خاطبه الله) **يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ** (التوراة) **بِقُوَّةٍ** (بجد وحزم). **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ** (الحكمة) **صَبِيًّا**[12] **وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً** (طهارة من عندنا) **وَكَانَ تَقِيًّا**[13] **وَبَرًّا** (محسنا) **بِوَالِدَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا**[14]. **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**[15].

2- المعنى: هذا ذكر الرحمة التي خصّ ربك بها عبده زكريا. وزكريا المقصود هنا هو زوج خالة مريم أم عيسى عليه السلام. وكان من أنبياء بني إسرائيل ولكن ليس له كتاب في التوراة، وقد روى قصته بتفصيل الحواريّ "لوقا" في إنجيله. فهو إذن غير زكريا الأول الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد والذي له كتاب في التوراة.

3- أي سميه يحيى. ولم نجعل هذا الاسم لغيره من الأنبياء السابقين.

3- ويهب الولد لمريم دون أن يمسسها رجل!

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ (اعتزلت) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا[16]، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (جبريل) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا[17]. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا[18] (4). قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا[19]. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا[20] (زانية). قَالَ كَذَلِكِ (سيكون)! قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا[21] (قرر الله ذلك). فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا[22]، فَأَجَاءَهَا (ألجأها) الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا[23]. فَنَادَاهَا (جبريل) مِنْ تَحْتِهَا (من أسفل منها) أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[24] (نهرا)، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[25]، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا! فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا[26]. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا[27] (ذنبا عظيما)، يَا أُخْتَ هَارُونَ(5) مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا[28]. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ (إلى الصبي: أن كلموه)! قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ (هو) فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا[29]؟ قَالَ (الصبي عيسى) إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا[30]، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا[31]، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا[32]، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا[33].

4- حقيقة أمر عيسى : ما كان لله أن يتخذ من ولد!

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، (وذلك هو) قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ[34] (يشكون: فقالوا عيسى ابن الله)، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ! سُبْحَانَهُ! إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[35]. (قال عيسى) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا

4- إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه.

5- اختلفوا في من هو هارون هذا، إذ لا يمكن أن يكون هو هارون أخ موسى لبعد المسافة الزمنية بينها وبينه. وروي عن المغيرة ابن شعبة قال: «بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون "يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ" وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدر ما أقول. فلما قدمت على رسول الله ذكرت ذلك له، فقال: ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم". إذن فالمقصود شخص آخر سمي باسم إبراهيم.

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[36]. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ (فِرَق النصارى) مِنْ بَيْنِهِمْ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ[37] (يوم القيامة)، أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ! يَوْمَ يَأْتُونَنَا (ما أسمعهم وما أبصرهم به يوم القيامة بعد أن كانوا في الدنيا صما عميا، لا يصدقون). لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[38]، وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ (الحساب) إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[39]، إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[40].

5- إبراهيم يرفض عبادة الأصنام، والله يهب له إسحق ويعقوب.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ(6) إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا[41]، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا[42]، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا[43]، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا[44]، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا[45]، قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا[46]. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا[47]، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا[48]. فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا (منهم) جَعَلْنَا نَبِيًّا[49] وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا[50].

5- وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، هم من أنبياء الله

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا[51]، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا[52] وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا[53]. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا[54]، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا[55]. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا[56]، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا[57]. أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ (يعقوب) وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا[58].

---

6 – بعد أن أثبتت السورة الوحدانية لله ضدا على اعتقاد النصارى في أن عيسى ابن لله، تنتقل إلى إبراهيم شيخ الأنبياء لتبرز مقاومته للشرك...

6- أقوام جاءت بعدهم: بعضهم كفروا، وبعضهم تاب وآمن...

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا[59] (ضلالا وهلاكا)، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا[60]، جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ (من غير أن يعاينوها)، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا[61] (آت لا ريب فيه)، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[62]، تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا[63].

7- الوحي ينزل على من اختاره الله، ويومُ القيامة يا قريش، آتٍ.

(قال جبريل) [7] وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ (يعلم ما سبق وما سيأتي) وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا[64]. رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا[65] (ندا ومثيلا)!؟. وَيَقُولُ الْإِنسَانُ[8]: أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا[66]، أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا[67]. فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[68] (على رُكبهم: ج. ركبة)، ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ (فرقة) أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا[69] (جرأة)، ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا[70] (أحق بأن يلقوا في جهنم). وَإِنْ مِنْكُمْ (ما منكم يا مشركي مكة) إِلَّا وَارِدُهَا (جهنم)! كَانَ (هذا) عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا[71] (لأنهم اختاروا الشرك وأعرضوا عن القرآن)، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا[72]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[73] (النادي، جماعة)؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ (قوم) هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا (متاعا ومالا) وَرِئْيًا[74] (ومنظرا). قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا (في الدنيا) حَتَّى إِذَا رَأَوْا (جاءهم) مَا يُوعَدُونَ (من الحساب)، إِمَّا الْعَذَابَ (في

7- يربط المفسرون بين هذه الآية وبين انقطاع الوحي عن النبي لبعض الوقت بعد سؤال قريش له عن أهل الكهف وذي القرنين والروح الخ. وفي رأينا أن هذه الآية مرتبطة بالسياق السابق. فبعد أن عددت السورة الرسل الذين خصهم الله برسالاته قال (جبريل) : ما نتزل إلا بأمر ربك : ما نأتي بالوحي إلا بأمر الله، وبأمره جئناك أنت دون غيرك من رجال قريش.

8- أحد كبار خصوم الدعوة المحمدية، اختلفوا في اسمه.

الدنيا) وَإِمَّا السَّاعَةَ (قيام القيامة)، فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا (هل الجنة أم النار) وَأَضْعَفُ جُندًا[75] (جند الجنة أم شياطين الدنيا). وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا[76] (ما يرد عليهم). أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا[77] (قيل: اسمه العاصي بن وائل من خصوم الدعوة المحمدية)، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا[78] (أبرم عقدا مع الله)؟ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ، وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا[79]، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ (سيحمل في سجله يوم الحساب) وَيَأْتِينَا فَرْدًا[80] (بدون ما يعتز به من مال وأولاد).

8- لقد أهلكنا قبلهم أمما تعبد الأصنام... فهل تراها أو تسمعها؟

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[81] (أعوانا لهم وشفعاء)! كَلَّا، (يوم القيامة سينطق الله أصنامهم) سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا[82] (ويتبرؤون منهم). أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا[83] (تدفعهم إلى المعاصي)! فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا[84]. يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا[85] (راكبين)، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا[86] (يمشون عطشى)، لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا[87] (بشهادة أن لا إله إلا هو). وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا[88]! لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[89]؛ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا[90] (بسبب) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا[91]. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا[92]، إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا[93]. لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا[94]، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا[95]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا[96].

9- خاتمة: أنزلناه بلسان قومك وجعلناه على طريقتهم ومعهودهم ...

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (الكتاب) بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا[97]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[98] (صوتا خفيا)؟.

- تعليق

يدور الخطاب في هذه السورة حول محور واحد، محور التوحيد وإبطال الشرك. وهكذا فالهدف مما أوردته من قصة زكريا ومريم وعيسى هو إبطال التثليث الذي يجعل لله ولدا وشريكا. الله هو الذي أعطى، على غير العادة، ولدا للشيخ المسن زكريا على الرغم من العقم الذي أصيبت به امرأته. والله هو الذي خرق العادة مرة أخرى فأعطى لمريم ابنا من دون أن يمسسها بشر، تماما كما أن الله هو الذي خلق آدم من طين وأنه الذي سيبعث الموتى للحساب والجزاء. هذه القدرة على خرق العادة ليست لأحد من المخلوقات بما فيها الإنسان والملائكة، فبالأحرى الأصنام التي تصنع من حجر وغيره من الجمادات فتبقى جامدة مثلها لا تسمع ولا ترى ولا تقدر على فعل شيء. وهذه الأصنام التي تعبدها قريش قد عبدتها أمم قبلها فأرسل الله رسلا يبينون للناس تفاهتها وعدم معقولية عبادتها، وعلى رأسهم شيخ الأنبياء إبراهيم والأنبياء من ذريته من إسحاق.وإسماعيل إلى عيسى ومحمد بن عبد الله ... ومع ذلك فقريش ماضون في التمسك بأصنامهم يتعقدون أنها تمثل الملائكة التي يعتبرونها بنات الله، وأنها ستشفع لهم! فلا تعجل عليهم إن مصيرهم جهنم في نهاية الأمر، شأنهم شأن الأقوام الذي كذبوا رسلهم والذين لم يبق منهم لا ما يرى ولا ما يسمع.

هذه البيانات، سواء ما كان منها من قصص الأنبياء مع أقوامهم أو مما ذكرناه من عن عبادة قريش للأصنام بوصفها شفعاء تمثل على الأرض "بنات الله" في السماء، قد أوحيناها إليك، ويسرناها بلغة قومك وطريقتهم في الخطاب كي يسهل تبليغهم وإقامة الحجة عليهم. فإذا لم يستجيبوا فلا تقلق. فلقد مضت أمم مثلهم أهلكناها ففنيت، ولم يعد يسمع منها صوت ولا يحس منها بحركة.

45- سورة طـــه

- تقـــديم

أهم ما ورد بصدد هذه السورة هو ربطها بهجرة المسلمين إلى الحبشة وبإسلام عمر بن الخطاب، فعن ابن إسحاق: أن إحدى النساء المسلمات المهاجرات إلى الحبشة قالت: إنها بينما كانت تستعد لهذه الهجرة إذ أقبل عليها عمر بن الخطاب الذي قالت عنه إنه كان ممن يؤذي المسلمين، فسألها إلى أين الرحيل؟ قالت: "نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا". قالت : فقال : صحبكم الله". (وكان ذلك حوالي منتصف السنة الخامسة للنبوة).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى قال ابن إسحاق : "وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت وأسلم بَعْلُها، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان خَبَّابُ بن الأرَت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القران، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين، ما بين رجال ونساء[1]، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب (وكان قد أسلم قبل أيام)، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبىْ طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشه، فلقيه نُعَيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ (المنحرف عن دين قومه)، والذي فرّق أمرَ قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله. فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف (قبيلة الرسول عليه السلام) تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرَهم؟ قال : وأي أهل بيتي؟ قال : خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عَمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب : فقد، والله، أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبابُ بن الأرَت معه صحيفة، فيها: "طه" يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خَبَّاب في مخدع لهم، أو في بعض البيت،

1- في الروض الأنف: كان عدد المسلمين بضعة وأربعين رجلا، وإحدى عشرة امرأة. وعن اب عباس: "كان أسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين".

وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فَخِذِها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خَبَّاب عليهما، فلما دخل قال : ما هذه الهَيْنَمَة (كلام لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له : ما سمعتَ شيئا، قال : بلى! والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه! وبطش بِخَتَنِه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخَتَنُه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها، قال : لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه ... فأعطته الصحيفةَ، وفيها: "طه" [2]، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له : يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوةِ نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (أبو جهل)، أو بعمر بن الخطاب". فالله الله يا عمر! فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خبَّاب على محمد حتى آتيَه فأسلم، فقال له خَبَّاب : هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله (ص) وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله (ص)، فنظر من خَلَلِ الباب فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله (ص) وهو فَزِعٌ، فقال : يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذنْ له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه (وكان حمزة عم النبي قد أسلم قبل ذلك بنحو أسبوع). فقال رسول الله (ص) : ائذنْ له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله (ص) حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْزَته (موضع شد الإزار)، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه به جَبْذة شديدة، وقال : ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنْزِلَ الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال : فكبَّر رسول الله (ص) تكبيرةً عَرَفَ أهلُ البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم . فتفرق أصحابُ رسول الله (ص) من مكانهم، وقد عَزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة عم النبي، وعرفوا أنهما سيَمْنَعان رسول الله (ص)، وينتصفون بهما من عدوِّهم.

---

2 – وفي رواية أقل شهرة: أن عمر قرأ من سورة الحديد وهذا لا يستقيم، لأن هذه السورة نزلت في المدينة وفيها ما يؤيد كونها مدنية.

قال ابن إسحاق: "فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم". ثم ذكر رواية ثانية عن رواة مكيين قالوا إن عمر كان يقول : "كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسَر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجالٌ من قريش ... فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك في مجلسهم ذلك، قال : فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً فقلت : لو أني جئت فلانا الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال : فخرجت فجئته فلم أجده . قال : فقلت : فلو أنى جئت الكعبةَ فطفت بها سبعا أو سبعين قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول اللّه (ص) قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود، والركن اليماني . قال : فقلت حين أتيته : واللّه لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمعَ ما يقول فقلت : لئن دنوت منه أستمع منه لأرَوِّعنّه؛ فجئت من قِبلِ الحِجَر (الكعبة)، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشى رُوَيْدا ورسول اللّه (ص) قائم يصلى يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مُستقبلَه، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال : فلما سمعت القرآن[3] رقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام فلم أزل قائما في مكاني ذلك، حتى قضى رسول اللّه (ص)، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حُسَين، وكانت طريقَه، حتى يَجزع (يقطع) المسْعَى، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عَوْف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شَرِيق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنُه (ص) في الدار الرَّقْطاء (الملونة) التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان. قال عمر رضي اللّه عنه : فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركتُه، فلما سمع رسول اللّه (ص) حسي عَرَفنى، فظن أني إنما تبعته لأوذيه فنهمنى (زجرني) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال : قلت : لأومن باللّه وبرسوله، وبما جاء به من عند اللّه قال : فحمد اللّه رسول اللّه (ص)، ثم قال : قد هداك اللّه يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفتُ عن رسول اللّه (ص)، ودخل رسول اللّه (ص)وسلم بيته".

وأضاف ابن إسحاق : وكان عبد اللّه بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلىَ عند الكعبة، حتى أسلم عمرُ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وأن كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول اللّه (ص) إلى الحبشة" (قيل في الهجرة الأولى).

3- وفي رواية أخرى أن السورة التي كان يقرؤها النبي عليه السلام هي سورة "الحاقة" وهذا مشكوك، فيه لأن هذه السورة هي من أواخر ما نزل في مكة حسب لوائح ترتيب النزول، وبالتالي يفصلها عن تاريخ إسلام عمر أزيد من خمس سنوات!

روايتان مختلفتان حول إسلام عمر: الأولى بطلتها أخته، والثانية بطلها هو نفسه. الأولى منسوبة إلى أهل المدينة والثانية منسوبة إلى أهل مكة. وناقل الروايتين واحد، إنه ابن إسحاق كاتب السيرة النبوة! فأي الروايتين أقرب إلى الصحة؟

لنلاحظ أولا سكوت معظم كتب الحديث والسيرة عن الرواية الثانية، ومنهم من قال إن راويها مجهول الخ. أما نحن فنرجح أن تكون الروايتان صحيحتين معا، أما الأولى فلشهرتها ووقوع الاتفاق عليها. وأما الثانية فلأنها يمكن النظر إليها على أنها تتمة للأولى.

ذلك لأنه من الممكن افتراض أنه بعد إعجاب عمر بالقرآن عندما قرأ سورة طه أو قسما منها في بيت أخته خرج وهو ينوي فعلا الذهاب إلى الرسول (ص) ليعلن إسلامه. ومعروف عن عمر أنه كان في الجاهلية يكثر من شرب الخمر، وأنه لم يكف عنها نهائيا إلا بعد نزول الآية الثالثة التي تقطع بتحريمها (اجتنبوه. في المدينة). فمن الممكن جدا أن يكون عمر قد أراد أن "يخفف" عن نفسه بشرب الخمر -التي لم تكن محرمة في الإسلام يومئذ- الشعور بثقل التحول الذي قرر القيام به، وذلك بالدخول في الإسلام بعد أن كان على سبيل قريش في الضغط على المسلمين، كما ورد ذلك في كلام أخته في الرواية الأولى. من أجل ذلك اتجه إلى الخمار الخ، ولما لم يجد أحدا اتجه إلى المسجد لعله كان ينوي الاستماع إلى مزيد من القرآن فصادف بغيته، حيث كان النبي عليه السلام يصلي ويقرأ القرآن. ويمكن أن نفترض أن ذهاب عمر إلى بيت أخته كان مساء في وقت متأخر وأنه لم يخرج منه إلا حوالي منتصف الليل ... ليجد حانات مكة فارغة من روادها ... ويجد النبي (ص) في المسجد يصلي وقد اقترب الصبح ...

- نص السورة

1- مقدمة: القرآن تذكرة لمن يخشى... فلا يشقيك إعراضهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

طه[1]، **مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**[2] (لتحزن لكون قومك لم يستجيبوا، فما هو) **إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى**[3] **تَنْزِيلًا** (قرآنا نزل) **مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا**[4]. (هو) **الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**[5] (4)، **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي**

4- جري ويجري نزاع حول هذه الآية بين الفرقة المشبهة، أي الذين تشبهون الله بالإنسان فينسبون له ما ينسب للإنسان من الأوضاع الجسمانية، فقالوا : استوى على العرش جلس=

الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى[6] (تحت الأرض). وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ (بالشكوى من إعراض قومك عنك، أو لم تجهر به) فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى[7]، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى[8].

2- مثال مما عاناه موسى من فرعون في سبيل أداء الرسالة.

أ- الله يكلم موسى: إن الساعة آتية لتجزى كل نفس بما تسعى.

وَهَلْ (وقد) أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى[9]، إِذْ رَأَى نَارًا (وكان قادما من مدين في اتجاه مصر وقد ضل الطريق، وكان الليل شتاء باردا) فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا (أبصرت) لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ (للتسخين) أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى[10] (من يرشدنا إلى الطريق). فَلَمَّا أَتَاهَا (وصل النار) نُودِيَ (عليه) يَا مُوسَى[11]: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ (احتراما) إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ (المسمى) طُوًى[12]، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ (رسولا) فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى[13] (إليك) : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي[14]، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا (5) لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى[15]، فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى[16] (فتهلك).

ب- عصا موسى: تعريفه بها ...

(سأله الله) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى[17]، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى[18] (كالدفاع عن النفس). قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى[19]. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى[20]! قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى[21] (نعيدها عصا عادية كما كانت)، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ (جنبك) تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، آيَةً أُخْرَى[22]، لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى[23] (تحول العصا حية ثم رجوعها عصا عادية بمجرد إدخال اليد في الجيب، من آيات الله الكبرى).

ج- إرساله إلى فرعون .. وطلبه أخاه هارون

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى[24] (استعبد قسما من شعبه). قَالَ (موسى) رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي[25]، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي[26]، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي[27]، يَفْقَهُوا

عليه كما يجلس الملوك على عروشهم. أما مناهضو التشبيه من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم فيلتمسون للآية معنى مجازيا، فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الملك كما في "ملك الناس" و"ملك يوم الدين" الخ. وهناك من أهل السنة من يتوقف عن التدقيق في معنى الاستواء، ويقول : "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة" (روي عن الإمام مالك).

5- في القاموس المحيط: تكونُ "كاد" بمعنى أرادَ: "أكادُ أُخْفِيها": أريدُ إخفاءها.

قَوْلِي[28]، **وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي**[29]، **هَارُونَ أَخِي**[30]، **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي**[31]، **وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**[32]، **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا**[33]، **وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا**[34]، **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا**[35]. **قَالَ: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**[36].

د- تذكيره بطفولته: وما جرى له إلى أن كلمه الله

وَلَقَدْ مَنَنَّا (أنعمنا) **عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى**[37] (عندما ولدت وكان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل خوف أن يكون منهم من يقضي على ملكه)، **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ** (في المنام) **مَا يُوحَى**[38]: **أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ**[(6)] **فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ** (نهر النيل) **فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** (هو فرعون، وذلك ما حدث). **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** (جعلتك محبوبا) **وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**[39] (لتكون عيني عليك، تحرسك). (ولا تنس) **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ** (لتبحث عنك وتجدهم أحضروا المرضعات لك فرفضتهن) **فَتَقُولُ** (لهم أختك) **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ**؟ (فقبلوا، فجاءتك بأمك) **فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ. وَقَتَلْتَ نَفْسًا** (ولا تنس أيضا أنك **قتلت** رجلا من أقباط مصر وخفت من عقاب فرعون) **فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** (اختبرناك بأمور أخرى فخلصناك) **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ** (في الموعد الذي قدرناه) **يَا مُوسَى**[40]، **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**[41] (رسولا).

هـ- إرساله ومعه هارون إلى فرعون في مهمة

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا (تتوقفا) **فِي ذِكْرِي**[42]، **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**[43]، **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**[44]. **قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا** (يبادرنا بالعقوبة) **أَوْ أَنْ يَطْغَى**[45] (يقتلنا). **قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**[46]، **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى**[47]. **إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**[48]. **قَالَ** (فرعون) **فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى**[49]؟ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ** (صورته) **ثُمَّ هَدَى**[50]. **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**[51] (فمن كان ربها)؟ **قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ؛ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى**[52]. **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا** (طرقا) **وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى**[53]، **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**

---

6 – قلنا لها –عندما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون في جملة من يولد– ضعيه في التابوت واقذفي التابوت في النيل.

لِأُولِي النُّهَى[54] (العقل)، **مِنْهَا** (الأرض) **خَلَقْنَاكُمْ** (خلق آدم من طين وأنتم ذريته تعيشون من خيراتها)، **وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ** (حين ينقضي أجلكم) **وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً** (مرة) **أُخْرَى**[55] (يوم تقوم القيامة للحساب والجزاء).

و- موسى ينتصر على السحرة. وفرعون يتهمهم بالتواطؤ معه

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ (فرعون) **آيَاتِنَا** (معجزات موسى) **كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى**[56]، **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى**[57]، **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى**[58] (يقع بيننا وبينك على مسافة واحدة). **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ** (العيد) **وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**[59]. **فَتَوَلَّى** (ذهب) **فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ** (سحرته) **ثُمَّ أَتَى**[60]. **قَالَ لَهُمْ** (للسحرة) **مُوسَى: وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ** (يهلككم) **بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**[61]، **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى**[62] (وتشاوروا)، **قَالُوا** (بعضهم لبعض) **إِنْ هَذَانِ**(7) **لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**[63] (العالية في فن السحر) **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا** (متحدين)، **وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**[64] (من انتصر على الآخر). **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى**[65]؟ **قَالَ بَلْ أَلْقُوا**، (فألقوا) **فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**[66]. **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى**[67]. **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**[68]، **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**[69] (وكذلك حدث).

ز- السحرة يؤمنون برب موسى، ويتوعدون فرعون...

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا، قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى[70]. **قَالَ** (فرعون لهم) **آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ** (موسى) **لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ** (تواطأتهم معه)، **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا** (أنا أو رب موسى) **أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**[71]. **قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَالَّذِي فَطَرَنَا** (8)! **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ** (افعل ما تشاء)، **إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**[72] (حكمك مقصور على الحياة الدنيا). **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**[73]. (قالوا) **إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ**

---

7 - حسب قواعد النحو يجب أن تكون العبارة: "إن هذين لساحران"، وقد استعمل القرآن هنا لغة يأتي أهلها بالألف في المثنى في الجر والرفع والنصب.

8 - نرجح الرأي القائل إن جملة "والذي فطرنا": قسم.

رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا[74]، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا[75]، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى[76] (تطهر من الآثام). وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ (اخرج ليلا) بِعِبَادِي (بني إسرائيل) فَاضْرِبْ لَهُمْ (فشق لهم بعصاك) طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ[(9)] يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا (من فرعون) وَلَا تَخْشَى[77] (غرقا). فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ (الماء) مَا غَشِيَهُمْ[78] (من الغرق والتلف)، وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى[79] (فقدهم وما اهتدى إليهم).

ح- فتنة السامري: صنع لبني إسرائيل صنما فعبدوه، وموسى يغضب.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى[80] [(10)]، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى[81]، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى[82]. (ذهب موسى للقاء ربه ثانية ليأخذ التوراة، فقال له:) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى[83]؟ قَالَ: هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي. وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى[84]. قَالَ: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ[85] [(11)]. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا، قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي[86] (وعدكم لي بالبقاء على دين الله) ؟ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا (بإرادتنا) وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا (أثقالا) مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ[(12)] فَقَذَفْنَاهَا. فَكَذَلِكَ (يقول الله لموسى) أَلْقَى السَّامِرِيُّ[87] (الحلي في النار) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، فَقَالُوا (السامري وأتباعه) هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ[88] (نسيه موسى فذهب يطلبه). (يخاطب الله موسى) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ (لا يرد العجل) إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا[89]! وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَانُ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي[90]. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ (على عبادته) حَتَّى

9- خلاف بين المفسرين وبين الباحثين المعاصرين: هل يتعلق الأمر بالنيل أم بالبحر الأحمر؟

10 -الْمَنّ: نبات يؤكل كالحلوى. وفي التوراة انه يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلا، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزا ذا طعم خاص . والسلوى الطير السماني. قيل يسافر في بمجموعات كبيرة من إفريقيا متجها شمالا.

11 - السامري: قيل من قبيلة السَّامِرَةَ، قبيلة من قبائل بني إسرائيل، رجل التفوا به فحبب إليهم عبادة الأصنام وصنع لهم صنما على صورة عجل فعبدوه.

12 - أي حلي قوم فرعون كانوا استعارها منهم بعلة عرس فبقيت عندهم.

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى[91]. **قَالَ** (موسى بعد رجوعه) : **يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ، إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا**[92]، **أَلَّا تَتَّبِعَنِي** (وتتركهم)؟ **أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**[93]؟ **قَالَ يَبْنَؤُمَّ** (يا ابن أمي) **لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، إِنِّي خَشِيتُ** (لو اتبعتك أن يتبعني فريق منهم ويبقى فريق وحينئذ) **أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ** (تنتظر) **قَوْلِي**[94] (رأيي في ذلك). **قَالَ** (موسى) **فَمَا خَطْبُكَ** (ما شأنك) **يَا سَامِرِيُّ**[95]؟ **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ** (جبريل) **فَنَبَذْتُهَا** (ألقيتها) **وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**[96] (13). **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ** (ما دمت حيا) **أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ** (عقابك أن لا تمس أحدا ولا يمسك أحد)(14) **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا** (يوم القيامة) **لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**[97]، **إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**[98].

3- تلك قصص السابقين، وقد أعطيناك القرآن فلا تعجل بتنفيذ وعيده

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا[99]، **مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا**[100]، **خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا**[101]. **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**[102] (من تأثير النار)، **يَتَخَافَتُونَ** (يتسارّون) **بَيْنَهُمْ : إِنْ لَبِثْتُمْ** (في القبر) **إِلَّا عَشْرًا**[103] (من الليالي). **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ** (المدة التي مكثوها) **إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً** (أقربهم إلى الصواب) **إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا**[104] (15). **وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ** (كيف تصير يوم القيامة)؟ **فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**[105]، **فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا**[106] (مستويا)، **لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**[107] (ارتفاعا)، **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ** (أي الناس الخارجون من قبورهم يتبعون إسرافيل المنادي بقيام الساعة) **لَا عِوَجَ لَهُ** (لا يبتعدون عنه) **وَخَشَعَتْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**[108]، **يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**[109] (=شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله).

---

13 – قال: إنه رأى دابة جبريل فأخذ من موضع حافرها قبضة من تراب وألقاها فتحولت إلى صورة الصنم، آملا أنه بفعله ذلك يصير ما لا روح له ذا روح، وأنه رأى قوم موسى يطلبون منه أن يجعل لهم إلها، فحدثته نفسه أن يكون ذلك العجل إلههم.

14 – قالوا: فكان يهيم في البرية وإذا مس أحدا أو مسه أحد أصابتهما الحمى.

15 – هذا القائل: قوله قريب من الصواب لأنه أدرك أن مدة إقامتهم في القبر لا تساوي شيئا بالنسبة لخلودهم في جهنم.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا[110]. وَعَنَتْ (خضعت) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا[111]، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا[112] (لحقه). وَكَذَلِكَ (معطوف على "كذلك نقص) أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا (كررنا) فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا[113] (عبرة بهلاك من قبلهم)، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ. وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ (بتنفيذ وعيده) مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ(16) وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا[114].

4- آدم استسلم للشهوة، وتلك حال قريش. والحساب يوم القيامة.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ (أن لا يأكل من الشجرة) فَنَسِيَ (وأكل) وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا[115] (إرادة حازمة تكبح جماع الرغبة)، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى[116]، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى[117]، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى[118]، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى[119] (تضرك شمس الضحى). فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ : قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ(17) وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى[120]، فَأَكَلَا (هو وامرأته) مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (ظهرت عورة كل منهما للآخر) وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (أخذا يلصقان) عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى[121]، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى[122] (18)، قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ (يا بني آدم) عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ (سيأتيكم) مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى[123]، وَمَنْ أَعْرَضَ

16- ذهب المفسرون في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، بعضهم يربطها بأحداث وقعت في المدينة وهذه سورة مكية باتفاق! وآخرون تجاهلوا السياق تماما... وفي رأينا أن الآية متصلة بما قبلها وما بعدها كما يلي: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (فإذا كان لم يحدث لهم ذكرا ولم يؤمنوا ولم يهلكهم الله كما فعل بالأقوام الماضية، فإن ذلك ليس راجعا إلى أن الله لم يستطع حملهم على الإيمان أو لم يقدر على إهلاكهم. كلا، إنه يمهلهم كما أمهل الذين من قبلهم) : فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ (أن يخلف وعده، فانتظر حتى ينزل عليك القرآن كله ثم احكم بعد ذلك:) وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ (بتنفيذ وعيده) مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (كله) وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا". وتأتي قصة آدم ونسيانه ... ثم عقابه بإخراجه من الجنة ثم قبول توبته ... يأتي ذلك متمما للسياق وصلا بقوله تعالى (لاحقا) " فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ... وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (فئات من قريش) زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ..."

17 – يخلد من يأكل منها. وفي التوراة : "شجرة المعرفة"

18 – هذه التوبة أسقطت ما تعتبره المسيحية بـ"الخطيئة الأصلية"، خطيئة آدم المذكورة.

عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا (فيها ضيق حال) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى[124]. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا[125]. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى[126]. وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى[127].

<u>5- خاتمة: اصبر على ما يقولون، ولا تمدن عينيك إلى ما عندهم.</u>

أَفَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لَهُمْ (لقريش) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ (الأقوام) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ (تمشي قريش أثناء أسفارهم جنب مساكن أولئك الأقوام) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى[128] (لمن له عقل). وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ (بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة) لَكَانَ لِزَامًا (العقاب لازما لهم في الدنيا) وَأَجَلٌ مُّسَمًّى[129] (وفي تاريخ نحدده لهم). فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى[130] (بما تناله عن ذلك من الثواب)، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ (وأنت تعاني من الفقر) إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ (فئات من قريش)، زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (لينشغلوا فيه ويطغوا به)، وَرِزْقُ رَبِّكَ (وسيأتيك في المستقبل) خَيْرٌ وَأَبْقَى[131]. وَأْمُرْ أَهْلَكَ (زوجتك) بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا (لا نكلفك البحث عن الرزق) نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى[132]. وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ! أَوَلَمْ تَأْتِهِم (في القرآن) بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى[133]؟ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ (من قبل أن ننزل القرآن) لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى[134]! قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ (الكل ينتظر ما سيحصل) فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى[135].

- تعليق

تنطلق هذه السورة من مقدمة تسلي النبي عليه السلام وتثبت فؤاده وتهون عليه ما يلقاه من إعراض قريش، وتؤكد له أن الله لم ينزل عليه القرآن ليجعل منه مادة للمعاناة والشقاء، ولا ليطلب منه فرضه على قريش؛ فالقرآن إنما هو "تذكرة لمن يخشى" الله، أما من أصر على كفره وعاند فسيلقى جزاءه من عند الله. وكي تؤكد السورة هذه التسلية تسلك مرة أخرى سبيل القصص، ففي القصص عموما تسلية من حيث هو قص يشد انتباه المستمع إلى أحداثه وأبطاله ويبعده عن هموم اللحظة

الحاضرة، والقصص القرآني يتميز بخاصيتين أخريين على مستوى التسلية، تناسبان حال الرسول عليه السلام. فمن جهة بطل القصة رسول مكلف مثله برسالة تحمل تذكرة، ومن جهة أخرى قوم يعارضون ذلك الرسول ويمنعون في عناده وإيذائه، ومن جهة ثالثة تكون النتيجة دوما تعرض الطرف الطاغي المصر على رفض دعوة الرسول للعقاب في الدنيا فضلا عن عقاب الآخرة.

والقصة التي وردت في هذه السورة هي قصة موسى مع فرعون. وقد سبق أن نزل قسم منها، هو نواتها، في سورة الأعراف[19]. وإذا كانت هذه السورة التي نحن ضيوف عليها تستعيد هيكل القصة من سورة الأعراف لتضيف إليها عناصر جديدة تخص تجربة موسى في طفولته وشبابه، فإنها كسابقتها الأعراف [20] تعود لتخاطب الرسول عليه السلام وتقول له: تلك هي الآيات/المعجزات التي خصصناها للأنبياء السابقين، أما أنت فقد أعطيناك القرآن فهو معجزتك، تقرأ فيه كيف فعل ربك بالأقوام الذين كذبوا رسلهم ونوع الوعيد الذي ينتظر مشركي قومك من قريش، وهو وعيد سيتحقق لا محال. لكن لا تستعجل تنفيذه، إن الله يمهلهم لحكمة: قد يسلم بعضهم، وإن لم يفعلوا فستكون الحجة عليهم أضخم وأقوى. إن قومك يتبعون أهواءهم، فهم سجناء فيها كما اتبع آدم هواه، وبما أنه أبو البشرية جمعاء ومن أجل أن لا ينقطع الجنس البشري في المهد، ويفسد نظام العالم الذي أقامه الله لخدمة الإنسان، فقد ألهمه الله التوبة. ولما تاب آدم غفر الله له، وأخبر ذريته بما جرى حتى يكون لهم عبرة. لقد منحناهم فرصة التوبة ولكن إلى أجل. إلى يوم الحساب. فلا يهمك ما يقولون عنك وما يتهمونك به، ولا يهمك ما يتمتعون به في الدنيا، فذلك متاع فان. وسيحاسبون عليه، وستجزى الجزاء الأوفى، أنت والمؤمنون لك، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

19-انظر تفاصيل عن قصة موسى في القرآن: التعريف بالقرآن. قسم القصص في القرآن المكي المرحلة الثالثة: قصة موسى وفرعون.

20- انظر أعلاه: سورة الأعراف الفقرات 15-16-17.

48- سورة الواقعــة

- تقديـــم

روي أنه لما نزلت "إذا وقعت الواقعة" وذكر فيها "ثلة من الأولين وقليل من الآخرين" قال عمر: يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل منا (ولم يكن عمر قد أسلم مع الأولين فقد أسلم في السنة الخامسة للنبوة. فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزلت "ثلة من الأولين وثلة من الآخرين" فقال رسول الله (ص) : يا عمر تعال فاسمع ما قد أنزل الله "ثلة من الأولين وثلة من الآخرين". وهذه الرواية إن صحت تدل على أن هذه السورة نزلت حوالي السنة السادسة للنبوة أو بعدها، وهذا ينسجم مع ما ذكرناه عن سورة طه وأنها نزلت حوالي السنة الخامسة والنصف عند الهجرة الأولى إلى الحبشة،أي قبل هذه بمدة قصيرة مما يزكي ترتيبهما متتابعتين أو متقاربتين. كما روي أنهم كانوا يعجبون بوادي وَجّ وظلاله وطلحه وسدره، فأنزل الله "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود".

نص السورة

1- مقدمة: الناس عند قيام القيامة ثلاثة أصناف:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ[1] (قامت القيامة) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ[2] (لن يكذب وقوعها أحد) . خَافِضَةٌ (بعض الناس إلى النار) رَافِعَةٌ[3] (آخرين إلى الجنة)(1). إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا[4] (اهتزت بقوة) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا[5] (وفتت تفتيتا) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا[6]، وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا (أصنافا) ثَلَاثَةً[7] : فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، مَا أَصْحَابُ

1- يُحدد موقع جهنم في "أسفل سافلين" (الأرض السفلى) وموقع الجنة في "أعلى عليين" فوق السماوات تحت العرش.

الْمَيْمَنَةِ[8]؟ (هم الذين يأتون وسجلات أعمالهم بيمينهم فيذهبون إلى الجنة)! **وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ**[9]؟ (عكسهم إلى النار)، **وَالسَّابِقُونَ، السَّابِقُونَ**[10]؟ (هم السباقون إلى الإيمان والعمل الصالح)(2) ، **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**[11] (إلى الله بقلوبهم وانشغاله به)، **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**[12].

2- نعيم الجنة : السابقون المقربون، وأصحاب اليمين.

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ[13] **وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ**[14] (3) **عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ**[15] (منسوجة بالذهب)، **مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ**[16]. **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ**[17] (يهرمون ولا يموتون)، **بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ**[18] (من خمر جارية)، **لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ**[19] (لا يصيبهم الصداع من شربها ولا يسكرون)، **وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ**[20]، **وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**[21]، **وَحُورٌ عِينٌ**[22] (جوار كبير بياض أعينها) **كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**[23]: **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**[24]. **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا** (الجنة) **لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا**[25] (كلاما فاحشا ولا ما يوجب التأثيم) **إِلَّا قِيلًا** (قولا) **سَلَامًا سَلَامًا**[26]. **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ**[27] **فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ**[28] (مقطوع شوكه) **وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ**[29] (شجر الموز مصفوف متلاصق) **وَظِلٍّ مَمْدُودٍ**[30] **وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ**[31] **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ**[32]، **لَا مَقْطُوعَةٍ** (بل هي موجودة باستمرار) **وَلَا مَمْنُوعَةٍ**[33] (غالية) **وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ**[34]. **إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً**[35] (الحور العين: خلقناهن من دون ولادة) **فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا**[36] (عذارى)، **عُرُبًا أَتْرَابًا**[37] **لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ** [38] (عاشقات لهم متساويات في السن). **ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ**[39] **وَثُلَّةٌ مِنَ الْآَخِرِينَ**[40] (جماعتان متساويتان: جواب على احتجاج عمر . انظر التعليق).

3- أصحاب الشمال : في سموم وحميم ... كانوا ينكرون البعث.

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ[41]؟ : **(هم الذين يعانون) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ**[42] (ريح حارة ودخان)، **وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ**[43]، (دخان شديد السواد) **لَا بَارِدٍ**

2- هنا شبه تواز مع آية سورة فاطر رقم 32: "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ".

3- اختلف المفسرون في معنى الآية: بعضهم يجعل "ثلة من الأولين" بمعنى كثير من المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام وهم فقراء في الغالب"، و"قليل من الآخرين" (الذين أسلموا بعدهم)، وهذا المعنى يتفق مع ما روي عن عمر في الموضوع (انظر التقديم). وهو الأقرب إلى السياق.

وَلَا كَرِيمٍ[44]. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ[45]، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ[46] (وهو الشرك)، وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[47] أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[48]؟ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ[49] لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[50]. ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ[51] لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ[52]. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ[53]، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ[54]، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ[55] (شرب الإبل). هَذَا نُزُلُهُمْ (ما أُعِدَّ لهم) يَوْمَ الدِّينِ[56] نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا (هلا) تُصَدِّقُونَ[57]. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ[58] (تصبون في الأرحام من مني) ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ[59]؟ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ، وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ[60] (في الخلق، وقادرون) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ[61] (من الهيئات والأشكال). وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا (هلا) تَذَكَّرُونَ[62] (تقرون أن الله خلقكم! فلماذا لا تقرون أنه قادر على إعادة خلقكم)؟ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ[63]؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ[64]؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[65] (تندمون وتستغربون ما حدث بكم ولقلتم): (وتقولون) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[66] (صار ما أنفقناه على الحرث غرما علينا)، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[67] (أصبحنا محرومين من رزقنا): أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ[68]. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ (السحاب) أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ[69]؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا (ملحا) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ[70]؟ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[71] (تشعلون)؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا (التي تحترق) أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ[72]؟ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً (تذكر بنار جهنم) وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ[73] (للمسافرين). فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ[74].

4- قرآن كريم في كتاب مكنون، أفبهذا تكذبون؟ ...

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ[75]، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ[76]! إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ[77] فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ[78] (في اللوح المحفوظ) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ[79] (الملائكة)، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[80]. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ[81] (مكذبون)، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ (المطر الذي ينزله الله) أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ[82] (فلا تقولون إنه من الله، بل تقولون سقينا من نوء كذا)[4]، فَلَوْلَا (هلا) إِذَا بَلَغَتِ (الروح) الْحُلْقُومَ[83] وَأَنْتُمْ

4- كانت العرب تضيف الأمطارَ والرياحَ والحرَّ والبردَ إلى الأنواء وهي الساقط من النجوم جهةَ المغرب أو جهةَ المشرق، فيقولون سُقينا بنوء كذا...

(أيها المشركون) **حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ**[84] (إليه) **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ، وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ**[85] (لا ترونا)! **فَلَوْلَا** (هلا) **إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ**[86] (أي أحرارا تتصرفون كما تريدون لا حدود لقدرتكم) **تَرْجِعُونَهَا** (الروح) **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**[87] (هلا تردون الروح إلى الميت؟ لا! **ليس في مقدوركم ذلك. أما مصيره بعد أن تقبض روحه فواحد من ثلاثة**).

5- خاتمة : جزاء الأصناف الثلاثة

فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ[88] (السابقين المذكورين قبل) **فَرَوْحٌ** (راحة) **وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**[89]، **وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**[90] **فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**[91] (فهو في السلامة مثلهم، وقد سبق وصف حالهم)، **وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ**[92] **فَنُزُلٌ (فسيُستقبل بشراب) مِّنْ حَمِيمٍ**[93] **(من جهنم)، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**[94] **(ويلقى به فيها). إِنَّ هَذَا** (الذي ذكرنا) **لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**[95] **(اليقين الحق)، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**[96] **(نزه ربك من الظلم، لقد أعطى لكل ما يستحق).**

- تعليق

تناولت السورة موضوع المعاد، وتحدثت عن أصناف المصير يوم القيامة فجعلتها ثلاثة : نعيم السابقين المقربين إلى الله بقلوبهم وأعمالهم يتجنبون الكبائر والصغائر، ومصير أصحاب اليمين الذين زادت حسناتهم على سيئاتهم، ووجهتهم الجنة، ومصير المكذبين الضالين ووجهتهم جهنم. لقد تحدثنا في الاستطراد، الذي ختمنا به المرحلة الثانية من مسار التنزيل في مكة، عن خطاب الجنة والنار في القرآن المكي بوصفه سلاح الدعوة المحمدية ضد قريش بما فيه من وعيد وتخويف من جهة، وما يقوم به، من جهة أخرى، من تسلية المسلمين وتثبيتهم وترغيبهم في العمل الصالح، بما يتضمنه من وعود تنسيهم حالة الضغط والحرمان التي كانوا موضوعا لها. وقلنا إن هذا الأسلوب الذي يجمع بين الترغيب والتخويف يوضحه القرآن في غير ما آية، مثل قوله تعالى: "وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف 56).

وغني عن البيان القول إن من حق هذه السورة أن ترتب مع سور المرحلة الثانية التي ركزت سورها على موضوع المعاد، وليس ضمن سور المرحلة الثالثة التي نتحرك فيها والتي يقع التركيز فيها على إبطال الشرك وتسفيه عقول عبدة

الأصنام. ولكن بما أننا لم نجد سندا في المرويات يسمح بتغير ترتيبها فضلنا تركها في رتبتها ضمن السور التي تركز على إبطال الشرك وإقرار التوحيد. وقد رأينا أن في السورة ما يبرر موقعها ضمن هذه المرحلة، ذلك أنه يخيل إلينا أن القصد الأول في السورة ليس تأكيد البعث والحديث عن الجنة والنار، وإنما هو بيان درجات أصحاب الجنة بالتمييز بين السابقين الأولين الذين قضوا السنين الماضية على بدء الدعوة، وقد بلغت زمن نزول هذه السورة ست سنوات أو يزيد قضوها في الاضطهاد والتعذيب ومنهم من اضطر إلى الهجرة إلى الحبشة... أقول التمييز بين هؤلاء وبين الذين أسلموا حين بدأ الإسلام ينتشر ويتقوى خصوصا بعد إسلام شخصيات مثل حمزة وعمر، اللذين كان إسلامهما نقطة تحول في مسار الدعوة . وكما تساءل عمر قائلا: "يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل منا"، كما رأينا في التقديم، فلا يستبعد أن يكون أحد المسلمين الأولين قد تساءل قبل نزول السورة طارحا القضية في اتجاه آخر : قضية السبق في الإسلام، خصوصا ومن بين الذين أخذوا يلتحقون بالإسلام رجال شاركوا قبل إسلامهم في إيذاء المسلمين السابقين؟ وقد رأينا عمر يهجم على أفراد من أسرته لأنهم أسلموا (تقديم السورة السابقة). نستنتج من ذلك أن ترتيب هذه السورة قد تحكم فيه الجو الذي حدث في أوساط المسلمين عند إسلام عمر بن الخطاب.

49- سورة الشعراء

- تقديم

لعل أهم ما ورد في شأن هذه السورة أمران: أولهما يتعلق بقوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، وقد وردت في هذا الشأن روايات لعل أهمها ما يلي: فعن عائشة: قالت: لـما نزلت هذه الآية: وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِـينَ" قال رسول الله (ص): "يا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِب يا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّد يا بَنِي عَبْد المُطَّلِبِ إنِّي لا أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مالي ما شِئْتُمْ". وقيل لما نزلت هذه الآية: خاطب عليه السلام قريشا فقال: "يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِب لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يا فاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ الله لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلِينِي ما شِئْتِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا". وفي رواية أخرى: أنه عليه السلام "علا صخرة من جبل، فعلا أعلاها حَجَرا، ثم قال: يا آلَ عَبْدِ مَنافاه، يا صَباحاه، إنِّي نَذِيرٌ، إنَّ مَثَلي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ رَجُلٍ أَتى الجَيْشَ، فَخَشِيَهُمْ عَلى أهْلِهِ، فَذَهَبَ يَرْبَؤُهمْ، فَخَشِيَ أنْ يَسْبِقُوهُ إلى أهْلِهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِهِمْ: يا صَباحاه". وفي أخرى: "صعد النبي (ص) على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال (النبي): "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي". قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا". قيل: "فنزلت: "تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب" (انظر التعليق). وهناك من يأخذ هذه الروايات على أنها تتحدث عن اجتماعات متعددة بين النبي (ص) ورجال من عشيرته الأقربين، وليس عن اجتماع واحد. ومما يذكر في هذا الشأن أنه: "لما نزلت: "وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ"، بدأ بأهل بيته وفصيلته، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ".

والشيء الثاني يتعلق بقوله تعالى في هذه السورة: "والشعراء يتبعهم الغاوون". قيل: "كان شعراء بمكة يهجُون النبي (ص) منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حَرب زوجُ أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات "الشعراء".

- نص السورة

1- مقدمة: عن قريش وإصرارها على التكذيب

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم[1] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ[3]. إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً (حجارة أو ظلاما أو...) فَظَلَّتْ (تظل) أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ[4]. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ (متجدد، متكرر) إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ[5]. فَقَدْ كَذَّبُوا، فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون[6] (البعث والمصير). أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ[7]، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[8]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[9].

2- ومن الأنباء التي جاءتهم متكررة نبأ موسى وفرعون:

أ- فرعون يجادل موسى حول "رب العالمين".

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[10]، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ[11]؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي[12]، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ[13] (ليذهب معي)، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ (كان قد قتل قبطيا) فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي[14]. قَالَ كَلَّا، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ[1] مُسْتَمِعُونَ[15]، فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[16]، (يقول لك) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ[17]؟ قَالَ (فرعون) أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ[18]، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ (قتلك قبطيا) وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ[19]. قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا (ضربت الرجل)، وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ[20] (لم أكن أعلم أن ضربي إياه سيؤدي إلى قتله). فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ، فَوَهَبَ

1- موسى وهارون وفرعون.

لِي رَبِّي حُكْمًا (علما) وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ[21]. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ (استعبدت) بَنِي إِسْرَائِيلَ[22]؟ قَالَ فِرْعَوْنُ، وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ[23] (الذي بعثك إلي)؟ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ[24]. قَالَ (فرعون) لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ[25]؟ قَالَ (موسى) : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ[26]. قَالَ (فرعون لحاشيته) : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ[27]! قَالَ (موسى) : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ[28]. قَالَ (فرعون) لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ[29]. قَالَ (موسى) : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ[30]؟ قَالَ (فرعون) فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[31].

ب- موسى يلقي عصاه وينتصر على السحرة.

فَأَلْقَى (موسى) عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ[32] (عظيم)، وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ[33]. قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ[34]، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[35]؟ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ (أخر أمرهما) وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ[36] (يجمعون السحرة)، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ[37]. فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[38]. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ[39]؟ (تعالوا اجتمعوا) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ[40]. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ[41]؟ قَالَ نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[42]. قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ[43]، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ[44]. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ[45] (يموهون)، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ[46]؟ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[47]، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ[48]. قَالَ (فرعون لهم) آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ (تواطأتم معه)، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ[49]. قَالُوا لَا ضَيْرَ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ[50]. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ[51]".

ج- خروج موسى وبني إسرائيل وغرق فرعون

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى (بعد أن قضى سنين يدعو فرعون وقومه ولم يستجيبوا) أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي (بني إسرائيل)، إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ[52] (يتبعكم فرعون وقومه لردكم). فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ[53] (جامعين له الجيوش وقال لهم) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ[54]. (أي بنو إسرائيل عددهم قليل)، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ[55]

(مقلقون)، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ[56] (محتاطون). فَأَخْرَجْنَاهُمْ (أخرج الله فرعون وجيوشه) مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[57]، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ[58] (ليتبعوا بني إسرائيل). كَذَلِكَ (كان)، وَأَوْرَثْنَاهَا (بهلاكهم) بَنِي إِسْرَائِيلَ[59]. فَأَتْبَعُوهُمْ (لحقوا بهم) مُشْرِقِينَ[60] (وقت شروق الشمس)، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ[61] (من طرف فرعون وجنده)، قَالَ (موسى) كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي[62]. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ (انشق) فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ (الجبل) الْعَظِيمِ[63]. وَأَزْلَفْنَا (قربنا) ثَمَّ الْآخَرِينَ[64] (فرعون وقومه)، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ[65]، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ[66] (2)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[67]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[68].

2- ... وأنباء صراع إبراهيم مع قومه حول الأصنام ...

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ[69]، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ[70]، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ[71]. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ[72]، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ[73]. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[74]. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ[75] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ[76]! فَإِنَّهُمْ (الأصنام) عَدُوٌّ لِي (ولا أعبد) إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ[77]، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي[78]، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي[79]، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي[80]، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ[81]، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ[82]. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا (علما) وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ[83]، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ[84]، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ[85]، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ[86]، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ[87]، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ[88]، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[89]. وَأُزْلِفَتِ (قربت) الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ[90]، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ[91]، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ[92]، مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ[93]، فَكُبْكِبُوا (ألقي بهم) فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ[94]، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ[95]. قَالُوا (آلهة المشركين) وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ[96]، تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[97]، إِذْ نُسَوِّيكُمْ (الخطاب إلى ما كانوا يعبدون) بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[98]، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ[99] (الشياطين)، فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ[100]، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ[101]، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً (رجعة

2- فرعون لم يغرق كما ورد في سورة أخرى.

أخرى) فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[102]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[103]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[104].

3- ... وأنباء نوح مع قومه ... والطوفان.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ[105]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ[106]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[107]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[108]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[109](3)، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[110]. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ[111] (الفقراء والضعفاء)، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[112]، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ[113]. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ[114]، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ[115] (4). قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ[116]. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ[117]، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا (احكم بيننا) وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[118]، فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[119] (الممتلئ)، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ[120]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[121]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[122].

4- ... وأنباء عاد ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ[123]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ[124]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[125]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[126]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[127]. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ (مكان مرتفع) آيَةً (بناء) تَعْبَثُونَ[128] (تسرفون)، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ (خزانات للماء) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ[129]، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ[130]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[131]. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ[322]، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ[133]، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[134]، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[135]. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ[136]، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ

3- ربما كانوا يعرضون عليه المال والجاه إن هو كف عن أصنامهم، كما فعلت قريش مع النبي عليه السلام.

4- كذلك قالت قريش للنبي (ص) فجاءهم الجواب من القرآن : "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ" (الأنعام 52)

الْأَوَّلِينَ[137]، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[138]. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[139]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[140].

5- ... ثمود ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ[141]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ[142]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[143]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[144]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ[145]، أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ[146]، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[147]، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ[148] (عذب)، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[149] (مترفين)، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[150]، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ[151]، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ[152]. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ[153]، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[154]، قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[155] وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ[156]، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ[157]. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[158]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[159].

6- ... وأنباء قوم لوط ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ[160]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ[161]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[162]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[163]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ[164]. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ[165]، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ[166]. قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ[167]، قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ[168] (المبغضين)، رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ[169]، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ[170]، إِلَّا عَجُوزًا (امرأته) فِي الْغَابِرِينَ[171] (أهلكناها)، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ[172]، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ[173]، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[174]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[175].

7- ... وأنباء قوم شعيب ومصيرهم...

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ[176]، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ[177]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[178]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[179]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[180]. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ[181]، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ[182]، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[183]، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ (والخليقة) الْأَوَّلِينَ[184]. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ[185]، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ[186]، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا (أجساما) مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[187]. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ[188]، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ (الحريق)، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[189]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[190]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[191].

8- ختامة: تأكيد النبوة، وأنذر عشيرتك الأقربين

وَإِنَّهُ (القرآن) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[192]، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ[193]، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ[194]، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ[195]، وَإِنَّهُ (الذكر القرآني) لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ[196] (كالتوراة والإنجيل). أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ (لمشركي مكة) آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ[197] (يعرفون مجيء محمد النبي الأمي) ؟ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ[198]، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ[199]. كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ (جعلنا القرآن) فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ[200]: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[201]، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[202]، فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ[203] (ممهلون حتى نؤمن)؟ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ[204] (ألم يكونوا يستعجلونه)؟ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ[205] ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ[206]، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ[207]؟ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ[208]، ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ[209]. وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ (بالقرآن) الشَّيَاطِينُ[210]، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ[211]! إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ[212]، فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ[213]. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[214]، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ (ألِنْ معاملتك) لِمَنِ اتَّبَعَكَ (أي لمن يستجيب لك منهم وصاروا) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[215]، فَإِنْ عَصَوْكَ (أي أهلك وعشيرتك) فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ[216] (5). وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ[217]، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ[218] (للصلاة)،

5- في هذا الآيات ما يثير التباسا في الفهم. وقد حدث ذلك لبعض المفسرين. ومكمن الالتباس موضعان: أولهما عبارة : "لمن اتبعك من المؤمنين"، والمفروض أن المؤمنين جميعا يتبعونه فلماذا استعمال "مِن" هنا وهي تفيد "البعض"؟ وثانيهما عبارة "فإن عصوك"!=

وَتَقَلُّبَكَ (تحركك قائما راكعا...) فِي السَّاجِدِينَ[219] (المصلين)، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[220]. هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ[221]، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ[222] (كالكهنة والمنجمين والذين يهجون النبي من الشعراء)، (الشياطين) يُلْقُونَ السَّمْعَ (أي ما سمعوه إلى الكهنة) وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ[223]. وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[224]، أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ[225]، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ[226]، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا (للنبي والقرآن) مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا(6). وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ[227].

تعليق

تكتسي هذه السورة أهمية خاصة لورود آية "وأنذر عشيرتك الأقربين" الشيء الذي يشير، على صعيد مسار الدعوة، إلى ابتداء لحظة جديدة، هي الانتقال من دعوة الأفراد سرا وجهرا إلى دعوة الجماعة. والجماعة التي أمر النبي بالبدء بها هي "عشيرته الأقربين". وقد رأينا في التقديم تفصيل ذلك. وقد قدر بعض الرواة أن عدد الذين حضروا ليستمعوا إليه بلغ أربعين شخصا، والغالب أنهم جميعا قد سمعوا بنبوة الرسول عليه السلام وكان فيهم المؤمنون وغير المؤمنين. وقد حدد بعضهم تاريخ هذه الاجتماع في السنة الرابعة أو الخامسة. وهذا تقدير فيه نظر! لأن إسلام حمزة وعمر والهجرة الأولى إلى الحبشة، وهي أحداث وقعت في النصف الثاني من السنة الخامسة، كان قد مر عليها وقت. وإذن فلعل الأقرب إلى الصواب أن يقال إن ذلك حدث في السنة السادسة ونيف.

وهنا لابد من التذكير بأن المفسرين والرواة يقدرون الأمور حسب ترتيب المصحف ولذلك نجدهم يربطون بين رد فعل أبي لهب بعد الاستماع إلى خطاب النبي (ص) في الأقربين من عشيرته، وهو قوله "تبا لك، ألهذا جمعتنا" (يا محمد)، أقول يربطون ذلك بـــ "نزول" سورة "المسد" التي ذكروها في موقع الجواب منه عليه

فعلى من يعود الضمير؟ وسبب الالتباس هو عدم الارتباط بالسياق ككل من قوله : "وأنذر عشرتك". وقد انتبه الزمخشري إلى المعنى الكلي الذي يعطيه السياق فقال في معنى الآيات المذكورة: " أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لـــهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالـــهم من الشرك باللـــه وغيره".

6- كان في مكة شعراء يهجون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب وغيرهما... وكان هناك شعراء مسلمون يردون عليهم وهم المستثنون في الآية.

السلام على أبي لهب. وسورة المسد من أوائل السور (رقم 6 في لوائح ترتيب النزول. انظر تعليقنا بصددها: سورة المسد رقم 3). ويكفي أن يقارن المرء بين ترتيب النزول وترتيب المصحف ليلاحظ الفرق الزمني بين سورة المسد وسورة الشعراء وسورة الحجر التي ورد فيه قوله تعالى "اصدع بما تؤمر"، وهذه الآية تذكر في كتب التفسير والسيرة قبل "أنذر عشيرتك الأقربين"، مع أنها نزلت بعدها. ذلك أن ترتيب هذه السور الثلاث في المصحف هو كما يلي : سورة الحجر رقم 15 وسورة الشعراء رقم 26 وسورة المسد، 111. أما في ترتيب النزول فالسور المذكورة مرتبة كما يلي: المسد 6 الشعراء 47 الحجر 54 فالترتيبان معكوسان. والنظرة تختلف عند اعتماد أحدهما مكان الأخر. فسورة الشعراء تقع قبل سورة الحجر في ترتيب النزول وبالتالي فـ"انذر عشيرتك الأقربين" نزلت قبل "اصدع بما تؤمر" أما سورة المسد فهي سابقة لهما بمسافة طويلة.

بقي أن نشير إلى العلاقة بين مقدمة السورة التي ورد فيها قوله تعالى: "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ"[3]، وبين خاتمها التي وردت فيها الآية التي نحن بصدد : "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ". وقد سبق أن نبهنا إلى أهمية الانتباه إلى العلاقة بين المقدمة والخاتمة في السور.

فالمقدمة تطرح الموضوع الذي سيدور عليه الخطاب في السورة، ليأتي بعدها ما هو بمثابة التحليل لذلك الموضوع، ثم تأتي الخاتمة بالنتيجة من التحليل.

وبناء عليه يمكن القول إن النبي كان حين نزول السورة في حالة نفسية قلقة بسبب إعراض قريش عن الاستجابة وإصرار خصوم الدعوة الكبار، أمثال أبي جهل وأبي لهب الخ، على محاربتها بكل الوسائل، فجاءت هذه السورة لتنبه النبي أولا إلى أنه يجب أن لا يقلق ولا "يحمل الهم القاتل"، وأن عليه أن يتأسى بتجارب الأنبياء السابقين، التجارب التي عرضتها هذه السورة بشكل مركز، مكررة ما ورد سابقا من قصص الأنبياء، في فقرات مستقلة تنتهي كل منها بقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ". (عزيز قوي شديد على المكذبين، رحيم بالمؤمنين). وواضح أن استعادة مجمل القصص التي سبقت حكايتها إنما المقصود منه التخفيف من قلق الرسول لكون قومه لم يستجيبوا للدعوة، كما ورد ذلك في مقدمة السورة : "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ"[3].

وتأتي خاتمة السورة لترتبط بمقدمتها من جديد ولتؤكد للنبي أن القرآن الذي يُعرضون عنه وينكرون أن يكون من عند الله هو فعلا تنزيل من "رب العالمين، نزل به الروح الأمين" (جبريل). والدليل على ذلك أن معانيه وقصصه وتعاليمه هي نفسها

التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة، وبإمكان قريش أن تتأكد من ذلك لدى علماء بني إسرائيل فهم يجدون في التوراة ما في القرآن كما أن فيها إخبار بمجيء محمد النبي الأمي قبل ظهوره. والفرق بين الكتب السماوية وبين القرآن هو أنه لم يلحقه تغيير وقد نزل "بلسان عربي مبين" ليفهمه العرب، ولو جاءهم بلسان أعجمي لما فهموه... يلي ذلك تهديد ووعيد لمشركي قريش، ثم دعوة النبي أن "انذر عشيرتك الأقربين". يلي ذلك بيان أن القرآن ليس من إيحاء الشياطين ولا هو بتخرصات المنجمين والكهان.

وهكذا تختم بثلاثة أمور : الأول دعوة الرسول إلى الثبات على موقفه: "فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ"213. والثاني دعوته أن "أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"214. والثالث التأكيد له بأن الله يراه ويرعاه، وأن لا يهتم بهجاء الشعراء المشركين له ولا بمن يرددون شعرهم : "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ224، أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ225، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ226 ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا (للنبي والقرآن) مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا[7]. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"227.

وهذا نرى أن السورة كلها تدور حول ما بدأت به : "لَعَلَّكَ (يا ممد) بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ". هدفها تبديد ذلك الهم وتسلية حامله وتثبيت فؤاده وتقوية عزيمته.

بقي علينا أن نشير إلى الطابع الخاص ب"بنية" هذه السورة، ولعل الزمخشري هو الوحيد بين المفسرين الذي لاحظه وأبرزه. قال: "كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تُدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها. ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان. ولأن هذه القصص طُرقت بها آذان ووُقِرَت عن الإنصات للحق، فكوثِرت بالوعظ والتذكير ورُوجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذِهناً". وهذا الذي لاحظه الزمخشري ينطبق في الحقيقة على سبع سور متتابعة أولها هذه، وسنعود إلى هذا الموضوع في الآخرة منها.

7- كان في مكة شعراء يهجُون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حَرب زوجُ أبي لهب وغيرهما... وكان هناك شعراء مسلمون يردون عليهم وهم المستثنون في الآية.

48 - سورة النمل

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى أنها مكية باتفاق، وأنها من السور التي تحمل أكثر من اسم واحد، إذ تسمى سورة سليمان أيضا، وأنها نزلت بين سورة الشعراء وقبل سورة القصص، كما في لوائح ترتيب النزول. ولعل غياب روايات أسباب نزول الآيات عن هذه السورة أن القسم الأعظم منها استعادة لقصص سبق أن قصها القرآن في سور سابقة (مع التوسع في قصة سليمان). أما باقي السورة فهو تقريع للمشركين. وهذه السورة تشبه في بنيتها السورة السابقة (انظر التعليق).

- نص السورة

<u>1- مقدمة: إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ[1]**، هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**[2]**، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**[3]**. إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ**[4] (يتحيرون)، **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**[5]**. وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**[6] (فذكرهم بالقصص التالية).

<u>2- إلى فرعون ... فانظر كيف كان عاقبة المفسدين!</u>

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا (رأيت) **سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ** (نهتدي به بعد أن ضللنا الطريق) **أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**[7] (تستدفئون). **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** (أي موسى) **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**[8]**. يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**[9]**. وَأَلْقِ عَصَاكَ! فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ** (حية) **وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** (لم يرجع). **يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي**

لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ[10]، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ[1] فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ[11]. وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ. (اذهب) فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[12]. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً (فاعلة مؤثرة) [2] قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[13]. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا (جحدوا بها ظالمين متكبرين بعد أن تأكدوا منها)، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"[14]

3- بلقيس: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ... وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ!

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ[15]. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ[16]. وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[17] (يجمعون ويساقون)، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ[3] قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[18]، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ[19]. وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ، فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ (هو) مِنَ الْغَائِبِينَ![20] لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي (إلا إذا استطاع أن يأتيني) بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[21]. فَمَكَثَ (الهدهد زمنا) غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

1- قد يكون المراد هنا هو موسى: فقد ظلم بقتله القبطي ثم بدل حسنا بعد سوء، أي تاب.

2- في التوراة: أن إله موسى ضرب فرعون وقومه عشر ضربات (بعشر آيات) قبل أن يذعن فيسمح لبني إسرائيل بالخروج مع موسى إلى فلسطين. كان فرعون يتوسل بعد كل ضربة إلى موسى ليدعو ربه ليمحو الضربة، واعدا إياه بإطلاق سراح بني إسرائيل، وبمجرد ما تزول الضربة ينكث فرعون وعده فتأتي الضربة الثانية وهكذا إلى عشر ضربات هي: الأولى ضرب موسى بعصاه ماء النيل (أو البحر) فتحول إلى دم، الثانية دعا موسى ربه فسلط الله على فرعون وقومه الضفادع، وفي الثالثة سلط عليهم البعوض فغزا بيوتهم، وفي الرابعة هاجمتهم أسراب من الذباب، وفي الخامسة أهلك الله مواشيهم كلها، وفي السادسة أصيبوا بدماميل متقيحة، وفي السابعة أمطروا بعواصف من البرَد، وفي الثامنة غزاهم الجراد، وفي التاسعة خيم عليهم ظلام كثيف، وفي العاشرة أهلك جميع الأبكار من مصر، أبكار البشر وأبكار الحيوان... وبعد هذه أذعن فرعون وسمح لبني إسرائيل بالخروج. (التوراة: سفر الخروج، 10/7) والقرآن أشار إلى تسعة زائدا العصا فالمجموع عشرة.

3- يقال: بالشام.

(لِسليمان): أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ (قبيلة في اليمن) بِنَبَإٍ يَقِينٍ[22]: إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ (هي الملكة بلقيس) وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ[23]؟ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ[24] : (زين لهم الشيطان) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ (ما هو مختبئ) فِي السَّمَاوَاتِ (المطر) وَالْأَرْضِ (النبات) وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ[25]. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ[26]. قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[27]! اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ[28] (كيف سيكون جوابهم)، (ذهب الهدهد وألقى إلى بلقيس الكتاب، فقرأته وخاطبت قومها) قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[29] (ونصه): إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ[30]، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[31]. قَالَتْ (الملكة بلقيس) يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ[32] (إلا بمحضركم). قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ[33]. قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[34] [(4)]. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ [(5)] فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ[35]. فَلَمَّا جَاءَ (رسول بلقيس) سُلَيْمَانَ قَالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ! فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ، بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[36] (أنتم محتاجون إليها). ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا (لا يستطيعون مقاومتهم) وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ[37]. قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[38] (مستسلمين)؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ[39]. قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ (عالم من أهل الكتاب) أَنَا آتِيكَ بِهِ (بعرشها) قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (في رمشة عين)، فَلَمَّا رَآهُ (رأى سليمان العرش) مُسْتَقِرًّا عِندَهُ، قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ. وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ[40]. قَالَ (سليمان) نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا (أي غيّروه إلى حال لا تتعرف

4- اختلف المفسرون في "وكذلك يفعلون" هل هو من قولها، "أي عادة الملوك المستمرة تلك من الإفساد والتذليل، وكانت ناشئة في بيت الملك، فرأت ذلك وسمعت. ذكرت ذلك تأكيداً لما ذكرت من حال الملوك. وقيل: هو من كلام الله إعلاماً لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمته، وتصديقاً لإخبارها عن الملوك إذا تغلبوا". وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس.

5- تريد اختباره بالهدية، إن قبلها فهو ملك وإن رفضها فهو نبي".

عليه إذا رأته) نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ[41]. فَلَمَّا جَاءَتْ (الملكة أروها العرش): قِيلَ (لها) أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ. (فقال سليمان) وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ[42]. وَصَدَّهَا (عن الإسلام: الإيمان بالله) مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ[43]. قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ (حوضا من زجاج) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً (ماء) وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا (كي لا يبتل ثوبها)، قَالَ (لها سليمان) إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ (حوض من زجاج) قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[44] (6).

4- قوم ثمود: أقسموا أن يقتلوا النبي صالح ... فدمر الله بيوتهم!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ (مؤمنون به ومكذبون) يَخْتَصِمُونَ[45]، قَالَ (للمكذبين) يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ؟ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[46]، قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ (من المؤمنين). قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (7) بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ[47].

6- ذكر بعض المفسرين الذين ينقلون عن الاسرائيليات أن الملك سليمان تزوجها الخ. أما في التوراة فقد ورد أنه "عِنْدَمَا بَلَغَتْ أَخْبَارُ سُلَيْمَانَ "مَسَامِعَ مَلِكَةِ سَبَأ، قَدِمَتْ لِتَلْقِي عَلَيْهِ أَسْئِلَةً عَسِيرَةً، 2فَوَصَلَتْ أُورُشَلِيمَ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ جِداً، وَجِمَالٍ مُحَمَّلَةٍ بِأَطْيَابٍ وَذَهَبٍ وَفِيرٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ... 4وَلَمَّا رَأَتْ مَلِكَةُ سَبَأ كُلَّ حِكْمَةِ سُلَيْمَانَ، وَشَاهَدَتِ الْقَصْرَ الَّذِي شَيَّدَهُ، 5وَمَا يُقَدَّمُ عَلَى مَائِدَتِهِ مِنْ طَعَامٍ، وَمَجْلِسَ رِجَالِ دَوْلَتِهِ، وَمَوْقِفَ خُدَّامِهِ وَمَلابِسَهُمْ... 6قَالَتْ لَه:إِنَّ الأَخْبَارَ الَّتِي بَلَغَتْنِي فِي أَرْضِي عَنْ أُمُورِكَ وَحِكْمَتِكَ هِيَ حَقّاً صَحِيحَةٌ. 7وَلَمْ أُصَدِّقْهَا فِي بَادِئِ الأَمْرِ حَتَّى جِئْتُ وَشَاهَدْتُ، فَوَجَدْتُ أَنَّ مَا بَلَغَنِي لا يُجَاوِزُ نِصْفَ الْحَقِيقَةِ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ حِكْمَتَكَ وَصَلاحَكَ يَزِيدَانِ عَمَّا سَمِعْتُهُ مِنْ أَخْبَارِكَ... 10وَأَهْدَتِ الْمَلِكَ مِئَةً وَعِشْرِينَ وَزْنَةً (نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلافٍ وَثَلاثِ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ كِيلو جْرَاماً) مِنَ الذَّهَبِ وَأَطْيَاباً كَثِيرَةً وَحِجَارَةً كَرِيمَةً، فَكَانَتِ التَّوَابِلُ الَّتِي أَهْدَتْهَا مَلِكَةُ سَبَأ لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ مِنَ الْوَفْرَةِ بِحَيْثُ لَمْ يُجْلَبْ مِثْلُهَا فِي مَا بَعْدُ". ولم يرد ما يفيد أنه تزوجها على الرغم مما ذكرت التوراة من أن "سُلَيْمَانُ أُولِعَ بِنِسَاءٍ غَرِيبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، فَضْلاً عَنِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، فَتَزَوَّجَ نِسَاءً مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ، 2وَكُلُّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ الأُمَمِ الَّتِي نَهَى الرَّبُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ الزَّوَاجِ مِنْهُمْ قَائِلاً لَهُمْ: «لا تَتَزَوَّجُوا مِنْهُمْ وَلا هُمْ مِنْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُغْوُونَ قُلوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». وَلَكِنَّ سُلَيْمَانَ الْتَصَقَ بِهِنَّ لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُنَّ. 3فَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةِ زَوْجَةٍ، وَثَلاثُ مِئَةِ مَحْظِيَّةٍ، فَانْحَرَفْنَ بِقَلْبِهِ عَنِ الرَّبِّ. 4فَاسْتَطَعْنَ فِي زَمَنِ شَيْخُوخَتِهِ أَنْ يُغْوِينَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى" فعبد ... عَشْتَارُوثَ آلِهَةَ الصَّيْدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ إِلَهَ الْعَمُّونِيِّينَ الْبَغِيضَ، 6وَارْتَكَبَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعْ سَبِيلَ الرَّبِّ بِكَمَالٍ كَمَا فَعَلَ أَبُوهُ دَاوُدُ". (كتاب الملوك الأول).

7- شؤمكم عند الله: يعني هو السبب في التشاؤم والتفاؤل.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ (مدينة ثمود: الحجر) تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ[48]، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ (أقسموا بالله) لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ (نقتلهم ليلا) ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[49]. وَمَكَرُوا مَكْرًا، وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[50] (8). فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ[51]. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا (بسبب ظلمهم، تعرفها قريش لأنها في طريقهم إلى الشام) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[52]، وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[53].

5- قوم لوط: قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حجرا

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ[54]؟ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[55]. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ[56]. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ[57] (قضينا أن تكون منهم)، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (حجارة) فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ[58].

6- أَاللَّهُ خَيْرٌ أم ما يُشْرِكُونَ؟... هم قوم منحرفون!

قُلْ (يا محمد) الْحَمْدُ لِلَّهِ (على هلاك كفار الأمم الماضية) وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى. أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا (أم ما) يُشْرِكُونَ[59]، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا! أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (هل من إله آخر أعان الله على ذلك)، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ[60] (عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام)؟ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (هادئة) وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (جبالا) وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ (النيل العذب والبحر الأحمر المالح) حَاجِزًا (حجز كلا منهما فلا يدخل في مجرى الآخر)؟ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[61]، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ[62]. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[63]. أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ

8- خططوا حيلة وخططنا حيلة، فكان هلاكهم.

مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[64]. قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ[65]. بَلْ ادَّارَكَ (هل أدرك) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ[66].

7- لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرُونَ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا، أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ[67]؟ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[68]! قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ[69]. وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ[70]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[71]، قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ (قريب منكم) بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ[72]. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ[73]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ[74]، وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[75]. (ومن الأمور الغائبة عن الناس أخبار الماضي مثل اختلاف بني إسرائيل): إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[76] (9)، وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[77]. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ (يوم القيامة) بِحُكْمِهِ (علمه وعدله) وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ[78]. فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ[79]. إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ[80] (خصوصا إذا ابتعدوا). وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ! إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ[81]. وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ[82] (10).

---

9 - وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء تخص دينهم.

10- ذهب المفسرون في شر ح هذه الآية مذهبا لا يتسق مع أسلوب القرآن في الدعوة والإقناع، والذي جرهم إلى ذلك ما انتقل إليهم من الموروث القديم وأساطير الأولين حول ما نسج حول "دابة" يقال إنها هي التي يبتدئ بها قيام الساعة. ومثل هذا التفكير لا يتسق مع منهج القرآن. ونحن نرى أن الرجوع إلى السياق يغني عن جميع تلك الخزعبلات. فلقد وصف قريش بالصمم والعمي: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ" فهم كالدواب، ففي هذا الإطار يجب فهم الآية أعلاه: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ"، والمعنى: هم لا يسمعون كلام العقل فهم دواب، من أجل ذلك قررنا أنه يوم تقوم القيام وينادون للحساب نبعث بدابة تكلمهم، وتخبرهم أن الناس الناجين يوم القيامة كانوا في الدنيا يوقنون بآيات الله. هم دواب فلا يفهمون إلا كلام الدواب. وهذا على سبيل السخرية.

8- قيام الساعة وجهنم للمشركين: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[83] (يجمعون بردّ آخرهم إلى أولهم ثم يساقون)، حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ (لهم الله) أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا؟ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[84]؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ[85]. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[86]. وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[87] (صاغرين). وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ : صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ[88]. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ[89]، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[90].

9- خاتمة: فَمَنْ اهْتَدَى فلنفسه وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنْذِرِينَ.

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي(11) حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ[91]، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ. فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنْذِرِينَ[92]، وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[93].

- تعليق

تنطلق هذه السورة كسابقتها من الإشارة إلى آيات القرآن "تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ"، والمقصود العلامات والحجج والمعجزات التي خص الله بها أنبياءه وقص أخبارها في هذه السورة. ثم تخاطب السورة الرسول عليه السلام لتؤكد له أن أخبار هذه الآيات تأتيه من الله بواسطة جبريل": وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ"، وليس من الشياطين كما يدعي الكهان والقصاص أنهم يتلقون منها أكاذيبهم.

11- قرئ: "التي" أي مكة التي عظم الله حرمتها؛ أي جعلها حرما آمنا؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر".

بعد ذلك تأخذ السورة عرض هذه الآيات فتذكر بتكليم الله موسى وتلكيفه بفك أسار بني إسرائيل من عسف فرعون والخروج بهم من مصر... ومن قصة موسى تنتقل إلى سليمان وقصته مع الملكة بلقيس ملكة اليمن وما تحمله تلك القصة، التي يقصها القرآن لأول مرة، من دروس وعبر... ثم تعود إلى قصة صالح مع قومه ثمود فتضيف عناصر جديدة بالنسبة لما ورد عنها في السورة السابقة، ثم تذكر بقصة لوط، لتتجه بعدها إلى قريش باللوم والتقريع على عبادتهم الأصنام، مطالبة إياهم أن يستعملوا عقولهم، فيقارنوا بين ما يخلق الله وما يعطي، وبين أصنامهم التي يعبدون وهي لا تسمع ولا تنفع... ثم تخاطب الرسول وتنصحه بعدم الانشغال بهم : "وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" لتتخلص إلى التأكيد على البعث والحساب والعقاب. والتأكيد على أنهم سينالون جزاءهم يوم تقوم الساعة.

وأخيرا تختم السورة مستعيدةً ما طرحته في المقدمة طالبة من الرسول (ص) أن يعبد الله ويتلو القرآن: "فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنْذِرِينَ"

واضح إذن أن هذه السورة تُثَنِّي السورة السابقة وتكررها شكلا ومضمونا، وأيضا على صعيد فواتح السورة : السورة السابقة فاتحتها الحروف ط. س. م والسورة الحالية فاتحتها الحرفان: ط. س. والسورة التالية فاتحتها ثلاثة كالأولى : ط. س. م ، ولذلك تسمى هذه السور بـ"الطواسين".

49- سورة القصص

- تقديم

يذكر المفسرون أن قوله تعالى في هذه السورة : "إنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبتَ" نزل في أبي طالب لما حضرته الوفاة وطلب منه الرسول أن يسلم، فامتنع... وورد في إحدى الروايات أنه: لما مات أبو طالب اشتدّ ذلك على النبيّ (ص) فقالوا للنبي: ما تنفع قرابة أبي طالب منك؟ فقال: «بَلي والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنه السّاعَةَ لَفِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النّار، عَلَيْهِ نَعْلان مِنْ نار، تَغْلِي مِنْهُما أُمُّ رأسه، وما مِنْ أهْلِ النّار مِنْ إنْسانٍ هُوَ أهْوَنُ عَذَابا مِنْهُ، وَهُوَ الّذِي أنْزَلَ اللّهُ فِيهِ إنّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ، وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ، وَهُوَ أعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ" (رواه الطبري). ومثل هذا الكلام من الصعب تصديق صدوره عن النبي (ص) علما بأن أبا طالب هو الذي تكفل به منذ صغره وأنه هو الذي حماه من أذى قريش إلى أن توفي. ونحن لا نستبعد أن تكون هذه الرواية موضوعة. فأبو طالب هو ولد علي بن أبي طالب، وكان الطالبيون أي العلويون في نزاع مع العباسيين حول الخلافة كما هو معروف. أما في رواية أخرى فقد ورد العكس، قالوا : قال له الرسول : "لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك"، وأضاف بعضهم : فأنزل الله عز وجل "ما كانَ للنَبيِّ وَالَّذينَ آمَنوا أن يَستَغفِروا للمُشركِينَ وَلو كانوا أولي قُربى" وهذه الآية مدنية من سورة التوبة. أما سورة القصص فهي مرتبة في لوائح ترتيب النزول تحت رقم 49، وموقعها في هذه الرتبة يدل على أنها نزلت قبل وفاة أبي طلب بسنتين أو ثلاث. ومما يوهن الرواية التي تربط بين آية سورة القصص وآية سورة التوبة وجود روايات أخرى تجعل سبب نزول آية التوبة مناسبات أخرى (انظر التفاصيل في الطبري).

- نص السورة

1- مقدمة: آيات الكتاب ... ونريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ...

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم[1]، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]. نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[3]: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ

طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ[1] إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[4]. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ (بنو إسرائيل: بتخليصهم من فرعون) وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً (ملوكا)[2] وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ[5] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ[3]، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ[6] (وهو أن يفنى ملكهم على يد موسى. هامان: رئيس جيش فرعون).

2- قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ (كبراء القوم) يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ...

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[7]. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (بدون أن يخطر ببالهم ذلك)، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ[8]. وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ (وقد همَّ على قتل الصبي موسى، اجعله) قُرَّةُ عَيْنٍ لِي. لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[9] (بما سيكون نتيجة لذلك). وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى (لما علمت بالتقاطه) فَارِغًا (إلا منه) إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ (حتى إنها كادت أن تصرح بأنه ابنها) لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[10]. وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (استقصي أخباره)؛ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ (عن بعد) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[11]. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ (فصار لا يقبل أية مرضعة)، فَقَالَتْ (لهم أخته) هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ[12]. (فوافقوا، وذهبت لتأتي بأمه) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[13]. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا (حكمة) وَعِلْمًا (نبوة)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[14]. وَدَخَلَ (موسى) الْمَدِينَةَ (مدينة فرعون) عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ : هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى (ضربه بجمع كفه) فَقَضَى عَلَيْهِ. قَالَ (موسى) هَذَا (العمل أي قتله الرجل) مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ[15]. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

---

1 - انظر سورة الأعراف (رقم 39) هامش 25

2- "وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً" (المائدة 20).

3- يسيطرون على بلدان، كما حدث زمن داوود وسليمان.

الرَّحِيمُ[16]. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا (معينا) لِلْمُجْرِمِينَ[17]. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (ما سيفعلون به بعد قتله الرجل)، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ (يستغيث به من جديد على قبطي آخر) قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ (غاو للقتل) مُبِينٌ[18]. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا (للمستغيث ولموسى)، قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ[19] (4). وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ (كبراء القوم) يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ(5) فَاخْرُجْ (من المدينة) إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ[20]. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (بحذر)، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[21]. وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ (نحو) مَدْيَنَ(6) قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ[22]. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً (جماعة) مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ (ماشيتهم)، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ (قريبا منهم) امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (تمنعان أغنامهما من الماء). قَالَ مَا خَطْبُكُمَا (ما بكما)؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ (يصرف رعاة الأغنياء غنمهم بعد الشرب) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ[23] (لا يقوى على سقي الغنم). فَسَقَى لَهُمَا (من بئر أخرى) ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي، لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ، فَقِيرٌ[24]. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا. فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ (قصة قتله القبطي وخوفه أن يقتلوه) قَالَ (له شعيب) لَا تَخَفْ! نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[25]. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ (اجعل منه أجيرا يرعى غنمنا)، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ[26] (فهو قوي أمين). قَالَ (شعيب لموسى): إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ (أزوجك) إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ (أن تكون أجيرا راعيا لي ثماني سنين) فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ (تبرعا)، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ. سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[27]. قَالَ (موسى ليكن) ذَلِكَ.

---

4 – سمع ذلك القبطي عتاب موسى لصاحبه فعلم أن القاتل هو موسى، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون الذباحين بقتل موسى فاتجهوا إليه.

5 – يتشاورون لقتلك بالقبطي الذي قتلته أمس.

6 - وهي مدينة نبي الله شعيب، وهو مثله من نسل إبراهيم.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ (ليس في أي المدتين قضيت ضرر بي) وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ[28].

3- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ (المدة التي التزم بها مع شعيب) وَسَارَ بِأَهْلِهِ (بزوجته، بنت شعيب، إلى مصر) آنَسَ (أبصر) مِنْ جَانِبِ (جبل) الطُّورِ نَارًا! قَالَ لِأَهْلِهِ (وكان قد ضل الطريق) امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ (يرشدنا إلى الطريق)، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[29] (تستدفئون). فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ (جانب) الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ[(7)] أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[30]، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ! فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ (حية) وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ. (ناداه الله) يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ[31]. اسْلُكْ (ادخل) يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (جيب قميصك) تَخْرُجْ (العصا) بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ (يدك، تتحرر) مِنَ الرَّهْبِ. فَذَانِكَ (العصا واليد) بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[32]. قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ[33]؛ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا (معينا) يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ[34]. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا؛ بِآيَاتِنَا، أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا، الْغَالِبُونَ[35]. فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى، وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ[36]. وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[37]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ (الكبراء) مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ (وزيره) عَلَى الطِّينِ (اطبخ الطين واصنع منه آجورا) فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا (مكانا عاليا، هرما؟) لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ[38]. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ[39]. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[(8)] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ[40]، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

7- التي كان عندها لقاؤه مع الله. وقيل إن الصوت كان يأتيه من داخلها، وهي شجرة "العليقة" التي يقال إن النار كانت تنبعث منها دون أن تحترق.

8 – انظر تفصيل ذلك في التعريف بالقرآن. القصص في القرآن. قصة موسى وفرعون. السورة السابقة

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ (إلى ما يؤدي إلى جهنم)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ[41]. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ[42] (المُبعَدين). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ (الأمم) الْأُولَى، بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[43].

4- وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ...

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ (من جبل طور) إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ (كلفناه بالرسالة)، وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ[44] (ما كنت يا محمد حاضرا وإنما قصصنا عليك ذلك عبرة)، وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا (أمما بينك وبين موسى) فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ (طالت المدة على الناس فنسوا)، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا (مقيما) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ[45] (ذلك إليك بالوحي). وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا (موسى)، وَلَكِنْ (أطلعناك على ذلك) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ (هم العرب) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[46]. وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا (هلا) أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[47]! فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا (هلا) أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى (كتابا منزلا دفعة واحدة)! أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ: قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا (تعاونا علينا)، وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ[48] (9). قُلْ (لقريش) فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا (من كتاب موسى وكتاب محمد) أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[49]. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[50].

5- وصلنا القول لقريش من خلال النصارى الموحدين

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ (قصصنا لقريش خبر الأنبياء السابقين) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[51]. (أما) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ (الرسول محمد فـ) هُمْ بِهِ

9- "أَوَلَمْ يَكْفُرُوا ...". من المفسرين من جعل الضمير يعود على قريش وأوردوا لتعزيز ذلك "سبباً للنزول" مؤداه: "أن أهل مكة بعثوا رجالا منهم إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمر محمد (ص) فأجابوهم : "إنا نجده في التوراة بنعته وصفته". فلما رجع مبعوثو قريش إلى مكة وأخبروا أهلها بما قال اليهود، قالوا: "إنا بكلٍ" من الكتابين كافرون.

يُؤْمِنُونَ[52] (10). وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ[53]. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[54]. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ[55].

6- إنك لا تهدي من أحببت، التعرض للأصنام.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (قيل الإشارة إلى عميه أبي جهل وأبي طالب) وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[56]. وَقَالُوا (قريش) إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا (تنتزع منا أرضنا). أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا (مكة) آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[57]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا (كفرت وتبخترت) فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ (مهدمة على الطريق إلى الشام)، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ[58]. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا (كبراها، عاصمتها) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ[59]. وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ[60]. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا (في الآخرة) فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[61] (للحساب، ثم النار). وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ (إلله) فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ (الأصنام) الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ[62]؟ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (الشياطين من ذرية إبليس الذين أضلوهم) رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ، كَمَا غَوَيْنَا : تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ[63]. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ! فَدَعَوْهُمْ (استغاثوا بهم) فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ. لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ [64] (لما رأوه)! وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ (الله) فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ[65]؟ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ (لم يعرفوا بما يجيبون) يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ[66]. فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ[67]. وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[68]. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

10- ذكروا أن رجالا ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل كانوا يؤمنون بالرسول محمد وينتظرون ظهوره. وأن آخرين من الشام وكانوا أئمة النصارى، فيهم أنزل الله تعالي هذه الآية والتي بعدها "أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا". وهؤلاء كانوا من النصارى الأريوسيين الموحدين. انظر التعريف بالقرآن. الفصل الأول والثاني.

وَمَا يُعْلِنُونَ[69]. وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[70]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ[71]؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[72]؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[73]. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ[74]؟ وَنَزَعْنَا (أخرجنا) مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (عليهم هو نبيهم) فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[75].

7- قارون وقوة المال ... والمصير.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ (ثقيلة عليهم)، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ[76]. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[77]. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (المال) عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي[11]، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا، وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ[78] (لا يسألون لماذا اقترفوها، فالمهم أن الجريمة ثابتة). فَخَرَجَ (قارون) عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[79]. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ[80]. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ[81]. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ! لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا! وَيْ كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ[82]! تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[83]. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[84].

---

11 – المعنى: أعطاني ذلك مع كونه عالماً بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل، وعندي أن الأمر كذلك.

8- خاتمة: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ[12] لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ (إلى الجزاء) [13]: قُلْ (لهم) رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[85]. وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ[86] (لا تضعف ولا تيأس فيكون ذالك نصرا للكافرين)! وَلَا يَصُدُّنَّكَ (الضعف واليأس) عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[87]. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[88].

- تعليق

تنطلق هذه السورة كسابقتها من تحديد موضوع الخطاب فيها فتشير إلى أنها ستعرض آيات ودلائل وحجج من "الكتاب الحكيم"، الذي يضم الحكمة المبثوثة في "كتاب التاريخ"، تاريخ الأنبياء مع أقوامهم، كما في كتاب الطبيعة التي ينطق نظامها واطراد أحوالها بدروس لمن يتفكرون. كان الغرض من الخطاب في السورة قبل الأخيرة، سورة "طسم" الأولى، طمأنة النبي عليه السلام والتخفيف من قلقه من استمرار قريش في الإعراض عن الإيمان به حتى بات يخشى من فشل دعوته؛ وكان الهدف في السورة الثانية (طس) فعل الشيء نفسه بالنسبة لأصحابه المؤمنين بإطلاعهم على آيات من القرآن فيها "هدى وبشرى للمؤمنين"، المقيمين للصلاة والمؤتين الزكاة والموقنين بالآخرة، بأن لهم الجنة. أما الذين لا يؤمنون بالآخرة المنساقين مع أهوائهم والذين لا يعرفون للحياة معنى آخر غير إشباع شهواتهم، فهم الذين سيخسرون في الآخرة ويكون مصيرهم العذاب.

12- فرض عليك القرآن: جعل القرآن من نصيبك، كما جعل التوراة من نصيب موسى. قارن الفرائض: توزيع الإرث.

13- اختلفت تأويلات المفسرين لهذه الآية، فمنهم من فسر "المعاد" هنا بوعد بالرجوع إلى مكة، ومنهم من قال إنه "الجنة" الخ، يدورون مع المعنى اللغوي للكلمة. أما نحن فنرى أن المعنى الذي يفرضه السياق هو "المعاد" بمعنى يوم الحساب والجزاء، الشيء الذي يعني أن النبي (ص) سيجازى يوم القيامة كبقية البشر، وأنه واقع هو الآخر كالبشر جميعا تحت طائلة الوعد والوعيد. والآيات التالية صريحة في هذا المعنى : قوله تعالى "فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ" وقوله: وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، وهذا مصداقا لقوله تعالى في آيات أخرى مثل قوله: " وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" (الإسراء 74-75).

أما موضوع السورة التي نحن ضيوف عليها، ثالثة الطواسين، فهو بيان كيف أن الله يريد أن يمن وينعم على الذين استضعفوا ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، يمكنهم لهم في الأرض. وقد اتخذت السورة من قصة موسى مع فرعون وسيلة لهذا البيان ودليلا تاريخيا على صدقه وحتمية تحقيقه.

وهكذا تبدأ السورة في عرض تفاصيل هذه القصة من البداية : كان فرعون يقتل المواليد (الذكور) لطائفة من شعبه لأنه قيل له إن زوال ملكه وهلاك جنده وحاشيته سيكون على يد واحد من أولئك المواليد. ومن أجل إزالة هذا الطغيان هيأ الله الظروف لمولود لأحدى الأمهات من الطائفة المضطهدة حتى أصبح يعيش، ومعه أمه وأخته، في قصر فرعون تحت رعاية زوجة هذا الأخير. كان الهدف من ذلك تمكينه من الإفلات من المصير الذي فرضه فرعون على الذكور من مواليد بني إسرائيل... كبر موسى وصار شابا فهيأ له الله الظروف التي جعلته يقتل قبطيا، فيخاف أن يعتقل، ويهرب إلى مدين سيعيش مع نبيها الرجل الصالح شعيب الذي زوجه ابنته واقترح عليه البقاء معه عشر سنين قبل أن يعود هو وأهله إلى مصر. وفي الطريق إلى مصر كلمه الله تكليما وكلفه بالذهاب إلى فرعون والعمل على تحرير بني إسرائيل من طغيانه، والرجوع بهم إلى فلسطين التي كانوا قد غادروها إلى مصر زمن يوسف. ومع امتناع فرعون وجدله في كون موسى نبيا من عند الله، وإنكاره أن يكون هناك إله غيره، منح الله لموسى آيات معجزات مكنته من الخروج ببني إسرائيل من مصر. ولما علم فرعون بذلك لحق بهم يتقدمه جنوده فغرقوا في البحر بينما أنجى الله فرعون ليبقى ذكره درسا للطغاة ...

بعد هذه القصة تعود السورة إلى مخاطبة الرسول لتؤكد أن هذا الذي قصته عن فرعون هو وحي من الله إليه ورسالة إلى قومه قريش الذين تأخذ السورة في تقريعهم وتأنيبهم وتسفيه أصنامهم الخ. ثم تعود إلى قارون الذي كان من قوم موسى يمثل طغيان المال كما كان فرعون يمثل طغيان السلطة. وبينما كان يقيم حفلا ضخما إشهارا لثروته، إذا بالأرض تخسف به فما أنقذه ماله ولا المعجبون به: "وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ! لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا (بالقناعة) لَخَسَفَ بِنَا! وَيْ كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ".

وأخيرا تختم السورة، مستعيدة موضوعها من المقدمة، مخاطبة الرسول عليه السلام: : "وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ[86] (لا تضعف فيكون ذالك نصرا للكافرين)! وَلَا يَصُدُّنَّكَ (الضعف واليأس) عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[87].
واعلم أن "الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ" (انظر أعلاه هامش رقم 13).

50- سورة يونس

- تقديم

ذكر المفسرون مرويات في موضوع نزول بعض آيات هذه السورة وهي مرويات تنحصر فائدتها في كونها تشير إلى بعض جوانب العلاقة بين مشركي مكة والنبي عليه السلام. من ذلك ما رووه حول قوله تعالى في مستهل هذه السورة "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ". قالوا، عن ابن عباس: "لما بعث الله محمد رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا له : الله اعظم من أن يكون رسوله بشرا، فأنزل الله تلك الآية، وأنزل "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا" الآية. فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشرا فغير محمد كان أحق بالرسالة! لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل ردا عليهم : "أهم يقسمون رحمة ربك" الآية.

وفي قوله تعالى: "وَإِذا تُتلى عَلَيهُم آياتُنا بيِّناتٍ قالَ الَّذينَ لا يَرجونَ لقاءَنا"،روي أنه نزل في خمسة من مشركي مكة، قالوا للنبي (ص): ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى. وقال بعضهم: نزلت في المستهزئين حين قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا، فيه ما نسألك.

والملاحظ أن جل هذه المرويات تذكر كمناسبات لنزول آيات أخرى، مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن ما يروى كأسباب نزول هو في الغالب اجتهادات الهدف من رواتها ربط آية أو آيات بحوادث سبقت أو تأخرت عن نزول الآية، وأن فائدة هذه المرويات تقع على محيط التفسير. من أجل ذلك يجب أن لا يتعدى الأخذ بها مجال الاستئناس لأخذ فكرة عن بعض جوانب تطابق أو توازي مسار التنزيل ومسار السيرة. أما الفهم فيجب الاعتماد فيه على السياق ومبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا" ومراعاة معهود العرب على العموم.

- نص السورة

1- مقدمة : أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ[1]. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ! قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ[2]

2- كما يبدأ الخلق يعيده، والجزاء : الجنة أو النار.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[3]؟ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا. إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (في الدنيا) ثُمَّ يُعِيدُهُ (عند قيام الساعة) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[4]. هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ (القمر)[(1)] مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ. مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[5]. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ[6]. إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ[7]، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[8]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[9]، دَعْوَاهُمْ فِيهَا: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[10].

3- جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ (أي نتائج أعمالهم السيئة) اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ، (ولكن نمهلهم) فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ

1- لأن العرب كانوا يعتمدون السنين القمرية.

يَعْمَهُونَ[11] (يترددون متحيرين). وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ (مريضا مستلقيا) أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[12]. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ (يا قريش) لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ[13]. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ (يا قريش) خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[14].

4- قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ!

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ؟ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ؛ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[15]. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ(2) أَفَلَا تَعْقِلُونَ[16]! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ! إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ[17].

5- يتخذون الأصنام شفعاء ويطلبون آية! ... مواقف انتهازية...

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (أي كون الأصنام شفعاء عنده)؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[18]. وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (أي لأصدر حكمه) فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[19] (3). وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (معجزة) مِنْ رَبِّهِ!

2- عشت معكم أربعين سنة منذ ولادتي لم أدع النبوة حتى جاءني الوحي.

3- اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية فرجع بها بعضهم إلى آدم وقالوا كان الناس على عهده أمة واحدة! منهم من قال كانوا على الكفر ومنهم من قال كانوا على الإيمان، وآخرون رجعوا بها إلى نوح بعد الطوفان الخ. ونحن نرى أن السياق يقتضي الانطلاق من أن الخطاب موجه إلى قريش : يشنع عليهم عبادة الأصنام والاعتقاد في شفاعتها، زمن الدعوة المحمدية، ثم يذكرهم بأن "الناس" والمقصود هنا قريش بالذات، والعرب عموما، كانوا أمة واحدة أي على دين إبراهيم -وهم يقولون إنه جدهم الأعلى- ثم اختلفت ذرية فكان منهم يهود ونصارى وكان منهم من بقي على إيمانه بالله ولكن اتخذوا الأصنام شفعاء لهم عنده. ولولا أن الله قرر تأجيل الحساب إلى يوم القيامة لحكم بينهم وسيكون العرب الذين يعبدون=

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ[20]. (على أن هؤلاء الذين يطلبون آية ينسون الواقع التالي:) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا[(4)]، قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا. إِنَّ رُسُلَنَا (الملائكة) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ[21]. (كما ينسون أنه) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ (السفن) وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (قائلين): لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[22]. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ (يمارسون الظلم والفساد) فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

6- بغيكم على أنفسكم ... والله يدعو إلى دار السلام.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، (هو مجرد) مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[23]. إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى، إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا (على حصادها والانتفاع بها)، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا (حريقا أو زلزالا)) فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ (تزهر) بِالْأَمْسِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[24]. وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ (التي لا تجري فيها مثل هذا الحرائق والكوارث) وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[25]. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا (لهم) الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[26]. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ (فالحساب :) جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ (ألبست) وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

=الأصنام هم الخاسرون لأنهم خرجوا عن دين إبراهيم ورجعوا إلى دين قومه الذين حاربوه وأرادوا إحراقه.

4- يقول بعض المفسرين: إن الإشارة هنا إلى مطر بعد جفاف أصاب قريشا، نسبوه إلى الأنواء الخ، والظاهر أن معنى هذه الآية يتكرر في عدة سور، من ذلك مثلا قوله تعالى: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" (الزمر 8)، وإذن فلا مبرر لتخصيص تلك الآية بمطر الخ. انظر أيضا قبله الآية 12 وبعده مثال الريح والسفن في البحر في الآية التي تلي هذه. وقوله "مكروا بآياتنا" أي فسروها بما ينسبونها لأصنامهم أو ما يعتقون فيه مصدرها كالأنواء وغيرها.

فِيهَا خَالِدُونَ[27]. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا (ألزموا) مَكَانَكُمْ، أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ (أي الأصنام التي اتخذتموها شركاء مع الله)! فَزَيَّلْنَا (فرّقنا) بَيْنَهُمْ. وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ[28]، فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ[29]. هُنَالِكَ تَبْلُو (تختبر) كلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، وَضَلَّ عَنْهُمْ (ذهب) مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (يكذبون)[30].

7- الأصنام لا فعل لها ... فكيف تعبدونها؟

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمَّنْ (أو قل من) يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ (النبات) مِنَ الْمَيِّتِ (التراب) وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ (الخشب) مِنَ الْحَيِّ (الشجر)؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ. فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ[31]! فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ. فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ[32] (تهربون). كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[33]. قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (حياة ثم موت ثم حياة)؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ[34] (تكذبون). قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[35]. وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا. إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ[36].

8- يقولون افتراه! قل فأتوا بسورة مثله. قل: لي عملي ولكم عملكم.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من الكتب السماوية) وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ[5] لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[37]. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[38]، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ (لم ينته نزوله ولم يتبين مآله بعد)! كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ[39]. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ[40]. وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ[41].

5- معظم المفسرين على أن المقصود هو الكتاب المكنون في اللوح المحفوظ.

9- إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ (ولكن لا يؤمنون)! أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ[42]؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ[43]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[44]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُم، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[45]. وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ (في الدنيا) بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (من العذاب والهلاك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ (قبل ذلك) فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ[46]. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ. فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ (يوم القيامة) قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[47]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[48]، قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ[49]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا (ليلا) أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ[50]؟ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ! أَالْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ[51]؟ ثُمَّ قِيلَ (يقال) لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[52]! وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ[53]. وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ، (جميع) مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ (العذاب)! وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[54]. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[55]. هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[56].

10- وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ! إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّه جَمِيعًا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[57]. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[58]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا! قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ[59]. وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ[60]. وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ (تفكر فيه) وَمَا تَتْلُو مِنْهُ (حول هذا الشأن) مِنْ قُرْآنٍ، وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ، إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا، إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ[61]. أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[62]: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[63]، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[64]. وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ! إِنَّ الْعِزَّةَ (القوة) لِلَّهِ جَمِيعًا. هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[65]. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ. وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ! إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[66] (يتوهمون ويخمّنون). هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[67]. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا! سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ (هل) عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا؟ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[68]؟ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ[69]. (الكذب ونتائجه) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[70].

11- قال نوح: لا تمهلوني... وقد نجاه الله. فلا تيأس...

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً (لا تترددوا)، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ (نفذوا ما أردتم) وَلَا تُنْظِرُونِي[71] (تمهلوني)؟ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ (تراجعتم) فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[72]. فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ[73]. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ. كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ[74].

12- لفرعون : أَالْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ[75]. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ[76]. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ: أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ[77]؟. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (السيطرة على مصر)؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ[78]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ[79]. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ

مُلْقُونَ[80]؟ فَلَمَّا أَلْقَوْا، قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ (هو) السِّحْرُ! إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ[81]. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ[82]. فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ[83]. وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ[84]. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[85]، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[86]. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا (أنشآ) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ (تلك) قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[87]. وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا، لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ! رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[88]. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ[6] سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[89]. وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[90]. أَالْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[91]! فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ[92]. وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[93].

13- هل أنت شاك في قضيتك؟ هؤلاء لا يؤمنون ...!

فَإِنْ كُنْتَ (يا محمد) فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ قَبْلِكَ (فهم يعرفون قصص أنبيائهم). لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[94] (الشاكين). وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[95]. إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ[96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[97]. فَلَوْلَا (فهلا: لم يحدث أن) كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ

6- قال الزجاج من أهل اللغة: قوله: "وَلا تَتَبِعَآنِّ" موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية". فعل مضارع مجزوم بلا الناهية دخلت عليه نون التوكيد.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ[98] [(7)]. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[99]. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ (العذاب) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ[100]. قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ[101]. فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ[102]، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ[103].

14- خاتمة: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ...

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[104]. وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[105]، وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ[106]. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[107]. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ[108]. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[109].

7- وهكذا فبعد الحكم العام والحتمي بالهلاك للأقوام الذين كذبوا رسلهم بما فيهم جنود فرعون تستثني السورة قوم يونس. فهم قد آمنوا قبل أن يروا العذاب. هذا، ولا تذكر هذه السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة قوم يونس هؤلاء، غير أن المفسرين يروون: "أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا. فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم. فقيل له: أخبرهم أن العذاب مُصبحهم إلى ثلاث (خلال ثلاثة أيام) ففعل، فقال قومه: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم في تلك الحالة" (القرطبي) .. وقد وردت قصة يونس في التوراة واسمه هناك بالآرامية: يونان، وذلك في السفر المسمى باسمه، كما تمت الإشارة إليه في إنجيل متى. وما ذكره القرطبي هنا يلخص ما ذكر بشأنه في التوراة، مع اختلافات بسيطة. انظر إضافات من التوراة في هامش 4 سورة القلم أعلاه رقم 35

– تعليق

بعد مجموعة الطواسين الثلاثة المتتابعة –حسب ترتيب النزول– تأتي مجموعة "الر" (الأربعة المتتابعة منها وهي سور: يونس، هود، يوسف، الحجر)[8]. والمجموعتان تشكل مجموعة متميزة بتشابه بنياتها إلى درجة التطابق. إنها تنطلق جميعا من مقدمة تبدأ بالإشارة إلى "آيات الكتاب" (المبين... الحكيم)، لتنتقل بعد ذلك إلى التذكير بتجارب كفاح الأنبياء السابقين وكيف أن الله نجاهم من مكائد خصومهم، وأهلك المكذبين من أقوامهم، لتخلص بعد ذلك –أو قبله– إلى مواجهة قريش، مركزة على مسألتين أساسيتين: إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، وإثبات البعث والحساب والمصير: إما إلى الجنة وإما إلى النار. ثم تنتهي كل سورة من هذه المجموعة بما ابتدأت به، مستعيدة المقدمة في شكل جديد.

وهكذا، فهذه السورة (سورة يونس) التي انطلقت من قوله تعالى: "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ"، تستعيد في الخاتمة مضمون تلك المقدمة في صورة جديدة وعلى مرحلتين: تبتدئ الأولى بقوله عز وجل: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ". أما الثانية فتختم السورة بتوجيه نفس الخطاب إلى النبي (ص) بصيغة جديدة ذات دلالة، قائلة: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ".

ولعل ما تتميز به هذه السورة عن أخواتها السابقات هو الإشارة مرارا إلى تحديات قريش للنبي (ص) وطلبهم منه أن يبدل القرآن ويعترف بالأصنام أو يأتي بمعجزات الخ، ويأتي الجواب يحمل تحديا واضحا لقريش: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِي". وهذا الجواب يلمح إلى مؤامرات كانت قريش تحيكها ضد النبي (ص) وأن النبي عليه السلام كان على علم بها فتحداهم القرآن على لسان نوح أن ينفذوها مؤكدا لهم أن النتيجة لن تختلف عن تلك التي جناها قوم نوح وهي إغراقهم. ثم تؤكد السورة ذلك بالتذكير بصراع موسى مع فرعون الذي انتهى بدوره إلى إغراق قوم هذا الأخير.

---

[8] – هناك سورة أخرى فاتحتها "الر" سورة إبراهيم وهي مكية وقد رتبت بين رتبة 69 ورتبة 72 في لوائح ترتيب النزول.

.ومن أجل أن لا ييأس الرسول (ص) نهائيا من قومه تأتي الإشارة إلى قصة قوم يونس الذين تجنبوا المصير المحتوم الذي لقيه قوم نوح وقوم فرعون، وذلك بأن آمنوا بعد أن دعا عليهم يونس بالهلاك وتيقنوا أن يونس كان مخلصا في إنذاره لهم، إذ بادر فكان أول الهاربين من الهلاك الذي دعا به عليهم. وقد عانى يونس نفسه من عاقبة الهرب: فألقي به في البحر والتقمه الحوت. ولكن دعا ربه فأنقذه بأن رمى به البحر إلى الشاطئ، وكانت في ذلك نجاته هو الآخر.

وهذه الإشارة إلى قصة يونس تستعيد السورة مغزاها في مرحلة ثانية من خاتمها حيث يخاطب تعالى رسوله الكريم قائلا: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ. وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". ثم يتوجه تعالى بمغزى قصة يونس إلى قريش أيضا طالبا من رسوله تبليغها إياهم: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ".

ومما يلفت الانتباه في القسم الذي أوردته السورة من قصة موسى وفرعون قيام موسى بدعوة الناس إلى التوحيد قبل أن يطلب من فرعون السماح لبني إسرائيل بالخروج معه من مصر إلى فلسطين. ذلك أن موسى، فما سبق من السور، كان يتجه رأسا إلى فرعون، لكن هذه السورة تقدم لنا معلومات جديدة تتلخص في كونه قام بالدعوة إلى الله كباقي الأنبياء ولم يقتصر على خوض المعركة مع فرعون من أجل تحرير بني إسرائيل من طغيانه. وهكذا تحدثنا هذه السورة عن دعوة موسى لآل فرعون وملأه إلى الإيمان بالله وأنهم رفضوا وقالوا: "أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا (موسى وهارون) الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (السيطرة على مصر)؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ"[78]. وكما دعا كموسى آل فرعون قام بالدعوة في قومه بني إسرائيل: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ". ويخاطب موسى قومه: "يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ[84]. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[85]. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ "[86]. حينذاك، أمر الله موسى وهارون أن يقيموا بيوتا لعبادة الله ويوجهوا الناس إليها: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ (أنشئا) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ (تلك) قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[87].

وهنا يلتحق موسى بنوح وغيره من الأنبياء الذين تعرضوا للتكذيب والإعراض والعناد، لقد أصبحت وضعيته مثل وضعيتهم، فدعا على فرعون

وملأه بالهلاك : "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا، لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ! رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[88]. قَالَ (الله) قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا (اثبتا) وَلَا تَتَّبِعَانِّ [(9)] سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[89]. وهكذا ينتهي أمر فرعون وملأه إلى الهلاك وهم يطاردون موسى وقومه: يغرق الجند الذين وضعهم فرعون في المقدمة ليحتمي بهم، "حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[90]. ويأتيه الجواب: "أَالْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[91]! فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"[92]

وواضح أن هذا الاتجاه الجديد الذي أعطاه الوحي لقصة موسى والذي يكرر موقف نوح ويشير بصورة ضمنية إلى وضعية النبي (ص)، دليل على أنه عليه السلام كان يعاني عند نزول هذه السورة من ضغط شديد من طرف قريش -الشيء الذي يؤكد ما لاحظناه في السور السابقة. ومن أجل تسلية النبي (ص) والتخفيف عنه وتثبيت فؤاده، يخاطبه الوحي الإلهي : "فَإِنْ كُنْتَ (يا محمد) فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ قَبْلِكَ (فهم يعرفون قصص أنبيائهم). لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[94] (الشاكين). وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ"[95]. بعد ذلك يأتي هذا التأكيد "الحتمي": "إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ[96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[97].

هنا تتدخل تجربة قوم يونس الذين آمنوا في آخر لحظة، فجنبهم الله الهلاك كما رأينا. إذن ليست هناك حتمية: الهلاك لقريش غير حتمي، بل هناك إمكانية تجنب الهلاك وانتصار الدعوة.

9- قال الزجاج من أهل اللغة: قوله: "وَلا تَتَّبِعَآنِّ" موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية": فعل مضارع مجزوم بلا الناهية دخلت عليه نون التوكيد.

54- سورة هود

- تقديم

روى البخاري عن ابن عباس عن قوله تعالى في هذه السورة "ألا إنهم يثنون صدورهم". قال : كان أناس يستحون أن يتخلوا (أن يذهبوا إلى الخلاء لقضاء الحاجة) فيُفضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم". وفي رواية أخرى أخرجها الطبري عن راو آخر قال: "كان أحدهم إذا مر بالنبي (ص) وسلم ثنى صدره لكيلا يراه". فنزلت. ويشير هذا المثال إلى ما أكدناه مرارا من أن روايات أسباب النزول هي في الغالب نتيجة لبحث الرواة عن سبب مناسب للآية، وليس من أجل فهم الآية على ضوء الواقعة التي يعتبرونها سببا للنزول. ذلك أن معنى الآية، موضوع الحديث هنا، واضح من السياق، فالضمير في "منه" في قوله تعالى " يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ" يعود إلى النبي (ص) كما رواية الطبري.

وفي رواية عن ابن مسعود أن قوله تعالى في هذه السورة : "وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات" نزل في رجل "أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي (ص) فأخبره، فأنزل الله هذه الآية، فقال الرجل ألي هذه ؟ قال النبي : لجميع أمتي كلها". وفي رواية أخرى أن رجلا "يقال له أبو اليسر" قال: "أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت : إن في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت رسول الله (ص) فذكرت ذلك له، فقال : أخلفتَ غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا[1]؟ وأطرق طويلا حتى أوحى الله إليه فنزلت تلك الآية. ويسمى هذا الحديث الذي ورد في كتب التفسير والحديث بحديث "أبي اليسر".

والغريب أنهم يقولون إن أبا اليسر هذا كان من الأنصار، في المدينة، بينما الآية مكية. ولفظ الحديث يفيد أن الحادثة حدثت في المدينة بدليل قوله "أخلفت غازيا

1- يقال: "خَلَفْتُ الرجلَ في أهله إذا أقمتَ بعدَه فيهم وقمت عنه بما كان يفعله، والهمزة فيه للاستفهام".

في أهله؟ فالغزوات كانت في العهد المدني وليس في المكي. ولذلك كان لابد من التعامل بحذر مع "أسباب النزول"، فهي مفيدة فقط على مستوى فهم جوانب من السيرة وظروف التنزيل.

يمكن القول إذن لم يرد في المرويات ما يخص هذه السورة، فلا بد من الاعتماد عليها وحدها: على علاقتها بما تقدم وتأخر وعلى السياق الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: القرآن أحكمت آياته ثم فصلت... إلى الله مرجعكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الر (قل يا محمد: هذا) كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ(2) مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[1] (يأمركم) : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ[2]، وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا (فقل لهم) فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ[3]، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[4]. أَلا إِنَّهُمْ (يعني المشركين لا يريدون سماع هذا فتراهم) يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ (من النبي، لكي يتجنبوا التقاء بصرهم ببصره)! أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ (يتغطون بها) يَعْلَمُ (الله) مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[5].

2- خلق السماوات والأرض ليبلوكم أيكم أحسن عملا.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا : كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[6] (هو نفسه الكتاب الذي أحكمت آياته ثم

2- تعددت أقوال المفسرين حول هذه الآية بناء على أن لفظ "آية" معناه جزء من القرآن. أما نحن فنرى أن هذا اللفظ في القرآن كله يحيل إلى العلامات والمعجزات والدلائل والحجج التي يذكرها الله لحمل العقل البشري على التسليم بأن لهذا العالم صانعا هو الله تعالى وأنه على كل شيء قدير وأن البعث واقع الخ. وإذن فالمعنى أن هذا الكتاب يشتمل على دلائل وجود الله ودلائل البعث الخ، ثم عرضها فيه ببراهين محكمة ثم فصلت بالقصص والأمثال وما أشبه مما يدخل في معهود العرب، وأيضا بلسان عربي مبين.

فصلت). وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (خلقهن وسخرهن لفائدتكم) لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا؟ وَلَئِنْ قُلْتَ (لهم) إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[7]. وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ (مدة) مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ؟ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[8]. وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ[9]. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ، بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي! إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ[10]. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[11].

3- قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ.. ووعيد وتهديد.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا (لكونهم يقولون) لَوْلَا (هلا) أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ! إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ[12]. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (يعنى الأصنام) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[13]. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا (الأصنام) لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[14] (مقتنعون)؟ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (فقط، وهم منكرو البعث) نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا (في الدنيا)، وَهُمْ فِيهَا (في الدنيا) لَا يُبْخَسُونَ[15] (لا ينقص لهم منها)، أُولَئِكَ (هؤلاء هم) الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ (لكونهم أنكروا البعث)، وَحَبِطَ (فسد) مَا صَنَعُوا فِيهَا (في الدنيا من أعمال صالحة)، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[16] (3). أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (يعني محمد عليه السلام) وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ (يتبعه شاهد من الله هو القرآن) وَمِنْ قَبْلِهِ (قبل القرآن) كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَئِكَ (محمد والقرآن وكتاب موسى) يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالله)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ (المتحزبين ضد الإسلام) فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ (لا تشك في هذا)، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[17]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى

3- المعنى : "كل -من ينكر البعث- وأتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل الدنيوي في الدار الآخرة محبطاً باطلاً عديم الأثر" (الرازي).

رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ (يوم القيامة) هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ. (يقال في وجوههم) أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ[18]، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا (غير مستقيمة) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[19]. أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ (الله) فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ (في الآخرة ،لأنهم باشتغالهم بالكذب على الله) : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ (لحجج القرآن) وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ[20] (الحقيقة بعقولهم). أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (باللجوء إلى عبادة الأصنام وترك عبادة الله) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[21] (ضاع منهم ما كانوا يكذبون على الله من قولهم مثلا إن الملائكة هم بنات الله وتمثلها الأصنام وهذه تشفع لهم). لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ[22]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا (أنابوا واطمأنوا) إِلَى رَبِّهِمْ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[23]. مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ (الكافر من جهة)، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ (المؤمن من جهة)، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا (هل يمكن المساواة بينهما حتى على صعيد المثل)، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[24].

4- لَنْ يُؤْمِنَ يا نوح مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (فقال لهم) إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ[25]: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ[26]. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا (من الفقراء والعبيد)، بَادِيَ الرَّأْيِ (اتبعوك من غير تفكير)، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ[27]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (خفيت)، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ[28]؟ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا، إِنْ أَجْرِيَ إلاَ عَلَى اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ[29]. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[30]. وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا. اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ[31] (إن قلت ذلك). قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[32]. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ، إِنْ شَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ[33]. وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي -إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ- إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[34]. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ إِنْ

افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي (كذبي)، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ[35] (بعبادتكم الأصنام). وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[36] وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ[37]. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ (وأخذ نوح في صنعه)، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ[38]. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ[39] (لا يزول)، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ[(4)] قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ -إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ- وَمَنْ آمَنَ (احمله أيضا). وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ[40]. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا، بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[41]. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ: يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ[42]. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ! قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ (ابن نوح) مِنَ الْمُغْرَقِينَ[43]. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ (السفينة) عَلَى الْجُودِيِّ (جبل اسمه الجودي)، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[44]. وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ[45]. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ[46]. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ[47]. قِيلَ (لنوح عندما وقفت السفينة) يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ (بالدنيا ويكفرون) ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ[48]. تِلْكَ (القصة) مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ[49].

5- هود لقومه: فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.

وَإِلَى عَادٍ (أرسلنا) أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ[50]. يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي

4- التنور: الوعاء الذي يخبز فيه. فاض التنور : فاض منه الماء كما يفيض عند غليان القدر، كناية على ارتفاع الماء على السفينة.

فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ[51]. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ[52]. قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ[53]. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ (أصابك) بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ! قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[54] مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي[55] (لا تمهلوني). إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[56]. فَإِنْ تَوَلَّوْا (تتولوا) فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ[57]. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[58]. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[59]، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ (كذلك)، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ[60].

6- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا.

وَإِلَى ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ[71]. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا؟ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[62]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ[63] (خاسرا). وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ[64]. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ[65]. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ (هلاك) يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ[66]. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[67]. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ[68].

7- قرية لوط: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا (الملائكة) إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (مبشرين بالولد)، قَالُوا: سَلَامًا. قَالَ سَلَامٌ. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[69] (سمين لاستضافتهم). فَلَمَّا رَأَى

أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ (لا يأكلون) نَكِرَهُمْ (لم يطمئن إليهم) وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً. قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ[70]، وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ (امرأة إبراهيم) فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ[71]. قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِي (زوجي) شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ[72]. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ[73]. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى (أخذ) يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ[74] (يناقش مع الملائكة أمر إهلاكهم، خوفا على لوط)، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ (مشفق) مُنِيبٌ[75]. (نودي:) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا! إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ[76]. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا (أولئك الملائكة) لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (كان يعتقد أنهم من البشر وأن قومه سيسيئون إليهم)، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ[77]. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (كزوجات من إتيان هؤلاء) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي (ضيوفي) أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ[78]؟ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ (في التعامل معهن حسب شهوتنا) وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ[79] (أي اللواط). قَالَ (أتمنى) لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً (لإخراجكم والإلقاء بكم بعيدا) أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ[80] (يمنعكم من الدخول علي) ؟ قَالُوا (الملائكة) يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ : فَأَسْرِ (أخرج) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ (أثناءه)، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[81]؟ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا (القرية) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ[82]، مُسَوَّمَةً (عليها علامات تعرف بها) عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ[83].

8- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...

وَإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ[84]. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[85]: (إن) بَقِيَّةُ اللَّهِ (من الحلال) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[86] (وما أنا بقادر على منعكم). قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا (من الأصنام) أَوْ (نترك) أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ[87]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا؟ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[88]. وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي (لا يكسبنكم شقاقكم عني) أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ[89]؟ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ[90]. قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ! وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ! وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ[91]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ (أقوى لديكم) مِنَ اللَّهِ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا؟ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[92]. وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ (طريقتكم) إِنِّي عَامِلٌ (على طريقتي)، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ[93] (منتظر) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[94]، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا (يقيموا فيها أحياء)! أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[95].

9- فرعون يورد قومه يوم القيامة النار.. بئس الورد والمورود.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ[96] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ[97]، يَقْدُمُ قَوْمَهُ (يتزعم) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[98]، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ (الدنيا) لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[99] (ترادفت عليهم لعنتان).

10- ذلك من أنباء القرى نقصها عليك، وما ظلمناهم ...

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ (تدل عليها آثارهم) وَحَصِيدٌ[100] (ومنها ما اندثر نهائيا)، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ -الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ- مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ[101] (خسران). وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ[102]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ[103]. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ[104]، يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ[105]. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي

النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ[106]، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ[107]. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[108] (مقطوع). فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ[109]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ[110]. وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا[5] لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[111]. فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ، وَلَا تَطْغَوْا، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[112]. وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ[113]. وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ (الصبح والمغرب)[6] وَزُلَفًا (أوقاتا، نوافل) مِنْ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ[114]. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[115]. فَلَوْلَا (هلا) كَانَ مِنْ الْقُرُونِ (الأمم) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، (لكن لم يكن منهم) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ[116]. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[117]. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ[118] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[119].

5- تعددت آراء اللغويين في معنى كلمة "لما" بالتشديد. وأوضح ما قيل بشأنها قراءتها "لمّاً" بالتنوين، من اللم، نظير قوله تعالى: "أكلا لما" أي جميعا... بمعنى: وإنّ كل ما يجمعون ليوفينهم ربك أعمالهم ...

6- أجمع المفسرون على أن الصلاة المطلوبة هنا هي الصلاة المفروضة (مرتان في اليوم ونوافل في الليل)، واختلفوا في كيفية تحديد طرفي النهار مع الصلوات الخمس التي ترسمت في المدينة. وذكر أن بعض الخوارج قالوا بصلاتين فقط بناء على ظاهر الآية أعلاه وأن "الخمس" لم تذكر في القرآن وإنما أخذت من الصحابة، وقد استنكره جمهور السنة هذا الرأي. ويروى أن نافع بن الأزرق زعيم أكبر فرق الخوارج سأل ابن عباس "هل تجد ميقات الصلوات الخمس في كتاب الله؟ قال: نعم: فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ المغرب، وَحِينَ تُصْبِحُونَ الفجر، وَعَشِيًّا العصر، وَحِينَ تُظْهِرُونَ الظهر. (الآية كما يلي: "فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ" (الروم 17-18). والسورة مكية وبعضهم يقول إن الآية 17 مدنية. وستعود إلى الموضوع عند تناولنا لهذه السورة.

11- خاتمة : وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ (السورة) الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[120]. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ[121]، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ[122]. وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[123].

- تعليق

تنتظم هذه السورة، كما هو واضح، في سلك السور السابقة، منذ سورة الشعراء؛ فهي إذ تبتدئ مثلها بالإشارة إلى موضوع السورة، وهو "آيات الكتاب"، تشرع في ذكر أركان العقيدة،: التوحيد، والخلق، والبعث، لتفصل القول فيها من خلال الجدل مع قريش والتذكير بقصص الأنبياء كشهادات تاريخية تؤكدها، فعرضت لقصة نوح وصراعه مع المكذبين من قومه، مبرزة أن قومه قد صمموا على تكذيبه مؤكدة له أن "لَنْ يُؤْمِنَ يا نوح مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ". ثم تنتقل السورة إلى صراع النبي هود مع قومه عاد، الصراع الذي انتهى إلى عزمهم على التخلص منهم فتحداهم قائلا: "فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ"، فأنجاه الله كما أنجى من بعده صالحا والذين معه من المؤمنين، ولوطا وشعيبا أنجاهما ومن معهما وأهلك الباقين المكذبين. أما فرعون الذي قاد قومه إلى الغرق وأنجاه الله بمفرده ليبقى عبرة فسيكون في مقدمتهم يوم القيامة يوردهم النار. ثم تعقب السورة على ما تقدم مخاطبة النبي عليه السلام : "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ"، مؤكدة قوله تعالى: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ -الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ- مِنْ شَيْءٍ".

وتأتي الخاتمة لتستعيد مضمون المقدمة مع بيان الهدف مما ذكرته السور. يقول تعالى: "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ (السورة) الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ".

تثبيت لفؤاد النبي (ص)، وتحد صريح لقريش بتنفيذ ما يقولون في مجالسهم من ضرورة التخلص من محمد عله السلام، أمران يتكرران خلال السور السابقة، وبصورة خاصة منذ سورة الشعراء التي ورد فيها "وأنذر عشيرتك

الأقربين"، إن ذلك يشير إلى الظروف الصعبة التي كانت الدعوة المحمدية تمر بها. وسنفصل القول في هذه الظروف بعد حين.

52- سورة يوسف

- تقديم

قيل إن اليهود بالمدينة بعثوا إلى زعماء قريش بمكة بسؤال يطلبون طرحه على النبي عليه السلام للتأكد من نبوته. يقول السؤال: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ قال الراوي: "فأنزل الله عز وجل سورة يوسف"جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة".

وفي رواية أخرى عن سعد بن أبي وقاص: أن أصحاب النبي (ص) سألوه أن يقص عليهم فنزلت سورة يوسف :"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآَنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ، إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" الخ (يوسف 1-4).

وفي السورة ما يؤكد أنها نزلت جوابا عن سؤال من نوع السؤال الأول، وليس لمجرد القصص.

- نص السورة

1- مقدمة : نحن نقص عليك أحسن القصص...

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ[1]، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[2]. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا (بوحينا) إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ[3].

2- رويا يوسف:... وتآمر إخوته... وبيعه لمسافر إلى مصر

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا (إخوته) وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (أبوه وأمه) رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ[4]. قَالَ (أبوه): يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ

عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ[5]. وَكَذَلِكَ (إذا كتمت رؤياك) يَجْتَبِيكَ (يختارك) رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (تعبير الرؤيا) وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ (أبيك) كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ: إِبْرَاهِيمَ (والد جدك) وَإِسْحَاقَ (جدك). إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[6]. لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ (عبر) لِلسَّائِلِينَ[7] (1)، إِذْ قَالُوا (أي أخوة يوسف) لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ (شقيقه الأصغر بنيامين) أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ (جماعة قوية)، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[8]. (قال بعضهم لبعض) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ[9]! قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ (ظلام) الْجُبِّ (البئر) يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (المسافرين)، إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ[10]. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ[11] (2). أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ (يمرح) وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[12]. قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ[13]، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ (جماعة) إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ[14]! فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ (صنيعهم) هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[15] (3)، وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ[17]، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ[18]. وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ (قميص يوسف ملطخا) بِدَمٍ كَذِبٍ (غير دم يوسف)! قَالَ (أبوهم) بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ[19]. وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (مسافرون من مدين إلى مصر) فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ (الذي يسقي لهم الماء) فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ! (فعلم إخوة يوسف بذلك) وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً (اتخذوه بضاعة للتجارة) (4) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[19]. وَشَرَوْهُ (باعوه) بِثَمَنٍ بَخْسٍ، دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ[20]. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ (من

---

1 - "أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما أخبروا به.

2- في التوراة أن إخوة يوسف كانوا قد خرجوا يرعون غنما فأرسله أبوه ليأتيه بأخبارهم مع مواشيهم، فلما رأوه قادما نحوهم تآمروا عليه لمحاباة أبيهم له دونهم، إذ اشترى له قميصا أحمر...

3- المعنى: أوحينا إلى يوسف لتخبرنّ إخوتك مستقبلا بفعلهم هذا الذي فعلوه بك، وهم لا يُحِسُّون بذلك ولا يشعرون به.

4- المعنى: ولما علم إخوة يوسف بأخذ التجار له، لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا هرب منا، فاشتروه منهم بثمن بخس. وفي التوراة: "قَالَ يَهُوذَا لإِخْوَتِهِ: «مَا جَدْوَى قَتْلِ أَخِينَا وَإِخْفَاءِ دَمِهِ؟ تَعَالَوْا نَبِيعُهُ إِلَى الإِسْمَاعِيلِيِّينَ (العرب من ذرية إسماعيل) وَنُبْرِىءُ أَيْدِينَا مِنْ دَمِهِ فَوَافَقَهُ إِخْوَتُهُ عَلَى رَأْيِهِ.

أولئك التجار وهو) مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (الرؤيا) وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[21].

3- راودته التي هو في بيتها عن نفسه... وانتشار الخبر...

وَلَمَّا بَلَغَ (يوسف) أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا (حكمة) وَعِلْمًا (نبوة)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[22]. وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا (زوليخا زوجة حاكم مصر)[(5)] عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ! قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي (سيدي، زوجك، الذي اشتراني) أَحْسَنَ مَثْوَايَ (مقامي فلا أخونه) إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[23]، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ! كَذَلِكَ (حدث) لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، (الخيانة والزنا) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ[24]. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ (شقت) قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[25]. قَالَ (يوسف) هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا (أي طلب الزوج خبرة رجل من عندهم. فقال هذا الأخير) إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ (من أمام) فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[26]، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ[27]. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ[28]. (قال الزوج عزيز مصر: حاكمها) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا (لا تحدث به أحدا، وخاطب زوجته) وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ[29]. (ومع ذلك شاع الخبر) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي

5- في التوراة: "وَأَخَذَ الإِسْمَاعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ مِصْرِيٌّ يُدْعَى فُوطِيفَارَ، كَانَ خَصِيَّ فِرْعَوْنَ وَرَئِيسَ الْحَرَسِ. 2وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ، فَأَفْلَحَ فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ". 7ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أُغْرِمَتْ بِهِ زَوْجَةُ مَوْلاَهُ فَقَالَتْ: «اضْطَجِعْ مَعِي». 8فَأَبَى وَقَالَ لَهَا: «هُوَذَا سَيِّدِي قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَلَمْ يُشْغِلْ نَفْسَهُ بِأَيِّ شَأْنٍ فِيهِ... 10وَلَمْ يُذْعِنْ يُوسُفُ لَهَا مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِ يَوْماً بَعْدَ آخَرَ. 11وَحَدَثَ يَوْماً أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَقُومَ بِعَمَلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمَنْزِلِ أَحَدٌ، 12فَأَمْسَكَتْهُ مِنْ رِدَائِهِ وَقَالَتْ: «اضْطَجِعْ مَعِي». فَتَرَكَ رِدَاءَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ خَارِجاً ... وَعِنْدَمَا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ رَفَضَ وَهَرَبَ .. 14نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا وَقَالَتْ: «انْظُرُوا مَا جَرَى؟ هَذَا الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ زَوْجِي إِلَى الْبَيْتِ. شَرَعَ يُرَاوِدُنِي عَنْ نَفْسِي. دَخَلَ غُرْفَتِي وَحَاوَلَ اغْتِصَابِي، فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. 15وَعِنْدَمَا سَمِعَنِي قَدْ رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، تَرَكَ رِدَاءَهُ مَعِي وَهَرَبَ خَارِجاً». 16وَأَلْقَتْ رِدَاءَهُ إِلَى جَانِبِهَا حَتَّى قَدِمَ مَوْلاَهُ إِلَى بَيْتِهِ، 17فَقَصَّتْ عَلَيْهِ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ. ... 19فَلَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلاَمَ زَوْجَتِهِ وَمَا اتَّهَمَتْ بِهِ يُوسُفَ احْتَدَمَ غَضَبُهُ، 20فَقَبَضَ عَلَى يُوسُفَ وَزَجَّهُ فِي السِّجْنِ، حَيْثُ كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مُعْتَقَلِينَ، فَمَكَثَ هُنَاكَ...

ضَلَالٍ مُبِينٍ[30]. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ (أعدّت) لَهُنَّ مُتَّكَأً (طعاما يقطع بالاتكاء عليه بالسكين) وَآتَتْ (أعطت) كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ (ليوسف) اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ (بالسكين دون أن يشعرن لشدة تأثير جماله فيهن)، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ! مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ[31]. قَالَتْ: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (امتنع). وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ[32]. قَالَ (يوسف) : رَبِّ! السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا (إن لا) تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ (أمِل) إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ[33]. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[34]. ثُمَّ بَدَا لَهُمْ (للعزيز وأهله) مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ (العلامات التي تثبت براءة يوسف، فقرروا) لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ[35] (حتى لا تشيع القصة). وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ (غلامان للملك، ذات يوم) قَالَ أَحَدُهُمَا (وهو ساقي الملك) إِنِّي أَرَانِي (في المنام) أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ (وهو المكلف بطعامه) إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ! نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ (يا يوسف)، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[36].

4- يوسف في السجن مع ساقي الملك والمكلف بطعامه

قَالَ: لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[37]، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[38]! يَا صَاحِبَيِ (ساكني) السِّجْنِ! أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[39]؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ. أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[40]. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ [6] : أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا (يخرج ويعود لوظيفته يسقي سيده) وَأَمَّا الْآخَرُ (فسيخرج) فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ[41]. وَقَالَ (يوسف) لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا (الساقي) اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ (سيدك، أخبره أني هنا مسجون ظلما) فَأَنْسَاهُ

6- لم ترد في التوراة قصة النساء اللواتي قطعن أيديهم (فقرة 6) ولا دعوة يوسف للتوحيد (فقرة 7). أما ما سيأتي فقد ورد فيها كما في القرآن تقريبا.

الشَّيْطَانُ (الشيطان أنسى الساقي) ذِكْرَ (يوسف عند) رَبِّهِ فَلَبِثَ (يوسف) فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ[42].

5- حلم العزيز وتعبير يوسف له واعتراف امرأته بمراودة يوسف

وَقَالَ الْمَلِكُ (ملك مصر)(7) إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ! يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ[43]. قَالُوا أَضْغَاثُ (أخلاط) أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ[44]. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا (من السجينين وهو الساقي) وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (وقد تذكر بعد مدة طويلة من النسيان طلب يوسف) أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ[45] (إلى يوسف، فأرسلوه فقال له:) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ[46]! قَالَ: تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا (متتابعة) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ (فلا تدرسوه كي لا يفسد) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ[47]. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ (مجدبات) يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ (مما كنتم خزنتم) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ[48] (تدخرون)، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ (بالمطر) وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[49] (الأعناب. ورجع السجين إلى فرعون وأخبره بما قال يوسف). وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ (بيوسف)! فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ (لما جاء الرسول إلى يوسف) قَالَ: (يوسف) ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ (سيدك) فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ (لماذا فعلن ذلك)، إِنَّ رَبِّي (سيدي) بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ[50]. قَالَ (الملك لهن) مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ. قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الْآنَ حَصْحَصَ (وضح) الْحَقُّ! أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ[51]. (أقول) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ (وهو غائب عنا الآن) وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ[52]. (قال يوسف) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ[53]. (8)

7- يستعمل القرآن في هذه القصة لفظ "الملك" ولا يستعمل لفظ "فرعون" كما في التوراة. ويمكن تبرير ذلك بكون "فرعون" في القرآن رمز للطغيان كما هو الحال بالنسبة لفرعون في قصة موسى. أما هنا في قصة يوسف فالملك لم يكن طاغية بل بالعكس لقد تعاطف مع يوسف وولاه خزائنه ومنحه كامل ثقته وأكرم أهله عندما دعاهم إليه كما في آخر القصة.

8- اختلف المفسرون حول من تعود عليه الضمائر ابتداء من ("لم أخنه.. الخ"): هل على يوسف أم على العزيز أم على امرأته؟ معظم المفسرين يرجحون هذه الأخيرة. غير أن بعضهم قال إن الضمير=

6- إخوة يوسف يقدمون للتجارة في مصر ... ويتعرف عليهم!

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ[54]. قَالَ (يوسف): اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ[55] (9)، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[56]، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[57].

7- مجيء إخوة يوسف إلى مصر.. والتحاق أهله به

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ (في تجارة) فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ[58]، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ (كان يعقوب قد أبقاه عنده) أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ[59]، فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي[60]. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ (سنحاول إقناعه) وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ[61]. وَقَالَ (يوسف) لِفِتْيَانِهِ (لخدمه) اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ (دراهمهم التي أتوا بها لشراء السلعة) فِي رِحَالِهِمْ (أكياسهم) لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ

يرجع إلى يوسف، باعتبار أن يوسف كان قد "هم بها" فحل أزرار سرواله استعدادا لإتيانها، ثم ندم وتوقف. وبالتالي فالمتكلم في "لم أخُنْهُ" هو يوسف: بمعنى أنه لم يخن الملك. وهذا في نظرهم ما يبرر قوله "وما أبرئ نفسي ...". ونحن نرجح هذا ليس نظرا لما ذكر هؤلاء فحسب، بل أيضا لأن الآية الأخيرة وهي قوله : "إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم" تقتضي أن يكون القائل هو يوسف، والسياق يمنع من أن يعود على الزوجة لأنها اعترفت أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه معززة ذلك بقولها "ولَمِنْ وإنه لمن الصَّادِقِين". أما ملك مصر فلا شيء يشير إلى أنه كان مؤمنا. يبقى إذن أن يكون يوسف هو القائل "وما أبرئ نفسي"، الخ، وهذا لا يمنعه السياق لأن السورة أكدت من قبل "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا".

9- في التوراة: قال يوسف: "33وَالآنَ لِيَبْحَثْ فِرْعَوْنُ عَنْ رَجُلٍ بَصِيرٍ حَكِيمٍ يُوَلِّيهِ عَلَى الْبِلاَدِ، 34وَلْيُقِمْ فِرْعَوْنُ نُظَّاراً عَلَى أَرْضِ مِصْرَ يَجْبُونَ خُمْسَ غَلَّتِهَا فِي سَنَوَاتِ الرَّخَاءِ السَّبْعِ. 35وَلْيَجْمَعُوا كُلَّ طَعَامِ سَنَوَاتِ الْخَيْرِ الْمُقْبِلَةِ، وَيَخزنوا القمح بتفويض مِنْ فِرْعَوْنَ وَيَحفَظُوهُ فِي الْمُدُنِ لِيَكُونَ طَعَاماً، 36وَمَؤُونَةً لأَهْلِ الأَرْضِ فِي سَنَوَاتِ الْمَجَاعَةِ السَّبْعِ الَّتِي سَتَسُودُ أَرْضَ مِصْرَ فَلاَ يَهْلِكُونَ جُوعاً». 37فَاستَحْسَنَ فِرْعَوْنُ وَرِجَالُهُ جَمِيعاً هَذَا الْكَلاَمَ، ... 39ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «مِنْ حَيْثُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَطْلَعَكَ عَلَى كُلِّ هَذَا، فَلَيْسَ هُنَاكَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ نَظِيرَكَ. 40لِذَلِكَ أُوَلِّيكَ عَلَى بَيْتِي، وَيُذْعِنُ شَعْبِي لِكُلِّ أَمْرٍ تُصْدِرُهُ، وَلَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْكَ سِوَايَ أَنَا صَاحِبِ الْعَرْشِ»... 42وَنَزَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَوَضَعَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ كَتَّانٍ فَاخِرَةً وَطَوَّقَ عُنُقَهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ، 43وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادُوا: «ارْكَعُوا أَمَامَهُ». وَأَقَامَهُ وَالِياً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. 44وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ، وَلاَ أَحَدَ يُمْكِنُ أَنْ يُحَرِّكَ سَاكِناً فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِكَ»... وَزَوَّجَهُ مِنْ أَسْنَاتَ بِنْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ، فَذَاعَ اسْمُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ."

لعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[62] (إلينا). فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا: يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[63]! قَالَ: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[64]. وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي (أكثر من هذا:) هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا (نتسوق لهم) وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ (لأخينا بنيامين) ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ[65]. قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ (يحدث حادث لا تطيقونه)، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ: اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ[66]. وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا (مصر) مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ (من طريق واحد حتى لا تكشفون) وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[67]. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ! وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[68]، وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ (يوسف) إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ (لا تحزن) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[69]. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ (الكأس الذهبي الذي يشرب فيه الملك) فِي رَحْلِ أَخِيهِ (بنيامين) !ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ (نادى مناد بعد انفصالهم عن مجلس يوسف) أَيَّتُهَا الْعِيرُ (أهل القافلة) إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ[70]، قَالُوا (وهم مقبلون عليهم) وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ[71]، قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ (كأس) الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ (جزاء من جاء به) وَأَنَا بِهِ (بالحمل) زَعِيمٌ[72] (ضامن وكفيل). قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ[73]. قَالُوا (المنادي وصحبه) فَمَا جَزَاؤُهُ (السارق) إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ[74] (إن وجدنا الكأس عندكم)؟ قَالُوا جَزَاؤُهُ: (يسترق) مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ. كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[75]، فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ (يفتشها) قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ (بنيامين)، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ (ذاك)، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ (صنعنا حيلة له لأخذ أخيه منهم) مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ (رقيقا بسبب السرقة) فِي دِينِ الْمَلِكِ (في العرف الذي يحكم به الملك لأن جزاء السارق كان الضرب والتغريم لا الاسترقاق) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ[76]. قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ (أي يوسف، قيل سرق لأمه صنما وكسره)، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ. قَالَ (في نفسه) أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا (لسرقتكم أخاكم من أبيكم) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[77]. قَالُوا يَا أَيُّهَا

الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[78]. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ[79]! فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا (يئسوا) مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا (اعتزلوا يناجي بعضهم بعضا)، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ (أن تردوا أخاكم) وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ (بسبب تفريطكم) فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ (مصر) حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[80]. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولوا يا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ[81]، (رجعوا وقالوا ذلك لأبيهم وأضافوا) : وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[82]، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا (بيوسف وأخويه) إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[83]. وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[84] (مغموم). قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ (لا تزال) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا (مشرفا على الهلاك) أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ[85]. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي (عظيم حزني) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[86]. (قال لهم يعقوب): يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ (اطلبوا خبرهما) وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ (رحمته) اللَّه، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ[87]. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ (على يوسف) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ (القوي) مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ (بمال) فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ[88]. قَالَ: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ[89]. قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ قَالَ: أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا! إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[90]. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ[91]. قَالَ: لَا تَثْرِيبَ (عتاب) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[92]. اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ[93]. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ (فارقت مصر) قَالَ أَبُوهُمْ (لمن كان معه) إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي[94] (تسفهوني)! قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ (خطئك) الْقَدِيمِ[95]. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ (بالقميص) أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[96]. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ[97]. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[98]. (وذهبوا إلى مصر) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ[99]. فَرَفَعَ أَبَوَيْهِ

عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ (البادية) مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ (أفسد) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[100]، (قال يوسف) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ[101]. (10)

8- خاتمة: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ... والتوجه إلى قريش

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يا محمد) وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ (عند إخوة يوسف) إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ[102]. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ[103]، وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ (أهل مكة) وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ، وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[104]. وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ (دالة على وحدانية الله) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[105]. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ[106] (يعبدون الأصنام ويعتقدون أنها ستقربهم من الله)، أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ (عقاب يغشاهم) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[107]. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[108]. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة)، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى! أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من خلال ما تبقى من أطلالهم بعد أن دمرنا مدنهم)؟ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ[109]! حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[110]. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (في الكتب كالتوراة) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[111].

10- تستمر القصة في التوراة لتتحدث عن مقام آل يعقوب في مصر وسياسة يوسف الزراعية ثم وفاة يعقوب تتلوه وفاة يوسف. وبقصة يوسف ينتهي سفر التكوين ليبدأ سفر الخروج، خروج بني إسرائيل من مصر وبالتالي قصة موسى.

- تعليق

تندرج سورة يوسف في سلك السور الخمس السابقة، سواء على مستوى المنهج أو مستوى المضمون، أو فاتحة السور. فعلى مستوى الفاتحة تشكل هي والسورتان السابقتان مجموعة "الر". أما على مستوى المنهج فهي تبدأ، كالسور السابقة، بمقدمة تشعر بموضوع السورة، فتقرر أن هذه السورة عرض للدلائل والحجج التي في القرآن الذي نزل باللغة العربية لعل أصحاب هذه اللغة يستدلون منها على ما يؤكد صحة وصدق ما يدعو إليه الرسول محمد بن عبد الله من التوحيد والبعث والجزاء الخ: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ". والآيات التي ستعرضها تتعلق بقصة يوسف وإخوته التي وقع السؤال عنها مع ما تنطوي عليه من دروس وعبر.

بعد هذا تبدأ السورة في عرض أحداث القصة : إخوة يوسف حسدوه على المكانة التي كان يحظى بها عند أبيهم يعقوب فتآمروا لقتله، ولكن الله يسر له السبيل ليفلت من كيدهم : لقد أجمعوا أن يطلبوا من أبيهم السماح لهم باصطحابه معهم عند خروجهم إلى البادية فيلقون به في بئر، ثم يعتذرون لأبيهم بكون الذئب أكله في غفلة عنهم. ويمر بعض التجار على البئر فيعثرون على يوسف ويشترونه من أخوته ليبيعوه بدورهم في مصر، لينتهي الأمر به إلى قصر والي مصر حيث تقع زوجة هذا الأخير في غرامه فتراوده عن نفسه، ويمتنع إخلاصا للثقة التي وضعها فيه الوالي. وتكذب الزوجة على زوجها متهمة يوسف بأنه هو الذي راودها وأراد اغتصابها فيلقي به زوجها في السجن... ثم تتضح الحقيقة فيما بعد. كان يوسف عارفا بتأويل الأحلام وعرف عنه ذلك في قصر الوالي وبلغ الخبر فرعون الذي كان يبحث عمن يؤول له حلما أقلقه فيدعى يوسف إلى قصر فرعون ليفسر له حلمه. كانت هذه المقدرة على تأويل الأحلام هي التي أخرجته من السجن، ثم الالتحاق بفرعون الذي قلده شؤون مصر.

ويحدث جفاف في أرض كنعان حيث يقيم يعقوب والده، ويقصد إخوته مصر للتسوق، ويعرف يوسف إخوته ويستدرجهم إلى أن عرف منهم أخبار والده وأهله، فيأمر باستقدامهم إليه في مصر حيث عاشوا معه في سعة وهناء.

وخلال عرض أحداث القصة تقوم السورة بنشر الدعوة، الدعوة إلى دين إبراهيم، دين التوحيد وإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، وذلك من خلال عظة يلقيها يوسف داخل السجن على مسامع ساقي الملك وخازنه اللذين وجدهما هناك سجينين معه، عظة يشرح فيها دينه ويقول: "إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[37]، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[38]. يَا صَاحِبَيِ (ساكني) السِّجْنِ! أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[39]، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [40].

ثم تأتي الخاتمة لتعرض بهذه المناسبة، وبخطاب مباشر مركز، ما عرضته سور سابقة من أسس الدعوة المحمدية وأهدافها (الآيات 102–110)، ولتؤكد للرسول عليه السلام أن الضائقة التي يعاني منها قد عانى من مثلها الرسل السابقون حتى إنهم كادوا ييأسون. وفي مثل هذه اللحظة، لحظة القرب من اليأس، يأتي النصر فجأة. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى" (فتعرضوا للتكذيب والإعراض) "حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ"[110].

وتختم السورة بأن تستعيد، على صعيد المنهج، القضية المطروحة في المقدمة، بعد أن أجابت عن السؤال الذي طرح. يقول تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (في الكتب كالتوراة) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[111].

التوحيد، الأصنام، التصوير

أولا : التوحيد

ابتدأت الدعوة إلى التوحيد من اللحظة الأولى في مسار الدعوة المحمدية، لحظة "اقرأ باسم ربك الذي خلق". فمنذ تلك اللحظة والدعوة المحمدية تطرح تصورا جديدا للألوهية سرعان ما حددته تحديدا لا لبس فيه عندما طلبت قريش من النبي عليه السلام أن "ينسب ربه"، بمعنى أن يعرِّف بموقعه في سلسلة الآلهة التي كانوا يعبدونها! فجاء الجواب ليقطع الصلة تماما مع التصورات الوثنية التي كانت للعرب عن الألوهية وليعلن تميزه الجذري عن اليهودية والنصرانية، الديانتين التوحيديتين اللتين تؤمنان بإله واحد وفي نفس الوقت تقيم فِرَقُها نوعا من التعدد في الذات الإلهية عن طريق مفهوم "النسب". فإله اليهودية خاص بهم وحدهم وهم يعتبرونه "أبا" لهم متصلا بهم وحدهم إن لم يكن من حيث الوجود فمن حيث الرعاية الأبوية، مما جعل علاقتهم به تتطور إلى علاقة قبيلة برئيسها ومدبر شأنها، بينما ذهبت بعض فروعهم إلى اعتبار أحد قادتهم (عزرا، وفي القرآن عزير) ابنا لله. أما المسيحية فقد تصورت الألوهية "أقانيم"، أو قل "عناصر" أو "مكونات" ثلاثة: الأب والابن وروح القدس: الأب هو الله، وعيسى ابنه، والروح التي جعلت من مريم تلد من دون أن يمسسها بشر وجعلته نبيا يوحى إليه هو الروح القدس (جبريل في الإسلام). فكان الله عندهم "ثالث ثلاثة" حسب تعبير القرآن.

لقد قطعت الدعوة المحمدية عندما سئل النبي عليه السلام أن "ينسب ربه" مع فكرة "النسب"، سواء كان ماديا أو معنويا أو روحيا، فقال تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ". هذا التعريف ينفصل انفصالا

نهائيا مع التصورات الدينية التي كانت في ذلك الوقت، خاصة الوثنية منها. أما اليهودية والمسيحية اللتان قامتا ضد الوثنية وحاربتاها فقد احتفظ القرآن بعلاقة معهما، علاقة "التوحيد"، الشيء الذي يعني الاعتراف بنفس الإله لجميع البشر هو إله إبراهيم و"رب العالمين"، لا ولد له لا من الملائكة أو من البشر. وبما أنه لم يكن في مكة زمن البعثة المحمدية يهود ولا نصارى (إلا ما قد يكون من أفراد قليلين، مقيمين كعبيد أو زوار تجار أو قسيسين) فلقد بقيت العلاقة بين الإسلام واليهود والنصارى الذين كانوا يتسمَّون بـ "أهل الكتاب" محصورة على مستوى "الكتاب" ـ أعني العقيدة كما تقررها التوراة ـ من دون زيادات ولا تأويلات تخرج بها عن دين إبراهيم. وبالتالي فالعلاقة معهم كانت سلمية، أو على الأقل غير صدامية، إلى أن هاجر رسول الإسلام إلى "يثرب" حيث تسكن قبائل يهودية قديمة؛ حينئذ سيقع الاحتكاك وتبرز الفروق ويبدأ النزاع والصراع كما سنري في مرحلة قادمة.

وإذن فمسألة التوحيد التي ركز عليها القرآن في هذه المرحلة الثالثة من الدعوة المحمدية (بعد مرحلة إقرار النبوة والربوبية والألوهية، ومرحلة التأكيد على البعث والجزاء)، ستخص "أم القرى ومن حولها" وهم العرب الذين يدينون بالشرك وعبادة الأصنام. وبما أن القرآن قد نزل على نبي عربي وبلسان عربي يوجه الخطاب إلى خصوم هم الماسكون في بلاد العرب بزمام "السيادة"، بالدين والتجارة، فإن المعنيين أولا بالدعوة التوحيدية، قبل غيرهم، هم هؤلاء أنفسهم الذين رأوا في الدعوة المحمدية حركة داخلية تمس مصالحهم، فتجندوا لمقاومتها بالسخرية والاستهزاء ثم بصد الناس عنها وإيذاء الملتحقين بها في أنفسهم وأموالهم. وكما يحدث عادة فالدفاع عن المصالح المادية والمعنوية من طرف جماعة ماسكة بزمام الأمور في شعب من الشعوب لا يتم بصورة مباشرة إلا في حالة الحروب والصراعات، أما قبل أن تصل الأمور إلى هذا المستوى فأصحاب المصالح يختارون للدفاع عنها ميدانا يقدمون فيه هذا الصراع بوصفه دفاعا عن ما هو مشترك بين الجماعة صاحبة السيادة ومن تقع عليهم هذه السيادة. وفي مكة حيث كان الانفصال تاما أو شبه تام بين المستكبرين (وهم زعماء القبائل الكبرى الممسكون في الوقت نفسه بالاقتصاد الديني -عائدات الحج- والتجاري) وبين المستضعفين (الذين كانت أغلبيتهم من أبناء القبائل الضعيفة والموالي والعبيد)، فإن ما كان يجمع هؤلاء بأولئك هو "الدين" أعني عبادة الأصنام. ومن هنا كان الدفاع عنها ومقاومة من يهاجمها ويهاجم القائمين عليها والمعتقدين فيها أشبه بـ"الواجب الوطني" الذي يقوده في الغالب كبراء الوطن و"أهل الحل والعقد".

من هذا الوصف السريع للواقع الذي قامت فيه الدعوة المحمدية ندرك أي مجهود يتطلبه تغيير هذا الواقع، وأية تضحيات يتحتم القيام بها لتحقيق النصر عليه. والذين يتتبعون السيرة المحمدية ويتعرفون على أصناف الضغط والعسف والطغيان التي مارستها قريش على النبي وصحابته -ولم يبلغوا المائة إلا بعد عشر سنوات جلهم كانوا قد هاجروا إلى الحبشة مما جعل حِمل الدعوة يستقر على كتف الرسول (ص) وحده تقريبا، أقول إن الذين يتتبعون السيرة النبوية المحمدية من خلال ذلك، ومن خلال مسار نزول القرآن وبالارتباط معه، لا بد أن يدركوا، مهما كان دينهم أو ميولهم العقدية والإيديولوجية والسياسية، أنه إذا كان التاريخ هو الذي يصنع الرجال فإن الرجل محمد بن عبد الله نبي الإسلام هو وحده صنع التاريخ.

ربما كان الإعلان عن هذه النتيجة التي سيخرج بها قارئ هذا الكتاب -إن سلك معنا منهج الفهم والتفهم- سابقا للأوان الآن، إلا أن طرحها كمشروع منذ الآن سيفيد بدون شك في فهم وتفهم مقدار الجهد العملي والمعنوي الذي كان لابد منه لشق الطريق نحو الوصول إليها. كانت الدعوة المحمدية في المرحلتين السابقتين (تثبيت النبوة وإقرار البعث) تتحرك على "هامش الوجود" في مكة. أما في هذه المرحلة الثالثة، مرحلة إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام فقد رأيناها تتحرك بقوة داخل ذلك الوجود، تخلخله: تهاجم، وترد على الهجوم.

ويبقى أن نختم هذه المرحلة باستطراد يتناول تاريخ هذا الموضوع الذي جرى حوله الصراع، موضوع "الأصنام" : ما حقيقتها وما تاريخها كما نظر إليه الباحثون المسلمون بعد انتصار الإسلام عليها وقيام تاريخ آخر ألقى بها في سلة "ما أهمله التاريخ". وما "أهمله التاريخ" في هذا المجال كما في غيره، كثيرا ما يساعد النبشُ فيه على فهم هذا "التاريخ" نفسه.

ثانيا: الأصنام

1- الأصنام، الأوثان، الأنصاب

تقول المعاجم العربية: الصَنَمُ، ما اتُّـخِذَ إلهاً من دون الله، فإذا كان له جسم وصورة على شكل إنسان فهو صَنَمٌ تحديدا. أما الوَثَنَ فهو ما كان له جُثّة من خشب أو حجر أو فضة يُنْحَت ويُعْبَد. أما إذا كان حجرا على غير صورة فهو نُصب (بالضم والفتح). قالوا "لـم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا ولها صنمٌ يعبدونها يسمونه أُنثى بنـي فلان"؛ وكانت الأنصاب حول الكعبة يذبح لها بغير اسم الله. وقيل إن من

لم يقدر على اتخاذ صنم له أو بناء بيت للعبادة نصب حجرا أمام الكعبة، أو في مطاف له قداسة معينة، ثم طاف حوله، ومن هنا تسميتهم الأنصاب. قيل كان الواحد منهم إذا سافر أخذ معه أربعة أحجار يتخذ أحدا ربًا، ويجعل الثلاثة الباقين قِدرا، فإذا رحل عن المكان ترك تلك الأحجار وأخذ أخرى وفعل بها مثل ذلك.

ويبدو أن اللفظين "وثن" و"صنم" مشتركان بين اللغة العربية ولغات سامية أخرى كما رأينا في اسمي الجلالة : "الله" و"الرحمان". وبالتالي فهما معربان: الصنم من "سلم" Selem وهذه الكلمة تعني "صورة: باللغة العبرية، و"إله الورد" في الآرامية. هذا بينما التمس اللغويون العرب للفظ "وثن" أصلا في اللغة فقالوا هو من: "وثن بالمكان" بمعنى أقام فيها[1].

2- الأصنام في الكعبة : صور إبراهيم ومريم

كان بالكعبة عند ظهور الإسلام عدد هائل من الأصنام، ففي صحيح مسلم (كتاب إزالة الأصنام) أن النبي عليه السلام : "دَخَلَ مَكَّةَ (عند فتحها)، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نصباً، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ. وَيَقُولُ "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً" (الإسراء: 81). "جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ"» الآية (سبأ: 49). وروى الأزرقي في كتابه "أخبار مكة" أن النبي (ص) دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها، فرأى صورة إبراهيم، فقال: "قاتلهم الله، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام" فكسرها. ثم رأى صورة مريم، فوضع يده عليها، وقال: امحوا ما فيها (في الكعبة) من الصور إلا صورة مريم". وفي رواية أخرى: "أن قريشا كانت قد جعلت في الكعبة صورا، فيها عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام"، وأن امرأة "من غسان حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت : بأبي وأمي إنك لعربية. فأمر رسول الله (ص) أن يمحوا تلك الصور، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم". وبعد كسر الأصنام وإحراقها بعث الرسول عليه السلام، لهدم أصنام القبائل، سرايا كان على رأسها بعض كبار الصحابة مثل علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والمغيرة بن أبي شعبة الخ.

3- عبادة الأصنام عبادة قديمة

وعبادة الأصنام وما في معناها قديمة قدم الإنسان، ويطلق عليها في مقابل الديانات التوحيدية اسم "الوثنية" paganism، ومن الصعب جدا إرجاع عبادتها التي

1- المصادر حول الأصنام كثيرة: منها ما ورد في التفاسير وفي قصص الأنبياء وفي كتب التاريخ والأدب والأخبار. ومن الكتب كتاب الأصنام للكلبي وكتاب أخبار مكة للأزرقي...

انتشرت في الجزيرة العربية إلى عصر واحد أو مصدر واحد، خصوصا وقد كانت هذه الجزيرة على اتصال مستمر مع الحضارات القديمة: شرقا وغربا وجنوبا وشمالا. وكما رأينا فالقرآن الكريم يتحدث عن عبادة الأصنام منذ نوح، وأن إبراهيم عليه السلام قد شن ثورة على الأصنام داعيا إلى عبادة الله وحده وأنه -بمساعدة ابنه إسماعيل- قد بنى الكعبة في مكة وجعل منها مركزا للدين الحنيف دين التوحيد.

يقول المؤرخون العرب إن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم، وأن أحد رجال هذه القبيلة وهو مضاض بن عمرو الجرهمي تزوج بنت إسماعيل وبنى الحرم الذي منح مكة مكانتها الدينية، فحدث تحالف بين الإسماعيليين والجرهميين وانتشروا في الحجاز. وكان التحالف من نوع التحالف بين الدين والقبيلة، وشيئا فشيئا سلم الإسماعيليون السلطة السياسية إلى الجرهميين، الذين استبدوا بالملك مع مرور الزمن و"فسقوا" في مكة.

وبسبب "السيل العرم" الذي عرفته اليمن وخراب سد مأرب (يقال تهدم أول مرة علم 542م ثم انهار نهائيا عام 750م) هاجرت إحدى القبائل اليمنية التي كان على رأسها حارثة بن عمرو الملقب بـ "خزاعة" إلى الشمال. فاستولت على مكة والحرم وأجلت عنها قبيلة جرهم. ثم استولى عمرو بن لحي، حفيد خزاعة، على السيادة في مكة متحالفا مع بني إسماعيل وتولى حجابة البيت، وصار كاهنها، وهو الذي يُرجع إليه الإخباريون العرب استقدام الأصنام إلى مكة من جدة والشام واليمن ونشر الوثنية فيها. ويقال هو الذي أتى بـ "هُبل" وهو من كبار أصنام الكعبة. وبعد عمرو بن لحي آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي عليه السلام الذي تزوج من بنت خليل الخزاعي قريب عمرو بن لحي.

يذكر الأزرقي عن ابن إسحاق أن عمرو بن لحي نصب صنم الخلَصة بأسفل من مكة، فكانوا يلبسونها القلائد، ويهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام؛ ونصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير ... ونصب مناة على ساحل البحر (الأحمر) مما يلي قديدا، وهي التي كانت للأزد وغسان، يحجون إليها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من مِنى، لم يحلقوا إلا عند مناة، وكانوا يُهلّون لها، ومن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة ؛ لمكان الصنمين اللذين عليهما: نَهيك مجاود الريح، ومطعم الطير. فكان هذا الحي من الأنصار يُهلون بمناة، وكانوا إذا أهلّوا بحج أو عمرة لم يُظِل أحدا منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته، وإن كانت له فيه حاجة تسور من ظهر بيته؛ لأن لا يجن (يستر) رتاج الباب (ما فيه يغلق) رأسه.

فلما جاء الله بالإسلام، وهدم أمر الجاهلية، أنزل الله تعالى في ذلك: "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى" (البقرة 189). قال: وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام، وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقُديد" (قرب مكة). كما ينقل الأزرقي عن الكلبي: أن "مناة كانت صخرة لهذيل، وكانت بقُديد"، وأن "اللات والعزى ومناة كانت في كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وتتراءى للسَّدَنة، وهم الحَجَبة". ويبدو أن الاستيلاء على الكعبة كان من طموحات ملوك اليمن، فعلاوة على حملة أبرهة والي الحبشة "عام الفيل"، حاول ملوك اليمن التبابعة، الاستيلاء على مكة مرات، على ما يذكر الإخباريون.

4- الأصنام في اليهودية والمسيحية.

لم يكن الإسلام هو وحده من بين الديانات التوحيدية الذي شن حملة على الأصنام والعبادة الوثنية. ففي التوراة والأناجيل مثل ذلك. ففي سفر التثنية من التوراة أن موسى قال لبني إسرائيل بعدما صنعوا لهم صنما "عجلا" أثناء غيابه لملاقاة ربه لأخذ الألواح : "إِيَّاكُمْ أَنْ تَنْسَوْا عَهْدَ الرَّبِّ إِلَهِكُمُ الَّذِي قَطَعَهُ مَعَكُمْ وَتَنْحَتُوا لأَنْفُسِكُمْ تِمْثَالاً لِصُورَةِ مَا مِمَّا نَهَاكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ عَنْهُ. 24لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمْ هُوَ نَارٌ آكِلَةٌ وَإِلَهٌ غَيُورٌ. 25وَإِذَا أَنْجَبْتُمْ بَنِينَ وَأَحْفَاداً وَمَكَثْتُمْ طَوِيلاً فِي الأَرْضِ، ثُمَّ غَوَيْتُمْ فَنَحَتُّمْ لَكُمْ تِمْثَالاً لِصُورَةِ شَيْءٍ مَا، وَارْتَكَبْتُمُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلَهِكُمْ لإِثَارَةِ غَيْظِهِ، 26فَإِنَّنِي أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، أَنَّكُمْ تَنْقَرِضُونَ سَرِيعاً مِنَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ نَهْرَ الأُرْدُنِّ إِلَيْهَا لِتَرِثُوهَا، وَلَنْ تَطُولَ بِكُمُ الأَيَّامُ عَلَيْهَا، إِذْ لاَبُدَّ أَنَّكُمْ حِينَئِذٍ هَالِكُونَ. 27وَيُشَتِّتُكُمُ الرَّبُّ بَيْنَ الأُمَمِ فَتُصْبِحُونَ أَقَلِّيَّةً بَيْنَ الشُّعُوبِ الَّتِي يَسُوقُكُمْ إِلَيْهَا. 28وَهُنَاكَ تَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ مِنْ صَنْعَةِ أَيْدِي النَّاسِ، مِمَّا لاَ يُبْصِرُ وَلاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشُمُّ... 3وَلاَ تُصَاهِرُوهُمْ (عبدة الأصنام) فَلاَ تُزَوِّجُوا بَنَاتِكُمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، وَلاَ أَبْنَاءَكُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ، 4إِذْ يُغْوُونَ أَبْنَاءَكُمْ عَنْ عِبَادَتِي لِيَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى... اهْدِمُوا مَذَابِحَهُمْ وَحَطِّمُوا أَصْنَامَهُمْ وَقَطِّعُوا سَوَارِيَهُمْ وَأَحْرِقُوا تَمَاثِيلَهُمْ".(سفر التثنية 1420 – 1220ق.م).

وفي سفر أشعيا (القرن الثامن قبل الميلاد) نقرأ : "6هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ الْقَدِيرُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ وَفَادِيهِ: «أَنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرِي... هَلْ هُنَاكَ إِلَهٌ غَيْرِي؟ هَلْ هُنَاكَ صَخْرَةٌ أُخْرَى لاَ عِلْمَ لِي بِوُجُودِهَا؟ 9كُلُّ صَانِعِي التَّمَاثِيلِ لاَ جَدْوَى مِنْهُمْ، وَمُشْتَهَيَاتُهُمْ لاَ طَائِلَ مِنْهَا... 18إِنَّهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ وَلاَ يُدْرِكُونَ، إِذْ غَشِيَ عَلَى عُيُونِهِمْ فَلاَ يُبْصِرُونَ، وَأُغْلِقَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يَفْهَمُونَ".

أما في النصوص المسيحية فنقرأ في "أعمال الرسل" لـ"لوقا": "نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصَّنَمَ لَيْسَ بِإِلهٍ مَوْجُودٍ فِي الْكَوْنِ، وَأَنَّهُ لاَ وُجُودَ إِلاَّ لإِلهٍ وَاحِدٍ. 5حَتَّى لَوْ كَانَتِ الآلِهَةُ الْمَزْعُومَةُ مَوْجُودَةً فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ وَمَا أَكْثَرَ تِلْكَ الآلِهَةَ وَالأَرْبَابَ! 6فَلَيْسَ عِنْدَنَا نَحْنُ إِلاَّ إِلهٌ وَاحِدٌ هُوَ الآبُ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَنَحْنُ لَهُ؛ وَرَبٌّ وَاحِدٌ هُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي بِهِ كُلُّ شَيْءٍ وَنَحْنُ بِهِ ... 14لِذَلِكَ، يَاأَحِبَّائِي، اهْرُبُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ. ... 21أَيُّهَا الأَوْلاَدُ الصِّغَارُ، احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الأَصْنَامِ! ... 8أَمَّا الْجُبَنَاءُ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاسِدُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ، وَالْمُتَّصِلُونَ بِالشَّيَاطِينِ وَعَبَدَةُ الأَصْنَامِ وَجَمِيعُ الدَّجَّالِينَ، فَمَصِيرُهُمْ إِلَى الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِالنَّارِ وَالْكِبْرِيتِ (جهنم)، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي» (أعمال الرسل)[2].

ولا بد من الإشارة هنا إلى الدور الذي كان لانتشار الحضارة اليونانية في المنطقة، وبالخصوص دياناتها الشعبية الوثنية التي كانت تستعمل التماثيل (تمثيل آلهتها في السماء على الأرض بواسطة الصور المجسمة والنحت الخ)، فهذه الديانة الشعبية الإغريقية هي التي كانت مستهدفة في "أعمال الرسل" والأناجيل، ولربما كان ذلك الاستهداف مظهرا من مظاهر صراع الإمبراطورية الرومانية مع الحضارة اليونانية، خاصة عند قيام بيزنطة المسيحية واحتوائها للكنيسة. وكما يحدث عادة فالقضاء على مظهر من مظاهر حضارة مغلوبة كثيرا ما يصحبه انفتاح على مظهر آخر من مظاهرها، يكون بمثابة فتح مضاد للحضارة الغازية. وهكذا، ففي الوقت الذي كان فيه "الرسل" في المسيحية يشنون حملة واسعة ضد "أصنام" الوثنية الإغريقية، كانت الفلسفة اليونانية تقوم بعملية غزو مضاد للمسيحية في قلب عقيدتها ففرضت فيها إشكاليتها الفلسفية المعبر عنها بـ "مشكل صدور الكثرة عن الوحدة" وأعطتها قالبا دينيا فلسفيا تم التعبير عنه بـ"التثليث"، وقد سبق أن بينا كيف حصل ذلك مع "بولس خلال تبشيره في بلاد اليونان والأقاليم المتأثرة بها : "بلاد الوثنيين" [3]

ثالثا- الأصنام والتصوير في الإسلام ...

شن القرآن -كما تتبعنا في فصول هذه المرحلة وسنرى المزيد في المراحل القادمة- حملة واسعة عنيفة ضد عبادة الأصنام والأوثان، وبشكل عام عبادة غير

---

2 - تحاول الترجمة الدولية الجديدة التي نعتمدها أن تقترب من ألفاظ القرآن وعباراته بأسلوب يخلو من الركاكة التي تطبع الترجمات القديمة. لكن المعنى يتوافق تماما مع أسلوب الطبعة التي تصدرها دار الكتاب المقدس في العالم العربي، بيروت.

3- انظر التعريف بالقرآن: الفصل الأول الفقرة 3

الله- ولكنه لم يعرض في أية آية للمصورين، سواء مصوري الأصنام أو غيرها. مما يؤكد أن قصد الشارع من إزالة الأصنام، سواء من الكعبة أو من غيرها هو الحيلولة دون عبادتها بوصفها شركاء وليس بوصفها مجرد صور. وقد سبق أن أشرنا إلى منعه عليه الصلاة والسلام تمزيق صورة مريم وعيسى أثناء كسر وتمزيق أصنام الكعبة عقب فتح مكة، وأنه (ص) أمر بتكسر وتمزيق الصورة التي كانت تمثل نبي الله إبراهيم لأنهم صوروه وهو يستقسم بالأزلام وهو شيء محرم في الإسلام وبالتالي يتناقض مع دين إبراهيم أصل الأديان السماوية.

وعندما أزيلت الأصنام من مكة وقام المسلمون بتوجيه من النبي (ص) بحملات لكسرها وتمزيقها وإحراقها لدى القبائل في جزيرة العرب كان من الطبيعي أن تستمر الحملة عليها فكريا، حرصا على عدم عودة الناس إلى عبادتها. ودخل المسلون في مرحلة الفتوحات، وجلها كانت في بلدان كان أهلها إما يعبدون الأصنام ويقيمون لها التماثيل وإما يعبدون الله ويقيمون لأنبيائهم صورا رمزية غير مقرونة بالعبادة كما كان الحال في صورتي مريم وعيسى في الكعبة. وكان من الطبيعي أن تستمر الحملة الفكرية على الأصنام حتى لا تنتشر ويعود المسلمون الجدد إلى عبادتها، فرويت أحاديث تحرم التصوير جملة، أشهرها حديث بلفظ: "إنَّ أشدَّ الناس عذاباً عندَ الله يوم القيامةِ المصوِّرونِ"، وحديث آخر رووه بلفظ : "إنَ الذينَ يصنعونَ هذه الصُوَر يُعذَبونِ يومَ القيامة، يقالُ لهم: أحيوا ما خَلَقْتم».

وقد علق ابن حجر على لفظ الحديث الأول بقوله : وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قوله تعالى: "ادخلوا آل فرعون أشد العذاب" (غافر: 46) فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون؟ ثم يورد جواب الطبري على هذا الاستشكال، يقول فيه: "إن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك، قاصداً له، فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون. وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط". كما ذكر رأي القرطبي وجاء فيه: "إن الناس الذين أضيف إليهم «أشد» لا يراد بهم كل الناس بل بعضهم، وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب، ففرعون أشد الناس الذي ادعوا الإلهية عذاباً، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لا للعبادة".

واضح أن هذا الاستشكال لا يمس صميم الموضوع وإنما يناقش "لفظ" أشد العذاب وكيف يفهم انطلاقا من أن وزر التصوير لا يوازن وزر فرعون الذي جاء الوعيد له في القرآن بهذا اللفظ. أما "العذاب"، شديدا كان أو غير شديد، فهو لا يصيب إلا من صدر في تصويره عن قصدٍ له علاقة بالعبادة. وفي عصرنا، وفي بلاد

الإسلام خاصة، لا أعتقد أن هناك من يصور صورة أو تمثالا للعبادة، سواء تعلق الأمر بما له روح أو بما ليس له روح. ولا يقصد المصورون اليوم أي نوع من الشرك مع الله في تصوير الأشياء: فكما أن الحداد يصنع آلات لها أشكال وصور معينه كالفأس والمحراث والمفتاح والأواني الخ، من أجل الاستعمال وتسخير الطبيعة، وكما يصنع الصائغ أدوات الزينة، ويصنع الخياط الثياب المزركشة، والحذاء الأحذية المنمقة، والطهاة الطعام بأشكاله المختلفة، يرسم المصور والنحات صورا ونقوشا وتماثيل لحاجة الإنسان من الناحية الجمالية والفنية دون أن تكون لذلك أية علاقة بالدين والعبادة. والمبدأ الحاكم في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين، هو أن "الأعمال بالنيات"، أعني المقاصد. فكل ما يقصد به أي نوع من أنواع الشرك بالله فهو محرم، لا لأنه رسم أو صورة أو تمثال، بل لأن الشرك بالله يمارس بواسطته. أما ما عدا ذلك فهو من الصنائع التي يقوم بها الإنسان إما لإنعاش جسمه أو لإنعاش روحه وتوسيع أفق تفكيره وتنمية إحساساته والتسلية على نفسه. بعضها يدخل في الضروري من المعاش وبعضها يدخل في التحسينات والتكميلات وبعضها للزينة. "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ... قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (الأعراف 32-33).

وعلى هذا فالحديثان السابقان إنما يشهد لهما القرآن بالصحة إذا كان القصد من التصوير داخلا في مضمون قوله تعالى: "وأن تشركوا بالله...". أما إن كان التصوير للزينة فهو يدخل في مضمون قوله تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده"، خصوصا وقد نزلت هذه الآية في عرب الجاهلية الذين كانوا يحرمون على أنفسهم لبس الثياب في المسجد الحرام عند الطواف بالكعبة. يقول الطبري في شرح هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلّم: قُلْ يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرّون عند طوافهم بالبيت، ويحرّمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: مَنْ حَرَّمَ أيها القوم عليكم زِينَةَ اللَّهِ التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رزق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم".

فهرس القسم الأول

كتب المؤلف

حسب تاريخ صدورها

1 - **العصبية والدولة** : معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي 1971 .
2 - **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب** 1973 .
3 - **مدخل إلى فلسفة العلوم** : جزآن 1976 (الأول : تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة . الثاني : المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي) .
4 - **من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية** 1977 .
5 - **نحن والتراث** : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي 1980 ترجم الى الاسبانية والتركية .
6 - **الخطاب العربي المعاصر** : دراسة تحليلية نقدية 1982 .
7 - **تكوين العقل العربي** : 1984 . (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية) .
8 - **بنية العقل العربي** : 1986 . (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية) .
9 - **السياسات التعليمية في المغرب العربي** 1987 .
10 - **إشكاليات الفكر العربي المعاصر** 1988 .
11 - **المغرب المعاصر** : الخصوصية والهوية : الحداثة والتنمية 1988 .
12 - **العقل السياسي العربي** : 1990 (ترجم إلى التركية والفرنسية) .
13 - **حوار المغرب والمشرق** : حوار مع د. حسن حنفي 1990 .
14 - **التراث والحداثة** : دراسات ومناقشات 1991 .
15 - **مقدمة لنقد العقل العربي** نصوص مترجمة إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان :

Introduction à la critique de la Raison arabe : traduit de l`arabe et présenté par Ahmed Mahfoud et Marc Géoffroy. éd. La Découverte. Paris 1994.

ترجم إلى الإيطالية والإنجليزية والبرتغالية، والإسبانية واليابانية والإندونيسية .

16 - **المسألة الثقافية** 1994 .
17 - **المثقفون في الحضارة العربية والإسلامية** ، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد 1995 .
18 - **مسألة الهوية** : العروبة والإسلام ... والغرب 1995 .
19 - **الدين والدولة وتطبيق الشريعة** 1996 .
20 - **المشروع النهضوي العربي** 1996 .
21 - **الديموقراطية وحقوق الإنسان** 1997 .
22 - **قضايا في الفكر المعاصر** 1997 .
23 - **التنمية البشرية والخصوصية السوسيوثقافية** 1997 (نشر الأمم المتحدة، الإسكوا، ترجم إلى الإنجليزية) .
24 - **وجهة نظر** : نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر 1997 .
25 - **حفريات في الذاكرة**، من بعيد ! 1997 .
26 - **الإشراف على نشر جديد لأعمال ابن رشد الأصيلة مع مداخل ومقدمات تحليلية** وشروح إلخ 1997-1998 (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تهافت التهافت، كتاب الكليات في الطب، الضروري في السياسة : مختصر سياسة أفلاطون) .
27 - **ابن رشد** : سيرة وفكر 1998 .
28 - **العقل الأخلاقي العربي** : دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، 2001 .
29 - **في نقد الحاجة إلى الإصلاح** 2005 .
30 - **سلسلة مواقف** .
31 - **مدخل القرآن الكريم** : التعريف بالقرآن، 2007 .

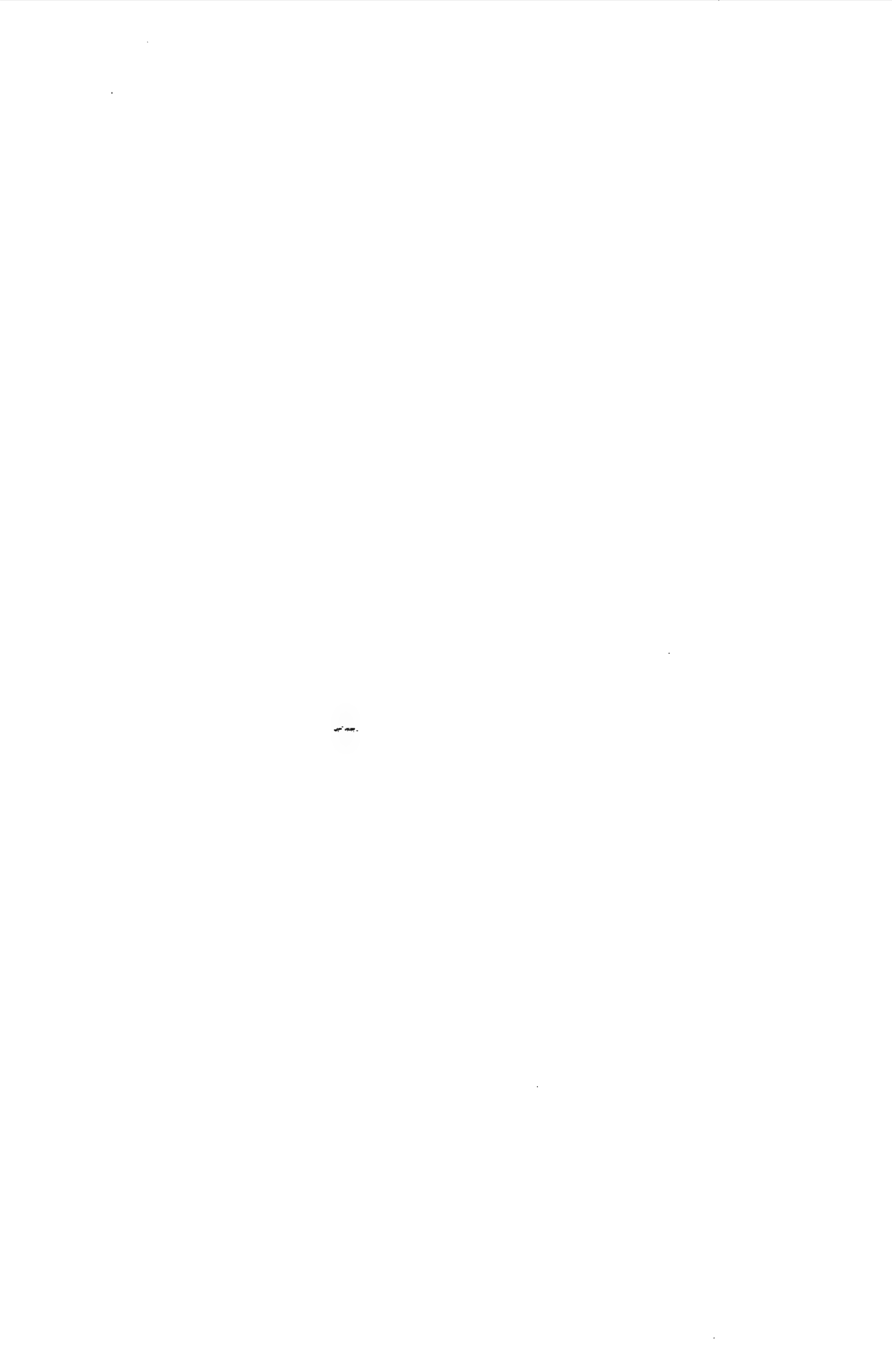
الثمن : 80 درهما

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثاني

محمد عابد الجابري



فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثاني

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني : 2008M01764

ردمك : 978-9954-0-3085-9

مطبعة دار النشر المغربية

عين السبع ـ الدار البيضاء

2008

مقدمة الجزء الثاني

بين الجهر بالدعوة والصدع بها

1- الدعوة المحمدية بين السرية والجهر

ذكر جل كتاب السيرة النبوية والمفسرون رواية تقول إنه : "ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" (من سورة الحجر رقم 54 في لائحة ترتيب النزول، 53 في ترتيبنا)؛ ويحددون لذلك السنة الثالثة أو الرابعة للنبوة، كما يحددون عدد المسلمين آنذاك في نحو الأربعين شخصا. وهذا القول لا يتسق مع مسار التنزيل. فالمراحل التي اجتازتها الدعوة المحمدية منذ "اقرأ باسم ربك" (والتي عرضناها بتتابع في القسم الأول من هذا الكتاب تحت العناوين التالية : النبوة والربوبية والألوهية، البعث ومشاهد القيامة، إبطال الشرك وبيان لا معقولية عبادة الأصنام)... أقول: هذه المراحل، قد استغرقت أكثر من أربع سنوات. لقد تم الجهر بالقرآن لأول مرة عندما قام عبد الله بن مسعود بقراءة سورة الرحمان في المسجد الحرام، وكبار قريش في نواديهم يسمعون ويتساءلون. كما قرأ النبي (ص) سورة النجم في المكان ذاته. وقبل ذلك وبعده كان هناك جدال مع زعماء قريش، فقد اتهموا النبي (ص) بالسحر والكهانة والجنون الخ، ورد القرآن عليهم أكثر من مرة... كل ذلك لا يترك معنى للقول: "ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" في سورة رتبتها 54 في ترتيب النزول. بينما سورة النجم، ورتبتها 22، يؤرخون لها بالهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة والنصف، سنة إسلام كل من حمزة عم النبي (ص) وعمر بن الخطاب، اللذين شكل إسلامهما علانية، وبنوع من التحدي لخصوم الدعوة المحمدية، علامة بارزة في تاريخ هذه الدعوة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالآية التي تخاطب النبي عليه السلام بقوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" (الحجر94-96) والتي يفهمون منها "الأمر بالخروج بالدعوة من المرحلة السرية إلى الجهر بها"، هذه الآية تقتضي أن الجهر بالدعوة كان قائما بالفعل، وإلا فما معنى الجمع بين الأمر بالصدع بالدعوة من جهة، والإعراض عن المشركين من جهة أخرى، والحال أن الدعوة موجهة أصلا لهؤلاء المشركين؟

نحن نعتقد أن الأقرب إلى الصواب هو ما ذكره ابن إسحاق حينما قال: "لما تَمادوا (قريش) في الشر وأكثروا برسول الله (ص) الاستهزاء"، أنزل الله تعالى تلك الآية. وهذا يقتضي أن يكون معنى "اصدع بما تؤمر" أكثر وأوسع من مجرد الانتقال من المرحلة السرية إلى مرحلة الجهر بالقرآن، بل لا بد أن يكون المقصود بـ "الصدع بالدعوة" هو تدشين مرحلة جديدة في مسار الدعوة. وبالتالي نرى أن معنى "الصدع" هو أكثر من خروج النبي من دار الأرقم بن الأرقم التي كان يختفي فيها، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين وكتاب السيرة الذين يؤرخون لهذا الحدث بالسنة الثالثة/الرابعة للنبوة.

وقصة دخول الرسول عليه السلام دار الأرقم بن الأرقم تتلخص - حسب هؤلاء- في كون النبي عليه السلام بدأ يدعو الناس خفية لما نزل قوله تعالى: "يأيها المدثر قم فأنذر"..."وكان من أسلم من النّاس إذا أراد الصّلاة يذهب إلى بعض الشّعاب يستخفي بصلاته من المشركين، فيلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعيبون صلاتهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد بن أبي وقاص، أدمَى فيه سعد رجلاً من المشركين. فبعد تلك الوقعة دخل رسول الله (ص) وأصحابه دار الأرقم عند الصّفا فكانوا يقيمون الصّلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد وقد وصل عددهم ما بين الأربعين والخمسين[1]...

1- "وفي كلام ابن الأثير: مكث النبي مستخفياً في دار الأرقم ومن معه من المسلمين إلى أن أكملوا أربعين بعمر بن الخطاب، وعند ذلك خرجوا. وعن ابن عباس أيضا: لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه قال المشركون: لقد انتصف القوم منا". وعمر بن الخطاب أسلم في السنة الخامسة والنصف. وهذا التضارب في تحديد تاريخ مغادرة دار الأرقم (هل في الثالثة؟ أم في الرابعة؟ أم بعد إسلام عمر بن الخطاب في الخامسة والنصف؟) ربما مرجعه كون بعضهم يؤرخ للدعوة المحمدية بنزول "اقرأ باسم ربك"، والنبي عليه السلام في الثامنة والثلاثين من عمره، وبعضهم يقول في الأربعين، بينما يؤرخ آخرون لبداية البعثة= المحمدية بـ"يا أيها المدثر" التي نزلت بعد انتهاء فترة انقطاع الوحي أي بعد نحو سنتين،

إلى هنا لا اعتراض ولا استدراك. ولكن إضافة بعضهم إلى ذلك قولهم: "فنزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" الآية[2]، وأنه "بنزولها ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدّعوة للإسلام جهراً"، هو ما لا نراه ينسجم مع مراحل الدعوة. ذلك أن مجرد الجهر بالدعوة كان قد تم قبل ذلك، أي مباشرة بعد استئناف الوحي ونزول "يا أيها المدثر، قم فأنذر" الخ. فمنذ ذلك الوقت والرسول عليه السلام يقوم بالدعوة والإنذار، يساعده في ذلك السابقون الأولون إلى الإسلام، وبكيفية خاصة أبو بكر الصديق كما تؤكد ذلك عدة روايات.

2- الصدع بالدعوة مرحلة جديدة في تاريخ الجهر بها

إذن "فاصدع بما تؤمر" هو أمر بالانتقال بالدعوة إلى مرحلة جديدة، وهذا الأمر مقرون بقوله تعالى "إنا كفيناك المستهزئين"، وبينهما "أعرض عن المشركين". فكيف يمكن فهم هذه العبارات الثلاثة التي تحمل تعارضا ظاهريا؟

القرآن يشرح بعضه بعضا، وما يمسك بعضه إلى بعض على صعيد الفهم هو السياق. والسياق في القرآن خاص وعام: الأول نصي، ينتظم بالعلاقات بين الآيات المتتابعة؛ والثاني تاريخي، تستعاد فيه آيات متفرقة داخل السورة الواحدة أو بين عدة سور. والسياقان في العبارات التي نحن بصددها هما كما يلي:

- فعلى مستوى السياق الخاص، سياق النص، نلاحظ أن جميع المفسرين اقتصروا على الكلام في كل عبارة على حدة، فكان منهم من أطال وكان منهم من اختصر، ولكن لم نجد من بينهم من حاول قراءة هذه العبارات

والنبي حينذاك في الثانية والأربعين من العمر. إذن هناك فرق نحو سنتين علىّ الأقل، راجع إلى البداية المعتبرة، فلا بد من أخذ هذا الفرق بالاعتبار عند تحديد التواريخ. (انظر تفاصيل في الموضوع في : التعريف بالقرآن الكريم الفصل الرابع. فقرة 3-أ).

2- يورد بعضهم هذه الآية مضيفين إليها قوله تعالى :"وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، الآية 214 من سورة الشعراء التي هي أسبق على مستوى ترتيب النزول من سورة الحجر (الأولى رتبتها 47 وهذه رتبتها 54، فهي متأخرة عنها على مستوى ترتيب المصحف)، الشيء الذي يدل على هيمنة ترتيب المصحف على المفسرين مع أنه ترتيب مبني على حجم السور وليس على تاريخ نزولها. وبالتالي فهو، أعني ترتيب المصحف، لا علاقة له، إجمالا، لا بزمن مسار التنزيل ولا بوقائع السيرة.

الثلاثة (هما آيتان) بما يرفع التعارض القائم بين : مطالبة النبي بالمضي في نشر الدعوة (اصدع بما تؤمر) ومطالبته في الوقت نفسه بالإعراض عن المشركين وعدم الاهتمام بهم (أعرض عن المشركين)، وبالتالي فَهْمَ تلك المطالبة وهذا الإعراض على ضوء: "إنا كفيناك المستهزئين"! فإذا كان الله قد كفى نبيه الكريم شأن المستهزئين به وبالتوحيد والبعث والمعاد وبالقرآن جملة الخ، فلماذا الصدع بما يؤمر؟ ولماذا مطالبته بالإعراض عن المشركين؟ يحس القارئ أحيانا أن بعض المفسرين يستشعر مثل هذه الأسئلة ولكنهم يتخلون عنها سريعا بفعل اعتيادهم تجزئة الكلام، وإغفال السياق، والاهتمام بالمرويات وحدها، وهي متعارضة متناقضة!

أما على مستوى السياق العام، أو التاريخي، فيجب إبراز المعطيات التالية:

1- منذ "يا أيها المدثر قم فأنذر" والنبي عليه السلام يمارس الدعوة على مستوى فردي وفي جو من الكتمان، وكان الدور الرئيسي في البداية للعلاقات الفردية، وفي هذا الصدد يعطينا رواة السيرة أسماء الذين قاموا بالدعوة على هذا المستوى وأسماء الذين استجابوا لهم. وهذه هي المرحلة "السرية" في الدعوة.

2- بعد ذلك جهر النبي (ص) بسورة النجم كما جهر عبد الله بن مسعود بسورة الرحمان، في المسجد وزعماء قريش يسمعون، فبدأت بذلك عملية الجهر بالقرآن وتواصلت من جانب النبي عليه السلام الذي كان يتلو القرآن في المسجد حين الصلاة وخارج وقتها، ورجال قريش يسمعون ويعلقون ويستهزئون.

3- وعندما انتقل التنزيل إلى التركيز على البعث والحساب والجزاء زادت ردود فعل قريش حدة، خصوصا وقد لاحظوا تزايد استجابة الناس للدعوة، من المستضعفين خاصة، من العبيد والموالي ومن القبائل الضعيفة.

4- حتى إذا انتقل التنـــزيل إلى التركيز على إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام ثارت ثائرتهم وأخذوا يوسعون من دائرة ردود فعلهم : وهكذا أكثروا من الاتصال مع أبي طالب يطلبون منه التوسط لدى ابن أخيه، النبي عليه السلام، لحل "المشكل" بصورة "سلمية"، مبدين استعدادهم للدخول في حلول وسطى الخ؛ كما أكثروا الاتصال مع النبي نفسه في نفس الاتجاه ... ثم

انتهوا إلى تهديده بالقتل مرات... وكانت النتيجة ثبات النبي (ص) على الموقف ورفض المساومة. وازداد الجو توترا بين النبي عليه السلام وزعماء قريش فعمدوا إلى ممارسة التعذيب الفظيع على المستضعفين من المسلمين، من الموالي والعبيد. أما أبناء القبائل فقد تكفل أهلهم بهم: كل قبيلة التزمت بالعمل على "ردع" أبنائها المسلمين أو المتعاطفين مع الإسلام. وامتد القمع النفسي والمادي إلى رجال معروفين من القبائل المتوسطة ... ولما بلغ الإرهاب الفكري والمادي ما لا يحتمل اقترح النبي عليه السلام على المسلمين الهجرة إلى الحبشة، وقد كانت بين النجاشي (ملكها) وبين الرسول عليه السلام علاقة تعارف، فهاجر إليها صحابة النبي فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة(3) وكان عدد من هاجر أحد عشر رجلا، ومع بعضهم نساؤهم، ولم يبق في مكة مع النبي من المسلمين إلا أفراد قلائل.

كان ظرفا صعبا جدا على النبي عليه السلام ... فاتجه التنزيل في هذه المرحلة إلى تسليته وتثبيت فؤاده، واستعمل في ذلك قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، كما بينا ذلك في حينه. ثم نزلت سورة طه مفتتحة بقوله تعالى : "طه[1]، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى"[2] (لتحزن لكون قومك لم يستجيبوا، انظر سورة طه في القسم الأول من الكتاب).

3- قبل "الصدع" ... " أنذر عشيرتك الأقربين" ..!

قبل سورة "الحجر" التي حملت الأمر بـ"الصدع" بالدعوة، كانت سورة "الشعراء" قد نزلت لتدشن مجموعة السور التي نعتقد أنها هي المقصودة بـ "السبع المثاني" – وهي خاصة تقريبا بتسلية النبي عليه السلام وتثبيت فؤاده- ولتوجه- أعني سورة الشعراء- في خاتمتها إلى النبي عليه السلام هذا الأمر: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" (انظر السورة في القسم الأول من الكتاب). كانت قريش قد لجأت، كما قلنا، إلى استعمال "القبيلة" لمحاربة الدعوة المحمدية: كل قبيلة تراقب أبناءها وتحاصرهم حتى تتم مقاطعة محمد بن عبد الله! وإذن فليتجه هو إلى قبيلته أولا يدعوهم إلى اتباعه ونصرته(4).

3 – راجع التعريف بالقرآن الكريم الفصل الثاني. والتقديم الذي صدرنا به كلا من سورة مريم وسورة طه، في القسم الأول من هذا الكتاب.

4- قال ابن إسحاق : "ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين=

كان في بني هاشم، عشيرة النبي (ص)، من كان يعطف عليه ويستمع له ويثق في أمانته وصدقه دون أن يسلموا. وباستثناء أبي لهب -أحد أعمامه- يمكن القول إجمالا إن رجال عشيرته كانت تأخذهم الغيرة عليه حتى وهم على دين آبائهم، مشركين. وفي قصة إسلام عمه حمزة مثال واضح على ذلك[5]. دع عنك أبا طالب الذي كفل النبي ورعاه وحماه وهدد قريشا بحرب أهلية قبَلية إن هم مسوه بسوء.

والآن، بعد قوله تعالى "أنذر عشيرتك الأقربين"، الذي ختم به أولى سور "السبع المثاني" (أعني سورة الشعراء-التي رتبتها 47)، ها هي آخر هذه السور السبع (سورة الحجر التي رتبتها 53) تختم بـ"اصدع بما تؤمر..."، أي الأمر: بـ"الإعراض عن المشركين" من جهة، وعدم التوقف عند حدود الأقربين

يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم. ومنع اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم منهم بعمِّه أبي طالب. وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم (يعني بني هاشم وبني المطلب) إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب".

5 - قال ابن إسحاق عن سبب إسلام حمزة عم النبي (ص): حدثني رجل من أسلم، كان واعيةً، أن أبا جهل مر برسول الله (ص) عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العَيْب لدينه، والتضعيف لأمره؛ فلم يكلمه رسول الله (ص)، ومَولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف (أبو جهل) عنه فعمد إلى نادِ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحا قوسَه، راجِعاً من قَنَص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادِ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم. وكان أعزَّ فتى في قريش، وأشدَّ شكيمةً. فلما مر بالمَوْلاةِ، وقد رجع رسول الله (ص) إلى بيته، قالت له : يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد (ص). فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به؛ فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكَرة، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول (في حين أنه لم يكن قد أسلم بعد)؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبَا عُمارة، فإني والله قد سبيت ابن أخيه سبا قبيحا. وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه".

من العشيرة من جهة ثانية، الشيء الذي يعنى الاتجاه إلى القبائل العربية التي تقطن خارج مكة والتي تحج إليها في المواسم الدينية وتقصدها في مواعد الأسواق... وتأتي "إنا كفيناك المستهزئين" لتطمئن النبي عليه السلام بكونه لن يلقى بعد الآن نفس الحصار الذي كان يضربه عليه الملأ من قريش للحيلولة دونه ودون نشر الدعوة في الأسواق، ذلك أن شخصيات من هذا "الملأ" التي كانت أكثر استهزاء قد هلكت في "وقت واحد" أي في أيام متقاربة.

وإذا كنا لا ندري مدى استجابة عشيرة النبي ككل للدعوة، ولا مدى التأثير الذي أحدثه فيها رد الفعل السلبي الذي صدر عن أبي لهب [6]، فإن الروايات تكاد تجمع على أن جماعة من كبار المستهزئين، خصوم الدعوة المحمدية، قد ماتوا بصورة مفاجئة قبيل نزول الأمر بـ"الصدع" بالدعوة. وكما هي العادة اختلف الرواة في عددهم وأسمائهم وأسباب وفاتهم. لكن الرواية الأشهر تحصر عددهم في خمسة، وهم "الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث؛ وكانوا من كبار خصوم الدعوة المحمدية ومحاربيها[7]. والمفسرون جميعا متفقون على أن هؤلاء هم الذين أشار إليهم قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزئين"..!

ذلك هو السياق التاريخي العام، الذي ينتظم هذا الأمر الجديد: "اصدع بما تؤمر"؟"...، فلننتقل الآن إلى الحديث عن هذا "الأمر" المزدوج: الأمر بالصدع، و"الأمر" موضوع الأمر بالصدع به!

أما معنى لفظ "الصدع" فمعروف، وهو الشق والكسر. ومعنى الآية: امض، شاقا الطريق لتبليغ الرسالة التي أنت مكلف بها. وهذا المعنى لا ينبغي، بل لا يجوز عزله عن سياقه النصي، أعني العبارة التي تليه مباشرة وهي :

6- انظر تقديم سورة الشعراء، في القسم الأول من هذا الكتاب.

7- تقول إحدى الروايات : فأما الوليد بن المغيرة فتعلق سهمٌ بردائه، فذهب يجلس فقطع أكحله فنزف فمات. وأما الأسود بن عبد يغوث فأُتِي بغصن فيه شوك، فضرب به وجهه، فسالت حدقتاه على وجهه، فكان يقول: دعوت على محمد دعوة، ودعا عليَّ دعوة، فاستجيب لي، واستجيب له: دعا عليّ أن أعمَى فعميت، ودعوت عليه أن يكون وحيدا فريدا في أهل يثرب فكان كذلك. وأما العاص بن وائل، فوطئ على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك. وأما الأسود بن المطلب وعديّ بن قيس، فإن أحدهما قام من الليل وهو= ظمآن، فشرب ماء من جَرّة، فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات، وأما الآخر فلدغته حية فمات.

"وأعرض عن المشركين". إذن: كيف نفهم الصدع بالأمر مع الإعراض عن المشركين، والحال أن هذا "الأمر" منذ كان وهو خطاب إليهم؟ لقد ذهب المفسرون في تفسير هذا الأمر مذاهب لم تخرج في النهاية عن معنى "لا تلتفت إليهم"[(8)]؛ ولكنهم لا يطرحون السؤال التالي: وإذن، فلمن "سيلتفت"؟ إنهم ينتقلون مباشرة إلى قوله: "إنا كفيناك المستهزئين" دون أن يطرحوا العلاقة بين هذا وذاك؟

أما نحن فنقترح ما يلي: عندما قررت قريش ضرب حصار على أبنائها المستجيبين أو المتعاطفين مع الدعوة المحمدية وتحملت كل قبيلة مسؤولية ذلك، أصبحت الدعوة في وسط قبائل قريش مستحيلة وهذا ما عبرت عنه سورة الحجر في بدايتها بالقول : "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ[2] (ولكن لم يعد في إمكانهم ذلك بعد أن كذبوا وأعرضوا واختاروا الكفر، إذن :) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"[(9)]. وتأتي خاتمة السورة لتأمر

8 – من ذلك مثلا قول الطبري في شرح هذه الآية : "وأما قوله "وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"، يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: بلغ قومك ما أرسلت به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم. وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ ذلك بقوله: فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" (التوبة 5)! قلت (الجابري): فما أبعد هذا عن سياق الآية. وهذا مثال من عشرات الأمثلة التي يستعمل فيها المفسرون مقولة "النسخ" بدون اعتبار لا للسياق ولا للزمن! فكيف يمكن تصور آية مكية نزلت في ظروف معينة لا علاقة لها بالحرب ولا باستعمال العنف مع المشركين كما هو شأن القرآن المكي كله، تنسخها آية نزلت في المدينة وفي ظروف الحرب مع المشركين، وفي آخر سورة نزلت، "سورة التوبة"؟ المسافة الزمنية بين الآيتين لا تقل عن ثماني عشرة سنة (عشرة بعد الهجرة وثمانية قبلها). أما العلاقة الموضوعية بينهما فهي من نوع علاقة الضد بضده: الآية الأولى نزلت بعد استعصاء إقناع قريش بالدعوة وإصرارهم على عزل الرسول عليه السلام ومنعه عن الاتصال بالناس في مكة، بينما الآية الثانية نزلت في المدينة وفي آخر سورة نزلت، وقريش قد انتهى أمرها عندما تم فتح مكة قبل نزول هذه السورة بنحو سنتين؟!

9– حمل بعض المفسرون هذه الآية على أنها تتحدث عن رد فعل المشركين وهم في النار يوم القيامة حين يرون المسلمين في الجنة. وهذا في نظري لا أساس له في السياق. فلم يسبق أن ذكر يوم القيامة من قبل، وما يلي الآية يتعلق بالدنيا: "ذرهم يأكلوا ويتمتعوا" في الدنيا. ولذلك نميل إلى القول إن معنى الآية شيء آخر يكشف عنه قوله تعالى في آيات تالية: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" (10-13). إذن حكم الله على مشركي مكة أنهم لن يؤمنوا. ومن هنا كان معنى قوله : "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ"، بمعنى أنهم محكوم عليهم بالبقاء كافرين حتى ولو ودوا أن يكونوا مؤمنين لأنهم سبق أن اختاروا رفض الدعوة وأصروا على ذلك إصرارا لم يتركوا=

بالإعراض عنهم خصوصا وقد كفى الله رسوله "المستهزئين" الذين عبرت عنهم بـ"المُقتَسمين الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ". والمقصود الجماعة الذين تقاسموا أنحاء السوق ليحذروا الناس من محمد ويصدوهم عنه (انظر تقديم سورة الحجر)، ولاشك أنه كان منهم أفراد من الخمسة الذين توفوا وفي مقدمتهم الوليد بن المغيرة زعيم الجماعة.

إذن: الإعراض عن "المشركين" معناه عدم الانشغال بقريش! أما أبناؤها فهم محاصرون من طرف آبائهم وقبائلهم، فهم لن يؤمنوا حتى ولو رغبوا في ذلك. وبما أن المستهزئين (من مشركي مكة) الذي كانوا يلاحقون الرسول ويصدون الناس عنه قد كفى الله أمرهم، فالاتجاه بالدعوة يجب أن يكون صوب القبائل التي تقيم خارج مكة.

إنها مرحلة جديدة في مسار الدعوة، المرحلة التي وَضع كُتَّاب السيرة لها عنوانا من قبيل: "الرسول يعرض نفسه على القبائل". لكن هذه المرحلة – مرحلة الانتقال بالدعوة إلى المواسم والأسواق– التي ستبدأ انطلاقا من سورة الحجر، التي ورد في أواخرها، قوله تعالى "اصدع بما تؤمر"، ستشهد انقطاعا في وسطها. ذلك أن قريشا شعرت بتقدم الدعوة المحمدية في القبائل خارج مكة وذيوع أمرها في الجزيرة العربية ككل، فقررت اغتيال الرسول عليه السلام، ولكنها عدلت عن قرارها عندما هددهم أبو طالب بحرب أهلية يقف فيها الهاشميون والمطلبيون مع محمد بن عبد الله، حفيد عبد المطلب، أبرز وجهاء قريش وزعيمها في تاريخها "القريب".

لقد عدلت قريش عن اغتيال الرسول وقررت مقاطعة عشيرته الهاشميين والمطلبيين بموجب "صحيفة" (عقد) علقوها في الكعبة، علامة على التزام الجميع بمضمونها. فكان أن اضطر النبي وعشيرته إلى الانزواء في "شعب أبي طالب" بجبل قبيس المطل على مكة. أما بقية المسلمين فقد نصحهم الرسول عليه السلام بالالتحاق بإخوانهم في الحبشة، فكانت تلك هي الهجرة الثانية إلى هذه الجهة وبهم صار عدد المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانين بمن فيهم النساء والأبناء. (كانوا في الهجرة الأولى اثني عشر). حصل ذلك، أعني الحصار والهجرة معا، في مستهل السنة السابعة للنبوة. أي بعد نحو سنة

معه لأنفسهم إمكانية التراجع. لقد قطعوا خط الرجعة على أنفسهم. وإذا فرضنا أنه ربما يريد بعضهم أن يسلموا فلن يستطيعوا ذلك لأنهم سجنوا أنفسهم في الرفض الجماعي.

ونصف من "اصدع بما تؤمر". أما الحصار فقد دام ثلاث سنوات، من بداية السابعة إلى بداية العاشرة، تلا ذلك ما نطلق عليه هنا "مرحلة ما بعد الحصار".

المراحل الأولى والثانية والثالثة من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، خصصنا لها القسم الأول من هذا الكتاب. أما هذا القسم الثاني فيضم المراحل التالية: الرابعة والخامسة، والسادسة، من العهد المكي، تنزيلا وسيرة. (وسيختص القسم الثالث من الكتاب بالعهد المدني)

5- لحظات ثلاث في مرحلة الصدع:

كان الخطاب القرآني في المراحل الثلاثة السابقة موجها إلى أهل مكة، فشرح العقيدة وأركانها، وواجه قريشا في تكذيبها وإعراضها وتحدياتها! فكيف سيكون خطاب الذكر الحكيم إلى العرب من غير قريش، في المواسم والأسواق، وهم الذين لم يتلقوا منه إلا ما كانت قريش تمدهم به عنه؟! هنا نقترح التمييز بين ثلاث لحظات[10]

<u>اللحظة الأولى: بداية عرض الدعوة في الأسواق</u>

تقول مصادرنا: إنه ابتداء من "اصدع بما تؤمر" أخذ النبي يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم: يسأل عن القبائل، قبيلة قبيلة، في أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. ذلك أن العرب "كانت إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوّال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج. وكان (النبي) يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه".

كان "يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: ألا رجل يعرض عليّ قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي". وكان يطوف على الناس في منازلهم (مكان نزولهم في الأسواق)، يقول: "يا أيها الناس إن الله يأمركم أن

10- المراحل واللحظات: المرحلة شيء واللحظة شيء آخر. المرحلة، في الأصل، امتداد مكاني فهي مسار يقوم على الاتصال، كل مرحلة ترتبط بما قبلها وما بعدها، وما يفصل بينها لا يعدو أن يكون بمعنى "استراحة المسافر"، فهي محطة تقبل الارتداد، أي العودة إلى الوراء، من الثالثة إلى الثانية مثلا. أما اللحظة فهي قسم من الزمان يتم به وبواسطته الانتقال أو القفز إلى أمام، ويتحقق التطور على شكل طفرة، وبالتالي فاللحظة تقوم على الانفصال وترتبط بالتقدم، ولا تقبل الرجوع إلى وراء. نحن نسير جيئة وذهابا في المكان عبر مراحل، أما الزمان فهو يسير فينا عبر لحظات.

تعبدوه ولا تشركوا به شيئا"، ووراءه أبو لهب يقول: "يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم". وذكر بعضهم أنه رأى الرسول عليه السلام بسوق ذي المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه أبو لهب يرجمه بالحجارة حتى أدمي كعبه ويقول يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب". وفي رواية أخرى : قصد منازل "بني عبس أوبني سليم وغسان وبني محارب وبني نضر ومرة وعذرة والحضارمة، فردوا عليه أقبح الرد. كانوا يقولون له : "أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك". قالوا: "ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه من بني حنيفة"، وهم قوم مسيلمة مدعي النبوة الطامح إلى منافسة الرسول عليه السلام واقتسام الأرض معه: غرب الجزيرة (الحجاز) للرسول وشرقها له[11]. كان ذلك في المرحلة الرابعة التي سبقت "الحصار"، حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب بالجبل، وقد دامت أزيد من سنة ونصف. أما الحصار فقد استمر أزيد من سنتين.

اللحظة الثانية: في البحث عن حليف

وعندما استأنف الرسول الاتصال بالقبائل بعد فك الحصار ووفاة عمه أبي طالب، حاميه من قريش، اشتد عليه ضغط الملأ منهم وتنوعت إذيتهم له فذهب إلى الطائف يطلب النصرة فرفضوه وأمعنوا في إهانته. ولما عاد من الطائف لم يستطع الدخول إلى مكة إلا بطلب جوار من شخصية قرشية تلتقي في النسب مع بني هاشم في جدهم عبد مناف هو المطعم بن عدي ولم يكن قد أسلم بعد. وكانت قريش قد اشترطت في قبول هذا الجوار أن لا يمارس الرسول عليه السلام الدعوة في مكة وأن يلزم داره. وهكذا اضطر عليه السلام إلى تركيز دعوته في المواسم والأسواق، متخذا إستراتيجية جديدة. كان من قبل يخاطب عامة الناس في الأسواق، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام. أما هذه المرة فقد توجه إلى قبائل بعينها، في منازلها ومجالسها، مخاطبا رؤساءها، صحبة أبي بكر وعلي بن أبي طالب. وكان أبو بكر على معرفة بالقبائل وأنسابها وأشرافها وأحوالها، فكان إذا مر بمجلس قبيلة حيا رجالها الحاضرين ودخل معهم في حوار حول شؤون القبيلة حتى إذا حصلت

11- انظر التفاصيل حول حركة مسيلمة في كتابنا العقل السياسي العربي. فصل 4 فقرة 5

الألفة بينه وبينهم قدم لهم الرسول عليه السلام. وقد احتفظت لنا كتب السيرة بنماذج من هذا الأسلوب الجديد في الدعوة نورد منها ما يلي:

- مر الرسول وأبو بكر وعلي بمجلس "فقال أبو بكر: ممن القوم، قالوا: من ربيعة؟ قال: وأي ربيعة؟ من هامتها أو من لهازمها، قالوا: بل الهامة العظمى. قال: من أيها؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال: منكم حامي الذمار ومانع الجار فلان؟ قالوا لا، قال: منكم قاتل الملوك وسالبها فلان؟ قالوا لا، قال: منكم صاحب العمامة الفردة فلان؟ قالوا لا، قال: فلستم من ذهل الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه شاب (منهم) ... فقال له: إن على سائلنا أن نسأله، يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك، فممن الرجل؟ فقال أبو بكر (ض): أنا من قريش، فقال الفتى، بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة، فقال الفتى: أفمنكم قصي الذي كان يُدعى مُجمِّعاً؟ قال لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه قال لا؟ قال: أفمنكم شيبة الحمد عبد المطلب، مطعم طير السماء، الذي كأن وجهه القمر يضيء في الليلة الظلماء؟ قال لا، واجتذب أبو بكر رضي الله تعالى عنه زمام ناقته، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له عليّ (ض): لقد وقعت من الأعرابي على باقعة أي ذي دهاء".

وفي مجلس آخر تقدم أبو بكر "فسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله (ص)"فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر، أي سادة في قومهم، وقد تعرف على رجل منهم اسمه مفروق. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر (ض) : كيف المنعة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد"، أي علينا أن نجهد وليس علينا أن يكون لنا الظفر! فقال أبو بكر (ض) : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما يكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد من الخيل على الأولاد، والسلاح على اللقاح" (أي ذوات اللبن من الإبل)... لعلك أخو قريش"؟ فقال أبو بكر: أوَقَد بلغكم أن رسول الله (ص) فيها هو ذا؟ فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلام تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم رسول الله (ص) فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد

تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد. قال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله:" "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" (الأنعام 151)[12]. قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم عرفناه. ثم قال: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش، فتلا رسول الله "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (النحل 90)[13]. فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكان مفروق أراد أن يشاركه في الكلام هانىء بن قبيصة، أحد رجال القوم، فقال: هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا. فقال هانىء قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركَنا ديننا، واتباعنا إياك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر (لم يسبقه موعد ولا استعداد) لزلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة؛ ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً (أي دون علمهم ومشورتهم)، ولكن نرجع، وترجع، وننظر وتنظر. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: هذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب (الجانب العربي من دجلة والفرات) دون ما يلي أنهار كسرى (في العراق) فعلنا، فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى: أن لا نحدث حدثاً، وأن لا نؤوي محدثاً. وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما تكرهه الملوك! فقال رسول الله (ص): ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه؛ أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويعرسكم نساءهم، تسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا! فتلا رسول الله: "يَا أَيُّهَا

12- كانت سورة الأنعام قد نزلت في اللحظة السابقة كما سنرى.

13- أما سورة النحل فلم تكن قد نزلت بعد، وكلام الراوي في مثل هذه السياق يُحمل على المعنى وليس على اللفظ.

النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (الأحزاب 46)[14]. ثم نهض رسول الله.

وتضيف مصادرنا[15]: ولما قدمت بكر بن وائل مكة للحج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ائتهم فاعرضني عليهم. فأتاهم فعرضه عليهم، فقال لهم: كيف العدد فيكم، قالوا: كثير مثل الثرى، قال: فكيف المنعة؟ قالوا: لا منعة، جاورنا فارس، فنحن لا نمنع منهم ولا نجير عليهم. قال: فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدوه وثلاثاً وثلاثين وتكبروه ثلاثاً وثلاثين؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا رسول الله. ثم مر بهم أبو لهب، فقالوا له: هل تعرف هذا الرجل؟ قال نعم، فأخبروه بما دعاهم إليه، وأنه زعم أنه رسول الله، فقال لهم: لا ترفعوا بقوله رأساً، فإنه مجنون يهذي من أم رأسه. فقالوا: لقد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر. وفي رواية: أنه لما سألهم قالوا له: حتى يجيء شيخنا حارثة، فلما جاء قال: إنا بيننا وبينك من الفرس حرباً، فإذا فرغنا عما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التقوا مع الفرس قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إليه؟ قالوا محمد، قال: فهو شعاركم! (أي اتخذوا هذا الاسم شعارا لكم في حربكم للفرس)، فنُصِروا على الفرس، فقال رسول الله (ص): "بي نُصروا" (أي نصروا بذكرهم اسمي). وتضيف مصادرنا: "لا زال يعرض نفسه على القبائل في كل موسم، ويقول "لا أكره أحداً على شيء، من رضي الذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد منعي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي، فلم يقبله أحد من تلك القبائل، وكانوا يقولون: "قوم الرجل أعلم به، ترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه"!

<u>اللحظة الثالثة: ابتداء انتشار الإسلام في يثرب وبيعة العقبة.</u>

وفي شهر رجب من السنة الحادية عشرة للنبوة، وبينما كان الرسول يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، إذا بأناس من الخزرج من يثرب (المدينة)، وكانوا ستة أو ثمانية أفراد، يلتقي بهم الرسول عليه السلام في "العقبة"[16] فتقدم إليهم وقال لهم: "من أنتم؟ قالوا نفر من

14- سورة الأحزاب مدنية. وكلام الراوي هنا يجب أن يؤخذ على المعنى وليس على اللفظ.

15- سيرة ابن إسحاق والسيرة الحلبية

16- العقبة: منزل في مكة: أحد الأمكنة التي تنزل فيه القبائل عند قدومها إلى مكة ...

الخزرج. فقال: أمن حلفاء يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى! فجلسوا، فوجدهم يحلقون رؤوسهم[17] ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أنه للنبي الذي يُوعِدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه! وكان يهود يثرب إذا وقع بينهم وبين الخزرج شيء من الشر قالوا لهم: سيُبعَث نبي قَرُب زمانه نتبعه، نقتلكم معه (أي نتحالف معه ونقتلكم). فلما دعاهم إلى الإسلام أجابوه وصدقوه وأسلموا، وقالوا له: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ... ونواعدك الموسم من العام المقبل؛ فرضي بذلك رسول الله". وعلى هذا "فلم يقع لهؤلاء الستة أو الثمانية مبايعة، ويسمى هذا ابتداء الإسلام للأنصار، وربما سماه بعضهم العقبة الأولى" (السيرة الحلبية).

هذا من جهة، وروي من جهة أخرى أن رجالا من الأوس (خصوم الخزرج) كانوا قد جاؤوا إلى مكة في السنة نفسها (؟) يلتمسون الحلف من قريش على قومهم الخزرج، فأتاهم رسول الله (ص) فجلس إليهم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له، قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني للعباد، وأدعوهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال شاب منهم: أيْ قوم! والله (هذا) خير مما جئنا إليه، فأخذ أحدهم من تراب فضرب بها وجه الشاب وانتهره، وقال له: دعنا منك. لقد جئنا لغير هذا، فسكت الشاب، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلمَ عنهم. قيل: عقد الوفد حلفا مع قريش في غياب زعيمها أبي جهل، فلما حضر ألغاه لكونهم لم يستشيروه. وهذا التصرف من أبي جهل قد قطع حبل الاتصال بين قريش والأوس، وفسح المجال للدعوة المحمدية للانتشار في يثرب بواسطة وفد الخزرج فاستجاب لها رجال من الأوس أيضا.

فلما كان العام التالي، أي السنة الثانية عشرة للنبوة، قدم إلى مكة وفد من الأوس والخزرج معا. فاجتمع بهم الرسول عند العقبة أيضاً، فبايعهم: أي عاهدهم. وقد نصَّ عقد بيعة العقبة، على ما ذكر ابن إسحاق وغيره على : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار: "أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه". وفي رواية أخرى: "أن أحدهم أخذ بيد النبي (ص)، ثم

17 - ومعلوم أن حلق شعر الرأس من شعائر الحج.

قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا أي نساءنا وأنفسنا». «فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر... وقال آخر : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال، يعني اليهود، حبالاً أي عهوداً، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله، ثم قال: "بل الدم الدم، والهدمَ الهدمَ، وذمتي ذمتكم، ورحلتي مع رحلتكم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم". ثم قال لهم الرسول: "أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس"، فاستقبلهم وقال لهم "أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي"[18].

6- انتشار الإسلام في المدينة والهجرة إليها

وجاء في كثير من الروايات أن الرسول عليه السلام بعث معهم ابن أم مكتوم ، ومصعب ابن عمير[19] يعلمان من أسلم منهم القرآن ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام. "وكان مصعب يؤمّ القوم: أي الأوس والخزرج، لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض. وجمع بهم أول جمعة جمعت في الإسلام قبل قدومه عليه السلام إلى المدينة، وقبل نزول سورة الجمعة الآمرة بها، فإنها مدنية". وفي رواية عن يوم الجمعة "أن الأنصار قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلمّ لنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونصلي ونشكره، فجعلوه يوم العروبة" [20].

18- من هنا تسميتهم بـ "الأنصار" تشبيها لهم بأنصار عيسى عليه السلام. وسترد في هذا الشأن إشارة عند قوله تعالى : "فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكفرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ؟ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشهَدْ بِأَنَّا مُسلِمُونَ" (آل عمران52)

19- الأول هو الذي نزلت في شأنه من قبل سورة "عبس": ابن أم مكتوم واسمها عاتكة، واسمه عمرو، وقيل عبدا لله، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد زوج النبي. أما الثاني: مُصْعَبُ بن عُمَير بن هَاشم بن عبد مناف، من المسلمين الأوائل، هاجر إلى الحبشة ثم عاد منها فهاجر إلى المدينة.

20- يوم الجمعة: قيل هو "سرياني معرب" وأن معنى العروبة الرحمة. قالوا: إن كعب بن لوي بن فهر بن غالب -وإليه تنسب قريش- هو أول من جمع يوم العروبة، وقيل هو أول من سماها الجمعة، وأن قريشا كانت تجتمع عليه في هذا اليوم فيخطب فيهم... وكان عظيم القدر عند العرب ولهذا أرخوا لموته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بهذا الأخير، ثم أرخ المسلمون بعام هجرة النبي إلى المدينة.

وهكذا، فلما عاد هؤلاء "الأنصار" إلى يثرب أظهروا الإسلام، ونشطوا في الدعوة له، ولما علمت قريش بذلك ضيقوا على أصحاب النبي عليه السلام "ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد". وقد شكا بعضهم إلى الرسول ما يعانونه واستأذنوه في الهجرة: فمكث أياماً لا يأذن لهم"، وذات يوم " خرج إليهم مسروراً، وقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب"، فأذن لهم وقال: من أراد أن يخرج فليخرج إليها، فخرجوا خفية متتابعين... ثم لحق بهم بعد نحو شهرين ونصف، كما سنذكر لاحقا.

تلك كانت مراحل السيرة ولحظاتها منذ أن نزل قوله تعالى "فاصدع بما تؤمر"، (السنة الخامسة والنصف للنبوة)، فلننتقل الآن إلى مسار التنزيل، إلى سور الذكر الحكيم التي نزلت خلال تلك المراحل واللحظات.



المرحلة الرابعة

الصدع بالأمر والاتصال بالقبائل



استهلال

كانت المرحلة السابقة (الثالثة- القسم الأول من الكتاب) من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة مركزة، كما رأينا، حول إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، الشيء الذي جعل موقف الملأ من قريش من الرسول عليه السلام ينتقل من مجرد الاستهزاء والتكذيب والاتهام بالجنون، إلى المحاربة ثم التعذيب لأصحابه من الموالي والمستضعفين ومطاردة المسلمين من أبناء قبائلهم. يقول الطبري في تاريخه: "سأل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عروة بن الزبير عن السبب الذي جعل قريشا تعارض الدعوة المحمدية وتقوم في وجهها، فأجابه برسالة قال فيها : "أما بعد، فإنه (يعني الرسول) لما دعا قومه لـمَا بعثه الله إليه بالهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم (أصنامهم) وقدم أناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه وكرهوا ما قاله لهم، وأغروا به من أطاعهم فانصفق عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل"[1].

وهكذا قاموا بحملة من التعذيب الشرس -حتى الموت- لمن آمن بالرسول عليه السلام من مواليهم وعبيدهم، أما من أسلموا من أبناء قبائلهم فقد "وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم". وأما الرسول عليه السلام فكان في حماية عمه أبي طلب.

ويضيف ابن إسحاق: ولما رأى الرسول عليه السلام ما تفعل قريش بالمسلمين "أمرهم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي[2] لا يُظلم أحدٌ بأرضه ... وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من الرزق (سعة من العيش) وأمنا ومتجرا حسنا، فأمرهم بها رسول الله، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن. "وكان عدد من هاجر إلى الحبشة في هذه الهجرة الأولى أحد عشر رجلا وأربع نسوة، فخرجوا

1-الطبري. التاريخ ج1 ص 546

2- المعروف أن لفظ "النجاشي" يعني الملك، مثل كسرى، وهرقل.

متسللين سرا حتى انتهوا إلى ميناء الشعيبة[3]، منهم الراكب والماشـي، فـصادفوا سفينتين لتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان خـروجهم فـي حوالي منتصف_السنة السادسة للنبوة. "وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا، فلما وصلوا الحبشة أقاموا فيها خير مقام، وتبعهم جعفر بن أبي طالب عم النبي عليه السلام ومعه رسالة من النبي إلى النجاشي" [4].

أما الرسول (ص) فلم يهاجر بل بقي في مكة "فمكث بـذلك سـنوات (ربمـا سنتين) وزعماء قريش يشتدون على من أسلم. ثم حدث أن عـاد إلـى مكـة، بعـد شهرين، جل الذين هاجروا إلى الحبشة لأسباب غير معروفة بالـضبط[5]، فطـاردتهم قريش مما اضطر معه كل منهم إلى طلب الجوار مـن أحـد معارفـه. وبعـد وفـاة المستهزئين الخمسة الذين أشارت إليهم سورة الحجر (الآتية بعد)، بمن فيهم الوليـد بن المغيرة الذي كان زعيم خصوم الدعوة المحمدية منذ ظهورها، صـارت الزعامـة في قريش لاثنين من أشد الناس على هذه الدعوة، أبو جهل من بني مخـزوم، وأبـو لهب عم النبي الذي نزلت فيه سورة المسد.

قالوا، لما قدم أصحاب النبي (ص) مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطَت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدا. أما الرسول عليه فقد منعه من قـريش عمه أبو طالب وبمن استجاب لنصرته من عشيرته، "فرأت قريش أنهم لا سبيل لهـم إليه ... فجعلوا يصدون عنه من خافوا منه أن يسمع قوله فيتبعُه، فكان أشد ما بلغوا منه حينئذ ما رواه بعضهم من أن أشراف قريش اجتمعوا يوما في الكعبـة "فـذكروا رسول الله فقالوا ما رأينا ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سـفه أحلامنـا وشـتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظـيم -أو كما قالوا".

"فبينا هم كذلك إذا طلع رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهـم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول". قال الراوي "فعرفت ذلك فـي وجـه رسول الله ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها، فعرفت ذلك في وجهـه، ثـم مضى. ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف فقال : "أتسمعون يا معشر قريش! أما

3- ياقوت: "الشُعَيبة مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومُرسى سفنها قبل جُدّة".

4- انظر التعريف بالقرآن الكريم. الفصل الثاني: الدعوة المحمدية وعلاقاتها الخارجية.

5- يربطها بعض المؤرخين بقصة "الغرانيق" انظر رأينا في هذه القصة في سورة النجم 22- التعليق. القسم الأول من الكتاب.

والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح". قال فأخذت القومَ كلمتّه حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى إن أشدهم فيه عداوة قبل ذلك لَيَرْفُؤه (يهدئه) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدا، فوالله ما كنت جهولا". قال -الراوي- "فانصرف رسول الله حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحَجَر(الكعبة) وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بغلكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه. فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله نعم أنا الذي أقول ذلك. قال -الراوي- فلقد رأيت رجلا منهم آخذا بجمع ردائه. ثم أضاف الراوي "وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكي: "ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه...".

ثم جاء وقت الموسم فاجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش -كما يقول ابن أسحق- "فقال لهم : يا معشرَ قرَيش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدَمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمرِ صاحبكم هذْا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضُكم بعضاً ويردّ قولُكم بعضَه بعضاً" ثم اتفقوا على أن يقول عن الرسول : "جاء بقول هو سحر يفرِّق به بين المرءِ وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته".

يبدو أنه في هذه الأثناء مات الوليد ين المغيرة وبضعة أفراد من أعيان قريش الذين كانوا يستهزئون بالنبي عليه السلام فنزلت سورة الحِجْر التي حملت إلى النبي في خاتمتها قوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحج 94-95). فاتجه النبي بالدعوة إلى المواسم والأسواق، وخرجت قريش على أثره ""فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم، ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره". فكان من نتيجة ذلك أن انتشر خبر الرسول عليه السلام، من خلال ذلك الموسم "في بلادِ العربِ كلها".



53- سورة الحِجـــر

- تقديـــم

وردت عدة أخبار عن "سبب نزول" آيات من هذه السورة تكاد تكون كلها مصطنعة. نلخصها فيما يلي:

قالوا: "كانت تصلي خلف النبي (ص) امرأة حسناء في آخر النساء، بالمسجد، وكان بعضهم يتقدم إلى الصف الأول لئلا يراها، وكان بعضهم يتأخر في الصف الآخر من صفوف الرجال، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ليراها خلفه في صفوف النساء. فنزلت "وَلَقَد عَلِمنا المُستَقدِمين منكم وَلَقد عَلِمنا المُستَأخِرين". وعلى العكس من هذا قيل: لما حرض الرسول عليه السلام المصلين على التقدم إلى الصف الأول ازدحم الناس عليه، وكان بنو عذرة، دورهم قاصية، فقالوا: نبيع دورنا ونشتري دورا قريبة من المسجد. (ليتمكنوا من السبق إلى المسجد)، وكان ذلك في المدينة، فنزلت هذه الآية. أما الخبر الأول فلا يستقيم مع السياق كما سنرى، وأما الثاني فهو يفترض أن الآية نزلت في المدينة والحال أن السورة مكية. هذا فضلا عن أن السياق لا يحتمل هذا الخبر كسبب نزول الآية.

وقالوا في قوله تعالى: "وَنَزَعنا ما في صدورهم مِّن غل، إخوانا على سُرُر مُتقابلين"، إنه نزل في أبي بكر وعمر وعلي. ولما سُئل الرواي عن الغل الذي كان بينهم أجاب: "غل الجاهلية: إن بني تيم (قوم أبي بكر) وعدي (قوم عمر) وبني هاشم (قوم علي) كان بينهم في الجاهلية. فلما أسلموا، فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل عليٌّ يسخن يده فيكمدها، فنزلت هذه الآية. وهذا الخبر ينسب لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولا يستبعد أن يكون قد صُنع للتخفيف من عداء بعض الشيعة لأبي بكر وعمر، لاعتقادهم أن خلافة النبي كان يجب أن تسند لعلي بن أبي طالب قبلهم.

وفي قوله تعالى "وَلَقَد آتَيناكَ سَبعاً مِّنَ المَثاني والقرآن العظيم" قيل: "إن سبع قوافل وافت من بُصرى وأذرُعات، وليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر. فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها فأنفقناها في سبيل الله" فنزلت تلك الآية. وهذا الخبر لا يستقيم لأنه يتحدث وكأن السورة نزلت بالمدينة والحال أنها مكيةَ!

وروي أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين" فر ثلاثة أيام هاربا من الخوف لا يَعقِل، فجيء به للنبي (ص)، فسأله فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"، فوالذي بعثك بالحق لقد قطّعت قلبي، فأنزل الله : "إن المتقين في جنات وعيون". وهذا غريب! فكأن سلمان سمع فقط "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"، ولم يسمع من يعود إليهم الضمير "هم" قبلها: وهم الغاوون الذين أغواهم الشيطان!

وذكروا أن الرسول عليه السلام: "مر بنفر من أصحابه يضحكون، فقال: أتضحكون وذِكرُ الجنة والنار بين أيديكم؟ فنزلت هذه الآية "نبِّئْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم". وفي رواية أخرى ورد العكس: روي عن رجل من أصحاب رسول الله قال: "اطّلع علينا رسول الله (ص) من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة"، فقال : لا أراكم تضحكون! ثم أدبر، ثم رجع القهقري، فقال: إني خرجت حتى إذا كنت عند الحَجَر جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله يقول لك لِمَ تقنط عبادي؟ "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم". وهذا كله تخمين!

وحول قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزئين" الآية، روي أن النبي عليه السلام: "مر على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي - ومعه جبريل- فغمزه جبريل بإصبعه فوقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحا حتى نتنوا، فلم يستطيع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله "إنا كفيناك المستهزئين". (الواحدي، والسيوطي في اللباب).

وواضح أن هذه الأخبار أقرب إلى مجال "الحياة العامة" والثقافة الشعبية منها إلى ميدان التفسير، فهي تتجاهل السياق تماما كما سنرى، وتنزل بالنص إلى مستوى "حديث المسامرات" وما أشبه. ومع ذلك فهي لا تخلو من فائدة، كما ذكرنا في أماكن عديدة من القسم الأول من هذا الكتاب. ذلك أنها تضعنا في الجو "الشعبي" الذي كان يحيط بالقرآن عند نزوله، أو على الأقل في عصر رواة هذه الأخبار. ولا تزال "الثقافة الدينية الشعبية" في عصرنا تتغذى من مثل هذه الأخبار.

- نص السورة

1- مقدمة: لم يعد في إمكان قريش أن يسلموا فقد اختاروا الكفر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ (ما ذكرته التوراة) وَ(هذا) قُرْآنٍ مُبِينٍ[1] (لكل ذلك). رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ[2] (ولكن لم يعد في إمكانهم ذلك بعد أن

كذبوا وأعرضوا، إذن :) [1] ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[3] (مصيرهم عندما يحين حينه). وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ[4]. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ (ما من أمة تسبق) أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ[5]. وَقَالُوا (قريش) يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ[6]، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ[7] [2]. (أجاب الله): مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ[8] (ممهلين) [3]. إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (على محمد) وَإِنَّا لَهُ (للنبي) لَحَافِظُونَ[9] (من الجنون الذي يتهمونه به في الآية السابقة)[4]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا (رسلا) مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ (فرق) الْأَوَّلِينَ[10]؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[11]! كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ (أي الاستهزاء بالرسل) فِي

1- حمل المفسرون هذه الآية على أنها تتحدث عن رد فعل المشركين وهم في النار يوم القيامة حين يرون المسلمين في الجنة. وهذا في نظري لا أساس له في السياق. فلم يسبق أن ذكر يوم القيامة من قبل، وما يلي هذه الآية يتعلق بالدنيا: "ذرهم يأكلوا ويتمتعوا" في الدنيا. ولذلك نميل إلى القول إن معنى الآية شيء آخر يكشف عنه قوله تعالى في آيات تالية "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" (10-13). إذن حكم الله على مشركي مكة أنهم لن يؤمنوا. ومن هنا كان معنى قوله "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ" : أنهم محكوم عليهم بالبقاء كافرين حتى ولو ودوا أن يكونوا مؤمنين. وهذا الحكم راجع إلى أن الله قضى بذلك بعد أن رفضوا الإيمان.

2 - لا يمكن أن تعترض قريش بهذا قبل أن يجهر الرسول بالقرآن. هذا يصدق على فقرات هذه السورة وعلى السور السابقة. وإذن فالقول بأن الجهر بالقرآن إنما بدأ بعد قوله تعالى لاحقا : "فاصدع بما تؤمر" قول فيه نظر.

3- المعنى: لو نزلنا الملائكة لتمّ إهلاكهم في الحين ولما أمهلوا إلى اليوم فالكفر قديم فيهم.

4- المعنى : بدل أن ننزل الملائكة لإهلاكهم فضلنا تنزيل القرآن لإرشادهم. جمهور المفسرين على أن الضمير في "له حافظون" يرجع إلى الذكر أي القرآن، وأن المعنى: نحن نزلنا القرآن وإنا لهذا القرآن لحافظون. أما بعض أهل اللغة فيقولون إن الضمير يعود إلى "الذي نزل عليه الذكر" أي الرسول عليه السلام، كقوله تعالى "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: 67). بمعنى أن الذكر أي القرآن من عند الله، والرسول ليس بمجنون، وإنا له لحافظون من الجنون. وممن قال بهذا : الفراء وابن الأنباري (ذكره الرازي). وهذا الفهم أنسب للسياق في نظرنا، لأنه بدون ربط "إنا له لحافظون" بـ"الذي نزل عليه الذكر"، تبقى الآية: "إنا نحن نزلنا الذكر (القرآن) وإنا له لحافظون" معزولة عن السياق، لأن ما قبلها وما بعدها يتحدث عن الرسول والرسل، وليس عن القرآن. هذا ويتمسك بعض الناس برد "لحافظون" إلى القرآن كدليل على أنه لم ولن يتغير. وهل نحتاج إلى هذا بعد مرور خمسة عشر قرنا على نزوله وبقائه كما نزل؟! يجب أن يحكم نصُّ القرآن بسياقه فهمنا له، لا تخوفاتنا من هذا الشيء أو ذاك.

قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ[12] (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالرسول)، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ[13] (5). وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ[14] (يصعدون)، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ[15] (6).

2- يتجاهلون دلالة خلق الله للسماوات والأرض !

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (7) وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ[16]، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ[17] إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ[18]. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا (وضعنا وأنشأنا) فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ[19](منتظم). وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ[20] (بمغذين: أي معاش الحيوانات). وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ[21]. وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[22] (ليست خزائنه في أيديكم). وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ[23] (للجميع). وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ (الأموات السابقين) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ[24] (الأحياء اللاحقين بهم)، وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[25] (8).

3- إعراض قريش امتداد لاعتراض إبليس على أمر الله ...

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[26] (طين أسود متغير)، وَالْجَانَّ (الجن) خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ (قبل خلق آدم وذريته) مِنْ نَارِ السَّمُومِ[27] (حارة لا دخان لها). وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[28]،

5- بمعنى أن من سنة الأولين أن لا يؤمنوا بالرسل ويستهزئون بهم، وكذلك قريش ...

6- والمعنى أنّ هؤلاء المشركين بلغ بهم غلوهم في العناد: أنه لو فتح الله لهم أبواب السماء، ويسّر لهم معراجا يصعدون عليه إليها، ورأوا جبريل يأخذ الوحي إلى محمد، لقالوا: هذا شيء نتخيله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك.

7- بعضهم قال: قصورا ومنازل، وبعضهم قال : كواكب عظيمة، وآخرون قالوا: بروج السماء وهي 12 برجا (الحَمَل، والثّور، والجَوْزاء، والسّرطان، والأسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدّلو، والحوت)، وهي "منازل" الكواكب، وينتمي هذا القول إلى علم الفلك القديم وإلى التنجيم خاصة. والظاهر من السياق أن المقصود هو الكواكب العظيمة : في مقابل "الرواسي" أي الجبال الكبيرة على الأرض.

8- واضح من السياق أن ما ذكروه حول الآية 23 ("المستقدمين والمستأخرين" -انظر التقديم) هو مجرد خيالات. أما معنى الآية (23) فتشرحه وتطوقه الآيتان 24-25.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[29]؛ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[30] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ[31] (9). قَالَ (الله) يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ[32]؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[33]. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[34] (مطرود)، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[35]. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي (أمهلني) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[36]. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[37] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[38]. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي (10) لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[39]، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[40] (الذين خلصتهم ونجيتهم من تأثيري). قَالَ (الله) هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ[41] (11)، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ[42]، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ[43] (يعني من اتبعه من الغاوين): لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ[44] (12). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[45]، (يقال لهم) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ[46]. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ (نفور بينهم في الدنيا، فصاروا) إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ[47]. لَا

9- تأتي هنا قصة إبليس مكررة، كما في سور عديدة، وذلك لتوضح بأن عصيان إبليس (الشيطان) هو الأصل في إعراض المشركين عن النبي (ص)، فكما برر إبليس إعراضه واستكباره وعناده بكون آدم خلق من طين (أحط الأشياء وأخسها) بينما خلق هو من "نار" أو "نور" فكذلك يُعرض كفار قريش عن الإسلام والالتحاق بالنبي (ص) بدعوى أنهم أعلى مقاما من أصحابه، وأنهم لا يمكن أن يتساووا مع عبيدهم ومواليهم ... وبالتالي فهم لن يرجعوا عن عنادهم لأنهم لن يقبلوا أن يكونوا سواء مع باقي المسلمين.

10- قال المفسرون قوله "رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي": بـ "أضللتني"، أي جعلتني ضالا، واختلفوا هل الضلال من الله أم من الشخص الضال. ولعل أقرب إلى الصواب أن نقول: "الغي" هو الاعتقاد الفاسد. وإبليس اعتقد اعتقادا فاسدا فاعتبر نفسه أشرف من آدم. ومن هنا يكون "أغويتني" بمعنى حكمت علي وعاقبتني على اعتقادي الفاسد. نظيره: "إن كان الله يريد أن يغويكم، "فقد قِيلَ مَعْنَاهُ : أَنْ يُعَاقِبَكُمْ عَلَى غَيِّكم" أو "يَحْكُمُ عَلَيْكُم بِغَيِّكُم".

11- "هذا" إشارة إلى ما قبله وما بعده: وبالتالي فـ"العباد المخلصون" "ليس لك (يا إبليس) سلطان عليهم وإنما سلطانك على من اتبعك من الغاويين". وإذن فـ"المخلصين" الذين هم موضوع الاستثناء هم الذين لم يتبعوا إبليس ولم يستسلموا لإغوائه.

12- أي قُسِّموا على أبوابها، كل مجموعة تدخل من باب. ورقم "سبعة" هنا ليس مقصودا لذاته، بل هو للدلالة على تعدد أبواب جهنم لاستيعاب جميع أصناف "الغاوين". وتعدد الأبواب في جهنم يقابله تعدد "الجنات (البساتين) والعيون" في الجنة. ولكن بما أن الله قد نزع ما في قلوب أهل الجنة من غل فقد صاروا صنفا واحدا... ويجلسون إخوانا على سرر متقابلين. وإذن فلا أساس لما ذكروا من أخبار عن "هروب سلمان" "وغل الجاهلية بين أبي بكر وعمر وعلي... (انظر التقديم).

يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ[48]. نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[49]، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ[50].[13]

4-... وأيضا امتداد لعصيان قوم لوط وإصرارهم على إتيان الفاحشة ...

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ[51] (ضيوفه: ملائكة)، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ (على إبراهيم) فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ[52] (خائفون). قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ (إسحاق) عَلِيمٍ[53] (نبي). قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ (مع كبر سني)، فَبِمَ تُبَشِّرُونَ[54]؟ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ[55] (اليائسين). قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ[56]! قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ[57]؟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ[58] (مذنبين: قوم لوط)، إِلَّا آلَ لُوطٍ (باستثناء المؤمنين به) إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ[59]، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ[60] (قدماء الكافرين). فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ[61] قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ[62] (غرباء)! قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ[63] (يشكون وهو العذاب). وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[64]. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ (أخرج) بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ (ليلا) وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ (امش خلفهم) وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ[65] (إلى الشام). وَقَضَيْنَا (أوحينا) إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ (آخرهم) مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ[66] (يتم استئصالهم عن آخرهم في الصباح). وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ (رجال مدينة سدوم، مدينة قوم لوط) يَسْتَبْشِرُونَ[67] (عازمين على إتيان فاحشة اللواط في ضيوف لوط). قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ[68]، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ[69]. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ[70] (استضافة الناس). قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي (كبديل) إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ[71]! لَعَمْرُكَ (يا محمد) إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ[72] (يترددون): فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ (المهلكة) مُشْرِقِينَ[73] (وقت شروق الشمس)، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ[74] (من طين مطبوخ في النار). إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ[75] (الذين يأخذون العبرة)، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ[76] (إن قرى لوط قائمة على طريق قريش إلى الشام). إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ[77]. وَإِنْ

13- هذا الموقف المتضاد (غفور رحيم- عذاب أليم) أصله أن في زمن الدنيا إيمان وعمل صالح، وكفر وظلم، وأن بعد الموت حساب وجزاء: فالمؤمن قد يغفر له من ذنوبه رحمة به وأما الكافر فلا يغفر له لأنه اختار أن لا يغفر له باستمراره على الكفر. وهذا مبسوط في غير ما آية.

(ولما) كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (غيضة شجر بقرب مدين، والمقصود قوم شعيب) لَظَالِمِينَ[78] (بتكذيبهم شعيبا)، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا (قرية قوم لوط وقرية قوم شعيب) لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ[79] (على طريق واضح: طريق قريش إلى الشام).

5- ... وكذلك كان شأن أصحاب الحجر، ثمود قوم النبي صالح!

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ (واد بين مكة والشام، والمقصود ثمود: قوم صالح) الْمُرْسَلِينَ[80]، وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[81]. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ[82]، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ (المهلكة) مُصْبِحِينَ[83] (صباحا)، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[84].

6- خاتمة: آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، اصدع بما تؤمر...!

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ[85] (لا تهتم بإعراض قريش). إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ[86] (14). وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي(15) وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ[87]. لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا

14- نظير قوله "فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ" (البقرة 109). ومعنى الآيتين واحد: فالأمر بالصفح هنا جاء مقرونا بـ"حتى يأتي الله بأمره"، وفي الآية أعلاه جاء مقرونا بـ "وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ"، وبالتالي فمعنى الصفح ينصرف لا إلى الخصوم بل إلى الذات. يقول الزمخشري في معنى الآية : "فأعرض عنهم -واحتمل ما تلقى منهم- إعراضا جميلا بحلم وإغضاء". والسياق يؤيد هذا المعنى: أعني أن على النبي عليه السلام أن لا يقلق أو يحزن أو يضيق على نفسه بسبب إصرار قريش على عدم الاستجابة له، كما أن عليه أن لا يستعجل العقاب لهم، وإنما عليه أن يصبر ويريح نفسه ويطمئن... وأن لا يشغل نفسه بتقلبهم في البلاد وحرية تنقلهم للتجارة وغيرها، كما أن عليه أن لا يقلق من توزع قريش على الأسواق للدعاية ضده الخ.

15- اختلف المفسرون في المقصود بـ"السبع المثاني"، فقيل: الفاتحة؛ وقيل هي السور السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة الخ). قالوا: "وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها". وأنكر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، وجل السور الطوال مدنية (لم تنزل بعد). وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار الخ. وفي رأينا أن "السبع المثاني" لا بد أن تكون قد نزلت قبل هذه الآية، لذكرها بصيغة الماضي ("أعطيناك"). وقد سميت مثاني ليس فقط لأن فيها أشياء تثنى، بل لأن بنيتها واحدة كما بينا عند شرح كل واحدة منها أعني السور السبع الأخيرة بما في ذلك هذه، وهي حسب ترتيب النزول: الشعراء (طسم)، النمل (طس)، القصص (طسم)، يونس (الر)، هود= (الر)، يوسف (الر) (وقد مضت في القسم الأول من هذا الكتاب ثم سابعتها) هذه: الحجر (الر). فهذه السور تثنى بنية ومضمونا وافتتاحا (طسم، طس، طسم - الر، الر، الر، الر).

بِهِ أَزْوَاجًا (فئات) مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ(16) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ88، وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ89 كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ90 (17) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ91؛ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ92 عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ93. فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ94؛ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ95 الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ96. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ97، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ98، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ99.

لكن يبقى بيان الفرق بينها وبين القرآن العظيم، وهي جزء منه! في رأينا أن ما نزل قبل هذه السور السبع هو القرآن العظيم كما كان حجمه يوم نزلت. ثم نزلت سور أخر بعد هذه المثاني، وهي لا تتصف بالخصائص البنيوية لهذه السبع، فيشملها حتما تعبير "القرآن العظيم". وهكذا يمكن أن يقال إن المقصود بالقرآن العظيم هو القرآن كله: ما كان قد نزل منه حين نزول هذه السورة، وما لم يكن قد نزل بعد. أما إذا نحن أخذنا بالرأي المشهور وهو أن "السبع المثاني" هي الفاتحة، فإنه لا يكفي أن يقال إنها سميت بهذا الاسم لأنها "سبع آيات تثنى في كل ركعة"، فهذا لا يفسر التمييز بينها وبين "القرآن العظيم"، أعني عطف "القرآن العظيم" عليها إلا إذا اعتبرناها -أعني الفاتحة- تقع خارج القرآن كما يروى عن عبد الله بن مسعود الذي اعتبرها دعاء كان يدعو به النبي (ص)، مثلها مثل المعوذتين (الفلق والناس)، ولهذا السبب لم يدرج هذه السور الثلاث في مصحفه. وشيء آخر يضعف من الرأي القائل إن المقصود بـ"السبع المثاني" هي الفاتحة: فمن جهة ليست الفاتحة سبع آيات باتفاق، بل هناك من جعل آياتها ستا ومنهم من جعلها سبعا ومنهم من جعلها ثمان أو تسعا (انظر التقديم الذي صدرنا به سورة الفاتحة. القسم الأول من هذا الكتاب سورة رقم 20). ومن جهة أخرى إن الوصف "مثاني" قد وُصِفَ به القرآن كله في قوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ" الآية (الزمر 23). ونحن نعتقد أن السور التي قلنا إننا نرى أنها هي المقصودة بـ"السبع المثاني" هي وحدها السور السبع التي يثني بعضها الآخر على مستوى البنية فهي أكثر من "متشابهة"، والتشابه في المظهر أو في المضمون أو فيهما معا لا يرقى إلى التشابه في البنية. ولذلك لفتت نظر الزمخشري فوصفها بأوصاف تعبر عن جوانب أساسية من بنيتها (انظر التعليق الذي ختمنا به سورة الشعراء رقم 47. القسم الأول من الكتاب).

16- الزمخشري: "أي لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن على أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفسا عن إيمان الأغنياء والأقوياء "وَقُلْ" لهم "إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ" أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب الله نازل بكم".

17 - المعنى: "وَقُلْ (للعرب في المواسم والأسواق) إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ"، كما قلت ذلك لأهل مكة الذين جاؤوا الموسم فاقتسموا بينهم الدعاية ضدي في الموسم: بعضهم يقول لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدّعي النبوة؛ فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، مستدلين بقطع من القرآن انتزعوها من سياقها انتزاعا واقتسموها بينهم، يعرضونها على مخاطبيهم. (انظر المقدمة والاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة).

- تعليق

تنتمي هذه السورة كما قلنا إلى "السبع المثاني"، وهي آخرها. أما السور التي بعدها فهي متنوعة، لكل منها بنيتها الخاصة كما سنرى ابتداء من السورة القادمة (الأنعام)، التي تبدأ معها مرحلة جديدة. بدأت السورة التي نودعها بفاتحة مشابهة بل مطابقة لفواتح أخواتها الست السابقة: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ"، ثم اتجهت مباشرة إلى قريش، لتعود إلى القصص. وقد سبق أن نبهنا إلى أن هذا هو شأن هذه السور: تارة تبدأ بالقصص كتوطئة لبيان لما ستواجه به قريش، وتارة تبدأ بقريش لتأتي من القصص بما يؤيد ما قالته عنهم. وبعبارة أخرى تسلك هذه السور منهج المحامي : تارة : تواجه خصمها بالدعوى مباشرة ثم تدلل على صحتها بوقائع... وتارة تذكر الوقائع أولا، ثم تأتي بالدعوى بعدها.

تبدأ السورة التي نحن ضيوف عليها بالوقائع أولا: كثير من رجال قريش يتمنون لو أنهم أسلموا، إما لأنهم اقتنعوا بالدعوة، وإما لأنهم رأوا في انضمامهم إلى صفوفها إمكانية للاستفادة منها إذا هي نجحت، ومنهم من يعطفون على النبي لسمو أخلاقه وشرف محتده، لكنهم جميعا مترددون حائرون لا يستطيعون اتخاذ القرار. ذلك أن اختيارهم الوقوف ضد الدعوة المحمدية أولا قد وضعهم في سجن يصعب التخلص منه. هم متضامنون مع الملأ من قريش وقد سبق أن اتخذوا مواقف منها، ثم إنهم سبق لهم، هم وأصحابهم، أن طرحوا القضية على أنها قضية "هوية" : فعبادة الأصنام هي عبادة آبائهم وأجدادهم، وترك هذه العبادة والدخول في الإسلام يعني إدانة هؤلاء الآباء والأجداد وبالتالي مواجهة زعماء قريش وسفهائهم الذين ما أن يسلم واحد من خصوم الدعوة المحمدية حتى ينهالون عليه بصنوف من الضغط المعنوي والمادي يحاولون استعادته إلى "دين آبائه وأجداده".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يعد في استطاعة قريش أن يؤمنوا لأن موقف العداء الذي وقفوه من الدعوة المحمدية منذ البداية يجعل من الصعب عليهم الاقتناع بحججها وآياتها. إنهم لكي يتوصلوا إلى الاقتناع بالدين الجديد عليهم أن ينتبهوا إلى ما لم يكونوا ينتبهون إليه من قبل، أو على الأقل لا يستخلصون منه العبر اللازمة. لقد عاشوا وهم يتجاهلون نظام الكون ودلالته على الصانع كما تجاهلوا كونه مسخرا لفائدة الإنسان. لقد عاشوا وهم يمارسون أنواعا من السلوك التي يحرمها العقل وتنهى عنها الديانات والأخلاق، مثل الكسب الحرام وأكل مال اليتامى وعدم الإحسان إلى الفقراء الخ، وهذه أمور تستوجب العقاب. وإذا أفلتوا من العقاب في الدنيا فإن تأكيد الدين الجديد على وجود حياة أخرى، ستكون مخصصة للحساب

والجزاء على ما فعله الإنسان في الدنيا، تأكيد يجعلهم في موقع المتهمين المحكوم عليهم سلفا بالخلود في النار. نعم ينص الدين الجديد على أن "الإسلام يجب ما قبله" وأن العقاب في الآخرة لن ينال الذين لم تصلهم الدعوة. ولكن ها هي الدعوة قد قامت في عقر دارهم؛ فهم مكلفون ملزمون، وبالتالي عليهم أن يمارسوا نظاما جديدا في الحياة يتطلب، في هذه المرحلة على الأقل، ترك عبادة الأصنام وبالتالي التخلي عن كل ما يرتبط بهذه العبادة من سلوكات وفوائد ومكاسب.

إذن: قريش مسجونون في وضعية تجعل من الصعب عليهم التخلي عنها والالتحاق بصفوف المسلمين. إنهم لن يؤمنوا حتى ولو رغبوا في أن يكونوا مسلمين، فلا داعي إذن للانشغال بهم.

بعد تقرير هذه النتيجة تنتقل السورة إلى تأكيدها بسوابق من التاريخ المقدس: إن إعراض قريش هو امتداد لإعراض إبليس عن السجود لآدم، لقد اعتبر نفسه أرفع أصلا ومنزلة من آدم، فهو مخلوق من نار/نور وآدم مخلوق من طين/تراب، وقريش يعتبرون أنفسهم أيضا أشرف أصلا، فهم قبائل ذات صولة وصيت، وهم أصحاب أموال وبنين... بينما أصحاب محمد هم في الجملة من مواليهم وعبيدهم أو من قبائل غير ذات شأن! وإعراض قريش امتداد كذلك لإعراض أقوام الأنبياء السابقين، قوم لوط، وأصحاب الحجر (ثمود). ومصير إبليس النار، ومعه الذين أغواهم من أقوام الأنبياء السابقين ومن قريش نفسها.

ما العمل إذن؟ هل يتخلى النبي الأمي، الرسول الأمين عن الدعوة وعن تبليغ رسالته ويستسلم؟ كلا، إن لديه -علاوة على القرآن العظيم" ما نزل منه وما ينزل بعد- هذه السور "السبع المثاني" التي شرحت له الموقف مبينا مكررا سبع مرات. وها هي المثناة السابعة تحمل إليه، ولنقل في "اليوم السابع"، بشرى بداية "أسبوع جديد"، بشرى : "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". يتعلق الأمر، كما بينا في المقدمة والاستهلال الذين صدرنا بهما هذه المرحلة، بالأمر بالتوجه إلى العرب جميعا، إلى المواسم والأسواق. يجب الانفتاح على العالم كي ينفتح العالم للدعوة! ومن هنا سيكون الخطاب عن "الأنعام" بديلا للخطاب عن "رحلة الشتاء والصيف".

54- سورة الأنعام

- تقديم

ذكروا أن هذه السورة "نزلت بمكة ليلا دفعة واحدة". كما أورد المؤلفون في أسباب النزول عددا من الروايات حول آيات من هذه السورة قالوا نزلت في أشخاص معينين. من ذلك أن بعضهم ذكر أن قوله تعالى في هذه السورة: "وَلَو نَزَّلنا عَلَيكَ كِتاباً في قِرطاسٍ" نزلت ردا على مشركي مكة حين قالوا: "يا محمد، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتابٍ من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله". ومن ذلك أن قوله تعالى: "وَهُم يَنهونَ عَنهُ وَيَنأَونَ عَنهُ"، قالوا: "نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس (في المواسم والأسواقِ) عن اتباع محمد (ص) ويتباعدون بأنفسهم عنه". وفي قوله تعالى: "إِنَّهُ لَيُحزِنُكَ الَّذي يَقولونَ" الآية. قيل: إن أبا جهل قال لسائل سأله عن حقيقة اعتقاده في محمد، هل هو كاذب حقا؟: "والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟". وقالوا: "التقى رسول الله (ص) بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد إنا والله ما نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به"، فنزلت "فَإِنَّهُم لا يُكَذِّبونَكَ وَلَكِنَّ الظالِمينَ بِآياتِ اللهِ يَجحَدونَ". وفي خبر عن خباب بن الأرت قال: "كنا ضعفاء عند النبي (ص) بالغداة والعشي فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار وما ينفعنا والموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فقالا: إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك. قال: نعم. قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً فأتى بأديم ودواة، فنزلت هذه الآيات "وَلا تَطرُدِ الَّذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ يُريدونَ وَجهَهُ" إلى قوله تعالى "فَتَنّا بَعضَهُم بِبَعضٍ". وفي رواية أخرى: قال عكرمة: جاء "أشراف من بني عبد مناف، من أهل الكفر، إلى أبي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وعبيدنا وعسفاءنا كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. فأتى أبو طالب النبي (ص) فحدثه بالذي كلموه. فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم! فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب

يعتذر من مقالته" (وإذا صح هذا الخبر فإن هذه السورة تكون قد نزلت بين السنة الخامسة والنصف، تاريخ إسلام عمر، وبداية السنة السابعة تاريخ بداية الحصار. وهذا يشهد بالصحة لترتيب النزول الذي نتبعه.

وفي قوله تعالى: "وَلا تَسُبّوا الَّذينَ يَدعُونَ مِن دونِ الله فَيَسُبّوا الله عَدواً بِغَيرِ عِلمٍ"! قال ابن عباس، قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهى الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدْواً بغير علم. وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة". وفي قوله تعالى: "وَلا تَأكُلوا مِمّا لم يُذكَرُ إسمُ الله عَلَيهِ" الآية ذكروا أن المشركين قالوا للنبي: "يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ قال: الله قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتل الله حرام!

وواضح أنه لما كانت هذه السورة قد نزلت دفعة واحدة، باتفاق، فإن ما يقال عن سبب نزول آية من آياتها يجب أن يوضع في سياق خاص، وهو أن ما تشير إليه آياتها من أحداث أو مناسبات لا بد أن يكون قدر جرى في وقت سابق، وبالتالي فاستعراض ما جرى مع النبي (ص) في هذه السورة مع قريش إنما هو نوع من "التذكير"، المخاطب به هذه المرة ليس الملأ من قريش بل أهل المواسم والأسواق. كان خصوم الدعوة المحمدية يحاربون النبي عليه السلام في الأسواق ويفترون عليه، فيأتي القرآن للرد عليهم، ولتأكيد حقيقة الدعوة، مستحضرا في هذا "التذكير" شؤون أهل البادية ومعهودهم الاجتماعي والديني، وإقرار ما يجب إقراره وتعديل أو إلغاء ما لا يتفق مع الخلقية القرآنية. وإذن فما قد يلاحظ من "تكرار" في الذكر الحكيم، من الآن فصاعدا فليس تكرارا، لأن المخاطب لم يعد هو نفسه قريش، وإنما هو إعادة ما خاطبتهم به الدعوة لمخاطب آخر هم أهل القبائل بما يناسب وضعهم.

- نص السورة

1- مقدمة: الخلق، البعث، تكذيب قريش، مصير المكذبين...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ (أنشأ) [1] الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، ثُمَّ (ومع ذلك فـ) الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ[1] (ينحرفون إلى عبادة

1- "جعل بمعنى : أحدث وأنشأ، كقوله: "وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ". ويتعدى إلى مفعولين إذا كان بمعنى صيّر كقوله: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا" (الزخرف: 19) (الزمخشري)

الأصنام) به. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا (لموتكم)، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ (يحتفظ به: هو قيام الساعة)، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ[2] (ومع ذلك فأنتم يا كفار قريش تشكون في البعث). وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ[3]. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ (دلائل وحجج) رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[4] : فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ (بالقرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[5] (2). أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ (من أجيال) مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ (يا أهل مكة)، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا (ممطرة بغزارة)، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا (قوما) آخَرِينَ[6].

2 – عناد قريش، شجب الشرك، تبليغ القرآن لهم ولغيرهم...

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ(3) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[7]. وَقَالُوا لَوْلَا (هلا) أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ! وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ[8] (لا يمهلون). وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ[9] (4). وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[10] (أي العذاب الذي أنذرهم الرسل منه). قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[11] (5). قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ. كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (بأن أمهلكم في الدنيا، وإنه) لَيَجْمَعَنَّكُمْ (جيلا بعد جيل) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ. (أما) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (خسروا تلك الرحمة بعدم استجابتهم لرسله) فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[12] (وبالتالي يخسرون تلك الرحمة). وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[13]. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا، فَاطِرِ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ؟ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ

2– كقولهم "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الواقعة 47–48).

3– من ورق. قيل معرب، أصله من الرومية (اللاتينية)، قارن carte.

4– ولو بعثناه ملاكا لوقعوا في اللبس نفسه: فلكي يروه يجب أن نرسله في صورة إنسان، فكيف سيرفعون اللبس عن أنفسهم!

5– تتكرر هذه الآية أو ما في معناها، والمقصود لفت انتباههم إلى الآثار التي يمرون عليها في طريق تجارتهم إلى الشام، وهي آثار ثمود (بمدينة الحجر) وغيرها من القرى التي ذكر الله أنه دمرها بالزلازل والأمطار عندما أصر أهلها على تكذيب رسله إليهم.

أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ. وَ(قال لي ربي) لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[14]. قُلْ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[15]. مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ (العذاب) يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ[16]. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[17] (قدير على إدامته وعلى إزالته). وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (له القوة والسلطة عليهم)، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[18] (لا يتهور، يتصرف بحكمة ومعرفة بالأمور). قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً (من الله)؟ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِه (أنتم) وَمَنْ بَلَغَ (ومن بلغه هذا القرآن). أَئِنَّكُمْ (يا قريش) لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُلْ (يا محمد أما أنا) لَا أَشْهَدُ. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[19].

3- مشاهد من يوم الحساب: تنكّر لهم شركاؤهم وتمنوا الرجوع!

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) يَعْرِفُونَهُ (يعرفون: "إنما هو إله واحد") كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. (أما) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ (أي المشركون) فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[20]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (بأن وضع شركاء له) أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ (بدلائله)؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ (هؤلاء) الظَّالِمُونَ[21]. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ[22]؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ (ضلالهم) إِلَّا أَنْ قَالُوا (أقسموا): وَاللَّهِ، رَبِّنَا، مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[23]! انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ! وَضَلَّ عَنْهُمْ (غاب) مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[24] (من الشركاء). وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ! وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (حواجز وأغطية منعتهم من) أَنْ يَفْقَهُوهُ، (وجعلنا) وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (ثقلا حتى لا يسمعوه). وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ (من الدلائل التي تدل على وحدانية الله) لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (الذي يقصه القرآن) إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[25]. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ (يصرفون الناس عنه) وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ (يبتعدون عن النبي)، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ (بموقفهم ذلك)، وَمَا يَشْعُرُونَ[26]. وَلَوْ تَرَى (هؤلاء يوم القيامة) إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ: فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ[27]! بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ (كانوا يخفون خوفهم من أن يكون البعث واقعا). وَلَوْ رُدُّوا (إلى الدنيا) لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[28]. وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ[29]! وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ (حين جيء بهم للحساب)، قَالَ (لهم ربهم) : أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا! قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ[30]. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (في الإعداد لها بعمل ما يستحق الثواب)، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ (الآثام والخطايا) عَلَى ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ[31] (يحملون). وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟![32].

4- لا يحزنك ما يقولون عنك في الأسواق.. قد كذبت رسل من قبلك.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ (للعرب في الأسواق لصد الناس عنك)، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ (لكونك محمدا المعروف بالصدق والأمانة)، وَلَكِنَّ (هؤلاء) الظَّالِمِينَ، بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[33] (لا يعترفون بالشواهد والدلائل التي تدل عليه وعلى قدرته على بعثهم). وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا. وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ (تلك سنة الله وستتحقق معك فتنتصر). وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ[34] (جاءك من قصص الرسل ما يؤكد ذلك). وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ (معجزة من النوع الذي يشترطون عليك كي يؤمنوا، فافعل!). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى (والإيمان، بدون ذلك)، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ[35]. إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، (أما هؤلاء فهم موتى لا يسمعون)، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[36]. وَقَالُوا لَوْلَا (هلا) نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[37]: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (أنواع وأجناس) أَمْثَالُكُم، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ. ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ[38] [(6)]. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ (محرمون

6- جميع المفسرين يتعاملون مع هذه الآية ("وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم" الآية، كجملة نحوية مستقلة: الشيء الذي يعزلها عما قبلها وما بعدها- ثم انساقوا مع التفكير في جزء منها وهو "يحشرون" فخاضوا في موضوع حشر الحيوانات وهل يجري عليها الحساب والعقاب الخ، وكأن الحيوانات مكلفة شرعا حتى تكون موضوع جزاء، ثم رووا في ذلك أحاديث من نوع أحاديث الترغيب والترهيب، وقلبوا الوضع: فبدل أن يطلبوا لها ما يشهد لها بالصحة من القرآن، جعلوها هي تشهد بالصحة على ما انساق إليه فهمهم. أما نحن فنرى أنه لا وجه لبيان الصلة بين هذه الآية وبين ما قبلها وما بعدها إلا بربطها بهما، على النحو الذي فعلنا أعلاه، فقوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (أنواع وأجناس) أَمْثَالُكُم، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، بيان وتأكيد لقوله قبل ذلك : "قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[37] (بمعنى أنهم لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل آية، ولو علموا أنه "ما من دابة ولا طائر" الخ لعلموا ذلك. ولعلموا أيضا أنهم إلى ربهم يحشرون". فالضمير في "ربهم" يعود إلى من تعود عليه الضمائر المماثلة السابقة

من نور العقل، فهم لا يهتدون، بل هم مثل الدواب)، مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ (منهم) وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[39]. قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ (تتوجهون بالدعاء ليكشف الضر عنكم)، إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[40]؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ، فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ (من إزالة ذلك الضر عنكم) إِنْ شَاءَ، وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ[41] (أما أصنامكم فتنسون التوجه إليهم بالدعاء لأنكم تعرفون أنهم لن ينفعوكم في شيء). وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ (أخذنا تلك الأمم) بِالْبَأْسَاءِ (البؤس والجوع) وَالضَّرَّاءِ (الأمراض) لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ[42] (إلى الله). فَلَوْلَا (فهلا) إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[43]. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ (ما تلقوا دعوة الرسل) فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[44] (آيسون متشائمون). فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا (استؤصلوا عن آخرهم)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[45]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ (ننوع ونوضح) الْآيَاتِ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ[46] (يعرضون). قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ[47]؟

5- قل لا أقول لكم عندي خزائن الله. لا تطرد الضعفاء. لا تتنازل...

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[48]. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[49]. قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ! إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى (الضال) وَالْبَصِيرُ (المهتدي) أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ[50]. وَأَنذِرْ بِهِ (بالقرآن) الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[51]. وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ[52] (7). وَكَذَلِكَ

وهي: إِعْرَاضُهُمْ، فَتَأْتِيَهُمْ، لَجَمَعَهُمْ، يَسْمَعُونَ، يُرْجَعُونَ، أَكْثَرَهُمْ، لا يَعْلَمُونَ، ثم يُحْشَرُونَ. الضمير يعود على الكفار وليس على الدواب. وهم الذين قال عنهم تعالى= مباشرة: "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ". انظر آراء المفسرين وتضارب أقوالهم في تعليق لاحق (سورة الانشقاق رقم 84). (سيأتي استطراد هو الحشر، و"حشر الدواب" ...).

7- كان أكابر من قريش قد اشترطوا على الرسول عليه السلام طرد الفقراء والعبيد من صحابته ليجلسوا إليه، وربما طعنوا في إيمانهم أو في دوافع التزامهم مع رسول الله. والآية ترد عليهم بأنه إذا=

فَتَنَّا بَعْضَهُمْ (كبار قريش) بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا: أَهَؤُلَاءِ (الفقراء) مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (بالهداية) مِنْ بَيْنِنَا؟! أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ![53]. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا (بدلائلنا وعلامات فعلنا) فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ (من غير أن يعلم أنه سوء، أو عمله تحت الضغط) ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[54] (8). وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ، وَلِتَسْتَبِينَ (ولتتعرف على) سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ[55] (المذنبين). قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ[56].

6- لا علم لي بالساعة. الله وحده يعلم الغيب.. لست عليهم بوكيل.

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ (من قيام الساعة)، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ (يقضي بـــ) الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ[57]. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ[58] (بما يقتضيه الحكم بالحق في شأنهم). وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[59]. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ (عند النوم حين تكونون كالموتى لا تفعلون شيئاً) وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ (فعلتم قبله) بِالنَّهَارِ (أمس)، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ (في نهار الغد) لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى (وهكذا حتى ينتهي أجلكم)، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ (في الآخرة)، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[60]. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً (ملائكة) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الملائكة) وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ[61]. ثُمَّ رُدُّوا (الملائكة) إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ. أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ[62]. قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؟ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً: لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[63].

كان في إيمانهم مطعن كما قال كبار قريش فهم وحدهم سيحاسبون، ولن تحاسب أنت (يا محمد) في مكانهم كما أنهم لن يحاسبوا في مكانك، ولا تزر وازرة وزر أخرى. وهذا شبيه بما سبق في سورة الشعراء حكاية عن نوح وقومه : "قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ (يا نوح) وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ..." (الشعراء 111- 115)

8- اختلف الرواة في سبب نزول هذه الآية، والذي يفيده السياق هو أن الحديث متصل مع حكاية طلب كبار قريش، وأن هذه الآية ترد عليهم فيما طعنوا به في بعض الصحابة الفقراء. وربما عنوا بذلك اضطرار بعضهم إلى النطق بكلمة الكفر خلال حملة التعذيب التي شنها عليهم كبراء قريش. وقيل إن من بينهم عمار بن ياسر.

قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ، ثُمَّ (مع ذلك) أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ[64]. قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا (يخلطكم فرقا متناحرة) وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ[65]. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ، وَهُوَ الْحَقُّ! قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ[66]. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ (وقت فيه يخبر به)، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[67].

7- أعرض عمن يخوض في آياتنا .. ويتخذون الدين لعبا ولهوا ...

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا (بالكذب) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَإِمَّا (=إن ما) يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ (فقعدت معهم) فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى (بعد أن تتذكر نهينا عن ذلك) مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[68]. وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ (الله) مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (لن يحسب عليهم أي إثم إذا جالسوهم)، وَلَكِنْ (هذه) ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (يتجنبون الخوض معهم)[69]. وَذَرِ (أعرض عن) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ (القرآن الذي أرسلناك به إليهم) لَعِبًا وَلَهْوًا (بالاستهزاء) وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، (فلا تتعرض لهم) وَذَكِّرْ بِهِ (عظ بالقرآن حتى لا يحدث) أَنْ تُبْسَلَ (ترتهن وتهلك من دون تنبيه أو إنذار) نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ (من ذنوب)، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ(9)، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ (وإن أرادت تلك النفس أن تقدم كل فدية تريد محو ذنبها) لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا! أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا (أهلكوا) بِمَا كَسَبُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ، بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[70]. قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا (يعني الأصنام) وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا، بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ؛ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى، (يقولون له) ائْتِنَا (تعال إلينا)(10)! قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[71] (وذلك بـ) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[72]. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[73].

9- كان الرسول وأصحابه يجلسون مع كبار قريش يتناقشون معهم. ويبدو أن هذا النهي عن الجلوس مع كفار قريش مرتبط بالأسلوب الجديد للدعوة، أي الاتصال بالقبائل في الأسواق وغيرها، ولذلك جاء الحث على الاتجاه إلى الذين لم تبلغهم الدعوة، تجنبا لتأثير زعماء قريش في بعض المسلمين.

10- قيل: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه كان يدعو أباه الجوع إلى دين آبائه...

8- إبراهيم: حملة على الشرك... التذكير بالأنبياء الآخرين.

و(اذكر) إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً! إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[74]. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ[75]. فَلَمَّا جَنَّ (أظلم) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ[76]. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا، قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ[77]. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ هَذَا رَبِّي! هَذَا أَكْبَرُ! فَلَمَّا أَفَلَتْ، قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[78]. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[79]. وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ: أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ[80]! وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا! فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[81]؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ[82]. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[83]. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ! كُلًّا هَدَيْنَا. وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ. وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ (إبراهيم) دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[84]. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ[85]. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ[86]. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[87]. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[88]. أُولَئِكَ (الأنبياء هم) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (الحكمة) وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ (ذرياتهم وإخوانهم) فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا (آخرين) [11] لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ[89]. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (=اقتدِ). قُلْ (لقريش) لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى

11- اضطرب فهم بعض المفسرين لهذه الآيات، والمعنى واضح: الله بعث أنبياء في بني إسرائيل وفي غيرهم فإذا كفر بهم فريق من أقوامهم وذريتهم فقد كان هناك دوما فريق آخر يؤمن بهم، فبهؤلاء المؤمنين الذين لم يغيروا دينهم يجب أن تقتدي أي أن تنتسب، يا محمد. إن سلسلة المؤمنين وسلسلة الكافرين متواصلتان، وأنت حلقة في الأولى فلتواصل عملك.

لِلْعَالَمِينَ[90]. وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا [(12)] مَا أَنزَلَ اللَّـهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ! قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ (يكتبونه في دفاتر مقطعة) تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ؟ قُلْ اللَّـهُ (جواب : قل من أنزل...). ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[91].

9- التعرض لليهود: يخفون ما يعرفون من نبوة محمد...

وَهَذَا (القرآن) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من التوراة والإنجيل) وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى (مكة) وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالقرآن) وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[92]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ؟! [(13)] وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ؟! وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ (يقولون لهم) أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ (لنقبضها)، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ (الهوان) بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ[93]. (يخاطبهم الله:) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ (مع الله)، لَقَدْ تَقَطَّعَ (ما يصل) بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ[94].

10- الله يخرج الحي من الميت... وسخر لكم ما في الأرض...

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى (حب الزرع ونوى النخل: يشقهما ويخرج من كل منهما نبته)، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ (النبتة من الحب) وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ (الحب من النبات)، ذَلِكُمْ اللَّهُ، فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ[95] (كيف تجحدون؟). فَالِقُ الْإِصْبَاحِ (مخرج نور الصباح من ظلمة الليل)، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا

12- جل المفسرين قالوا إن الضمير يعود هنا اليهود. وهذا لا يستقيم لأن سياق الكلام متماسك والاتصال بين هذه الآية والتي قبلها واضح، والسورة مكية، وإذن فلا يبقى إلا أن المعنيين هنا هم قريش. أما قوله تعالى: "تجعلونه قراطيس" يعني التوراة"، فالخطاب فيه إلى قريش أيضا، وكان في قريش من يقرءون التوراة في أوراق. وقد روي أن النبي غضب لما رأى في يد عمر بن الخطاب أوراقا منها، فقال: "والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي".

13- قيل نزل هذا في مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، وكان يقول: محمد رسول قريش، وأنا رسول بني حنيفة، شرق الجزيرة: البحرين وما إليها.

(حسابا لأوقات)، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[96]. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ (الدلائل) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[97]. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ (ماء رحم المرأة) وَمُسْتَوْدَعٌ (مني الرجل مستودع فيها)(14) قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ[98]. وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ: فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا (الذي منه يخرج ثمرها) قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ (عراجين متدلية)، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ، وَالزَّيْتُونَ، وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَيَنْعِهِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[99]. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ (افتعلوا له) بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ[100]. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّى (كيف) يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ (زوجة)! وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[101]. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ[2]. لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[103].

11- "قد جاءكم بصائر.. وما أنا عليكم بحفيظ"... هم لا يؤمنون!

(قل) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[104] (برقيب). وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ (نلزمهم الحجج والدلائل)، وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ (تعلمت: علمك آخرون) وَلِنُبَيِّنَهُ (القرآن) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[105]. اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ[106]. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا (15). وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (رقيبا). وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[107]. وَلَا تَسُبُّوا (آلهتهم) الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا

---

14 – ذهب المفسرون في تفسير معنى "مستقر ومستودع" مذاهب شتى، بعيدة عن الظاهر وعن سياق الآيات السابقة واللاحقة، وهي أشبه بالتأويلات الباطنية. انظر رأينا في الموضوع (سورة الأعراف هامش 30). ونحن نعتقد أن هذا الذي أثبتناه أعلاه أقرب إلى الصحة، يشهد له قوله تعالى: وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (الإنسان-46)، وقوله: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ" (النجم-2) (خليط مني الرجل وماء المرأة).

15 – يقول الزمخشري على رأي المعتزلة في مثل هذه الآية: ولو شاء الله أن يقسرهم ويضطرهم على الإيمان لآمنوا، ويسمون هذه مشيئة قسر، في مقابل مشيئة الاختيار: يميزون بين مشيئة المضطر، ومشيئة غير المضطر. وعلى هذا يكون معنى الآية: إن الله لم يفرض الإيمان عليهم فرضا، بل ترك لهم حرية الاختيار.

اللَّهَ عَدْوًا (جهلا واعتداء) بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ (فريق) عَمَلَهُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[108]. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ (معجزة) لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ. وَمَا يُشْعِرُكُمْ (وما يدريكم أيها المؤمنون) أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ؟[109]. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ (ما يدريكم؟ فنحن قادرون على أن نحول بينهم وبين الإيمان فتعمى أفئدتهم وأبصارهم فلا يؤمنون بالقرآن بعد الإتيان بالآية التي يطلبون) كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[110] (يتحيرون). وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا (قبالتهم)، مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ[111].

12- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا! وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[112]، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ[113]. (قل) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ (القرآن) مُفَصَّلًا؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (التوراة) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ (القرآن) مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[114] (الشاكين). وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ (ما جاء في القرآن من وعد ووعيد وثواب وعقاب) صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[115]. وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[116] (يكذبون). إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[117].

13- وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ[118] (انظر التقديم). وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ (من الذبائح) وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ[16] إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ رَبَّكَ

---

16 – لم يسبق بعد تفصيل ما حرم من الذبائح، ولا معنى لربط هذه الآية بما سيأتي في سورة المائدة كما فعل ذلك بعض المفسرين فسورة المائدة مدنية بل هي آخر ما نزل من السور، وسورة الأنعام مكية باتفاق، كما لا يستقيم جعل الخطاب موجها لليهود لأن اليهود في المدينة والسياق لا يحتمل. وإذا كان

هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ[119]. وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ[120]. وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ[121]. أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[122].

14- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فيهَا...

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[123]. وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ (من معجزات)، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ[124]. فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ (العذاب) عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ[125]. وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[126]. لَهُمْ (الذين شرح الله صدرهم للإسلام) دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[127]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا (يوم القيامة وينادون) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ (الاستمتاع) مِنْ الْإِنسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنْ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ (استكثر) بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا! قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[128]. وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[129]. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ[130]. ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ[131]. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ[132]. وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ[133]. إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ

لابد من ربط هذه الآية بما يناسبها فالواجب بقوله تعالى في سورة الأعراف: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ= تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (الأعراف 33). فإذا كان من العرب من كان يذكر اسم آلهتهم في الذبائح بدل ذكر اسم الله فستكون الإشارة إلى قوله : "وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ".

بِمُعْجِزِينَ[134]. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ. إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[135].

15- وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ...

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ (خلق) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ، بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا (الشياطين). فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ! وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[136] (17). وَكَذَلِكَ زَيَّنَ، لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ، شُرَكَاؤُهُمْ (=فاعل زَيَّن، يعني الشياطين) لِيُرْدُوهُمْ (يهلكوهم) وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ (يشككوهم فيه). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[137]. وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ (محجورة) لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا (لا تركب)، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا (بل يذكرون أصنامهم، ونسبوا ذلك إلى الله) افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[138]. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ (المحرمة أي ما ستلده) خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[139]. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ (وأدوا بناتهم خوف الفقر أو العار) سَفَهًا (جهلا) بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[140].

16- بيان الحلال والحرام في الطعام والسلوك ...

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ (بساتين من نبات غير مرتفع كالكرم والبطيخ) وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ (من أشجار طويلة السيقان)، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ، مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (للمساكين الذي يحضرون للحصاد طلبا للصدقة) وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ[141]. وَمِنَ الْأَنْعَامِ (كالإبل، جعل لكم) حَمُولَةً (يحمل عليها) وَفَرْشًا (تفرشون جلودها وصوفها). كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

---

17 – كانوا ينفقون من أموالهم (من الأنعام والزرع) "صدقة" يقسمونها قسمين : قسم "باسم الله"، وقسم باسم أصنامهم. ومن هنا معنى الآية: جعلوا لله جزءا ولأصنامهم جزءا، فإذا ذهب ما لأصنامهم بالإنفاق عليها وعلى سَدَنَتها عوّضوه بما هو لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضيوف والمساكين لم يعوّضوا منه شيئا، وقالوا: الله مُستغنٍ عنه وأصنامنا وشركاؤنا فقراء. وواضح أن هذا الخطاب موجه للقبائل وعاداتها...

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"[142]. (وأنشأ) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ (ذكر الضأن والمعز) حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ (منهما)؟ أَمَّا (أم ما) اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[143]. وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ: آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ؟ أَمَّا (أم ما) اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا؟! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[144]. قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ (حرام) أَوْ (يكون) فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ (معتد) فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[145] (18). وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ (لم تفرق أصابعه كالإبل والأنعام)، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا (من الشحوم) أَوْ (حملته) الْحَوَايَا (الأحشاء) أَوْ مَا اخْتَلَطَ (من الشحم) بِعَظْمٍ. ذَلِكَ (التحريم) جَزَيْنَاهُمْ (به) بِبَغْيِهِمْ؛ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[146]. فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[147]. سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ. كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ[148]. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[149]. قُلْ هَلُمَّ (أحضروا) شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ[150] (ينحرفون). قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[151]، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. وَإِذَا قُلْتُمْ (شهادة) فَاعْدِلُوا (كونوا صادقين) وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا. ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ

18- ما ذكر هو ما حرم في مكة، ثم حرمت أشياء أخرى في المدينة سنذكرها في حينها، مثل: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، والخمر وغير ذلك. وللمفسرين والفقهاء في هذه الآية كلام طويل وآراء متباينة سنعرض لكل ذلك في القرآن المدني.

(الله) بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[152]. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا (وصاكم به) فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[153].

17- لموسى كتاب وهذا كتاب لكم كي لا تقولوا أنزل الكتاب لطائفتين

ثُمَّ (إضافة إلى ما تقدم، كنا) آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا (النعمة التي أنعمنا عليه) عَلَى (الوجه) الَّذِي (كان) أَحْسَنَ (في عهده)، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ (اليهود) بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ[154]. وَهَذَا كِتَابٌ (القرآن) أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ، وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[155]، أَنْ تَقُولُوا (=أنزلناه كي لا تقولوا) إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ (اليهود والنصارى) مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا (وإنا كنا) عَنْ دِرَاسَتِهِمْ (قراءة كتبهم) لَغَافِلِينَ[156]، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ (أعرض) عَنْهَا؟! سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ[157]. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ (بالهلاك)، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ! يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ (=علامات قيام الساعة) لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا (إن) لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ (لم تكن) كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا[19]، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ[158].

18- الخاتمة: مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ[20]، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[159]. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ

---

19 المعنى: أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيرا، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرا، ليعلم أنّ قوله: "الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" (البقرة: 25) جمع بين قرينتين (الإيمان والعمل الصالح)، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك". وبعبارة أخرى الإيمان وحده لا يكفي بل لابد من العمل الصالح، وهذا بدوره لا يفيد بدون إيمان.

20- اختلف المفسرون في هذه الآية، بعضهم قال : المقصودون هنا هم اليهود والنصارى، وقال آخرون بل هم المشركون، وقال فريق ثالث هم جميعا مقصودون. وهناك من قال إن المقصود بتفريق الدين ليس انقسام أشياعه إلى فرق، بل التمييز في "كتاب الدين "بين أشياء يعملون بها وأشياء لا يعملون بها. وهذا مردود بقوله "شيعا".

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[160]. قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيَمًا، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[161]. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[162]، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[163]. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ؟! وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[164]. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[165].

- تعليق

قلنا في الاستهلال الذي صدَّرنا به سور هذه المرحلة الرابعة من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، التي تأتي في أعقاب الأمر بالصدع بالدعوة ("فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ... " -الحجر 94-95)، إن ذلك "الأمر" يعني -حسب فهمنا- التوجه بخطاب الدعوة، حين المواسم والأسواق، إلى القبائل التي تسكن خارج مكة بعد أن عمد الملأ من قريش إلى تطويق الدعوة وعزلها عن باقي سكان "أم القرى". وتأتي سورة "الأنعام" هذه لتدشن هذه المرحلة بخطاب يستعيد مضمون السور السابقة بأسلوب جديد، ولتضيف بعد ذلك مضامين جديدة لها علاقة مباشرة بحياة القبائل التي تعيش على الأنعام (الماشية). وهكذا تختلف بنية هذه السورة عن بنية السور السبع السابقة اختلافا بينا، بل هي تتميز عن السور المكية كلها على صعيد المضمون.

تبدأ السورة بمقدمة تؤكد فيها على الأركان الثلاثة الرئيسية في العقيدة المحمدية: التوحيد والبعث والنبوة، يلي ذلك التذكير بموقف مشركي مكة، موقف التكذيب والاستهزاء، ورد القرآن عليهم بشجب الشرك وبيان لامعقوليته، مستحضرة ثورة إبراهيم عليه السلام على عبادة الأصنام، إلى جانب التخويف من أن يلحقهم من الهلاك في الدنيا ما لحق بالمكذبين لرسلهم من الأقوام السابقة، مؤكدة الحساب والجزاء يوم القيامة؛ مع الإلحاح على رفض مساومات قريش وعدم الاغترار بوعودهم للنبي إن هو أبعد فقراء المسلمين من حوله الخ.

وبعد أن تشير السورة إلى تجند أبي جهل وجماعته لتتبع خطى الرسول في الأسواق لتشكيك الناس وصدهم عنه، تتجه بالخطاب إليه عليه السلام مثبتة لفؤاده مقوية لعزيمته: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وَلَكِنَّ (هؤلاء) الظَّالِمِينَ، بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[33]. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا

وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا. وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ. وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ[34] (جاءك من قصص الرسل ما تعلم...).

بعد هذا التذكير المركز بمضامين السور السابقة تنتقل السورة التي نحن بصددها (الأنعام) إلى موضوع جديد، ربما كان أكثر اتصالا بحياة القبائل القاطنة خارج مكة (أم القرى)، موضوع الحلال والحرام في ميدان الذبائح من الأنعام وغيرها: "وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" ، "إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ"، "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ". وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ"! وهذه عادات يغلب انتشارها في البوادي والقرى، كما أن قتل الأولاد "خشية إملاق" أو خوف العار أكثر في البادية منه في غيرها.

بعد شجب هذه العادات والسلوكات "البدوية" وتحريمها، تأتي السورة ببيان ما حرم الله على الناس وما هم مطالبون به، والخطاب موجه، هنا، على مستوى الخصوص إلى من كانت تخاطبهم الدعوة في هذه المرحلة وهم رواد المواسم والأسواق من القبائل التي تقطن خارج مكة، كما أنه موجه على مستوى العموم إلى الناس جميعا. وهذه خاصية بارزة في الخطاب القرآني: ذلك أنه ما من خصوص يُربط به إلا والعموم يلازمه.

وهكذا تخصص السورة عدة آيات لتفصيل القول في مسألة الحلال والحرام كما يلي: (آيات (145، 151-154، 160، 164)

1- المحرم من الطعام على غير المضطر في هذه المرحلة من الدعوة: الميتة، الدم، لحم الخنزير، وما أهل لغير الله.

2- المنهي عنه من الاعتقادات والأفعال: الشرك بالله، قتل الأولاد خشية إملاق، الفواحش ما ظهر منها وما بطن (والمقصود في الغالب: الزنا)، قتل النفس بغير حق، التصرف في مال اليتيم بما يضر به، النزاع والفرقة.

3- المأمور به: : الإحسان إلى الوالدين، العدل في الكيل والميزان، أداء الشهادة بالحق، الوفاء بالعهد.

وإذا نحن قارنا بين هذه البنود، التي وردت في سورة الأنعام، وبين ما سبق أن ورد في سورة الأعراف (الآيات 31-34) التي كان الخطاب فيها متجها إلى الملأ من قريش في مكة، نجد أن السورتين لا تشتركان إلا في بندين اثنين: هما النهي عن "الشرك" والنهي عن "الفواحش". أما ما عداهما فجله يخص بالدرجة الأولى حياة العرب في البادية والقرى، مما يزكي ما ذهبنا إليه من أن

هذه السورة تدشن مرحلة توجه الخطاب القرآني إلى خارج "أم القرى"، بعد نزول قوله تعالى: "اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين". وسنجد في السور التالية المزيد.



55- سورة الصافات

- تقديم

لم يرد شيء يستحق الذكر بخصوص هذه السورة سوى أنها مكية، وأن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تتحرك بين الرتبتين 53 و56، تارة بعد سورة الأنعام وتارة قبلها. وقد وردت حول بعض آياتها أخبار لعل أهمها ما يلي: فحول قوله تعالى "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم" الآية، قيل إنها نزلت جوابا على أبي جهل حين قال للمسلمين: "زعم صاحبكم هذا أن النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإننا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد"! وحول قوله تعالى: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا" الآية، قيل نزل ردا على قريش في قولهم: "الملائكة بنات الله". وعندما اعترض عليهم: "فمن أمهاتهم؟ قالوا بنات سراة الجن". وحول قوله تعالى: "وإنا لنحن الصافون" الآية، قيل: كان الناس يصلون متبددين، فأنزل الله الآية فأمرهم أن يصفوا. وحول قوله : "أفبعذابنا يستعجلون" الآية، قيل نزلت عندما قالت قريش: يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجله لنا".

- نص السورة

1- مقدمة: تأكيد وحدانية الله من خلال نظام الكون.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا[1] (1)، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا[2]، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا[3]، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ[4]: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ[5].

---

1 – اختلف المفسرون في تحديد معنى "الصافات" هنا. قال بعضهم إن المقصود هم الملائكة القائمين صفوفا للعبادة. وقيل بل المقصود هو "الطير"، بالاستناد إلى قوله تعالى "والطير صافات" (النور – 14). ثم ذهب آخرون، خاصة بعض المتأخرين، مذاهب أبعد ما تكون عن معهود العرب فأولوا اللفظ تأويلات مستقاة من الفلسفة الدينية الهرمسية التي تسربت بقوة إلى الثقافة العربية الإسلامية في العصر العباسي (انظر كتابنا: نقد العقل العربي ج1، وج2). ونحن نعتقد أن أقرب المعاني إلى معهود العرب وإلى ما عهدناه في القرآن هو تفسير "الصافات" بالطيور، تصطف جماعات جماعات في رحلاتها. وعلاوة على=

2- سماء زينة للناظرين وشهب للشياطين، و"الصيحة" على المكذبين

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ[6]، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ[7] (عاتٍ، كي) لَا يَسَّمَّعُونَ (يتسمعون) إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى (الملائكة)، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ[8] دُحُورًا (مطرودين)، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ[9] (دائم)، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ[10] [(2)]. فَاسْتَفْتِهِمْ (قريشا): أَهُمْ أَشَدُّ (أصعب) خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ[11] (صلصال). بَلْ عَجِبْتَ (من إصرارهم على نكران البعث مع أنهم يعلمون أن خلقهم أيسر من خلق السماوات!) وَيَسْخَرُونَ[12] (من تعجبك)، وَإِذَا ذُكِّرُوا (بالقرآن) لَا يَذْكُرُونَ[13] (لا يتعظون)، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً (فعلا من أفعال الله) يَسْتَسْخِرُونَ[14] (كل منهم يسخر ويدفع صاحبه ليسخر كما في إلقاء النكت). وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[15]: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[16]؟ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[17] (أيضا يبعثون)؟ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ[18] (صاغرون) : فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ (صيحة) وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ[19] (يشاهدون قيام الساعة).

3- مع الصيحة القيامة... المكذبون شركاء يتخاصمون في جهنم!

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا (هلاكنا) هَذَا يَوْمُ الدِّينِ[20] (الحساب والجزاء! فيُرد عليهم) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ[21]. (ويقال للملائكة) احْشُرُوا (اجمعوا) الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ (رؤساء ومقلدون) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ[22] مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ[23]. وَقِفُوهُمْ (عند الصراط) إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ[24] (يسألون

أن هذا المعنى ينسجم مع الآية المذكورة (والطير صافات) فإن القسم في القرآن، وفي بداية السور تخصيصا، جرى على هذا المجرى، أي أن المقسم به كائنات ومخلوقات يعرفها الناس ويدركون معانيها والمقصود من القسم بها. فقد أقسم تعالى بالليل، والفجر، والضحى، والشمس، الخ، وأقسم كذلك بـ"العاديات" وهي الأفراس، و"الذاريات" وهي الرياح الخ. وفي رأينا أنه في هذا الصنف يدخل القسم بـ "الصافات"، أي الطيور المصفوفة، والمقصود لفت الانتباه إلى النظام البديع الذي يتجلى في طيرانها جماعات جماعات والذي يدل كغيره من أنواع النظام في الكون على أن من ورائه صانعا ماهرا حكيما. ولا بد أن نضيف هنا أن القسم بالطيور الصافات يناسب معهود القبائل في البوادي والأرياف حيث يشكل منظر رحلات الطيور مشهدا لافتا للنظر.

2- الكواكب زينة للسماء بأضوائها، وتقوم النجوم بحفظها من الشياطين الذين يريدون استراق السمع والاطلاع على ما تقوله الملائكة (إشارة إلى الكهانة والتنجيم). ويقال للنجوم التي تنقض على الشياطين: الشهب، بمعنى أنها تتبع الشيطان فتثقبه وتحرقه. هذا هو المعنى الذي ينتمي إلى معهود العرب. ولابد من التذكير هنا بأن المقصود من هذا تأكيد نهاية التنجيم والكهانة بظهور الرسول الذي يتلقى الوحي من عند الله ويبلغ رسالته إلى الناس.

هناك عما فعلوا، فيقال لهم:) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ[25] (لا تجيبون)؟ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ[26]. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[27] (يتلاومون): قَالُوا (المقلدون لرؤسائهم) إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ[28] (تحلفون أنكم صادقون)! قَالُوا (ردوا عليهم) بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[29] (أصلا)، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ، بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ[30] (ضالين). فَحَقَّ عَلَيْنَا (جميعا) قَوْلُ رَبِّنَا: إِنَّا لَذَائِقُونَ[31] (للعذاب. وأضافوا:) فَأَغْوَيْنَاكُمْ (ضللناكم) إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ[32]. (وهكذا:) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ[33]، إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ[34].

4- مشاهد من الجنة للمصدقين، وأخرى من النار للمكذبين.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ[35] وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ[36]؟ (يقال لهم كذبتم) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ[37]. إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ[38]، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[39]. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[40] (الذين أخلصوا لنا فأخلصناهم أي نجيناهم): أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ[41]: فَوَاكِهُ، وَهُم مُّكْرَمُونَ[42] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[43] عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ[44]، يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[45] (خمر) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ[46]، لَا فِيهَا غَوْلٌ (ليس كحول يفقدهم عقولهم) وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[47] (يسكرون). وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ[48] (كبيرة عيونهم)، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ (كبيض النعام) مَّكْنُونٌ[49] (ملفوف بريشه). فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ (بعض أهل الجنة) عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[50] : قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ[51] (صاحب) يَقُولُ: أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ[52]؟ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ[53] (محاسبون)؟ قَالَ (ذلك الذي كان له قرين لأصحابه) هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ[54]؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ (رأى قرينه ذاك) فِي سَوَاءِ (وسط) الْجَحِيمِ[55]! قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ[56] (لتهلكني)، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[57] (معك)! أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ[58] إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى (في الدنيا، كما كنت تزعم؟)، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[59] (كما كنت تقول)؟ إِنَّ هَذَا (الجنة التي منها يتكلم ذلك القائل منهم) لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[60]. لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ[61]. (وأضاف) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ[62]؟ (شجرة شديدة المرارة تنبت في جهنم. قال الله عنها) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ[63] (الذين قالوا كيف تنبت الشجرة في جهنم، والنار تحرق الشجر؟). إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ (عمق) الْجَحِيمِ[64]، طَلْعُهَا (منه يخرج ثمرها) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ[65]، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ[66]، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا

(معها) لَشَوْبًا (شرابا شديد السخونة) مِنْ حَمِيمٍ[67] (من جهنم)، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ[68] : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا (هناك) آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ[69]، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ[70] (يساقون).

5- ضلت قريش كما ضل أكثر الأولين ... والفوز العظيم للمرسلين.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ[71]، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ[72]، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ[73]، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[74]. (3)

أ- نادانا نوح .. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم..

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ[75]، وَنَجَّيْنَاهُ وأهلَه مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ[76]، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ[77]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ (ثناء حسنا) فِي الْآخِرِينَ[78] (في الأجيال التالية). سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ[79]، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[80]، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[81]، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ[82].

ب- ابراهيم ثار على الأصنام: سلام على ابراهيم، كان من المؤمنين.

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ[83]، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[84]، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ[85]؟ أَئِفْكًا (كذبًا)، آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ[86]؟! فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[87]؟ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ[88]، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ[89] (على شفى المرض)، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ[90]. فَرَاغَ (انسل هو) إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ (لهم استهزاءً): أَلَا تَأْكُلُونَ[91] (وقد وُضع الطعام أمامهم)؟ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ[92]؟ فَرَاغَ (انهال خفية) عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ[93]، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ[94] (يسرفون)، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ[95]؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[96]! قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا (فرنا) فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ[97]، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ[89] (المهزومين: لأنه خرج من النار سالما)! وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِي[99]، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ[100]، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ[101]، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ (قيل إسماعيل وقيل إسحاق)

3- ستأخذ السورة في سرد ملخص مركز لقصص أنبياء سبق أن فصلت في سور أخرى. ويجب أن لا ننظر إلى هذا على أنه تكرار، بل على أنه إخبار لأهل القبائل العربية بما سبق أن أخبرت بـه قـريش بتفصيل. ويصدق هذا في نظرنا على جميع ما سيرد في السور التالية في هذه المرحلة وإلى نهاية العهد المكي، من آيات توهم بالتكرار.

[4] إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ[102]. فَلَمَّا أَسْلَمَا (أمرهما إلى الله) وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (أطاح إبراهيم بابنه على جنبه في وضعية الذبح)[103]، وَنَادَيْنَاهُ[5] أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ[104]: قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[105]. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ (الاختبار) الْمُبِينُ[106]، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ (كبش) عَظِيمٍ[107]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ (ذكرى حسنة) فِي الْآخِرِينَ[108]: سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ[109]. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[110]. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[111]. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ[112]، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ"[113].

ج- وموسى وهرون.. نصرناهما .. فكانا هما الغالبين.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[114]، وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ[115] (عذاب فرعون)، وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ[116]، وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ[117] (التوراة)، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[118]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا (الثناء الحسن) فِي الْآخِرِينَ[119] (في الأمم التالية): سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[120]. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[121]، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[122].

د- إلياس ثار على الصنم "بعل"، إنه من عبادنا المؤمنين.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ[6] لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[123]، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ[124]؟ أَتَدْعُونَ بَعْلًا[7] (صنما اسمه بعل) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ[125]: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمْ

4- كثير من المفسرين قالوا إن المقصود هو إسحاق (انظر الطبري)، والغالب أنهم انساقوا في ذلك مع الإسرائيليات فقد ورد في التوراة أن الذبيح هو إسحاق. أما ما يفهم من سياق الآية أعلاه فهو أن الذبيح هو إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم. فالقرآن لا يشير إلى ميلاد إسحق إلا بعد أن ذكر قصة الذبيح، الشيء الذي يعني أن المعني هو إسماعيل. أما مسألة الحقيقة التاريخية فالانشغال بها هنا لا معنى له لأن المطروح هنا هو الحقيقة القرآنية، كما أن المطروح بالنسبة لليهود هو الحقيقة التوراتية وكلتاهما لا تخضعان لمقاييس الحقيقة عند المؤرخين. انظر: "التعريف بالقرآن"، القسم الثالث، المقدمة.

5- الواو هنا زائدة. قال الطبري: "وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا وهذا جواب قوله: فَلَمَّا أَسْلَمَا. ومعنى الكلام: فلما أسلما وتله للجبين، (و) ناديناه أن يا إبراهيم. وأدخلت الواو في ذلك كما أدخلت في قوله: حتى إذا جاءُوها -و- فُتِحَتْ أبوابُها، وقد تفعل العرب ذلك فتدخل الواو في جواب فلما، وحتى...".

6- اختلف المفسرون في تحديد المقصود بهذا الاسم اختلافا كبيرا. والغالب أنه إيلياء من أنبياء بني إسرائيل.

7- في التوراة: "وَأَقَامَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي شِطِّيمَ، فَشَرَعَ الرِّجَالُ يَرْتَكِبُونَ الزِّنَى مَعَ الْمُوآبِيَّاتِ 2اللَّوَاتِي أَغْوَيْنَ الشَّعْبَ لِحُضُورِ ذَبَائِحِ آلِهَتِهِنَّ وَالأَكْلِ مِنْهَا وَالسُّجُودِ لَهَا. 3فَاشْتَرَكَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي عِبَادَةِ بَعْلِ=

الْأَوَّلِينَ[126]؟ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ[127] (إلى جهنم)، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[128]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ[129]: سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ[131] (إلياس وأهله). إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[130]، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[132].

<u>هـ- ولوط نجيناه وأهله ودمرنا الآخرين، وتمرّون على منازلهم!</u>

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[133]، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ[134]، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ[135]، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ[136]. وَإِنَّكُمْ (يا قريش) لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ (على منازلهم) مُصْبِحِينَ[137] وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ[138]!

<u>و- يونس أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين.</u>

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[139]، إِذْ أَبَقَ (هرب) إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[140] (8)، فَسَاهَمَ (في القرعة) فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[141] (المغلوبين فألقوه في البحر)، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[142] (ملام لهربه إلى البحر). فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ[143] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ (الحوت) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[144]. فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ (قذفناه من بطن الحوت على الأرض) وَهُوَ سَقِيمٌ[145]، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ (جانبه) شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (تظله)[146]، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ[147] (بأرض الموصل بالعراق)، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ[148].

<u>ز- وَلَقَدْ سَبَقَ وعدنا لِلْمُرْسَلِينَ: هُمُ الْمَنصُورُونَ...</u>

فَاسْتَفْتِهِمْ : أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ[149]؟ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ[150]؟ أَلَا إِنَّهُمْ، مِنْ إِفْكِهِمْ، لَيَقُولُونَ[151]: وَلَدَ اللَّهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[152]. أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ[153]؟! مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[154] (تعبدون الإناث وأنتم تفضلون البنين على البنات)! أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[155]. أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ (وحي) مُبِينٌ[156]؟ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[157]. وَجَعَلُوا بَيْنَهُ (الله) وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا (الجنة: الملائكة) (9)، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ[158] (للنار)، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ[159]، (جملة اعتراضية)، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[160] (فهم غير محضرين

فَغُورَ. فَلَحْتَمَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ. 4فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «خُذْ جَمِيعَ قَادَةِ عَبَدَةِ الْبَعْلِ وَاصْلِبْهُمْ، وَعَلِّقْهُمْ تَحْتَ وَطْأَةِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ أَمَامَ الرَّبِّ، فَتَرْتَدَّ شِدَّةُ غَضَبِهِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

8 -. انظر قصته في سورة القلم رقم 35 هامش 3، وفي سورة يونس رقم 50 هامش 7

9- كان بعض العرب يقولون: "إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سَرَوات بنات الجنّ". هذا، ومعنى الجن والجنة لغةً: الكائنات المخفية التي لا ترى. انظر: تعليق واستطراد في موضوع الجن والشيطان. آخر سورة الجن رقم 40

للنار لأن موعدهم الجنة)، فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ[161] مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ[162] (بمضلين أحدا)، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ[163] (=يصلاها. وقال جبريل للنبي:) وَمَا مِنَّا (نحن الملائكة) إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ[164]. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ[165]، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ[166] (نحن مصطفون صفوفا نسبح، كالطيور الصافات). وَإِنْ كَانُوا (قريش) لَيَقُولُونَ[167] (في جهنم): لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ[168] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[169]، فَكَفَرُوا بِهِ (بالذكر الذي جاءهم وهو القرآن وفيه قصص الأولين) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[170]. وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ[171]: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ[172]، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ[173].

6- خاتمة: وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ، وأبصر فسوف يبصرون.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ[174]، وَأَبْصِرْهُمْ (بخيالك وهم منهزمون) فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ[175] (ذلك بأعينهم)، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ[176]، فَإِذَا نَزَلَ (عذابنا) بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ[177] (بئس صباحهم). وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ[178]، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ[179]! سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ[180]، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ[181]، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[182].

تعليق

بدأت هذه السورة بمقدمة تؤكد فيها ما ختمت به السورة السابقة، أعني التذكير بقوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[162]، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[163]. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ؟! ثم جاءت مقدمة هذه السورة لتبرهن على وحدانية الله من خلال اعتبار ما في الكون من نظام بديع لا يمكن أن يكون قد أقامته الأصنام أو غيرها مما يعبد المشركون. لقد أقسمت بهذا النظام لافتة النظر إلى ما فيه من جمال ونظام : كل جزء منه يؤدي وظيفته في تكامل وتناغم مع الكل، وضربت لذلك مثلا بمشهد من معهود العرب وغيرهم : هناك جماعات من الطيور مصفوفة، إما على جدار أو حين طيرانها (وهذه هي الصافات صفا)، وهناك بجانبها طيور أخرى تزجر المنفلتات أو المنشغلات باللعب أو التنافر... وكأن مهمتها السهر على النظام وتراص الصفوف الخ، وهذه هي "الزاجرات زجرا"، وهناك في هذا الموقع أو ذاك، داخل الصفوف أو خارجها، طيور أخرى تغرد، وعندما تغرد الحمامة فكأنها "تذكر" : تتحدث وتحكي: "أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد" (المعري). والعامة

اليوم، وربما بالأمس أيضا، تقول عنها: "إنها تذكر الله". وهذه هي "الملقيات ذكرا". والمقصود من ذلك كله تأكيد موضوع القسم والاحتجاج له بظواهر الطبيعة، وهو "أن إلهكم لواحد". وقد أكدت السورة هذا المعنى في الآية التالية مباشرة : "رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ". وهي ترسم مجال التداول الذي سيتم فيه بيان موضوع هذه السورة. وهذا أسلوب قرآني في البيان والبرهنة والحجاج يتكرر بكثرة، خاصة في القرآن المكي الذي يكاد يتخصص في جدال المشركين والرد عليهم ولفت انتباههم إلى ما في الكون من نظام بديع لابد أن يكون من صنع إله واحد، وأنه لو كان ثمة آلهة غير الله لما استقام هذا النظام ولكان فيه اختلاف وتناقض(10).

بعد هذا المشهد تنتقل السورة إلى مثال آخر مستقى من معهود العرب ومعتقداتهم، ذكرته مرات وتكرره هنا أيضا. وهو كون السماء قد شددت فيها الحراسة بعد بعثة النبي محمد بن عبد الله، وبالتالي لم يعد هناك مجال لما يدعيه المنجون والكهان من استعمال الشياطين لاستراق السمع بالتنصت إلى حديث الملائكة في السماء والحصول على "علم الغيب". لقد انتهى "عهد استراق السمع" وجاء عهد الوحي الذي ينزل به الملاك جبريل إلى الرسول محمد، ليخبر الرسول وكل مستمع إلى هذا الوحي (القرآن) بأخبار الأولين والآخرين. ومن هنا كان تكرار هذا الحديث ضروريا لمسح ما استقر في أذهان قريش والعرب عموما من دعاوى المنجمين والكهان وإخلاء المكان لتلقي حقائق الوحي.

وبعد تأكيد البعث بالرد مرة أخرى على المكذبين به وتوعدهم بصيحة القيامة وبيان حالهم في جهنم حيث يندمون ويتلاومون، تنتقل السورة إلى عرض شهادة التاريخ المقدس، تاريخ "الأنبياء والرسل، منكرة بكفاح الأنبياء ضد أقوامهم المشركين الذين يعبدون الأصنام وينكرون البعث والحساب ويكذبون الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، لتتخلص إلى قريش لتؤكد لهم أن مصيرهم سيكون مثل مصير الأولين، وأن النبي سينتصر مثلما انتصر الأنبياء السابقون، لأن الله قضى بذلك منذ الأزل : "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ171: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ172 وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ"173.

ثم تختم السورة بالتوجه إلى النبي عليه السلام لتخاطبه بقوله تعالى: "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ174، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ175، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ176، فَإِذَا نَزَلَ (عذابنا) بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ177 (بئس صباحهم). ثم تكرر: "وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ178، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ"179! ولكي ندرك ما وراء تكرار هذا الحث على الصبر يجب أن نستحضر ردود الفعل السلبية التي واجهت به القبائل دعوة الرسول في هذه المرحلة وقد أشرنا إليها في الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة.

10- تنبيه: سياق "الصافات صفا..." يختلف عن سياق "المرسلات عرفا"، ولذلك فضلنا هنا مشهد "الطيور"، بينما فضلنا هناك مشهد "الملائكة".

56- لقمان

- تقديم

ذكر رواة "أسباب النزول" أخبارا حول بعض آيات هذه السورة، من ذلك ما يلي: روي أنه لما أسلم سعد بن أبي وقاص قالت له أمه: "يا سعد بلغني أنك صبوت (أي مِلت عن دين آبائك)، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه"، وكان أحب ولدها إليها! فأبى سعد. فصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى خشي عليها. فأتى سعد النبي صلى الله عليه وسلم وشكا ذلك إليه، فأنزل الله تعالى : "وَوَصَّينا الإنسانَ بوالديهِ حُسناً" إلى قوله: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ (أرغماك) عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" الآية. وفي رواية أخرى مخالفة، عن سعد ابن أبي وقاص قال: "كنت رجلاً برًّا بأمي فلما أسلمتُ قالت: يا سعد ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن عن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعَيَّـرُ بي فيقال: يا قاتل أمه. قلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدَع ديني هذا لشيء، قال: فمكثتْ يوماً لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، قال فمكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل فأصبحت وقد اشتد جهدها. قال: فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجتْ نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي. فلما رأت ذلك أكلت، فأنزلت هذه الآية "وَإن جاهَداكَ لتُشركَ بي ما لَيسَ لَكَ بهِ عِلمٌ فلا تُطِعهُما".

وقد فسر بعضهم قوله تعالى "وَمِنَ النَاسِ مَن يَشتَري لَهوَ الحَديثِ لِيُضِلَّ عَن سَبيلِ الله" بما هو أبعد مما تحتمله الآية فقالوا : "نزلت في شراء القيان والمغنيات"، وعززوا قولهم هذا بحديث نسبوه إلى الرسول عليه السلام ورد فيه قوله: "لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن، وأثمانهن حرام". وقالوا: في مثل هذا نزلت الآية المذكورة. وأضافوا: "وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله تعالى عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت" (الواحدي: أسباب النزول). وقد وُصف هذا الحديث من بعض النقاد بأنه "غريب". وسنرى أن في هذا ابتعاد كبير عن الآية. على أنه لو كان قصد الشارع تحريم الغناء وأدواته لورد نص واضح كالنص الذي يحرم الميتة والخنزير والخمر الخ. هذا فضلا عن أن بعضهم يجعلون هذا الآية "تصديقا"

لهذا "الحديث" بينما المفروض هو العكس. فدور الحديث هو أن يبين ما في القرآن وليس العكس. أما أقرب ما رووه إلى أن تكون له علاقة مع الآية السابق فهو ما ذكروا من أنها "نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار؛ فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد؛ وقيل: كان يشتري المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنَته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه؛ ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه". وسياق الآية يزكي هذه الرواية، أعني مضمونها كما سنرى أسفله.

–نص السورة

1- مقدمة: آيات الكتاب الحكيم، هدى للمحسنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الم[1]، تِلْكَ (ما سيأتي ذكره) آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ[2] (استعمال لفظ الحكيم هنا مناسب للموضوع : حكمة لقمان)، هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ[3] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (الصدقات) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[4]. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[5].

2- رد على الذي يشتري لغو الحديث، هذا خلق الله فماذا خلق غيره؟

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي(1) (كتب) لَهْوَ الْحَدِيثِ (الذي لا فائدة فيه) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَّخِذَهَا (سبيل الله) هُزُوًا (موضوع استهزاء)، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[6]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ (على الذي اشتري كتب قصص الفرس) آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا (صمما)، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[7]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ[8]، خَالِدِينَ فِيهَا، وَعْدَ اللَّهِ

1- ذهب كثير من المفسرين والفقهاء إلى أن المقصود بـ"لهو الحديث" هنا هو الغناء، ومن هنا انساقوا يفتون بتحريم الغناء الخ. ونحن نعتقد أن معنى هذه الآية مرتبط بالآية التي بعدها وأن المناسب كسبب لنزولها هو ما ذكروه عن النضر بن الحارث (انظر التقديم والتعليق). هذا والمقام هنا ليس مقام تحليل ولا تحريم، بل هو مقام التمييز بين كلام القصاص الذي يلهي الناس وبين "آيات الذكر الحكيم" الذي منه وصايا لقمان وهي من جنس الحكمة.

حقًّا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[9]. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (جبالا ثوابت تمنعها من) أَنْ تَمِيدَ (تميل) بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ[10]. هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[11].

3- حكمة لقمان : بديل عن أساطير صاحب لغو الحديث...

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ (الإصابة في القول): أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ. وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[12]. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[13]. وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ (وهي من مشقة الحمل إلى مشقة الولادة الخ) وَفِصَالُهُ (فطامه) فِي عَامَيْنِ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ[14]. وَإِنْ جَاهَدَاكَ (أرغماك) عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (بالإحسان إليهما)، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[15]. يَا بُنَيَّ : إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ (السيئة) مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ (يوم الحساب)، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[16]. يَا بُنَيَّ : أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[17] (من الأمور التي يعزم بها) . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ (لا تمل بوجهك متكبرا)، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا (مشية الخيلاء)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ (متبختر) فَخُورٍ[18] (يفتخر على الناس). وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ (بين السرعة والبطء)، وَاغْضُضْ (اخفض) مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنكَرَ (أقبح) الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ[19].

4- وإذ قيل لهم اتبعوا ما أنزا الله قالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا!

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ[20]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ. قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ[21] (يتبعونه أيضا؟). وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[22]. وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[23]. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ[24].

5- لا تنفد كلماته... وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[25]. لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[26]. وَلَوْ أَنَّمَا (أن ما) فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ (مدادا لكتابة كلمات الله)، مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ (أسماء مخلوقاته). إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[27]. مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[28]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة)، وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[29]. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[30]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ الْفُلْكَ (السفن) تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ (كالرياح وغيرها) لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[31]. وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ (وارتفع هذا الموج وأصبحوا مهددين بالغرق) دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ، فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ (بين الكفر والإيمان)، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا (ومنها هذه) إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ (غدار) كَفُورٍ[32].

6- خاتمة: موعظة : اتقوا ربكم، لا تدري نفس بأي أرض تموت...!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ[33]. إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[34] .

- تعليق

يمكن القول إن سورة لقمان نزلت ردا على النضر بن الحارث: قالوا كان النضر بن الحارث يخرج تاجراً إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت فيه هذه الآية: (وَمِن الناسِ مَن يَشتَري لَهوَ الحَديثِ). وبما أن الخطاب في هذه المرحلة موجه لأهل المواسم والأسواق فمن الجائز أن تكون الآية قد نزلت في النضر وغيره

من القصاص الذين يشغلون الناس فيها بـ "لهو الحديث". هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن القول إن لها علاقة أيضا بما ذكره ابن إسحاق عن الفترة التي بدأ النبي (ص) يعرض فيها نفسه على القبائل وأنه عليه السلام لما علم بمقدم سويد بن صامت ... "إلى مكة حاجا أو معتمرا -وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشعره ونسبه وشرفه- فتصدّى له رسول الله (ص) حين سمع به، فدعاه إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي! قال: فقال له رسول الله (ص) "وَما الَّذِي مَعَكَ؟" قال مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان ـ فقال له رسول الله (ص): "اعْرِضْها عَلَيَّ!" فعرضها عليه، فقال: "إنَّ هَذَا الكَلامَ حَسَنٌ. مَعِي أفْضَلُ مِنْ هَذَا، قُرآنٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيَّ هُدًى وَنُورٌ". قال: فتلا عليه رسول الله (ص) القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن ثم انصرف عنه".

أما عن شخصية لقمان فقد اختلف رواة الأخبار بصددها اختلافا كبيرا: منهم من قال: كان نبياً، وقيل: كان حكيماً لقول الله تعالى: "ولقد آتينا لقمان الحكمة"، وقيل: كان رجلاً صالحاً، وقيل: كان خيّاطاً، وقيل: كان نجّاراً، وقيل: كان راعياً. وروي أن إنساناً وقف عليه وهو في مجلسه فقال: ألَسْتَ الذي كنتَ ترعى معي في مكان كذا وكذا؟ قال: بلى! قال: فما بَلَغَ بك ما أرى؟ قال: صِدْقُ الحديث، وأداءُ الأمانةِ، والصَّمْتُ عما لا يَعْنِيني.

وبعضهم ذكر أنه هو بلعام بن باعوراء الذي ورد خبره في التوراة (سفر العدد 22-24) ضمن ما ذكرته من أخبار عن مرحلة التيه زمن موسى[2]، وأنه كان نبيا من أهل مدين. بينما عرف عنه في الموروث العربي الإسلامي أنه كان حكيما. على أن بعضهم ذهب إلى القول بنبوة لقمان الذي نسب الله إليه الحكمة لأن لفظ الحكمة يسمح بهذا القول، لأنه أطلق على النبوءة في كثير من القرآن، كقوله في داود "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب". وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" بما يشمل النبوءة. لكن ذلك يخالف ما روي عن ابن عمر من أنه : "قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمنَّ عليه بالحكمة"

وقد ذكر كثير من المفسرين أن لقمان كان في زمن داوود عليه السلام، وأنه كان ابن أخت أيوب، الشيء الذي يعني أنه من بني إسرائيل. قال ابن كثير إن لقمان كان قاضيا في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام. وهذه الرابطة التي يقيمها

2- تاه بنو إسرائيل في صحراء سينا أربعين سنة زمن خروج موسى بهم من مصر.

بعض المفسرين بين لقمان وداود، تتناقض مع ما ذكرناه أعلاه من أن بلعام (المتوهم أنه لقمان) كان في زمن موسى، وأخباره تخص فترة التيه.

هذا وقد نسبت إلى لقمان حكم عديدة، وما يهمنا هنا هو ما ورد في هذه السورة باسم "وصايا لقمان لابنه"، وهي وصايا تدخل في باب العقيدة والأخلاق في القرآن المكي، وبالتالي فهي متصلة مع ما سبق ذكره في سورة الأنعام وما سيرد في سور لاحقة في هذا القسم من الكتاب. يتعلق الأمر هنا : بتجنب الشرك، وبالإحسان للوالدين في جميع الأحوال، وطاعتهما ما لم يحاولا حمل ابنهما على الشرك، واتباع سبيل المؤمنين، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المصائب، وتجنب التكبر والتجبر والتبختر، والاعتدال في المشي، وخفض الصوت الخ.

57- سورة سبأ

- تقديم

ذكروا أن رجلين شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر في مكة، فلما بُعث النبي (ص)، كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه، وكان يقرأ بعض الكتب، فأتى النبي (ص) فقال: إلام تدعو؟ فقال إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله! فقال: وما علمك بذلك؟ قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة القوم ومساكينهم، فنزلت الآية: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" (سبأ 34)"، فأرسل إليه النبي (ص) وقال له: "إن الله قد أنزل تصديق ما قلت". وسنرى أن في السورة ما قد يشهد بالصحة لهذا الخبر.

ومن جهة أخرى ذكروا أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى "لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ" (الآية الأخيرة من سورة الأحزاب) قال لأصحابه: كأنّ محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت! واللاتِ والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً. فأنزل الله تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ" (سبأ: 3) الآية، وهذا في غاية الخلط. فسورة "الأحزاب" مدنية، بينما سورة "سبأ" مكية. وإذا كان لابد من ربط الآية الأخيرة بأبي سفيان فالأولى أن يقال: إن هذا الذي نسب إليه، قاله في الأسواق تكذيبا لما كان الرسول (ص) يصدع به فيها وهو في مكة، وهذا واضح من السياق الذي وردت فيه الآية، والذي يربط بين مضمون هذا الخبر ومضمون الخبر السابق.

- نص السورة

1-مقدمة: يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[1]، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ[2] .

2- الرد على الذين يحاربون الدعوة المحمدية في الأسواق.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ! قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[3]، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[4]. وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (مثبطين: يصدون الناس في الأسواق عن الاستماع إلى النبي) أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ[5]، وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ[(1)] (أن) الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[6]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (الذين كانوا يحاربون النبي في الأسواق) هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ (هو محمد) يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ (في القبور) إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ[7]! (فيُجيب من قيل لهم ذلك) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟ (يجيب القرآن:) بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ[8]، أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ[9] (ومن آياته التي تشهد على قدرته على فعل ذلك ما خص به داوود وسليمان من أمور خارقة للعادة، وهي كما يلي:)

3- سخر لداود وسليمان الطير والرياح والجن وصناعة السلاح ...

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا: (من ذلك: قلنا) يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ (كوني تحت تصرفه) وَالطَّيْرَ (كذلك)، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ[10] (يتصرف فيه كما يشاء وقلنا له) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ (دروعا طويلة) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ (اجعل الدروع على مقاسات الجنود) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[11]. وَلِسُلَيْمَانَ (سخرنا) الرِّيحَ: غُدُوُّهَا شَهْرٌ (تقطع في الصباح ما يقطعه الراجل في شهر) وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ (وتقطع مثل ذلك في المساء)، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ (نجم النحاس)، وَ(سخرنا له) مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ! وَمَنْ يَزِغْ (ينحرف) مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

1- ربما يكون المقصود هنا بـ " الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" هو الرجل الذي قال له الرسول، في الخبر الذي أوردناه في التقديم: "إن الله قد أنزل تصديق ما قلت". أما المفسرون فيميلون إلى القول إن المقصود هم أهل الكتاب، ومنهم من عمم وقال: المقصود هم المسلمون جميعا. وما قلناه هو الأنسب، والسياق يشهد له. فالتقابل فيه هو بين ما قاله ذلك الرجل الذي "آمن" بمجرد سماع أن الرسول لم يتبعه إلا الفقراء الخ، وبين أبي سفيان ومن يمثلهم من المترفين المحاربين للدعوة المحمدية في الأسواق.

السَّعِيرِ[12]. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ (مساكن) وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ (كالأحواض في الكبر) وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (لا تتزعزع)! اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا (شاكرين)، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ[13]. فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ! فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ (كما يعتقد من يعبدونهم) مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ[14] (تحت سلطان سليمان).

4- عقاب أهل سبأ: سيل العرم خرّب بساتينهم.. و"تفرقوا أيدي سبأ"!

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[2] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ[15]. فَأَعْرَضُوا، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ (سيل وادي سبأ المنهار) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ (مر) وَأَثْلٍ (نوع من الشجر) وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ[16]! ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ[17]، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ (أهل سبأ باليمن) وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (مواطن الأنبياء: قرى الشام التي يرتادونها للتجارة) قُرًى ظَاهِرَةً (متواصلة متقاربة على طول هذا الطريق) وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، (محطات فمحطات) : سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا (ليل نهار) آمِنِينَ[18]. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا (بين هذه المحطات ربما ليتاح لهم الغزو والسلب)، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (فتاهوا في الطرق وتفرقوا وضرب بهم المثل: "تفرقوا أيدي سبا")، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ[3]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[19]. وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[20]. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ (من ذاته، وما منحناه ذلك السلطان) إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ[21].

2- روى الطبري أن رجلا سأل الرسول عليه السلام قائلا: "يا رسول الله أخبرني عن سَبَإٍ ما كان؟ رجلا كان أو امرأة، أو جبلا، أو دوابّ؟ فقال: "لا، كانَ رَجُلًا من العَرَبِ وَلَـهُ عَـشَرَةُ أَوْلادٍ، فَتَيَمَّنَ مِنهُمْ سِتَّةٌ (أقاموا باليمن)، وتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ (رحلوا إلى الشام)، فَأَمَّا الَّذِينَ تَيَمَّنُوا مِنهُمْ فَكِنْدَةُ، وحِمْيَرُ، والأَزْدُ، والأَشْعَرِيُّونَ، ومَذْحِجُ، وأنمارُ الَّذِينَ مِنها خَثْعَمٌ وَبَجِيلَةٌ. وأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا: فَعَامِلَةُ، وَجُذَامُ، وَلَخْمٌ، وَغَسَّانُ" (أسماء قبائل).

3- فرق قبائلهم، قيل: "أما غَسَّان فقد لَحِقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعُمان".

5- الله هو الخالق، ولكنكم تشركون به، فأنتم الضالون.

قُلِ (بعد هذا الذي منحناه لداود وسليمان وفعلناه بأهل سبأ...) ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ! (إنهم) لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ (شراكة) وَمَا لَهُ (الله) مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ[22] (معين). وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ (يوم القيامة) إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (الله من الملائكة)، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ (زال الفزع عن قلوب المكذبين بالبعث) قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا (من إذن لهم الله بالشفاعة): الْحَقَّ. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[23]. قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ اللَّهُ. (وإذا قالوا هم كذلك: هو الله، واستووا معكم في الاعتراف بالله، فقل لهم) وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[24]! (والنتيجة الضمنية: أنتم الذين في ضلال مبين لأنكم تعترفون بأن الله هو الخالق الرازق، ومع ذلك تعبدون الأصنام وهي لا تخلق ولا ترزق). قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ[25]. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ[26]. قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ (ماذا خلقوا)! كَلَّا! بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[27]. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ (بمن فيهم القبائل) بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[28] (ذلك ويظنون أننا إنما أرسلناك لقريش)[(4)]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[29]؟ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ[30].

6- تلاوم المستضعفين والمستكبرين في النار.. والملائكة يتبرؤون!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (وهم في الدنيا) لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من التوراة والإنجيل)! وَلَوْ تَرَى إِذِ (هؤلاء) الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (في الآخرة)، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا (الضعفاء منهم) لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ[31]. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ[32]. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ (مكركم) مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا. وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ (أي المستضعفون، ظهرت أمارات

4- الطبري: "ذُكر لنا أن نبيّ الله (ص) قال: "أنا سابقُ العَرَب، وصُهَيبٌ سابقُ الرُّوم، وبلالٌ سابقُ الحَبَشَةِ، وسَلمانُ سابقُ فـارسَ"، بمعنى أن كلا منهم سابق قومه إلى الإسـلام، وأن الإسلام لجميع الأقوام: للناس كافة.

الندامة على جباههم) لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟![33]. وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[34]، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[35]. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[36]. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا (عند الله) زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ (في الجنة) آمِنُونَ[37]. وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (كالنضر بن الحارث وأبو جهل في الأسواق) أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ[38] قُلْ (للمترفين الذين يعتزون بأموالهم وأولادهم) إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[39]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (الله) جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ[40]؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ[41] (5). فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ"[42].

7- خاتمة: إفك مفترى..! قُلْ جَاءَ الْحَقُّ. وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ!

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ (على من في الأسواق) آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا (قال لهم الذين تبعوا الرسول يحاربونه) مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى (كذب مختلق)! وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"[43]! وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ[44]. وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[45]. قُلْ (لأهل الأسواق) إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ (أن تقولوا لا إله إلا الله) مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا! مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ (كي لا تقعوا) بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[46]. قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ(6)! إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"[47]. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ

5- عبادة الجن كانت منتشرة عند البدو أما قريش فكانت تعبد أصنامها...

6- تكرر معنى هذه الآية مرارا في السور السابقة، لكن يمكن أن نلتمس لها هنا دلالة خاصة: فإن كنتم (يا من في الأسواق) تظنون أني سأطلب منهم أجرا على عظاتي لكم كما يفعل آخرون، (هنا في الأسواق)، فأنا أقول لكم إن الأجر الوحيد من عظاتي: هو لكم أنتم وحدكم، وهو أنكم ستنجون من العذاب يوم الحساب إذا آمنتم؟

بِالْحَقِّ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ[48]. قُلْ جَاءَ الْحَقُّ. وَمَا يُبْدِئُ (ما يخلق) الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ[49] (يعيد الخلق: البعث). قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ"[50]. وَلَوْ تَرَى (يا محمد) إِذْ فَزِعُوا (حين رأوا النار يوم القيامة) فَلَا فَوْتَ (لا نجاة)، وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ[51]، وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ! وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ (التراجع، عن كفرهم)[(7)] مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ[52] (أي بعد أن أصروا على الكفر منذ مدة طويلة)، وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ[53] (يكذبون النبي وينكرون البعث الخ). وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ (من إعلان إيمانهم بعد كفرهم) كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ (بأمثالهم من الأمم الماضية)، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ"[54] (من يوم الحساب).

- تعليق

قصة "سبأ" التي وردت في هذه السورة لم ترد من قبل، وقد شغلت حيزا كبيرا من السورة حتى إنه ليمكن القول إن عليها بنيت. وقد سبقت قصة الملكة بلقيس مع سليمان (سورة النمل) ولم تتعرض لقوم سبأ ولا لسد العرم. ويبدو أن نزول هذه السورة له علاقة بالمرحلة الجديدة من الدعوة أعني الخروج إلى الأسواق ودعوة القبائل. ومما يرجح هذا الاحتمال ما ذكره ابن إسحاق من أن من أوائل من اتصل بهم عليه السلام في الموسم قبيلة كندة[(8)] اليمنية. قال: حدثنا ابن شهاب الزهري: أنه (الرسول) أتى كِنْدة في منازلهم (في المكان الذي نزلوا فيه في السوق)، وفيهم سيد لهم يقال له مُلَيْح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبَوْا عليه".

نحن نظن أن ذلك كان مناسبة لنزول هذه السورة، فقد ذكّرت بما كانت قبائل اليمن تعيش فيه من رغد العيش ثم انقلب وضعها رأسا على عقب بانهيار سد العرم، كما ورد في الأخبار التي تداولها المفسرون ومنها ما يلي: قالوا: "لما ملكت بلقيس، جعل قومها يقتتلون علـــى ماء واديهم (وادي سبأ)، فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها فتركت مُلكها، وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشرّ بينهم، وندموا أتوها، فأرادوها على أن ترجع إلى مُلكها، فأبت فقالوا: لترجعنّ أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا

7- "يقال للقوم في الحرب، إذا دنا بعضهم إلى بعض بالرماح ولم يتلاقوا: قد تناوش القوم".

8- قال بعض النسابين العرب : " كندة: هم بنو ثور بن مرة بن أدد بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ".

تطيعونني، وليست لكم عقول، ولا تطيعوني، قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيرا بعدك، فجاءت ... فسدّت ما بين الجبلين، فحبست الماء من وراء السدّ، وجعلت له أبوابا بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثني عشر مخرجا على عدّة أنهارهم فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السدّ، فأمرت بالباب الأعلى ففُتح، فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها، فجعل بعض البعر يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البعر في الماء، حتى خرج جميعا معا (بمعنى أن سرعة الماء صارت واحدة)، فكانت تقسمه بينهم على ذلك (بالتساوي)، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان" (الطبري).



استطراد

الدعوة تغزو العرب في المواسم والأسواق!

وبعد، فماذا كانت نتيجة هاتين السنتين[1] اللتين قضاهما الرسول عليه السلام في الدعوة في المواسم وعرض نفسه على القبائل؟

تؤكد مراجعنا أن النبي عليه السلام كان "يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج ... يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة". وكانت أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. قالوا: وكانت العرب "إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوّال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج"؛ وكان الرسول عليه السلام يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه" (انظر تفصيل ذلك في مقدمة هذا القسم من الكتاب)

ومع ذلك فقد كانت هناك بوادر إيجابية وردت عنها تلميحات في سور هذه المرحلة وقد توقفنا عندها في حينها. من ذلك لقاؤه مع شخصية تدعى سُويد بن صامت، الذي كان يحمل معه "صحيفة لقمان"[2]. ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن إسحاق من أنه: "لما قدم (من يثرب) أبو الحَيْسَر، أنس ابن رافع، مكة ومعه فِتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحِلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول اللّه (ص)، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له؟ الخ (انظر تفصيل ذلك في المقدمة)

ومع هذه السلبيات، أعني أنه على الرغم من أن القبائل العربية لم تستجب لطلب الرسول عليه السلام، فإنها قد تعرفت عليه،/ وبدون شك ستنتشر خبره في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وستكون يثرب أكثر تأثرا وستصبح "مدينة الرسول"، ولكن بعد ست سنوات: ثلاث منها يقضيها الرسول في الحصار وثلاث خارج الحصار.

ولا بد من التأكيد هنا على أن ربط الخطاب القرآني منذ سورة الحجر إلى آخر ما نزل في مكة ، بالدعوة في أوساط القبائل من أهل البادية، في المواسم والأسواق، هو اجتهاد منا، لم

---

1 - هذا التحديد الزمني من تقديرنا، وذلك اعتمادا على أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت حوالي الخامسة والنصف حسب جل الروايات وأن حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب كان في بداية السنة السابعة كما ذكره ابن سعد. وإذن فقد مرت سنتان على دعوة الرسول القبائل إلى الإسلام، والأصح أن نقول مر موسمان من مواسم الحج والأسواق.

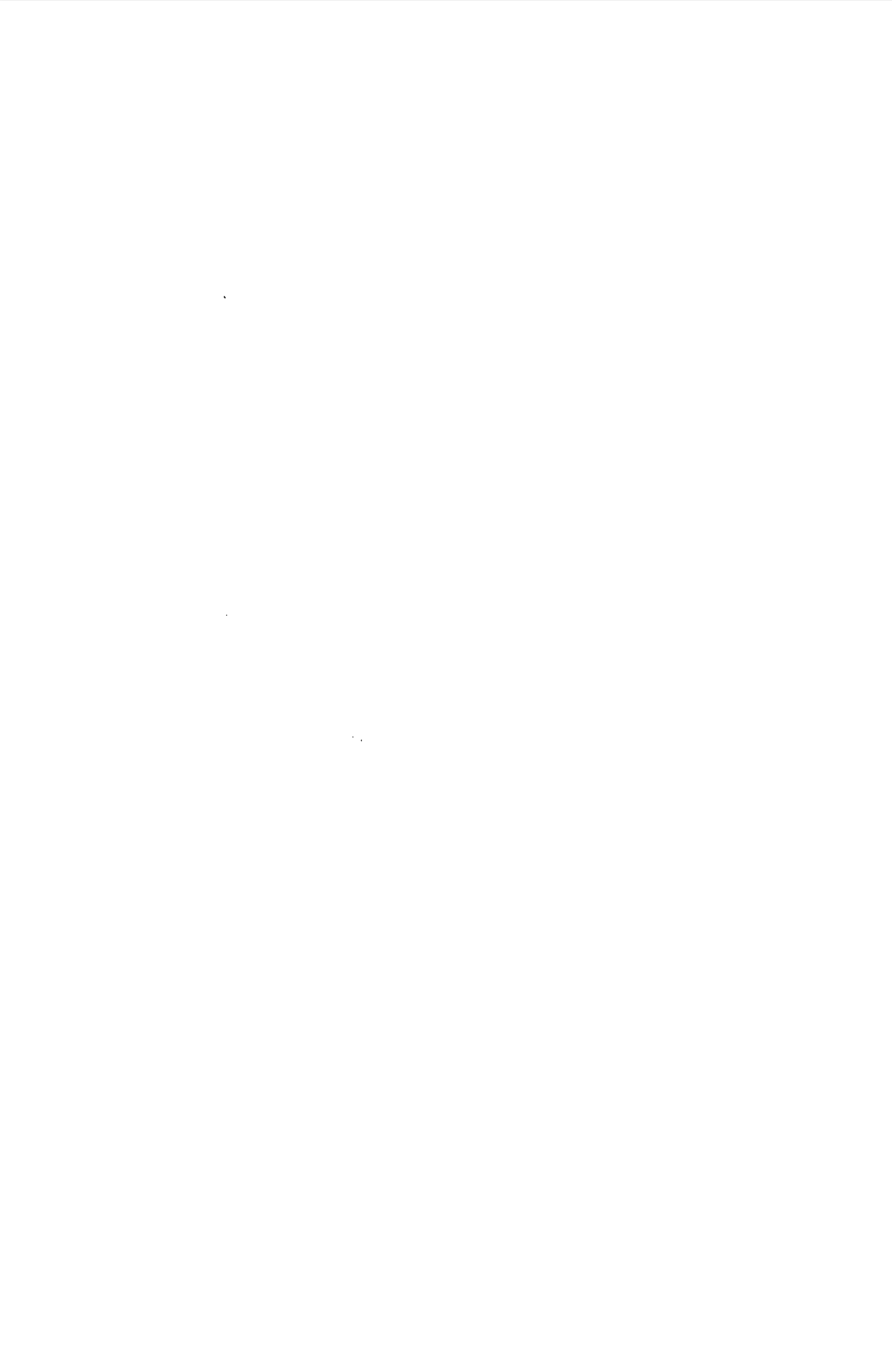
2- انظر "التعليق" في سورة لقمان.

نعثر على شبيه له في التفاسير التي بأيدينا وأيدي الناس. والسبب الرئيسي في انفرادنا بهذا هو انفرادنا في بناء فهم القرآن على ترتيب النزول. ولا شك أن القارئ قد لمس بنفسه نتائج هـذه المحاولة من خلال ما قدمناه من فهم مستقل، وأحيانا مختلف، عن فهم جميع المفسرين.

نذكر هذا ليس افتخارا وإنما من أجل جلاء خاصية "التكرار" في القرآن المكي. وكما قلنا في "التعريف بالقرآن" (المدخل)، فالخطاب في القرآن يسير على نهج العرب في المخاطبة، المنهج الذي عبر عنه البلاغيون بالقول "لكل مقام مقال"، وأن ما يميـز القـرآن عـن أنـواع الخطابات العربية الأخرى هو أن الثابت فيه هو المقال، بينما المتغير هو المقام. مقال القـرآن المكي واحد (يدور حول النبوة والتوحيد والبعث)، سواء تعلق الأمر بمقام قريش ووضعيتها أو بمقام أهل القبائل أو غيرهم.

المرحلة الخامسة

حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب
وهجرة المسلمين إلى الحبشة



استهلال

كانت نهاية المرحلة السابقة (الرابعة)، من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، متميزة باتجاه النبي عليه السلام إلى الاتصال بالقبائل والأسواق بعد نزول قوله تعالى "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحجر94-95). ومع أن الاستجابة كانت قليلة، بل تكاد تكون منعدمة كما رأينا في "الاستطراد" أعلاه؛ إلا أن الاتصال المباشر بين الرسول عليه السلام وبين القبائل في الأسواق وحديثه إليهم وطلبه حليفا يحميه من قومه حتى يبلغ رسالته قد جعل قريشا تدرك أن أمر محمد عليه السلام لم يعد محصورا في مكة وأن الإسلام أخذ يطرق آفاق جديدة لم تكن في الحسبان فخططوا لمواجهة هذا التطور الجديد.

يقول ابن إسحق: ""ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: "يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا: من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"، أو كما قالوا! ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم يطب نفسا بإسلام (تسليم) رسول الله لهم ولا خذلانه"، فرجعوا بخفي حنين. أما أبو طالب الذي أدرك من لهجة وفد قريش أن الرسول قد أصبح مهددا أكثر من ذي قبل فقد قام في بني هاشم وبني المطلب (عشيرة النبي) فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله إلا ما كان من أبي لهب" (ابن إسحاق).

وعلى أثر تضامن عشيرة النبي مع أبي طالب في حماية الرسول "اجتمعت قريش فائتمرت بينها أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم... وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب (بجبل أبي قبيس) ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبئ رسول الله (ص). وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد وسُمع أصوات صبيانهم من

وراء الشّعب! فمن قريش مَن سره ذلك ومنهم من ساءه ... فأقاموا في الشعب ثلاث سنين"

"أما بقية المسلمين "فأذن لهم رسول الله (ص) في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ونالوهم بالأذى. وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار فلما سمعوا بمهاجرة رسول الله (ص) إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثماني نسوة" (ابن سعد وابن إسحاق).

كان ذلك هو مسار الدعوة في هذه المرحلة "الخامسة"، مرحلة الحصار، التي دامت نحو سنتين. يبقى أن نشير إلى أن بعض الروايات قد ذكرت أن قريشا "بعثت - على أثر الهجرة الأولى إلى الحبشة- عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي إلى النجاشي مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته وأمروهما أن يسألا النجاشي تسليم مَن قِبله وبأرضه من المسلمين إليهم، فشخص عمرو وعبد الله إليه في ذلك فنفذا لما أرسلهما إليه قومهما، فلم يصلا إلى ما أمَّل قومهما من النجاشي، فرجعا مقبوحين" (الطبري: التاريخ).

قالوا: إن فشل مهمتهما واحتفاء النجاشي بالمهاجرين كانا وراء اشتداد ضغط القرشيين على الرسول والمسلمين في مكة وقرارهم فرض الحصار على النبي وأهله. وهذا لا يستقيم، لأن هجرة من هاجر إلى الحبشة، الهجرة الأولى، كانت في رجب من سنة خمس للنبوة وأنهم لم يمكثوا سوى ثلاثة أشهر في الحبشة إذ عادوا إلى مكة بتأثير إشاعة مفادها أن النبي قد تصالح مع قريش إثر قصة الغرانيق. أما سفر وفد قريش إلى النجاشي لطلب تسليم المسلمين فلا بد أن يكون بعد الهجرة الثانية لأنه لم يكن قد بقي قبلها في الحبشة من المهاجرين ما يبرر إرسال ذلك الوفد. فالمهاجرون في الهجرة الأولى كان أكثرهم قد عاد ودخل في جوار رجال من قريش.

والواقع أن مسار الدعوة يدل على أن قريشا أرسلت الوفد المذكور إلى النجاشي بعد حصار قريش للنبي في شعب أبي طالب سنة سبع للنبوة، الشيء الذي يعني أن إذن النبي لأصحابه بالهجرة الثانية كان بعد دخوله الحصار أو قُبيله بقليل وخوفه على المسلمين. ومهما يكن من أمر فإن الإشارة الوحيدة في القرآن إلى الهجرة إلى الحبشة إنما نجدها في سورة "الزمر" التي سننتقل إليها الآن. ولذلك جعلناها أولى السور التي نزلت خلال الحصار. وليس من المستبعد أن يكون نزولها قبله بقليل.

58- سورة الزمر

- تقديـــم

لعل أهم ما ورد في روايات "أسباب النزول" بخصوص هذه السورة روايتان: إحداهما عن ابن عباس قال: قوله تعالى: "قُلْ يعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ" الآية، نزل في جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة، والأخرى ورد فيها أن قوله تعالى: "وأرض الله واسعة" أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة.

أما الروايات الأخرى التي ربطوا نزولها بأشخاص فهي -كما سبق القول مرارا- إنما فائدتها في ما تساهم به في جلاء الأثر الذي كان للقرآن في المجتمع المكي. من ذلك: قوله تعالى "والذين اتخذوا" الآية، قال ابن عباس نزلت في ثلاثة أحياء (قبائل): عامر، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون الملائكة بناته، فقالوا "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى". وأما قوله تعالى: "والذين اجتنبوا الطاغوت الآية" فقد قيل نزل في نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، وهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي. وقالوا أما الآية: "ويخوفونك" الخ، فقد نزلت في الرد على قريش حين قالت للنبي (ص) "لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلن". وقالوا: نزل في مشركي أهل مكة حين قالوا للنبي (ص): أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد؟ فأنزل الله "قل أفغير الله تأمروني أعبد" إلى قوله "من الشاكرين". وقيل: مَــرَّ يهودي بالنبي (ص)، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذِه، والأرضين على ذِه، والماء على ذِه، والجبال على ذِه؟ فأنزل الله "وما قدروا الله حق قدره" الآية. وقيل: لما نزلت "وسع كرسيه السموات والأرض" قالوا: يا رسول الله هذا الكرسي هكذا؟ فكيف العرش؟ فأنزل الله "وما قدروا الله" الآية. قيل "إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسَن، إن تخبرنا لما علمناه كفارة! فنزلت هذه الآية "يا عِبادِيَ الَّذينَ أسرَفوا عَلى أنفُسِهِم".

- نص السورة

1- مقدمة: ألا لله الدين الخالص. والأصنام لا تنفع ولا تشفع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[1]. إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ[2]؛ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.

2- خلقكم من نفس واحدة ... ولا تزر وازرة وزر أخرى!

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (يقولون) مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (قربى)، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ[3]. لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، سُبْحَانَهُ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[4]. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ[5]. خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا(1)، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ(2). يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ (نطفة، فمضغة، فعلقة الخ) (3)، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ(4). ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَهُ الْمُلْكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ[6] (عن الله) ؟ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[7]. وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا (أصناما آلهة) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ. قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا

---

1 - انظر تعليقنا حول هذا الموضوع في سورة الأعراف هامش 30 (القسم الأول من الكتاب)

2 - الإبل والبقر والضأن والمعز، ذكورا وإناثا: ثمانية أزواج. الزوج : ذكر وأنثى.

3 - على نحو ما هو مذكور في سورة المؤمنون : "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (المؤمنون 12-14)

4 - شرحها المفسرون بكونها : ظلمة البطن، وظلمة الرّحم، وظلمة المَشيمة.

(في الدنيا) إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ[8]. أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[(5)] آنَاءَ اللَّيْلِ، سَاجِدًا وَقَائِمًا، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ! (كمن لا يعمل ذلك؟). قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ[9].

<u>3- أرض الله واسعة: الحبشة. أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين.</u>

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ[(6)]. إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ (على غربة الهجرة إلى الحبشة) أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[10]. قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ[11]، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ[12]. قُلْ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[13]. قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي[14]، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ. قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ (هم) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[(7)]! أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[15] : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ. ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ[(8)]، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِي[16]. وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ (الأصنام) أَنْ يَعْبُدُوهَا

5- القنوت: "الطاعة، هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: "والقَانِتِينَ والقَانِتَاتِ" (الأحزاب 35)؛ ثم سمي القيام في الصلاة قُنوتا، وفي الحديث: "أفضل الصلاة طول القنوتِ"، ومنه قُنوت الوتر" (الجوهري).

6- قال بعض المفسرين إن في هذه الآية إشارة إلى الهجرة إلى الحبشة. ونسب إلى ابن عباس أنه فسر قوله تعالى: "قُلْ يا عِبَادِيَ الذِينَ آمَنُوا اتقوا رَبكُمْ" : يريد جعفرَ بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة (ذكره الطبري). وعلى هذا فالسورة تكون قد نزلت بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة، في ظروف الحصار، وبذلك تكون هذه السورة أول ما نزل في هذه الظروف.

7- خسران الأهل هنا، ربما يشير إلى المهاجرين إلى الحبشة، يخبرهم أنهم لن يخسروا أهلهم، فخسران الكفار لأهلهم (أي مفارقتهم الأبدية) تكون يوم القيامة. أما في الدنيا فثمة دائما إمكانية للقاء. وقد يكون المعنى أن الرسول وهو تحت الحصار لم يخسر أهله. وهذا كله مبني على قراء الآيات السابقة على أنها تستحضر وضعية الحصار والهجرة إلى الحبشة. أما "الخسران المبين" الذي يكون يوم القيامة فهو للمشركين في جهنم حيث تلاقي كل نفس مصيرها بمفردها.

8- هذه الآية مع مثيلاتها تطرح مسألة "التخويف" الذي يوصف به ما يقدمه القرآن كمشاهد للآخرة: هل يجب حمل ألفاظ تلك المشاهد والصور التي تقدمها على الحقيقة أم على المجا[ز]؟ ومهما يكن فحديث الجنة والنار هو للترغيب والترهيب من حيث الصور المشخصة التي يقدمها القرآن، ولكنه قبل ذلك وبعده يحمّل الإنسان مسؤولية ما يفعل في الدنيا، وهذا ما كان يتهرب منه الملأ من قريش، إن إنكارهم للبعث هو تهرب من الجزاء.

(اجتنبوا عبادة الأصنام)، وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ، لَهُمْ الْبُشْرَى! فَبَشِّرْ عِبَادِي[17] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ[18]. أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (طبق عليه حكم الله فألقي به في النار) أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ[19]؟ لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ (في الجنة) غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ: وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ[20]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ (ييبس) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا (فتاتا)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ[21] (وكذلك حال البعث). أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ (كمن بقي على ضلاله)، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ (ينفرون) مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[22].

4- قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ! اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ، إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ!

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ[(9)]، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[23]. أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (كمن يدخل الجنة)! وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ (الملقى بهم في العذاب) ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ[24]. كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[25]، فَأَذَاقَهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ (الذل) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[26]. وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[27]، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[28]: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ (عبداً مملوكا له أكثر من سيد يتنازعون عليه)، وَرَجُلًا (وعبداً آخر) سَلَمًا لِرَجُلٍ (خالصا لرجل واحد)، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[29] [(10)].

9- متشابها : يشبه بعضه بعضا نظما ومضمونا، مثاني: تُـثـنَّى وتكرر فيه القصص والمواعظ والحجج والوعد والوعيد...

10 – معنى المثل واضح: وهو أنه ليس من العدل جعل الناس، في الآخرة، كلهم في الجنة أو في النار، لأن وضع الناس في الدنيا قائم على الاختلاف: ومن مظاهر هذا الاختلاف وقوع بعضهم حكاما ظالمين وأسيادا مستغلين وآخرين محكومين مظلومين الخ. وهكذا فوضع الذين يؤمنون بإلــه واحد يختلف عن وضع الذين يعبدون آلهة متعددة : أولئك يفصل بينهم إله واحد بالعدل، وهؤلاء يقعون تحت طائلة اختلاف آلهتهم، وبهذا المعنى ترتبط الآيات التالية بالسابقة في سياق واحد. على أن هذا المثل الذي ضرب هنا في مجال المعاد ينطبق=

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ (قريش) مَيِّتُونَ[30]، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ[31]. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مأوى) لِلْكَافِرِينَ[32]؟ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (وهو النبي) وَصَدَّقَ بِهِ (وهم المؤمنون)، أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[33]. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[34]، لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[35] (بما كانوا يعملون من الحسنات). أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (النبي)[11]؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ (من دون الله: الأصنام) ! وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[36]، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ. أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ[37]؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ (الأصنام) كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ[38]. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ (جهتكم التي اخترتم) إِنِّي عَامِلٌ (على جهتي التي تمكنت عندي)، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[39] مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ[40] (مستمر متواصل).

5- فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِه وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ...

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[41]. اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (يجعل نهاية لنشاطها وحيويتها) حِينَ مَوْتِهَا (عندما تستوفي آجالها)، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ (لم تستوف أجلها، يتوفاها) فِي مَنَامِهَا (يجعل حدا لنشاطها): فَيُمْسِكُ (عنده) الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى (في الدنيا) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى[12]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[42]. أَمِ (بل) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ؟! قُلْ (لهم) أَوَلَوْ كَانُوا لَا

أيضا على مسألة التوحيد لبــيان استحالة وجود أكثر من إله واحد، لأنه لو كان ثمة أكثر من واحد لوقع التنازع بينهم، خصوصا والإله في الإسلام من أسمائه "المالك". وفي هذا المعنى قوله تعالى: " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" (الأنبياء 22)

11 – قيل: "أنّ قريشاً قالت لرسول الله (ص): إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك معرتها لعيبك إياها"، وجاء الجواب: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ" : الله يحفظه ...

12- وذلك على معنى أن الحياة هي وجود النشاط الحسي والنفسي والعقلي. والوفاة هي خمود ذلك النشاط، إما بسبب الموت (على سبيل الحقيقة) وإما عند النوم (على سبيل المجاز). جاء في لسان العرب: "وأما توفي النائم فهو استيفاء وقت عقله وتمييزه إلى أن نامَ".

يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ[43]! قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[44]. وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[45]. قُلِ اللَّهُمَّ (يا الله)، فَاطِرَ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[46]. وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (أي لأعطوه يوم القيامة فداء للعذاب الذي يكونون فيه)؛ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ[47] (يظنون) : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[48] (من الوعيد). فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ (ابتلاء). وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[49]. قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[50]، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا؛ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ (قريش) سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا. وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (الله)[51]. أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يضيقه على من يشاء)؟! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[52].

6- حث على الإيمان ووعد ووعيد...

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (اقترفوا ذنوبا ولم يسلموا) لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا (إذا أسلمتم)، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[53]. وَأَنِيبُوا (ارجعوا) إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (اتركوا العناد وأخلصوا له) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ[54]، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ (القرآن) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ[55]! (افعلوا ذلك في الدنيا قبل) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ (يوم القيامة) يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ (وإني) كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ[56]، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ[57]، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً (رجعة إلى الدنيا) فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[58]! (جواب من يقول ذلك:) بَلَى! قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ[59]. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ: وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مقام) لِلْمُتَكَبِّرِينَ؟[60]. وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ (بفوزهم بالجنة) لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[61]. اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (متصرف)[62]. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[63]. قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ[64]! وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ (يا محمد) وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[65]. بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِين[66].

7- خاتمة: مشهد القيامة والجزاء...

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (ما عرفوا قدره وعظمته): وَالْأَرْضُ جَمِيعًا (تكون في) قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[67]. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (النفخة الأولى) فَصَعِقَ (مات) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ؛ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ (من قبورهم) يَنْظُرُونَ (ينتظرون ما سيفعل بهم)[68]. وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (أضيئت)، وَوُضِعَ الْكِتَابُ (الذي سجلت فيه الأعمال للحساب)، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ (من الملائكة: يشهدون أن الرسل بلغوا رسالات ربهم كما يشهدون على ما كان الناس يعملون)، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[69]. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ[70]، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا (جماعات)، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَى! وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ[71]. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا؛ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ[72]. وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، طِبْتُمْ! فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ[73]. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[74]. وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ (محيطين) مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ. وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[75].

– تعليق

تدور موضوعات هذه السورة حول محوري التوحيد والمعاد، وهما الركنان الأساسيان في العقيدة الإسلامية، وبهما ينفصل الإسلام انفصالا كليا عن وثنية العرب، التي تقوم على "الشرك" من جهة، وإنكار البعث والجزاء من جهة أخرى. والتركيز على هذين الركنين في الظروف التي نزلت فيها هذه السورة له مغزاه. فالرسول وهو محاصر في شعب أبي طالب بالجبل، أو في مكان آخر ووضعية أخرى، مطالب دوما

بتبليغ الرسالة. وقد نزلت آيات عديدة في السور السابقة تحثه على الثبات على العقيدة وعدم التنازل.

وكما رأينا فمنذ أن انتقل القرآن، من الاقتصار على الدعوة إلى التوحيد إلى شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام وبيان لامعقوليتها، وقريش تحاول بكل الوسائل حمل الرسول على ترك المس بالأصنام... وعندما فشلت في مساومته في هذا الموضوع عمدت إلى تعذيب المسلمين وضرب الحصار على القبائل القرشية لمنع تسرب الدعوة المحمدية، فكان البديل الذي قدمه القرآن هو "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (الحجر 214-216)" الشيء الذي يعني: سلوك سياسة اللين والتعاطف مع من أسلم من عشيرته وتجنب الاصطدام، مع من لم يسلموا وترتيب العلاقة معهم على أساس سلمي قوامه "إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ"، أي لا أتحمل معكم مسؤولية كفركم. وإذا كانت الروايات قد اقتصرت على ذكر رد فعل عمه أبي لهب، الذي سبق أن نزلت فيه سورة "المسد"، فإنها لا تذكر شيئا عن ردود فعل أخرى سوى أن كثيرا من خصوم الدعوة المحمدية كانوا حائرين لمعرفتهم بصدق وأمانة محمد بن عبد الله، وكان كثير من هؤلاء الحائرين يكشفون في خلواتهم عن اعتقادهم بأن محمدا صادق فيما يقول. وسينكشف بعد مدة قصيرة تأثير "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" في كل من بني هاشم وبني المطلب -وهم عشيرة النبي- في رد فعل قريش عندما قررت التخلص من محمد بن عبد الله بالاغتيال، الشيء الذي حرك التضامن معه داخل عشيرته، فانتقلت كلها معه -باستثناء أبي لهب- إلى شعب أبي طالب، مكان الحصار، لتحميه من أي مكروه ولتفهم قريشا أنها لن تبقى مكتوفة الأيدي إزاء أي عدوان على حياة محمد.

لقد استعدنا هذه المعطيات لنبرز الحقيقة التالية: وهي أن وضع النبي عليه السلام خلال مرحلة الحصار كان أقوى مما كان عليه الحال في المراحل السابقة. ففي المراحل السابقة كان النبي (ص) وحيدا يتحدى قريشا، ولم يكن يمنعه، من ذهاب قريش في اضطهاده إلى أكثر من الاستهزاء والإهانة الشخصية، سوى مكانة عمه أبي طالب في الوسط القرشي، ليس فقط لأنه كان عميد الهاشميين بل أيضا لأنه لم يفارق دين قريش، دين آبائه وأجداده، فدافع عن شخص محمد ابن أخيه من زاوية ما نعبر عنه اليوم بـ"حرية العقيدة". أما "أتباع محمد"، أي المسلمون فقد سلطت عليهم قريش طغيانها فعذبت حتى الموت المستضعفين منهم، ثم "وثبت" كل قبيلة من قبائل قريش على من فيها من المسلمين أو المتعاطفين معهم. وأمام تلك الحملة الشرسة فتح النبي عليه السلام باب الهجرة إلى الحبشة أمام أصحابه، فاستمرت نحو سنة ونصف لتشمل جميع المسلمين تقريبا مع ابتداء مرحلة الحصار.

وهكذا يبدو وضع النبي خلال مرحلة الحصار أخف وطأة مما كان عليه قبل. إنه الآن في شعب أبي طالب في أمان تحميه عشيرته، أما أصحابه فهم في الحبشة عند النجاشي في أمن وأمان عبرت عنهما زوج رسول اللّه (ص): أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وكانت من المهاجرات بقولها: "لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خيرَ جار، أمِنّا على ديننا، وعبدنا اللّهَ تعالى لا نُؤْذَى ولا نسمعُ شيئا نكرهه".

هذه الوضعية المريحة، قياسا على ما سبقها، هي التي تفسر لهجة هذه السورة التي كانت أول ما نزل بعد الحصار: لقد ركزت كما قلنا على الركنين الرئيسيين في العقيدة الإسلامية: التوحيد والمعاد، مع تحدي قريش أن تنفذ ما خوفته به من تسليط أذى الأصنام عليه. كما أسهبت في الدعوة إلى التوحيد باستعمال العقل، وفي وصف مشهد للقيامة والجزاء، هو بحق آية في البيان.



59- سورة غافر

- تقديــم

هذه السورة تعرف باسم "غافر" و"الطول" و"المؤمن"، يغالب عليها الاسم الأولى في المغرب العربي والثاني في المشرق، والثالث أقل استعمالا. وهي أول الحواميم السبعة (جمع: حم. وهي: حم/غافر، حم/فصلت، حم/الشورى، حم/الزخرف، حم/الدخان، حم/الجاثية، حم/الأحقاف). وتتميز هذه الحواميم -أو آل حميم- بكونها نزلت متتابعة، كما هي هنا، ورتبت متتابعة في المصحف كما في لوائح ترتيب النزول دون خلاف. وهذا التتابع -دون خلاف أو اختلاف الذي ليس له مثيل في ترتيب سور القرآن- دليل على أنها نزلت خلال الحصار وأن المرجع فيها واحد هو الرسول عليه السلام. وقد ورد في امتداحها عدة روايات منها أحاديث منسوبة إلى النبي عليه السلام فقد روي أنه قال: "الحواميم ديباج القرآن". وأن : "لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هنّ روضات حسان، مخصبات متجاورات. فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم". وفي حديث ثالث قال: "مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب". وعن أنس بن مالك قال: "سمعت رسول الله (ص) يقول: "إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف، الأنعام، التوبة/الأنفال) مكان التوراة، وأعطاني "الراءات" (جمع ألر: ا. ل. ر) (أربعة) إلى الطواسين (ثلاثة) مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصل (المفصل : القصيرة من السور، ما بين سورة "ق" وسورة الناس)، ما قرأهن نبـــي قبلي". وعن ابن عباس قال: "إن لكل شيء لباباً وإن لباب القرآن الحواميم". "الحواميم روضة من رياض الجنة" [1].

1- سبق أن أوردنا (في سورة الفاتحة: التعليق) جملة آراء تعترض على امتداح بعض القرآن دون بعض نقلا عن القرطبي نوجزها فيما يلي: قال: "اختلف العلماء في تفضيل بعض السُّوَر والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن=

يمكن لسائل أن يسأل: لماذا لا تعتبر سورة الزمر والحواميم هي"السبع المثاني"؟ فعلا، كنت أشرت إلى هذه الإمكانية في التعريف بالقرآن الكريم، وقد حملني على ذلك كونها نزلت في فترة الحصار. ولكن تبين لي فيما بعد أن هناك أمرين لا يشجعان على ذلك. أولهما أن قوله تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" ورد في سورة الحجر (آية 87) وهذه السورة نزلت قبل الزمر والحواميم، بينما "السبع المثاني" لا بد أن تكون قد نزلت قبل هذه الآية حتى يستقيم الكلام (وقد آتيناك...). أما الأمر الثاني فهو أنه لو كان المقصود بالمثاني هي الحواميم لورد ذكرها ضمن العبارات التي تنسب إلى النبي والتي تشيد بها (أعلاه)...

ومما لفت انتباه المفسرين المناسبة بين أول هذه السورة وآخر التي سبقتها "انتهت سورة الزمر بذكر ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن، لتأتي سورة غافر باستهلال يؤكد أن الله "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ"... "ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه". كما لاحظوا أن هناك أوجها للمناسبة بين سورة الزمر والحواميم السبعة منها "تآخي المطالع في الافتتاح بعبارة "تنزيل الكتاب"، ومجيئ الحواميم كلها متتابعة بعد الزمر.

وبقطع النظر عن مدى صحة هذه المرويات فإن تعددها وورودها من جهات مختلفة يدل في نظرنا على أن كثيرين قد لمحوا في الحواميم ميزة خاصة بها. ومع أنني أؤيد الرأي القائل إن القرآن كله واحد ولا ميزة لآية أو سورة منه على الباقي، فإني أرى أن الميزة الخاصة بهذه السور هي كونها نزلت في فترة الحصار: حصار قريش للنبي وعشيرته في شعب أبي طالب. ومع أننا أكدنا في التعليق الخاص بالسورة السابقة أن النبي عليه السلام بدخوله الحصار وهجرة أصحابه إلى الحبشة قد صار في وضعية أفضل من حيث الأمن والآمان على شخصه وعلى أصحابه، فإن المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي وأهله واستمرارها نحو ثلاث

حبان البُستي، وجماعة من الفقهاء. ورُوي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه". وعلى هذه الأقوال تكون الأحاديث السابقة من قبيل الترغيب في قراءة القرآن

سنوات قد خلقت وضعا لا يطاق، خصوصا وقد قطعت عنهم "الميرة" وطاردتهم في الأسواق...

- نص السورة

1- مقدمة: لا يغررك هيمنة قريش على البلاد.

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[2]. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (الإنعام الواسع)، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ[3]. مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ[4] (هيمنتهم على مكة وأسفارهم للتجارة وأنت في الحصار. ذلك هو الشأن مع الأقوام الذين كذبوا رسلهم فأمهلناهم إلى حين).

2- لقد همت كل أمة برسولهم ليقتلوه، أنت تعرف كيف كان العقاب!

أ- مثال نوح! فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ!

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَالْأَحْزَابُ (أقوام وأمم) مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (ليقتلوه كما همت قريش على فعل ذلك فانتقل النبي وأهله إلى شعب أبي طالب)، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ[5]؟! (أنت تعرف ذلك). وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (كفار قريش) أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ[6]. (الملائكة) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (قائلين): رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[7]. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[8]. وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[9] (2). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

2- يحتمل أن يكون المقصود بهؤلاء المؤمنين الذين تدعو الملائكة لهم ولمن "صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" بالجنة وأن يقيهم الله السيئات، هم المهاجرين إلى الحبشة، فقد هاجر جلهم ومعهم زوجاتهم وأبناؤهم، وهم معرضون في بلاد الهجرة إلى كل احتمال، ولذلك

يُنَادَوْنَ (يقال لهم) لَمَقْتُ اللَّهِ (لكم في الدنيا وأنتم تكفرون) -أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ (يوم القيامة بسبب العذاب الذي حل بكم)- إِذْ (كنتم في الدنيا) تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ[10]. قَالُوا (أجابوا معترفين بالبعث) رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ (جعلتنا عدمًا مرتين: مرة قبل خلقك لنا ومرة بعد توفيك لنا) وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (عندما خلقتنا أول مرة، وعندما بعثتنا من قبورنا) فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا! فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ[11] (إلى العودة إلى الدنيا لنعمل صالحا؟ الجواب:)، ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا(3)، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ[12]. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ[13]. فَادْعُوا اللَّهَ (يا محمد وأصحابك) مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[14]: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ (يُنزّل الوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ[15] (يوم القيامة). يَوْمَ هُمْ (يعني الذين جاءتهم نذر الله) بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ! لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[16]. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[17]. وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ (القيامة) إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ (ممتلئات غما): مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ[18]. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (ما تسرق من نظر) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ[19]. وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[20]. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ[21]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ. إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ[22]. (من ذلك : موسى...)

ب- وَقَالَ فِرْعَوْنُ (=أبو جهل): ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى (محمدا) وَلْيَدْعُ رَبَّهُ!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ[23] إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ (وزيره) وَقَارُونَ (صاحب الخزينة)، فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ[24]. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ (استبقوهن

كان الطلب لهم بأن يقيهم السيئات. والجدير بالإشارة أن هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي يذكر فيه القرآن هذا الدعاء "وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ".

3 – لم يكن العرب ينكرون وجود الله بل كانوا يؤمنون به وبوسطاء إليه هم الأصنام.

للخدمة)، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[25]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ [(4)]، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ[26]. وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ[27].

ج- رجل مؤمن من آل فرعون : أتقتلون رجلا لأنه يقول ربي الله؟

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا (بسبب) أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ [(5)] وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ! وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ[28]. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ (أسيادا) فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى (الرأي هو رأيي)، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ[29]. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ[30] (الأقوام الذين تحزبوا ضد الرسل) : مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ[31]. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي[32] (القيامة)، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (ينادي بعضكم بعضا)، مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ! وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[33]. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ (قبل موسى) بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ[34]. الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبُرَ (ذلك) مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[35]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ[36]، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ (ما يوصلني إليها) فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا! وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ؛ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (خسارة)[37]. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ: يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ[38]. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ

4- هذه هي المرة الأولى التي يقول فيها فرعون في القصص القرآني "ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى". فرعون هنا رمز لأبي جهل، وكان قد طالب باغتيال النبي (ص) قبل الحصار.

5- روي أن أبا بكر قرأ آية "أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" (غافر: 28) حين آذى نفر من قريش رسول الله (ص) حول الكعبة، وأن ذلك كان خلال الحملة التي شنتها قريش على النبي وصحبه، وقد ذكرنا ذلك قبل. لكن السياق يشكك في هذه الرواية لأن القائل "رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه"، فالمماثلة بينه وبين أبي بكر غير مستقيمة. وبالتالي فالراجح أي يكون أحد غير المسلمين من القرشيين المتعاطفين مع النبي هو المقصود.

الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ[39]. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ[40]. وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ[41]! تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ[42]. لَا جَرَمَ أَنَّمَا (أن ما) تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ (الشريك مع الله) لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ[43]. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[44]. فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ[45]. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا؛ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ (يقال لهم) أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ[46].

د- حوار في جهنم بين الضعفاء والذين استكبروا...

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ (الكفار) فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ[47]. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا! إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ[48]. وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ[49]. قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا بَلَى! قَالُوا فَادْعُوا! وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[50]. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ[51]، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[52].

3- اصبر. إن وعد الله حق. الذين كفروا اليوم كالذين كفروا بالأمس.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ[53]، هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ[54]. فَاصْبِرْ (على الحصار)، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ[55]. إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ؛ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[56]. لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (من جديد يوم البعث)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[57]. وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ، قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ[58]. إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[59]. وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[60] (صاغرين). اللَّهُ

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[61]. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ[62] (تهربون من حججه عليكم). كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[63]: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[64]. هُوَ الْحَيُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[65].

4- نُهيت أن أعبد الذين تدعون...

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[66]. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا؛ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ؛ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى (أجلكم)، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[67]. هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ[68]. أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ[69]! الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[70] إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ، يُسْحَبُونَ[71] فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ[72] (يحرقون)؛ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ[73] مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ[74]. ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ[75]. ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ[76].

5- خاتمة: اصبر. ففي مصير المكذبين في الماضي عزاء...

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[77]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ[78]. اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[79]، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ[80]، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ، فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ

تُنكِرُونَ[81]؟ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[82]. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (فضلّوا معقداتهم على ما جاءت به الرسل) وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[83] (من البعث والحساب والعقاب). فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ[84]؛ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ[85].

– تعليق

تدور هذه السورة بمجملها حول وضعية الحصار فتوجه "عدة رسائل" – حسب التعبير المعاصر – إلى الجهات المعنية به:

– رسالة إلى سكان مكة وبالخصوص منهم الذين يكتمون إيمانهم ويتعاطفون مع الرسول وصحبه غير مقتنعين بما قام به أبو جهل وجماعته من الملأ من قريش من فرض الحصار على النبي وأهله بني هاشم وبني المطلب، فإلى هؤلاء تتوجه السورة: تطلب منهم الاستجابة الصريحة للدعوة والتخلي عن الذين يجادلون في آيات الله، فالله غافر الذنب قابل التوبة واسع الرحمة، أما الذين كفروا وجادلوا ويجادلون في آيات الله فمصيرهم العقاب الشديد.

– ورسالة إلى النبي عليه السلام تواسيه وتقوي عزيمته وتطلب منه أن لا يحزن أو يتألم، أو يغتر بكون هؤلاء الذين أصروا على التكذيب والعناد وتآمروا على اغتياله ويجادلون في آيات الله، ومع ذلك يمارسون حياتهم العادية متسلطين متكبرين فيقومون بأسفارهم للتجارة وغيرها، فتؤكد له أن مصير هؤلاء سيكون مثل مصير أمثالهم من الأقوام الماضية الذين فعلوا مثلهم: كذبوا رسلهم وتآمروا على قتلهم. وهنا تقدم شهادتين من التاريخ المقدس، إحداهما لها علاقة مع نوح والأخرى ترتبط بفرعون وملئه. والمثالان جديدان، بمعنى أنهما لم يسبق أن ذُكرا في إطار قصص الأنبياء، بل وردا في إطار مستقل بهما وأكثر ارتباطا بحادثة الحصار منهما بغيرها من الأحداث التي في قصص الأنبياء. والجامع بين المثالين هو قوله تعالى: "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ".

بالنسبة للمثال الأول تقتصر السورة على الإشارة إلى نوح ومن تحزبوا ضد رسلهم من بعده. وقصصهم معروضة في سور سابقة. فقد تعرض نوح للرفض الكامل عندما تعرض لأصنامهم، ولما أصر على مواصلة تسفيه عبادة الأصنام قرروا

إحراقه، فدعا عليهم فكان الطوفان الذي أغرقهم باستثناء نوح ومن كان معه، أما قومه الكفار الذين تآمروا ليقتلوه فقد حق عليهم الوعيد فهم "أصحاب النار". وهنا تستطرد السورة، لترسم مشهدا ليوم القيامة يمتزج فيه "الغائب" (المستقبل) بالحاضر: وهكذا فبينما يعاني الكفار في جهنم من العذاب الذي استحقوه، يتوجه الملائكة "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ" بالدعاء وطلب المغفرة "لِلَّذِينَ آمَنُوا" قائلين: "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[7]. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ. إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[8]. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"، والذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف يومذاك هم المهاجرون إلى الحبشة وهم جل المسلمين يومئذ- إن لم يكن كلهم. أما الَّذِينَ كَفَرُوا فيخاطبهم أولئك الملائكة قائلين: "لَمَقْتُ اللَّهِ (لكم في الدنيا) أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ" وأنتم في النار، لأنكم كنتم "تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ". هنا يعترف هؤلاء الكفار بكفرهم ويطلبون السماح لهم بالعودة إلى الدنيا ليحيوا حياة جديدة كلها توبة وإيمان! وترد عليهم الملائكة بالتذكير بخطاب الدعوة وبموقفهم العدائي الرافض وبأن مصيرهم هو نفس المصير المقرر للأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، "فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ. إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ".

أما المثال الثاني، ويتعلق بفرعون، فيورد عنصرا جديدا في قصة موسى مع فرعون لم يسبق ذكره في ما مضى من قصص، هذا العنصر أفصح عنه قوله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ". وواضح أن موقف فرعون هذا يذكرنا بفرعون قريش (أبو جهل)، الذي تحدث مرارا عن ضرورة التخلص من الرسول عليه السلام بالاغتيال بعد أن فشلت محاولاتهم الأخرى. وهنا يأتي الرد، على قرار فرعون قتل موسى، من "رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ" فيخاطب فرعون وملأه: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ! وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ". وواضح أن هذا الاحتجاج يستحضر وضعية الرسول عليه السلام، واعتزام قريش قتله، من حيث إنه لا ذنب لموسى ومحمد إلا أن قال كل منهما "ربي الله"... ويتحول احتجاج الرجل الذي يكتم إيمانه إلى عظة بليغة يذكرهم فيها بـ"دأب قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ"... قبل أن يتحول هذا "الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه" إلى رجل يدعو قومه إلى الله، فتتماهى دعوته مع الدعوة المحمدية، فصار يتكلم باسم النبي محمد عليه السلام قائلا: "يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ[41]! تَدْعُونَنِي

لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ[42]. لَا جَرَمَ أَنَّمَا (أن ما) تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ[43]. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ "[44]. بعد ذلك تستعيد السورة مؤمن آل فرعون بعد أن أنهى استطراده لتخبرنا بفشل مكر فرعون إزاءه : "فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ"[45].

بعد ذلك تتجه السورة بالخطاب إلى النبي عليه السلام توصيه بالصبر والثبات وتؤكد له أن وعد الله حق. وأن في مصير المكذبين في الماضي عزاء له.

60- سورة فصلت

- تقديم

لم يرد شيء يستحق الذكر حول هذه السورة. وهذا عام في الحواميم كلها تقريبا، وما ورد في بعضها من "أسباب نزول" لا يعدو أن يكون عبارة عن التماس وقائع وأحداث "تصلح" أن تعتبر "أسباب نزول، أي أدوات للشرح والإيضاح. والغالب ما يخلطون فيها بين المكي والمدني من النوازل. أما سبب قلة ما ورد بخصوص هذه السور فواضح: ذلك أنها نزلت في فترة الحصار الذي ضربته قريش على النبي (ص) وهجرة جل المسلمين إلى الحبشة، الشيء الذي كان لا بد أن ينعكس أثره على مجال العلاقة مع النبي (ص)، مجال السؤال والرواية عنه وتتبع تحركاته الخ.

- نص السورة

<u>1- مقدمة: كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا فأعرَض فأكثرُهم...</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ[2]: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (بُيِّنت) قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[3] (العربية)، بَشِيرًا وَنَذِيرًا. فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ[4]. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ (حجاب) مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ (ضعف)، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَاعْمَلْ (بدينك) إِنَّنَا عَامِلُونَ[5] (فنحن نعمل بديننا).

<u>2- أنذرتكم مثل صاعقة عاد وثمود...</u>

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ. وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ[6] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (لا ينفقون على الضعفاء)، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[7]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ





مَمْنُونٍ[8] (غير منقوص). قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ[9]. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ[10]. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ (لا نجوم فيها ولا ضوء) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[11]. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا (لها من استراق السمع)، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[12]. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[13] إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ. قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[14]. فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[15]. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا (باردة قوية) فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى، وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ[16]. وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[17]. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[18]. وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[19] (يساقون إليها)، حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[20]. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[21]. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ[22]. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ، أَرْدَاكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ[23]. فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا (يعتذروا) فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ[24]. وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ (شياطين) فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ[25].

3- قالوا: لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيه!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (شوشوا عليه) لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ[26]. فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[27]. ذَلِكَ، جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ : النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا

بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[28]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ[29]. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ (قائلين لهم): أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ[30]. نَحْنُ (الملائكة) أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ[31] (تتمنون). نُزُلًا (عطاء وثوابا) مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ[32].

4- وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[33]؟! وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (لا تقابل السيئة بالسيئة، بل تجاوزها إلى ما هو أحسن، وستكون النتيجة:)، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[34] (مناصر قريب). وَمَا يُلَقَّاهَا (لا يتحمل دفع السيئة بما هو أحسن) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[35]. وَإِمَّا (إنْ ما) يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إن يصرفك عن التي هي أحسن ويزين لك الانتقام مثلا)، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[36].

5- مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ...

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[37]. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (الملائكة) يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ[38]. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً (هادئة يابسة)، فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ (انتفخت كأنها حامل)، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[39]. إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا (يحرفونها) لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا. أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ، أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! (قل) اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[40]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ (القرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ (لا ينالون منه شيئا)، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ[41] (قوي محفوظ) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[42]. مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ[43]. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (بينت بالعربية)! أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟ (أقرآن

أعجميّ، ونبيّ عربي"؟) [1] قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ. وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ[44] [2]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ (بعضهم صدق، وبعضهم كذب)، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير الحساب إلى يوم القيامة) لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ[45].

6- خاتمة: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[46]. إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي (أصنامهم)؟ قَالُوا آذَنَّاكَ (أعلمناك) مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (على أن لك شريكا)[47]. وَضَلَّ عَنْهُمْ (غاب عنهم) مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (من أصنام) وَظَنُّوا (أيقنوا) مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (مهرب)[48]. لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ[49]. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى. فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[50]. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ[51] (يطلب من الله أن يرفعه عنه). قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ (ذلك الشر) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ[3] (بالله، فكيف تدعونه ليرفعه عنكم)! (ليس هناك) مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

1- قالوا: لولا أنزل القرآن بالعربية والأعجمية حتى يفهمه جميع الناس! (انظر التعليق).

2- قال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادي من مكان بعيد.

3- جميع المفسرين يعودون بالضمير في "كفرتم به" (الآية 52) إلى "الذكر"، بمعنى القرآن، في الآية رقم 41 ("إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ"...)، وبالتالي يجعلون معنى الآية أعلاه هكذا : قُلْ لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ الذكر (الذي كفرتم به) هو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ" الآية، وهذا تفسير ركيك العبارة، فضلا عند بعد المسافة بين الآيتين (41-52)، فالتفسير لا ينبغي له أن ينقل العبارة من قالبها اللغوي السليم إلى قالب ركيك فيه تكرار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالرجوع بالضمير في الآية 52 إلى "الذكر" في الآية 41، لا مسوغ له داخل السياق، فليس بين الآيتين ما يمكن اعتباره جملة اعتراضية أو استطرادا طارئا. لذلك نرى أن الأولى والأصح الرجوع بالضمير إلى أقرب مذكور -كما تقتضي القاعدة-=

هُوَ (مثلكم) فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ[52]؟ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (في رحابة الكون)، وَفِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (يتبين لهم كون الخير والشر من الله) [(4)]. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[53]؟! أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ (شك) مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ[54].

- تعليق

ميزنا في السورة التي نحن ضيوف عليها بين ست فقرات.

1- المقدمة وتتحدث عن إعراض قريش عن القرآن مع كونه قرآنا عربيا، ورفضهم الاستماع إليه وردهم على دعوة النبي (ص) بالتمسك بوثنيتهم.

2- وفي الفقرة الثانية تنبههم السورة إلى أن إعراضهم عن القرآن والتمسك بالأصنام معناه الكفر بالله الذي خلق السماوات والأرض وقدر أجزاءها، وليلها ونهارها، وأقوات الكائنات فيها... فالموقف خطير! ولذلك تحذرهم من أن ينالهم غضب من الله فتنزل عليهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود تفنيهم وتمحوهم من الوجود. وقد سبق أن قص القرآن حالهم وبين مصيرهم في سور سابقة، فاكتفت هذه السورة بالتذكير.

3- أما الفقرة الثالثة فقد خصصتها السورة لنوع آخر من ردود فعل قريش على القرآن، يتجاوز الإعراض والتكذيب إلى الدعوة إلى "اللغو" فيه بالتحريف والتشويش والتعييب الخ. وبعد أن تذكرهم السورة بالوعيد الذي ينتظرهم يوم

وهو "الشر" في "إذا مسه الشر". وبذلك يستقيم معنى الآية مع سياقها، والمعنى: عندما ينعم الله على الإنسان بالمطر مثلا يتبختر ويبطر ولا يفكر في الله الذي أنعم به عليه، أما عندما يصاب بضر فهو حينئذ يتذكر الله ويدعوه بكل وسعه أن يرفعه عنه. وهنا يأتي السؤال: أريتم إن كان هذا الضر الذي نزل بكم هو من الله الذي تدعونه، وأنتم به كافرون جاحدون لنعمه! فكيف يستقيم موقفكم؟ وهل هناك أضل منكم، بابتعادكم عن الله وانشقاقكم عن سبيله، وفي الوقت نفسه تتوجهون إليه بالدعاء ليرفع الضر عنكم!

4 - اختلف المفسرون حول المقصود بالحق هنا على أربعة أقوال: "أحدها أنه القرآن. والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه. والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع أن محمداً (ص) هو الرسول الحق. وواضح أن هذا الاختلاف والاضطراب ناتجان عن عودتهم بالضمير في "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" إلى غير محله. ونحن نرى أن المقصود بالحق هنا هو ما جعلنا ذلك الضمير يعود إليه، وهو كون السراء والضراء من الله. وما تبقى من السورة يعضد هذا المعنى، أعني قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟! أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ (شك) مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ".

الحساب، والوعد الذي خص الله به الذين آمنوا و"استقاموا"، ترد على قريش: لماذا اللغو في القرآن؟ وهل هناك قول أحسن من الذي جاء به النبي محمد عليه السلام: يدعو إلى الله والعمل الصالح ويعلن انتماءه إلى دين الإسلام والسلام: الإسلام إلى الله بالخضوع له وحده، والسلام مع الناس ببناء العلاقات معهم على السلم والأمان.

4- وهنا تأتي الفقرة الرابعة لتقرر قاعدة أخلاقية تنطوي على استراتيجية للسلام فريدة، تقوم على أربعة أركان:

أ) "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! فالقول الحسن الذي جاء به محمد (ص) والذي يدعو إلى الإيمان بإله واحد والعمل الصالح، لا يمكن أن يساويه ما تدعون إليه من اللغو فيه والتشويش عليه. وهكذا في كل شيء: فما هو حسن لا يعادله السيئ، سواء تعلق الأمر بالأقوال أو بالأفعال.

ب) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[34]. لا تقابل السيئة بالسيئة، بل تجاوزها إلى ما هو أحسن، وستكون النتيجة أن الذي أساء إليك سيشعر بالصغار أمامك وسيتحول بغضه لك إلى تقدير ومودة...

ج) وَمَا يُلَقَّاهَا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[35]. لكن هذا السمو بالأخلاق والتعالي على الإساءة ليس بالأمر الهيِّن على النفس، ولذلك كان لا بد من تعويد النفس على الصبر وتحمل أخطاء الآخرين وإساءاتهم المقصودة وغير المقصودة.

د) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[36]. وإذا حدث أن صعب حمل النفس على الصبر في مثل هذه المواقف بتأثير الشيطان (أو النفس الغضبية واستيقاظ حمية الجاهلية) وشعرت بالميل إلى الانتقام فغلب العقل واستعذ بالله، وعُد إلى رشدك.

5- وتأتي الفقرة الخامسة لتطبق هذه الإستراتيجية السلمية على أسلوب الدعوة إلى الله وذلك ببنائها على الحجة والإقناع مثل التنبيه إلى أن الأولى بأن يُعبَد، ليس الشمس والقمر أو غيرهما من الكواكب كما يفعل العرب وغيرهم، بل الأولى بالعبادة هو الله الذي خلق هذه الكواكب، مثلما يفعل الملائكة فهم لا يسجدون لا للشمس ولا للقمر بل يسبحون لله وحده.

ويمثل هذه الإستراتيجية السلمية ينبغي إقناع الناس بالبعث. فإذا كانوا يستغربون بل يستهزئون من القول بالبعث بعد الموت فيجب لفت انتباههم إلى أن الأرض الميتة تنقلب حية مخضرة بالنبات عندما يرسل الله إليها المطر. فكذلك إحياء الموتى. أما الذين لا يعترفون بمثل هذه الحجج فالله يعرفهم وجزاؤهم يوم القيامة. أما القرآن الذي يدعون إلى اللغو فيه فهو محفوظ لا يتطرق إليه الباطل.

وتخاطب السورة الرسول عليه السلام لتؤكد له أن: "مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ"! فالذين يكذبون القرآن اليوم ويريدون اللغو فيه هم كالذين فعلوا ذلك بالأمس مع رسلهم. يقول مشركو قريش: لماذا لم يأت هذا القرآن باللغة التي جاءت بها الكتب القديمة -كالتوراة- حتى يفهمه الناس جميعا ويخاطب العرب وغيرهم؟ ويأتي الرد: لو جاءكم أعجميا لطالبتم به عربيا! ثم كيف يأتيكم أعجميا والنبي الذي كلف بتبليغه لكم عربي منكم. وستؤكد هذا المعنى آية أخرى هي قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (إبراهيم.4). ويخبرهم القرآن: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ (بسبب اختلاف لغته عن بعض لغات اليهود الموزعين في الأرض). فهل تريدون أن يكون كتابكم موضوع اختلاف بسبب اللغة مثلما حدث لكتاب موسى[5].

وتختم السورة بتقرير مبدأ أساسي في العقيدة الإسلامية وهو المسؤولية الفردية : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا"، وأن الحساب سيأتي يوم القيامة ولابد. ثم تشير مرة أخرى إلى طبع متأصل في الإنسان، ويخص قريشا بصفة خاصة، وقد عبرت عنه السورة بقوله تعالى: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ". قلنا إن هذا الطبع متأصل في قريش خاصة لأن موارد حياتهم خاضعة للتقلب : فأرضهم صحراء معرَّضة لتعاقب الخصوبة والجفاف. وكذلك تجارتهم معرضة للربح والخسارة. وهذه الثنائية انعكست على تدينهم: هم يعرفون الله ويعترفون به كخالق للكون، ولكنهم يعبدون الأصنام كوسطاء إليه ويعتقدون في التنجيم والكهانة الخ. وهكذا فإذا ضاق بهم الحال بسبب جفاف أو خسارة في تجارتهم لجأوا إلى الله يدعون أن يرفع عنهم الضيق والضرر، أما إذا جاء المطر واخضرت الأرض وتوفر الكلأ لمواشيهم وربحت تجارتهم فهم يبطرون وينسبون ذلك إلى أصنامهم وصدق كهانهم ومنجميهم.

5- هناك اختلاف بين الباحثين حول اللغة التي كتب بها موسى التوراة "بوحي من الله" هل هي العبرية أم غيرها؟ ومما يثار في هذا الصدد أن بني إسرائيل بقوا في مصر، منذ أن جاؤوها مع يوسف إلى أن خرج بهم موسى في اتجاه فلسطين، نحو أربعمائة سنة، كانوا يتعاملون خلالها مع محيطهم داخل مصر وخارجها. الشيء الذي جعل بعض الباحثين يقولون إن التوراة كتبت أولا باللغة المصرية القديمة الهيروغليفية...

61- سورة الشورى

- تقديم

لم يرد حول هذه السورة ما يستحق الذكر. وما ذكره بعضهم بصدد آيات منها يشير إلى نوازل حصلت في المدينة، وهذه السورة، هي والحواميم الأخرى مكية باتفاق. على أن هناك ما يشبه أن يكون تحديدا لتاريخ نزول هذه السورة: ذكر مقاتل بن سليمان أنه بناء على ما فيها من إشارة إلى سني الجفاف الذي أصاب قريشا، تكون قد نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة. وهذا قريب من الصواب لكون الحواميم نزلت كلها بين السابعة والعاشرة للنبوة.

- نص السورة

1- مقدمة: الله يوحي إليك وإلى الذين من قبلك...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. عسق[2]. كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (1) اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[3]. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ[4]. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ (تنشققن) مِنْ فَوْقِهِنَّ (من جهة الأعلى)(2)، وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ! أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[5].

2- ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ...

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (أصناما أو شركاء)، اللَّهُ حَفِيظٌ (رقيب) عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[6]. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى

1- "يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله" (الزمخشري).

2- قال الزمخشري: "يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته ...

(مكة: كبيرة القرى) وَمَنْ حَوْلَهَا [(3)]، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ (يوم القيامة) لَا رَيْبَ فِيهِ، (حيث يتفرق الناس) فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[7]. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (إما في الجنة جميعا وإما في النار)، وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (أي الذين يستحقونها، وهم الذين يعبدونه وحده)، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[8] (وبالتالي فمصيرهم جهنم). أَمْ (بل) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (لهم)، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ، وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[9]. وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (مع الكفار، فقل:) حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[10]. فَاطِرُ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (كنوع : الإنسان) أَزْوَاجًا، وَمِنَ الْأَنْعَامِ (كنوع يجمع الأبل والبقر والضأن والمعز) أَزْوَاجًا، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (يكثركم في النوع، نسلا بعد نسل). لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، (يُكَوِّنُ معه زوجا أو نوعا، بل هو واحد لا متكثر). وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[11] [(4)]، لَهُ مَقَالِيدُ (مفاتيح)

3- قال الرازي في تفسير هذه الآية: "ومن حولها" من أهل البدو والحضر وأهل المدر. فإن قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحي إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولا إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين، فالجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولا إلى هؤلاء خاصة، وقوله "وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ" (سبأ: 28) يدل على كونه رسولا إلى كل العالمين، وأيضاً لما ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقا، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعي أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين. قلت (الجابري): وفي رأينا أن الجديد الذي ورد في هذه السورة هو ذكر "من حولها" أي من حول مكة من أهل الحضر والبدو. وعبارة "من حولها" لم تذكر من قبل، وإنما ذكرت في هذه السورة بعد أن بدأ الرسول يدعو القبائل في المواسم والأسواق. أما تخصيص مكة ومن حولها أي العرب فلا يستقيم مع السياق، خصوصا مع قوله مباشرة : "وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ"، يوم القيامة، وهو يوم حساب جميع الناس، ولم يرد ما يخصصه بالعرب، فضلا عن أن تخصيصه بهم لا يعقل.

4 - دارت حول هذه الآية خصومات مذهبية لا حد لها بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم. فالمعتزلة فهموا من قوله "ليس كمثله شيء" أنه لا يشبه الكائنات في كونها تتألف من ذوات وصفات، ولذلك نفوا عنه الصفات، وجعلوها عين الذات. أما خصومهم –وقد سموا "الصفاتية"– فقد أثبتوا له الصفات لأن الذات بدون صفات هي عندهم عدم، قياسا على الشاهد. فإذا نزعنا من التفاحة مثلا حجمها وشكلها ولونها ورائحتها الخ، فما يبقى منها؟ وقد احتجوا بقولهم إن الآية نفسها تثبت الصفات عندما تصفه بـ"السميع البصير". ونحن نعتقد أن الذي أدى إلى هذا الفهم، المعتزلي والأشعري معا، هو تفكيرهم= في الآية المعنية بدون اعتبار سياقها. فالسياق هنا هو كون المخلوقات الحية خلقها الله أزواجا، تتناسل، والد وولد... والآية "ليس كمثله شيء" : تنفي عنه هذه الزوجية التي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (ويمسكه عمن يشاء)، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[12].

3- شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا.... والمودة في القربى

شَرَعَ (سَنَّ) لَكُمْ مِنَ الدِّينِ (عقيدة التوحيد) مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ (اعتقدوه وطبقوه) وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، (من التوحيد وترك عبادة الأصنام). اللَّهُ يَجْتَبِي (يختار) إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ[13] (إليه ويرجع). وَمَا تَفَرَّقُوا (أقوام أولئك الأنبياء في العقيدة)، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ (تفرقوا بسبب بغيهم بعضهم على بعض لحزازات ولاختلاف مصالح)، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ (إرادة وقرار) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير القيامة والحساب) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (وهم في هذه الدنيا). وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ (من بعد أولئك الأنبياء، وهم قريش) (5) لَفِي شَكٍّ مِنْهُ (من القرآن) مُرِيبٍ[14] (يبعث على القلق والكره). فَلِذَلِكَ (إلى القرآن) فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ. وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (عليَّ) مِنْ كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ (يا قريش الذين تعيشون في حالة شقاق)، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (ما دمتم في شك منه مريب)، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ[15]. وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ (الفريق من قريش الذين يحاربون الدعوة المحمدية) مِنْ بَعْدِ

تقتضي أن يكون له شريك، وأن يكون والدا، أو ولدا. وأما قوله "وهو السميع البصير:" فهو كقوله "له مقاليد السماوات والأرض" الخ ... جملة مستقلة.

5 – جل المفسرين على أن الضمير في : "من بعدهم" يعود على اليهود، وهذا في نظرنا لا يستقيم لا مع الظرف ولا مع السياق. فمن جهة، السورة مكية وقد نزلت والنبي عليه السلام في حالة حصار، ولم يكن هناك في مكة وفي هذه الظروف بالذات جدل بينه وبين اليهود، ولم يحدث ذلك إلا بعد الهجرة إلى المدينة. ومن جهة أخرى فقوله "وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ" لا يستقيم صرفه إلى اليهود، والنبي في مكة لا علاقة له بيهود المدينة إلا إذا فرضنا أنهم بعثوا إليه من المدينة يتحاكمون لديه في أمر من أمورهم، وهذا لا يزكيه السياق هنا! فالآيات التي تلي هذه لا تحتمل تأويلا مثل هذا، وهي قوله "لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا". وعليه فالضمير في قوله: "وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ" لابد أن يعود على قريش. وإذا نحن استحضرنا أن قريشا كانت منقسمة يومئذ : بعضهم أقام الحصار على النبي وأهله، وبعضهم لم يعجبه ذلك ولم يوافق عليه، الشيء الذي سيعجل بفك الحصار كما سنرى، وجب أن نفهم من قولنا "قريش" في هذا المقام : الفريقين معا، وهما المعنيان بالآيات أعلاه. وسيتأكد هذا في الآيات التالية لها.

مَا اسْتُجِيبَ لَهُ (استجاب للإسلام أناس من أهل مكة وجلهم مهاجرون في الحبشة)، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ (ساقطة) عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ"[16]. اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ"[17] (قيامها). يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ. أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ (يشكون) فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ[18]. اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ[19]. مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ (العمل من أجلها) نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ[20]. أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ (آلهة) شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ (لولا أننا قضينا بأن الفصل يكون يوم القيامة) لَقُضِيَ (الحكم) بَيْنَهُمْ (هنا في الدنيا)، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[21]. تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (نازل بهم). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ[22]، ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ (به) عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

4- وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ...

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على الإنذار الذي أقوم به) أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى[(6)]، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ"[23]. أَمْ

---

6 – اختلف المفسرون في تفسير المقصود من "المودة في القربى" في هذه الآية. عن ابن عباس قال معناها: "إلا أن تودّوني في قرابتي منكم؛ أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني" (القرطبي). ومنهم من جعل المعنى هكذا : "لا أسألكم أجرا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي؛ أو : لا أسألكم أجرا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم" (الزمخشري). وعلى هذا القول الأخير تكلموا كثيرا في موضوع "المودة لقرابة النبي" ورويت أحاديث فيها، من ذلك أن الرسول سئل في إطار هذه الآية: "يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما»، كما رووا حديثا ورد فيه أن علي بن أبي طالب قال: "شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا». كما يذكرون حديثا ورد فيه: "حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي. ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة"... انظر مزيدا من مثل هذه الأقوال في (الزمخشري). أما نحن فنرى أن معنى الآية يجب أن يفهم في إطار الظروف التي نزلت= فيها. لقد كان الرسول وأهله وأقاربه محاصرين في شعب أبي طالب وقد ضيقت قريش الخناق عليهم، وإذن فطلب الرسول إلى خصوم الدعوة من مشركي قريش أن يراعوا "المودة

يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ (لو كان الأمر كذلك) وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[24]. وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[25]. وَيَسْتَجِيبُ (يجيب دعاء) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ"[26]. وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ"[27]. وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ (7)، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ[28]. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ"[29]. وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ[30]. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[31]. وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي (السفن) فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[32] (كالجبال) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (البحر)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[33]، أَوْ يُوبِقْهُنَّ (يغرق تلك السفن) بِمَا كَسَبُوا (ما اقترفوا، وإن يشأ يُنجِ تلك السفن) وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ[34]؛ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ[35] (ملجأ: إذا عصفت الرياح بالسفن، أو توقفت وركدت السفن).

5- أخلاق... الشورى

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (من أموال بالتجارة عبر الأراضي والبحار الخ) فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[36]، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ[37]، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[38]،

في القربى" في تعاملهم معه. روي عن ابن عباس قوله: "قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْرا إلاَ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى": يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، قال لقريش: «لا أسألكم من أموالكم شيئا، ولكن أسألكم أن لا تؤذوني لقرابة ما بيني وبينكم، فإنكم قومي وأحق من أطاعني وأجابني». وهذا المعنى ينسجم مع وضعية الحصار الذي وضع فيه النبي وأهله. والملاحظ أن لفظ "القربى" قد جاء مقرونا باليتامى والمساكين وابن السبيل الخ، سواء في القرآن المكي أو المدني. ولم يرد هذا اللفظ قط في القرآن غير مقرون باليتامى والمساكين الخ إلا في هذه الآية. وإذن فما ذكروا من أخبار حول مكانة قرابة الرسول عليه السلام -أسرته- لا مكان لها هنا كتفسير أو تعليق على الآية التي نحن بصددها.

7- قالوا ذلك إشارة إلى سنوات من الجفاف أصابت قريشا حتى قنطوا وطلبوا من النبي أن يدعو ربه فيسقيهم...

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ (بأن قتل منهم أحد زمن الفتنة مثلا) هُمْ يَنْتَصِرُونَ[39] (يأخذون حقهم بالقصاص على أساس :) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (وهو المرغوب فيه) فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[40]. وَلَمَنِ انْتَصَرَ (أخذ حقه) بَعْدَ ظُلْمِهِ (بعد أن اعتدي عليه) فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ[41] (لا مؤاخذة عليهم)؛ إِنَّمَا السَّبِيلُ (المؤاخذة والعقاب) عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[42]، وَلَمَنْ صَبَرَ (على حقه) وَغَفَرَ (للمعتدي وعزم على العفو)، إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[43]، (من الأمور المستحسنة).

6- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ...

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ (يوم القيامة) يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ (رجوع إلى الدنيا) مِنْ سَبِيلٍ[44] وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا (على النار) خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ؛ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ: (هم) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ[45] (مقيم فيهم لا يفارقهم) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ[46]. اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ[47] (يستنكر ما أنتم فيه ويطلب تغييره). فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ. وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً (مطرا) فَرِحَ بِهَا، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ[48]. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ[49]، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[50] (8).

7- خاتمة: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ!

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ[51]. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا (جبريل) مِنْ أَمْرِنَا؛ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ! وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ (القرآن)

---

8 – الظاهر أن وجه الصلة بين الآيتين 49-50 الخاصتين بالإناث والذكور هو الآية 48 : فلما كان العرب يتشاءمون من البنت إذا ولدلت لهم ويعتبرون ميلاد الذكر حدثا سعيدا فقد وقع ربط الآيات الثلاث بعضها ببعض من حيث أن الجفاف والغيث والبنين والبنات والعقم ... كل ذلك من عند الله.

نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ (يا محمد) لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[52]. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ[53].

– تعليق واستطراد

أولا: فقرات السورة

تتألف السورة من سبع فقرات، حسب توزيعنا. تتناول أركان العقيدة الثلاثة: التوحيد، المعاد، النبوة، مضيفة ركنا آخر بدأ التركيز عليه منذ سورة الأعراف وهو الأخلاق. (الأعراف، الفرقان، الأنعام، لقمان، وفصلت).

1– تبدأ السورة بمقدمة تعلن فيها، كما في أخواتها الحواميم، أن هذا الكتاب الذي يوحى به إلى الرسول محمد (ص) كما أوحي إلى الرسل من قبله: هو من عند إله علي عظيم، هو في السماء العليا، تكاد السماوات يتشققن لعلوه، بينما تنقطع الملائكة إلى تسبيحه وتعظيمه والاستغفار لمن في الأرض.

2– تليها الفقرة الثانية، وفيها تشرح السورة حال مَن في الأرض بعد أن أشارت إلى حال من في السماء: وهكذا ففي مقابل الملائكة المسبحين لله وحده والمستغفرين لمن في الأرض نجد من بين هؤلاء (الذين في الأرض) من يتخذ مع الله شركاء. وهذا الفريق من الناس هم تحت مراقبة الله الدائمة. أما أنت يا محمد فلست موكلا بهم. أنت مهمتك هي أن تبلغ القرآن الذي أنزلنا إليك بلغة القوم الذين كلفناك بإنذارهم –وهم أهل مكة ومن حولها– وتفهيمهم أن بعد هذه الحياة بعث يجتمع فيه سائر المخلوقين ليحاسبوا، منهم من يكون مصيره الجنة ومنهم من يلقى به في النار. لقد اتخذوا من دون الله أولياء فأبلغهم أن الله هو الولي وأنه يحي الموتى، فإذا اختلفتم في شيء فحكمه إلى الله، خالق السماوات والأرض كما خلق الكائنات الحية بما فيها الإنسان؛ ولضمان استمرار هذه الكائنات إلى أجل مسمى جعلها، وأنتم منها، أزواجا تتناسلون، يبسط الرزق لمن يشاء ويضيق على من يشاء!

3– وهذا الدين الذي شرع لكم هو نفسه ما وصى به الأنبياء السابقين فخذوه جميعا ولا تتفرقوا فيه كما تفرق من كانوا قبلكم، بسبب مصالح وحزازات. فإلى هذا الدين ادع يا محمد سالكا الصراط المستقيم. أما الذين يعارضونك بعد أن بدأ هذا الدين ينتشر فحججهم ساقطة ولن ينجحوا، وسينالون جزاءهم يوم "" للظالمين جهنم وللمؤمنين الجنة. ومن يأت بحسنة نزده منها.

4- أما أنت فقل لهم: إني لا أطلب منكم أجرا ولكن أطلب فقط أن تراعوا القربى التي تجمعني بكم وما تقتضيه من المودة. وذكرهم بأن الله يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات. فليبادر المترددون إلى إعلان إسلامهم قبل فوات الآوان، فكما أن الله يأتي بالمطر بعد القحط وينقذ السفن من الغرق، فهو غفور رحيم يعفو عن كثير.

5- ومن هنا الفقرة الخامسة التي تقرر قواعد أخلاقية تشيد بخصال وفضائل تتكامل مع ما سبق في سورتي الأنعام ولقمان، وهي تخص هذه المرة خصال المؤمنين وهي: الزهد في متاع الدنيا، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، وعدم المؤاخذة فيما يغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والتشاور في الأمور، وأخذ الحق للقتيل على أساس "جزاء سيئة سيئة مثلها"، والعفو والصلح أفضل، وتجنب الظلم والبغي، والصبر والمغفرة أفضل من الأخذ بالثأر. إن على الرسول أن يدعو إلى التحلي بهذه الخصال. وإذا أعرض عنها المكذبون فعليه أن لا ينزعج، لأن الله لم يرسله عليهم حفيظا رقيبا. إِنْ عَلَيْهَ إِلَّا الْبَلَاغُ، وأما جزاؤهم فعند الله.

6- وكما جرت العادة تختم السورة باستعادة موضوع المقدمة، فتبين الكيفية التي يوحى بها الله إلى أنبيائه. يقول تعالى: "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ". والمعنى: ليس لأحد من البشر "أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاّ" على ثلاثة أوجه: 1) إما على طريق الوحي وهو الإلــهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ... 2) وإما على أن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجسام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، لأنه في ذاته غير مرئي. وقولــه: "مِن وَرَآءِ حِجَابٍ"، أي كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. 3) وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى" (الزمخشري). أما ما عدا هذه الطرق الثلاثة، مثل التنجيم والكهنة وادعاء النبوة وما أشبه فكلها كذب. وأما أنت، يا محمد، فقد أوحينا ونوحي إليك بواسطة جبريل، منه عرفت ما الإيمان وما الكتاب، وبهما تهدي إلى الصراط المستقيم.

ثانيا استطراد: مسألة الرؤية والكلام وخلق القرآن

هذا وقد اتخذ المتكلمون هذه الآية (الآية 51، الفقرة الأخيرة) مرجعا لوجهات نظرهم، كل من زاوية مذهبه، خصوصا في مسألتين من أهم مسائلهم :

"مسألة الروية" (إمكانية رؤية الله يوم القيامة) و"مسألة كلام الله". وقد عرض الرازي في تفسيره لهاتين المسألتين رأي المعتزلة ورأي الأشاعرة نورد هاهنا ما قاله بشأنهما، ثم نعقب بما نراه صوابا. قال: "قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يُرى (يوم القيامة)، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد، فحينئذٍ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ" إلا على هذه الأوجه الثلاثة"! يرد الرازي على رأي المعتزلة -هذا- من موقعه كأشعري يقول برؤية الله يوم القيامة فيقول: "تزيد في اللفظ قيداً فيكون التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله "في الدنيا" إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وحينئذٍ لا يلزم ما ذكرتموه." ويضيف: "وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة"!

هنا لا مفر من القول إن الرازي يقترح الزيادة في لفظ القرآن حتى يصير الحق إلى ما عليه مذهبه. وهذه الزيادة غير جائزة وغير مستقيمة لأن المسألة برمتها مبنية على قوله تعالى :"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" (القيامة 22-23)، وقد سبق أن عرضنا لهذه المسألة وبينا كيف أن التقابل في السياق بين "ناضرة" و"ناظرة" يفيد بأن المطروح ليس مسألة الروية (انظر تفسيرنا للآية وما قلناه في التعليق : سورة القيامة رقم 30 القسم الأول من هذا الكتاب).

وأثار الرازي مسألة كلامية أخرى تخص "كلام الله" فقال: "أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم. ومن سوى الأشعري وأتباعه، أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة (التي هي القرآن). وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات. أما الفريق الأول: وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان أحدهما: الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يذكروا في زمرة العقلاء" (كذا!)، وأضاف: "واتفق أنّي قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي؟ والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم (نظم القرآن) المركب على هذا التعاقب والتوالي، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى، والثاني: باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة. ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال: الواجب علينا أن نقر ونمر، يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه. فتعجبت من سلامة

قلب ذلك القائل. وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات (حروف وأصوات القرآن) كائنة بعد أن لم تكن حاصلة، بعد أن كانت معدومة. ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة، أو لا يقال ذلك، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى" واختلفوا أيضاً في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر، فالأول: هو قول الكرامية والثاني: قول المعتزلة. وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن..." هو أن الملَك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب، قالوا وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز، فأيُّ بُعْدٍ في أن يُسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة (التي كلم الله موسى عندها) وهذا القول قريب من قول المعتزلة.

ويضيف الرازي: " قال القاضي[9] هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه الأول: أن قوله تعالى: "أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ" يدل عليه، لأن كلمة "أن" مع المضارع تفيد الاستقبال. الثاني: أنه وصف الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه. الثالث: أن قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ" يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه الملَك إلى الرسول البشري مثل الكلام الذي سمعه من الله، والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث، ومثل الحادث حادث، وجب أن يقال إن الكلام الذي سمعه من الله حادث. الرابع: أن قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ" يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً". ويرد الرازي على كلام القاضي بما يلي: "أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها (=للبرهنة على حدوث كلام الله) إلى الحروف والأصوات (=بدل صرفها إلى كلام الله جملة كما فعلتم)، ونعترف بأنها (الحروف والأصوات) حادثة كائنة بعد أن لم تكن. وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك، فأي حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي عُلمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن"؟

ومما يتصل بمسألة قدم أو حدوث "كلام الله"، مسألة "خلق القرآن" وهي في الحقيقة الموضوع الذي يدور عليه ما هو مسكوت عنه هنا. لقد شرحنا بتفصيل

9- ربما يعني القاضي عبد الجبار أحد كبار المعتزلة المتأخرين الذي جمع المذهب في المغني، وفي الأصول الخمسة...

"مسألة خلق القرآن" وخلفياتها السياسية في كتابنا "المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد"، فليجع عليه. أما هنا فسنقتصر على إجمال الخلاف بين المتكلمين حولها من زاوية "العقيدة"، فنقول:

افترقت آراء المتكلمين وتنوعت في هذه المسألة التي كانت القضية المركزية المحورية في مناقشاتهم ومجادلاتهم في العصر العباسي الأول، إلى درجة أن "علم الكلام" نفسه إنما سمي بهذا الاسم، في رأي بعض مؤرخي الفرق الكلامية في الإسلام، "لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام" (10)، كلام الله.

والقضية من الناحية العقدية، هي باختصار كما يلي: كان المعتزلة قد شيدوا مذهبهم على فكرة "التوحيد" المطلق، فنفوا الشريك مع الله من كل جهة، وكان ذلك في أول الأمر ردا على المانوية (نسبة إلى ماني، زعيم ديني فارسي) القائلين بمبدأين للكون: النور والظلمة (الخير والشر). لقد خاض المعتزلة معارك فكرية ضد هذا المذهب فقالوا إن كل ما عدا الله مخلوق له. وعندما طرحت مسألة العلاقة بين ذات الله وصفاته جعلوا الصفات هي عين الذات وذلك فرارا من أن تفهم صفات الله، كالحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام الخ، على أنها زائدة على الذات فتكون قديمة مثلها، الشيء الذي يؤدي إلى تعدد القدماء وبالتالي إلى هدم فكرة التوحيد. وبما أن من صفات الله "الكلام"، والقرآن كلام الله فلا بد أن يكون القرآن "مخلوقا"، غير قديم، وإلا وقعنا في القول بقديمين، وهذا مناف لفكرة التوحيد.

وفي مقابل القول بـ"خلق القرآن" وكرد فعل ضده قام رجال من أهل السنة الذين كانوا خصوما للمعتزلة، فرفعوا شعارا مناقضا تماما وهو القول بـ "القرآن غير مخلوق". وكان منهم أولئك المشبهة المتطرفون الذين تصوروا الله على غرار البشر، فقالوا في القرآن إنه قديم أزلي وأن الحروف والأصوات والرقوم المكتوبة قديمة أزلية. وقد برروا ذلك بالقول إن القرآن كلام الله، ولا يعقل كلام ليس بحروف ولا كلم، واستدلوا بأخبار منها ما رووا عن النبي عليه السلام: "ينادي الله تعالى يوم القيامة بصوت يسمعه الأولون والآخرون". ورووا: "أن موسى عليه السلام كان يسمع كلام الله كجر السلاسل" (11).

أما التيار السلفي من أهل السنة فقد رفض هذا التطرف في التشبيه والتجسيم وميز بعضهم بين عنصرين في مفهوم الكلام: المعاني وقد عبروا عنها بـ"الكلام النفسي"، أما العبارة عن تلك المعاني فألفاظ وحروف. ثم قالوا: إن

---

10 - الشهرستاني، الملل والنحل. ج1، ص وما بعدها 92 ، القاهرة 1968

11 - نفس المرجع ص 106

المقصود بقولنا: "القرآن غير مخلوق"، هو معانيه أي كلام الله النفسي، أما الألفاظ فهي مخلوقة. من هؤلاء أبو الحسن الأشعري الذي أراد الخروج بمذهب وسط فميز بين الدلالة والمدلول في عبارة "القرآن كلام الله": فالألفاظ والعبارات المنزلة على لسان جبريل إلى النبي عليه السلام دلالات على الكلام الأزلي، وهي مخلوقة. أما المدلول، أي المعنى، فهو قديم غير مخلوق. وشبه القراءة والمقروء بالذكر والمذكور، فالقراءة مخلوقة مثلها مثل الذِّكر. أما المقروء فقديم غير مخلوق مثله مثل المذكور[12]! وبهذا المعنى يكون المتكلم هو "من قام به الكلام[13]، وليس من فعل الكلام كما يقول المعتزلة.

أما المعتزلة فقد جعلوا مسألة "كلام الله" متفرعة عن باب "صفات الأفعال"، فالكلام عندهم فعل، "لأنه يصح أين يقع على وجه فيقبح، وعلى وجه آخر فيحسن، وما هذه خاصيته هو من باب "العدل". فمن عدل الله "أنه أنزل القرآن على نبيه "ليكون علَما ودالا على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام". فهو بهذا المعنى "مجعول" لنا، وما هو مجعول فهو مخلوق. وهذا المخلوق الذي نسمعه اليوم ونتلوه، وإن لم نقل إن الله أحدثه وخلقه على الحقيقة، فهو مضاف إليه على الحقيقة، كما يضاف إلى امرئ القيس على الحقيقة ما ننشده اليوم من شعره، وإن لم يكن مُحدِثا له الآن"[14]. على أن من المعتزلة من حسم في الأمر فقال: القرآن مخلوق لفظا ومعنى. هو "مخلوق لفظا" لأنه مركب من حروف والمركب محدث. وهو "مخلوق معنى"، لأنه أمر ونهي وأحكام وأخبار الخ، موجهة إلى مخاطبين مخلوقين. وقال آخرون منهم: "إن الله تعالى خلق القرآن في اللوح المحفوظ، ولا يجوز أن ينقل (إلينا)، إذ يستحيل أن يكون الشيء الواحد في مكانين في حالة واحدة. (وبالتالي فما) نقرأه فهو حكاية عن المكتوب الأول في اللوح المحفوظ، وذلك فعلنا وخلقنا"[15].

هذا النزاع العقدي حول كون القرآن "مخلوقا" أو قديما غير مخلوق، كانت وراءه خلفية سياسية هي وحدها تعطي المعنى لأصول هذا النزاع ولما انتهى إليه من محنة، كان حجمها وعواقبها أكبر كثيرا مما يمكن أن يتصوره من يقف في هذه المسألة عند هذه النقطة (انظر التفاصيل في كتابنا المذكور).

---

12 – الشهرستاني. نفس المرجع.

13 – أي الذي يمارس عملية الكلام، دون أن يعني ذلك أنه هو الذي يخلق كلامه، ومثل ذلك قولنا: عالم، فهو من قام به العلم، أي اتصف بالعلم، وليس الذي خلق العلم في نفسه.

14 – القاضي عبد الجبار بن أحمد. شرح أصول المعتزلة. تحقيق عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة. القاهرة 1965، ص528

15 – الشهرستاني المرجه نفسه نفسه ص70

62- سورة الزخرف

- تقديــم

وردت أخبار عن لقاءات واعتراضات ربطوها ببعض آيات هذه السورة. من ذلك: قول بعضهم إن قريشا قالت: قيِّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه، فقيضوا لأبي بكر طلحة، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر إلام تدعوني؟ قال أدعوك إلى عبادة اللات والعزى. قال أبو بكر: وما اللات قال : ربنا! قال : وما العزى قال بنات الله. قال أبو بكر : فمن أمهم؟ فسكت طلحة ولم يجبه. فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة : قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فأنزل الله و"من يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا" الآية. ومن ذلك ما قيل من أن الرسول عليه السلام قال لقريش إنه ليس أحد يُعبَد من دون الله فيه خير؛ فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا صالحا وقد عُبِدَ من دون الله؟ فأنزل الله "ولما ضرب ابن مريم مثلا" الآية. وقالوا: بينما ثلاثة بين الكعبة وأستارها، فقال واحد منهم: أترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت: "أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم" الآية.

هذا وقدر بعضهم أن هذه السورة نزلت في الثامنة أو التاسعة. وهذا يتسق مع ترتيبنا للحواميم بوصفها نزلت في فترة الحصار الذي دام من السابعة إلى حدود العاشرة للنبوة.

- نص السورة

1- مقدمة: إنه في أم الكتاب ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[3] (تفهمون). وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ(1) لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ[4] (مكانته عندنا رفيعة وهو مملوء حكمة).

1- قيل: "أم الكتاب" هو اللوح المحفوظ. انظر التعريف بالقرآن. الفصل الثامن. فقرة 2

2- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا. وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ!

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ[5] (2). وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ[6]، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[7]، فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ (من قريش) بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ[8] (سبق أن تحدثنا عنهم). وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ[9]. (هو) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (فراشا وبساطا)، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (للعيش) لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[10]؛ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ (بقدر الحاجة) فَأَنْشَرْنَا (أحيينا) بِهِ بَلْدَةً (أرضا) مَيْتًا، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ[11] (من قبوركم عند قيام الساعة كما يخرج النبات من الأرض)؛ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (السماء والأرض، الذكر والأنثى الخ)، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ[12] لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ (المركب)، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[13] (مطيقين، ضابطين)، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ[14]! (ومع هذه الدلائل البينة على وحدته فإن قريشا أشركوا بالله:) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (نصيبا هم: الملائكة سموها بنات الله)(3)! إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ[15]. أَمْ اتَّخَذَ (هل اتخذ الله) مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ (اختصكم) بِالْبَنِينَ[16] (لكونكم تفضلون البنين على البنات)؟ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا (إذا أخبر بأنه ولدت له بنت) ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[17] (حزينا متسائلا باستنكار: هل وُلدت لي أنثى؟ مبررا استنكاره بالقول) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (الزينة) وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟ (هو ما ولد لي؟)[18] (4).

2- اختلف المفسرون في هذه الآية، وأقرب الأقوال إلى المعنى في نظرنا هو قول من قال: "أفنمسك عن إنزال القرآن فلا ننزله عليكم لأنكم لا تؤمنون به؟".

3- اختلف المفسرون في معنى "الجزء" هنا. قال بعضهم "الجزء عند أهل العربية يعني البنات". وقد تحفظ صاحب لسان العرب على هذا وقال: "قال أبو إسحاق: وقد أنشدت بيتا يدل على أنَّ معنى جُزْءاً معنى الإناث، قال: ولا أدري البيت هو قديمٌ أم مَصْنوعٌ". ثم ذكر المعنى الذي أثبتناه أعلاه. أما الزمخشري فقال: ولئن سألتهم عن خالق السمٰوات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له، مع ذلك الاعتراف، من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى "مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا" أن قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءا له وبعضا منه، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا له". وأضاف: "ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول".

4 - شرح المفسرون هذا الآية بما يفيد أن قائل معناها هو الله تعالى. واختلفوا: بعضهم يجعل معناها أن الله يتساءل -باستفهام إنكاري- هل تخصون الله بالمرأة التي تنشأ في=

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا! أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ (كيف عرفوا أنهم إناث وليسوا ذكورا؟)[5] سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ (تلك) وَيُسْأَلُونَ (عنها يوم القيامة)[19]. وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُم[6]. مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا

الزينة وتنشغل بها ولا تعرف كيف تجادل ولا كيف تقنع؟ ومنهم من قال إن المقصود هم أصنام قريش المصنوعة من الحلي، ذهبا وفضة، والتي لا تتكلم ولا تجيب. ونحن نرى أن المتسائل المتعجب في قوله تعالى : "أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟ هو نفسه الذي ذكرته الآية السابقة لهذه مباشرة والذي قالت عنه: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ"، بمعنى أن "أحدهم"، هذا، هو نفسه الذي تساءل، مبررا حزنه وتشاؤمه، من ازدياد بنت لديه. وتتضح الصورة أكثر لو وضعنا قبل "أو من ينشأ..." كلمة: "قائلا" "أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين"، يعني الأنثى، والاستفهام هنا إنكاري. والفرق بين ما ذهب إليه المفسرون وبين ما قررنا هو أن نسبة ذلك الكلام عن البنت إلى الله فيه تحقير للمرأة أو على الأقل صدور عن رؤية تحط من شأنها. أما ما قررناه فهو ينسب ذلك الكلام إلى الإنسان، إلى قريش، وهذا فعلا يعكس نظرتهم إلى المرآة.

5- معروف أن لفظ "الملائكة" بالعربية هو جمع ملاك وهذا مفرد مذكر. وكلمة "ملاك" عبرية، ولعلها من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية. وقد وردت في التوراة بهذه الصيغة maleak وتعني ما تعنيه في الإسلام: الملائكة رسل الله. ففي التوراة بصدد طرد آدم من الجنة : "23فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْ تُرَابِهَا. 24وَهكَذَا طَرَدَ اللهُ الإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَأَقَامَ مَلاَئِكَةَ الْكَرُوبِيمِ وَسَيْفاً نَارِيّاً مُتَقَلِّباً شَرْقِيَّ الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ». (التكوين 3). و"الكروبيم" جمع كروب بالعبرية cherub والجمع بالعربية "كروبون" ملائكة يقيمون جنب حضرة الله يرسلهم إلى حيث يشاء ولهم أجنحة (قارن: الملائكة المقربون). وفي التوراة عن حلم يعقوب: "12وَرَأَى حُلْماً شَاهَدَ فِيهِ سُلَّماً قَائِمَةً عَلَى الأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَمَلاَئِكَةُ اللهِ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا، 13وَالرَّبُّ نَفْسُهُ وَاقِفٌ فَوْقَهَا يَقُولُ: «أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحقَ (التكوين 28). وهناك غير الكروبيين من الملائكة، منهم ملائكة الهلاك: "وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمْ حَمْلَةً مِنْ مَلاَئِكَةِ الْهَلاَكِ. (المزامير 49)، و"الْمَلاَئِكَةُ الْقِدِّيسُونَ (المزامير5)، و"الْمَلاَئِكَةُ السَّرَافِيمِ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، يقيمون بالحضرة الإلهية يسبحون"، (إشعياء). وأيضا الساقطين: "21ذلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ الْمَلاَئِكَةَ السَّاقِطِينَ فِي السَّمَاوَاتِ، وَالْمُلُوكَ الْمُتَغَطْرِسِينَ عَلَى الأَرْضِ (إشعياء).

6 - اختلف المفسرون حول الآية بسبب الانتماء المذهبي فالقرطبي خصم المعتزلة يفسرها بقوله: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل وكل شيء بإرادة الله، وإرادته تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها؛ أما الزمخشري المعتزلي فهو يرفض هذا الرأي وينسبه للمجبرة الذين ينفون عن الإنسان حرية الإرادة. يقول: "فإن قلت: ما أنكرت على من يقول:=

يَخْرُصُونَ[20]. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ (القرآن) فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ[21]؟ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (على طريقة ومذهب)، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ[22]. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا (أغنياؤها) إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (مذهب وطريقة)، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ[23]. (وإذا) قَالَ (النذير لهم) أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ (أتقلدونهم مع ذلك؟) قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[24]. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[25]. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ[26]. إِلَّا (لكن) الَّذِي فَطَرَنِي (خلقني) فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي[27]. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (أي قوله ذاك) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[28] (إلى دين إبراهيم)، بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُ وَرَسُولٌ مُبِينٌ[29]. وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ[30].

3- فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...

وَقَالُوا (قريش) لَوْلَا (هلا) نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[31] (من عظماء مكة أو الطائف). أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (أي النبوة)؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (يسخر الأغنياء من الأقل غنى)، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ (النبوة) خَيْرٌ

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل. على أن الله تعالى قد حكى عن ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر، أنهم جعلوا له من عباده جزءا، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا، وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكى الذي هو إيمان عنده، لو جدّوا في النطق به، مدحا لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء؛ فبقي أن يكونوا جادين، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر. فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله! فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءا لم يكن لقوله تعالى: "مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ" معنى، لأنّ من قال لا إله إلا الله على طريق الهزء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جادّا كان أو هازئا". قلت (الجابري): وفي رأينا أن الآية واضحة: القرآن يقول عنهم إن ما قالوه عن كون الملائكة إناثا وكونها بنات الله ليس لهم به علم بل هم يخرصون، أي يتكهنون ويخمنون. فهم في الحقيقة لم يقولوا ذلك على سبيل الاستهزاء بل بسبب تقليدهم آباءهم، إن موقفهم الحقيقي هو قولهم لاحقا: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وقولهم للرسول عليه السلام مثل الذي قالته الأقوام الماضية لرسلهم أي: "إِنَّا بِمَا أُرْسِلتُمْ بِهِ كَافِرُونَ".

مِمَّا يَجْمَعُونَ[32] (من الأموال). وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (مترفين كافرين) لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ (درجا) عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ[33] (وهم في الأعالي)، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ[34]، وَزُخْرُفًا، وَإِنْ (وما) كلُّ ذَلِكَ لَمَّا (إلا) مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ[35]. وَمَنْ يَعْشُ (يُعرِض) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ[36]. وَإِنَّهُمْ (الشياطين) لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ (أي الكفار) مُهْتَدُونَ[37]، حَتَّى إِذَا جَاءَنَا (الكافر يوم القيامة) قَالَ (للشيطان قرينه) : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ[38]. وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ (يا قريش) إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ[39] (مع شياطينكم). أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[40]. فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ (نتوفاك)، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ[41] (من بعدك)، أَوْ نُرِيَنَّكَ (مصيرهم في الدنيا) الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ[42]. فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[43]. لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ[44]. وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا (سأل أهل الكتاب) أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ[45] (7).

4- فرعون استخف بعقول قومه فأطاعوه...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[46]. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ[47]. وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ (معجزة) إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ (الجفاف الطوفان: الآيات التسع) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (عن الكفر)[48]. وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ (من إزالة العذاب إذا آمنا) إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ[49]. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ[50]. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ: يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ[51]؟ أَمْ (تبصرون أني) أَنَا خَيْرٌ مِنْ (موسى) هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ (ضعيف) وَلَا يَكَادُ يُبِينُ[52]. فَلَوْلَا (هلا) أُلْقِيَ عَلَيْهِ (إن كان صادقا) أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ[53] (ملازمين يشهدون بصدقه)! فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ (اعتبرهم ضعاف العقول) فَأَطَاعُوهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[54]. فَلَمَّا آسَفُونَا (أغضبونا) انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ (قومه) أَجْمَعِينَ[55]. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا (عبرة للأولين) وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ[56].

---

7 – انظر موقف التوراة والإنجيل من الأصنام في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثالثة.

5- قالوا عن عيسى: أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ قل: هو عبد جعلناه مثلا...

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[57] (انظر التقديم). وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ (هذا مثل) مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (من أجل إحراجك)، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ[58] (هم خصوم لك وأعداء). إِنْ هُوَ (عيسى) إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ[59] (آية وعبرة يستدل منها على أنه رسول من الله إليهم، وليس ابن الله كما تقول النصارى). وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[60] (يكونون بدلا عنكم). وَإِنَّهُ (=القرآن) لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ (يخبركم بها وبأحوالها)، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا (تشكون فيها)؟ وَاتَّبِعُونِ (أطيعوني)، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[61]. وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[62]. وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[63]. إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[64]. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ (اختلفت فرقهم هل هو الله أم ابنه)، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ[65]. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[66]. الْأَخِلَّاءُ (الأصدقاء) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[67]، (يقال لهم) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ[68]، (إنهم) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ[69] (يقال لهم): ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ[70] (تكرمون). يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[71]. وَتِلْكَ (هي) الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[72]، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ[73]. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[74]. لَا يُفَتَّرُ (يخفف) عَنْهُمْ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[75] (صامتون يائسون). وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ[76]. وَنَادَوْا يَا مَالِكُ (خازن جهنم) لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ! قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ[77]. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[78]. أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا (هل دبروا مكيدة للرسول[(8)]) فَإِنَّا مُبْرِمُونَ[79] (مُحكمون الحماية لك)؟ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟ بَلَى! وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ[80]. قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ[81] (لهذا الولد لو كان له فعلا ولد). سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ[82]. فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ[83].

8- إشارة إلى تآمرهم –قبيل الحصار– على اغتيال الرسول.

6- خاتمة: قال الرسول رب هؤلاء قوم لا يؤمنون! الجواب: اتركهم!

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[84]. وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[85]. وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ(9) إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[86]. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ[87]. وَقِيلِهِ (قال الرسول) يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ[88]. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ (أعرض عنهم ولا تنشغل بهم ولا تحزن عليهم) وَقُلْ سَلَامٌ (اتركهم وامض في طريقك) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[89].

تعليق

تكاد هذه السورة تقتصر على الرد على اعتراضات قريش على الركن الأساس في العقيدة المحمدية وهو "التوحيد". والاعتراضات التي تحتج بها قريش هنا ليست بنت ساعتها، فقد سبق أن ردت عليها سور سابقة. وهذه مسألة عامة، ذلك أنه نادرا ما يأتي الرد في القرآن المكي على ما تقول قريش في الحين، فالأمر يتعلق بالعقائد، وعرضها والدفاع عنها لا يكون مرة واحدة، بل هي موضوع جدل متكرر. ولما كان الرسول، في هذه المرحلة، محاصرا في شعب أبي طالب فلنا أن نفترض أن تكرار هذه السور (الحواميم) للرد على اعتراضات قريش هو من أجل تسليته وتثبيت فؤاده. وهذا واضح من تكرار دعوته إلى الصبر وعدم اليأس وانتظار الفرج.

ولعل هذه السورة ومثيلاتها نموذج من "علم الكلام" مارسته قريش قبل أن يظهر هذا "العلم" بنحو قرن من الزمان؟ ومن الأمثلة التي يمكن تصنيفها ضمن "علم الكلام" القرشي، قولهم في هذه السورة : "وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ" (الآية 20). وهذا تلبيس وتغطية للسبب الحقيقي، وهو تقليدهم لآبائهم وعدم قدرتهم التحرر مما وجدوهم عليه، وقد كشفت السورة الغطاء عنه حينما ردت عليهم "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (الآية 22). ومن ذلك أيضا قولهم "لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الآية 31) حتى يتبعهما الناس، مشيرين بذلك إلى كون الرسول عليه السلام ليس من الأغنياء وأنه

9- روي أن نفرا من قريش قالوا: إن كان البعث حقاً كما يقول محمد فنحن نعبد الملائكة، فهم أحق بالشفاعة منه، فجاء الجواب: الملائكة لا يشفعون إلا لمن آمن بالبعث والحساب والجزاء وشهد أن ذلك حق وتصرف على أساسه.

بسبب ذلك لم يتبعه إلا الفقراء من الموالي والعبيد وبعض أبناء القبائل الصغيرة الخ. وترد عليهم السورة : ومتى كان الغنى أساسا للنبوة؟ إن الغنى مصدر الفرقة، فالأكثر غنى يسخر ويستهزئ بالأقل غنى، وهل رأيتهم غنيا اجتمع عليه الأغنياء وأحبوه واتبعوه؟ أليست العلاقة بين الأغنياء علاقة تنافس وتطاحن؟ إن النبوة التي يطلبون رحمة، وهم بغناهم يقعون خارج نطاق هذا النوع من الرحمة! قال تعالى: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (أي النبوة)؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (يسخر الأغنياء من الأقل غنى)، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ الآية (الآية 32). ثم تلتفت السورة إلى النبي (ص) بعد أن عيروه ضمنيا بالفقر وضعف المنزلة فتخاطبه بما يثبت فؤاده ويشد من عضده، قال تعالى: "فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[43]. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ" (الآية 44).

ومن ذلك أيضا قولهم: إذا كان النصارى وهم من أهل الكتاب يعتقدون في عيسى أنه ابن الله ويعبدونه فلماذا تنكر علينا اعتقادنا في الملائكة أنها بنات الله وتطلب منا ترك عبادتها هي والأصنام التي نقيمها تماثيل لها كما يقيم النصارى تماثيل وصورا لعيسى ومريم ويعظمونهما؟ وقد ردت عليهم السورة بأن هذا المثل الذي ضربتموه هو قول جدلي محض لا يراد به البحث عن الحقيقة وإنما المقصود منه إحراج الخصم. ذلك أن الدين الذي جاء به عيسى هو نفسه دين إبراهيم كما ورد في التوراة، أما ما أنعم به الله على عيسى من الآيات والمعجزات فهي لإقناع بني إسرائيل أنه فعلا مبعوث من عند الله، فهو في هذا مثل موسى الذي أنعم عليه الله بسبع آيات معجزات: ذلك ما عبرت عنه السورة بقوله تعالى: "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[57]. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ (هذا مثل) مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا

63- سورة الدخان

- تقديـــم

لم يرد في شأن هذه السورة ما يستحق الذكر سوى خبر ربطه كثير من المفسرين بقوله تعالى: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ، هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ" (الآيات 10-12) هذا الخبر مفاده - حسب رواية عبد الله بن مسعود وقد ذكرها البخاري- "أنَّ قُرَيْشاً أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبيُّ (ص) فقال: اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسفَ؛ فأخذَتْهم سَنَةٌ (من الجفاف) حتى هَلَكوا فيها وأكلوا الميتةَ والعظامَ، ويرَى الرجلُ ما بينَ السماءِ والأرض كهيئةِ الدُّخان، فجاءهُ أبو سفيانَ فقال: يا محمدُ، جئتَ تأمرُنا بصِلةِ الرَّحم، وإنَّ قومكَ قد هلكوا، فادعُ اللّهَ. فقرأ: "فارتقب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين ـ إلى قوله ـ عائدون" (الدخان: 10 ـ 15) (قال ابن مسعود) أفيُكشَف عنهم عذابُ الآخرةِ إذا جاء، ثم عادوا إلى كفرهم. فذلك قولَهُ تعالى: "يومَ نبطِشُ البطشةَ الكبرى" (الدخان: 16) يومَ بدرٍ. واضح من الرواية (ذكر غزوة بدر) أن أحداثها تنتمي إلى العهد المدني، أما السورة فهي مكية باتفاق، أما القول بأن بعض هذه الآيات مدنية، فقول غير معتبر، خصوصا والسورة مبنية كلها حول هذه الآيات، كما سيتضح في "التعليق".

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ

باسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ (1)، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ[3]. فِيهَا يُفْرَقُ (ينزل) كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ[4] (2): أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ[5] رَحْمَةً

1- فسرها معظم المفسرين بأنها "ليلة القدر" وذلك بناء على قوله تعالى: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" (البقرة: 185). وقوله: ""إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" (القدر: 1). واختلفوا في سورة القدر : هل هي مكية أم مدنية؟ ونحن قد رجحنا هذا القول الأخير فاعتبرناها مدنية وسنشرح ذلك في حينه. أما الآية أعلاه فهي والسورة التي وردت فيها

(نبوة) مِنْ رَبِّكَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[6]؛ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ[7]. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ[8].

2- ارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، إنا منتقمون.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ[9] (ويستهزئون مما ينذرهم به القرآن من الوعيد). فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ[10] يَغْشَى النَّاسَ (كغبار الرمل الذي تعرفه جزيرة العرب فيقولون): هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[11]، (قد يقولون) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ (عذاب الدخان) إِنَّا مُؤْمِنُونَ[12]. (وحينئذ سنقول) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى (لو استجبنا لطلبهم هل سيوفون بما قالوا) وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ[13] (ولم يؤمنوا)، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ (له من يعلمه) مَجْنُونٌ[14]؟ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا، إِنَّكُمْ عَائِدُونَ[15] (إلى تكذيبكم وكفركم)! يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (يوم القيامة) إِنَّا مُنتَقِمُونَ[16].

3- أغرقنا قوم فرعون... فما بكت عليهم السماء والأرض...

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ[17]، (موسى: قال لهم) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ (أعطوني بني إسرائيل) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[18]، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[19]، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي[20]، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي[21] (اتركوني وشأني ولا تقتلوني). فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ[22]، (فكان الجواب:) فَأَسْرِ بِعِبَادِي (اخرج ببني إسرائيل) لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ[23] (يتبعكم فرعون وجنده)، وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا (يبسا) إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ[24] (3). كَمْ تَرَكُوا (جند فرعون،

مكيتان. وعليه فالليلة المباركة هي التي نزل فيها جبريل بـ"اقرأ باسم ربك" الخ، على الرسول في غار حراء.

2- نظير قوله تعالى عن سورة القدر: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر 4).

3- تقوم السورة هنا بالتذكير بقصة فرعون، من خلال ذكر وقائع منها، فقد سبق أن عرضت في سور سابقة. وهكذا فقوله "اترك البحر رهوا" تذكير بقوله تعالى في سورة الشعراء: "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ" (الشعراء 63-66). والمعنى اضرب بعصاك في البحر ينشق فيه طريق يابس عريض كالجبل لتجتاز أنت=

مِن ورائهم بعد غرقهم) مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[25]، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ[26]، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ[27]؟ كَذَلِكَ (حصل)، وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ[28]. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ[29] (ممهلين حتى يتوبوا). وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ[30]: مِنْ فِرْعَوْنَ، إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنْ الْمُسْرِفِينَ[31]، وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ (بني إسرائيل)، عَلَى عِلْمٍ(4)، عَلَى الْعَالَمِينَ[32]، وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ[33].

4- إنما يسرناه بلسانك وبطريقة التجوز فيه... لعلهم يتذكرون.

إِنَّ هَؤُلَاءِ (قريش) لَيَقُولُونَ[34] إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ[35] (بمبعوثين) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[36]! أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ (5) وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ! إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ[37]. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ[38]، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[39]. إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ[40]، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى (سيد) عَنْ مَوْلًى (عبد، والعكس) شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ[41] إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[42]. إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ[43]، طَعَامُ الْأَثِيمِ[44] (الفاجر) (6)، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ[45]، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ[46] (الماء الحار جدا: يقال لخزنة جهنم) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ (جروه) إِلَى سَوَاءِ (وسط) الْجَحِيمِ[47]، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ[48]، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

وقومك، واترك الطريق وراءك يابسة كي يدخلها جند فرعون الذين يطاردونك، فسنعيد الماء إلى وضعه ويغرقون...

4- المعنى: كقولنا اليوم "ونحن نعرف ما نفعل". والمعنى الكلي: اخترنا إنقاذ بني إسرائيل من طغيان فرعون –دون غيرهم– ونحن ننوي تخصيصهم بآيات ونبوات كي نختبرهم: هل سيستقيمون ويشكرون؟ أم أنهم سيزيغون ويضلون؟ وبما أن هذا قد ورد في خطاب موجه إلى قريش فمن الواضح أنه يقدم لهم مثال بني إسرائيل ليأخذوا منه العبرة. ذلك أن الله قد خص قريشا فاختار منهم رسولا وأصبحوا هم أيضا "أهل كتاب" كي يختبرهم كما اختبر بني إسرائيل.

5 – ملوك اليمن: كانوا يسمون التبابعة. فتُبَّعْ لقب للملك منهم مثل كِسْرَى عند الفُرْس.

6 – قال المفسرون: "وشجرة الزقوم: شجرة خلقها الله في جهنم، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحار. وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل، وهو النحاس المذاب". والمعنيُّ هنا هو أبو جهل الذي سبق أن سخر منها وقال: الزقوم هو التمر والعسل. وكان يكنى: "أبا الحكم" ويقول عن نفسه إنه أعز من في مكة فخاطبته الآية "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ".

الْكَرِيمُ[49]. إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ[50] (تشكون فيه في الدنيا). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ[51]، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[52]، يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ[(7)] مُتَقَابِلِينَ[53]. كَذَلِكَ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ[54] [(8)]، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ[55]، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى (في الدنيا، وبعدها هم خالدون في الجنة) وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[56]: فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[57].

5- خاتمة: إنما يسرنا القرآن بلسانك لعلهم يتذكرون...

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (القرآن) [(9)] بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[58]، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ[59].

- تعليق

تناولت هذه السورة، بعد المقدمة، موضوعا واحدا هو موضوع المعاد. أما المقدمة فتشير لأول مرة حسب ترتيب النزول إلى أن القرآن نزل في "ليلة"، اقتصرت السورة على وصفها بـ"مباركة"، فلم تطلق عليها اسما ولم تحدد لها تاريخا، ولم تبين هل هي ليلة فريدة وحيدة أم أنها تتكرر. وقد رجح كثير من المفسرين أنها "ليلة

---

7 - السُّنْدُس: ما رَقَّ من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه. والديباج ثياب منقوش: فارسي.

8 - "والحور: البيض؛ جمع حوراء. والحَوْراء: البيضاء التي يُرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه في كعبها كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون" (القرطبي).

9- المعنى أن هذا الذي قلناه عن مشاهد القيامة والجنة والنار قد عبرنا عنه باللسان العربي ومعهود العرب اللغوي والحضاري العالم، من ذلك استعمال المثال والمجاز والتشبيه والتشخيص الخ، كل ذلك من أجل أن نقربه لأفهامهم ويكون يسير الفهم عليهم. قلت (الجابري): هذا يعني أن ما ذكر من نعيم الجنة مثالات لما سيكون، معبرا عنه وفق معهود العرب، أما حقيقة ما سيكون، وفق أنواع المعهود لجميع البشر منذ الخليقة إلى يوم القيامة، فعلمه عند الله! هذا وقد لاحظ الشاطبي أن الله خاطب العرب بما يعرفون ولم يخاطبهم بما لا يعرفون، وقال في شأن ما وصف به القرآن نعيم الجنة: "وأخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا، لكن مبرأ من الغوائل والآفات التي تلازم التنعيم الدنيوي: كقوله وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود إلى آخر الآيات، وبين من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ما هو عندهم مألوف، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم، بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة". (الموافقات للشاطبي. ج2 ص78).

القدر"، وقد سميت باسم "القدر" سورة خاصة ورد فيها، "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ"، وأن من الأمور التي نزلت فيها القرآن. وسنعود إلى عرض ومناقشة ما ذكره المفسرون بشأنها عندما نصل إليها، فقد رجحنا الرأي القائل إنها مدنية، ورتبناها مع القرآن المدني. أما الآن فلنواصل صحبتنا لسورة "الدخان" المكية التي وصفت الليلة المباركة المذكورة بأن "فيها يفرق ويوزع بأمر الله كل أمر حكيم، بما في ذلك إرسال الرسل رحمة بالناس: تبين لهم بأن الله وحده هو الإله، وأنه هو رب السماوات والأرض وما بينهما وأنه هو الذي يحيي ويميت وأنه هو رب الآباء الأولين.

بعد هذه المقدمة تنتقل السورة إلى موضوعها، الذي عبرت عنه في القسم الأخير من المقدمة، وهو الرد على قريش خصوصا في إنكارهم البعث، وذلك انطلاقا من آخر المقدمة: "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ". وهكذا تتوالى فقرات السورة، مرتبة منظمة؛ فتبدأ هذه المرة، لا بالتذكير بمصير الأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، بل بالإعلان عن المصير الذي ينتظر المشركين من قريش والطريقة التي سيكون بها هلاكهم، ومشهد قيام الساعة عندهم (الدخان/الغبار)، إذا هم استمروا في تكذيب رسول الله إليهم وإلى الناس كافة وواصلوا الاستهزاء بالقرآن الذي ينزل عليه من عند الله.

وهكذا فالهلاك سيأتيهم من جنس الظاهرة الكونية التي يعرفونها وتشكل جزءا من معهودهم، وذلك بحدوث عاصفة من الغبار الذي يعم أجزاء من الجزيرة العربية بين حين وآخر على شكل عواصف رملية تغطي السماء وتمنع الرؤية وتحول الحياة جحيما، فيشعرون وكأن الأمر يتعلق بقيام القيامة فيخافون ويندمون ويدعون الله أن يكشف عنهم هذه الغمة الطبيعية القاتلة ويمنحهم فرصة أخرى من الحياة الطبيعية، يتحولون فيها إلى مؤمنين يعملون صالحا كما أمرهم الكتاب المنزل على الرسول المبعوث إليهم. وبما أن الله رحيم بعباده، وأن إرسال الرسل إلى الناس هو تشخيص لهذه الرحمة، فإنه سيرفع العذاب عنهم وهو يعلم أنهم عندما يتبدد الغبار/الدخان وتعود الحياة إلى وضعها الطبيعي سيعودون إلى ما كانوا عليه: يكذبون رسولهم ويستهزئون بالقرآن ويسخرون من الاعتقاد في البعث والحساب. هنا، بعد أن اختاروا الضلالة من جديد، فعادوا إلى ما كانوا عليه، يخاطبهم الذكر الحكيم: "إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ[15]، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (يوم القيامة) إِنَّا مُنْتَقِمُونَ".

وبعد أن تذكرهم السورة بالمصير الذي لقيه فرعون وملؤه، بعد أن رفضوا الاستجابة للرسول الذي بعثه الله إليهم، إذ سلط الله عليهم عدة كوارث كانوا يطلبون

الرحمة عند كل واحدة فيستجاب لهم، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، ليكون مصيرهم في النهاية الغرق والهلاك، أقول بعد أن ذكرت السورة مشركي قريش بمصير فرعون وملئه تنبيها لهم إلى أن استجابة الله لطلبهم الرحمة لا تعني تغيير المصير المحتوم وإنما إتاحة الفرصة لهم ليتوبوا ويعملوا صالحا، تخاطبهم السورة بآيات بليغة الدلالة: ترد أولاً على عناد قريش -بإنكارهم البعث وتأكيد اعتقادهم في أنه ليس هناك إلا موتة واحدة ولا شيء بعدها، وبتحدّيهم الرسول والقرآن والمؤمنين جميعا قائلين: إذا كنا سنبعث حقا بعد أن نموت "فَأْتُوا بِآبَائِنَا" كدليل على صدقكم- ترد عليهم السورة بدليلين: الأول من تاريخ العرب أنفسهم وذلك بتذكيرهم بمصير الملوك التتابعة باليمن جارهم، ومن كان قبلهم، ممن قاموا بحملات متتالية لغزو مكة. هؤلاء كانوا أشد قوة منهم فأفشل الله محاولاتهم وأهلكهم جميعا. أما الدليل الثاني فهو التأكيد لهم مرة أخرى أن الله لم يخلق السماوات والأرض لهوا ولعبا وأنهم لو كانوا يتفكرون لتساءلوا عن الغاية من خلقها. أما الجواب فسيجدونه جاهزا بينا في القرآن الذي وضح الغرض من خلق آدم وما جرى له حين أغواه الشيطان، وأن طرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض هو من أجل اختباره وتحميله مسؤولية الأسماء (الخير والشر، المسؤولية والجزاء الخ) التي علّمها له. وبعد أن رسمت السورة مشهدين لنوعي الجزاء، جهنم والجنة، شخصت فيهما تشخيصا بليغا صورة كل منهما، تستعيد مقدمتها في الخاتمة -كما هي العادة- فتعود إلى القرآن المنزل في "ليلة مباركة": وتخاطب الرسول: "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (القرآن) بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[58]، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ"[59].

والمعنى إن هذا الذي قلناه عن الدخان/الغبار الذي سنسلطه على مشركي قريش والصورة التي رسمناها للجنة والنار، قد عبرنا عنه بطريقة اللسان العربي في استعمال المثال والمجاز والتشبيه والتشخيص الخ، كل ذلك من أجل أن نقربه لأفهامهم ويكون يسير الفهم عليهم. إنها مثالات لما سيكون، مبينة وفق معهود العرب، لغة وحضارة. والأمر نفسه يصدق على الرسل السابقين فقد بعثهم الله بلسان أقوامهم وضرب لهم الأمثال بما هو معهود عندهم، وفاقا مع قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ". والجدير بالإشارة أن لفظ "اللسان" في لغة العرب واسع الدلالة، فهو يعني: "اللُّغَةُ، والرِّسالَةُ، والمُتَكَلِّمُ عن القَوْمِ". لسان بني فلان: ينطق باسمهم حسب معهودهم الخ، ويطابقه اليوم قولنا: "الناطق باسم الحكومة".

64- سورة الجاثية

- تقديـــم

لم يرد حول هذه السورة من المرويات ما يستحق الذكر. فجميع ما ذكر من مناسبات لنزول هذه الآية أو تلك وقائع حدد رواتها مكانها أو زمانها في العهد المدني من البعثة، هذا في حين أن هذه السورة مكية باتفاق، مثلها مثل أخواتها الحواميم. روايتان وردتا، حول آيتين، تفسران مضمونهما بالرد على معتقدات كان العرب يعتقدونها في الجاهلية، إحداهما "عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش تعبد الحجر حينا من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول، وعبدوا الآخر، فنزلت "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"، وهذا شيء معروف وقد سبق أن ذكرنا ذلك في الاستطراد الذي خصصناه لموضوع الأصنام في آخر "المرحلة الثالثة" (بعد سورة يوسف، آخر القسم الأول من الكتاب). والرواية الثانية عن أبي هريرة قال: "كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار، فأنزل الله "وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر". واضح أن الروايتين كلتيهما ليستا من "أسباب النزول" وإنما هما من قبيل "التفسير" لا غير. أما الرواية الوحيدة التي قد تكون لها علاقة بـــ "أسباب النزول" على الرغم من كونها تنسب من قبل الأكثرية إلى العهد المدني" فسنعرض لها في "التعليق".

- نص السورة

1- مقدمة: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[2] (العزيز: القوي المنيع). إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ[3]، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[4]. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[5]. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ (حديث) اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ[6]؟

2- وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا..

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ (كذاب) أَثِيمٍ[7]: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ[(1)] ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[8]. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا (موضوع استهزاء)، أُولَئِكَ (أمثال هذا الشخص) لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[9]: مِنْ وَرَائِهِمْ (=من أمامهم، بين أيديهم) جَهَنَّمُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا، وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[10]. هَذَا هُدًى! وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ[11]. اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (=التجارة)، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[12]. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ (=إنعاما منه)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[13]. قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا (يتغاضوا عما يصيبهم من أذى من جانب المشركين، أي) لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ (لا يحسبون حسابا لتقلب الأحوال فلا يستشعرون انقلابها عليهم)، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[14] (أي أن جزاءهم سيكون يوم القيمة). مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[15].

3- "جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها"...

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (العلم، القضاء) وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[16]؛ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ (من شؤون الدين) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (بغى بعضهم على بعض)، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[17]. ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا[(2)]، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[18]

---

1 - اختلفوا في اسم الرجل المعنيِّ هنا: بعضهم قال أبو جهل، وبعضهم قال الحارث بن كلدة...

2 -المعنى الذي يقتضيه السياق لهذه الآية هو : كلفناك برسالة التوحيد فبلغها ولا تتبع ديانات الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (قريش). وقد فهم كثير من المفسرين هذه الآية فهما فقهيا (الحلال والحرام) فاختلفوا: هل شريعةُ الأنبياء السابقين شريعة لنا أم لا؟ قال ابن العربي: "ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع مَن قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ (ص) وأمته في هذه الآية بشريعة" ويضيف: "ولا ننكر أن النبي (ص) وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي (ص) عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا؟ (ذكره القرطبي). ونحن نرى أن السياق هو سياق=

(قريش). إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ[19]. هَذَا بَصَائِرُ (بينات) لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[20]. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا (اكتسبوها) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[21]. وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[22]. أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (يعبد ما يمليه عليه هواه كالأصنام والملائكة والجن) وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ (بكونه اختار الشرك)، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[23]! وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ (الزمان)، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[24]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[25]. قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[26].

4- وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ...

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ! يَوْمَئِذٍ، يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ[27] (المكذبون). وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً (على ركبها)، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا: (يقال لهم) الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[28]: هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[29]. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ[30]. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا: (فيقال لهم) أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ[31]؟ وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ[32]. (وعندما قامت الساعة تيقنوا) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[33]. وَقِيلَ (لهم): الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[34]. ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[35] (يسترضون).

القول في التوحيد وليس في الشريعة. فالقرآن المكي في جملته قرآن يدور حول العقيدة وليس حول الشريعة، وهو مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل على مستوى قصص الأنبياء السابقين وكفاحهم من أجل عقيدة التوحيد وما يتصل به فقط.

5- خاتمة: فالحمد لله: له الكبرياء، العزيز الحكيم.

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ[36]، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ و الْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[37].

- تعليق

تتميز هذه السورة بوحدة الموضوع، فمنذ المقدمة التي افتتحتها، كأخواتها الحواميم، بالتأكيد على أن القرآن تنزيل من الله "العزيز الحكيم"، وهي تعرض وتشرح هذين الوصفين وتبرهن عليهما في إطار الرد على موقفين من مواقف مشركي قريش لا تذكر -كما هي العادة- أسماء المعنيين بهما(3). وهكذا ففي المقدمة ذاتها نجد التذكير بالبرهان القرآني على وجود الله: دلائل في خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، في خلق الإنسان وغيره من الكائنات الحية، وفي اختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح والأمطار وتهيئة الظروف للنبات والشجر الخ، لتختم المقدمة بالتساؤل: إذا كان مشركو قريش لا يقتنعون أن ذلك دليل على وجود الله، فأي دليل يمكن أن يقنعهم؟

هنا تشير الآية ضمنيا إلى شخص بعينه -ولو أنها وردت على صيغة العموم- فتتوعده بالويل والعذاب الأليم، وتصفه بـ "الأفاك الأثيم"، كذاب يرتكب الإثم: "يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا". وأكثر من ذلك يسخر ويستهزئ بما سمع منها، ناسيا أو متناسيا أن الله هو الذي سخر له ولقريش، بل وللناس جميعا، البحر الذي تحملهم عليه السفن للتجارة كما سخر لهم "مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا". هؤلاء المنكرون للنعمة الذين يؤذون المسلمين ويظلمونهم، لا ينبغي الانشغال بهم ولا الرد عليهم أو الانتقام منهم، بل على المؤمنين أن يتغاضوا عما يصيبهم منهم من أذى، أولئك لا يحسبون حسابا لتقلب الأحوال فلا يستشعرون انقلابها عليهم، فجزاؤهم سيكون يوم القيامة، حيث سيكون الحساب مبنيا على أساس : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا".

هذا المبدأ تقرر في الرسالات السابقة وخاصة عند بني إسرائيل الذين آتاهم الله خلال تاريخهم "الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (العلم، القضاء) وَالنُّبُوَّةَ" فقدم لهم بينات في هذا الأمر، لكنهم اختلفوا فيه عندما بغى بعضهم على بعض، وسيقضي الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

3- نذكر هنا بما نبهنا عليه سابقا (سورة المسد) من أن أبا لهب هو الاسم الوحيد الذي ذكره القرآن. ذلك أن ما جرى عليه منهج القرآن في هذا الشأن هو تجنب ذكر الأسماء سواء في معرض المدح والوعد أو في معرض الرد والوعيد.

ثم تتجه السورة إلى النبي (ص) بقوله تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا"، بمعنى كلفناك برسالة التوحيد فبلغها، "وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (قريش). هؤلاء الجاهلون الظالمون هم من جنس الذين أشارت إليهم السورة في الفقرة الثانية –إن لم يكونوا هم أنفسهم– سيجازون على أساس المبدأ نفسه: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا". وسيكونون مخطئين إذا هم ظنوا أن مصيرهم بعد الموت سيكون كمصير "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ". لقد اختاروا الضلال واتخذوا أهواءهم آلهة لهم، يعبدون الأصنام والكواكب والشياطين، وأصروا على الكفر حتى صار طبعا فيهم، فأضلهم الله لأنه يعلم أنهم اختاروا الضلال ولن يرجعوا عنه، فختم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فأصبحوا غير قادرين على التراجع عن الضلال، ولا الاستجابة لهدى القرآن! إذن لا تطمع في هدايتهم!

هم ينكرون وجود الله فمن أين ستأتيهم الهداية؟ هم ينكون البعث الذي يقوم عليه مبدأ المسؤولية القاضي بـ "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا"، فكيف يمكن أن يرجى منهم الإيمان، خوفا من جهنم أو طمعا في الجنة؟ إنهم يقولون بصريح العبارة، ليست هناك بعد الممات جنة ولا نار: "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"؟ عجبا! ومن أين علموا ذلك، "إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"! وإذا أنت حاولت إقناعهم بأن الله يؤكد أن البعث سيكون، وسيكون بعده حساب وجزاء، لا تجد عندهم من حجة يردون بها "إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ"، أي ابعثوهم لنا لنسألهم ونرى حالهم! تجيبهم السورة برسم مشهد مشخص لما سيجري يوم القيامة، حيث سيواجهون أولا بكتاب استنسخت فيه جميع أعمالهم في الدنيا وسيقدم لهم الدليل المشخص على ما أُخبروا به قبل مماتهم، وعبثا سيحاولون الاستعطاف وطلب المغفرة، سيقال لهم: "الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ".



65- سورة الأحقاف

- تقديم

وردت في شأن آيات من هذه السورة أخبار نذكر بعضها فيما يلي: فعن قوله تعالى "وَما أدري ما يُفعَلُ بي وَلا بِكُم" الآية. ورد عن ابن عباس: "لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله (ص) رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين. ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا: يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت رسول الله (ص)، فأنزل الله تعالى "وَما أدري ما يُفعَلُ بي وَلا بِكُم"! يعني لا أدري أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أولا! ثم قال: إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي". ومضمون هذه الرواية لا يستقيم أصلا مع سياق الآية كما سنرى.

وهناك روايات قد تكون لها فائدة على مستوى السيرة نذكر منها ما يشير إلى أمور محتملة في مكة ضاربين صفحا عما يحيل إلى وقائع حدثت في المدينة لأن السورة مكية باتفاق. منَ ذلك ما روي عن ابن عباس من أنه قال في قوله تعالى: "حتّى إذا بَلَغَ أشُدَّهُ وَبَلَغَ أربَعينَ سَنَةً" الآية : "أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله (ص) وهو ابن ثمان عشرة ورسول الله (ص) ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة فنزلوا منزلاً فيه سدرة، فقعد رسول الله (ص) في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين فقال له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا والله نبي، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد نبي الله. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله (ص) في أسفاره وحضوره، فلما نُبِّئَ رسول الله (ص) وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدق رسول الله (ص). فلما بلغ أربعين سنة قال "رَبِّ أوزِعني أن أشكُرَ نِعمَتَكَ الَّتي أنعَمتَ عَلَيَّ"... وسنرى أن السياق لا يستقيم مع هذا. ومن ذلك ما ذكر من أنه كانت لعمر ابن الخطاب أمَة أسلمت قبله، يقال لها زنين، فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر. وكان كفار قريش يقولون، لو كان (الإسلام) خيرا ما سبقتنا إليه زنين، فأنزل الله في شأنها "وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا" الآية. كما روي عن

ابن مسعود أنه قال : "إن الجن هبطوا على النبي (ص) وهو يقرأ القرآن ببطن مكة في "نخلة" (مكان)، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن" إلى قوله "ضلال مبين" من هذه السورة. (انظر ما كتبناه في "تعليق واستطراد"، سورة الجن رقم 40). وسنرى أن جميع هذه الروايات لا تستقيم مع الآيات التي ربطت بها. ونحن إنما ذكرناها لما قد يكون فيها من فائدة في التعرف على جوانب من وقائع السيرة، إذ يجوز أن يكون بعض ما تحكيه هذه الروايات صحيحا كأحداث دون أن تكون بالضرورة ذات علاقة بالآيات التي ربطت بها.

- نص السورة

1- مقدمة: ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[2]. مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى. وَالَّذِينَ كَفَرُوا، عَمَّا أُنذِرُوا، مُعْرِضُونَ[3]!

2- قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ. وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا (القرآن) أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ (أو أي صحيفة من الصحف الأولى فيها وحي نبوي) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[4]؟ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ[5]! وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا (يعني آلهتهم) لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ[6]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[7]. أَمْ (بل) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ (تخوضون فيه). كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[8]. قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ. وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ! إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ(1)، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ[9]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ

1- واضح أن رواية ابن عباس التي ذكرناها في التقديم، حول هذه الآية، لا تستقيم مع سياق الآية: فالكلام هنا متصل والخطاب موجه للمشركين!

عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ (على مثل ما جئتكم به) فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[10]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ[(2)]، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـذَا إِفْـكٌ قَدِيمٌ[11]. وَمِنْ قَبْلِهِ (من قبل القرآن نزل) كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً، وَهَذَا (القرآن) كِتَابٌ مُصَدِّقٌ (لكتاب موسى) لِسَانًا عَرَبِيًّا (نزل بلسان عربي)، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ[12]. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[13]. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[14].

3- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا: وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ...

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا (مع مشقة) وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا[(3)]، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي (ألهمني) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[15]. أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، (هم) فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ [(4)]: وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ[16]. وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ (طلبا منه أن يسلم) أُفٍّ لَكُمَا، أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ (أبعث بعد الموت) وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، وَهُمَا (الوالدان) يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ: وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْـأَوَّلِينَ[17]! أُولَئِـكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَـانُوا خَاسِرِينَ[18] [(5)]. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُـونَ[19].

---

2 – ذكروا أن المشار إليه في قوله "ما سبقونا إليه هم العبيد والموالي وكانوا من أوائل المسلمين. وهذا لا يستقيم مع السياق. انظر التعليق.

3 – مدة الحمل والرضاعة معا.

4- واضح أنه ليس في هذه الآية ما يجعلها خاصة بأبي بكر كما ورد في الرواية التي ذكرناها في التقديم.

5- قالوا إن الآيات الأولى، ابتداء من "وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا"، نزلت في أبي بكر الصديق، كما ذكرنا في التقديم، وأن الآيات التالية لها، ابتداء من قوله "وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا"، نزلت في ابنه عبد الرحمان، أعني عبد الرحمان بن أبي بكر، الذي قالوا عنه إنه رفض أن يسلم وعاب على أبويه ترك دين الآباء والأجداد وسخر من البعث الخ. وهذا الجمع بين تلك الآيات وهذه من أغرب الأمور، فالسياق يكذب مثل هذا الجمع، ويبدو أن الروايتين مختلقتين معا، وأنهما من مظاهر الصراع بين المطالبين بدم عثمان وعائلة أبي بكر الذي اتهم ابنه محمد بالمساهمة في قتل عثمان (انظر كلاما في القرطبي، يشعر بذلك).

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ (يقال لهم): أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ[20].

4- وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ

وَاذْكُرْ (هودا) أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ (6) وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[21]. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا (لتصرفنا) عَنْ آلِهَتِنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[22]. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ[23]. فَلَمَّا رَأَوْهُ (ما يعدهم) عَارِضًا (سحابا) مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا! (قيل لهم) بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ (=الساعة): رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[24]، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ[25]. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ، فِيمَا (في الذي) إِنْ (زائدة) مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحَاقَ (نزل) بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[26]. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ (يا قريش) مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[27]. فَلَوْلَا (هلا) نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[28] .

5- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ (7)، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا! فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ[29]. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ[30]. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ (يحميكم) مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[31]. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[32]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

6- جبال من الرمل مستطيلة، قالوا: موقعها ما بين عُمَان وحضرموت (ياقوت).

7 – انظر سورة الجن رقم 40 : التقديم. القسم الأول سورة 40

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ، بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[33]. وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا! قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ[34].

6-خاتمة: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ ...

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (لقريش بالعذاب)، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ (من العذاب، سيخيل إليهم أنهم) لَمْ يَلْبَثُوا (في انتظاره) إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ! (هذا) بَلَاغٌ! فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ[35].

- تعليق

كانت السورتان الأخيرتان مخصصتين، كما رأينا، لمحوري التوحيد والمعاد، أما هذه فمخصصة لركن النبوة. لقد ميزنا فيها بين ست فقرات:

اتجهت في المقدمة مباشرة إلى تقرير موقف قريش من نبوة الرسول عليه السلام، مؤكدة أن الذين كفروا مصرون على الإعراض عما يدعوهم إليه القرآن، مكذبون بما ينذرهم به، متسائلة: أنتم تعبدون أصناما وتتوسلون إليهم! فهل خلقوا شيئا يدل على مقدرتهم على إعانتكم والاستجابة لكم مثلما تدل السماوات والأرض التي خلقها الله؟ هل خلقوا شيئا في الأرض؟ هل هم شركاء مع الله في خلق السماوات وتدبيرها؟ إن كان الأمر كذلك فأتوني بكتاب من الكتب المنزلة يتحدث عن هذا، أو بأية آثار أو دلائل من ظواهر الطبيعة أو من الصحف الأولى تعززه؟

إن قريشا قوم ضالون! هم مصرون على عبادة الأصنام وتوجيه الدعاء إليها؛ إنها لن تستجيب لهم حتى ولو استمروا يدعونها إلى يوم القيامة، ذلك لأنها جامدة لا حياة فيها، إنها لا تشعر بهم، "غافلة" عن دعائهم. وعندما تقوم القيامة وينطقها الله ستتبرأ منهم وتعلن عن كفرها بعبادتهم لها. ذلك موقف مشركي مكة من أصنامهم وذلك ما سيؤولون إليه.

أما موقفهم من القرآن فشيء آخر: عندما يسمعون ما يأتيهم به من آيات بينات تدل على صنع الله وتدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له يقولون هذا مجرد سحر، وأن محمدا ينسبه إلى الله افتراء! وترد عليهم السورة على لسان الرسول: إن كان الأمر افتراء كما تدّعون فماذا عساكم تقدرون على فعله لإثبات صحة ذلك؟ الله يعرف ما تفترون علي، وكفى به شهيدا بيني وبينكم. هو يعلم أني رسوله إليكم وأنتم تعرفون أنه قد بعث رسله إلى الأقوام السابقين، وما أنا إلا واحد منهم، فلست بدعة

فيهم، بل أنا مجرد واحد في سلسلتهم؟ كل ما هناك هو أنكم لا تريدون أن تصدقوني. أنا لا أستطيع حملكم على تصديقي، وليس من شأني ذلك. إن الأمر لله وحده، وليس لي علم بما سيفعل بي ولا بكم؟ كل ما عليّ هو اتباع ما يوحى إلي وإبلاغكم إياه. أما أنتم فأنتم تضعون أنفسكم في مأزق بإصراركم على تكذيبي: افترضوا أن ما أقوله لكم هو فعلا من عند الله، وأن أحدا من علماء اليهود الذين تعترفون أنهم أهل كتاب من الله، قد سمع ما أقول وشهد على أن هذا الذي آتيكم به موجود مثله في كتابهم وأنه من الله حقا، فَآمَنَ هو وَاسْتَكْبَرْتُمْ أنتم؟! إنه الظلم بعينه و"إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ". وإذا سألهم أحد من المسلمين : لماذا لا تصدقون به وقد صدق به من لهم علم بالكتاب من بني إسرائيل؟ فإنهم سيجيبون: لَوْ كَانَ هذا القرآن خَيْرًا من ديننا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ[8] وبالتالي سيكررون قولهم: "هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ". والحق أن القرآن قد جاء من بعد كتاب موسى فشهد بصدقه من له من اليهود علم بالتوراة تماما كما يصدق القرآن التوراة باللسان العربي، الذي هو لسان الذين جاء "لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم" ويبشر الذين استقبلوه بنية وأعمال حسنة وقالوا "رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا". هؤلاء "لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، هم "أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

يلي ذلك في الفقرة الثالثة موضوع يبدو وكأنه لا علاقة له بما سبق. والواقع أنه امتداد للفقرة التي سبقته، بل لآخر آية فيها: لقد انتهت هذه الفقرة إلى التمييز في الناس بين "الذين ظلموا" وبين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وتأتي الفقرة الثالثة لتضرب مثلا لهؤلاء برجل يحترم والديه ويقدر المشاق التي تكبدوها من أجله الخ، حتى إذا اكتملت رجولته ونضج علقه وبان رشده " قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي (ألهمني) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ". أما الآخرون "الذي ظلموا" فتضرب السورة مثلا لحالهم برجل عصا والديهم وأصر على رفض دعوتهم له إلى الإيمان بالرسالة المحمدية صائحا في وجهيهما : "أُفٍّ لَكُمَا"؛ متهكما بما يؤكده القرآن من

---

8 – ذكروا أن المشار إليه في قوله "ما سبقونا إليه هم العبيد والموالي وكانوا من أوائل المسلمين"، لكن السياق يحيل إلى رجال من اليهود المفترض فيهم أنهم سمعوا القرآن وصدقوا به وشهدوا أن في التوراة مثله. بعض المفسرين يقولون إن المشار إليهم هنا هو عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه الذين أسلموا. وهذا مردود لأن إسلام هؤلاء لم يحدث إلا بعد الهجرة، والسورة مكية. وبما أن المقام مقام جدل فلا حاجة لوجود أشخاص معينين هم المشار إليهم. بل يكفي أن السياق يفترض وجودهم. وهكذا يتضح أنه لا شيء يبرر ما ذكره المفسرون من أن ضمير الجمع في "ما سبقونا إليه" يعود إلى فقراء المسلمين. فالجدل مع الذين كفروا، وهم الذين يردون على شهادة "أهل الكتاب" المفترض أنهم صدقوا بالقرآن، قائلين: لو كان الدين الذي يدعو إليه محمد (ص) خيرا من ديننا ما سبقنا إليه هؤلاء اليهود.

القيامة والبعث والحساب والجزاء، محتجا بأنه قد مرت قرون وقرون ولم يبعث أحد يخبر بذلك، وبالتالي فـ "مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين".

وترد السورة بشهادة من التاريخ المقدس"، تاريخ الأنبياء وصراعهم مع أقوامهم، فتحيل إلى قوم تعرفهم قريش وتتناقل أخبارهم، هم قوم عاد، فتذكر بالمصير الذي آل إليه أمرهم بعد أن كذبوا نبيهم هود، ثم تلتفت إلى قريش لتذكرهم بما قصه القرآن من قبل عن سكان قرى تقع حولهم ويمرون عليها في أسفارهم، وكان مصيرهم الدمار والهلاك، منبهة إلى أن أصنامهم التي كانوا يعبدون من دون الله لن تنفعهم يوم القيامة في شيء، بل لن يعثروا لها على أثر. لقد كذبوا رسلهم فكان ذلك نتيجة لتكذيبهم إياهم. وإلى هذه الشهادة من القرون الماضية تضيف السورة (الفقرة الخامسة) شهادة فريدة عاصرها النبي (ص) عندما أوحي إليه في سورة سابقة (سورة الجن): "أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا" (الجن 1-2).

وتختم السورة بدعوة النبي إلى الصبر، وهي دعوة تكررت في الحواميم السابقة كما في غيرها من السور. وتتميز هذه الدعوة في هذه السورة بدعوة النبي إلى اتخاذ "أولي العزم من الرسل قدوة". وقد اختلف المفسرون في تحديد أسمائهم. ونحن نرى أن لفظ "العزم" هنا يحيل إلى تجربة آدم، الذي أوصاه الله بعدم الأكل من شجرة، فنسي وأكل منها : "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا" (طه 115) أي لم يثبت ولم يصمد. وإذن فالمقصود هو الاقتداء بالرسل الذين ثبتوا وصمدوا، فلم يستعجلوا العذاب لأقوامهم كما فعل بعض الرسل(نوح)، ولا تخلوا عن تبليغ رسالتهم وطلبوا النجاة لأنفسهم كما حدث لآخرين (يونس)، ولا أغرتهم نساء فتعاملوا مع الأصنام نوعا من التعامل (سليمان).

وأضافت الخاتمة إلى الصبر صورة بيانية "لطيفة" وهي أن مشركي قريش سينظرون يوم القيامة إلى حياتهم في الدنيا، التي كانوا يعدونها بعشرات السنين، وكأن زمنها لا يعادل إلا ساعة من نهار. وإذا كان الأمر كذلك فكم سيعادل الزمن الذي ستقضيه، يا محمد، هنا في الحصار؟ وتضيف: "بلاغ"..! لمن؟ ليس هناك مخاطب آخر غير النبي عليه السلام! والمعنى واضح: إن المدة التي تقضيها هنا في الحصار ستبدو لك بعد انحلاله، وكأنك لم تلبث فيه "إلا ساعة من نهار".

بالفعل لقد انحل الحصار بعد هذا البلاغ؛ فعلينا أن ننتقل إلى المرحلة التالية: مرحلة ما بعد الحصار، ولكن بعد استطراد!

استطراد

مسألة الهداية والإضلال ...

أولا: مقدمة

عبارات الهداية والإضلال كثيرة في القرآن، وقد وردت في السور التي نودعها (الحواميم) بصورة لافتة، ولذلك ارتأينا أن نخصص هذا الاستطراد لهذه المسألة "الكلامية" التي كانت لها وما زالت أصداء مدوية في الفكر الإسلامي، وذلك إلى درجة صُنِّف -ويصنَّف- جميع المسلمين بموجبها إلى "قدرية" وجبرية"، أي إلى القائلين بـ"الاختيار" والقائلين بـ"الجبر"، وبعبارة أخرى: إلى القائلين بأن الهداية والضلال من الله، والقائلين بأن ذلك يرجع إلى إرادة الإنسان واختياره.

وبما أن الرازي قد عرض في تفسيره -بتفصيل- آراء الفريقين وردود بعضهما على بعض، فقد ارتأينا أن ننقل إلى القارئ هنا جملة ما ذكره. وفخر الدين الرازي (ابن الخطيب) (544هـ - 606هـ)، المتكلم الفيلسوف الأشعري، قد عاش في عصر انتقل فيه "علم الكلام" من "طريقة المتقدمين" التي كانت تعتمد، إلى عصره، الاستدلال بالشاهد على الغائب وهي طريقة المعتزلة وأهل السنة، إلى "طريقة المتأخرين" التي كان هو من أبرز من رسخها، والتي جرى الاعتماد فيها على الاستدلال الصوري الأرسطي، بدل اعتماد الاستدلال بالشاهد على الغائب[1].

1- مسألة الهداية والضلال زمن النبوة

وقبل أن نشرع في نقل ما أورده الرازي في الموضوع الذي يهمنا -وقد أجرى الكلام فيه على طريقة المتقدمين تلك- نرى من المفيد الرجوع بالمسألة،

1- انظر التفاصيل في كتابنا "بنية العقل العربي" القسم الرابع، الفصل الأول ، فقرة 2

مسألة الهداية والضلال، إلى زمن النبوة، أي المرحلة التي تنتمي إليها السور القرآنية التي نتوّج تعاملنا معها هنا بهذا الاستطراد، فنقول:

عندما كان الخطاب موجها إلى مشركي مكة لم تكن القضية تتخذ وضعا إشكاليا. لأن الآيات التي تنسب الضلال للإنسان أو التي تنسبه إلى الله كانت تنزل منجمة مفرقة حسب مقتضى الأحوال، وبالتالي لم يكن التناقض الظاهري فيها قضية عقلية مطلقة بل كان محكوما بالسياق والظروف، ظروف الجدل مع المشركين بصفة خاصة. وكمثال على ذلك نشير إلى قوله تعالى: "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ" (الأنعام 147-148). ويرد عليهم القرآن في نفس الآية بقوله تعالى: "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (الأنعام 148)، بمعنى أن قولهم "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا" ادعاء كاذب، وأن الصحيح هو أن الله لم يرد لهم الشرك والضلال! وهذا يتناقض ظاهرا مع قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" (الأنعام 106-107). فقوله تعالى هنا : "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا" معناه أنه لم يشأ لهم الإيمان، وأنه تركهم يشركون!

لكن هذا التناقض الظاهري يتبخر عندما نلاحظ أن الآية الأخيرة تخاطب النبي عليه السلام لتسليه وتخفف عنه مما كان يحس به من أسى وأسف، لكون قومه قد أعرضوا عن دعوته وكذبوه واتهموه بالجنون وغيره؛ والرسول بشر فكان لا بد أن يقلق ويتخوف من أن يؤدي إصرار قريش على عدم الاستجابة لدعوته إلى فشله في تبليغ رسالته من جهة، وإلى تعرض قومه للعذاب والهلاك كما حصل لأقوام ماضية اتخذت نفس الموقف السلبي من أنبيائهم. فمن أجل تسلية الرسول والتخفيف عنه نزلت الآية هذه لتقول له: لا تقلق ولا تحزن لكون قومك رفضوا الدعوة وأصروا على الشرك، فمهمتك هي التبليغ فقط، وليس أن تُقسِرهم على الإيمان. في هذا السياق جاء قوله تعالى: "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" أي لا تنشغل بكون المشركين مصرين على الشرك، فلو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك رقيبا عليهم ومكلفا بسلوكهم وتوجيه إرادتهم واختيارهم. أما الآية الأولى فهي تحكي ما قاله المشركون ردا على الحجج التي عرضها عليهم القرآن والتي تبين لا معقولية عبادة الأصنام، وأن العبادة لله وحده وأنه الخالق، وحده لا شريك له، وأن التمييز بين الحلال والحرام هو من الله الخ، فكان ردهم: "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ". وواضح أن

قول المشركين هنا إنما هو تهرب وإعلان منهم عن عدم قدرتهم على التحول مما اعتادوه ووجدوا عليه آباءهم. وقد أجاب القرآن بأنهم يكذبون: "كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ". ثم قال للنبي عليه السلام: "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا"، والمقصود بالعلم هنا "الوحي من الله"، لأن الإدعاء بأن الله لو شاء "ما أشركوا" إدعاء لا يمكن إثباته بأية وسيلة أخرى غير الوحي، لأن الأمر يتعلق بمشيئة الله، وبما أنه ليس هناك تبليغ من الله في هذا الموضوع فإن قولهم ذالك لا أساس له، ولذلك خاطبهم تعالى: "إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ"، ثم أضاف : "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" (أنتم يا بني آدم)، أي لجعلكم مَهْدِيِّين منذ البداية، كالملائكة.

وقد سبق أن بَيَّن في قصة آدم كيف أن هذا الأخير عصى أمر الله وضل بتأثير الشهوة والهوى (الشيطان) وأكل من الشجرة التي أوصاه بعدم الأكل منها. لكن الله تاب عنه، وأنزله إلى الأرض ليعمرها ويتم اختباره فيها: هل سيتعظ ويتحرر من سلطان الهوى، الذي يحركه الشيطان، أم سيبقى سجينا له.

ذلك هو الإطار الذي تتحدد به الآيات القرآنية التي نزلت في جزئيات تطرح مسألة "الفعل البشري" : هل هو، وما يرتبط به من الإرادة والقدرة، فعلٌ وخلقٌ من الله، أم أنه من الإنسان؟ لم يكن هناك مجال لطرح هذه المسألة طرحا إشكاليا بهذه الصيغة زمن النبوة، لأن المشركين، الذين كان الخطاب القرآني يوجَّه إليهم في هذه المسالة، لم يكونوا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء، بل أنكروا ذلك وسخروا منه، وبالتالي لم يكونوا يربطون هذه المسألة بالمسؤولية في الآخرة. ومع ذلك فقد كان عليهم أن يفسروا أنواعا من السلوك اللامعقول الذي كانوا يأتونه مثل عبادة الأصنام وانتظار الشفاعة منها وهي لا تسمع ولا تعقل الخ. وهكذا لم يجدوا لتبرير فعلهم ذاك إلا الركون إلى التقليد فقالوا: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (طريقة وسلوك) وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" (الزخرف 23)، أو التهرب من المسؤولية بإنكار البعث والقول: "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ". وعندما أُحرجوا بالأدلة التي يوردها القرآن في إثبات البعث لم يردوا عليه بحجج في وزنها بل هربوا إلى الأمام وقالوا: "ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية24-25).

2- مسألة الجبر والاختيار بعد الفتنة الكبرى : القدرية والجبرية.

كان ذلك هو "الوضع" الذي كان يؤطر، زمن النبوة، ما عُبِّرَ عنه بمسألة "خلق الأفعال" أو "الجبر والاختيار"، بعد "الفتنة الكبرى" (الحرب بين علي ومعاوية التي قتل فيها عدد كبير من المسلمين، صحابة وتابعين). لقد طرحت بعد هذه الفتنة

مباشرة مسألة ما إذا كان معاوية وأنصاره، الذين انتزعوا الخلافة من علي بن أبي طالب بالقوة واستبدوا بالحكم ومارسوه بعسف وقهر، يتحملون مسؤولية ما قاموا به من أعمال، وفي هذه الحالة تجب الثورة عليهم والحكم عليهم بالمصير يوم القيامة إلى النار حسبما ينص عليه القرآن، أم إنهم إنما تصرفوا بقضاء وقدر، كما قال معاوية في عدد من خطبه؛ منها ما ورد في خطبة له وهو يقف على رأس جيشه في مواجهة علي وجنوده، حيث قال: "وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ولفّت بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظر، وقد قال الله سبحانه وتعالى : "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (البقرة 253). وعندما فرض ابنه يزيدا وليا للعهد قال: ""إن أمر يزيد قضاء وقدر وليس للعباد الخيرة من أمرهم"[2].

تلك هي "الفتنة الفكرية الكبرى" التي أعقبت الفتنة السياسية العسكرية. لقد انقسم المسلمون (أعني علماءهم ومفكريهم) منذ ذلك الوقت، وإلى الآن، إلى فريقين:

– فريق يرى أنه بما أن القرآن يحمل الإنسان مسؤولية أفعاله إذ يقول: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (الحديد 7–8)، ويؤكد "أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى" (النجم 38–41)، والآيات كثيرة في هذا المعنى، فإن أفعال الإنسان، التي يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب، لا يمكن أن تنسب إلى القضاء والقدر أي إلى الله، بل لابد من نسبتها إليه، إلى إرادته واختياره وفعله.

– وفريق يلتجئ إلى آيات أخرى من مثل قوله تعالى: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف 178)، وقوله "مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الأنعام 39)، وهذا يعني بصريح العبارة أن أفعال الإنسان ليست من اختياره بل هو مجبور عليها.

كان الجدل حول هذا الموضوع، في العصر الأموي، من المسائل التي قام عليها ما عرف بـ"علم الكلام" (أي العلم أو القطاع المعرفي الذي يناقش ويجادل في قضايا العقيدة). وقد أطلق على الفريق الأول اسم "القدرية"، أي الذي يقولون بقدرة الإنسان على إتيان أفعاله وبالتالي يتحمل مسؤوليتها، وقد سمُّوا في أواخر العصر الأموي باسم "المعتزلة"، أما هم فيطلقون على أنفسهم "أهل العدل" لكونهم يرون أن الحساب والجزاء يوم القيامة قائم على العدل، عدل الله، بمعنى أن الله سيطبق وعده ووعيده يوم القيامة على البشر جميعا، بدون استثناء. وفاقا مع قوله تعالى: "يَوْمَئِذٍ

2 – انظر التفاصيل في كتابنا: العقل السياسي العربي. الفصل التاسع .

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الحديد 6-8)، وعلى هذا فمصير الذين قتلوا الناس في الحرب بين علي ومعاوية، ومصير الحكام الأمويين الذي مارسوا العسف والظلم الخ، هو النار... أما خصومهم القائلين بأن ما ينسب من فعل إلى الأمويين وإلى الإنسان عامة إنما ينسب إليه على سبيل المجاز، فليس الإنسان بفاعل بل الله هو الفاعل (لا فاعل إلا الله) وبمعنى آخر الإنسان مجبور على فعل ما يفعل وليس له اختيار. ولذلك يطلق المعتزلة على خصومهم هؤلاء اسم "المجبرة". لقد احتد الجدل في مسألة الجبر والاختيار في علم الكلام، وقد عُـبِّـرَ عنها بمسألة "خلق الأفعال"، أو "الهداية والضلال".

ثانيا: عرض الرازي للمسألة

بعد هذه المقدمة التي وضعنا فيها المسألة في إطارها التاريخي ننتقل إلى عرض الرازي لآراء الفريقين، وحجج كل منها النقلية والعقلية، كما سجلها في تفسيره. أما ما قاله في كتبه الأخرى عن الموضوع نفسه فلا يهمنا هنا. وبما أن كلامه قد جاء بأسلوب يتطلب من القارئ أن يكون قد اكتسب "رياضة" ذهنية من خلال "الألفة" مع أسلوب المتكلمين في الحجاج، فإننا سنحاول عرضه مبسطا دون الإخلال بمضمونه:

أولا: الإضلال

قال الرازي في معرض تفسيره للآية 26 من سورة البقرة [3]:

"ونريد أن نتكلم ههنا في الهداية والإضلال ليكون هذا الموضع كالأصل الذي يرجع إليه في كل ما يجيء في هذا المعنى من الآيات، فنتكلم أولاً في الإضلال فنقول:

إن الهمزة تارة تجيء لنقل الفعل من غير المتعدي إلى التعدي كقولك خرج فإنه غير متعدٍ، فإذا قلت أخرج فقد جعلته معتدياً... إذا ثبت هذا فنقول: قولنا: أضله الله لا يمكن حمله إلا على وجهين:

3- هي قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26 البقرة). وبما أنه بنى تفسيره على ترتيب المصحف كسائر المفسرين فإن هذه الآية هي أول آية ورد فيها لفظ الضلال (يضل) والهداية (يهدي).

أحدهما: أنه صيره ضالاً، والثاني: أنه وجده ضالاً. أما التقدير الأول وهو أنه صيره ضالاً فليس في اللفظ دلالة على أنه تعالى صيره ضالاً عما ذا؟ وفيه وجهان: أحدهما: أنه صيره ضالاً عن الدين. والثاني: أنه صيره ضالاً عن الجنة.

أما الأول وهو أنه تعالى صيره ضالاً عن الدين فاعلم أن معنى الإضلال عن الدين في اللغة هو الدعاء إلى ترك الدين وتقبيحه في عينه، وهذا هو الإضلال الذي أضافه اللـــه تعالى إلى إبليس فقال: "إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ" (القصص: 15) وقال: "وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ" (النساء: 119) "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا" (فصلت: 29) وقال: "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ" (النمل: 24 العنبكوت: 38)، وقال (الشيطان): "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" (إبراهيم: 22) وأيضاً أضاف اللـــه تعالى هذا الإضلال إلى فرعون فقال: "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى". واعلم أن الأمة مجمعة على أن الإضلال بهذا المعنى لا يجوز على اللـــه تعالى لأنه تعالى ما دعا إلى الكفر وما رغب فيه بل نهى عنه وزجر وتوعد بالعقاب عليه، وإذا كان المعنى الأصلي للإضلال في اللغة ليس إلا هذا، وهذا المعنى منفي بالإجماع، ثبت انعقاد الإجماع على أنه لا يجوز إجراء هذا اللفظ على ظاهره. وعند هذا افتقر أهل الجبر والقدر إلى التأويل.

- تأويل الجبرية لمعنى الإضلال: الله خلق الضلال والكفر ...

أما أهل الجبر فقد حملوه على أنه تعالى خلق الضلال والكفر فيهم وصدهم عن الإيمان وحال بينهم وبينه، وربما قالوا هذا هو حقيقة اللفظ في أصل اللغة، لأن الإضلال عبارة عن جعل الشيء ضالاً، كما أن الإخراج والإدخال عبارة عن جعل الشيء خارجاً وداخلاً.

- رأي المعتزلة : هذا غير جائز ، الضلال من الإنسان.

وقالت المعتزلة هذا الرأي(=أي القول بأن الله خلق الضلال والكفر) غير جائز لا بحسب الأوضاع اللغوية ولا بحسب الدلائل العقلية:

أما الأوضاع اللغوية فبيانه من وجوه:

أحدها: أنه لا يصح من طريق اللغة أن يقال لمن منع غيره من سلوك الطريق كرهاً وجبراً أنه أضلـــه بل يقال منعه منه وصرفه عنه، وإنما يقولون إنه أضلـــه عن الطريق إذا لبَّس عليه وأورد من الشبهة ما يلبس عليه الطريق فلا يهتدي لـــه.

وثانيها: أنه تعالى وصف إبليس وفرعون بكونهما مضللين، مع أن فرعون وإبليس ما كان خالقين للضلال في قلوب المستجيبين لـــهما، بالاتفاق (اتفاق الجبرية والقدرية). وأما عند الجبرية فلأن العبد لا يقدر على الإيجاد، وأما عند القدرية فلأن العبد لا يقدر على هذا النوع من الإيجاد، فلما حصل اسم المضل حقيقة مع نفي الخالقية بالاتفاق، علمنا أن اسم المضل غير موضوع في اللغة لخالق الضلال.

وثالثها: أن الإضلال في مقابلة الـــهداية، فكما صح أن يقال هديته فما اهتدى وجب صحة أن يقال أضللته فما ضل، وإذا كان كذلك استحال حمل الإضلال على خلق الضلال.

وأما بحسب الدلائل العقلية: فلا يصح (القول عند المعتزلة: بأن الله خلق الضلال) من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لو خلق الضلال في العبد ثم كلفه بالإيمان لكان قد كلفه بالجمع بين الضدين وهو سفه وظلم، وقال تعالى: "وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ" (فصلت: 46) وقال: "لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا" (البقرة: 286) وقال: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج: 78)

وثانيها: لو كان تعالى خالقاً للجهل وملبساً على المكلفين لما كان مبيناً لما كلف العبد به، وقد أجمعت الأمة على كونه تعالى مبيناً.

ثالثها: أنه تعالى لو خلق فيهم الضلال وصدهم عن الإيمان لم يكن لإنزال الكتب عليهم وبعثة الرسل إليهم فائدة، لأن الشيء الذي لا يكون ممكن الحصول كان السعي في تحصيله عبثاً وسفهاً[4].

ورابعها: أنه على مضادة كبيرة من الآيات نحو قوله: "فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ" (الانشقاق: 20) "فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ" (المدثر: 49)، "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً" (الإسراء: 94) فبين أنه لا مانع لهم من الإيمان البتة، وإنما امتنعوا لأجل إنكارهم بعثة الرسل من البشر. وقال: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ" (الكهف: 55) وقال: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ" (لبقرة: 28) وقال: "فَأَنَّى تُصْرَفُونَ" وقال: "فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" فلو كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين وصرفهم عن الإيمان لكانت هذه الآيات باطلة.

4- نلاحظ أن الرازي الأشعري يستعمل ألفاظا ينسبها إلى خصومه المعتزلة لا تليق به تعالى. خصوصا وهو لا ينقل من كلامهم بل يروي من عنده آراءهم.

وخامسها: أنه تعالى ذم إبليس وحزبه ومن سلك سبيله في إضلال الناس عن الدين وصرفهم عن الحق وأمر عباده ورسوله بالاستعاذة منهم بقوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" إلى قوله: "مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ"، "وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ" (المؤمنين: 97)، "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" (النحل: 98) فلو كان الله تعالى يضل عباده عن الدين كما تضل الشياطين لاستحق من المذمة مثل ما استحقوه ولوجب الاستعاذة منه كما وجب منهم، ولوجب أن يتخذوه عدواً من حيث أضل أكثر خلقه كما وجب اتخاذ إبليس عدواً لأجل ذلك، قالوا بل خصيصية الله تعالى في ذلك أكثر إذ تضليل إبليس، سواء وجوده وعدمه فيما يرجع إلى حصول الضلال، بخلاف تضليل الله فإنه هو المؤثر في الضلال فيلزم من هذا تنزيه إبليس عن جميع القبائح وإحالتها كلها على الله تعالى فيكون الذم منقطعاً بالكلية عن إبليس وعائداً إلى الله سبحانه عن قول الظالمين.

وسادسها: أنه تعالى أضاف الإضلال عن الدين إلى غيره وذمهم لأجل ذلك، فقال: "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى" (طه: 79)، "وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ" (طه: 85)، "وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ"(الأنعام: 116)، "إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (ص: 26) وقوله تعالى حاكياً عن إبليس: "وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ" (النساء: 119)، فهؤلاء إما أن يكونوا قد أضلوا غيرهم عن الدين في الحقيقة، أو يكون الله هو الذي أضلهم، أو حصل الإضلال بالله وبهم على سبيل الشركة. فإن كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين دون هؤلاء فهو سبحانه وتعالى قد تقوّل عليهم إذ قد رماهم بدأبه وعابهم بما فيه وذمهم بما لم يفعلوه، والله متعالٍ عن ذلك؛ وإن كان الله تعالى مشاركاً لهم في ذلك فكيف يجوز أن يذمهم على فعل هو شريك فيه ومساوٍ لهم فيه، وإذا فسد الوجهان صح أن لا يضاف خلق الضلال إلى الله تعالى.

وسابعها: أنه تعالى ذكر أكثر الآيات التي فيها ذكر الضلال منسوباً إلى العصاة على ما قال: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" (البقرة: 26). "وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27)، "إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: 67)، "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ" (غافر: 34)، فلو كان المراد بالضلال المضاف إليه تعالى هو ما هم فيه، كان كذلك إثباتاً للثابت وهذا محال.

وثامنها: أنه تعالى نفى إلهية الأشياء التي كانوا يعبدونها من حيث أنهم لا يهدون إلى الحق قال: "أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى" (يونس 35)، فنفي الربوبية عن تلك الأشياء من حيث أنها لا تهدي وأوجب ربوبية

نفسه من حيث أنه سبحانه وتعالى يهدي، فلو كان سبحانه وتعالى يضل عن الحق لكان قد ساواهم في الضلال وفيما لأجله نهى عن اتباعهم، بل كان قد أربى عليهم، لأن الأوثان كما أنها لا تهدي فهي لا تضل، وهو سبحانه وتعالى مع أنه إله يهدي فهو يضل.

وتاسعها: أنه تعالى يذكر هذا الضلال جزاء لهم على سوء صنيعهم وعقوبة عليه، فلو كان المراد ما هم عليه من الضلال كان ذلك عقوبة وتهديداً بأمرهم له ملابسون، وعليه مقبولون، وبه ملتذون ومغتبطون، ولو جاز ذلك لجازت العقوبة بالزنا على الزنا وبشرب الخمر على شرب الخمر، وهذا لا يجوز.

وعاشرها: أن قوله تعالى: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ، الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ" (البقرة: 26، 27) صريح في أنه تعالى إنما يفعل به هذا الإضلال بعد أن صار هو من الفاسقين الناقضين لعهد الله باختيار نفسه، فدل ذلك على أن هذا الإضلال الذي يحصل بعد صيرورته فاسقاً وناقضاً للعهد مغاير لفسقه ونقضه.

وحادي عاشرها: أنه تعالى فسر الإضلال المنسوب إليه في كتابه، إما بكونه ابتلاءً وامتحاناً، أو بكونه عقوبة ونكالاً، فقال في الابتلاء: "وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ" أي امتحاناً إلى أن قال: "كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ" (المدثر: 31) فبين أن إضلاله للعبد يكون على هذا الوجه من إنزاله آية متشابهة أو فعلاً متشابهاً لا يعرف حقيقة الغرض فيه؛ والضال به هو الذي لا يقف على المقصود ولا يتفكر في وجه الحكمة فيه بل يتمسك بالشبهات في تقرير المجمل الباطل كما قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" (آل عمران: 7). وأما العقوبة والنكال فكقوله: "إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ والسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ" (غافر: 71) إلى أن قال: "كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللّهُ الْكَافِرِينَ" فبين أن إضلاله لا يعدو أحد هذين الوجهين، وإذا كان الإضلال مفسراً بأحد هذين الوجهين وجب أن لا يكون مفسراً بغيرهما دفعاً للاشتراك، فثبت أنه لا يجوز حمل الإضلال على خلق الكفر والضلال.

<u>المعتزلة: الوجوه العقلية لنفي الإضلال عن الله</u>

(قال المعتزلة) وإذا ثبت ذلك فنقول:

بينا أن الإضلال في أصل اللغة الدعاء إلى الباطل والترغيب فيه والسعي في إخفاء مقابحه، وذلك لا يجوز على الله تعالى فوجب المصير إلى التأويل، والتأويل الذي ذهبت الجبرية إليه قد أبطلناه (يقول المعتزلة) فوجب المصير إلى وجوه أخر من التأويلات.

أحدها: أن الرجل إذا ضل باختياره، عند حصول شيء، من غير أن يكون لذلك الشيء أثر في إضلاله، فيقال لذلك الشيء إنه أضله. قال تعالى في حق الأصنام "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ" (إبراهيم: 36) أي ضلوا بهن، وقال: وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً، وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً" (نوح: 23، 24) أي ضل كثير من الناس بهم وقال: "وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً" (المائدة: 64) وقال: "فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَاراً" (نوح: 6) أي لم يزدادوا بدعائي لهم إلا فرارا، وقال: "فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي" (المؤمنون: 110) وهم لم ينسوهم في الحقيقة بل كانوا يذكرونهم الله ويدعونهم إليه ولكن لما كان اشتغالهم بالسخرية منهم سبباً لنسيانهم أضيف الإنسان إليهم. وقال في براءة: "وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ" (التوبة: 124، 125)، فأخبر سبحانه أن بنزول السورة المشتملة على الشرائع يعرف أحوالهم، فمنهم من يصلح عليها فيزداد بها إيماناً، ومنهم من يفسد عليها فيزداد بها كفراً، فإذن أضيفت الزيادة في الإيمان والزيادة في الكفر إلى السورة، إذ كانوا إنما صلحوا عند نزولها وفسدوا كذلك أيضاً، فكذا أضيف الهدى والإضلال إلى الله تعالى إذا كان إحداثهما عند ضربه تعالى الأمثال لهم وقال في سورة المدثر: "وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ" (المدثر: 31) فأخبر تعالى أن ذكره لعدة خزنة النار (وهم تسعة عشر) امتحان منه لعباده ليتميز المخلص من المرتاب فآلت العاقبة إلى أن صلح عليها المؤمنون وفسد الكافرون، وأضاف زيادة الإيمان وضدها إلى الممتحنين فقال ليزداد، وليقول، ثم قال بعد قوله: "مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ" (المدثر: 31) فأضاف إلى نفسه إضلالهم وهداهم بعد أن أضاف إليهم الأمرين معاً، فبين تعالى أن الإضلال مفسر بهذا الامتحان. ويقال في العرف أيضاً: أمرضني الحب أي مرضت به: ويقال قد أفسدت فلانة فلاناً وهي لم تعلم به، وقال الشاعر: دع عنك لومي فإن اللوم إغراء، أي يغري الملوم باللوم، والإضلال على هذا المعنى يجوز أن يضاف إلى اللـه تعالى على معنى أن الكافرين ضلوا بسبب الآيات المشتملة على الامتحانات: ففي هذه الآية: الكفار لما قالوا: ما الحاجة إلى الأمثال وما الفائدة فيها، واشتد عليهم هذا الامتحان حسنت هذه الإضافة.

وثانيها: أن الإضلال هو التسمية بالضلال فيقال أضلـه أي سماه ضالاً وحكم عليه به، وأكفر فلان فلاناً إذا سماه كافراً ...

وثالثها: أن يكون الإضلال هو التخلية وترك المنع بالقهر والجبر، فيقال أضله إذا خلاه وضلاله، قالوا ومن مجازه قولــهم: أفسد فلان ابنه وأهلكه ودمر عليه، إذا لم يتعهده بالتأديب... ويقال لمن ترك سيفه في الأرض الندية حتى فسد وصدئ: أفسدت سيفك وأصدأته.

ورابعها: الضلال والإضلال هو العذاب والتعذيب، قال تعالى: "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ" (القمر: 47، 48)، فوصفهم اللــه تعالى بأنهم يوم القيامة في ضلال، وذلك لا يكون إلا عذابهم. وقال تعالى: "إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ قَـالُوا ضَـلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" (غافر: 71 ـ 74)، وقد فسر ذلك الضلال بالعذاب.

وخامسها: أن يحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال كقولــه: "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد: 1) قيل أبطلــها وأهلكها. ومن مجازه قولــهم: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً فيه، ويقال أضللته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم. ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه في قبره فأخفوه حتى صار لا يرى...

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال كقولــه: "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد: 1) قيل أبطلــها وأهلكها ومن مجازه قولــهم: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً فيه ويقال أضللته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه في قبره، فأخفوه حتى صار لا يرى. وقال تعالى: "وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة: 10)، أي أئذا اندفنا فيها فخفيت أشخاصنا فيحتمل على هذا المعنى يضل اللــه إنساناً أي يهلكه ويعدمه فتجوز إضافة الإضلال إليه تعالى على هذا الوجه، فهذه الوجوه الخمسة إذا حملنا الإضلال على: الإضلال عن الدين.

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإضلال عن الجنة، قالت المعتزلة: وهذا في الحقيقة ليس تأويلاً بل حملاً للفظ على ظاهره فإن الآية تدل على أنه تعالى يضلــهم وليس فيها دلالة على أنه عما ذا يضلــهم، فنحن نحملــها على أنه تعالى يضلــهم عن طريق الجنة. ثم حملوا كل ما في القرآن من هذا الجنس على هذا المحمل وهو اختيار الجبائي قال تعالى: "كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ

إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" أي يضلــه عن الجنة وثوابها. هذا كلـــه إذا حملنا الـــهمزة في الإضلال على التعدية.

وسابعها: أن نحمل الـــهمزة على الوجدان، على ما تقدم في أول هذه المسألة بيانه، فيقال أضل فلان بعيره أي ضل عنه، فمعنى إضلال اللـــه تعالى لـــهم أنه تعالى وجدهم ضالين.

وثامنها: أن يكون قولـــه تعالى: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً" من تمام قول الكفار، فإنهم قالوا ماذا أراد اللـــه بهذا المثل الذي لا يظهر وجه الفائدة فيه، ثم قالوا: يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وذكروه على سبيل التهكم، فهذا من قول الكفار. ثم قال تعالى جواباً لـــهم: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" أي ما أضل به إلا الفاسق.

قال الرازي هذا مجموع كلام المعتزلة.

<u>رد الجبرية</u>

ثم قال: "وقالت الجبرية –ردا على المعتزلة– لقد سمعنا كلامكم واعترفنا لكم بجودة الإيراد وحسن الترتيب وقوة الكلام، ولكن ماذا نعمل ولكم أعداء ثلاثة يشوشون عليكم هذه الوجوه الحسنة؟ والدلائل اللطيفة:

أحدها: مسألة الداعي: وهي أن القادر على العلم والجهل والإهداء والإضلال لِمَ فعل أحدهما دون الآخر؟

وثانيها: مسألة العلم على ما سبق تقريرها في قولـــه تعالى: "خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ". وما رأينا لكم في دفع هذين الكلامين كلاماً محيلاً قوياً. ونحن، لا شك، نعلم أنه لا يخفى عليكم مع ما معكم من الذكاء، الضعف عن تلك الأجوبة التي تكلموا بها. فكما أنصفنا واعترفنا لكم بحسن الكلام الذي ذكرتموه فأنصفوا أيضاً واعترفوا بأنه لا وجه لكم عن هذين الوجهين فإن التعامي والتغافل لا يليق بالعقلاء.

وثالثها: أن فعل العبد لو كان بإيجاده لما حصل إلا الذي قصد إيجاده، لكن أحداً لا يريد إلا تحصيل العلم والاهتداء، ويحترز كل الاحتراز عن الجهل والضلال فكيف يحصل الجهل والإضلال للعبد مع أنه ما قصد إلا تحصيل العلم والاهتداء؟ فإن قيل إنه اشتبه عليه الكفر بالإيمان والعلم بالجهل فظن في الجهل أنه علم فقصد إيقاعه فلذلك حصل لـــه الجهل، قلنا: ظنه في الجهل أنه علم، ظن خطأ. فإن كان اختاره أولاً فقد اختار والخطأ لنفسه، وذلك غير ممكن. وإن قلنا إنه اشتبه عليه ذلك بسبب ظن آخر متقدم عليه لزم أن يكون قبل كل ظن ظن لا إلى نهاية وهو محال.

ورابعها: أن التصورات غير كسبية، والتصديقات البديهية غير كسبية، والتصديقات بأسرها غير كسبية، فهذه مقدمات ثلاثة[5].

المقدمة الأولى: في بيان أن التصورات غير كسبية، وذلك لأن من يحاول اكتسابها فإما أن يكون متصوراً لها أو لا يكون متصوراً لها، فإن كان متصوراً لها استحال أن يطلب تحصيل تصورها لأن تحصيل الحاصل محال، وإن لم يكن متصوراً لها كان ذهنه غافلاً عنها والغافل عن الشيء يستحيل أن يكون طالبه[6].

المقدمة الثانية: في بيان أن التصديقات البديهية غير كسبية لأن حصول طرفي التصديق إما أن يكون كافياً في جزم الذهن بذلك التصديق أولاً يكون كافياً، فإن كان الأول كان ذلك التصديق دائراً مع ذينك التصورين على سبيل الوجوب نفياً

5- هذا الاعتراض لا يمكن أن يكون من أهل السنة لأنه مبني على مصطلحات منطقية لم تبدأ في الشيوع إلا مع الغزالي والرازي نفسه. أما قوله "كسبية" فهو نسبة إلى فكرة "الكسب" التي حاول بها أبو الحسن الأشعري الهروب من الجبر. قال: "إن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عُقيب القدرة الحادثة، (أي التي يحدثها في الإنسان) أو تحتها أو معها، الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له، وسمى هذا كسبا. فيكون خلقا من الله تعالى إبداعا وإحداثا، وكسبا من العبد حصولا تحت قدرته". وذلك ما لم يستسغه الجويني الذي يرى أن إثبات قدرة لا أثر لها بوجه، كما يقول الأشعري، هو كنفي القدرة أصلا، وأما إثبات التأثير لهذه القدرة في حالة دون أخرى كما يقول الباقلاني، فشيء لا يعقل، لأن القول بهذا كالقول بنفي التأثير. من أجل هذا "لا بد من نسبة التأثير إلى فعل العبد وقدرته حقيقة"، ولكن "لا على وجه الإحداث والخلق"، لأن الذي يخلق يشعر باستقلاله، كما أن الخلق يعني الإيجاد من العدم، والحال أن الإنسان، كما يشعر بقدرته على الفعل يشعر أيضا بعدم استقلاله في فعله "فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة العقل إلى القدرة، وكذلك يستند سبب إلى سبب حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها". ثم يضيف الشهرستاني الذي أورد ما ذكرنا قائلا: "وهذا الرأي أخذه (=الجويني) من الحكماء الإلهيين (أرسطو) وأبرزه في معرض الكلام" الشهرستاني. الملل والنحل. ج3 ص97

6- وهذا احتجاج سفسطائي أيضا! ذلك أن الحجة مبنية على ما سموه بـ "العلم الضروري"، وهو ما تمدنا به حواسنا من دون إرادة منا. فإذا فتحت عينيك ورأيت شجرة، فانطباع صورة الشجرة في ذهنك لم يكن بإرادتك وبالتالي فـ "تصور" الشجرة لم يكن من عملك وكسبك، بل حصل ذلك لديك باضطرار، وهذا معنى أن قولهم إن "التصورات غير كسبية" أو "المعارف الحسية ضرورية".

وإثباتاً، وما كان كذلك لم يكن مقدوراً، وإن كان الثاني لم يكن التصديق بديهياً بل متوقفاً فيه[7].

المقدمة الثالثة: في بيان أن التصديقات بأسرها غير كسبية وذلك لأن هذه النظريات إن كانت واجبة اللزوم عن تلك البديهيات التي هي غير مقدورة كانت تلك النظريات أيضاً غير مقدورة. وإن لم تكن واجبة اللزوم عن تلك البديهيات لم يمكن الاستدلال بتلك البديهيات على تلك النظريات، فلم تكن تلك الاعتقادات الحاصلة في تلك النظريات علوماً، بل لا تكون إلا اعتقاداً حاصلاً للمقلد وليس كلامنا فيه، فثبت أن كلامكم (أيها المعتزلة) في عدم إسناد الاهتداء والضلال إلى الله تعالى معارض بهذه الوجوه العقلية القاطعة التي لا جواب عنها"[8]. (وهكذا فبعد أن اعترف الرازي بضعف ردود الأشاعرة باستعمال طريقة المتقدمين (الاستدلال بالشاهد على الغائب) أراد أن ينقد الموقف باعتماد طريقة المتأخرين أي طريقة الاستدلال في المنطق الأرسطي، فأتى بمقدمات ادعى لها الصحة والضرورة واستنتج منها ما يريد! بعد هذا قال: "ولنتكلم الآن فيما ذكروه (المعتزلة) من التأويلات:

- أما التأويل الأول فساقط لأن إنزال هذه المتشابهات هل لها أثر في تحريك الدواعي أو ليس لها أثر في ذلك؟ فإن كان الأول وجب على قولكم أن يقبح لوجهين:

7- "التصديقات" هي الأحكام. التصديق: مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل باصطلاح النحويين: "فلان سارق"، "سرق فلان". وهذه تصديقات كسبية أي كسبها الإنسان بأفعاله، أما التصديقات البديهية فهي لا تحتاج إلى فعل وبالتالي ليست كسبية. فقولنا "الكل أكبر من الجزء" (أي من أي جزء من أجزائه) تصديق، أو حكم بديهي، لأنه عقلي محض، لا يحتاج إلى برهان. ومقصود الرازي هو أن الضرورة العقلية التي توصف بها البديهيات "ليست مقدورة للإنسان" بل هي موضوعة في عقولنا وواضعها هو الله.

8 - المقصود بالتصديقات الكسبية هي الأحكام التي نتوصل إليها بالاستدلال، والاستدلال في المنطق الأرسطي الذي يستعين به الرازي هنا ، لا تكون نتائجه صادقة إلا إذا كانت مقدماته صادقة. وهذه لا تكون صادقة إلا إذا كانت بديهيات أو مبنية على بديهيات (مثل الكل أكبر من الجزء، ومبدأ السببية، ومبدأ عدم التناقض...) كما هو الشأن في النظريات الهندسية. وبما أنه "أثبت" في الفقرة السابقة أن "التصديقات البديهية" غير كسبية بمعنى أنها ليست من عندنا بل من واضعها في عقولنا وهو الله، فإن النظريات المبنية عليها أي معارفنا وآراؤنا واعتقاداتنا المبنية على الاستدلال هي أيضا غير كسبية. بالتالي فهي إما نتيجة وتقليد سمع ونقل الخ -ويقول وهذا ليس هو المطروح هنا- وإما أنها من وضع الله في عقولنا، وإذا ثبت هذا ثبت أن الإضلال من الله، بمعنى أن وقوع الإنسان في الضلال ليس من مقدوره ولا من اختياره.

الأول: أنا قد دللنا في تفسير قوله: "خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ" على أنه متى حصل الرجحان فلا بدّ وأن يحصل الوجوب وأنه ليس بين الاستواء وبين الوجوب المانع من النقيض واسطة، فإذا أثر إنزال هذه المتشابهات في الترجيح وثبت أنه متى حصل الترجيح فقد حصل الوجوب فحينئذٍ جاء الجبر وبطل ما قلتموه.

الثاني: هب أنه لا ينتهي إلى حد الوجوب إلا أن المكلف ينبغي أن يكون مزاح العذر والعلة، وإنزال هذه المتشابهات عليه مع أن لها أثراً في ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كالعذر للمكلف في عدم الإقدام على الطاعة، فوجب أن يقبح ذلك من الله تعالى، وأما إن لم يكن لذلك أثر في إقدامهم على ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كانت نسبة هذه المتشابهات إلى ضلالهم كصرير الباب ونعيق الغراب، فكما أن ضلالهم لا ينسب إلى هذه الأمور الأجنبية كذلك وجب أن لا ينسب إلى هذه المتشابهات بوجه ما، وحينئذٍ يبطل تأويلهم.

– أما التأويل الثاني، وهو التسمية والحكم، فهو، وإن كان في غاية البعد، لكن الإشكال معه باقٍ لأنه إذا سماه الله بذلك وحكم به عليه فلو لم يأتِ المكلف به لانقلب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهلاً، وكل ذلك محال والمفضي إلى المحال محال، فكان عدم إتيان المكلف به محالاً وإتيانه به واجباً، وهذا عين الجبر الذي تفرون منه وأنه ملاقيكم لا محالة. وههنا ينتهي البحث إلى الجوابين المشهورين لهما في هذا المقام وكل عاقل يعلم ببديهة عقله سقوط ذلك،

– وأما التأويل الثالث وهو التخلية وترك المنع فهذا إنما يسمى إضلالاً إذا كان الأنول والأحسن بالوالد أن يمنعه عن ذلك، فأما إذا كان الولد بحيث لو منعه والده عن ذلك لوقع في مفسدة أعظم من تلك المفسدة الأولى لم يقل أحد إنه أفسد ولده وأضله، وههنا الأمر بخلاف ذلك، لأنه تعالى لو منع المكلف جبراً عن هذه المفسدة لزمت مفسدة أخرى أعظم من الأولى، فكيف يقال إنه تعالى أفسد المكلف وأضله بمعنى أنه ما منعه عن الضلال مع أنه لو منعه لكانت تلك المفسدة أعظم.

وأما التأويل الرابع فقد اعتراض القفال عليه فقال: لا نسلم بأن الضلال جاء بمعنى العذاب، أما قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ" (القمر: 47) فيمكن أن يكون المراد في ضلال عن الحق في الدنيا وفي سعر: أي في عذاب جهنم في الآخرة ويكون قوله: "يَوْمَ يُسْحَبُونَ" من صلة سعر وأما قوله تعالى: "إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ" إلى قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" فمعنى قوله ضلوا عنا أي بطلوا فلم ينتفع بهم في هذا اليوم الذي كنا نرجو شفاعتهم فيه، ثم قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" قد يكون على معنى كذلك يضل الله أعمالهم أي يحبطها يوم القيامة،

ويحتمل كذلك يخذلهم الله تعالى في الدنيا فلا يوفقهم لقبول الحق إذ ألفوا الباطل وأعرضوا عن التدبر، فإذا خذلهم الله تعالى وأتوا يوم القيامة فقد بطلت أعمالهم التي كانوا يرجون الانتفاع بها في الدنيا.

- وأما التأويل الخامس: وهو الإهلاك فغير لائق بهذا الموضع لأن قوله تعالى: "وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً" يمنع من حمل الإضلال على الإهلاك.

- وأما التأويل السادس: وهو أنه يضله عن طريق الجنة فضعيف لأنه تعالى قال: "يُضِلُّ بِهِ" أي يضل بسبب استماع هذه الآيات والإضلال عن طريق الجنة ليس بسبب استماع هذه الآيات بل بسبب إقدامه على القبائح، فكيف يجوز حمله عليه؟

- وأما التأويل السابع: وهو أن قوله: "يُضِلُّهُ" أي يجده ضالاً قد بينا أن إثبات هذه اللغة لا دليل عليه وأيضاً فلأنه عدى الإضلال بحرف الباء فقال: "يُضِلُّ بِهِ" والإضلال بمعنى الوجدان لا يكون معدى بحرف الباء.

- وأما التأويل الثامن: فهو في هذه الآية يوجب تفكيك النظم لأنه إلى قوله يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً من كلام الكفار ثم قوله: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" كلام الله تعالى من غير فصل بينهما بل مع حرف العطف وهو الواو، ثم هب أنه ههنا كذلك لكنه في سورة المدثر وهو قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ" لا شك أنه قول الله تعالى"

قال الرازي: فهذا هو الكلام في الإضلال.

ثانيا: الهدى

<u>رأي المعتزلة:</u>

ثم قال: "أما الهدى فقد جاء على وجوه عند المعتزلة:

- أحدها: الدلالة والبيان قال تعالى: "أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا" (السجدة: 26) وقال: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ" (البقرة: 38) وهذا إنما يصح لو كان الهدى عبارة عن البيان وقال: "إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى" (النجم: 23)، وقال: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً" (الإنسان: 3)، أي سواء شكر أو كفر فالهداية قد جاءته في الحالتين، وقال: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى" (فصلت: 17)، وقال: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام: 154)، وهذا لا يقال للمؤمن. وقال تعالى حكاية عن خصوم داود عليه السلام: "وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ" (ص 22) أي أرشدنا، وقال: "إِنَّ

الّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ" (محمد: 25)، وقال: "أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ" (الزمر: 56) إلى قوله: "أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" (الزمر: 57) إلى قوله: "بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ" الزمر: 59): أخبر أنه قد هدى الكافر مما جاءه من الآيات وقال: "أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى" (الأنعام: 157) وهذه مخاطبة للكافرين.

– وثانيها: قالوا في قوله: "عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الشورى: 52) أي لتدعو وقوله: "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" (الرعد: 7) أي داع يدعوهم إلى ضلال أو هدى.

– وثالثها: التوفيق من الله بالألطاف المشروطة بالإيمان يؤتيها المؤمنين جزاء على إيمانهم ومعونة عليه وعلى الازدياد من طاعته، فهذا ثواب لهم، وبإزائه ضده للكافرين وهو أن يسلبهم ذلك فيكون مع أنه تعالى ما هداهم يكون قد أضلهم، والدليل على هذا الوجه قوله تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى" (محمد: 17)، "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى" (مريم: 76)، "وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86)، "يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27)، "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86) فأخبر أنه لا يهديهم وأنهم قد جاءهم البينات، فهذا الهدى غير البيان لا محالة، وقال تعالى: "وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" (التغابن: 11) أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" (المجادلة: 22).

–. ورابعها: الهدى إلى طريق الجنة قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً" (النساء: 175) وقال: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ"، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (المائدة: 15، 16). وقال: "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ" (محمد: 4 — 6).

والهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الجنة. وقال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ" (يونس: 90) وهذا تأويل الجبائي.

– وخامسها: الهدى بمعنى التقديم يقال هدى فلان فلاناً أي قدمه أمامه، وأصل هدى من هداية الطريق؛ لأن الدليل يتقدم المدلول، وتقول العرب أقبلت هوادي الخيل. أي متقدماتها ويقال للعنق هادي وهوادي الخيل أعناقها لأنها تتقدمها.

وسادسها: يهدي أي يحكم بأن المؤمن مهتد وتسميته بذلك لأن حقيقة قول القائل هداه جعله مهتدياً، وهذا اللفظ قد يطلق على الحكم والتسمية قال تعالى: "مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ" (المائدة: 103) أي ما حكم ولا شرع، وقال: "إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ" (آل عمران: 73) معناه أن الهدى ما حكم الله بأنه هدى وقال: "مَن يَهْدِ اللّهُ" أي من حكم الله عليه بالهدى فهو المستحق لأن يسمى مهتدياً".

قال الرازي: فهذه هي الوجوه التي ذكرها المعتزلة في الهدى وقد تكلمنا عليها فيما تقدم في باب الإضلال".

رد الجبرية على المعتزلة في الهدى

ثم أضاف: "قالت الجبرية: وههنا وجه آخر وهو أن يكون الهدى بمعنى خلق الهداية والعلم، قال الله تعالى: "وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (يونس: 25) قالت القدرية هذا غير جائز لوجوه:

أحدها: أنه لا يصح في اللغة أن يقال لمن حمل غيره على سلوك الطريق كرهاً أنه هداه إليه وإنما يقال رده إلى الطريق المستقيم وحمله عليه. فأما أن يقال إنه هداه إليه فلا.

وثانيها: لو حصل ذلك بخلق الله تعالى لبطل الأمر والنهي والمدح والذم والثواب والعقاب. فإن قيل هب أنه خلق الله تعالى إلا أنه كسب العبد قلنا هذا الكسب مدفوع من وجهين:

الأول: أن وقوع هذه الحركة إما أن يكون بتخليق الله تعالى أو لا يكون بتخليقه، فإن كان بتخليقه، فمتى خلقه الله تعالى استحال من العبد أن يمتنع منه، ومتى لم يخلقه استحال من العبد الإتيان به، فحينئذٍ تتوجه الإشكالات المذكورة وإن لم يكن بتخليق الله تعالى بل من العبد فهذا هو القول بالاعتزال.

الثاني: أنه لو كان خلقاً لله تعالى وكسباً للعبد لم يخل من أحد وجوه ثلاثة، إما أن يكون الله يخلقه أولاً ثم يكتسبه العبد أو يكتسبه العبد أولاً ثم يخلقه الله تعالى، أو يقع الأمران معاً: فإن خلقه الله تعالى كان العبد مجبوراً على اكتسابه فيعود

الإلزام، وإن اكتسبه العبد أولاً فالله مجبور على خلقه، وإن وقعا معاً وجب أن لا يحصل هذا الأمر إلا بعد اتفاقهما؛ لكن هذا الاتفاق غير معلوم لنا، فوجب أن لا يحصل هذا الاتفاق. وأيضاً فهذا الاتفاق وجب أن لا يحصل إلا باتفاق آخر، لأنه من كسبه وفعله، وذلك يؤدي إلى ما لا نهاية له من الاتفاق. وهو محال.

قال الرازي: "هذا مجموع كلام المعتزلة"، يعني رد الجبرية على مجمع كلام المعتزلة.

- رأي الجبرية: الله خالق أفعال الإنسان.

ثم قال: "قالت الجبرية: إنا قد دللنا بالدلائل العقلية التي لا تقبل الاحتمال والتأويل على أن خالق هذه الأفعال هو الله تعالى، إما بواسطة أو بغير واسطة، والوجوه التي تمسكتم بها وجوه نقلية قابلة للاحتمال، والقاطع لا يعارضة المحتمل، فوجب المصير إلى ما قلناه وبالله التوفيق".

وهكذا نرى أن الكلام في الهداية والإضلال ينتهي إلى مسألة "خلق الأفعال"، أفعال الإنسان: هل يأتيها هو، أم أن الله هو خالقها. وهذا تعبير آخر عن نفس المسألة : مسألة الجبر والاختيار. وهي في الحقيقة من المسائل التي لا يمكن الفصل فيها بصورة نهائية. فهناك أفعال يأتيها الإنسان بإرادته ولكن هناك حوادث وأشياء تحدث وتنسب للحظ أو لقوانين الطبيعة أو لغير ذلك من التسميات التي تعني أنها خارجة عن إرادة الإنسان.

وفي هذا المعنى كتب ابن تميمية رسالة صغيرة نختم بها هذا الاستطراد.

ابن تيمية: وجوب الإيمان بالقدر ونفي الاحتجاج به:

قال : "وليس في القدر (بمعنى القضاء والقدر) حجة لابن آدم ولا عذر، بل القدر يؤمَن به ولا يُحتج به، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض، فإن القدر إن كان حجة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتصّ منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظُلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه. وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن أحداً أن يفعله فهو ممتنع طبعاً محرم شرعاً.

ولو كان القدر حجة وعذراً لم يكن إبليس ملوماً معاقباً ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ولا إقامة الحدود جائزاً لا قطع السارق ولا جلد الزاني ولا رجمه، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه. ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة

من الأمم. ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع. فالشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون مُنزّلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك، ثم المنزّلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم. وتارة لا تغير ولا تبدل، وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل". (رسائل ومسائل ابن تيمية ج1 ص95).

المرحلة السادسة

ما بعد الحصار:
مواصلة الاتصال بالقبائل ...
والاستعداد للهجرة إلى المدينة



استهلال

مكث الرسول عليه السلام في الحصار هو وأهله من بني هاشم وبني المطلب نحو ثلاث سنوات، في أغلب الأقوال: من بداية السنة السابعة للنبوة إلى بداية العاشرة. ومع أن مقام الرسول وعشيرته في شعب أبي طالب قد شهدت أوقاتا قاسية فإن مقاطعة قريش لم تكن تامة ولا شاملة، ولا بنفس الشدة، مدة الحصار كله. كانت هناك ثغرات "قَبَلية"، إذ كان بعض أقارب الهاشميين غير متحمسين للحصار، كما أن العقد الذي أبرمه الملأ من قريش بينهم يتعهدون فيه بمقاطعة بني هاشم (وسموه "الصحيفة") كان يُلزم قريشا وحدها، أما القبائل العربية الأخرى فكانت تتعامل في الأسواق مع بني هاشم وبني المطلب رغم ضغوط أبي جهل وجماعته.

وهكذا، فإذا كانت "الصحيفة" قد أملاها منطق "القبيلة"، فإن "القبيلة" ليست منطقا وحسب بل هي وجدان أيضا. وهكذا سينقُضُ وجدان "القبيلة"، ما أبرمه "عقلـ"ها! ذلك أن شخصا يدعى هشام بن عمرو، وكان قريبا من ناحية الأم لأحد المحاصرين من بني هاشم، كان يحمل الطعام إليهم كل ليلة. ثم إنه بعد مدة اتصل بأفراد آخرين ممن لهم علاقة قرابة، من ناحية الأم، مع بني هاشم واتفقوا في نهاية الأمر على نقض الصحيفة؛ فجاءوا مجلس قريش بالكعبة، الواحد بعد الآخر، وأعلنوا عن عدم التزامهم بالصحيفة مبررين ذلك بأنهم لم يكونوا قد وافقوا عليها. وهكذا انفرط عقد حصار قريش، فأخرجت الصحيفة من الكعبة ومزقت وخرج بنو هاشم من الحصار (ابن إسحق).

بعد خروج أبي طالب من الحصار مرض مرض موته، وتقول إحدى الروايات[1] إن زعماء قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، تنادوا لمناقشة أمر محمد (ص) فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فنكلمه فيه فلينصفنا منه، فيأمره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبد، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء فتُعَيِّرُنا العرب ويقولون: تركوه حتى إذا مات عمه وتناولوه". وهكذا بعثوا رجلا منهم إلى أبي طالب ليقول له: "يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من

---

1 - الروايات حول لقاءات قريش مع أبي طالب وما جرى فيها من كلام متداخلة غير مرتبة زمنيا، بعضها يكرر بعضا، ونحن نذكر منها، بين حين وآخر، ما هو أقرب إلى زمن اللقـاء وظروفه.

ابن أخيك، فمُرْه فليكُفَّ عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. وتقول إحدى الروايات إن أبا طالب بعث إلى النبي عليه السلام "فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق! فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بَداءٌ، وأنه خاذِله ومسلِمُه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله: يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. ثم استعبر رسول الله فبكى، ثم قام. فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي! فأقبل عليه رسول الله فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشر أبدا"[2].

ولم تمر إلا أيام حتى توفي أبو طالب، كما توفيت بعده خديجة زوج النبي (ص)، –وقيل بين موتهما نحو شهر– "فاجتمعت على رسول الله (ص) مصيبتان فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به[3]، فبلغ ذلك عمه أبا لهب –الخصم اللدود للدعوة المحمدية– وقد تحركت فيه نوازع القرابة فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه! لا، واللات لا يوصل إليك حتى أموت! وحدث أن سبَّ رجل من كبار قريش النبي (ص)، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش صبا (أسلم) أبو عتبة (=أبو لهب)! فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب (أبوه)، ولكني أمنع بن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم! فمكث رسول الله (ص) كذلك أياما، يذهب ويأتي، لا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك (أي مصيره وهو ميت)؟ فقال له أبو لهب يا محمد: أين مدخل عبد المطلب؟ قال مع قومه. فخرج أبو لهب إليهما، فقال قد سألته فقال: مع قومه. فقالا يزعم أنه في النار! فقال (أبو لهب): يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار. فقال أبو لهب: والله لا برحت (سأبقى) لك عدوا أبدا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار". قال الراوي: فاشتد عليه هو وسائر قريش.

2- تقول إحدى الروايات إن النبي (ص) طلب من عمه أبي طلب أن يسلم وألح في الطلب، فامتنع أبو طالب قائلا: إني أخاف أن يعيرني العرب لكوني أسلمت خوفا من الموت.

3 – روي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال بعد موت أبي طالب: "لقد رأيت رسول الله (ص) أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ قال علي: فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟».

وعلى أثر ذلك خرج (ص) إلى الطائف، يلتمس النصرة من أهلها... فعمَد إلى سادة ثقيف وأشرافهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى اللّه، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ... فقال له أحدهم: "أما وجد اللّه أحداً يرسله غيرك"؟ وقال آخر: "واللّه لا أكلمك أبدا. لئن كنت رسولاً من اللّه كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب على اللّه، ما ينبغي لي أن أكلمك". فقام رسول اللّه (ص) من عندهم وقد يئس من خير ثقيف. لقد تعصبوا ضده، وأغروا به سفهاءهم وعبيدَهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حديقة. ولما رجع عنه سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه، عمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه". "وكان خروجه إلى الطائف في شوال سنة عشر من النبوة، وأقام هناك عشرة أيام وقيل معه مولاه زيد بن حارثة".

لم يتجه إلى مكة مباشرة عند رجوعه من الطائف لأنه -كما قيل- خشي أن يثير طلبه النصرة من ثقيف غَضبَ قريش، للتنافس القبلي الذي كان بينهما، فيمنعوه من دخول مكة أو يُمعنون في أذيته، خصوصا بعد وفاة أبي طالب وانقلاب أبي لهب عليه بسبب ما قاله في مصير أبيه عبد المطلب كبير عشيرته ورمز قوتها. من أجل تجنب ذلك سار إلى حراء، ثم بعث إلى بعض معارفه يطلب جوارهم، فامتنع منهم اثنان وقبِل ثالث هو المطعم بن عديّ. تسلح هذا الأخير هو وأبناؤه وخرجوا حتى أتوا المسجد، فقام على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجَرْتُ محمداً فلا يؤذه أحد منكم، ثم بعث إلى رسول الله (ص) أن أدخل، فدخل وقصد المسجد فسلّم وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله[4].

***

استمرت هذه المرحلة السادسة من مسيرة الدعوة المحمدية ومسار تنزيل القرآن بمكة أربع سنوات: من خروجه عليه السلام من الحصار في بداية السنة العاشرة، إلى أوائل السنة الرابعة عشرة للنبوة، وهي السنة الأولى للهجرة إلى المدينة. وفي ما يلي بيان لمدارج هذه المرحلة، كما أمكننا استخلاصها من واقع السيرة ومسار التنزيل.

- كانت السنة العاشرة سنة الحزن والشدة بسبب وفاة كل من عمه أبي طالب وزوجته خديجة، ورجوعه من الطائف في أسوء حال، ودخوله موطنه مكة في جوار أحد المشركين. وفي أواخر هذه السنة تزوج زوجته الأولى بعد خديجة: سودة بنت زمعة ودخل عليها في مكة. وفيها أيضا عقد عقده على عائشة بنت أبي بكر وكانت في نحو التاسعة من عمرها، ولم يدخل عليها إلا في المدينة.

4- ابن إسحاق- ابن سعد- السيرة الحلبية ...

في أواخر العاشرة وأوائل الحادية عشرة استأنف الدعوة في المواسم والأسواق[5] متخذا إستراتيجية جديدة. فبدلا من دعوة الناس إلى الإيمان بالله والبعث وترك عبادة الأصنام الخ، جهارا وبشكل جماعي كما جرت عادة الخطباء والقصاص في الأسواق، أخذ في عقد لقاءات مباشرة مع وفود القبائل، صحبة أبي بكر الذي كان خبيرا بالشؤون القبلية في الجزيرة العربية. وكان التركيز هذه المرة على البحث عن قبيلة تأويه وتتبنى دعوته وتتحالف معه. وقد أثمرت هذه الإستراتيجية: إذ استجاب له وفد الخزرج من يثرب (المدينة) وأسلموا وحملوا معهم الإسلام إلى بلدهم بعد أن وعدوه بأنهم سينقلون رغبته في التحالف معه ضد قريش ويأتونه بالنتيجة في العام القادم[6].

5- وكان قد بدأها قبل الحصار عندما نزل عليه: اصدع بما تؤمر". انظر المرحلة الرابعة في أول هذا القسم من الكتاب. الاستهلال وسورة الحجر 53.

6- تفصيل ذلك: كانت تسكن يثرب قبيلتان يمنيتان، الأوس والخزرج؛ قيل نزحتا إليها بعد انهيار سد مأرب. وكانت تقطنها قبلهما قبائل من اليهود أشهرها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قَيْنُقاع"، وقد بنوا حصونا يجتمعون بها إذا ضاقوا. فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون، إلا أن الغلبة والحكم إلى اليهود". ثم نشب نزاع بينهم وبين الأوس والخزرج فاستنجد هؤلاء ببني عمومتهم من اليمنيين الذين كانوا قد نزلوا الشام، فأنجدوهم وتغلبوا على اليهود وصار الأمر إليهم. ومع مرور الزمن حدثت احتكاكات قبلية بين الأوس والخزرج تطورت إلى سلسلة متوالية الحلقات من حروب "الأيام" كان كل طرف فيها يتحالف ضد الطرف الآخر مع اليهود ويبحث عن حلفاء آخرين خارج يثرب. كان من حروبهم "يوم معبس ومضرس"، انهزم فيه الأوس "هزيمة قبيحة لم يهزموا مثلها"، فاضطر قسم منهم إلى موادعة عدوهم الخزرج بينما رفض قسم آخر منهم، وهم بنو عبد الأشهل، فأبوا إلا الاستعداد لأخذ الثأر. "ثم سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشا على الخزرج وأظهروا أنهم يريدون العمرة". وهناك في مكة التقى بهم محمد (ص) وتعرف على قضيتهم وقال لهم : "هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له"، فدعاهم إلى الإسلام وشرح لهم قضيته فتحمس لها أحدهم، وكان شابا وقال: "هذا والله خير مما جئنا به"، فنهره رئيس الوفد قائلا "دعنا منك فقد جئنا لغير هذا فسكت". ثم مضى وفد الأوس في مهمته فعقد حلفا مع قريش، غير أن أبا جهل زعيمهم كان غائبا، فلما عاد أنكره وسعى في فسخه. ثم نشب نزاع آخر بين الأوس والخزرج فتحالف الأوس مع يهود بني قريظة وبني النضير فكان "يوم بُعاث" الذي انتهى بانتصار الأوس. وفي الموسم التالي ذهب وفد من الخزرج إلى مكة للحج والعمرة فالتقى بهم= الرسول (ص) وعرض عليهم نفسه. وكان اليهود في يثرب قد قالوا لهم، في إطار نزاع كلامي معهم: "إن نبيا مبعوثا قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم". فلما كلمهم الرسول (ص) قال بعضهم : "تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه - أجابوا محمدا (ص) - فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فنقدِم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي

- ولما حان وقت الموسم التالي (السنة الثانية عشرة)، جاء وفد منهم يتكون من اثني عشر رجلا فالتقوا بالرسول (ص) في "العقبة" وبايعوه على الإسلام، ولكن دون الالتزام بالقتال معه. وتلك هي بيعه العقبة الأولى. وقد بعث معهم الرسول (ص) مصعب بن عمر بن هاشم بن عبد مناف ليعلمهم القرآن و"كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج، كره بعضهم أن يؤمه بعض". وهكذا بدأ انتشار الإسلام في يثرب بسرعة.

- وفي العام التالي (السنة الثالثة عشرة)، وأثناء موسم الحج كذلك، قدم إلى مكة وفد يثرب وكان يضم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من المسلمين. فتواعد الوفد أثناء الموسم مع النبي (ص) في "العقبة" مرة أخرى، فتسللوا إليها مستخفين، فجاءهم النبي (ص) ومعه عمه العباس، -ولم يكن قد أسلم بعد "إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق منه"- فتكلم العباس مخاطبا الوفد: "إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فانتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده". فقبلوا منه ذلك وطلبوا من الرسول (ص) أن يتكلم فقال : "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم"، فوافقوا. واستدرك أحدهم قائلا :"يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا"؟ فأجابهم الرسول (ص) : "بل الدم الدم، الهدم الهدم"، أي ما هدمتم من الدماء أهدمه والعكس أيضا، ثم أضاف "أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"، ثم طلب منهم أن يعينوا اثني عشر نقيبا ينوبون عنهم فعينوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فبايعوه وبايعهم، وتلك هي العقبة الثانية"، وبيعتها "بيعة الحرب" بمعنى "حلف حربي". وفي أواخر هذه السنة (الثالثة عشرة) نزلت الآية التي فيها الإذن بالقتال (سورة الحج)، فأخذ يستعد للهجرة إلى المدينة. قيل بين بيعة العقبة الثانية والهجرة نحو ثلاثة أشهر.

- ومع دخول السنة الرابعة عشر نظمت قريش مؤامرة لاغتياله قبل أن يتمكن من مغادرة مكة، لكن المؤامرة فشلت، فكانت الهجرة فيها في صفر أو في غرة ربيع الأول.

أجبناك إليه من هذا الدين". (استعدنا فقرات من هذا التعليق من كتابنا "العقل السياسي العربي". الفصل الثاني. القبيلة. فقرة 4).

تلك هي مجمل التطورات التي عرفتها الدعوة المحمدية بعد خروجه عليه السلام من الحصار، قد استعدنا هنا أجزاء مما سبق أن عرضناه في مقدمة الكتاب، حتى يتمكن القارئ من أن يتتبع معنا مسار التنزيل خلالها. وسنستكمل تفصيل هذه التطورات مع تتبعنا لسور هذه المرحلة التي نزل فيها قرآن كثير.

66- سورة نوح

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى أنها رتبت في لوائح ترتيب النزول بين رتبة 66 ورتبة 73. وبالنظر إلى مضمونها وأسلوبها ولهجتها رجحنا أن تكون أول سورة نزلت في مرحلة ما بعد الحصار. وكما ذكرنا في "الاستهلال" فقد عانى الرسول عليه السلام في السنة العاشرة، التي انهار الحصار في بدايتها، معاناة شديدة، حتى سميت "سنة الحزن" : فقد توفي فيها مانعه من أذى قريش عمه أبو طالب وتوفيت بعده بأيام زوجته خديجة، كما تراجع أبو لهب عن حمايته، فانهالت عليه سهام أذى قريش من كل جانب. وحينها ذهب إلى أهل الطائف ليطلب النصرة منهم فكانت ردود فعلهم سيئة جدا. وعندما أراد العودة إلى مكة اضطر إلى طلب جوار أحد معارفه من مشركي قريش ... كل ذلك يرجح القول إنه عليه الصلاة والسلام لم يستأنف الدعوة إلا في أواخر السنة العاشرة، سنة انحلال الحصار.

ومن هنا كان ترتيب سورة نوح في لائحة جابر بن زيد في رتبة 66 مناسبا تماما. هناك من الرواة من ذكر أن النبي عليه السلام سُمع وهو يقرأ "سورة الطارق" عند عودته من الطائف، عندما جاءها يطلب النصرة من أهلها، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أن هذه السورة نزلت حينها كما تذكر بعض المصادر، فقد تكون نزلت من قبل، وهذا ما يدل عليه ترتيبها في لوائح الترتيب. (انظر القسم الأول من هذا الكتاب، سورة الطارق، رقم 36: التقديم). أما الرتبة التي وضعت فيها السورة التي نحن بصددها (سورة نوح)، في بعض اللوائح، والتي تجعلها بعد سورة النحل بموجب خبر ورد فيه أنها "نزلت بعد نزول أربعين آيةً من سورة النحل وقبل سورة الطور"، فوضع لا يستقيم في نظرنا لأن كلا من السورتين (نوح والنحل) مستقلة بنفسها، بموضوعها ولهجتها وأسلوبها وأفقها، كما سيلاحظ القارئ ذلك بنفسه. من أجل هذا حافظنا لها على رقم ترتيبها ووضعناها في مقدمة السوة التي نزلت في هذه المرحلة.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ(1) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[1]. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ[2]، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِي[3]، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ (يؤخر وفاتكم) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[4].

2- نوح: وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ!

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا[5]، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا[6]. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (كي لا يسمعوني)، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (غطوا وجوههم كي لا يروني)، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا[7]. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا[8]، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (دعوتهم علانية وسرا)[9]، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا[10]: يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[11] (بمطر كثير)، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا[12]. مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا[13]؟ (2) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا[14] (نطفة، فعلقة...). أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[15] (بعضها فوق بعض) ؟ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا[16]! وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا[17] (أنشأكم في الأصل من الطين فنبتم)(3). ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا[18]. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا[19]، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا[20] (طرقا واسعة).

1- واضح أن المقصود هنا من حكاية كفاح نوح ضد قومه عبدة الأصنام هو إعطاء مثال يطابق حال النبي محمد عليه السلام مع قومه، واعتمادا على هذا يمكن إقامة مماثلة بينهما على مستوى السورة ككل.

2- لعل المعنى الأقرب إلى مضمون الآية هو ما قاله الزمخشري: "مالكم لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم".

3 - كان القدماء خلق الإنسان من طين على غرار نشوء الدود فيها. قالوا: يتخمر الطين بفعل اختلاط الماء والتراب فيتكون الدود فيصير كائنا حيا في أدنى درجات التكوين ثم يتطور إلى ما هو أرقى إلى الحيوان، ثم إلى الإنسان. وقد اختلف المفسرون واللغويون في قوله "ينبتكم نباتا" من حيث أن مصدر أنبت هو إنبات. وقال بعضهم إن مصدر فعل "نبت" يأتي=

3- ... وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا[21] (عصاني قومي أهل مكة واتبعوا الملأ منهم)، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا[22] (صدوا

على وجهين: نباتا، وإنباتا. ونحن نرى أن المقارنة بين قوله "ينبتكم نباتا" وقوله "يخرجكم إخراجا" ينوي وراءها معنى خاص: وهو أن استعمال لفظ "إخراج" فيه تأكيد اقتضاه إنكارهم للبعث، فيه نوع من الإكراه لهم، أما في الخلق الأول فبما أنهم لا ينكرونه فقد استعمل لفظا أخف وهو "نباتا" بدل إنباتا". هذا، وقد يكون من المفيد هنا عرض ملخص لتصور الفكر القديم للعلاقة بين مستويات الوجود، نقتبسه من فصل طويل في مقدمة ابن خلدون لهذا الموضوع. لخص ابن خلدون في مقدمته تصور القدماء لمراتب الموجودات، من أدناها وهي الجماد إلى أعلاها وهي الوجود الروحاني، نقتبس منه الفقرات التالية. قال: "اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة (تحول) بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك، ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، وأوله عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء، ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل (يتحول) بعض الأوقات!، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط! ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول الأرفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية... وكان ذلك أول أفق من الإنسان، وهذا غاية شهودنا. ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات، لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا، وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل ... وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك" الخ. وهذا النوع من التصور الذي شاع لدى إخوان الصفا والإسماعيلية والباطنية عموما هو خليط من علم النفس الأرسطي والأفلاطونية المحدثة، وعليه تقوم الفلسفة الدينية الهرمسية.

الناس عني -وفود القبائل). وَقَالُوا (لهم) لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ (أصنامكم:) وَدًّا، وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا[23]، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا، وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا[24].

4- خاتمة : أغرقوا وأدخلوا نارا.

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ (بسبب ظلمهم) أُغْرِقُوا (قوم نوح) فَأُدْخِلُوا نَارًا [(4)] فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا[25]. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[2] (ساكن دار). إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا[27] [(5)]. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا[28] (الهلاك).

- تعليق

لاشك أن المتأمل في آيات هذه، مضمونا ولهجة، يستنتج أنها نزلت في ظروف صعبة كان يعاني فيها الرسول عليه السلام أشد الضغط والاضطهاد من قريش. وهذا يبرر وضعها في الرتبة التي وضعناها فيها. وإضافة إلى هذا هناك في السورة ما يشير إلى أنها نزلت فعلا في الظروف التي تلت انفكاك الحصار واتجاه النبي عليه السلام إلى الدعوة وسط القبائل في المواسم والأسواق من جهة، وتَجنّد قريش لمحاربته وتحريض القبائل على عدم الاستجابة له وحثها على الاستمرار في عبادة أصنامها. وهذا ما يشكل في نظرنا الهدف من تخصيص سورة لـ"نوح" بعدما

4- اختلف المفسرون في شرح هذه الآية. والإشكال الذي طرحوه يتعلق بقوله تعالى "أغرقوا فأدخلوا نارا". منهم من قال إنه مباشرة بعد حدوث الغرق أدخلوا "نارا"، وبما أن "نار جهنم" زمانها بعد قيام القيامة والحساب، فقد قالوا إن "النار" هنا تعني "عذاب القبر"، وقد اخذ القائلون بـ"عذاب القبر" من هذا الفهم لهذه الآية دليلا من القرآن على وجود عذاب القبر. وواضح أن هذا التأويل مجرد تكلف. فلو كان الأمر يتعلق بعذاب القبر لفصل القرآن القول فيه تفصيلا كما فعل في كثير من جزئيات قيام الساعة والحساب والجنة والنار. أما حجة القائلين بأن قوله يفيد ذلك فمبنية على كون "الفاء" "تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء"، هذا بينما قال آخرون ومنهم مقاتل والكلبي: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة نارا، ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله: "وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ" (الأعراف: 50)، "وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ" (الأعراف: 44).

5- استند بعض فرق الخوارج إلى هذه الآية في حكمهم بقتل أطفال مخالفيهم.

وردت قصته في سور عديدة سابقة. واللافت للنظر أن هذه السورة لا تعرض قصة نوح، ولا عناصر منها، كما عرضتها سور سابقة، بل اقتصرت على عرض شكواه من إعراض قومه عن دعوته، وأيضا- وهذا هو الجديد- قيام الملأ منهم بتحريض الناس ضده وحثهم على التمسك بآلهتهم وأصنامهم. وقد اختلف المفسرون في شأن هذه الأصنام فمنهم من اكتفى بالقول إنها كانت أصنام خاصة بقوم نوح. ومنهم من قال كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك أصناما لهم. قالوا: "كان "ودّ" لهذا الحيّ من كَلْب بدومة الجَندل، وكانت سُواع لهذيل برياط، وكان يغوث لبني غُطَيف من مُراد بالجُرْف من سَبأ، وكان يعوق لهمدان ببلخع، وكان نسر لذي كلاع من حِمْيَر". وقيل: "ولذلك سمت العرب بعبد ود، وعبد يغوث". وهذه الأصنام كانت معروفة زمن النبي (ص) وبعضها كان قائما يعبد؛ وقد بَعث الرسول عليه السلام -إثر فتح مكة وكسر أصنامها- سرايا لهدم أصنام القبائل العربية، وذكروا أنه بعث عمرو بن العاص في سرية لهدم الصنم "سواع" الخ.

وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن الملأ من قوم نوح هم المقصودون بقوله تعالى: " وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ (أصنامكم:) وَدًّا، وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"(6) وأنهم قالوا ذلك لمن هم دونهم بما فيهم قبائل قومهم واستحضرنا ظروف نزول هذه السورة أمكننا أن نفهم من ذلك أن المقصود هم زعماء قريش يصدون القبائل عن الدعوة المحمدية ويوصونهم بالتمسك بأصنامهم. فيكون الكلام هنا من قبيل : "إياك أعني واسمعي يا جارة"، وقد سبق مثل هذا في قوله تعالى: "قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ (يا نوح) وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟ قَالَ: وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ" (الشعراء11- 114)، ثم جاء نفس الجواب، الذي كان قيل على لسان نوح، خطابا للرسول عليه السلام : "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام 52).

6- من الجدير بالملاحظة أن أسماء هذه الأصنام تذكر هنا لأول مرة في القرآن،. يقول صاحب معجم البلدان: نقلا عن الكلبي: "كان وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسْر أصنام قوم نوح وقوم إدريس، عليهما السلام، وانتقلت إلى عمرو بن لحَيّ" (الذي ذكرنا سابقا حكاية مجيئه بالأصنام إلى مكة. انظر الاستطراد حولا الأصنام المرحلة الثانية القسم الأول)، وأعطاها لمن أجابه إلى عبادتها فأجابته إلى عبادتها همدان فدفع إليها يعوق. قال ابن حبيب: وَدّ كان لبني وبرة وكان بدومة الجندل وكانت سدانته لبني الفرافصة ابن الأحوص الكلبيين الخ.



67- سورة الذاريات

– تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة سوى خبرين، أحدهما يربط إحدى آياتها بواقعة حدثت في المدينة، في حين أن السورة مكية باتفاق، ولذلك صرفنا النظر عنه. أما الخبر الثاني، وقد روي عن علي ابن أبي طالب، فمفاده أنه لما نزلت هذه السورة وفيها قوله تعالى "فتول عنهم فما أنت بملوم" فَهِم منه بعضُ أصحابه أن "الوحي قد انقطع" وأن مصير قريش سيكون الهلكة. قالوا: فأنزل الله "وذَكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"، فزال الجزع عن أنفسهم. هذا يفترض أن يكون ثمة فاصل زمني بين الآية الأولى والثانية. وهذا ما لا نستطيع إثباته ولا نفيه. كل ما يمكن قوله هو أن السورة تندرج في السياق نفسه الذي وردت فيه سورة نوح السابقة. وسنرى كيف أن هذه السورة قد استعرضت (في الفقرة الثالثة) تجارب الأنبياء السابقين مع أقوامهم مركزة على الهلاك الذي آل إليه مصيرهم بعد أن كذبوا رسلهم، وقد ختمت بالإشارة إلى قوم نوح ("وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[46])، مع أنه أول المرسلين، واكتفت بهذه الإشارة وكأنها تحيل إلى سورة نوح السابقة. ومن هنا يصير مفهوما أن يقلق بعض المستمعين من صحابة الرسول من قوله تعالى: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[52]، أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[53]. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (يا محمد) فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ"[54]، وبالتالي يصير مفهوما أن يتوقعوا نهاية الرسالة إلى قريش والحكم عليهم بالهلكة على غرار ما حدث لقوم نوح.

أما تاريخ نزول السورة فلم يرد عنه شيء يذكر، غير أن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تتحرك ما بين رتبتي 64 و 67، وقد احتفظنا بهذا الرقم الأخير لتوافقه مع ترتيبنا. يمكن القول إذن إن هذه السورة من أوائل ما نزل بعد خروجه عليه السلام من الحصار، وبالتالي تكون قد نزلت في أواخر السنة العاشرة عندما استأنف عليه السلام الدعوة في المواسم. ومما ينبغي التنبيه إليه أن السور الأولى التي نزلت بعد خروجه عليه السلام من الحصار قد ركزت على قضية المعاد: البعث والحساب والجزاء، ولكن دون أن يعني ذلك غياب القضايا الأخرى التي تشكل الأركان الرئيسية للدعوة المحمدية في العهد المكي: النبوة، التوحيد، البعث الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: البعث آت والحساب واقع.

بسم الله الرحمن الرحيم

والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا[1] (الرياح تذرو: تنشر)، **فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا**[2] (السحب مثقلة بالماء)، **فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا**[3] (الرياح تجري بالسحب)، **فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا**[4] (الرياح توزع السحب الممطرة بأمر ربها). [(1)]، **إِنَّمَا تُوعَدُونَ** (البعث)، **لَصَادِقٌ**[5]، **وَإِنَّ الدِّينَ** (الحساب) **لَوَاقِعٌ**[6].

2- في السماء، والأرض، وفي أنفسكم آيات! أفلا تبصرون؟

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ[7] (حبكت بالنجوم، حبكا منتظما) **إِنَّكُمْ** (يا قريش) **لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ**[8] (مضطرب، حائرين) [(2)]، **يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**[9] (يُصرف عن قولكم المختلف من صرفه الإيمان). **قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ** (هؤلاء الحائرون)[10]، **الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ** (من الجهل) **سَاهُونَ**[11]، **يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ**[12]، **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**[13] (يبتلون ويقال لهم) **ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ! هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**[14]. **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**[15]، **آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ**[16] (في الدنيا)، **كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** (ينامون)[17]، **وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**[18]، **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**[19] (يعطون الصدقات). **وَفِي الْأَرْضِ** (كما في السماء ذات الحبك) **آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ**[20] (فيها أدلة على صحة ما يدعوكم

1- اختلف المفسرون في تعيين المقصود من هذه الأشياء المقسم بها، وقد ذهب جلهم إلى أن الذاريات والحاملات هي السحاب، وأن الجاريات هي السفن، وأما المقسمات فهي الملائكة. ويقول الزمخشري: "ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشئ السحاب وتنقله وتصرفه، وتجري في الجو جريا سهلا، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب"... وبه نقول نحن كذلك. ذلك أنه لا معنى لإقحام الملائكة مع الرياح، والقرآن يُقسم بالظواهر الطبيعية مبرزا من خلال انتظامها المطرد وتعاقبها الدائم أنها آيات وعلامات على وجود حياة أخرى تعقب هذه. ووجه العلاقة بين عناصر القسم وجوابه هو أنه كما أن الرياح تحمل المطر إلى غاية معينة تنتهي عندها فكذلك الحياة الدنيا، فهي تسير نحو الحياة الأخرى.

2- العلاقة بين القسم وجوابه هو أنه أقسم بانتظام السماء التي هي من خلقه على عدم انتظام رأي قريش في البعث، تارة ينكرونه وتارة يستعجلونه.

إليه محمد)، وَفِي أَنفُسِكُمْ (أيضا فيها آيات) أَفَلَا تُبْصِرُونَ[21] (ذلك)؟ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[22] (من المطر وما ينبت به، وتلك آيات أخرى). فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (فما يدعوكم إليه محمد) إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ[23].

3- تلك آيات من كتاب الطبيعة وهذه أخرى من كتاب تاريخ الرسل.

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ (ضيوف) إِبْرَاهِيمَ (من الملائكة) الْمُكْرَمِينَ[24]، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ. قَوْمٌ مُنكَرُونَ! (غرباء لا يعرفهم)[25]. فَرَاغَ (ذهب سرًّا) إِلَى أَهْلِهِ (ليأتي بما يكرمهم به) فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ[26]، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ (ولم يقتربوا من الطعام)، قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟ (فلم يجيبوا)[27]؟ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً (خاف منهم)، قَالُوا لَا تَخَفْ (نحن ملائكة مرسلون)! وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ[28] (إسحاق). فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (تصيح) فَصَكَّتْ (لطمت) وَجْهَهَا وَقَالَتْ (أنا) عَجُوزٌ عَقِيمٌ[29]. قَالُوا كَذَلِكَ (الذي قلنا) قَالَ رَبُّكِ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[30]. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ (شأنكم) أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ[31]؟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ[32] (هم قوم لوط)، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ[33]، مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ[34] (خصصها لعقاب المجرمين). فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[35] (أصحاب لوط)، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[36] ، وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[37] (أهلكنا الكافرين). وَفِي مُوسَى (أيضا تركنا آية للذين يخافون العذاب) إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[38] (هي معجزاته)، فَتَوَلَّى (أعرض فرعون محتميا) بِرُكْنِهِ (جنده) وَقَالَ: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[39]! فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ (البحر)، وَهُوَ مُلِيمٌ[40] (أتى بما يلام عليه). وَفِي عَادٍ (تركنا آية كذلك) إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ[41]، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ[42] (كالثوب البالي). وَفِي ثَمُودَ (آية كذلك) إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ[43]، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (لم يستجيبوا) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ[44]، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ[45]. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[46]. وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (بقوة) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[47] (قادرون)، وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[48]، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[49] (3). فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ[50]، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ[51].

3- المعنى كوننا خلقنا من كل شيء زوجين يجب أن ينبهكم (عن طريق المماثلة) إلى أن الحياة هي أيضا زوجان: حياة وموت الخ، وبالتالي فالبعث آت كما يأتي الليل بعد النهار.

4- خاتمة: مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ ...

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[52]، أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[53]. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (يا محمد) فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ[54]، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ[55]. وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي[56]، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِي[57]. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ[58]. فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا (من أهل مكة) ذَنُوبًا[(4)] (وبالتالي عذابا) مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ (أمثالهم من الأقوام الماضية التي أهلكها الله) فَلَا يَسْتَعْجِلُونِي[59] (لتنفيذ العقاب). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يُوعَدُونَ[60].

- تعليق

تبدأ السورة كالعادة بمقدمة تطرح فيها المحور الذي تندرج فيه، وهو هنا محور المعاد، فتؤكد بواسطة القسم أن البعث آت لا محالة. ثم تنتقل إلى موضوعها فتبدأ بالقسم بالسماء وانتظام حركات نجومها لتلفت النظر بالمقابل إلى حيرة قريش، تارة تصف النبي بالمجنون وتارة بالشاعر؛ تارة تنفي البعث نفيا تاما، وأخرى تستعجل العذاب الذي يوعدون به يوم القيامة. والأرض كالسماء فيها آيات تعطي اليقين لمن يتدبرها. ويأتي قسم ثالث جامع: "فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ (=البعث) لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ". بعد ذلك تستعيد السورة، شهادات من تاريخ الأنبياء في صراعهم مع أقوامهم، لتختم بالعودة إلى القضية المطروحة في المقدمة: "إِنَّمَا تُوعَدُونَ (البعث)، لَصَادِقٌ[5]، وَإِنَّ الدِّينَ (الحساب) لَوَاقِعٌ[6]. "فَلَا يَسْتَعْجِلُونِي[59] (لتنفيذ العقاب).

هذا التركيز على قضية البعث، قضية المصير بعد الحياة كان سلاح الدعوة المحمدية كما بينا في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية من مسار التنزيل (القسم الأول من الكتاب)، حيث بينا كيف أن خطاب الجنة والنار في القرآن : سلاح وأخلاق. هو سلاح من حيث إنه ترهيب وترغيب، وأخلاق من حيث أنه يحمّل الإنسان مسؤولية أفعاله، وبالتالي يحث على العمل الصالح وفعل الخير (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ،وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7-8).

4- الذَّنوب بالفتح: الدلو يسقى به من البئر. والمعنى : إن كفار قريش يسقون من نفس البئر التي كانت تسقي منها الأقوام الماضية المكذبة لرسلهم.

68- سورة الغاشية

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى ما ذكره الطبري من أنه "لما نعت الله ما في الجنة، عَجِبَ من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله: "أفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبل كيْفَ خُلِقَتْ"، فكانت الإبل من عيش العرب ومن خوَلهم" (من الأنعام الملازمة لهم). ونضيف أنه لم يسبق لقريش أن أبدت مثل هذا التعجب مع أن مشاهد للجنة والنار كهذه قد وردت في كثير من السور التي كانوا هم المخاطبين فيها. وسنعود إلى هذا في التعليق. أما ما عدا ذلك فلا شيء يدل على تاريخ نزولها سوى أنها مكية باتفاق. لكن يبدو واضحا أنها بمثابة تكملة للتي قبلها.

لقد ركزت السورة السابقة على إثبات البعث، وأشارت إشارة مقتضبة إلى عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، فجاءت هذه لتصف هذا النعيم وذاك العذاب. وإذن فالرتبة الذي وضعتها فيه لوائح ترتيب التنزيل (وهي رتبة 68) مناسبة تماما لما قبلها (الذاريات)، أما مناسبتها للسورة التي بعدها فموضوع سنناقشه بعد.

- نص السورة

1- مشاهد القيامة: عذاب جهنم ونعيم الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ[1] (القيامة): وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ[2] (ذليلة)، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ[3] (متعبة بالسلاسل والأغلال)، تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً[4]، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ[5] (شديدة الحرارة)، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ[6] (شوك تعافه الدواب)، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ[7]. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ[8]، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ[9]، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ[10]، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً[11]. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ[12]، فِيهَا سُرُرٌ (أسرة) مَرْفُوعَةٌ[13] (عن الماء)، وَأَكْوَابٌ (أواني للشراب) مَوْضُوعَةٌ[14] (جاهزة)، وَنَمَارِقُ (وسادات) مَصْفُوفَةٌ[15]، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ[16].

2- أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ[17]؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ[18]؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ[19]؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[20]؟ فَذَكِّرْ (بهذا)، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ[21]، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ[22]. إِلَّا (أمّا) مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ[23]، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ[24]. إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ[25]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ[26].

- تعليق

تقدمت سور من هذا النوع فيها وصف بديع للجنة والنار وحال كل منهما وما يجري فيهما من حوار، سواء بين أصحاب الجنة بعضهم مع بعض، أو أصحاب النار بعضهم مع بعض، أو بين هؤلاء وأولئك. وستأتي سور أخرى في الموضوع نفسه. وقد سبق لنا أن خصصنا لهذا الموضوع الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية (القسم الأول من الكتاب) التي كان محورها المركزي هو المعاد، تحدثنا فيه عن دور سلاح الوعد بالجنة والوعيد بجهنم كأداة فعالة في الترغيب والترهيب في الإسلام، مشيرين إلى غياب هذا السلاح في كل من خطاب التوراة وخطاب الأناجيل.

ما يلفت النظر في ما ذكرته هذه السورة من أوصاف لمظاهر النعيم في الجنة والعذاب في النار هو ما ورد في الرواية الذي ذكرنا في التقديم من كون أناس "من أهل الضلالة" قد تعجبوا من الأوصاف التي نعتت بها السورة الجنة إذ قدمت مشهدا، حيا مشخصا، عما فيها من وسائل الراحة والتمتع والاطمئنان. وإذا كانت الرواية لم تذكر ما قاله "أهل الضلالة"، فإن مجرد وصفهم هذا بـ"الضلالة" كاف ليدلنا على أن الأمر يتعلق بتعجب فيه اعتراض أو استهزاء وما أشبه. وقد سبق أن رأينا في سورة الجاثية (رقم 45) مَن تجاوز إنكارَ البعث إلى إنكار الخالق وتوجيه التحدي: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا (...) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ الجاثية (24-25)! وكما رد القرآن عليهم هناك رد عليهم هنا في "الغاشية". فقد خاطبتهم هذه السورة بما معناه: إذا كنتم تعجبون مما ذكر من وسائل الراحة والمتعة في الجنة، فلماذا لا تعجبون مما في حياتكم ومعهودكم من وسائل مسخرة لراحتكم: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ[17]؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ[18]؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ[19]؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[20]". والتركيز هنا على الإبل والجبال الخ يشعر بأن المخاطبين هنا هم العرب أهل القبائل، وكذلك الشأن في السورة السابقة. هذا ما يفسر في نظرنا "عجب أهل الضلالة" لما سمعوا ما ورد في

السورة من وصف مشخص للجنة والنار، وهو "عجب" لم يصدر عن قريش من قبل -على الأقل فيما وصلنا من روايات- وإنما أبداه أهل القبائل الذين يسمعون هذا لأول مرة. وإذن فالخاطب في هذه السورة وما سبقها من سور هذه المرحلة هم أهل القبائل المرتادون للمواسم والأسواق.



69- سورة الإنسان

- تقديم

رتبت هذه السورة مع القرآن المدني. وقد اتفق المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن على أنها من السور التي وقع الاختلاف حولها : هل هي مكية أم مدنية، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني.

ومن الذين قالوا إنها مكية ابن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل، ابن مسعود، وقد رتبها هذا الأخير في مصحفه ضمن السور المكية. وبناء على هذا نسب بعض المفسرين مكيتها إلى الجمهور. أما الذين قالوا إنها مدنية فالحسن وعكرمة والكلبي ولكن استثنوا منها آيات قالوا إنها مكية. ويرى ابن عاشور الذي حقق في أمر هذه السورة أن "الأصح أنها مكية: فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية". وأضاف: "ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلاّ ما روي من أن آية "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ" (الإنسان: 8) نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكيناً ليلةً، ويتيماً أخرى، وأسيراً أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري. وكثيراً ما حملوا نزول الآية على مُثُل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول"... ونحن رجحنا مكيتها ورتبناها هنا مع الذاريات والغاشية لمشابهتها لهما شكلا ومضمونا.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ (قد) أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا[1]: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (خليط من ماء الرجل وماء المرأة) نَبْتَلِيهِ (نختبره

بالخير وبالشر)، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا[2] (قادرا على تمييز الخير من الشر). إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا[3] [(1)].

2- والنتيجة أن الإنسان سيجازى على أعماله: إما العذاب وإما النعيم...

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا (سلاسل في أعناقهم يسحبون بها إلى النار) وَسَعِيرًا[4] (نار مهيجة). إِنَّ الْأَبْرَارَ (الأخيار الذين في الجنة) يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (تعطي نسمة الكافور)[5]، عَيْنًا (هي عين) يَشْرَبُ بِهَا (منها) عِبَادُ اللَّهِ، يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا[6] (في كل وقت). يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (كانوا يوفون بالعهد في الدنيا) وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا[7] (عاليا)، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[8]، (قائلين لهم) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا[9]. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا[10](كريها مخيفا)، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً (حسنا) وَسُرُورًا[11]، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً (أدخلوها) وَحَرِيرًا[12] (ألبسوه)، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا (حرارة) وَلَا زَمْهَرِيرًا[13] (بردا)؛ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (ظلال أشجارها)، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا[14] (سهلة القطف). وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ[15]، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا[16] (على قدر ري الشاربين)، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا[17] (مستطاب كطيب الزنجبيل)، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا[18] (لسلاسة مائها). وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (لا يفنون) إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا[19]، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ (في الجنة)، رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا[20]، عَالِيَهُمْ (فوقهم) ثِيَابُ سُنْدُسٍ (حرير) خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ (غليظة)، وَحُلُّوا (حلي في أيديهم) أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا[21]. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا[22].

3- اصبر لحكم ربك ...

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا[23] فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ، وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ (من مشركي مكة) آثِمًا أَوْ كَفُورًا[24]. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا[25]، وَمِنَ اللَّيْلِ

---

1 – تطرح هذه الآيات مسألة المشيئة مرة أخرى، مسألة الهداية والضلال، وقد عرضنا لها بتفصيل في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة السابقة.

فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا[26]. إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا[27] (شديدا: يوم القيامة). نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (ربطهم)، وَإِذَا شِئْنَا (أهلكناهم) بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا[28].

4- خاتمة: إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّه سَبِيلًا.

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا[29]، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ[2]، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[30]. يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[31].

- تعليق

تندرج هذه السورة في أفق السورتين السابقتين من حيث اقتصارها على ذكر تفاصيل أخرى عن نعيم الجنة تبدو وكأنها مكملة لما ورد فيهما، وأن خطابها متجه إلى الذين يسمعون القرآن لأول مرة من الوافدين على المواسم والأسواق، ومن هنا يمكن أن نفهم ما يبدو وكأن هذه السور تكرر ما نزل قبلها في وصف الجنة والنار. والواقع أن القرآن يومذاك لم يكن مجموعا في مصاحف يمكن أن توزع على الناس في كل مكان وزمان، فيغني ذلك عن تكرار النزول. كلا، لقد كان ما نزل من القرآن من قبل تحفظه أقلية من الناس ويكتبه كتاب الوحي، ولم تكن هناك وسيلة لنشره وتعميمه. وما نزل من قبل كان يخاطب قريشا، وربما سمعوا منه شيئا ولم يسمعوا أشياء. أما في هذه المرحلة من مسيرة السيرة، مرحلة مخاطبة الوفود القادمة من جهات مختلفة إلى أسواق مكة ومواسمها فقد كان لا بد، لتعريفهم بالدعوة وبما جاء به القرآن، من قراءة بعض آياته أو سوره عليهم، وكان لابد من سور جديدة تعبر عما سبق أن نزل، مخاطبا قريشا، بما يناسب معهود أولئك العرب الوافدين، ولفت انتباههم إلى آيات من بيئتهم ومخايلهم. وهذه السور التي تجمع بين حديث الجنة والنار فيها ترغيب وترهيب كما لا يخفى. وهما سلاح الدعوة كما بينا سابقا.

---

2 - الزمخشري قوله: "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ" : إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة. "وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ" : أي ما تشاءون طريق الطاعة إلا إذا أجبركم الله عليها.



70- سورة الكهف

- تقديم

ذكرنا قبل، في الاستهلال الذي صدرنا به المرحلة الرابعة من مسار التنزيل، أن النبي عليه السلام بدأ في الاتصال بالقبائل والانتقال بالدعوة، من التحرك على مستوى العلاقات الفردية إلى دعوة العشيرة، ثم الصدع بها في الأسواق والمواسم، وقلنا إن هذا الاتساع في مجال الدعوة قد أزعج قريشا مما جعلها تقرر مقاطعة الرسول وأهله ومحاصرتهم في شعب أبي طالب. وعندما انحل هذا الحصار رأينا الرسول عليه السلام يبادر إلى استئناف الدعوة خارج قريش، وذلك بالذهاب إلى الطائف. ومع أنه قوبل هناك بإساءة بالغة فقد اتجه في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عكاظ؛ قيل قبل دخوله مكة، وقيل بعد ذلك. ويبدو أن الخلاف قد توسع في صفوف قريش بعد انحلال حصارهم له وإلغاء عقد "الصحيفة"، ودخول النبي عليه السلام مكة، بعد زيارته الطائف، وحصوله على الحماية فيها بموجب حلف الجوار الذي منحه له المطعم بن عديّ، أحد أشراف قريش، فأخذت الدعوة المحمدية في الانتقال إلى وضع أحسن، وبدأ المستجيبون لها في التكاثر خاصة خارج مكة ومن الوافدين عليها وعلى مواسمها وأسواقها. وقد جاء رد فعل قريش هذه المرة على شكل محاولة الحصول من يهود يثرب (المدينة) على فتوى تكذب نبوءة الرسول عليه السلام.

ذلك ما انتهى إليه زعماء قريش في اجتماع عقدوه لهذا الغرض نقلته عدة روايات أشهرها النص الذي رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس، وقد ورد فيه ما يلي: "بعثت قريش النضْر بن الحارث، وعُقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدِما المدينة، فسألوا أحبار يهودَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلَم، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال الراوي: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنَ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فرَوْا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب!

وسلوه عن رجل طوّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبيّ فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضْر وعقبة حتى قدِما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله، عن أمور، فأخبروهم بها؛ فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «أُخْبِرُكُمْ غدا بِمَا سألْتُمْ عَنْهُ»، ولم يستثن (لم يقل "إن شاء الله") فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلّم خمس عشرة ليلة، لا يُحْدِث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعَدَنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزنَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم مُكْثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه، من الله عزّ وجلّ، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفِتية والرجل الطوّاف"(1). هذا وقد وردت أخبار –منسوبة كلها تقريبا إلى ابن عباس– تخص آيات معينة في السورة لا فائدة في ذكرها، فهي تجزئ وحدة السورة ولا تجدي نفعا، لا على مستوى "أسباب النزول" ولا على مستوى فهم السورة".

– نص السورة

1– مقدمة: لعلك باخع نفسك أسفا لكونهم لم يؤمنوا...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا[1]**، قَيِّمًا** (معتدلا) **لِيُنذِرَ بَأْسًا** (عذابا) **شَدِيدًا** (ينزل بالكفار) **مِنْ لَدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا**[2] (الجنة)، **مَاكِثِينَ فِيهِ** (في الأجر: الجنة) **أَبَدًا**[3]**، وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**[4] (المشركون الذين جعلوا الملائكة بنات الله) **مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، وَلَا لِآبَائِهِمْ. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا**[5]**. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ** (مُهلك) **نَفْسَكَ، عَلَى آثَارِهِمْ** (بعدهم) **إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا**

1– أما عن السؤال الخاص بالروح فانظر سورة الإسراء، لاحقا.

بِهَذَا الْحَدِيثِ، أَسَفًا[6] (مهلك نفسك حزنا على عدم إيمانهم). إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ (في الدنيا) أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[7]، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا (يوم القيامة) صَعِيدًا جُرُزًا[8] (أرضا خاوية)(2).

2- قصة أصحاب الكهف : دليل على أن البعث واقع!

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ (قيل كتاب لهم، وقيل كلبهم) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا[9] (آية لا تفهم!)(3): إِذْ أَوَى (أولئك) الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ، فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا[10] (4)، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ (جعلناهم لا يسمعون = نائمين) فِي الْكَهْفِ (مدة) سِنِينَ عَدَدًا[11]، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ (أيقظناهم) لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ (هل الفتية، أم قومهم المشركون؟) أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا[12] (مدة السنين التي لبثوها نائمين في الكهف). نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى[13]، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ (منحناهم قوة وعزما) إِذْ قَامُوا (من نومهم) فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[14] (لو دعونا إلها غيره). (قال بعضهم لبعض) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، لَوْلَا (هلا) يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا[15]. (قال ربهم، وقيل رئيسهم:) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ (اعتزلتم قومكم) وَمَا يَعْبُدُونَ، إِلَّا اللَّهَ (لم تعتزلوه بل بقيتم تعبدونه)، فَأْوُوا إِلَى

2- وجه اتصال هذه الآية مع التي قبلها ومع السياق عموما كما فهمه بعض المفسرين، كما يلي: "يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح، والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق واختبارهم. هم يكفرون ويتمردون، ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم. فأنت أيضا يا محمد ينبغي أن لا تغرق في الحزن بسبب كفرهم، إلى درجة أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الذي أمرت بتبليغه". ونحن نرى أن هذا المعنى مناسب للظروف التي نزلت فيها هذه السورة، ظروف اشتداد محاربة قريش للنبي عليه السلام خصوصا بعد وفاة عمه أبي طالب، وهي السنة التي خرج فيها من الحصار، كما ذكرنا، وبذلك تكون هذه السورة فعلا من أوائل ما نزل بعد الخروج من الحصار.

3- أتظن أن أصحاب الكهف الذين سألوك عنهم، كانوا وحدهم من آياتنا التي تثير العجب. كلا، إن آياتنا كلها عجب! أليس من كان قادرا على خلق السموات والأرض بقادر أيضا على تزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان، ثم تحويلها بعد ذلك إلى مكان خال من كل شيء، وقادر كذلك على أن يحفظ أهل الكهف في كهفهم مئات السنين؟ وسنعود إلى هذا المعنى بعد قليل.

4- هذا معناه أن أولئك الفتية كانوا موحّدين وسط قومهم المشركين فاضطروا إلى الاختفاء في الكهف، وهناك دعوا...

الكَهفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا[16] (مقاما مناسبا وهو كما يلي) : وتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَزَاوَرُ (تميل) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُمْ (تتركهم) ذَاتَ الشِّمَالِ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ (أي داخله)؛ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ[(5)]: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا[17]. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (بفناء الكهف)؛ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا[18] (لم يكن أحد يقدر أن يطلع عليهم، لهول المنظر) [(6)]. وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ (أيقظناهم) لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ: قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (بدراهمكم) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا[19]. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ (يطلعوا على أمركم) يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا[20]. وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ (بهذه الطريقة أطلعنا عليهم قومهم)، لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ (كونه يبعث الموتى) حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا. إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ (يتنازع قومهم في أمرهم) فَقَالُوا (قال الذين لا يؤمنون بالبعث) ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ. قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ (أصحاب النفوذ فيهم) لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ (حولهم) مَسْجِدًا[21]. سَيَقُولُونَ (المتنازعون زمن النبي في عدد الفتية: كانوا) ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ! قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلَا تُمَارِ (تجادل) فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا (بما أوحينا إليك)، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا[22]. وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا[23]، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ[(7)]. وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، (إذا نسيت قول "إن شاء

5- المقصود بـ"الآية" هنا : هذا الوضع الفريد للكهف: فالشمس تشرق على بابه من جهة يمين الناظر إليه وتغرب على جهة يساره فهو، بالنسبة لمن في مكة، يقع في الشمال الشرقي من الكرة الأرضية، وبالتالي فأشعة الشمس تمر من يمين الباب مائلة غير عمودية من الصباح إلى المساء، والطقس داخل الكهف سيكون بذلك معتدلا، وهؤلاء الفتية كانوا داخله على مسافة (فجوة) من بابه. هذا الطقس المعتدل يهيئ "مرفقا" مريحا ومناسبا للنوم، فلا حر ولا برد يوقظ النائم.

6- قالوا في تفسير سبب الفزع منهم أن شعرهم وأظافرهم قد طالت فوق المعهود...

7- قيل: في هذا عتاب للنبي لأنه وعد قريشا، لما سألوه عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، قائلا : "سآتيكم بالجواب غدا"، دون أن يعلق ذلك بمشيئة الله.

الله" ثم تذكرت، فقلها) وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا (مما سئلت عنه) رَشَدًا[24]. وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا[25] (8). قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ! (لا أحد أبصر منه ولا أسمع منه) مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا[26].

3- اتبع ما ينزل عليك، ونضرب الأمثال لمصير الظالمين من قريش.

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا[27] (ملجأ)(9). وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (لا تطردهم كما يطلب منك المشركون ذلك). وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

8- اختلف المفسرون في تحديد معنى (ازدادوا تسعا) وقد هيمن على تفكيرهم ما نقل عن الإسرائيليات. وأقرب الأقوال إلى ظاهر النص أنهم ازدادوا تسع سنين بعد خروجهم من الكهف. غير أن الآية التالية مباشرة ("قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا") تبقي العدد الحقيقي معلقا، لا يعلمه إلا الله، إذ يمكن أن يكون تسعة أيام أو شهور أو تسعة آلاف سنة!

9- يشرح الطبري هذه الآية مستقلة عما قبلها وما بعدها، والشيء نفسه فعل بالنسبة للتي تليها. أما القرطبي فيعتبرها "من تمام قصة أصحاب الكهف" ويفسرها بقوله: "اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف". وأما الرازي فيقول عن الآيات التالية لها، أعني قوله تعالى: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" الخ، يقول عنها: "وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل"، بينما يعتبر الزمخشري الآيتين منفصلتين، تجيب الأولى على ما كان مشركو مكة يطلبونه بقولهم للنبي "ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ" من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل"، وأما الثانية فترد على قول "قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله (ص): نحِّ هؤلاء الموالي، وهم: صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين"، "فنزلت: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ" واحبسها معهم وثبتها"... أقول (الجابري): جميع هؤلاء المفسرين -والآخرين تبع لهم- يقطعون الصلة بين ما ورد في القصة الخاصة بأصحاب الكهف، و ما جاء بعدها من حث الرسول على رفض طلب زعماء قريش طرد فقراء المسلمين والاتجاه بالعكس إلى رعايتهم والعطف عليهم والحذر من أن تغره زينة الدنيا التي يتمتع بها زعماء قريش الخ. أما نحن فنرى أن وحدة السياق في السورة يقتضي ربط قوله تعالى "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ" بقوله "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ"، واعتبار الآيتين بداية لفقرة توازن مقدمة السورة وبالخصوص منها قوله تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ (مهلك) نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ (بعدهم) إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ، أَسَفًا" الخ. وهكذا يكون السياق العام للسورة لحد الآن كما يلي: لا تحزن ولا تأسف لكون قريش يواصلون إعراضهم وتكذيبهم بالبعث، ولا تهتم بتحدياتهم. لقد أرادوا أن يحرجوك بفتوى اليهود الذين أملوا عليهم أن يختبروك بقصة أصحاب الكهف، وسنريهم كيف أن إحراجهم سيرتد عليهم (انظر ذلك في التعليق).

عَنْهُمْ (لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أصحاب المال والجاه) تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا، (أي لا تلب مطالب المشركين) وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[28] (وبالغ في اتباع هواه). وَقُلْ : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (سورها)، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ (ماء غليظ ثقيل) يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا[29] (رفيقا). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا[30]. أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا[31] (متكئا).

أ-مزرعتان مزدهرتان: إحداهما بقيت، والأخرى خاوية على عروشها!

وَاضْرِبْ لَهُمْ (لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم على فقراء المسلمين) مَثَلًا : رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ (بستانين) مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا[32]. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا. وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا[33]. وَكَانَ لَهُ (لأحد الرجلين) ثَمَرٌ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا[34]. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ (تهلك) هَذِهِ أَبَدًا[35]. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا[36] (مرجعا). قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا[37]؟ لَكِنَّا (=لكن أنا) هُوَ اللَّهُ رَبِّي، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا[38]. وَلَوْلَا (هلا) إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللَّهُ! لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا[39]، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا (على جنتك) حُسْبَانًا (صواعق) مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا[40] (أرضا ملساء فارغة من النبات)؛ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا[41]. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ (فتلف وضاع)، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا[42]؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا[43]. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ (النصرة) لِلَّهِ الْحَقِّ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا[44] (عاقبة).

ب- الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ

وَاضْرِبْ لَهُمْ (لقومك يا محمد) مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ (فأنبت) فَأَصْبَحَ (نباته) هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(10). وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا[45]. الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا[46]. وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ (تخلو منها الأرض) وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً، وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا[47]، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا (فيقول لهم): لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا[48]! وَوُضِعَ الْكِتَابُ (سجل الأعمال)، فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[49].

ج- أتتخذون إبليس وذريته أولياء؟! مصيركم ومصيرهم واحد: جهنم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (خرج عن طاعته)، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[50]! مَّا أَشْهَدتُّهُمْ (ما أحضرت إبليس وذريته لدى) خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ، وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ (إبليس وذريته) عَضُدًا[51] (حتى تقولوا إنهم لي شركاء). وَيَوْمَ يَقُولُ (الله): نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ! فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا[52] (واديا يهلكون فيه). وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ، فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا (واقعون فيها) وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا[53].

د- وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا[59].

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا[54]. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا، إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا (في انتظار) أَن تَأْتِيَهُمْ (منا) سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (هلاكهم في الدنيا) أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ (في الآخرة) قُبُلًا (عيانا)[55] (11). وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛

10- شبه الدنيا بنبات جميل فيبس فتكسر ففرّقته الرياح، بمعنى لا شيء في الدنيا يدوم!

11- المعنى: لا شيء يمكن أن ينتظره المشركون بعد أن جاءهم القرآن إلا الهلاك في الدنيا كما كان حال عاد وثمود ... أو العذاب يوم القيامة حيث يرون العذاب عيانا.

وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا[56]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ (فلأنهم اختاروا الضلالة على الهدى): إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (أغطية فلا يستطيعون) أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (صمما)، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا[57]. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ. بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (ملجأ)[58]. وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا[59].

4- موسى و الخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى[12] لِفَتَاهُ (لخادمه) لَا أَبْرَحُ (لا أتوقف عن السير) حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ[13] أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا[60] (أمدا طويلا حتى أعثر على الرجل : الخضر). فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا (البحرين) نَسِيَا حُوتَهُمَا، فَاتَّخَذَ (الحوت) سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا[61] (مسلكا). فَلَمَّا جَاوَزَا (ذلك المكان) قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (تعبا)[62]. قَالَ (الفتى) أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ،

12- فتى موسى هو خادمه ومرافقه. وقد اختلف المهتمون بهذا الشأن منذ القديم حول من هو موسى المذكور في قصة الخضر، هل هو موسى رسول الله إلى فرعون أم غيره؟ وقد أورد كل من البخاري ومسلم حديثا عن ابن عباس يرد على من أنكروا أن يكون المعني في قصة الخضر هو موسى فرعون. وقد ورد في الحديث أن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتَب الله عليه إذ لمْ يَردّ العلمَ إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدُنا خضِرٌ هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى: يا رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتا في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثمَّ. ثم يورد الحديث بقية القصة كما هي في القرآن. ومهما يكن فقصة موسى والخضر يمكن النظر إليها على أنها تطرح مسألة الخير والشر (انظر التعليق).

13- اختلف المفسرون والرواة حول موقع مجمع البحرين هذا. ومن الأقوال القريبة إلى جغرافية عصرنا ما ذكره ياقوت في معجم البلدان من أنه "اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان". أما ابن عاشور الذي استند في استخلاص موقعه من أحداث القصة فيقول : "ومجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل، فإن موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلا، فعلمنا أنه لم يكن مكانا بعيدا جدا. وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له.

فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ! وَاتَّخَذَ (الحوت) سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا[63] (يتعجب منه موسى وفتاه). قَالَ (موسى) ذَلِكَ (أي فقدنا للحوت) مَا كُنَّا نَبْغِ (لأننا بتتبع آثاره نصل إلى مطلبنا وهو العثور على الخضر)، فَارْتَدَّا (راجعين) عَلَى آثَارِهِمَا (يقصانها) قَصَصًا[64]. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا (هو الخضر)(14) آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا[65]. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا[66]؟ قَالَ (الخضر) إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا[67]! وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (خبرا)[68]؟ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا[69]. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ (لم تفهمه أو لم تستسغه) حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا[70] (أبين لك حقيقته بعد). فَانْطَلَقَا (على شاطئ البحر)، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا (اقتلع ألواحا من مقدمتها)! قَالَ (موسى) أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (منكرا)[71]! قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا[72]؟ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا[73]. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ! قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا[74]. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا[75]. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا[76]. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ (أصلحه)، قَالَ (موسى) لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا[77] (لطلبت أجرا من أهل القرية لأنهم لم يضيفونا). قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا[78]: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا[79]. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

14- اختلفوا حول الخضر من يكون؟ فقيل إنه لقب رجل من صلحاء أو أنبياء بني إسرائيل اسمه "بليا". وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقال بعضهم إن الخضر هو جرجس (مار جرجس) : وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب، وأنه ولد في فلسطين وعاش في القرن الثالث الميلادي، الشيء الذي يتناقض مع القول إنه كان في زمن موسى. وهناك قصص كثيرة عنه يكذب بعضها بعضا، خصوصا من الناحية التاريخية، وتتخللها الخرافة بقوة. والشائع أن قصة موسى مع الخضر يهودية الأصل، لكنها غير مذكورة في التوراة. وهذا ما يوهن من نسبتها إلى القصص الإسرائيلية مما أثار نزاعا بين علماء اليهود، بعضهم يعتبر موسى صاحب الخضر هو نفسه موسى فرعون وبعضهم يعتبره موسى آخر. أما في التراث الصوفي في الإسلامي فللخضر مقام كبير وقد نسجت حوله قصص وأخبار وكرامات الخ، لم نجد في القرآن الكريم ما يشهد لها بالصحة.

وكُفْرًا[80]. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا[81]. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا[82].

5- ذو القرنين... وياجوج وماجوج.

وَيَسْأَلُونَكَ (السؤال الثاني بعد سؤالهم عن أهل الكهف) عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ[15]! قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا[83]. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا[84] (طريقا يوصله إلى مراده): فَأَتْبَعَ سَبَبًا[85] (سلك طريقا، في فتوحاته)، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ [16]، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا. قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ (هؤلاء بالقتل إن كانوا كافرين غير موحدين) وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا[86] (تأسرهم). قَالَ (ذو القرنين) أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا[87]. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا[88] (نأمره بما يسهل عليه القيام به). ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا[89] (طريقا أخرى)! حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا[90] (من لباس أو سقف بسبب طبيعة أرضهم). كَذَلِكَ (فعل الإسكندر في المشرق مثل ما صنع بأهل المغرب)؛ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ (من القوة) خُبْرًا[91] (علما). ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا[92]، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ (جبلين) وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا[93] (لغتهم مختلفة). قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ: إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ[17] مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ

---

15 – توجد فيما ذكره ابن إسحاق عن ذي القرنين عناصر تتطابق مع الإسكندر المقدوني: فقد نسبه إلى اليونان، وقال عنه إنه فتح مشارق الأرض ومغاربها. وأضاف ابن هشام: "واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه". وقد عرفه بعضهم -أعني ذي القرنين، بأنه "الملك اليوناني المقدوني". لكن ذلك مجرد تخمين! فما ذكرته عنه الآيات هنا لا ينطبق عليه تاريخيا.

16- اختلفوا في قراءة هذه الكلمة: بعضهم قرأها "حامية" (ابن مسعود وطلحة وابن عمر وابن عمرو والحسن). وقرأ ابن عباس: "حمئة". قالوا: "كان ابن عباس عند معاوية؛ فقرأ معاوية: حامية، فقال ابن عباس: حمئة. فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم توجه إلى كعب الأحبار؟ كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك تجده في التوراة" (أي حمئة).

17- "ياجوج وماجوج" عند جغرافيي العرب القدماء هم سكان ما بين اليابان والصين.

خرجا (ضريبة تأخذها منا) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا[94] (حاجزا يمنعهم من الوصول إلينا). قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا[95] (حاجزا حصينا). آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ (بقطع منه)؛ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبي الجبلين بالحطب والفحم) قَالَ انفُخُوا (لتشتعل النار فيها)، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا[96] (نحاسا مذابا). فَمَا اسْطَاعُوا (يأجوج ومأجوج) أَنْ يَظْهَرُوهُ (يصعدوا فوق السد لملاسته)، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا[97] (لصلابته). قَالَ (ذو القرنين) هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي (منع يأجوج ومأجوج من الخروج إليكم)، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (قيام الساعة) جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا[98] (البعث)- وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ (الخلائق) جَمْعًا[99]، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا[100]، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا[101]. (وتعود السورة إلى قريش لتخاطبهم): أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا (أنتم يا قريش) أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي (اليهود) مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ (يستعينون بهم)؟! إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا[102]. قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا[103]، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا[104]؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا[105]. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا[106]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا[107]، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [108] (تحولا).

6- خاتمة: من كان يرجو لقاء ربه فليعمل صالحا ولا يشرك به أحدا

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي (لآياته وعجائب صنعه) لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ (ببحر آخر) مَدَدًا[109]. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[110].

- تعليق

تشتمل هذه السورة على ست فقرات -حسب توزيعنا: مقدمة، وقصة أهل الكهف، والنهي عن الاستجابة لمطالب قريش وضرب الأمثال لهم، قصة موسى

والخضر، قصة ذو القرنين، خاتمة. فكيف نفهم هذه الفقرات كعناصر في سياق واحد تبرز من خلاله وحدة السورة.

لنقل أولا إن هذه السورة تقع ضمن المحور الذي تحدثت فيه السور الثلاث السابقة (الذاريات والغاشية والإنسان). محور المعاد. وبالتحديد الوعيد لمشركي قريش، وبالتالي فسياق هذه السورة يقع على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية في إطار الظروف الصعبة التي عاني منها النبي (ص) من قريش أشد الأذى. وبما أنه عليه السلام لم يكن يلجأ، في الرد على هذا الأذى، إلى استعمال أي نوع من أنواع العنف المادي، والقرآن يدعوه باستمرار إلى الصبر، فقد كان من المناسب تماما أن يركز الخطاب القرآني هنا على جانب الوعيد الذي يتمثل في التأكيد على أن البعث واقع لا محالة، وأن جزاء الظالمين، وهم الملأ من قريش، هو جهنم خالدين فيها أبدا.

في هذا الإطار إذن يجب أن نقرأ فقرات هذه السورة بما فيها قصة أصحاب الكهف وقصة الخضر وقصة ذي القرنين. أما الفقرة الثالثة فهي تخاطب قريشا مباشرة بلغة الوعيد : بصيغة التهديد وضرب المثل.

في المقدمة تبدأ السورة بالتأكيد على المهمة التي كلف الله بها رسوله، فالقرآن الكريم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء صريح في التعبير عن هذه المهمة : لقد اختاره الله "لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا" ينزل بالمشركين، وإذن فلا موجب لأن يهلك الرسول نفسه أسفا على كونهم لم يؤمنوا بهذا القرآن، وعلى انهماكهم في متع الدنيا، ذلك لأن زينة الأرض إنما وضعها الله اختبارا لخلقه، ويوم القيامة تتحول إلى خواء، وحينها يجزى كل بعمله، فالذين عملوا صالحا في الجنة، والظالمون في النار.

من هذا المنظور تتصدى السورة للجواب عن أسئلة التحدي التي طرحتها عليه قريش، فتبدأ بقصة "الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب"، كما قال يهود "يثرب" الذي أمدوا قريشا بتلك الأسئلة. تنبه السورة أولا إلى أنه ليس ما حصل لهؤلاء الفتية هو وحده الأمر العجيب، فآيات الله كلها عجب. ولكن العجيب حقا في قصة هؤلاء الفتية هي أنها تقيم الدليل على أن الوعد بالبعث صادق. كانوا فتية مؤمنين بالله فاضطهدهم قومهم الذين يعبدون الأصنام فلجئوا إلى كهف ليختبئوا فيه، فناموا وأمد الله في نومهم فصار حالهم حال الموتى، سوى أن أجسامهم بقيت سليمة لم يصبها تفسخ ولا فساد، لأن موقع الكهف كان بحيث لا يتأثر بالبرد لأن الشمس كانت تمر عليه، ولا بحرارة الشمس لأن أشعتها كانت تمر مائلة لا تعطي من الدفء إلا ما يحفظ اعتدال الجو. هؤلاء بقوا في حالتهم تلك مدة طويلة، أزيد من ثلاثمائة سنة، انقرضت خلالها أجيال من قومهم، ثم أيقظهم

الله وبعثهم من جديد على حالهم الأولى التي كانوا عليها. وعندما أرسلوا أحدهم ليأتيهم بالطعام من السوق، ووقع التعرف عليهم فاختلف الناس في أمرهم. أما قريش فيتساءلون: كم لبث هؤلاء الفتية في نومهم؟ وسيأخذ كل منهم في تقدير ذلك فتتباين تقديراتهم وكان ذلك فتنة لهم (تماما كما حكت السور السابقة عن تساؤل الكفار – حين يبعثون يوم القيامة– كم لبثوا في الدنيا؟).

وهكذا. فالقصة التي أراد منها مشركو قريش أن تظهر "كذب" محمد قد أقامت لهم "الدليل الملموس" على صدق الوعد بالبعث. فكما بعث الله أولئك الفتية سيبعث الناس وسيرى منكرو البعث والحساب ذلك بأنفسهم يوم القيامة. إذن فعلى الرسول أن لا يأسف على قومه لكونهم لم يستجيبوا له، ولا يغتر بما يعدونه من الاستجابة إذا هو طرد الفقراء من المسلمين من مجالسه، مدعين أنهم لا يمكن أن يجلسوا وراء مواليهم وعبيدهم أو جنبا إلى جنب معهم، كما أن على الرسول أن لا يعير اهتماما لما يتمتعون به من زينة الحياة الدنيا، بل عليه أن لا يفارق هؤلاء المؤمنين الفقراء وأن لا يفصلهم عنه ولا يضطرهم إلى اللجوء إلى البقاء في "كهوفهم" كما اضطر أولئك الفتية.

بعد هذا تضرب السورة أمثلة لقريش تبين لهم من خلالها أن لا شيء يدوم في الدنيا على حاله، وتدعوهم إلى تأمل حال رجلين لكل منهما مزرعة، كانتا في البداية على حال واحدة من الخصب وحسن المنظر الخ، غير أن أحدهما غلبه الزهو بمزرعته والاعتداد بنفسه فصار يمدح فيها ويرفع من شأنها مستصغرا مزرعة صاحبه مستعليا عليه، قائلا له: "أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا"[34]. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا[35]". مضيفا "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا"[36] ناسيا أن الأحوال يمكن أن تنقلب ضده. أما صاحبه، وكان متواضعا، فرد عليه قائلا: لا تغتر فعسى أن يؤتيني ربي خيرا ويسلط على مزرعتك صاعقة تحرقها أو يغور الماء من بئرها ... وذلك ما حدث بالفعل فقد تلف ثمرها وأصبحت خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا"، فندم صاحبها ولم يجد معينا ينقذه من المصيبة التي حلت به، فتمنى لو أنه لم يشرك بالله، ولكن بعد فوات الأوان.

ثم تنبه السورة قريشا إلى أن زينة الحياة الدنيا التي يتمتعون بها هي كزينة هذه المزرعة، هي كماء أنزل من السماء، فأنبتت الأرض به نباتا مخضرا مثمرا، وقد تأتي صاعقة –وكأنها على موعد معها– لتحول كل شيء فيها إلى هشيم تذروه الرياح. وهنا تذكرهم السورة بالموعد الذي قرره الله للبشر جميعا، يوم يعرضون على الله فيقول لهم: "لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا"[48]! حينها يكشف عن "الكتاب" الذي سجلت فيه أعمالهم ليطلعوا عليها وسيكون

رد فعلهم: "يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"[49]. لقد اتخذوا إبليس وليا لهم فأشركوا بالله، فاستنكر ذلك منهم وتبرأ، وقال لهم: نَادُوا شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ! فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ". فألقوا جميعا في وادي جهنم...

ثم تتوجه السورة إلى النبي عليه السلام لتذكره بأنباء أهل القرى الذين قص القرآن مصائرهم. لقد أهلكوا جميعا لأنهم اختاروا الضلالة على الهدى وأصروا على ذلك حتى صار طبعا فيهم، فلم يكن لهم من مصير آخر.

هنا تنتقل السورة إلى قصة "موسى والخضر، لتبين للأول أنه ليس أعلم الناس (كما صرح بذلك في خطبة له) بل هناك من الناس من هو أعلم (كما ورد في الحديث... انظر الهامش رقم 11 أعلاه). وإذا كان ظاهر آيات القصة يفيد فعلا أن المسألة المطروحة هي مسألة "العلم" (الآيتان 65-66)، فإن وراء هذا الظاهر مغزى عميقا يطرح، لا العلم بكيفية عامة، بل يطرح مشكلة المعرفة على مستوى الخير والشر: أي الأشياء خير وأيهما شر؟ وهل ما نعتبره خيرا، أو شرا، هو كذلك بالفعل دائما؟

تنص الآيات السابقة، وآيات أخرى في غير هذه السورة، على أن ما يتمتع به المشركون فـ الدنيا من زينة الحياة هو شيء مؤقت، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة. وهذا قد يثير في ذهن المستضعفين الفقراء أسئلة من قبيل: وما الفائدة في أن نبقى نحن محرومين من زينة الدنيا، ونحن مؤمنون...؟ إن المسألة مسألة فلسفية تتعلق بمشكلة الشر في العالم. وفي نظرنا فإن قصة موسى والخضر جاءت في هذا المكان من السورة لتجيب عن هذا السؤال بالذات، بطريقة تمثيلية بيانية: نبي الله موسى، من أكبر الأنبياء والرسل، يقف مشدوها أمام أفعال مضرة ومحرمة يأتيها رجل، ثم يتبين لموسى أن وراء "الشرور" التي اقترفها هذا الرجل أمامه كان وراءها خير أكبر! فكيف نعرف الخير من الشر؟ وما الفائدة من وجود الشر في العالم؟

أما الفلاسفة فقد أجابوا عنها بلغتهم "البرهانية" كما يلي: إن ما يحدث من الشرور في العالم هو قليل بالنسبة للخير الكثير الحاصل فيه. وأن هذا الشر القليل ضروري للخير الكثير. فلو لم يكن هناك شر، لما كان هناك خير، لأن الخير إنما يعرف بالشر: "وبضدها تتميز الأشياء"... إن الخضر قد ارتكب أمام موسى أفعالا يصنفها الناس في خانة الشر، وذلك بناء على ما هي عليه في الظاهر: خرق سفينة مما يهدد ركابها بالغرق، قتل نفس بدون ذنب ارتكبته، عدم مطالبة المحسَن إليه (أو المسيء) بمقابل، أعني مجازاة سيئة بحسنة الخ . لكن لما شرح الخضر ما وراء تلك الأفعال السيئة في ظاهرها، بدا واضحا أن وراء الشر القليل خير كثير. فقصة موسى

والخضر، إذن، ليست دخيلة على السورة بل هي جزء من سياقها، إنها تسلية للفقراء والمستضعفين من أصحاب النبي (ص) الذين طالبته قريش بإبعادهم عنه. إن السورة تسليهم وتطيب خاطرهم بإفهامهم أن وجودهم كفقراء ضروري لوجود الأغنياء في هذه الدنيا، وأن الحال سينقلب رأسا على عقب يوم القيامة، حيث سيصبح وجود الكفار في النار ضروري لتمتع الفقراء المؤمنين في الجنة، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (الشورى 7–8)، وقوله : "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (هود 118–119)...

قصة موسى والخضر مثال يشرح مسألة وجود الشر في العالم، وهذا ما يفيده السياق الذي تنتمي إليه والذي تؤطره الآيتان التاليتان: قوله تعالى "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا7، وقوله: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا"28. أما ذكر خطبة موسى (النبي) ومحدودية علمه بالنسبة للامحدودية علم "الولي" الخضر. فلا أساس له هنا. وإنما يجد أساسه فيما يقول "العارفون" من المتصوفة، قبل الإسلام وبعده[18].

هذا، ولا تخرج قصة ذي القرنين عن السياق العام للسورة. لقد منحه الله حرية التصرف في أقوام غزاهم في جهة غروب الشمس فخيره بين أن يبيدهم وبين أن يبقي عليهم أحياء، وكذلك الشأن في أقوام غزاهم في جهة شروقها، فكان جواب ذي القرنين : "أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا87. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا"88. ذلك يعني أن عقاب الظالم في الدنيا عقاب مؤقت، وليس نهائيا، بل سيبقى متبوعا بعقاب الآخرة، وكذلك ثواب المحسن في الدنيا ثواب مؤقت والثواب الدائم الكامل في الآخرة. هذا جانب من القصة. أما الجانب الآخر فهو اتجاه ذي القرنين شمالا ليطلب منه سكان إحدى المناطق أن يجعل حدا لقوم مفسدين بجوارهم يعتدون عليهم، فشيّد بين هؤلاء وأولئك سدا عظيما لا يستطيع المعتدون اختراقه، ولكنه لا يحميهم يوم تقوم الساعة، بل سيدك دكا وسيخرجون متدافعين ليوم الحساب وسيعرض الكافرون على النار عرضا ... هنا أيضا إشارة إلى أن "السدود" التي يقيمها الناس بينهم في الدنيا، لتفصل بعضهم عن بعض:

18– راجع في هذا الموضوع كتابنا : بنية العقل العربي، الفصل الرابع من قسم العرفان : النبوة والولاية.

أغنياء/فقراء، أسياد/عبيد، مستكبرين/ مستضعفين الخ، جميع هذه السدود ستنهار يوم تقوم الساعة وستدك دكا، ليقف الجميع متساوين يوم الحساب!

وتأتي الخاتمة لتؤكد لقريش أن محاولتهم إحراج النبي بأسئلة وإثارة موضوعات كهذه لن تفيدهم في شيء، ذلك لأن الوحي يأتيه من خبير عليم لا حدود لعلمه: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا". وأكد لهم مرةً أخرى أن محمدا لا يأتي بالقرآن من عنده حتى يعجزوه : "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".

71- سورة النحل

- تقديم

وردت حول بعض آيات هذه السورة جملة من الأخبار أكثرها لا يستقيم، إما لأنها تجزئ الآيات بصورة غير معقولة وإما لأنها تربطها بنوازل حدثت في المدينة.

من الأخبار التي تجزئ الآية الواحدة، بل العبارة الواحدة بعيدا عن المعقول، ما نسب إلى ابن عباس من أنه قال : "لما نزلت "أتى أمر الله" (أول عبارة في هذه السورة" وَغر أصحاب رسول الله (ص) (اغتاظوا)، حتى نزلت (بعدها مباشرة) "فلا تستعجلوه" فسكتوا". وفي رواية أخرى : "لما نزلت "أتى أمر الله"، قاموا، فنزلت "فلا تستعجلوه". وقال الزمخشري: "روي أنه لما نزلت "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ" (القمر: 1) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن! فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ" (الأنبياء: 1) فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فنزلت "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ" فوثب رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلّم ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت "فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ" فاطمأنوا. وهذا الإخراج المسرحي لا يأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين السور الثلاث ولا ترتيبها. فسورة القمر رقم ترتيب نزولها 37، ووقت نزولها يقع حوالي السنة الخامسة/السادسة للنبوة. أما سورة الأنبياء وترتيبها 74 فقد نزلت بعد سورة النحل التي نحن ضيوف عليها ورتبتها 71، وهاتان السورتان نزلتا في أواخر السنة الحادية عشرة، أي بينهما وبين سورة القمر نحن ست سنين، فكيف يستقيم ما ذُكر في الرواية السابقة؟

هذا من جهة. ومن جهة أخرى نحن لا نتصور أن ينزل قوله تعالى "أتى أمر الله" منفردا، ثم يكون رد الفعل الذي تحدثت عنه الروايات، وهو رد فعل يستغرق وقتا، ثم ينزل قوله تعالى "فلا تستعجلوه" تسلية لهم وتهدئة! إن الأمر في نظرنا يتعلق بجملة واحدة: "أَتى أَمْرُ اللَّه فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ" بمعنى سيأتي، وقد استعمل الماضي لتأكيد مجيئه؛ وهذا النوع من التأكيد كثير في القرآن. وإذن فالمعنى: سيأتي أمر الله لا محالة، فلا تستعجلوه لأنه مقيد بأجل مسمى. (انظر هامش رقم 1 أدناه).

ومن الأخبار التي لا تفيد جديدا قول من قال: "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت إنه كذا وكذا... فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت؟ فاقسم بالله جهد يمينه "لا يبعث الله من يموت" فنزلت الآية. والواقع أن هذه الآية نزلت بمعناها في سور سابقة. والبعث مدار الجدل في السور السابقة كما رأينا. يمكن أن تكون الحادثة قد وقعت فعلا، ومع ذلك فربطها بالآية كـ "سبب نزول" فيه تجاوز كبير. ومن هذه الأخبار ما ذكر من "أن أعرابيا أتى النبي (ص) فسأله، فقرأ عليه: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا". قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه السلام: "وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم"، قال : نعم. ثم قرأ عليه ... وهو يقول نعم، حتى بلغ "كذلك يُتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون"، فولى الأعرابي. "فأنزل الله : "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون"، وهذا الخبر مفيد لا كسبب نزول بل من حيث إنه يشير إلى المخاطب، وهو "أعرابي"، وبالتالي يسمح بربط هذه الآيات بمرحلة الدعوة وسط الأسواق والقبائل.

ومن الأخبار التي وردت كـ "سبب نزول" لقوله تعالى: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ" قول بعضهم : "قال المشركون: إن محمداً (ص) سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر، يقوله (أي القرآن) من تلقاء نفسه.. أما حول قوله تعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ"، فقدر رووا عن أحد الصحابة أنه قال: "كان لنا عبدان : أحدهما يقال له يسار والآخر جبر، وكانا صيقليين (يصقلان السيوف) فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما، وكان رسول الله (ص) يمر بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا : إنما يُعلِّم منهما"، فنزلت.

- نص السورة

1- مقدمة: أَتَى أَمرُ اللَّه فَلَا تَستَعْجِلُوه..!

بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (الوحي من الله) [(1)] فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[1]. يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ (جبريل) بِالرُّوحِ (بالوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي[2].

1- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية، وقد ذهب معظمهم إلى أن الآية عبارة عن تحذير بقرب قيام الساعة وهلاك المشركين، بينما ذهب آخرون إلى أن المقصود بـ"أمر الله" هو=

2- سخر لكم الأنعام، والخيل والبغال والحمير... والماء والشجر الخ

(والدليل على ذلك أنه هو الذي) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (بحيث لا يضطرب نظامها)، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكونَ[3]. (والذي) خلق الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ[4] (ينكر البعث ويجادل في وحدانية الله الخ)، وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[5]، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ (زينة) حِينَ تُرِيحُونَ (ترجعونها إلى مراحها بالعشي) وَحِينَ تَسْرَحُونَ[6] (تخرجون بها في النهار)، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ. إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[7]. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ (خلقها) لِتَرْكَبُوهَا، وَزِينَةً؛ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[8]. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (بيان الطريق المستقيم)، وَمِنْهَا جَائِرٌ (ومن الطرق ما هو غير مستقيم)، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[9] (إلى الطريق المستقيم). هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ، مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[10] (ترعون دوابكم). يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[11]. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[12]. وَمَا ذَرَأَ (خلق) لَكُمْ فِي الْأَرْضِ (من نبات) مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ،

"أوامر الله وأحكامه وفرائضه" الخ. وقد رد الطبري الذي ذهب مع الرأي الأول بأن أحدا لم يكن يستعجل فرائض الله وأحكامه، وقال آخرون إن الإشارة هنا إلى غزوة بدر، وهذا الرأي مثل الذي سبقه لا يستقيم لأن السورة مكية. ونحن نرى أن معنى هذه الآية تشرحه الآية التي بعدها مباشرة وهي قوله تعالى: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ (جبريل) بِالرُّوحِ (بالوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ: أَنْ أَنْذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي[2]. والرابط بين عبارات الآيتين هو قوله تعالى بينهما "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، الشيء الذي يدل على أن موضوع الآيتين معا هو التوحيد وليس المعاد، والسورة كلها تدور حول التوحيد كما سنرى. وإذن فقوله "أتى أمر الله" معناه: سيأتي "أمر الله"، ينزل به جبريل على من يشاء من عباده، والمقصود هنا هو النبي عليه السلام. أما مضمون هذا الوحي "المعبر عنه هنا بـ"أمر الله" فيمكن استشفافه من ربط هذه الآية بظروف نزول هذه السورة، إذ يمكن القول إن له علاقة بلقاء الرسول عليه السلام في موسم السنة الحادية عشرة للنبوة بوفد من يثرب، أسلموا ووعدوه أن ينقلوا إلى قومهم رغبته في أن يكون الحليف الذي يبحثون عنه مقابل أن يتحالفوا معه ضد قريش، وضربوا معه موعدا في موسم العام القادم ليأتوه بالنتيجة، وقد وفوا بوعدهم فكانت بيعة العقبة الأولى (انظر التفاصيل في الاستهلال). ومن هنا يمكن قراءة الآية التي نحن بصددها على أنها نوع من البشارة بالحصول على حليف، مع الدعوة إلى الصبر. ولنا أن نتصور أن جميع السور التي ستنزل ابتداء من هذه السورة إلى آخر سورة نزلت بمكة، ستكون ذات علاقة بمسلسل التفاوض مع أهل يثرب وردود فعل قريش والاستعداد للهجرة للمدينة. إنه القسم من السيرة النبوية المتساوق مع مسار التنزيل في هذه المرحلة من تاريخ النبوة.

إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[13]. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا (سمكا)، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (لؤلؤا ومرجانا). وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ (تشق البحر بكم)، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (تسافرون بها بالتجارة)، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[14]. وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (كي لا تميل بكم)، وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا (طرقا)، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[15]. وَعَلَامَاتٍ (تستدلون بها على الطريق)، وَبِالنَّجْمِ هُمْ (المسافرون) يَهْتَدُونَ[16] (إلى الاتجاه الذي يريدون). أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[17]. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[18]. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ[19].

3- الذين لا يؤمنون بالآخرة ينكرون نعم الله ويوم القيامة يخزيهم.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ (يدعوهم المشركون) مِنْ دُونِ اللَّهِ (أي الأصنام) لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ[20]، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ! وَمَا يَشْعُرُونَ (المشركون) أَيَّانَ يُبْعَثُونَ[21]! إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ[22]. لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ[23]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[24]. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ (وهكذا يحملون ذنوبهم معهم) كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (يحملون كذلك)، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (يحملون)[25]. قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ (ضربها من أسسها بالزلازل وغيرها) فَخَرَّ (سقط) عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[26]. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ (تدافعون عنهم)؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ[27]، الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ (استسلموا)! (قالوا) مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ! (الجواب) : بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[28]؛ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَى (مقام) الْمُتَكَبِّرِينَ[29]. وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا: (وعد أن) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ[30]. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ؛ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ[31]. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ (لهم): سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[32]. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ (بقيام القيامة)، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَمَا

ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[33]: فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[34]. وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ[(2)]! كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ! فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[35]؟ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (الأوثان)، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ[(3)]. فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[36]. إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ[(4)] وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[37]. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (أن) لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ. (الجواب) بلى، (لقد صار البعث) وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[38]. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ (عند قيام القيامة) الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ[39]. إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ : أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ[40] (وكذلك البعث).

4– وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا (المقصود هنا الهجرة إلى الحبشة) فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[41]. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[42]. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ، (ولم

---

2 – الأشاعرة يقولون، إن ما صرح به هؤلاء، أعني قولهم "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ" الخ، إنما "قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين" بالقضاء والقدر، وبالتالي بالدين. وأما المعتزلة فيرون "أن هؤلاء كذبوا، وأنهم عبدوا غير الله بإرادتهم، وأن القرآن يرد عليهم بأن الله لم يجبرهم على ذلك بل استنكره وبعث الرسل تحذرهم منه".

3 – يفسر الزمخشري ذلك بقوله: "فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ" أي لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف. واللطف عند المعتزلة بمعنى التوفيق. فإذا كان الشخص لم يتخذ موقفا معاندا عن معرفة وإصرار فهو من أهل اللطف، أي يستحق أن يرشده الله إلى الهداية. أما إذا كان معاندا رافضا عن سابق معرفة وإصرار فهذا ليس من أهل اللطف ولا يستحق الهداية والتوفيق. فهو ممن حقت عليهم الضلالة.

4– "وأنه "لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ"، أي من اختار الضلالة. كان الرسول يحرص على أن يستميل إلى الإسلام كبراء قريش مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل الخ. طمعا في أنهم إن أسلموا تبعهم أهلوهم وأشياعهم. لكن هؤلاء كانوا رافضين الدعوة المحمدية عن "عقيدة". إما بدافع من مصالحهم أو بدافع من الصراعات القبلية، فكان من المؤكد أنهم لن يؤمنوا. وبالتالي فلا فائدة من الطمع في هدايتهم. كما أنه من العبث مخاطبة من لا يسمع ولا يريد أن يسمع.

نرسل ملائكة كما تطلب قريش) فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (اليهود) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[43]! (أرسلنا الرسل) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (الكتب)، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ (القرآن) لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[44]. أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[45]؟ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ (في أسفارهم للتجارة)؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ[46]، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ (متخوفين بسبب ما رأوه من هلاك الذين قبلهم)، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[47] (ومع ذلك لم يفعل فهو بفضل ترك الفرصة لهم كي يؤمنوا ويتجنبوا العذاب). أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (له ظل)، يَتَفَيَّأُ (ينشر) ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (صاغرون)[48]؟ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ، وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[49]. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[50]. وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ[51]. وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا (الطاعة دائما) أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ[52]. وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ[53] (ترفعون أصواتكم: تدعون). ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ: إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ[54]! لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ! فَتَمَتَّعُوا (يا هؤلاء) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[55]. وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ (أنها تضر ولا تنفع: الأصنام) نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ! تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ[56]! وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ[57] (يخصون أنفسهم بالذكور، لأنهم لا يحبون الإناث)! وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[58] (حزين محبط). يَتَوَارَى (يختفي) مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ (يتساءل مع نفسه: أيحتفظ بما بشر به: المولودة) عَلَى هُونٍ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (محتار بين أن يبقي عليه متحملا الهوان، وبين أن يدفنه حيا: يئده)؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[59]! لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ(5)، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[60]. وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ[61]. وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ، وَتَصِفُ (تقول) أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ: أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى. لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ[62] (متروكون فيها).

5- "صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ"

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا (رسلا) إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[63] (في الآخرة). وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ (من أمور الديانات) وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[64]. وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[65] (آية تدلهم على أنه كما أحيا الأرض بعد موتها يحييكم بعد موتكم). وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ (المأكول) وَدَمٍ، لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ[66]. وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[67] (6). وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ[68] (يبنون لك من أماكن)، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا (بسهولة): يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[69] (7). وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ (وأنتم في صحة جيدة)، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ (يمد في أجله) إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ (الشيخوخة المتقدمة) لِكَيْ لَا يَعْلَمَ (وهو في أرذل العمر) بَعْدَ عِلْمٍ (بعد أن كان ذا علم) شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[70] (8). وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ(9)، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ. أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[71] (10). وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ (من نوعكم

6- معنى الآية: حياتكم متوقفة على ما خلقنا لكم مما تتغذون، أنتم عندما تجوعون تكونون قريبين من الموت، ثم تعود فيكم قوة الحياة عندما تأكلون، فكذلك شأن البعث!

7- المعنى: قد تمرضون فتشربون العسل فتشفون، والعسل من النحل الذي خلقه الله ويسر له سبيل إنتاج العسل... فكذلك البعث نهاية سلسلة من تدبير الله.

8- المعنى: أن الله يتوفاكم وأنتم قادرون على الحياة، ومنكم من يترك حيا وهو في أرذل العمر، غير قادر على الحياة، حياة عادية، يصاب بخرف الشيخوخة، فا يتذكر ولا يعرف...

9- يميزون بين المال والرزق. فالمال هو الثروة، استهلكها صاحبها أو ترك منها، أما الرزق فهو ما منه كان معاشه. وبالجملة فالرزق هو ما انتفع منه صاحبه من ماله أو ما أعطيه. ومنه عبارة "أرزاق الجند": أي ما يعطونه ليأكلوا، ويدخل فيها الميرة والدراهم.

10 – قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مواليكم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا، فضل ما رزقتموه، عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم. كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي (ص) يقول : "إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون".

الإنساني) أَزْوَاجًا (ذكورا وإناثا)، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ[72] وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ[73]! فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ(11)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[74].

6- يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ[83].

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ (لا يملك شيئا)، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا (كالإنسان) فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[75]. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ (ثقيل) عَلَى مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ! هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[76]. وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[77]. وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[78]. أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[79]. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا (خياما) تَسْتَخِفُّونَهَا (خفيفة) يَوْمَ ظَعْنِكُمْ (سفركم) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ[80]. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا (مخابئ)، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ (قمصانا) تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ (دروعا)، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ[81]. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[82]. يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ[83].

7- وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ!

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (هو نبيها)، ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (بالاعتذار)، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[84] (لا نقاش معهم). وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ

11- قال الرازي: "يحتمل أن عبدة الأوثان كانوا يقولون: إن إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا، بل نحن نعبد الكواكب أو الأصنام، وهي عبيد الإله الأكبر الأعظم. والدليل عليه العرف، فإن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فكذا ههنا. فعند هذا قال الله لهم: اتركوا عبادة هذا الأصنام والكواكب ولا تضربوا الله الأمثال التي ذكرتموها.

فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ، وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ[85] (يمهلون). وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ (فردوا عليهم) إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ[86]. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ (استسلموا لحكمه) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[87] (لم يجدوا ما كانوا يدعون من أن آلهتهم ستشفع لهم). الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ[88]. و(اذكر) يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (هو نبيهم). وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ! و(قد) نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[89].

8- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ...

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ (الزنا) وَالْمُنْكَرِ (ما هو غير مقبول دينا وعقلا) وَالْبَغْيِ (الظلم)، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[90]. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ (بقسمكم بالله) إِذَا عَاهَدْتُم، وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ (ما تعهدتم به بالقسم) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (حيث حلفتم به)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[91]. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا(12)، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (فسادا وخديعة) بَيْنَكُمْ (بسبب) أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ (قبيلة أو مجرد جماعة) هِيَ أَرْبَى (أقوى) مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[92]. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[93] (13). وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ (بصدودكم) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[94]. وَلَا تَشْتَرُوا

12- جمع نكث، من نكث العهد إذا لم يوف به. يقال: كانت بمكة امرأة تغزل في الصباح لزبون بسعر. فإذا جاءها بعده زبون بسعر أغلى نقضت عهدها ورمت بما غزلته وبدأت تغزل للزبون الجديد، وإذا جاء ثالث فعلت الشيء نفسه، وهكذا يكون عملها سلسلة من نكث العهد، بدون فائدة لها ولا لغيرها. وكانوا يفعلون مثل هذا يتحالفون مع جماعة فإذا جاءت أخرى أقوى نكثوا عهدهم مع الأولى وتحالفوا مع هذه. وهذا ينطبق أكثر على القبائل.

13 - قال بعضهم معنى : "يضل من يشاء" : يضل الله الشخص الذي شاء الضلال واختاره، مثل الذي اختار عبادة صنم معين. أما الزمخشري فيقول: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً"، حنيفة مسلمة، على طريق الإلجاء والاضطرار، طريق ممارسة القسر والقهر عليكم وهو قادر على ذلك. "وَلَـكِن" الحكمة اقتضت أن يُضل "مَن يَشَاء" وهو أن يخذل مَن علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه، "وَيَهْدِي مَن يَشَاء" وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان.

بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، إِنَّمَا (إن ما) عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[95]. مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ[(14)]. وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[96]. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[97].

9 – وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ!

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[98] (المطرود). إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ (نفوذ) عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[99]. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ (يجعلونه وليا عليهم) وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ (بالله) مُشْرِكُونَ[100]. وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (حكما أو معجزة بدل أخرى، من نبي إلى آخر)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[101]. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ (جبريل) مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[102]. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ! لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ

14– قال الرازي في هذه الآية: "اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى (رقم 91) عن نقض العهود والإيمان على الإطلاق، حذر في هذه الآيات فقال: "وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ"، وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الإيمان، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، فلهذا المعنى قال المفسرون: المراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول الله (ص) عن نقض عهده، لأن هذا الوعيد هو قوله: "فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا" لا يليق بنقض عهده قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله (ص) على الإيمان به وشرائعه. وقوله: "فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا" مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية، فإن من نقض عهد الإسلام قد سقط عن الدرجات العالية ووقع في مثل هذه الضلالة، ويدل على هذا قوله تعالى: "وَتَذُوقُوا السُّوءَ" أي العذاب: "بِمَا صَدَدْتُمْ" أي بصدكم: "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد. ثم أكد هذا التحذير فقال: "وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" يريد عرض الدنيا وإن كان كثيراً، إلا أن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون، يعني أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيراً من خيرات الدنيا، فلا تلتفتوا إليه. لأن الذي أعهد الله تعالى على البقاء على الإسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة". وأضاف الرازي "ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال:"مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ" الخ. قلت (الجابري): وهذا الذي يقوله الرازي ينتهي بأن المقصود هو طيبات الآخرة، وبالتالي فالمفكر فيه عنده كان خاليا من استحضار ظروف نزول هذه السورة. أما نحن فنرى أن الخطاب هنا يستحضر وعدَ وفد يثرب للرسول، وقد شرحناه أعلاه، ويحذرهم من أن ينكثوا بما تعهدوا به للنبي (ص) بتأثير الحملة التي كان يقوم بها كبار قريش، وكان فيها إغراء وتهديد.

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ[103]. (15) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[104]. إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ[105]. مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ(16)، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[106]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[107]. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[108]. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ[109]. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا، مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[110] (17) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[111].

---

15 – عن ابن عباس قال: كان رسول الله (ص) يعلّم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله (ص) يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ" الآية. وعن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان: أحدهما يقال له: يسار، والآخر: جبر، وكانا صيقليين (يشحذان السيوف)، فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما، وكان رسول الله (ص) يمرُّ بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا: "إنما يتعلّم منهما".

16 – قيل: إنّ ناساً من أهل مكة أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام تحت التعذيب، فأجروا كلمة الكفر على ألسنتهم وهم معتقدون للإيمان، منهم عمار، وأبواه ياسر وسمية وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجىء (أدخل) في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً. فقيل يا رسول الله، إن عماراً كفر، فقال: "كلا. إنّ عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه". فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل النبي (ص) يمسح عينيه وقال: "ما لك ! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت". ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم، وحسن اسلامهما، وهاجرا. ذكر القرطبي هذه الرواية عن ابن عباس وأضاف إليها روايات ليست ذات بال ثم خلص إلى النتيجة التالية. قال: "لما سمح الله عز وجل بالكفر به، وهو (نقض) أصل الشريعة، عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" (حديث). ثم أخذ هذا المبدأ بعد ذلك يطبق على حالات معينة...

17 – القرطبي: "قيل نزلت في ابن أبي سرّح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم... وهذا لا يستقيم إلا إذا قلنا إن هذه الآية نزلت في المدينة وبعد فتح مكة وهذا التاريخ لا يستقيم مع الطابع المكي للسورة. أما إذا احتفظنا لهذه الآية بموقعها في سورة النحل المكية فإن الإشارة هنا ستكون للمهاجرين إلى الحبشة، أو يكون معنى "هاجروا" هنا: أرغموا على ترك الإسلام، كما اضطر المهاجرون إلى الحبشة على ترك بيوتهم وأولادهم.=

10- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ (مثل أهل مكة)، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[112] (عندما جاءهم القحط). وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ (القحط) وَهُمْ ظَالِمُونَ[113]. (هذا المثل ضرب لأهل البادية مرتادي الأسواق، والخطاب التالي لهم) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[114]. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[115]. وَلَا تَقُولُوا، لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ، الْكَذِبَ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ(18). إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ[116]؛ (الكذب) مَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[117]. وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ(19)، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[118]. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ (كبدو العرب)، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا، لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[119]. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ (جد العرب) كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ، حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[120]؛ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[121]. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ[122]. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ : أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[123]. إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[124] (20).

يؤيد هذا المعنى قوله: "مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا"، فالهجرة بعد الفتنة ثم الرجوع إلى الإسلام والجهاد والصبر على أذى المشركين أنسب هنا من قولهم إن فلانا ارتد ولحق بالمشركين. ويمكن أن يكون المقصود من هاجر من المسلمين قبل هجرة النبي كما سنرى.

18 – لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام في الأشياء التي تصفونها بهذين الوصفين من غير علم، تنسبون ذلك إلى الله، إنه افتراء منكم عليه. الخطاب للبدو من العرب.

19 – في سورة الأنعام، وهذا دليل على أنها كانت الأسبق نزولا.

20 – وجه اتصال هذه الآيات ببعضها واضح خصوصا إذا استحضرنا ما قلناه قبل من كون الخطاب هنا يندرج في إطار الدعوة وسط القبائل في الأسواق والمواسم. فبعد أن ضرب لهم مثلا بمشركي مكة وكفرهم بنعم الله عليهم (عائدات الحج والتجارة) التي أبرزها غير ما مرة إضافة إلى تكذيبهم رسول الله إليهم... اتجه (الخطاب) إلى أهل القبائل قائلا: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، حَلَالًا طَيِّبًا، وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"، ثم بين لهم الحلال من الحرام في الأكل، وأشار إلى ما حرم على بني إسرائيل وما فرض عليهم يوم السبت كان أشد وأثقل لأنهم ظلموا، وبعد أن أشار إلى أن من أكلوا المحرمات أو حرموا الحلال من العرب=

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم (في الأسواق والقبائل) بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[125]. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ[126]. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش لكونهم لا يؤمنون) وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ[127]. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا، وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ[128].

- تعليق

قد يلاحظ أن هذه السورة تكرر كثيرا مما سبق في السور السابقة... وإضافة إلى ما قلناه من قبل عن التكرار في القرآن عموما من حيث إن الأمر يتعلق بخطاب دعوة نزل مفرقا على مقتضى الأحوال خلال أزيد من عشرين سنة، فإنه من الضروري إبراز أن المخاطبين هنا ليسوا سكان مكة وحدهم، بل هم في الغالب أناس جدد، هم القبائل العربية التي ترتاد الأسواق في مكة وقريبا منها وكانت كثيرة، في وقت كان النبي عليه السلام قد استأنف الدعوة فيها. وكما بينا في التقديم الذي خصصناه للسورة السابقة (الكهف) فقد كان من نتائج اتجاه الرسول عليه السلام إلى القبائل أن عمدت قريش إلى الاستعانة بيهود يثرب فطلبت منهم وسيلة لإحراج النبي وإظهار ما يدعونه من أنه إنما يأتي بالقرآن من عنده وأنه ليس من الله، فكان أن أمدهم اليهود بأسئلة اختبارية، وقد جاء الجواب عنها عكس ما أرادته قريش، لقد جاء الجواب

قبل إسلامهم لن يؤاخذوا بذلك لأنهم فعلوا ذلك عن جهل، ذكرهم بإبراهيم عليه السلام جد العرب وأنه كان "أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ، حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، أي كان أصل هذا الدين، "شيخ الأنبياء" ملازما لعبادة الله موحدا لم يشرك بالله أحدا بل ثار على الأصنام ... وأن الله أوحى إلى محمد باتباع دين إبراهيم، وربما سألوه عن يوم السبت عند اليهود، فجاء الجواب: وأن "يوم السبت" جعل يوما دينيا خاصا باليهود كلفوا فيه بتقليل العبادة والأعمال، وهم مختلفون في تبرير ذلك وتحديده، والله سيحكم بينهم...

21- فسر معظم المفسرين هذه الآية بأحداث ومناسبات وقعت بعد الهجرة إلى المدينة والسورة مكية. وفي رأينا أنه ليس هنالك ما يبرر هذا النوع من التفسير فالسورة مكية وسياق الآية منسجم مع ما قبلها وما بعدها والخطاب واقع تحت قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"... ثم إن احتمال حدوث نزاع بين المسلمين ومشركي مكة أو مرتادي المواسم والأسواق احتمال قائم.

عنها لفائدة الدعوة فكانت مادة لنشر الدعوة فضلا عن كونها أجابت اليهود بما يثبت نبوته.

كانت السورة السابقة إذن نوعا من "انقلاب السحر على الساحر"، وبالتعبير القرآني "يكيدون وأكيد كيدا". أما في هذه السورة فقد اتجه الخطاب، لا إلى قريش التي لم يعد الأمل في استجابتها للدعوة بعد أن أصرت سنين على الإعراض عنها وبات من الصعب جدا على رجالها التراجع والاعتراف بالهزيمة، بل اتجه الخطاب القرآني هنا في سورة "النحل" إلى من هم من عالم "تربية النحل"، إلى العرب سكان الأرياف والبادية. يتجلى ذلك واضحا من اتجاه الخطاب ومفرداته. فالشهادات التي تقدمها السورة في موضوع أركان العقيدة الإسلامية الثلاثة (النبوة والمعاد والتوحيد)، مأخوذة في الأغلب الأعم من عالم الأرياف والبادية : سخر لكم الأنعام، والخيل والبغال والحمير... والماء والشجر الخ، وقد تكررت في السورة مرارا.

ومما تجدر ملاحظته أن السورة التي نزلت مباشرة بعد سورة "الحجر" -التي جاءت بالأمر بالدعوة في أواسط القبائل ("اصدع بما تؤمر") قبل الحصار قد سميت بـ "سورة *الأنعام*" (إشارة على عالم القبائل) وقد وردت فيها أحكام تتعلق بحياة القبائل: الحلال والحرام، الماشية، عادات العرب الخ. واليوم بعد أن استأنف الرسول الدعوة في الأسواق، بعد الحصار، تأتي هذه السورة التي بين يدينا وهي تحمل اسما يحيل إلى عالم الأرياف والبادية "النحل"، وتتضمن أحكاما مؤكدة ومكملة لما ورد في السورة السابقة (يتعلق الأمر بصفة خاصة بالعدل والإحسان، وتجنب الفحشاء والمنكر والبغي، والوفاء بعهد الله، وعدم نقض الأيمان أو التلاعب بها...)، كما ذكرت قضايا مطروحة في البادية خاصة، قضية المساواة في الرزق، الشيء الذي ليس من مجال الملأ من قريش الذي يكسبون ثروتهم من عائدات الحج والتجارة، وتسخير الموالي والعبيد. وأخيرا تتميز هذه السورة بخاتمتها التي تناسب الدعوة في البادية والأرياف: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[125]. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[126].

وهنا تستعيد الخاتمة مضمون المقدمة: إن قوله تعالى في الخاتمة: وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش)، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ[127]. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ[128]، يذكرنا بقوله في بداية السورة: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (بمعنى نصر الله باستجابة وفد يثرب) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ". ولا بد من الإشارة إلى أن الدعوة إلى الصبر قد تكررت في هذه السورة خمس مرات: في الآيات 42، 96، 110، 127. هذا له مغزاه: هناك فرج آت فلا بد من الصبر...

72- سورة إبراهيم

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة شيء على مستوى مرويات أسباب النزول غير روايات ذكرها الطبري حول قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَى إِلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ" (الآية 28). من هذه الروايات واحدة جاء فيها أن الخليفة عمر بن الخطاب سئل عن المقصود بهذه الآية فأجاب: "هما الأفجران من قريش: بنو الـمغيرة، وبنو أمية. فأما بنو الـمغيرة فكُفيتمُوهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلـى حين". وقد ذكر الطبري رواية أخرى تقول إن علي بن أبي طالب سئل السؤال نفسه فأجاب: "بنو الـمغيرة وبنو أمية، فأما بنو الـمغيرة فقطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمُتِّعوا إلـى حين". وقد أخذ بهذا التفسير اعتمادا على تلك الروايات - نقلا عن الطبري- بعض المفسرين مثل الزمخشري من المتقدين، والألوسي من المتأخرين.

وواضح أن هذا النوع من التفسير ذو بعد سياسي واضح، إنه والروايات التي اعتمدها ينطوي على قدح مغرض في بني أمية، وهو شيء غير مستقيم مع الآية وغير موضوعي. ذلك أن السورة التي وردت فيها هذه الآية مكية، أما غزوة بدر فقد وقعت في العهد المدني. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس من المستساغ أن يقدح عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في بني أمية وأن يساويا بينهم وبين بني مخزوم في وقت لم يكن فيه بنو أمية قد برزوا بعد كطرف في الفتنة التي حدثت عقب مقتل عثمان. أما قتلى بدر فأغلبهم أو على الأقل أهمهم كانوا فعلا من بني مخزوم أما بنو أمية فمعروف أن أبا سفيان عميدهم -والذي كان يرأس قافلة قريش التجارية، التي كانت عائدة من الشام ومستهدَفة من المسلمين بقيادة الرسول في بدر- لم يحضر غزوة بدر فقد تلافى اللقاء مع المسلمين وعاد إلى مكة من طريق أخرى. هناك عنصر آخر وهو أن موقف أبي سفيان وقومه من الدعوة المحمدية لم يكن في مستوى سوء موقف أبي جهل والمخزوميين. فقد سبق أن رأينا أبا سفيان يرد على أبي جهل في تعرضه واستهزائه بالرسول، مدافعا عن الرسول لكونه من بني عبد مناف القبيلة التي يلتقي عندها بنو هاشم وبنو أمية.

أما أن يقول عمر بن الخطاب في بني أمية ما تنسبه له الرواية السابقة، وهو خليفة، فهذا مما لا يستساغ ولا يصدق. فقد كان عدد من الأمويين عمالا له، ومنهم معاوية الذي كان عاملا على الشام. وإذن فالرواية التي اعتمدها الطبري رواية موضوعة بدون شك، ولا بد أن تكون قد وضعت أثناء الصراع بين الأمويين والعباسيين، الصراع الذي تحالف فيه هؤلاء مع العلويين: فيكون الجمع بين عمر وعلي في رواية واحدة ضد الأمويين مفهوما زمن الطبري، العصر العباسي...

أما نحن فنرى أن ظروف نزول هذه السورة، ظروف الدعوة في القبائل والأسواق، تقتضي أن الخطاب الموجه إلى النبي عليه السلام في هذه الآية: "ألم ترى..." موجه كذلك إلى أهل القبائل الذين كان يدعوهم النبي إلى الإسلام. فعندما كانت الدعوة المحمدية محصورة في مكة كان خطابها موجها إلى قريش يدعوهم إلى الاعتراف بما منحهم الله من نعم وما خصهم به منة مساكنهم "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" (قريش 3-4). أما عندما رفضوا الدعوة وأصروا على محاربتها وكفروا بالنعم التي أنعم الله بها عليهم فإن "الأمن" من الجوع ومن الخوف أخذ ينقلب إلى سنوات من الجفاف وإلى وعيد. أضف إلى ذلك بدء انتشار الإسلام بين العرب مما أخذ يقلل من هيبة قريش وسطوتها، وهكذا "أحلوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ" (دار الكساد، لا نعمة فيها).

لقد توقفنا بعض الشيء مع الرواية التي وضعت للآية المذكور لننبه إلى أن التفسير والحديث قد تأثرا كثيرا بالصراعات السياسية. وأن "فهم القرآن" لم يكن مقلوبا بسبب اتباع المفسرين ترتيب المصحف دون ترتيب النزول فحسب، بل كان مقلوبا كذلك من حيث إن المفسرين كانوا يعتمدون -عن قصد أو عن غير قصد- روايات وتأويلات بعدية، متأثرة بالصراعات التي حدثت في ظروف بعيدة كل البعد عن العصر النبوي.

- نص السورة

1- مقدمة: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ(1) بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[1]: اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ

1- سنناقش هذه المسألة في التعليق.

مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[1]: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ[2] فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ،[3] وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"

<u>2- قال الكفار لرسلهم سنخرجكم من أرضنا إن لم تعودوا في ملتنا</u>

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ (بني إسرائيل) مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[4] وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ (ما كان فيها من نعم ومحن)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ

2- "زعمت طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمداً رسول الله، لكنه مبعوث إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين: الأول: أن القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب، وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربياً لم يكن القرآن حجة عليه. الثاني: قالوا: إن قوله: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ" (إبراهيم: 4) المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط. وقد أجاب الرازي الذي أثار هذه المسألة بما يلي، قال: لم لا يجوز أن يكون المراد من "قَوْمِهِ": أهل دعوته، وليس أهل بلده. والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى: "قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (الأعراف: 158) بل إلى الثقلين، لأن التحدي كما وقع مع الإنس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (الإسراء: 88).

3- سبق أن شرحنا الخلاف في هذا الموضوع. بين أهل السنة والأشاعرة من جهة، والمعتزلة من جهة أخرى. وبناء عليه قال الزمخشري في معنى هذه الآية: "لأنّ الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن. ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان". أما نحن فنرى أن ظروف نزول الآية، ظروف الاتجاه بالدعوة إلى العرب في المواسم والأسواق يسمح بافتراض أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى هؤلاء العرب، أعني قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"، وبالتالي يكون المعنى "من يشاء الهداية من العرب" ومن يشاء الضلال منهم"، وذلك في مقابل قريش الذين قالت فيهم الآية السابقة لهذه: "الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ <u>وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ</u> وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ".

4- مما تنبغي ملاحظته أن هذه أول مرة في القرآن المكي يتجه موسى إلى قومه بهذه الصيغة التي تماثل خطاب الرسول محمد عليه السلام إلى قومه. لقد كان خطاب موسى من قبل موجها إلى فرعون في إطار قصته معه كرسول من الله إليه، ولم يرد من قبل خطاب إلى موسى مستقل عن هذه القصة وموجها لبني قومه مباشرة. أما في القرآن المدني فالأمر يختلف كما سنرى. ومن هنا يمكن القول إن مناسبة نزول هذه الآية لها علاقة بانحياز اليهود في المدينة إلى قريش من خلال الأسئلة الثلاثة التي أوصوا قريشاً بطرحها على=

شَكُورٍ[5]. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ (يستبقون) نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[6]. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ (أعلمكم) لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ[7]. وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ[8]. أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ (ليعضوا عليها من شدة الغيظ)، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[9].

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ، فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؟ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[10]. قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[11]. وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[12]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ[13]. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ[14]. وَاسْتَفْتَحُوا (استنصر الرسل بالله على خصومهم) وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[15]: مِنْ وَرَائِهِ (أمامه) جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ[16] (قيح ودم) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ (أمامه) عَذَابٌ غَلِيظٌ[17].

3- الَّذِينَ كَفَرُوا: أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ[18]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[19]؟ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ[20]. وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا (يوم القيامة) فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ (في الدنيا) تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا (هنا في الآخرة) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ[21] (ملجأ). وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ

النبي عليه السلام بغرض إحراجه، الأسئلة المتعلقة بأهل الكهف وذي القرنين (سورة الكهف) وحقيقة الروح.

لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ (بمغيثكم) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[22]. وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ[23].

4- أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ!

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ[24] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا! وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[25]. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ[26]. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ[27]. أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[28] (دار الكساد، لا نعمة فيها) [(5)]: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ[29]. وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا (قريش تضل الناس : العرب) عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ[30]. قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا (حديثا: من العرب) يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ[31] (ولا تبرع). اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ[32]، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[33]. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[34].

5- إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ[35] (أبعدنا من عبادتها). رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[36] [(6)]. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي (من زوجته هاجر وإسماعيل) بِوَادٍ

5- مع أن هذه الآية بطبعها العموم فلا شيء يمنع من أن يكون كفار قريش من بين عناصر هذا العموم، أما جعلها خاصة بفريق من مشركي قريش، هم الذين سيقتلون في غزوة بدر فلا شيء يبرره لا على مستوى اللفظ ولا على مستوى السياق (انظر التقديم).
6- اختلف المفسرون في هذه الآية. قال الطبري: "ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنك غفور لذنوب المذنبين الخطائين بفضلك، رحيم بعبادك تعفو عمن تشاء=

غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (مكة) عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ (وفي مقدمتهم العرب القبائل) تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[37]. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ[38]. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ[39]. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ[40]. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ[41].

6- وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ...

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ (أهل مكة)، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ[42]. مُهْطِعِينَ (مسرعين) مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ[43]. وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا (مشركو مكة) رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ! (وجوابهم:) أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ[44](من الدنيا)؟ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ(7) الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ

منهم". وقال الزمخشري: "أغفرُ له ما سلف منه من عصياني إذا بدا لي فيه واستحدث الطاعة لي". وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك". وقال القرطبي: "وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت". وقال الرازي: فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم". وقال ابن عاشور: "والمعنى ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى"... أما نحن (الجابري) فنرى أن السياق والظروف التي نزلت فيها الآية يسمحان بفهم قوله تعالى: "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، على اعتبار أن "من تبعني" يعود على "بني" في قوله (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ). أما قوله "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ" فهو خبر وليس داخلا في الدعاء. وبالتالي فالمعنى: "إن من لم يتبعني من بني وذريتي واتبع آخرين وعبد الأصنام تقليدا أو جهلا (مثل تبعية أهل القبائل من العرب لقريش أو لغيرهم) فإن باب مغفرتك ورحمتك مفتوح أمامهم إن هم آمنوا. وهذا موقف يغلب فيه الخصوص، فالخطاب ورد على لسان إبراهيم والمعني به هم أهل القبائل العربية بوصفهم من ذرية إبراهيم. وبالتالي فالقصد هنا هو حث أهل القبائل على الاستجابة للدعوة. وهذا من باب الترغيب. وبالتالي فأقوال المفسرين المذكورة أعلاه تقع خارج السياق، لأن القرائن المرافقة للآية تدل كلها على الخصوص، فلا ضرورة بل ولا مجال لطرح مسألة مرتكبي الكبائر والشفاعة الخ.

7- جميع المفسرين يذهبون إلى أن معنى السكنى هنا الإقامة، والذين ظلموا هم قوم ثمود وعاد الذين كانت قريش تمر على مساكنهم في أسفارها إلى الشام واليمن. هذا في حين أن هذه المساكن كانت مجرد أطلال زمن العرب المخاطبين. ولتلافي هذا التناقض قال ابن عاشور إنهم كانوا ينزلون فيها كمحطات حين السفر. ونحن نرى أن السياق لا يزكي هذا=

كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ[45]. وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ (قريش مكرت وتآمرت) وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ[46] (8). فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ (بأنه يحفظهم من مكر خصومهم)، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[47]: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا (يبرزون) لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[48]، وَتَرَى (يا محمد) الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ[49] (هم وقرناؤهم في القيود والأغلال) سَرَابِيلُهُمْ (قمصانهم) مِنْ قَطِرَانٍ (نحاس)، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ[50]، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[51].

7- خاتمة: هَذَا بَلَاغٌ لأهل القبائل، ولينذروا به ...

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ (المخاطب بـ"الناس" هنا هم أهل القبائل) وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ[52].

- تعليق

طرحت مقدمة هذه السورة ثلاثة أفكار:

الفكرة الأولى أن القرآن كتاب منزل من عند الله، والهدف منه إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

الفهم ولا ذاك. ذلك أن الخطاب هنا موجه للنبي عليه السلام "وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ"، والناس هنا هم قريش بالتحديد. والله يقول لهم، في الآخرة: "أَوَلَمْ تَكُونُوا (يا قريش) أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ"، أي أنكرتم البعث واعتقدتم بخلودكم كبشر (من خلال تناسلكم الذي لا نهاية له) فقلتم "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا". ثم أضاف "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ"، والمعنى في نظرنا: "سكنتم" من السكون، أي تمسكتم بموقف الذين ظلموا لأنهم ينكرون ليس البعث وحسب، بل ينكرون وجود الله فقالوا "وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ" (الجاثية 24)، لقد تمسكتم بهذا الموقف وجمدتم عليه، مع أننا بينا لكم "كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ"، إذ أهلكناهم بالصواعق فما عادوا يتناسلون، ثم "ضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ" حول حقيقة الدنيا. من هذه الأمثال: تشبيهها بالنبات الذي لا بد أن يأتي عليه يوم يصير هشيما فير[illegible] الله الأمطار فيبعث النبات من جديد كما كان."

8- المعنى: صنعوا مكرا عظيما في مستوى أن ترتعش منه الجبال. والمكر في القرآن ينصرف معناه إلى الحيلة وما أشبه... ويذكرون في هذا المجال خرافة قديمة من الموروث الفارسي مفادها أن نسورا ارتفعت بتابوت رجل وضع نفسه فيه وصعدت به إلى السماء بعيدا مما أذهل الجبال وأخذت ترتعد. والإشارة إلى هذه الخرافة التي كانت معروفة عند العرب تعني أن المكر الذي مكروه هو مؤامرة على قتل الرسول (ص)، المؤامرة التي لو تمت وتمكنوا من قتله لكان وقعها أشبه بوقع ذلك التابوت الذي حملته النسور بعيدا فوقها.

الثانية أن الذين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة "وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا"، وهم قريش، هم في "ضلال بعيد"، ولذلك فهم لا يريدون الخروج من الظلمات إلى النور لأن ذلك ليس من مصلحتهم كما يفهمونها.

الثالثة أن الله ما بعث من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم: "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ،" الضلال، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" الهداية.

وحول هذه الأفكار الثلاثة بوصفها تشكل بنية خِطابية واحدة يدور هذا التعليق.

لنكرر القول أولا إن هذه هي المرة الأولى -حسب ترتيب النزول الذي نتبعه- التي يخاطب الله رسوله الكريم فيها بهذه العبارة: *"لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"*. لقد ورد اللفظان (ظلمات ونور) مرات عديدة من قبل، منفصلين، وضمن سياقات واضحة لا تطرح أي إشكال. والغالب ما يتضح المعنى المقصود باللفظين بمجرد الرجوع إلى السياق الذي يصرفهما إلى المعنى اللغوي (ظلام الليل في مقابل ضوء النهار) أو إلى دلالة مجازية ترتبط بالشؤون المعنوية (مثل الجهل في مقابل العلم، والإيمان في مقابل الكفر الخ). هذا بصورة عامة. أما هنا، في السورة التي نحن ضيوف عليها، فالجديد فيها هو وصفها لمخاطبيها (الناس: وهم القبائل العربية تحديدا كما سيتضح بعد) بكونهم في وضعية "الظلمات"، وأن مهمة الكتاب/القرآن هو إخراجهم إلى وضعية النور. فكيف نفهم معنى "الظلمات" و"النور" في هذه الآية؟

كثيرا ما يكرر الناس أن القرآن يشرح بعضه بعضا، ونحن قد فعلنا الشيء نفسه، وأعلنا مرارا عن اتخاذنا لهذه المقولة، منهجا لطلب الفهم وأساسا للرؤية؟ فكيف يمكن أن نتعامل مع هذه الآية الكريمة على هذا الأساس؟ جميع المفسرين يشرحون "الظلمات" بـ "الكفر"، و"النور" بـ"الإيمان" في هذه الآية، ويلتمسون لهذا النوع من الشرح ما يزكيه من المعاني المجازية التي يستعمل فيها اللفظان في اللغة العربية، مع ربط مآل "الظلمات" بالضلال في الدنيا وبالعذاب في الآخرة، ومآل "النور" بالهداية في الدنيا والنعيم في الآخرة. وهذا صحيح على مستوى العموم، مستوى المبدأ العام الذي يقرره القرآن، كواحد من أركان العقيدة. غير أن منهج "القرآن يشرحه القرآن" لا يعني أنه منهج يقع على مستوى "العام" وحده، وإلا كانت هذه المقولة فارغة من المعنى، أي مجرد تكرار لفظ القرآن. القرآن يشرحه القرآن معناه أن القرآن أنواع من الأقاويل ينتظمها معنى كلي، منه تستقي الأجزاء ما فيها من المعنى الكلي، باعتبار أن في كل جزئي أو في كل خاص شيء من الكل أو العام (الشجرة مفهوم كلي، وهذه النخلة أحد أفراد هذا الكلي وفيها "معنى الشجرة" وليس معنى الزرافة مثلا) هذا جانب. لكن ثمة جانب آخر وهو أن في جميع الأقاويل -بما

فيها الخطاب القرآني- ما هو متشابه، وفي هذه الحالة فالمعنى الخاص في كل عبارة قد يعبر عنه خاص آخر يشبهه، وبالتالي فقولنا: "القرآن بشرحه القرآن" معناه أن بعض القرآن يجد معناه في بعض آخر منه. وهذا في الحقيقة هو معنى وصفه تعالى للقرآن بكونه "متشابها مثاني" (الزمر 23) : يشبه بعضه بعضا ويثنيه، أي يكون بعضه بمنزلة "الثاني" بالنسبة لبعض آخر منه يكون بمنزلة "الأول" له.

هذا المعنى (المتشابه المثاني") نجده في الآية التي نحن بصددها. فقوله تعالى: في الآية الأولى من هذه السورة *كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ*" يجد شبيهه المثني له في الآية الخامسة من السورة نفسها حيث نقرأ قوله تعالى: ""وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّه". وواضح أن المقصود بـ"آياتنا" هنا هو تلك الآيات التسع "الخارقة للعادة" التي مكن الله موسى منها في صراعه مع فرعون. أما "الظلمات" فهي الوضعية التي كان عليها بنو إسرائيل تحت استبداد فرعون وطغيانه، وأما "النور" فهو إخراجهم من تلك الوضعية والذهاب بهم إلى فلسطين... يتعلق الأمر إذن بالانتقال من وضعية مادية (فقر، قهر، استبداد) إلى وضعية أخرى مادية وهي التحرر من طغيان فرعون والرجوع إلى "الوطن الموعود". إن المعنى الكلي أو "العام" حاضر في هذه الآية، ففرعون كان كافرا بالله كفر كينونة وكفر نعمة، لكن مهمة موسى لم تكن مقتصرة على دعوة فرعون إلى الإيمان بالله رب العالمين، لم تكن محصورة على هذا المستوى المعنوي (العقيدة)، بل كانت محددة بالخصوص في الجانب المادي، أي إخراج بني إسرائيل من مصر. فقد أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون: "فقولا إنا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"(الشعراء" 16-17).

هناك جانب آخر في الموضوع، وهو أن الصلة بين الفقرة الثانية من السورة (الآية الخامسة) ستبقى غير مفهومة بدون ربطها بكل من: أولا: الفقرة الأولى (الآية الأولى)، ثانيا: الفقرة الرابعة التي تبتدئ بقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" وبين ما قبلها وما بعدها، ثالثا: الفقرة الأخيرة التي سميناها "خاتمة" أعني قوله تعالى: "هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ"، وبين ما سبقها.

لنقل باختصار إن فهم السورة ككل يتوقف على فهم معنى ومغزى قوله تعالى: " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". لقد سبق أن قلنا إن هذه هي المرة الأولى -حسب ترتيب النزول- التي ترد فيها هذه العبارة، فلا بد إذن أن يكون هناك ما يبرر نزولها في الوقت الذي نزلت فيه، وأوضحنا أن معناها يجب أن يفهم على ضوء شبيهتها و"ثانيتها" التي تذكر بالمهمة التي كلف الله بها موسى=

وهي إخراج بني إسرائيل من مصر حيث كانوا يعانون من طغيان فرعون وهامان وقارون، ثم أضفنا إلى ذلك عنصرا آخر وهو التذكير بإبراهيم جد العرب من ابنه إسماعيل ودعائه الذي قال فيه: "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ[35]. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[36]. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (مكة) عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[37]. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"[38]. وهكذا فاعتمادا على هذه المعطيات يتعين القول: إن الخطاب في هذه السورة -كما هو الحال في سور هذه المرحلة السادسة من مسار التنزيل في القرآن المكي – موجه إلى "العرب أهل القبائل" بوصفهم "الآخر" الذي تتحدد به "هوية قريش" في تلك المرحلة. لقد كان الخطاب قبل هذه المرحلة موجها لقريش، وبالتحديد إلى الملأ منهم الذين وصفتهم السورة بكونهم "يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا"، وقد كانوا فعلا يصدون الناس في المواسم والأسواق عن الاتصال بالرسول عليه السلام ويصرفونهم عنه. وهذا التوجه لـ"العرب" بعد إصرار قريش على الإعراض عن الدعوة والإمعان في إيذاء النبي (ص) والمسلمين، هو الذي دفع النبي إلى الإعراض عنهم تلبية (لقوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" – الحجر 94–95)، والتوجه إلى "العرب"، أهل البادية" وسكان القرى المحيطة بمكة الذين كانوا واقعين تحت سلطة قريش دينيا واقتصاديا، مستغلين في ذاك مكانة مكة على المستويين الديني (الحج) والتجاري (الأسواق والمواسم)، مع أن باني الكعبة هو جد العرب جميعا، إبراهيم الذي أسكن فيها قسما من ذريته الخ، أقول إن التوجه إلى العرب، في إطار *"لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"* هو من أجل إخراجهم من وضعيتهم القاسية على مستوى العيش الخ إلى وضعية أفضل، وبالتالي فإن الأمر يتعلق بحشد "العرب" من خارج مكة للقضاء على استبداد الملأ من قريش بالسلطة المزدوجة التي تشبه السلطة التي كانت تمارس في مصر على الناس (اليهود: وهم قسم آخر من ذرية إبراهيم) : سلطة "الصنم" الأكبر (=فرعون) مدعي الألوهية، وسلطة العسكر الذي يرأسه هامان (=أبو جهل) وسلطة المال التي كانت لأخيه "المغيرة، (=قارون).

73- سورة الأنبياء

- تقديم

ذكر الواحدي: "أن ابن عباس قال: آيةٌ لا يسألني الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها! قيل: وما هي؟ قال: لما نزلت "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وارِدونَ"، شق على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ فجاء ابن الزبعري فقال: ما لكم؟ قالوا يشتم آلهتنا! قال فما قال؟ قالوا قال: "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وارِدونَ". قال: ادعوه لي! فلما دعي النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عُبد من دون الله؟ قال: بل لكل من عُبد من دون الله. فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية، يعني الكعبة! ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح؟ وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام وهذه اليهود يعبدون عزيراً. قال: فصاح أهل مكة! فأنزل الله تعالى "إِنَّ الَّذينَ سَبَقَت لَهُم مِنّا الحُسنى أُولئِكَ عَنها مُبعَدونَ". قلت (الجابري): هذا يقتضي أن تكون الآيات التي بعدها إلى الآية 105 جزءا من الرد. وهذا غير بين بنفسه.

- نص السورة

1- مقدمة: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ[1]! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ (متجدد) إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ[2]، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ.

2- قريش تشكك في صدق الدعوة المحمدية في الأسواق...

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (قريش قالوا لرواد الأسواق): هَلْ هَذَا (الرسول) إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ (تتبعونه) وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ[3]؟ قَالَ

(الرسول): رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[4]. بَلْ قَالُوا: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ[5]! (الجواب): مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا (بتكذيبها الرسل)، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ[6]؟ (1) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة) نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (أهل الكتاب عن أنبيائهم) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[7]: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ (الرسل) جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ (بل يأكلون)، وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ[8]، ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ[9]. لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ (يا قريش) كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ (خطاب إلهي إليكم) أَفَلَا تَعْقِلُونَ[10]؟ وَكَمْ قَصَمْنَا (أهلكنا) مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ[11]، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا (بالهلاك) إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ[12]! (قيل لهم) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ[13]؟ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[14]! فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ[15]. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ[16]. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ[17]، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ (فيبطله) فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (مهزوم)، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ[18]. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[19] (لا يتعبون)، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[20].

3- لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ...

أَمِ(2) (هل) اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ، (من الحجر) هُمْ يُنْشِرُونَ[21] (يحيون الموتى)؟ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ[22]. لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ (لأنه غير مخلوق لأحد ولا شريك له) وَهُمْ

1- معنى الآية: إنهم، أي قريش، لو أعطينا هم ما يطلبون لكانوا أنكث وأنكث" من الذين طلبوا من أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا، فأهلكهم الله.

2- اختلفت آراء اللغويين حول "أم" في مثل هذا التعبير: منهم قال إنها "استفهام الجحد"، أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء. وقيل: هي بمعنى "هل" أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى؟ وقيل: "أم"، عطف على المعنى أي: أفخلقنا السماء والأرض لعباً، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة في الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة؟ وقيل: لا تكون "أم" هنا بمعنى "بل" لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر "أم" مع الاستفهام فتكون "أم" المنقطعة فيصح المعنى. والواضح أنها بمعنى "هل": استفهام الجحد.

يُسْأَلُونَ[23] (لأنهم مخلوقون من أجل اختبارهم). أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ! (أما أنا -محمد- فبرهاني هو:) هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ (القرآن كتاب المسلمين) وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي (التوراة والإنجيل وهي تشهد بأن الإله هو الله وحده)، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ[24]! وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ[25]. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (كانوا يقولون الملائكة بنات الله)! سُبْحَانَهُ. بَلْ (هم) عِبَادٌ مُكْرَمُونَ[26] لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ (لا يتخذون أية مبادرة من عندهم أنفسهم) وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ[27]. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى (الله) وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[28]. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ (من دون الله) فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[29]. أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا (متصلتين كما تبدوان في الأفق) فَفَتَقْنَاهُمَا (فصلنا الواحدة عن الأخرى) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ[30]؟ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (جبالا اتقاء) أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا (مسالك) سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[31]. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (لا يسقط)، وَهُمْ عَنْ آَيَاتِهَا (كالشمس والقمر والنجوم وحركاتها) مُعْرِضُونَ[32]. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[33]. وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ[34]؟ (3) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[35].

4- سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.

وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ (=هم لا) يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (موضوع سخرية، يقول بعضهم لبعض) أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ (يتهجم على) آَلِهَتَكُمْ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ[36]. خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ! سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ[37]. وَيَقُولُونَ: (قل لنا أنت وصحبك) مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[38]. لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (حالهم) حِينَ لَا يَكُفُّونَ (يدفعون) عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[39] (لما سألوا عن ذلك)، بَلْ تَأْتِيهِمْ (الساعة) بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

3- قال الزمخشري: "كانوا يقدّرون أنه سيموت فيشمتون بموته، فنفى اللـــه تعـــالى عنـــه الشماتة بهذا، أي: قضى اللـــه أن لا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا   سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا".

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[40] (لا يمهلون). وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[41] (كانوا يستهزئون بالهلاك فجاءهم). قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ (من يحفظكم من عذاب الله) ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ[42] (لا يفكرون فيه لأنهم لا يؤمنون بالقرآن)! أَمْ (هل) لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟ (آلهتهم) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ (فينصرفوا)، وَلَا هُمْ (أي الكفار) مِنَّا يُصْحَبُونَ[43] (لا أحد يجيرهم ويمنعهم منا). بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ! أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ[44]؟ (4) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ. وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ[45]!. وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[46]. وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ[47].

5- كيف نصر الله رسله على أقوامهم المكذبين : بيان لأهل القبائل!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (التوراة) وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ[48]. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ[49]. وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ[50]!؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ (نضجه العقلي) مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ[51]. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ[52]؟ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ[53]. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[54]. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ[55] ؟ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ[56]، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ[57] فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا (كسّر أصنامهم حتى صارت فتاتا) إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ[58]! قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ[59]؟ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ[60]. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ[61]. قَالُوا: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ[62]؟ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ[63]. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا (بينهم وبين أنفسهم)

4- أي ننقص مساحة الشرك والكفر من أطراف الأرض، أي خارج مكة. هذه إشارة إلى بدء انتشار الإسلام خارج مكة بعد الاتجاه بالدعوة إلى المواسم والأسواق. ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الآية إشارة إلى اللقاء الأول مع وفد الخزرج الذي أسلم وحمل معه الدعوة إلى بلدهم. السنة الحادية عشرة للنبوة. راجع استهلال هذه المرحلة.

إنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ[64]، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ (وقالوا يا إبراهيم:) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ[65] (أنت تعرف أنهم لا ينطقون). قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ[66] : أُفٍّ (قبحا) لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (أليس لكم عقل تفكرون به؟) قَالُوا: حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ[68] (تريدون نصرتها). قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ[69]. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ[70] وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ[71] (5). وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ (ابنا) وَيَعْقُوبَ (حفيدا) نَافِلَةً (زيادة في المسؤولية) وَكُلًّا (أي الثلاثة) جَعَلْنَا صَالِحِينَ[72]، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ[73]. وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا (حكمة ونبوة) وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ (يأتون الرجال دون النساء) إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ[74]. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[75]. وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [76]، وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ[77]. وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ (بين متقاضين) إِذْ نَفَشَتْ (أكلت) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ(6) وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ (لحكمهما) شَاهِدِينَ[78]. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ[79]، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ (الدروع تلبسونها حين

5- جرت حوادث هذه القصة في العراق حيث كان إبراهيم مقيما، وقد هاجر بعد ذلك إلى بلاد كنعان ومعه ابن أخيه لوط بن هاران. في التوراة: "وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، 2فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لكثيرين). 3وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». 4فَارْتَحَلَ أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ، وَرَافَقَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ فِي الْخَامِسَةِ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا غَادَرَ حَارَانَ. 5وَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ زَوْجَتَهُ وَلُوطاً ابْنَ أَخِيهِ وَكُلَّ مَا جَمَعَاهُ مِنْ مُقْتَنَيَاتٍ وَكُلَّ مَا امْتَلَكَاهُ مِنْ نُفُوسٍ فِي حَارَانَ، وَانْطَلَقُوا جَمِيعاً إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَنْ وَصَلُوهَا" (سفر التكوين 12).

6- قالوا: "دخل رجلان على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم. فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيئاً، فقال داود عليه السلام: اذهب فإن الغنم لك. فخرجا فمرا على سليمان، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه: فقال: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا. فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال: كيف كنت تقضي بينهما؟ فقال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه".

القتال– والخطاب للقبائل) لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ[80]. وَلِسُلَيْمَانَ (سخرنا) الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (قيل: الشام، بما فيها فلسطين) وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ[81]، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ[82]. وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[83] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ (مرض وضائقة وعزلة) وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ[84]. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ[85]، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ[86]. وَذَا النُّونِ (يونس صاحب الحوت) إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ[7] (في بطن الحوت) أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ[87] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ[88]. وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا (بدون ولي وارث) وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ[89]. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ[90]. وَالَّتِي

7– مما فسروا به هذه الآية القصة التالية المنسوبة إلى ابن عباس، قال "كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا، وبقي سبطان ونصف. فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا فإني ألقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فقال له الملك: فمن ترى؟ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس بن متى: فإنه قوي أمين، فدعا الملك بيونس وأمره أن يخرج، فقال يونس: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال فهل سماني لك؟ قال: لا، قال فههنا أنبياء غيري، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم (الأبيض المتوسط) فوجد قوما هيأوا سفينة فركب معهم فلما تلجلجت السفينة انكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ههنا رجل عاص أو عبد آبق لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاص، ومن رسمنا (قانوننا) أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام، فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة. فإني جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له: أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم. ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام". وهذه القصة نسجت على مثال قصة يونس في التوراة، وقد أوردناها سابقا (انظر هوامش سورتي القلم رقم 35 ويونس52. القسم الأول من الكتاب).

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (مريم) فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ[91] (وقلنا لقومها) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[92]. وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ[93]: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ (لا بطلان لثواب عمله)، وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ[94] (عمله). وَحَرَامٌ عَلَى (أهل) قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ[95] (إلينا، بل يبعثون كالآخرين. حرمنا عليهم الرجوع والتوبة)، حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ (تهدم سدهم لصيحة القيامة)[(8)] وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ[96] (يجيئون)، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (وحالهم يقول) يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ[97]! (يقال لهم) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ[98] (مُلقون في جهنم كالحصباء). لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ[99] (لو كانوا آلهة لشفعت لهم كما يعتقدون! ولكن ليسوا آلهة! إذن هم وإياها خالدون في جهنم)، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ[100]. إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ[101]، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ[102]. لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (قائلين) هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ[103]، يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ![(9)] كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ[104].

6- خاتمة: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ...

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ (كتاب داوود) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (توراة موسى) أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ[105]، إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ[106] [(10)]. وَمَا

8- انظر قصة ذي القرنين في سورة الكهف رقم 71.

9- نظير قوله تعالى: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ" (الزمر 67)

10- رسالة واضحة ليهود المدينة: والمعنى: كتب الله في الزبور الذي أنزل على داوود الملك، والذي انقرض ملكه بعد ابنه سليمان، "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ". وإذن فالوعود التي أعطيت لموسى تحققت مع داوود وسليمان، وحل محلها وعد آخر هو "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"، والمقصود المسلمون. وإذن فعلى اليهود في "يثرب" أن يفهموا هذا فينضموا إلى الأنصار والمهاجرين -وهم عباد الله الصالحون- ويعترفوا بنبوة محمد وأن القرآن من عند الله، مثله مثل التوراة والزبور... وهذه الرسالة ستتكرر بصورة أوضح في القرآن المدني. وهذا المعنى غاب عن جميع المفسرين من الطبري الخ، فقد فسروا قوله تعالى "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" تفسيرا لا يستحضر ترتيب النزول

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[107]. قُلْ (يا محمد) إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ (أيها اليهود في يثرب) إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[108]؟ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ (بمعنى : قل لهم إني أخبركم بصراحة باني وإياكم سنكون في حالة حرب) وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ[109] (هنا من الحرب) [(11)]. إِنَّهُ (الله) يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ[110]. وَإِنْ أَدْرِي (ولا أعلم متى سيحصل هذا، فـ) لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ (خبر يفتنكم أو) وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[111]. قَالَ (الرسول): رَبِّ احْكُمْ (بيني وبين اليهود) بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ[112].

– تعليق

كل شيء في هذه السورة يشير إلى أنها من آخر من نزل في مكة. والشواهد الكثيرة التي ذكرناها في الشرح والهوامش تفيد أنها نزلت في الوقت الذي كان النبي عليه السلام منهمكا في التفاوض مع وفود القبائل، والأرجح أنها نزلت في الموسم الذي أسلم فيه وفد الخزرج وسمي إسلامهم "بيعة العقبة الأولى" (انظر الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة).

في السورة ست فقرات :

المقدمة وفيها تعلن عن اقتراب ساعة الحساب، والحساب المقصود هنا ليس حساب الآخرة كما يذهب إلى ذلك المفسرون بل هو الحساب الذي سيقوم به المؤمنون الذين كانوا يتجمعون في المدينة سواء من المهاجرين إليها من مكة أو الذين أسلموا فيها منذ أن بدأ الاتصال بين الرسول والوافدين إلى الحج وهو الاتصال الذي توج ببيعة العقبة الثانية ...

ولا من هو المخاطب هنا فقال معظمهم إن المقصود بـ"الأرض" هنا "أرض الجنة"، قال الرازي : "فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد= وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية". قلت (الجابري) : وهذا لا يستقيم لأنه يسقط قوله تعالى "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ" ولا يعطيه أي معنى ولا أي دور في الخطاب. أما قوله تعالى: "إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ" فهو حسب السياق الذي أبرزناه خطاب لليهود. أما المفسرون فقد ذهبوا في تفسير الآية بما يصرفها إلى العبادات في الإسلام مثل للصلوات الخمس والزكاة الخ.

11- صرف المفسرون الخطاب في هذه الآية إلى قريش كما فعلوا في الآيات السابقة. وفي هذا الصدد ذكر القرطبي أنه قيل في معنى الآية "آذنتكم [يا قريش] بالحرب ولكنـي لا أدري متى يؤذن لي في محاربتكم". ونحن نرى أن الأقرب إلى السياق ما قلناه أعلاه.

أما الفقرات الثانية والثالثة والرابعة فتعرض السورة فيها للحملة التي شنتها قريش لصد أهل المواسم والأسواق عن الرسول. فتذكر نماذج من دعاياتهم ضدد وتجيب عنها، وفي نفس الوقت تشجب عبادة الأصنام وتؤكد على الأركان الأساسية في الإسلام: النبوة والتوحيد والبعث؛ مؤكدة أن ما يوعدون به من قيام الساعة والحساب سيأتي وقته، وأن استعجالهم ليوم القيامة، كتحد منهم، دليل على أنهم غافلون: فالإسلام ينتشر خارج مكة، وأرض الشرك تتناقص، والمواجهة آتية.

وتأتي الفقرة الخامسة لتؤكد لهم وللذين يلتحقون بالإسلام أن النصر في هذه المواجهة سيكون للرسول والمؤمنين، وأن ذلك ما حدث للرسل السابقين في صراعهم مع أقوامهم بدءا من إبراهيم إلى مريم. لقد انتصر الرسل وانهزم المكذبون والظالمون في كل زمان ومكان، ويوم القيامة مأواهم جهنم.

أما الخاتمة فتستعيد المقدمة كالعادة، لترتفع بها إلى أعلى بعد أن أثبتت صحتَها الفقرات الوسطى (التحليل والجدل والبرهان...). وهكذا لم يعد الأمر مقتصرا على الإعلان عن "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ"، بل لقد انتقلت الخاتمة بالسورة إلى بيان المقصود بـ"الناس" وبيان النتيجة، وذلك من خلال التأكيد على أن الله قضى في الزبور، أي بعد داوود وسليمان، أن "الوعد بالأرض" لم يعد مقصورا على بني إسرائيل الذين انتهى ملكهم مع سليمان، بل إن ذلك الوعد التوراتي الموسوي صار وعدا لعباد الله الصالحين، وهم المسلمون في يثرب، وأن هذا الوعد ليس مجرد خبر من الأخبار بل هو "بلاغ لقوم عابدين" الله من اليهود والمسلمين، وعليه يجب إنذار يهود يثرب بذلك (حتى لا يقولوا خدعنا أو فوجئنا) : "قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[108]؟. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ (أعلمتكم بصراحة). انظر الهامشي الأخيرين: 10 و 11).



74- سورة المؤمنون

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة ما يستحق الذكر. وكل ما هناك أنهم يذكرون أن عمر بن الخطاب قال : وافقت ربي في أربع، قلت: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله تعالى "وَاتَّخِذوا مِن مَّقَامِ إبراهيمَ مُصَلّى"، وقلت: يا رسول الله "لو اتخذت على نسائك حجاباً، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى "وَإذا سَألتُموهُنَّ مَتاعاً فاسألُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجاب"، وقلت لأزواج النبي (ص) لتنتهن أو ليبدلنه الله سبحانه أزواجاً خيراً منكن فأنزلَ الله "عَسى رَبُّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزواجاً خيراً مِّنكُنَّ" الآية، وهذه الآيات نزلت في المدينة فلا علاقة لها بهذه السورة. أما الآية الرابعة وهي قوله تعالى "وَلَقَد خَلَقنا الإنسانَ مِّن سُلالَةٍ مِّن طين" إلى قوله تعالى "ثُمَّ أنشَأناهُ خَلقاً آخَرَ" فهي من السورة التي نحن ضيوف عليها، وفي الرواية المذكورة أن عمر لما نزلت تلك الآية قال: "فَتَبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالقينَ"، فنزلت هذه. وفي رواية أخرى أن شخصا آخر كان يكتب هذه السورة للرسول حين نزولها فلما انتهى إلى قوله تعالى: "خَلقاً آخَرَ" عجب ذلك الشخص من ذلك وقال: "فَتَبارَكَ اللّهُ أحسَنُ الخالقِينَ" فقال رسول الله (ص): "اكتب، فهكذا نزلت". فشك ذلك الكاتب وقال إن كان محمد صادقاً فيما يقول فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه، وإن كان كاذباً فلا خير في دينه". ونقطة الضعف في هذه الرواية هي قول الراوي "فهرب إلى مكة"، الشيء الذي يعني أن النازلة حدثت في المدينة، والسورة مكية.

- نص السورة

1- مقدمة: خصال المؤمنين الذين سيدخلون الجنة خالدين فيها...

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[1] الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ[2]، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ[3]، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ[4]، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ[5] إِلَّا

عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ[6] -فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ (زيادة على أزواجهم وما ملكت أيمانه) فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ[7] (المعتدون)- وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[8]، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[9]، أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ[10]، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[11].(1)

2- خلقنا... وخلقنا لكم... ويوم القيامة تبعثون.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ[12]، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ[13] (في رحم المرأة)، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ[14]. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ[15]، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ[16]. وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ (سماوات)(2) وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ[17] (3)، وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ (آبارا وترعا)، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ[18]. فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[19]، وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ (هي شجرة الزيتون) تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ[20] (زيتون يؤكل مع الخبز). وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا

1- هذه الفقرة تشعر بأن جماعة المسلمين أخذت تنمو مما استوجب تشريعات أخلاقية تميز سلوك المؤمنين عن غيرهم. ولا بد من استحضار أن الخطاب في هذه السور موجه أساسا إلى البدو من العرب في المواسم والأسواق، ولذلك يستعيد ما سبق أن رأيناه في الخطاب الذي كان موجها من قبل إلى قريش. والاستعادة هنا ليست تكرارا حرفيا بل هي صيغة جديدة تركز في الغالب على دلائل وحجج من بيئة عالم الأرياف والبادية، كما هو واضح أعلاه.

2- قالوا: "أي سبع سموات" وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض. يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلا على نعل، وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبا فوق ثوب". هذا ومفهوم "السموات السبع" يطابق معهود العرب في ذلك الوقت الذي يرجع إلى الموروث "العلمي" القديم الذي كان يتمثل في النظام الفلكي الذي شيده بطليموس (عالم يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد) وقوامه كواكب سبع سيارة والأرض في مركزها، وهذه السبع السيارة هي: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر. وقد بقيت نظرياته مهيمنة على علم الفلك إلى القرن السادس عشر.

3- عن الخلق: يعني المخلوقات: لم تكن غافلين عنها عند خلقنا السماوات فجعلناها لفائدتها: فالشمس والقمر الخ، والنجوم وحركاتها الخ، وما ينتج عنها من ضوء ومطر وفصول الخ، كلها أمور ضرورية لحياة المخلوقات الأرضية. والآية التالية تشير إلى هذا المعنى، فلا ضرورة لتأويلات بعيدة عن السياق كما فعل بعض المفسرين.

فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[21]، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ[22].

3- سفينة نوح ... حياتهم كانت ابتلاء والمصير: الحساب والجزاء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ[23]؟ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (يترأس) عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ[24]، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ (جنون) فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ[25]. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي[26] (أي لتكذيبهم إياي). فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (برعايتنا) وَوَحْيِنَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (صعد الماء على جوانب السفينة قلنا له) فَاسْلُكْ (ضع) فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (الذين لم يؤمنوا)، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ[27]. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[28]. وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ[29]، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ[30] (حياتهم كانت اختبارا لهم).

4- إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ...

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا (قوما) آخَرِينَ[31]، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ[32]. وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ[33]؛ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ[34]! أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ[35] (من قبوركم)، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ[36] (لا بعث)! إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا (نحيا ونموت) وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ[37]؛ إِنْ هُوَ (الرسول) إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ[38]. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ[39]. قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ[40]. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ، فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً (كنبات يابس)، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[41]. ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا (أقواما) آخَرِينَ[42]، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ (ما من أمة تسبق) أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ[43]. ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

تَتْرَى ، كُلَّ مَا (كلما) جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ! فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (عن ماض، يتداولها الناس) فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ[44].

5- الرسل كيان واحد والمؤمنون أمة واحدة ...

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ[45] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ[46]. فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا (بنو إسرائيل) لَنَا عَابِدُونَ[47]؟ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ[48]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[49]، وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ (في الشام) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ [50] (الماء مستقر فيها). يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ [(4)] كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[51]. وَإِنَّ هَذِهِ (أيها الرسل) أُمَّتُكُمْ

4- اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، وسبب الاختلاف: تعيين المخاطب. وقد أجمل الرازي ذلك فقال: "اعلم أن ظاهر قوله: "لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ" خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم، فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه: أحدها: أن المعنى الإعلام بأن كل رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به، ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه. وثانيها: أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل، وإنما ذكر على صيغة الجمع، كما يقال للواحد: أيها القوم كفوا عني أذاكم ومثله: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ" (آل عمران: 173) والمعني شخص واحد هو نعيم بن مسعود، كأنه سبحانه لما خاطب محمداً (ص) بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين لما خوطبوا إلا بذلك ليعلم رسولنا أن هذا التثقيل ليس عليه فقط، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: وهو قول محمد بن جرير الطبري أن المراد به عيسى عليه السلام لأنه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولأنه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه"، ويضيف الرازي: "والقول الأول أقرب لأنه أوفق للفظ الآية". قلت (الجابري): أما نحن فنرى أنه لا إشكال في هذا الخطاب إذا ما راعينا السياق ككل، والسياق هو إخبار العرب من أهل الأسواق بما ذكره القرآن مفصلا في سور سابقة عند مخاطبة قريش. فالخطاب يخص هنا تجارب الرسل مجتمعة بقطع النظر عن الزمان والمكان. ذلك أنه تعالى لما ذكر بتجارب هؤلاء الرسل، خاطبهم بوصفهم خاضوا تجربة واحدة وكانت دعوتهم دعوة واحدة، وهي دعوة الناس إلى الإيمان. فالموضوع الذي استهلت به السورة هو مدح المؤمنين، وما تلا ذلك هو بيان كيفية تكون المؤمنين في التاريخ، من نوح إلى محمد عليهما السلام. فشكر الرسل هنا جاء بوصفهم جنودا كلفوا عبر التاريخ بمهمة واحدة هي نشر التوحيد، والذين استجابوا لهم يشكلون جماعة أو أمة واحدة، هي جماعة المؤمنين عبر التاريخ. هذا بينما تفرق غير المؤمنين فلا يجمعهم جامع ولا يمكن إطلاق اسم "أمة" عليهم لأنهم لا شيء يجعل منهم جماعة لأنهم لا يجمعهم قصد واحد ولا إيمان بإله واحد.

أُمَّةً (ملة) وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي[52]؛ فَتَقَطَّعُوا (أقوام الرسل، ومن بينهم قريش قوم النبي محمد) أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا (تفرقوا فرقا)، كل حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[53]. فَذَرْهُمْ (اترك قريشا) فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ[54]. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ[55] نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! (كلا) بَل لَا يَشْعُرُونَ[56] (أن الأمر سينقلب عليهم بعد حين).

6- أما المؤمنون فهم يسارعون إلى العمل الصالح...

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[57]، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ[58]، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ[59]، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا (من الأعمال الصالحة) وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ (بسبب) أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[60]: أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ[(5)] (في الأعمال الصالحة) وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ[61] (يسابقون). وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (إلا بما تستطيع فعله من الأعمال الصالحة)، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ (بما فعله كل منهم) وَهُمْ[(6)] لَا يُظْلَمُونَ[62]، بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا (غير مشغولة بتعداد ما يفعلون من الخيرات)، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ (غير تلك التي يسابقون بها في الخيرات) هُمْ لَهَا عَامِلُونَ[63].

7- أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ؟!

حَتَّى[(7)] إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ (مترفي مكة) بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (يضجون)[64]. (يقال لهم) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ[65] (كما كنتم في

5- لاحظ الفرق بين قوله متحدثا عن الكفار: "أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ"، فهم يظنون، واهمين، أن الله هو الذي يمدهم بالخيرات متتابعة متسارعة، وبين قوله عن المؤمنين: "أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ". وهذا رد على الكفار بأن الخيرات يسارع المؤمن إليها، لا العكس. أما ما يعطى للكفار فهو، باصطلاح القرآن، ابتلاء واختبار. وبما أنهم لا يؤمنون فسيحاسبون عليه يوم القيامة ويمكن أن يسحب منهم في الدنيا.

6- اختلف المفسرون في من يعود إليه هذا الضمير (هم) والضمائر المماثلة التالية له: هل للمؤمنين أم للكفار؟ ونحن نرجح أنها تعود إلى الذين يسابقون في الخيرات. فبهذا يستقيم السياق.

7- الزمخشري: "حتى" هذه، هي التي يبتدئ بعدها الكلام، أي: الجملة الشرطية: "إذا أخذنا مترفيهم.

الدنيا تنصرون بأموالكم). قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ (يذكركم بها الرسول عندما يتلوها في المسجد) فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ[66] (لا تستجيبون للرسول)، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا (متسامرين في تجمعاتكم ونواديكم ليلا) تَهْجُرُونَ (ما تسمعون من القرآن)[67]. أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ (لا يفهمون القرآن؟) أَمْ (لأنه) جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ[68]؟ (جاءهم بالتوحيد الذي ينهى عن عبادة ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام)؟ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ؟[69]؟ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ (جنون)؟ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ (التوحيد)، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[70]؟ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ (بأن اعترف بتعدد الآلهة) لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ (بالكتاب الخاص بهم: القرآن) فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ[71]. أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا (هل يعتقدون أنك ستطلب منهم ثمنا إذا آمنوا)؟ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[72].

8- محاجة المشركين. ويوم القيامة موعدهم...

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[73]. وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (خارجون عنه)[74]. وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ (وآتيناهم بالمطر بعد قحط) لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[75] (لتمادوا في ضلالهم). وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ (الجوع) فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ[76]، حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ (يوم القيامة) إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[77] (يائسون). وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ[78]، وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ (أنشأكم) فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[79]، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[80]؟ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ[81]: قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[82]؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[83]. قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[84]؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ! قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[85]؟! قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ[86]؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ؛ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ[87]؟! قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[88]؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (تصرفون الناس عن الله)[89]؟ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[90]. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذًا (لو كان معه إله) لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ[91]. عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[92]. قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ[93] (إن كان ولابد أن تريني ما يوعدون من العذاب)، رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي (من جملة) الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[94] (الذين لهم ذلك العذاب). (الجواب:) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ (يا محمد) مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ[95]. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ (=أذاهم إياك)، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ[96]. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ (وسوسات) الشَّيَاطِينِ[97]، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي[98] (الشياطين). حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي[99]، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ! كَلَّا، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (لا فائدة له فيها)، وَمِنْ وَرَائِهِمْ (أمامهم: بعد موتهم) بَرْزَخٌ (حاجز يصدهم) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[100]. فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ (فلا علاقات قرابة) بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[101] (لا يسأل بعضهم عن بعض)، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[102]، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[103] : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ[104] (ملامحهم متقلصة). (يقال لهم) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ[105]. قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ[106]، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[107]، قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي[108]. إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ[109]، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ[110]. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ[111]. قَالَ (الله) كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ (قبل البعث) عَدَدَ سِنِينَ[112]، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (الذي يحصون أعمال الخلق)[113]. قَالَ: (فعلا) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[114] (كم ستبقون في جهنم). أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ[115].

9- خاتمة : والذين لا يؤمنون حسابهم عند ربهم : لا يفلح الكافرون.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ، الْكَرِيمِ[116]. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ[117]. وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ[118].

- تعليق

كان المحور الذي دار حوله الخطاب في السورة السابقة هو تفنيد ادعاءات مشركي قريش في نجواهم مع القبائل في المواسم والأسواق لصدهم عن الاستجابة

للدعوة المحمدية، وقد اشتملت الردود القرآنية على استعادة ما أبطلت به هذه الدعوة الاعتراضات التي وجهها مشركو مكة إلى النبي عليه السلام في المراحل السابقة، عندما كانت الدعوة محصورة في مكة (قبل "اصدع بما تؤمر")، لتنتقل بعد ذلك إلى التأكيد على أن النصر للدعوة المحمدية مؤكد وقريب، مستشهدة من جهة بدروس من الماضي المقدس الذي يشهد بأن انتصار أنبياء الله هو ما انتهى إليه صراعهم مع أقوامهم، فقد خرجوا جميعا منتصرين، ومن جهة أخرى استدلت السورة على حتمية انتصار الدعوة المحمدية بما كان يشهد به حاضرها وهو أن الاستجابة لها بدأت تظهر خارج مكة الشيء الذي يقلص شيئا فشيئا من هيمنة قريش وسلطتهم الاقتصادية والمعنوية (الدينية القبلية) على القبائل العربية بحيث باتت أرض الشرك تنقص من أطرافها.

وفي هذه السورة ينتقل الخطاب القرآني إلى المحور التالي: جميع الرسل مبعوثون برسالة واحدة، رسالة التوحيد، ومع أن لغة خطابهم تختلف باختلاف ألسنة أقوامهم فإنهم والمؤمنون بهم يجمعهم شيء يعلو على "اللغة" بوصفها أداة وصل وتواصل، إنه الإيمان بنفس الرسالة، رسالة التوحيد والمسؤولية (البعث). وتريد هذه السورة أن تبين ما يجعل من المؤمنين في كل زمان "أمة واحدة"!

بدأت السورة في المقدمة بتعريف للمؤمن من خلال ذكر الخصال التي تفرق بين المؤمن وغير المؤمن، وذلك على مستويين: على مستوى العلاقة مع الله (العبادات : الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها)، ومستوى العلاقة مع الناس (الأخلاق: الإعراض عن اللغو، وإيتاء الصدقات، وتجنب الزنا، والحفاظ على الأمانة). بعد ذلك تأتي الفقرة الثانية لترتفع بالتعريف بالمؤمن إلى مستوى أعلى، إلى الإيمان بأن الله هو الخالق، خلق السماوات والأرض بصورة تخدم الإنسان (وهنا نلمح حضورا واضحا للبيئة البدوية مقابل حضور البيئة الدينية التجارية التي كانت بارزة في الخطاب إلى قريش (مثلا: لإيلاف قريش...).

ثم تنتقل السورة إلى الاستشهاد بالتاريخ المقدس فتختار قصة نوح، وتبرز فيها ما لم يكن بارزا عند الاستشهاد بها من قبل عندما كان الخطاب موجها إلى قريش. ذلك أن قوم نوح اعترضوا هذه المرة بقولهم: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (يتشرف: يترأس) عَلَيْكُمْ". وواضح أن الخطاب هنا قد صيغ على لسان قريش بطريقة تفهم منه القبائل أن غرض محمد هو أن يترأس عليهم. ويأتي الجواب: بأن هذا الذي قاله قوم نوح، كان دليلا على اختيارهم النهائي للضلال، فكان ذلك مما أوجب تدخل الإرادة الإلهية فكان هلاكهم بالطوفان.

وتوالت الرسل بعد نوح وتكررت مواقف التكذيب لهم من طرف أقوامهم فتكررت معها طرق إهلاكهم : "ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى (تتابع)، كُلَّ مَا (كلما) جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (لم يبق منهم إلا أخبارهم يتداولها الناس) فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ"[44]. والخطاب موجه هنا للقبائل العربية وللمؤمنين الجدد من خارج مكة وبكيفية خاصة في يثرب.

بعد الإشارة إلى نوح وعاد وثمود الخ، تأتي النتيجة: "وَإِنَّ هَذِهِ (أيها الرسل) أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي[52]". أما أقوامهم المكذبون: "فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"[53]، وهنا يتم الانتقال إلى قريش المكذبين لرسولهم: "فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ[54]. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ[55] نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! (كلا، هم خاطئون) بَل لَا يَشْعُرُونَ[56].

بعد ذلك تعود السورة لخصال المؤمنين الذين يشكلون أمة واحدة (يؤمنون بإله واحد) في مقابل المشركين الذين تمزقت بهم السبل (لكل منهم صنم يعبده)، لتؤكد أن من شمائل المؤمنين أنهم "يسارعون في الخيرات"، وهذا خطاب للمؤمنين الجدد. أما قريش فقد ضلوا واستكبروا، والحساب يوم القيامة. ثم ترسم السورة مشهدا لحالهم في جهنم حين يحاسبون ويذكرون بما كانوا يفعلون في الدنيا: بما كانوا يدعون وبما كان القرآن يرد به عليهم (والخطاب إخبار لأهل القبائل الخ): "فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ[109]"... ومن جملة ما أثير في هذا الخطاب مع أصحاب النار يوم القيامة، والمقصود هنا قريش، أنهم "قَالُوا (في الدنيا) مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ[81]، قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[82]، لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ". لكن عندما سيُلقون في جهنم فسيقولون: "رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ[106]، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[107]...

وتأتي خاتمة السورة لتستعيد مقدمتها ولترتفع بها من مستوى الإشادة بخصال المؤمنين، كما فعلت في مقدمتها، إلى مستوى التأكيد على عقيدتهم. ذلك أن تلك الخصال وحدها لا تكفي إذ قد يأتيها المؤمن وغير المؤمن. وإذن فالعقيدة هي الأساس، وقد جاء التعبير عنها مركزا على التوحيد والمعاد، كما يلي: "فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ، الْكَرِيمِ[116]. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ"، والخطاب دائما لأهل القبائل.



75- سورة السجدة

- تقديم

وردت حول آيات من هذه السورة روايات "أسباب نزول" جلها لا يستقيم لا مع السياق ولا مع كون السورة مكية ولا مع الظروف التي نزلت فيها. ومع ذلك نذكر بعضها كعادتنا لما قد يكون فيها من فائدة على مستوى السيرة.

ذكر البخاري أن أحدهم قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة أنفار، كثيرٌ شحم بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم: قرشي وختناه ثقفيان، أو ثقفي وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقال بعضهم: أترون الله سمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفع لم يسمع. وقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله؟ قال: فذكرت ذلك للنبي (ص) فنزل عليه "وَما كُنتُم تَستَتِرونَ أن يَشهَدَ عَلَيكُم سَمعُكُم وَلا أبصارُكُم وَلا جُلودُكُم" إلى قوله تعالى "فَأَصبَحتُم مِن الخاسِرينَ".

وحول قوله تعالى "وَلَو بَسَطَ اللهُ الرِزقَ لِعِبادِهِ لَبَغوا في الأَرضِ" الآية، قالوا: نزل في قوم من أهل "الصُفَّة" (وهم جماعة من الصحابة الفقراء أنزلهم النبي عليه السلام بعد الهجرة في مكان قرب مسجده بالمدينة يسمى الصفة)، منهم خباب بن الأرت الذي قال: "فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا بطرنا إلى أموال (يهود) قريظة والنضير فتمنيناها فأنزل الله تبارك تعالى هذه الآية". وواضح أن هذا لا يستقيم فالآية والسورة مكيتان!

- نص السورة

1- لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ!

بسم الله الرحمن الرحيم

الم[1]. تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[2]. أَمْ (هل) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[3].

2- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ (يتولى مصالحكم) وَلَا شَفِيعٍ (ناصر) أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ[4]؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَعْرُجُ (الأمر) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ[5] [1]. ذَلِكَ، (وهو) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[6]. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ[7]، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[8] (ضعيف، النطفة)، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ[9].

3- إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ..!

وَقَالُوا (مشركو مكة) أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ (غبنا فيها وصرنا تراب) أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ[10] (يعني: حقيقة هذا السؤال أنهم كافرون بالبعث)، قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[11].

1- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية : فقال بعضهم: معناه: أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، وقدر ذلك ألف سنة مما تعدّون من أيام الدنيا: خمسمائة عام بين الأرض إلى السماء صعودا، ومثلها نزولا. وقال آخرون: "خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكل يوم من هذه كألف سنة مما تعدّون أنتم". وقال فريق آخر: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض بالملائكة يبعثهم إلى الأرض، ثم تعرج إليه الملائكة، في يوم كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا". بمعنى: "ما بين السماء والأرض مسيرة ألف سنة". يختار الطبري الذي أورد هذه الأقوال القول الأول لأنه في نظره " أظهر معانيه، وأشبهها بظاهر التنزيل". لكن هذا لا يستقيم مع قوله تعالى: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (المعارج: 4). ولتجاوز هذا الإشكال قال الرازي: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع، لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى: "فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ" يعني: "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" في زمان، يوم منه ألف سنة، فكم يكون شهر منه، وكم تكون سنة منه، وكم يكون دهر منه؟ وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر". وقال الزمخشري: " وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله؛ أي يصير إليه ليحكم فيه "فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وهو يوم القيامة". ونحن نرى أن التدقيق في مثل هذه المسائل لا طائل من ورائه، فالأمر يتعلق بتقدير لا يقصد لذاته بل بما يفيده، وهو يفيد أن عالم الألوهية لا يقاس بعالم البشر. ومثل هذا نقول في قوله "ستة أيام". أما قوله "استوى على العرش"، فمفهوم منه الاستيلاء، ومن أسمائه تعالى "الملك"، و"المهيمن" الخ، أي نسبته إلى مخلوقاته كنسبة الملك إلى الرعية، والمعنى الاستيلاء والحكم والهيمنة...

وَلَوْ تَرَى (يا محمد يوم القيامة) إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يقولون): رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا، فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ[12]! (الجواب): وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا[(2)] وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[13] (الجن والإنس معا). فَذُوقُوا، بِمَا نَسِيتُمْ (بسبب نسيانكم) لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، إِنَّا نَسِينَاكُمْ؛ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[14]. إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[15]، تَتَجَافَى (ترتفع) جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ (عن الفراش لقيامهم الليل) يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[16]. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (ما تقر به أعينهم) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[17]. أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ[18]. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا (منزلا) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[19]، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمْ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ[20]. (وقبل ذلك) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ[(3)] لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[21].

---

2 - قال الزمخشري "لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا" على طريق الإلجاء والقسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء". وأضاف: ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله: "فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ" فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعني: إن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: "إِنَّا نَسِينَاكُمْ"، على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة، فتركناكم من الرحمة، وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى فذوقوا هذا، أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة".

3- اختلف المفسرون في تفسير "العذاب الأدنى"، أما العذاب الأكبر فهم متفقون على أنه جهنم. وقد جمع القرطبي ما قيل في الموضوع فقال: " قوله تعالى: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ": قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأبيّ بن كعب وإبراهيم النخعيّ: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العباد حتى يتوبوا؛ وقاله ابن عباس. وعنه أيضا أنه الحدود. وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف؛ وقاله مجاهد. وعنه أيضا: العذاب الأدنى عذاب القبر؛ وقاله البراء بن عازب. قالوا: والأكبر عذاب يوم القيامة. قال القشيريّ: وقيل عذاب القبر. وفيه نظر (=يقول القرطبي)؛ لقوله: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"! (والحال أنهم لا يرجعون من القبر). قال (القرطبي-دائما): ومن حمل العذاب على القتل قال: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" أي يرجع من بقي منهم. ولا=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا، إِنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ[22]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ (في شك) مِنْ لِقَائِهِ (مع الله وأخذ الكتاب منه: ألواح التوراة)، وَجَعَلْنَاهُ (موسى أو الكتاب) هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ[23]. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ[24]. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[25]. أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ (يتبين لقريش) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ (الأقوام) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ (في طريق تجارتهم إلى الشام)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ! أَفَلَا يَسْمَعُونَ[26]؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ (الأرض التي لا نبات فيها) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ[27] (وبالتالي ألا تستنتجون من ذلك أن البعث آت).

4- خاتمة: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ، إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ (نزول العقاب بهم)[(4)] إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[28]؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ[29] (يمهلون). فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ[30].

- تعليق

أمران اثنان اختصت بهما هذه السورة ضمن الإطار العام الذي تتحرك فيه سور هذه المرحلة:

أولهما التأكيد على أن هناك عقابا، أقرب زمنا، ينتظر مشركي قريش إضافة إلى عقاب يوم القيامة. وكما كانوا من قبل يحاجون مرارا في عقاب الآخرة قائلين: "مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ها هم يقولون اليوم "مَتَى هَذَا الْفَتْحُ (نزول العذاب بهم في الدنيا) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وكان الجواب "وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ"؛ وهذا يعنى

خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم". ونحن (الجابري) نرى أن استحضار ظروف نزول السورة يقتضي حمل الآية على ما كان يستعد له الرسول من الهجرة إلى المدينة من حيث سيقوم باعتراض قوافلهم والدخول معهم في صراع مسلح الخ. وهذا وفقا مع الآية التالية: "إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ"، وأيضا مع خاتمة السورة.

4- قال بعض المفسرين: الإشارة إلى فتح مكة. وقال آخرون : يعني يوم القيامة". قلت: والواقع أن المقصود هو ما عبر عنه قبل بـ "العذاب الأدنى". والتعبير بـ"الفتح" إشارة إلى أن المقصود هو النصر في الدنيا، وما كان منتظرا في ظروف نزول هذه الآية ليس فتح مكة فهذا بعيد، بل لانتصار تحالف الرسول مع أهل يثرب ضد قريش.

أنهم كانوا على علم باتصالات النبي عليه السلام مع أهل المدينة، وليس من المستبعد أن تكون هذا السورة قد نزلت كسابقاتها (النحل، إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون) عقب بيعة العقبة الأولى (السنة الثانية عشرة).

أما الأمر الثاني فهو أن السورة ذكرت بني إسرائيل بما يفيد إرسال "رسالة سلام" إلى يهود المدينة الذين لا شك أنهم قد توجسوا من انتشار الاسلام في المدينة وقرب قدوم الرسول إليها. ذلك قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ (في شك) مِنْ لِقَائِهِ (مع الله الذي ضرب معه موعدين)، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ". وهذه الإشادة بموسى وبني إسرائيل يمكن أن تفهم على أن الإسلام الذي يدعو إليه الرسول (ص) يريد أن يعيش مع يهود المدينة في جو من التسامح والاعتراف المتبادل. وبهذا تكون هذه الرسالة مكملة لما ورد قبل في سورة الأنبياء التي أخبرتهم أن الوعود التي وعد الله بها موسى في التوراة قد تحققت، وأن الله قد قضى في الزبور (كتاب داوود) أن الأرض يرثها عباده الصالحون دون تمييز...



76- سورة الطور

- تقديم

أخرج الطبري عن ابن عباس أن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة، فإنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك "أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون".

وهذه الرواية جزء من رواية طويلة حكاها ابن اسحاق تتحدث عن اجتماع كبار قريش وقرارهم باغتيال النبي، ومحاولة تنفيذهم لهذا القرار وعلم الرسول بذلك في نفس الليلة التي ذهبوا فيها لاغتياله فلم يجدوه في مكان نومه، ووجدوا في على فراشه علي بن أبي طالب، وكان الرسول قد أوصاه بذلك، للإفلات منهم، وغادر مكة مهاجرا إلى المدينة. وقد نجا فعلا. وبناء على هذه الرواية تكون سورة "الطور"، التي وردت فيها الآية المذكورة، آخر ما نزل في مكة! وهذا لا يستقيم، لا باعتبار رتبة هذه السورة في لوائح ترتيب النزول ولا باعتبار مضمونها.

وما نراه هو أن الاجتماع الذي تحدثت عنه رواية ابن إسحق قد وقع بعد بيعة العقبة الثانية التي فتحت المجال لهجرة المسلمين إلى المدينة. أما قول تعالى : "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ"، فيعبر عن حيرة قريش وعدم قدرتهم على اتخاذ قرار نهائي في شأن اغتياله، وهو رد فعل يمكن أن يكون قد صدر عنهم في أي وقت.

- نص السورة

1- مقدمة: إن عذاب ربك لواقع.. ما له من دافع ...

بسم الله الرحمن الرحيم

والطُورِ[1] (الجبل الذي كلم الله فيه موسى)، وَكِتَابٍ مسْطُورٍ[2] (القرآن) ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ[3] ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ[4] (الكعبة)، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ[5] (السماء)، وَالْبَحْرِ

الْمَسْجُورِ[6] (الذي يغلي، في جهنم)، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ[7] مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ[8] (وهذا تفصيل ذلك):

2- مصير المكذبين ومصير المتقين...

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (تتحرك جيئة وذهابا)[9] وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا[10]، فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[11]، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ[12]، يَوْمَ يُدَعُّونَ (يدفعون بعنف) إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا[13]: (يقال لهم) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ[14]، أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ[15]؟ اصْلَوْهَا، فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[16]. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ[17]، فَاكِهِينَ (متمتعين) بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ. وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[18]؛ كُلُوا وَاشْرَبُوا، هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[19]: (يقال لهم ذلك بينما كانوا) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ[20] (زوجاتهم متكئات معهم). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ(1)، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ (ما أنقصنا) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[21] (يجزى حسب عمله). وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ[22]. يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا (يتناولها بعضهم من بعض)، لَا لَغْوٌ فِيهَا (الجنة) وَلَا تَأْثِيمٌ[23] (لا كذب). وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ، كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ[24]. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[25]: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ[26] (كنا في الدنيا محرومين خائفين)، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ[27] (ريح حارة)، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ (الله). إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ[28].

3- فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ، بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ...

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ، -بِنِعْمَةِ رَبِّكَ(2)-، بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ[29]. أَمْ (هل) يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ[30]؟ (حوادث الأيام) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ[31]، أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا؟ أَمْ (بل) هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[32]؟ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ؟ بَل لَا يُؤْمِنُونَ[33]! فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ[34]. أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ[35]؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَل لَا يُوقِنُونَ[36]! أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ، أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ[37]؟

---

1 - يقول الزمخشري : "فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم".

2- قيل: "بنعمة ربك" : قسم. وقيل ليست بقسم وإنما هو بمثابة قولنا : "فما أنت، والحمد لله، بكاهن..."

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ (إلى السماء) يَسْتَمِعُونَ فِيهِ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[38]! أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ؟ وَلَكُمُ الْبَنُونَ[39]! أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ[40]! (يشعرون بثقل الأجر عليهم)، أَمْ عِنْدَهُمُ (علم) الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ! [41] (ذلك العلم، وأين هو)! أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا (يتآمرون عليك)؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ[42] (المكيد بهم). أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ[43] ! وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا (قطعا كالحجر ونحوه مما أهلك به الأقدمون) يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ[44]! فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ[45]. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[46]. وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ (قبل ذلك)[(3)]، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[47] (ما سينزل بهم بعد هجرة النبي إلى المدينة).

4- وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (تحت رعايتنا)، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ[48]، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ[49].

- تعليق

تتميز هذه السورة والسور السبع التالية لها بخصائص ثلاث: فمن جهة وردت متتابعة في معظم لوائح ترتيب النزول، ومن جهة ثانية هي ذات حجم قصير، مع بعض التفاوت، ومن جهة ثالثة هي ذات موضوع مركزي واحد هو البعث، والخطاب فيها موجه إلى قريش، في الغالب، وبأسلوب جدلي.

أما أن تكون رتبها في لوائح ترتيب النزول مطابقة لمسار التنزيل فهذا ما تشهد له بالصحة بعض الإشارات في هذه السور وسنبرزها في حينها (وقد سبق أن عرضنا للرواية التي ترتبط بقوله تعالى "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" والتي تحيل إلى أواخر العهد المكي). وأما ما يفسر وجود هذه السور في هذه الرتب، حاملة الخصائص المذكورة، فهذا ما ليس واضحا الآن بالقدر الكافي. كل ما يمكننا قوله هو أن السور التي نزلت بعدها جاءت من جنس التي نزلت قبلها مضمونا وشكلا، الشيء الذي جعل هذه السور الثماني تبدو وكأنها "جملة اعتراضية"، داخل نفس السياق.

3- واضح أنه هو نفسه العذاب المشار إليه في السورة السابقة بقوله تعالى: "الْعَذَابِ الْأَدْنَى" (الآية 21) أي ما سيشنه عليهم المسلمون من غزوات بعد الهجرة إلى المدينة التي كانو قد بدؤوا فيها.
وانطلاقا من حقيقة أن القرآن نزل مفرقا على مقتضى الأحوال فإنه يمكن القول إن "الحال" الذي نزلت هذه السور مناسبة له هو وضعية المسلمين في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة).

تؤكد هذه السورة عن طريق القسم أن مصير المشركين إلى جهنم أمر واقع ليس له من دافع. ثم ترسم مشهدا لقيام الساعة، وآخر لما يلاقيه الكفار من عذاب في جهنم من جهة، وما يتمتع به المتقون من أنواع النعم في الجنة من جهة أخرى. بعد هذا تنتقل إلى مخاطبة النبي عليه السلام طالبة منه الاستمرار في الدعوة وعدم الاهتمام بما يصفونه من الجنون وغيره، فاتحة جدلا مع قريش، ترد فيه على ما يتداولونه من مكايد للتخلص منه، من قول بعضهم، اتركوه للزمن وحوادث الأيام، وانتظروا فسيموت كما مات الشعراء السابقون له، ويأتي جواب القرآن، في نوع من التحدي، "قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ". وتستمر السورة في مجادلتهم إلى أن تعود إلى مخاطبة النبي عليه السلام: "فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ[45]. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ"[46]. ثم تضيف: " وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ (قبل ذلك)[(4)]، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[47]، مشيرة إلى عذاب سيلاقونه في الدنيا قبل الآخرة، كناية عن قرب دخول الدعوة مرحلة الحرب معهم، بعد أن أصروا على التكذيب بها والتنكيل بالمسلمين. ثم تختتم بدعوة الرسول إلى التزام الصبر، فإنه تحت رعاية الله وعنايته ولن ينالوا منه شيئا: "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (تحت رعايتنا)، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ[48]، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ"[49].

4- واضح أنه هو نفسه العذاب المشار إليه في السورة السابقة بقوله تعالى: "الْعَذَابِ الْأَدْنَى" (الآية 21) أي ما سيشنه عليهم المسلمون من غزوات بعد الهجرة إلى المدينة التي كانوا قد بدؤوا فيها. وانطلاقا من حقيقة أن القرآن نزل مفرقا على مقتضى الأحوال فإنه يمكن القول إن "الحال" الذي نزلت هذه السور مناسبة له هو وضعية المسلمين في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة).

77- سورة الملك

- تقديم

لم يرد حول هذه السورة شيء يستحق الذكر سوى أنها مكية باتفاق وأن قوله تعالى في السورة: "وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"، نزل -حسب رواية عن عباس- في جماعة من قريش كانوا يناقشون أمر النبي عليه السلام وكيفية التخلص منه، فقال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمعنا إله محمد؟

- نص السورة

1- مقدمة: خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ[2].

2- مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَارْجِعْ الْبَصَرَ، هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ[3] (شقوق) ؟ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ[4] (لعدم رؤية أي خلل). وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (تضربها عندما تحاول استراق السمع) وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ[5].

3- وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[6]. إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ[7]. تَكَادُ تَمَيَّزُ (تتمزق) مِنْ الْغَيْظِ (غضبا على الكفار)، كُلَّمَا

أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ[8]؟ قَالُوا بَلَى! قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ، فَكَذَّبْنَا (رسلنا) وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ[9]. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ[10]! فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ، فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ[11]. إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (1) لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[12]، وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ(2)، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[13]. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[14].

4- أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ؟

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا (سهلة) فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا (سبلها)، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (البعث)[15]. أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ[16] (تتحرك تتزلزل)! أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، (ريحا ترميكم بالحجارة) فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ[17]. وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[18] (إنكاري عليهم)! أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (يطلقن أجنحتهن ويقبضنها)، مَا يُمْسِكُهُنَّ (من السقوط) إِلَّا الرَّحْمَانُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ[19]. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ، يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ؟ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ[20]. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ (الرحمان) رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُّوا (تمادوا) فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ[21]! أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا (واقعا) عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟[22].

5- وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ؟

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ[23]. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ (خلقكم) فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[24]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[25]؟ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ

1- سبق أن قلنا إن المقصود بـ"الغيب" هنا هو الإيمان بالله من دون طلب أدلة حسية كالمعجزات كما كانت تطلب قريش من النبي عليه السلام.

2- روي عن ابن عباس أنها نزلت في جماعة من قرش كانوا يناقشون أمر النبي عليه السلام وكيفية التخلص منه، فقال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمعنا إله محمد؟

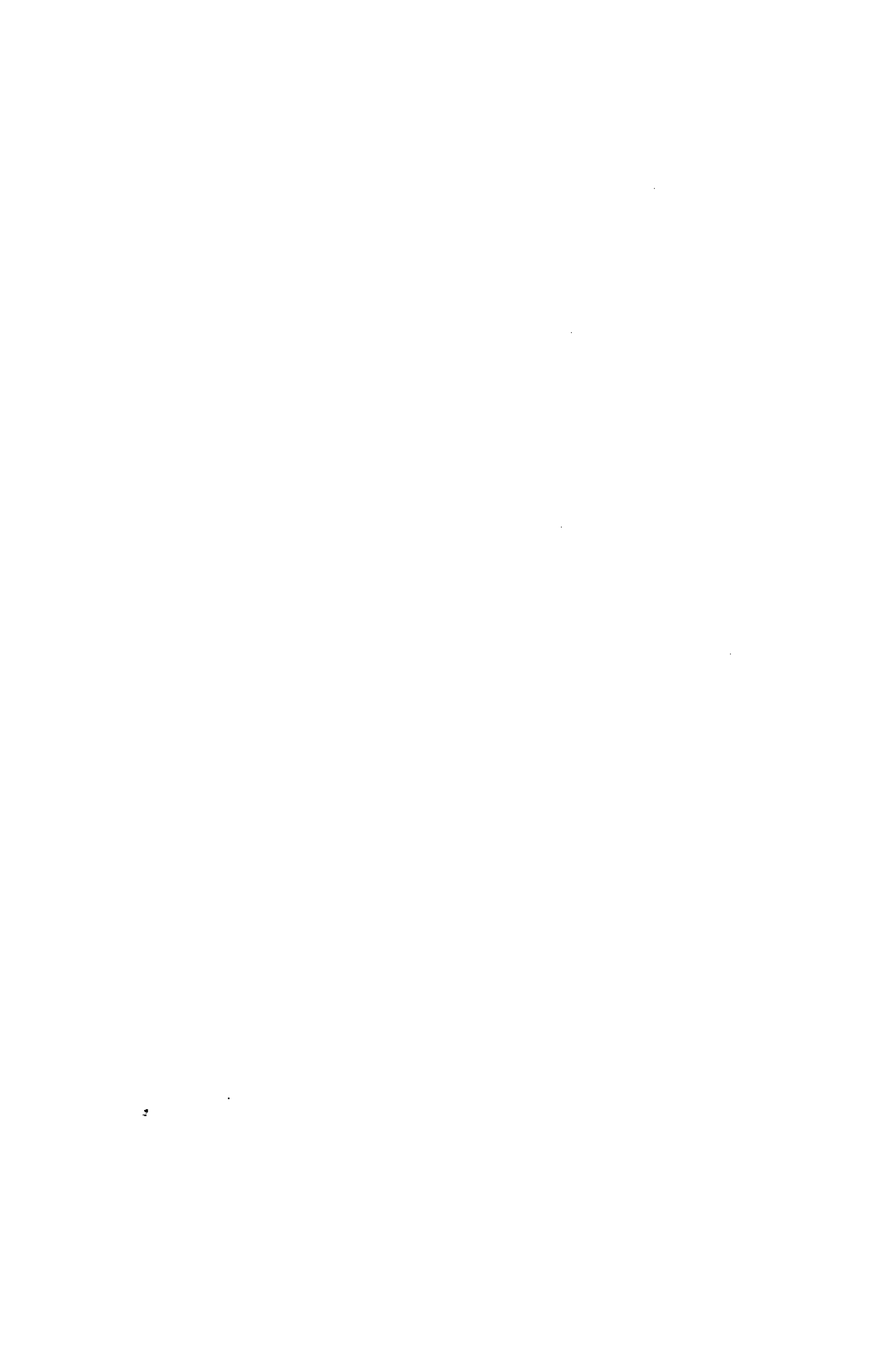
مُبِينٍ[26]. فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً (عندما يرونه قريبا منهم)، سِيئَتْ (تغيرت واسودت) وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ[27] (أنكم لا تبعثون).

6- خاتمة: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ ... فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ ؟

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (لا مجير لهم)[28]؟ قُلْ (مجيرنا الذي يحمينا) هُوَ الرَّحْمَانُ، آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[29] (نحن أم أنتم)؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا (غار في الأرض)، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ[30].

- تعليق

واضح من مضمون هذه السورة أنها تندرج ضمن السياق العام الذي تتحرك فيه سور هذه المرحلة. فهي تتحدث عن البعث، عن عذاب النار ونعيم الجنة. ومع أن خطاب الوعيد فيها موجه إلى قريش فإن الأدلة التي تعرضها هي من بيئة العرب خارج مكة، الشيء الذي يعني أن خطاب الدعوة موجه إليهم : السماوات الطباق، والكواكب زينتها، الأرض الذلول، والمشي في مناكبها، الطيور الصافات تجري في السماء دون أن تسقط. أضف إلى ذلك إشارة السورة إلى انشغال قريش بأمر التخلص من الرسول والرد عليهم (التقديم والخاتمة).



78- سورة الحاقة

- تقديم

لم يرد في شأنها ما يستحق الذكر سوى اتفاقهم على أنها مكية، وتحديد رتبتها في لوائح ترتيب النزول ما بين الرتبتين 75 و 78.

- نص السورة

1-مقدمة: الحاقة ما الحاقة ؟

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَاقَّةُ[1] (القيامة)، **مَا الْحَاقَّةُ**[2]! **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**[3]؟! (تهويل أمرها).

2- ثمود، عاد فرعون، لوط ، إشارات للتهديد والتخويف

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ[4] (القيامة)! **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ**[5] (الصيحة الطاغية)، **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**[6] (شديدة الصوت قوية)، **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** (متتابعات كتتابع الكي الذي يحسم فيما يشكو منه المكوي) **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**[7] (جذوع نخل لا جريد فوقها)! **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ**[8]؟! **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ، وَالْمُؤْتَفِكَاتُ** (أهل قرى لوط) **بِالْخَاطِئَةِ**[9]، **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً** (زائدة في الشدة)[10]. **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ** (حدث الطوفان) **حَمَلْنَاكُمْ** (أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، أي الإنسان كنوع) **فِي الْجَارِيَةِ**[11] (في سفينة نوح). **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً** (عظة) **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**[12].

3- مشهد قيام الساعة والحساب والجزاء : الجنة أو النار...

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ[13]، **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**[14]، **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**[15]. **وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**[16] **وَالْمَلَكُ**

عَلَى أَرْجَائِهَا، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ[17] (من الملائكة). يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ[18]. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ (خذوا)[(1)]، اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ[19]. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ[20]. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ[21]، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ[22]، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ[23]، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ[24]، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ[25]، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ[26]، يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ[27]، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ[28]، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ[29] (سقطت عن حجتي). (قيل) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ[30] (اجمعوا يديه إلى عنقه)، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ[31] (ألقوه)، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا (قياسها) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ[32] (كتفوه). إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ[33]، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ[34]، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ[35]، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ[36] (شجر في جهنم)، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ[37] (أخطئوا في الدنيا طريق الرشاد).

4- خاتمة: إنه لقول رسول كريم

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ[38] وَمَا لَا تُبْصِرُونَ[39]: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ[40]، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ[41]! وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ[42]! تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[43]. وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا (النبي محمد) بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ[44]، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ[45] (لعاقبناه عقابا شديدا). ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[46] (شريان القلب). فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ[47] (مانعين عنه العقاب). وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ[48]. وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ[49]، وَإِنَّهُ (القرآن) لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ[50] (عندما يرون تحقق ما يخبرهم به)، وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ[51] فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ[52].

- تعليق

تندرج هذه السورة ضمن سور هذه المرحلة من حيث تركيزها على البعث والحساب. وتتميز هذه السورة القصيرة بكونها تستعيد مضمونا وشكلا سورا أخرى نزلت في المرحلة الثانية تدور حول "البعث ومشاهد القيامة" (القسم الأول من هذا الكتاب). وكما قلنا في تعليق سابق فالتكرار الملاحظ في هذه السور يرجع إلى اختلاف المخاطَب. كان المخاطَب في المرحلة الثانية، خلال السنة الرابعة والخامسة للنبوة، هم مشركو قريش، خوطبوا بحديث البعث ومشاهد القيامة. أما هنا في

---

[1] - **هاؤم: للجمع المذكر، كما أن هاكن للجمع المؤنث، وهاك للمفرد الخ).**

المرحلة السادسة، التي استغرقت أربع سنوات (العاشرة – الرابعة عشرة) فالمخاطبون هم أهل القبائل والمسلمون الجدد في المدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية، فضلا عن أهل مكة. وقد سبق أن قلنا إنه أمام غياب وسائل النشر والاتصال، لم يكن هناك من سبيل لتبليغ الدعوة سوى إعادة التذكير بما سبق أن نزل. كان المسلمون الأوائل الذين عايشوا نزول القرآن في المرحلتين الأولى والثانية قد هاجروا إلى الحبشة ولم يبق مع النبي إلى أفراد من قدماء المسلمين (أبو بكر وعمر وعلي ...). فكان استئناف الدعوة بعد الخروج من الحصار يكتسي طابع الإعادة ــ خصوصا وأركان الدعوة بقيت هي هي : النبوة، التوحيد، البعث. أما القصص فالمناسب في هذه المرحلة هو ذلك الذي يشكل جزءا من موروث العرب – أهل القبائل خاصة- أعني قصص عاد وثمود وما يسمعونه عن فرعون مصر وهو ما تستعيده هذه السور وبشكل مركز ومناسب لمقتضى الأحوال.



79- سورة المعارج

- تقديم

كل ما ورد في شأن هذه السورة من "أسباب نزول" خبر ورد فيه أن قوله تعالى "سَأَلَ سائلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ" الآيات، نزل في النضر بن الحارث حين قال: "اللَّهُمَّ إن كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ" الآية، فدعا على نفسه وسأل العذاب. وهنك خبر آخر مؤداه أن قوله تعالى "أَيَطمَعُ كُلُّ امرئٍ مِّنهُم أَن يُدخَلَ جَنَّةَ نَعيمٍ كَلا..." (الآية 38) نزل ردا على المشركين الذين كانوا يرون النبي (ص) وحوله المستضعفون يستمعون القرآن يتحدث عن الجنة فقالوا: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وكما سبق أن قلنا غير ما مرة فإن معظم الآيات التي يقال عنها إنها نزلت بسبب "كذا" لا شيء يثبت أنها نزلت فعلا بسبب ذلك، فلم يكن هناك تسجيل بهذا المعنى، بل كل ما هناك هو أن المهتمين بتفسير القرآن في مراحل لا حقة كانوا يسألون الصحابة أو التابعين عن النوازل التي يمكن أن تكون لها علاقة بهذه الآية أو تلك. وهكذا فقولهم إن الآية الفلانية "نزلت بسبب كذا" لا يعني بالضرورة أن الأمر كذلك بالفعل، كل ما هناك هو أن الآية قد تجد ما يعين على فهمها في هذه الحادثة أو تلك، بناء على أن القرآن نزل منجما حسب مقتضى الأحوال. لكن القرآن كما نزل وجمع وكما نقرؤه في المصحف هو مجموعة سور، تتناول أكثر من موضوع، وذات خطاب مبني، أي عبارة عن آيات (أي مقاطع كلامية) ترتبط ببعضها داخل سياق معين. فالآيات، -أو بعض أجزائها- التي يقال عنها إنها نزلت بسبب النازلة الفلانية هي مندرجة في سياق معين، والغالب ما يصعب فصلها عن سياقها لكي تلبي مقتضيات ما اعتبر "سببا لنزولها". ولذلك كان الأساس في فهم القرآن هو السياق، أما ما يذكر من أسباب نزول ففائدته هو أنه يمدنا بعناصر تساعدنا على موضعة الآية في موقعها المحتمل على مستوى السيرة النبوية، أما على مستوى التنزيل فالاعتبار للسياق أولا وأخيرا([1]).

---

[1]- يصدق هذا على القرآن المكي خاصة. أما علاقة "أسباب النزول" بالقرآن المدني فسنتعرف عليها حين تعاملنا معه.

- نص السورة

1- مقدمة: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ[1] لِلْكَافِرِينَ، لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ[2]، (عذاب) مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ[3] (السماوات، في السماء العليا، كناية عن علو المقام): تَعْرُجُ (تصعد) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ (جبريل) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ[4] (كناية عن علو وسمو مقام الله). فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا[5] (على أذى قومك، وتكذيبهم بيوم القيامة فسيلاقون العذاب الذي عنه يسألون). إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ (العذاب يوم القيامة) بَعِيدًا[6]، وَنَرَاهُ قَرِيبًا[7].

2- يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ..

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (كالفُتات)[8] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (الصوف المنفوش)[9]، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا[10] (ولا يطلب قريب قريبا) يُبَصَّرُونَهُمْ (يرشدونهم. حينذاك). يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ[11] وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ[12] وَفَصِيلَتِهِ (عشيرته) الَّتِي تُؤْوِيهِ[13]، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، ثُمَّ يُنْجِيهِ[14] (2). كَلَّا، إِنَّهَا لَظَى[15] (جهنم)، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (تنزع جلد الرأس)[16]، تَدْعُوا (تطلب وتمسك من جلد رأسه) مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى[17]، وَجَمَعَ (المال) فَأَوْعَى[18] (حفظه في وعاء).

3- خصال المؤمن ... ومشهد القيامة

إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا[19] (شديد الفزع)، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا[20] (تراه خائفا)، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا[21] (بخيلا)، إِلَّا الْمُصَلِّينَ[22] الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ[23]، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ[24] لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ[25] (3). وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ[26]، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[27] إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ[28] (4). وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ[29]، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

2- المعنى: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي عذاب جهنم بجميع من ذكرتهم الآية.

3- مدح للمؤمنين الذين يجعلون في أموالهم حقا للسائل والمحروم.

4- بمعنى أنهم يخشون عذاب ربهم باستمرار لأن القيام بما ذكر لا يمنعهم بصفة نهائية من العقاب، ولذلك يحترزون من اقتراف ذنوب أخرى بعد أن يكونوا قد قاموا بما تقدم.

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ[30]، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ[31] (المعتدون). وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[32] (لا يخلفون)، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ[33] (يؤدون شهادة الحق)، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[34]. أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ[35].

4- أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ[36] (مركزين أنظارهم فيك)، عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عِزِينَ[37] (متحلقين حولك)، أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ[38]؟ كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ[39] (من نطفة، متساوون، والجنة يتوقف الدخول إليها على العمل لها). فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ [(5)] إِنَّا لَقَادِرُونَ[40] عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ[41] (بعاجزين).

5- خاتمة: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ ...

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ[42]، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا (من القبور مسرعين إلى المحشر) كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ (رايات وما أشبه) يُوفِضُونَ[43] (يسارعون)، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ، تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ. ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ[44].

تعليق

كان خصوم الدعوة المحمدية من مشركي مكة يعترضون على عقيدتها التي تقوم على المبادئ الثلاثة الرئيسية: النبوة، والتوحيد والبعث:

كان اعتراضهم على نبوة محمد مبنيا على عدة حجج : منها أنه بشر مثلهم يأكل الطعام، وأنه لم يأت بمعجزة كما فعل أنبياء سابقون مثل موسى وعيسى الخ، وهذه الحجج كانت ضعيفة أمام دعوة القرآن لهم إلى استعمال عقولهم والنظر في نظام الكون وفي أنفسهم. وأمام إصرارهم واتهامهم النبي بافتراء القرآن تحداهم أن يأتوا بسور أو حتى بسورة واحدة مثله، فعجزوا.

5- تشرق الشمس وتغرب كل يوم في نقطة خاصة من الأفق، متحركة حركتها الظاهرة من المشرق إلى المغرب. والقسم هنا برب المشارق والمغارب يناسب الموضوع وهو أن قدرته تعالى على إعادة خلق البشر، كقدرته على جعل الشمس تشرق وتغرب ثم تعود فتشرق ...

وكان اعتراضهم على التوحيد، بمعنى نفي الشريك عن الله، بإبداء عجبهم من كون محمد عليه السلام جعل الآلهة إلها واحدا! وهنا أيضا كان رد القرآن عليهم حاسما، فلم يجدوا ما يردون به إلا القول بأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون.

أما اعتراضهم على المبدأ الثالث، أعني، البعث والجزاء، فقد بنوه على حجتين: الأولى قولهم باستحالة إحياء العظام "وهي رميم". ومعلوم أن القول باستحالة وجود شيء، لا يقوم حجة إلا إذا كانت هناك تجربة أو تناقض منطقي. أما الحجة الثانية فهي نوع من مطالبة الخصم بإثبات دعواه بالإتيان بما يدعيه. وفي الجدل العقلي لا يصح هذا، ذلك لأن على صاحب الدعوى أن يثبت عقليا إمكانية حدوث ما يدعيه، لا أن يأتي به مشخصا، وعلى خصومه أن يردوا على حججه بما يفسدها أو يوهنها. ولما لم يكن في إمكان قريش القيام بمثل هذا الرد عمدوا إلى التمسك بسؤال يعرفون مسبقا أنه لا أحد يستطيع الجواب عنه: متى تقوم القيامة ويكون البعث؟ وأحيانا يتحول السؤال إلى تحد باستعجال قيامها! هذا في حين أن البعث ليس مجرد حادثة، بل هو حساب وجزاء، وبالتالي تحميل الإنسان مسؤوليته، والذين ينكرون البعث إنما يتهربون من تحمل مسؤولية سيئات أعمالهم، ومسؤولية تقصيرهم في تحصيل الحسنات التي يذهبن السيئات.

من هنا كان الجدل حول البعث حاميا بينهم وبين الدعوة المحمدية، فالقضية ليست مجرد مسألة ما ورائية، بل هي مسألة تخص الدنيا قبل الآخرة. وإلى هذا الصنف من الجدل ينتمي الخطاب القرآني في هذه المجموعة من السور القصيرة نسبيا التي نزلت في هذه المرحلة الأخيرة من مسار التنزيل في مكة.

لنقرأ السورة التي نحن ضيوف عليها من هذا المنظور:

1- تنطلق السورة من التأكيد على أن العذاب الذي وعد الله به المشركين واقع لا محالة يوم القيامة. أما استعجالهم له، أي لقيام القيامة وفناء العالم، فهو ناتج عن اعتقادهم أو توهمهم بأن فناء العالم أي انتهاء زمان الدنيا يمكن قياسه بمقاييس البشر. وتضرب السورة لذلك مثلا بمَلِك يصدر أوامره لحكام أقاليم مملكته فإذا كانت هذه المملكة واسعة جدا فإن حاملي تلك الأوامر إلى أولئك الحكام سيحتاجون إلى زمن طويل (بقياس وسائل الاتصال آنذاك). وإذا شبهنا مهمة الملائكة بمهمة حاملي أوامر الملك إلى الأقاليم البعيدة في مملكته، فإنه سيكون على الملائكة أن يصعدوا إلى الله في إطار زمن كل يوم فيه يعادل خمسين ألف سنة من أيام البشر. ومن هذا المثل يتبين أن الوعد الإلهي بقيام الساعة ومعاقبة المكذبين يحتاج تنفيذه من طرف الملائكة إلى زمن طويل جدا. وإذن فعلى الرسول أن لا يخضع لمنطق قريش حين يطلبون منه تحديد "تاريخ" قيام القيامة. إن عليه أن يصبر كما صبر الرسل من قبل،

بدون قلق ولا فقدان ثقة في النفس، إنه الصبر الجميل المطلوب منه. خصوم الدعوة المحمدية يقيسون المسافة التي تفصلهم عن يوم القيامة بزمنهم البشري فيرونه بعيدا جدا، يرونه حدثا ضائعا في أفق لا حد له، تماما كما يبدو لهم "تاريخ" بداية خلق الكون ضائعا في الأفق المقابل.

2- يوم القيامة هو يوم "البعث" بعد فناء العالم بما فيه الزمان. ومن مشاهد هذا الفناء: أن السماء تفقد تماسكها فتصير فتاتا، والجبال تفقد صلابتها فتصير منفوشة كالصوف. أما البشر فيصيبهم الذهول: فلا يسأل قريب عن قريب يقوده أو يرشده. لا يهتم المجرم الذي ينتظره العذاب بالبحث عن أقارب أو أصدقاء، بل هو مستعد -إن أمكنه ذلك- أن يقدم بنيه وزوجته وأقاربه "ومن فالأرض جميعا" ثمنا لنجاته من العذاب، ولكن هيهات! إن نار جهنم تخطفه إليها، تمسك إليها بجلد رأس كل من أعرض عن الدعوة المحمدية وانقطع لجمع المال وخزنه.

3- ذلك هو طبع الإنسان الذي طبعه الله عليه: إذا مسه الشر فزع وخاف، وإذا مسه الخير بخل به على الضعفاء والمحتاجين. ذلك هو سلوك المشركين. أما المؤمنين الذي يداومون على عبادة الله، ويتصدقون على المحتاجين، ليس من موقع المراءاة والتفاخر أو المن على الضعفاء، بل هم يفعلون ذلك من موقع شعورهم بأن في أموالهم حق للسائل والمحروم، وإيمانهم باليوم الآخر، يوم الحساب، وخوفهم على أنفسهم من عذاب ربهم، وإشفاقهم على أنفسهم من أن يقصروا فيصيبهم نصيب المقصر من العذاب. ليس هذا فحسب، بل إن من خصال هؤلاء الؤمنين أنهم لا يزنون ولا ينكثون العهد ولا يضيعون الأمانة ولا يتهربون من أداء شهادة الحق، ولا يسهون عن صلاتهم. هؤلاء مصيرهم الجنة، يقيمون فيها مكرمين.

4- لماذا يجلس الذين كفروا في حلقات من حولك ويركزون أن ارهم فيك وأنت تقرأ هذا الذي يوحى إليك؟ هل يطمع كل منهم في الجنة؟ كيف؟ وبأي حق؟ هل يمكن إشراكهم مع المؤمنين لمجرد أنهم خلقوا من نطفة؟ هل يعتبرون أنفسهم أرفع أصلا ومنزلة من المؤمنين؟ ليس الأمر كذلك! المصير إلى الجنة يتوقف على العمل الصالح. هل يتعقدون أن وجودهم ضروري لبقاء الدنيا كما هي؟ لا! إن وجودهم غير ضروري في الدنيا حتى يطمعوا في الجنة بدون عمل. إن الله قادر إلى أن يبدلهم خيرا منهم؟

5- هؤلاء مغرورون مفتونون بالدنيا، فلتتركهم يلهون ويلعبون حتى يفاجئهم اليوم الذي يوعدون، يوم البعث، اليوم الذي سيخرجون فيه من قبورهم، مسرعين إلى المحشر، يسابق بعضهم بعضا من شدة الفزع، أبصارهم خاشعة وعلى وجههم مذلة. ذلك هو اليوم الذي يوعدون.



80- سورة النبأ

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة سوى أنها مكية وأن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تقع بين الرتبتين: 72 و 80. أما الأخبار التي تعود بنزول هذه السورة والسور المجاورة لها هنا إلى السنوات الأولى من البعثة، فلا شيء يزكيها سوى تشابه مضمونها مع تلك السور، وقد سبق أن بينا أن هذا التشابه يجب أن لا يخفي عنا ما بينهما من اختلاف يرجع إلى نوع المخاطب. من تلك الأخبار أن ابن عباس قال: "كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به" فنزلت: "عم يتساءلون". والقول إن كون قريش كانت تجتمع وتتساءل الخ، لا يصح دليلا على أن هذه السورة نزلت لهذا السبب، فقد كان تداول قريش في أمر محمد عليه السلام شغلها الشاغل منذ نبوته إلى انتهاء أمر قريش بفتح مكة...

- نص السورة

1- مقدمة: يَتَسَاءَلُونَ، عَنْ النبأ الْعَظِيمِ!

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ[1]؟ عَنْ النبأ الْعَظِيمِ[2] (قيام القيام)[1] الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ! كَلَّا سَيَعْلَمُونَ[4]، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ[5].

1- بعض المفسرين فسروا النبأ العظيم بالنبوة: بمعنى أن قريشا كانوا يتساءلون عن حقيقة نبوة محمد (ص). والواضح أن السياق يدل على أن موضوع السؤال هو "البعث". فالوعيد "كلا سيعلمون..." يدل عليه: كلا سيعلمون ما يسألون عنه يوم حدوثه: يوم تقوم الساعة. أما كونهم مختلفين فيه فلأن بعضهم ينكره إنكارا وبعضهم متردد، وبعضهم يشك الخ. وقد سبقت الإشارة إلى حيرة قريش في هذا الأمر. ثم هناك الآية التالية بعد، التي تتحدث عن يوم الفصل بوصفه ميقاتا أي موعدا محددا.

2- أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا...

أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ مِهَادًا (فراشا)[6]، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا[7]، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا[8]، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (راحة)[9]، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا[10]، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا[11] (لطلب المعاش)، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا[12] (سماوات لا يؤثر فيها الزمن)، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا[13] (الشمس)، وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ (السحاب) مَاءً ثَجَّاجًا[14] (صبابا)، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا[15]، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا[16] (بساتين ملتفة كثيفة الأشجار)؟ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا[17] (موقوتا. وهذا جواب الاستفهام : ألم نجعل...).

3- عذاب جهنم ونعيم الجنة ...

يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ (قرن) فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا[18]، وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا[19]، وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا[20] (سريعة كالسراب)، (في ذلك اليوم :) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا[21]، لِلْطَّاغِينَ مَآبًا[22]، لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا[23]، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا[24]، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا[25] (ماء حارا وصديدا)، جَزَاءً وِفَاقًا[26]. إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا[27]، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا[28]، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا[29]، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا[30]. إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا[31]، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا[32]، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا[33]، وَكَأْسًا دِهَاقًا[34]، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا[35]، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا[36]. رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا: الرَّحْمَانِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا[37] (لا يجرؤ أحد أن يكلمه)، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا[38].

4- خاتمة: إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ...

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا[39]. إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا، يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا[40].

- تعليق

1- موضوع السورة كما أفصحت عنه مقدمتها هو البعث. لقد أجابت السورة السابقة الذين كانوا ينكرون البعث باستعجال حدوثه، وبينت مصير المكذبين ومصير المؤمنين، وما يتطلبه الدخول إلى الجنة من خصال الخ، وتأتي هذه السورة لتبين للذين

ينكرون البعث من زاوية أنه غير ممكن، أن فعل الله وخلقه وصنعه الذي يرون في الدنيا دليل على إمكانيته:

2- إن أجزاء الكون من أرض وسماء وليل ونهار وسحاب ومطر الخ، كل ذلك خلقه الله في نظام وترابط ولغاية، فلماذا تقرون بهذا ولا تسلمون أن الله جعل لهذا العالم ميقاتا لفنائه ثم إحيائه من جديد، عالما آخر يتم فيه الفصل والحكم بين المؤمن والمشرك، والظالم والمظلوم، يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا. فبدون هذا اليوم الفصل تبقى الحياة بدون معنى: الحق فيها والباطل سيان!

3- يوم الفصل، ينفخ في الصور، فتقوم القيامة، ويفنى العالم، تنشق الأرض فتخرجون من قبوركم أفواجا، تنشق السماء فتتعدد فيها الفتحات والأبواب، وتسير الجبال (ومنها المحيطة بمكة) فتصبح سرابا. وحينها تفتح جهنم أبوابها لمن كانت تنتظره من الطغاة ليجازوا عما عملوا، كما تفتح الجنة أبوابها لمن أعدت لهم من المتقين، ثوابا لهم. كل في المكان الذي يستحقه في الجنة أو في النار، ولا أحد يحتج، بل الكل صامت! الله لا يقدر أحد على أن يكلمه : في هذا المشهد يقف جبريل والملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وكان كلامه صوابا.

4- ذلك هو النبأ العظيم الذي ينذر به القرآن، فمن شاء منهم جعل مآبه إلى الله، أما الكفار المعرضون المكذبون فسيندمون عندما يحاسبون على ما قدمت أديهم، وحينئذ يتمنون أن لو كانوا في الدنيا مجرد تراب...



81- سورة النازعات

- تقديم

من الأخبار التي وردت حول آيات من هذه السورة الخبر التالي، قالوا: لما نزل قوله تعالى "أإنا لمردودون في الحافرة" (الآية 10)، قال كفار قريش : لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت "قالوا تلك إذا كرة خاسرة" (الآية 12) . وفي خبر آخر أن النبي (ص) كان يُسأل عن الساعة فنزلت : "يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها". هذا وقد رتبت هذه السورة في لوائح النزول بين الرتبة 72 والرتبة 81، فهي من أواخر ما نزل، وهي مكية باتفاق.

- نص السورة

<u>1- مشهد قيام الساعة: النفخة الأولى والنفخة الثانية...</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا[1] (النجوم تجري في السماء من جهة إلى جهة حتى تغرق في الأفق)، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا[2] (الكواكب السيارة دائمة الحركة)، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا[3] (النجوم تسبح في السماء)، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا[4] (السابقات من السابحات)، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا[5] (شروقا وأفولا وما يرتبط بذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول الخ)(1)، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ[6] (النفخة الأولى في الصُّور: فناء

---

1 - ذكر معظم المفسرين احتمال أن يكون المقصود من "النازعات" الخ، النجوم كما أثبتنا، ولكنهم مالوا إلى ترجيح أن يكون المقصود بهذه الموصوفات هم الملائكة، وذلك في ارتباط مع مقتضيات العقيدة الإسلامية. أما نحن فقد فضلنا الاحتمال الأول باعتبار أن الآيات تخاطب المشركين من قريش بما هو من المشاهد عندهم، أي من معهودهم. وقد رأينا كيف أقسم الله بالظواهر الطبيعية، كالشمس والليل والفجر والضحى وغيرها من عناصر الكون التي يعرفها الناس كلهم ويشهدون بصحة ما يصبغ عليها القرآن من أوصاف. فالهدف ليس تقرير العقيدة بقدر ما هو الاحتكام إلى ما لا ينازع فيه الخصم، وهذا من قبيل الاستدلال بالشاهد على الغائب.

العالم) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ[7] (النفخة الثانية للبعث، للخروج من القبور والجملة: يوم... جواب القسم في رأينا)[(2)].

2- يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ (قلوب المشركين وقت الرجفة الثانية) وَاجِفَةٌ[8] (قلقة خائفة)، أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ[9] (ذليلة): يَقُولُونَ (المشركون) أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ[10] (في حفرة جهنم؟)[(3)]! أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً[11] (أيحدث ذلك بعد أن كنا عظاما منخورة)؟! قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ (رجوعهم إلى الحياة بعد الموت) خَاسِرَةٌ[12]. (وهكذا) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ (نفخة ثانية) وَاحِدَةٌ[13]، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ[14] (بوجه الأرض، العارية، أحياء بعد أن كانوا أمواتا في القبور).

3- فرعون كذب وعصى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى[15]، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى[16] (اسم الوادي حيث خاطبه الله فيه وقال)، اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى[17]، فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى[18]، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى[19]؟ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى[20] (عصا موسى)، فَكَذَّبَ وَعَصَى[21]، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى[22]، فَحَشَرَ (جمع السحرة) فَنَادَى[23] (في

2 - اختلف المفسرون والنحاة في جواب القسم، وقد عرض الطبري جملة من الآراء، وانتهى إلى القول : "والصواب من القول في ذلك عندنا: أن جواب القسم في هذا الموضع، مما استغني عنه بدلالة الكلام، فترك ذكره"، بمعنى أنه يفهم من السياق، وترك الباب مفتوحا. ونحن نرى أن الجواب مذكور وهو الجملة : "يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة". والمعنى : أقسم بـ"النازعات غرقا" وغيرها من ظواهر انهيار العالم وفنائه أنه بعد أن ترجف الراجفة وقيام الساعة ويفنى العالم ستتبعها رجفة ثانية هي البعث للحساب، فالقسم من أجل تأكيد البعث.

3 - شرح المفسرون "الحافرة" بـ"الحياة" ونُسب هذا النوع من الشرح لابن عباس وغيره، وذلك على معنى : "يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم (اليوم وهم أحياء): إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات، فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا، وقبل مماتنا؟ وهو من قولهم: رجع فلان على حافرته: إذا رجع من حيث جاء". هذا بينما يدل السياق بوضوح على أن قول المشركين المذكور هو رد فعلهم، وقلوبهم واجفة، يرتعدون، من المشهد الذي وجدوا أنفسهم إزاءه وقد خرجوا من قبورهم على أثر الراجفة الثانية. وإذن فسؤالهم ليس سؤال إنكار أو استهزاء بل هو سؤال يعبر عن كونهم فوجئوا بكون البعث حصل، وأنهم سيُلقى بهم في الحافرة (بمعنى محفورة)، أي في النار: سيردون إلى حفرة أخرى، قبر آخر ليس كالقبر الأول بل هو قبر من النار. وفي التوراة استعمل لفظ "الحفرة" بهذا المعنىً كناية عن جهنم.

قومه)، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى[24]. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ (عقاب) الْآخِرَةِ (على قوله : أنا ربكم الأعلى) وَالْأُولَى[25] (على تكذيبه موسى). إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى[25].

4- أَأَنْتُمْ (يا أهل مكة) أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ، بَنَاهَا ...

أَأَنْتُمْ (يا مشركي مكة) أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ؟ : بَنَاهَا[27]، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا[28]، وَأَغْطَشَ (أظلم) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا[29]، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا[30]، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا[31]، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا[32]، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[33] (كل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم) .

5- الحساب: الجحيم أو الجنة

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (النفخة الثانية)[34]، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى[35] (حين الحساب)، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى[36]: فَأَمَّا مَنْ طَغَى[37] وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[38] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى[39]. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى[40] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[41].

6- خاتمة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا.. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا!

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا[42] (متى وقوعها)! فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا[43] (ليس من شأنك علمها)؟ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا[44] (علمها عند الله). إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا[45]. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا (يخيل إليهم أنهم) لَمْ يَلْبَثُوا (في الدنيا أو في قبورهم) إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا[46].

- تعليق

دأب مشركو مكة على إنكار البعث، وقد سبق أن بينا أن مضمون البعث في العقيدة الإسلامية مبني على فكرة المسؤولية : بمعنى أن الناس سيحاسبون في الآخرة على ما فعلوه في الدنيا. وهذا كابح ديني أخلاقي ملزم، الغرض منه صد الناس عن الظلم وما في معناه، وحثهم على فعل الخير. وهذا ما لم يكن يستسيغه الملأ من قريش : أصحاب سلطة القبيلة وسلطة المال. ومن أجل الحفاظ على سلطتهم المزدوجة تلك، كذبوا بالبعث وكانت حجتهم التي يكررونها هي أن الإنسان عندما يموت تصير عظامه "نخرة" ويتحول جسمه كله إلى تراب الخ. وفي الرد على القائلين

بهذا (وقد وجد منهم قبل الإسلام وبعده) كتب الرازي في تفسيره تعليقا اعتمد في بعض جوانبه على محاولة تحديد معنى "الإنسان" عندما يقال عنه إنه سيبعث يوم القيامة، ننقله للقارئ ليطلع على رأي متكلم فيلسوف أشعري في الموضوع. قال:

"اعلم أن حاصل هذه الشبهة (احتجاج منكري البعث بتحول الإنسان بعد الموت إلى "عظام نخرة") أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله: "أنا" هو هذا الجسم المبني بهذه البنية المخصوصة. فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته، لوجوه:

– أحدها أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى، وذلك قول بإعادة عين ما عدم أولاً، وهذا محال لأن الذي عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أن يقال بأن العائد هو عين ما فني أولاً.

– وثانيها: أن تلك الأجزاء تصير تراباً وتتفرق وتختلط بأجزاء كل الأرض.

– وثالثها: أن الأجزاء الترابية باردة يابسة [4] قشفة (رثة متحللة)، فتولد الإنسان، الذي لا بد وأن يكون حاراً رطباً في مزاجه، عنها محال. هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم: "أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً".

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه أولها: وهو الأقوى: لا نسلم أن المشار إليه لكل أحد بقوله: أنا هو هذا الهيكل (الجسد)، ثم إن الذي يدل على فساده وجهان:

– الأول: أن أجزاء هذا الهيكل في الذوبان والتبدل، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله "أنا" ليس في التبدل، والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل.

والثاني: أن الإنسان قد يعرف أنه هو، حال كونه غافلاً عن أعضائه الظاهرة والباطنة. والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به، وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله: "أنا" ليس هو هذا الهيكل (الجسد بل هو النفس). ثم ههنا ثلاث احتمالات :

أحدها أن يكون ذلك الشيء (=النفس) موجوداً قائماً بنفسه، ليس بجسم ولا بجسماني، على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين[5].

وثانيها: أن يكون جسماً مخالفاً بالماهية لهذه الأجسام القابلة للانحلال والفساد، "كأن يكون روحا" سارية فيه سريان النار في الفحم، وسريان الدهن في

4- اليبوسة البرودة والرطوبة والحرارة (في الفكر العلمي القديم) من خصائص العناصر الأربعة التي تتكون منها الأجسام: التراب، الماء، الهواء، والنار.

5- والقائلون بهذا يقولون إن البعث للنفوس وليس للأجساد وأن الله خاطب العرب حسب فهمهم لـ" الإنسان" بكونه هذا الجسم المشار إليه بالاسم الذي أعطي له : زيد أو عمرو.

السمسم، وسريان ماء الورد/في جرم الورد. فإذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الأجزاء (أجزاء ذلك الجسم الروحي) وبقيت حية مدركة عاقلة، إما في الشقاوة أو في السعادة.

وثالثها: أن يقال: إنه جسم مساو لهذه الأجسام في الماهية، إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكوّن شخص في الوجود إلى آخر عمره، وأما سائر الأجزاء المتبدلة تارة بالزيادة، وأخرى بالنقصان، فهي غير داخلة في المشار إليه بقوله "أنا". فعند الموت تنفصل تلك الأجزاء وتبقى حية، إما في السعادة أو في الشقاوة.

وإذا ظهرت هذه الاحتمالات تبين أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ما هو الإنسان حقيقة. وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكري البعث. وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير في دفع الحشر والنشر البتة".

واضح أن رأي الرازي الأشعري مما قرره أعلاه هو أن البعث للأرواح لا للأجساد. وهذا هو نفسه الرأي الذي سبق لأستاذه الغزالي الأشعري أن نسبه للفلاسفة (ابن سينا خاصة) فكفرهم بسببه في كتابه "تهافت الفلاسفة".

هناك مسألة أخرى تثار بمناسبة قوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ[6] (النفخة الأولى في الصُّور: فناء العالم) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ[7] (النفخة الثانية : الخروج من القبور: البعث.)، فهذه الآية لا تترك مجالا للقول بـ"عذاب القبر". كل ما هناك نفختان : النفخة الأولى التي يفنى بها العالم، بما فيه الإنسان، ثم النفخة الثانية التي يكون بها البعث. أما الأخبار والأحاديث التي تروى حول تفاصيل "السؤال" و"عذاب القبر" فليس في القرآن ما يشهد لها بالصحة وكل ما ذكر في الموضوع تأويلات بعيدة. والعلماء يجعلون العذاب يوم القيامة للأرواح وليس للأجسام، كما ذكر الرازي أعلاه.

هذا وقد ذكر ابن حزم في فصل طويل[(6)] كلاما عن "عذاب القبر" يستفاد منه ما يلي، قال: أنكر بعض المعتزلة والخوارج وغيرهم وجود عذاب القبر إذ لم يرد عنه في القرآن نص صريح، وكل من قال إن في القرآن ما يدل على عذاب القبر إنما هو متأول. والظاهر أن من حجج من أنكروا عذاب القبر –بحجة العقل– اعتراضهم بمن يأكله السبع أو يغرق في البحر ويأكله الحوت أو من مات بسبب نار أحرقت جسمه الخ. ويرد ابن حزم بأن العذاب بعد الموت لا يتعلق بالأجسام بل بالأرواح. فالعذاب في الآخرة هو عذاب الأرواح وليس عذاب الأجسام التي تفقد الإحساس بالموت، وما الموت إلا خروج الروح من الجسد الذي يبقى جثة هامدة ثم تتحلل الخ. وقد ذكر ابن

6- ابن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل ج1 : الكلام في الشفاعة والميزان والحوض وعذاب القبر والكتبة. مكرر في ج3

حزم روايات عديدة عن الصحابة تؤكد أن العذاب بعد الموت هو عذاب الأرواح لا الأجسام. أما أين تكون الأرواح بعد فراقها الأجسام فذلك أمر مختلف فيه. لمزيد بيان أنظر الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية. القسم الأول. وأيضا "التعليق: سورة نوح.

82- سورة الانفطار

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة سوى أنها مكية باتفاق، وقد رتبت بين 72 و 84 في لوائح ترتيب النزول.

- نص السورة

1- مقدمة: قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ[1] (انشقت)، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ[2]، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ[3]، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ[4]، (جواب القسم: حدث البعث و) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ[5].

2- البعث والحساب والجنة والنار...

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ[6] (فلم تهتم بأوامره وهو)(1) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ[7] (جعلك معتدل الخلقة)، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ[8]؟!(2) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ[9] (بالبعث والحساب)، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ[10] (ملائكة يسجلون

1- والمعنى ما الذي جعلك تتساهل وتتهاون في الاستجابة لربك؟ قيل، قال عليه السلام: "غرّه جهله".

2- بعض المفسرين يجعلون "ما" زائدة، والكلام في صيغة الإثبات، والمعنى ركبك في أيّ صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلقة في الحسن والقبح ..." (الزمخشري). وبعضهم قال: "ما" يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير" (القرطبي).

أعمالكم)، كِرَامًا كَاتِبِينَ[11]، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ[12]. (وبناء عليها تحاسبون): إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ[13]؛ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ[14]، يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ[15]، وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ[16]. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ[17]! ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ[18] (صيغة تأكيد وتهويل)! يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ[19].

- تعليق

من المفسرين من "يتكلم" في نظم القرآن على طريقة المتكلمين، فيفترض ويحتج ويجادل الخ. وقد رأينا ذلك فيما نقلناه من قبل عن الرازي، وهذا مثال آخر.

يقول الرازي، المتكلم والفيلسوف الأشعري بصدد الآية السادسة من هذه السورة ("يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) : "اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآيات (الخمس) الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين:

الأول، أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم؟

الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها، إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثاً، وهو غير جائز على الحكيم، وإن خلقها لحكمة، فتلك الحكمة، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد؟ والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع، فتعين الثاني، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا؟ والأول باطل، لأن الدنيا دار بلاء وامتحان، لا دار الانتفاع والجزاء. ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر. وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال: "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" إلى أن قال: "فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ" (التين: 7-4).

ويضيف الرازي: "وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرّين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضاً مع من ينفي الابتداء (يعنيك الخلق ابتداء) والإعادة (البعث: إعادة الخلق) معاً، لأن الخلق المعدل (=الأول) يدل على الصانع، وبواسطته (=الصانع) يدل على صحة القول بالحشر والنشر. فإن قيل: بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال: "أَلَيْسَ

اللّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" (التين: 8)، فكان يجب أن يقول في هذه السورة: ما غرك بربك الحكيم؟ (بدل الكريم) الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيماً، لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيراً لا كرماً. أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرماً. إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه، أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم"، يقصد نظم الخطاب : علاقة بعضه ببعض كبيان يتوخى البرهان. قلت: في هذا "الكلام" غير قليل من سفسطة "المتكلمين".

ذلك أن قوله تعالى في سورة التين "أليس الله بأحكم الحاكمين؟" ورد في سياق الرد على المكذبين بالحساب والثواب والعقاب، حيث اعتمد الرد هناك على : أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد الغافلين عن كرمه إلى أسفل سافلين، وجعل مصير المؤمنين جنة النعيم، والسؤال: أليس الله بأحكم الحاكمين مناسب لأن الأمر يتعلق بالجزاء، بإصدار حكم، على فريقين من الناس: فريق كذب ولم يؤمن، متجاهلا نعمة الله عليه إذ خلقه في أحسن تقويم. وفريق آمن واعترف بنعمة الله: حكم على الأول بالعقاب وعلى الثاني بالثواب، فهذا حكم عادل ليس فيه ظلم، فهو صادر من "أحكم الحاكمين" أي من أكثر الحاكمين حكمة وعدلا.

أما قوله في السورة التي بين أيدينا: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ"، ولم يقل "الحكيم" فهو مبرر تماما لأن المطروح هنا هو "كرم الله" : "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ[7] (جعلك معتدل الخلقة)، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ[8]، وهذا الكرم واضح من مقارنة صورة الإنسان بالكائنات الأخرى: الجماد النبات الحيوان، فهو أفضل هذه المخلوقات وصورة.



83- سورة الانشقاق

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة شيء يذكر سوى أنها مكية باتفاق، وأن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تتحرك بين 79 و84. أما بعض آيتها فقد وردت عنها أخبار سندرجها في الهوامش، وبعضها يفيد أن هذه السورة نزلت أثناء هجرة المسلمين إلى المدينة، الشيء الذي يؤكد مصداقية رتبتها هنا.

- نص السورة

1- مقدمة: قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ[1]، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا (استجابت لأمر ربها) وَحُقَّتْ[2] (واستجابتها حق)! وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ[3] (سطحت بفعل زلزلة القيامة)، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ[4] (أخرجت المدفونين فيها وتخلت عنهم، كأنها كانت تخبئهم)، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[5] (استجابت لربها ومن حقها أن تفعل. وجواب القسم مفهوم من السياق: فذلك يوم القيامة).

2- الحساب، كتب باليمين، وكتب وراء الظهر!

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (سائر) إِلَى رَبِّكَ (يوم القيامة) كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ[6]: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ[7] فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا[8] (تعرض عليه أعماله وليس فيها ما يستوجب العقاب فيمر سريعا)، وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا[9] (1). وَأَمَّا مَنْ

1- "يقال إنها نزلت في عبد الله بن عبد الأسد أبي سلمة، أول من هاجر من مكة إلى المدينة" (القرطبي، السيرة الحلبية). وهذا تأكيد لمصداقية رتبتها.

أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ[10] . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً[11] (يقول: واثبُراه، واويلاه)، وَيَصْلَى سَعِيراً[12] (جهنم). إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ (في الدنيا) مَسْرُوراً[13] (2). إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ[14] (لن يبعث)، بَلَى! إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً[15] (عالما). فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ[16] (حمرة الأفق عند مغيب الشمس)، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ[17] (وما ضم وأخفى)، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ[18] (كملت استدارته)، لَتَرْكَبُنَّ (3) طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ[19] (لتمرُّون بأحوال: ضراء فسراء، مقام فهجرة الخ).

3- فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ!

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[20] ؟ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ[21]!(4) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ[22]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ[23] (يضمرون). فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[24]، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[25] (5).

- تعليق واستطراد

موضوع هذه السورة كأخواتها السبعة السابقة هو الحشر والنشر، ويظهر مما ما ورد في هذه السورة من أخبار أن آيات منها نزلت في أشخاص من مشركي مكة ممن كانوا يؤذون المسلمين بصورة شرسة عندما عرفوا أن الإسلام أخذ ينتشر خصوصا في يثرب. وكما سبق أن بينا فإن الوعيد والترهيب وذكر الحشر والنشر والجزاء الخ، كان سلاح الدعوة المحمدية التي التزمت عدم الرد على العنف بالعنف كيفما كان الحال، بل كان الأمر بالصبر والوعد بالنصر للمؤمنين هو البديل عن عنف مشركي مكة. وبما أن الوعيد للمشركين كان يتكرر مقرونا في كثير من الأحيان بمشاهد من جهنم فلقد عمد هؤلاء إلى نوع من التحدي الذي يصدر عن الخائف الذي يجتهد في إخفاء خوفه وذلك بالإكثار من هذا السؤال بصيغة الاستهزاء المصطنع: و"متى قيام هذه

2- قيل نزلت في الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وهو أخو أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المذكور في الهامش السابق. قيل: كان رجلا شرسا، سيء الخلق، شديد العداوة لرسول الله "وجاء أنه أول من يعطى كتابه بشماله، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه بيمينه كما تقدم" (السيرة الحلبية).

3- قرئ بالفتح وعن ابن عباس: "أي لتركبَنَّ يا محمد حالا بعد حال".

4- قيل: "قرأ رسول الله (ص) ذات يوم "واسْجُدْ واقْتَرِبْ" فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت".

5- قال بعض أهل اللغة إن قوله «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا (القرطبي)، وذلك لأن المستثنى منه غير بين.

الساعة"؟ لقد رفضوا الإقرار باليوم الآخر وحاجوا في هذه المسألة حتى إنهم طلبوا بعث آبائهم ليتأكدوا منه. وقد رد عليهم القرآن في أماكن عديدة كما رأينا في كثير من السور.

وبهذه المناسبة، مناسبة التعليق على آخر سورة من هذه السور الثماني (الطور –الانشقاق) التي انحصر موضوعها كلها تقريبا، في الوعيد بالحشر والنشر، نورد استطرادا نجمل فيه آراء المتكلمين والمفسرين في مسألة الحشر والنشر والخلود و"حشر البهائم" الخ.

1– مسألة الخلود في الجنة والنار

من المسائل التي أثارها المتكلمون حول البعث مسألة ما إذا كانت الجنة والنار مخلوقتين أم أنهما قديمتان. قال أبو الهذيل العلاف منظر مذهب المعتزلة: إن حركات أهل الخالدين (في الجنة والنار) تنقطع وإنهم يصيرون إلى سكون دائم خموداً، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار". يقول الشهرستاني: وإنما التزم أبو الهذيل هذا المذهب لأنه لما أُلزم في مسألة حدوث العالم: "أن الحوادث التي لا أول لها (أي القديمة)، كالحوادث التي لا آخر لها (الخالدة) إذ كل واحدة لا تتناهى [6] قال: إني لا أقول بحركات لا تتناهى آخراً، كما لا أقول بحركات لا تتناهى أولاً، بل يصيرون (أصحاب الجنة والنار) إلى سكون دائم". وعلق الشهرستاني على ذلك قائلا: "وكأنه ظن أن ما لزمه في الحركة لا يلزمه في السكون"، بمعنى أن القول بالسكون الدائم كالقول بالحركة الدائمة. فلانهائية السكون كلانهائية الحركة. أما الجهم بن صفوان أحد كبار المتكلمين الذي يقترب مذهبه في بعض المسائل من مذهب المعتزلة فرأيه : "أن حركات أهل الخالدين (في الجنة أو النار) تنقطع، والجنة والنار تبيان بعد دخول أهلهما فيهما وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بحميمها، إذ لا تتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا تتصور حركات لا تتناهى أولاً، وحمل قوله تعالى: خالدين فيها على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة في التخليد، كما يقول: خلد الله ملك فلان واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى: "خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك". فالآية اشتملت على شريطة (وجود السماوات والأرض) واستثناء (حتى مع

6– المسألة متعلقة في الأصل بالنزاع حول حدوث العالم وقدمه. يقول منكرو حدوث العالم، أي الذين يقولون لا بداية له: إذا كنا نقول إن الجنة والنار توصفان بالخلود وأصحابهما خالدين فيها، أي أن حركتهم لا نهاية لها، فلماذا لا نقول الشيء نفسه في حركة العالم بمعنى أنها حركة لا بداية لها؟ فالحركات التي لا آخر لها يجب أن تكون لا بداية لها. ولكي يخرج أبو الهذيل المدافع عن الإسلام، الذي من قواعده الإيمانية القول بخلق الله للعالم، قال ما هو مذكور أعلاه.

وجودها). والخلود والتأبيد لا شرط فيه ولا استثناء. ويذكر الشهرستاني أن أحد المحسوبين على المعتزلة وهو أبو بكر الأصم: قال: إن الجنة والنار ليستا مخلوقتين الآن، إذ لا فائدة في وجودهما وهما جميعاً خاليتان ممن ينتفع ويتضرر بهما!

2- الخلود لمن؟

- وجهة نظر المعتزلة

يقوم مذهب المعتزلة على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويهما هنا رأيهم في الوعد والوعيد، أعني رأيهم في الجنة والنار والخلود فيهما. قالوا بناء على أصلهم في "العدل" والمقصود عندهم العدل الإلهي: إن "الإيمان عبارة عن التصديق، ومن ارتكب كبيرة ومات عليها من غير توبة عوقب على ذلك، ويجب أن يخرج من النار بعد العقوبة، فليس من العدل التسوية بينه وبين الكفار في الخلود". وقال بعضهم "إذا مات المسلم من غير توبة عن كبيرة ارتكبها، استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار". وينسب للجاحظ، وهو معتزلي له آراء خاصة، أنه قال: "إن الله لا يدخل النار أحدا، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها، ثم تمسكهم في نفسها على الخلود" (الشهرستاني).

وتنسب إلى إبراهيم بن سيار النَّظَّام، المعتزلي، المعروف بآرائه المتطرفة، أنه قال "الجاهل بإحكام الدين كافر، والمتعمد للخلاف بلا حجة منافق كافر، أو فاسق فاجر وكلاهما من أهل النار على الخلود". ويدخل في عداد هؤلاء الصحابة الذين شاركوا في الفتنة زمن عثمان وعلي ومعاوية...

- وجهة نظر أهل السنة : الخلود وعذاب القبر...

أما أهل السنة فقد "قالوا بان الخلود في النار لا يكون إلا للكفرة، خلاف قول القدرية (المعتزلة) والخوارج القائلين بتخليد كل من دخل النار فيها". ولكنهم أدخلوا القدرية والخوارج في زمرة الكفار وقالوا "يخلدون في النار ولا يخرجون منها، وكيف يغفر الله تعالى لمن يقول ليس لله أن يغفر ويخرج من النار من دخلها"؟!. وقال أهل السنة بإثبات السؤال في القبر وبعذاب القبر لأهل العذاب وقطعوا بان المنكرين لعذاب القبر يعذبون في القبر. وقالوا بالحوض والصراط والميزان ومن أنكر ذلك حرم الشرب من الحوض ودحضت قدمه من الصراط إلى نار جهنم. وقالوا بإثبات الشفاعة من النبي ومن صلحاء أمته للمذنبين من المسلمين ولمن كان في قلبه ذرة من الإيمان، والمنكرون للشفاعة يحرمون الشفاعة.

وهذه المسائل موضوع خلاف: فسؤال القبر وعذاب القبر لم يرد في القرآن

عنهما شيء (انظر التعليق في سورة الناعات)، مع أنه ذكر تفاصيل وافية عن حال أهل الجنة وأصحاب النار، ولم يرد في القرآن إلا حساب واحد هو الذي يكون بعد الرجفة الثانية، رجفة البعث، وخص الرجفة الأولى بمظاهر انهيار الكون كانشقاق السماء الخ.

3- الحشر والنشر عموما

اهتم الرازي بهذه المسألة في تفسيره فكتب يقول انطلاقا من قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام 38) [7]: "اعلم أن مسألة الحشر والنشر من المسائل المعتبرة في صحة الدين، والبحث عن هذه المسألة إما أن يقع عن إمكانها أو عن وقوعها. أما الإمكان فيجوز إثباته تارة بالعقل، وبالنقل أخرى. وأما الوقوع فلا سبيل إليه إلا بالنقل. وإن الله ذكر هاتين المسألتين في كتابه وبين الحق فيهما من وجوه.

الوجه الأول: أن كثيراً ما حكى عن إنكار الحشر والنشر، ثم إنه تعالى حكم بأنه واقع كائن من غير ذكر الدليل فيه، وإنما جاز ذلك لأن كل ما لا يتوقف عليه صحة نبوة الرسول (ص) أمكن إثباته بالدليل النقلي (القرآن والحديث)[8] وهذه المسألة كذلك، فجاز إثباتها بالنقل: مثاله ما حكم (الله) ههنا بالنار للكفار، والجنة للأبرار، وما أقام عليه دليلاً بل اكتفى بالدعوى. وأما في إثبات الصانع وإثبات النبوة فلم يكتف فيه بالدعوى بل ذكر فيه الدليل. وسبب الفرق ما ذكرناه. وقال في سورة النحل: "وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ! بَلَى، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" (النحل: 38) وقال في سورة التغابن: "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَن يُبْعَثُواْ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ" (التغابن: 7).

الوجه الثاني أنه تعالى أثبت إمكان الحشر والنشر بناءً على أنه تعالى قادر على أمور تشبه الحشر والنشر (...) ثم إنه تعالى احتج على إمكانه بأمور" (...) نذكر منها:

- قوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الْخَالِقُونَ" (الواقعة: 58). وجه الاستدلال بذلك : أن المني إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع[9] وهو كالطل (قطرات المطر الخفيف) المنبث في آفاق أطراف الأعضاء، ولهذا تشترك الأعضاء في

7- عرض لهذه المسألة عند شرحه للآية 25 من سورة البقرة، لأنه كغيره اتبع ترتيب المصحف في تفسيره، والبقرة هي أولى السور فيه بعد الفاتحة.

8- بمعنى: إذا ثبتت صحة نبوة الرسول فيجب أن يكون صحيحا كل ما جاء به، أي القرآن والحديث وهما المقصود بالنقل.

9- كان علم الطب القديم يقرر أن عملية هضم المأكولات تمر بأربع مراحل: هضم في المعدة، وهضم في الكبد، وهضم للعروق في الدم، وهضم خاص بكل واحد من الأعضاء.

الالتذاذ بالوقاع (الجماع) بحصول الانحلال عنها كلها. ثم إن الله تعالى سلط قوة الشهوة على البقية حتى أنها تجمع تلك الأجزاء الطلية[10]. فالحاصل أن تلك الأجزاء كانت متفرقة جداً، أولاً في أطراف العالم، ثم إنه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان، ثم إنها كانت متفرقة في أطراف بدن ذلك الحيوان فجمعها الله سبحانه وتعالى في أوعية المني، ثم إنه تعالى أخرجها ماء دافقاً إلى قرار الرحم. فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكوّن منها ذلك الشخص، فإذا افترقت بالموت، مرة أخرى، فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى؟ فهذا تقرير هذه الحجة، وإن الله تعالى ذكرها في مواضع من كتابه[11]، منها في سورة الحج: "يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ" إلى قوله: "وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً" [12]، ثم قال: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِـي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ" (الحج: 6، 7)...

– وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ..." إلى قوله: "بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ" (الواقعة: 67). وجه الاستدلال به أن الحب وأقسامه، من مطول مشقوق وغير مشقوق، كالأرز والشعير، ومدور ومثلث ومربع، وغير ذلك على اختلاف أشكاله

10– يوظف الرازي هنا معطيات من "الفكر العلمي" كما كان في عصره. وكما أن هذا التوظيف يبدو اليوم غير ذي موضوع ولا فائدة فيه، فكذلك الشأن في العلم المعاصر الذي سيصبح متجاوزا. فتفسير القرآن بالعلوم الكونية تشويش محض، وقد فعلت الإسماعيلية ذلك من قبل لأغراضهم السياسية والإيديولوجية. أما الطنطاوي جوهري فقد فعل ذلك في وقت كان فيه بعض الفقهاء يحرمون العلوم ما عدا علوم الدين، وهدف الطنطاوي كان إثبات أن العلوم الطبيعية لا تتناقض مع القرآن.

11– ليس في القرآن ما حكاه من تفاصيل ميتة لم تعد لها قيمة علمية. فليس في القرآن أن الله سيجمع ذرات المني الذي خلق منه الإنسان. وهذا الافتراض يتناقض تماما مع ما قرره الرازي نفسه في أماكن أخرى من أن البعث سيكون للأرواح وليس للأجساد (انظر التعليق في سورة النازعات). ومن هنا يمكن القول إن ما يسمى بـ"التفسير العلمي للقرآن" هو تقول على القرآن، فإن بدا وكأنه متفق مع العلم في مرحلة "راهنة" فإن تطور العلم يكشف أنه مجرد تقول على القرآن. القرآن نزل ليفهمه جميع الناس حسب ما يظهر لهم بأعينهم وحواسهم من أشياء الكون. ولو قيل للناس زمن النبوة ما ذكره الرازي لما صدقوا قائله، لأن ذلك ليس من معهودهم المعرفي.

12– نص الآية كاملا كما يلي: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (الحج 5). وواضح أنه ليس في هذه الآية ما يحتمل ما ذكره الرازي عن الهضم وتكون المني الخ. فالله خلق= الإنسان من تراب والمقصود آدم، وخلق أفراد البشر بامتزاج مني الرجل مع بويضة المرأة وهذا ينتمي إلى عملية الخلق بالتلاقح، في النبات والحيوان. والمثال الأقرب إلى تفهيم الناس إمكان البعث هو تشبيهه بالنبات: يخضر ثم يذبل ثم يتلاشى في الأرض ثم ينبت من جديد. وقد استعمل القرآن مرات عديدة هذا المثال لتقريب معنى البعث كما في الآية أعلاه.

إذا وقع في الأرض الندية واستولى عليه الماء والتراب، فالنظر العقلي (؟) يقتضي أن يتعفن ويفسد، لأن أحدهما يكفي في حصول العفونة (؟)، ففيهما جميعاً أولى (؟)، ثم إنه لا يفسد بل يبقى محفوظاً، ثم إذا ازدادت الرطوبة تنفلق الحبة فلقتين فيخرج منها ورقتان، وأما المطول فيظهر في رأسه ثقب وتظهر الورقة الطويلة كما في الزرع، وأما النوى، فما فيه من الصلابة العظيمة التي بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس، إذا وقع في الأرض الندية ينفلق بإذن الله. ونواة التمر تنفلق من نقرة على ظهرها ويصير مجموع النواة من نصفين يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد، ومن الثاني الجزء الهابط، أما الصاعد فيصعد، وأما الهابط فيغوص في أعماق الأرض. والحاصل أنه يخرج من النواة الصغيرة شجرتان (؟): إحداهما: خفيف صاعد، والأخرى ثقيل هابط مع اتحاد العنصر واتحاد طبع النواة والماء والهواء والتربة؟! أفلا يدل ذلك على قدرة كاملة وحكمة شاملة؟[13]. فهذا القادر كيف يعجز عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء؟ ونظيره قوله تعالى في سورة الحج: "وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ" (الحج: 5).

– وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ" (الواقعة: 68–69). وتقديره أن الماء جسم ثقيل بالطبع وإصعاد الثقيل أمر على خلاف الطبع، فلا بدّ من قادر قاهر يقهر الطبع[14] ...

وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ". وجه الاستدلال أن النار صاعدة والشجرة هابطة، وأيضاً النار لطيفة، والشجرة كثيفة. وأيضاً النار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة والشجرة

13– المؤمن في كل زمان سيقول : هو قادر، بدون هذه التفاصيل المشوشة، والآية وحدها أوضح. أما قوله إن نواة التمرة تخرج منها شجرتان واحدة إلى أعلى وثانية إلى أسفل فهذا ما يكذبه الواقع، فليس هناك غير النخلة المتجهة إلى أعلى، وجذورها المتجهة إلى أسفل وهي غير عميقة!

14– لا مكان هنا لـ "الصعود" فالماء ينزل من السحاب الذي يتكون بفعل الضغط الجوي والرطوبة التي تصعد من البحار الخ. والغريب أنه يلجأ هنا إلى استعمال مفهوم "الطبع" وهو من المفاهيم التي كان يقوم عليها "العلم" القديم، وقد قاوم المتكلمون المسلمون (معتزلة وأشاعرة) هذا المفهوم لأنه في نظرهم لا يترك مكانا لخرق العادة ولا لتدخل الإرادة الإلهية. هم لا يقولون "إن من طبع النار أن تحرق" بل= يقولون لقد اعتدنا أن نرى النار تشتعل عندما تلتقي بالقطن، فيحترق هذا الأخير، والاحتراق ليس من فعل النار بل هو فعل من الله الذي لا فاعل سواه. وبهذه الطريقة يعتقدون أنهم يفسحون المجال للمعجزة، مثل معجزة إبراهيم عليه السلام الذي ألقاه قومه في النار ولم يحترق، وكان الأولى أن يكتفوا بالقول بتدخل الإرادة الإلهية (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ : الأنبياء 69) . والرازي يتجاوز هنا أصول مذهبه الكلامي الأشعري. يعترف بالطبائع ليعود فيقول إنه لا بد من قاهر يقهره! وفي هذه الحالة يمكن أن يسأل: ومن خلق هذه الطبائع حتى يلجأ القاهر إلى قهرها. سنرى بعد قليل أنه ينكر الطبع كغيره من الأشاعرة.

باردة رطبة، فإذا أمسك الله تعالى في داخل تلك الشجرة الأجزاء النورانية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه الأشياء المتنافرة[15]، فإذا لم يعجز عن ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها؟ والله تعالى ذكر هذه الدلالة في سورة يس فقال: "الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً"[16] (يس: 58). قلت (الجابري) واضح أن الأقوى من تلك التفاصيل المتقادمة المتناقضة قوله تعالى في آيات عديدة ما معناه: إن مشركي قريش يعترفون بأن الله خلق ذلك أول مرة، فلماذا ينكرون أن يستطيع إعادة خلقه؟

كان ذلك مجمل "الأدلة" التي استقاها الرازي من علم عصره للبرهنة على إمكان وقوع الحشر والنشر، وهو في ذلك يخرج عن إطار المذهب الأشعري الذي ينتمي إليه، ذلك أن مؤسس هذا المذهب، أبا الحسن الأشعري، قد حدد موقفه بكل وضوح من هذه الأمور المغيبة كما يلي، قال: "وما ورد به السمع (القرآن والحديث) من الأخبار عن الأمور الغائبة مثل: القلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار فيجب إجراؤها على ظاهرها والإيمان بها كما جاءت إذ لا استحالة في إثباته " (الشهرستاني، الملل والنحل). وهكذا فكل ما يمكن للعقل أن يقوله في مثل هذه المسائل هو التالي: إنه كما لا يمكن البرهنة على أنها مستحيلة الوقوع فكذلك لا يمكن البرهنة على أنها ممكنة، والنتيجة هي إما "التوقف"، وإما الإيمان.

4- البعث للبهائم؟

قال الرازي بأن الحيوانات تحشر يوم القيامة بناء على قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام 38)". وأخذ في تفسير هذه الآية يعرض إشكالات في الموضوع كعادة المتكلمين:

من ذلك قوله: "الحيوان إما أن يكون بحيث يدب أو يكون بحيث يطير فجميع ما خلق الله تعالى من الحيوانات، فإنه لا يخلو عن هاتين الصفتين، إما أن يدب، وإما أن يطير. وفي الآية سؤالات:

15- هذه التصنيفات إلى رطب ويابس، وحار وبارد، الخ من أساسيات العلم القديم. أما قوله إن الشجرة (أو الخشب) فيها أجزاء نارية نورانية فهذا ما قال به قديما أصحاب نظرية الكمون، وهي نظرية تفترض أن أشياء العالم كلها كامن بعضها في بعض وهي تتعارض مع فكرة الخلق.

16- الآية تتحدث عن أمر واقع كما يراه الناس، وكما هو في معهودهم، وهو أن الخشب (أو الشجر) يشتعل إذا مسته النار. والقرآن يبني استدلالاته على العلاقة بين ظاهر الموجودات وليس على "ماهية" تلك الموجودات.

السؤال الأول: من الحيوان ما لا يدخل في هذين القسمين مثل حيتان البحر، وسائر ما يسبح في الماء ويعيش فيه؟ والجواب: لا يبعد أن يوصف بأنها دابة من حيث إنها تدب في الماء أو هي كالطير، لأنها تسبح في الماء، كما أن الطير يسبح في الهواء، إلا أن وصفها بالدبيب أقرب إلى اللغة من وصفها بالطيران.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تقييد الدابة بكونها في الأرض؟ والجواب من وجهين: الأول: أنه خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجا بالأظهر لأن ما في السماء وإن كان مخلوقاً مثلنا فغير ظاهر، والثاني: أن المقصود من ذكر هذا الكلام أن عناية الله تعالى لما كانت حاصلة في هذه الحيوانات فلو كان إظهار المعجزات القاهرة مصلحة لما منع الله من إظهارها. وهذا المقصود إنما يتم بذكر من كان أدون مرتبة من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالاً منه، فلهذا المعنى قيد الدابة بكونها في الأرض.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله "يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ" مع أن كل طائر إنما يطير بجناحيه؟ والجواب فيه من وجوه: الأول: أن هذا الوصف إنما ذكر للتأكيد كقوله نعجة أنثى وكما يقال: كلمته بفِيَّ، ومشيت إليه برجلي. الثاني: أنه قد يقول الرجل لعبده "طِرْ في حاجتي" والمراد الإسراع. وعلى هذا التقدير: فقد يحصل الطيران لا بالجناح... والثالث: أنه تعالى قال في صفة الملائكة "جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ" (فاطر: 1) فذكر ههنا قوله "وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ" ليخرج عنه الملائكة فإنا بينا أن المقصود من هذا الكلام إنما يتم بذكر من كان أدون حالاً من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالاً منه.

السؤال الرابع: كيف قال: "إِلاَّ أُمَمٌ" مع إفراد الدابة والطائر؟ والجواب: لما كان قوله "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ" دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقول: وما من دواب ولا طيور لا جرم حمل قوله "إِلاَّ أُمَمٌ" على المعنى.

السؤال الخامس: قوله "إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ" قال الفرّاء: يقال إن كل صنف من البهائم أمة[17] وجاء في الحديث: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» فجعل الكلاب أمة.

وإذا ثبت هذا فنقول: (على سبيل الاعتراض): الآية دلت على أن هذه الدواب والطيور أمثالنا، وليس فيها ما يدل على أن هذه المماثلة حصلت في أي الأحوال والأمور فبينوا ذلك؟ والجواب: اختلف الناس في تعيين الأمر الذي حكم الله تعالى فيه بالمماثلة بين البشر وبين الدواب والطيور وذكروا فيه أقوالاً:

القول الأول: نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يريد، يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني. وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسرين، وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه

[17]– الأمة هنا بمعنى النوع، أو كما قال : صنف. وقوله تعالى " أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ"، يفيد أن نوع الإنسان أمة.

بقوله تعالى: "وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ" (الإسراء: 44)، وبقوله في صفة الحيوانات "كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ" (النور: 41). وبما أنه تعالى خاطب النمل وخاطب الهدهد... وعن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من خشاش الأرض».

والقول الثاني، المراد: إلا أمم أمثالكم في كونها أمماً وجماعات وكونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً، ويأنس بعضها ببعض، ويتوالد بعضها من بعض كالإنس؛ إلا أن للسائل أن يقول حمل الآية على هذا الوجه لا يفيد فائدة معتبرة لأن كون الحيوانات بهذه الصفة أمر معلوم لكل أحد فلا فائدة في الإخبار عنها.

القول الثالث: المراد أنها أمثالنا في أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها وهذا يقرب من القول الثاني في أنه يجري مجرى الإخبار عما علم حصوله بالضرورة.

القول الرابع: أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «يقص للجماء من القرناء».

القول السادس (الخامس؟) ما اخترناه في نظم الآية، وهو أن الكفار طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلّم الإتيان بالمعجزات القاهرة الظاهرة، فبين تعالى أن عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان. ومن بلغت رحمته وفضله إلى حيث لا يبخل به على البهائم كان بأن لا يبخل به على الإنسان أولى، فدل منع الله من إظهار تلك المعجزات القاهرة على أنه لا مصلحة لأولئك السائلين في إظهارها، وأن إظهارها على وفق سؤالهم واقتراحهم يوجب عود الضرر العظيم إليهم.

القول السابع: ما رواه أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة، أنه لما قرأ هذه الآية قال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاوس، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه، وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه. فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه. ثم قال: فاعلم يا أخي إنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذار والاحتراز، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضع. قلت (الجابري): ونحن ما ذكرنا هذه الأقوال إلا لنقدم مثالا عن أن الخروج بعملية "فهم القرآن" إلى توظيف "علم" وقت من الأوقات لا يختلف عن توظيف نظريات الباطنية من إسماعيلية ومتصوفة وغيرها. إنه "الفهم" القائم على التضمين، تضمين

المفسر للمعاني التي يريدها، في النص الذي يتعامل معه.

وهذا النزوع من جانب الرازي إلى تضمين "العلم"، كما كان في عصره، في فهمه للقرآن، ظنا منه أن ذلك يخدم قضية القرآن، قد جعله يغفل أو يتغافل عن رأي جماعة من المفسرين هو أقرب إلى منهج القرآن، منهج التمثيل أعني ضرب المثل. قال القرطبي في سياق شرحه للآية التي نحن بصددها (حشر الدواب) : "وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية ("وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام 38) أن هذا الحشر يرجع إلى الكفار (بمعنى أن الضمير في "يحشرون" يعود إلى الكفار وليس إلى "ما من دابة")، وما تخلّل كلامٌ معترضٌ وإقامة حُجج[18]. وأما الحديث (الذي روي في الموضوع) فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه، حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه"، وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فأضاف الراوي إلى الحديث السابق الذي ورد فيه "حتى يُقاد للشاة الجلْحاء من القرْناء" ما يلي: "وللحجر لما ركِب على الحجر، وللعود لما خدَش العود": قالوا: فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يُعقل خطابها ولا ثوابُها ولا عقابُها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء؛ قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا"[19].

5- القائلون بالتناسخ

ثم ذكر الرازي رأي القائلين بالتناسخ (وهو مذهب يقع خارج الإسلام)، فقال: ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى تبقى مخالطة لعالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى أبدان الحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقاً للعذاب نقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعباً، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا: صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالنا، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في

---

18 – بمعنى أن اعتبار السياق يقضي بأن الضمير في "يحشرون" يعود إلى الكفار لما بين بداية السياق و"يحشرون" (أي ما بين عارضتين أسفله) فهو كلام تخلل السياق على سبيل الاعتراض والإدلاء بحجج. والسياق يبدأ مع الآية السابقة لهذه أي من قوله : "وَقَالُوا (أي الكفار) لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً –وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ– ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام 37-38).

19– انظر فهمنا للآية في موقعها: آية 38 سورة الأنعام رقم 54

جميع الصفات الذاتية أما الصفات العرضية المفارقة، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة. ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه، وقالوا: قد ثبت من هذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة، وأن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم. ثم إنه تعالى قال: "وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إلاّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ" (فاطر: 24) وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أرسله الله إليها. ثم أكدوا ذلك بقصة الهدهد، وقصة النمل، وسائر القصص المذكورة في القرآن.

84- سورة المزمل

- تقديم

هناك أقوال كثيرة حول تاريخ نزول هذه السورة. منهم من جعلها مكية كلها، ومنهم من جعلها مدنية كلها، وهناك من جعل الآية الأخيرة منها هي وحدها مدنية. ومن هؤلاء من جعل الفرق الزمني بين نزول هذه الآية وبين نزول ما سبقها مدة سنة ومنهم من جعله سنتين، وهناك رواية رفعت المدة إلى عشر سنين، وجعلت الآية الأخيرة منها مدنية.

ومن الحجج التي يستند عليها القائلون بكونها مدنية ما روي عن عائشة زوج النبي عليه السلام من أنها قالت: "إن الثوب الذي كان الرسول متزملا به حين خاطبته السورة (يأيها المزمل) كان عبارة عن "مرطٍ (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي". ويعلق القرطبي على هذا القول من عائشة أنه "دليل على أن السورة نزلت في المدينة لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة". وفي رأينا أن هذا ليس حجة، لأن الرسول عقد عقده عليها قبل الهجرة بثلاث سنوات، أما تأخير دخوله عليها إلى ما بعد الهجرة فلا يعني أنه لم يكن ينام بجنبها قبل ذلك.

هناك روايات أخرى تؤكد نزولها في أواخر العهد المكي: من ذلك ما روي عن سعيد بن جبير من أنه قال: "مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين، "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ" (المزمل الآية 20) فخفّف الله عنهم". ومعنى ذلك أن هذه الآية نزلت قبل الهجرة بنحو سنة. ونحن على هذا الرأي[1].

أما إذا رجعنا إلى السورة نفسها فإننا سنجد فيها ما يرجح هذا الذي ذهبنا إليه: من ذلك الآية الخامسة "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا". لقد ذكر المفسرون في بيان

1- انظر التقديم الذي صدرنا به سورة المدثر رقم 2 : القسم الأول من هذا الكتاب. راجع أيضا: التعريف بالقرآن الفصل العاشر: ثانيا، فقرة 4، 2/أ.

المقصود بـ"ثقيل" أقوالا كثيرة لا شيء يسندها سوى أنها محتملة. منهم من قال: "ثقيلا بفرض الصلاة"، ومنهم من قال "ثقيلا بالحلال والحرام"، إلى غير ذلك من الأحكام والأوامر والنواهي التي زمانها في المدينة؛ ومنهم من أجمل فقال المقصود هو القرآن نفسه الخ. أما نحن فنرى أن نزول سورة المزمل في أواخر العهد المكي يقتضي أن يكون "القول الثقيل" الذي سيلقى على النبي عليه السلام من الأمور التي لم ينزل فيها شيء من قبل. والجديد الذي سيحدث على صعيد مسيرة نزول القرآن ومسار الدعوة المحمدية معا هو الأمر بالهجرة والإذن بالقتال، وهذا هو الأمر "الثقيل" حقا. وقد أشارت إليه السورة في آية أخرى بالقول: "عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (المزمل 20). وبناء عليه وضعناها في هذه الرتبة لأن بعض السور السابقة لها وكذا السور الآتية بعدها نزلت كلها في السنة الأولى أو الثانية قبل الهجرة. أي الثانية عشرة/الثالثة عشرة للنبوة.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ[1] (الملتف بثيابه) : قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا[2] : نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ (من النصف) قَلِيلًا[3]، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ[2]، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا[4]. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا[5] (3). إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (أوله) هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا (ثباتا) وَأَقْوَمُ قِيلًا[6] (أنسب لقراءة القرآن والدعاء والصلاة). إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا[7] (مجالا لشؤونك). وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا[8] (اخلص إليه) : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا[9]. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا[10] (أعرض عنهم ولا تهتم بهم).

2- ذرني والمكذبين أولي النعمة... سيكون مصيرهم كمصير فرعون!

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا[11]. إِنَّ لَدَيْنَا (عقابا لهم يوم القيامة) أَنْكَالًا (قيودا وعذابا) وَجَحِيمًا[12] وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا[13]. يَوْمَ

2- ليس هناك تحديد لمدة القيام، هناك خيار : زد عليه أو انقص منه.

3- انظر التقديم أعلاه.

تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا[14] (سائلا). (يقال لهم) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ (أيها المكذبون) رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا[15]، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا[16]. فَكَيْفَ تَتَّقُونَ، إِنْ كَفَرْتُمْ، يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا[17]؟ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ (متقطعة) بِهِ! كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا[18] (الوعد بهذا اليوم سينفذ حتما). إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا[19].

3- ... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ (لن تطيقوه) فَتَابَ عَلَيْكُمْ (فخفف عنكم). فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ.

4- خاتمة: سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (يسافرون للتجارة)، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (بعد الهجرة)! فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقوا في سبيل الله)، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[20].

- تعليق

في الفقرة الأولى، وهي المقدمة، تدعو السورة النبي عليه السلام إلى قيام الليل، أو جزء منه، والانقطاع فيه للصلاة والدعاء، بهدف الاستعداد المعنوي لأمر جلل سيأتيه قريبا: الترخيص بالهجرة والإذن بالقتال. أما الملأ من قريش فتدعوه السورة إلى الصبر على ما يقولون وعدم الانشغال بهم.

وفي الفقرة الثانية تأكيد على ضرورة الإعراض عن المكذبين، وتأكيد كذلك لما سيكون عليه مصيرهم: سيكون مصيرهم مثل مصير فرعون: هزيمة وغرق في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة.

وفي الفقرة الثالثة تعود السورة إلى مسألة قيام الليل فتؤكد أن الله يعلم أنه وجماعة من أصحابه يقومون الليل أو معظمه. وبما أن مهمة صعبة تنتظرهم فهو يخفف عنهم: فتلاوة ما تيسر من القرآن تكفي.

وتأتي الفقرة الرابعة، وهي الخاتمة، لتخبرهم بمجمل القول الثقيل، أو المهمة الصعبة التي سيكلفون بها : سيهاجرون وسيكون منهم مرضى، وآخرون يعملون لكسب عيشهم بالتجارة أو غيرها، وآخرون جنود يقاتلون في سبيل الله...

وهكذا، فبعد السور الثماني (الطور-الانشقاق) التي ركزت على سلاح الدعوة: الوعد والوعيد وعرض مشاهد للقيامة والحساب والجنة والنار، والتي قلنا إنها من المرجح أن تكون قد نزلت حين كان النبي يعرض نفسه على القبائل وقبل اتفاق العقبة الأولى، تأتي هذه السورة، في الغالب بعد هذا الاتفاق الأولي، لتوجه أنظار النبي وصحبه إلى المستقبل، إلى نتيجة المفاوضات مع أهل يثرب وما سيكون لها من نتائج، أولاها الهجرة إلى يثرب والانتقال إلى نمط جديد من الحياة.

وعليه يمكن القول: إن نداء "أيها المزمل" يستعيد خطاب "أيها المدثر" ولكن في صورة جديدة: وهكذا فمن "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (المدثر 1-3) إلى "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا... إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" (المزمل 1-5)، تكون الدعوة المحمدية بمكة قد اقتربت من إنجاز مهمتها، وعليها الآن أن تستعد للمرحلة المقبلة في المدينة، مرحلة تحول الدعوة إلى دولة. والسور التالية تتحدث بصورة أو أخرى عن الاستعداد للهجرة.

85- سورة الرعد

- تقديم

اختلفوا في هذه السورة هل هي مكية أم مدنية؟ عن ابن عباس روايتان إحداهما تؤكد مكيتها. وروي أن سعيد بن جبير سئل عن قوله تعالى: "ومن عنده علم الكتاب" (الآية الأخيرة في السورة): أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورة مكية (وعبد الله بن سلام يهودي أسلم في المدينة). وقال القرطبي سورة الرعد مكية في قول الحسن وعِكرمة وعطاء وجابر. أما صاحب الإتقان فيختم كلامه حول الموضوع بالقول: "والذي يُجمَع به بين الاختلاف أنها (سورة الرعد) مكية إلا آيات منها".

هذا عن السورة ككل، أما عما روي في شأن آيات منها فقد ذكر الواحدي عن أنس وغيره أن قوله تعالى في هذه السورة: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى" إلى قوله: "وهو شديد المحال" (الآية 13) نزل في قصة أربد بن قيس وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم". الشيء الذي يعني أن بقية السورة نزل في مكة. أما قصة عامر بن الطفيل، وقد ذكرتها مصادر متعددة، فقد أوردها الواحدي كما يلي: "قال ابن عباس... نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هذا عامر بن طفيل قد أقبل نحوك. فقال: دعه، فإن يرد الله به خيراً يهدِه. فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال: تجعل لي الأمر بعدك؟ قال لا، ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء. قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر. قال: لا. قال: فماذا تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها. قال: أوليس ذلك إليَّ اليوم"؟ وتقول الرواية إن عامر بن الطفيل قد أوصى رفيقه أربد بن ربيعة قائلا: "إذا رأيتني أكلمه فدُر من خلفه واضربه بالسيف". لكن المؤامرة فشلت. وكان عامر بن الطفيل على رأس قبيلة بني عامر وكانت تسكن في نجد هي وبني سليم. وكان قد قدم على الرسول عليه السلام في المدينة في خبر يطول ذكره. المهم أن الآيات المذكورة قبل والتي قيل إنها نزلت في عامر بن الطفيل هي التي استند عليها القائلون بأن هذه

السورة مدنية وهم أقلية. أما نحن فنرى أن تلك الآيات يمكن أن تكون قد نزلت بمناسبة مؤامرة حاكتها قريش في مكة لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن جهة أخرى ذكروا أن أهل مكة قالوا للرسول عليه السلام: "لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحي الموتى لقومه، فأنزل الله "ولو أن قرآنا" (الآية 31). وقالوا: قالت قريش حين أنزل "وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله" (الآية 38): وما نراك يا محمد تملك من شيء، لقد فرغ من الأمر. فأنزل الله "يمحو الله ما يشاء ويثبت"[1] (الآية. 40). واعتمادا على هذه الروايات وما سنذكره في الشرح رجحنا مكية هذه السورة، وقد وضعناها في هذه الرتبة اعتبارا لمضمونها كما سيتبين خلال الشرح والتعليق.

- نص السورة

1- وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ[2]؛ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (هو) الْحَقُّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[1].

2- يقولون: لولا نُزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مِنْ رَبِّه! إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ[2]. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا؛ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (صنفين: حلو وحامض، رطب ويابس)؛ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[3]. وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ (بقاع: ج. بقعة من الأرض، بعضها صالح للمرعى وبعضها غير صالح) وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ (نخلة نابتة أو أكثر ملتصقة بأخرى) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ،

1- واضح أن معنى "الآية" هنا هي المعجزة، من جنس ما طلبته قريش. وبالتالي فقوله تعالى "يمحو الله ما يشاء ويثبت" ينصرف معناه إلى الآيات بهذا المعنى، أي المعجزات.

2- المعنى: ما سيرد في هذه السورة من أن الله هو الذي "رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" الخ، هي الدلائل والمعجزات، لا ما يطلبه منك مشركو مكة.

يُسقَى بماءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[4]. وَإِنْ تَعْجَبْ (يا محمد من موقفهم إزاءك) فَعَجَبٌ (أكبرُ) قَوْلُهُمْ: أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[5]. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ (يستعجلون الساعة والعذاب الخ) قَبْلَ الْحَسَنَةِ (ولا يطلبون المغفرة ومن ثم التوبة والجنة) وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ (قصص الأقوام الذين كذبوا مثلهم فكان مصيرهم الهلاك)! وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ (من أسلم من أهل القبائل) عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ[6] (لمن أصر على الشرك). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ (وليس صانع خوارق)، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ[7] (و أنت منذر العرب وهاديهم).

3- "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ".

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ (ما تسقط قبل تسعة أشهر)، وَمَا تَزْدَادُ (على ذلك). وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ[8]. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِي[9]: سَوَاءٌ مِنْكُمْ (يستوي في علم الله) مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ (التآمر على النبي) وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ (غير مُستخفٍ) بِالنَّهَارِ[10]. لَهُ(3) (للرسول) مُعَقِّبَاتٌ (ملائكة تتعاقب وتتناوب ليل نهار) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (من كل جهة) يَحْفَظُونَهُ (يحفظون النبي)، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (تطبيقا لما أمرهم الله به). إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ (من الإنعام عليهم إلى الانتقام منهم، والمقصود: قريش) حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (بأن يطغوا ويفسدوا)(4).

4- فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ (استئناف)، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ[11]: (من أمثلة ذلك) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ

3- اختلف المفسرون في من تعود عليه الضمائر في قوله "بين يديه ومن خلفه ويحفظونه": منهم من جعلها تعود إلى "مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ..." على العموم، ومنهم من خص المعنى بالولاة والأمراء، الشيء الذي يعني "أن الله يحفظهم مما يدبر ضدهم في السر أو العلن! ونحن نرى أن الفقرة كلها تتحدث عن النبي (ص) فالآيات السابقة واللاحقة في هذه الفقرة تتحدث عن النبي عليه السلام، ولذلك رجحنا قول من قال إن الضمير في "من بين يديه ومن خلفه يحفظونه" يعود إلى النبي (ص)؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه والمتآمرين عليه.

4- المراد : "لا يغير الله ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام، إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد".

الثِّقَالَ[12]، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ. وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ[13] (حججه قوية). لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ (تدعوهم قريش) مِنْ دُونِهِ (كالأصنام) لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ. وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[14]. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَظِلَالُهُمْ (وكذا ظلالهم تسجد معهم لله. قالوا وسجودها ميلها مع حركة الشمس) بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[15] (5). قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ: اللَّهُ. قُلْ: أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا! قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ (هل) جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ؟ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ! قُلْ: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[16]. أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ (حمل السيل معه) زَبَدًا رَابِيًا (طافيا يلقيه على جوانب النهر). وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (كالمعادن من فضة وذهب وغيرهما) ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ، زَبَدٌ مِثْلُهُ (مثل زبد سيل المطر). كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (يضرب مثلا للحق والباطل وهو) : فَأَمَّا الزَّبَدُ (مثل للباطل) فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ (مثل للحق) فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ[17]. لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (لهم) الْحُسْنَى (ثواب)، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ؛ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ[18].

5- إنما يذكر أولو الألباب...

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا (أن ما) أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (هو) الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ[19]. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ[20] (يعني أهل يثرب) (6)، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

5- الزمخشري : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا،: "ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله، شاءوا أو أبوا. لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وينقادون له أيضاً حيث يتصرفون على مشيئته في الامتداد والتقلص"، وهذا قريب من معنى "سنة الله" التي جعل الكون عليها.

6- القرطبي: "يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه". قال قتادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية. ويحتمل أن يشير إلى الميثاق الذي أخذه على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم=

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ[21]. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ[22] (العقبى المحمودة في الدار الآخرة): جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ[23]. (يقولون لهم) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ[24]. وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، (أي الذين قد يفعلون ذلك من أهل يثرب الذين بايعوا الرسول في العقبة) وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[25]. اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ. وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ (وما في الدنيا بالنسبة لما في الآخرة) إِلَّا مَتَاعٌ[26] (قليل). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ[27]. الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[28]. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ[29].

6- أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا..

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ، لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ! قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ[30]. وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا (غير هذا مما أنزل على الرسل السابقين) سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا (لكان ذلك القرآن وما حدث به من تسيير الجبال الخ من فعل الله). أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا [7]. وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ (مثل الجفاف الذي حل بهم)، أَوْ (مثل التي) تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ (إشارة

آدم. وقال القفال: المقصود بالميثاق هنا : "ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات". أما نحن (الجابري) فنرى أنه بما أن سياق الآية هنا هو "المدح"، مدح "الذين يوفون بعهدهم"= الخ، فإن الأرجح أن يكون المقصود هنا هم أهل يثرب الذين تربطهم مع الرسول بيعة العقبة الأولى. خصوصا والسورة نزلت في هذه الظروف.

7- اختلف المفسرون في تفسير هذا الجزء من الآية، فذهب معظمهم إلى أن معنى "ييأس" هو "يتبين". وذكر بعضهم أن ابن عباس سئل عن معنى "ييأس" هنا "فقال: أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس، أنه كان في الخط يأسَ فزاد الكاتب سِنَة واحدة فصار ييأس فقرئ ييأس. ونحن نرى أن معنى الآية كما يلي: أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا (من انتظار استجابة قريش للدعوة المحمدية، وهم يعلمون) أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا" ولكن اقتضت حكمته أن لا يفعل، كما بين ذلك في مواطن أخرى"!

إلى تحالف أهل يثرب على المحاربة معه) حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ (بالنصر التام عليهم). إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ[31]. وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَمْلَيْتُ (أمهلت) لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ[32]. أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (وهو الله الذي يراقبها)، وَجَعَلُوا لِلَّهِ (كمن جعلوا له) شُرَكَاءَ؟ قُلْ سَمُّوهُمْ (له من هم؟)، أَمْ (أنكم) تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ؟!، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ (تنطقون به وهو باطل)؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[33]. لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ[34]. مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا (كذلك)! تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ[35]. وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (جماعات من النصارى بالشام والحبشة زاروا النبي) يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ (أحزاب النصارى القائلين بالتثليث) مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ[36]. وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا (حكمة وإرشادا باللغة العربية وعلى معهود العرب)، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ (قريش) بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ[37]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً(8) (فهم بشر مثلك لا ملائكة). وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ (بمعجزة) إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ[38]. يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ (من آياته، كعصا موسى) وَيُثْبِتُ (أخرى مثل التي خص بها عيسى)، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ[39] (الذي فيه كل شيء). وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (قريشا) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ[40]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ: نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (إشارة إلى انتشار الإسلام خارج مكة)(9)، وَاللَّهُ يَحْكُمُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[41].

7- خاتمة- وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ...

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (على رسلهم مثلما تفعل قريش)، فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا (والله عالم بهم وبجميع خططهم): يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ

8- ذكروا أن هذه الآية نزلت عندما "عيرت اليهود رسول الله (ص) وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء". وحسب هذه الرواية تكون هذه الآية مدنية، لأن الرسول لم يكن له في مكة بعد وفاة خديجة سوى زوجة واحدة، وخطيبة هي عائشة ولم يكن قد دخل عليها بعد. وفي رأينا أن السياق لا يحتمل هذه الرواية.

9- هذه الآية سبقت مثيلاتها ويستفاد منها أنها نزلت عندما بدأ الإسلام في الانتشار خارج مكة.

لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ[42] (لمن ستكون الغلبة). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ[43] (أي أهل الكتاب المذكور عندهم النبي الأمي...).

– تعليق

يتضح من عرضنا لهذه السورة أنها مكية شكلا وموضوعا، وقد رتبناها هنا مع أواخر سور العهد المكي لوجود إشارات تفيد ذلك، مثل الآيتين 40-41 والخاتمة. ومثل ما ورد فيها من آيات حول خصال المسلم وخصال غير المسلم (الفقرة الثالثة)، وهذا الجانب الأخلاقي قد ركزت عليه عدة سور مكية، بعضها من أواخر ما نزل.

هناك آية أثارت التباسا عند المفسرين وهي قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، – وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ"، فرأوا في ذلك تناقضا بين القسم الأول من الآية الذي يثبت الإرادة والاختيار للإنسان والقسم الثاني منها رأوا فيه العكس. والواقع أن السبب في هذا النوع من الفهم هو عدم الأخذ بالسياق. فمن جهة: هذه الآية تبدأ قبل ذلك، ونصها كاملا كما يلي: "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (بأن يطغوا ويفسدوا). يلي ذلك استئناف : وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ"، وبيانه الآيات التالية بعد هذه، والتي يفهم منها أن معنى الآية يحيل إلى السنة التي أجرى الله عليها الكون : مثل قوله "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ" (غافر 85).

وهكذا فبعد المقدمة التي خاطبت الرسول لتؤكد له أن "الذي أنزل إليك هو الحق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون"، جاءت الفقرة الثانية لتشرح كيف أن هؤلاء لا يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول هو الحق: ذلك أنهم لا ينظرون إلى خلق الله للسماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين الخ. الخ. وهذه المخلوقات والظواهر تدل كلها على أن بعد الممات حياة أخرى، فيها حساب وجزاء: جنة ونار. فعجبا لقريش الذين يعترضون بقولهم "أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد": ناسين أو متناسين تلك الآيات التي تدل كلها على أن بعد الموت حياة أخرى، وفاقا مع مخلوقات الله التي جعل من كل شيء فيها زوجين، ليل ونهار، ثمر حلو وآخر مر ... وأيضا: موت فحياة.

والعجب كل العجب من كونهم يستعجلون الساعة التي سيكون فيها حسابهم وعقابهم، بدلا من التوبة والدخول في الإسلام والحصول على المغفرة كما وعد الله، الشيء الذي سيجنبهم شديد عقابه. إنهم يطلبون معجزات، مواصلين تكذيبهم

وتحدياتهم، فلا تنشغل بهم، فليس عليك فرض الإسلام عليهم. إنما أنت منذر، مهمتك كمهمة الرسل جميعا هي الهداية والإقناع بالحجة. هم يتآمرون للتخلص منـك، والله يعلم ما يكيدون، يعلم ما خفي في الأرحام وفي الصدور وما خرج منها وصار ظاهرا. هو يعلم الغيب والشهادة، يطلع على ما يخططون له ضدك سـواء فـي اجتماعـاتهم السرية في الليل، أو العلنية في النهار. إنهم لن ينالوا منك شيئا فقد جعلنا لك ملائكـة يتتبعونك ويتعقبون أثرك، يحفظونك من أذاهم. وإذا حدث أن مسوك بسوء فـسيكون عقابهم شديدا. إن الله لا يريد أن يبادرهم بالعقاب. ذلك كان شأنه مع الأقوام الماضية التي عصت رسلهم وسيكون ذلك مع قومك الذين يكذبونك ويتآمرون لإيذائك: فـالله لا يغير ما بقوم (قريش) من حال الراحة والسلامة والنعيم إلى حال الشدة والعذاب حتى يغيروا هم ما بأنفسهم. ذلك أن الأصل هو أن الله خلق الإنسان فـي أحـسن صـورة وأحسن حال وسخر له الكون كله اختبارا وامتحانا، فإذا جنح إلـى الظلـم والفـساد استوجب العقاب. وحينئذ، ولأنهم اختاروا الفساد والضلال، يأتيهم الـسوء مـن الله، وفي هذه الحالة لن يكون لهم والٍ ولا مناصرٌ يقف إلى جانبهم أمام عقاب الله.

86- سورة الإسراء

- تقديم

هناك عدة روايات حول "الإسراء" لعل أشهرها رواية أم هانئ بنت أبـي طالـب أخت علي بن أبي طالب. قال محمد بن إسحاق إنها كانت تقول: "ما أسري برسـول اللـه صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي : نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فـصلى العـشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبّنا (أيقظنا) رسـول اللـه صـلى الله عليـه وسلم؛ فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: "يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخـرة كما رأيت بهذا الوادي (شعب أبي طالب)، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثـم صـليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين"، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية (ثياب من الكتاب مطوية)، فقلت له: يا نبي الله: لا تحدث بهذا للناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: والله لأحدثنّهُمُوه". وقال ابن سعد في طبقاته "عن بـن عبـاس وغيـره: "قالوا: أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبـل الهجرة بسنة" (أي في الثالثة عشرة للنبوة)، قيل: وبه "جزم ابـن حـزم، وادعـى فيـه الإجماع". وهناك روايات تقدم تاريخ الإسراء إلى السنة الرابعة أو الخامـسة للنبـوة (أو قبلهما). وبناء على هذا التقدير الأخير رتبت هذه السورة بين رتبة 47 والرتبـة 50 فـي لوائح ترتيب النزول. ونحن قد رتبناها هنا اعتمادا على الروايات السابقة وعلى مـا ورد فيها من إشارات ترجح نزولها في هذه المرحلة، مرحلة ما بعد الحصار. هذا ولم تتحـدث هذه السورة عن الإسراء إلا في آية واحدة، ولم يذكر فيها المعراج. ومن جهـة أخـرى سميت هذه السورة أيضا بسورة بني إسرائيل لكونها تحدثت عنهم طويلا.

ولعل أهم ما ورد حول بعض آياتها ما روي عن ابن عباس قـال: "كـان النبـي (ص) بمكة ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه "وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْـرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا" (الإسراء 80)، وهذا يزكي القول بـأن الـسورة نزلت قبل الهجرة بسنة. وعن ابن عباس كذلك أن جماعة مـن كبـراء قـريش، وعلـى رأسهم أبو جهل، اجتمعوا مع النبي عليه السلام فقالوا : "يا محمد ما نعلـم رجـلا مـن العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك: لقد سببت الآباء، وعبت الـدين، وسـفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننـا وبينـك؛

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك -بما يأتيك- رئيا (جنيا) تراه قد غلب، بذلنا أموالنا في طلب العلم (الطب) حتى نبرئك منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون، ولكنه الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم مبشرا ونذيرا. قالوا: فإن كنت غير قابل ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا، ولا أقل مالا وأشد عيشا منا، فلتسأل لنا ربك الذي بعثك فليُسيِّر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليُبسط لنا بلادنا وليُجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من قد مضى من آبائنا؛ فإن لم تفعل فسل ربك ملَكا يصدقك بما تقول، وأن يجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة، تعينك بها على ما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش؛ فإن لم تفعل فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل! فقام رسول الله (ص) عنهم. وقام معه عبد الله بن أبي أمية فقال: يا محمد: عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب! فوا لله لا أومن حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقي فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة فيشهدوا لك أنك كما تقول! فانصرف رسول الله (ص) حزينا فأنزل عليه في هذه السورة ما قاله عبد الله بن أبي أمية: "وقالوا لن نؤمن لك -إلى قوله - بشرا رسولا". ومن غير المستبعد أن يكون هذا اللقاء هو آخر محاولة لقريش مع النبي عليه السلام، قبل أن يقرروا اغتياله؟ كما سنرى.

- نص السورة

1- مقدمة : الإسراء ...

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ (مُنَزَّهٌ الله) الَّذِي أَسْرَى (سار) بِعَبْدِهِ (محمد) لَيْلًا، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (مكة) إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (القدس) الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ[1]، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا. إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]. وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَلَّا

1- ذكر الطبري أن هذا الإسراء كان رؤيا وأنه عليه السلام ما فقد جسده وإنما أسري بروحه وقد روي ذلك عن عائشة ومعاوية ...

تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا[2]، (هم) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ (موسى) كَانَ عَبْدًا شَكُورًا[3] (2).

2- رسالة إلى يهود المدينة: وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا...

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ (أخبرناهم في التوراة) لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ (الشام وفلسطين) مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا[4] (3) (تبغون بغيا عظيما وتعاونون من الهزيمة). فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا(4) بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ (دخلوا دياركم وقتلوا منكم) وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا[5]؛ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا[6]. إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ (بعثناهم من جديد) لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ (يمعنوا في القتل والسبي) وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا (يهلكوا) مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا[7]، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ(5). وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا[8].

2- المعنى: الله أسرى بالنبي محمد عليه السلام"، ليريه من آياته، بعد أن نزل عليه القرآن، كما سبق أن خص موسى بلقاء في طور سينا فأراه آياته وأعطاه التوراة ...

3- يتعلق الأمر بتاريخ بني إسرائيل وهجوم البابليين عليهم وتحطيم مملكتهم بفلسطين وأسرهم ونقل عدد كبير منهم كأسرى إلى بابل، ثم حدثت حرب بن بابل والفرس مال فيها اليهود مع الفرس فانهزم البابليون وحرر ملك الفرس أسرى بني إسرائيل فعادوا إلى فلسطين مرة أخرى. والغزو البابلي عليهم كان عقابا من الله على انقسامهم في الأرض ومخالفتهم لتعاليم التوراة. واليوم والرسول محمد عليه السلام يتهيأ للهجرة إلى المدينة التي أسلم أهلها يجب أن يستفيد اليهود من تاريخهم. فإن أفسدوا اليوم فسيعاقبون كما عوقبوا بالأمس، وهذا معنى قوله "وإن عدتم عدنا" كما سنرى...

4- هجم الأشوريين سنة 722 ق.م على مملكة إسرائيل في الشمال فدمروها. وبعد ذلك بنحو قرن ونصف أي في سنة 586 ق.م زحف الجيش البابلي بقيادة بختنصر على مملكة يهوذا في الجنوب وقضى عليها وأخذ بني إسرائيل أسرى (التوراة. سفر الملوك الثاني). بقي بنو إسرائيل في أسر البابليين إلى أن قامت حرب بين هؤلاء وبين ملوك الفرس على عهد الملك كورش الذي انتصر على البابليين. وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، في عهد داريوس تم للفرس فتح بابل سنة 568 قبل الميلاد وقد مال الأسرى اليهود إليه وساعدوه فسمح لهم علم 530 قبل الميلاد بالعودة إلى أورشليم. (سفر أشعيا 10-12، وسفر إرميا 25-29).

5- لأول مرة ترد هذه الإشارات إلى هذا الجانب من تاريخ بني إسرائيل. تماما كما هو الشأن في الإشارات الواردة في سورة السجدة الآيات 23-25 (انظر التعليق هناك). وما قلناه هناك ينطبق على هذه الآيات أيضا، أعني هنا رسائل لها علاقة باستعداد النبي (ص) للهجرة إلى المدينة.

3- مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا[9]، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (ومنهم مشركو قريش) أَعْتَدْنَا (أعددنا) لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[10]. وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ (قريش تستعجل يوم القيامة تحديا) دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ (كما تطلب من الرسول أن يوسع الله عليهم أرضهم ويحول الصفا والمروة ذهبا الخ تحديا كذلك) وَكَانَ الْإِنسَانُ (قريش) عَجُولًا[11] (يستعجل الاستجابة، ولو استجاب الله لطلبهم الأول وقامت القيام ولهلكوا وانتهى الأمر)(6). وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً(7) لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا[12]. وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ (عمله يحمله) فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا[13]. (يقال له) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا[14]. مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا[15]. وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا(8) مُتْرَفِيهَا

6- يقول الطبري في تفسير هذه الآية، وقد تبعه في ذلك جل المفسرين: "ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرّ، فيقول: اللهمّ أهلكه والعنه عند ضجره وغضبه. كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده. يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرّ كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك" (الطبري). ونحن نرى أن هذا التأويل لا يستقيم مع السياق، ففي الآية السابقة : "يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا". ونحن نرى أن مراعاة السياق يقتضي ربط تلك بهذه كما فعلنا. وقوله بعدهما "وجعلنا الليل والنهار آيتين" الخ يزكي ما ذهبنا إليه: انظر الهامش أدناه.

7- وهذه الآية متصلة هي الأخرى بما قبلها: الله وعد المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار، كما جعل الحياة ليلا ونهارا، فلوا أنه استجاب لطلب قريش "استجابة الليل" لهلكوا ولم يبق للحياة معنى وللاختبار والابتلاء مجال ولذلك اقتضت حكمته أن يمحو ظلام الليل بضياء النهار ليفسح المجال للإنسان كي يمارس الحياة، وعند قيام القيامة سيقدم له سجل أفعاله ليقرأه بنفسه وسيجزى على ما فعل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. كل يتحمل مسؤولية أفعاله، "ولا تزر وازرة وزر أخرى".

8- وردت قراءات عديدة منها "أمرنا" بتخفيف الميم (من الأمر)، ومنها بتشديدها (من الإمارة)، أي جعلناهم حكاما عليها. ففي القرطبي: قرأ أبو عثمان النَهْدِيّ وأبو رَجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن «أمَّرْنا» بالتشديد، وهي قراءة عليّ رضي الله عنه؛ أي سلّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهديّ «أمَرْنا»=

(أغنياءها) فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا[16]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا[17]. مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا[18] (مطرودا). وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا[19]. كُلًّا نُمِدُّ، هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ؛ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا[20]. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا[21]. لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا[22].

4- بالوالدين إحسانا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ: الوصايا العشر.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا[23]. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا[24]. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ: إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا[25]. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا[26]. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا[27]. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ (ذوي القربى بسبب فراغ يدك، وذهابك لـ) ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا (رزقا) فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا[28] (طمئنهم بأنك سيكون عندك ما تعطيهم)، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً (مشدودة) إِلَى عُنُقِكَ (= بخيلا) وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ (بحيث لا يبقى لديك ما تعطي) فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا[29] (لا شيء عندك)، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يضيّقه) إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا[30]. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ (الفقر)، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا (إثما) كَبِيرًا[31]. وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[32]. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ(9)، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا

بتشديد الميم، جعلناهم أمراء مسلّطين؛ وقاله ابن عَزيز: وتأمّر عليهم تسلط عليهم ... وهذه الآية متصلة، هي وما بعدها، بما قبلها: فالخطاب إلى قريش متصل كما هو واضح.

9- قالوا: "وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قود نفس، وإن كانت كافرة لم يتقدّم كفرها إسلام، فأن لا يكون تقدم قتلها لها عهد وأمان". (الطبري). وواضح أن هذا الفهم للآية لا يستقيم إذا راعينا زمن نزولها. فهي نزلت في مكة، حيث لم يكن قد تحدد بعد حكم الزنا (وقد اقتصرت الآية السابقة على وصفه بالفاحشة وسوء السبيل). كما لم يكن هناك "عهد أمان" يعطيه المسلون للكفار، ولأن هذه الأحكام التي فسر بها الطبري وغيره هذه الآية لا تنطبق على العهد المكي، ربطها بعضهم بوضعية المسلمين=

(أي حق قتل القاتل، فإذا أراد استعمال هذا الحق)، فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ (لا يقتل غير القاتل ولا يمثل به) إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا[33] (قد أخذ بذلك الحق للمقتول). وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا[34]. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[35]. وَلَا تَقْفُ (تتبع) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا[36]. وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا[37]. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا[38] (10).

في مكة فذكروا أنه "كان المشركون يقتالون أصحاب النبيّ (ص)، فقال الله تبارك وتعالى: من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم عن أن تقتلوا له أبا أو أخا أو أحدا من عشيرته، وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم". قلت: وهذا المعنى أقرب.

10- الرازي: إن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال، فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار. وعن ابن عباس: أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام: أولها: "وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ" قال تعالى: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ" (الأعراف: 145). (الجابري، قلت): هذه إشارة إلى الوصايا العشر التي في التوراة وقد ورد فيها ما نصه: "2أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عُبُودِيَّتِكَ. 3لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. 4لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةَ مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقٍ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ. 5لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ، إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ آثَامَ الآبَاءِ فِي الْبَنِينَ حَتَّى الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، 6وَأُبْدِي إِحْسَانًا نَحْوَ أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَصَايَايَ. 7لاَ تَنْطق بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلا، لأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلا. 8اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ، 9سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَقُومُ بِجَمِيعِ مَشَاغِلِكَ، 10أَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَتَجْعَلُهُ سَبْتًا لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَلاَ تَقُمْ فِيهِ بِأَيِّ عَمَلٍ أَنْتَ أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوْ عَبْدُكَ أَوْ أَمَتُكَ أَوْ بَهِيمَتُكَ أَوِ النَّزِيلُ الْمُقِيمُ دَاخِلَ أَبْوَابِكَ. 11لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ صَنَعَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكلَّ مَا فِيهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ. لِهَذَا بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَجَعَلَهُ مُقَدَّسًا. 12أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ يَطُولَ عُمْرُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي يَهَبُكَ إِيَّاهَا الرَّبُّ إِلهُكَ. 13لاَ تَقْتُلْ. 14لاَ تَزْنِ. 15لاَ تَسْرِقْ. 16لاَ تَشْهَدْ زُورًا عَلَى جَارِكَ. 17لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ جَارِكَ، وَلاَ زَوْجَتَهُ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لَهُ». (سفر الخروج 20). ونزول هذه الوصايا في هذه السورة يمكن ربطه بأمرين: فهي من جهة "قانون" أخلاقي يجب أن يتبعه المسلمون في مكة وخارجها، وكانوا قد تكاثروا في المدينة التي بدأ المسلمون يهاجرون إليها بأمر من الرسول قبيل هجرته حتى يكون هو آخر من يهاجر. والأمر الثاني تنظيم للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين خاصة بين المسلمين في المدينة وسكانها اليهود. وقد جاءت هذه الوصايا الأخلاقية القرآنية متناغمة مع الوصايا العشر التوراتية كرسالة سلمية أخرى إلى اليهود في المدينة، تخبرهم أن الدين الجديد يصدق ما في التوراة وهو نفسه دين الجد المشترك : إبراهيم عليه السلام.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ[11]، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا[39]. أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ (هل خصكم يا قريش) بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا[40]! وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (بيّنا) فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا[41]. قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا[42] (ليقاتلوه)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا[43]. تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ. إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا[44]. وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا[45]، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (أغطية) أَنْ يَفْقَهُوهُ (فلا يفهمونه) وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (صمما)، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ، فِي الْقُرْآنِ، وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا[46]، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ (يستمعون له) إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى (يتسارون) إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا[47](12). انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ (بقولهم عنك : رجل مسحور) فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا[48]. وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا[49]. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا[50] أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ! فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ (يحركون) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا[51]، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا[52]. وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ (يفسد) بَيْنَهُمْ (بين عرب القبائل)، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا[53]. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا[54]. وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا[55]. قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا[56]، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ (يعبدون الملائكة ليقربوهم من الله، فهؤلاء الملائكة هم أنفسهم)

11- الحكمة هنا هي التصرف وفق الأوامر والنواهي السابقة. قارن حكمة لقمان. أي وفق السلوك الأخلاقي، السلوك الحسن، العمل بالمعروف واجتناب المنكر.

12- قيل "نزلت حين دعا عليٌّ رضي الله عنه أشراف قريش إلى طعام اتّخذه لهم، ودخل عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله سبحانه، وهم يقولون فيما بينهم متناجين: هو ساحرٌ، وهو مسحورٌ، فأنزل الله تعالى: "نحن أعلم بما يستمعون به" أيْ: يسمعه بعضهم من بعض: يقول بعضهم لبعض.

يَبْتَغُونَ (يلتمسون) إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ (الوسيلة الأقرب منه)، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا[57]. وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (كما أهلكنا قرية عاد وثمود) أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا (وذلك ما سنفعل بمشركي قريش: مكة، وذلك بقتال أهلهم وهزمهم)؛ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا[58]. وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ (المعجزات التي طلبها المشركون) إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ: وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً (آية بينة) فَظَلَمُوا بِهَا. وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ (المعجزات) إِلَّا تَخْوِيفًا[59] (للناس كي يؤمنوا). وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ (علما وقدرة)، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ (الإسراء) إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (شجرة الزقوم) (13) وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا[60].

6- قضية إبليس : قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ..

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا[61] (من طين)؟ قَالَ أَرَأَيْتَكَ (أخبرني:) هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ (لأستأصلن) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا[62]. قَالَ: اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا[63]، وَاسْتَفْزِزْ (غرّر بـ) مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا[64]. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا[65]. رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي (يجري) لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا[66]. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا[67]، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

13- العبارة فيها تأخير وتقديم كما يلي: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ إِلَّا فِتْنَةً للناس. اختلف المفسرون في المقصود بالرؤيا فقال معظمهم الإسراء، واختلفوا هل هي رؤية بصرية أم رؤية قلبية، هل حدث الإسراء وهو نائم فيكون رؤيا بمعنى حلم، أم أنه حدث وهو مستيقظ. ولكل أحاديث وآثار يحتج بها. أما معاصرو النبي عليه السلام من المشركين فقد استهزءوا بذلك، كما لم يستسغها بعض الذين كانوا قد أسلموا حديثا فارتدوا فكانت "فتنة". أما الشجرة بـ "الملعونة" فهي شجرة الزقوم "تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ" (62-67). وقد اعترض المشركون على ذلك بالقول: النار تحرق الشجر فكيف تنبته؟. فكان ذلك فتنة لهم، أي أمرا محيرا.

(يرميكم بالحصباء) ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا[68]؟ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا[69]؟ (محاسبا).

7- تكريم الإنسان. عتاب: كادوا يفتنونه، جدال مع قريش.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا[70]. يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ (بنبيهم) فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[71]. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ (الدنيا) أَعْمَى (ضالا) فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا[72]. وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ (ينحرفون بك) عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا[73]. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا[74] (14). إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ (عذاب) الْحَيَاةِ وَضِعْفَ (عذاب) الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا[75]. وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ (مكة) لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ (بعدك) إِلَّا قَلِيلًا[76] (15): سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا[77]. أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ (غروبها) إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ؛ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا[78]. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ (يقيمك) رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا[79]. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا[80] (انظر التقديم). وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا[81]. وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ (بيان واطمئنان) وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا[82]. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا[83]. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى

---

14 – ذكروا في هذا الشأن أشياء كثيرة مختلفة الزمان والمكان، والمقصود أن قريش ساومت الرسول بشيء ما ليتسامح مع آلهتهم، حتى يؤمنوا، وأن النبي ربما سولت له نفسه قبول الصفقة، ثم عدل ذلك. ومن جملة ما ذكروا: أن "وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: متِّعنا باللات سنة، وحرِّم وادينا كما حرّمت مكة؛ فإنا نحب أن تعرف العربُ فضلنا عليهم، فإنْ خشيت أن تقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا فقل: الله أمرني بذلك، وأقبلوا يلحّون على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقد همّ أنْ يعطيهم ذلك"، فنزلت. (انظر التقديم أيضا).

15 – قيل إن أهل مكة قرروا إخراج النبي منها (قبل الهجرة) ولكن لم يفعلوا، وتقول الآية: لو فعلوا ذلك لما طال بهم المقام فيها فإن الله كان سيهلكهم فيها، كما أهلك أمثالهم من قبل.

سَبِيلًا[84]. وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ! قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا[85] (انظر التعليق).

8- ولَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ.

ولَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (أي محونا القرآن) ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا[86] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا[87]. قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[88] (معينا)(16). ولَقَدْ صَرَّفْنَا (بيّنا) لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[89]. وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا[90]، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا[91]، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (أجساما)، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا[92] (عيانا)، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ! وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ! قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا[93]. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا[94]؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا[95]. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا[96]. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا[97]. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا[98]؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا[99]. قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ (نفاذها بـ) الْإِنْفَاقِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا[100] (بخيلا). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ(17)، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا[101]. قَالَ (موسى) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ (الآيات) إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ (عبرا) وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا[102] (هالكا). فَأَرَادَ أَنْ

16- يمكن أن تفهم الصلة بين هذه الفقرة والتي قبلها على أساس أن هذه رد على قريش في محاولة إحراجهم النبي (ص) وتحديه بسؤالهم عن "الروح".

17 - قيل هي: اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم أو الطمس والسنين ونقص الثمرات" وهي تدخل في معجزات موسى.

يَسْتَفِزَّهُمْ(18) مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا[103]. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ (الموعودة لما نجوا ووصلوا إليها)، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا[104] (جميعا أنتم وفرعون مختلطين، كل يحاسب حسب عمله).

9- خاتمة: وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ (القرآن) وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[105]. وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا[106]. قُلْ (لمشركي مكة) آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ (النصارى) إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا[107] (19). وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا[108]. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا[109]. قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ، أَيًّا

18- معظم المفسرين شرحوا "يَسْتَفِزَّهُمْ" بـ "يخرجهم". وهذا لا يستقيم لأن إخراج بني إسرائيل من مصر هو ما جاء من أجله موسى، وقد امتنع فرعون عن السماح لهم بذلك. وعليه فالمعنى حسب القصة هو أن موسى خرج ومعه بنو إسرائيل فلحق فرعون بهم ليقتلهم ويتخلص منهم فأغرق الله جيشه. فالاستفزاز هنا معناه التخلص، ويكون بمعنى التخويف والإخراج المادي بمعنى النفي، والمعنوي بمعنى جعل الإنسان يفقد صواب عقله الخ. والملاحظ أن الآية استعملت هنا "فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا"، وفي آية أخرى أن فرعون بقي حيا، فيكون معنى أغرقناه هنا: أنه صار في عداد المغرقين الذين فقدوا كل قوتهم الخ.

19- ارتبك المفسرون في تحديد المعنيين هنا، قال بعضهم "هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود، ووافقه القرطبي وقال: وهو أظهر لقوله «مِنْ قَبْلِهِ». قلت (الجابري) واضح أن الإشارة هنا إلى وفد من نصارى الحبشة قال عنه ابن إسحاق في السيرة: "ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركبا أحمق منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم : سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا". قيل : هذا الوفد من نصارى الشام.

مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا[110] (20). وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ (يحميه) مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا[111].

- تعليق

قسمنا هذه السورة إلى ثماني فقرات وقد تحدثنا في الهوامش عن الصلة بينها وعن الموضوعات التي طرحتها، فضلا عن شروح داخل كل فقرة عبرنا فيها عن وجهة نظرنا في فهم عبارات الآيات. وتجنبا للتكرار قررنا أن نخصص هذا التعليق لمسألة الروح التي وردت في قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ! قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، ومَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". لقد سبق أن أشرنا في سورة الكهف إلى ما نكره الرواة من أن يهود المدينة نصحوا قريش، لما سألوهم ما به يمكن أن يمتحنوا حقيقية نبوة الرسول عليه السلام، أن يطرحوا عليه ثلاثة أسئلة: واحد حول أهل الكهف، وآخر عن ذي القرنين، وثالث عن حقيقة الروح. وقد أجابهم الرسول في سورة الكهف (رقم 70) عن السؤالين الأول والثاني، ولم تأت السورة على ذكر جواب السؤال الثالث الخاص بـ"الروح".

ولما وجد المفسرون والمؤلفون في "أسباب النزول" أن مسألة الروح قد طرحت في سورة الإسراء قالوا : ههنا الجواب عن السؤال الثالث. ولكن لما كان تاريخ الإسراء مختلف فيه وكان المنطق يقتضي نزول سورة الإسراء، بعد الإسراء لا قبله، وكانوا يرتبون سورة الإسراء في الرتبة 50 من ترتيب النزول، أي قبل سورة الكهف بنحو عشرين سورة وقعوا في اضطراب كبير. ومع أن روايات عديدة ومعتبرة (ذكرناها في المدخل) أفادت أن الإسراء وقع قبل الهجرة بسنة وبالتالي ستكون سورة الإسراء من أواخر ما نزل في مكة فإنهم فضلوا عن قصد، أو عن عدم انتباه، "الكلام" في الرواية التي تخص أسئلة اليهود علهم يجدون مخرجا من المشكلة التي يطرحها عدم ورود الجواب عن "الروح" في سورة الكهف. وهكذا ظهرت روايات أخرى تقول إن اليهود قالوا لمبعوثي قريش: فإن أجابكم محمد عن الروح فليس بنبي، وإن لم يجبكم فهو نبي! وهناك

20- سبق أن قلنا إن مناسبة نزول هذه الآية راجعة إلى أن النبي (ص) كان يدعو في سجوده: "يا رحمان يا رحيم"، فسمعته قريش وقال بعضهم : كان محمد يدعو الله واليوم يدعو رحمان اليمامة، فجاءت الآية لترد عليهم بأن الله هو نفسه الرحمان، ولتطلب من النبي أن لا يرفع صوته عند الدعاء الخ، لأن خصوم الدعوة من قريش كانوا إذا سمعوه أخذوا في سبه وسب إلهه.

من قال إن أسئلة اليهود كانت في الأصل سؤالين وليس ثلاثة. وآخرون قالوا إن سؤال النبي عن الروح لم يكن ضمن الأسئلة التي اقترحوها على قريش بل كان سؤالا مستقلا طرحته اليهود على النبي عليه السلام فيما بعد، فكان الجواب هو ما ورد في هذه السورة. وواضح أنه لم يكن في إمكان أي أحد أن يشك في كون السؤال نفسه قد طرح على النبي لأن الآية الخاصة به واضحة : "ويسألونك عن الروح".

بعد هذا العرض التاريخي الموجز للمسألة، نقول:

إن قوله تعالى "ويسألونك عن الروح" واقع في سياق ذكر اعتراضات قريش والرد عليها، وهو السياق العام للسورة، ومع ذلك فإننا لا نعتقد أن سؤال "الروح" كان مما يدخل في مجال "المفكر فيه" لدى قريش، ذلك أن الجانب الإشكالي في هذا السؤال ينتمي أساسا إلى الفكر اليهودي. ومن هنا يغلب على ظننا أن السؤال طرحته اليهود إما مع سؤال "أهل الكيف" و"ذي القرنين" أو بصورة مستقلة. وسنرى ما يحملنا على القول بهذا لاحقا... المهم هنا هو الجواب: "قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي"! فكيف نفهم هذا الجواب؟

قبل الإجابة يحسن بنا استحضار العبارات والمعاني التي ورد فيها لفظ "الروح" في القرآن ككل، عملا بمنهج "القرآن يشرح بعضه بعضا".

أولا : الروح في القرآن

لقد ورد لفظ "الروح" في القرآن، ضمن عدة عبارات، في الآيات التالية :

1- روح الله: ورد هذا في آدم: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72ص، والأعراف 72، السجدة 9)، وقد ورد في مريم: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17مريم)، وأيضا: "وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء 91، التغابن 12). وأيضا: " إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" (النساء 171). وقوله: "وَأَيَّدَهُمْ (المؤمنين) بِرُوحٍ مِنْهُ" (الحجرات: 22)

3- الروح من أمر الله : وردت هذه العبارة في قوله تعالى: "يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (غافر 15). وقوله: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (النحل 2)، وقوله: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء85) وقوله: " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى 16)

3- روح القدس: ورد هذا التعبير مرتين: في قوله : "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل 102) وقوله: وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة 87) وأيضا: "وأيضا "إِذْ أَيَّدْتُكَ (عيسى) بِرُوحِ الْقُدُسِ (المائدة 111). ومثله

"الروح الأمين فقد ورد في المعنى نفسه يقول تعالى : "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء 193- 195)

4- الملائكة والروح : ورد في قوله تعالى: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (المعارج 4)، وقوله: "يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبأ 38)، وقوله: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر 4).

ومما تجدر ملاحظته ابتداء الأمور التالية:

1- غياب استعمال الروح منسوبة للإنسان، الشيء الذي يسمح باستبعاد أن يكون السؤال والجواب في آية الإسراء، يتعلق بـ "روح الإنسان".

2- روح القدس والروح الأمين" هو جبريل بدليل قوله تعالى عن القرآن: " قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"، و"نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" (رقم 3 أعلاه).

3- أما "الروح" في قوله "الروح والملائكة" فهو أيضا جبريل أو أحد الملائكة، للجمع بينه وبينهم.

4- عبارة "نفخت فيه من روحي" (روحنا) تطرح العلاقة بين الروح والريح والنفَس (بفتح الفاء). وبالتالي النفْس (بسكون الفاء)، ومن هنا يمكن القول إن الأمر يتعلق بشيء غير مادي، مثل الريح والنفَس الخ. وكما هو معلوم فالنفْس لها علاقة بالنفَس والتنفس؛ وعدم التنفس (الاختناق) يؤدي إلى الموت، ويعبر عنه بزهوق النفس. وخروج الروح من البدن. ولما كان النفخ هو إصدار قوة، مثل الريح والنفَس، فإن معنى "نفخت فيه من روحي" هو نقلت إليه القدرة على التنفس التي هي علامة على وجود الروح فيه.

5- روح الله، من روحه، المقصود به جبريل: روحنا بمعنى رسولنا.

6- الروح من أمر الله: "أمر الله" يوازن "كلمة الله"، لقوله تعالى عن عيسى : هو "كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ"، أي أمر منه بأن يكون فكان. وفاقا مع قوله : "إِنَّمَا أَمْرُهُ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس 82)، بمعنى: إذا أراد الله شيئا أن يكون، أن يوجد، أَمَرَهُ أن يكون (قال له كن) فيكون.

7- ومما تقدم يتبين أن "الروح" المسؤول عنها في قوله تعالى: ""وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا") (الإسراء85)، هو الروح القدس جبريل. وذلك لقوله تعالى : "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل 102). وهناك قرينة من السياق تزكي هذا الذي ذهبنا إليه وهي الآية التي جاءت مباشرة بعد السؤال وجوابه: قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ! قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا[85]، وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (أي محونا القرآن)

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا[86] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا"[87]. قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[88]. إذن فالسياق يدل على أن مدار القول هو القرآن: فكأنهم قالوا : من يأتيك بالقرآن؟ فأجاب بقوله تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"، وعندما سألوه وما الروح: قال: "الروح من أمر ربي".

بعد هذا البيان الذي اقتصرنا فيه على القرآن من حيث كونه "يشرح بعضه بعضا" نلقي نظرة على ما ورد في معاجم اللغة قبل الإطلالة على المسألة كما طرحت في التوراة والإنجيل.

ثانيا الروح في المعاجم العربية

قال في مقاييس اللغة: الرُّوح والرَّوْح في الأصل واحد، وجعل الرُّوح اسما للنفس، وذلك لكون النفس بعض الروح، كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان. وجعل اسما للجزء الذي به تحصل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار... ثم يستشهد بالآيات السابقة وكأن الروح فيها بهذا المعنى. ويضيف ""والروح التنفس، وقد أراح الإنسان إذا تنفس. وفي لسان العرب: "الرُّوحُ ، بالضم في كلام العرب: النَّفْخُ، سمي رُوحاً لأنّه رِيحٌ يخرج من الرُّوح؟

ثالثا: في التوراة والإنجيل

يبدو أن لفظ "روح" مشترك بين اللغات السامية أو على الأقل بين العربية والعبرانية، ففي التوراة وردت الكلمة هكذا "روح" ruah في بداية التوراة، في الفقرة الأولى من سفر التكوين في قوله: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، 2وَإِذْ كَانَتِ الأَرْضُ مُشَوَّشَةً وَمُقْفِرَةً وَتَكْتَنِفُ الظُّلْمَةُ وَجْهَ الْمِيَاهِ، وَإِذْ كَانَ رُوحُ اللهِ يُرَفْرِفُ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ، 3أَمَرَ اللهُ : «لِيَكُنْ نُورٌ». فَصَارَ نُورٌ".

ثم توالى ورود هذه الكلمة بكثرة وفي معاني متقاربة : وهكذا فبعد أن تكاثر الناس بعد الطوفان وغلبت عليهم شهواتهم، "قَالَ الرَّبُّ: لَنْ يَمْكُثَ رُوحِي مُجَاهِداً فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ. هُوَ بَشَرِيٌّ زَائِغٌ". وفي سياق إطراء فرعون على يوسف "قال لعبيده: هَلْ نَجِدُ نَظِيرَ هَذَا (يوسف) رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ"؟. "وَجَمَعَ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنْ رُؤَسَائِهِمْ وَأَوْقَفَهُمْ حَوْلَ الْخَيْمَةِ. فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَخَاطَبَهُ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّوحِ الْحَالِّ عَلَيْهِ وَوَضَعَهُ عَلَى السَّبْعِينَ رَئِيساً. فَلَمَّا حَلَّ عَلَيْهِمِ الرُّوحُ تَنَبَّؤُوا لِفَتْرَةٍ وَتَوَقَّفُوا".

وكَانَ يَشُوعُ بْنُ نُونٍ قَدِ امْتَلأَ رُوحَ حِكْمَةٍ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ مُوسَى يَدَيْهِ عَلَيْهِ 10فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ وَصَارَ قَاضِياً لإِسْرَائِيلَ"... "فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ فَقَبَضَ عَلَى الأَسَدِ...".

وفي مقابل "روح الرب" الرحيمة الخيرة هذه هناك روح رديئة. وهكذا نقرأ: "وَفَارَقَ رُوحُ الرَّبِّ شَاوُلَ وَهَاجَمَهُ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ رُوحٌ رَدِيءٌ يُعَذِّبُهُ. قَالَ لَهُ رِجَالُهُ: «إِنَّ رُوحاً رَدِيئاً يُعَذِّبُكَ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ".

ثم يأتي الكلام عن "الرُّوحَ الَّذِي فِي الإِنْسَانِ، وَنَسَمَةَ الْقَدِيرِ، تُعْطِي الإِنْسَانَ فَهْماً". ويقول شاب "لَيْسَ الْمُسِنُّونَ وَحْدَهُمْ هُمُ الْحُكَمَاءَ، وَلاَ الشُّيُوخُ فَقَطْ يُدْرِكُونَ الْحَقَّ. سَأُجِيبُ أَنَا أَيْضاً وَأُبْدِي رَأْيِي، لأَنِّي أَفِيضُ كَلاماً، وَالرُّوحُ فِي دَاخِلِي يُحَفِّزُنِي... رُوحُ اللهِ هُوَ الَّذِي كَوَّنَنِي، وَنَسَمَةُ الْقَدِيرِ أَحْيَتْنِي". "قَلْباً نَقِيّاً اخْلُقْ فِيَّ يَا اللهُ، وَرُوحاً مُسْتَقِيماً جَدِّدْ فِي دَاخِلِي. لاَ تَطْرُدْنِي مِنْ حَضْرَتِكَ، وَلاَ تَنْزِعْ مِنِّي رُوحَكَ الْقُدُّوسَ"... "تَقْبِضُ أَرْوَاحَهَا فَتَمُوتُ، وَإِلَى تُرَابِهَا تَعُودُ. تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ ثَانِيَةً وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ .

هذا في التوراة ... أما في الأناجيل فنقرأ :"أَمَّا يَسُوعُ الْمَسِيحُ فَقَدْ تَمَّتْ وِلادَتُهُ هَكَذَا: كَانَتْ أُمُّهُ مَرْيَمُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ؛ وَقَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا مَعاً، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ..."، فَلَمَّا تَعَمَّدَ يَسُوعُ، صَعِدَ مِنَ الْمَاءِ فِي الْحَالِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ وَرَأَى رُوحَ اللهِ هَابِطاً وَنَازِلاً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ حَمَامَةٌ" ... "فَلَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ، بَلْ رُوحُ أَبِيكُمْ هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ".

وعندما حصل التداخل بين الفكر المسيحي والفلسفة اليونانية استعمل اللفظ الإغريقي pneuma (نفس، فكر) في الترجمات اليونانية للتوراة لأداء معنى اللفظ العبراني "روح" ruah. وبالإضافة إلى تعدد معاني اللفظ الإغريقي المذكور pneuma ، إذ يستعمل في معنى "الريح" و"الهواء"، والتأوه والتنفس، كما يستعمل في معنى "النفس" و"الحياة"، و"القلب" و"الروح"، بالإضافة إلى ذلك يستعمل في معنى هام وهو "روح يهوه" أو "نفسه". والمقصود : الفعل الإلهي في العالم الطبيعي وفي التاريخ. إنه بمثابة قوة روحية صادرة عن الله. وتقدم التوراة هذا الفعل الإلهي على صورة إلهام وتوجيه من الله، هو قوة حالة في الإنسان تنفذ إرادة الله، وهي إرادة تتماهى مع الله نفسه.

هكذا بدأ تصور العهد الجديد (الأناجيل) للعلاقة بين "روح الله" والقوة الإلهية التي تقدم رسالة عيسى كرسالة متعالية، فوق طبيعية. ويبدأ الكلام عن "روح" مطلق بنفسه، الشيء الذي سيفتح الباب أما فكرة التجسد. وهكذا يقدم لنا يوحنا الحواري المسيح على أن الذي نزل عليه الروح من السماء خلال تعميده ليبقى فيه على الدوام. بعد ذلك سيظهر مفهوم "الروح المقدس" Saint-Esprit الذي سيترسّم في مجمع نيقية عام 325 للميلاد بوصفه ثالث ثلاثة: الأب، الابن، والروح القدس.

87- سورة الروم

- تقديم

تعددت الروايات والأقوال، قديما وحديثا. حول هذه السورة، خصوصا الآيات الأولى منها التي تتحدث عن معركة من المعارك التي دارت رحاها زمن البعثة المحمدية بين الفرس والروم البيزنطيين. والموضوعات التي كانت مثار جدل هي التالية:

1- في إحدى جولات الحرب الطاحنة، التي جرت بين الفرس والروم البيزنطيين قبل البعثة المحمدية، غلبت الفرس الروم في مكان حددته السورة التي نحن ضيوف عليها بأنه يقع "في أدنى الأرض" وقد فسره جميع المفسرين تقريبا بمعنى أقرب البلدان شمالا إلى مكة وهي بُصرى وأذرعات من أراضي جنوب الشام. وتقول أشهر الروايات، وقد ذكرتها معظم كتب التفسير: بلغ ذلك النبي (ص) وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم: وتضيف الرواية: "وكان النبي (ص) يكره أن يظهر الأمّيون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم. وقد فرح كفار مكة وشمتوا في أصحاب النبي (ص) فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر (انتصر) إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى: "الَمَ غُلِبَتِ الرُومُ في أدنى الأرضِ" إلى آخر الآيات. وما يلفت الانتباه هنا ما ورد على لسان المتحدث باسم قريش حين قال: "وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم"! فإذا كان هذا الذي نسب إليه صحيحا، فذلك يعني أن قريش كانت تدخل في حسابها أن "الحرب ستقوم بينها وبين المسلمين". وهذا لم يكن من المفكر فيه قبل المعاهدة التي عقدها النبي عليه السلام مع ممثلي يثرب في بيعة العقبة الثانية، وبالتالي فتاريخ نزول هذه السورة يتحدد بهذه البيعة التي تمت في السنة الثالثة عشرة للنبوة، الشيء الذي يعني أنها نزلت قبل الهجرة، بنحو سنة.

2- وتضيف الرواية المذكورة : "قال ناس من قريش لأبي بكر: زعم صاحبكم أن الروم ستغلِب فارسَ في بضع سنين (كما في السورة)، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى! واتفقوا على تحديد عدد السنين في قوله "بضع سنين" بست. (على اعتبار أن لفظ "بضع" يفيد ما بين الثلاثة إلى التسعة)، فمضت ست سنين قبل أن

يغلب الروم الفرس فأخذ المشركون رهن أبي بكر". وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أُبَيّ بنُ خلف (وذلك قبل تحريم الرهان)، وأنهما جعلا الرهان خمس قلائص (إناث الإبل الشابة). وفي رواية أنهما بعد أن جعلوا الأجَل ستة أعوام غيروه فجعلوه تسعة أعوام[1] وازدادوا في عدد القلائص، وأن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به أُبَي بن خلف وقال له: أعطني كفيلاً بالخطر (الرهن) إن غَلِبتَ، فكفل به ابنه عبد الرحمان. فلما غلَب الروم بعد سبع سنين أخذ أبو بكر الخطَر من ورثة أبي بن خلف. واتفقت الروايات على أن غلب الروم للفرس -الذي وعد به القرآن- وقع بعد مضي سبع سنين من غلب الفرس على الروم الذي نزلت عنده هذه السورة.

3- حاول كثير من الباحثين والكتاب المعاصرين تحديد تاريخ انهزام الفرس المشار إليه في الآية وتاريخ "بضع سنين" التي حددتها الآية لانتصار المغلوب على الغالب أي الروم على فارس، ويكادون يجمعون على أن المعركة المشار إليها في الآية والتي انتصر فيها الفرس وقعت عام 615 ميلادية، وأن المعركة التي انتصر فيها الروم على الفرس هي تلك التي وقعت سنة 624-625 ميلادية، سنة غزوة بدر. وفي هذه الحالة ستكون "بضع سنين" تساوي تسع سنوات. على أن هناك من يرى أن غلبة الروم على الفرس التي بشرت بها الآية هي انتصار الروم سنة 627-628 ميلادية، وهذا يتوافق مع صلح الحديبية. وعلى هذا تكون "بضع سنين" تساوي سبع سنوات ويكون تحديدها بتسع سنين من خطأ الناسخ كما في الرواية المنسوبة لابن عباس... ونحن نرجح هذا التقدير الأخير لأنه أنسب لسنة نزول السورة أي لسنة الأولى الهجرة، الموافقة للسنة 621 ميلادية.

فإذا نحن أخذنا بهذا الترجيح اتضح أن تاريخ انتصار الروم على فارس سيكون في السنة السادسة للهجرة أي متزامنا مع بيعة الرضوان وصلح الحديبية (الموافق 627-628 ميلادية). ونحن نرجح هذا التاريخ لثلاثة أسباب :

- الأول هو أن جعل تاريخ انهزام الروم المقصود في الآية والحاصل عام 615 ميلادية الموافق للسنة الخامسة للنبوة، سنة الهجرة الأولى للحبشة، يجعل نزول هذه السورة متقدما على رتبتها المنصوص عليها في لوائح ترتيب النزول

1- يقول بعض المفسرين والمهتمين بهذا الموضوع إن عدد السنين لابد أن يكون "سبعا" وأن الناسخ ارتكب خطأ، فزاد "سنة" في السين (وكانت الحروف لا تنقط) فقرئت تسع، بدل "سبع". وهذا التصحيح من أجل أن يتوافق تاريخ انتصار الروم الذي بشرت به السورة مع تاريخ غزوة بدر، وذلك بناء على رواية عن أبي سعيد الخدري ورد فيها : "لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس".

والتي تؤكدها الإشارات الواردة في هذه السورة والتي تجعل تاريخ نزولها في السنة الأولى قبل الهجرة كما سنرى.

– الثاني أن تخصيص السورة للآيات السبع الأولى منها للحديث عن هذا الموضوع، ثم الانتقال مباشرة إلى موضوع لم يكن يستوجب التقديم له بالحديث عن هزيمة الروم. لابد أنه يكون لغرض ومقصد. إذا فرضنا أن هزيمة الروم المشار إليها هي التي وقعت سنة 615 ميلادية فما الذي يبرر الحديث عنها في مقدمة هذه السورة. أي بعد نحو ثماني سنوات؟

– الثالث أن الصراع بين الروم والفرس دام قرونا قبل البعثة المحمدية كانت الحرب بينهما سجالا. وقد جرت بين الإمبراطوريتين عدة معارك منذ بداية نبوة الرسول عليه السلام حتى نزول سورة الروم في السنة الثالثة عشرة للنبوة، ولم يشر القرآن إلى أي منها بشيء! نعم القرآن ليس كتاب تاريخ، ولا يهتم بالحوادث في تسلسلها عبر الزمن البشري، فزمان القرآن زمان خاص، والحقيقة التاريخية التي يتحدث عنها –مثل قصص الأنبياء– هي حقيقة قرآنية وليست حقيقة تاريخية بالمعنى الزماني المكاني للحوادث. وإذن فتفكيرنا يجب أن يتجه إلى التماس ما عبرنا عنه بالحقيقة القرآنية وليس إلى شيء آخر. والحقيقة القرآنية التي تؤكدها الآيات التي أشارت إلى انهزام الروم وبشرت بانتصارهم بعد بضع سنين تعبر عنها الآيات التي تلت تلك الإشارة وهي قوله تعالى: "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ. يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[5]. وَعْدَ اللَّهِ. لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ". كان المسلمون مغلوبين على أمرهم طيلة السنوات التي مرت من الدعوة المحمدية، اضطهدوا وعذبوا واضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة وحوصر النبي وأهله في شعب أبي طالب الخ الخ. واليوم وقد تحالف النبي (ص) مع أهل يثرب وتمت بيعة العقبة الثانية التي سماها بعض المؤرخين ببيعة "الحرب" وأخذ المسلمون يغادرون مكة إلى المدينة أرسالا أرسالا، ولم يبق إلا الإذن للنبي عليه السلام بالهجرة والقتال، يأتي انهزام الروم في معركة من معاركهم مع الفرس فرصة للتذكير بأن الحياة كما رتب الله أمورها قائمة على الدورية، أرض وسماء. ليل ونهار، هزيمة وانتصار.. و"لله الأمر من قبل ومن بعد". لقد قرب وقت الهجرة إلى المدينة، وسيقوم المسلمون الذين أخرجوا من ديارهم قهرا وعسفا برد الظالم عن ظلمه وسينتصرون كما سينتصر الروم في جولة قادمة، لأن الحياة أزواج، ومن كل شيء زوجين، ولا يمكن أن يكون النصر للفرس مرتين متتاليتين. سينتصر الروم وسينتصر المسلون وسيفرح المؤمنون من هؤلاء وهؤلاء بنصر الله: "وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

- نص السورة

1- مقدمة: غلبة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

الم[1]. غُلِبَتِ الرُّومُ[2] (البيزنطيون في حربهم مع فارس)، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (قريبا من المدينة)، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ (سقوطهم مغلوبين) سَيَغْلِبُونَ[3] فِي بِضْعِ سِنِينَ. لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ[4] بِنَصْرِ اللَّهِ (2)، يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[5]. (ذلك) وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ[6]. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[7].

2- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا (قريش) (3) فِي أَنفُسِهِمْ (ألم يفكروا بعقولهم أنه) مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (بنظام) وَأَجَلٍ مُسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ[8]. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا (أهل مكة)، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[9]. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى (مؤنث الأسوء) أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ[10]. اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[11]. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ[12] (يصمتوا بعد أن كانوا يكذبون بوقوعها)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ (يوم القيامة) مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ[13]. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ: يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ[14] (المبعوثون)، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ[15] (في سرور)، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ[16].

2- حسب ما ورد في التقديم (انظر تفاصيل أوفى في التعليق)

3- عن وجه الصلة بين هذه الفقرة والمقدمة. انظر التعليق.

3- فَسُبْحَانَ اللَّه حينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ... من آياته....

فَسُبْحَانَ اللَّهِ (نزهوه) حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ[17]، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ[18] (4). يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ[19] (يوم البعث). وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ[20]! وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[21]. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ[22]. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[23]. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[24]. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (وبدون عمد ولا تتصادم)، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ[25] (من قبوركم). وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[26] (مطيعون). وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ. وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[27]. ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ (وهو): هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (عبيدكم) مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ (في أموالكم) فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (وإياهم) تَخَافُونَهُمْ (تعظمونهم)

4- من المعلوم أنه لم ينزل نص قرآني ظاهر واضح في شأن عدد الصلوات الواجبة في اليوم. في العهد المكي كانت الصلاة ركعتان في الصباح وفي المساء. أما في المدينة فقد صارت خمسا بناء على السنة النبوية. وقد حاول المفسرون التماس آية من القرآن تقرر الصلوات الخمس. وأشهر تلك الآيات هاتين: قال الطبري في تفسيره: اختلف المفسرون في ربط هاتين الآيتين (17-18) بعدد الصلوات: فعن ابن عباس "جمعت هاتان الآيتان مواقيت الصلاة : فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ قال: المغرب والعشاء. وَحِينَ تُصْبِحُونَ: الفجر. وَعَشِيًّا : العصر. وَحِينَ تُظْهِرُونَ: الظهر". وعن قتادة: "فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ لصلاة المغرب، وَحِينَ تُصْبِحُونَ لصلاة الصبح، وَعَشِيًّا لصلاة العصر، وَحِينَ تُظْهِرُونَ صلاة الظهر، أربع صلوات". (لم يذكر صلاة العشاء، أما ابن عباس فقد أدمجها في "حين تمسون مع صلاة المغرب). وعن ابن زيد : "حين تمسون: صلاة المغرب، وحين تصبحون صلاة الصبح، وعشيا صلاة العصر، وحين تظهرون: صلاة الظهر" (لم يذكر صلاة العشاء). أما الرازي فقال: "وقال بعضهم أراد به (بالتسبيح) التنزيه، أي نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال"، وأضاف "وهذا أقوى والمصير إليه أولى"، أي أنه مع هذا الرأي، الذي يفهم من التسبيح في هذا المكان معنى التنزيه، وليس الصلوات.

كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ؟ [5] كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[28] (فكذلك وضعكم مع الله). بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[29].

4- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (قاصدا إياه): (ذلك الدين) فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا[6]، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (المستقيم)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[30]. (كونوا) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[31]، (وهم) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (لكل صنم) وَكَانُوا شِيَعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[32]. وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (راجعين)، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ[33] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ! فَتَمَتَّعُوا، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[34]. أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا (من السماء) فَهُوَ يَتَكَلَّمُ (إليهم) بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ[35]. وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ[36]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يقبض)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[37].

5- فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ..

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ. ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[38]. وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا (ينمو) فِي أَمْوَالِ النَّاسِ (كأن تعطوا اليوم واحدا وتقبضوا مقابله غدا اثنين أو أكثر) فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ (صدقة على الفقراء) تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ[39] (الذين يُضاعَف لهم أضعافا). اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ (الذين تشركونهم مع الله) مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[40]. ظَهَرَ الْفَسَادُ (آثار القرى المهدمة) فِي

5- قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "هل ترضون لأنفسكم – وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد – أن يشارككم بعضهم "فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ" من الأموال وغيرها ما تكونون (=لستم) أنتم وهم فيه على السواء، من غير تفضلة بين حرّ وعبد: فتهابون أن تستبدوا بالتصرف (في تلك الأموال) دونهم ... كما يهاب بعضكم بعضا من الأحرار. فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء"؟

6- دين الفطرة: دين البساطة، الاتجاه إلى الله مباشرة بدون وسائط.

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (عقابا للأقوام التي كذبت رسلها) لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (من ظلم وطغيان. وهذا الفساد الذي قاموا به بقيت آثاره واضحة في القرى المهدمة وقد تركناها ماثلة أمام أنظار قريش ومن مثلهم) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[41] (لعل مشركي مكة بمشاهدة تلك الآثار يرجعون عن كفرهم)[(7)]. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ[42]. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ[43] (يتفرق الناس: بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار). مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ[44] (يهيئون منازل لهم في الجنة). لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[45].

6- وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ (بالمطر)، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[46]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ. فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[47]. اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا (قطعا)، فَتَرَى الْوَدْقَ (المطر) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ. فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[48]. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ[49] (يائسين). فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[50]؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ (الزرع) مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ[51]. فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ[52]. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ[53]. اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ[54]. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ

7- اختلف المفسرون في المقصود بالبحر هنا فقال معظمهم : البر هو الأرض اليابسة الفسيحة كالبادية، والبحر هي الأمصار التي تكون عادة بجانب الأنهار والبحار. كما اختلفوا في تحديد معنى "الفساد" في هذه الآية اختلافا كبيرا، وما قالوه في هذا وذاك لا تبرز منه الصلة بين هذه الآية مع التي قبلها والتي بعدها، وبالتالي فلا سياق يجمع بينها. أما نحن فنرى أن السياق يقتضي الفهم الذي أثبتناه أعلاه.

مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ[55] (يحلفون). وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ، فِي كِتَابِ اللَّهِ[(8)]، إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[56]. فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[57].

7- خاتمة: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ[58] (تأتون بالباطل). كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[59]. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ[60] (حذار أن يؤثروا فيك فتسرع إلى ما لم تقرره بعد. وكان آنذاك على أهبة الهجرة إلى المدينة).

- تعليق

ميزنا في هذه السورة بين سبع فقرات. الأولى : مقدمة تعرضت لهزيمة الروم في معركتهم مع الفرس لتبشر بأنهم -أي الروم- سينتصرون بعد بضع سنين، وحين ذاك سيفرح المؤمنون بنصر الله. وكما ذكرت الروايات فقد كان مشركو مكة يتعاطفون مع الفرس لأنهم مثلهم من غير أهل الكتاب، بينما نصارى الروم والمسلمون أصحاب كتاب.

غير أن ما أغفل المفسرون والرواة ذكره هو أن تعاطف القرآن في هذه الآيات يتجاوز بكثير مجرد التعاطف المفترض بين الفرس ومشركي مكة. ذلك أن من النصارى التابعين للإمبراطورية البيزنطية من كان يتعاطف مع الدعوة المحمدية. فوفد نصارى الشام الذين جاؤوا الرسول عليه السلام ليستمعوا إليه ويتعرفوا على حقيقة دعوته، أظهروا من التعاطف ما أشاد به القرآن؛ ويجب أن لا ننسى النجاشي (ملك الحبشة وهو مع الروم) الذي كان يأوي المسلمين بتوصية من الرسول والذي رفض بقوة تدخل قريش لديه، رغم ما قدموه له من هدايا، من أجل أن يلبي طلبهم طرد المسلمين من بلاده. وهكذا فليس تعاطف السورة مع الروم راجع فقط إلى أنهم "أهل كتاب" بينما الفرس ليسوا كذلك، بل إن هذا التعاطف الذي بلغ درجة اعتبرت فيها السورة انتصار الروم هو أيضا انتصار للمؤمنين المسلمين يرجع إلى ما ذكرناه من الموقف الإيجابي لنصارى الشام وملك الحبشة وكانوا جميعا منضوين تحت

8- أي حسب ما هو مذكور في كتاب الله.

إمبراطورية الروم البيزنطيين. ويجب أن نتذكر كذلك الموقف الإيجابي الذي وقفه لاحقا كل من هرقل الروم ومقوقس الإسكندرية والنجاشي، من رسائل النبي (ص) إليهم إثر صلح الحديبية(9).

جميع هذه المعطيات يجب استحضارها لنفهم الأبعاد العميقة لمقدمة هذه السورة، التي تتسم بطابع مستقل. فهي ليس من المقدمات التي تطرح بصيغة أو أخرى الموضوع المركزي الذي ستتناوله السورة، بل هي من المقدمات المقصودة لذاتها. ولذلك فالعلاقة بينها وبين الفقرات التالية لها عبارة عن خيط رقيق يحتاج من المتدبر لها إلى الإمساك به بقوة وتتبعه بطول نفسه كي يقوده إلى المضمون الذي عبرت عنه المقدمة من خلال الوعد بانتصار الروم في الجولة القادمة. هذا المضمون يقدم نفسه واضحا بينا في الخاتمة. وكما سبق أن قلنا فالخاتمة في سور الذكر الحكيم تستعيد مضمون المقدمة لترتفع به إلى مستوى أعلى. وهكذا نقرأ في الخاتمة: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ58 (تأتون بالباطل). كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ59. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ60 (حذار أن يؤثروا فيك فتسرع إلى ما لم تقرره بعد. وكان آنذاك على أهبة الهجرة إلى المدينة).

وهكذا فالأمثال التي ضربها الله في هذه السورة للمشركين كثيرة، منها بل على رأسها المثل الأول الذي أخبر بهزيمة الروم وفي نفس الوقت بشّـــر بانتصارهم في جولة أخرى بعد بضع سنين. ونحن نرى أن هذا المثل موجه للمسلمين كذلك فهو يعدهم "بعد العسر يسرا": بعد الشدة التي يعانون منها من قريش التي تطاردهم في كل مكان لتمنعهم من الالتحاق بإخوانهم "الأنصار" في يثرب، سيأتي وعد الله الحق، وهو الانتصار على قريش بعد بضع سنين... ثم تتوجه السورة في آخر الخاتمة إلى النبي عليه السلام لتوصيه بعدم التأثر بضغوط قريش وأن لا يستعجل في الهجرة إلى المدينة قبل الوقت المناسب : "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ".

ذلك عن مقدمة السورة وخاتمتها، أما عن الفقرات الأخرى فيمكن التقاط الخيط الرابط بين المقدمة والفقرة الثانية من قوله تعالى، تعليقا على وعده بالنصر للروم بعد بضع سنين : "يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ5. (ذلك) وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ6. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"7. ذلك أن المنتظر أن تكذّب قريش "وعد

9- الجامع بينهم هم انحدارهم جميعا من الأريوسية. راجع التعريف بالقرآن، الفصل الثاني.

الله" هذا، كما كذبت من قبل ما أتى به القرآن. وبما أن القرآن يهتم بالكليات، كليات العقيدية، ويمر مرا سريعا بالجزئيات، مكتفيا بالتلميح فقط إلى هو مؤقت، كالحوادث السياسية، فهو يرد على قريش من خلال الكلي، أي العقيدة، وليس من خلال الجزئي الذي هو فرحها لانتصار الفرس أو تكذيبها لحتمية انتصار الروم. وهكذا جاء موقف القرآن بصيغة الكلي : "لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ[6]. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[7]". ذلك يعني أن قريش عندما تكذب أو تفرح أو تحزن الخ إنما تبني ذلك على ظاهر الأمور: ظاهر الحياة الدنيا التي هي ميدان "الشاهد"، وبالتالي تتجاهل ميدان "الغائب"، والغائب الأكبر في حياة البشر هو "المستقبل" : وهو في القرآن قسمان، قسم في الدنيا، والقسم الآخر هو يوم الحساب!".

هكذا تعود السورة من السياسة إلى العقيدة، فالسياسة هنا أعني "التبشير بانتصار الروم في بضع سنين" ليست من أجل ذاتها، ليست من أجل الاستجابة لتحدي قريش للرسول بالإتيان بالمعجزة والإخبار بالغيب. إن هذه المسألة قد حسمها القرآن في آيات عديدة: ليس من شأن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أن يأتي بمعجزات... كما طالبته بذلك قريش مرارا... القرآن وحده يكفي. والقرآن يدعو المكذبين إلى النظر في الكون ونظامه وبديع صنعه وأطوار حركته ليفهموا ويتأكدوا من صحة العقيدة التي ينشرها: عقيدة التوحيد والحساب. وهي عقيدة أخلاقية: التوحيد من أجل الاطمئنان إلى أن الكون لن يختل نظامه لأنه من تدبير إله واحد لا شريك له ولا منازع، والحساب الذي يؤكد مسؤولية الإنسان على أفعاله ليجازى عليها. والدرس الأكبر الذي تقرر السورة ما بين المقدمة والخاتمة، والذي لا تعيه قريش، لأنها معنية فقط بظاهر الحياة ومتعها، هو أن الله جعل مخلوقاته كلها مبينة على الدورة الزوجية كما سبق أن بينا: سماء وأرض، ليل ونهار، صيف وشتاء، عسر ويسر، حياة فممات، موت فبعث الخ.

في إطار هذه الدورة الزوجية الكبرى تندرج آيات ملازمة لحياة الإنسان الفردية والجماعية ولكن المشركين عنها غافلون : خلقكم من تراب جامد ساكن، ثم ها أنتم بشر تتحركون وتنتشرون. خلق لكم من أنفسكم (من ماء الرجل وماء المرأة) أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة، ميولا عاطفية غريزية للتناسل، ورحمة : محبة الزوجين بعضهم لبعض وللأولاد رحمة لهم. وجعلكم من ألوان وألسنة مختلفة. وجعل منامكم بالليل، أما النهار فهو للعمل والكسب. يريكم البرق ليخوفكم من الصواعق وليجعلكم تطمعون في الغيث. يحي الأرض بعد يبسها. يحييكم ويميتكم. يبدأ الخلق ويعيده وهو أهون عليه، وإذا دعاكم وأمركم بالخروج من قبوركم يوم القيامة

تخرجون. ويضرب لكم الأمثال لعلكم تفقهون: الله مالككم وأنتم عبيده فهل تقبلون أن يشارككم عبيدكم في أموالكم؟ أكيد أنكم لا تقبلون فكيف تستسيغ عقولكم ما تعبدون من شركاء هم من خلق الله: ملائكة وأصناما وشياطين ...

ذلك مجمل خطاب السورة إلى مشركي قريش، وأيضا إلى الذين لم يؤمنوا بعد من أهل القبائل. أما المؤمنون، وقد أصبحوا جماعات وليس مجرد أفراد كما كانوا من قبل، فالخطاب إليهم سيتجاوز تثبيت القلوب على الإيمان والحث على الصبر، كما كان الشأن من قبل، إلى بيان الأسس التي يجب أن تقوم عليها حياتهم الجماعية. والأساس الأول هو الدورة الزوجية الكبرى: الدنيا والآخرة. الدنيا مجال العمل، والآخرة مجال الجزاء. وإذا كان المفسرون وغيرهم من علماء الإسلام يرددون أن الدنيا هي مجدر مطية للآخرة، فهذا في الحقيقة ليس إلا "وجها واحدا من العملة – كما يقال. هناك وجه آخر، لا يقل أهمية عن الأول، وهو أن الآخرة هي من أجل الدنيا أيضا، من أجل حمل الناس على العمل الصالح، خوفا أو طمعا. ليست الآخرة هي الغاية في نهاية الأمر بل الغاية هي العمل الصالح في الدنيا. ومن هنا اقتران العمل الصالح بالإيمان في الإسلام ("الذين آمنوا وعملوا الصالحات").

في هذا الإطار تندرج الأوامر الأخلاقية التي تقررها السورة في الفقرتين الرابعة والخامسة كما فعلت سور سابقة لها، (التزام الدين الحنيف القيم دين الفطرة، إقامة الصلاة، تجنب التفرقة في الدين، إيتاء ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل، تجنب الربا الخ).



88- سورة العنكبوت

- تقديم

رتبت هذه السورة في لوائح ترتيب النزول بين الرتبتين 77 و85. اختلفوا في مكان نزولها: فهي "مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن مَن كان من المسلمين بمكة" (القرطبي). والآيات التي جعلت بعضهم يقول بأنها مدنية ترجع كلها إلى الآية الأولى منها وهي قوله تعالى: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ". قال بعضهم يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ فكتب إليهم إخوانهم المهاجرون إلى المدينة يحثونهم على الهجرة ويخبرونهم أن الآية المذكورة نزلت فيهم، وهذا يعني أنها نزلت بالمدينة. والذين قالوا بمكية هذه الآية قالوا إنها نزلت في أناس في مكة "كانت صدورهم تضيق" لما كانوا يلاقونه من كفار قريش من أذى، "وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفار من المؤمنين، قالوا فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة". ونحن نرجح هذا القول لأن الآيتين (10-11) تشهدان له بالصحة وتصف هؤلاء "المتضايقين من أذى قريش" بـ"المنافقين" [1] أي عبارة عن مسلمين جددا. هذا من جهة ومن أخرى يتفق المفسرون على أن هذه السورة تنتمي إلى أواخر ما نزل في مكة. ونحن نرجح أنها نزلت بعد بيعة العقبة الثانية، أي قبل هجرة النبي بأسابيع محدودة.

ومن الأخبار التي وردت حول بعض آياتها أن قريشا قالوا : "يا محمد! ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا، والأعراب أكثر منا، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختُطِفنا فكنا أكلة رأس، فأنزل الله "أولم يروا أنا

1- وهذه أول مرة يستعمل فيها هذا اللفظ في القرآن -حسب ترتيب النزول. وسيتحدد هذا المفهوم في المدينة بأنهم الذين كانوا يظهرون إسلامهم ويتعاونون مع أعداء الإسلام خفية. ونحن نعتقد أن هذا المفهوم لا ينطبق على من تعنيهم الآية هنا. انظر الهامش الآتي رقم 4

جعلنا حرما آمنا" (الآية 67). والظاهر من السياق أن هذه الآية متصلة بما قبلها وأن إقحام هذه الرواية هنا لا موجب له.

- نص السورة

1- مقدمة: أناس من المسلمين فتنوا ..."

بسم الله الرحمن الرحيم

1- الم[1]. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟[2] (2) ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ[3]. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا (يعجزون الله)؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[4]! مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ (من كان لا يخاف الموت) فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[5].

2- وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ...

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ (من صبر على ما يلاقيه من أذى بسبب إيمانه برسالة محمد، فثواب ذلك يعود إليه وحده) إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ[6] (غير مفتقر في وجوده وكماله إلى عبادة العابد أو غيرها). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ (نغطيها عنهم بالمغفرة) وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[7]. وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا: وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[8] (3). وَالَّذِينَ

---

2 - انظر التقديم.

3 - روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: كنت باراً بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّرُ بي، ويقال يا قاتل أمه! وبقيت يوماً ويوماً، فقلت: يا أماه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت". ونحن نشك في أن تكون هذه الآية مرتبطة بإسلام سعد بن أبي وقاص الذي تم قبل نزول هذه السورة بما لا يقل عن عشر سنين. وهناك رواية ثانية تختصر السابقة ونصها: عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر، والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، فنزلت "ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي" الآية. وهناك رواية ثالثة أقرب إلى ظروف نزول هذه السورة وإلى سياق هذه الآية، هذه الرواية تقول: "نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر. قالت أمه: والله لا يُظِلّني بيت حتى يرجع، فأنزل الله في ذلك أن يُحْسِن إليهما، ولا يطيعهما

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ[9]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ (أذى الناس له في الدنيا) كَعَذَابِ اللَّهِ. وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ[10]. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ[11] (4). وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ(5). وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[12]. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ (ذنوبهم) وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ (وذنوب الذين ظلموهم)، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ[13].

3- مثال من صبر نوح ... وكفاح إبراهيم...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا (6) إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ[14]. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ[15]. وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[16]، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (كذبا)، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[17]. وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى

فـي الشرك" (الطبري). وكان سعد من أوائل الصحابة الذين أمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة قبل التحاقه بهم.

4- هذا المعنى الذي تعطيه هذه الآيات لمفهوم "المنافق" يزكي ما قلناه في الهامش السابق رقم 1. أما معناه الاصطلاحي فلم يظهر إلا في المدينة. قيل في النفاق: "النفاق هو الدخول في الشرع من باب، والخروج عنه من باب"، الراغب الأصفهاني. أو "أن يظهر المرء الإسلام، ويخفي شيئا آخر". وفي الحديث: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان". وبما أن ظاهرة "المنافقين" قد انتشرت بالمدينة، فقد قالوا، هذه الآية نزلت بالمدينة، وهذا ليس بحجة. فلا شيء يمنع أن تظهر الظاهرة بالمعنى الذي تفيده الآية في أواخر العهد المكي حينما كثر الدخول في الإسلام وفتح باب الهجرة إلى المدينة، قبل هجرة الرسول.

5 - هذه الآية تزكي القول بأن الآية السابقة نزلت هي ومثيلاتها في مكة، وأن السورة مكية كلها.

6 - وجه الصلة بين الفقرة السابقة وهذه الفقرة وما يليها هو أنه تعالى لما أخبر أن: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ"، أراد أن يثبت الرسول والذين آمنوا معه بتذكيرهم بما حصل للأنبياء من قبلهم، وكيف أنهم هم والمؤمنون بهم صبروا سنين طويلة على أذى المكذبين، فكان النصر حليفهم في النهاية، والهلاك لخصومهم...

الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"[18]. أَوَلَمْ يَرَوْا (قوم إبراهيم) كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (للبعث)؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ"[19]. (قال الله لإبراهيم) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[20]. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ [(7)]، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ"[21]. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (الله) فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ"[22]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[23]. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ (إبراهيم) إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"[24]. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ"[25]. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[26]. وَوَهَبْنَا لَهُ (لإبراهيم) إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"[27].

4- ومثال آخر من لوط وقومه...

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ، مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ"[28]. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"[29]. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ"[30]. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (ميلاد

7- يقول الزمخشري: "يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ" تعذيبه "وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ" رحمته، ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو ما يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا. بمعنى "يعذب من يشاء من الناس أن يعذبه الله، لأنه اختار الكفر بدل الإيمان. وهو في ذلك يشير إلى آيات من مثل قوله تعالى : "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ".(الكهف 29). أما القرطبي فيقول: "يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله". فالعذاب عدل من الله لأن المعذب يستحقه. أما الرحمة فهي فضل منه تعالى ينزلها على من يشاء. والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في هذه المسألة -وقد سبق أن بينا ذلك- يرجع إلى اختلاف الأصل الذي ينطلق منه كل من الطرفين في هذا الشأن. المعتزلة يقولون: الله لا يفعل القبيح، حرم على نفسه الظلم، ولا يفعل إلا الصلاح من جهة، ومن جهة أخرى: الله وعد المؤمنين بالجنة وأوعد الكافرين بالعذاب، والله لا يخلف وعده كما قال: "وعد الله، لا يخلف الله وعده" (الروم 6). ولا "وعيده"... أما الأشاعرة فيقولون إن الله حر في أن يفعل ما يشاء، أن يعاقب المذنب أو لا يعاقبه...

ابن له سماه يحي)، قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ (قرية لوط) إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ[31]. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا (وهو ابن أخيه ونبي رسول)! قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا! لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[32] (متواطئة مع السابقين). وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ (حزن بسببهم) وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (خوفا عليهم من قومه اللواطين)، وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ، إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[33]. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا (عذابا) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[34]. وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[35].

5- وأمثال من أنبياء آخرين ... وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ...

وَإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ، وَلَا تَعْثَوْا (تفسدوا) فِي الْأَرْضِ (فتكونوا) مُفْسِدِينَ[36]. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الزلزلة الشديدة) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[37]. وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ (إهلاكنا لهم) مِنْ مَسَاكِنِهِمْ (مسكن ثمود الحجر، ومسكن عاد بحضرموت)، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ[38] (يعرفون الحق من الباطل). وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ[39] (أي سبقهم إلى الاستكبار آخرون). فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (ريحا تحمل الحجارة كقوم لوط)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (كقوم ثمود)، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (كقارون)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا (كقوم نوح)، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[40]. مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[41]. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (يعبدون) مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[42]. وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[43]، خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ[44]. اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ[45].(8)

8- وجه ارتباط هذه الآية بما سبق كما يلي: إن كنت حزينا على إصرار قومك على تكذيبك، "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ" ففي قصص الأنبياء مع أقوامهم تثبيت لفؤادك وتسلية لك. أما وجه ارتباطها بالفقرة التالية فهو أن ما تقدم في الفقرات السابقة يخص المشركين من أقوام

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ-46 (9)؛ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (أي وبهذا أنزلنا عليك القرآن) فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) يُؤْمِنُونَ بِهِ (أي بوحدة الإله: إلهنا وإلهكم واحد)، وَمِنْ هَؤُلَاءِ (اليهود والنصارى) مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ (بالكتاب/القرآن)، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا (التي تدل على وجود الله ووحدانيته وعلى البعث الخ) إِلَّا الْكَافِرُونَ-47 (المكذبون من قريش الذين يتهمونك بافتراء القرآن وأخذه ممن يدعون أنهم يعلمونك من الموالي في مكة) (10). (والرد على هؤلاء المكذبين هو:) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ (القرآن) مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ-48 (لو كنت ممن عُرِف عنهم أنهم يقرؤون التوراة وينسخون منها لشك المبطلون من أهل الكتاب". بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (من اليهود والنصارى) وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ-49 (11).

الأنبياء أما "أهل الكتاب" أي اليهود والنصارى الذين يؤمنون بالله فأمرهم يختلف. وبالتالي ينبغي مجادلتهم بالتي هي أحسن، قبل الهجرة وبعدها، "إلا الذين ظلموا منهم". والعلاقة مع هؤلاء ستتحدد حسب مواقفهم من المسلمين في المدينة (وبيانه في القرآن المدني).

9 - ليس من الضروري أن تكون هذه الآية قد نزلت في المدينة كما يقول بعضهم، إذ من الجائز أن تكون قد نزلت في مكة بعد اتصاله عليه السلام بوفود من المدينة كانوا دعاة للإسلام فيها قبل الهجرة، ولا يستبعد أن يكونوا قد طلبوا من الرسول أن يبين لهم كيف التعامل مع اليهود هناك، فنزلت.. .

10- اختلف المفسرون في شرح هذه الآية، وجلهم يفسر قوله تعالى "ومن هؤلاء" بكونه عبد الله بن سلام ومن كان معه ممن يسمون بمسلمة اليهود. وإسلام هؤلاء حدث في المدينة والسورة مكية. فهذا التأويل لا يستقيم. وقد حاول الرازي أن يتجاوز ذلك فقال، بعد أن ذكر ما قيل في هذه الآية من آراء: "وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل... وهو أن نقول : المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء ... لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء، فإن الله ما آتى الكتاب إلا للأنبياء، ونحن (الجابري) نرى أن هذا اللجوء إلى التعميم بهذا الشكل يفقد الآية مضمونها كما أنه يقطع السياق الذي يربطها بما قبلها وما بعدها. والرأي عندنا ما قلناه داخل النص.

11- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية: منهم من جعل الضمير في قوله "بَلْ هُوَ آيَاتٌ" يعود إلى النبي عليه السلام وبالتالي يكون المعنى: "أنزل الله شأن محمد في التوراة والإنجيل لأهل العلم، فهو آية بينة في صدور الذين أوتوا العلم" من اليهود والنصارى. ومنهم من جعل الضمير يعود إلى القرآن، والمعنى: "بل هذا القرآن آيات بينات في صدور=

7- وقالت قريش :"لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ".

وَقَالُوا (قريش) لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ (معجزات) مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ"50. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ51. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ52. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ! وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ53. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ(12) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ54. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ (الملاك الموكل بالعذاب) ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ55.

8- خاتمة: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي56 (13). كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ57. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ58،

الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد" (الطبري). أما نحن فنرى أن الضمير يعود إلى القرآن فهو أقرب مذكور، وهو الذي وصف مرارا وتكرارا بأنه "آيات بينات". أما "الذين أوتوا العلم" فهم في نظرنا أهل الكتاب، ذلك أنهم لا يجحدون أن القرآن آيات بينات، بناء على ما عليه السياق من قوله تعالى قبل ذلك: "فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ".

12- هنا تكرار قوله "يستعجلونك" فكيف نفهمه؟ المفسرون يجعلون "العذاب" في الآيتين واحدا هو عذاب جهنم ثم يلتمسون طريق للتمييز بينهما. أما نحن فنرى أن المقصود بـــ "العذاب" في الآية الأولى هو ما ينتظرونه من حرب المسلمين لهم بعد الهجرة إلى المدينة، والذي أشار إليه تعالى في آخر السورة السابقة بقوله "وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (الروم60)، وأشار إليه في الآية أعلاه بقوله "وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ (الأجل المسمى) بَغْتَةً".

13- إشارة إلى انتشار الإسلام خارج مكة، في يثرب وفي القبائل. وهي أيضا إشارة إلى الهجرة إلى المدينة وقد ورد مثلها في سورة الزمر عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة : "قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر 10). ذكر القرطبي أن هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، في قول مقاتل والكلبي، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب. بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[59]. وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[60] (14). وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ (مشركي قريش الذين كانوا يخوفون المسلمين العازمين على الهجرة إلى المدينة من عاقبة الذهاب إلى بلد لا أهل لم فيها) مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ[61] (يهربون). اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[62]. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[63]. وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ (الحياة الدائمة)(15)، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[64]. فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ[65]! لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[66]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا (بلدهم مكة) حَرَمًا آمِنًا، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (وفي خارجها يسبي بعضهم بعضا)، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ[67]؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مسكنا) لِلْكَافِرِينَ[68] (يستحقونه) ؟ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (في سبيل الله) لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[69].

– تعليق

تناولت هذه السورة ثلاث موضوعات تتعلق كلها بالمرحلة الأخيرة من العهد المكي، وربما بالشهور الأخيرة منه:

الموضوع الأول يتعلق بشكوى بعض المسلمين من المضايقات التي كانت تمارسها عليهم قريش لصدهم عن الهجرة إلى المدينة، ويبدو أن الأمر يتعلق

14- في هذه الآية وفي التي قبلها خطاب ضمني إلى المسلمين الذين كانوا يستعدون للهجرة. إنها تشير إلى مسألة المعاش في المدينة وهم ليسوا من أهلها وليس لهم فيها ممتلكات. ومعلوم أن قريشا كانت تمنع المسلمين من الهجرة إلى المدينة، يؤذون الضعفاء منهم ويحاولون إقناع الآخرين بما سيترتب على مغادرتهم مكة من صعوبات أولها صعوبة العيش في بلد أجنبي لا أهل لهم فيه. وليس من المستبعد أن تكون هذه الآية والتي بعدها ترد عليهم. وقيل: "لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا كيف نقدم بلدا ليست لنا فيه معيشة" فنزلت الآية فيهم".

15- قالوا: لفظ "الحيوان" هنا : "أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة".

بمسلمين جدد "كانت صدورهم تضيق" لما كانوا يلاقونه من كفار قريش من أذى، "وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفار من المؤمنين" الخ، كما ورد في التقديم. وقد عبرت مقدمة السورة عن هذا الأمر بالفتنة، وجاءت الفقرة الثانية لترد على هذه الفتنة بقوة حينما خاطبت الجميع بقوله تعالى: "وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ"[6]، مع وعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن الله سيكفر عن سيئاتهم ويجزيهم بما قاموا به من أعمال صالحة. وفي هذا الإطار جعلت السورة حدا لتدخل الوالدين أو غيرهم في منع المؤمنين عن الهجرة، وكشفت عن نوع جديد من الناس يستحبون الإسلام ولكنهم لا يتحملون ما يترتب عليه من تبعات ومسؤوليات، هذا الصنف الذين أطلق القرآن عليهم اسم "المنافقين" لأول مرة، لأن ظهورهم في هذا الوقت كان لأول مرة. بعد ذلك تأتي الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة لتعيد على أسماع هؤلاء المسلمين الجدد ما سبق أن قصته من قبل سور أخرى من صبر الأنبياء والرسل وكيف أنهم والمؤمنين بهم تحملوا من الأذى ما يفوق ما لقيه أولئك المنافقون، ومع ذلك صبروا حتى جاء النصر. لقد نصر الله رسله وأهلك المكذبين العتاة من أقوامهم.

أما الموضوع الثاني فيتعلق بالكيفية التي يجب أن يتعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب الذين يسكنون المدينة التي أسلم أهلها من غير اليهود ويتوافد عليهم المسلمون للإقامة ونشر الدعوة. وهنا أوضحت السورة أن العلاقة مع أهل الكتاب يجب أن تكون سلمية، علاقة حوار ونقاش، أساسه أن المسلمين يؤمنون بالتوراة والإنجيل وجميع الكتب السماوية وأنها من عند الله تماما كما هو شأن القرآن، وأن ما يجمع بين الرسالات السماوية كلها هو الإيمان بإله واحد : "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ". وبناء عليه فلا يشكك في الذي أنزل على محمد بن عبد الله غير المكذبين للكتب المنزلة كلها. هؤلاء وجد منهم في مكة من كان يواجه النبي عليه السلام بكونه إنما يعلمه أشخاص من أهل الكتاب فأجابتهم السورة بأن هذا افتراء لأن محمدا لم يسبق له أن نقل أو تلقى الكتاب من أحد من هؤلاء، ولو كان يفعل ذلك لعلمه خصوم دعوته الذين لم يقصروا في البحث عما يطعنون به في نبوته، إلا أن قالوا "لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ (معجزات) مِنْ رَبِّهِ"، وقد رد القرآن عليهم مرارا وتكرارا، والآن يرد عليهم بأن القرآن الذي مر على تنزيله الآن أزيد من عشر سنوات كاف للفصل في هذه المسألة: إنه المعجزة، لقد عجزوا عن الإتيان بمثله عندما تحداهم بذلك في سور سابقة: وذلك حين قال: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (يونس

38)، وأيضا: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (هود 13). والآن لم يبق لهم سوى أن يستعجلوه بالعذاب الذي وعدهم به. وهو صنفان: الوعيد بالهزيمة في الدنيا، والوعيد بالمصير إلى جهنم في الآخرة. وتقرر السورة أن عذاب الدنيا (أي انتصار المسلمين عليهم) آت لا محالة، له أجل، وربما سيأتيهم بغتة. والمقصود مفاجأتهم بغزوات بعد الهجرة مباشرة. أما عذاب الآخرة وهو المصير إلى جهنم فهو ليس خاصا بهم بل يشمل الكافرين في كل زمان ومكان، وهي محيطة بهم كمصير لا أحد منهم يفلت منها: "وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" إحاطة أبدية.

بعد ذلك تأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة، فتخاطب الذين اشتكوا من مضايقات مشركي قريش، وترد على محاولة زعماء قريش تثبيط همم الذين كانوا يستعدون للهجرة إلى المدينة. وهذا هو الموضوع الثالث. هنا تؤكد السورة للذين اشتكوا من مضايقات قريش أن باب الهجرة مفتوح وأن أرض الله واسعة، وأنه لا معنى للخوف من ملاحقات قريش، وإذا حدث أن تمكنت من بعض المهاجرين فقتلتهم، فـ"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" والموت معناه الرجوع إلى الله لنيل الجزاء. "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[58]، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[59] . أما ما يهدد به مشركو قريش المهاجرين من الجوع في بلد ليس لهم فيه أهل، والمقصود المدينة، فهو تهديد باطل: "وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ". وقريش يعلمون ذلك جيدا: هم يعترفون بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر لمصلحة الإنسان، ويعلمون أن "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ". هم يعرفون أن الله هو الذي ينزل المطر يحي به "الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا" فتعطيهم الثمار والغلل الخ... وهم يعرفون أن الله هو الذي جعل بلدهم مكة "حَرَمًا آمِنًا" لا ينتهك حرمته أحد بينما "يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ"... يعلمون ذلك وأكثر ولكنهم "بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ"[67]؟ ولذلك كانت جهنم مثوى لهم. أما "الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (في سبيل الله) لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[69].

89- سورة المطففين

- تقديم

وهذه سورة أخرى اختلفوا فيها: بعضهم قال مكية نزلت قبيل الهجرة وآخرون قالوا إنها مدنية. والذين قالوا بمكيتها اعتمدوا على رواية تقول: "إن مشركي قريش كانوا "إذا قدمت العير مكة يأتي أحد من المسلمين السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقتاته، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم في السلعة على قيمتها أضعافاً حتى يرجع الواحد منهم إلى أطفاله وهم يتضوعون من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به، فيغدو التجار على أبي لهب فيربحهم". وأما الذين قالوا إنها مدنية فقد اعتمدوا خبرا جاء فيه: "لما قدم النبي (ص) المدينة كان أهلها من أبخس الناس كيلا، فأنزل الله، "ويل للمطففين" فأحسنوا الكيل بعد ذلك". وفي رواية أخرى: "قدم رسول الله (ص) المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآية". ونحن نرجح مكيتها لأن موضوعاتها مكية كلها بما في ذلك مقدمتها التي وردت في المطففين، والتي يرتبط الجزاء فيها بيوم القيامة، أي بالبعث الذي هو المحور المركزي في السور المكية الأخيرة. هذا فضلا عن أن الرواية الأولى التي تؤكد مكيتها أعلاه. أما لوائح ترتيب النزول فقد اعتبرتها آخر ما نزل من القرآن المكي.

- نص السورة

1- مقدمة: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ... أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ[1] الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ (اشتروا منهم) يَسْتَوْفُونَ (يطلبون الزيادة)[2]، وَإِذَا كَالُوهُمْ (باعوا لهم) أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (ينقصون)[3].

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ[4] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ[5]، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ (من قبورهم) لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[6] (للحساب والجزاء).

2- كتاب الفجار... وكتاب الأبرار.. وشراب الجنة!

كَلَّا، إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ (سجل أعمالهم) لَفِي سِجِّينٍ (كتاب جامع لأعمال المذنبين)[7]. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ[8]! كِتَابٌ مَرْقُومٌ[9] (مختوم). وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[10] الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ[11]، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ[12]؛ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[13]. كَلَّا، بَلْ رَانَ (غلب) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[14] (من الذنوب). كَلَّا، إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ (يوم القيامة) لَمَحْجُوبُونَ[15] (بينه وبينهم حجاب). ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا (ملقون في) الْجَحِيمِ[16]. ثُمَّ يُقَالُ (لهم) هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ[17]. كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ (المؤمنين الصادقين) لَفِي عِلِّيِّينَ[18]. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ[19]! كِتَابٌ مَرْقُومٌ[20]، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ[21] (من الملائكة). إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ[22]، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[23]: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ[24]، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ (خمر طاهرة) مَخْتُومٍ[25]، خِتَامُهُ مِسْكٌ (آخر شربة منه يفوح منها المسك)، -وَفِي ذَلِكَ (من أجل الحصول على هذا النعيم) فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ[26]- وَمِزَاجُهُ (ذلك الرحيق) مِنْ (عين) تَسْنِيمٍ[27](تصب من أعلى: من سنم الشيء أعلاه) عَيْنًا يَشْرَبُ (يلتذ) بِهَا الْمُقَرَّبُونَ[28].

3- المؤمنون والكفار في الدنيا وفي الآخرة

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا (في الدنيا) مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ[29]. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ[30] (عليهم)، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ[31] (ضاحكين)، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ (المؤمنين) لَضَالُّونَ[32]. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ[33] (مراقبين لهم حتى يحكموا عليهم بالضلال)! فَالْيَوْمَ (يوم القيامة)، الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ[34]، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[35]: هَلْ ثُوِّبَ (جوزي) الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[36].

- تعليق

لعل أهم قضية عقائدية تكلم فيها المفسرون في هذه السورة قضية "الحجاب" في قوله تعالى عن المشركين يوم القيامة : "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ"[15]،

فقد اختلفوا في معنى الحجاب، واتخذ الخلاف في هذه المسألة طابعا مذهبيا بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم. يتعلق الأمر بمسألة من أهم مسائل علم الكلام في الإسلام، مسألة الرؤية. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الخلاف في القسم الأول من هذا الكتاب (انظر سورة القيامة، التعليق)، كما عرجنا عليها في سورة الشورى (التعليق) في هذا القسم من الكتاب ضمن قضايا كلامية أخرى، ومن أجل إحاطة أوسع بالموضوع ننقل هنا ما كتبه الرازي حول رأي كل من أصحابه الأشاعرة وخصومهم المعتزلة. قال: "احتج الأصحاب (أصحابه وهم الأشاعرة، احتجوا ضدا على المعتزلة) على أن المؤمنين يرونه سبحانه (في الآخرة)، قالوا: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة (أي تخصيص المشركين بكونهم محجوبين). وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمن.

ويضيف الرازي: "أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه أحدها: قال الجبائي: المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون أي ممنوعون، كما يقال في الفرائض (في الميراث): الإخوة يحجبون الأم على الثلث؛ ومن ذلك يقال لمن يَمنَع عن الدخول، هو حاجب، لأنه يمنع من رؤيته. وثانيها: قال أبو مسلم: "لَمَحْجُوبُونَ" أي غير مقربين، والحجاب الرد، وهو ضد القبول. والمعني: هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله وهو المراد من قوله تعالى: " وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (آل عمران 77). وثالثها: قال القاضي: الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية، فإنه قد يقال: حجب فلان عن الأمير، وإن كان قد رآه من البعد، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن وجدان رحمته تعالى. ورابعها: قال صاحب «الكشاف» (الزمخشري): كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم.

"والجواب (على ما نسبه الرازي إلى المعتزلة أن يقال من وجهة نظر الأشاعرة): لا شك أن من منع من رؤية شيء يقال: إنه حجب عنه، وأيضاً من منع من الدخول على الأمير يقال: إنه حجب عنه، وأيضاً يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة في مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعاً للاشتراك في اللفظ، وذلك هو المنع. ففي الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية، وفي الثانية حصل المنع من الوصول إلى قربه، وفي الثالثة: حصل المنع من استحقاق الثلث، فيصير تقدير الآية: كلا إنهم عن ربهم يومئذ لممنوعون،

والمنع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى، وهو إما العلم وإما الرؤية، ولا يمكن حمله على العلم، لأنه ثابت بالاتفاق الكفار، فوجب حمله على الرؤية. أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، وكذا ما قاله صاحب «الكشاف» (هو) ترك للظاهر من غير دليل! ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين، قال مقاتل: معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب، لا يرون ربهم، والمؤمنون يرون ربهم. وقال الكلبي: يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه. وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية، فقال: لما حَجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه. وعن الشافعي لما حَجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا".

قلت (الجابري): والذي جعل المعتزلة يقولون بعدم إمكانية رؤية الله يوم القيامة هو تمسكهم بأصلهم في "التوحيد"، بمعنى تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته، ومخلوقاته البشرية إنما يرون ما هو جسماني ومحسوس، والله منزله عن هذا، ولذلك وجب عندهم تأويل كل ما يرد في القرآن عن الله ويفيد التشبيه والتجسيم، كما فعلوا هنا بالنسبة لقوله تعالى عن كون المشركين سيكونون محجوبين عن الله. فبمقتضى أصلهم أن الله ليس بجسم، وإذن فليس موضوعا لرؤية أحد من البشر، مؤمنا كان أو غير مؤمن، وفاقا مع قوله تعالى: "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" (الأنعام 103)، وعلى هذا الأساس صرف المعتزلة لفظ "محجوبون"، أي الكفار، إلى رحمة الله وما في معنى هذا، فقالوا: "هم محجوبون وممنوعون ومردودون عن رحمة الله ولطفه".

90- سورة الحج

- تقديم

هذه السورة موضوع اختلاف كبير: هل هي مكية أم مدنية؟ والقائلون إنها مكية استثنوا منها آيات قالوا إنها نزلت بمناسبة وقائع حدثت في المدينة، وهكذا عد فيها بعضهم أربع آيات مدنية وبعضهم جعلها خمسا، بينما قلب آخرون الوضع تماما فقالوا إن السورة مدنية كلها ما عدا أربع آيات ...؟ والذين يجنحون عادة إلى الجمع بين الروايات يقولون هي مكية/مدنية بلا تعيين، ونحن قد رجحنا مكيتها -أو الجانب المكي فيها- لورود آيات "الإذن بالهجرة والقتال" فيها، وهذا لا يستقيم إلا إذا قلنا بمكيتها، وسنرى أنه ليس فيها ما ينافي كونها كذلك. أما وقت نزولها فالغالب أنه كان في ظروف الحج أي في أول السنة الرابعة عشرة للنبوة، الأولى للهجرة، باعتبار أن هجرة النبي عليه السلام كانت في صفر أو أول ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة للنبوة وهي الأولى للهجرة، فيكون بينها وبين الهجرة بضعة أسابيع فقط. وهناك من قال إنها نزلت أثناء هجرته عليه السلام، أي في الطريق من مكة إلى المدينة. وبذلك يصير من المحتمل جدا أن تكون هذه السورة آخر ما نزل، وسنلاحظ في بعض آياتها ما يزكي هذا الاحتمال. هذا ولا علاقة بين اسم هذه السورة وكونها تتحدث عن الحج وبين فريضة الحج (على من "استطاع إليه سبيلا") بوصفها ركنا من أركان الإسلام، ذلك أن الحج إنما فرض في المدينة (سورة البقرة سورة آل عمران). ومعلوم أن الحج كان يمارس قبل ظهور الإسلام بأحقاب، والآية 27 من هذه السورة تجعل بدايته منذ إبراهيم عليه السلام).

- نص السورة

1- إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ (قيام) السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ[1]، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ[2].

2- السَّاعَةَ آتِيَةٌ ... ومخطئ من يظن أن الله لن ينصر محمدا.

أ- وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ[7]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ (فيشكك في البعث) وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ[3]. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ (من تولى الشيطان) فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ[4]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ (فدليل وقوعه أنكم لم تكونوا موجودين فخلقكم:) فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ (كلكم من أب واحد هو آدم خلقناه) مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ (مني) ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ (دم جامد) ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ (لحمة صغيرة قدر ما يمضغ) مُخَلَّقَةٍ (قد بدأ تصويرها) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (لم تصور بعد)، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ (أطوار خلقنا لكم في الأرحام)، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ (ذكرا أو أنثى) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (وقت ميلاده)، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ (الشيخوخة) لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا. (ومن أدلة وقوع البعث:) وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً (يابسة)، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ (تحركت) وَرَبَتْ (نمت) وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ[5] (كما ينبت النبات من جديد يبعثكم من جديد). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[6]، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ[7].

ب- من الناس من يجادل في الله، ومنهم من يعبد الله على حرف...

وَمِنَ النَّاسِ [(1)] مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ[8]، ثَانِيَ عِطْفِهِ (مشمر عن ساعده) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ[9]، (يقال له حينئذ:) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[10] . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ (على وجه واحد): فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ[2]. خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[11]. يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ[12]. يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ! لَبِئْسَ الْمَوْلَى

1- ذكر أنه عُني بهذه الآية والتي بعدها النضر بن الحارث من بني عبد الدار". وقد ذكرناه مرارا وكان من ألد خصوم الدعوة المحمدية، يناقضها بأساطير من أدبيات الفرس، ويقوم بدعوة مضادة للعقيدة الإسلامية في الأسواق.

2- هذا ينطبق على من ذكرتهم سورة العنكبوت وسمتهم بالمنافقين: الآيتان 10-11.

وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ[13] (المعاشر). إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[14].

<u>ج- من كان يظن أن الله لن ينصر محمدا فظنه باطل تماما...</u>

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ (يعني محمدا) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ (بحبل يصعد به) إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ (النصر الموعود)، فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ[15] (ما يغيظه ويقلقه).

3- تعدد الأديان واقع دنيوي: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ (القرآن) آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ[16]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا (اليهود)، وَالصَّابِئِينَ (يتخذون النجوم وسائط إلى الله)، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ (القائلين بمبدأين: النار والظلمة)، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (مشركي مكة)، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[17]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ [(3)]، وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ (يعبدونه فمصيرهم في الجنة)، وَكَثِيرٌ (لا يعبدونه وقد) حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[18]. هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا (وهم الخصم الأول) قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ الْحَمِيمُ[19]، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ[20]، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ[21](كالتي في لجام الفرس الجموح): كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ[22]. إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (وهم الخصم المقابل

3- الطبري: "وسجود ذلك: ظلاله حين تطلع عليه الشمس وحين تزول إذا تحول ظلّ كل شيء فهو سجوده". قلت (الجابري) والمقصود من هذا إبراز كون تعدد الديانات (إسلام، يهودية نصرانية صابئة، مجوس، وثنية (الشرك) ظاهرة طبيعية، كل يطلب الله على طريقة خاصة، كل يدعي أنه على حق: "إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". وهذا اعتراف بهذه الديانات كواقع، أما مسألة الصحة والخطأ، فمتروكة لله. أما التعامل مع هذه الديانات والاعتراف بها فسيتم الفصل فيه في آية أخرى. سيكون ذلك في المدينة حيث سنقرأ في سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة 62) وسيستمر هذا الموقف وسيتأكد في آخر سورة نزلت "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (التوبة 69). وهكذا سيكون الاعتراف بالديانات الأخرى مشروطا ليس بالإيمان بالله فحسب، بل وبالعمل الصالح أيضا...

للأول) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ[23]. وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ[24].

4- الحج وشعائره منذ إبراهيم ...

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (4) الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ، سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ (المقيم) وَالْبَادِ (القادم من خارج)، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ (بشرك) نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[25]. و(اذكر) إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ (جعلناه له مكانا يرجع إليه للعبادة) : أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[26]. وَأَذِّنْ (يا إبراهيم) فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (راجلين)، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ (من الإبل) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[27](مكان بعيد)، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (التجارة) وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ، عَلَى (ذبح) مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ[28]. ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ (5) وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ (ما نذروه من أعمل الخير) وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[29] (الكعبة). ذَلِكَ (6)، وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ (شعائر الحج) فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأُحِلَّتْ لَكُمْ (للمسلمين) الْأَنْعَامُ (أن تأكلوها) إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ (ما حرم عليكم في القرآن مما ذكر في سور أخرى)[7] فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ (الأصنام)

---

4 - هذا دليل على أن السورة مكية، لأن الخطاب موجه هنا إلى قريش ويتوعدها إن هي استمرت في احتكار بيت الله الحرام الذي يجب أن يبقى مفتوحا دائما في وجه المقيم في مكة والقادم من خارجها، والمقصود هنا هم المسلمون من أهل القبائل وأهل يثرب الخ. ولا شيء في الآية يشير إلى ما يقوله بعض المفسرين من أن المقصود هو صد قريش للنبي عندما ذهب من المدينة قاصدا مكة للعمرة، الشيء الذي انتهى بمعاهدة الحديبية، بل إن صياغة المضارع "يصدون" تدل على استمرار الحال. يؤيد هذا المعنى ذكره للعاكف فيه والبادي، هذا فضلا عن السياق ككل وما سيأتي مباشرة من التذكير بأن الكعبة هي خاصة بذرية إبراهيم الذين سماهم مسلمين، أما المشركون فغير مسموح لهم ممارسة الشرك فيها، أي عبادة الأصنام، وسينالون العقاب الأليم... ومن القرائن التي تؤكد ذلك التذكير بخطاب الله إلى إبراهيم : "وَأَذِّنْ (يا إبراهيم)(4) في النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (راجلين)، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ (من الإبل) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[27] (مكان بعيد)، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (التجارة) وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ" ...

5 – التفث: حلق الرأس، ونتف الإبط، وقص الأظفار... ، ورمي الجمار وهي من شعائر الحج.

6- قال الزمخشري: "ذلك" : خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا، وقد كان كذا". وعلى هذا فما تقدم كان خطابا لإبراهيم أو في معنى الخطاب له. أما ما سيأتي فهو بيان عام للمسلمين في كل زمان.

7- وقع التنصيص من قبل على محرمات من الطعام والشراب خاصة في سورتي الأنعام والنحل، وسيرد ذكر أخرى في القرآن المدني.

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ[30]، حُنَفَاءَ (مستقيمين) لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ (سقط) مِنَ السَّمَاءِ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ[31]. ذَلِكَ، وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ (المتعلقة بالذبائح في الحج) فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ[32]، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ (كالركوب) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (حين تنحر ويتصدق بلحمها)، ثُمَّ مَحِلُّهَا (المكان الذي يحل فيه نحرها) إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ[33]. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا (ذبائح، قرابين) لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَلَهُ أَسْلِمُوا، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ[34] (المطيعين)، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[35]. وَالْبُدْنَ (ج. بدنة. ناقة أو بقرة تُنحرُ بمكة تستحسن وتستسمن) جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، صَوَافَّ (تذبح قائمة على ثلاث، معقولة اليد الرجل اليسرى)، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا (سقطت إلى الأرض ميتة بعد نحرها) فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ (بما يعطى له) وَالْمُعْتَرَّ (الذي يسأل الزيادة). كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[36]. لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ. كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ. وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ[37].

5- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ...

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ (غادر) كَفُورٍ[38] (يقتل غدرا) (8). أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (أن يقاتلوا) بِأَنَّهُمْ (بسبب أنهم) ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[39] (9). الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ(10)! وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

8- قال مقاتل في معنى هذه الآية: إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة، هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي (ص) في قتلهم سرا فنهاهم. وقال الطبري: "إن الله يدفع غائلة المشركين عن الذين آمنوا بالله وبرسوله، إن الله لا يحبّ كل خوان: يخون الله فيخالف أمره ونهيه ويعصيه ويطيع الشيطان. "كفور": جحود لنعمه عنده، لا يعرف لمنعمها حقه فيشكره عليها". وأضاف: "وقيل: إنه عني بذلك دفع الله كفار قريش عمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قبل هجرتهم". والسياق يؤيد هذا المعنى خصوصا قوله بعد هذه الآية: " الذين (أخرجوا من ديارهم) إنْ مكناهُمْ فِي الْأَرْضِ"، وهذا قبل هجرة النبي (ص) وتأسيسه الدولة. أنظر التعليق.

9 – هذه أول آية ورد فيها الترخيص بالقتال "بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية" (الزمخشري).

10- كان جل من أسلم قد هاجروا إلى المدينة ولم يبق في مكة إلا الرسول وبضعة أفراد.

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (11)، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[40]. (هؤلاء) الَّذِينَ (أخرجوا من ديارهم) إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ (في المدينة) أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[41].

6- وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ...

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ (12) فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ[42]، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ[43]، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ (أخرت عنهم العقوبة)، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ (فعاقبتهم) فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[44]. فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ، فَهِيَ (اليوم) خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ[45] (إشارة إلى آثار عاد وثمود: الحجر). أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ (عقول) يَعْقِلُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[46]. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ(13)، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ[47] (فاصبروا ولا تقنطوا). وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا (أخرت عقابها) وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا (فعاقبتها)، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ[48].

7- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ...

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ[49]، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[50]، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[51]. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (14) إِلَّا إِذَا تَمَنَّى

---

11 – دفع الله بعض الناس ببعض: بمعنى الترخيص برد الفعل والدفاع عن النفس بكل الوسائل، الذي لولا هذا الترخيص لهدمت صوامع وبيع ومساجد الخ لعدم توقع حصول ردود الفعل. والصيغة على العموم. ويفهم من هذا أن الأصل هو منع رد الفعل بالقتل إلا إذا كانت هناك رخصة من قبيل ما نكر يضاف إليه الدفاع عن الوطن وحماية الثغور الخ.

12 – والمعنى: وإن يكذبوا في وعد الله لك بالنصر فقد كذبت أمم رسلهم فنصر الله رسله، وإذن فلا تتأثر باستعجالهم إياك بالعذاب لهم والنصر لك، فتهاجر، ادع المؤمنين إلى الإسراع بالهجرة وانتظر أنت.

13– العذاب هنا ليس عذاب الآخرة وحده، بل عذاب الدنيا أيضا عند قتال المسلمين لهم. والتنكير في الآية التالية بقرى أهلك الله أهلها في الدنيا يشير إلى ذلك.

14 – اختلفوا في الفرق بين الرسول والنبي. وساد القول: "الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانا. والنبيّ الذي تكون نبوته إلهاما أو مناما؛ فكل رسول نبيٌّ وليس كل نبيّ= رسولا". لكن هذه الآية "وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ" تفيد أن الأنبياء مرسلون أيضا. قال بعضهم : "إن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين". وذهب آخرون "إلى أنه لا

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[52] (15). لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ[53]. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ (تخشع)، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[54]. وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ (شك) مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ[55]. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[56]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[57]. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا. وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[58]؛ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ[59]. ذَلِكَ، وَمَنْ عَاقَبَ (جازى) بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ (اعتدي عليه به) ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ (ثانية) لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ (بمعنى ليصبر حتى يأتي نصر الله). إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ[60] (وأيضا يجب العفو من المؤمنين). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[61] (16). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[62]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[63]. لَهُ

يجوز أن يقال نبيّ حتى يكون مرسلاً. ولأن معنى نبي: "أنبأ عن الله عز وجل ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه".

15- ربط بعض المفسرين هذه الآية بقصة الغرانيق، ونحن على خلاف مع هذا الرأي. انظر رأينا في التعليق الذي كتبناه في سورة النجم رقم 22 . القسم الأول من هذا الكتاب. هذا وقد يكفي أن يربط المرء هذه الآية بالتي قبلها التي تتحدث عن "الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ"، ليتبين أن موضوع التمني لا علاقة له بقصة الغرانيق. انظر التعليق في آخر هذه السورة.

16- وذلك وفقا مع قوله تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" (الشورى: 40). تشير الآية أعلاه إلى أناس كانوا بصدد الهجرة إلى المدينة قبيل هجرة النبي عليه السلام، فاعترضتهم قريش واعتدت عليهم، فردوا عليهم بمثل ما اعتدي بهم عليهم، ثم زادت قريش فبغت عليهم. والمطلوب منهم في هذه الحالة أن ينصرفوا إلى مقصودهم (المدينة)، لأن الرد على بغي قريش مرة ثانية سيدخل المؤمنين في مسلسل الثأر والثأر للثأر، فيشغلهم ذلك عن هدفهم وهو الهجرة إلى المدينة للاستعداد لمقاتلة قريش مقاتلة الند للند. ولكن ذلك لا يعني أن الله لن يقتص منهم، بل سيمكن المسلمين منهم بعد الهجرة: فما نقص من حق المسلمين في مكة سيعوضون عنه في المدينة، تماما كما قال الطبري في معنى الآية : يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا: والعكس بالعكس. "وبالقدرة التي يفعل ذلك ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم". والمعنى: إن حساب الربح والخسارة في الصراع مع قريش يجب أن يكون بنظرة شمولية، فما نقص من حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم في مكة سيضاف إلى ما سيحصلون عليه من النصر في المدينة.

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[64]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[65]. وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ[66] (17).

8- لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا (أي طريقة ومنهاجا) (18) هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ (أي قريش) فِي الْأَمْرِ (في شرعتك ومنهاجا)(19)، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ[67]. وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ[68]. اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[69]. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[70]. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ[71]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ (الإنكار والغيظ)، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا. قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ: النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[72]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ. ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ[73]. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[74]. اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا، وَمِنَ النَّاسِ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[75]. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[76]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[77].

9- خاتمة: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ...

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ (بأفعال الخير) هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.

17- كل هذا يصدق عليه قول الطبري أعلاه

18- في لسان العرب: "المَنْسِكُ: شِرْعة النَّسُك. نَسَكَ الرجلُ إلى طريقة جميلة أي داوم عليها".

19 – روي أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر النبائح، وقولهم للمؤمنين: تأكلون ما نبحتم ولا تأكلون ما نبح الله من الميتة، فكان ما قتلَ الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم.

فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[78].

- تعليق

لاشك أن القارئ قد لاحظ معنا أن هذه السورة تشتمل على عدد من العلامات التي تؤكد مكيتها، وأن الآيات التي يصنفها بعض المفسرين مع القرآن المدني تقبل الانضواء تحت راية القرآن المكي خصوصا مع آخر مراحله.

الموضوعات التي تناولتها هذه السورة هي التالية:

1- تناولت الفقرة الأولى (المقدمة) والثانية مسألة البعث، وهي المحور المركزي الذي ظل حاضرا في جميع سور هذه المرحلة. تنطلق السورة من الإشارة إلى هول قيام الساعة، "يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"[2]. بعد الإعلان عن هذا المشهد المهول الذي يخاطب الخيال تنتقل السورة إلى البرهنة بخطاب عقلي على دفع شك المجادلين في حدوثه، فتأخذ في تفصيل أهم مظهر من مظاهر المشهد الذي قدمته: فالمرضعة التي تذهل عما أرضعت، كالحامل التي تسقط حملها تحت وقع صرخة القيامة، تمثلان طورا من الأطوار التي حددها الله لحياة الإنسان: والذين يشكون في البعث يجب عليهم أن لا ينظروا إليه كواقعة منفصلة لا أصل لها ولا فصل، بل يجب النظر إليه كحلقة في سلسلة: سلسلة ابتدأها الله بخلق آدم من تراب، ومن آدم وزوجه تسلسل خلق ذريته من نطفة ذكر تمنى في فرج امرأة، فتتحول النطفة إلى دم جامد يعلق برحمها فهو علقة، ويزداد حجم العلقة فيصير بقدر مضغة، ثم تأخذ هذه المضغة صورة إنسان، فيجعله الله ذكرا أو أنثى، وبعد مضي أجل معين، تضع الحامل حملها وترضعه، فيصير طِفْلًا، ثُمَّ شابا فشيخا،" مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ". ومثل هذه الأطوار مثل الأرض ترونها يابسة هامدة لا حركة فيها فإذا أنزل الله المطر عَلَيْهَا "اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[5]. فعلام يدل ذلك كله: إنه يدل على أن الخالق الحق هو الله، وأنه "يُحْيِ الْمَوْتَى" عند البعث "وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا" لأنها حلقة في نفس السلسلة؛ والبعث معناه : الحساب والجزاء.

هناك من الناس من يجادل ويشكك في وجود الله أو في قدرته على بعث الموتى مجندا نفسه لصد الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر، هذا الصنف من الناس سيكون جزاؤه خزي في الدنيا وعذاب بالنار يوم القيامة. وهناك صنف آخر من الناس "يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ": على وجه واحد. "فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ[20] (راجعا إلى ما كان يعبد من قبل) "يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ". هؤلاء وأولئك خسروا الدنيا والآخرة فجزاؤهم جهنم. أما الذي آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات فجزاؤهم الجنة. وإذا كان بعض الناس يظنون أن محمدا سيفشل وسينهزم وأن وعد الله له بالنصر لن يتحقق فليعلموا أن نصر الله له أمر حتمي، وأنه مكتوب في السماء. فإذا أرادوا منع هذا النصر فليبحثوا عن وسيلة أو حيلة تمكنهم من الصعود إلى السماء ليقطعوا حبل النصر عنه، ولينظروا هل سيريحهم ذلك مما يغيظهم!

بعد أن تحدثت السورة عن موقف صنف من الناس (قريش) من الإيمان بالله واليوم الآخر وأكدت أن النصر عليهم مكتوب له عليه السلام انتقلت إلى تصنيف البشر جميعا حسب دياناتهم. وهكذا فبعد أن أكدت أن القرآن جاء بآيات بينات تخاطب الناس جميعا وأن الله يهدي به من يريد (الهداية) انتقلت إلى بيان أصناف البشر من زاوية الدين: الذين آمنوا بالقرآن، واليهود، والصابئين، والنصارى، والمجوس، والمشركين [21]، فأخبرت بأن الله يفصل بينهم يوم القيامة. وبعد أن أكدت السورة "أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"، كل حسب خلقته وطريقته، عادت إلى أصحاب الديانات لتميز فيهم بين خصمين "اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" : فَالَّذِينَ كَفَرُوا به مصيرهم جهنم، أما الذين آمنوا به وعملوا الصالحات فموعدهم الجنة.

وتأتي الفقرة التالية (الرابعة) لتوضح المقصود بهذين الخصمين في الظرف الذي نزلت فيه السورة: فالذين كفروا هم الذين "يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" ويمنعون المؤمنين من أداء شعائر دينهم في "الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" الذي جعله الله قبلة للناس للعبادة، سواء منهم المقيم في مكة أو القادم إليها. أما من يريد ممارسة الشرك فيه، كعبادة الأصنام، فعقابه العذاب الأليم. ذلك أن هذا البيت قد جعله الله في الأصل لإبراهيم مكانا خاصا بعبادة الله لا يمارس فيه الشرك، يأتيه الناس لهذا الغرض من كل مكان. ثم تعرض السورة لشعائر الحج كما توارثها العرب منذ جدهم إبراهيم.

وتأتي الفقرة الخامسة لتأذن للذين آمنوا بالدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الخصم الذي يصدهم عن دينهم ويمارس عليهم صنوفا من المضايقات، ليس منعهم من أداء شعائرهم في المسجد الحرام إلا مظهرا واحدا منها. إنهم يعتدون عليهم ويطاردونهم

20- هذا ينطبق على من ذكرتهم سورة العنكبوت وسمتهم بالمنافقين: الآيتان 10-11.

21- واضح أن هذا التصنيف يضم الديانات التي كانت في الجزيرة العربية وحدها أو في علاقة مباشرة معها كالمجوس في فارس الذين كانت إمرة الحيرة تحت نفوذهم. أما الديانات الأخرى مثل البوذية والكونفوشية وغيرهما فلم تأت الآية على ذكرها، لأنها لم تكن تدخل في أية علاقة مع الإسلام، وإن كان كثير من هذه الديانات يمكن إدخالها مع صنف المشركين.

ويصدونهم عن الالتحاق بإخوانهم المهاجرين إلى المدينة. من قبل كان الله يدافع عنهم (عن الذين آمنوا) بالقرآن ويحثهم على الصبر ويعدهم بالنصر، ولأنهم كانوا أقلية، ولم يكن في إمكانهم قتال الكفار وجها لوجها فقد منعهم من الرد بأساليب غير مشروعة كالاغتيالات وغيرها "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ (غادر) كَفُورٍ[38] (يقتل غدرا). أما الآن وقد كثر عدد المؤمنين وأصبح لهم أنصار في يثرب واتسعت الأرض أمام الإسلام فإن الله يأذن لهم في القتال، مدافعين عن النفس، محاربين واضحين لخصم واضح : "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (أن يقاتلوا) بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[39] . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ"! [(22)] . بعد تأكيد نصر الله للمسلمين المهاجرين عندما يحين الدفاع عن أنفسهم بالقتال والمواجهة الصريحة، تطلب السورة من الرسول أن لا يتأثر باستهزاء قريش وتحديهم له أن يبادر فيريهم الهزيمة التي سيلحقها بهم والعذاب الذي يعدهم به: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ"[47]. لا تستعجل بالهجرة ولا تقس زمان الوعد الإلهي بالزمان البشري. اصبر حتى يأتيك الأمر بالهجرة، وتقوم بما يلزم من الإعداد للحرب بينك وبين مشركي مكة، وما يقتضيه الأمر من مواصلة الحرب حتى يكتمل لك النصر، ليس فقط في بدر بل بفتح مكة. لأن الصراع الذي تتحدث عنه هذه الآيات ليس من أجل نصر في معركة بل من أجل النصر النهائي الذي ضربت له مثلا بتجارب الأنبياء السابقين.

نأتي الآن إلى الفقرة السابعة، إلى آية ذهب جميع المفسرين في تفسيرها مذاهب تبتعد عن سياق الآيات السابقة تماما، لتعود إلى قصة مشكوك فيها يؤرخون لها بالسنة الخامسة للنبوة، وهي المعروفة بقصة "الغرانيق". ونحن نرى أن موضوع السورة وسياقها العام والسياقات الخاصة فيها لا تسمح بهذه القفزة إلى الوراء. إن سورة النجم التي نزلت حوالي السنة الخامسة للهجرة والتي ذكرت فيها "اللات

---

22 – قال القرطبي: رُوي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل مَن أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله «كفور». فوعد فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر. وسيأتي في «الأنفال» التشديد في الغدر؛ وأنه: «يُنصب للغادر لواء عند أسته بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان».
ونحن نرى أنه ليس من الضروري ربط مضمون الآية بقلة المؤمنين بعد الهجرة إلى الحبشة، فقد مر على تلك الهجرة سبع سنوات، فنحن الآن في زمن هجرة المسلمين إلى المدينة ومحاولة قريش صدهم عنها، فلا ضرورة للجمع بين الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة كانت من أجل النجاة، كانت لجوءا، أما الهجرة إلى المدينة فقد كانت من أجل الإعداد للمعركة الفاصلة، من أجل تنفيذ ما تم النص عليه في بيعة العقبة التي كانت كما قدمنا "بيعة الحرب". وهكذا فما قاله القرطبي أعلاه يجب أن ينصرف إلى "الحاضر والمستقبل، إلى الهجرة إلى المدينة، وليس إلى الماضي: الهجرة إلى الحبشة.

والعزى ومناة" والتي يحتمل سياقها الظاهري ما ذكروه من وصفها بكون "شفاعتهم لترتجى..."، إن سورة النجم هذه قد ردت هي نفسها على كون قريش كانت ترتجي شفاعتها وأكثر من ذلك وصفت اللات والعزى ومناة بكونها مجرد أسماء ورثتها قريش عن آبائهم وأنها مجرد تماثيل لا تسمع ولا ترى ولاتشفع الخ [23].

أقول لا معنى للقفز من سياق السورة التي نحن ضيوف عليها ومن ظروف نزولها والمجال الذي تتحرك فيه، إلى قصة الغرانيق المزعومة. إن "آية التمني" [24] في هذه السورة تقع في فقرة تبدأ بمخاطبة العرب، أهل القبائل، وليس قريش وحدها: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ". ثم تميز الذين استجابوا وآمنوا وعملوا الصالحات وسيكون جزاؤهم "مغفرة ورزق كريم"، في الدنيا والآخرة، من الذين رفضوا الاستجابة وتحدوا الرسول بمطالبته بمعجزات من جنس معجزات الرسل السابقين (موسى وعيسى...)، هؤلاء هم "أَصْحَابُ الْجَحِيمِ". وقد واجه هؤلاء الرسل من قبل مثل هذه التحدي والتعجيز، وجميع الرسل والأنبياء قد حدث لهم ما يحدث للبشر فوقعوا تحت ضغط مثل هذه المطالب التعجيزية من أقوامهم، وقد يحدث أن يتمنوا معجزات أو أن يطلبوا من الله قسر أقوامهم على الإيمان، أو يَعِدوا بذلك أنصارهم فتتأخر الاستجابة كما حدث للرسول محمد عليه السلام حين سألته قريش عن أهل الكهف وذي القرنين (انظر سورة الكهف).

لقد ذهب المفسرون في شأن هذه الآية مذاهب شتى فابتعدوا عن السياق كعادتهم في مثل هذه المشكلات. والسياق يبدأ من أول الفقرة الثانية وبالخصوص قوله تعالى: "وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"51 أي الذين تحدوا الرسول أن يأتي بآيات معجزات كمعجزات موسى وعيسى أو يحول صخرة الصفا ذهبا، أو يدفع الجبال لتتسع أرض مكة الخ، إن هذا التحدي الذي تعرض لمثله الأنبياء والرسل جميعا، قد يحدث أن يحمل الرسول أو النبي على أن يتمنى مثل هذه المعجزات تحت تأثير الرغبة في إسكات الخصم أو بفعل الهوى وهو وسوسة الشيطان فيدعي ما وسوس له به فتتدخل الإرادة الإلهية لمنع ذلك ونسخه، وتبقى الآيات المحكمات، أي المعجزات، التي هي من عند الله فعلا. ونحن نعتقد أن في هذا إشارة إلى ما نسب إلى الرسول عليه السلام من معجزات لا أساس لها من القرآن، فالقرآن لا يشير إلا إلى شيء واحد يمكن أن يعتبر معجزة للنبي عليه السلام وهو القرآن نفسه، أما غير ذلك فلا أصل له. قال الرازي بعد أن استعرض جل ما قيل في هذه الآية من تأويلات: "يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن

23- انظر سورة النجم، القسم الأول من الكتاب.

24- "الآيات الشيطانية" في قصة سلمان رشدي.

الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم. فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان، بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر، فالواجب أن لا يُتّبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم". قلت (الجابري): ومما ينبغي التدبر فيه في هذا المجال ما ورد في جميع التفاسير عن وقعة بدر، قالوا: "أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم (جيش قريش) وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم وقال: "شاهت الوُجُوهُ" فانهزموا"، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: "وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمى"، أي أن هزيمة قريش يوم بدر لم تكن معجزة لك من خلال ما رميت من الحصى، بل كانت هزيمتهم بتدخل الإرادة الإلهية.

وإذا كان لابد من ربط هذه الآية بما يناسبها من روايات فأقرب رواية تصلح لذلك ما رواه ابن سعد عن عائشة قالت: " لما صدر (غادر) السبعون "الذين بايعوا الرسول في العقبة الثانية" من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوما: أهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون (=المشركين) من الخروج (حدوث الهجرة) فضيقوا على أصحابه، وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة، فقال قد أريت دار هجرتكم: أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي. ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها" فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك". في مثل هذا الجو يمكن أن يكون قد حدث ما ينطبق مع مضمون الآية ككل. وفي هذا الإطار يجب أن نستحضر قوله تعالى :" قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (الأحقاف 9).

لنتجاوز الفقرة الثامنة فهي مشروحة في النص ولا إشكال فيها ولننتقل إلى الخاتمة، التي جاءت بمثابة "وصية وداع" للمسلمين الذين كانوا يقصدون المدينة. قال تعالى: وجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ[78].

ما يثير الانتباه في هذه الآيات هو قوله تعالى "مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُو سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"، وهذه هي المرة الثانية التي يشار فيها بصراحة –في القرآن

المكي- إلى إبراهيم بوصفه جد العرب. لقد ذكر إبراهيم من قبل عشرات المرات وكان ذلك في سياق تاريخ بني إسرائيل ومحاربته نعبادة الأصنام. ولم يذكر (في القرآن المكي) بصفته جد العرب إلا في سورة "إبراهيم" (رقم 73 آيات 35-41) وفي هذه السورة.

في سورة إبراهيم كان الخطاب موجها إلى العرب أهل القبائل، يذكرهم بأنهم من ذرية إبراهيم الذي اختار مكة مقرا، وطلب من الله أن يجعله بلدا آمنا، وبنى فيه الكعبة الخ، الشيء الذي يعنى أن مكة والبيت الخ تراث مشترك للعرب جميعا وبالتالي فليس لقريش ولا لغيرها احتكاره... أما في هذه السورة فالخطاب إلى المسلمين المهاجرين إلى يثرب، المكيين منهم وأهل القبائل، يطلب منهم أن يعوا أن هويتهم لا تتحدد فقط بكونهم من نسل إبراهيم (فاليهود كذلك من نسله) ولكن تتحدد أكثر بكون إبراهيم هو الذي سماهم مسلمين. فالعرب إذن يجب أن يكونوا مسلمين : يجري فيهم دم النسب الإبراهيمي وفي نفس الوقت يتبعون ملته، فعليهم إذن أن يقوموا بشعائر هذا الدين الذي هو الدين القيم، دين الفطرة، كما أن عليهم أن يحافظوا على وحدة الأصل الذي يجمعهم إلى إبراهيم، والسبيل إلى ذلك هو التمسك بدين إبراهيم متحدين لا متفرقين: "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[78].

على هذا الأساس تتحدد هوية العرب/المسلمين ، وسنرى في القرآن المدني عناصر أخرى سيكون لها دورها في قيام دولة الرسول في المدينة.

استطراد

الهجرة إلى المدينة

تؤكد مصادرنا أنه لما علمت قريش ببيعة العقبة الثانية، التي بايع فيها ممثلو "يثرب" الرسول عليه السلام على أن يهاجر إليهم هو وصحبه، وأن ينصروه ويحاربوا معه ويحارب معهم، "ضيقوا على أصحابه ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد". فشكوا إليه عليه السلام، واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن لهم، ثم قال لهم: "أُريتُ دارَ هجرتكم"، ولم يحدد لهم الجهة التي سيهاجرون إليها... "ثم خرج إليهم مرة أخرى مسروراً، فقال: قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فأذن لهم، وقال: من أراد أن يخرج فليخرج إليها فخرجوا إليها أرسالاً (متتابعين) يخفون ذلك".

وروى بعضهم أنه قام عليه السلام بمؤاخاة أصحابه "على الحق والمواساة" قبل أن يبدؤوا في الهجرة إلى المدينة ــ"فآخى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبادة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، وبين عليّ ونفسه". وقد فسر بعضهم الهدف من هذه المؤاخاة بكون "بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، وليستعين الأعلى بالأدنى".

وفي رواية: "ثم قدم أصحاب رسول الله، أرسالاً بعد العقبة الثانية -إلى المدينة- فنزلوا على الأنصار في دورهم فآووهم وواسوهم، ثم قدم المدينة عمر بن الخطاب ... وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكباً. وكان هشام بن العاص واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه وقال: تجدني أو أجدك عند محل كذا، فتفطن بهشام

قومه فحبسوه عن الهجرة. وعن عليّ بن أبي طالب أنه قال: "ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد بسيفه وتنكب قوسه وانتضى في يديه أسهماً واختصر عنزته (الحربة الصغيرة، علقها عند خاصرته) ومضى قِبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحِلَق (جماعات قريش) واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (أي الأنوف)! من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي! قال عليّ: فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه". وقيل "لما أراد صهيب الهجرة إلى المدينة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثر مالك عندنا ثم تريد أن تخرج بمالك؟ لا والله لا يكون ذلك! فقال لهم صهيب، أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا نعم، قال: فإني جعلته لكم. فبلغ ذلك رسول الله ، فقال "ربح صهيب".

وتضيف مصادرنا أن النبي عليه السلام أقام بمكة بعدَ أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤْذَن له في الهجرة، ولم يتخلفْ معه بمكة إلا من حُبس أو فُتِن، إضافة إلى علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق. قالوا: وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن الرسول في الهجرة، فيقول له: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونه".

ولما علمت قريش بقرب هجرة الرسول عليه السلام تداولوا الأمر بينهم في اجتماع عقدوه في دار الندوة فأدلى كل منهم برأيه، وكانت المشكلة الرئيسية التي اعترضتهم هي : كيف يقتلونه دون أن يكون لذلك رد فعل من الهاشميين وحلفائهم، فاتفقوا في النهاية على اقتراح لأبي جهل قال فيه: "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يَعْمِدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف [1] على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل (بالدية)، فعقلناه لهم". اتفق زعماء قريش على ذلك. ويقال إنه في خبر هذه المؤامرة نزل قوله تعالى: "وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال مدنية– 30).

لما علم الرسول عليه السلام بتفاصيل المؤامرة قرر الهجرة، فاتجه إلى أبي بكر وأخبره بذلك واتفقا على أن يهاجرا معا. وقام أبو بكر بالاستعداد للرحلة فجهز راحالتين، واستأجر رجلا كان على معرفة بالمسالك من مكة إلى المدينة واتفق معه

1- كان لعبد مناف أربعة أولاد: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل. وُلد لهاشم عبد المطلب الذي كان له أربعة أولاد: العباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله والد النبي محمد عليه السلام. أما عبد شمس فكان من أبنائه أمية بن عبد شمس وإليه ينتسب بنو أمية.

على اللقاء في "غار ثور بعد ثلاث ليال "[2]. وهكذا تواعد الرسول وأبو بكر على اللقاء ليلاً خارج مكة، وكانت تلك الليلة هي الليلة التي قررت فيها قريش تنفيذ عملية قتل النبي (ص) كما اقترح أبو جهل. وكان عليه السلام قد أمر ابن عمه عليّاً بالمبيت مكانه أثناء الليل، فلما جاءت الجماعة المكلفة باغتياله أخذوا ينظرون من شقوق الباب فرأوا شخصا نائما فحسبوه النبي ذاته. وقبل تنفيذهم لخطتهم خرج إليهم علي فأسقط في أيديهم. أما قريش فقد صدموا وتجندوا للبحث عن الرسول (ص) ولما وصل فريق منهم إلى "غار ثور"، حيث كان النبي وأبو بكر مختفيين، لم يلحظوا أثر أقدام فلم يفتشوا الغار! ويقال إن راعيا كان قد مر على الغار ومعه غنمه فمحت الغنم أي أثر لأقدام إنسان.

أقام النبي وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام وكان أبو بكر قلقا من تهتدي قريش إلى مكانهما وقيل إلى هذا يشير قوله تعالى: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة 40)[3].

بعد انقضاء الأيام الثلاثة جاءهما الدليل الذي اتفقوا معه بالراحلتين فاتجها إلى يثرب على طريق الساحل. وعندما وصل النبي (ص) يثرب في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق 20 سبتمبر سنة 622م، أقام بضعة ليال بقرية بضواحي المدينة تدعى"قباء" أسّس فيها "مسجد قباء"، ثم اتجه نحو المدينة يحيط به الأنصار والمهاجرون متقلدين لسيوفهم، والنساء والأطفال يهتفون: "طلع البَدرُ علينا من ثَنيَاتِ الوداع، وجب الشكر علينا ما دعا لله داع، أيُّها المبعوث فينا جئت بالأمرِ المُطاع". "وكان الناس يسيرون وراء رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون زمام ناقته، كلٌ يريد أن يكون نزيله". هذا ويقدر بعضهم المدة الفاصلة بين ابتداء هجرة المسلمين إلى يثرب وبين هجرته عليه السلام بشهرين ونصف شهر. وبوصوله عليه السلام إلى المدينة تبدأ مرحلة جديدة تماما سواء على

---

2 – تخاطب هذه الآية جماعة من المسلمين تقاعسوا عن تلبية طلب الرسول بالتجنيد لغزو تبوك في آخر العهد المدني وفي آخر سورة نزلت قبل وفاه عليه السلام.
في الجبال المحيطة بمكة عدد من الغيران، منها واحد اسمه "غار ثور"، قريبا من مكة في الطريق إلى المدينة.
3 – تخاطب هذه الآية جماعة من المسلمين تقاعسوا عن تلبية طلب الرسول بالتجنيد لغزو الروم في تبوك. والآية من سورة براءة (التوبة)، وهي آخر سورة نزلت من القرآن، قبيل وفاة عليه السلام. وسنشرح ذلك في القسم الثالث من الكتاب.

مستوى السيرة أو مستوى مسار التنزيل وسيتم التأريخ بالهجرة لحوادث الـزمن[4]، الشيء الذي سنفتتح بالكلام عنه القسمَ الثالث من هذا الكتاب.

4- تجمع الروايات على أن أول من أرخ بالـهجرة الخليفة عمر بن الخطاب وكان ذلك في ربيع الأول سنة 16 هجرية، وبما أول السنة القمرية عند العرب كان فاتح محرم فقد جعلوا التأريخ الهجري يبدأ قبل الـهجرة بشهرين، لأن هجرة النبي كانت في ربيع الأول. وكان سبب ذلك -فيما ذكروا- أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر أنه "يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها يعمل". قد قرأنا صـكا منه محلـه شعبان، فما ندري أي الشعبانين الماضي أم الآتي، فعمل عمر رضي اللـه عنه على كتابة التاريخ، وأراد أن يجعل أولـه شهر رمضان، فرأى أن الأشهر الحُرُم تقع حينئذ في سنتين، فجعلـه من المُحرم وهو آخرها، فصيره أولا لتجتمع في سنة واحدة". وتقول الأخبار إن العرب كانوا يؤرخون "من موت كعب بن لؤي"، وهو الثامن في سلسلة نسب النبي (ص) قالوا : "وقد كان يجمع قومه يوم العروبة - أي: يوم الرحمة، وهو يوم الجمعة - فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وينبـئهم بأنه من ولده". فلما كان عام الفيل أرخت العرب منه".

خلاصات : منهج ونتائج ...

الآن، بعد أن أنجزنا مهمتنا على مستوى القرآن المكي، قرآن الدعوة الذي يشكل القسم الأكبر من الذكر الحكيم، وقبل الانتقال إلى القرآن المدني قرآن الدولة، نرى أن من المفيد أن نلقي نظرة عامة على هذا الذي أجزناه: على المنهج الذي سلكناه والرؤية التي سرنا على هداها والنتائج التي حصلنا عليها. ومن أجل هذا الغرض سنجعل هذه الخاتمة مرحلتين: الأولى في الجديد الذي نعتبر أنه يسم عملنا في هذين القسمين من الكتاب، سواء على صعيد المنهج أو على مستوى المضمون، والثانية في الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي : قرآن الدعوة.

لبدأ أولا بمسألة المنهج.

أولا: الجديد على صعيد المنهج !

يمكن القول، بدون فخر زائد ولا تواضع زائف، إنه لأول مرة أصبح ممكنا عرض القرآن ومحاولة فهمه بكلام متصل مسترسل يشد بعضه بعضا، كلام يلخص مسار التنزيل ومسيرة الدعوة في تسلسل يرضي النزوع المنطقي في العقل البشري. وقد أمكن ذلك باعتماد خطوات منهجية لم يسبق أن طبقت في أي نوع من أنواع التفاسير السابقة، وهذه الخطوات هي:

أ- اعتبار التساوق بين مسار التنزيل وبين مسيرة الدعوة.

يتعلق الأمر بمصاحبة كل من الذكر الحكيم ومسيرة الدعوة مصاحبة مباشرة، منذ ابتداء نزول الوحي وطوال مراحل "تكوين" القرآن/الكتاب في العهد المكي، وقد استغرق تنزيله في هذا العهد ثلاث عشرة سنة. لقد اعتمدنا في رسم معالم تنزيله على لوائح ترتيب النزول المتوفرة،. ولكن، بدلا من إخضاع "فهم القرآن" ككل لهذه اللائحة أو تلك تعاملنا بمرونة مع جميع اللوائح، واستحضرنا كل ما أمكن الوقوف عليه من المرويات التي تصنف ضمن "أسباب

النزول"، وحرصنا الحرص كله على أن تكون الكلمة الفصل للسياق، سياق الآيات... وبهذا النوع من المرونة تمكنا من إدخال تعديلات على رتب بعض السور، فنقلنا السور التي رتبت مع السور المدنية -وهي مكية باتفاق أو شبه اتفاق- إلى المكان الذي رجحناه في لائحة السور المكية؛ كما عملنا على إبراز الطابع المكي في الآيات التي قيل عنها في روايات "أسباب النزول" إنها نزلت في المدينة، معتمدين في ذلك معطيات السيرة ووحدة السياق، وبذلك تم تجاوز "الاستشكالات" التي شغلت المفسرين والمؤلفين في "علوم القرآن"، والناتجة عن الاعتقاد في وجود آيات مدنية في السور المكية[1]. وهكذا تصرفنا على أساس وحدة السورة، وليس على ما يفترض لها أو لآيات منها من "سبب نزول"، إلا ما كان متوافقا مع السياق ولم ينسب إلى المدينة.

ب- اعتبار وحدة السورة :

هذا النوع من التعامل مع القرآن، أعني اعتبار وحدة السورة، وليس ما تتحدث عنه الروايات المختلفة المتضاربة المتناقضة حول "أسباب النزول"، قد مكننا من الحديث عن كل سورة بوصفها وحدة خطابية مستقلة مكتملة: تبدأ بمقدمة تطرح الموضوع الذي تعالجه السورة وتنتهي بخاتمة تستعيد المقدمة وترتفع بها إلى مستوى أرقى. وقد أبرزنا ذلك في كل سورة، باستثناء السور القصيرة، التي تشكل آياتها سياقا واحدا لا يتجزأ، والتي تغلب فيها وحدة الموضوع ووحدة المخاطَب؛ يتعلق الأمر بسور من المرحلة الأولى التي موضوعها النبوة والربوبية والألوهية، ومن المرحلة الثانية الخاصة بالبعث. أما فيما عدا هذه السور، وهي معدودة، فنادرا ما تخلو السورة من التقسيم الثلاثي: المقدمة، العرض، الخاتمة.

وهكذا فمع أن القرآن نزل منجما مفرقا حسب مقتضى الأحوال فسوره المكية -على الأقل- تحتفظ بنوع من النظام والترتيب ووحدة السياقات تذكر المرء ليس بـ" وحدة القصيدة" في الشعر العربي القديم وعلى رأسه "المعلقات" فحسب، بل أيضا تذكر المتتبع لـ "النظم" القرآني بنظم الكلام في المؤلفات البلاغية ذات الطابع المنطقي! ومن هنا إلحاح كثير من البلاغيين القدماء على أن إعجاز القرآن يتمثل في نظمه: البلاغي والمنطقي (الباقلاني، الجرجاني الخ.

1-. رأينا في "التقديم" الذي صدرنا به كل سورة أمثلة عن تناقض المرويات في هذا الشأن.

كيف نفهم هذه الخاصية في الذكر الحكيم؟

يجب التذكير هنا بما هو مقرر عند جميع المفسرين والمؤلفين في "علوم القرآن": من أن ترتيب الآيات داخل السور "ترتيب توقيفي"، أي أنه مأخوذ عن النبي من جهة، وأنه عليه السلام كان يراجع القرآن باستمرار مع جبريل. ففي البخاري عن ابن عباس أن الرسول كان يلقاه جبريل "في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن"، و"عن أبي هريرة وفاطمة عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن جبريل كان يعارضه القرآن" من المعارضة وهي المقابلة، أي يراجع معه جميع ما نزل من القرآن، وبالتالي فترتيب آيات سوره كان من عندهما. ومعنى هذا أن كل سورة من سوره تشكل وحدة قائمة بنفسها. أما ترتيب السور كما هي في المصحف فقد بناه الذين قاموا بجمع القرآن في عهد الخليفة عثمان على معيار الطول والقصر، وهو معيار لا علاقة له بترتيب النزول. وبما أن هذا الترتيب، أعني ترتيب المصحف، قد وضع بعد وفاة النبي عليه السلام، فلا يعقل أن يقال إن مراجعة النبي للقرآن كانت مبنية عليه، خصوصا وهو يبدأ بالقرآن المدني. إن الأقرب إلى المعقول هو أن تكون مراجعة النبي للقرآن قد تمت على أساس ترتيب النزول، خصوصا وقد كانت مستمرة طوال مسار التنزيل، كما ورد في الحديث أعلاه.

ومع أننا لا نملك أي أثر يشير إلى المرجع الذي اعتمده من تُنسب إليهم لوائح ترتيب النزول التي بين أيدينا فإنه من المحتمل جدا أن تكون كلها صدرت عن ابن عباس والمحيطين به. أما مرجع ابن عباس فغير معروف بالتدقيق... على أن ما يزكي لوائح ترتيب النزول التي اعتمدناها ليس مصدرها بل كونها تتطابق، في الأغلب الأعم، مع ما عبرنا عنه بـ "مسار التنزيل"؛ وبعبارة أخرى هناك "منطق داخلي" يربط السور بعضها ببعض لا يكشف عن نفسه إلا في ترتيب النزول، وقد اعتمدنا هذا "المنطق الداخلي" في التعديلات التي أجريناها على تلك اللوائح.

ج- القرآن المكي ... قسمان!

وهكذا، فبمراعاة مساوقة مسار التنزيل لمسيرة الدعوة، والنظر إلى كل سورة كوحدة مستقلة مكتملة ميزنا في القرآن المكي بين ست مراحل، برزنا كلا منها عند بداية الحديث عنها، وقد تتبعها معنا القارئ. ويبقى السؤال الذي لا بد أن يكون قد طرحه كثير من القراء وهو: لماذا وضعنا القرآن المكي

في قسمين من الكتاب وليس في قسم واحد، أو في أكثر من اثنين؟ لقد بررنا هذا التقسيم من قبل بالناحية "المادية" : حجم الكتاب وبالتالي سعره. إن كتابا من حجم 800 صفحة من الحجم الكبير سيكون مكلفا من حيث سعره، وأهم من ذلك سيكون صعب التناول، وسيتعرض للتمزق إذا استعمل بكثرة. إن كتابا في "فهم القرآن"، أو تفسيره، ليس من الكتب التي تقرأ مرة واحدة وتوضع على الرف، بل قد يحتاج كثير من القراء إلى قراءته عدة مرات لاستيعاب محتواه، فضلا عن الحاجة إلى الرجوع إليه من حين لآخر.

لكن هذا التبرير المادي/العملي لا يجيب عن جميع مضامين السؤال السابق! إن مسألة التقسيم، أو التبويب، مهما كانت، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بكتاب، تتطلب تبرير اختيار البداية والنهاية لكل قسم أو باب. لقد كان ممكنا التغاضي عن تلك الاعتبارات المادية"/العملية وجعل القرآن المكي كله في كتاب واحد لكونه وحدة متراصة؛ كما كان ممكنا اعتبار عدد الصفحات وجعل كل قسم في نحو 400 صفحة. أو تجزئته إلى أكثر من قسمين، أو تخصيص كل مرحلة من المراحل الست بكتاب! ولكن جميع هذه القسمات الممكنة لن نجد لها ما يؤسسها، لا على مستوى مسار التنزيل ولا على مستوى مسيرة الدعوة. ومن وجهة نظرنا فإن التقسيم الذي اعتمدناه هو وحده الذي يفرض نفسه على المستويين معا، كما سنرى في الفقرة التالية:

ثانيا- الجديد على صعيد المضمون.

أ- مرحل الكون والتكوين في القرآن المكي:

يتمثل الجديد على صعيد المضمون، في هذا العمل الذي قمنا به، ليس في التمييز في القرآن المكي، جملة، بين مراحل ستة فحسب، بناء على ترتيب النزول ووقائع السيرة، بل يتمثل كذلك في الانتباه إلى وجود نوع من علامة الفصل والوصل (/) بين المراحل الثلاثة الأُول والمراحل الثلاثة التالية لها، وبالتالي التمييز في القرآن المكي ككل بين قسمين متصلين، ولكن متمايزين.

كان التنزيل في المراحل الثلاثة الأولى يتحرك حول ثلاثة محاور رئيسية تشكل أركان العقيدة الإسلامية، هي: النبوة، التوحيد، المعاد. وكان الخطاب في هذه المراحل موجها إلى مشركي مكة وعلى رأسهم "الملأ من قريش": أغنياؤها ومترفوها وأعيانها ... أما في المراحل الثلاثة التالية، وابتداء من سورة الحجر (ورتبها 53)، فقد تغير المخاطب. لقد نجح

المسلمون في الهجرة إلى الحبشة،في غفلة من الملأ من قريش وباءت محاولة هؤلاء لإقناع ملك الحبشة -النجاشي- بإعادتهم إلى مكة، فشددوا الخناق على الدعوة وضربوا الحصار على الشباب في قبائلهم ولم يعد من الممكن مواصلة الدعوة فيها ولو بشكل سري، فصدر الأمر الإلهي إلى الرسول بالاتجاه بالدعوة إلى وفود القبائل في المواسم والأسواق : "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ؛ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" (الحجر95-96). لقد فصّلنا القول من قبل في هاتين الآيتين، فبينا كيف أن هذا الأمر للرسول بالإعراض عن مشركي مكة، والصدع بالدعوة خارجها، يعني الانتقال بها من مرحلة الاتصالات الفردية وإقناع الأقارب والأصحاب في مكة الخ، إلى المجاهرة بها وسط جموع الناس في المواسم والأسواق ...

ب- من "قم فأنذر"...إلى "فاصدع بما تؤمر" : اكتمل خطاب العقيدة...

والسؤال الذي طرحناه أعلاه يتعلق بهذه النقطة بالذات! ذلك، لأن القرآن المكي قد استوفي أغراضه العقدية الأساسية وهو يخاطب قريشا في مكة. لقد أثبت النبوة والربوبية والألوهية، وشجب الشرك وعبادة الأصنام، وطرح مسألة البعث والجزاء، وهي المحاور الثلاثة التي تؤسس للعقيدة الإسلامية. لقد بينها القرآن وأكدها بأدلة عقلية متنوعة مأخوذة من معهود العرب وزكاها بقصص الأنبياء. وإذن، لقد استوفى القرآن المكي أغراضه كما قلنا، لأنه لم يكن قد تجاوز مرحلة "الدعوة" إلى ما بعدها (الدولة) حين نزل قوله تعالى: "اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين"؟ فكيف سيكون "الصدع" بخطاب، وجه أصلا إلى الملأ من قريش، والتوجه به إلى أقوام آخرين يجهلون عنه كل شيء، إلا ما قد يكون قد وصل إليهم من أخبار مختزلة عن قيام نبي في مكة رفضه قومه الخ! كيف سينقل هذا "الصدع" الجديد ما سبق أن أنذر به الرسول "أم القرى ومن حولها" (قريش) إلى الناس كافة في المواسم والأسواق؟ وبعبارة أخرى هل سيكون هناك جديد في الدعوة بعد أن بينت رسالتها وأقرت النبوة والتوحيد والمعاد وجادلت على ذلك بخطاب عربي مبين؟

ج- قصة يوسف من منظور آخر !

هذه الأسئلة وما سنجيب به عنها هو ما يبرر جعل القسم الأول من هذا الكتاب ينتهي مع سورة يوسف، التي ختمت بها سلسلة من السور ركزت على قصص الأنبياء فأكدت من خلال "كتاب التاريخ المقدس" صدق ما قررته سور

أخرى اعتمدت "كتاب الطبيعة" كما يقرأ داخل معهود العرب. لقد أنكر بعض المتطرفين من الخوارج أن تكون قصة يوسف من القرآن وكأنهم لم يقرؤوا منها إلا قوله تعالى: "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ..." (يوسف 24)! والواقع أن استحضار قصة يوسف، كاملة مفصلة، في هذه المرحلة من مسار التنزيل يحمل معنى خاصا يتجاوز مضمون القصة كما يتحدد في إطار تاريخ بني إسرائيل. لقد ختمت هذه السورة قصص الأنبياء بخاتمة تشعر بقرب تحول الدعوة المحمدية من العسر إلى اليسر: من حال "الطفل يوسف" (الذي حسده إخوته على مكانته من أبيهم-فتآمروا عليه وألقوه في البئر للتخلص منه، ولما نجا باعوه عبدا لتجار رقيق باعوه بدورهم في مصر الخ) إلى حال يوسف الصدّيق الأمين الذي نال ثقة "عزيز مصر" (ملكها) فعينه في منصب الحاكم التنفيذي فيها نيابة عنه، فاستدعى يوسف أباه وإخوته ليعيشوا معه أسيادا مكرمين. هذا التحول من حال العسر إلى حال اليسر هو المغزى الذي أبرزته سورة يوسف في خاتمتها، التي نقرأ فيها قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة)، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى!(...) حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا[2] جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ". وبعد هذه الخاتمة مباشرة تأتي سورة الحجر لتقرر أنه: لم يعد في إمكان قريش أن يسلموا؛ لقد اختاروا الكفر وأصروا عليه ولم يعد في إمكانهم التراجع!

فما العمل إذن؟ هل "ستأخذهم "الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"؟ كما حصل مع أمم سابقة وبالتالي يتخلى النبي الامي، الرسول الأمين، عن تبليغ رسالته ويستسلم...؟ كلا! إن لديه -علاوة على "القرآن العظيم" الذي فيه إثبات النبوة والتوحيد والمعاد- هذه السور "السبع المثاني" التي شرحت له الموقف مبينا مكررا سبع مرات! وها هي المثناة السابعة، سورة الحجر (أما الأولى فهي سورة الشعراء: القسم الأول من الكتاب) تحمل إليه، بُشرى بداية "أسبوع جديد"، بُشرى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". يتعلق الأمر، بالتوجه إلى العرب جميعا، في المواسم والأسواق؛ يجب الانفتاح على العالم كي ينفتح العالم للدعوة!

2- المعنى : "استيأس الرسل من نصر قومهم، وظنّ قوم الرُّسُل أن الرّسُل قد كـذبوهم". (بالعامية: كذبوا عليهم).

من هنا كان من المبرر تماما في نظرنا وضع علامة "الفصل والوصل" (العمود المائل: /) بين ما قبل سورة الحجر وما بعدها. يبقى بعد هذا أن نبرز الطريقة التي سلكها الخطاب القرآني في تقرير أركان العقيدة الإسلامية (النبوة، التوحيد، المعاد) مرة ثانية، وهو يخاطب أهل المواسم والأسواق بنفس ما سبق أن خاطب به مشركي مكة مدة تزيد عن خمس سنوات!

د- لا تكرار .. وإنما خطاب واحد في وضعيات مختلفة ومخاطبين جدد.

إن من ينظر إلى ما نزل من القرآن المكي بعد سورة يوسف -وابتداء من سورة الحجر- نظرة سطحية، سيحكم بالتكرار على جملته، تكرار ما سبق أن نزل قبل هذه السورة، سواء على مستوى تأكيد نبوة الرسول عليه السلام، أو على مستوى الاستدلال على وجود الله ونفي الشريك عنه، أو على مستوى الحجاج على إمكانية البعث، لكن الناظر بعين فاحصة إلى ما نزل بعد سورة يوسف سيسجل ثلاثة مستجدات على مستوى مسار التنزيل كما على مستوى مسيرة الدعوة:

1- في المدة الفاصلة بين السنة الخامسة ونيف إلى مستهل السنة السابعة للنبوة قام الرسول عليه السلام بالصدع بالأمر في جموع رواد المواسم والأسواق، وتتميز السور النازلة في هذه الفترة بكون الخطاب فيها، إذ يستعيد المضمون العقائدي التي تم تقريره في مكة، يستعمل مفردات من بيئة عالم البدو. لقد تغير المخاطب فكان لابد أن يستحضر الخطاب معهوده، ويبني الأدلة على عناصر من بيئته. وقد أبرزنا ذلك خلال تعاملنا مع السور التي نزلت في هذه المرحلة (الأنعام، لقمان، الصافات، سبأ).

2- أما في المدة التي قضاها عليه السلام في الحصار، بشعب أبي طالب، من مستهل السنة السابعة إلى مستهل العاشرة للنبوة، حيث لم يكن هناك مخاطب مباشر -لأن بقية المسلمين كانوا قد التحقوا بإخوانهم بالحبشة ولم يبق معه سوى أهل بيته عليه السلام- فقد تميزت السور النازلة في هذه المرحلة، وهي (الحواميم السبع: الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الغاشية، الأحقاف) بطابع خاص سواء على صعيد المضمون أو على مستوى بنية الخطاب: طابع التذكير -مع نوع من الاختصار وتنوع في الصياغة- بما واجه به القرآن مشركي مكة، مع النزوع من حين لآخر إلى تثبيت فؤاد النبي عليه السلام وتسليته وحثه على الصبر، مع التأكيد على أن النصر له في نهاية المطاف.

3- أما بعد خروجه عليه السلام من الحصار وتجاوز حالة "الحزن" التي خيمت عليه بسبب وفاة كل من زوجته خديجة وعمه أبي طالب، مانعه وحاميه من عتاة قريش، فقد اتجه إلى أهل المواسم والأسواق، لا ليخاطب الجمهور كما فعل قبل الحصار، بل ليُجري اتصالات مع رؤساء وفود القبائل بحثا عن قبيلة يتحالف معها على أن تنصره وتدافعه عنه الخ، وكانت النتيجة استجابة وفود يثرب وأهلها وإبرام معاهدة العقبة، "معاهدة الدفاع المشترك"، ومن ثم الاستعداد للهجرة. وقد تميز الخطاب القرآن بالتنوع في هذه المرحلة:

- التركيز في البداية على محور المعاد (الترغيب والترهيب) لموجهة الضغوط القاسية التي مارسها عليه مشركو مكة بمجرد خروجه من الحصار، وأيضا لمواجهة لجوئهم إلى صد الناس عنه في الأسواق وتحذيرهم منه، وفي نفس الوقت العمل على بيان تهافت منطق مشركي قريش وفساد معتقداتهم.

- التوجه بنوع من الخطاب جديد إلى جماعات المسلمين الذين أخذوا في التكاثر بين القبائل العربية "في أطراف الأرض" (خارج مكة)، خطاب تشريعي أخلاقي يشرح ما ينبغي أن يكون عليه سلوك "عباد الرحمان" : ما يجب أن يتحلوا به، وما ينبغي أن يجتنبوه في سلوكهم الفردي والاجتماعي الخ. لقد "أفلح المؤمنون" وأخذوا يكونون جماعات هنا وهناك، وقد حان الوقت للتأكيد لهم أن السلوك الأخلاقي (إتيان الفضائل وتجنب الرذائل) ليس ثمرة للعقيدة فحسب، بل هو أساس لها وغاية.

ثالثا- الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي؟

إذا كان "الإيمان" هو المدخل الأول في كل عقيدة، فإن الإيمان في الإسلام ليس مجرد تسليم أو تقليد بل هو مرتبط بما يجعله سلوكا أخلاقيا في الدرجة الأولى. وهكذا فإذا نحن حاولنا استقصاء الأماكن التي ذكر فيها الإيمان في القرآن لوجدناه مقرونا دوما، صراحة أو ضمنا، بالعمل الصالح (إتيان الفضائل) أو بالتقوى (تجنب الرذائل)، وذلك في كل مرة يذكر في سياق استحقاق الثواب في الدنيا كما في الآخرة. من ذلك قوله تعالى، في موضوع استحقاق الثواب في الدنيا: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" (الأعراف 96)، وقوله في موضوع استحقاق الثواب في الآخرة : "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (لقمان 8-9). وقد جعل القرآن

استحقاق القرب من الله مشروطا، أو على الأقل مقرونا، بالتقوى والإحسان : "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" (نوح 128)، ونبّه إلى أن هؤلاء قليل عددهم، "وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ" (ص 24). أما وكثير من الناس في عداد البغاة؛ فهل يعقل أن يساوي الله بين الفريقين : "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص 28)؟

هذا كمبدأ عام يتكرر في القرآن المكي والمدني على السوء. وفي إطار هذا المبدأ العام يمكن التمييز، من زوايا مختلفة، بين مراحل في دعوة القرآن إلى التحلي بالفضائل الأخلاقية وتجنب الرذائل. وذلك لما أبرزناه من كون القرآن نزل مفرقا حسب مقتضى الأحوال وفي مقدمتها الظروف التي عاشها النبي والمسلمون خلال مرحلة الدعوة في مكة، حيث كانت الأوامر الأخلاقية تقوم مقام شريعة الدولة، (أي ما نسميه اليوم بـ "القانون")، وبالتالي لم يكن هناك فصل بين العقيدة والأخلاق، بين الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا كانت المراحل التي ميزنا بينها في القرآن المكي على مستوى خطاب العقيدة يندرج فيها هي نفسها خطاب الأخلاق. ومع أننا قد نبهنا إلى الجانب الأخلاقي في هذا الخطاب ونوهنا به خلال جميع مراحل مسيرتنا، فقد ينبغي، هاهنا، القيام بعرض إجمالي مستقل للقيم الأخلاقية التي نوه بها القرآن المكي جملة، مركزين هذه المرة على نوعية المخاطَب. وسيتضح للقارئ كيف أن هذه القيم الأخلاقية إنما تجد مضمونها وأسباب كونها من خلال ربطها بمسيرة الدعوة.

ثلاثة أطراف يتجه إليها الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي: النبي وصحبه (أوائل المسلمين)، الملأ من قريش، أهل المواسم والأسواق (والمجتمع الإسلامي الذي بدأ في التكون).

1- الأخلاق في الخطاب الموجه إلى النبي وصحبه.

أ- الحث على الصبر...

يتجه الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي، أول ما يتجه، إلى النبي وصحبه يدعوهم إلى التحلي بجملة من الصفات الخلقية التي تقتضيها مستلزمات الدعوة في كل مرحلة. وأول قيمة يركز عليها هي "الصبر". فعلا، لقد ورد التنويه بـ"الصبر"، في القرآن المكي، بوصفه القيمة الأخلاقية الأولى على أربعة أوجه: الأول دعوة النبي عليه السلام إلى الصبر على ردود أفعال

المكذبين لنبوته، والثاني: دعوة المؤمنين (أعني الأوائل منهم الذين استجابوا للدعوة)، إلى التحلي به إزاء ضغوط الملأ من قريش وعسفهم، والثالث: الإشارة إلى مواقف الصبر لدى الأنبياء السابقين إزاء المكذبين لهم من أقوامهم بهدف استخلاص العبرة، والرابع : امتداح الصبر بوصفه خصلة من خصال المؤمنين بوصفهم يشقون طريقهم إلى تكوين مجتمع إسلامي.

- دعوة النبي إلى الصبر.

وردت أول آية تدعو النبي إلى الصبر في سورة المدثر وهي الثانية في ترتيب النزول، وهي قوله تعالى : "وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (2 المدثر7)[3] وذلك عندما دعاه ربه إلى القيام بتبليغ الدعوة بعد انقطاع الوحي عنه مدة، ("يأيها المدثر قم فأنذر...")، وكان قد لقي متاعب ومشاق وتعرض للاستهزاء والتكذيب عند الإعلان عن نبوته. وعندما استؤنف الوحي وشقت الدعوة طريقها وتكاثرت اتهامات مشركي قريش له بالجنون والسحر وافتراء القرآن الخ، نزلت آيات تدعوه إلى الصبر "على ما يقولون"، منها قوله تعالى "فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (33 ق 39)، و"اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (38 ص17)، و"فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا..." (45 طه 130)[4]. وفي هذا الإطار نفسه، وكرد على المكذبين الذين اتهموه بافتراء القرآن من عنده، وبعد أن جاءه الوحي بأخبار صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم وقص عليه وعلى قومه تفصيل ذلك، خاطبه تعالى بقوله: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (50 يونس 109)، وأيضا : "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (51 هود 49)، وقد تكرر امتداح الصبر في آية لاحقة من هذه السورة في قوله تعالى "وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (51 هود 115)، كما في آيات من سور أخرى مثل قوله تعالى : "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (52 يوسف 90).

---

3 - الرقم السابق لاسم السورة يشير إلى موقعها على صعيد ترتيب النزول الذي عملنا به، وأما الرقم الذي بعدها فهو رقم الآية.

4- المقصود بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: الصلاة كما كانت في العهد المكي: ركعتان في الصبح وركعتان في المساء.

وعندما صدر إليه الأمر بـ"الصدع" بالدعوة في الأسواق والمواسم، ولم يكن قد لقي استجابة تذكر في المرحلة الأولى، نزلت آيات تدعوه إلى الصبر كما صبر الرسل من قبله. قال تعالى: "وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ" (54 الأنعام 34)، وقال على لسان لقمان: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (56 لقمان 17). وفي المدة التي فرض عليه الملأ من قريش العزلة والإقامة الإجبارية في شعب أبي طالب (الحصار)، نزلت في بدايتها آيات تدعوه إلى الصبر وتؤكد له أن مشركي قريش سينالون جزاءهم حتما، إما قبل وفاته أو بعدها: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ" (59 غافر77)، أما عندما أشرف الحصار على التفكك والانحلال فقد جاءته الدعوة إلى الصبر مرفوقة بما يوحي بأن الحصار في طريقه إلى الانهيار: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (لمشركي قريش) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ (من هزيمة، أو عذاب) لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. بَلَاغٌ! فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ" (65 الأحقاف 35).

وعندما خرج عليه السلام من الحصار واشتد عليه أذى الملأ من قريش، بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة، خاطبه تعالى بقوله : "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا" (69 الإنسان، 24). وكانت قريش قد بعث إلى اليهود بيثرب تطلب منهم أسئلة يختبرون بها صدق نبوته عليه السلام فأجابتهم بأن يطلبوا منه خبر "الفتية" المعروفين بـ "أصحاب الكهف"، وهم فتية كانوا من الموحدين فروا من ضغوط قومهم فدخلوا كهفا وناموا فيه أزيد من ثلاثمائة سنة الخ، فنزلت سورة الكهف تقص أخبارهم ثم ختمت بلفت نظر النبي عليه السلام إلى ضعفاء المسلمين، الذين كان كبراء قريش يشترطون عليه طردهم للجلوس معه والاستماع إليه. قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" (70 الكهف 28)، وقوله: "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ" (76 الطور 48). وتكررت عبارة "صبر جميل" في القرآن، ومنها هذه الآية التي تخاطب النبي عليه السلام: "فَاصْبِرْ

صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا" (79 المعارج 5-7). والمقصود بـ"الصبر الجميل" هنا عدم الاستعجال، والاطمئنان إلى أن وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، وهو أقرب مما يظن المستعجلون؛ ولكن عليهم أن لا يقيسوا "الزمن" الإلهي بالزمن البشري. ويقول: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا" (84 المزمل 10)، والمعنى "انشغل بما أنت فيه ولا تهتم بهم" وكان عليه السلام يستعد للهجرة إلى المدينة. وفي هذا السياق نزل قوله تعالى: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَق، وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" (87 الروم 60) والمعنى احترس من الوقوع تحت تأثيرهم فتهاجر قبل الأوان انسياقا مع استعجالهم إياك".

- دعوة المؤمنين إلى الصبر.

أما دعوة المؤمنين إلى الصبر في القرآن المكي، فقد وردت هي الأخرى في عدة صيغ لعل أهمها: التواصي بالصبر؛ وقد ورد هذا أول مرة في سورة العصر: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (10 العصر 1-3). ثم في سورة البلد التي حُدِّدت فيها الخصال التي تمكن الإنسان من "اقتحام العقبة" (تجنب المصير إلى النار) مع اشتراط أن يكون الراغب في ذلك "مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" (34 البلد 17). وحينئذ يكون جزاؤه الإقامة في الطابق الأعلى وفاقا مع قوله تعالى: "أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا" (43 فاطر 75)، وقوله: "إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ" (51 هود 11)، وقوله: "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (60 فصلت 35)، وقوله: "وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (61 الشورى 43).

كما ورد في قصص الأنبياء ما يقدم المثل على أهمية التحلي الصبر. من ذلك قوله تعالى على لسان سحرة فرعون لما آمنوا بموسى وهددهم فرعون بالقتل: "قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ" (39 الأعراف 125-126)، وقوله: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (39 الأعراف 128)، وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" (39 الأعراف 137).

وورد الحث على الصبر خلال الظروف الصعبة التي أمر فيها المسلمون بالهجرة إلى المدينة ومطاردة قريش لهم: ففي هذا الإطار وردت الآيات التالية: "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (71 النحل 41-42) وفي ما يشبه أن يكون خطابا لوفد يثرب الذين عاهدوا الرسول في العقبة نقرأ: "وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل 95-96). وفي الموضوع نفسه: "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (71 النحل 110) وفي خطاب للمسلمين الذين كانوا يلحون على الثأر لمن قتلت منهم قريش إثر مطاردتها لهم لمنعهم من الهجرة إلى يثرب قال تعالى : "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" (71 النحل 126- 127) وفي جواب الرسل على أقوامهم الذين كذبوهم نقرأ قوله تعالى على لسانهم : "وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وعلى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ" (72 إبراهيم 12). ويقول تعالى في المؤمنين عندما ينعمون بالجنة في الآخرة : "إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ" (74 المؤمنون 111)، ويقول في أهل يثرب الذين آمنوا ونصروا وآووا المهاجرين إليهم : "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ[22] (العقبى المحمودة في الدار الآخرة): جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ[23]، (يقولون لهم) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ"[24] (85 الرعد 22- 24). وفي المهاجرين إلى يثرب يقول تعالى عنهم "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (88 العنكبوت 58-59).

- دروس في الصبر في قصص الأنبياء

وفضلا عن الخطاب المباشر، الموجه إلى النبي وصحبه أو إلى الملأ من قريش، يوظف القرآن المكي في جداله مع المشركين قصص الأنبياء، فيؤكد أن ما يتعرض له النبي عليه السلام من التكذيب والعناد من طرف مشركي قريش قد تعرض له الأنبياء السابقون، فصبروا وواصلوا الدعوة حتى انتصروا. وهكذا فابتداء من سورة "ص" ينتقل الخطاب القرآني إلى نوع جديد من القصص. ذلك أن القصص قبل هذه السورة كان يدور حول محور واحد هو الهلاك والدمار الذين انتهى إليهما "أهل القرى" المكذبون لرسلهم. أما ابتداء من سورة "ص" وسورة الأعراف، اللتين تدشنان مرحلة جديدة في مسار التنزيل بمكة (شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام)، فالخطاب الأخلاقي في الذكر الحكيم سيتجه إلى دعوة الرسول وصحبه إلى استلهام تجارب الأنبياء السابقين، والمذكورين في التوراة تحديدا. وهكذا فالأمر بالصبر لم يعد أمرا مجردا مطلقا بل لقد صار يحمل معه إشارات إلى تجارب سابقة برهن الصبر فيها على أنه الوسيلة الفعالة في مواجهة أذى الخصوم والانتصار عليهم.

وهكذا تضع سورة "ص" تجربة النبي داوود أمام أنظار الرسول والمسلمين فتبين لهم كيف أن الله سخر له الجبال وأتاه ملكا وحكمة وفصل الخطاب، وإذن فما عليهم إلا أن يصبروا حتى تأتيهم القوة والنصر. يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" الخ، (38 ص17-24). وتأتي سورة الأعراف بعدها مباشرة لتنقل إليه عليه السلام وصية موسى لأصحابه ووعده إياهم بالنصر : "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأرض لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (39 الأعراف 128)، وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" (39 الأعراف 137). ويقول عن المؤمنين من قوم موسى: "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" (75 السجدة 24)... وتواصل السور التالية التذكير من حين لآخر بدروس قصص الأنبياء مما لا ضرورة لإعادة القول المفصل فيها هنا.

ب- الحث على العناية باليتامى والفقراء والمساكين...

وأما القيمة الأخلاقية الثانية التي أكد عليها الذكر الحكيم منذ أوائل السور فهي العناية بالمستضعفين من يتامى وفقراء ومساكين الخ. وكانت

سورة الليل أولى السور التي طرحت قضية هؤلاء، وذلك بأن صنفت أعمال الإنسان على كثرتها وتنوعها واختلافها إلى صنفين. يقول تعالى: "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى "وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى" (6 الليل 1-11).

وفي الموضوع نفسه، موضوع الإحسان إلى الفقراء، تؤكد سورة "الفجر" ضرورة رعاية اليتامى والاهتمام بالفقراء وتجنب الجشع والجري وراء المال... وفي خلال ذلك تشير السورة إلى طبع قبيح في "الإنسان"، والمقصود أغنياء قريش، وهو افتخارهم في حال اليسر بأن الله قد أكرمهم، وشكواهم في حال العسر من أن الله قد أهانهم. وتوضح السورة أن الأمر ليس كذلك، وأن حقيقة الأمر هو أنهم يجازون على أعمالهم : ذلك أنهم لا يكرمون اليتامى ولا يطعمون المساكين، بل يأكلون حقهم وحق اليتامى في الإرث، ويحبون أن يكون المال لهم وحدهم. يقول تعالى: "فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي! كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (جامعا)، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (7 الفجر 15-20).

وردا على خصوم الدعوة المحمدية الذين شمتوا في النبي عندما غاب عنه الوحي مدة فقالوا له إن ربك قد قلاك وتخلى عنك، الشيء الذي أثر في نفسه عليه السلام، فنزلت سورة الضحى بما يسليه ويثبت فؤاده، فأكدت له أن الله ما ودعه وما قلاه، وذكرته بأن الله هو الذي آواه عند عمه أبي طالب، وهو صبي يتيم من جهة وأبيه وأمه، وهداه عندما ضل الطريق إلى جده عبد المطلب وهو طفل صغير، ثم لما كبر أغناه بمال خديجة التي عرضت نفسها عليه فتزوجها وصار ميسور الحال. وبما أن ما عاناه في طفولته لم يكن أحوالا مقصورة عليه وحده إذ هناك دائما يتامى وفقراء وميسوري الحال فإن عليه أن يستخلص العبرة : "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ (النبوة) فَحَدِّثْ" (8 الضحى 1-11). وتنزل سورة الشرح لتكمل سورة الضحى، فتذكره بأن الله قد أزال القلق الذي جثم على قلبه بسبب انقطاع الوحي عنه، ووضع عنه الهم الذي كان يثقل كاهله نتيجة شماتة قريش، وذلك بأن جعل الوحي يعود إليه ويستأنف الدعوة مرفوع الرأس أمام المستهزئين الشامتين.

قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ". ثم توجهه السورة إلى العبرة التي يجب استخلاصها من هذه التجربة وهي : "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" (9- الشرح 1-8)، الشيء الذي يستوجب التحلي بالصبر.

وتنزل سورة العصر لترتفع بخطاب "العسر واليسر" من مستوى "الخاص" إلى مستوى "العام". لقد كان خطاب الصبر من قبل خاصا بتجربة الوحي وما عاناه النبي خلالها من مشاق ومتاعب، أما الآن مع "سورة العصر" فالخطاب حول الصبر يطرح على مستوى "العام"، مستوى "الإنسان" بدون تعيين. يقول تعالى: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (10 العصر1-3). إن هذا يعني أن الصبر وحده لا يكفي، ذلك أن الاقتصار على الصبر وحده يجعل منه قيمة سلبية. إنه : استسلام للواقع. ومن أجل أن يتحول الصبر إلى قيمة إيجابية، يتم بها الانتصار على الواقع المفروض، وبالتالي الانتقال من "العسر إلى اليسر"، لابد من قيم أخرى حددتها الآية السابقة في أربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق (الثبات على المبدأ)، والتواصي الصبر (تحمل تبعات الثبات على الحق). ومع أن الخطاب، هنا، عام في صيغته فهو - باعتبار المناسبة والسياق- خاص في مضمونه. إنه خطاب لصحابة النبي الأوائل، الذين آمنوا برسالته. لقد كانوا في جملتهم فقراء ومستضعفين، وكانوا يتعرضون لأذى قريش، يعيشون في عسر مادي ومعنوي. وهكذا فلكي يتغلبوا على حالة العسر: عليهم أن يعملوا "الصالحات"، والعمل الصالح يشمل التضامن والتكاتف الخ، وعليهم أن يتواصوا بالحق: يوصي بعضهم بعضا بالتمسك بالحق (وهو هنا العقيدة موضوع الدعوة) كما أن عليهم أن يتواصوا بالصبر على أذى قريش.

وكما ربطت سورة العصر بين الإيمان وبين العمل الصالح الذي يأتي في مقدمته إطعام المسكين وإكرام اليتيم، تربط سورة الماعون ربطا واضحا بين التكذيب بالدين وبين قهر اليتيم والبخل على المسكين. وأكثر من ذلك تتهدد السورة الذين لا يكذبون بالدين بلسانهم، ولكنهم لا يعتبرون مغزى الصلاة وجوهرها، فتراهم يظهرون إقامتها رياء، ويبخلون بالمال والماعون، فلا يكرمون اليتيم ولا يطعمون المسكين. يقول تعالى: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (عن معزاها): الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ" (كناية عن البخل بالطعام) (14 الماعون 1-7).

2- خطاب الأخلاق الموجه للمشركين...

أ- الحق مقابل الظن ...

تلك هي القيم المركزية التي سادت في الخطاب القرآني في المرحلة التي كان هذا الخطاب مقصورا، أو يكاد، على التوجه إلى النبي عليه السلام، يسليه ويؤكد له أنه فعلا رسول من الله وأن عليه أن يقوم بتبليغ رسالته إلى الناس، نذيرا وبشيرا، وأن يصبر على ما يتعرض له من أذى في سبيل ذلك. وفي هذه المرحلة كان قد آمنت به جماعة من الناس جلهم فقراء ويتامى، فكان لا بد أن يهتم الخطاب القرآني بهم ويحث على إطعام المسكين وإكرام اليتيم.

أما مشركو قريش فالقرآن يدعوهم إلى الإيمان وفي نفس الوقت يطالبهم بالتخلي عن أنواع السلوك غير الأخلاقي الذي اعتادوه. وأما ما يتصف به بعضهم من مكارم الأخلاق، فهو لا تستحق التنويه ما دام مقرونا بعبادة الأصنام وباعتقادات لا يؤسسها سوى "إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون". وهكذا نقرأ في سورة النجم، -وهي أول سورة قرأها النبي عليه السلام جهارا في الكعبة وكبار قريش يستمعون -خطابا مباشرا موجها إلى هؤلاء يؤكد على جملة من القيم، أبرزها قيمة "الحق" أو "الحقيقة" في مقابل "الظن". ذلك أن قريشا يعبدون أصناما (اللات والعزى ومناة...) يجعلونها شركاء لله يعتقدون أنها تقربهم إليه وتشفع لهم الخ، وهي في الحقيقة مجرد أسماء لا شيء يستند إليه اعتقادهم فيها غير الظن: "إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى"(22 النجم 23). وعلى الظن كذلك يستندون في اعتقادهم بأن الملائكة بنات الله، فيطلقون عليها أسماء الإناث : "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" (22 النجم 27-28).

ب- الجزاء والمسؤولية الفردية: لا تزر وازرة وزر أخرى.

ثم تطرح السورة مسألة الجزاء يوم القيامة حيث يُجزي الله "الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى"، ثم تشرح أخلاق الذين أحسنوا بكونهم "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ"، وأما الذين أساؤوا فقد مثلت لهم السورة بأحد أغنياء قريش الذي أبرم اتفاقا مع رجل على أن يتلقى عنه نصيبه من العذاب في الآخرة مقابل مبلغ من المال يدفعه له ما دام حيا، لكنه لبخله "أكدى" توقف عن الدفع. ففي إطار التمثيل بهذا الرجل

طرحت السورة مسألة المسؤولية الفردية وهي قيمة أخلاقية وقانونية ستتكرر في القرآن غير ما مرة. قال تعالى: "أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (أمسك)، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى" (22 النجم 34-41).

ج- الخلاص: فك رقبة، إطعام مسكين، اكرام يتيم ...

وتأتي سورة البلد لتؤكد أن اجتياز "العقبة" بنجاح، عقبة الحساب، وبالتالي النجاة من الوقوع في جهنم، يتطلب شروطا تأتي على رأسها قيمة أخلاقية وقانونية: هي قيمة أخلاقية لأنها قيمة إنسانية عامة، وهي قانونية لأنها في الإسلام "كفارة" تمحي ذنوبا معينة، وهي "فك رقبة" أي تحرير عبد أو أمة، الشيء الذي يؤكد حق الإنسان في امتلاك جسده خاصة، وما يحصل عليه بما يبذله هذا الجسد من جهد. ذلك هو الشرط الأول في اجتياز "العقبة"، ويقوم مقامه في حالة عدم وجود عبد لتحريره، إطعام اليتيم أو مسكين في زمن المجاعة. بعد ذلك يأتي الشرط الثاني، وقد سبق التأكيد عليه بوصفه الأساس الذي يحكم العلاقات الاجتماعية، وهو الإيمان بالرسالة المحمدية والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة: "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ" /لا يغادرونها أبدا (35 البلد 11-20).

3- الأخلاق في الخطاب المكي الموجه إلى جماعة المسلمين.

والحق أنه إذا كان "الصبر" قيمة أخلاقية وفضيلة سلوكية، مطلوبة في كل وقت، فإنه يجب أن لا يعزب عن بالنا أن الدعوة إلى الصبر في القرآن المكي، لها بعد خاص، وهو مواجهة ضغوط مشركي مكة وعسفهم وأنواع أذيتهم التي بلغت القتل والتخطيط للتصفيات الجسدية، مواجهة ذلك كله بالتحلي بالصبر وعدم اللجوء إلى رد الفعل باستعمال العنف أيا كانت درجته أو نوعه. تذكر مصادرنا أن المسلمين كانوا يطلبون باستمرار من الرسول عليه السلام أن يسمح لهم بمواجهة عدوان قريش وأذياتهم بما يردعهم، فكان عليه السلام يمنعهم باستمرار ويوصيهم بالصبر. فالصبر في القرآن المكي ينصرف في

غالب الأحيان إلى تحمل أذى الملأ من قريش بثبات، وتجنب العنف، والتأكيد على النهج السلمي للدعوة. وذلك تنبيها إلى من كان من الصحابة المظلومين المضطهدين يفكر في اغتيال رجال من الملأ من قريش خصوصا منهم الذين قتلوا المسلمين الضعفاء ومثلوا بهم... وقد ببين القرآن أن ذلك ليس من خصال عباد الرحمان ولا من صفات المؤمنين!

- *خصال عباد الرحمان*

وهكذا فحينما كان الرسول عليه السلام يواجه ضغوطا قاسية من الملأ من قريش، وهو يخوض معهم معركة شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، نزلت سورة الفرقان لتبين للملأ من قريش أن الرحمان أحق أن يعبد، لا الأصنام التي لا ترى ولا تسمع، فكان ردهم أنهم لا يعرفون الرحمان. قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ وَزَادَهُمْ نُفُورًا"! وقد رد عليهم بأن الرحمان أكبر من أن يشككوا فيه بتساؤلاتهم ونفورهم، قال تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي (الرحمان) جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا" (42 الفرقان 60– 62). فإذا أرادوا معرفة الرحمان فيكفيهم أن ينظروا إلى نظام الكون وانتظام حركته، وعليهم أن ينظروا أيضا إلى الخصال الكريمة الفاضلة التي يأمر عباده بالتحلي بها، هل يمكن أن تصدر عن إله غيره! قال تعالى:

- "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا،

- وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا،

- وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا،

- وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا،

- وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا،

- وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا،

– وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا،

– قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (ادعاؤكم أن له شركاء) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ، فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا" (عقاب هذا الكذب)، (الفرقان 63-77)[5].

- الطيبات من الرزق، والفواحش

وعندما اتجه النبي بالدعوة إلى وفود القبائل العربية في مواسم مكة وأسواقها أخذ خطاب الأخلاق في القرآن المكي يتحدث إليهم، مستحضرا مقتضى أحوالهم وأسلوب معيشتهم، وبكيفية عامة معهودهم الحضاري العام، فأبرز فيهم صفات وعادات أبعد ما تكون عن خصال عباد الرحمان. وهكذا نقرأ في سورة "الأنعام" التي يشير اسمها إلى بيئة مخاطبيها: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ (محجورة) لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا (لا تركب)، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا (بل يذكرون أصنامهم) افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ (المحرمة أي ما ستلده) خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ (وأدوا بناتهم خوف الفقر أو العار) سَفَهًا (جهلا) بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ".

5- سبق أن بينا في التعليق على السورة أن مسليمة الحنفي من شرق الجزيرة كان قد تنبأ وسمى إلهه الرحمان، وأن رفض قريش لهذا الاسم قد يرجع إلى التنافس القبلي التاريخي بين "مُضَر" سكان غرب الجزية و"ربيعة" سكان شرقها، وإذن فقد جاء القرآن ليغير هذا التأثير القبلي على تصور قريش لـ"الرحمان". فجعل الرحمان أحد أسماء الله الحسنى، فأوضح أن عباد الرحمان لا يتحددون بالجغرافيا أو بالتاريخ أو بالانتماء القبلي بل يتميزون بخصال عالية، فقدمت ما يشبه أن يكون دستورا في الأخلاق للمسلمين. قسم منه يخص علاقة الإنسان مع الله، وقسم يتناول علاقة الناس بعضهم ببعض.

وبعد أن عددت السورة أنماطا من عاداتهم في التحليل والتحريم وشجبتها، أمرت النبي عليه السلام أن يبين لهم ما حرم الله عليهم ليجتنبوه وبذلك يلتحقون بعباد الرحمن. قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ :

- أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،
- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا،
- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ،
- وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،
- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ،

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ،
- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا،
- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى،
- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا.

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ...

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأنعام 136- 153).

واضح أن جل هذه الوصايا، إن لم يكن كلها، يترتب على من لا يعمل بها ويعمل عكس ما توصي به، عقاب في الدنيا قبل الآخرة، ولكن منهج قرآن الدعوة يقضي بالتعامل مع الناس من منظور يختلف عن منظور "الثأر" واستعمال العنف. إن مجتمع الدعوة تحكمه سلطة الأخلاق، سلطة الضمير لا سلطة "الجريمة والعقاب".

- منهاج الدعوة: التسامح ... الشورى، ادفع بالتي هي أحسن.

وتأتي مرحلة الحصار الذي فرضه عليه الملأ من قريش في شعب أبي طالب في الجبل المطل على مكة -وكأني به عليه السلام يتأمل من هناك في الوضعية التي فرضت عليه ظلما وعدوانا فينتابه ما ينتاب الكائن البشري في مثل هذه الأحوال من الشعور بالظلم، وبالتالي التفكير في رفعه بأية وسيلة، وأبسطها مغادرة المكان، وليكن ما يكون- وإذا بسورة فصلت تنزل لتسليه وتثبت فؤاده وتذكره بمصير المكذبين المعرضين، وبمآل المؤمنين وتدعوه إلى المقارنة بينهما ثم تضيف متسائلة متعجبة: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ[33]؟! ثم تعرض قاعدة أخلاقية من أسمى السلوك الأخلاقي: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[34]. وما يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"[35]. وتضيف: "وَإِمَّا (إنْ ما) يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إن يصرفك عن التي هي أحسن ويزين لك الانتقام مثلا)، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[36]" (انظر سورة فصلت، رقم 60. التعليق).

وتأتي سورة الشورى مباشرة، لتؤكد مضمون نفس "الأمر الأخلاقي" في صيغة أوسع وأشمل: يقول تعالى مخاطبا نبيه الكريم: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على الدعوة التي أقوم بها) أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ"[23]. فإن امتنعتم فاعلموا أنه : "فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى". وما عند الله هو "لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ".

وتواصل السورة (الشورى) تعداد صفات المؤمنين فتوصي بالتسامح، والنبي ما زال في الحصار". يقول تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (61 الشورى 36–43). المبدأ_"القانوني" يقوم على "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" لكن المبدأ الأخلاقي يقوم على العفو والتسامح، على الصبر والمغفرة على: "فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ".

- الوفاء بالعهد... والدعوة بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن.

وينحل الحصار ويدخل الرسول عليه السلام "سنة الحزن" على وفاة زوجته خديجة وعمه أبي طالب، مع ما تلا ذلك من خيبة أمله في أهل الطائف الذين ذهب يطلب النصرة منهم، ومن استئساد الملأ من قريش عليه، نتيجة ذلك كله، حتى إذا تجاوز عليه السلام هذا الظرف الصعب تجند لاستئناف الدعوة في المواسم والأسواق بسلوك إستراتيجية جديدة تقوم على الاتصال، في هدوء، بأصحاب الحل والعقد في الوفود. وسرعان ما أثمرت هذه

الاستراتيجية: فقد حصل لقاء، بمناسبة الحج، مع وفد من الخزرج، قادما من يثرب يطلب حليفا، فعرض الرسول نفسه عليهم فاستجابوا وأسلموا ووعدوا بعرض المسألة على قومهم عند عودتهم، وهكذا فتحت الأبواب أمام الدعوة المحمدية إلى يثرب التي أسلم أهلها وهاجر إليها بعض المسلمين فتكونت الجماعة الإسلامية فيها على أساس عقد البيعة. وتنزل سورة النحل لتمد الرسول بالتوجيه الضروري في هذه المرحلة فتخاطب المتعاقدين، النبي وأهل يثرب، (والخطاب موجه أساسا إلى هؤلاء). يقول تعالى: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُم، وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ (ما تعهدتم به) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (حيث حلفتم به)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا[6]، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (فسادا وخديعة) بَيْنَكُمْ (بسبب) أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ (قبيلة أو مجرد جماعة) هِيَ أَرْبَى (أقوى) مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [7]. وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ (بصدودكم) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، إِنَّمَا (إن ما) عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ. وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (71 النحل 91-97).

وتختم السورة بالتوجه للرسول والمؤمنين بهذا الخطاب : "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ (أصحاب الأسواق والقبائل) بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

6- جمع نكث، من نكث العهد إذا لم يوف به. يقال: كانت بمكة امرأة تغزل في الصباح لزبون بسعر، فإذا جاءها بعده زبون بسعر أغلى نقضت عهدها ورمت بما غزلته وبدأت تغزل للزبون الجديد، وإذا جاء ثالث فعلت الشيء نفسه، وهكذا يكون عملها سلسلة من نكث العهد، بدون فائدة لها ولا لغيرها. وكانوا يفعلون مثل هذا يتحالفون مع جماعة فإذا جاءت أخرى أقوى نكثوا عهدهم مع الأولى وتحالفوا مع هذه. وهذا ينطبق أكثر على القبائل.

7 - قال بعضهم معنى : "يضل من يشاء" : يضل الله الشخص الذي شاء الضلال واختاره، مثل الذي اختار عبادة صنم معين.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[8]. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش لكونهم لا يؤمنون)، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" (71 النحل 125-128).

حكمة بالغة: أوامر ونواه

وباقتراب هجرة النبي إلى المدينة حيث يشكل اليهود قسما كبيرا من سكانها تنزل سور الإسراء التي تسمى أيضا بـ "سورة بني إسرائيل" لكونها تحدثت عنهم طويلا. لقد ذكرتهم بهجوم الأشوريين عليهم واستيلائهم على بيت المقدس، وسبيهم ونفيهم إلى أرض بابل بسبب تمردهم على أوامر الله، ثم تذكرهم بالوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى لتكون أساس شريعته. وتورد هذه السورة مضمون هذه الوصايا وكانت قد قررتها سور سابقة ضمن الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي. قال تعالى:

- "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،

- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ: إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا.

- وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ (ذوي القربى الخ) ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ...

- وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا.

8- فسر معظم المفسرين هذه الآية بأحداث وقعت بعد الهجرة. وفي رأينا أنه ليس هناك ما يبرر هذا النوع من التفسير فالسورة مكية وسياق الآية منسجم مع ما قبلها وما بعدها والخطاب واقع تحت قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"... ثم إن احتمال حدوث نزاع بين المسلمين ومشركي مكة أو مرتادي المواسم والأسواق احتمال قائم.

– وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا.

– وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

– وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا.

– وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا.

– وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا" (86 الإسراء 23– 39)

وتستعيد سورة الروم حق ذي الْقُرْبَى وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ مؤكدة أن البخل به لا ينمّي المال، كما أن الربا لا يزكيه، وإنما الذي يزكي المال ويزكيه هو الإنفاق على الفقراء والمساكين الخ، يقول تعالى: "فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ "(87 سورة الروم 38– 39).

– التعامل مع أهل الكتاب

وفي سورة الحج التي هي آخر سورة نزلت بمكة –حسب ترتيبنا– والرسول يتهيأ للهجرة إلى المدينة، أو هو في طريقه إليها، نزل قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج 17)[9]. واضح أن هذه الآية تحصي الديانات التي كانت بجزيرة العرب زمن النبوة (وقبله وبعده) أي الديانات التي من المحتمل أن يحتك به المسلمون[10]. هي ديانات معترف بها، لأنها موجودة قائمة لا يمكن تجاهلها، وهي تتصل كلها من قريب أو بعيد بدين إبراهيم لأن أهلها يؤمنون بالله، لكن بعضهم يجعلون له

9– ستتكرر هذه الآية في القرآن المدني مرتين، مع بعض الاختلاف في الصيغة. وسنشير إلى ذلك في حينه.

10– أما غير هذه من الديانات البعيدة عن العرب فلم تكن تدخل في المفكر فيه لدى العرب يومئذ.

شركاء أو يؤمنون بإلهين اثنين أحدهما إله الخير والآخر إله الشر، هؤلاء جميعا سيفصل الله بينهم يوم القيامة، فيتبين من منهم على حق. أما في الدنيا فلها حق الوجود، ذلك لأنه "لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" (61 الشورى 8).

وهذا الاعتراف بالديانات الأخرى هو أهم ما يؤسس مفهوم التسامح في الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر، أما في القرآن المكي فهو مظهر واحد فقط من مبدأ الاعتراف بالاختلاف وبالتعدد. قال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ" (51 هود 118)، وقال : "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (87 الروم 22).

رابعا- خاتمة: الآخرة من أجل الدنيا وليس العكس!

إذا كان لنا أن نستخلص من هذا العرض ما نختم به هذا القسم من الكتاب، فإننا لا نتردد في إعادة تأكيد من قررناه من قبل من أن العقيدة والأخلاق في القرآن كل واحد لا يتجزأ، بل إننا نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد ما صرحنا به من أن الأخلاق في القرآن المكي هي التي تؤسس العقيدة الإسلامية وهو ما يميزها عن غيرها من الديانات. لقد أبرزنا غير ما مرة أن المحاور التي يدور حولها خطاب العقيدة في القرآن ثلاثة: النبوة والتوحيد والمعاد، وأشرنا في تعاليقنا واستطراداتنا إلى أن ما يتميز به القرآن عن التوراة والإنجيل هو تركيزه على المحور الثالث: البعث والجزاء. أما إثبات النبوة والدفاع عنها وتأكيد "التوحيد" (إقرار وحدة الألوهية وشجب الشرك وعبادة الأصنام) فهما حاضران في التوراة والإنجيل حضورهما في القرآن، وقد أبرزنا ذلك بالنصوص[11]. لكن موقف كل من التوراة والإنجيل من المعاد (البعث والحساب والجزاء) أضعف كثيرا من موقف القرآن، بل هو غامض وضبابي.

ولا بد من التذكير هنا بما نبهنا إليه مرارا من أن خطاب الجنة والنار الذي تكرر كثيرا في القرآن المكي كان في آن واحد سلاحا وأخلاقا. أما كونه سلاحا فلتخويف المشركين من النار وحملهم على الطمع في الجنة، وأما كونه أخلاقا فلإشعار المؤمنين بأن الإيمان وحده لا يكفي بل لابد من خصال معينة

11- راجع الاستطرادين اللذين ختمنا بهما المرحلتين الثانية والثالثة، القسم الأول.

بينها القرآن وفي مقدمتها التقوى والعمل الصالح. أما التقوى فتعني تجنب الرذائل وأما العمل الصالح فيعني إتيان الفضائل.

ومن هنا يجب أن نتساءل: هل يصح القول، باسم القرآن : "الدنيا من أجل الآخرة": من أجل الدخول إلى الجنة أو المصير إلى النار، كما درج على القول بذلك كثير الناس، "علماء وعامة"، في جميع العصور التي تلت عصر النبوة والخلفاء الراشدين، أم أن الأمر بالعكس من ذلك تماما، وهو أن الآخرة، أعني الجنة والنار، هما من أجل الدنيا، من أجل أن يسود فيها العدل، والتسامح، والسلام، والتواصي بالصبر والمرحمة، والدفع بالتي هي أحسن...

لقد جادل الملأ من قريش، كما رأينا، جدالا مريرا، حادا ومتواصلا، في موضوع إمكان البعث، لأن البعث يعني الجزاء، يعني المسؤولية. وإذن فالإيمان بالبعث والتسليم به، كان يعني تغيير سلوكهم بالتخلي عن كل ما هو غير مشروع في حياتهم، الاجتماعية والاقتصادية الخ. الجنة في القرآن ميدان للثواب على ترك الرذائل وإتيان الفضائل في الدنيا. أما النار فهي، بالعكس، ميدان للعقاب على إتيان الرذائل وترك الفضائل في الدنيا. فلولا عمل الإنسان في الدنيا لما كانت هناك جنة ولا نار، وعلى العموم: لولا الدنيا لما كانت هناك آخرة. وإذن فالآخرة من أجل الدنيا وليس العكس.

ذلك، فيما نعتقد، هو موقف القرآن المكي كما حاولنا فهْمَه وتفهُّمه وتفهيمه. ونحن نخص بالذكر، هنا، القرآن المكي وحده لسبب أساسي وهو أن الخطاب فيه موجه إلى جهتين فقط: الوعد للنبي وصحبه من جهة، والوعيد للمشركين من جهة أخرى، وليس فيه تنصيص على عقوبة في الدنيا يطبقها النبي أو غيره، لا على أصحابه المؤمنين بالدعوة، ولا على خصومه المحاربين لها. أما في المدينة فالأمر يختلف : هناك تعدد : مشركو مكة قبل فتحها، اليهود قبل جلائهم، المنافقون، القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، أصحاب الصفة وأصحاب المغانم، المستضعفون والمترفون... فهل ستختلف العلاقة بين الآخرة والدنيا بسبب هذا التعدد؟

سؤال لن يتأتى لنا الجواب عنه إلا بعد الفراغ من القسم الثالث من هذا الكتاب.



موضوعات في التعاليق والاستطرادات

نثبت فيما يلي لائحة بعناوين موضوعات التعليقات والاستطرادات التي ختمنا بها بعض السور في القسمين الأول والثاني من الكتاب

12- بعث الأرواح لا الأجساد وعذاب القبر(النازعات)،

13- إمكانية الحشر وعذاب القبر (الانفطار)..

14- أراء في الخلود وحشر الدواب والتناسخ (الانشقاق).

15- مسألة الروح (الإسراء).

16- مسألة الرؤية (المطففين).

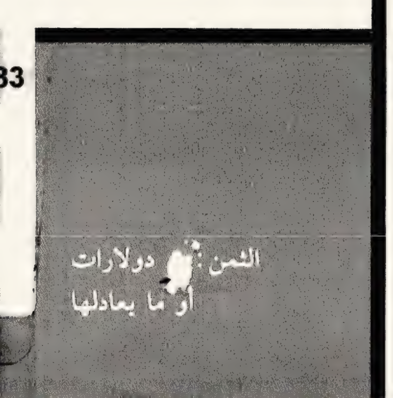
17- الهجرة إلى المدينة (الحج).

فهرس القسم الثاني

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

... وعملية إعطاء المعنى لمعطيات الذاكرة ـ كما للقطع الأثرية ـ عملية تتعاون عليها عدة عناصر: هناك أولاً السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور. وهناك ثانياً الدلالة النفسية والاجتماعية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة من جهة ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية. وبذلك تكتسب الذكرى المسترجعة بعداً إنسانياً يحيل إلى الإنسان كإنسان، وبعداً اجتماعياً يحيل إلى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي... وقد يندمج البعدان معاً في سياق واحد. وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل. إن الأمر يتعلق بنص غير مقالي، غير فلسفي ولا علمي، وبالتالي لا مكان فيه للاستدلال «البرهاني»... إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية، ويتغذى من مخزون ثقافي معين، ويوظف الصورة والاشارة والتلميح والرمز، إلى جانب ما قد يكون هناك من تدفق العفوية وإبداع السليقة...



مركز دراسات الوحدة العربية
بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثالث

محمد عابد الجابري



فهم القرآن الحكيم
التفسير الواضح

حسب ترتيب النزول

القسم الثالث



فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثالث

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني رقم : 2009 MO 0505
ردمك : 3_3088_0_9954_978
طبع بدار النشر المغربية - عين السبع - الدار البيضاء - المغرب
الطبعة الأولى : **2009**

مقدمة القسم الثالث

الرسول في المدينة

تنبه، بداية، إلى أننا سنسترجع هنا في هذه المقدمة بعض المادة التي سبق لنا أن نشرناها في كتابنا "العقل السياسي العربي" الذي صدرت الطبعة الأولى منه في فبراير 1990 (مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت). وقد اعتمدنا فيها كتب التفسير والسيرة وكتب المؤرخين مع اعتبار ترتيب النزول ومسار السيرة بشكل عام. ومع ذلك فإن قراءتها كما نشرت في "العقل السياسي العربي" لا يعفي القارئ مهما كان من قراءتها هنا، ليس فقط لما قد ندخله من إضافات وتعليقات بل أيضا لمتابعة تطبيق المنهج الذي سرنا عليه في القسمين السابقين من هذا الكتاب، أعني اعتبار المساوقة والمطابقة بين مسار التنزيل ومسير الدعوة، وهو منهج لن يكون في الإمكان تطبيقه بدون مقدمة عامة تعرض المطابقة بين هذه المسيرة وذاك المسار قبل الدخل في رحاب سور القرآن المدني. لقد كان الخطاب في القرآن المكي متجها إما إلى النبي عليه السلام، وإما إلى المشركين –وكان هذان هما الطرفان الرئيسيان فيه، وإما إلى المسلمين القدماء منهم والجدد. وكان من الممكن جدا التمييز فيه –كما فعلنا– بين ست مراحل.

أما القرآن المدني فهو يشكل مرحلة واحدة، تتداخل فيها المراحل و"اللحظات" سواء على مستوى مسار التنزيل، أو مسيرة الدعوة التي صارت ترافقها وتتداخل معها مسيرة تشييد الدولة. أما المخاطبون فقد تضاعف عددهم: فإلى جانب الخطاب الموجه إلى النبي، والخطاب الموجه إلى المشركين، هناك الخطاب الموجه إلى اليهود والنصارى، والخطاب الموجه إلى الفئة الجديدة التي أطلق القرآن عليهم اسم "المنافقين"، والخطاب الموجه إلى

الأعراب، والخطاب الموجه إلى المؤمنين الصادقين، والخطاب المحرض على القتال، والخطاب الداعي إلى العفو والتسامح، والخطاب الموجه إلى "المسلمين" الآخرين ("القاعدين" والمتخلفين" وأفراد آخرين)، وهناك الخطاب الخاص بالنساء، والخطاب الموجه إلى زوجات النبي الخ.

هذا على مستوى الخطاب.

أما على مستوى مسيرة الدعوة (وبناء الدولة) فالتعقيد والتداخل كان أكبر وأوسع. كان الرسول في مكة -حيث قضى ثلاث عشرة سنة بعد النبوة وقبل الهجرة- إما واحدا من قومه حرا طليقا، وإما مضطرا إلى السرية حين الدعوة والعبادة (دار ابن الرقم)، وإما يتحرك تحت حماية عمه أبي طالب، وإما محاصرا هو وعشيرته في شعب هذا الأخير بالجبل المطل على مكة، وإما بعرض نفسه على القبائل في المواسم والأسواق ... أما في المدينة التي قضى فيها عشر سنوات قبل وفاته فقد كانت مليئة بالأحداث من كل نوع وذلك إلى درجة يصعب معها إقامة التساوق بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة وبين ترتيب السور: فبعض السور في القرآن المدني تضم آيات يقال إنها نزلت في أوقات مختلفة ولكن متزاحمة. ويؤكد ابن عباس فيما روي عنه أن النبي كان إذا نزلت آية قال لكتاب الوحي ضعوا هذه الآية في سورة كذا، أو سورة كذا! وبناء عليه قال بعض المفسرين (ابن عاشور خاصة) إن سور القرآن، أو الطويلة منها على الأقل، كانت تبقى مفتوحة، تضاف إليها من حين لآخر آيات بأمر من الرسول، وقد يحدث أن تغلق سورة وتبقى التي قبلها مفتوحة أو العكس. وهذا القول يحاول به أصحابه إضفاء المعقولية على الاختلاف بين ما تقرره آيات في سورة وأخرى في سورة، بعيدة منها أو قريبة. أما القائلون بـ النسخ" فقد وجدوا في هذه الظاهرة مجالا خصبا لتوزيع الوصفين "ناسخ" و"منسوخ" على آيات أو أجزاء منها، وبالغوا في ذلك متجاهلين وحدة السياق والترابط بين الجمل العبارات ...

من أجل تسهيل فهم هذه التداخلات والتعقيدات التي ضخمتها الروايات، التي يظهر منها بوضوح أنها تعتمد التخمين لا إقرار حقائق تاريخية، رأينا أنه من الضروري رسم صورة إجمالية عن العهد المدني للنبوة، مسيرة وتنزيلا، قبل الشروع في التعامل مع النص المنزل.

* * *

1- الرسول في المدينة: مسألة العيش؛ أول قضية، أول خطبة.

تركنا الرسول عليه السلام في القسم الثاني من هذا الكتاب (التعليق الذي أنهينا به سورة الحج وهي آخر سورة نزلت في مكة حسب ترتيبنا)، أقول تركناه وقد دخل يثرب (المدينة) وسط ترحاب كبير من أهلها، أنصارا ومهاجرين؛ أما اليهود الذين كانوا يشكلون قسما كبيرا من سكانها فلم يرد فيما اطلعنا عليه من مصادر ومراجع ما يعرفنا بموقفهم إزاء هذا الدخول. ومهما كان الأمر فقد كانت القضية الأولى التي كان لا بد أن تواجه الرسول (ص) في المدينة هي تنظيم "عيش" المهاجرين الذين غادروا مكة، قبل هجرته هو وبعدها مباشرة، تاركين ديارهم وممتلكاتهم. وقد أظهر اهتمامَه بهذه القضية في أول خطبة ألقاها بعد وصوله إلى المدينة، إذ خصصها كلها لهذا الموضوع. قال، بعد أن حمد الله: "أما بعد... أيها الناس، فقدموا لأنفسكم (=في الدنيا ما ينفعكم في الآخرة)، تعلمُنَّ والله ليصعَقن أحدُكم (يموت)، ثم ليدَعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربُّه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالا وأفْضَلْتُ عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلَينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لَينظر قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

دعوة واضحة إلى التضامن والتكافل بين جميع المسلمين، بين الأنصار والمهاجرين. وكان المهاجرون قد نزلوا عند إخوانهم في الدين، الأنصار، في دورهم ومنازلهم. ولكي يجسم الرسول (ص) هذه الدعوة إلى واقع اجتماعي ملموس سَنَّ نظام "المؤاخاة" : فآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وبينهم وبين الأنصار، وكانت المؤاخاة على "الحق والمساواة"[2] بما في ذلك حق التوارث. فالرجل يرث صاحبه الذي تآخى معه حتى ولو لم يكن من أقاربه. إن

1 - السيرة لابن إسحاق. ج1 ص 500-501

2 - ابن سعد. طبقا ابن سعد ج1 ص 238

"الأخوّة في الدين" تقوم هنا مقام الأخوة في النسب، وبذلك حلت "الأمةُ" و"الملة" محل القبيلة والعشيرة.

ومع ذلك، فإن تجاوز "القبيلة" بصورة كاملة ونهائية لم يكن ممكناً. فالدعوة إلى "الأمة" مازالت في بدايتها. ولذلك كان لا بد من أن يبقى شيء ما من "القبيلة": لقد نزل المهاجرون أبناء القبائل على أبناء القبائل من الأنصار، أصدقاء أو أقارب الخ. أما الفقراء من المهاجرين الذين لم تكن لهم قبائل، وهم "المستضعفون" الذين تحدثنا عنهم في المرحلة المكية (ومعظمهم كانوا موالي وعبيدا لقريش) فقد أذن لهم الرسول (ص) بأن يأوون إلى صفة المسجد -أي المكان المسقوف منه- وتكفل هو والقادرون من أصحابه بإطعامهم، فعرفوا بـ"أهل الصفة"، وكان من بينهم أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد وأبو حذيفة بن اليمان الخ[3].

2- مسألة التعايش : عقد اجتماعي جديد...

هذا عن مسألة "العيش"، أما المسألة الثانية التي كان لابد أن تطرح نفسها، على النبي عليه السلام في أول مقامه في المدينة، فهي مسألة "التعايش" بين مختلف الفئات التي أصبحت تقطن "يثرب"، إذ بدون نظام يضمن التعايش السلمي، بل التعاون فيما بينها، لن يصبح في الإمكان القيام بالمهمة التي كانت من أجلها الهجرة إلى المدينة. في هذا الإطار ومن هذا المنظور يجب أن نقرأ "الصحيفة"/المعاهدة التي كتبها الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار واليهود حتى لا نخرج بها من مجال "المفكر فيه" يوم كتابتها، كما يفعل كثير من الباحثين والكتاب المعاصرين، عربا ومستشرقين. إن أصدق تعريف لهذه "الصحيفة" هو ما قاله عنها ابن إسحاق، قال: "وكتب رسول الله (ص) كتابا بين المهاجرين والأنصار وادَع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم"[4]. فـ "الصحيفة"، إذن، هي من الناحية السياسية معاهدة بين الرسول واليهود، ولكنها من حيث مضمونها العام "عقد اجتماعي" لسكان المدينة كافة. وفيما يلي نصها، وقد رتبنا فقراتها حسب موضوعاتها:

3 - ابن سعد نفس المرجع ج1 ص 255-256
4 - ابن إسحاق ج1 ص 501

1- تبدأ "الصحيفة" بتحديد هوية الطرف الأول في المعاهدة فتقول: "بسم الله الرحمان الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس". وهكذا فالطرف الأول في المعاهدة فئتان : مؤمنون... ومسلمون (من قريش ويثرب ومن لحق بهم). وهذا التمييز بين "المؤمن" و"المسلم"، في ذلك الوقت كان له معنى خاص، توضحه الآية التي نزلت فيما بعد ونصها: "قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتْكُم (= لا ينقصكم) من أعمالكم شيئا؛ إن الله غفور رحيم". وتأتي الآية التي بعدها لتحدد هوية المؤمن : "إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل لله أولئك هم الصادقون" (الحجرات 49/14-15). أما مجرد "المسلم" فهو من أعلن الخضوع للإسلام، ويجوز أن يكون ما يظهر غير ما يبطن. وبعبارة عصرنا يمكن القول إن "المؤمن" هو من كان إسلامه عقائديا، أي هو مسلم عن عقيدة، وبالتالي فهو "مواطن" في "الأمة" التي تقوم على العقيدة. وأما مجرد "المسلم" فإسلامه "سياسي" (الاعتراف بالدين الجديد وسلطة دولته). وكان هناك في المدينة ما يبرر هذا التمييز: كان هناك المؤمنون الصادقون وهم المهاجرون والأنصار، وكان هناك "المنافقون" وهم جماعة من أهل يثرب أظهروا إسلامهم ولكنهم كانوا يبطنون العداوة والحقد لمحمد وأصحابه. وبما أنهم قد أعلنوا إسلامهم فلقد كان اسم "الإسلام" يجمعهم في "أمة"، -أي ملة - واحدة مع المهاجرين والأنصار، وذلك في مقابل "الآخر" الذي كان يتألف كما سنرى من مشركين ويهود.

2 - بعد تحديد هوية الطرف الأول في المعاهدة تعمد "الصحيفة" إلى بيان "النظام الداخلي" الذي تسير عليه الفئات التي يتكون منها المجتمع الجديد. وهكذا فكل فئة من فئات المؤمنين والمسلمين، المهاجرين والأنصار والمسلمين الجدد من أهل يثرب، تواصل العمل بـ "العرف" الذي كانت تعمل به قبل الإسلام، في مجال أخذ الديات وإعطائها، مع التزام المعاملة الحسنة للأسرى والعمل بالعدل في افتدائهم : "المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون"[5]

---

5 - رباعتهم : حالتهم السابقة. يتعاقلون : يعطون ديات قتلاهم.

بينهم، وهم يفدون عانيهم[6] بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة" الخ. وهكذا تذكر الصحيفة أهل يثرب طائفة طائفة.
ثم تنص الصحيفة على التضامن والتكافل بين المؤمنين بعضهم مع بعض. "إن المؤمنين لا يتركون مُفرَحا (المغلوب المحتاج، الفقير) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل (دية)، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين (هم جميعا) على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم (عظيمَ ظلم) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم (إذا أجار الضعيف منهم أحدا فإن ذلك يلزم الجميع". وإن المؤمنين بعضهم موالي (أولياء) بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود (أسلم) فإن له النصير والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم (لا يصالح أحد منهم العدو بمفرده فالصلح يعقده المسلمون جميعا : هو من اختصاص الجماعة وليس من اختصاص الأفراد)، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا (الخروج للغزو والقتال يكون بالتناوب بين القبائل)، وإن المؤمنين يفيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله (دماؤهم في الجهاد متكافئة، القوي كالضعيف)، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه". "وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا (قتله بدون جناية) عن بينة، فإنه قود به (يقتل في محله) إلا أن يرضى ولي المقتول. وإن المؤمنين عليه (ضده) كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه (استنكار فعلته)، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (جانيا أي يحول دون القصاص منه) ولا يأويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل (لا يطالب بأكثر من قيمة الظلم الذي قام به الجاني الذي دخل في حمايته).

3 – ذلك عن الطرف الأول ونظامه الداخلي. أما الطرف الثاني، وهم اليهود، فتقرر الصحيفة في شأنه ما يلي: "وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين" (= يتحملون نصيبهم من نفقات الحرب التي يشاركون فيها مع

---

6 – عانيهم : أسيرهم

المؤمنين) وإنهم بجميع طوائفهم يشكلون في هذا المجال، مجال الحرب، "أمة" (=جماعة) واحدة مع المؤمنين. وهكذا فـ "إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (= لا يضر) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف" الخ. وهكذا بالنسبة لجميع طوائف اليهود. وتضيف الصحيفة: "إنه لا يخرج منهم –من اليهود– أحد إلا بإذن محمد (ص)، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح[7]، وإنه من فتك، فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا (= على الرضا به)، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم (= في الحرب)، وإن بينهم (= بين المسلمين واليهود) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين".

4 – ثم تقرر الصحيفة تحريم القتال في يثرب وتنص على الدفاع المشترك عنها. فمن جهة : "إن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة، لأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها" (أهل يثرب). ومن جهة أخرى : "إن بينهم (=المتعاقدين بهذه الصحيفة) النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين: على كل الناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم".

5 – وتقرر الصحيفة أنه لا يجوز لمشرك ولا لليهود من أهل يثرب أن يُجير أي شيء لقريش، وبمعنى آخر: إن الطرف الأول (المؤمنون) يعلن للطرف الثاني أنه في حالة حرب مع قريش، فيجب الامتناع عن مساعدتها بأي شكل كان. وهكذا تؤكد الصحيفة : "أنه لا يجير مشرك (= من أهلِ يثرب) مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مزمن"، وأيضا : "وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها" (والكلام هنا مع اليهود).

6 – وتقرر الصحيفة أن المرجع في الخلاف هو محمد (ص) سواء كان الخلاف بين المؤمنين والمسلمين بعضهم مع بعض أو بينهم وبين اليهود. وهكذا توجه الخطاب للمؤمنين : "وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده

7– أي يكفوا عن القَوَد؛ وكل من ترك شيئاً فقد انحجَزَ عنه.

إلى الله عز وجل وإلى محمد". ثم تؤكد، والخطاب لليهود : "إنه ما كان بين هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله (ص) وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره".

7 - وتختم الصحيفة بالتأكيد على أن العلاقات في يثرب يجب أن تبنى على البر وحسن المعاملة والحرص على الأمن فتقول : "وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبسره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جارٌ (بمعنى حام ومجير) لمن بر واتقى ومحمد رسول الله (ص)" (جارٌ له كذلك).

تلك هي "الصحيفة" الشهيرة التي هي بمثابة "تنظام داخلي" لجماعة المؤمنين والمسلمين، في شؤون الجنايات والحرب خاصة، من جهة، ومعاهدة بين الرسول وبين اليهود مز جهة ثانية، "معاهدة حربية" بالأحرى. ولا بد من استحضار هذا الجانب الثاني لفهم المآل الذي سينتهي إليه يهود المدينة، كما سنرى. وما ينبغي التأكيد عليه هنا، الآن، هو أن "العقد الاجتماعي" الذي تأسس عليه كيان الدعوة المحمدية في المدينة هو "عقد" حربي. وهذا أمر طبيعي، فما دامت الهجرة إنما كانت من أجل تنظيم الحرب ضد مشركي قريش الذين رفضوا الدعوة السلمية وحاربوها وأخرجوا أهلها من ديارهم، وما دام الإذن الإلهي بالقتال قد اقترن بالإذن بالهجرة، كما بينا في القسم الثاني من الكتاب، فإن تبليغ الرسالة أصبح يتوقف على تحقيق النصر على قريش. ولذلك كان العمل من أجل هذا الهدف على رأس الأولويات.

<u>3- إستراتيجية ضرب مصالح قريش التجارية...</u>

رأينا في القسم السابق كيف أن النبي (ص) لم يهاجر إلى المدينة إلا بعد أن أبرم مع ممثليها معاهدة "الدفاع المشترك" المعبر عنها بـ "بيعة العقبة" التي نصت على: "الهدم بالهدم والدم بالدم"، وأبرزنا كيف أن إبرام هذه المعاهدة قد تزامن مع نزول آية القتال التي تأذن للمسلمين بخوض الحرب مع قريش بعد أن كانت الآيات القرآنية من قبل توصي بالصبر (نحو سبعين آية). ولم يكن القتال هدفا في ذاته، بل كان من أجل الارتفاع بالدعوة المحمدية إلى المستوى الذي تشعر معه قريش بأن مصالحها الاقتصادية ستدمر تدميرا إذا هي لم تسلم؛

وإسلام قريش ضروري لإسلام باقي القبائل العربية، فلقد كانت لها الزعامة عليها.

بالفعل، كان "القتال" ضد قريش يستهدف منذ البداية ضرب مصالحها التجارية. لقد كان النبي وصحبه يدركون أن قريشا لا تهمها آلهتها ولا ديانتها وإنما تهمها تجارتها، ولذلك مارسوا ضدها السياسة الصريحة بوسائل الحرب الصريحة : اعتراض قوافلها التجارية القادمة من الشام. والمدينة تقع كما هو معروف بين مكة والشام، وبالتالي فقد كان تحكم المدينة في طريق تلك القوافل أمرا تفرضه الجغرافيا فضلا عن "التاريخ"، تاريخ التجارة العالمية وطرقها في العالم القديم. وهكذا فما أن استقر المقام بالنبي وصحبه المهاجرين بالمدينة حتى بادر إلى تنظيم سرايا [8]، يقودها من يعينه النبي، أو غزوات يتولى قيادتها بنفسه، والهدف : اعتراض القوافل التجارية القرشية القادمة من الشام.

وإنه لمما يثير الانتباه حقا أن يبادر الرسول (ص)، في الشهر السابع -فقط- من وصوله المدينة مهاجرا، إلى تنظيم سرية أسند قيادتها إلى عمه حمزة مكلفة بمهمة اعتراض قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام كان يقودها أبو جهل ومعه ثلاثمائة رجل، وكانت لقبيلته القيادة في قريش يومئذ. غير أن حليفا للفريقين تدخل بينهما وحال دون وقوع القتال، فتابع أبو جهل طريقه إلى مكة. وبعد شهر فقط نظم الرسول (ص) سرية أخرى بقيادة عبيد بن الحارث فتوجهت إلى "رابغ" لاعتراض قافلة من مائتي رجل كان يقودها أبو سفيان، زعيم بني أمية، وقد جرت بين الفريقين مناوشات وتراشق بالسهام ثم افترقا. وبعد شهر أيضا، أي في الشهر التاسع للهجرة جهز الرسول سرية ثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص كانت مهمتها القيام بعملية استطلاعية، فقامت بالمهمة ولكن صادف أن القافلة المستهدفة كانت قد مرت قبل بيومين[9]. وفي الشهر الثالث من السنة الثانية غزا الرسول بنفسه غزوة الأبواء (أو: ودان) حيث أقام خمس عشرة ليلة ينتظر قريشا ثم عاد إلى المدينة، ليخرج في الشهر نفسه في مائتين من أصحابه بقصد اعتراض قافلة قرشية في بواط كان على رأسها أمية بن خلف في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير، ولكن الاصطدام لم يحدث. ثم

---

8 - جمع سرية، وهي جماعة من المقاتلين يذهبون بسرية (ليلا في الغالب) لاعتراض العدو وضربه وانتزاع متاعه الخ.

9 - أبو عبد الله عمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي. طبعة أكسفورد. ج1 ص 10-12.

غزا في الشهر نفسه غزوة "ذات العشيرة" بهدف اعتراض قافلة قرشية أخرى قادمة من الشام... فهذه سبع سرايا وغزوات نظمها الرسول (ص) في مدى ثلاثة عشر شهرا من مقدمه مهاجرا إلى المدينة، وكانت جميعها بهدف اعتراض القوافل التجارية القرشية.

إن هذه الحملات تدل، من جهة، على مدى النشاط التجاري الواسع الذي كانت تقوم به قريش والذي يرجع في جملته، كما بينا، إلى أهمية مكة كمركز تجاري وديني، وتدل من جهة أخرى على أن الرسول (ص) كان يدرك تماما أن أنجع إستراتيجية قتالية ضد قريش هي تلك التي تشعرها بأن مصالحها التجارية أصبحت مهددة.

ولكي يجعل الرسول قريشا تدرك بأن هذا التهديد الذي تتعرض له قوافلها يمكن أن يتحول إلى خطر حقيقي، يصيبها في عقر دارها، بعث عبد الله بن جحش في رجب من السنة الثانية من الهجرة على رأس جماعة صغيرة من المهاجرين كلفت باستطلاع أخبار القوافل المتنقلة بين مكة والطائف. إن هذا يعني أن الرسول قد عقد العزم على إشعار قريش بأنه يستطيع ضرب تجارتها ليس فقط على الطريق بين مكة والشام ولكن أيضا على الطريق بين مكة والطائف. وهما القريتان المتحالفتان المتجاورتان. قامت البعثة بمهمتها وأغارت على قافلة تجارية وساقتها مع رجلين منها إلى الرسول بالمدينة. وقد حدث ذلك في شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولم يكن الرسول قد أمرها بالقتال فيه، فحصل نقاش بين أصحابه هل يجوز القتال في الشهر الحرام أم لا يجوز[10]، وخافوا أن تعيرهم قريش بذلك فنزل قوله تعالى : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ. وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ". (البقرة 217).

4- تحويل القبلة... وغزوة بدر الكبرى

وبعد ذلك بشهر واحد وقع حادثان تاريخيان يدخلان في الإطار نفسه : أولهما تحويل القبلة إلى مكة، والثاني غزوة بدر الكبرى. كان النبي (ص) يصلي إلى بيت المقدس، قبل الهجرة إلى المدينة (ضدا على قريش وأصنامها)،

---

10 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص17،وابن هشام، السيرة ، ج1 ص601

وقد بقي كذلك إلى الشهر الثاني من الهجرة، حين أخذ يفكر في مسألة القبلة. ولا بد أنه كان يوازن بين أن يستمر في الصلاة إلى القدس تاركا الكعبة لقريش، التي كانت دعايتها ضده تقوم على جملة أمور منها أنه "ترك قبلة آبائه واتبع قبلة اليهود"، وبين أن ينقل القبلة إلى الكعبة وسيكون ذلك نوعا من "القطيعة" مع اليهود الذين كان يحرص أشد الحرص على تجنب الاصطدام معهم رغم ما كانوا يقومون به من تحريك التناقضات داخل يثرب. ولا شك أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين كان أهم كثيرا من ردود فعل اليهود، ليس فقط لأن المسلمين والعرب عموما كانوا ينظرون إلى الكعبة كتراث "قومي" من جدهم إبراهيم عليه السلام، بل أيضا لأن قريشا يمكن أن تقرأ ذلك بمنطقها التجاري قراءتين مختلفتين، كلتاهما في صالح المسلمين. يمكن أن تقرأه، من جهة، على أنه دليل على أن النبي لن يقف عند مجرد اعتراض قوافلها التجارية والإغارة عليها بل هو يخطط لما هو أبعد وهو الاستيلاء على مكة نفسها، قبلة الصلاة التي لا يجوز أن تبقى في يد المشركين. ومن الممكن أن تفسر قريش تحويل القبلة إلى مكة تفسيرا آخر فترى فيه "رسالة" مفادها أن الإسلام يمكن أن يحتفظ لمكة بوضعيتها كمركز ديني وبالتالي على أهميتها التجارية، مما يعني أن أهلها سيحافظون على مصالحهم الاقتصادية إذا هم أسلموا وأسلم العرب وصار الجميع يعبد الله وحده ويتجه بصلاته إلى الكعبة كقبلة، وبالتالي يحج إليها... مثل هذه الخواطر لا بد أن يثيرها في مخايل قريش التجارية تحويل قبلة المسلمين إلى الكعبة فيكون منهم من يزداد تخوفه من محمد (ص) إذا أخذوا بالقراءة الأولى، ويكون منهم من يطمع في حدوث تحول في مجرى الأحداث لصالح تجارتهم إذا أخذوا بالقراءة الثانية.

ويأتي الوحي ليفصل فيما كان يفكر فيه النبي حينما كان يقلب نظره في السماء يبحث عن الاتجاه المناسب كقبلة للمسلمين. قال تعالى:" سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[11]. (البقرة 142). واضح إذن أن

11- في السيرة الحلبية: "وعن كعب بن مالك قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ... فلما خرجنا من المدينة قال البراء لنا: إني قد= رأيت رأيا ما أدري أتوافقوني عليه أم لا، قال: قلنا وما ذاك؟ قال: رأيت أن لا أدع هذه البنية ... يعني الكعبة مني بظهر، وأن أصلي إليها. قلنا : والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام: يعنون بيت المقدس ... وما نريد أن نخالفه. فقال: إني أصلي إليها، فقلنا له: لكنا=

الأمر كان يتعلق فعلا بقرار تاريخي ينطوي على أكثر من مغزى. إن التوجه إلى الكعبة حين الصلاة يتبعه حتما تأكيد التوجه إليها للحج والعمرة أيضا، وذلك ما حصل كما سنرى.

5- غزوة بدر – وانتقال الزعامة إلى بني أمية أولاد عم بني هاشم

وتأتي غزوة بدر الكبرى بعد شهر واحد فقط من قرار تحويل القبلة إلى مكة لتعطي لهذا القرار بعده التاريخي. لقد كسر المسلمون في هذه الغزوة شوكة قريش إلى الأبد. ذلك "أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها، كانوا في تجارة بالشام، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم، فذكر ذلك لرسول الله (ص) وأصحابه... فلما سمع بهم رسول الله (ص) ندب أصحابه وحدثهم بما معهم من الأموال وبقلة عددهم، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، ولا يرونها إلا غنيمة لهم"[12]. ولما علم أبو سفيان بالأمر أرسل إلى قريش يطلب النجدة، فبادرت قريش

لا نفعل. قال الراوي: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام (يعني بيت المقدس) واستدبرنا الكعبة، وصلى (البراء) إلى الكعبة أي مستدبرا للشام حتى قدمنا مكة وقد كنا عبنا عليه ذلك وأبى إلا الإقامة على ذلك. فلما قدمنا مكة قال لي: يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه. فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه، لأنا لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعرفانه؟ قلنا لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا نعم، وكنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً، قال: فإذا دخلتما المسجد، فإذا هو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه، فسلمنا حين جلسنا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب ابن مالك، قال كعب: فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشاعر"؟ قال: نعم، فقال له البراء بن معرور: يا رسول الله إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله بالإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر: يعني الكعبة، فصليت إليها، وخالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال قد كنت على قبلة لو صبرت عليها، فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس: أي ولم يأمره بإعادة ما صلاه مع أنه كان مسلماً؛ وبين له أنه كان الواجب عليه استقبال بيت المقدس". (السيرة الحلبية: باب عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل من العرب".

12 – الطبري، نفس المرجع، ج2، ص20. من رسالة عروة إلى عبد الملك بن مروان حول وقعة بدر.

وجهزت جيشا قوامه 950 رجلا على رأسه أبو جهل بن هشام، رجل بني مخزوم القوي. غير أن أبا سفيان استطاع أن يتلافى طريق المسلمين، إذ عرج بالقافلة نحو البحر، ودخل مكة مسرعا، وأرسل إلى أبي جهل وجيشه يخبره بنجاة القافلة، فرغب فريق من رجاله في العودة إلى مكة وتجنب الصدام مع المسلمين بينما أصر هو على الذهاب إلى "بدر"، وكانت من مواسم العرب، يقيمون فيها سوقا كل سنة للاحتفال وإظهار الفرح حتى تسمع العرب بذلك وتحتفظ قريش بهيبتها. وجرى نقاش في صفوف المسلمين الذين كان عددهم 314 رجلا بقيادة النبي نفسه، ثم أجمعوا على التصدي لجيش أبي جهل الذي دخله الانقسام، إذ انسحب منه بنو زهرة لما علموا بنجاة القافلة. كانت المواجهة إذن بين المسلمين وبني مخزوم أساسا، وقد انتصر فيها المسلمون وقتل أبو جهل وقتل معه 23 رجلا من خيرة مقاتلي هذه القبيلة، من أصل 70 قتيلا في صفوف قريش مقابل استشهاد 14 من المسلمين، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار[13].

كانت لهذه الوقعة نتائج بالغة الأهمية قررت مصير الصراع بين الدعوة المحمدية وقريش. لقد انكسرت شوكة بني مخزوم وانتقلت الرئاسة في مكة إلى أبي سفيان، وهو من بني أمية أولاد عم بني هاشم، الشيء الذي فتح الباب لإمكانية توظيف "مفعول القبيلة" الإيجابي، بالدفع بالصراع نحو نهاية مرضية مع أقل ما يمكن من الخسارة كما يحدث بين أبناء العم دائما. ويمكن أن نلمس هذا في موقعة "أُحُد" التي أرادت فيها قريش أن تأخذ الثأر لقتلاها في بدر، وكان جيشها بقيادة أبي سفيان الذي "قنع" بأخذ الثأر ورفع شعار "الحرب سجال، يوم بيوم"، مع أنه كان بإمكانه أن يطمع في جعل هزيمة المسلمين أكثر فداحة. لقد قفل أبو سفيان راجعا إلى مكة مخاطبا المسلمين: "إن موعدكم بدر للعام القادم" [14].

ومن نتائج غزوة بدر حصول المسلمين على غنائم هامة مكنتهم من التغلب على الضيق الذي كان فيه المهاجرون بالمدينة. لقد تركوا ديارهم وممتلكاتهم بمكة وهاجروا فارغي الأيدي تقريبا. ومع أن الرسول قد خفف من المشكلة بنظام "المؤاخاة" كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فإن المشكلة بقيت مع

---

13 - ابن إسحاق، نفس المرجع، ج1 ص 708-715

14 - نفس المرجع، ج2 ص 93-49

ذلك قائمة من بعض الوجوه. وهكذا جاءت غنائم بدر لتزيل الحاجة إلى نظام المؤاخاة، فجاء الوحي بإبطال الإرث بالمؤاخاة وإعادته إلى النسب فقط : "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا؛ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (الأنفال 74-75). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن سورة "الأنفال" قد نزلت بعد بدر مباشرة لتشرع لكيفية توزيع غنائم الحرب. لقد تنازع المسلمون حول غنائم بدر فقسمها الرسول "على السواء" بين من حضر المعركة من المسلمين، ثم نزلت سورة الأنفال تشرع لذلك. كما سنرى. ...

6- الدور المزدوج للغنائم ...

لم يكن اعتراض النبي (ص) لقوافل قريش التجارية بدافع الحصول على غنائم، وإنما كان ذلك من أجل حمل قريش على الرضوخ والدخول في الإسلام. لقد رفض الرسول ما عرضه عليه زعماء قريش بمكة من إغراءات مادية كثيرة، ولا شك أنه كان سيرفض أية عروض مادية تقدمها له قريش وهو بالمدينة مقابل عدم التعرض لقوافلها. لقد كان الرسول (ص) صاحب رسالة لا صاحب مطامع ومطامح، وقد عقد العزم على مواجهة جميع الضغوط والإغراءات والمضي قدما بالدعوة إلى الأمام. غير أن طبيعة الحياة البشرية تقتضي أنه لابد للنجاح من وسائل، وأولى الوسائل التي يتطلبها تجهيز السرايا والجيوش هو المال. لقد كان لا بد إذن من أن تدخل "الغنيمة" كجزء أساسي في الكيان المادي جماعة المسلمين.

غير أن دخول "الغنيمة" في كيان الجماعة، ولو في إطار خدمة الدعوة ورسالتها، كان لا بد أن يؤدي أيضا إلى دخولها في "عقل" الأفراد -السياسي والاقتصادي- ومن ثمة تصبح "الغنيمة" من جملة الحوافز التي تحرك البعض على الأقل -خصوصا والمسلمون الجدد لم يكونوا قد تشبعوا بعد بروح الرسالة- بل قد تدفع إلى نوع من الشطط في بعض الأحيان كما حدث عندما نزل نفر من الصحابة برجل من بني سليم وهو يسوق غنما، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا تقية، فقتلوه واستاقوا غنمه. وفي ذلك نزل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ

كَثِيرَةٌ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء، 94).

وعندما قرر النبي الذهاب إلى مكة معتمرا لأول مرة بعد هجرته إلى المدينة استنفر الأعراب للخروج معه، حذرا من أن تعمد قريش إلى الهجوم عليه أو منعه من دخول مكة، والقيام أيضا بنوع من "استعراض القوة" أمامها، فاعتذر أولئك الأعراب باتشغالهم بأهليهم وأموالهم. وعندما عاد النبي (ص) سالما منتصرا، انتصارا معنويا، بعد أن أبرم مع قريش "صلح الحديبية"، وكان قد وعد أصحابه حين إبرام الصلح "أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر"، جاء أولئك الأعراب يطلبون الذهاب معه إلى خيبر طمعا في الغنيمة. وفي ذلك جاء في سورة الفتح : "سيقول لك المخلفون من الأعراب (أي الذين تخلفوا عن الذهاب مع النبي إلى مكة) شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا (...) سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم (مغانم خيبر) لتأخذوها ذرونا نتبعكم (...) قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي باس شديد تقاتلونهم أو يسلمون، فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما". وتثني السورة على المؤمنين الذين بايعوا النبي على القتال حتى الموت في الحديبية (قبل عقد الصلح) وتعدهم بأن الله سيعوض لهم رجوعهم بدون قتال، وبالتالي بدون غنيمة، بغنائم أخرى كثيرة : "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة (بيعة الرضوان بالحديبية) فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم (وعدهم ثوابا لهم) فتحا قريبا ومغانم كثيرة (مغانم خيبر) يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما. (الفتح 11، 15...21).

هكذا صارت "الغنيمة" حاضرة في غزوات النبي (ص) وسراياه، يأخذها المسلمون ويوظفونها ليس فقط في تجهيز الجيوش بل أيضا في تحفيز النفوس على الجهاد، خصوصا وإستراتيجية اعتراض القوافل والاستنزاف تقتضي عملا متواصلا، سرايا وغزوات متتالية. وذلك ما حصل بالفعل، فلم يمكث النبي في المدينة بعد عودته إليها من غزوة بدر سوى سبعة أيام حتى خرج يريد بني سليم وغطفان لأنه سمع أنهم تجمعوا قريبا من المدينة، ربما للهجوم عليها؟ غير أنه لما وصل إلى المكان وجدهم قد غادروه فأرسل سرية تتعقبهم فتمكنت من مصادرة إبلهم وجاءت بها غنيمة فأخذ خمسها ووزع الباقي على من خرج معه فكان نصيب الواحد منهم سبعة أبعرة.

7- الصداع مع اليهود

وبعد غزوات ثانوية لم يكن فيها قتال ولا غنيمة قام بعد شهر أو أشهر من وقعة بدر بضرب حصار على يهود بني قَيْنُقَاع لما ظهر منهم من إساءة للمسلمين، الشيء الذي أعتبر خرقا من جانبهم لبنود الصحيفة/المعاهدة. وبعد خمسة عشر يوما من الحصار استسلموا فأجلاهم عن المدينة إلى الشام "وغنّم الله عز وجل رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال، ولم تكن لهم أرضون وإنما كانوا صاغة فأخذ رسول الله (ص) لهم سلاحا كثيرا وآلة صياغتهم... - وقيل- فيها كان أول خمس خمسه رسول الله (ص) في الإسلام، فأخذ رسول الله (ص) صفيه[15] والخمس وسهمه وفض أربعة أخماس على أصحابه"[16]. وبعد بدر بستة أشهر كانت غزوة "القردة". ذلك "أن قريشا قالت : لقد عوّر علينا محمد متجرنا (= تجارتنا) وهو على طريقنا. وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا" فاقترح عليهم أحد الخبراء بالطرق الصحراوية سلوك طريق العراق ففعلوا وسارت القافلة بقيادة أبي سفيان "وفيها مال كثير وآنية من فضة". ويبدو أن استعلامات النبي (ص) بمكة كانت نشطة إذ ما لبث أن سمع بالخبر فأرسل لاعتراضها سرية بقيادة زيد بن حارثة "فظفرت بالعير"، وأفنت أعيان القوم، وجاءت بالغنيمة إلى المدينة "فكان الخمس عشرين ألفا فأخذه رسول الله (ص) وقسم الأربعة الأخماس على السرية"[17].

وبعد موقعة أُحُد التي انهزم فيها المسلمون قام الرسول (ص) بتنظيم عدة حملات على الأعراب خارج المدينة دفعا لطمعهم في النيل من المسلمين بعد هزيمتهم تلك ولم يحصل اصطدام، ولكن حصل المسلمون على غنائم فضلا عن الفوائد المعنوية. ثم حدثت حادثة إجلاء يهود بني النضير، وذلك عندما هموا على الغدر بالنبي (ص) حينما ذهب إليهم يطلب منهم، طبقا للصحيفة/المعاهدة، المساهمة في دفع دية رجلين كان قد أعطاهما الأمان

---

15 - الصفي، والجمع. الصوافي، ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنائم قبل قسمتها وهي في الغالب شيء واحد : فرس أو أمَة أو سيف وما أشبه. وكان العمل جاريا بذلك عند العرب من قبل.

16 - الطبري، التاريخ، ج 2، ص 49

17 - نفس المرجع، ج 2، ص 55.

وقتلهما أحد المسلمين دون أن يعرف بذلك، فاظهر اليهود الموافقة ثم تـآمروا على اغتياله فعلم الرسول بذلك وعاد إلى المدينة وقـرر الاسـتعداد "لحـربهم والسير إليهم فحاصرهم ست ليال فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسـول الله (ص) بقطع النخيل والتحريق فيها... وقذف الله في قلوبهم الرعـب وسـألوا رسول الله (ص) أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل مـن أموالهم إلا الحلقة (= السلاح) ففعل، فاحتملوا من أموالهم مـا اسـتقلت بـه الإبل... فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام"[18] تاركين ممتلكاتهم وما تبقى من أموالهم "فكانت لرسول الخاصة، يضعها حيث يشاء، فقسمها رسـول الله (ص) على المهاجرين الأولين دون الأنصار... ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها"، وفيها يحدد القرآن حكم توزيع الفيء أي ما يحـصل عليـه المسلمون بغير حرب، كأموال بني النضير. وهكذا قسم الرسول (ص) ما تركه بنو النضير على أساس أنه فيء، فجعل المجموع خمسة أخماس: الخمـس لله وللرسول ولذي القربى الخ، والأربعة أخماس الباقية خـص بهـا المهـاجرين للاعتبارات المذكورة في الآية السابقة (فقراء خرجوا من ديارهم).

وحاول يهود بني النضير وبني قينقاع الانتقام، فسعوا في عقد حلـف ضد المسلمين ضم قريشا وغطفان وبني سليمان، فجاءت جموع هذا التحـالف إلى المدينة وفيهم أبو سفيان الذي حاول ضم يهود بني قريظة إلـى التحـالف المذكور، الذي سمي بـ "الأحزاب"، فانضم بنو قريظة، وكانوا يسكنون ضاحية المدينة. لجأ المسلمون إلى حفر خندق حول المدينة وتحصنوا به (وقد سـميت هذه الغزوة باسمين: غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق). وأخيرا تمكن المسلمون من زرع الخلاف والشقاق في "الأحزاب"، ثم جـاءت ريـح شـديدة فزرعـت الفوضى والاضطراب في صفوفهم، فاضطروا إلى فك الحصار ومغادرة المدينة بعد أن كادت الهزيمة تنزل على المسلمين بسبب الموقف المتخاذل الذي وقفته فئة من المنافقين. وقد نزلت سورة الأحزاب تفضح هؤلاء المنافقين وتثني على المؤمنين الصادقين: "هنالك ابتلي (= اختبر) المؤمنون وزلزلوا زلزالا شـديدا. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق مـنهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا، ولو دخلت

---

18 - ابن هشام ج2 ص 191

عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا. ثم تعطف السورة على المؤمنين وتثني على موقفهم : "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا... من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" (الأحزاب 9 ...27).

وبما أن يهود بني قريظة قد نقضوا الصحيفة/المعاهدة بانضمامهم إلى "الأحزاب، كما ذكرنا، فقد اتجه الرسول إليهم وحاصرهم فأصابهم خوف شديد وقبلوا تحكيم أحد الخبراء العرب من حلفائهم القدامى فحكم فيهم: "أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، كانوا ما بين 600 و900 رجل فنفذ الرسول الحكم فيهم. "ثم إن رسول الله (ص) قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين... فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم وللراجل، من ليس له فرس: سهم"[19].

6- هزيمة الأحزاب وصلح الحديبية : والطريق إلى استسلام أهل مكة

بانهزام التحالف المذكور أخذ رجال قريش في مراجعة حساباتهم. وفي هذا الصدد حكى عمرو بن العاص، وكان يوم الخندق في صفوف قريش، أنه بعد عودته إلى مكة جمع رجالا من قريش وقال لهم : "تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وإني قد رأيت... أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي... وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير"، فوافقوا وذهبوا إلى النجاشي يحملون الهدايا، غير أن هذا الأخير أقنع عمرو بن العاص بالإسلام -فيما يحكي هذا عن نفسه- فعاد قاصدا رسول الله (ص) في المدينة والتقى في الطريق خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فسأله إلى أين فأجابه خالد: "والله قد استقام المنسم" (تبين الطريق). لقد قرر هو الآخر الدخول في الإسلام، فذهبا معا إلى النبي (ص) للمدينة وأعلنا إسلامهما.

والواقع أن فشل تحالف "الأحزاب" (قريش وغطفان وبني سليم ...) الذي كان يضم عشرة آلاف مقاتل كان انتصارا للمسلمين لا يعدله إلا انتصارهم يوم بدر. لقد تبين لقريش بعد فشل "الأحزاب" أن القضاء على محمد وأصحابه

---

19 - نفس المرجع، ج 2، ص 4

صار من شبه المستحيل. لقد أصبحت لهم اليوم دولة، وقوتهم المادية، رجال وأموال، في تزايد مستمر، وسمعتهم وسط القبائل العربية في ارتفاع وانتشار، ونفوذهم خارج المدينة يقوى يوما بعد يوم... وإذن فالتجارة، تجارة قريش إلى الشام، ستختنق بإحكام المسلمين السيطرة على الطرق، وهم جادون في ذلك، وقد سبق للرسول (ص) قبل حصار "الأحزاب" بنحو نصف سنة (السنة الخامسة للهجرة) أن قاد غزوة على دومة الجندل، على نحو 500 ميل شمال المدينة ليعترض تجمعا لقضاعة وغسان كان يقصد الحجاز، وربما السيطرة على خطوط المواصلات بين المدينة والشام. وإذن فلم يعد المسلمون يقطعون الطريق على تجارة قريش وحسب، مستفيدين من موقع المدينة، بل إنهم أصبحوا قادرين كذلك على التوغل شمالا والسيطرة على الطرق الأخرى، بما في ذلك تلك التي تمر عبر العراق والتي كان أبو سفيان قد حاول استعمالها، كما أشرنا قبل. وأمام هذه التطورات لم يكن أمام قريش إلا أن تراجع حساباتها، خصوصا وزعيمها أبو سفيان يتقن المزج بين الحسابات التجارية والحسابات السياسية.

أما المسلمون فقد كان طبيعيا أن يشعروا بقوتهم ويعملوا على تكثيف الضغط على قريش بكل الوسائل، بما في ذلك الوسائل السلمية. وكان الوحي قد نزل عقب انتصار المسلمين في بدر يوصيهم باستعمال السلاحين معا : سلاح الحرب وسلاح السلم : "أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل... وإن جنحوا للسلم فاجنح لها... " (الأنفال 60-61). بالفعل جمع النبي (ص) في خطته بين الأمرين في صلح الحديبية الذي عقده مع قريش في السنة الموالية : السنة السادسة للهجرة. فقد خرج قاصدا مكة "يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدايا: سبعين بدنة (ناقة) للكعبة، وكان الناس سبعمائة رجل". وسمعت قريش بالخبر فأخذت تستعد لمنعه من دخول مكة، فلما سمع بذلك قال: "ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم أفعل قاتلوا وبهم قوة"[20]. ولا شك أن هذه كانت "رسالة" إلى قريش، ولا شك أنها قد تلقتها. إن الاتجاه الآن ليس إلى الملأ من قريش فقد انتهى أمرهم أو كاد، بل الاتجاه إلى المستقبل، إلى "سائر العرب". فلماذا لا

---

20 - نفس المرجع، ج2، ص 309.

ينضم إلى الإسلام من بقي من قريش للعمل جميعا على دخول "العرب" في الإسلام، وتحت قيادتهم ؟

لم يكن من المنتظر أن تستجيب قريش لمضمون هذه "الرسالة" بين عشية وضحاها، فالحلول السياسية تمر دوما عبر مراحل ووسائط : بدأت الوساطة أولا. رجال من خزاعة، (وخزاعة من اليمن وهم حلفاء تاريخيون لبني هاشم)، جاءوا النبي "فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فاخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته"، وهل كانت قريش تدافع عن شيء آخر غير "حرمة البيت"، من منظورها التجاري طبعا؟ ألا يعني حج المسلمين، ثم العرب جميعا عندما يسلمون، إلى مكة، أن عائدات قريش من الحج والتجارة لن ينالها مكروه بل ربما تزداد..؟ خواطر لا بد أن تكون قد جالت في ذهن أبي سفيان. ولكن الاستسلام بدون مقدمات غير ممكن، إذ لا بد من إنقاذ ماء الوجه. وهكذا كان : لقد جاء رجال خزاعة الوسطاء إلى مكة وخاطبوا أهلها قائلين : "يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد. إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت". فكان مما جاء في جواب قريش : "إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدَّثُ بذلك عنا العرب". ومعنى ذلك أنه لا بد من المفاوضة والصلح.

أرسلت قريش مبعوثيها وأرسل النبي من جانبه مبعوثا إلى قريش هو عثمان بن عفان (وهو من بني أمية)، ثم انتدب أهل مكة وسيطا آخر وقالوا له: "ائت محمدا فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا". وكذلك كان! فقد أبرم باسم قريش صلحا مع النبي (ص)، بمكان قريب من مكة يسمى "الحديبية" فسمي الصلح باسمه. ينص هذا الصلح على "أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه... وإنك -يا محمد- ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فاقمت ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها" (21).

إنه اعتراف من قريش بمحمد (ص) وجنوح إلى التعايش السلمي، والبقية تأتي : يقوم النبي (ص)، بعد صلح الحديبية مباشرة، بمبادرة ذات دلالة سياسية، على صعيد "القبيلة" فبعث إلى الحبشة من يخطب له أم حبيبة بنت أبى

---

21 - نفس المرجع، ج 2، ص 317-318

سفيان، وكانت قد هاجرت إليها مع زوجها الذي توفي عنها هناك. ويبارك القرآن هذه البادرة بقوله تعالى : "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة... " (الممتحنة 7). وهكذا. "تزوج رسول الله (ص) أم حبيبة فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة"، وقال عن النبي (ص) عندما علم بالأمر: "ذلك الفحل لا يقدع أنفه"[22]. ثم يأتي الوحي والمسلمون في طريق عودتهم من الحديبية إلى المدينة، فتنزل سورة الفتح تبشر النبي بفتح مكة، في المستقبل بصيغة الماضي، إشارة إلى أن المسألة هي كما نقول اليوم : "مسألة وقت فقط". قال تعالى : "إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا" (الفتح 1-3).

مرت سنتان بين صلح الحديبية وفتح مكة قام النبي خلالهما (في السنة السابعة للهجرة) بـ "عمرة القضاء"، العمرة التي نص عليها الصلح، فأقام في مكة ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة. وخلال الفترة نفسها جهز النبي (ص) ما لا يقل عن 17 غزوة وسرية. وباستثناء غزوة خيبر فإن جميع هذه الحملات كانت موجهة ضد القبائل البدوية، إما تأديبا لها أو من أجل حملها على الإسلام، أو من أجل ضمان الأمن في الطريق التجارية من المدينة والشام، مما وسع من نفوذ الإسلام. أما "خيبر" فكانت عبارة عن تجمع سكني محصن لليهود يقع خارج المدينة. وبما أن علاقاتهم مع المسلمين لم تكن مستقرة ولا خالصة فقد رأى النبي (ص) أن ينهي المشكلة معهم. فخرج في محرم من السنة السابعة للهجرة -بعد رجوعه من الحديبية- إلى حصون خيبر ففتحها واحدا بعد الآخر بعد حصار، فطلب أهلها من الرسول "أن يسيرهم (= ينفيهم) وأن يحقن دماءهم ففعل. وكان رسول الله (ص) قد حاز أموالهم كلها من جميع الحصون. فلما سمع بهم يهود "فدك" قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله (ص) يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلّوا له الأموال ففعل. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله (ص) أن يعاملهم في الأموال (الأرض) على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها (=زرعها ورعاية نخلها)، فصالحهم رسول الله (ص) على النصف، "على أنا (نحن المسلمين) إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل "فدك"، على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئا للمسلمين

---

22 - الزمخشري، الكشاف. ج4، ص 91.

وكانت فدك خالصة لرسول الله (ص)، لأنهم (المسلمون) لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب"[23]. "وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله (ص) ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم. ثم قسم رسول الله (ص) الكتيبة، وهي "واد خلَص"، بين قرابته وبين نسائه وبين رجال المسلمين ونساء أعطاهم منها"، لكل منهم عدد معين من الأوساق من "قمح وشعير وتمر وغير ذلك، قسمه على قدر حاجتهم، وكانت الحاجة في بني عبد المطلب أكثر، ولهذا أعطاهم أكثر"[24].

7- الطريق إلى مكة...

وحدث في هذه الأثناء (بعد صلح الحديبية) أن اعتدت قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة، وكانت الأولى حليفة لقريش والثانية حليفة للمسلمين، وقد تم هذا التحالف على هامش اجتماع الحديبية، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين بعد أن أيدت قريش حليفتها بني بكر. وخافت قريش أن يعتبر النبي (ص) ذلك خرقا لمعاهدة الحديبية فيهاجم مكة، فانتدبت أبا سفيان -وقد أصبح الآن صهرا للنبي- ليعتذر له باسم قريش، فجاء المدينة وقصد بيت ابنته أم حبيبة زوجة النبي (ص). ثم اتصل بأبي بكر ثم بعمر وعلي يطلب التدخل لدى الرسول (ص). وأخيرا رجع إلى مكة بينما أمر رسول الله (ص) بالاستعداد للسير إلى مكة. ولما استكمل التجهيز مضى في عشرة آلاف من المسلمين. وعندما بدأ يقترب منها خرج للقائه عمه العباس الذي لم يغادر مكة قط إلا عندما خرج مع قريش إلى بدر فأسر وأفدى نفسه بالمال وعاد إلى تجارته بمكة دون أن يعلن عن إسلامه. خرج العباس إذن ليلتقي برسول الله (ص) وجيشه في الطريق. أما زعيم قريش، أبو سفيان، فقد خرج هو الآخر إلى ضواحي مكة مع رفقة له "يتحسسون الأخبار وإذا به يلتقي بالعباس الذي كان عائدا على بغلة رسول الله (ص) في اتجاه مكة وكأنه كان معه على موعد.[25] ركب أبو سفيان مع

---

23 - ابن إسحاق ، نفس المرجع، ج2 ص337

24 - نفس المرجع، ج 2، ص 352

25- من المحتمل جدا أن يكون لقاء أبي سفيان والعباس نتيجة لاتفاق سابق وليس مصادفة، وأن تكون عودة العباس على بغلة رسول الله رمزا لموافقة النبي على نتيجة المفاوضات التي خاضها العباس -نيابة عن النبي- مع أبي سفيان، وقد ظهرت نتيجة هذه المفاوضات عند دخول النبي عليه السلام مكة مستسلمة، وقد أمر النبي (ص) أن ينادي المنادي : "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" الخ.

العباس على بغلة رسول الله (ص) قاصدا النبي ليعلن له عن إسلامه. ويتم ذلك بالفعل، ويقول العباس للنبي : "يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحّب هذا الفخر فاجعل له شيئا. قال : نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن".

ثم أمر الرسول (ص) بتنظيم استعراض لجيوش المسلمين أمام أبي سفيان فأخذت الكتائب تمر أمامه الواحدة بعد الأخرى. وعندما انتهى الاستعراض التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له : "والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما"، فرد عليه العباس. "يا أبا سفيان : إنها النبوة". فقال أبو سفيان : "نعم إذن!". ثم قال له العباس أسرع إلى قومك وأخبرهم بما حصل، فأسرع أبو سفيان إلى قومه بمكة "حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة –وكان أبوها قد قتل يوم بدر– فأخذت بشاربه فقالت : "اقتلوا الحمِّيت الدسم الأحمس (= السمين الغليظ)، قبح من طليعة القوم". قال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهر آمن. فتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد"[26]. ودخل النبي وجيشه مكة وكان "يوم الفتح". واجتمع أهل مكة حوله وخطب فيهم وقال: "ما ترون أني فاعل بكم"؟ قالوا : "أخ كريم وابن أخ كريم". قال : "اذهبوا فانتم الطلقاء". وأمر النبي بتكسير الأصنام فكسرت. وبما أنه منع استباحة مكة وسبي أموالها، الشيء الذي يحرم جيشه من الغنيمة، فقد عمد إلى اقتراض مبالغ من أصحاب الأموال من تجار مكة ووزعها على الفقراء من جيشه تعويضا لهم عن الغنيمة.

8– يوم حنين ... وجوانب من الضعف تظهر!

ثم بعث النبي السرايا إلى ما حول مكة تدعو إلى الإسلام. وكانت قبائل هوازن وثقيف (سكان الطائف) تحشدان الحشود غير بعيد من مكة لشن الهجوم عليها بعد أن فتحها الرسول (ص). وكانت هاتان القبيلتان تنافسان قريشا في

---

26 – نفس المرجع، ج2، ص 405-389

التجارة فطمعتا في الحلول محلها. وهكذا خرج النبي بجيشه، بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين "الطلقاء" بمن فيهم أبو سفيان، وعسكر بمكان بين مكة والطائف يقال له حنين (في السنة الثامنة للهجرة) واشتبك مع حشود هوازن وثقيف، ومالت الكفة لصالح هؤلاء في أول الأمر، ثم عادت لتنتهي المعركة بانتصار المسلمين، فأمر الرسول (ص) بجمع الغنائم وأرجأ توزيعها إلى حين الانتهاء من تعقب الفارين. كانت الغنائم كثيرة : عدد كبير من النساء والذراري وستة آلاف بعير وما لا يحصى من الغنم. فخير الرسول المنهزمين بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا الأبناء والنساء فأطلقهم، ووزع الأموال على المهاجرين والمسلمين الجدد دون الأنصار، فكان نصيب الواحد أربعة من الإبل وأربعين شاة، ومن كان فارسا أخذ سهم فرسه أيضا. كل ذلك من الأخماس الأربعة المخصصة للمقاتلين[27].

ولا بد من الإشارة هنا إلى بعض جوانب الضعف التي بدأت تظهر في صفوف المسلمين نتيجة هذه التطورات، خصوصا منها كثرة الغنائم ودخول الناس في الإسلام جملة ولم يكن ثمة متسع من الوقت يسمح بالارتفاع بإسلامهم السياسي الحربي إلى مستوى إسلام العقيدة والإيمان. من نقاط الضعف تلك ما يحكى من أنه لما فرغ رسول الله (ص) من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : "يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، الإبل والغنم، حتى ألجأوه إلى شجرة، فاختطفت الشجرة عنه رداءه. فقال : ردوا علي ردائي أيها الناس، فالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَما لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا"[28]. وعندما وزع الرسول (ص) الغنائم وأعطى للمسلمين الجدد "المؤلفة قلوبهم"، وكان نصيب "عباس بن مرداس السلمي أباعر، فتسخطها وعاب فيها رسول الله -في أبيات من الشعر- فقال رسول الله (ص) أذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فزادوه حتى رضي فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به"[29]. ثم أخذ الرسول من الخمس المقرر لله والرسول الخ، هدايا خص بها "أشراف العرب" من المسلمين الجدد فأعطى أبا سفيان

27 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 173

28 - نفس المرجع، ج 2، ص 175، والبخاري صحيح البخاري، ج4 ص 204. عالم الكتب. بيروت د-ت

29 - الطبري ج2 ص175

مائة بعير (وقيل ثلاثمائة)، وأعطى يزيد ابنه مائة وأعطى لمعاوية بن يزيد كذلك مائة وهكذا، فبلغ ما وزعه على "المؤلفة قلوبهم" أزيد من ألفي بعير.

ومن ذلك أيضا ما يحكى من أن رجلا من بني تميم يقال له ذو الخويصرة (واسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمي الذي يجعله المؤرخون والمحدثون أول الخوارج؟) وقف على الرسول وهو يعطي الناس فقال : "يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال الرسول (ص): أجل، فكيف رأيت؟ فقال : لم أرك عدلت. فغضب النبي (ص) ثم قال: ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله، ألا أقتله؟ فأجابه الرسول : لا، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية"[30]. وفي هذا الإطار يحكى أيضا أنه : "لما أعطى رسول الله (ص) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار شيء منها، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة (= الكلام السيئ)، حتى قال قائلهم : لقد لقي رسول الله (ص) قومه. فدخل سعد بن عبادة (زعيم الأنصار) على الرسول فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال : أين أنت من ذاك يا سعد؟ قال يا رسول الله : ما أنا إلا من قومي. قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة"، فجمعهم وخطب فيهم رسول الله (ص) فذكرهم بسابقتهم وفضلهم وقال: "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (نعيم) من الدنيا فألّفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... قالوا : رضينا رسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله (ص) وتفرقوا"[31]. وعاد الرسول إلى المدينة وسكت الأنصار راضين. ولكن "شيئا ما" في صدورهم سيفصح عن نفسه بمجرد ما يعلن عن وفاة النبي عندما سيجتمعون في سقيفة بني ساعدة

---

30 - ابن إسحاق ج2 ص 496. الطبري ج2 ص 175، البخاري، ج4 ص189

31 - ابن إسحاق ، نفس المرجع، ج 2، ص449- 500، والبخاري، نفس المرجع، ج 4، ص203.

لاختيار سعد بن عبادة زعيمهم خليفة للنبي (ص) الشيء الذي لم ينجحوا فيه إذ وقع الاتفاق على أبي بكر.

<u>9- انتكاسة وغزوة تبوك ... وسورة براءة "الفاضحة"...</u>

تلك مظاهر من الضعف البشري ظهرت بمناسبة غنائم "حنين"، وهو شيء طبيعي تماما، في مجتمع لم يمر عليه بعدُ من الوقت ما يكفي لامتصاص سلبيات الحرب -ولكل حرب سلبياتها حتى في حال النصر- ولا ما يكفي ليتحول أولئك الذين أسلموا بالسيف أو بالخوف إلى "مؤمنين صادقين" وتحقيق الاندماج الاجتماعي والانسجام في الرؤية بين أعضاء مشروع "الأمة" التي كانت ما تزال في طور التكون : أمة "العقيدة" التي يراد منها أن تتجاوز "القبيلة" و"الغنيمة" وتعلو عليهما. إن أمة "العقيدة" التي تشكلت من "السابقين الأولين" في مكة، ثم من "المهاجرين والأنصار" بعد ذلك في المدينة، قد انفتحت بفعل "الفتح"، فتح مكة خاصة، فصارت تضم إضافة إلى "المنافقين" من أهل يثرب، جموعا غفيرة من المسلمين الجدد، فيهم المنافق والمتردد والمنبهر، هذا فضلا عن "الأعراب" الذين أسلموا ولم يتجاوز إسلامهم مرتبة الولاء السياسي السطحي. كان لا بد إذن من ظهور جوانب الضعف، فلم يعد الغزو بدافع "العقيدة" وحدها، بل لقد غدا لدى كثير من المسلمين الجدد، إن لم نقل عند جلهم، يخضع لاعتبارات "القبيلة" و"الغنيمة" كما حدث في غزوة "الخندق" وشهدت به سورة "الأحزاب" وشجبته ونددت به، وكما حصل أيضا يوم حنين كما رأينا.

وتأتي غزوة "تبوك" لتكون هي الأخرى مناسبة لظهور جوانب الضعف البشري بصورة أقوى مما حدث من قبل. إن الأمر يتعلق هذه المرة، لا بغزو داخلي، غزو قبيلة أو قبائل أو فتح مدينة أو حصار حصن، بل يتعلق الأمر هذه المرة بمواجهة دولة كبرى، دولة الروم البيزنطيين. ذلك أن فتح مكة لم يكن من الأحداث العادية التي كانت تجري في جزيرة العرب بين القبائل، بل كانت حدثا دوليا: فمكة، كما بينا قبل، مركز ديني وتجاري دولي، والدعوة المحمدية لم تعد مجرد دعوة بل لقد أصبحت دولة، وإذن فالطرق التجارية الدولية أصبحت مهددة في إحدى محطاتها الرئيسية، فكان من الطبيعي أن يأتي رد فعل الروم الذين تهمهم مكة كمحطة تجارية ضرورية. لقد جهز هرقل جيشا ضم

إليه جموعا من القبائل العربية النازلة بالشام وفلسطين يريد اقتحام المدينة والقضاء على الدولة الجديدة في المهد.

ولما علم النبي (ص) بالخبر، ولم يكن قد مضى على رجوع المسلمين من حنين سوى بضة أشهر، قرر أن يأخذ المبادرة فيهاجم الروم قبل أن يهاجموه، فاستثقل الناس ذلك، وكان الوقت وقت صيف وجني الثمار "والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه"[32]. أضف إلى ذلك أن العرب كانت تخاف الروم والفرس وتتجنب الاصطدام معهما، خصوصا وذكرى غزوة "مؤتة" كانت ما تزال حية في النفوس (كان النبي قد بعث رسولا إلى هرقل فاعترضه أحد شيوخ القبائل في الشام وقتله، فجهز النبي جيشا من ثلاثة آلاف للثأر له، فكان من سوء حظ المسلمين أن وجدوا هرقل ينتظرهم في جيش كبير فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وقتل منهم عدد كبير، منهم قادته الثلاثة على التوالي، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، ولم ينقذ البقية الباقية من المسلمين إلا تدبير حربي قام به خالد بن الوليد مكنهم من الانسحاب إلى الصحراء والرجوع إلى المدينة).

كانت هذه الانتكاسة حية في النفوس عندما أمر الرسول (ص) بالاستعداد لحرب الروم، فكان ذلك مما حمل الكثيرين منهم على التقاعس والتماس الأعذار للتخلف عن الخروج. ولكن الرسول مضى في تجهيز الجيش وطلب من أصحابه "السابقين الأولين" المساهمة في النفقة عليه، وكانوا قد كسبوا أموالا بالغنائم والتجارة : ساهم أبو بكر بأربعة آلاف درهم، وقدم عمر بن الخطاب نصف أمواله، وتكفل عثمان بثلث نفقة الجيش كله، ويقال إنه أنفق ألف دينار (أزيد من عشرة آلاف درهم)[33]. ومضى الرسول (ص) على رأس هذا الجيش الذي عانى كثيرا في تجهيزه حتى سمي بـ "جيش العسرة". ويقال إنه كان يضم ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس[34]. ولكنه ما إن أخذ يتقدم نحو تبوك، على مشارف الشام، حتى بدأ بعض رجاله يتملصون وينسحبون تحت تأثير ما كان يروج في صفوفهم من كلام حول صعوبة مواجهة الروم وما

32 – ابن إسحاق، نفس المرجع، ج 2، ص516
33 – نفس المرجع، ج 2، ص 518، والواقدي، كتاب المغازي، ج 3، ص 1 99.
34 – الواقدي، نفس المرجع، ج 2، ص 102.

تنطوي عليه العملية من خطورة. وعندما وصل النبي إلى تبوك وجد أن هرقل قد غادرها إلى حمص، فجاءه أهل بعض تلك النواحي وصالحوه على الجزيـــة، وبعث خالد بن الوليد في سرية إلى بعض المناطق المجاورة فـصالحوه علـــى الجزية أيضا، ثم عاد الرسول (ص) إلى المدينة وكان هذا آخـــر خـــروج لــــه للحرب (السنة التاسعة للهجرة).

ولا بد لمن يريد معرفة ما عاناه الرسول (ص) في تجهيز جيش تبـوك وما حصل خلال ذلك وأثناء الرحلة من أنواع السلوك والتصرفات التـــي تمـيط اللثام عن بعض جوانب الوضعية التي أصبح عليها واقع مجتمع الدعوة/الدولة الجديد، لا بد من الرجوع إلى سورة التوبة (= براءة). فقد نزلت كلها -ويقال مرة واحدة- عند عودة النبي (ص) من تبوك إلى المدينة، لتضع السنقط علـــى الحروف حسب تعبيرنا المعاصر. والحق أن سورة "التوبة" التـــي نزلـــت قبـــل شهور من وفاة الرسول (ص) -وتفيد روايات معتبرة أنها آخر سورة نزلـــت من القرآن[35]- قد جاءت بمثابة تقرير نقدي، قوي وشديد، للوضعية الداخليـــة في دولة الدعوة. لقد نددت بجوانب الضعف وأوضحت المسؤوليات، ولكن من موقف القوة والشدة لا من موقف اللين والضعف. ولعل مما لـــه دلالـــة أنهـــا السورة الوحيدة التي لا تبدأ بـــ "بسم الله الرحمان الرحيم"، بـــل دخلـــت فـــي الموضوع مباشرة. ونظرا لما في عباراتها من قوة وشدة ســـماها المفـــسرون بأسماء عديدة. يقول الزمخشري : سورة التوبة "لها عـــدة أســـماء: بـــراءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحـــافرة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب. ذلك لأن فيها التوبة على المـــؤمنين، وهـــي تقشقش من النفاق أي تتبرأ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحـــث عنهـــا، وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخـــزيهم، وتدمـــدم عليهم. وعن حذيفة رضي الله عنه : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنمـــا هـــي سورة العذاب. والله ما تركت أحدا إلا نالت منه. فإن قلت : هلا صـــدرت بآيـــة التسمية (=بسم الله الرحمان الرحيم) كما في سائر السور؟ سئل ابـــن عيينـــة رضي الله عنه فقـــال : اســـم الله ســـلام وأمـــان فـــلا يكتـــب فـــي النبـــذ...

---

35 - السيوطي، الإتقان ، ص 10-87، البخاري، ج 6، ص123، الزمخشري، ج 2، ص 723

والمحاربة"[36]. وسنأتي على تفصيل ذلك في التقديم والتفسير والتعليق عندما ننتقل إليها.

* * *

وبعد فقد أتينا هنا بهذا العرض السريع لمسار السيرة وأحداثها، في مرحلة المدينة، لنكون على بينة من المسار العام الذي سيتطابق معه التنزيل بصورة شبه تامة. وإنما قلنا "شبه تامة" -ولم نقل تامة- لأن ما وصلنا من معلومات وأخبار عن هذه المرحلة، سواء على مستوى السيرة أو مستوى التنزيل، مليء بالثغرات، هذا فضلا عن المبالغات والتحزبات التي رافقتها منذ بداية روايتها وتدوينها إلى اليوم. ومن هنا كان من الضروري التعامل مع جميع تفاسير القرآن المدني بيقظة وحيطة وروح نقدية لا تكل. ذلك أن جميع المرويات والآراء والتأويلات التي رافقت مسار "فهم القرآن"، منذ وفاة النبي إلى اليوم، لا تخلو من تدخل عناصر كثيرا ما تبدو غريبة دخيلة أو، على الأقل، ينطبق عليها المثل القائل "الزيادة في الشيء نقصان"، كما ينطبق عليها عكسه، لأن الإنقاص من الشيء لا يكون في الغالب، إلا في جوانب منه، مما يؤدي إلى الزيادة في جوانب أخرى، بصورة مباشر أو غير مباشرة. لقد أوضحت لنا الصفحات الماضية كم كانت المرحلة المدنية من النبوة غنية بأحداث متداخلة متزاحمة متقلبة، ومع أن التنزيل لم يتتبعها كلها بتموجاتها فإنه يكاد يغطيها كلها بخطاب مباشر تارة وغير مباشر تارة، غير غافل عن الإجابة عن الأسئلة التي يمليها تطور الدعوة وتساؤلات الناس. وفي مثل هذه الحالة كان لابد أن تأتي الأجوبة ذات علاقة بالوضع المعيش، وبالتالي فليست ما يعبر عنها عادة بـ "أسباب النزول" هي وحدها التي يجب الأخذ بها عند محاولة فهم هذا "الجواب" أو ذلك (حكما كان أو أمرا أو خبرا أو مثلا الخ)، بل لابد من مراعاة الظرفية التي كانت سائدة... ومراعاة الظرفية بهذه الصورة تتطلب إدخال كثير من المرونة على القوالب الفكرية الأصولية وغيرها، الموجِّهة لعملية فهم القرآن، خصوصا منذ تقنين وترسيم هذه القوالب في عصر التدوين. لابد إذن من التحرر من المفاهيم المقولبة، التي تتعامل مع الذكر الحكيم كنص جامد يجب تطويع معطياته معها بينما أن الواجب هو العكس، أعني تطويعها هي مع غنى النص وحركيته، وإن اقتضى الحال التحرر منها تماما لأنها تقضي على

---

36 - الزمخشري، نفس المرجع، ج 2، 171

الحكمة من تنجيم آي الذكر الحكيم، كما هو حال مفهوم "النسخ". وسيكون لنــا رأي في مثل هذه المفاهيم كلما اقتضى السياق ذلك.

أملي أن يكون الفهم الذي نقترحه هنا لمنطوق الذكر الحكيم أقل زيــادة وأقل نقصانا. وما توفيقي إلا بالله.

الدار البيضاء. ديسمبر 2008

استهلال

القرآن المدني يشمل السور التي نزلت بعد الهجرة، سواء نزلت في المدينة بالذات أو خارجها. كما أن القرآن المكي هو ما نزل قبل الهجرة. أما عدد السور التي اشتمل عليها القرآن بصنفيه، المكي والمدني، فهو 114 سورة. وهناك اختلافات واسعة حول تحديد أي منها مكي وأي منها مدني، بالمعنى المذكور، وحول ترتيب نزولها: فكم من سورة اعتبرها بعضهم مكية وهي في رأي آخرين مدنية. وكم من سورة قال عنها بعضهم إنها مدنية بينما ارتأى آخرون أنها مكية. ومن هنا كان الاختلاف في عدد السور النازلة بمكة وعدد النازلة في المدينة. وقد يكفي أن نشير إلى أنه روي عن ابن عباس أنه قال: سألت أبيّ بن كعب (أحد كتاب الوحي البارزين المكلفين بجمع القرآن بعد وفاة النبي) عما نزل في القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة وسائرها بمكة". هذا في حين يؤكد غيره أن "المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشر سورة؛ وما عدا ذلك مكي باتفاق". وقد تتبع السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ما قيل في هذا الموضوع فجمع حشدا من الآراء والروايات يصعب الخروج منها بنتيجة واحدة، سوى القول بوجود ما لا يقل عن ثلاث لوائح لترتيب النزول، بعضها كامل وبعضها ناقص: ترتيب منسوب إلى جابر بن زيد، وترتيب نسبه البيهقي إلى عكرمة والحسين بن أبي الحسن، وآخر نسبه ابن الضريس إلى ابن عباس. أما الزركشي صاحب "البرهان في علوم القرآن" الذي اعتمد عليه السيوطي فقد ذكر ترتيبا كاملا نسبه إلى "الثقات". والترتيب المعتمد عند المتأخرين بما في ذلك الأزهريين هو المذكور في كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي. والاختلاف بين هذه اللوائح ليس كبيرا إذا نحن استثنينا الاختلاف حول بعض السورة التي اعتبرها بعضهم مكية بينما نسبها آخرون إلى ما نزل بالمدينة، أو العكس. والغالب أن هذا الاختلاف يرجع إلى تقدير صاحب هذا الرأي أو ذاك لقرب هذه السورة أو تلك لما يطبع السور المكية ويميزها عن السور المدينة على مستوى الأسلوب أو المضمون الخ.

وفي ترتيبنا راعينا جميع هذه الأمور، مستعينين أيضا بالربط بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، حريصين على الاحتفاظ بوحدة السورة، متحررين مما ترسخ من تصنيفات لا شيء يؤسسها سوى الظن والتخمين، مثل القول بآيات مدنية داخل سور مكية أو العكس، والبحث لكل آية أو سورة عن ما اعتقد هذا الراوي أو ذاك أنه "سبب" لنزولها، والتوسع بغير ضوابط في استعمال مفاهيم وردت ألفاظها في القرآن مثل مفهوم "النسخ" ومفهوم "المحكم والمتشابه" الخ. إلى غير ذلك من التصنيفات و"الأطر" التي يمكن أن تقوم بدورين مختلفين تماما: دور المعين على الفهم، ودور المعيق للفهم (عوائق معرفية).

وهكذا حصرنا السور التي نزلت في مكة في تسعين سورة جعلناها موضوعا للقسم الأول والثاني من هذا الكتاب، وقد قدمنا لكل واحدة منها بما ورد عنها في التفاسير وغيرها من المؤلفات المهتمة بالموضوع، خصوصا ما يتعلق برتبتها وأسباب نزولها الخ.

أما باقي السور وهي عشرون سورة فقد صنفناها كلها ضمن القرآن المدني. وهي تختلف طولا وقصرا، تتناول موضوعات مختلفة ظرفية في الغالب، بمعنى أنها تتحدث عن "موضوعات الساعة" – بتعبيرنا المعاصر. ومن هنا كان ترتيبها يخضع في الغالب لتواريخ الأحداث التي تتحدث عنها. ومع أن تواريخ حوادث السيرة في المدينة تختلف في بعض الأحيان عند هذا المرجع أو ذاك، فإنها في جملتها تساعد كثيرا على ضبط تاريخ النزول ومناسبته. وهذا يفسح المجال لفهم أفضل لما اصطلح عليه بـ "العموم والخصوص". فالعام سيكون ليس هو ما ورد لفظه في الصيغة اللغوية التي تفيد العموم مثل "يا أيها الذين آمنوا"، إذ كثيرا ما ترد هذه الصيغة والخطاب فيها موجه إلى البعض دون الكل، وكذلك الشأن في عبارات أخرى من قبيل "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ، و"فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" الخ، والتي تخاطب المسلمين زمن الرسول وقت إعلان الحرب مع مشركي مكة، فالعموم في مثل هذه الآيات مقيد بخصوص زمن نزولها ومناسبته. وبالتالي فليس من المعقول جعلها ناسخة لعبارات سابقة تخاطب المسلمين في وضعية غير وضعية إعلان الحرب.

وهذه مسألة سنفصل القول فيها في حينها. وإنما أردنا بذكرها هنا التنبيه إلى ما سبق أن نبهنا إليه مرارا، وهو ضرورة جعل المقروء معاصرا لنفسه، ومعاصرا لنا في الوقت نفسه :

- معاصرا لنفسه بمحاولة فهمه في إطار زمانه ومعهود المخاطبين بـه، الشيء الذي يعني بالنسبة لـ "فهم القرآن" ضرورة استحضار المرويات التي تساعد عليه وتحمل الحد الأدنى من المصداقية، مع تحري المساوقة بين مسار التنزيل ومسير الدعوة.

- ومعاصرا لنا بمحاولة تطبيق ذلك الفهم، في مجال العقيدة والشريعة، بالتمييز فيه بين "العام المطلق" و"العام المقيد"، والتزام الأول كخطاب معاصر لنا لتطبيقه، والتزام الثاني كخطاب أخلاقي لأخذ العبرة واستلهام الحلول. [1]

---

1 - سبق أن حددنا ما نقصده بهذه العبارة في "المدخل العام" الذي صدرنا به كتابنا "نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي"، حيث كتبنا نقول: . فمن جهة تحرص هذه القراءات على جعل المقروء معاصرا لنفسه على صعيد الإشكالية والمحتوى المعرفي والمضمون الإيديولوجي، ومن هنا معناه بالنسبة لمحيطه الخاص. ومن جهة أخرى تحاول هذه القراءة أن تجعل المقروء معاصرا لنا، ولكن فقط على صعيد الفهم والمعقولية، ومن هنا معناه بالنسبة لنا نحن. إن إضفاء المعقولية على المقروء من طرف القارئ معناه نقل المقروء إلى مجال اهتمام القارئ، الشيء الذي قد يسمح بتوظيفه من طرف هذا الأخير في إغناء ذاته أو حتى في إعادة بنائها"... وواضح أن "النص الديني" يختلف عن النص الفلسفي، وبالتالي فمسألة المعقولية، وتوظيف المقروء، يجب أن يفهم منهما، عندما يتعلق الأمر بمجال الدين، ما يشمل العقيدة والشريعة، كما هو مبين أعلاه..



92- سورة البقرة

تقديم

هذه السورة مدنية باتفاق. والشائع أنها أول ما نزل بالمدينة من السور. وهناك من يجعل سورة المطففين أول ما نزل بها، وقد ناقشنا هذا الرأي في القسم الثاني من هذا الكتاب حيث رتبنا هذه الأخير في الرتبة 89، قبل سورة الحج التي اعتبرناها آخرا ما نزل بمكة (قد جعلناها في رتبة 90). وهناك رأي يقول إن أول سورة نزلت في المدينة هي سورة "القَدر"، وهي مصنفة مع القرآن المكي في لوائح ترتيب النزول. أما نحن فقد رجحنا قول القائلين إنها مدنية وسنشرح مبررات ذلك لاحقا.

وهكذا فإذا كان الاتفاق حاصلا على أن البقرة سورة مدنية فإن الاختلاف كبير وواسع حول سنة نزولها. وحسب القرطبي فقد نزلت سورة البقرة في مدد مختلفة : ابتداء من أواخر السنة الثانية للهجرة. وحسب كثير من المفسرين فإن فيها آخر آية نزلت من القرآن كله وهي قوله "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (البقرة -281، بينما آخر آيات هذه السورة رقمها 286).

وقد حاول ابن عاشور تحديد وقت -أو أوقات- نزول هذه السورة فقال: إن فيها فُرض صوم عاشوراء، في السنة الأولى من الهجرة، ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية، معللا ذلك بكون النبي (ص) صام سبع رمضانات، أولها رمضان من العام الثاني من الهجرة، "فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية". وفي البخاري عن عائشة "ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده" (تعني النبي صلى الله عليه وسلم) وكان بناء رسول الله على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة، وقيل في أول السنة الثانية. وقد روى عنها أنها مكثت عنده تسع سنين، وأن توفي عليه السلام وهي بنت ثمان عشرة سنة، وكان قد بنى بها وهي بنت تسع سنين (في قول، وفي قول آخر خطبها في مكة وعمرها تسع سنين وبنى عليه في المدينة وعمرها بين العاشرة والثانية عشرة).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقول ابن عاشور إن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة، وعلى أحكام القتال مع المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام، ينبئ بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست للهجرة" ويضيف: "وقد يكون (نزولها) ممتداً إلى ما بعد سنة ثمان، كما يقتضيه قوله: "اَلْحَجّ ..." (البقرة: 197ـ203). وقد فسر ابن عاشور ذلك كله بكون السورة الواحدة في القرآن قد تبقى مفتوحة فيستمر نزول آياتها، وخلال ذلك تنزل سور أخرى بعضها يبقى مفتوحا وبعضها الآخر قد يقفل قبل تمام جميع السور. وهذه النظرية تذكرنا بما نسب لابن عباس من أن الرسول عليه السلام كانت تنزل عليه الآيات فيطلب من كتاب الوحي كتابتها وإضافتها إلى هذه السورة أو تلك، الشيء الذي يعني أن بعض السور قد تبقى مفتوحة بعد أن تقفل سورة أو سور نزلت بعدها.

هذه الآراء تطرح مسألة وحدة السورة في القرآن المدني. وقد رأينا أن القرآن المكي مبني كله على وحدة السورة وأن النبي كان يراجع القرآن مع جبريل الخ. وهذه مسألة سنعود إليها في خاتمة هذا القسم الأخير من الكتاب. أما الآن فيمكن التأكيد، بناء على تواريخ ما أشارت إليه هذه اسورة من أحداث في آياتها، على أن نزولها قد يكون قد امتد ما بين أواخر السنة الأولى للهجرة إلى أواخر السنة الثانية. أما عن موضوعاتها فمتعددة كما سنرى. وقد شغل فيها الجدل مع اليهود والمنافقين نحو 120 آية من أصل 286. والباقي أغلبه تشريعات في القتال والأحوال الشخصية.

- نص السورة

1- مقدمة: القرآن هدى للمؤمنين بالغيب، أما الكافرون فهم لا يؤمنون به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم[1]. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ: (هو) هُدًى لِلْمُتَّقِينَ[2] الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ(1) وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[3]، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ

---

1 - يؤمنون بالغيب: يصدقون ما جاء به القرآن من الأمور التي ليست موضوعا لإدراك العقل أو الحواس، مثل الإلوهية والجنة والنار وأخبار الأمم الماضية الخ.

إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[4]، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[5]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ[6]؟! خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [(2)] وَعَلَى سَمْعِهِمْ؛ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[7].

2- المنافقون: يقولون آمنا وما هم بمؤمنين!

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[8] (وهم المنافقون). يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا (يظهرون عكس ما يبطنون)، وَمَا يَخْدَعُونَ (وما يضرون) إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ[9] (وما يدرون). فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (ضعف، شك يمنعهم من التصريح بالكفر أو بالإيمان)، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[10]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ! قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ[11]! أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ[12]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ (يقصدون الموالي والعبيد ومن لا رأي له يعتد به)؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ[13] (أنهم سفهاء). وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ[14]! اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (يتيهون في ضلالهم)[15]. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[16]. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا (كناية عن تصديقهم باللسان) فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ (فعادوا إلى حالة الشك والحيرة) وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ[17]: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ[18] (من الظلمات إلى النور)، أَوْ (مثلهم) كَصَيِّبٍ (كأناس إزاء مطر شديد نزل) مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ[19] (لا يفلتون من الموت)؛ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (وقفوا، والمعنى: كلما سمعوا شيئاً مما يُحبّون صدّقوا، وإذا سمعوا ما يكرهون وقفوا". وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[20].

2- سبق أن بينا معنى قوله تعالى "ختم (أو طبع) الله على قلوبهم" الخ: أنهم قد اعترضوا من أول مرة على نبوة محمد ورفضوا دعوته بصفة جماعية، وأنهم أصبحوا بذلك سجناء هذا الموقف، وبالتالي لم يعد في إمكانهم أن يؤمنوا سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم...

3- المشركون: الترهيب ووعيد : عصيانهم من عصيان إبليس..!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ[3] اعْبُدُوا رَبَّكُمُ، الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ21: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ22. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ23، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَلَنْ تَفْعَلُوا، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ،[4] أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ24. وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، كُلَّمَا رُزِقُوا (أطعموا) مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا (من النوع) الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا (في الشكل واللون، مع أن طعمه واحد)[5]. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ (زوجات) مُطَهَّرَةٌ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ25. إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا [6]: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ (وهكذا فالمثل في القرآن بمثابة اختبار) يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا

3- الخطاب إلى المشركين، كما جرت بذلك العادة في القرآن المكي، حيث يستعمل أيها الناس، وتخصيص "الناس هنا" بـ"المشركين" يفهم من تحديهم أن يأتوا "بسورة من مثله" الخ.

4- قال بعضهم: المقصود حجرة الكبريت لأنها أشد اشتعالا.

5 - بعض المفسرين يجعلون التشابه بمعنى المماثلة في اللون والشكل دون الطعم. أما نحن فنرى أن التشابه هنا بمعنى الاختلاف : والمعنى اختلاف المظاهر (أو الأعراض) وثبات الجوهر : الطعم هو هو، ثابت غير متغير، وبعبارة القرآن "محكم"، أما اللون والشكل الخ فهي متغيرات أي "متشابهات".

6- وجه الصلة بين هذه الآية وما قبلها أن ما ذكر من قبل من طعام أهل الجنة وزوجاتهم هو من جملة الأمثلة التي يضربها الله للناس على سبيل الحجة والبيان، وأن هذه الأمثلة متساوية على مستوى القيمة الدلالية، سواء كانت مادة المثال صغيرة كالبعوض أو الذباب أو العنكبوت او كانت كبيرة كالجبال والنجوم ونظام الكون ومشاهد القيامة وأوصاف الجنة والنار، وحوار أهلهما وطعامهم وشرابهم ومتعهم وآلامهم الخ. والآية موضوع التعليق تحيل إلى ما بينته سابقتها بمثال من طعام أهل الجنة وأصحاب النار الخ. والمثل لا يؤخذ على حقيقته بل بما يرمز إليه. والمقصود من أمثال القرآن في جميع الأحوال هو العبرة، هو الترغيب أو الترهيب.

وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ[26] (7)، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[27]. كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا (عدما) فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[28]؟ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[29]. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً(8)؛ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[30]. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (أسماء المخلوقات التي خلقها الله بعد خلق آدم) (9). ثُمَّ عَرَضَهُمْ

---

7 – الفسق: قال بعض اللغويين: "لم يُسْمَع الفاسِقُ في وصف الإنْسان في كلام العَرب وإنما قالُوا فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِها". والمعنى: خرجت التمرة (أو الثمرة على العموم) عن قشرها. "وأكثَرُ ما يقالُ الفاسِقُ لِمَنْ التَزَمَ حُكمَ الشَّرْعِ وأقَرَّ به ثمَّ أخَلَّ بجميع أحكامِه أو ببَعْضِها، وإذا قِيلَ للكافِرِ الأصلّيِّ: "فاسِقٌ" فَلأنّهُ أخَلَّ بحُكْمِ ما ألْزَمَهُ العَقلُ واقتَضَتْهُ الفِطْرَةُ، وهذا هو المقصود هنا، ومن علامات هذا الفسق ما ورد في الآيات الموالية (الذين ينقضون...).

8 – اختلف المفسرون في المقصود بـ "الخليفة" (خليفة من؟) بعضهم قالوا : "جعل الله آدم خليفةً عن الملائكة الذين كانوا سكان الأرض بعد الجن. وقال آخرون : "آدم وذريته" جعلهم الله خليفة عنه في الأرض للسكنى فيها وإعمارها الخ. وتساءل بعضهم : "وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ولم يكن آدم بعد مخلوقا ولا ذريته، فيعلموا ما يفعلون عيانا"؟ قلت: هذا كله لا موجب له، لأن قصص القرآن في حكم الأمثال، هي حقائق قرآنية باعتبار المقصود مما هي رمز له.

9– ما ذكره المفسرون يختلف عما ورد في التوراة. وما ورد فيها لا يتناقض مع ما في القرآن ولكنه يختلف عن أقوال المفسرين وهي كثيرة متضاربة متناقضة مأخوذة من الإسرائيليات التي هي فكر العامة من اليهود (أنظر تفصيل القول فيها في : الطبري). أما ما ورد في التوراة فهو: "4هَذَا وَصْفُ مَبْدَئِيٌّ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ. 5وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَتَ بَعْدُ فِي الأَرْضِ شَجَرٌ بَرِّيٌّ وَلاَ عُشْبٌ بَرِّيٌّ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَرْسَلَ مَطَراً عَلَى الأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِنْسَانٌ لِيَفْلَحَهَا، 6إِلاَّ أَنَّ ضَبَاباً كَانَ يَتَصَاعَدُ مِنَ الأَرْضِ فَيَسْقِي سَطْحَهَا كُلَّهُ. 7ثُمَّ جَبَلَ (خلق) الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ، فَصَارَ آدَمُ نَفْساً حَيَّةً. 8وَأَقَامَ الرَّبُّ الإِلَهُ جَنَّةً فِي شَرْقِيِّ عَدْنٍ (باليمن) وَوَضَعَ فِيهَا آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. 9وَاسْتَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ بَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ، وَلَذِيذَةٍ لِلأَكْلِ، وَغَرَسَ أَيْضاً شَجَرَةَ الْحَيَاةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ. 10وَكَانَ نَهْرٌ يَجْرِي فِي عَدْنٍ=

(أي تلك المخلوقات) عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[31]! قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[32]. قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ؛ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ (الله): أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ[33]. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[34]. وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ[35]. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا: اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ (الشيطان من جهة وآدم وزوجه من جهة أخرى)(10)، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[36]. فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ

لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَسِمَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْهُرٍ: 11الأَوَّلُ مِنْهَا يُدْعَى فِيشُونَ، الَّذِي يَلْتَفُّ حَوْلَ كُلِّ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ يُوجَدُ الذَّهَبُ. 12وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ، وَفِيهَا أَيْضاً الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. 13وَالنَّهْرُ الثَّانِي يُدْعَى جِيحُونَ الَّذِي يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. 14وَالنَّهْرُ الثَّالِثُ يُدْعَى حِدَّاقِلَ وَهُوَ الْجَارِي فِي شَرْقِيِّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ هُوَ الْفُرَاتُ. 15وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ (بستانها) لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا. 16وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، 17وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ= تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوت. 18ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «لَيْسَ مُسْتَحْسَناً أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيداً. سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ، 19وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ (خلق) مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى= بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْماً لَهُ" (سفر التكوين -2).

10 – ليس في القرآن ذكر لكيفية خلق حواء، زوج آدم، ولكن المفسرين مجمعون تقريبا على ان المرأة خلقت من ضلع الرجل، وهذا مأخوذ من الإسرائيليات. وقد ورد في التوراة بعد العبارة الأخيرة في الهامش السابق ما يلي: "20وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. 21فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، 22وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. 23فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِىءٍ أُخِذَتْ». 24لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. 25وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهِمَا الْخَجَلُ". هذا من جهة ومن جهة أخرى ليس في القرآن ما يفهم منه أن آدم هو الذي بادر إلى الأكل من الشجرة، بينما تشرح التوراة بتفصيل كيف أن زوجة آدم هي المسؤولة، فقد ورد فيها مباشرة بعد النص السابق: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ: «أَحَقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» 2فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، 3مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ=

كلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[37] (11). قُلْنَا اهبطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا (=فإن) يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[38]، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[39].

4- تقريع يهود المدينة

أ- تذكير بنعم الله على أسلافهم ودعوتهم إلى الإسلام (12).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ[40] (خافوا)، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ (القرآن) مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا (بتحريف التوراة حفاظا على رئاستكم)، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ[41]. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ (أي التبشير بمحمد في التوراة) وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[42] (أنه حقا رسول الله)؛ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ[43] (أسلموا وقوموا بأركان الإسلام). أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (فلا تأمروها بالبر، وهو هنا الإسلام) وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ (خصوصا وأنتم تتلون التوراة) ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[44]! وَاسْتَعِينُوا

لِكَيْ لاَ تَمُوتَا». 4فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا، 5بَلْ إِنَّ اللهَ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلاَنِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». 6وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، 7فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّينِ. (سفر التكوين 3).

11- نص القرآن على توبة آدم تأكيدا على أنه هو المسؤول. وهذه التوبة ألهمها الله له، فتاب، وغفر الله له خطيئته تلك، بينما بقيت في اليهودية والمسيحية تلاحق بني آدم جميعا وهي المسماة عندهم بالخطيئة الأصلية. أما في القرآن فليس هناك خطيئة أصلية فـ"لا تزر وازرة وزر أخرى".

12- خطاب القرآن هنا إلى يهود المدينة منسجم مع الخطاب الذي وجهه لهم من مكة قبل الهجرة. هو خطاب مسالمة وتعايش ودعوة إلى تكوين أمة واحدة أساسها أن لا تناقض بين القرآن والتوراة كما نزلت. وهذا يدل على أن الفقرات السابقة نزلت قبل نشوب النزاع بينهم وبين المسلمين، يفهم ذلك من الآيات 41-46 أعلاه. أما بعد ذلك فتنتقل السورة في الفقرات التالية إلى تذكيرهم بما اقترفه أسلافهم من مخالفات لأوامر الله وبتمردهم على نبيهم موسى عليه السلام، مرة بعد مرة. وهذا التقريع لأسلاف اليهود عامة يدل على أن يهود المدينة لم يستجيبوا لدعوة القرآن، وأن العلاقات بينهم وبين المسلمين بدأت تتأزم.

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا (الاستعانة بالصبر والصلاة) لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ[45] الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[46]. يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[47]، وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (عوض)، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[48].

<u>ب- متاعب موسى مع قومه في الرحلة من مصر إلى فلسطين...</u>

وَ(تذكروا) إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ (يعني أسلافهم) مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ(13) (بإرسالنا موسى إليهم وكانوا) يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (يبقين عليهن حيات ليلدن الخدم)، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[49]؛ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ (شققناه لإحداث ممر يابس) فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ (وجنده) وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[50]. وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى (ضربنا له موعدا لمدة) أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (ذهب بعدها للقاء الله وأخذ الوحي)، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ (أي تمثالا من ذهب، صنما تعبدونه) مِنْ بَعْدِهِ (من بعد أن أرسل الله إليكم موسى) وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ[51]، ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[52]. وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ (والقدرة على التفرقة بين الحق والباطل بما منحناه من معجزات) لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[53]؛ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ (خالقكم) فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (حكموا النفس اللوامة وتوبوا)، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ. (وعندما فعلوا ذلك خاطبهم) فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[54]، وَإِذْ قُلْتُمْ (بعد سماع كلام الله، أنتم يا من جئتم إلى جبل الطور تعتذرون باسم قومكم) : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ (لن نصدقك) حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً (رؤية حسية) فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ (لما تجلى لكم وأغمي عليكم) وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[55] (ولكن لا تبصرون شيئا)، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ (بعد الإغماء) لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[56]، وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى(14) : كُلُوا

13- للوقوف على تفاصيل وقائع سيرة بني إسرائيل التي يذكر بها التقريع أعلاه يحسن الرجوع إلى "المدخل إلى القرآن الكريم" قسم القصص في القرآن المدني : 5- المرحلة الثالثة، فقرة 3: تقريع بني إسرائيل..

14- ورد في التوراة عن المن: "7وَكَانَ الْمَنُّ فِي حَجْمِ بُذُورِ الْكُزْبَرَةِ، وَشَكْلُهُ مُمَاثِلاً لِلْمُقْلِ. 8وَكَانَ الشَّعْبُ يَطُوفُونَ لِيَجْمَعُوهُ ثُمَّ يَطْحَنُونَهُ بِالرَّحَى أَوْ يَدُقُّونَهُ فِي الْهَاوَنِ وَيَطْبُخُونَهُ فِي الْقُدُورِ أَوْ يَخْبِزُونَهُ عَلَى حِجَارَةٍ مُحْمَاةٍ. وَكَانَ طَعْمُهُ كَطَعْمِ قَطَائِفَ بِزَيْتٍ. 9وَكَانَ الْمَنُّ يَنْزِلُ=

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ؛ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"57. وَإِذْ قُلْنَا (لكم) ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (إحدى القرى على صحراء سينا) فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ (أي اسقط عنا ذنوبنا) نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"58، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (لم يطلبوا إسقاط ذنوبهم)، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا (عذابا) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"59. وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ (كل فريق) مَشْرَبَهُمْ : كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"60. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ (هو المن والسلوى) فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا! قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى (أقل قيمة وجودة كالبصل) بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ (وهوالمن والسلوى) ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا (أي توقفوا في أحدى المدن في طريقكم من مصر إلى فلسطين) فَإِنَّ لَكُمْ (فيها) مَا سَأَلْتُمْ (من الخضر التي سألتم والتي لا تكون في الصحراء التي تجتازونها). وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ (في المدينة التي نزلوا فيها) وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ (يتولون الذين فعلوا ذلك)(15)، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ"61. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بالقرآن) وَالَّذِينَ هَادُوا (اليهود) وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (عبدة الكواكب يتخذونها وسائط إلى الله) (16)، (وبالإجمال: كل) مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"62.

بِنُزُولِ النَّدَى عَلَى الْمُخَيَّمِ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ." هذا عن المن، أما عن السلوى فقد ورد عنها : "31فَهَبَّتْ رِيحٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ سَاقَتِ السَّمَانَى مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ وَأَسْقَطَتْهَا عَلَى الْمُخَيَّمِ، نَحْوَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ، مِنْ كِلاَ جِهَتَيْهِ وَحَوَالَيْهِ، وَتَرَاكَمَ حَتَّى بَلَغَ ارْتِفَاعُهُ ذِرَاعَيْنِ (نَحْوَ مِتْرٍ) فَوْقَ وَجْهِ الأَرْضِ. 32فَهَبَّ الشَّعْبُ طَوَالَ ذَلِكَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَكُلَّ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي يَلْتَقِطُونَ السُّمَانَى. فَكَانَتْ أَقَلُّ كَمِّيَّةٍ جُمِعَتْ حَوَالَيْ عَشْرَةِ حَوَامِرَ (نَحْوَ أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعِ مِئَةِ لِتْرٍ)، ثُمَّ نَشَرُوهَا حَوْلَ الْمُخَيَّمِ لِتَجِفَّ".

15- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية: منهم من فهم منها أنهم قتلوا فعلا أنبياء وذكروا أسماءهم، ومنهم من قال لم يقتلوهم بالحقيقة بل بالمعنى المجازي أي أنهم ظلموا الأنبياء وهذا الظلم شنعة في مرتبة القتل. وقد اخترنا بأوسط الأقوال أعلاه.

16 - قيل هم صابئة العراق لأنهم موحدون، وقيل هم كل من لديهم بقايا من صحف إبراهيم.

ج- نقضهم ميثاقهم مع الله وعدم تقيدهم بشريعتهم: السبت والبقرة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ (جبل سينا الذي غطاه السحاب والبرق الخ، حين لقاء موسى مع ربه)[17] خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [18] وَاذْكُرُوا مَا

17- ورد في التوراة حول هذا الموضوع ما يلي: "9فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا مُقْبِلٌ عَلَيْكَ فِي هَيْئَةِ سَحَابٍ مُظْلِمٍ، فَيَسْمَعُنِي الشَّعْبُ حِينَمَا أُخَاطِبُكَ، فَيَثِقُونَ أَيْضاً بِكَ دَائِماً». وَنَقَلَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ كَلاَمَ الشَّعْبِ. 10وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْزِلْ إِلَى الشَّعْبِ وَقَدِّسْهُمُ الْيَوْمَ وَغَداً، وَدَعْهُمْ يَغْسِلُونَ ثِيَابَهُمْ، 11لِيَكُونُوا مُتَأَهِّبِينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ، لأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَنْزِلُ أَمَامَ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ. 12وَأَقِمْ حُدُوداً حَوْلَ الْجَبَلِ لاَ يَتَخَطَّاهَا الشَّعْبُ. وَقُلْ لَهُمْ: حَذَارِ مِنْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ، أَوْ تَمَسُّوا طَرَفَهُ، فَكُلُّ مَنْ يَمَسُّ الْجَبَلَ حَتْماً يُقْتَلُ13 .لاَ تَمَسُّهُ يَدٌ، بَلْ يُرْجَمُ رَجْماً أَوْ يُرْمَى بِالسِّهَامِ، سَوَاءٌ أَكَانَ بَهِيمَةً أَمْ إِنْسَاناً. لاَ يُبْقَى عَلَيْهِ. أَمَّا عِنْدَمَا يَتَرَدَّدُ صَوْتُ بُوقٍ طَوِيلٍ، فَعِنْدَئِذٍ فَقَطْ يَصْعَدُونَ إِلَى الْجَبَلِ». 14وَبَعْدَ أَنِ انْحَدَرَ مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الشَّعْبِ قَدَّسَهُمْ وَغَسَلُوا ثِيَابَهُمْ. 15وَقَالَ لِلشَّعْبِ: «كُونُوا مُتَأَهِّبِينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ، وَامْتَنِعُوا عَنْ مُعَاشَرَةِ نِسَائِكُمْ». 16وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَدَثَتْ رُعُودٌ وَبُرُوقٌ، وَخَيَّمَ سَحَابٌ كَثِيفٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَدَوَّى صَوْتُ بُوقٍ قَوِيٌّ جِدّاً، فَارْتَعَدَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمُخَيَّمِ، 17فَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمُخَيَّمِ لِلِقَاءِ اللهِ، فَوَقَفُوا عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ. 18وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ مُغَطًّى بِدُخَانٍ، لأَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ فِي هَيْئَةِ نَارٍ. وَتَصَاعَدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، وَاهْتَزَّ الْجَبَلُ كُلُّهُ بِعُنْفٍ. 19وَازْدَادَ دَوِيُّ الْبُوقِ أَكْثَرَ فِيمَا كَانَ مُوسَى يَتَكَلَّمُ، وَالرَّبُّ يُجِيبُهُ بِرَعْدٍ. 20وَنَزَلَ الرَّبُّ عَلَى قِمَّةِ جَبَلِ سِينَاءَ، وَنَادَى مُوسَى لِيَصْعَدَ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، فَصَعِدَ إِلَيْهِ.= 21فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «انْزِلْ= وَحَذِّرِ الشَّعْبَ لِئَلاَّ يَقْتَحِمُوا الْجَبَلَ لِيَرَوْنِي فَيَهْلِكَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. 22وَلْيَتَقَدَّسْ أَيْضاً الْكَهَنَةُ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ إِلَيَّ لِئَلاَّ أَبْطِشَ بِهِمْ». 23فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لاَ يَقْدِرُ الشَّعْبُ أَنْ يَصْعَدَ إِلَى جَبَلِ سِينَاءَ، لأَنَّكَ أَنْتَ قَدْ حَذَّرْتَنَا قَائِلاً: أَقِمْ حُدُوداً حَوْلَ الْجَبَلِ وَقَدِّسْهُ». 24فَأَجَابَ الرَّبُّ: «انْزِلْ وَاصْعَدْ بِأَخِيكَ هَرُونَ مَعَكَ، أَمَّا الْكَهَنَةُ وَالشَّعْبُ فَلاَ يَقْتَحِمُوا طَرِيقَهُمْ لِيَصْعَدُوا إِلَيَّ لِئَلاَّ أَبْطِشَ بِهِمْ». 25فَانْحَدَرَ مُوسَى إِلَى الشَّعْبِ وَأَنْذَرَهُمْ"(سفر الخروج 19).

18- المعنى: تمسكوا بالوصايا العشر التي أعطينا موسى حين اللقاء. وقد ورد نصها في الفصل 20 مباشرة بعد الفصل 19 أعلاه، وهي كما يلي: "ثُمَّ نَطَقَ اللهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الأَقْوَالِ: 2«أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عُبُودِيَّتِكَ. 3لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. 4لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ. 5لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهَكَ، إِلَهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ آثَامَ الآبَاءِ فِي الْبَنِينَ حَتَّى الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، 6وَأُبْدِي إِحْسَاناً نَحْوَ أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَصَايَايَ. 7لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً. 8اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ، 9سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَقُومُ بِجَمِيعِ=

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[63]؛ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (انحرفتم) مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ! فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ[64]. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[65] (19)، فَجَعَلْنَاهَا (هذه العقوبة) نَكَالًا (عقابا شديدا لهم) لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا (على ما قاموا به من المعاصي في حاضرهم وماضيهم)، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [66] (كما جعلناها عبرة للمتقين). وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (20). قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ[67]. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ (لا مسنة) وَلَا بِكْرٌ (ولا صغيرة) عَوَانٌ (هي وسط) بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ[68]. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ[69]. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ[70]. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا (21). قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ! فَذَبَحُوهَا، وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ[71] (كادوا أن لا يفعلوا). وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (اختلفتم في تعيين قاتلها)، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ[72]، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا (ببعض أجزاء البقرة المذبوحة)، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى،

مَشَاغِلِكَ، 10أَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَتَجْعَلُهُ سَبْتاً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ، فَلاَ تَقُمْ فِيهِ بِأَيِّ عَمَلٍ أَنْتَ أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوْ عَبْدُكَ أَوْ أَمَتُكَ أَوْ بَهِيمَتُكَ أَوِ النَّزِيلُ الْمُقِيمُ دَاخِلَ أَبْوَابِكَ. 11لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ صَنَعَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِهَذَا بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَجَعَلَهُ مُقَدَّساً. 12أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ يَطُولَ عُمْرُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي يَهَبُكَ إِيَّاهَا الرَّبُّ إِلَهُكَ. 13لاَ تَقْتُلْ. 14لاَ تَزْنِ. 15لاَ تَسْرِقْ. 16لاَ تَشْهَدْ زُوراً عَلَى جَارِكَ. 17لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ جَارِكَ، وَلاَ زَوْجَتَهُ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لَهُ».

19- قيل إن جماعة من يهود مدينة أيلة على البحر الأحمر احتالوا على يوم السبت -الذي يمنع عليهم فيه الصيد وغيره- واتخذوا وسيلة لاصطياد السمك فيه بوضع نوع من الشباك يوم الجمعة على شاطئ البحر يتجمع فيها السمك يوم السبت ويأخذونه يوم الأحد. قيل كان ذلك في زمن سليمان. انظر قصة يحكيها بعض المفسرين حول هذا الموضوع وكيف تحولوا إلى قردة الخ، في القسم الأول من هذا الكتاب، سورة الأعراف هامش 24.

20- ذبح بقرة من أجل التكفير عن خطيئة قتلهم نفسا كما سيرد لاحقا.

21- "إنها بقرة غير مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير معدة للسقي من الساقية، وخالية من العيوب جميعها، وليس فيها علامة من لون غير لون جلدها".

وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[73] [(22)]. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، (أشد قسوة من الحجارة) : وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ (من أعلى الجبال) مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، (ولكن قلوبكم لا تلين)، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[74].

د- ... أميون أدعياء ... لا يعلمون الكتاب...

أَفَتَطْمَعُونَ (خطاب للرسول والمسلمين) [(23)] أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ (أن يصدقوا القرآن) وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (من اليهود) يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ (القرآن) ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (عرفوه وفهموه) وَهُمْ يَعْلَمُونَ[75]؟ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا (المسلمين)، قَالُوا آَمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا: أَتُحَدِّثُونَهُمْ (أتحدثون المسلمين في ردودكم عليهم) بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (بما في التوراة) لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ[76]!؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ[77]. وَمِنْهُمْ (من يهود المدينة) أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ (إدعاء)، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[78]. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ (يفترون على التوراة ويحرفونها) بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (يفتون حسب رغبة السائل ليأخذوا الرشوة منه)، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ[79] (بالرشوة). وَقَالُوا (يهود المدينة) لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً! [(24)] قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ (أخذتم منه) عَهْدًا! فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[80]؟ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[81]. وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[82].

22- في الفقرة تقديم وتأخير: والمعنى: قتلتم نفسا فاختلفتم فيها كل يتبرأ من التهمة، فأخرجكم الله من هذه المشكلة بأن طلب منكم أن تذبحوا بقرة وتضربوا المقتول ببعض أجزائها ليعود حيا ويخبركم بقاتله.

23- قيل: "كان للأنصار حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم".

24 - عن ابن عباس قال : "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب".

هـ- لا يحترمون الميثاق: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ"؟

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؛ (25) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ[83]. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ[84]، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ (تقتلون فريقا منكم)(26)، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ (تتحالفون ضدهم) بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ! وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ (في التوراة) إِخْرَاجُهُمْ! أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[85]. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[86].

و- أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ...!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ[87] ؟ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ[88]! وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (القرآن) مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا(27)، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا

25- انظر الوصايا العشر، الهامش السابق رقم 16

26- هنا تذكرهم السورة بما حدث من اقتتال بين يهود المدينة عندما تحالف فريق منهم (قريظة والنضير) مع الأوس، وتحالف آخرون (بني قينقاع) مع الخزرج، في "يوم بُعاث" قبل الهجرة بخمس سنين، وهو اليوم الذي تقاتلت فيه الأوس والخزرج. وخلال الحرب كان اليهود المنتصرون يجلون اليهود المنهزمين من ديارهم ويأسرونهم. وعندما انتهت الحرب جمعوا من المال ما يفدون به اليهود الواقعين أسرى لدى كل من الأوس والخزرج، وقد أثار ذلك دهشة العرب فقالوا لهم: قاتلتموهم بالأمس ثم تفدونهم اليوم؟ فأجاب اليهود قد حرم علينا قتالهم ولكنا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا الله أن نفدي الأسرى. وقد رد عليهم القرآن: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ (تفدون أسراكم) وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ" (تتقاتلون، وهذا محرم عليكم)؟

27- كانوا يهددون خصومهم من العرب قبل قيام الدعوة المحمدية بأن نبيا على وشك الظهور وأنهم سيتحالفون معه ضدهم. والاستفتاح: طلب الفتح والنصر.

عَرَفُوا[28] كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ89. بِئْسَمَا اشْتَرَوْا (باعوا) بِهِ أَنْفُسَهُمْ (وهو) أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا (حسدا منهم) أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (على النبي محمد)، فَبَاءُوا (فجازاهم الله) بِغَضَبٍ (بسبب إنكارهم لنبوة محمد) عَلَى غَضَبٍ (سابق كإنكارهم نبوة عيسى أو عبادتهم العجل) وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ90. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ (جاء بعده: القرآن) وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ91. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ92. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ[29] خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا، قَالُوا سَمِعْنَا (قولك) وَعَصَيْنَا (أمرك)! وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ (حب) الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ (اعتقادكم)، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ93. قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ94! وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، بِمَا (بسبب ما) قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (من ذنوب)، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ95. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا (أكثر حرصا عليها من المشركين)! يَوَدُّ أَحَدُهُمْ (اليهود) لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ (=طول العمر لا ينجيه من عذاب القيامة)، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ96. قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ[30] فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ (يا محمد) بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ97، مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ98 (ومنهم هؤلاء اليهود). وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ99. أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ100. وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ! (والحال أن) كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ101. وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ! وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ

28- ما عرفوا: أي النبي الذي كانوا يعرفون ظهوره وكانوا يستفتحون به.

29- انظر أعلاه الفقرة 5 الآية 63:

30- في التوراة أن النبي دانيال قد رأى رؤيا فعبرها له جبريل بكون أورشليم سيكون مصيرها الخراب قريبا. ولهذا رأى اليهود في جبريل الذي يأتي بالوحي للنبي محمد عليه السلام، نذير شؤم، رأوا فيه عدوهم. (التوراة. سفر دانيال الإصحاحان 8 و9)

كفرُوا؛ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ(31) وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمُوا (أن) لَمَنِ اشْتَرَاهُ (آمن بالسحر) مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (باعوها به) لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ102. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ (لنالوا ثوابا) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، (وذلك) خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ103.

<u>ز– وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...</u>

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا(32)، وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ104. مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ (نبوة وكتاب) مِنْ رَبِّكُمْ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ105. مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ106 (33). أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

31- اختلف المفسرون في معنى هاروت وماروت وانساقوا في ذلك مع الإسرائيليات فذكروا قصصا خرافية. وقد ندد ابن عاشور بذلك وقال: وهاروت وماروت، بدل من الملكين، وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية، والظاهر أن هاروت معرب هاروكا وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب ماروداخ وهو اسم المشتري عندهم، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة وهي من المعبودات المقدسة التي هي دون الآلهة، لاسيما القمر فإنه أشد الكواكب تأثيرا عندهم في هذا العالم وهو رمز الأنثى، وكذلك المشتري فهو أشرف الكواكب السبعة عندهم، ولعله كان رمز الذكر عندهم كما كان بعل عند الكنعانيين الفينيقيين. ومن المعلوم أن إسناد هذا التقديس للكواكب ناشئ عن اعتقادهم أنهم كانوا من الصالحين المقدسين، وأنهم بعد موتهم رُفعوا للسماء في صورة الكواكب فيكون هاروكا وماروداخ قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين في البلاد، وهما اللذان وضعا السحر (تفسير ابن عاشور).

32- قيل إن سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا إذا ألقى النبي عليهم القرآن طلبوا منه أن يراعيهم فلا يسرع في إلقائه حتى يعوه، فيقولون: راعنا يا رسول الله، راعي وضعنا ولا تعجل. وهذه الكلمة "راعنا" كان يقولها اليهود للنبي وهي عندهم تحمل معنى الشتم والسب. فجاءت الآية تطلب من المسلمين عدم استعمال تلك الكلمة في مخاطبة الرسول.

33- نحن نعتقد أن المقصود بالآية هنا، ليس الوحدة الخطابية من القرآن المسماة بهذا الاسم، بل المقصود : العلامات والحجج الدالة على وحدانية الله والكتب المنزلة على=

وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[107]. أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[108]. وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [109]. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[110]. وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى! تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[111]. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[112]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ (بمعنى أن اعتقادهم وعبادتهم لم تعد لها المصداقية)، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ! (كل منهم يقول ذلك في صاحبه، وهم معا يقرؤون التوراة، مرجعهم جميعا!) كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[113]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ

رسله المثبتة لذلك الخ، بما فيها معجزات الأنبياء، وهكذا فبعد إخباره تعالى المسلمين بأن اليهود يحسدونهم، وفي نفس الوقت يستعملون كلمات لشتم الرسول، والمسلمون في غفلة عن معانيها، وبعد قوله "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ (نبوة وكتاب) مِنْ رَبِّكُمْ"، يؤكد : ما من علامات ومعجزات ودلائل نبوة يمحوها ويمسحها أو يجعل الناس ينسونها، إلا ويأتي بمثلها أو أحسن منها. وهكذا خص موسى، مثلا، بالعصا الخ، ولكنه تركها وخص عيسى بأحسن منها مثل أحياء الموتى، ثم خص محمد بالقرآن الذي فيه خبر كل ذلك وأكثر! وتؤكد الآية هذا المعنى بقوله تعالى "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"؟ بمعنى : لا نحتاج إلى مزيد بيان في هذا الموضوع فأنت تعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنت تعلم أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهذا مبين في القرآن... وتأتي الآية اللاحقة لتخاطب المسلمين الذين كانوا يقولون للنبي "راعنا" تقليدا لليهود لتخاطبهم مع عتاب: "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ"؟، وبالتالي فهذه الآية لا علاقة لها بالتشريع بل هي تندرج في مجال العقيدة. وهكذا يتضح من خلال اعتبار السياق ووحدة الخطاب أن تلك الآية التي يسميها المفسرون والفقهاء بـ "آية النسخ" والتي يتعاملون معها مقطوعة عما قبلها وما بعدها، هي في الحقيقة تقع في مركز السياق الخاص، سياق الجدل من اليهود... كما في مركز السياق العام، الإيمان بقدرة الله وما يظهره من علامات ومعجزات هي آيات أي دلائل. انظر مزيدا من التفاصيل في موضوع "النسخ" باصطلاح الفقهاء في الاستطراد الذي ننهي به الكلام في هذه السورة.

مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا[34]، أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا (مساجد الله) إِلَّا خَائِفِينَ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"114. وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ[35]، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"115. وَقَالُوا (اليهود والنصارى) اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ"116. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"117. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (من اليهود والنصارى) لَوْلَا (هلا يا محمد) يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (منه حتى نصدقك)! كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (لرسلهم) مِثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ! قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"118. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ"119. وَلَنْ تَرْضَى

34- اختلف المفسرون في تعيين المشار إليهم في هذه الآية، وقد رجح الطبري التفسير التالي، قال: هم "النصارى، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده". أما ابن عاشور فقد رجح ما ورد في رواية عن ابن عباس من أن "الآية نازلة في مشركي العرب ... وهي تشير إلى منع أهل مكة المسلمين سكان المدينة من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد أويتم الصُّبَّاء (جمع صاب، وهو المائل عن دين أهله) كان ذلك قبل الحديبية". وتأويل ابن عاشور معتمد على أن قوله تعالى "مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ مِن رَبِّكُمْ" (البقرة: 105) عطف بيان ما تفرع عن عدم ودادة المشركين نزول القرآن فبين أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى"... هذا في حين أن هذه الآية تتحدث أيضا وبالقصد الأول عن "الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ". والسياق كله سياق الجدل مع أهل الكتاب وبين تصرفاتهم المخالفة لتعاليم التوراة. ولذلك فالتأويل الذي أختاره الطبري أقرب إلى السياق وأنسب للحفاظ على وحدته.

35- قيل: "نزلت في قوم من الصَّحابة سافروا فأصابهم الضَّباب فتحرَّوا القِبلة وصلَّوا إلى أنحاء مختلفةٍ، فلمَّا ذهب الضَّباب استبان أنَّهم لم يصيبوا، فلمَّا قدموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت"، وقوله تعالى: "فأينما تولوا" أيْ: تصرفوا وجوهكم "فثَمَّ وجه الله" أيْ: فهناك قِبلة الله وجهته التي تعبَّدكم الله بالتوجُّه إليها"،(الواحدي). قلت: وهذا لابد أن يكون قبل تبديل القبلة. لكن السياق لا يحتاج إلى هذه الرواية، مرتبطة بما قبلها، والخطاب للنصارى الذين منعوا (من منعوا) من دخول المسجد بالقدس، فجاءت هذه الآية ترد عليهم بأن الله ليس في مكان واحد معين؛ بل هو في كل مكان : "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ".

عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[120]. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (بعض علماء اليهود) يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ (من اليهود والنصارى) فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[121]. يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[122]. وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (عوض)، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[123] (36).

5- الرجوع إلى إبراهيم جدا العرب وأصل الدين

وَإِذِ (اذكر يا محمد حين) ابْتَلَى (اختبر) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، (هذه الكلمات هي) قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ (إبراهيم) وَمِنْ ذُرِّيَّتِي! قَالَ (الله) لَا يَنَالُ عَهْدِي (هذا إليك بالإمامة) الظَّالِمِينَ[124] (منهم). وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ (الكعبة) مَثَابَةً (مقصدا لهم يحجون إليه) لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَ(قلنا لهم) اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى(37)، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[125]. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ: (خصوصا) مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[126]. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ

36- إلى هنا كان الجدل مع اليهود في مستوى اللوم والتقريع. والرد على ألاعيبهم وتحدياتهم، لكن الآيات الأخير تشعر بأن ذلك لم يعد مجديا وأنهم مصرون على عدم الانضمام إلى الإسلام بل هم طامعون في انضمام الرسول والمسلمين إليهم. ويتأتي في الفقرة التالية.

37- مقام إبراهيم: المكان الذي وضع عليه قدميه ...وهذه الآية تزكي الرواية السابقة هامش 32 أعلاه. هذا وكنا كتبنا في "المدخل إلى القرآن" (القصص في القرآن. المرحلة الثالثة فقرة 6) حول آيات هذه الفقرة ما يلي، نعيده هنا للتذكير: "كانت قصة إبراهيم بمختلف صيغها في المرحلة المكية تندرج في إطار القصص المكي الذي كان في جملته يدعو قريشا إلى استخلاص العبرة مما لحق بالأقوام الذين كذبوا أنبياءهم من هلاك وتدمير، وما خص الله به أنبياءه من معجزات جعلتهم ينتصرون ويفلتون من مؤامرات خصومهم. أما هنا في المدينة، حيث أخذ الصراع مع اليهود يشتد، فالأمر يختلف. ولذلك كان لا بد من العودة إلى شيخ الأنبياء جد العرب واليهود، لإعادة ترتيب العلاقة بين الجد وحفدته، بما يؤسس لعملية تحويل القبلة ويعطيها السند التاريخ".

الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (قائلين): رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[127]. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا (العرب: ذرية إبراهيم من ابنه إسماعيل) أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[128]. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ (في العرب ذريتنا) رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[129] (38). وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ (يدين بغير الحنيفية، أي الإسلام) إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ؟! (من سَفِهت نفسُه، يقصد اليهود)، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ[130]. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[131]. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ (حفيده وصى بها كذلك بنيه فقال): يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[132]. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ (أيها اليهود) إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[133]. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[134]. وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا، قُلْ (يا محمد لليهود) بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[135]. قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[136]، فَإِنْ آمَنُوا (اليهود) بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (عصيان لله)، فَسَيَكْفِيكَهُمُ

38- في التوراة قصة أخرى شبيهة ورد فيها: "وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ عندما ارتحل مع أبيه وأهله من بلده أور بأرض الكلدانيين واستقر في "حاران": «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ (في حاران) وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، 2فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لِكَثِيرِينَ). 3وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». 4فَارْتَحَلَ (وأهله) أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ" (...)، وَانْطَلَقُوا جَمِيعاً إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ (فلسطين) إِلَى أَنْ وَصَلُوهَا. 6فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ، إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ. 7وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً (مكانا للعبادة) لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. 8وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ (ومعناها بيت الله، و تسمى اليوم: بيتين شمال= شرق القدس) حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ غَرْباً وَعَايَ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. 9ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ (إلى مصر) لِيَتَغَرَّبَ فِيهَا لأَنَّ الْمَجَاعَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً فِي الأَرْضِ. (التوراة. سفر التكوين 9).

اللَّهُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[137]. (ألزموا جميعا) صِبْغَةَ اللَّهِ (فطرة الله المقصود: دين إبراهيم، دين الفطرة، دين الحنيفية)، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ[138]؟. قُلْ (يا محمد) أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ[139]. أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى (وقد عاشوا قبل نزول التوراة والإنجيل)؟ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ (الذي أخبر في القرآن أنهم كانوا مسلمين)؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (كما تكتمون ما في التوراة والإنجيل من البشارة بالنبي محمد)؟ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[140]. تِلْكَ أُمَّةٌ (من أسلافكم أيها اليهود) قَدْ خَلَتْ (مضت) لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[141].

أ- تحويل القبلة والقطيعة مع اليهود...

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ (اليهود وحلفاؤهم المنافقون) مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (=بيت المقدس) [(39)]؟ قُلْ (يا محمد) لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[142]. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ (أيها المؤمنون برسالة محمد) أُمَّةً وَسَطًا (بتحويل القبلة إلى مكة) [(40)] لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

39- اختلفوا في تاريخ تحويل القبلة على أقوال: بعضهم قال بعد ستة عشر شهرا بعد الهجرة وبعضهم بعد ثمانية عشر شهرا. وقال آخرون إن تحويلها كان قبل غزوة بدر بشهرين، وذلك في رجب من سنة اثنتين. وقال غيرهم صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام سواء؛ وذلك أن قدوم الرسول المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان (القرطبي). وقد ذكر ابن إسحاق أنه : "لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة_؛ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض كبار اليهود فقالوا : "يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم الآيات أعلاه.

40- مكة وسط جغرافي: اليهود يصلون إلى بيت المقدس في الشمال الغربي لمكة، والنصارى يصلون إلى الشرق، والمسلمون إلى مكة. فلكل قبلته. وعلى هذا يكون معنى الوسط هنا : الوسط الجغرافي. وهذا يزكيه قوله تعالى : " لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" لكون أن مكة، قبلتكم ، تقع في الوسط تراقب اليهود المتجهين شمالا والنصارى المتجهين شرقا.

النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (رقيبا). وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا (أي بيت المقدس) إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ (41)، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ143. قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ144. وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ (علامة ودليل تثبت أن الكعبة بناها إبراهيم وهي أجدر بأن تكون قبلة لذريته) مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ145. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ (=محمدا على أنه النبي المبشر به في التوراة) كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ146. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ147 (الشاكين في نبوتك وما يوحى إليك). وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا (لكل أهل دين قبلة يستقبلونها)، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (سارعوا إلى التوجه إلى القبلة وإلى ما سيترتب عن ذلك من خيرات). أَيْنَ مَا تَكُونُوا (أيها المسلمون) يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا (42) (يجمعكم بالتوجه إلى الكعبة حين الصلاة والحج)، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ148. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ149. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي (43)،

41- المعنى: تحويل القبلة أمر كبير الشأن وصعب على النفوس إلا على الذين هدى الله. وقد روي: "أنه لما حولت القبلة ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم". هذا بينما كان هناك من أهل يثرب من أبدى انزعاجه من الصلاة إلى بيت المقدس وصلى إلى الكعبة قبل هجرة الرسول إلى المدينة، فسكت عنه ولم يأمره بإعادة الصلاة. انظر مقدمة الكتاب هامش **10**.

42- يميل معظم المفسرين إلى القول "يجمعكم الله يوم الحساب". ونحن نرى أن السياق ليس سياق الكلام عن المعاد والقيامة الخ، بل السياق هو التوجه إلى الكعبة وبالتالي فالأولى أن يكون المعنى كما أثبتنا.

43- قيل : "كان اليهود يقولون: ما درى محمدٌ أين قبلته حتى هديناه؟ ويقولون: يخالفنا محمدٌ في ديننا ويتبع قبلتنا، فهذا كان حجتهم التي كانوا يحتجون بها تمويها على الجهال،=

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ (بتوجهكم شطر المسجد الحرام) وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[150] (إلى الدين الحقيقي دين إبراهيم) كَمَا (أتممت عليكم نعمتي بأن) أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ[151]، فَاذْكُرُونِي (قدروا نعمتي هذه حق قدرها) أَذْكُرْكُمْ (أزيد لكم). وَاشْكُرُوا لِي (اعترفوا بذلك) وَلَا تَكْفُرُونِ[152] (لا تجحدون نعمتي عليكم)(44). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[153] وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ (45)، وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ[154]. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ

فلمّا صُرفت القبلة إلى الكعبة بطلت هذه الحجّة، ثمّ قال تعالى: "إلاّ الذين ظلموا منهم" من النّاس، وهم المشركون فإنّهم قالوا: توجّه محمدٌ إلى قبلتنا، وعلم أنّا أهدى سبيلاً منه، فهؤلاء يحتجّون بالباطل، ثمّ قال: "فلا تخشوهم" يعني: المشركين في تظاهرهم عليكم في المُحاجّة والمحاربة"، واتبعوا ما أمرتكم به: التوجه إلى القبلة.

44- للكفر معنيان: الشرك بالله وتكذيب الرسول من جهة، وجحد وإنكار نعم الله (كفر نعمة)، وهو المقصود هنا، فالخطاب للمؤمنين لا للكفار.

45 – عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في قتلى غزوة بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وقيل إنها نزلت ردا على خصوم المسلمين من اليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون: إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة محمد من غير فائدة... ونحن نرجح هذا الرأي الأخير لأن السياق يقتضيه كما سنبين في الهامش التالي. أما معنى كونهم ليسوا بأموات بل أحياء فقد اختلف المفسرون فيه اختلافا كبيرا. أما نحن فنرى أن مبدأ "القرآن يفسر بعضه بعضا" يقتضي فهم هذه الآية على ضوء آيات مماثلة تستعمل صيغة الماضي والحاضر بمعنى المستقبل مثل قوله تعالى: "إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" (الانفطار: 13-14) وقوله: "أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا" (الكهف: 29) وقوله: "إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ" (النساء: 145) وقوله: "فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" (الحج: 56) ... كل ذلك بمعنى أنهم سيصيرون كذلك في الآخرة. وكذلك الشأن في الآية أعلاه بمعنى أن الذين قتلوا في سبيل الله هم شهداء سيحيون فيثابون وينعمون في الجنة. وبعض المفسرين يتخذون هذه الآية دليلا على "عذاب القبر". ذلك أنه لما كان القرآن خاليا من ذكر "عذاب القبر" مع أنه أطال في ذكر ما يجري بعد الموت وقيام القيامة من بعث وحساب وثواب وعقاب وكرر ذلك مرارا ، كما بينا سابقا، فإنهم يحاولون دعم فكرة "عذاب القبر" -الغريبة عن القرآن- بتأويل آيات بطريقة من يريد أن يستخرج منها ما يريد هو، وليس ما تقوله وتقرره هي. وهكذا يقولون بخصوص الآية أعلاه، إن المقصود بكونهم "أحياء" هو كونهم كذلك في "الحاضر"، أي هم أحياء قبل البعث وقيام القيام، ومن هنا قالوا : "وإذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم على ما يأتي، فيجوز أن يحيي الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر". هذا كله على أساس=

بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ-155 الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ-156، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ 157.(46)

ب- ... شعائر الحج ...

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا، فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ-158 (47). إِنَّ الَّذِينَ

"يجوز" و"يجوز"... في حين أن القرآن محكم كله، والمتشابهات فيه تسرد إلى المحكمات، وليس هاهنا متشابه فاستعمال الماضي والمضارع في معنى المستقبل لوصف ما سيكون في الجنة أو في النار، استعمال جار بكثرة كاثرة في القرآن، والهدف تأكيد وقوع ما يخبر به أنه سيقع. أما فكرة "عذاب القبر" وما يتصل بها من القول بـ "نكير ومنكور" فليس لها أصل في القرآن إطلاقا. إنها من الموروث القديم السابق على الإسلام. أما الأحاديث المروية في الموضوع فالغالب أنها من نوع أحاديث "الترغيب والترهيب" التي يتساهل نقاد السند في شأنها من أجل الهدف منها : أعني: الترهيب والتخويف بهدف تجنب ما فيه حساب في الآخرة.

46- السياق متصل في هذه الآيات، من آية 149 إلى الآية 157 وهو امتداد لموضوع تغيير القبلة، وبالتالي فهو لا يتحمل أن يكون قوله تعالى "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ" (154) قد نزل في قتلى بدر كما روي عن ابن عباس، بل الأولى أن يقال نزل في الذين قتلوا لأسباب مختلفة حين الهجرة وبعدها (في إحدى السرايا) التي كان الرسول ينظمها قبل غزوة بدر(راجع مقدمة الكتاب) وفي هذه الحالة تكون الرواية الثانية (الهامش السابق) أقرب إلي السياق. إن الجمع بين الدعوة إلى الصبر، والاختبار بالجوع، و"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ" الخ، لا يستقيم مع الانتصار الذي حققه المسلمون في غزو بدر والفرحة الكبرى التي أحدثها في نفوسهم. ولذلك فنحن نميل إلى القول بأن هذه الآيات نزلت قبل غزوة بدر وفي وقت كان يعاني فيه الرسول والمسلمون ضيقا شديدا على مستوى المعاش، وكان ذلك في أول مقامهم بالمدينة، وفي هذا الإطار روي: أنه عليه السلام كان يشد الحجر على بطنه، وأنه لما خرج من بيته التقى مع أبي بكر قال: ما أخرجك؟ قال: الجوع! قال: أخرجني ما أخرجك"؟

47- الصفا والمروة جبلان معروفان بهذين الاسمين، كان يطوف عليهما العرب قبل الإسلام وعليهما صنمان من أصنامهم، وهذا الطواف (أو السعي بينهما) كغيره من شعائر الحج ومناسكه يرجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقد أمر الله بنيه أن يتبعوا ملة إبراهيم. ولذلك قال "فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا". والمعنى من جاء الكعبة حاجا – وهو يتردد عليها مرارا– أو معتمرا، أي للزيارة والانصراف، فلا إثم عليه إن هو طاف=

يَكْتُمُونَ(أي اليهود) مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى (48) مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ (في التوراة)، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ[159]، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا (ما كتموا) فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[160]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[161]، خَالِدِينَ فِيهَا (في جهنم)، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[162] (يُمهلون). وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ[163]. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[164]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا (له تعالى، مثل الأحبار والرهبان) يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (49)، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ. وَلَوْ يَرَى

بهما. أي فلا يعتقد أنه في السعي بينهما إثم لكون مشركي مكة كانوا يفعلون ذلك، يطوفون على أصنامهم التي وضعوها في الصفا والمروة. ذلك لأن الطواف عليهما هو من مناسك الحج التي سنها إبراهيم. وقد اختلف المفسرون والفقهاء في حكم هذا الطواف: هل هو تطوع كما قد يفهم من الآية؟ أم أنه واجب بناء على أن النبي عليه السلام قد قام به.

48- كثير من المفسرين أولوا الآية كما يلي: "يكتمون ما في التوراة والإنجيل من التبشير بالنبي محمد عليه السلام والدعوة إلى أتباعه". ونحن نرى أن هذا بعيد عن سياق الآيات السابقة والتالية، وإذن فلا بد أن يكون موضوع الكتمان متعلقا بالآية السابقة (الصفا والمروة)، وبالتالي يكون الكتمان المقصود هو كتمان اليهود أن "الصفا والمروة من شعائر الله" وأن السعي بينهما منسك من مناسك إبراهيم وأن هذا عندهم في التوراة، وبالتالي فكون العرب كانت تطوف عليهما قبل الإسلام تقليد منحدر إليهم من جدهم إبراهيم وأنهم هم الذين وضعوا فيهما الأصنام. اليهود يكتمون هذه الحقيقة لعيروا المسلمين بكونهم يتجهون بقبلتهم إلى مكان فيه أصنام قريش (اللات والعزى) يوغرون بذلك قلوب الأنصار الذين كانوا يتجهون نحو صنمهم "مناة" الخ. هذا الفهم يزكيه ما روي عن ابن عباس من أن بعض الصحابة من الأنصار سألوا نفرا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم" فنزلت هذه الآية. وإذن فليس من المستبعد أن يكون السؤال حول الطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة. هذا ومن المفيد الرجوع هنا إلى النص الذي اقتبسناه سابقا من التوراة حول رحلة إبراهيم وبنائه البيت الخ. انظر أعلاه هامش 35.

49- كثير من المفسرين يشرحون "الأنداد" هنا بمعنى الأصنام، وهذا لا يستقيم فالأصنام كانت تعبد، بوصفها رموزا، ولا معنى للقول إنهم كانوا يحبونها كما يحب المؤمنون الله. ثم إن وصف العلاقة بين الأصنام ومن يعبدها بكونها علاقة متبوع بتابع لا يستقيم! من=

الَّذِينَ ظَلَمُوا (الرهبان والأحبار، لو يعلمون)[50]، إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ، أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ[165]، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ[166]، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا؛ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ[167].

ج- *رفض لمبدأ..." نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"* .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[168] [51]. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[169]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ[170]! وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[171] [52]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[172]. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ (إلى أكل هذه)، غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ (ليس تحديا ولا اعتداء على الدين) فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[173]. إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ[53] وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (رئاسة دينية، أحبار) أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي

الواضح إذن أن المتبوع هم الرهبان والأحبار والتابع هم أشياعهم. وسنتأكد مصداقية هذا النوع من الفهم في الآيات التالية...

50- يحيلنا هذا المقطع من هذه الآية إلى الآية (الوصية) التي في سورة العنكبوت، آية 46 : "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ".

51- القرطبي: "قيل: إنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبني مُدلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام".

52- قالوا: "شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وسلّم بالراعي الذي يَنعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول". والنّعيق: زجر الغنم والصياح بها.

53- جل المفسرين على أن المقصود: "أحبار اليهود الذين كتموا الناس أمر محمد (ص) ونبوّته، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، يكتمون ذلك مقابل رُشا كانوا أعطوها على ذلك". وهذا في نظرنا لا ينسجم مع السياق. فالآية السابقة تحدثت عن تحريم مأكولات (الميتة، لحم الخنزير الخ) والآية القادمة تتحدث عن "أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ"=

بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[174].
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ[175] (فما أجرأهم على عذابهت؟) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ (التوراة) بِالْحَقِّ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ (التوراة) لَفِي شِقَاقٍ (ابتعاد عن الحق) بَعِيدٍ[176].

6- التدين الحق : عقيدة وسلوك

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (ليس البر هو التزام قبلة معنية)، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[177]. (54)

1- القصاص ... . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حياة ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ (فرض) عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ (العقاب) فِي الْقَتْلَى(55) (أي بسبب القتلى) : الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى، فَمَنْ

إِلَّا النَّارَ"، وما بين الآيتين آية "الكتمان". وبالتالي فموضوع الكتمان لابد أن يكون له علاقة بالمأكولات، وليس بموقف اليهود "من أمر محمد المذكور عندهم في التوراة". والأقرب إلى السياق ما ورد حول آية سابقة، (هي قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا") من أنها نزلت "في ثقيف وخزاعة وبني مُدلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام" (هامش 48). ولنا أن نتخيل أن رجالا من هذه القبائل سألوا اليهود عما حرم الله في التوراة، وعما إذا كان ما تحرمه هذه القبائل من الأنعام حلال أم حرام"؟ وأن اليهود لم يجيبوهم. ومعلوم أن التوراة قد حرمت على اليهود كثيرا من اللحوم والمأكولات الخ. (انظر مثلا سورة الأنعام آية 142 وما بعدها.

54- البر اسم عام لجميع أعمال الخير. وأصله من الاتساع ومنه البَـرّ : الذي هو خلاف البحر لاتساعه".

55- قيل: إن الآية نزلت في واقعة قتل حمزة عم النبي عليه السلام. وقيل نزلت بالعلاقة مع قبيلتي قريظة والنضير اليهوديتين اللتين كانتا تسلكان طريقة العرب في التعدي، لا ما هو منصوص عليه في التوراة. وقد لخص الرازي طريقة العرب تلك فيما يلي، قال: "إن اليهود كانوا يوجبون القتل وحده في القصاص، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط، وأما العرب فتارة كانوا يوجبون القتل، وأخرى يوجبون الدية، لكنهم كانوا يظهرون التعدي في كل=

(يعني القاتل) عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ (=المقتول) شَيْءٌ (الدم المتنازل عنه، مقابل الدية) فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ(56)، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ(57) فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ (ظلم بقتل القاتل بعد أخذ الدية) فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ178. وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ179 (58).

واحد من هذين الحكمين: أما في القتل : فلأنه إذا وقع القتل بين قبيلتين إحداهما أشرف من الأخرى، فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم، وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم ... وأما الظلم في أمر الدية فهو أنهم ربما جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس، فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أوجب رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص وأنزل هذه الآية. وفي هذا الإطار ذكر ما رواه الطبري عن أناس نسبوا إلى كل من علي بن أبي طالب والحسن البصري أن المقصود من هذه الآية بيان : أن بين الحرين، والعبدين، والذكرين، والأنثيين، يقع القصاص ويكفي ذلك فقط. فأما إذا كان القاتل للعبد حراً، أو للحر عبداً، فإنه يجب مع القصاص التراجع: فأما إن قتل حر عبداً فهو قوده، فإن شاء موالي العبد أن يقتلوا الحر قتلوه بشرط أن يسقطوا ثمن العبد من دية الحر، ويردوا إلى أولياء الحر بقية ديته. وإن قتل عبدٌ حراً فهو به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوا العبد وأسقطوا قيمة العبد من دية الحر، وأدوا بعد ذلك إلى أولياء الحر بقية ديته، وإن شاؤوا أخذوا كل الدية وتركوا قتل العبد. وإن قتل رجل امرأة فهو بها قود، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدوا نصف الدية، وإن قتلت المرأة رجلاً فهي به قود، فإن شاء أولياء الرجل قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإن شاؤوا أعطوا كل الدية وتركوها، قالوا فالله تعالى أنزل هذه الآية لبيان أن الاكتفاء بالقصاص مشروع بين الحرين والعبدين والأنثيين والذكرين فأما عند اختلاف الجنس فالاكتفاء بالقصاص غير مشروع فيه". قلت (الجابري): "غير مشروع" بالنظر إلى عادة العرب (قبل الإسلام) المذكورة أعلاه، وليس بالنظر إلى الآية نفسها.

56- «مَن» يراد بها القاتل، و«عُفِيَ» تتضمن عافياً هو وليّ الدم، والأخ هو المقتول، و«شَيْءٌ» هو الدم الذي يُعفى عنه ويرجع إلى أخذ الديَة. والمعنى: أنه إذا عفا وليّ المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنه يأخذ الديَة ويتبع بالمعروف فلا يغالي، ويؤدي إليه القاتل الدية بإحسان فلا يماطل... انظر آراء المذاهب الفقهية في الموضوع في (القرطبي).

57- قالوا: معنى التخفيف هنا : "أن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَدٌ ولا دِيَة؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفاً لهذه الأمة؛ فمن شاء قَتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا".

58- وذلك أن مبدأ "قتل القاتل" فيه حياة لمن يفكر في القتل، وحياة في الذي كان القاتل يريد قتله. فالمقصود : يا أصحاب العقول امتنعوا عن إراقة الدماء مخافة القصاص.

2- الوصية

كُتِبَ عَلَيْكُمْ، إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا، الْوَصِيَّةُ (59) لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ180 (60)، فَمَنْ بَدَّلَهُ (بدل نص الوصية) بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ (هذا البديل) عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ (يقومون به)؛ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ181، فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا (ميلا إلى خطأ كأن يوصي للغني وفي عائلته فقراء) أَوْ إِثْمًا (خروجا عن الحق والعدل) فَأَصْلَحَ (أعاد الأمر إلى نطاق الحق والعدل) بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ(61)، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ182.

3- فرض الصيام، وواجبات أخرى...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (الأمم التي جاءها رسل من الله) لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 183 (62): أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ (=الصيام

59- الوصية فاعل كُتِب، وقد جاء مؤنثا لجواز ذلك عندما يفصل الفعل عن فاعله كقولهم "جاء القاضي، اليوم، امرأة". اختلف الفقهاء هل الوصية واجبة على ظاهر القرآن أم أنها واجبة فقط على من لديه ودائع غيره أو عليه دَين. وقال بعضهم : "ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم؛ فواجب عليه أن يكتب وصيته ويخبر بما عليه. فأمّا مَن لا دَين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه إلا أن يشاء". "ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا: إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كلّه. وقالوا: إن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء".

60- قيل: كان أهل الجاهليّة يُوصون بمالهم للبعداء رياءً وسُمعةً، ويتركون الفقراء من أقاربهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قالوا نزلت هذه الآية قبل نزول الفرائض والمواريث. قالوا وهذه الآية مرتبطة بالتي قبلها من جهة أن المقصود هو الشخص القاتل الذي يقتص منه بقتله فإن له أن يوصي قبل تنفيذ القتل فيه

61- "المراد أن هذا المصلح، إذا شاهد الموصي يوصي فظهرت منه أمارات الجنف الذي هو الميل عن طريقة الحق مع ضرب من الجهالة، أو مع التأويل، أو شاهد منه تعمداً بأن يزيد غير المستحق، أو ينقص المستحق حقه، أو يعدل عن المستحق، فعند ظهور أمارات ذلك وقبل تحقيق الوصية يأخذ في الإصلاح، لأن إصلاح الأمر عند ظهور أمارت فساده وقبل تقرير فساده يكون أسهل".

62 - الصيام في اللغة الإمساك عن الشيء وتركه، مثل الإمساك عن الكلام. وفي الاصطلاح الفقهي "الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس".

في عدد من الأيام)[63]. **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ** (من المرضى والمسافرين فقط) **فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** (إن هم أفطروا)، **فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا** (أطعم أكثر من مسكين واحد) **فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا** (أيها المرضى والمسافرون إن كنتم تطيقونه) **خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**-184 (64). (ذلك : أي تلك الأيام المعدودات هي) **شَهْرُ رَمَضَانَ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى** (إلى طريق الصواب) **وَالْفُرْقَانِ** (الذي

63- اختلفوا في معنى "أيام معدودات": هل هي رمضان أم أنها أيام أخرى؟ فريق قال إنها غير رمضان واختلفوا في عددها : بعضهم قال ثلاثة أيام من كل شهر، وقيل: يضاف إليها صوم يوم عاشوراء. ثم اختلفوا أيضاً فقال بعضهم: إنه كان تطوعاً ثم فرض، وقيل: بل كان واجباً. واتفق هؤلاء على أنه منسوخ بصوم رمضان، وفريق آخر وهو الأغلبية قالوا: إن "الأيام المعدودات" هي شهر رمضان نفسه واعتبروا أن قوله تعالى في الآية التالية "شهر رمضان..." بيان لتلك الأيام، وعلى هذا فلا صوم كتب على المؤمنين كفريضة غير رمضان. أما تمسك الفريق الأول بقوله عليه السلام: "إن صوم رمضان نسخ كل صوم". فقد رُدَّ عليه بأن المقصود هو أنه نسخ كل صوم واجب في الشرائع المتقدمة، وهذا على رأي من يسري أن الشريعة المحمدية يصح أن تكون ناسخةً لشرائع أخرى، لا أن ينسخ بعضها بعضا.

64 – كثيرة جدا هي أنواع الفهم والتأويلات المقترحة لهذه الآية وقد أورد الطبري القسم الأوفر منها وهي كلها لا تخلو من اللبس. أما نحن فسنقتصر هنا على شرح ما تبين لنا أنه المفهوم من الآية فنقول: إن اللبس كله يرجع إلى قوله "يُطِيقُونَه" أي يستطيعون الصيام، وهذا اللبس ناشئ في نظرنا من اعتبار اسم الموصول "الذين" لفظا مطلقا، بمعنى أنه "جميع الناس" (كقولك : أيها الذين آمنوا : أيا كانوا...)، أما نحن فنرى أنه غير مطلق بل يعود على معين وهو "من كان مريضا أو على سفر" وعلى هذا يكون معنى الآية "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ"، (وهذا واضح)، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ (أي على المرضى والمسافرين الذين يتحملون الصيام بدون مشقة فيها ضرر بهم) فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ (إذا هم أفطروا)، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا (أي أطعم أكثر من مسكين واحد) فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا (أيها المرضى والمسافرون الذين يتحملون الصيام) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ-184 (أنكم بذلك تكفون عن استعمال رخصة لستم في حاجة إليها". والمعنى: إن إفطار المريض والمسافر رخصة لمن هو محتاج إليها، أما غير المحتاج إليها فالأصل هو أن يصوم. ولكن بما أنه من الصعب تحديد درجة المشقة التي يسمح معها بالإفطار للمريض والمسافر فإنه يرخص له الإفطار حتى ولو كان قادرا على الصيام ولكن لابد في هذه الحالة من فدية ("تعويض") وهو إطعام مسكين، فهو بالكفارة أشبه. هذا وجمهور المفسرين مع الرأي القائل إن معنى "يطيقونه" هو: "لا يطيقونه" وبعضهم تكلف فقال: "يطوّقونه". وهذه تأويلات لا ضرورة لها. فالمعنى كما قررناه أعلاه لا لبس فيه.

يفرق بين الحق والباطل). فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ (من كان حاضرا في بلده حين حلول) الشَّهْرَ (شهر رمضان) فَلْيَصُمْهُ (كله في بلده)، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ (حين حلول شهر رمضان) فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (فيمكن أن يفطر ويقضي فيما بعد عدد الأيام التي فطر فيها) (65): يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ (تكملوا صيام الشهر بقضائكم الأيام التي أفطرتم فيها حين السفر أو المرض) وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ (تعظموه) عَلَى مَا هَدَاكُمْ (إليه من اليسر) وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ-185 (له ذلك). وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ-186 (66). أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ (الجماع) إِلَى نِسَائِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ. عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ (تخونون، تضرون) أَنْفُسَكُمْ (لا تباشرون زوجاتكم ليلة الصيام)، فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ (زوجاتكم) وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ (من الحمل في زوجاتكم)، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي

65- علينا أن نستحضر في أذهاننا أن الناس كانوا في الماضي يقضون في طريق السفر أياما بل شهورا. كما أن المرض كان يطول بالإنسان فلم تكن هنا أدوية معالجة أو مسكنة للألم كما هو الحال اليوم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لاحظ بعض المفسرين أنه لم يرد هنا ذكر لقوله "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ" كما في الآية السابقة، واستنتجوا من ذلك أن هذه الآية نسخت الأولى. وهذا في نظرنا ينم عن الغفلة عن تراكيب العبارة اللغوية وعن سيطرة مفهوم النسخ على العقول حتى أصبح عائقا للفهم والمعرفة. ذلك أننا لو فرضنا أن عبارة "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ" الخ قد تكررت هنا (بعد "شهر رمضان") فالسؤال الذي سيطرح نفسه هو التالي: على من يعود الضمير في "يطيقونه" (أقصد المفعول به)؟ واضح أنه في الآية الأولى يعود إلى الصيام. أما هنا فأقرب مذكور يمكن ربطه به هو "شهر رمضان". وفي هذه الحالة فأي معنى سيكون لمن "يطيقون شهر رمضان"؟ نحن نرى أنه لا ناسخ ولا منسوخ هنا. فالآيتان واضحتان محكمتان.

66- أورد المفسرون أخبارا عن سبب نزول هذه الآية. ونحن نرى أن الآية جزء من السياق ولا تحتاج إلى سبب نزول كقولهم: "سأل رجل النبي عليه السلام : يا محمد أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله الآية. فالسياق يفيد أن الله قريب من المريض، وقريب من المسافر، وكل منهما يواجه أخطارا، وعلى كل منهما أن يدعو الله ويستعين به، والله قريب من الضعفاء والمعانين ويستجيب لهم... أما إقحام "سبب نزول داخل السياق" فهو يعزل الآيات السابقة عن التاليات وهي كلها متصلة وفي موضوع واحد هو الصيام وما يتصل به الخ.

الْمَسَاجِد(67). تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا (68)، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ187. وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ188 (69). يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ (جمع هلال) قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ. وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ189.

4- القتال في الشَّهْرُ الْحَرَامُ: سرية ابن جحش وغزوة بدر

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا (بأن تقتلوا من لا يقاتلكم من غير مشركي قريش الذين أخرجوكم من دياركم) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ190 (70). وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (وجدتموهم)(71) وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ

67- عاكفون، ملازمون المسجد للعبادة. ويعرف الاعتكاف الفقهاء بأنه: "ملازمةُ طاعة مخصوصة، في وقت مخصوص، على شرط مخصوص، في موضع مخصوص". وأجمعوا على أنه ليس بواجب، وأنه قُربة من القُرَب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه وأزواجه، ويلزمُه (يلزم المعتكف) إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يُخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه. والاعتكاف لا يكون إلا في المسجد" (القرطبي).

68- أي الأحكام السابقة. "وَسمِّيت حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها؛ ومنها سُمِّيت الحدود في المعاصي؛ لأنها تمنع أصحابها من العَوْد إلى أمثالها" (القرطبي).

69- قالوا: أن "الرجل يكون عليه مال لغيره، وليس لصاحب المال عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصمه إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وأنه آثم آكل حراما".

70- قال بعض المفسرين "هذه الآية أول آية نزلت في القتال، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقاتِل من قاتله، ويكف عن قتال من تركه، وبقي على هذه الحالة إلى أن نزل قوله تعالى: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ" (التوبة: 5) : قلت: هذا حسب ترتيب المصحف. أما حسب ترتيب النزول الذي اعتمدناه فقد نزل في سورة الحج قوله تعالى : "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (أن يقاتِلوا) بِأَنَّهُمْ (بسبب أنهم) ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" (الآية 39). وسورة الحج آخر ما نزل في مكة، وذلك قبيل هجرة النبي عليه السلام، وعلى هذا تكون آية سورة البقرة أعلاه مندرجة في نفس السياق. ونحن نعلم أنه عليه السلام جهز عددا من السرايا منها، ما ترأسه بنفسه، للتعرض لقوافل المشركين عند عودتها إلى مكة من الشام. كما بعث عبد الله بن جحش في رجب من السنة الثانية من الهجرة على رأس جماعة صغيرة من المهاجرين كلفت باستطلاع أخبار القوافل المتنقلةُ بين مكة والطائف. وقد قامت البعثة=

أَخْرَجُوكُمْ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (72)، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ-191. فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ-192. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ (منهم) فِتْنَةٌ (تفتن المؤمنين)، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ-193. الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ (73): (وهكذا) فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ-194. وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

بمهمتها وقامت بإغارة وساقت غنيمة مع رجلين منها إلى الرسول بالمدينة. وقد حدث ذلك في شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولم يكن الرسول قد أمرها بالقتال فيه، فحصل نقاش بين أصحابه هل يجوز القتال في الشهر الحرام أم لا يجوز، وخافوا أن تعيرهم قريش بذلك فنزل قوله تعالى في هذه السورة (البقرة 217-218) "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ! وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ. وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ" الخ. وهكذا فالآية التي نحن بصددها أعلاه (رقم 190) تشكل، هي والآيات والتي بعدها إلى الآية 218، سياقا واحدا متصلا. وهي تتحدث عن ظروف القتال، ظروف سرية ابن جحش ووقعة بدر الكبرى وهما متزامنتان لم يكن يفصل بينهما إلا شهر أو شهرين . وإذن فلا معنى لربط تلك الآيات بصلح الحديبية الذي جرى في السنة السادسة للهجرية كما فعل بعض المفسرين. نحن ما زلنا في السنة الثانية للهجرة والواجب الحفاظ للسورة على وحدتها، وإلا فكيف نفهم هذه التجزئة وقد عرفنا أن النبي عليه السلام كان "يراجع مع جبريل القرآن كل رمضان" الخ. أما كون هذه الآيات قد نسختها آية سورة براءة (التوبة) فذلك ما سنناقشه في حينه.

71 - بعض الناس ستشهدون بهذه الآية على وجه العموم، في حين أنها نزلت في ظرف خاص يؤكد خصوصيته قوله تعالى بعدها مباشرة "وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ" أي من مكة والمسجد الحرام...والآيات التاليات تؤكد هذا الخصوص. وفي نظري: لا يجوز اتخاذ خصوص معين، في زمن سابق، مرجعية لزمن لاحق إلا في خصوص يماثل ذلك السابق ويطابقه على صعيد قصد الشارع.

72- معنى الآية أن ما فعل مشركوا مكة بالمسلمين من الفتنة حين اضطروهم إلى الخروج من ديارهم والهجرة إلى الحبشة أو يثرب أو غيرهما، هو أكبر من القتل ... ولذلك فقتال سرية عبد الله ابن جحش لهم لم يكن ابتداء بل رد على الفتنة التي أوقعوا فيها المسلمين (انظر تفاصيل الحادثة في مقدمة هذا الكتاب).

73- الحرمات جمع حرمة، والحرمة ما منع انتهاكه. والقصاص : المساواة. المعنى: احترام الشهر الحرام واجب عند المسلمين بالشرع وواجب عند مشركي مكة بالعادة : ولكن لما لم تمنعهم حرمة هذا الشهر من إيذاء المسلمين وطردهم وملاحقتهم في مكة فلماذا يريدون أن يمنعنا من قتالهم، ردا لظلمهم...

اللَّهِ[74] وَلَا تُلْقُوا (أنفسكم) بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [75]، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[195].

5- الحج والعمرة ومناسكهما ...

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (بمناسكهما) [76]، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ (حُبستم بسبب مطر أو غيره ومُنعتم دون إتمامهما) فَمَا اسْتَيْسَرَ (فواجبٌ عليكم ما) تيسر مِنَ الْهَدْيِ (وهو ما يُهدى إلى بيت الله، من الإبل أو البقر أو الغنم)، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ (لا تَحِلُّوا من إحرامكم) حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ (حتى يُنحر الهدي بمكة في قول، أو حيث وقع الحصر في قول)، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ (ولم يستطع إتمام المطلوب) فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ (ثلاثة أيام) أَوْ صَدَقَةٍ (إطعام ستة مساكين) أَوْ نُسُكٍ (ذبيحة)، فَإِذَا أَمِنْتُمْ (من العدو، أو كان حجّكم ليس فيه خوفٌ من عدو) فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ [77] فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ (ثمن الهدي) فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ. ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (لِمَنْ لم يكن من أهل مكة)؛ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[196]. الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ (أي

74- قيل لما نزلت الآيات السابقة قال بعضهم للرسول: "والله يا رسول الله ما لنا زاد وليس أحد يطعمنا" فنزلت هذه الآية تحث المسلمين الميسورين على النفقة لتجهيز المقاتلين للسرايا والغزوات.

75- لا تسرفوا في النفقة إلى الدرجة التي تجعل منكم فقراء عاجزين عن النفقة مرة أخرى للدفاع عن أنفسكم فتتعرضون للهلاك.

76- أي: لا تجاوزوا البيت بمناسك الحج والعمرة. وفي قراءة أخرى: "وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت"، وأنه قد ذكرت هذه القراءة لابن عباس فأقرها.

77- "وصورة المُستمتع بالعمرة إلى الحجّ : أنْ يُحْرِمَ بالعمرة في أشهر الحج فإذا أحرم بالعمرة بعد إهلاله شوّالاً فقد صار متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وسمي متمتعاً بالعمرة إلى الحج لأنه إذا قدم مكة وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمَرْوَةِ حلّ من عمرته وحلق رأسه وذبح نُسُكَه الواجب عليه لتمتعه، وحلّ له كل شيء كان حَرُمَ عليه في إحْرامه من النساء والطيب، ثم يُنْشِيء بعد ذلك إحراماً جديداً للحجّ وقت نهوضه إلى مِنى أو قبل ذلك من غير أن يجب عليه الرجوع إلى الميقات الذي أنشأ منه عمرته، فذلك تمتعه بالعمرة إلى الحج ... فيكون قد تمتع بالعمرة في أيام الحج أي انتفع لأن العرب لم يكونوا يقومون العمرة في أشهر الحج فأجازها الإسلام".

شوال وذو القعدة وتسعُ من ذي الحجّة) فَمَنْ فَرَضَ (أوجب على نفسه) فِيهِنَّ الْحَجَّ (بالإحرام والتّلبية) فَلَا رَفَثَ (لا جماع) وَلَا فُسُوقَ (لا معاصي) وَلَا جِدَالَ (ولا مماحكة) فِي الْحَجِّ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ. اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا (78)، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[197]. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ (بالتجارة في الحج)، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ (انصرفتم) فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ[198]، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، (79) وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[199]. فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ[200] (80). وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[201]، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ[202]. وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ (نفر من منى) فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ (إلى اليوم الثالث) فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى (في حجه تضييع أي شيء من مناسكه)، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[203].

6- ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ (الإسلام) كَافَّةً (بجميع تعاليمه)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ (كأن يدّعي المحبة للنبي)، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (شديد الخصومة له)[204]. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ[205]. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ

78- قيل المقصود بها أناس كانوا يحجّون بلا زادٍ ويقولون: "نحن متوكّلون"، ثمّ كانوا يسألون النّاس وربّما ظلموهم وغصبوهم، فأمرهم الله أنْ يتزوّدوا حتى لا يخلوا بالتقوى...

79- أي: "من حيث أفاض العرب وعامّة النّاس إلاّ قريشاً، وذلك أنّهم كانوا لا يقفون بعرفات وإنّما يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل حرم الله، فلا نخرج منه. فأمر الله المسلمين أن يقفوا بعرفاتٍ، كما يقف سائر النّاس حتى تكون الإفاضة معهم منها".

80- ومعنى الآية: إذا فرغتم من عباداتكم التي أمرتم بها في الحجّ "فاذكروا الله كذكركم آباءكم"، وكانت العرب إذا فرغوا من حجّهم ذكروا مفاخر آبائهم، فأمر الله المسلمين بذكره أشدّ ذكراً من ذلك. وكان المشركون يسألون المال والإبل والغنم، ولا يسألون حظّاً في الآخرة؛ لأنّهم لم يكونوا مؤمنين بها، فأمر المسلمين أن يسألوا الحظّ والنصيب في الدّنيا والآخرة.

الْمِهَادُ[206]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ (يبيعها) ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[207]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ (الإسلام) كَافَّةً (بجميع تعاليمه : قيل نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، وهم يهود أسلموا وبقوا يعظمون يوم السبت ويكرهون لحم الإبل) وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[208]. فَإِنْ زَلَلْتُمْ (بقيتم على ما كنتم عليه) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ (من حلال وحرام في القرآن)، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[209]. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (كما فعل بنو إسرائيل حين قالوا لموسى ن لا نومن لك حتى نرى الله: الآية 63 أعلاه)، وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[210]. سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ؟ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[211]. زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (رؤساء اليهود) الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا (فقراء المهاجرين)، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[212]. كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (على الكفر)، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (من معتقدات وأعمال)، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ (= الكتاب) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ (بسبب حسد بعضهم بعضا)، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[213]. أَمْ حَسِبْتُمْ (أنتم أيها المهاجرون الفقراء الذين تحسون بالضيق والمرض والجوع لأنكم هاجرتم بلا مال) أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ (محنة) الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ: مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ (81) أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ[214].

7- يسألونك... قل ...

أ- ماذا ينفقون - "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"[215] (82).

81- قارن هذا بأول سورة العنكبوت والتعليق عليها (القسم الثاني من الكتاب هامش رقم 88) وقد نزلت أثناء بداية الهجرة من مكة.

82- قيل نزلت في أحد أغنياء المدينة سأل النبي: "ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟

ب- كتب عليكم القتال – "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ (فرض عليكم) وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ (لما فيه من مشقة ومخاطرة بالنفس والمال) وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (الجهاد فيه الوعد بالجنة في الآخرة فضلا عن الغنائم في الدنيا)، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا (القعود وعدم الخروج للقتال) وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ (قد يتغلب عليكم عدوكم فيستعبدكم ويسلب أموالكم)، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"216.

ج- القتال في الشهر الحرام – "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ (شهر رجب، وعن) قِتَالٍ فِيهِ [83]؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ (استحلاله عند الله). و (كذلك) صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَ(صد عن) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ. وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ (استجابة لهم وتأثرا بضغوطهم وإغراءاتهم) فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"217 [84]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (=رجال سرية ابن جحش) أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" 218 [85].

د- الخمر والميسر – "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ (القمار)! قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا [86].

هـ- العفو... – "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ [87]؟ قُلِ الْعَفْوَ! (ما فضل من المال) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"219 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

---

83 – نزلت في سرية عبد الله بن جحش التي قتل بعض أفرادها رجلا من قريش مع حلول شهر رجب، وقد تقدم الكلام عنه قبل، وفي مقدمة الكتاب.

84 – واضح أن هذه الآية لا تنص على أية عقوبة دنيوية لمن ارتدوا عن الإسلام، وإنما تؤكد على أن ما قاموا به من أعمال صالحة حين إسلامهم ستصبح باطلة بعد كفرهم ولا يكون عليها ثواب في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مصيرهم جهنم يوم القيامة.

85- كان رجال سرية عبد الله بن جحش يتخوفون من أن يكون فعلهم غير مشروع وأنهم سيحرمون من نصيبهم من الغنيمة التي جاؤوا بها فنزلت هذه الآية.

86 – قالوا: "فإثم الخمر أن الرجل يشرب فيسكر فيؤذي الناس. وإثم الميسر أن يقامر الرجل فيمنع الحق ويظلم"، "أما منافعهما فإن منفعة الخمر في لذته وثمنه، ومنفعة الميسر فيما يصاب من القمار".

87- قيل نزلت جوابا عن السائل السابق (رقم 1) حين عاد فسأل عن مقدار ما ينفق؟

و- <u>اليتامى</u> – "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ (كيفية التعامل مع) الْيَتَامَى (في أموالهم)؟ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ (الإصلاح لأموالهم من غير أجرةٍ خيرٌ وأعظم أجـراً)، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ (تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم فتـصيبوا مـن أمـوالهم عوضاً عن قيامكم بأمورهم) فَإِخْوَانُكُمْ (فهم إخوانكم، والإخوانُ يُعـين بعـضهم بعضاً، ويُصيب بعضهم من مال بعض)؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ، وَلَـوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ (لضيّق عليكم) (88) إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[220]".

ز- <u>الزواج بالمشركات والمشركين</u> – "وَلَا تَنْكِحُوا (تتزوجوا) الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ. وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ. أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[221]".

ح- <u>المحيض</u> – "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ؟ قُـلْ هُـوَ أَذًى (دم قـذر)؛ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ (لا تجـامعوهن) حَتَّـى يَطْهُـرْنَ (ينقضي الحيض ويغتسلن)، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ (تجنّـبهن حين الحيض: أي آتوهن فـي فـروجهن)، إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ التَّـوَّابِينَ وَيُحِـبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[222]. نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ (مزرعٌ ومنبتٌ للولد)، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ (كيف شئتم في موضع الحرث : الفرج) (89). وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ (التزموا العمل بما

88- قالوا: "كانت العرب في الجاهليّة يُشدِّدون فـي أمـر اليتـيم ولا يُؤاكلونـه، وكـانوا يتشاءمون بملابسة أموالهم، فلمّا جاء الإسلام سألوا الرسول عن ذلك؟ فنزلت هذه الآية...

89- قيل "نزلت تكذيباً لليهود، وذلك أنّ المسلمين قالوا: إنّا نأتي النّساء باركـاتٍ وقائمـاتٍ ومستلقياتٍ، ومن بين أيديهنّ، ومن خلفهنّ بعد أن يكون المأتي واحداً، فقالت اليهـود: مـا أنتم إلاّ أمثال البهائم، لكنّا نأتيهنّ على هيئةٍ واحدةٍ، وإنّا لنجد في التّوراة أنّ كلّ إتيانٍ يؤتى النّساء غير الاستلقاء دنسٌ عند الله"! وري عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الحيّ من قريش، كانوا يشرحون النساء بـمكة، ويتلذّذون بهنّ مقبلات ومدبرات. فلما قدموا المدينة تزوّجوا فـي الأنصار، فذهبوا لـيفعلوا بهنّ كما كانوا يفعلون بالنساء بمكة، فأنكرن ذلك وقلن: هذا شيء لم نكن نؤتى عليه فانتشر الحديث حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليـه وسـلّم، فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حرثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ، إن شئت فمقبلة وإن شئت فمدبرة وإن شئت فباركة وإنما يعني بذلك موضع الولد للحرث، يقول: ائت الحرث من حيث شئت". هذا وقد نسب كثير من الرواة إلى عبد الله ابن عمر أنه كان يقول بجواز إتيان الزوجات في دبرهن (الشرج)، بناء على معنى "أنى شئتم" في الآية هو: في أي مكان منها، وأن المقصود هو الدبر (انظر الطبري).

أجبناكم به على استفساراتكم السابقة من 1 إلى 8)، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ (وعيد لمن خالف ذلك) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[223] (وبشرى لما التزم).

8- اليمين، الطلاق، الرضاعة، حقوق الأرملة

"وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً (حائلا ومانعا) لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[224] (لا تجعلوا اليمين بالله ذريعة تتخذونها سببا يمنعكم من البر والإصلاح، فكفروا عن يمينكم وقوموا بما حرمتموه على أنفسكم من الصلاح). لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ (في القسم الذي يجري علي اللسان بغير قصد) وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (بما قصدتم وعزمتم)، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ"[225]. (من ذلك) : "لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ (يحلفون أن لا يطؤوهنّ) تَرَبُّصُ (انتظار) أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ (فإن مضت تلك المدة فلهم أن يطلقوا أو يرجعوا فيجامعوهن)، فَإِنْ فَاءُوا (رجعوا عما حلفوا عليه) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[226]. وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ (اختاروا الطلاق) فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[227]. وَالْمُطَلَّقَاتُ (المدخول بهنّ غير الحوامل) يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ (انتهاء مدة) ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ (ثلاث حيضات، قبل الزواج من جديد)، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ (لا يجوز لهن إخفاء الحمل ليبطلن حقّ الزوج من الرّجعة) إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبُعُولَتُهُنَّ (أزواجهن) أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ (بمراجعتهن) فِي ذَلِكَ (الأجل الذي أمرن أن يتربصن فيه) إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (بما دفعوا من المهر والأموال)، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[228].

- الطَّلَاقُ (الذي يمكن فيه الرجعة) مَرَّتَانِ ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ (إذا راجعها بعد الطّلقتين فعليه إمساكٌ بما أمر الله تعالى) أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ (وهو أَنْ يتركها حتى تَبِينَ بانقضاء العِدّة، ولا يراجعها ضراراً). وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا (لا يجوز للزّوج أن يأخذ من امرأته شيئاً ممّا أعطاها من المهر ليطلّقها، إلاّ في الخلع) إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ (إنّ المرأة إذا خافت أن تعصي الله في أمر زوجها بُغضاً له، وخاف الزّوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها، حلّ له أن يأخذ الفدية منها إذا دعت إلى ذلك)، فَإِنْ خِفْتُمْ (أيها القائمون بتنفيذ شرع الله) أن لا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ (لا جُناح عليها فيما أعطته المرأة، ولا على الرّجل فيما أخذ). تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ (ما حدده الله من شرائع) فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[229].

فَإِنْ طَلَّقَهَا (الزوج المطلق مرتين) **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ** (هذه الزوجة التي صارت الآن مطلقة ثلاثا) **حَتَّى تَنْكِحَ** (تتزوج) **زَوْجًا غَيْرَهُ** (ويجامعها)، **فَإِنْ طَلَّقَهَا** (الزوج الثاني) **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا** (هي والزوج الأول) **أَنْ يَتَرَاجَعَا** (يتزوجا من جديد) **إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**[230]، **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** (انقضاء عدتهنّ) **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** (راجعوهنّ بإشهادٍ على الرّجعة وعقد لها) **أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** (اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ ويكنّ أملك بأنفسهنّ)، **وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا** (لا تراجعوهنّ مضارّةً وأنتم لا حاجة بكم إليهنّ) **لِتَعْتَدُوا** (عليهنّ بتطويل العِدّة)! **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ. وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا** (فيقول مثلا: إنّما حلفت فطلّقت وأنا لاعبٌ، فيرجع فيها) **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**[231]. **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** (انقضت عدتهنّ) **فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ** (لا تمنعوهنّ يا أولياءهن) **أَنْ يَنْكِحْنَ** (بنكاح جديد) **أَزْوَاجَهُنَّ** (أي: الذين كانوا أزواجاً لهنّ) **إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ** (بعقدٍ حلال ومهرٍ جائز)، **ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**[232].

– "**وَالْوَالِدَاتُ** (المطلقات أحق من غيرهن أن) **يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ** (وعلى الزّوج النفقة على المرأة المُطلّقة وكسوتها إذا أرضعت الولد) **بِالْمَعْرُوفِ** (النفقة عليها الخ بالقدر المتعارف عليه أنّه عدلٌ على قدر الإمكان)، **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا. لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ** (لا ينزع الولد منها إلى غيرها بعد أنْ رضيت بإرضاعه وألفها الصّبيُّ، ولا تُلقيه هي إلى أبيه بعدما عرفها وألفها، تُضارُّ زوجها بذلك)، **وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ** (90)، **فَإِنْ أَرَادَا** (الأم والأب) **فِصَالًا** (فطام ابنهما قبل إكمال سنتين من الرضاعة) **عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا. وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ** (تعينوا مرضعات لهم غير الوالدة) **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ** (الوالدة) **مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ** (أي أجرتها بمقدار ما أرضعت)، **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**[233]".

90- على والي الصبيّ، الذي لو مات أبوه وله مالٌ ورثه، مثل الذي كان على والده في حياته، في حق الوالدة من الرزق والكسوة.

- "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ (يخلفون) أَزْوَاجًا (عليهن أن) يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ (ينتظرن قبل أن يباح لهن الزواج) أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (هذه المدة عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملا)، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"234. وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ (خلال عدتهن: تعريضا وإشارة فقط يفهم منها أنكم ترغبون في الزواج منها)، أَوْ أَكْنَنْتُمْ (ولا جناح عليكم إن أضمرتم ذلك) فِي أَنْفُسِكُمْ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا (لا تأخذوا ميثاقهن أن لا ينكحن غيركم) إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا (أي تعرضوا ولا تصرحوا كما ذكر قبل)، وَلَا تَعْزِمُوا (تثبتوا) عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ (حتى تنقضي العدة المفروضة)، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"235. لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ (لم تجامعوهن) أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً (أي توجبوا لهن صداقا)، وَمَتِّعُوهُنَّ (وأعطوهن من مالكم ما يتمتعن به)، عَلَى الْمُوسِعِ (الموسر) قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ (الضعيف) قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ"236. وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (أي المطلقة قبل الدخول عليها) وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً (مهرا) فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ، إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ (تتنازل) أَوْ يَعْفُوَ (يتنازل) الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، وَأَنْ تَعْفُوا (وأن لا تطالبوا وتتحاسبوا، الرجال والنساء) أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (أن يحسن بعضكم إلى بعض). إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"237. حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى(91) وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"238 (92)، فَإِنْ خِفْتُمْ (من عدو أو سيل أو سبع) فَرِجَالًا (صلوا راجلين، ماشين على أرجلكم) أَوْ رُكْبَانًا (راكبين للدواب)، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"239. وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا (تجب عليهم) وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ (لنسائهم) مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ (تمتعا لهن مدة سنة، أي ينفق الورثة عليهن مدة سنة من غير أن يخرجوهن من منزل أزواجهن

91- اختلفوا في تحديدها، والمشهور أنها صلاة العصر. هذه الآية والتي بعدها (238-239) أشبه بالجملة الاعتراضية إذ لا مناسبة ظاهرة بينهما وبين التي قبلهما والتي بعدهما، فموضوعهما مختلف تماما.

92 - قيل: "كانوا في الصلاة يكلم بعضهم بعضا إلى أن نزل "وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ".

المتوفى) (93)، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ (في قطع النفقة عنهن) فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ (كالتشوف للزواج والعمل من أجله)، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ240. وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ241. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ242.

9- الحث على القتال: "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً".

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ (قوم من بني إسرائيل) وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ (خوف القتال)، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

---

93 - معظم المفسرين يقولون إن الوصية في هذه الآية منسوخة بالآية السابقة رقم 234. ولما اعترض عليهم بأن الناسخ لا يتقدم المنسوخ أجابوا بأن "الوضع" يقتضي أن تكون هذه الآية سابقة للأولى نزولا ومتأخرة عنها تلاوة، وهذا من أغرب الأمور! ولو طبقنا هذا على آيات أخرى لفسد الدين كله. والذي يستقيم مع السياق هو ما قاله مجاهد وسايره فيه الطبري وقال: "إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدّة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصيّةً منه سُكنَى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت"، وهذا ما رجحه كل من الرازي وابن عاشور وغيرهما (انظر مناقشتهما لهذه المسألة في تفسيريهما). ونحن نرى أنه لا لبس هناك ولا تناقض، فالآية الأولى (234) مجالها غير مجال الثانية (240): الأولى مجالها العدة التي وضعت تجنبا لشبهة اختلاط النسب وما يتولد عنه من منازعات، وإنما حددت بـ"أربعة أشهر وعشرا" من وفاة زوجها، لأنه لم يكن من سبيل لمعرفة ما إذا كانت حاملا من زوجها المتوفى أم غير حامل غير التقدير الذي يقوم على مراقبة الحيض الخ. أما اليوم فالعلم الحديث قادر على التعرف على حال المرأة في أية لحظة. أما مجال الآية الثانية فيخص النفقة عليها بعد وفاة زوجها لمدة عام حتى لا تتشرد، قبل أن تتزوج ثانية. وطرح أمر النفقة عليها شيء ضروري أمس واليوم، فإذا تزوجت قبل العام بطل مفعول الوصية لأنها حينئذ ستكون في عهدة زوجها الجديد. أما احتجاج القائلين بالنسخ بكون الآية الثانية نسخت بآية الميراث في سورة النساء وهي قوله تعالى: "وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ" فاحتجاج لا يستقيم لأن الآية تقول: "مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ". ولا شيء يمنع من إدخال وصية الزوج لزوجته في نطاق الوصية المذكورة ههنا. وأما الاستشهاد بحديث : "لا وصية لوارث" ويضاف إليه: "إلا أن يجيز الورثة ذلك"، فهو حديث آحاد وفي رواته نقاش، وفي جميع الأحوال لا يعقل أن يعتبر مبطلا لعدة آيات وفي مقدمتها قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة 180-181).

عَلَى النَّاسِ[94]، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[243]. قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[244]. مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[245]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ (صمويل الأول) ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا (يقودنا) نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ (أليس) إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا (تركناهم مضطرين) [95]! فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا (لم يقاتلوا)، إِلَّا قَلِيلًا

94- الغالب أن ها هنا إشارة إلى ما ورد في التوراة، كتاب حزقيال الإصحاح 17 من أن الله عاقب بني إسرائيل عل عبادة الأصنام وتقاعسهم عن قتال أعدائهم خوفا من الموت فأماتهم حتى صاروا عظاما نخرة ثم أحياهم، وفي هذا يقول حزقيال النبي. "وَكَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيَّ فَأَحْضَرَنِي بِالرُّوحِ إِلَى وَسَطِ وَادٍ مَلِيءٍ بِعِظَامٍ، 2وَجَعَلَنِي أَجْتَازُ بَيْنَهَا وَحَوْلَهَا، وَإِذَا بِهَا كَثِيرَةٌ جِداً، تُغَطِّي سَطْحَ أَرْضِ الْوَادِي، كَمَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الْيُبُوسَةِ. 3فَقَالَ لِي «يَاابْنَ آدَمَ، أَيُمْكِنُ أَنْ تَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟» فَأَجَبْتُ: «يَاسَيِّدُ الرَّبُّ، أَنْتَ أَعْلَمُ». 4فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: اسْمَعِي أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ كَلِمَةَ الرَّبِّ: 5هَا أَنَا أَجْعَلُ رُوحاً يَدْخُلُ فِيكِ فَتَحْيَيْنَ. 6وَأَكْسُوكِ بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ، وَأَبْسُطُ عَلَيْكِ جِلْداً وَأَجْعَلُ فِيكِ رُوحاً فَتَحْيَيْنَ وَتُدْرِكِينَ= أَنِّي أَنَا الرَّبُّ . 7وَفِيمَا كُنْتُ أَتَنَبَّأُ كَمَا أُمِرْتُ، حَدَثَ صَوْتُ جَلَبَةٍ وَزَلْزَلَةٍ، فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ، 8وَاكْتَسَتْ بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ وَبُسِطَ عَلَيْهَا الْجِلْدُ. إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا رُوحٌ 9فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ يَاابْنَ آدَمَ، وَقُلْ: هَذَا مَا يَأْمُرُ بِهِ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَيَّا يَارُوحُ أَقْبِلْ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَى هَؤُلاءِ الْقَتْلَى لِيَحْيَوْا». 10فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ فَدَبَّتْ فِيهِمِ الْحَيَاةُ، وَانْتَصَبُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَيْشاً عَظِيماً جِداً جِداً..". والتذكير بهذه القصة هنا مناسب لأن الخطاب سينتقل من المسائل التي تخص الحياة الشخصية التي كانت محل استفسارات المسلمين أعلاه إلى الحث على قتال مشركي مكة، عبدة الأصنام الخ. وتأتي قصة موسى مع الذين قالوا له "اذهب أنت وربك فقاتلا.." لتؤكد وحدة السياق.

95 - لم ترد هذه القصة في القرآن المكي مثلها مثل "قصة البقرة" المذكورة آنفا. ولعل أقرب الوقائع التي تحكيها التوراة إلى قصة طالوت وجالوت كما عرضها القرآن ما ورد في سفر صموئيل الأول، عندما خاض الإسرائيليون حروبا مريرة حين رجوعهم من مصر ووفاة موسى وتولي رجال آخرين قيادتهم ومنهم النبي صوئيل الأول الذي كان من جماعة القضاة الذين كانوا يدبرون شأن الشعب اليهودي. ومنه طلب الإسرائيليون أن ينصب عليهم ملكا يقودهم في حربهم ضد الفلسطينيين، فنصب شاوول -وهو المعبر عنه في القرآن بطالوت فقاد جيوشهم التي تعرضت لهزائم منكرة أمام الفلسطينيين. وكان قائد الفلسطينيين في إحدى المعارك رجل اسمه "جُلْيَات"، وهو المعبر عنه في القرآن بـ"جالوت". وقد تحدى جليات هذا جيش الإسرائيليين مرارا طلبا منهم تعيين رجل لمبارزته، وقد تصدى داوود الشاب في=

مِنْهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[246]. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ (شاوول) مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ! قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[247]. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ(96) فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[248]. فَلَمَّا فَصَلَ (خرج) طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ (لليهود) : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ (نهر الأردن)، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ؛ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ. فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ (جُليات، قائد جيش الفلسطينيين) وَجُنُودِهِ (فرجعوا)! قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[249]. وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[250]. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ (أي داوود) الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[251]. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[252]. تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[253]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ[254].

نهاية الأمر لمبارزة جليات وانتصر عليه. قال في التوراة: "48وَعِنْدَمَا شَاهَدَ دَاوُدُ الْفِلِسْطِينِيَّ يَهُبُّ مُتَقَدِّماً نَحْوَهُ، أَسْرَعَ لِلِقَائِهِ. 49وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الْجِرَابِ، وَتَنَاوَلَ حَجَراً لَوَّحَ بِهِ بِمِقْلاَعِهِ وَرَمَاهُ، فَأَصَابَ جَبْهَةَ الْفِلِسْطِينِيِّ. فَغَاصَ الْحَجَرُ فِي جَبْهَتِهِ وَسَقَطَ جُلْيَاتُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ". (التوراة. سفر صموئيل الأول 17)

96- التَّابُوتُ: الصندوق. وتابوت بني إسرائيل "الصندوق الذي فيه التوراة وبقية من بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون، مثل العصا وفُتات الألواح، وكانوا يحملونه في حروبهم تبركا به. وفي إحدى معاركهم مع الفلسطينيين انهزموا شر هزيمة فأخذه منهم الفلسطينيون، ثم أعادوه إليهم فيما بعد.

10- لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (القائم بتدبير الكون)، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ (أول النعاس) وَلَا نَوْمٌ (ثقيل)، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ؛ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (حاضرهم) وَمَا خَلْفَهُمْ (مستقبلهم) وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ. وَسِعَ كُرْسِيُّهُ (ملكه وسلطانه) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ (يجهده ويثقل عليه) حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ'255. لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (97) فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ (الأصنام والشيطان) وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"256. اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (98) يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ'257. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ (جادل قيل هو نمروذ بن كنعان) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ (معتزا بـ) أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. قَالَ أَنَا (أيضا) أُحْيِي وَأُمِيتُ (أقتل من أشاء وأبقي على الحياة من يشاء). قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ (انقطع وسكت، لأنه هذه المرة لا يستطيع أن يقول وأنا أيضا)! وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ'258. أَوْ (عطف في المعنى على أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ...) كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا (متهدمة السقوف)، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ (القرية: أهلها) اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ! فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (لم يتغيّر ولم ينتن)، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ (فرأى حماره ميتاً، عظامه بيضٌ، علامة على كونه مات منذ وقت طويل)! وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ.

---

97 - الآية السابقة تسمى "آية الكرسي" وهي عظيمة الشأن في الإسلام، ومجيء آية "لا إكراه في الدين" بعدها مباشرة يضفي عليها -أعني على هذه الأخيرة- قيمة خاصة. وبالتالي فكل آية في القتال وردت في القرآن إلا وهي تقع تحت عموم هذه التي لا شبهة في كونها محكمة ومطلقة. وبعبارة أخرى إن جميع آيات القتال في القرآن آيات مقيدة واقعة تحت عموم هذه.

98- قيل: اليهود والنصارى لا يعبدون الأصنام ولا الشيطان، بل يعبدون الله، فهم لا يكرهون على الإسلام. قالوا "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ إسلام أهل الكتاب الذين حول المدينة، ويسأل الله ذلك".

وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا (نرفعها من الأرض) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[259]. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى! قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ (قطعهن) إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[260].

11- الحث على النفقة... والتحذير من المن والرياء...

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[261]. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[262]. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ[263]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ (الحجر الأملس) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ (مطر أزال منه التراب) فَتَرَكَهُ صَلْدًا (براقا أملس)، لَا يَقْدِرُونَ (=الذين يمنون الخ) عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[264]. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ (بستان) بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ (مطر كثير قوي) فَطَلٌّ (مطر ضعيف)، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[265]. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ[266]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَيَمَّمُوا(تقصدوا) الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ (لو أعطيتموه في حق لكم) إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ (العين، أي تتساهلون)، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[267]. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[268]. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ[269]. وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[270]. إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[271]. لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ (ليس عليك هُدى مَن خالفك ممن لم يسلموا)، وَلَكِنَّ

اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[272]. لِلْفُقَرَاءِ (فقراء المهاجرين الذين لا مأوى لهم إلا الصفة بالمسجد) الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ (لا رأس مال لهم) يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا (إلحاحا)، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[273]. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[274].

12- تحريم الربا ... وكتابة الدين، والشهادة ...

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (المجنون)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا (فقالوا: الزيادة التي تحصل في رأس المال بعد حلول الدين، كالزيادة التي تحصل فيه بالربح في أول البيع)، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا. فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى (اتعظ وترك الربا) فَلَهُ مَا سَلَفَ (أي ما أكل من الربا، ليس عليه ردّ ما أخذ قبل النهي)، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[275]. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (يمحوه وينقصه) وَيُرْبِي (يزيد وينمي) الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ[276]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[277]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا (بعد نزول الآية السابقة وبالتالي الاقتصار على أخذ رأسمال دون الربح في العمليات الربوية السابقة) إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[278]. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (أي فأيقنوا أنكم بامتناعكم من ترك ذلك تعصون الله ورسوله)، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ (بطلب الزيادة) وَلَا تُظْلَمُونَ[279] (بالنقصان من رأس المال). وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ (مدين يعاني صعوبات مالية) فَنَظِرَةٌ (فتأخير مطالبته بدفع ما عليه) إِلَى مَيْسَرَةٍ (حصول اليسر له)، وَأَنْ تَصَدَّقُوا (على المعسرين برأس المال) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[280]. وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[281] (99). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ (تبايعتم) بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

99- رووا عن أكثر من جهة أن هذه الآية هي آخر آية نزلت من القرآن. وحدد بعضهم التاريخ بالضبط فذكر "أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم مكث بعدها تسع ليال، وبدا يوم=

فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ (بين المستدين والمدين) كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ (لا يزيد في المال والأجل ولا ينقص منهما)، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ (لا يمتنع من ذلك إذا أمر) كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ (المدين)، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ (لا ينقص من الدين الذي عليه) شَيْئًا: فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ (عليه الدين) سَفِيهًا (طفلا) أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ (لعاهة فيه)، فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ (وارثه أو مَنْ يقوم مقامه) بِالْعَدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ (تتوسمون فيهم الصدق والعدل) مِنَ الشُّهَدَاءِ: أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ (أداء الشهادة) إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ (أجل ذلك الدين)، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ (يكون الأداء فيها في الحين)، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ (لا يزيد ولا ينقص). وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[282]. وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ (بدل الوثيقة المكتوبة) فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ"[283]. لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

السبت، ومات يوم الاثنين". وقال آخرون مات بعدها بسبع ليال. وروي بثلاث ليال. وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه عليه السلام قال: "اجعلوها بين آية الربا وآية الدين"، وفي رواية أخرى: "قال جبريل للنبيّ صلى الله عليه وسلم: "يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة". وفصل بعضهم فقال: "وذلك لأنه عليه السلام لما حج نزلت "يَسْتَفْتُونَكَ" (النساء: 127) وهي آية الكلالة، ثم نزل وهو واقف بعرفة "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي" (المائدة: 3) ثم نزل "وَاتَّقُوا" يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ" (البقرة: 281) فقال جبريل عليه السلام: يا محمد ضعها على رأس ثمانين آية ومائتي آية من البقرة، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وثمانين يوما/ وقيل: أحدا وعشرين وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات". قلت: الروايات حول آخر ما نزل من القرآن كثيرة، وما نرجحه هو ما ذكره أحد كبار كتاب الوحي وجامعي القرآن أبي بن كعب الذي قال إن آخر ما نزل هو آخر سورة التوبة أعني قوله تعالى: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"[128]. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"[129]. لأن هذا أقرب إلى السياق العام لمسيرة التنزيل وتطور الدعوة، كما سنبين في حينه.

يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[284].

7- خاتمة: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.

آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ (كذلك آمنوا وصدقوا)، كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوا (الرسول والمؤمنون) سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، (نطلب) غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ[285]. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ (من حسنات) وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (من سيئات). رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا (تكاليف ثقيلة) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (كاليهود)، رَبَّنَا! وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[286].

- التعليق

تعتبر سورة البقرة أطول سور الذكر الحكيم وأغناها على الإطلاق. ولا شك أن القارئ الذي لم يعتد على قراءة القرآن قد لاحظ مدى تداخل الموضوعات فيها إلى الدرجة التي يصعب معها الحفاظ على "خط السير" في قراءتها من أولها إلى آخرها. وقد ذكر القرطبي أن ابن العربي قال: "سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألفُ أمْر وألف نَهْي وألف حُكْم وألف خبر". وقد وردت في شأنها أخبار منها: "إن لكل شيء سَناماً وإن سَنام القرآن سورة البقرة". وكثير من هذه الأخبار إن لم تحمل على الحقيقة فإن حملها على المجاز يدل على مدى انبهار الناس بحجمها وتنوع أسلوبها وكثرة موضوعاتها، مما سهل على كثير من المفسرين الانشغال بأجزائها وجزئياتها دون الاهتمام بكليتها وجوانب الوحدة في سياقاتها، مما جعل كثيرا منهم يمدد "زمن" نزولها ليشمل العصر المدني من النبوة بأجمعه. فجعلوا تاريخ نزول بعض آياتها في السنة الأولى للهجرة وتاريخ أخرى في السنة الأخيرة من النبوة، بل اعتبروا آية منها آخر ما نزل من القرآن كله، كما جعلوا بعض آياتها ناسخة لأخرى، وتجاوزا في ذلك ضرورة احترام ترتيب آياتها (لأنه توقيفي باتفاق) فجعلوا آية سابقة، في الترتيب، ناسخة لأخرى لاحقة واخترعوا من أجل تبرير ذلك مبدأ "التقدم في التلاوة والتأخر في النزول" (كما أشرنا إلى ذلك في

حينه)، وهو المبدأ الذي لو طبق على القرآن كله لأصبحت آياته تنطق بما يريـد "المفسر" ولتجاوز ما تنطق به عند "الباطنيين".

ونحن نعتقد أن القارئ الذي يولي اهتماما لما يقرأ على ضـوء التقـسيم الذي اعتمدناه في توزيع آياتها إلى فقرات، رئيسية وفرعية، سيكتشف أن هـذه السورة لا تختلف في بنيتها عن غيرها من السور التي تناولناها بالشرح والتحليل في القسمين السابقين من هذا الكتاب. فهي مثلها مطوقة بمقدمة وخاتمة، المقدمة تفصح عن الموضوع العام الذي ستتحرك فيه، والخاتمة تستعيد هـذا الموضـوع نفسه وترتفع به إلى مستوى أعلى. وبين المقدمـة والخاتمـة يتسلـسل تحليـل الموضوع إلى أجزاء يُستعمل في بعضها الأسلوب الإقناعي الجدلي المباشر، وفي بعضها أسلوب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويُكتفى في بعضها بأساليب ضرب المثل، إما من بيئة المخاطبين الطبيعية والاجتماعية، وإما مـن مخـزونهم الثقافي العام، وإما من قصص الأمم الماضية ورسالات الأنبياء الـسابقين الـخ. وهكذا فبتتبع بنية السورة على هذا الأساس (مقدمة فتحليل فخاتمة) يـصبح فـي الإمكان إبراز وحدة السورة والتقيد بالسياقات، وبالتالي التحرر من قيود "الأفكـار المتلقاة" والعوائق المعرفية التي تقيد حركة الفكر وتشل قدرته الجدليـة، القـدرة على النفي بعد الإثبات، والخروج من ذلك بمستوى أعلى مـن الإثبـات يـستعيد الإثبات الأول وقد تخلص من مطلقات التقليد والجمود لينفتح أمام نـسبية ناميـة تضع بنفسها حدودها وقيودها.

وسيطول بنا المقال إذا نحن أخذنا في عرض مـضمون هـذه الـسورة، عرضا جديدا بكلامنا الخاص وفاقا مع ما ذكرناه حول بينة سور القرآن، كما فعلنا في سور سابقة قصيرة نسبيا، فالسورة التي نحن ضيوف عليهـا طويلـة جـدا متنوعة جدا ... ولكننا نعتقد أننا سنجعل القارئ يمسك معنا بتلابيبهـا ويكتـشف وحدتها وترابط سياقاها من خلال عرض موجز نتتبع فيه مضمون فقراتها باعتماد العناوين التي وضعناها لها.

لقد قسمنا هذه السورة إلى ست فقرات رئيـسة، تتفـرع عـن بعـضها عناوين لموضوعاتها. لقد أبرزنا في مقدمة هذا القسم الثالث من الكتاب كيـف أن النبي سيواجه في المدينة التي هاجر إليها وضعا يختلف تماما عن الوضع الـذي كان يواجه في مكة. في مكة كان هناك طرف واحد، خصم للدعوة المحمدية معلن، هم المشركون، وطرف آخر، واحد كذلك، هو الرسول ومن آمن من سكان مكة من العبيد والموالي وأبناء صغار القبائل وغيرهم من المستضعفين ... القرآن المكـي

كله موجه لهذين الطرفين: خطاب إلى الرسول والمؤمنين برسالته، وخطاب إلى المشركين الذين كفروا. أما في المدينة فقد تعددت الأطراف التي كان على الدعوة المحمدية أن تتعامل معها. وقد جاءت سورة البقرة بعد تجربة نحو سنة من التعامل مع هذه الأطراف وفق ميثاق الصحيفة، "صحيفة النبي"، لتتحدث إلى كل منها حسب ما كشف عنه سلوكها وتبين من مواقفها. وعلى هذا الأساس قسمناها إلى سبع فقرات رئيسية ميزنا في بعضها فقرات فرعية خاصة يستقل كل منها بالحديث في موضوع مستقل ولكنه يندرج تحت الفقرة الرئيسية التي تفرع منها.

وفيما يلي مجمل هذه الموضوعات الرئيسية منها والفرعية.

1- استهلت السورة خطابها بمقدمة قصيرة تحدثت فيها عن القرآن مؤكدة أنه هدى للمؤمنين، الذين يؤمنون بـ"الغيب" (بالله وملائكته وبإحساسات قلوبهم واستدلالاتهم عقولهم، من غير طلب دليل حسي كالإتيان بمعجزات خارقة للعادة أو إحضار الملائكة في الشاهد الخ، كما كانت تطالب به قريش)، والذين يؤمنون بما أنزل على الرسول محمد (ص) وبما أنزل على الرسل من قبله، والذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله على الفقراء وفي سبيل الله (جهاد كفار قريش الذي كان يتمثل آنذاك في تجهيز سرايا لاعتراض قوافلهم التجارية)، والذين يوقنون بالحياة الأخرى وما فيها من حساب فثواب فعقاب. هؤلاء هم المؤمنون المفلحون الذين يسيرون على هدى من ربهم وهم المهجرون، ثم الأنصار الذين بايعوا النبي وهو في مكة على أن يهاجر إليهم في "يثرب" متعهدين على أن يحموه وينصرونه في كل ما يقوم به من أجل نشر الدعوة، بما في ذلك القتال معه ضد خصومه. أما الكافرون الذين لا يؤمنون بما تقدم فهم لا يسيرون على هدى من الله؛ لقد أعرضوا وأنكروا، فضلوا ضلالا لم يعد معه في إمكانهم التراجع فصاروا سجناء كفرهم، ولذلك فهم لن يؤمنوا – يقول تعالى: "سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم".

2- بعد هذه المقدمة التي فصلت فها السورة بين المؤمنين الصادقين وبين الكفار المعاندين الضالين الميؤوس منهم تنتقل إلى الفقرة الثانية التي خصصتها لمن سماهم القرآن بـ المنافقين" وهم الذين يظهرون الإيمان بنبوة محمد ورسالته وفي الوقت نفسه يضمرون لهم الحقد والحسد ويقومون بدور "الطابور الخامس" الذي مهمته التخريب من الداخل. كان على رأس هؤلاء رئيس الخزرج عبد الله بن سلول الذي كان يستعد لينصبه قومه رئيسا عليهم فأفسدت عليه ذلك هجرة الرسول (ص) و"الصحيفة" التي بادر عليه السلام بوضعها لتنظيم

العلاقات بين مختلف مكونات مجتمع المدينة تحت رئاسته. لقد بقي هذا الرجل وجماعة من أتباعه حاقدين على الرسول والمسلمين رغم إسلامهم الظاهري فتعاونوا مع اليهود سرا وجهارا، بل إن كتاب السيرة وبعض المفسرين ينسبون له مواقف فيها خداع صريح للمسلمين مثل انسحابه هو ومجموعة من أصحابه من معركة "غزوة أحد" مما اعتبر من أسباب هزيمة المسلمين فيها، كما روي أنه هو المعني بقوله تعالى : "يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ " (المنافقون 8)، وأنه قال ذلك عند رجوع الرسول وجيشه من غزوة "بنو المصطلق". ومع أن موقفه في غزو أحد وتصريحه المذكور قد وقعا بعد نزول سورة البقرة كما سنرى فإن عداءه للرسول وتعاونه مع اليهود قد بدا واضحا منذ أوائل السنة الأولى للهجرة، ولذلك عمدت السورة التي نحن ضيوف عليها إلى فضحه والتشهير بسلوك النفاق الذي يمارسه. فقالت عنه: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[8] (وهم المنافقون). يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا (يظهرون عكس ما يبطنون)، وَمَا يَخْدَعُونَ (وما يضرون) إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ (وما يدرون). فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (ضعف وشك يمنعهم من التصريح بالكفر أو بالإيمان)، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"، ومع أن القرآن قد حكم على هؤلاء، في هذا الوقت المبكر بأنهم "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ"، فإنه لم يدع الرسول إلى الإعراض عنهم ولم يخاطبه في شأنهم بقوله : "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ؟! خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ" – كما قال في شأن الكفار– بل أبقى بخيط الاتصال معهم ما داموا يظهرون الإيمان ويصنفون أنفسهم كمسلمين، وذلك تجنبا لدفعهم إلى تحريك العصبية القبلية في قومهم، فينقسم أهل يثرب إلى فريقين : فريق مع النبي وهم الأوس وبعض الخزرج، وفريق ضده، وقد يكونون أكثر عددا ورئيسهم ابن سلول.

3– وإلى جانب هؤلاء الخصوم المنافقين في المدينة كان هناك المشركون في مكة الذين أدركوا منذ بيعة العقبة، مدى خطورة انتقال الرسول بالدعوة إلى المدينة، فتجندوا لمحاربته هناك بالتحالف مع اليهود والمنافقين، فكان لابد من أن تعمل السورة على فضحهم ومواصلة الجدل معهم فخصصت لذلك فقرة هي الفقرة الرئيسية الثالثة. فدعاهم الذكر الحكيم أولا إلى عبادة الله الذي خلقهم وجعل لهم الأرض فراشا والسماء سقفا وأنزل لهم الأمطار فأخرج لهم رزقهم من الزرع والثمرات الخ، ودعاهم إلى ترك الشرك به وعبادة الأصنام التي لا تفعل شيئا، ثم تحداهم ثانيا بالإتيان بسورة مثل هذا القرآن إن كانوا يشكون في كونه من الله

وليطلبوا مساعدة الأصنام، ثم أكدت لهم السورة أنهم لن يستطيعوا وأن عليهم بالتالي ترك الإصرار على تكذيب النبي محمد ورسالته ليجنبوا عذاب النار يوم القيامة ويلتحقوا بالمؤمنين في الجنة التي أعدت لهم. وهنا يتدخل القصص القرآني، فتأتي قصة إبليس الذي أصر على عدم الامتثال لأوامر الله عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم فرفض واستكبر بدعوى أنه أفضل منه فهو من نور وآدم من تراب، كما يرفض المشركون الإيمان بنبوة محمد ويستكبرون، والتماثل هنا واضح بين موقف إبليس من آدم وموقف قريش من محمد، فإبليس الذي أضل آدم في الجنة فأهمل أوامر الله بأن لا يأكل من شجرة معينة، هو نفسه الشيطان الذي يضل مشركي قريش ويصرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام. هذا من جهة ومن جهة أخرى فكما "علم الله آدم الأسماء كلها" ليرد على اعتراض الملائكة على اختيار آدم من دونهم ودون الخلائق كلها، اختار محمدا من دون أهل مكة وغيرهم لينزل عليه "الكتاب"، وكما عجزت الملائكة على إعطاء المخلوقات أسماءها التي علمها الله لآدم، ستعجز قريش عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن.

ومع أن السورة وعدت المشركين بجهنم كمصير محتوم، إلا أنها فتحت باب التوبة لهم من خلال التذكير بتوبة آدم، لقد ألهمه الله التوبة فتاب، وقبل الله توبته ومحا خطيئته فلم تعد تلاحق ذريته. لقد أمر الله آدم وزوجته وإبليس بالهبوط إلى الأرض وأخبرهم بأنه سيبعث أنبياء ورسلا، فمن آمن بهم واتبع هدى الله التي يحملونها "فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، ومن كفر بالله وكذب رسله وآياته فـ "أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ". لم تغلق سورة البقرة الباب أمام مشركي قريش كما فعلت سورة الحجر التي أمرت النبي بالإعراض عن المشركين والصدع بالدعوة في المواسم والأسواق وسط القبائل. لقد تغير الوضع. لقد نجحت إستراتيجية الإعراض عن المشركين في مكة والاتجاه إلى غيرهم. لقد كانت النتيجة إسلام قسم كبير من أهل المدينة ومن ثمة الهجرة إليها، والشروع، انطلاقا منها، في الضغط على قريش من خلال اعتراض قوافلهم التجارية وتدمير أسس اقتصادهم. إن الحكمة تقتضي مواصلة الضغط وانتظار النتيجة.

4- وبما أن قريشا تعمل الآن على التأثير في الوضع بالمدينة من خلال الاتصال باليهود وتحريضهم ضد الرسول والمسلمين فقد بات من الضروري كشف الحساب مع اليهود. وهكذا اتجهت السورة إلى مخاطبة يهود المدينة في فقرة طويلة - الفقرة الرابعة- تقرعهم فيها لكونهم لا يستجيبون لدعوة القرآن إلى الدخول في الإسلام، واتجاههم بدلا من ذلك إلى إلحاق الأذى بالرسول والمسلمين

والتعاون مع خصوم الإسلام من مشركي قريش ومنافقي المدينة. لقد ميزنا في هذه الفقرة الطويلة بين سبع موضوعات جعلناها تحت عناوين فرعية كما يلي : 1) تذكيرهم بنعم الله على أسلافهم وبما قابلوها به من تعنت وتمرد على أنبيائهم ورسلهم. 2) تذكيرهم بمتاعب موسى مع قومه في الرحلة من مصر إلى فلسطين. 3) تذكيرهم بنقض بعض أسلافهم لميثاقهم مع الله وعدم تقيدهم بشريعته ووصاياه التي خصهم بها. 4) تنبيههم إلى وجود أحبار أميين أدعياء بين صفوفهم لا يعلمون الكتاب (التوراة) ويفتون في الناس حسب رغبتهم مقابل رشوة. 5) إبراز كونهم لا يحترمون الميثاق: يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض! 6) وأنهم كلما جاءهم رسول من الله "بما لا تهوى أنفسهم استكبروا وأعرضوا ...! 7) ثم تستخلص السورة النتيجة في فقرة سابعة فاتجهت إلى الرسول لتضعه أمام حقيقة موقف أهل الكتاب فأكدت له أن الجهود التي يبذلها لحملهم على الانضمام إلى الإسلام، لكون القرآن مصدق لما بين أيديهم في التوراة والإنجيل، جهود لن تؤتي ثمارها، فالأسلوب الذي يسلكه معهم، في الدعوة، بناء على الأمر الصادر إلى المسلمين عند استعدادهم للهجرة من مكة إلى المدينة، والذي يدعوهم إلى الجدل مع أهل الكتاب برفق ("وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ – العنكبوت 46) لم ينفع معهم فقد كشفت التجربة عن الحقيقة التالية وهي أنه: "لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ". ولما كان الأمر كذلك فلم يبق إلا تجاوز إستراتيجية "الجدل معهم بالتي هي أحسن" تحت شعار "آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (العنكبوت 46).

5- وتجاوز هذه الإستراتيجية تتطلب إستراتيجية أخرى أعلى، وهي الرجوع إلى دين إبراهيم. ذلك ما تقرره الفقرة الخامسة، منطلقة من البداية: لقد رزق شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام ولدان إسماعيل جد العرب، وإسحاق والد إسرائيل (المسمى يعقوب). لقد أنزل الله التوراة على موسى من نسل إسرائيل (بني إسرائيل) وبين فيها أن الرسول الذي سيأتي بعد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو محمد بن عبد الله من نسل إسماعيل جد العرب. وبما أن أحبار اليهود قد كتموا هذا الأمر ولم يريدوا الاعتراف بنبوة محمد ورسالته فليكن الرجوع إلى دين إبراهيم الذي لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حليفا مسلما، كما ستبين سورة آل عمران التي أضافت "إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ

وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ" (آل عمران 68). وبناء عليه تذكر سورة البقرة بالحوار الذي جرى بين الله وإبراهيم حين اختاره "إماما" (شيخا للأنبياء من بعده) لتبين كيف أن الله كلف إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة وجعلها بيت الله التي يقصدها الناس من كل " كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"،)انظر فقرة 5).

الرجوع إلى دين إبراهيم يتطلب أولا ترك قبلة اليهود (بيت المقدس) واتخاذ الكعبة التي بناها إبراهيم وابنه إسماعيل في مكة قبلة خاصة بالمسلمين، وبيان شعائر الحج التي ترجع إلى إبراهيم بعد حذف ما أضافه عبدة الأصنام، ورفض التقليد المتولد عن ذلك والذي لا أساس له إلا القول : "إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون".

6- يأتي بعد ذلك تفصيل القول في عدد من المسائل التي يطرحها الوضع الجديد للمسلمين حفدة إبراهيم وبيان حكمها في الشريعة الجديدة، الشريعة المحمدية الإبراهيمية. وقد طرحت السورة خمسة عشرة مسألة متنوعة، منها مسائل في مجال الجنايات ومسائل في مجال الأحوال الشخصية وأخرى في العبادات والسلوك الأخلاقي (القصاص، الوصية وواجبات أخرى، القتال في الشَّهْرُ الْحَرَام، الحج والعمرة ومناسكهما، الأخذ بجميع تعاليم الإسلام، الصدقة والنفقة، فريضة الدفاع عن النفس، القتال في الشهر الحرام، الخمر والميسر، اليتامى، الزواج بالمشركات والمشركين، المحيض، اليمين والطلاق، والرضاعة وحقوق الأرملة، الحث على القتال قصة طالوت وجالوت، لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، الحث على النفقة والتحذير من المن والرياء، تحريم الربا، وضرورة كتابة الدين، وجوب أداء الشهادة ...)

7- بعد ذلك تأتي خاتمة السورة لتستعيد المقدمة في صورة جديدة. لقد افتتحت السورة بالتأكيد على أن القرآن هو كتاب من الله لا ريب فيه، هدى للمؤمنين المتقين الذين يؤمنون بما أنزل الله على محمد وعلى من قبله من الرسل والذين يقيمون الصلاة وهم بالآخرة موقنون. أولئك هم الذين هداهم الله وأولئك هم المفلحون. أما الكفار فليس فيه لهم هداية لأنهم أصروا على الكفر حتى صارت الغشاوة على سمعهم وأبصارهم وختم الله على قلوبهم، فلا فائدة من إنذارهم. وبعد أن تحلل السورة هذا الذي كانت قد أوجزته في المقدمة بالتذكير بمواقف المنافقين المخادعين ومشركي أهل مكة المتربصين، تقف وقفة تقريع طويلة لليهود المراوغين المنكرين لنبوة محمد، الرافضين لدعوته إلى عبادة إله واحد والإيمان بجميع الأنبياء والرسل والانضواء تحت دين واحد، تستخلص النتيجة

فتدعو إلى الرجوع إلى دين إبراهيم شيخ الأنبياء، جد العرب وباني الكعبة والثائر على عبادة الأصنام، والذي سمى المؤمنين بعقيدته وشريعته بالمسلمين. وبعد أن بينت السورة بإيجاز موقف هذا الدين من كثير من المسائل التي كانت مطروحة على الرسول في المدينة قبل نزول هذه السورة وحين نزولها، ختمت بتأكيد إيمان الرسول والمؤمنون الذين معه بما أنزل إليه من ربه في هذه السورة وغيرها : كلهم آمنوا "بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ"، وكلهم قالوا "لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ"، جاهرين بإيمانهم بالله قائلين: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"[285]، مؤمنين بأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها "لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"، متوجهين إليه بهذا الدعاء : "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا (تكاليف ثقيلة) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (كاليهود)، رَبَّنَا! وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"[286].

وبعد، فهذه هي سورة البقرة "سنام القرآن"، كما تقدم وصفها، سورة واحدة، لا تقديم فيها ولا تأخير ولا نسخ ولا تكرار. سورة محكمة البنية والسياق، متكاملة المضمون والشكل. ونحن نعتقد أننا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا، خلافا لمل ذهب إليه جميع المفسرين، إنها نزلت مرة واحدة في زمن متصل، أياما أو أسابيع.

- استطراد : مسألة النسخ في القرآن

1- موضوع "الناسخ والمنسوخ" موضوع للخلاف والاختلاف بامتياز!

موضوع "الناسخ والمنسوخ" من أكثر الموضوعات التي حظيت باهتمام زائد لدى المؤلفين في علوم الفقه والأصول وفي "علوم القرآن" وتفسيره. ويرجع سبب هذا الاهتمام، ليس فقط إلى كونه "ضروريا" لكل باحث أو متكلم في العلوم الدينية في الإسلام، خصوصا منهم الفقهاء، كما يقول بعضهم، بل أيضا إلى كون هذا الموضوع يشكل مجالا خصبا لتنوع الآراء والاجتهادات، فهو فضاء للاختلاف والخلاف بامتياز!

وربما كان علماء الدين الإسلامي أكثر الأديان اهتماما بهذا الموضوع من علماء الديانات الأخرى لأن القرآن الذي هو المصدر الأول للتشريع في هذا الدين

قد نزل منجما على مدى نحو من ثلاث وعشرين سنة، وأنه قد تضمن بسبب ذلك أحكاما تختلف مناسبات نزولها، فاختلفت بالتالي مضامينها تبعا لتلك المناسبات، فاعتبر اللاحق منها حاكما في السابق، وناسخا له، خصوصا إذا كان ذلك مما ينتمي إلى الأمر والنهي. وهذا يجعل المجتهد، أو الفقيه أو المفسر أو المتكلم، إزاء آيات تقرر في الشيء الواحد أكثر من حكم واحد، الشيء الذي لا يفصل فيه -كما يقولون- إلا المعرفة بالناسخ والمنسوخ في القرآن جملة. على أن ذلك إنما يخص مجال الشريعة أساسا. أما في مجال العقيدة فالقضية التي توازن فيه مسألة الناسخ والمنسوخ هي قضية المحكم والمتشابه التي نرجئ الكلام فيها إلى حينه.

لنركز اهتمامنا هنا إذن على مسألة النسخ وحدها ولنتساءل أولا : ما معنى النسخ؟

تورد معاجم اللغة لمادة "نسخ" معنيين: 1) النسخ : "اكتتابك كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف". 2) "والنَسخ : إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه". وهذا المعنى الثاني هو المقصود عند عموم الفقهاء والأصوليين بـ"النسخ في القرآن". فنسخ آية بأخرى معناه "إزالة حكم" الأولى وإثبات حكم الثانية، كما يقول الأشاعرة، أو إزالة مِثل حكم الأولى، أي عدم تطبيقه في المستقبل، وإثبات حكم الثانية. كما يقول المعتزلة. وإنما قالوا "مثل حكمها" لأن حكم الأولى مراد من الله لأنه حسن، والحسن عندهم صفة ذاتية للأشياء، وبالتالي فالحُسن في الأولى باق، وما أزيل عن الثانية هو مثل حكم الأولى. والنسخ عندهم جميعا لا يقع إلا في الأمر والنهي، وفي الخبر المفيد لمعنى الطلب. أما الخبر الذي لا يفيد هذا المعنى فلا يدخله النسخ..

وهذا الحصر لمعنى النسخ، في الطلب دون الخبر، يقصد به تجنب الخلط بينه وبين البَدَاء (ومعناه عند القائلين به أن يقرر الله أمرا ثم يبدو له أمر فيغير ما قرر). وعلى هذا الأساس أنكر اليهود القول بالنسخ، وذلك دفعا لقول من يقول إن شريعة موسى نُسخت بالشرائع التي جاءت بعدها. قالوا "إن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به، فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية". وقالوا: فلا يكون النسخ بعد شريعته أصلاً لأن النسخ في الأوامر بداءٌ، ولا يجوز البداء على الله تعالى، وهم يجوزنه في الخبر. ولتلافي هذا المعنى فرق علماء الإسلام -كما ذكرنا- بين النسخ والبداء، فقالوا إن النسخ لا يكون في الأخبار لأنها تتعلق بعلم الله، وعلمه لا يتغير، وإنما يتعلق

النسخ بالأحكام لأن الأحكام تتعلق بمقتضى أحوال الناس، وهي تتغير بتغير الظروف الزمانية والمكانية، وهذا التغير يحدث بسابق علم الله.

إذا نحن غضضنا الطرف عن الجدل في هذه الأمور لأن مجاله العقيدة (علم الكلام) وحصرنا النسخ في أحكام الشريعة وحدها فإننا لا نملك إلا أن نلاحظ أن هناك، في هذا الميدان، ما يبرر الطعن في كثير مما كتب وقيل في موضوع النسخ. يأتي على رأس ذلك المبالغة في استعمال هذه المقولة إلى حد التكلف. ثم هناك خلط بين مقولة النسخ هذه وبين مقولات أخرى مثل العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والمبهم والمعين. فكثيرة هي الآيات التي جاءت في صيغة العام أو المطلق أو المبهم أو المجمل فخصصت أو قيدت أو بينت بآيات أخرى، فاعتبر كثير منهم هذه ناسخة وتلك منسوخة، وهذا شيء ينطوي على تجاوز كبير: فالعام والمطلق والمبهم والمجمل صيغ لفظية تقع موقع الكلي أو الجنس، أما الخاص والمقيد والمفصل فهي صيغ تقع في موقع الجزئي والمفرد. والجزئي لا ينسخ الكلي كما لا ينسخ المفرد الجنس. فإذا اعتبرت هذه الأشياء تقلص مجال الناسخ والمنسوخ إلى حد كبير.

على أن الإشكال الذي تطرحه مقولة النسخ ليس محصورا في المبالغة في توظيفها، بل إنه إشكال يطال جواز أو عدم جواز القول به. هناك من يقول بوقوعه مطلقا، وهناك من ينكر ذلك، وهناك من يقول بوجوده في القرآن ومن ينكر ذلك.

أ- أما القائلون بوقوع النسخ مطلقا فيحتجون بما يلي، قالوا: "إن الدلائل دلت على أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله، فوجب القطع بالنسخ". وقد أجاب منكرو النسخ بقولهم: "لا نسلم أن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لا تصح إلا مع القول بالنسخ لأن من الجائز أن يقال: إن موسى وعيسى عليهما السلام أمرا الناس بشرعهما إلى زمان ظهور شرع محمد (ص)، ثم بعد ذلك أمر الناس باتباع محمد (ص)، فعند ظهور شرع محمد (ص) زال التكليف بشرعهما وحصل التكليف بشرع محمد عليه الصلاة والسلام، لكنه لا يكون ذلك نسخا، بل جاريا مجرى قوله: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ" (البقرة: 187)، أي إلى أن يحين الليل بغروب الشمس. فالمسألة في نظرهم مسألة تأجيل : تأجيل التوقف عن العمل بشرع موسى وعيسى إلى أن يأتي شرع محمد. وهم يحتجون لرأيهم هذا بقولهم: "قد ثبت في القرآن أن موسى وعيسى

عليهما السلام قد بشرا في التوراة والإنجيل بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام، وأن عند ظهوره يجب الرجوع إلى شرعه. وإذا كان الأمر كذلك فمع قيام هذا الاحتمال امتنع الجزم بوقوع النسخ".

ب- هذا عن جواز -أو عدم جواز- وقوع النسخ مطلقا. أما عن جواز وقوعه في القرآن فقد قال به جمهور علماء المسلمين، وكان هناك من أنكره. احتج القائلون بالنسخ بعدة آيات أبرزها قوله تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة 106). وقد رد منكرو النسخ في القرآن على ذلك من عدة أوجه منها قولهم: "إن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل"، ومنها "أن الله تعالى وصف كتابه (القرآن) بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... فلو كان فيه نسخ لكان قد أتاه الباطل". وقال آخرون إن الإسلام جاء ناسخا للديانات الأخرى فلا يعقل أن يكون فيه منسوخ، وهو الناسخ لما قبله. وفي رأي القائلين بالنسخ إن هذه حجة تنتمي إلى مجال الفكر المجرد، لا غير. أما في الواقع فمسألة الناسخ والمنسوخ تكتسب مشروعيتها من القرآن نفسه، من كونه نزل منجما ولمناسبات معينة تختلف زمانا ومكانا الخ.

ومن تفريعاتهم أيضا اختلافهم في هل ينسخ القرآن بالقرآن وحده، أم أنه يجوز أن ينسخ بالسنة والإجماع، فقال بعضهم : لا يُنسَخُ القرآن إلا بقرآن كقوله تعالى : "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها" قالوا: ولا يكون مثل القرآن أو خيرًا منه إلا قرآن. وقيل بل ينسخ القرآن بالسنة لأنها أيضا من عند الله، قال تعالى: "وما ينطق عن الهوى" (النجم 3). وقال آخرون: إذا كانت السنة بأمر الله من طريق الوحي نَسَخَتْ، وإن كانت باجتهاد فلا. وحرص الشافعي على توافق القرآن والسنة فقال: "حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له". واختلفوا هل ينسخ الإجماعُ القرآن؟ فقال بعضهم بجواز ذلك، ومثلوا له بآيات.

2- تصنيفات وتفريعات ... هي "تخريفات"

ذهب القائلون بوجود النسخ في القرآن مذهبا قصيا في العمل به فوضعوا تصنيفات هي عبارة عن قوالب منطقية فارغة، ثم راحوا يبحثون لها عما يملؤها، الشيء الذي جعلهم يمعنون في التجزيء وينزلقون مع افتراضات لا فائدة من ورائها غير اصطناع أوضاع ونوازل أثقلت وتثقل كاهل الفقه الإسلامي.

من ذلك مثلا تقسيمهم النسخ في القرآن إلى الأقسام التالية:

- فالقسم الأول، هو ما عبروا عنه بقولهم "ما نسخت تلاوته وحكمه معًا". وهذا ليس له من نتيجة إلا إثبات "الفراغ" في المصحف نصا ومضمونا. وعبثا حاول بعضهم تجنب هذه النتيجة! لقد انتهوا إلى القول إن هذا القسم الذي فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضًا غير متلو ليس له نظير في القرآن.

- أما القسم الثاني من تصنيفهم للنسخ في القرآن فهو ما أطلقوا عليه "ما نسخ حكمه دون تلاوته"، وهو جل ما ينصرف إليه معنى النسخ عندهم لوجود آيات تقرره في نظرهم. وسنفحص هذه الدعوى لاحقا. لنكتف الآن بالتنبيه إلى أن القول بوجود شيء من القرآن "نسخ حكمه دون تلاوته" قول يحمل تناقضا لا حل له. إذ كيف يمكن أن يكون هناك قرآن للتلاوة فقط، وهو يحمل معنى مفهوما واضحا؟ نحن نقول: إن ما يمكن أن يقال عنهُ في القرآن "إنه للتلاوة فقط" هو الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور مثل "ن"، "ق"، "ص"، "يس"، "طه"، "طس"، "طسم"، كهيعص"، "الم"، "المص" الر" المر". أما ما عدا ذلك، وهو القرآن كله، فهو محكم لأنه يحمل معنى، سواء على مستوى الحقيقة أو على مستوى المجاز. أما مسألة هل يعمل به مطلقا أم أن العمل به قد قيده القرآن في وقت لاحق أو أجله أو أوقفه لاعتبار من الاعتبارات، فهذا شيء آخر. وهو محل اجتهاد.

أما القسم الثالث، والذي عبروا عنه بقولهم "ما نسخت تلاوته دون حكمه"، فهو ليس من القرآن. أما استشهادهم بأقوال بعض الصحابة التي تشير إلى خلو المصحف من آيات قالوا إنها كانت من القرآن فقد سبق لنا أن أوضحنا فيه رأينا في "المدخل إلى القرآن". لقد بينا كيف أن ذلك لا يجوز اعتباره من القرآن. ذلك لأننا عندما نتحدث عن "القرآن"، فنحن نتحدث عن القرآن كما هو في المصحف منذ أن جُمع زمن عثمان. أما غير ذاك مما يتصل بمناسبات نزوله ومراحل جمعه فهي أمور تنتمي إلى التاريخ، إلى مجال التعريف بالقرآن، وليس إلى فهم نص القرآن.

ومن مبالغات القائلين بالنسخ تصنيفهم سور القرآن حسب "وجود" النسخ فيها أو عدم وجوده إلى الأصناف التالية:

- سور تضمنت الناسخ والمنسوخ وعدوها خمسا وعشرين هي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة وإبراهيم والنحل ومريم والأنبياء

والحج والنور والفرقان والشعراء والأحزاب وسبأ والمؤمن والشورى والذاريات والطور والواقعة والمجادلة والمزمل والتكوير والعصر.

- وسور دخلها المنسوخ دون الناسخ، وهي عندهم أربعون: الأنعام والأعراف ويونس وهود والرعد والحجر والإسراء والكهف وطه والمؤمنون والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والملائكة والصافات وص والزمر والسجدة والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وسورة محمد و"ق" والنجم والقمر والممتحنة و"ن" والمعارج والمدثر والقيامة والإنسان وعبس والطارق والغاشية والتين والكافرون.

- وسور اشتملت على الناسخ دون المنسوخ، وعدوها ستا وهي: الفتح والحشر والمنافقون والتغابن والطلاق والأعلى.

- وسور خاليات من ناسخ ومنسوخ، وهي عندهم ثلاث وأربعون هي: الفاتحة ويوسف ويس والحجرات والرحمن والحديد والصف والجمعة والتحريم والملك والحاقة ونوح والجن والمرسلات والنبأ والنازعات والانفطار والمطففين والانشقاق والبروج والفجر والبلد والشمس والليل والضحى والشرح والقلم والقدر والانفكاك والزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر والهمزة والفيل وقريش والكافرون والكوثر والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس.

وفي مقابل هذا الغلو في توظيف مقولة النسخ حاول علماء مبرزون حصر النسخ في حدود. منهم الفقيه ابن الجوزي الذي ألف كتابا في النسخ سماه : "نواسخ القرآن" عرض فيه تلك التصانيف وعلق عليها بقوله: "قلت: واضح بأن التحقيق في الناسخ والمنسوخ يظهر أن هذا الحصر تخريف من الذين حصروه". ثم أخذ يستعرض الآيات التي ادُّعِي فيها النسخ وانتهى إلى حصر "المنسوخة" في آيات قليلة العدد والتمس للباقي تفسيرا باعتماد مقولة العام والخاص الخ.

أما الشاطبي فهو وإن كان لا يضرب صفحا عن مقولة "النسخ" كليا فإنه يقلص مفعولها ومداها إلى مستوى "النادر" من الأشياء. وذلك لعدة اعتبارات يذكرها:

- منها "أن غالب ما ادعي فيه النسخ إذا تأمل وجدته متنازعا فيه ومحتملا، وقريبا من التأويل بالجمع بين الدليلين على وجه من كون الثاني بيانا لمجمل أو تخصيصا لعموم أو تقييدا لمطلق وما أشبه ذلك من وجوه الجمع، مع البقاء على الأصل من الإحكام في الأول والثاني".

- ومنها "أن تحريم ما هو مباح بحكم الأصل ليس بنسخ عند الأصوليين كالخمر والربا فإن تحريمهما بعد ما كانا على حكم الأصل لا يعد نسخا لحكم الإباحة الأصلية". ومن هذا القبيل أنهم "قد كانوا في الصلاة يكلم بعضهم بعضا إلى أن نزل "وَقُومُوا للَّهِ قَانِتِينَ" (البقرة 238)، وأنهم كانوا يلتفتون في الصلاة إلى أن نزل "الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (المؤمنون 2). قالوا (يعني المفسرين والأصوليين) وهذا إنما نسخ أمرا كانوا عليه. وأكثر القرآن على ذلك. معنى هذا أنهم كانوا يفعلون ذلك بحكم الأصل من الإباحة، فهو مما لا يعد نسخا، وهكذا كل ما أبطله الشرع من أحكام الجاهلية". ويضيف الشاطبي قائلا: "فإذا اجتمعت هذه الأمور ونظرت إلى الأدلة من الكتاب والسنة لم يتخلص في يدك من منسوخها إلا ما هو نادر".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقرر الشاطبي أن القواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينيات لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية بدليل الاستقراء، فإن كل ما يعود بالحفظ على الأمور الخمسة (النفس والعقل والنسل والمال والدين) ثابت. وإن فرض نسخ بعض جزئياتها فذلك لا يكون إلا بوجه آخر من الحفظ، وإن فرض النسخ في بعضها إلى غير بَدَل فأصل الحفظ باق، إذ لا يلزم من رفع بعض أنواع الجنس رفع الجنس".

هذا وقد تتبع السيوطي ما قالوا عنه إنه منسوخ وهو أكثر من 500 آية، وانتهى إلى أن عدد المنسوخ هو 21 آية فقط. وجاء بعد، من المحدثين والمعاصرين، من راجع لائحة السيوطي، فبعضهم حصر النسخ في خمس آيات فقط، بينما أثبت آخرون أن تلك الآيات الخمس نفسها لا نسخ فيها.

على أن هذه الآراء التي تقلص من عدد الناسخ والمنسوخ في القرآن إلى درجة "الصفر" تعترف -ضمنيا على الأقل- بوقوع أو إمكانية وقوع النسخ في القرآن. ذلك لأنها إنما تعتمد في ما تقرره على نوع من التأويل للآيات التي وضعها آخرون تحت طائلة النسخ. وواضح أن تأويل مضمون آية من الآيات على نحو يحررها من طائلة النسخ لا يغلق الباب أمام تأويلات أخرى تجعلها ناسخة أو منسوخة. إن حل مشكلة "النسخ" لا يكون نهائيا ما لم ينطلق من القرآن نفسه. فإذا نحن استطعنا إثبات أن لا دليل في القرآن على وقوع النسخ في نصوصه، صار بإمكاننا حل المشكل من أساسه.

نحن ندرك أن هذا لن يكون سهلا على الذين لا زاد لهم إلا الأفكار المتلقاة، ومع ذلك فأملنا أن لا يسارعوا إلى ارتكاب الأخطاء.

3- لا دليل في القرآن على وقوع النسخ فيه

أ- في معنى: "الآية"

نقطة البداية في إثبات وجود أو عدم وجود النسخ في القرآن هي تحديد معنى "الآية"، ذلك أن القائلين بالنسخ، كالمنكرين له، يصفون بعض الآيات بأنها ناسخة أو منسوخة، أو ينزعون عنها هذه الصفة. فلنتعرف أولا على معنى الآية؟

اختلف اللغويون في تحديد الأصل اللغوي لكلمة "آية": هل هو أيَّة على وزن فعْلَة، أم أَيَيَة على وزن فَعَلَة، أم أوَيَة، أم أن أصلها على وزن فاعِلة، وهم جميعا متفقون على أن معناها : العلامة، والعبرة، والمعجزة. هذا عن المعنى اللغوي. أما عن المعنى الاصطلاحي الخاص بـ"الآية من القرآن" فقد اشتهر بين المفسرين تعريف الجعبرى الذي ورد فيه "حد الآية: قرآن مركب من جمل، ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة". وهناك تعريف أقصر من هذا هو قول القائل : "الآية قطعة من القرآن". والواقع أنه من شبه المستحيل تعريف "الآية من القرآن"، ذلك لأن هناك آيات تتألف من كلمة واحدة، وأخرى من بضع كلمات ولكن دون أن ترقى إلى الجملة المفيدة باصطلاح النحويين، وفي المقابل هناك آيات تتألف من عدة جمل نحوية وتستغرق نصف صفحة أو أكثر.

وإذا نحن رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا سنجد أن لفظ "آية"، في جميع الصيغ التي ورد فيها (آية، آيات، آياتي، آياتنا) ينصرف معناه إلى العلامة (أو المعجزة التي تثبت وجود الله وقدرته الخ). من ذلك قوله تعالى: "وَإِنْ يَرَوْا آيَةً (كانشقاق القمر) يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ" (القمر 2)، وقوله: "وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا (سفينة نوح) آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" (37 القمر15). وقوله : "قَالَ (فرعون) إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ (العصا) فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الأعراف 106). وقوله : "وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ (على محمد) آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" (معجزة- يونس 20). وتتكرر عبارة "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ" وما في معناها، للإشارة إلى "ما يُحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها" مثل قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً" (الإسراء 12) الخ. وهذا المعنى هو المقصود بـ"الآية" في جميع السياقات في القرآن بما في ذلك تلك التي ورد فيها لفظ آية مقرونا بألفاظ تفيد التلاوة "نتلو، تتلى"، مثل قوله تعالى: "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ"، وقوله : "يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ" (الجاثية 6-8)، فالمقصود

بالتلاوة هنا ليس النطق بألفاظ القرآن بل الإخبار بصنع الله ومقدوراته الخ، كما هو واضح، جلي، من سياق تلك الآيات.

وعلى هذا فلا معنى للقول بالنسخ في القرآن إلا بمعنى أن الله ينسخ معجزة نبي سابق بمعجزة أخرى لنبي لاحق، دليلا على صحة وصدق نبوة كل منهما، أو ينسخ ظاهرة طبيعية مثل الليل بظاهرة طبيعية أخرى مثل النهار الخ، دليلا على قدرته. والنسخ بهذا المعنى هو إحلال شيء مكان آخر. وليس في القرآن قط ذكر لما اصطلح على تسميته "آية" بمعنى "قطعة من القرآن"، وذلك على خلاف لفظ "السورة"، الذي ورد في القرآن مفردا "قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ" (يونس 38) وجمعا "قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ" (هود 3) وقوله "فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ" (البقرة 23). أما لفظ "آية" الذي تكرر فيه كثيرا بمعنى العلامة والحجة والمعجزة الخ، فلم يرد قط بالمعنى الاصطلاحي (عبارة من القرآن)، لا مفردا ولا جمعا.

من هنا ضرورة طرح السؤال التالي: إذا كان القرآن لا يسمي، أي لفظ ولا أية مجموعة ألفاظ من ألفاظه، باسم "آية"، فمن أين جاءت هذه التسمية؟

لم نعثر في مصادرنا على جواب قطعي عن هذا السؤال. وكل ما تفيده الروايات هو أن الأمر يتعلق باصطلاح وضع للإشارة إلى "القطعة" التي كان يقف عندها الرسول عليه السلام أثناء تلاوة القرآن. فقد ورد في الحديث عن أم سلمة أنها قالت : «كَانَ رَسُولُ الله يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ، يَقْرَأُ: الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثُمَّ يَقِفُ.

الرحمنِ الرَّحِيمِ. ثُمَّ يَقِفُ. ..." (الترميذي. لم يرد هذا الحديث في غيره من الكتب التسعة، وقد ذكر في مراجع أخرى هكذا : "كان النبي يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً"، وواضح أن عبارة "آية آية" إضافة من الراوي). وكل ما يدل عليه هذا أن معنى "آية" من القرآن هو اللفظ أو الألفاظ التي تقع بين وقفة ووقفة في تلاوة النبي عليه السلام للقرآن، سواء كانت جملة مفيدة أو أقل من جملة أو أكثر، وبالتالي فلا معنى للقول عنها إنها ناسخة أو منسوخة.

أما متى اصطلح على هذا، أما متى تم ترقيم الآيات بهذا المعنى في المصحف فذلك ما لم نعثر فيه على خبر! والظاهر أن ذلك حدث بعد النبي عليه السلام. يؤيد ذلك ما ذكرته أم سلمة من حيث إنه كان -في الماضي- طريقة قراءة النبي، أضف إلى ذلك اختلاف أهل المدينة والبصرة والكوفة الخ في عدد آيات بعض السور كما في عدد آيات القرآن ككل.

ب- حول "السبع المثاني"

أما ما يذكرونه بصدد قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" (الحجر 87) من أن المقصود بـ "السبع المثاني" هو الفاتحة بدليل كونها "سبع آيات"، فليس هناك ما يدل على أن "المثاني" هي "الآيات"، بالتحديد. فكل ما يفيده النص هو أن الأمر يتعلق "بسبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثنى" (الرازي). وإذا عرفنا أن علماء الإسلام قد اختلفوا حول عدد آيات الفاتحة هل هي سبع أم ست أم ثمان أم تسع، صار القول بأن "السبع المثاني" هي الفاتحة، لكونها "سبع آيات"، قولا لا يصمد أمام الفحص النقدي. هذا فضلا عن صعوبة فهم السبب الذي من أجله تم التمييز بينها وبين "القرآن العظيم" في الآية السابقة، خصوصا والرأي السائد أن الفاتحة هي من القرآن وليست مجرد "دعاء" كما قال بعضهم. (انظر رأينا في حقيقة "السبع المثاني" في القسم الثاني من هذا الكتاب: سورة الحجر، هامش رقم 15).

4- نص القرآن ليس موضوعا لا للتبديل ولا للنسخ ولا للمحو.

هناك خمس آيات يلتمس فيها القائلون بـ "النسخ" في القرآن مشروعية هذه المقولة، ندرجها هنا حسب ترتيب نزولها وضمن سياقها لنتمكن من مناقشة مضمونها، على أساس ذلك المبدأ المثالي القائل : "القرآن يفسر بعضه بعضا". أما روايات "أسباب النزول" فسيكون لنا حديث خاص بها، فليمسك عنا أصحاب البضاعة بضاعتهم إلى حين!

أ- "وإذا بدلنا آية مكان آية ..."

الآية الأولى من سورة النحل وهي سورة مكية تقع تحت رقم 70 في ترتيب النزول. ونصها: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ، قَالُوا (قريش) إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (النحل 101) . قال الواحدي في كتابه أسباب النزول : "نزلت حين قال المشركون: إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية". وهذا "السبب" (سبب النزول) يكرره الواحدي نفسه، فضلا عن المفسرين، بصدد آيات أخرى تفيد "النسخ" في نظر القائلين به، وهذا ما يضعفه لأن المفروض في "سبب نزول" آية ما أن يكون خاصا بها وحدها وإلا لما صح اعتباره سببا في نزولها.

لعل هذا ما جعل القرطبي يعرض عن الرواية السابقة ليشير بصدد قوله تعالى: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ"، إلى رأي آخر، فكتب يقول: "قيل المعنى: بدلنا شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة"، ونحن نرى أن هذا تفسير يحتمله السياق فعلا. فالآية التي تلي السابقة وهي قوله تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ (جبريل) مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (النحل 102) تشير إلى القرآن ككل، وتتكامل مع السابقة.

على أنه إذا أمكن صرف معنى "الآية" هنا إلى "الشريعة" (شريعة موسى مثلا)، كما فعل القرطبي وغيره، فلا شيء يمنع من صرفها إلى معنى "العلامة" و"المعجزة"، وهو المعنى الغالب الذي وردت فيه هذه اللفظة في القرآن. وفي هذه الحالة يكون معنى قوله تعالى : "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ" الخ، هكذا: إذا كنا قد جعلنا العصا التي تنقلب ثعبانا علامة على صدق نبوة موسى، مثلا، فقد بدلنا هذه المعجزة بأخرى لتكون علامة على صدق نبوة عيسى، وهي منحه القدرة على الكلام إلى الناس وهو صبي في المهد الخ. ونحن نعتقد أنه بهذا النوع من الفهم يكون المعنى أقوى، خصوصا ومجال الخطاب هنا هو الجدل مع المشركين في مكة، وليس الجدل حول التشريع.

<u>*ب - "وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ" ...*</u>

أما الآية الثانية التي يستشهدون بها لإثبات مشروعية القول بالنسخ في القرآن فهي من سورة الحج، وهذه السورة مصنفة في المصحف مع القرآن المدني، وهناك من المفسرين والمهتمين بترتيب النزول من يقولون إنها مكية. وتقع الآية التي تعنينا هنا ضمن سياق واحد يتألف من الآيات التاليات: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (مغالبين معاندين) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" (الحج 49-51).

وواضح أن المقصود بـ "آياتنا" هنا ليس "قطعة" أو "قطعا" من القرآن، لأنه ثبت أن قريشا عجزت عن معارضته ومعاندته بعد أن تحداهم بالإتيان بسورة مثله، بل المقصود في رأينا هو : العلامات التي تشير إلى قدرة الله وبديع صنعه الخ، والتي تحمل الذين يتأملونها على الإيمان بالخالق الأحد، وبالبعث والثواب والعقاب، وتدفعهم إلى القيام بالعمل الصالح، مما يجعلهم يستحقون المغفرة والرزق الكريم (كما هو منصوص عليه قبل). وهذا بخلاف الذين يعاندون في وحدانية الله وخلقه العالم والبعث والحساب الخ، وذلك بإثارة أسئلة وشكوك مثل

قولهم : "أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (ص 5)، وقولهم: "أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون، أوآباؤنا الأولون" (الواقعة 27-48). وهذا المعنى الذي قررناه هنا تشهد له بالصحة آيات أخرى (أنظر: سبأ 1-6-38).

<u>ج- "فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ"...</u>

ومباشرة بعد آيتي سورة الحج (49-51) موضع كلامنا نقرأ قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" الخ (الحج 52-54).

لا مجال هنا لتفسير لفظ "ينسخ" في قوله تعالى في الآية السابقة "فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَان" بالمعنى الذي يعطيه القائلون بالنسخ في القرآن لهذه الكلمة. ذلك أن معنى "ينسخ" هنا هو : "يمحو"، أي يضع حدا لمشاعر من التمني كانت تدور في وجدان النبي عليه السلام من حين لآخر، وأساسها تشوقه إلى أن يؤمن به قومه قريش. وسياق الآيات أعلاه يشير بوضوح إلى أن النبي قد خطر له -هنا- كما حدث في مناسبات أخرى، تلبية بعض مطالب قريش التي طرحوها عليه في إطار مساوماتهم التي تحدثنا عنها في سور سابقة. وقد نزلت في ذلك آيات أخرى مثل قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا. وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" (الإسراء 73-77).

واضح إذن أن معنى قوله تعالى في سورة الحج "أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ"، يشرحه ما ورد أعلاه في سورة الإسراء: الله يمحو التمنيات التي تخطر على قلب النبي أثناء دعوته لقريش وتلويحهم له بإمكانية اتباعهم له إذا هو فعل كذا أو قال كذا. وبهذا المحو للتمنيات التي من شأنها إيقاع الفتنة (والفتنة من الشيطان) تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي وتستمر الدعوة في دربها المحكم الذي وضحته آيات سابقة، فيكون هذا المحو بمثابة إحكام جديد لمنهج الرسالة وأدلتها ومقاصدها. فالنسخ والإحكام لا يعودان هنا إلى ألفاظ هذه الآية (القرآنية) أو تلك، بل يعودان إلى مسار الدعوة المحمدية، إلى سيرورتها الفعلية المقررة في محكم الكتاب.

د- يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ

والآية الثالثة التي يعتمدها القائلون بالنسخ في القرآن هي قوله تعـالى : "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَـأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْـدَهُ أُمُّ الْكِتَـابِ" (الرعد 38- 39).

قد لا نحتاج هنا إلى الوقوف طويلا مع هذه الآية، إذ من الواضـح مـن السياق أنها جواب على ما ورد في آية سابقة تحكي تحدي قريش للنبـي عليـه السلام أن يأتيهم بمعجزة، كأن ينزل عليه كنز أو يأتي معه ملـك، ذلـك قولـه : "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" (الرعد 7)، ويأتيهم الجواب فـي الآية نفسها "إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ". ثم تأتي الآيتـان المـذكورتان أعـلاه (38-39) لتقررا أن الله أرسل رسلا قبل محمد (ص)، وأنهم لم يكونوا ملائكة ولا أناسا خارقين للعادة، بل كانوا كجميع البشر لهم أزواج وذرية ولم يكن في مقدور أي منهم أن يأتي بمعجزة أو ما في معناها إلا بإذن الله وفي وقت محـدد سـلفا، وهذه الآيات/المعجزات التي يأتي بها الأنبياء لإقناع أقوامهم، منها ما أثبتـه الله وقصَّه في رسالاته اللاحقة (كالقرآن) ومنها ما لم يثبته. وهو يعلم هذا الـصنف كما يعلم ذلك، لأن الكل مسجل في "أم الكتاب" وهو اللوح المحفوظ.

وهكذا يتضح أن قوله "يمحو" لا علاقة له بالقرآن ولا بكون بعض آياتـه تنسخ أخرى. وليس هناك في السياق ما يسمح بإقامة مثل هذه العلاقة. ومـع أن بعض المدافعين عن وجود النسخ في القرآن يستشهدون بهذه الآية ليصرفوا معنى "المحو" فيها إلى "النسخ" فإن جل المفسرين يذهبون إلى مثل ما قلنا أو قريبا منه (انظر ما ذكره الطبري في تفسيره). ونحن مطمئنون إلى صواب وجهة نظرنا هذه لأن القرآن يشهد لها بالصحة في آية أخرى هي قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُـلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ (فقصصهم وآياتهم بمعنى معجزاتهم مثبتة فـي القرآن) وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (وقصصهم ومعجزاتهم لم تذكر فيه) وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ (معجزة) إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ" (فصلت 78).

هـ- "ما ننسخ من آية أو ننسها ..."

لعل أهم حجة يستند إليها القائلون بوجود النسخ في القرآن هـي الآيـة التالية، الواردة في هذه السورة، الشيء الذ.يبرر تخصيصها باستطراد في موضوع

إِلَيْكَ الْكِتَابَ (القرآن) بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ (التوراة)، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ" (المائدة 48)، نبوة محمد عليه السلام خير من النبوات السابقة فهي مهيمنة عليها، ناسخة لها.

ونعود إلى تتمة آية "ما ننسخ..." وهو قوله تعالى: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (البقرة 106- 107)، لنشير إلى أن ربط عملية النسخ بقدرة الله الخ، يناسب ليس "الآيات الكلام" فحسب، بل الأفعال والحوادث، وهذا هو المقصود لأن المعنى لا يستقيم مع صرف معنى النسخ إلى "حروف الآية" بل يحتم السياق صرفه إلى قدرته تعالى على الإتيان بشرائع وعلامات ودلائل وحجج ... جديدة تحل محل القديمة.

ويستمر هذا الخطاب ليتحول إلى نوع من العتاب للمسلمين الذين كانوا يقولون للرسول "راعنا" كما بينا آنفا. قال تعالى: "أَمْ تُرِيدُونَ (بقولكم للرسول راعنا، أي أمهلنا ولا تسرع في القراءة) أَنْ تَسْأَلُوا (تطلبوا من) رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ (=طلب من موسى) مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (108)، والمعنى : هل تريدون أن تسلكوا مع رسولكم نفس المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل مع موسى إذ كانوا يتذمرون ويشتكون ويشتطون في الطلب (وهو معنى قولهم : راعنا)، حتى بدلوا الكفر بالإيمان، وضلوا سواء السبيل.

وتعود الآية التالية إلى بداية السياق (أعني قوله تعالى: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ"، فترتبط به وتقرر من جديد: "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ".

وهكذا فمن خلال هذا السياق الذي تندرج تحته "آية النسخ" يتضح بجلاء أن ما تنسخه هذه الآية ليس ألفاظ آية من الآيات القرآنية بل النبوات والشرائع السابقة، ومن هنا كان الرسول محمد عليه السلام "خَاتَمَ النَّبِيِّينَ". وبختم النبوة نسخت "الآيات" (المعجزات) الخارقة للعادة التي خص الله بها أنبياء سابقين. لقد نسخ الله تلك الآيات/المعجزات واستقرت العادة، وصارت المعجزة العامة التي على جميع البشر أن يعتبروها هي تلك التي عبر عنها القسم الثاني من "آية النسخ" (أعلاه) والآية التالية لها، ذلك قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم : "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ".

* * *

يتضح من جميع ما تقدم في هذا الاستطراد أنه لا دليل في القرآن على وجود النسخ فيه بالمعنى الفقهي وأن حجج القائلين به، المستندة على الآيات الخمس التي حللناها أعلاه لا تدل على ما يريدون إثباته بواسطتها إلا إذا سلخناها من سياقها وضمّناها ما نريد. وهذا غير جائز. فالقرآن، ولو أنه نزل منجما مفرقا حسب مقتضى الأحوال، فإن لآياته سياقا كما أن لها أسباب نزول. والعمل بأسباب النزول يجب أن لا يعتدي على السياق. فأسباب النزول، هي في نهاية الأمر روايات آحاد، وأكثرها ظنون وتخمينات. أما السياق فشيء معطى من القرآن نفسه. وهو توقيفي، لأن ترتيب آيات القرآن في جميع سوره ترتيب توقيفي. فإذا كان لا يجوز تغيير هذا الترتيب فلا يجوز أيضا إهماله. والقرآن يفسر بعضه بعضا ليس بالكلمات والألفاظ بل بالمعنى والسياق.

وواضح أنه يترتب على قولنا إنه لا دليل في القرآن على النسخ بالمعنى الفقهي، أنه ليس في القرآن الذي في المصحف آيات -أحكام أو أخبار- منسوخة، بمعنى أنها ألغتها آيات أو أحكام أخرى! كلا، ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ. كل ما هناك هو وجود أنواع من التدرج في الأحكام: من العام إلى الخاص، ومن المطلق إلى المقيد، ومن المجمل إلى المبين، ومن المبهم إلى المعين، هذا فضلا عن ملاءمة الأحكام مع مقتضيات الأحوال، كأن يأتي حكم يراعي حالة المسلمين من الضعف أو غيره، ثم عندما تتحسن أحوالهم يأتي تعديل في نفس الحكم ليتلاءم مع المستجدات. وهذا لا يعني إزالة الحكم الأول ولا إبطاله بالمرة، وإنما يعني إعماله بصورة معدلة.

وإذن، فنحن لا ننكر وجود آيات تنطق بأحكام عممتها آيات نزلت بعدها، أو خصصتها، أو قيدتها، أو فصّلتها، أو عدلتها، أو أجّلتها، أو رفعت عنها التأجيل الخ! نحن لا ننكر هذا! وهل يصح ذلك والقرآن نزل منجما وفق مقتضى الأحوال، أي حسب تغير الظروف والمصالح وشؤون الحياة عامة. وإذن فما ندعو إليه هو فقط الاستغناء عن مقولة "الناسخ والمنسوخ"، التي تجعل الناسخ يحل محل المنسوخ ويبطل حكمه، وكأن المنسوخ كان خطأ أو أن إرادة الله قد تغيرت! كلا، إن أحكام القرآن كلها قائمة أبدا، لا تعارض فيها ولا تناقض ولا تجدد، بل التعارض والتجدد قائمان في الأشياء والنوازل، وليس في أحكام القرآن؛ وعلى الإنسان أن يجدد فهمه للأحكام حتى تتلاءم مع المستجدات.

وإنما نزل القرآن مفرقا في مدى يزيد عن عشرين سنة لتكـون أحكامـه متلائمة مع تطور الحياة. وهو في جملته وتفصيله لا ناسخ فيـه ولا منـسوخ : "كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (في منظومة كلية) ثُمَّ فُـصِّلَتْ (عناصـرها حـسب مقتـضى الأحوال) مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" (هود 1)، ، والقرآن، كليته ومفرّقه، واحد "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" (فصلت 42). وقد ذم الله "الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ" يأخذون ببعضه ويتركون الباقي (الحجر 90- 91) وتوعدهم، وهذا ليس خاصا بالعمل والسلوك فحسب بل يـشمل أيـضا جميع أنواع التعامل مع القرآن، ويأتي في المقدمة فهم القرآن. فكل فهم لم يُـبْنَ على مراعاة السياقات واستقراء الآيات الخاصة بموضوع واحد هو كالوقوف عند "ويل للمصلين".

ومع أن القائلين بالنسخ في القرآن لا يـدخلون جميعـا ضـمن مفهـوم "الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ" ، فإن إعمال بعضهم لآيـات وإهمـالهم لأخرى تتصل بالأولى، عن قصد أو غير قصد، تصرف مخـالف للقاعـدة الكليـة القرآنية التي تؤكد علي وحدته وخلوه من الاختلاف: قال تعالى: "أَفَلَـا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيـهِ اخْتِلَافًـا كَثِيـرًا" (النـساء 82)، والمفهوم أنه من عند الله وأنه ليس فيه اختلاف، لا ناسخ ومنـسوخ. وإذا كـان القرآن ينص على أن فيه "المحكم والمتشابه" فإنه لا علاقة لهذا التـصنيف مـع التصنيف إلى ناسخ ومنسوخ. فليس الناسخ في حكم المحكم ولا المنسوخ في حكم المتشابه، كما سنبين ذلك في حينه.

91- سورة القدر

- تقديم

اختلفوا في هذه السورة : هل هي مكية أم مدنية؟ لابن عباس قولان. ونسب القرطبي وأبو حيان القول بمدنيتها إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وهذا يقتضي أنها نزلت أثناء نزول سورة البقرة أو بعدها، بعد فرض صيام شهر رمضان وذلك لارتباطها بهذا الشهر. وذُكر أن رجلا قال للحسن البصري: "أرأيت ليلة القدر في كلّ رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كلّ رمضان، وإنها لليلة القدر، فيها يُفرق كلّ أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق". وعن ابن عباس: "نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السَفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلّم عشرين سنة. قال ابن العَرَبيّ: "وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة" (القرطبي).

وعن معنى "ليلة القدر" قالوا: ليلة الحكم. ويضيف القرطبي: "والمعنى ليلة التقدير؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلمه إلى مدبّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل؛ عليهم السلام". وعن ابن عباس قال: يُكتَب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتّى الحاجّ. قال عكرمة: يُكتب حاجّ بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يُغادَر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم. وقال سعيد بن جبير هذا المعنى. وعن ابن عباس أيضاً: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويُسلّمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: إنما سميت بذلك لعِظمِها وقَدْرها وشرفها؛ من قولهم: لفلان قَدْر؛ أي شرف ومنزلة" (القرطبي).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى اختلفوا الأولى في عدة مسائل: في تعيين ليلة القدر؛ وأكثرهم يقول إنها ليلة سبع وعشرين من رمضان، وبعضهم يقول إنها في العشر

الأواخر منه. وبعضهم قال هي في ليالي السنة كلها. ومنهم من ربط هذا بأحكام شرعية فقال: "من علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضي سنة من يوم حلف. لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت. وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة، أي أنها في جميع السنة. ونسب إليه القرطبي إليه القول إنها: "إنها رُفِعَتْ -يعني ليلة القدر- وأنها إنما كانت مرة واحدة. وروي عن ابن مسعود: "أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة، كانت في العام المقبل في يوم آخر". وحاول بعضهم ربطها بـ"الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر بناء على قوله تعالى: "وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ" (الأنفال: **41**). ويبدو أن الخلاف حول موعدها كان زمن النبي عله السلام، فقد رووا عدة أحاديث منسوبة إليه، بعضها يجعلها في الحادي والعشرين من رمضان، وبعضهن في الثالث والعشرين وبعضها الآخر في ليلة الخامس، وبعضها في ليلة السابع والعشرين. وقيل إنها في ليلة التاسع والعشرين. وقيل إن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها ونسبوا في ذلك حديثا إلى النبي عله السلام. كما نسبوا إليه عن طريق ابن عباس أنه (ص) قال: «إذا كان ليلةَ القدْرِ، تَنَزَّلَ الملائكةُ الذينَ هم سُكان سِدرة المُنْتَهى، منهمْ جبريلُ، ومعهم ألْويةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ تُسَلِّم عليه، إلا مُدْمِن الخمر، وآكِلَ الخنزير، والمتضَمِّخ بالزعفران»! (القرطبي).

- نص السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ (القرآن) فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ[1]، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ[2] (تنويه وتعظيم)، **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ[3] (1)، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ[4] (2)، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.[5] (3).**

---

1 - قال بعضهم معناه: "أن ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر".

2- اختلفوا في معنى الآية : قال بعضهم " تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح، في ليلة القدر بإذْنِ رَبِّهِمْ من رزق وأجل وغير ذلك"

3- قالوا في هذه الآية : "سَلامٌ هِيَ حَتّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ: سلام ليلة القدر من الشرّ كله من أولها إلى طلوع الفجر من ليلتها". فهي ليلة سلامة. وقيل: "هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن. وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها".

تعليق

ما يمكن أن يخرج به المرء من هذه السورة هو أن الشيء الوحيد المؤكد هو أن القرآن نزل في هذه الليلة وأنه نزل في شهر رمضان، وبالتالي فلا بد أن تكون ليلة القدر في شهر رمضان. أما موعد هذه الليلة فليس في القرآن ما يدل عليها ولا على كيفية إنزال القرآن فيها مع العلم أنه نزل على مدى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة! هل يتعلق الأمر ببداية نزوله (وهذا لا يستقيم لأن هذه البداية كانت قبل شهر رمضان، إن كان المقصود به شهر فريضة الصيام). وبالتالي فليس للمرء إلا أن يقول إن الله أخفى هذه الليلة وأخفى كيف العلاقة بينها وبين القرآن وبين شهر رمضان.

ومن هنا راح بعضهم يستكشف الحكمة من إخفاء الله لها. من ذلك ما كتب الرازي، في تفسيره، قال: "إنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه أحدها: أنه تعالى أخفاها، كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان وثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت في الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك، فكأنه تعالى يقول: إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر، وإن عصيت فيها اكتسب عقاب ألف شهر، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب وثالثها: أني أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها، فيكتسب ثواب الاجتهاد. ورابعها: أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر، فيباهي الله تعالى بهم ملائكته، يقول: كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء. فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة، فكيف لو جعلتها معلومة له فحينئذ يظهر سر قوله: "إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" .

ولم تخل ليلة القدر من الوقوع تحت طائلة التوظيف السياسي. قال الرازي: روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن، قال: قلت للحسن بن علي عليه السلام يا مسوِّد وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعني معاوية، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى في منامه بني أمية يطؤون منبره واحداً بعد واحد، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: "إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ" إلى قوله: "خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ" يعني ملك بني أمية. قال القاسم فحسبنا ملك بني أمية، فإذا هو ألف شهر. طعن القاضي في هذه الوجوه فقال: ما ذكر من "أَلْفِ شَهْرٍ" في أيام بني أمية بعيد، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة، وأيام بني أمية كانت مذمومة. ويضيف الرازي: اعلم أن هذا الطعن ضعيف، وذلك لأن أيام بني أمية كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فلا يمتنع أن يقول الله تعالى إني: أعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية".

وبعد فقد ذكرني هذا الذي قالوا عن ليلة القدر بمثل شعبي يقول: "راها، راها؛ ما شفناها"، والمقصود : الجميع يشير إليها ولكن لا أحد رآها.

ما يقوله القرآن هو: إن "ليلة القدر" ليلة قدرها عظيم، فهي خير من ألف شهر، لأن فيها تنزل الملائكة وجبريل أوامر الله ونواهيه أي رسالاته إلى الناس، ومنها رسالة محمد، أي القرآن الذي نزل في شهر رمضان، فهي إذن تقع في هذا الشهر. ونظرا لهذه الأهمية التي تكتسيها جعلها الله سلاما حتى مطلع فجرها. هذا كل ما في القرآن عنها. والمفهوم أنها من مجال العبادات لا من مجال العقائد ولا المعاملات. أما ما قيل حولها، مثل ما هو مذكر أعلاه، فمجرد كلام لا يلزم إلا قائليه. وهو كله من قبيل الفضول والتخمين، فليست العبادات في أي دين في متناول العقل. وما يميز العبادات أنها من المنقول لا من المعقول. فإذا آمن الإنسان بالنبوة أخذ منها العبادات بعقل مستقيل، كما قال الغزالي.

93- سورة الأنفال

- تقديم

الأنفال: الكلام في هذه السورة يدور حول غزوة بدر وما استدعاه السياق. قيل: ابتدأ نزولها قبيل انصراف من بدر. وغزوة بدر كانت في منصف السنة الثانية للهجرة، بعد تحويل القبلة من القدس إلى مكة بشهرين، وهذا له دلالة خاصة. ذلك أن تحويل القبلة إلى الكعبة بمكة سيبقى مجرد تدبير ديني ما لم يكن منطلقا إلى عمل ملموس. وهكذا فبمجرد ما سمع الرسول عليه السلام بخروج قريش بقافلة تجارية إلى الشام، قيل إنها كانت من أكبر قوافلها "جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقالٌ فصاعداً إلا بعث به في تلك العير"، وكان على رأس هذه القافلة أبو سفيان بن حرب (من بني عبد مناف عمومة النبي عليه السلام) ومعه بضعة وعشرون رجلاً، أقول فبمجرد ما علم الرسل بالخبر خرج لاعتراضها، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، ومعه مائة وخمسون من المهاجرين؛ غير أنه لما قطع مسافة في الطريق إليها تبين له أنها قد غادرت المكان الذي كان ينوي اعتراضها فيه واتجهت إلى الشام. (ويسمى هذا الخروج بغزوة بدر الصغرى). حينذاك عاد الرسول إلى المدينة ينتظر رجوع القافلة من الشام. وفي انتظار ذلك أي في رجب من هذه السنة بعث سرية من ثمانية أشخاص، يرأسها عبد الله بن جحش، الذين تحدثت عنها سورة البقرة وعن مسألة القتال في الشهر الحرام الخ، وكان الهدف من هذه العثة تقصي أخبار قريش.

وعندما علم عليه السلام أن قافلة أبي سفيان في طريق العودة إلى مكة وأنه قد حان وقت اعتراضها استنفر أصحابه قائلا: "هذه عيرُ قريش فاخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلكُموها"، فاستجاب له بعضهم وتخلف آخرون، "فخرج لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان على رأس "ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: مئتان ونيف وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فَرَسان وسبعون بعيراً يعتقبونها". ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول لاعتراض القافلة، -وكان قد بث

العيون على الطريق- أرسل إلى قريش يخبرهم بذلك ويستنجد بهم لحماية أموالهم. فبادروا إلى نجدة قافلتهم وفي مقدمتهم أشرافهم، ولم يتخلف إلا أبو لهب بن عبد المطلب، الذي أناب عنه شخصا آخر من بني المغيرة المخزومي. وحاولت شخصيات أخرى من أشراف قريش أن تتخلف فضغط عليهم أبو جهل وأصحابه فخرجوا مع زملائهم. وبعد أن تأكد الرسول من وقوف الأنصار معه (لأن "الصحيفة" لم تكن تنص صراحة على أنه تجب عليهم نصرته خارج المدينة) مضى في طريقه لمواجهة قريش والاستيلاء على قافلتهم. غير أن أبا سفيان علم من استخباراته بخروج النبي وجيشه لاعتراض قافلته، فترك الطريق المعتاد سلوكها وانحرف نحو الطريق الساحلية ليدخل منها مكة. ولما دخلها أرسل إلى جيش قريش يخبرهم بنجاته ويطلب منهم الرجوع فامتنع أبو جهل وألح على مواصلة الطريق إلى بدر للاحتفال بها لتسمع العرب بذلك فتتعزز مهابة قريش في نفوسهم، وكانت بدر من أساق العرب . غير أن قبيلتين من قريش فضلتا الرجوع ولتسحبتا من جيش أبو جهل فأحدث ذلك ثغرة خطيرة فيه.

وعندما اقترب جيش الرسول من بدر أرسل عليا والزبير يتقصيان أخبار جيش قريش فلقيا سقاة له منهم غلامين، فأتيا بها رسول الله وعلم منهم أن جيش قريش على قرب من ذلك المكان وأنهم ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل، فاستنتج الرسول من ذلك أن عددهم بين التسعمائة والألف، ثم سألهما عمّن هناك من أشراف قريش فذكرا له عدداً كبيرا منهم فقال عليه السلام لأصحابه: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها". سار جيش الرسول حتى نزلوا بعُدْوَةِ الوادي الدنيا (جهة المدينة) بعيداً عن عيون الماء في أرض سبخة، فأصيبوا بالعطش فأصابهم القلق والتوتر مما كاد ينال من عزائمهم، مخافة من أن يقعوا فريسة سهلة لقريش. غير أن المطر سرعان ما غير من الوضع: سال الوادي وشربوا واتخذوا الحياض الخ، بينما كان المطر في غير صالح جند قريش الذين كانوا في العدوة القصوى من الوادي، فقد قلبت مياه الوادي الأرض وَحَلا لزقا فلم يقدروا على مغادرة المكان. وإلى هذا تشير السورة إذ قال تعالى: "وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ" (الأنفال: 11). هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأى الرسول في منامه أنه يقاتل جيش قريش وهم قليلو العدد كما رآهم أول مرة، فاستبشر المسلمون خيرا، وإلى هذا تشير الآية التالية / "إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ، وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ، وَإِذْ

يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلامُورُ(43-44).

تفقد الرسول جيشه وأخذ يعدل الصفوف ويوصيهم فقال: "لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم"، ثم حضّهم على الصبر والثبات ورجع إلى عريشه، محل قيادته، ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه.

التحم الجيشان واشتد القتال، وانهزم جيش قريش وهربوا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون: فقتل من المشركين نحوُ سبعين رجلا منهم كثير من أشرافهم وعلى رأسهم أبو جهل، كما أسر المسلمون منهم نحو سبعين رجلا كذلك. وستأتي في السورة إشارات إلى بعض وقائع المعركة فلنترك الحديث عنها إلى الشرح. وعندما تحرك الرسول للعودة إلى المدينة حدث نزاع وفوضى بسبب الغنيمة: روى عُبادة بن الصّامت قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بَدر فَلَقُوا العدوّ؛ فلما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت (أحاطت) طائفة برسول الله (ص) يحرسونه، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدوّ ورجع الذين طلبوهم (كانوا يلاحقونهم) قالوا: لنا النفل (الغنيمة)، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله (ص): ما أنتم أحقّ به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله (ص) لئلا ينال العدوّ منه غِرة. وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: ما أنتم بأحق منا، هو لنا، نحن حَوَيْنَاه واستولَينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلأَنْفَالِ" الخ، ففصلت في النزاع كما سنرى.

ومع أن انتصار المسلمين في هذه المعركة كان كافيا وحده للرفع من معنوياتهم ومن شأنهم لدى العرب، إلا ما أسفرت عنه من مقتل أبو جهل ومعه كبار من قومه بني مخزوم وأسر آخرين منهم ونجاة أبي سفيان بالقافلة بدهائه، قد قلب المعادلة رأسا على عقب على صعيد علاقة النبي عليه السلام بقريش. ذالك أن بني مخزوم كانوا هم العدو الألد للنبي والمسلمين في مكة، وقد زاد هذه العداوة التنافس بينهم وبين بني عبد مناف، الذي يلتقي عنده نسب بني أمية وبني هاشم. وقد سبق أن أشرنا في مناسبة سابقة إلى رد فعل أبي سفيان من سخرية أبي جهل[1] من الرسول في بداية النبوة، رد فعل احتجاجي لم يكن الدافع إليه

1- أما أبو جهل فق كان أحد رجالات قبيلة بني مخزوم المنافسة لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية معا)، وكان يكنى بـ"أبي الحكم" واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة. ونظرا لشدة خصومته للدعوة المحمدية كني بـ"أبي جهل"، وهو ابن أخي الوليد بن المغيرة الذي كان عميد المخزوميين زمن الرسول، ومن كبار "الملأ من قريش" (خصوم الدعوة المحمدية)=

شيئا آخر غير النعرة القبلية : يروى أن النبي (ص) مر على أبو جهل وأبي سفيان في بداية النبوة في مكة وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : "هذا نبي بني عبد مناف"!. فغضب أبو سفيان، وهو بعدُ خصما للدعوة المحمدية، وقال مستنكرا: "أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي"؟ وكما سنرى بعد فقد انتهى به الأمر إلى أن فاوض النبي عليه السلام بواسطة عمه العباس على الدخول إلى مكة ففتحت بدون حرب، كما سنرى بعد. وكان ابنه معاوية من كتاب الوحي لدى الرسول (ص)، ثم صار عاملا على دمشق، ثم مؤسس الدولة الأموية بعد حربه مع علي بن أبي طالب وانتزاع الخلافة منه.

هذا ولابد من الإشارة هنا إلى أن ما ساد تضاعيف هذه السورة لم يكن الاعتزاز بالنصر وآفاقه، بقدر ما هيمن فيها الاستياء من النزاع والفوضى الذين سادا جيش الرسول عليه السلام بسبب الغنيمة، ولذلك تكرر فيها العتاب للمؤمنين، مع التذكير بتقاعس بعضهم عن الخروج الخ...

- نص السورة

1- مقدمة: غنائم بدر يتصرف فيها الرسول كيف شاء ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ[2] (لمن هي)؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ (يضعها الرسول حيث يشاء). فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ (عودوا كما كنتم إخوانا)، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (فيما فعل الرسول فيها) إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[1]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (خافوا وانقادوا لأمره) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[2]. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[3]، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا (صدقا من غير تردد ولا شك)، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (مكانة محترمة) وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[4].

ولكنه لم يكن في قساوة ابن أخيه أبي جهل. وأما أبو سفيان فقد كان عميد بني أمية من= أبناء عمومة النبي عليه السلام، وكان من خصوم الدعوة المحمدية، وزعيم قريش بعد وفاة أبي طالب عم النبي (ص).

2- الأنفال جمع فيء، وهو في الاصطلاح الشرعي : " كل مال دخل على المسلمين من غير حرب كخراج الأراضي والجزية وخمس الغنائم. أما الغنيمة والجمع غنائم وهي ما يحصل عليه المسلون بعد خوض المعركة مع العدو يكون فيها قتلى وأسرى...

2- عتاب... وتقريع لمن تخلفوا ولم يخرجوا، ولمن خافوا حين المعركة ...

(يا محمد : نفذ أمر الله في الغنائم وهم كارهون) **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ** (بالمدينة لاعترض قافلة قريش) **بِالْحَقِّ -وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**[5] (كارهون للخروج)- (كذلك مكثوا) **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ** (أن القتال واقع وأن الأمر ليس مجرد اعتراض القافلة التجارية كما كانوا يرغبون، فلم يأخذوا أهبة الحرب. فلمّا وقع الاستنفار للحرب شقّ عليهم ذلك، فطلبوا الرّخصة في القعود وكانت حالهم) **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**[6]. و (تذكروا يا هؤلاء) **إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ** (العير أو النفير: القافلة أو الحرب) **أَنَّهَا لَكُمْ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ** (أي الاستيلاء على العير بدون نفير) **تَكُونُ لَكُمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ** (أما الله فيريد بالمناسبة) **أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** (يظهر الحق بنصرة المؤمنين كما وعدهم) **وَيَقْطَعَ دَابِرَ** (آخر من تبقى من زعماء) **الْكَافِرِينَ**[7]، **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**[8]. (وتذكروا) **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**[9] (معينين لكم). **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ** (أي جواب الله لاستغاثتكم) **إِلَّا بُشْرَى** (لكم وتشجيعا) **وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ** (أما النصر فليس من أحد، إن هو) **إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**[10]. (وتذكروا) **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ** (اطمئنانا بعون الله) **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ** (كانت قريش قد استولت على منبع الماء فنزل المطر ففرج على المسلمين) **وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**[11]. (واذكر يا محمد) **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** (بالتبشير بالنصر وأني) **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضْرِبُوا** (الكفار) **فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**[12] (الأيدي والأرجل). **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** (كذبوا وخالفوا)، **وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[13]. **ذَلِكُمْ** (القتل والضرب) **فَذُوقُوهُ** (أيها الكفار هنا في الدنيا)، **وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ**[14].

3- اتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا وحدهم بل تصيب الجميع!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا (قتالا بالمواجهة) **فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ**[15] (لا تهربوا وتعطوهم ظهوركم)، **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ، إِلَّا** (باستثناء أن يكون) **مُتَحَرِّفًا** (يرد إعادة الكر) **لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا** (أي يريد، بعد أن

وجد نفسه منفردا، الانضمام) **إِلَى فِئَةٍ** (من المقاتلين للعدو. إن من يـول دبـره ويهرب من المعركة من غير هؤلاء) **فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَـأْوَاهُ جَهَـنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**16، (3)**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ** (من تلقاء أنفسكم) **وَلَكِنَّ اللَّـهَ قَـتَلَهُمْ** (بتـشجيعكم وتثبيت أفئدتكم). **وَمَا رَمَيْتَ** (يا محمد) **إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَـى** (4)، **وَلِيُبْلِـيَ** (يجاهد) **الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**17؛ **ذَلِكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ**18: **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا** (إن كنم طلبتم النصر لكم أيها المـشركون) **فَقَـدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ** (جاء النصر لمن على هدى خلافا لما كنتم تتوقعون)، **وَإِنْ تَنْتَهُـوا** (تتركوا الشرك) **فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا** (للقتال) **نَعُدْ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**19. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ** (بمخالفة أمره) **وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**20 (ما جرى يوم بـدر)؛ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**21 (لا يفهمون ولا يتعظون). **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**22، **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِـيهِمْ خَيْـرًا لَأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**23. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ** (بالطاعة) **إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** (وهو الجهاد، وهو بمعنى "ولكـم في القصاص حياة")، **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** (الله يأمر بالجهاد وبعض القلوب تفضل الاستكانة والراحة)، **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**24. **وَاتَّقُوا فِتْنَةً، لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** (بل تصيب الجميـع، الظـالمين وغيـرهم)، **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**25. **وَاذْكُرُوا** (أيها المهاجرون وكان منهم من شارك في النزاع على الغنيمة) **إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ** (في مكة)، **تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ** (المشركون لو خرجتم منها)، **فَآوَاكُمْ** (في المدينـة) **وَأَيَّـدَكُمْ بِنَصْرِهِ** (لكم بمبايعة الأنصار) **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**26. **يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا** (الخطاب للمتقاعسين عن الخروج إلى بدر) **لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**27. **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** (اختبـار

---

3 – قيل هذا الوعيد، للفار من الحرب، خاص بيوم بدر لأن حياة الرسول كانت في الميزان، أما في الحروب الأخرى فلا وعيد في الهروب.

4– روي "أن رسول الله (ص) أخذ بيده قبضةً من حصى الوادي، فرمى بها في وجوه القوم. فلم يبقَ مشركٌ إلاّ دخل عينيه منها شيءٌ، وكان ذلك سبب هزيمتهم. فقال الله تعالى: 'ومـا رميتَ إذ رميت ولكنَّ الله رمى"، أي: إنَّ كفاً من حصى لا يملأ عيون ذلـك الجـيش الكثيـر برمية بشر، ولكنَّ الله تعالى تولّى إيصال ذلك إلى أبصارهم" (تفسير الواحدي).

لكم)، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[28]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (يفصل بينكم وبين ما تخافون من فقدان المال والولد)، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[29].

4- التذكير بتآمر قريش للتخلص من النبي قبل الهجرة

و(تذكر يا محمد وذكر المسلمين) إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا (في مكة قبيل الهجرة فتداولوا في أمرك) لِيُثْبِتُوكَ (يوثقوك) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ (من مكة)، وَيَمْكُرُونَ (يخططون لتصفيتك) وَيَمْكُرُ اللَّهُ (ويخطط الله لنصرتك) وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ[30] (خير من يخطط للمستقبل). وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ (على مشركي مكة) آَيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[31] (كما كان يقول النضر بن الحارث التي كان يقص قصص الفرس). وَإِذْ قَالُوا (مشركوا قريش) اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا (الذي يقوله محمدٌ) هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ (كما أمطرتها على أمم سابقة) أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[32] (كالزلازل الخ). (ويأتي الجواب موجا إلى الرسول) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (لم يرد الله إنزال صاعقة على قريش وأنت مقيم معهم في مكة)، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ (بصفة جماعية) وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[33] (أي وفيهم مسلمون). وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ (اليوم في بدر بعد هجرتك وهجرة المسلمين، خصوصا) وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (مدعين أنهم أولياءه)، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ! إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[34]. وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً (صفيراً وتصفيقاً، وكانت قريش يطوفون بالبيت عُراةً يُصفِرون ويُصفقون، جعلوا ذلك صلاةً لهم، فكان تقرُّبُهم إلى الله بالصفير والصفيق)، فَذُوقُوا الْعَذَابَ (ببدر) بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ[35]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ! فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ (وسينفقونها مرة أخرى وسيندمون أيضا لأن النصر سيكون للمسلمين). وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ[36] (يوم القيامة) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[37]. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (مشركي قريش) إِنْ يَنْتَهُوا (من الشرك وتوابعه) يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ (من معاص وذنوب)، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ[38] (بنصر الأنبياء والرسل وهزيمة المكذبين). وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

فِتْنَةٌ (ردة إلى الكفر) وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[39]، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا (أيها المؤمنون) أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[40].

5- كيفية توزيع غنائم بدر وأخبار عن بعض وقائع المعركة

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا (أن ما) غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ (أخذتموه من الكفار بالقوة) فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ (الغنيمة تقسم على خمسة أقسام : قسم، الخمسُ منه لله وللرسول يصرفه كما يشاء، والأخماس الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على المذكورين بعده بالتساوي وهم) وَلِذِي الْقُرْبَى (قربى الرسول)، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر المنقطع: لم يعد لديه ما يصرف على نفسه. أما الأربعة أخماس الباقية من الغنائم فهي للغانمين) [5]، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ (يوم بدر)، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[41]. (اذكروا) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا (بجانب الوادي شمالا) وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى (جنوبا، بقيادة أبي جهل) وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ (وقافلة أبي سفيان التجارية أسفل منكم جهة ساحل البحر)، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ (معهم لتحديد يوم اللقاء للقتال) لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ (لتأخرتم فنقضتم الميعاد لكثرتهم وقلتكم)، وَلَكِنْ (جمعكم الله من غير ميعاد) لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ. وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ"[42]. إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ (يظهرهم) فِي مَنَامِكَ (جيشا) قَلِيلًا، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ (لجبنتم) وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[43]. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ، إِذِ الْتَقَيْتُمْ، فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"[44]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[45]. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"[46]. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ (مع

---

5 – بعبارة أخرى أربعة أخماس الغنيمة للغانمين المحاربين، والخمس الباقي : خمسه للرسول وأربعة أخماسه لله (في سبيل الله) أي للمذكورين: ذوي القربى الخ. واختلفوا حول العلاقة بين هذه الآية والآية الأولى (مقدمة السورة)، قال بعضهم هذه نسخت تلك، وقال آخرون العكس، ومنهم من ادعى أن هذه نزلت قبل تلك، إلى غير ذلك من الخلافات الفقهية (انظر القرطبي)

جيش قريش) **بَطَرًا** (مظهرين القوة والنعمة) **وَرِئَاءَ النَّاسِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**[47]، و (هم متبخترون) **إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ** (زعيم من قبيلة أخرى كانت قريش تخاف أن تنضم إلى الرسول) **أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ** (مناصر لكم) **لَكُمْ! فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ** (جيش قريش وجند المسلمين) **نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ** (خاف وتراجع) **وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ! إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[48] [(6)]. **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** (حسد) [(7)] **غَرَّ هَؤُلَاءِ** (المسلمين) **دِينُهُمْ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**[49]. **وَلَوْ تَرَى** (يا محمد) **إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ** (= حين كان الملائكة ينزعون أرواح قتلى المشركين في بدر كان هؤلاء) **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ** (إذا اتجهوا نحو المسلمين) **وَأَدْبَارَهُمْ** (إذا اتجهوا نحو المشركين) و(يقول لهم الملائكة) **ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**[50] (يوم القيامة في جهنم). **ذَلِكَ** (العذاب) **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[51]. (عادتهم في التكذيب) **كَدَأْبِ** (كعادة) **آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ: كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[52]. **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ** (على قريش : "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف") **حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (كفروا بهذه النعم وكذبوا رسوله)، **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**[53]: (كذلك حالهم) **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ**[54]. **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**[55]. **الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ**

6- قيل : لما قررت قريش السير لقتال المسلمين رغم وصول خبر نجاة قافلتهم إذ سلك بها أبو سفيان طريقا آخر، "خافت كنانة وبني مدلج لطوائل كانت بينهم، فتبدّى لهم إبليس "في جنده" على صورة سُراقة بن مالك بن جعشم الكناني ثمّ المدلجي، فقالوا له: نحنُ نريد قتال هذا الرّجل (الرسول)، ونخاف من قومك، فقال لهم: أنا جارٌ لكم، أيْ: حافظٌ من قومي، فلا غالب لكم اليوم من النّاس "فلما تراءت الفئتان" التقى الجمعان "نكص على عقبيه" رجع موليا، فقيل له: يا سراقة، أفراراً من غير قتال؟! فقال: "إني أرى ما لا ترون" وذلك أنه رأى جبريل مع الملائكة جاؤوا لنصر المؤمنين "إني أخاف الله" أن يهلكني فيمن يهلك.

7- قيل: "هم قومٌ أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فلمّا خرجت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم، وقالوا: نكون مع أكثر الفئتين، فلمّا رأوا قلّة المسلمين قالوا: غرّ هؤلاء دينهم" إذ خرجوا مع قلّتهم يقاتلون الجمع الكثير، ثمّ قُتلوا جميعاً مع المشركين".

مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ[56]. فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[57]، (أعراب خارج المدينة : انظر مقدمة الكتاب)؟

6- وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...

وَإِمَّا تَخَافَنَّ (تعلمن) مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ (أعلمهم أنك نقضت عهدهم لئلا يتوهموا منك الغدر)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ[58]. وَلَا يَحْسَبَنَّ (8) الَّذِينَ كَفَرُوا (ونجوا من القتل في بدر أنهم) سَبَقُوا (أي أفلتوا منا نهائيا) إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ[59] (لا يعجزونا، بل سيأتي دورهم)، وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (وهم المشركون) وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ (وهم المنافقون) لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[60] (لا ينقص من حقكم لا في الدنيا ولا في الآخرة). وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ (للصلح) فَاجْنَحْ لَهَا(9) (كما سيحدث في الحديبية) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[61]. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ (بالدعوة إلى السلم لتكف عنهم) فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ (الذي تولى كفايتك يوم بدر)، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ[62] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[63]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[64]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[65] (إنكم في حالة التعبئة والصبر يغلب الواحد منكم عشرة منهم). الْآنَ (وأنتم في حالة ضعف بعد الحرب) خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ

8- في قراءة أخرى : "ولا تحسبن"، أي الخطاب إلى الرسول...

9- قال كثير من المفسرين إن هذه الآية نسخت بقوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" (التوبة 29). وهذا شطط فظروف غزوة بدر غير الظروف التي نزلت فيها سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت. وإذا كنا سنلغي ظروف نزول الآيات ومن تتحدث عنهم ومقتضى الحال الخ، فما الحكمة إذن من نزول القرآن منجما وما الفائدة من الأخذ بهذه الحقيقة، إذا كنا سنفهمه انطلاقا من آخر سورة فيه؟ نحن نرى أنه لو كان الأمر كذلك لحذف الرسول حين مراجعته للقرآن جميع الآيات التي يعتبرونها منسوخة. نعم يقولون النسخ هنا للحكم وليس للتلاوة، وإذن فنحن نقرأ قرآنا منسوخة كثيرة من أحكامه، فما الفرق بينه وبين التوراة التي نسخ الله كثيرا من أحكامها. انظر الاستطراد السابق.

يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ (في حالة الضعف هذه الواحد منكم يغلب اثنين منهم)، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[66]. مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ[(10)]، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[67]. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ (وقرر أن الغنائم حلال لكم) لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[68]، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[69]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى: إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا (أي الرغبة في الإسلام) يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ (كفداء) وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[70]. وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ (بإعلانهم أنهم يؤمنون بأنك رسول الله) فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ (قبل بدر)، فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ (يوم بدر، وسيمكن منهم بعده) وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[71]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[72]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ (إن لم تعملوا بما تقدم) تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ[73] [(11)].

10- قيل: " نزلت في فداء أسرى بدر، فادوهم بأربعة آلاف ألف، فأنكر الله عزّ وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: لم يكن لنبيٍ أن يحبس كافراً، قَدَر عليه، للفداء، فلا يكون له أيضاً أسرى حتى يُثخن في الأرض: يخوض المعركة ويكون هناك قتلى وينتصر. أما الاحتفاظ بالأسرى من أجل الحصول على ثمن فدائهم فهذا لا يجوز. فالهدف من الجهاد قتال الأعداء الذين يقاتلونكم ومن بقي منهم مستسلما فهؤلاء هم الأسرى، ولا يجوز قتلهم. وفيهم يكون الفداء بالمال. وما المال إلا "عرض الدنيا". "والله يريد الآخرة"، يريدكم مجاهدين ولكم الجنة.

11- قالوا هذه الآية نزلت في الميراث: "كانوا في ابتداء الإسلام يتوارثون بالهجرة والنُصرة، فكان الرّجل يُسلم ولا يهاجر، فلا يرث أخاه فذلك قوله: "الذين آمنوا وهاجروا هجروا قومهم وديارهم وأموالهم "والذين آووا ونصروا" يعني: الأنصار، أسكنوا المهاجرين ديارهم ونصروهم "أولئك بعضهم أولياء بعض" أيْ: هؤلاء هم الذين يتوارثون بعضهم من بعض. "والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء" أيْ: ليسوا بأولياء، ولا يثبت التوارث بينكم وبينهم "حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين" يعني: هؤلاء الذين لم يهاجروا فلا تخذلوهم وانصروهم "إلاّ" أن يستنصروكم "على قوم بينكم وبينهم ميثاق" عهدٌ فلا تغدروا ولا تعاونوهم."والذين كفروا بعضهم أولياء بعض" أيْ: لا توارث بينكم وبينهم، ولا ولاية، والكافر وليّ الكافر دون المسلم إلا تفعلوه" إلاّ تعاونوا وتناصروا وتأخذوا في

7- خاتمة: المهاجرون والأنصار، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا".

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"[74]. وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ (بعد هجرة النبي) وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ[12] فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[75].

- تعليق

يدور الكلام في هذه السورة حول غزوة بدر، كما ذكرنا في التقديم، وقد قسمنا الخطاب فيها إلى سبع فقرات رئيسية :

1- تبدأ الفقرة الأولى، وهي المقدمة، بطرح مسألة غنائم هذه الغزوة طرحا مباشرا، وفي شبه استعجال: سؤال واضح وجواب واضح حاسم: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ" (لمن هي)؟ لقد بدأت السورة بآخر ما حدث في مسار هذه الغزوة وهو تنازع جيش الرسول حول الغنائم: كل فريق يرى أنها له وحده، أو على الأقل له حق فيها. فجاء الجواب ليضع حدا للنزاع أولا: "قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ"؟ بمعنى أن الرسول المبعوث من الله هو الذي يضعها حيث يشاء"، وبالتالي فالفصل فيها ليس من شأنكم. أما أنتم فما عليكم إلا اتقاء ما يغضب الله، وتنفيذ أوامره، ولا تنازعوا، وتراجعوا عما بدر منكم من فرقة وصراع، وعودوا كما يجب أن تكونوا: إخوانا مطيعين الله والرسول إن كنتم فعلا مؤمنين بالله والرسول. ثم تأخذ السورة في تذكيرهم بخصال المؤمن : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"[3]، هؤلاء هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"[4].

الميراث بما أمرتكم به "تكن فتنة في الأرض" شركٌ "وفساد كبير" وذلك أنَّ المسلم إذا هجر قريبه الكافر كان ذلك أدعى إلى الإسلام، فإن لم يهجره وتوارثه بقي الكافر على كفره، وقوله: "والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً" أيْ: هم الذين حققوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنُصرة خلاف من أقام بدار الشرك.

12 - قرابة النسب أولى من أية رابطة أخرى. قيل كان الرجل يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك فلما نزلت ترك ذلك.

2- وخلافا لما فكر فيه بعض الفقهاء المفسرين فإن الخطوة الثانية لن تكون -كما يميل إليه اختصاصهم هو تفصيل القول في الحكم الذي سينزل في الغنائم وهو ما يشغل بالهم- بل ستواصل توجيه اهتمام مخاطبيها إلى ما هو أهم على مستوى الدعوة والصراع مع المشركين. وهكذا تتجه إلى الرسول (والخطاب في الحقيقة إلى هؤلاء المقاتلين الذين تنازعوا حول الغنيمة في أول معركة تحقق فيها الدعوة نصرا كبيرا) تذكرهم بجوانب الضعف الذي برزت لدي بعضهم عندما دعاهم الرسول للخروج إلى اعتراض قافلة أبي سفيان، فأخذوا يتساءلون هل سنخرج لاعتراض القافلة وسلب ما تحمله من أموال أم أن الأمر يتعلق بخوض معركة مع المشركين. تركهم الرسول يتناقشون ويتجادلون ودخل بيته ليخرج منها لابسا سلاحه، إيذانا بأن الخروج سيكون لقتال المشركين وليس لسلب القافلة. ولما رأوا ذلك استثقل بعضهم الخروج "كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"[6]، فأخذوا يستغيثون بالله يطلبون العون والنصر. هنا تذكرهم السورة بأن الله قد أغاثهم فعلا فأرسل مطرا أنقذهم من عطش، وملائكة يثبتون أقدامكم، بينما جعل الرعب يتسرب إلى العدو عندما رأى جنوده أن المطر قد حول الأرض التي نزلوا عليها إلى وحل يعوق الحركة مما سيهل على المسلمين الإجهاز عليهم وإشباعهم قتلا جزاء لهم في الدنيا على إعراضهم وانشقاقهم عن المؤمنين بالله ورسوله، أما في الآخرة فمصيرهم عذاب جهنم.

3- ثم تنتقل السورة في الفقرة الثالثة إلى بيان السلوك الذي يجب أن يكون عليه المسلمون عند خوض المعارك مع العدو، فتؤكد على ضرورة مواجهة العدو صفا واحدا مرصوصا وتوصيهم بضرورة الثبات في وجهه وعدم ترك المواجهة إلا إذا تعلق الأمر باصطناع الفر من أجل الكر، أوالانتقال إلى فئة أخرى من المقاتلين المسلمين، أما في غير هذه الحال وتلك فإن مغادرة صف المقاتلين والفرار من القتال لن يستفيد منه الفار منه شيئا، وإنما سيعود بغضب من الله وستكون جهنم مأواه الوحيد يوم القيامة. ثم تؤكد السورة لأهل بدر المتنازعين الذين يدعي كل فريق منهم أن الفضل في النصر والغنائم يرجع له وحده، أن الحقيقية هي أن الله هو الذي حقق النصر لهم بتثبيت أقدامهم وإفشال كيد أعدائهم. ولكي يكون الخطاب عاما ومقنعا اتجهت السورة إلى الرسول نفسه "وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى". ثم تعود إلى الكافرين لتقول لهم إنكم إن كنتم قد أصررتم على المجيء إلى بدر متأكدين من النصر راغبين في إظهار قوتكم وإعلاء شأنكم، فقد جاء النصر فعلا، ولكن لا لكم بل للمؤمنين. فإن انتهيتم وآمنتم فذلك خير لكم "وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ".

وتتجه السورة في الفقرة نفسها إلى المؤمنين بخطاب فيه توجيه وعتاب: لا تخالفوا أمر الرسول، "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ"[21]، أولئك الذين تخلفوا عن الخروج معكم إلى بدر، وحسنا فعلوا لأنه لا خير فيهم، لأنهم لو خرجوا لما صبروا، وهربوا وأفسدوا عليكم أمركم. إن الواجب على الكافة إذا دعاكم الرسول لقتال أعدائكم هو الاستجابة التامة من الجميع، ولا يظنن أحد أنه إن تخلف سينجو بنفسه ضرورة، ذلك لأن تخلفه قد يحدث فتنة، وإذا حدثت فتنة فهي ستصيب الجميع بما في ذلك من أحدثوها. وتواصل السورة خطابها التوجيهي قائلة: إذا كان المتخلفون قد اعتذروا من الخروج إلى المعركة خوفا على زوجاتهم وأولادهم وأموالهم فليعلموا أن الأولاد والأموال يتحولون في هذه الحالة إلى فتنة، تفتن الرجل وتصرفه عن أداء الواجب فتكون العاقبة أسوأ.

4- وتعود السورة إلى مخاطبة النبي عليه السلام مرة أخرى لتذكر أصحابه بما لقيه من قومه وكيف أنه صبر حتى انتصر. وهكذا تذكهم بالمؤامرة التي خطط لها زعماء قريش في مكة -وفي مقدمتهم أبو جهل- المؤامرة التي عقدوا العزم فيها على التخلص منه إما بقتله وإما بنفيه من مكة الخ، فأسد الله خطتهم؟ كما تذكرهم بتحدي القرآن لمشركي قريش بأن يأتوا بسورة واحدة من القرآن إثباتا لصحة زعمهم أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عنده وأنه يستعين في ذك ببعض الموالي من أهل الكتاب وأنه إنما يحكي فيه أساطير الأولين، فطالبوه بمعجزات تخرق العادة لكي يصدقوه أو يرسل عليهم صواعق كما ذكر أن الله فعل ذلك مع الأمم الماضية! ويأتي الجواب بأن الله ما كان ليرسل الصواعق على أهل مكة وبينهم الرسول وأصحابه المؤمنون! أيقتل رسوله والمؤمنين به استجابة لتحد أخرق مثل هذا؟ إذا كانوا قد طلبوا العذاب في الدنيا قبل الآخرة تحديا، فها هو العذاب قد أتاهم يوم بدر، وهم يستحقونه جزاء لهمّ على منعهم المسلمين من المسجد الحرام مدعين أنهم أولياؤه. وما هم بأوليائه، وما كانت صلاتهم فيه بصلاة، وإنما صفيق وصفير، كانت مجرد ضجيج. لقد أنفقوا أمواله بسخاء ليوم بدر آملين أن ينتصروا فيستمرون في احتكارهم للمسجد الحرام! دعهم ينفقونها فالنتيجة ستكون الهزيمة، وسيكون مصيرهم جهنم يوم القيامة. فإذا رجعوا عن غيهم قبل فوات الأوان فإن الله سيغفر لهم، وإن هم عادوا (بعد هزيمته في بدر) فإن مصيرهم يكون كمصير الأمم الماضية الذين أصروا على معاندة رسلهم. وفي هذه الحالة فالواجب قتالهم حتى لا يتسببوا في فتن أخرى، فإن انتهوا فذاك وإن لم ينتهوا فَإِنِ الله سينصركم عليهم و"نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[40].

5- وتنتقل السورة في الفقرة الخامسة إلى الحديث عن المعركة وما جرى فيها فبدأت بمسألة الغنائم وبينت كيفية توزيعها. لتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ما جريات المعركة.

- أما الغنائم، وهي "ما أخذه المسلمون من عدوهم بالقوة خلال معركة فيها قتال وقتلى"، فيجب أن تقسم على خمسة: قسم، الخمسُ منه لله وللرسول، ويبقى تحت تصرف الرسول. والأخماس الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على ذِوِي الْقُرْبَى (قربى الرسول وكانوا مهاجرين، منهم محتاجون) والْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر المنقطع: الذي لم يعد لديه ما يصرف على نفسه). والأقسام الأربعة الباقية من الغنائم فهي للغانمين [13].

- وأما الكيفية التي جرت بها المعركة والعِبَر التي يجب استخلاصها منها فقد ذكّرت السورة جند النبي بأنهم نزلوا بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا (بجانب الوادي شمالا)، ونزل جيش المشركين بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى (جنوبا،)، بينما قافلة أبي سفيان التجارية أسفل منهم جهة ساحل البحر. وهكذا وجدوا أنفسكم في وضعية ممتازة وكأنهم قد رتبوا موعد اللقاء ومكانه. وتخاطبهم الآية: ولكن لو كنتم أنتم الذين رتبتم الموعد لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَاد ونقضتموه لأنكم ستلاحظون أنهم أكثر منكم عددا وعدة. وَلَكِنْ الله جمعكم من غير ميعاد لـ "يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ". هنا ذكرت السورة النبي عليه السلام بما رآه في المنام من أن جيش العدو كان أقل عددا من جنده، وقد فعل ذلك لأنه "لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ (لجبنتم) وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ". واستمرت الصورة التي رآها الرسول في المنام راسخة في أذهان جنده، يرون عدوهم أقل عددا منهم "لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا" أي كي تتشجعوا وتنتصروا. ثم تخاطبهم السورة لتبين لهم المقصود

---

13 -اختلفوا حول العلاقة بين هذه الآية والآية الأولى (مقدمة السورة)، قال بعضهم هذه نسخت تلك، وقال آخرون العكس، ومنهم من ادعى أن هذه نزلت قبل تلك الخ. والواقع أنه لا تناقض ولا لبس بين الآيتين، فالأولى نزلت لمواجهة النزاع الذي نشب بين فئات جيش بدر بمجرد انتهاء المعركة وفرار من بقي من جيش المشركين، فحصنّت المغانم بأن أخبرت أنها لله والرسول ابتداء وأسكتت الجميع. أما الثانية فقد جاءت لتفصيل كيفية توزيعها بعد أن عاتبت الفئات المتنازعة وأكدت على خلق المؤمنين الخ. ثم أضافت بأن هذا هو ما أنزل الله على الرسول "يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ" (يوم بدر)، الشيء الذي يعني أن هذا الذي بينته هذه الآية الثانية هو تفصيل لما في الآية الأولى. وهذا يفهم منه أن الآية الأولى نزلت في بدر لجعل حد للنزاع، وأن الآية الثانية نزلت بعد ذلك عند رجوع الرسول إلى المدينة.

من تلك الرؤيا المنامية ومن ترسيخها في أذهانهم، يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[45]. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[46]. ثم توصيهم بتجنب الرياء والبطر، كما فعل عدوهم عندما خرج متبخترا، ليعود منهزما هاربا بعد أن قتل كبار قادته وجنده. وكان المنافقون والذين ينتظرون هزيمة المسلمين من اليهود وغيرهم يقولون عندما خرج المسلمون للحرب :"غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ" فأبى الله إلا أن يلحق بالمتبخترين وحلفائهم هزيمة نكراء، فانقلب استقواؤهم بمالهم ورجالهم إلى حالة من الضعف والذل: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ (على قريش : "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف") حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (كفروا بهذه النعم وكذبوا رسوله). وتضيف السورة: وأما الذين تعاهدتم معهم، والمقصود أعراب المدينة و"الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ"، فلا ترأف بهم إن تمكنتم منهم في الحرب. أما الذين يضمرون الخداع والخيانة (كاليهود) ويظهرون المسالمة، ويربطكم بهم عهد وميثاق فإذا شعرت أو علمت بخيانة يدبرونها فلا تنقض عهدك معهم وتدخل معهم في حرب حتى تخبرهم بذلك لئلا يتهموك بالغدر.

6- وأما مشركو مكة الذين انهزموا في بدر وفروا إلى أهليهم يظنون أنهم نجوا من القتل فلا تحسبن أيها المؤمنون أنهم قد أفلتوا نهائيا كلا، إنهم لا يعجزونا، وسيأتي دورهم. ومن الآن استعدوا لهم، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ" هؤلاء وآخرين (كالأعراب واليهود والمنافقين)، كي يستكينوا ويعرفوا أنهم سيهزمون. ولا تبخلوا بالنفقة على هذا الاستعداد فالله سيعوضكم بأكثر مما أنفقتم، هذا فضلا عن كون الاستعداد التام سيمنعكم من أن يظلموكم ويهاجموكم. أما إن مالوا إلى السلم وطلبوا الصلح فما لكم إلا أن تستجيبوا لهذا الطلب : "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ (للصلح) فَاجْنَحْ لَهَا" [(14)] (كما سيحدث

14- قال كثير من المفسرين إن هذه الآية نسخت بقوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" (التوبة 29). وهذا شطط في القول، فظروف غزوة بدر غير الظروف التي نزلت فيها سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت. وإذا كنا سنلغي ظروف نزول الآيات ومن تتحدث عنهم ومقتضى الحال الخ. فما الحكمة إذن من نزول القرآن منجما؟ وما الفائدة من الأخذ بهذه الحقيقة إذا كنا سنفهم القرآن انطلاقا من آخر سورة فيه؟ وقد أورد الطبري رأي بعض الذين قالوا بذلك وعقب عليه، قال : "عن قتادة، قوله: وَإِنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ إلى الصلح فَاجْنَحْ لَهَا قال: وكانت هذه قبل براءة، كان نبيّ الله (ص) يوادع القوم إلى أجل، فإما أن يسلموا=

في الحديبية) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[61]. وَإِنْ قصدوا بالدعوة إلى السلم أن يخدعوك فالله الذي تولى كفايتك ونصرك يوم بدر، هو حسبك. ومع أن الله هو الذي جمع قلوب المؤمنين وألف بينهم لغزوة بدر فإن هذا لا يعفيك من مواصلة تعبئة نفوسهم. وليعلموا أن عشرين معبئين صابرين "يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ"، ومع أنكم الآن في حالة ضعف بسبب أنه لم يمر بعد وقت كاف على وقعة بدر لاسترجاع قوتكم : "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ (بدل عشرين) يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ".

بعد هذا تنتقل السورة إلى الحديث عن أسرى بدر لتعاتب جند المسلمين على لجوئهم إلى المبالغة في فديتهم. ذلك أنه "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى

وإما أن يقاتلوا، ثم نسخ ذلك بعدُ في براءة فقال: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وقال: قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ونبذ إلى كلّ ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويسلموا، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك، وكل عهد كان في هذه السورة وفي غيرها، وكلّ صلح يصالح به المسلمون المشركين يتوادعون به فإن براءة جاءت بنسخ ذلك، فأمر بقتالهم على كل حال حتى يقولوا: لا إله إلا الله". وقد عقب الطبري على ذلك فقال: "فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن هذه الآية منسوخة، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل. وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره على أن الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه، فأما ما كان بخلاف ذلك فغير كائن ناسخا. وقول الله في براءة: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" غير ناف حكمُه حكمَ قوله: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا" لأن قوله: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ إِنَّمَا عُنِي به بنو قريظة"، وكانوا يهودا أهل كتاب، وقد أذن الله جلّ ثناؤه للمؤمنين بصلح أهل الكتاب ومتاركتهم الحرب على أخذ الجزية منهم. وأما قوله: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" فإنما عني به مشركو العرب من عبدة الأوثان الذين لا يجوز قبول الجزية منهم، فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه". قلت (=الجابري) : هذا الرد مع قوته الظاهرة ضعيف على مستوى السياق، فالخطاب في الآية صريح في أنه يخص مشركي مكة الذين فروا من معركة بدر، والضمير في "أعدوا لهم" الخ يعود عليهم أساسا، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يدخل في قوله تعالى "وآخرين" كل من اليهود والأعراب والمنافقين كما ذكرنا في الشرح. وإذا كان الطبري يرى أن قوله تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ إِنَّمَا عُنِي به بنو قريظة"، وهو غير ظاهر فالأظهر منه هو صلح الحديبية الذي باركه الله في آيات صريحة واضحة. ولاشك أن دخول النبي عليه السلام في مفاوضات الصلح مع مشركي مكة في الحديبية هو استجابة مباشرة لقوله تعالى: ""وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا". وواضح أن نزول "آيات القتال" في سورة التوبة بعد عامين من "صلح الحديبية" لا ينسخ الأمر للنبي بالجنوح إلى السلم فيه، ولم يعاتبه عليه بل باركه في حينه. أما ما نزل في الظروف التي نزلت فيها سورة التوبة فشيء آخر: وضع آخر وظروف أخرى كما سنبين في حينه.

حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ[15]، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ". ثم أخبرهم أنه سامحهم هذه المرة، وقرر أن يجعل الغنائم حلالا لهم، وطلب من النبي أن يتوجه إلى الأسرى الذين أخذ منهم الفداء ليخيرهم : فإن اختاروا الإسلام عن صدق أتاهم الله خيرا مما أُخِذ منهم وغفر لهم ما تقدم. وإن هم أضمروا الخيانة فكما أمكن الله منهم في معركة بدر سيمكن منهم المسلمين في المستقبل [16].

وبما أن الأسرى الذين اختاروا الإسلام عن صدق قد يفضلون –أو يفضل بعضهم– العودة إلى مكة للإقامة مسلمين غير مهاجرين فإن وضعهم لن يكون في مستوى وضع المسلمين الذين هاجروا وأصبحوا إخوانا للذين نصروه من أهل المدينة بمقتضى المؤاخاة التي أقامها الرسول بينهم والتي بموجبها كانوا يتوارثون : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [17]؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ (إن لم تعملوا بما تقدم) تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ"[73].

15– قيل: ' نزلت في فداء أسرى بدر، فادوهم بأربعة آلاف ألف، فأنكر الله عزّ وجلّ على نبيّه صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: لم يكن لنبيٍ أن يحبس مقاتلين أعداء، قَدَر عليهم، من أجل أخذ الفداء منهم بوصفهم أسرى، فالفداء لا يكون إلا بعد أن يُثخن في الأرض: يخوض المعركة ويكون هناك قتلى وينتصر، وما بقي ولم يتمكنوا من الإفلات، هم الأسرى. أما أخذ أفراد العدو من دون ذلك، ومن أجل الحصول على ثمن فدائهم، فهذا لا يجوز. فالهدف من الجهاد قتال الأعداء الذين يقاتلونكم ومن بقي منهم مستسلما فهؤلاء هم الأسرى، ولا يجوز قتلهم. وفيهم يكون الفداء بالمال. وما المال إلا عرض الدنيا". "والله يريد الآخرة"، يريدكم مجاهدين ولكم الجنة. قيل وكان ممن فدوا نفسهم العباس بن عبد المطلب عم النبي، وقد كان قد شارك في جيش قريش لأنه لم يكن قد أسلم بعد، انظر الهامش أسفله.

16 – روي أن المعيين هنا هم جماعة منهم العباس عم النبي وصحبه لم يكن قد آمن فبقي في مكة مع المشركين وخرج معهم يوم بدر فأُسر ثم افتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب. قيل، قال العباس للنبي هو وجماعة من الأسرى أمثاله : "آمنا بما جئت به، ونشهد أنك لرسول الله، لننصحنّ لك على قومنا. قيل وفيهم نزل قوله تعالى: ": إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا" الآية. هذا وقد عاد العباس إلى تجارته بمكة وكان له مقام هناك. ويبدو أنه كان يزود النبي بأخبار قريش، وسنرى كيف أنه شارك في مقاوضة أبي سفيان على تسليم مكة للنبي يوم الفتح.

17 – جل المفسرين على أنهم "يتولى بعضهم بعضاً في الميراث".

7- وتأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة في صورة جديدة. لقد افتتحت السورة بالفصل السريع الحاسم في مسألة الغنائم : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ" (لمن هي)؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ (يضعها الرسول حيث يشاء)، ثم طالبت المتنازعين بطاعة الله والرسول وخاطبتهم : "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ". ثم بينت معنى الإيمان بعيدا عن التفكير في الغنائم فقالت: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[2]. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[3]، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا"، باعتبار؛ وجاءت الخاتمة لتضيف إلى ذلك أن المؤمنين حقا، هم باعتبار آخر، اعتبار تجربة غزوة بدر درجات: فـ "الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"[74]. أما الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ (بعد هجرة النبي) وَهَاجَرُوا إلى المدينة ملتحقين بـ"المهاجرين والأنصار"، وَجَاهَدُوا معهم فَأُولَئِكَ مِنْهُمْ"، ولكنهم لا تنطبق عليه "المؤاخاة"، فلا يتوارثون معهم. وبالتالي فالتوارث بينهم يكون على أساس ما يلي: "وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ". هذا وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية نسخت نظام المؤاخاة، الذي أكدته الآية السابقة" بعضهم أولياء بعض"، وهذا لا يستقيم، فالموضوع واحد والسياق واحد، فكيف ينسخ كلام كلاما ورد قبله بقليل ضمن كلام طويل متصل. نحن نرى أن ها هنا وضعيتان: وضعية المهاجرين والأنصار الذي أقام الرسول بينهم نظام المؤاخاة وزكته الآية الأولى (72) بجعل "بعضهم أولياء بعض"، ووضعية الذين التحقوا بالمدينة بعد الهجرة" (الآية 75) وهؤلاء لم يدخلوا ولا يدخلون في نظام المؤاخاة، ولذلك فالمعتبر في توارثهم هو الأرحام؛ قرابة النسب.



94- سورة آل عمران

تقديم

قال ابن عاشور: "ووجه تسميتها بسورة "آل عمران" أنّها ذُكرت فيها فضائل آل عمران، وهو عمران بن ماتان أبو مريم، وآله هم زوجه حنة وأختها زوجة زكرياء النبي. وزكرياء كافل مريم، إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حملا فكفلها زوج خالتها".

وذكر ابن إسحاق أن وفدا من كبار نصارى نجران قدم إلى المدينة ليتعرفوا عن كثب على موقف الإسلام من "عيسى"، وكانوا من المعتقدين بألوهيته: "يحتجون في قولهم: إنه ولَدُ الله بكونه لا أب له يُعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من وُلد آدم قبله، ويحتجون في قولهم: "إنه ثالثُ ثلاثة" بقول الله: فَعَلْنا، وأمرْنا، وخلقْنا، وقَضَيْنا، فيقولون: لو كان (الله) واحداً ما قال إلا فعلتُ، وقضيتُ، وأمرتُ، وخلقتُ ولكنه هو وعيسى ومريم". ولما دخل الوفد على النبي (ص) في المسجد كلمه بعض رؤسائهم فدعاهم الرسول إلى الإسلام فقالا: "قد أسلمنا قبلك". فرد عليهما: "كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما (ادعاؤكما أن) لله ولداً ... "قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله، صدر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية". (قلت: 123آية".

أما سنة نزولها فالغالب أنها نزلت بعد سورة الأنفال في شوال من السنة الثالثة للهجرة يؤيد ذلك إشارتها إلى غزو بدر التي وقعت في السنة الثانية وتخصيصها القسم الثاني منها لغزوة أُحُد التي جرت في السنة الثالثة للهجرة. وفيما يلي أهم وقائع هذه الغزوة التي لابد من استحضارها لمتابعة هذا القسم من السورة.

وقعت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وذلك أن قريشا أرادت أن تنتقم لقتلاها في معركة بدر، فاجتمع بقية كبرائها بزعامة أبي سفيان، بعد أن نجح في العودة إلى مكة بقافلة قريش التجارية سالمة، فجهزوا جيشا بقيادته في نحو ثلاثة آلاف

رجل. وسار نحو المدينة ونزل في مكان قريب منها يسمى "ذو الحليفة". وكان خبر هذا الجيش قد وصل إلى الرسول فجمع أصحابه وتداول الأمر معهم فكان منهم من اقترح البقاء في المدينة حتى إذا دخل جيش قريش أزقتها هاجمه المسلمون من كل جانب، وكان ممن ارتأى عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي "رئيس" المنافقين، بينما قال آخرون بضرورة الخروج لقتال جيش قريش. وقد غض النبي الطرف عن الاقتراح الأول واختار الخروج فجند المقاتلين وسار بهم. ثم ما لبث عبد الله بن أبي بن سلول أن رجع إلى المدينة في ثلاثمائة من أصحابه وقال: "عصاني (الرسول) وأطاع الولْدان! فعلام نقتل أنفسنا"؟ وفي الوقت نفسه، همَّت طائفتان من المؤمنين أن ترجعا، لكن ثبتتا في نهاية الأمر. واحتدم القتال وقتل حَمَلَةُ اللواء من المشركين، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه، فتراجعوا وهربوا، فتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب. فلما رأى ذلك فريق الرماة الذين وضعهم الرسول فوق الجبل لحماية ظهر المسلمين نزل معظمهم واتجهوا نحو الغنائم. ولما رأى خالدُ بن الوليد، ـوكان أحد رؤساء جيش المشركين ولم يكن قد أسلم بعدـ خُلُوَّ الجبل من الرماة، انطلق ببعض الجيش، فقتل من ثبت من رماة المسلمين هناك وهاجم من الخلف المنهمكين في النهب وجمع الغنائم، فأصابهم الذعر حتى صاروا يضربون بعضُهم بعضاً. أما الرسول فقد ثبت في مكانه وحوله جماعة من الرماة مكلفين بحمايته، واجهوا بشجاعة ضربات رماة المشركين. خرج الرسول عليه السلام ناجيا بعد أن كان قد سقط في حفرة فخدشت ركبتاه وأصابته ضربات بعض جند قريش فتكسرت رباعيته وشج وجهه وجرحت وجنتاه، ثم تكسرت ثنيتاه، وفقد المسلمون نحو سبعين قتيلا. وعندما رأى أبو سفيان أنه أخذ الثأر لقتلى قريش يوم بدر، صاح بأعلى صوته "الحربَ سِجالٌ"، وموعدكم بدر العام المقبل". ثم رجع هو وجيشه إلى مكة.

– نص السورة

1– مقدمة : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم[1]. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (ليس معه غيره شريك في أمره: رد على ادعاءات وفد نجران)، الْحَيُّ الْقَيُّومُ[2] (الحي الذي لا يموت، وقد مات عيسى. والقيوم القائم بسلطانه في خلقه لا يزول وقد زال عيسى في قولهم عن مكانه

الذي كان به وذهب إلى غيره)؛ نَزَّلَ عَلَيْكَ (يا محمد) الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (بالصدق) مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ[3] مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ (القرآن: يفرق بين الحق والباطل فيما اختلف فيه اليهود والنصارى). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[4].

2- ... مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ[5]. هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ (بما في ذلك عيسى، فكيف يكون إلها؟)، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[6]. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ (واضحات لا لبس فيها) هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ (أساس العقيدة وثوابتها)، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ (بينهن تشابه يثير ظاهرهن اللبس لتغير دلالتهن) (1)، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ (ميل عن الحق: وهم النصارى) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ (في أمر عيسى) ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ (تشكيك الناس في عقيدتهم) وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ (صرف معناه إلى غير ما وضع له)، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ (صرف معناه إلى حقيقته) إِلَّا اللَّهُ (فهو الذي يبينه للناس) وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ (في المعرفة اللغوية والدينية)[2]، يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ (بالكتاب/القرآن) : كُلٌّ (من المحكم والمتشابه جاء) مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ (يتفهم هذا) إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ[7] (أصحاب العقول الفاحصة، الذين يقولون:) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا (لا تتركها تنساق مع الخطأ) بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (معرفة سديدة)، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ[8]. رَبَّنَا (نحن نؤمن ونقول) إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ (يوم القيامة)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ[9] (الذي فيه الجزاء الذي تتحدد به مصائر الناس). (وهذه المصائر كما يلي:)

3- تذكير يهود المدينة بهزيمة المشركين في بدر...

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (المقصود هنا هو يهود المدينة) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ[10]. (حالهم) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ[11]. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ[12]. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ

---

1 - سنعقد استطرادا خاصا لمسألة "المحكم والمتشابه" بعد نهاية حديثنا عن هذه السورة.

2 - جل المفسرين من أهل السنة يفهمون قوله "وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ" على أن استئناف، أما المعتزلة فيقولون بالعطف وقد رجحنا العطف لاعتبارات سنشرحها بعد.

فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (يوم بدر) : فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ : (الأولى هم المسلمون) يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ (يرون عدوهم مشركي قريش ضعفيهم ومع ذلك انتصروا عليهم)، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ[13] (لذوي العقول الذين يستخلصون النتائج مما يرون). زُيِّنَ لِلنَّاسِ (لليهود) حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[14] (المصير الأفضل: الجنة). قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ (يا يهود المدينة) بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ: (إنه ما أعددناه) لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[15]. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[16]: الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[17] (في الليل).

4- إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ؛ واختلاف أهل الْكِتَابَ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .

شَهِدَ اللَّهُ (بيّن وأظهر بما نصب من الأدلّة على وحدانيته) أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ (من أنبياء وعلماء أقروا هم أيضا بوحدانيته وبكونه يتصرف) قَائِمًا بِالْقِسْطِ (بالعدل) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[18]. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (الذي جاء به محمد وهو دين إبراهيم وذريته)؛ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (من يهود ونصارى وهم من ذرية إبراهيم) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ (أي التوراة والإنجيل) بَغْيًا بَيْنَهُمْ (حسدا لبعضهم بعضا)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[19]. فَإِنْ حَاجُّوكَ (إن جادلوك يا محمد) فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ (كذلك أسلموا وجهه لله). وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) وَالْأُمِّيِّينَ (وهم العرب لأنهم لم يأتهم كتاب من قبل) أَأَسْلَمْتُمْ (استفهام بمعنى الأمر: أسلموا)؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[20] (يعلم من أسلم وصدق ومن لم يفعل). إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (دلائله وحججه)، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ (اليهود)، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ (وهم الذين استنكروا قتل أولئك الأنبياء)، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[21]. أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[22]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ (يهود المدينة) يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ (إلى الرسول والقرآن) لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ

مُعْرِضُونَ[23] (3)؛ ذَلِكَ (أنهم برروا عدم العمل بالتوراة) بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[24] (=يزيدون فيه وينقصون). فَكَيْفَ (سيكون جوابهم وتبريرهم) إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ (يوم الجزاء)، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[25]؟ قُلِ اللَّهُمَّ (يا الله يا) مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ (كما حصل في معركة بدر)، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[26]: تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (وهذا هنا نظير قوله تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء الخ) وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[27]. لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً (تتجنبوا كيدهم)، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (أي من عذابه) وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ[28]. قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ (من صحبة اليهود وموالاتهم) أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ (4)، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[29]. يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا! وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[30]. قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[31]. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[32].

5- التذكير بقصة مريم وبعيسى ومعجزاته... والرد على وفد نجران.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ[33]، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[34]. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ(5) رَبِّ إِنِّي

3- قيل: سأل يهود المدينة الرسول عن حد المحصنين إذا زنيا، فحكم بالرَّجم فقالوا: جُرْتَ يا محمد، فقال: بيني وبينكم التوراة، ثمّ أتوا حبرا من أحبارهم اسمه (بابن صوريا) فقرأ التوراة، فلمّا أتى على آية الرّجم سترها بكفّه، فقام ابن سلاّم (من اليهود الذين أسلموا) فرفع كفه عنها، وقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود، فغضبت اليهود لذلك غضباً شديداً وانصرفوا".

4- قيل إشارة إلى جماعة من الأنصار كانوا يألفون اليهود ويجلسون معهم الخ.

5- انظر التعريف بعمران وآله التقديم.

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (مخلصك منهم)، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[55]. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[56]؛ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[57]. ذَلِكَ (ما تقدم) نَتْلُوهُ عَلَيْكَ (يا محمد) مِنَ الْآيَاتِ (الدالة على صدق نبوتك) وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ[58] (والأحداث التي فيها ذكرى عبرة). إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ،[59]! (ما قصصنا عليك حول مريم وعيسى هو) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[60] (الشاكين). فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ (في هذا الذي أخبرناك به) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ (الذي أعطيناك) فَقُلْ (له): تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[61] (15). إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[62]، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ[63].

6- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ...

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ (يهود المدينة ونصارى نجران) تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا (أعرضوا ولم يستجيبوا) فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[64]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[65] (16). هَا أَنْتُمْ (يا) هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ (في التوراة كقصة مريم وعيسى)، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ (وهو ادعاؤكم ان إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا، وهذا ليس في التوراة ولا في الإنجيل، فمن أين لكم بهذا الادعاء؟)، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[66]؟ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا

15- روي أنه: لمّا نزلت هذه الآية دعا الرسولُ وفد نجران إلى المباهلة، وهي الدّعاء على الظّالم من الفريقين، وخرج الرسول الله، وقال لهم تعالوا نتضرع في الدّعاء فندعو الله باللّعنة على الكاذبين، فلم تُجبه النّصارى إلى المباهلة خوفاً من اللّعنة".

16- لمّا تنازعت اليهود والنّصارى مع الرسول عليه السلام في إبراهيم وقالت اليهود ما كان إبراهيم إلاّ يهوديّاً وقالت النّصارى: ما كان إلاّ نصرانيّاً، رد القرآن عليهم: كيف يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، وكتب اليهودية والنصرانية (التوراة والإنجيل)، قد نزلت بعد موته بزمانٍ طويلٍ؟.

وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا(17) مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ67. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ (أحقهم به) لَلَّذِينَ (هم الذين) اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ (محمد) وَالَّذِينَ آمَنُوا (به)، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ68. وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (بعض يهود المدينة) لَوْ يُضِلُّونَكُمْ (يعودوا بكم إلى الكفر) وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ (لأنهم يضلون أقرب الناس إليهم من الناحية الدينية) وَمَا يَشْعُرُونَ69 (بأن ذلك سيكون نتيجة عملهم). يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (بالقرآن) وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ70 (أنه مخبر بما في التوراة). يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ71. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ72 (18)! وَ(قالوا لبعضهم بعضا) لَا تُؤْمِنُوا (لا تصدقوا ولا تقروا) إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ –قُلْ (يا محمد) إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ19– (لا تصدقوا أيها المسلمون) أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ (من النبوة والحكمة والنعم الإلهية) أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ (لأن حجتكم أقوى)! قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ73، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ74. وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (مطالبا)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ (العرب المشركون) سَبِيلٌ (أي أن التوراة لم تحرم عليهم أخذ ما للعرب المشركين)، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ (يكذبون على التوراة التي هي من عند الله) وَهُمْ يَعْلَمُونَ75. بَلَى (إن عليهم سبيل! أما) مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى (الله) فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ76 (الذين هم على هذه

17– "من كان على دين إبراهيم، فهو حنيف عند العرب، وكان عَبَدَةُ الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حُنَفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سَمَّوا المسلم حنيفاً. وكان في الجاهلية يقال مَن اختتَنَ وحجّ البيت حَنيفٌ لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الخِتان وحَجّ البيت، فكلُّ من اختتن وحج قيل له حنيف. ومعنى الحنيفية في اللغة المَيْلُ، والمعنى أنّ إبراهيم حَنَفَ، أي مال، إلى دين الله ودين الإسلام، وإنما أُخذ الحنفُ من قولهم رَجُل أحْنَفُ ورجلٌ حَنْفاء، وهو الذي تَميلُ قدماه كلُّ واحدة إلى أُختها بأصابعها. ومعنى: "حُنَفاء لله : غيرَ مشركين به".

18– قيل إنّ جماعةً من اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمّدٍ والقرآن في أوّل النهار، وارجعوا عنه في آخر النهار وقولوا لأصحابه نظرنا في كتابكم فوجدنا محمّداً ليس بذاك، فإنّهم أحرى أن ينقلبوا عن دينه ويشكوا.

19– جملة اعتراضية.

الصفة). إنَّ (هؤلاء اليهود) الَّذِينَ يَشْتَرُونَ (يستبدلون) بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ (بوصيته لهم أن لا يحلفوا كاذبين) ثَمَنًا قَلِيلًا (من متاع الدنيا) أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ (سيكونون منبوذين)، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ (ليسوا هم المخاطبين في التوراة)، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (بعين العطف)، وَلَا يُزَكِّيهِمْ (لا يرحمهم) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[77]. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ (ينسبون أقوالا إلى التوراة) لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[78]. مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ (كما يعبدون عيسى)، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ[79]، وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا! أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[80] [(20)]؟ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ (أي عهد أنبياء بني إسرائيل في التوراة، وقال لهم إنكم تعهدتم أنكم) لَمَا (من أجل ما) آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ (مثل محمد)، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ (الله لهم): أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي (عهدي)؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا. قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ[81]. فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ (خرق العهد) فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[82] (يعني يهود المدينة). أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ (بعد هذا الميثاق)! وَلَهُ (لله) أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[83]؟! قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ (لهذا الذي أنزل على هؤلاء) مُسْلِمُونَ[84].

20- قيل: "لمّا ادّعت اليهود أنّهم على دين إبراهيم عليه السّلام وكذّبهم الله تعالى غضبوا وقالوا: ما يرضيك منّا يا محمد إلاّ أنْ نتّخذك ربّاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أنْ نأمر بعبادة غير الله، ولكن نقول لكم: كونوا معلّمي الناس بعلمكم ودرسكم، علّموا النّاس وبيّنوا لهم ما في كتاب الله (التوراة). إنني لا آمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا كما فعلت النّصارى والصّابئون. أنأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون! (بحكم التوراة).

7- الذين كفروا بعد إيمانهم ... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ85 (21). كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ

21- نذكر أولا ما قاله كبار المفسرين حسب تتابعهم الزمني: قال الطبري: "ومن يطلب دينا غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه... وذكر روايات تفيد أن أهل كل ملة ادّعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية، فأمرهم الله بالحجّ إن كانوا صادقين، لأن من سنة الإسلام الحجّ، فامتنعوا، فأدحض الله بذلك حجتهم". وهذا القول فيه نظر: لأن آية فريضة الحج (التي ستأتي ورقمها 96 ورقم الآية التي نحن بصددها هو 61)، والسياق بينهما غير متصل، ولا شيء، لا على مستوى اللغة ولا على مستوى التأويل، يربط بينهما كما سنرى. ثم ذكر الطبري رواية عن ابن عباس جاء فيها أنه بعد قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" إلى قوله" "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة 62) أنزل الله عزّ وجلّ بعد هذا: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران 85). ولم يضف الطبري من عنده شيئا ولا ذكر ما قصد في هذه الرواية من التذكير بالآيتين، وهما في سورتين مختلفتين وسياقين مختلفين. أما الحاكم النيسابوري وكثير غيه من المفسرين فقد قفزوا على الآية وتركوا القارئ مع ظاهر نصها الذي يفيد العموم". أما الزمخشري فقد ربط هذه الآية بالتي قبلها ففسر قوله تعالى : "لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ (لهذا الذي أنزل على هؤلاء الأنبياء) مُسْلِمُونَ"، قال: أي "موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها؛ ثم قال: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام" يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى: "دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ. أما القرطبي فقد ذكر أن رجلا من الأنصار، ارتدّ عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة". وأضاف القرطبي: "وَرُوي ذلك عن ابن عباس وغيره. قال ابن عباس: وأسلم بعد نزول الآيات". وأما ابن كثير فقد قال في تفسيره الآية: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ": أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه". ونحن نرى أن عبارة ابن كثير، إذا أخذت في عمومها، تلتقي مع عبارة الزمخشري الذي فسر الإسلام في الآية بدين التوحيد. وبالتالي فالمعنى الذي نرجحه هو كما يلي: ومن يتبع دينا غير منزل من الله (التوحيد، شرع الله) فلن يقبل منه. بمعنى أن من= يتبع دينا غير دين إبراهيم فلن يقبل منه. وهذا ما يفيده السياق ويشهد له الواقع فقد اعترف الإسلام باليهودية والنصرانية وفرض على أهلهما الجزية في مقابل الزكاة. وهذا لا يسقط مضمون رواية القرطبي من الحساب لأن الشخص المشار إليه في الرواية التي ذكرها والذي فر إلى مكة مرتدا لن يقبل منه دين المشركين، بطبيعة الحال. فهذه الرواية لا تصلح لتفسير الآية التي نحن بصددها لأن الأمر سيكون حينئذ عبارة عن تحصيل حاصل، وإنما تصلح لتفسير الآية التي بعدها كما ورد في جل التفاسير.

حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ؟ [22] وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ86؟ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ87، خَالِدِينَ فِيهَا، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ88 (يمهلون)، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ89. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ (اليهود كانوا يؤمنون بقرب ظهور نبي، كما عندهم في التوراة، فلما ظهر وجاء يدعوهم إلى الإسلام كفروا به) ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا (بأن حاولوا زرع الفتنة بين المسلمين في المدينة) لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ90. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (أي هؤلاء اليهود وغيرهم من الكفار) وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ (أي لم يتوبوا) فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ (يوم القيامة) مِلْءُ الْأَرْضِ (ما يملأ الأرض) ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ (ولو قدمه فدية ليسمح له بالتوبة)، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ91. (أيها اليهود) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ (لا التوبة ولا الجنة) حَتَّى تُنْفِقُوا (هنا في الدنيا) مِمَّا تُحِبُّونَ (وأنتم لا تفعلون ذلك)،

22- ذكر المفسرون لهذه الآية أحد احتمالين : أحدهما في معنى الذي ذكره القرطبي في الهامش السابق (رجل ارتد وذهب إلى مكة الخ)، والثاني في معنى أن المقصودين هم اليهود والنصارى، "رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلّم في كتابهم، وأقرّوا به، وشهدوا أنه حقّ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك، فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم". وقد جمع الطبري بين الاحتمالين على معنى : "أن يكون داخلا في ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد صلى الله عليه وسلّم قبل أن يبعث، ثم كفر به بعد أن بعث، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده صلى الله عليه وسلّم ثم ارتدّ، وهو حيّ، عن إسلامه، فيكون المعنيون بالآية هم جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما". ونحن نرجح الرأي الأخير لأن سياق الآية يندرج في خطاب موجه لليهود، والآية: "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ"؟ واقعة في سياق هذا الخطاب، لأن قوله تعالى "وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ" يقتضي أن يكون المخاطب هم أهل الكتاب فهم الذين شهد كتابهم أن محمدا هو الرسول المبشر به عندهم، وأنهم قد جاءتهم منه البينات (في القرآن) على أنه رسول حقا، والمقصود بالبينات هنا ما أخبر به القرآن عن تاريخهم الخ. وهذا يقتضي أن يكون المخاطب هم اليهود في الآيات اللاحقة إلى الآية 96، ("إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ")، بما في ذلك قوله تعالى "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"، على أساس أن المقصود بـ"البر" هو هنا "التوبة ونتيجتها: الجنة". فهذه الآية مسيجة بالآية التي سبقتها والآية التي تليها وهما معا في اليهود.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[92] [(23)]. (أنتم تحرمون أطعمة وتنسبون هذا التحريم للتوراة ثم تتخذون ذلك ذريعة لعدم التصدق بها، وهذا كذب فالحقيقة أن) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ. قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا (لـــنرَ هل حقا فيها تحريم ما تحرمون النفقة منه) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[93]. فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (من بعد ما تبين أن التوراة ليس فيها ما تدعون تحريمه) فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[94]؟ قُلْ (يا محمد) صَدَقَ اللَّهُ (=ليس في التوراة ما تدعون تحريمه عليكم)، فَاتَّبِعُوا (يأهل الكتاب) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (مسلما) وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[95]. إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا [(24)] وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ[96]. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ.

23- هذه الآية تطرح مشكل العلاقة بينها وبين ما سبقها وما تلاها. فما قبلها خطاب موجه للكفار، وسياقه العام يتعلق باليهود كما بينا في الهامش أعلاه، أما ما بعدها فصريح أنه يتعلق باليهود كذلك! فكيف نفهم قوله تعالى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ (أي الجنة) حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"؟ وبعبارة أخرى من المخاطب هنا؟ جميع المفسرين يذهبون إلى أنها خطاب للمسلمين، وهذا يجعل الآية مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها، وهذا ما ارتضاه ابن عاشور إذ جعلها جملة اعتراضية، والجملة الاعتراضية (أو المعترضة)، لا تعني في رأينا، الخروج تماما عن السياق، فهي تكون بين متلازمين كالمبتدأ والخبر للتفصيل ومزيد بيان أو للاستثناء والاحتراس الخ، وهي لا تكون جملة يتيمة منقطعة عما قبلها وما بعدها، وهذا النوع من الجمل اليتيمة لا تليق ببيان القرآن وبلاغته، ولا ينفع فيه القول بأن القرآن نزل منجما، لأن كونه نزل مفرقا لا ينزع المعقولية عن وحداته الخطابية (العبارات) ولا عن سياقاته. وبناء عليه نحن نرجح أن يكون الخطاب في هذه الآية موجها لليهود، وبذلك تكون علاقتها بما بعدها واضحة (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل)، أما علاقتها مع ما قبلها فواضح من قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ"، أي لن تقبل منهم التوبة يوم القيامة ولو قدموا من أجلها من الذهب قدر ما يملأ الأرض! إن التوبة وبالتالي الجنة ليست مرهونة بمقدار ما بإمكانهم أن ينفقوا بل تتوقف على أن ينفقوا الآن مما يحبون، قال القرطبي: "لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر"، وهذا في نظرنا أولى أن يقال لليهود.

24- في هذا رد على ما ذكر في التوراة التي بين أيدينا من أن البيت الذي بناه إبراهيم عند مجيئه إلى فلسطين مهاجرا من "أور" (من أرض الكلدانيين) يقع في أرض الكنعانيين. فقد ورد في التوراة : "6فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ. 7وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ (جميعا بما فيهم اليهود والنصارى) **حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**، **وَمَنْ كَفَرَ** (رفض) **فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**[97]. **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ** (بشريعة الله وحججه) **وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**[98] (يشهد ويراقب ويحصي). **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ** (بالرسول محمد)، **تَبْغُونَهَا** (سبيل الله) **عِوَجًا** (معوجة : تضلون الناس) **وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ** (على أن الذي تصدون الناس عنه هو الحق)، **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**[99].

8- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (هم اليهود الذين يزرعون الفتنة بينكم، بين الأوس والخزرج) **يَرُدُّوكُمْ، بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، كَافِرِينَ**[100] (يقاتل بعضكم بعضا كما كان حالكم قبل إسلامكم)! **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ** (وتصدقون سعي اليهود بينكم) **وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آَيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**[101]. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا** (الأوس والخزرج) **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**[102] (أموركم لله ورسوله). **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ** (عهد الله) **جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً** (تتقاتلون) **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** (بالإسلامكم) **فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ** (كنتم حين أسلمتم في بيعة العقبة على وشك الاقتتال) **فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا! كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**[103]. **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**[104]. **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** (كما حدث لليهود والنصارى بعد أنبيائهم) **وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**[105] **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** (يوم القيامة): **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** (يقال لهم) **أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟** (إذن:) **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**[106]؛ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ** (الجنة) **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**[107]. **تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ**

الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. 8وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ غَرْباً وَعَايَ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. 9ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ". (بيت إيل هي حاليا بيتين وتقع على بعد 18 كم شمال شرق القدس".

نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ (يا محمد) وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ[108]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[109].

9- وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ...

كُنْتُمْ (أيها الأنصار)(25) خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (في يثرب) : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ (مثلكم) لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ (كعبد الله بن سلام وأصحابه) وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ[110]! (وهؤلاء الفاسقون) لَنْ يَضُرُّوكُمْ (عند المواجهة معهم) إِلَّا أَذًى (ما يتقولون به مما يؤذي مشاعركم)، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ (يهربون) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ[111] (لا يجدون من يناصرهم). ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ (المهانة) أَيْنَ مَا ثُقِفُوا (أينما وجدوا طوال تاريخهم) إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ (مماثل لصحيفة النبي التي ضمنت لهم حقوقهم، وباستثناء هذه الحال) وَبَاءُوا (رجعوا إلى المذلة) بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[112]؛ لَيْسُوا (جميعا) سَوَاءً (في الكفر بل): مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ (جماعة) قَائِمَةٌ (مستقيمة) يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ[113]، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ[114]. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ (لن يحجب عنهم)، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ[115]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[116]. مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (رياء) كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (برد شديد) أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ (ولم يبق فيه نفع)، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[117].

10- تحذير المنافقين... بين وقعة بدر ووقعة أحد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً (أصدقاء) مِنْ دُونِكُمْ (أي من اليهود) لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (لا يكفون عن إثارة الفتنة بينكم)، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ (تمنوا ضلالكم عن دينكم)، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ.

25- جل المفسرين يجعلون "المهاجرين" هم المقصودون، وهذا لا يزكيه السياق. فالكلام هنا مع الأوس والخزرج الذين بايعوا في العقبة ورجعوا إلى يثرب ينشرون الإسلام. والآية التالية تخاطب يهود المدينة، وإذن فالخطاب كله لأهل المدينة تارة للأنصار وتارة لليهود.

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ[118]. هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ (أيها الأنصار الذين ما زالوا مع صحبتهم لليهود) تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[119]. إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ (نصر وغنيمة) تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ (هزيمة ونكسة) يَفْرَحُوا بِهَا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[120]. وَ(اذكر يا محمد) إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ (خرجت من بيتك) تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ (تنظم معسكرهم لغزوة أحد) – وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[121] – إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ (إحداهما من الخزرج والأخرى من الأوس) مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا (تتركا القتال)، وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا (الدافع عنهما ضعفهما)، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[122]. وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ (قليلون)، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[123]. (واذكر يا محمد) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ (وأنت تشجعهم يوم أحد) (26) أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ[124]؟ بَلَى! (يكفيكم ذلك) إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا. وَ(إن) يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا (الآن على الفور)، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ[125] (مستعدين للقتال). وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ (أي هذا الوعد) إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ؛ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[126] (لقد نصركم) لِيَقْطَعَ (ليقتل) طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ (يخذلهم فلا يقتحمون المدينة) فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ[127] – لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ(27) – أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ[128]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[129].

26- جل المفسرين على أن هذه الآية تتحدث عن وقعة بدر بناء على كون مشاركة الملائكة في قتال الكفار إلى جانب المسلمين قد حدث في بدر كما ورد في سورة الأنفال (الآية 9). وهذا لا يستقيم مع السياق، فالكلام هنا عن وقعة أحُد. ولا شيء يمنع من أن يكون النبي قد وعد المسلمين بمساعدة الملائكة وهذا الاحتمال وارد جدا لأن آية سورة الأنفال تحدثت عن "ألف من الملائكة"، بينما الكلام هنا عن ثلاثة آلاف وخمسة آلاف!

27- قال ابن إسحق : تشير الآية إلى ما حصل للرسول الله يوم أحد حين "كسرت رباعيته وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزلت: "ليس لك من الأمر شيء" الخ.

11- مواساة المسلمين بعد هزيمة أحد ... وكشف الحساب معهم؟

أ- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً "

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً(28) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ130، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ131 ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ132. وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْـــأَرْضُ

28- المضاعفة في الربا: "أن يكون الرجل له على آخر مال إلـــى أجل، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخر عني دينك، وأزيدك على مالك! فيفعلان ذلك". هذا وقد غض جل المفسرين الطرف عن المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها وما بعدها، وهما في موضوع واحد هو وقعة أحُد. وقد أثاره ابن عاشور هذه المسألة فوجد الحل في نظريته العامة التي تقوم على أن عدة سور كانت تنزل وتبقى مفتوحة، وأنه بالتالي "لا حاجة إلى اطّراد المناسبة... وقد طرح ابن عاشور مسألة أخرى تخص "إعادة النهي عن الربا في هذه السورة بعد ما سبق من آيات سورة البقرة"، فقال: "إنّ الظاهر أنَ هذه الآية نزلت قبل نزول آية سورة البقرة، فكانت هذه تمهيداً لتلك، ولم يكن النّهي فيها بالغاً ما في سورة البقرة". وهذا معناه "فوضى الآيات" داخل السور وعدم التقيد بكون ترتيبها توقيفي.. لكن ابن عاشور يطرح احتمالا آخر، قال "ويحتمل أن يكون بعض المسلمين داين بعضاً بالمراباة عقب غزوة أحُد، فنزل تحريم الرّبا في مدّة نزول قصّة تلك الغزوة". نحن نعتقد أن هذا الاحتمال مناسب. وبه تدخل الآية في السياق العام الذي هو الكلام عن وقعة أحد، وفي سياق خاص (داخل العام) وهو مخاطبة المسلمين عقب الهزيمة لمواساتهم وتثبيتهم على الإيمان. وتبدأ المواساة بآية الربا التي نحن بصددها. وما يجب أن يثير الانتباه هو أن آيات سورة البقرة في تحريم الربا قوية شديدة اللهجة، تسد الباب نهائيا أمام ممارسة الربا مضاعفا أو غير مضاعف. ذلك قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"8. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا (أيقنوا) بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ". أما الآية التي نحن بصددها فهي تنهى عن المضاعفة في الربا فقط، ونحن نرجح احتمال أن يكون بعض الذين شاركوا في وقعة أحد وفقدوا بسببها ليس الغنائم فحسب بل ما تجهزوا به فأصبحوا في حالة إملاق، فاضطروا إلى اقتراض ما يسدون به خلتهم من المرابين الذين عرفوا حاجتهم فضاعفوا الربا، ومما يلفت الانتباه أن الآية التي نحن بصددها وكذا التي بعدها قد سلكت مسلكا لينا مع مخاطبيها فطرحت الوعد بالمغفرة إذا "لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا"، إذا لم يجعلوا ذلك سلوكا دائما الخ. وهكذا فبدلا من القول بالنسخ أو بـــ "سبق التلاوة عن النزول" أو العكس، أو نزول اللاحق قبل السابق... يكفي ربط كل آية بسياقها الخاص من جهة، وسياقها العام من جهة أخرى، وبالتالي فهم "الخصوص" على أنه يشمل ليس فقط خصوص الأفراد بل خصوص الظرف زمانا ومكانا وحالة.

أعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ[133]: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ (لإعانة الضعفاء)، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ (الذي تسببت فيه الهزيمة)، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ (الذين تسابقوا إلى الغنائم والنهب) وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[134]. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً (كتركهم القتال والانكباب على النهب أو ماسوا الربا) أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ (تراجعوا عن المشاركة في الحرب) ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ – وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ – وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ[135] (تنبيه موجه إلى المنافقين). أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[136]. قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ (تجارب الأمم الماضية)، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[137] (أهلكوا في ديارهم بالصواعق).

ب- *وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...*

هَذَا (الذي أوضحت لكم) بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ[138]. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا (بعد الذي حدث في أحد) وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[139]. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ (هزيمة أو نسكة في أحُد) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ (المشركين) قَرْحٌ مِثْلُهُ (في بدر)، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (يوم لك ويوم لغيرك)، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (من المنافقين) وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[140]. وَلِيُمَحِّصَ (يختبر) اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ[141] (ينقص من عددهم). أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ[142]؟ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[143] (29). وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا (30)، وَسَيَجْزِي اللَّهُ

29- قال الطبري بصدد هذه الآية : "إن قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ممن لم يشهد بدرا، كانوا يتمنون قبل أحد يوما مثل يوم بدر، وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر؛ فلما كان يوم أحد فرّ بعضهم وصبر بعضهم، فعاتب الله من فرّ منهم، فقال: "وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ" الآية، وأثنى على الصابرين منهم.

30- تشير هذه الآية إلى البلبلة التي حصلت عند هزيمة المسلمين يوم أحد، فقد سقط الرسول في إحدى الحفر التي حفرها المشركون ليسقط فيها جنود المسلمين فأغمي عليه وأخرجه منها علي بن أبي طالب بمساعدة بعض الصحابة. وأشيع بأن الرسول عليه=

الشَّاكِرِينَ[144]. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، كِتَابًا مُؤَجَّلًا، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ[145]. وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ (صحابة صادقون) كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ[146]. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ (قول الربيين حين مات نبيهم) إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[147]. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[148]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ[149]، بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ[150]؛ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا (الذين هزموك يوم أحد) الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا (بسبب شركهم) بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (ما لم يرخص به)، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ[151]. وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ (بالنصر يوم أحد) إِذْ تَحُسُّونَهُمْ (تقتلونهم) بِإِذْنِهِ (وكان ذلك قبل أن يترك الرماة أماكنهم ليجروا وراء الغنيمة)، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ (جبنتم) وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ (الهزيمة لهم والغنائم لكم): مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا (فجرى نحو الغنائم) وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ (فثبت وقاتل)، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ (عندما سلبتكم الغنائم) لِيَبْتَلِيَكُمْ (ليختبركم هل ستثبتون أم ستتركون مواقعكم في القتال)، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ (على فعلتكم تلك)، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ[152]. إِذْ تُصْعِدُونَ (تتسابقون فارين نحو الجبل) وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ (لا يلتفت بعضكم إلى بعض) وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ (أي من خلفكم ويقول: "إليَّ عِبادَ اللهِ، إليَّ عِبادَ اللهِ!") فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ (الأول بما أصابهم من القتل وضربات عدوهم، والثاني بما سمعوا من استغاثة النبي) لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ (من الغنيمة) وَلَا مَا أَصَابَكُمْ (الهزيمة)، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[153]. ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً (أمنا) نُعَاسًا (نوما) يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ (لما تيقنوا أن العدو انسحب راجعا إلى مكة)، وَطَائِفَةٌ (وهم المنافقون الذين حضروا الحرب) قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ (نادمين على حضورها مرددين أنهم خدعوا بوعد بالنصر "كاذب")، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ (أي لم يؤخذ برأينا حين طالبنا بالبقاء داخل المدينة حتى

السلام قد قتل، فصمد بعض الصحابة وأعلن بعض المسلمين الجدد ردتهم وخاصة المنافقين ومن كان على صلة بهم الخ. وواضح أن الآيات أعلاه تتحدث عن هذا الموضوع.

يدخلها العدو فنهاجمه من سطوح منازلنا)؟ قُلْ (يا محمد) إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ. يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ: (وهكذا) يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ (لو أخذنا برأيكم وجاء العدو) لَبَرَزَ (لخرج) الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ (مكان سقوطهم قتلى)، وَلِيَبْتَلِيَ (يختبر) اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ (أيها المنافقون) وَلِيُمَحِّصَ (ويكشف) مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[154]. إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا (من النصر فراحوا يجرون مع الغنائم)، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ[155]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَالُوا (والذين يقولون) لِإِخْوَانِهِمْ، إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى، لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ (يتحسرون على موت إخوانهم أولئك)، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[156]. وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ (أيها المؤمنون فإن ثوابكم) لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[157] (من الأموال). وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ[158] (ومصيركم الجنة).

ج- فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...

فَبِمَا رَحْمَةٍ (فبرحمة) مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (لأصحاب أحُد من الذين تسببوا في الهزيمة)، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا (سيء المعاملة معهم) غَلِيظَ الْقَلْبِ (قاسيا عليهم) لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (لتركوك وتفرقوا)؛ فَاعْفُ عَنْهُمْ (تجاوز عن فعلتهم)، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (أمور الحرب)، فَإِذَا عَزَمْتَ (اتخذت القرار بعد مشاورتهم) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (سلم له أمر النصر وعدمه)، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ[159]: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[160]. وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ (أن يخون أو يُخان) [(31)]، وَمَنْ يَغْلُلْ (يخن وينهب) يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ

31- في قراءة :" أنْ يَغُلَّ" بفتح الياء وضم الغين، بمعنى "يخون" وفي أخرى "أن يُغَلّ" بضم الياء وفتح الغين بمعنى أن يخونه أصحابه، وهذا أقرب إلى السياق، إشارة إلى الذين تهافتوا على الغنائم في أحد ينهبون ويستحوذون الخ، والآية التالية ترجح هذا المعنى. وقد ذكر الزمخشري : أن الآية "نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلّم: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا=

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[161]. أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ (ولم يخن) كَمَنْ بَاءَ (رجع من الحرب مثقلا) بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[162]. هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[163]. لَقَدْ مَنَّ (تفضل) اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ (من نوعهم) يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[164]. أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ (في أحُد إذ قتل منكم سبعون) قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا (في بدر حيث قتلتم من عدوكم سبعين وأصبتم سبعين) قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا (من أين أصابنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون، ورسول الله فينا)؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (تركتم مواقعكم وجريتم وراء الغنيمة)، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[165]. وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ[166] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا : (أن النصر مع طاعتكم نبيكم، وترك النصر مع مخالفتكم إياه). وَقِيلَ لَهُمْ (لعبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين الذين رجعوا إلى منازلهم) تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا (اخرجوا معنا فقط لتكثير عددنا وتخويف العدو)، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ! (كذبوا): هُمْ (بخذلانهم المؤمنين) لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ. يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ[167]. الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ (في النفاق) وَقَعَدُوا (أي لم يخرجوا): لَوْ أَطَاعُونَا (أي قتلى أحد) مَا قُتِلُوا! قُلْ فَادْرَءُوا (ادفعوا) عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ (عندما يحين أجلكم) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[168]. وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[169] [(32)]، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنَ

المركز حتى يأتيكم أمري، فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال صلى الله عليه وسلم: بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم". وواضح أن نص هذه الرواية يصلح للقراءتين معا.

32- علق الرازي على هذه الآية بقوله: "اعلم أن ظاهر الآية يدل على كون هؤلاء المقتولين أحياء. فإما أن يكون المراد منه حقيقة أو مجازا، فان كان المراد منه هو الحقيقة، فإما أن يكون المراد أنهم سيصيرون في الآخرة أحياء، أو المراد أنهم أحياء في الحال= وبتقدير أن يكون هذا هو المراد، فإما أن يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجسمانية؛ فهذا ضبط الوجوه التي يمكن ذكرها في هذه الآية. ثم أخذ يفصل القول في هذه الاحتمالات وغيرها إلى الدرجة التي يستعصي معها خروج القارئ منها بنتيجة. ونحن نرى أن من أهم عوائق الفهم الصحيح للآيات الكلام فيها كأجزاء مستقلة وإغفال وحدة التركيب وما يعطيه السياق. إن قوله تعالى "بَلْ أَحْيَاءٌ" لا يجوز الكلام فيه بمفرده بل لابد من اعتبار قوله "عند ربهم" كجزء من المعنى: والمعنى أنهم أحياء "عند الله". أما كيف تكون حياتهم

خَلْفِهِمْ: أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[170]، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ. وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ[171]: (وهكذا فـ) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ (الجراحات في أحد) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ[172] (33)، (هؤلاء الذين كانوا متجهين إلى ملاحقة أبي سفيان وأصحابه و) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ (أخبرهم بعض أهل القبائل) إِنَّ النَّاسَ (أي أبو سفيان وأصحابه) قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ (جيشهم) فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[173]، (لم يخافوا بل واصلوا طريقهم، ولما وجدوا أن أبا سفيان قد واصل الرجوع بجيشه إلى مكة)، فَانْقَلَبُوا (عاد أولئك الذين ذهبوا لملاحقة أبي سفيان) بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ[174] (34). إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ (يعظم أمر المشركين أيها المنافقون في أنفسكم فتخافونه) فَلَا تَخَافُوهُمْ، وَخَافُونِ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[175]. وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ (أي المنافقون)، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا (ثوابا) فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[176]. إِنَّ الَّذِينَ

عند الله فهذا ما لا يعلم حقيقته إلا الله؟ يجوز أن يكون المعنى : أحياء" في علم الله، أو في "تقدير الله" أو بجانب الله كالملائكة الخ... ومثل هذا يقال في الآيات التاليات إلى قوله : "بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ".

33- الإشارة هنا إلى جماعة من جند المسلمين أمرهم الرسول بملاحقة أبي سفيان، رئيس جيش المشركين، بعدما قيل إن هذا الأخير كان ينوي التوجه إلى النبي ومن معه لتصفيتهم. وفي رواية أخرى أن النبي لما عاد إلى المدينة خاف من مكر أبي سفيان وعودته إلى المدينة لاحتلالها والمسلمون فيها، ولتلافي هذا الاحتمال جهز الرسول جيشه بعد أن عاد إلى المدينة مباشرة واتجه لملاقاة أبي سفيان الذي أشاع أنه سيقتحم المدينة ولما وصل النبي إلى مكان يقال له "حمراء الأسد" لم يجد أحدا لأن أبا سفيان كان قد واصل طرقه إلى مكة. وقد سمي هذا الخروج بـ "غزو حمراء الأسد".

34- بعض الروايات تجعل نزول هذه الآية منفصلا عن سياق النص وسياق الأحداث، فتربطها بغزو بدر الثانية، ذلك أن أبا سفيان لما انتهت وقعة أحد صاح في المسلمين أن= موعدنا بدر في العالم القادم. فلما حل موسم بدر في السنة الموالية تجهز الرسول بجيش لمواجهة أبي سفيان. أما هذا الأخير فقد قرر عدم الذهاب للموعد بسبب الجدب فبعث من يشيع في المدينة أن أبا سفيان قد جهز جيشا عظيما وأنه آت لميعاد بدر، وهذا من أجل تخويف المسلمين حتى يتخلوا هم عن الموعد ويحسب عليهم ذلك. غير أن الرسول جهز جيشه وذهب إلى بدر فلم يجد أبا سفيان فاقتصر المسلمون على التعامل مع السوق بالتجارة دون حرب. وقد سمي خروج النبي هذا بـ "غزوة بدر الصغرى".

اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[177]. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ (نمد في أعمارهم) خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ"[178]. مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ (من التباس المؤمن الحقيقي بالمنافق يوم أحد) حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ (على قلوب الناس لتعلموا المؤمن من المنافق)، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي (يختار) مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ"[179]. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[180]. لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ (اليهود) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ (لأنه يستقرض وإنما يستقرض الفقراء) وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ! (الجواب:) سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا (كما كتبنا أقوال أسلافهم) وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ، وَنَقُولُ (لهم جميعا يوم القيامة) ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ[181]، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[182]. (وسمع الله قول اليهود) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا (أوصانا في كتبنا) أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ (ذبيحة يتقرب بها إلى الله، فإذا أكلتها النار كان ذلك إشارة منه على أنه رسول حقا)! قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[183]؟. فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ[184] (التوراة). كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ (أبعد) وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ[185]. لَتُبْلَوُنَّ (ستختبرون بالمصائب أيها المؤمنون) فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ (وأهليكم)، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[186]. وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ (عهد) الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ (أي نبوة محمد) لِلنَّاسِ (كما هو مبين في كتبكم) وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ (أي الميثاق) وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (أي الإبقاء على زعامتهم على أهل دينهم، فحالوا بينهم وبين الإسلام)، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ[187]. لَا تَحْسَبَنَّ (اليهود) الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا (يعني التوراة) وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا (يمدحوا ويشكروا) بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (أي ما يدعون من أنهم متمسكون بالتوراة)، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ (بمنجاة) مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[188].

14- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[189]. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[190]: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (ويقولون): رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[191]، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[192]. رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ (هو محمد عليه السلام) أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ[193]. رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ[194]. فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ[195]. لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ[196] (بقاؤهم أحياء يتاجرون ويربحون ويتمتعون، ذلك) مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ[197]. لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ[198]. وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[199]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[200].

تعليق

تتناول هذه السورة، على طولها، موضوعين اثنين رئيسيين، أولهما الجدال مع يهود المدينة ووفد نصارى نجران من جهة، وغزوة أحد التي انهزم فيها المسلمون من جهة أخرى. هذا إضافة إلى مقدمة وخاتمة تتصلان بهذين بالموضوعين. ويبدو أنه لا شيء يجمع بين الموضوعين سوى كونهما ينتميان زمنيا إلى السنة الثالثة للهجرة.

1- تبدأ السورة بمقدمة مناسبة تماما للموضوع الأول، مما يمكن أن يستنتج منه أن الجدال مع النصارى واليهود كان أسبق من هزيمة أحد. وفضلا

عن أن بعض الروايات تجعل قدوم وفد نجران إلى الرسول في المدينة في السنة الثانية للهجرة –وقد يكون ذلك في أواخرها، فإن الجو الذي جرت فيه المجادلة بينه وبين الرسول يستحضر غزوة بدر وبالتالي فليس من المستبعد أن يكون الانتصار الذي حققه النبي وجيشه في بدر هو الذي حرك نصارى نجران، مع ما كان يصلهم من الحبشة وغيرها من أخبار الدعوة المحمدية ونجاحاتها.

تطرح المقدمة بعبارات قوية التصور الإسلامي للألوهية وهو الموضوع الأساسي الذي جاء من أجله وفد نصارى نجران ليستكشف حقيقة موقف الإسلام من عقيدة التثليث، خاصة ألوهية عيسى، فتؤكد بقوة أن الألوهية لله وحد وأن العقيدة الحق هي التي جاء بها القرآن المنزل على الرسول محمد بن عبد الله، وأن هذه العقيدة لا تتناقض مع التي جاءت بها التوراة والإنجيل وأن فيها الفرقان بين الحق الذي جاءا به وبين الباطل الذي تسرب إليهما بالزيادة والنقصان فيهما.

2- بعد هذا العرض الصريح لجوهر العقيدة الإسلامية تنتقل السورة إلى الرد على شبهات وفد نصارى نجران فتؤكد أن الله لا تخفى عليه حقيقة عيسى وأنه هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ"، بما في ذلك عيسى الذي خلقه في رحم مريم دون أن يمسسها بشر، وأنه مع ذلك تبقى حقيقته أنه بشر كسائر البشر. أما ما أثاره وفد نجران وغيره من شبهة في هذا الموضوع فراجع إلى عدم تمييزهم بين المحكمات والمتشابهات في الآيات والمعجزات التي يبين الله بها للناس ما يريد تبليغه عليه وإقناعهم به. والناس في هذا صنفان صنف مؤمن عارف بما هو محكم وما هو متشابه فيتبع المحكم ويفهم على ضوئه ما يبدو متشابها ملتبسا، وصنف في قلوبهم زيغ يتمسكون بما هو متشابه دورن رده إلى المحكم، وغرضهم من ذلك إثارة الفتنة والبلبلة في العقول، بهدف جر الناس إلى ما يريدون الوصول إليه وجعله هو الحقيقة. هذا في حين أن الحقيقة التي تثوي وراء المتشابه لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، وهم المؤمنون بالقرآن كوحي من الله، يعرفون المحكم ويعرفون المتشابه ويضعون كلا منهما في مكانه ويقولون كل من عند ربنا... هذه الفقرة هي بمثابة التقديم والإعداد لحكاية الجدال الذي حدث مع وفد نجران حول حقيقة المسيح بن مريم عليه السلام.

3- وتأتي الفقرة الثالثة لتقوم بالشيء نفسه بالنسبة للجدل الذي جرى مع اليهود، لدفعهم لاستخلاص العبرة من انتصار المسلمين في غزوة بدر. لقد جمع الرسول اليهود، كما ذكرنا في الهامش رقم 36، ليدعوهم إلى الالتحاق بصفوف المسلمين قبل أن يفوت الأوان منبها إلى الانتصار الذي حققه المسلمون على

مشركي مكة والهزيمة التي لحقت بهؤلاء، فكان جوابهم من الوقاحة إلى الدرجة التي هددوه فيها بمعرفتهم بأساليب الحرب وبأنه سيرى منهم إذا دخل معهم في حرب ما لا يتصور ولا يتوقع. وعلى هذه الوقاحة ردت السورة بتذكيرهم بأنه لا أموالهم ولا أموالهم ستغني عنهم شيئا وأن مآلهم سيكون كمآل فرعون الذين أخذهم الله بذنوبهم فكان مصيرهم الغرق، وأنهم إن دخلوا في حرب مع المسلمين سيغلبون وسيحشرون إلى جهنم. ثم دعتم السورة إلى استخلاص العبرة من واقعة بدر، حيث غلبت فئة قليلة هم المسلمون فئة كبيرة العدد والعدة هم مشركو مكة بقيادة زعمائهم وعلى رأسهم أبو جهل. إن فئة المسلمين فئة مجاهدة، أما اليهود فمعروف عنهم أنهم يحبون "الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ"، ثم تنصحهم بالالتحاق بصفوف المسلمين وأنهم بذلك سيجدون عند ربهم في الحياة الأخرى "جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ".

4- ثم تأتي الفقرة الرابعة لتبدأ الجدل مع اليهود، فتقرر إن دين الله في الأصل هو الإسلام، دين إبراهيم، وأنه هو ما جاءت به التوراة والإنجيل، وأن اختلاف النصارى واليهود في هذا الدين إنما يرجع إلى حسد بعضهم لبعض، وأن القرآن جاء مصدقا للتوراة والإنجيل غير متأثر بالخلاف بين أهلهما، بل جاء ليصحح ما اعتراهما من تحريف. ثم تأمر السورة الرسول بتبليغ ذلك للجميع بما في ذلك مشركي مكة، فإن سلموا بما في القرآن، وآمنوا به فهم مسلمون على هدى من الله: فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ". ثم تأخذ السورة في تقريع اليهود بتذكيرهم بأعمال أسلافهم: الذين كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين والصالحين". أما يهود المدينة الذين أوتوا نصيبا من الكتاب فهم لا يطبقونه عندما يكون في غير صالحهم في وقت من الأوقات، وهكذا فهم لم يترددوا في دعوة بعضهم بعضا إلى تحكيم الرسول في نزاع نشب بينهم. ومع أن الصحيفة/الميثاق التي أبرمها الرسول معهم تتيح لهم ذلك وأنه عليه السلام قد حكم بينهم بما عندهم في التوراة فقد ولوا معرضين غير راضين ففضلوا تحكيم الرشوة التي يدفعونها لمن يفتي لهم من الأحبار بما يريدون، غير عابئين بحكم التوراة وبوعيدها بجهنم لمن خالف أمرها قائلين "لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ"، معتمدين على ما كانوا يفترون على دينهم. ثم تتوجه السورة إلى الذين ألفوا واعتدوا -من سكان المدينة- معاشرة اليهود وصحبتهم، فتذكرهم بالنصر العظيم الذي تحقق للمسلمين يوم بدر وتحذرمن اتخاذ

المسلمين للكافرين من اليهود وغيرهم أوليا دون المؤمنين، وتدعوهم إلى اتّباع الرسول إن كانوا يحبون الله فعلا.

5- ثم تنتقل السورة إلى مجادلة النصارى في أمر عيسى فتذرهم أن لائحة أنبياء الله ورسله تمتد إلى آدم ونوح ثم إلى آل إبراهيم وذريته من إسماعيل وإسحاق، ثم إلى آل عمران أسرة مريم. ثم تحكي قصتها، وحملها من دون أن يمسسها بشر. وإنما هو خلق الله الذي إذا "قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وبعد أن أخذ عيسى في تبليغ الرسالة عارضه اليهود وتآمروا على قتله وصلبه فأفشل الله خطتهم بأن رفعه إليه. ولما احتجوا بأن الله صرح في القرآن نفسه أنه نفخ في فرج مريم من روحه، رد عليه القرآن بأن بيّن أن الشبهة التي وقعوا فيها راجعة إلى أنهم لم يفهموا أن النفخ الذي خلق به عيسى هو نفسه الذي خلق به آدم من قبل: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ".

6- بعد ذلك تنتقل السورة، متجاوزة النقاش حول طبيعة عيسى إلى دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الرجوع إلى دين إبراهيم وتكوين أمة واحدة قائمة على عبادة الله وحده وعدم الشرك به. وذلك هو دين إبراهيم : "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ". أما ادعاء اليهود بأن إبراهيم كان يهوديا وادعاء النصارى أنه كان نصرانيا فادعاء يكذبه التاريخ، ذلك أن إبراهيم عاش قبل نزول التوراة على موسى والإنجيل على موسى، وبالتالي فأولى الناس به هم الذين اتبعوه ومنهم النبي محمدا عليه السلام والمؤمنون برسالته... ثم تعرض السورة عليهم من جديد الدخول في الإسلام الذي يعترف بجميع الأنبياء والرسل: "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

7- بعد هذه الدعوة الصريحة التي تعترف بجميع الأنبياء والرسل تؤكد السورة أن مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ". والخطاب هنا استمرار لما سبق، أعني أنه موجه إلى اليهود. ثم تبيان السبب في إخراج اليهود من الإسلام بهذا المعنى فذكر بأنهم كفروا بمحمد حين جاءهم يدعوهم إلى الإسلام، بينما كانوا يؤمنون به قبل أن يأتيهم، بناء على ما جاءهم عنه من البينات في التوراة. لقد ظلموا بإنكارهم ليس فقط نبوة محمد بل أيضا بإخفائهم ما عندهم عنه في التوراة، ولذلك كان جزاؤهم جهنم، "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ". أما الذين لم يتوبوا وأمعنوا في غيرهم "وازدادوا كفرا" بمحاولاتهم زرع الفتنة بين صفوف المؤمنين في المدينة فـ"لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ.

ثم ترد السورة بعد ذلك على اعتزاز اليهود بكونهم أصحاب أموال قائلة: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ (لا التوبة ولا الجنة) حَتَّى تُنْفِقُوا (هنا في الدنيا) مِمَّا تُحِبُّونَ"[35]. وأنتم لا تفعلون ذلك. إنكم تحرمون أطعمة وتنسبون هذا التحريم للتوراة ثم تتخذون ذلك ذريعة لعدم التصدق بها، وهذا كذب، فالحقيقة أن "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ" وإذا أصروا على دعواهم هذه فـ "قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا" لـنَرَ هل حقا فيها تحريم ما تحرمون النفقة منه! لا. ليس الأمر كما تدعون، إذن قُلْ (يا محمد) صَدَقَ اللَّهُ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (مسلما) وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"

ومباشرة ترد عليهم في السياق نفسه على مؤاخذتهم النبي بترك قبلتهم والتوجه إلى مكة فتصحح ما عندهم في التوراة وتقول: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا [36] وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ96. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ

35- جميع المفسرين يذهبون إلى أن الخطاب في هذه الآية للمسلمين، وهذا يجعلها مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها، وقد اعتبرها ابن عاشور اعتراضية، والجملة الاعتراضية (أو المعترضة) لا تعني الخروج تماما عن السياق، فهي تكون بين متلازمين كالمبتدأ والخبر للتفصيل ومزيد بيان أو للاستثناء والاحتراس فهي الخ، ولا تكون جملة يتيمة منقطعة عما قبلها وما بعدها، وهذا النوع من الجمل اليتيمة لا تليق ببيان القرآن وبلاغته، ولا ينفع فيه القول بأن القرآن نزل منجما، لأن كونه نزل مفرقا لا ينزع المعقولية عن وحداته الخطابية (العبارات) ولا عن سياقاته. وبناء عليه نحن نرجح أن يكون الخطاب في هذه الآية موجها لليهود، وبذلك تكون علاقتها بما بعدها واضحة (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل)، أما علاقتها مع ما قبلها فواضح من قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ"، أي لن تقبل منهم التوبة يوم القيامة ولو قدموا من أجلها من الذهب قدر ما يملأ الأرض! إن التوبة وبالتالي الجنة ليست مرهونة بمقدار ما بإمكانهم أن ينفقوا بل تتوقف على أن ينفقوا الآن مما يحبون، قال القرطبي: "لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر"، وهذا في نظرنا أولى أن يقال لليهود.

36- نقرأ في التوراة التي بين أيدينا أن البيت الذي بناه إبراهيم عند مجيئه إلى فلسطين مهاجرا من "أور" (من أرض الكلدانيين) يقع في أرض الكنعانيين. فقد= ورد في التوراة : "6فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ

كَانَ آمِنًا". ثم تدعو الناس جميعا، بما فيهم اليهود والنصارى، إلى الحجُّ إلى هذا الْبَيْتِ وجعلت ذلك فرضا على كل مسلم "اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا". وإذا رفض اليهود أو غيرهم الحج إليه "فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ[97]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (بشريعة الله وحججه) وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ[98] (يشهد ويراقب ويحصي). قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ (بالرسول محمد)، تَبْغُونَهَا (سبيل الله) عِوَجًا (معوجة : تضلون الناس) وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ (على أن الذي تصدون الناس عنه هو الحق)، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[99].

8- بعد ذلك تنتقل السورة في الفقرة الثامنة إلى مخاطبة الذين أعلنوا إيمانهم بالرسول من سكان المدينة، والذين ما زالوا يحتفظون بعلاقة المودة مع اليهود، وهم المنافقون خاصة، فتنبههم إلى أنهم إذا استمعوا لحديث اليهود الذين يزرعون الفتنة بين الأوس والخزرج فإنهم سينقلبون بعد إيمانهم كافرين، يقاتل بعضهم بعضا كما كانوا قبل الإسلام، ثم تدعوهم الاعتصام بالله : "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ (عهد الله) جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً (تتقاتلون) فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ (بإسلامكم) فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ (كنتم حين أسلمتم في بيعة العقبة على وشك الإقتتال) فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ (كما حدث لليهود والنصارى بعد أنبيائهم) وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

9- وتواصل السورة نصحها لأهل يثرب فتذكرهم بأنهم كانوا[(37)] بعد بيعة العقبة وهجرة النبي عليه السلام "خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" وتعملون على نشر الإسلام، وتضيف السورة

آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ. 7وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. 8وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيل حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيلِ غَرْباً وَعَايَ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. 9ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ". (بيت إيل هي حاليا بيتين وتقع على بعد 18 كم شمال شرق القدس.

37- جل المفسرين يجعلون "المهاجرين" هم المقصودين، لأنهم هاجروا مع الرسول من مكة، وهذا فهم لا يزكيه السياق، فالكلام هنا مع الأوس والخزرج الذين بايعوا في العقبة ورجعوا إلى يثرب ينشرون الإسلام، والآية التالية تخاطب يهود المدينة، وإذن فالخطاب كله متجه لأهل المدينة تارة للأنصار وتارة لليهود.

استطراد : المحكم والمتشابه

1- الخطاب القرآني وبداية التأويل

المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، في القرآن، من أكثر الموضوعات التي كانت وما تزال مجالا للاختلاف بين علماء المسلمين: المفسرين منهم والأصوليين والفقهاء والمتكلمين والمؤلفين في علوم القرآن الخ. بل إن كثيرا من الفرق السياسية والدينية في الإسلام، إن لم يكن جميعها، تستند بصورة أو أخرى، إلى آيات من القرآن تعتبرها محكمة، في إضفاء المشروعية الدينية على آرائها وتحركاتها وثوراتها أو استكانتها، بينما يعتبرها غيرها من المتشابهات.

وحتى لا نلقي بالقارئ -منذ البداية- في خضم التعريفات التي كثيرا ما تكون متأثرة بالمواقف الدينية والسياسية لأصحابها، ننطلق من "الواقع" الذي تعود إليه ظاهرة نشوء المفاهيم التي نحن بصددها: واقع الدعوة المحمدية، أعني ظروفها الاجتماعية والثقافية والحضارية العامة. ويهمنا هنا أن نبرز من هذا "الواقع" الجانب الذي يخص مفهوم "المحكم والمتشابه"؛ وميدانه الكلام في العقيدة.

كان الخطاب القرآني موجها إلى العرب بلغتهم وحسب طرقهم في التعبير وفي إطار معهودهم الثقافي والحضاري العام. وقد جاءهم بعقيدة جديدة أساسها "التوحيد"، أي القول بإله واحد لا شريك له، في وقت كانوا يؤمنون فيه بآلهة متعددة يجسمونها في تماثيل من الحجر وغيره (الأصنام).

وهكذا فعندما كان القرآن يخاطب العرب متحدثا عن الله، عن ذاته وصفاته وأفعاله، فإنه كان يستعمل، ضرورة، ألفاظا وعبارات وأساليب في التعبير من المعهود اللغوي عند العرب، فكانت لا تثير في عقولهم أي إشكال. فعبارات مثل قوله تعالى: "الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" (طه 5)، وقوله: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (الرحمان 26-27)، وقوله: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" (القيامة 22-23)، وقوله: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل 93)، وقوله: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان 3) الخ، إن مثل هذه العبارات، أو الآيات، التي جاءت غير متعارضة مع أسلوب العرب في التجوز في الكلام (استعمال المجاز) لم تكن لتثير في أذهان خصوم الدعوة المحمدية، بله أتباعها، تلك الإشكالات الفكرية التي أثيرت فيما بعد حين أصبحت العقائد الدينية موضوع كلام وجدال منذ أواخر العصر الأموي، عندما صار المجتمع العربي

الإسلامي يتحول إلى مسرح لكثير من الملل والنحل. إن الاحتكاك بين العقائد الدينية والجدل بين أهلها هو الذي يفسح المجال لظهور مثل تلك الإشكالات من خلال اكتشاف التناقض أو الاختلاف بين ما تقرره هذه العقيدة أو تلك في سياق، وما تنفيه في سياق آخر؛ ومن هنا نشأة التأويل.

2- التأويل: ثلاث مرجعيات

وإذا نحن أردنا "التأريخ" لظهور مثل تلك الإشكالات في تاريخ الفكر الإسلامي منذ البداية فسيكون علينا أن نرجع إلى العصر النبوي نفسه. ذلك أن إشكالات من هذا النوع قد برزت في المدينة على عهد الرسول عليه السلام حين أخذ سكانها من اليهود يلمزون في القرآن ويطرحون على النبي والمسلمين أسئلة بقصد التشويش والإحراج والتحدي، موظفين في ذلك تراثهم العقدي التوراتي لإبراز ما يعتبرونه تناقضا أو غموضا، من ثم التشكيك في كون القرآن من عند الله. أما بعد العصر النبوي فقد بدأ التعامل "المعرفي"[38] مع القرآن ينحو نحو التفسير والتأويل[39]، وكان المستند الأساس في ذلك منذ أوائل العصر الأموي ثلاث مرجعيات: اللغة، الموروث الإسلامي (الحديث، أقوال الصحابة)، ثم "الموروث القديم"[40] وفي مقدمته ما اصطلح على تسميته بالإسرائيليات[41] بصفة خاصة. وواضح أن اختلاف هذه المرجعيات من حيث طبيعتها وآفاقها وتعدد منازعها سيكون له أثره الكبير في "فهم القرآن" من طرف علماء الإسلام، المفسرين وغيرهم. وفي الموضوع الذي يهمنا هنا، موضوع المحكم والمتشابه الذي يلقي بظلاله على المناقشات التي عرفها الفكر الإسلامي في موضوع العقيدة خاصة، كانت الآية التي يستمد منها الفرقاء مشروعية ما يقترحونه من آراء على صعيد

---

38 – نقصد بـ"التعامل المعرفي" الاتجاه نحو فهم القرآن وتأويل آياته وتوظيفها لأغراض مختلفة، كالوعظ والدروس العلمية في المساجد، وأيضا لأغراض سياسية ومذهبية.

39 – الفرق بين التفسير والتأويل : قال بعضهم "التفسير هو بينا وضع اللفظ حقيقة أو مجازا"، أما التأويل فهو بيان المعاني التي تستفاد من وضع اللفظ". وكثيرا ما ربطوا التفسير بالرواية والتأويل بالدراية". وبعبارة أخرى : التفسير هو بيان معنى اللفظ في اللغة مستقلا عن المتكلم، والتأويل هو الرجوع بع إلى مراد المتكلم.

40 – ما انتقل إلى الفكر العربي من الثقافات السابقة للإسلام.

41 – الإسرائيليات: مجموع التأويلات التي ترجع إلى الثقافة اليهودية التوراتية، وقد غزت التفسير والحديث في الإسلام منذ زمن الصحابة.

التأويل هي قوله تعالى بصدد القرآن مخاطبا رسوله الكريم: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ" (آل عمران 7).

والاختلاف يبدأ من فهم هذه الآية نفسها ويطال معناها العام كما يطال ألفاظها: المحكم، والمتشابه، أم الكتاب، التأويل، الراسخون في العلم؛ كما يطال الاختلاف أيضا : أيُّ الآيات هي محكمات؟ وأيها متشابهات؟ ومن هم "الراسخون في العلم"؟

ومما زاد المسألة تعقيدا، أن المتكلمين ورواة "أسباب النزول" والمفسرين، يتعاملون في الأعم الأغلب مع هذه الآية، كما ذكرناها، بدون ربطها لا بالسياق العام الذي تنتمي إليه ولا بموقعها من ترتيب النزول، ولا بغيرها من الآيات التي تحدثت عن "التشابه" مستعملة هذا اللفظ نفسه أو ما في معناه. والذين منهم قاموا بهذا النوع من الربط قالوا بآراء لا شيء يبررها إلا كونها مما يصح أن يفترض.

وأدهى من ذلك وأدعى إلى الالتباس أنهم، عندما يتحدثون عن المحكم والمتشابه من "الآيات"، يقصرون معنى الآية على المعنى الذي يفهم من قولنا "آية من القرآن". هذا في حين أن "الآية من القرآن" كما ترسم في المصحف قد تكون كلمة واحدة مثل "الرحمان" (وكذا بعض فواتح السور من الحروف المقطعة مثل يس، طه، الم، المص، طسم...)، وقد تكون كلمتين مثل "مدهامَّتان" (الرحمان 64)، كما قد تضم الآية الواحدة عددا من الجمل والعبارات لا تشكل جملة مفيدة بالمعنى النحوي! وبالعكس من ذلك هناك آيات طويلة (وأطولها آية الدين وتشتمل على 133 كلمة : البقرة 182) تتألف من جمل مفيدة عديدة.

وكما بينا في الاستطراد السابق الذي كان موضوعه مسألة "الناسخ والمنسوخ" فإننا لا نعثر في القرآن على استعمال لكلمة "آية" بمعنى "الجزء من نص القرآن"، حروفا وألفاظا، بل جميع العبارات القرآنية التي ورد فيها لفظ "آية" إنما تحيل إلى معنى "العلامة" والحجة والدليل بما في ذلك ما جرت به العادة، وما هو في حكم خرق العادة. إن التقيد بمدلول لفظ "آية"، بوصفه "العلامة" وما في معناها وحكمها، ضروري. ذلك أن التساهل في تحديد هذا المدلول قد سهل الانسياق إلى وآراء ومذاهب كان من الممكن تجنبها لو قيد التفكير في معنى "الآية" بمضامين محددة. من ذلك قول بعضهم: القرآن كله محكم لقوله تعالى

"كتاب أحكمت آياته" (هود 1)، وقول آخرين، بالعكس، القرآن كله متشابه لقوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ" (الزمر 13). هذا بينما ذهبت الأكثريةإلى القول بأن القرآن فيه محكم وفيه متشابه بناء على قوله تعالى: "مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ" (آل عمران 106).

3- آية المحكم والمتشابه: سياقها الذي تتحدد به.

وبغض النظر عما قلناه قبل من أن لفظ "الآية" لم يستعمل في القرآن قط بمعنى "قطعة منه"، فإن شيوع هذا الاصطلاح الذي لا نعلم متى بدأ وانتشر، يضطرنا إلى استعماله بدل البحث عن مصطلح آخر مثل الجملة أو العبارة أو المقطع الخ. وهكذا سنحتفظ بالعبارة المتعارفة فنقول "آية المحكم والمتشابه" وبالتحديد "الآيات" التي يتشكل منها السياق الذي يتحدد به وفيه معنى "المحكم والمتشابه" وهي قوله تعالى في مقدمة سورة آل عمران: "الم، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ" (آل عمران 1-7).

إن استحضار هذه الآيات السبع ضروري لأنها تشكل كلا واحدا يؤطر معنى أجزائه. ومثل هذا "الكل" هو ما نقصده هنا بالسياق، عندما يتعلق الأمر بآية من آيات القرآن. ونحن نحرص على هذا الأمر لأن عزل آية عن سياقها -عما قبلها وما بعدها- كثيرا ما يفتح الباب أمام تخمينات وتأويلات "حرة"، يبحث لها صاحبها عن سند لها في آيات أخرى أو في الحديث أو في أقوال "السلف" الخ، في حين أن الآية المعنية إنما يتحدد معناها، أوّلاً وقبل كل شيء، ضمن السياق الذي وردت فيه. والسياق في آيات المحكم والمتشابه التي ذكرنا، سياق واضح يؤكد جملة أمور:

1- أن الله واحد لا شريك له: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...".

2- أن ما جاء به القرآن هو الحق، وأنه جاء في ذلك مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل،

3- والحق الذي يعنيه القرآن في هذه الآيات هو: أن الله هو الذي يصور كل مولود "فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ".

4- القرآن فيه آيات محكمات وأخر متشابهات.

5- أما "الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ"،

6- "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا".

7- دعاء: "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا" الآية.

والسؤال الذي يتوقف عليه فهم هذه القضايا السبع هو التالي: ما الذي يربط بين هذه القضايا ويجعلها تدخل في سياق واحد؟

- علامات تؤطر السياق

هناك أربع عبارات/علامات دالة في هذا الصدد هي: 1) الله لا إله إلا هو، 2) التوراة والإنجيل، 3) يصوركم في الأرحام، 4) الذين في قلوبهم زيغ. وهذه العلامات تشير أولا إلى أن مجال الخطاب هنا هو العقيدة، وليس الشريعة، وأن هذا الخطاب هو خطاب جدل، يدخل فيما يسميه المتكلمون بـ: "الرد على المخالفين".

أما المخالفون فلم يذكروا بالتحديد، وإن كان ذكر "التوراة والإنجيل"، يمكن اعتباره علامة على أن "المخالفين" هم الذين يدينون بهما، ويعارضون عقيدة الإسلام، هدفهم زرع البلبلة والشك و"الزيغ" و"الفتنة" بين المسلمين. وللتأكد من ذلك لابد من الرجوع إلى الظروف التي نزلت فيها هذه الآيات، وهي ظروف معروفة لحسن الحظ، سجلها المؤرخون وكتاب السيرة الأوائل، وفي مقدمتهم ابن إسحق الذي روى ما يلي. (42)

42- ذكر الطبري روايات أخرى عن أسباب نزول تلك الآيات فقال: "وقال آخرون: أنزلت هذه الآية في أبي ياسر بن أخطب، وأخيه حيي بن أخطب، والنفر الذين ناظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قدر مدة أجله وأجل أمته، وأرادوا علم ذلك من قبل قوله: الـم، والمص، والمر، والر، فقال الله جل ثناؤه فيهم: 'فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ" يعني هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحق، "فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ" يعني معاني هذه الحروف المقطعة المحتملة التصريف في الوجوه المختلفة من التأويلات ابتغاء الفتنة. "وقال آخرون: بل عنى الله عزّ وجلّ بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بتأويل يتأوّله من بعض آي القرآن المحتملة التأويلات، وإن

4- وفد نصارى نجران يجادل الرسول : - المتشابه: والمحكم

روى ابن إسحق في السيرة أن وفدا من كبار نصارى نجران (باليمن) قدم إلى المدينة ليناقش مع النبي (ص) موقف الإسلام من طبيعة المسيح عليه السلام، وكانوا يقولون بألوهيته، ومعلوم أن القرآن قد أكد، منذ البداية، أن عيسى ابن مريم بشر وليس إلها ولا ابنا للإله. وتقول الرواية إنهم قد احتجوا لقولهم بألوهية المسيح بأنه : "لم يكن له أب يُعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من وُلْد آدم قبله. ويحتجون لقولهم: "إنه ثالثُ ثلاثة" باستعمال الله في القرآن والتوراة والإنجيل ضمير الجمع : فَعَلْنا، وأمرْنا، وخلقْنا، وقَضَيْنا، فقالوا: لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ، وقضيتُ، وأمرتُ، وخلقتُ، ولكنه هو، وعيسى، ومريم". وقد اعترض عليهم الرسول عليه السلام بأن عيسى بشر فكيف يكون ابنا للإله؟ فردوا بقولهم : فمن أبوه يا محمد"؟ وأضافوا: "ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته"؟. وتقول الرواية: فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله، صدر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية".

واضح مما ذكره ابن إسحق في الجملة الأخيرة أن سياق آيات "المحكم والمتشابه"، أكثر اتساعا من الآيات السبع الأولى التي ذكرنا من سورة آل عمران، فهو يشمل أزيد من ثمانين آية (123) يندرج معظمها في إطار الجدل مع أهل الكتاب عموما ومع النصارى خصوصا، وفيها رد القرآن على دعاوى وفد نصارى نجران ثم دعاهم في نهاية اللقاء إلى "المباهلة" [43].

كان الله قد أحكم بيان ذلك، إما في كتابه وإما على لسان رسوله". هذا وقد ربط كثير من المحدثين هذه الآية بأصل فرقة "الخوارج" "وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ" قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم؟ ثم يذكر الطبري ما أيد به هؤلاء رأيهم، ويتعلق الأمر بجملة أحاديث منسوبة للنبي تتنبأ بالخوارج وصفاتهم وتوصي بالحذر منهم. غير أن هذه الروايات تبدو أضعف كثيرا من رواية ابن إسحق المذكورة أعلاه. فسياق الآيات الثمانين الأولى من سورة آل عمران يشهد بذلك، أما الروايات الأخرى فواضح أنها تقع خارج السياق، وفيها "رائحة" الوضع.

43- والـمُباهلة: الـمُلاعَنَة. ويقال: باهَلْت فلاناً أي لاعنته، ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لَعْنَةُ الله على الظالم منا". أي يدعو كل من= الطرفين بالهلاك على نفسه إن كان من الكاذبين. وتقول الرواية إن أحد كبار الوفد كان يؤمن بأن محمدا رسول الله طبقا لما عندهم في الإنجيل، فحذر رفاقه من الحلف على الكذب،

وما يهما هنا هو أن هذه الآيات/السياق تشير بوضوح إلى أن الآيات المتشابهات هي كالتي احتج بها وفد نجران حين خاطب النبي: "ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته"، مشيرين بذلك إلى قوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا (إلى مريم) رُوحَنَا (44) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا" (مريم 17)، وقوله "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (التحريم 12)، وقوله: "وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة 253)[45]. فالتشابه هنا هو تصور النصارى أن كون عيسى ابن مريم هو نتيجة نفخ الله من روحه في رحم مريم يلزم عنه أن علاقته به هي من نوع العلاقة التي يكون بها الابن ابنا لأبيه، كما هو الحال لدى البشر. وهذا قياس باطل لأنه يقوم على المطابقة بين فعل الإله وفعل البشر، وهما ليسا من طبيعة واحدة (46). والقياس الصحيح يجب أن يكون بين متماثلين : بين عيسى وآدم، فهما متماثلان، من طبيعة واحدة. لقد نفخ الله في رحم مريم فتكوَّن عيسى كما نفخ في الطين فتكوَّن آدم. والنفخ هنا هو نفسه هناك، ومعناه : "الكلمة" التي تقتضي الإيجاد: هي "قوله كن". قال تعالى: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (آل عمران 59).

النفخ الإلهي الذي خلق منه آدم هو نفسه الذي خلق منه عيسى. وهكذا فقوله تعالى: "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" (آل عمران-12) يشرحه تعالى

فخافوا وطلبوا من الرسول أن يبعث معهم من يمثله وتراضوا على ما يشبه الجزية. انظر التفاصيل في"مدخل إلى القرآن". الطبعة المغربية. ص. 186. وأيضا: 377 . طبعة بيروت 208، أيضا 414. وقد نزلت آية الملاعنة في الزوج يتهم زوجته بالخيانة الزوجية ولا شهادة لديه تثبت ذلك أمام إنكار الزوجة. قال تعالى: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ (يقسم بالله أربع مرات) إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (النور 7/6)

44 – يميل أكثر المفسرين إلى القول إن المقصود بـ "الروح" في مثل هذه العبارة هو جبريل.

45– وقوله عليه السلام في رسالته إلى كبير أساقفة الروم على عهد هرقل: " فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمة ألقاها إلى مريم الزكية".

46 – ورد لفظ التشابه في آيات عديدة، ولكنه لا يعني المطابقة بأية حال. فقوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ" (الزمر 23)، أي فيه آيات وقصص و.. و.. مشابهة، ولكنها ليست مكرورة ولا متطابقة، وكلك قوله: "وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (الأنعام 99).

في سورة أخرى نزلت قبل سورة آل عمران، حيث نقرأ: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (ص71- 72). وهكذا فالجواب عن السؤال الذي طرحه وفد نجران على النبي عليه السلام بقولهم "فمن أبوه يا محمد"؟ قد جاء على الصيغة التالية: كما أن الله خلق آدم من دون أب، وهذا ما يؤمن به النصارى واليهود، خلق عيسى كذلك من دون آب. وكما أن "الخلق من دون أب" لم يجعل من أدم ابنا لله، فكذلك الشأن في عيسى. وأما كيفية الخلق فيشرحها تعالى لمريم عندما أتاها جبريل يبشرها بأنها ستلد ولدا فـــ: "قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قَالَ كَذَلِكِ (= نعم سيكون لك ولد من دون أن يمسك بشر). اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ. إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (آل عمران 47).

وقد تكرر هذا بصيغ متنوعة في سورة مكية ومدنية، قال تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقرة 117)، وقال: " أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس81- 82)، وأيضا : "هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (غافر 68).

من هنا يتضح معنى "الآيات المحكمات" : إنها الفعل الإلهي الذي يدل على وجود الله، وعلى وحدته وقدرته الخ، والذي يتمثل في خلق السماوات والأرض، وخلق آدم من طين، وخلق الملائكة من نور، وخلق عيسى في رحم مريم. ولذلك كان الاعتقاد بأن عيسى ابن الله وأن أمه ذات طبيعة إلهية أو تشارك الله في الألوهية هو غلو في الدين وابتعاد عن الحق. ذلك قوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ. انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا" (النساء 171).

الآيات المحكمات هي العلامات والدلائل والظواهر الكونية التي تدل على أن الله إله واحد، فهن "أم الكتاب" [47]، بمعنى الأصل الذي يجب أن ترد إليه الفروع والحواشي، مثلها مثل "أم القرى" (مكة) التي تحج إليها القبائل العربية لممارسة الدين (الحج وشعائره). أما المتشابهات فهي العلامات التي أراد الله بها

47 – وردت عبارة "أم الكتاب" في آيات أخرى، وهي تحتمل في جميعها هذا المعنى : معنى الأصل والمرجع. وقد حملها بعض المفسرين على أنها "اللوح المحفوظ".

إثبات فعل خارق للعادة لأنبيائه ورسله ليكون لهم عند أقوامهم كعلامات على صدق نبوتهم مثل كون عيسى ولد من دون أب وكونه يصنع مِنَ الطِينِ مثال الطير فينفخ فِيهِ "فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ" الخ[48].

من هنا ندرك أن مفهوم "المتشابه" في القرآن ليس معناه اللفظ أو الألفاظ الملتبسة الغامضة، فالقرآن نزل "بلسان عربي مبين"، فلا يجوز القول إن ألفاظه أو عباراته يكتنفها الغموض، ولو كان الأمر كذلك لاعترضت عليه قريش. ولم يسجل لنا التاريخ في هذا الشأن سوى حالتين اعترضت فيهما قريش على النبي لأنهما من المتشابه بالمعنى الذي شرحناه. الحالة الأولى تتعلق بقوله تعالى : "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" : على جهنم تسعة عشر من الحراس (المدثر 30) والثانية تخص "شجرة الزقوم" التي ذكر القرآن أنها شجرة في جهنم [49].

---

48 – ذكر المفسرون أقوالا عدة في معنى المحكمات والمتشابهات، وهي أقوال لا علاقة لها بالسياق ولا مرجع لها إلا غلبة الأفق الفقهي على فهمهم لآي الذكر الحكيم. من ذلك قول= بعضهم: المحكمات من آي القرآن: المعمول بهنّ، وهن الناسخات، أو المثبتات الأحكام؛ والمتشابهات: المتروك العمل بهن، المنسوخات. وقد فصل بعضهم فقال: المحكمات: ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يؤمن به، ويعمل به. والمتشابهات : منسوخه، ومقدّمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به، ولا يعمل به. وقال آخرون: المحكمات من آي الكتاب: ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد؛ والمتشابه منها: ما احتمل من التأويل أوجها. بينما ذهب آخرون إلى القول : معنى المحكم: ما أحكم الله فيه من آي القرآن وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته. والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفــاظ به من قصصهم عند التكرير في السور: فقصة باتفاق الألفــاظ واختلاف المعاني، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني. وقال آخرون: بل المحكم من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره؛ والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحد (تفسير الطبري).

49 – بخصوص الآية الأولى تهكم خصوم الدعوة المحمدية من عدد 19 لكونه قليلا في نظرهم حتى قال بعضهم "أنا أكفيكم منهم كذا، فاكفوني الباقين"، أما "شجرة الزقوم" فقد= اعترضوا عليها قائلين: كيف ينمو الشجر في جهنم وهي نار، والنار تأكل الشجر؟ وقد أورد المفسرون أقوالا كثيرة في الموضوعين وهي في نظرنا مجرد تخمينات، لأنها لا تجد ما يشرحها أو يسندها من القرآن. ونحن نري أن ما ورد في القرآن من أوصاف ونعوت للجنة والنار هي من قبيل ضرب المثل، فما وصف به نعيم الجنة هو من أجل الترغيب وما ورد بخصوص عذاب جهنم هو للترهيب والتخويف، ومثل أوصاف الجنة والنار ما ورد في

وقد رد القرآن عليهم في الأولى بأن تحديد عدد حراس جهنم في تسعة عشر هو من قبيل ضرب المثل، لا غير. والقصد منه إرباك الذين كفروا وإيقاعهم في الفتنة، مما يقوي يقين أهل الكتاب –الذين يؤمنون باليوم الآخر– ويزيد وفي إيمان المؤمنين وفي حيرة الكافرين. ذلك قوله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ" (المدثر31). وإذن فالأمر لا يتعلق بحقائق دنيوية، حتى يعترض عليها، بل يتعلق بحقائق أخروية لا تخضع لمنطق البشر (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)، وهي عندما تذكر في القرآن فليس من أجل أن يفهمها الناس بالصيغة التي تذكر بها والتي يعبر عنها بما يشبهها في الحياة الدنيا، بل إن المقصود من ذكرها تذكير البشر بأن بعد هذه الحياة حساب وثواب أو عقاب : "وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ"، والهدف أن يؤمنوا ويعملوا الصالحات ويستقيموا فلا يظلموا.

ومثل العدد "تسعة عشر" في ذلك مثل "شجرة الزقوم" فالمقصود من ذكر هذه الشجرة، في السياق الذي ذكرت فيه، ليس من أجل أن يتخذ الله منها آية لإظهار قدرته وبديع صنعه، كما في آيات عديدة من القرآن مثل قوله تعالى : "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية 17-20) وقوله: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى" (طه 53-54)، بل إنما ذكرها (شجرة الزقزم) من أجل تخويف الذين كفروا وإيقاعهم في الفتنة. ولكي يزيدهم حيرة وفتنة أخذ يصف هذه الشجرة بما يجعلها أكثر تخويفا وأشد إرباك. قال تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا

القصص القرآني وفي غيره من الماورائيات، سواء تحدثت عن "التاريخ المقدس" تاريخ الأنبياء والرسل أو عن "التاريخ/المصير" الذي "يؤرخ" ليوم الدين : "وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ" (الانشقاق 19). انظر أيضا "المدخل إلى القرآن": طبعة المغرب ص 273، طبعة بيروت ص. 296، وأيضا خاتمة الكتاب: القصص القرآني بيان وبرهان.

(ثمرها) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (يخالطها الماء الحار)، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ، إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ" (الصافات 63-70).

بعد هذين المثالين اللذان استطردنا فيهما لبيان معنى المتشابه في القرآن، نعود فنقول ليس "المتشابه" في اصطلاح القرآن هو اللفظ الملتبس الغامض المعنى بل هو ظاهرة منسوبة إلى الطبيعية أو إلى الجنة والنار أو إلى تاريخ الأنبياء والرسل، ليست من جملة معهود العرب، تشبه شيئا أو أشياء من معهودهم، ولكن لا يربطها بها إلا الاشتراك في الاسم (نفخ، تسعة عشر، شجرة...)، والقصد من الإشراك في التسمية هو إما الترغيب أو الترهيب أو الإقناع أو الإفحام الخ. إن المتشابه مثله مثل قصص الأنبياء والرسول، هي لضرب المثل، هي للذكري، والهدف منها تنبيه الغافلين: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" (الذاريات 55).

5- في معنى التأويل

كان ذلك هو معنى "المحكم والمتشابه" كما يمكن استخلاصه، باعتماد السياق وسبب النزول، من الآية التي هي المرجع في هذا الموضوع. فلننظر الآن إلى مسألة "التأويل" كما تتحدد في القسم الثاني من نفس الآية. أقصد قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" (آل عمران 7).

لنقل أولا كلمة عن الفرق بين التفسير والتأويل : في معاجم اللغة أن "التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل"، أما "التأويل فهو "ردّ أحد المحتملين إلـــى ما يطابق الظاهر". ولا يكاد المرء يلمس فرقا واضحا بينهما: فالمشكل هو الملتبس الذي فيه خلط، فهو يحتمل أكثر من معنى، وكشف المراد منه أو رد أحد معانيه المحتملة إلى ما يطابق الظاهر، شيء واحد.

هذا في معاجم اللغة أما في الاصطلاح فأوضح تمييز بين التفسير والتأويل هو ذلك الذي يجعل مجال التفسير هو الشريعة وبالتخصيص الفقه، ومجال التأويل هو العقيدة وبالتحديد علم الكلام. غير أن وضوح هذا التمييز لا يلغي الاختلاف بين الممارسين لكل من التأويل والتفسير، الاختلاف الراجع ليس فقط إلى اختلاف القدرة على الإمساك بالمعنى سواء على مستوى التفسير أو مستوى التأويل، بل أيضا إلى الانتماء إلى هذا المذهب الفقهي أو ذاك وهذه الفرقة الكلامية أو تلك، ومدى التعصب لها.

يحاول صاحب كتاب كشف الظنون [50] أن يتجنب الآراء التي يبدو فيها التعصب واضحا والاكتفاء بتلك التي تلتزم قدرا معينا من الموضوعية والحياد. وهكذا نقرأ عنده البيانات التالية: "علم التفسير" هو "علم باحث عن معنى نظم القرآن، بحسب الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية. ومبادئه: العلوم العربية وأصول (علم) الكلام وأصول الفقه، والجدل... وغير ذلك من العلوم الجمة. وفائدته: حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية، على وجه الصحة". هذه التحديدات (علم باحث، الاعتماد على قواعد اللغة والعلوم كالفقه والكلام والجدل) مكنته من وصف "التفسير" بكونه علما، ولكن بالمعنى البياني للكلمة (أي من العلوم المعتمدة لدى أهل السنة والمعتزلة). أما التأويل فنقرأ عنه (في نفس المصدر): إن "أصله من الأول، وهو الرجوع. فكأن المؤوِّل: صرَف الآيةَ إلى ما تحتمله من المعاني. وقيل: من الإيالة، وهي: السياسة. فكأنه ساس الكلام، ووضع المعنى موضعه. ثم ينقل رأيا للراغب الأصفهاني في الفرق بين التفسير والتأويل يقول فيه: "التفسير أعم من التأويل؛ وأكثر استعماله في الألفاظ، ومفرداتها؛ وأكثر استعمال التأويل في المعاني، والجمل؛ وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية. ثم يضيف: وقال أبو طالب التغلبي: التفسير بيان وضع اللفظ، إما: حقيقة أو مجازا؛ والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. واضح من أننا هنا إزاء تمييز محتشم بين "علم الظاهر" ويعطيه التفسير، و"علم الباطن" وأداته التأويل[51]. وصاحبنا يتجنب الخوض بتفصيل في هذا التصنيف ليختم بإبراز الموقف السني، واختياره. قال: "وقال قوم – منهم: البغوي، والكواشي: هو (التأويل): صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها، تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط"".

مجموع ما ذكرناه مفيد لتأطير ما نحن بصدده، أقصد قوله تعالى: "وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" الآية، ولكنه لا يكفي في معرفة قصد الشارع من التأويل هنا. وللاقتراب منه لا بد من اعتماد مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا"، لا بد من التماس معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما من القرآن نفسه. والواقع أننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا سنجده يستعمل اللفظين في معنى مختلف.

50- حاجي خليفة: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون.

51 – للحصول على تفاصيل أوفى حول التفسير والتأويل انظر كتابنا بنية العقل العربي: قسم البيان الفصل الأول والثاني وقسم العرفان الفصل الأول والثاني كذلك.

- فقوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" (الفرقان 33)، معناه حسب ما يعطيه السياق : أن قريشا شككت في كون القرآن من عند الله بأن قالت: لماذا لم ينزل على محمد جملة واحدة، كمثل التوراة التي نزلت على موسى دفعة واحدة. لقد أرادوا إحراجه بضرب المثل بموسى. فجاء الرد عليهم موجَّها إلى الرسول عليه السلام، وقد أخبرنا القرآن قبل هذه الآية بأنه كان قد اشتكى إلى الله من انصراف قومه عن القرآن وهجرهم إياه: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا"، أقول جاء الرد ليؤكد للرسول (ص) بأن تنزيل القرآن منجما مفرقا أمر مقصود: "لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وأيضا لتقرأه على الناس شيئا فشيئا مرتلا فيكون له تأثير أكبر ("وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ" (الإسراء 106). والمعنى: فإذا كانوا قد أرادوا إحراجك بأن ضربوا لك المثل بموسى، فقد جئناك بالبيان الحق والتفسير الأحسن للغرض الذي قصدناه من تنزيل القرآن مفرقا... وهكذا: فالتفسير هنا ليس مجرد بيان معنى كلمة أو رفع الغطاء عن اللفظ المشكل، بل هو أكثر من ذلك: إنه الكشف عن "معنى نظم القرآن"، المعنى الذي يعطيه السياق ويشهد له القرآن في مكان آخر.

- وأما قوله تعالى : "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (الإسراء 35)، فواضح أن "التأويل هنا هو بيان المآل. والمعنى أن إتمام الكيل وتوخي العدل في الميزان أفضل للمشتري من الغدر والغش، وأحسن مآلا ومصيرا للبائع (في الدنيا والآخرة).

ويتضح هذا المعنى في الآيات التالية من خلال السياق بصورة لا تترك مجالا لفهم آخر. يقول تعالى : في سورة الأعراف: "وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؛ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (الأعراف 52-53)، إن السياق يفرض أن يكون معنى قوله "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ" هو : هل ينتظرون ما يؤول إليه أمرهم حين البعث.

6- التأويل ... والذين في قلوبهم زيغ ...

والواقع أن جميع الآيات التي ورد فيها لفظ "التأويل" تحتمل أن يحمل فيها هذا اللفظ على معنى: المآل والمصير. فقوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ (قريش

تقول محمد افترى القرآن علي الله) قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ! كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" (يونس38- 39). فقوله "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ولما يأتيهم تأويله"، لا يحتمل معنى آخر غير ما يلي: كذبوا بالقرآن وهو ما يزال ينزل منجما ولم يكتمل بعد، كما كذبوا بما فيه من الوعد والوعيد، والقيامة لم تقم بعد حتى يتحققوا من ذلك. وكذلك الشأن في قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (النساء 59). فالرجوع بالخلاف والتنازع إلى ما في القرآن والسنة وطلب رأي المختصين منكم فيما اختلفتم فيه، هو خير، هو أحسن مآلا وأفضل مصيرا. أما ما ورد في القرآن عن "تفسير الأحلام" بلفظ "التأويل" كقوله تعالى: "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ" (يوسف 6)، فواضح أن المقصود من تأويل الأحلام هو الكشف عن خبايا المستقبل، أي عما تحمله رموز الحلم والرؤيا من إشارات إلى ما سيحدث، إلى ما سيؤول إليه الأمر.

واضح أن الأخذ بهذا المعنى للفظ "التأويل" في القرآن يرفع اللبس الذي يخيم على العقل إزاء الآيات التي تتحدث عن مسائل تقع خارج عالم العقل والمعقول مثل مضامين الآيات التي تتحدث عن وقت قيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، مما يؤول أمره إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، هذا الإيمان الذي يؤول أمره هو الآخر إلى مقاصد وحجج ذكرها القرآن في آيات أخرى. ويدخل في هذا العالم الغيبي معاني "الحروف المقطعة" التي في أوائل بعض سور القرآن من نحو الم، والمص، والمر، والر...، كما يدخل فيه معنى كون عيسى كلمة الله "أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ"، إذ بما هو "كلمة" فهو فعل. وفعل الله يؤول إلى قوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس 82).

بعد هذا الإيضاح لمعنى التأويل في القرآن نأتي الآن إلى قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ". إذا نحن استحضرنا مناسبة نزول هذه الآيات، أعني النقاش مع وفد نصارى نجران حول طبيعة المسيح، فإننا سندرك بسهولة أن المقصود بقوله تعالى "الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ" هم هذا الوفد بالذات، الذين زاغوا (انحرفوا عن

وقد حصل هذا عندما اتخذ المعتزلة من قوله تعالى "ليس كمثله شيء" آية محكمة، يجب أن تحكم تصورنا للذات الإلهية، فقالوا بنفي الصفات عن الله بدعوى أن القول بالصفات زائدة عن الذات الإلهية يستلزم أن تكون قديمة قدم الذات، وهذا يؤدي إلى القول بتعدد القدماء! ولذلك قالوا "هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة"، أو أنه: "عالم بعلمه وعلمه ذاته، قادر بقدرة وقدرته ذاته، حي بحياة وحياته ذاته".

أما خصومهم من أهل السنة فيثبتون له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة، ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقا واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل: اليدين والوجه، ولا يؤولون ذلك، إلا أنهم يقولون: "هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها: صفات خبرية". من أجل هذا سمي هؤلاء بـ"الصفاتية" لإثباتهم الصفات لله زائدة عن الذات، بينما سمى المعتزلة أنفسهم بـ"أهل التوحيد" أي يتصورون الله على أنه "واحد" غير متعدد بأي وجه من الوجوه. أما خصومهم أهل السنة فيطلقون عليهم اسم ـ "المعطلة" لنفيهم الصفات.

9- الرجوع إلى السياق وأسباب النزول

ومع أن المرء يستطيع أن يربط هذا الاختلاف في تصور الذات الإلهية بآراء ونظريات في الموروث الثقافي الذي انتقل إلى الحضارة العربية[53]، فإن التقيد بـ"أسباب النزول" في هذه القضية يقتضي منا الرجوع بها إلى التوظيف السياسي الذي مارسه الأمويون ثم العباسيون لمسألة الجبر والاختيار والذات والصفات[54]. إن السبيل إلى التخلص من مثل هذه التأويلات "الزائغة" التي ما زال كثير منها يحكم الفكر الديني عندنا[55] يكمن، في نظرنا، في الرجوع بكل آية

53 - الفلسفة الدينية الهرمسية والتصوف الغنوصي والأفلاطونية المحدثة، وهي مذاهب قالت كلها بفكرة الإله المتعالي الذي لا يمكن تحديده ولا وصفه، في مقابل مذاهب أخرى أضفت على الذات الإلهية أوصافا حتى قال بعضهم إنه جسم (المجسمة، المشبهة) ... انظر كتابنا "تكوين العقل العربي" الفصلان العاشر والحادي عشر.

54–انظر كذلك كتابنا "العقل السياسي العربي" : الفصلان السابع والتاسع.

55– لقد بقيت المعتزلة إلى اليوم، في كثير من المعاهد والتيارات الدينية لا تذكر إلا مع عبارات سب وشتم مثل "قالت المعتزلة قبحها الله"...

يلتبس معناها على العقل إلى سياقها ومناسبة نزولها والتماس المعنى الصحيح فيها من القرآن نفسه، وفق مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا". وذلك في نظرنا هو معنى "التأويل" الذي لا يعلمه إلا الله بعلمه الذي والذي يلتمسه الراسخون في العلم، من خلال استقراء القرآن واعتبار السياقات والرجوع إلى مناسبات النزول.

95- سورة الأحزاب

تقديم

نزلت في السنة الرابعة للهجرة وهي سنة "غزوة الأحزاب" التي تسمى أيضا "غزوة الخندق". وسميت بهذا الاسم لأن المسلمين حفروا خندقا حول المدينة حين أحاط بها جيش "الأحزاب" المكون من عدة أطراف. ذلك أن الرسول عليه السلام قام ، بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحُد بتنظيم عدة حملات على الأعراب خارج المدينة دفعا لطمعهم في النيل من المسلمين بعد هزيمتهم تلك؛ ولم يحصل اصطدام، ولكن حصل المسلمون على غنائم فضلا عن الفوائد المعنوية. ثم حدثت حادثة إجلاء يهود بني النضير من مساكنهم بجوار المدينة، وذلك عندما ذهب إليهم الرسول يطلب منهم، طبقا للصحيفة/المعاهدة، المساهمة في دفع دية رجلين كان قد أعطاهما الأمان وقتلهما أحد المسلمين دون أن يعرف بذلك، فاظهر اليهود الموافقة ثم تآمروا على اغتياله فعلم الرسول بذلك وعاد إلى المدينة وقرر الاستعداد لحربهم والسير إليهم فحاصرهم في حصونهم إلى أن قرروا الاستسلام على أن يكف عن دمائهم مقابل جلائهم وأخذ ما حملت إبلهم من أموالهم إلا الحلقة (= السلاح) ففعل، فخرجوا إلى مدينة خيبر شمال المدينة -ومنهم من سار إلى الشام- تاركين ممتلكاتهم وما تبقى من أموالهم.

ثم إن كبراء بني النضير أرادوا الانتقام واسترجاع مساكنهم فذهبت جماعة منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش، وحرّضوهم على حرب الرسول على أن يقوموا هم بتجنيد القبائل من مختلف الجهات لإنشاء تحالف كبير لمحاربة المسلمين فوافق كبراء قريش. ومباشرة أخذ وفد بني النضير يطوف في القبائل فنجح في إقناع قبائل غطفان، وبنو مرّة، وبنو أشجع، وبنو سليم، وبنو أسد، فبلغت جموع هذا التحالف (الذي سمي بـ "الأحزاب) عشرة آلاف مقاتل، تولى القيادة العامة فيه أبو أبي سفيان زعيم قريش. ولما علم الرسول عليه السلام بخبر هذه التجهيزات، استشار أصحابه، فاقترح سلمان الفارسي حفر خندق حول المدينة فوافق الرسول وأصحابه على الفكرة وشرعوا في الحفر شمال المدينة. ولما وصل جيش الأحزاب ووجدوا الخندق وقفوا عنده وأخذوا يتراشقون بالنبال مع المسلمين. وكما هو شأن المنافقون دائما فقد انسحبوا من صفوف المؤمنين،

قائلين "إن بيوتنا عورة نخاف أن يُغير عليها العدو"، مما تسبب في توتر صفوف المسلمين. وقد زاد وضعَ المسلمين حرجا ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين كانوا يسكنون المدينة قد استجابوا لتحريض رجال من بني النضير فقرروا اغتنام الفرصة ونقض الميثاق الذي بينهم وبين الرسول والانضمام إلى صفوف "الأحزاب". لكن المسلمين صمدوا. وتجند بعضهم لإشعال الفتنة في صفوف الأحزاب فتمكن من زرع الشك بين أطرافها، وبكيفية خاصة بين رجال القبائل العربية وبين اليهود. ولما جن الليل هبت ريح قوية باردة، فخافت جموع الأحزاب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في تلك الليلة الباردة المظلمة، وقرروا الرحيل قبل الصباح، كل إلى مكان سكناه. وكان أبو سفيان أول من بادر إلى الدعوة إلى الرجوع فلما عابوا عليه ذلك تراجع وأخذ يشرف على عملية عودة الأحزاب إلى أماكنهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يقف فيها أو سفيان في "منتصف الطريق" في الاصطدام مع المسلمين: فقد رأيناه يعارض أبا جهل في قراره الذهاب لحرب المسلمين في بدر لأن القافلة التي كان يستهدفها النبي قد تمكنت من الوصول سالمة على مكة. وهكذا فضل أبو سفيان عدم المشاركة في الحملة على المسلمين فنجا من مصير محتمل جدا: الموت في بدر. ثم رأينا أبا سفيان، زعيم "قريش الأوحد" -بعد مقتل غريمه أبو جهل في غزوة بدر- يكف عن ملاحقة المسلمين عند ما انهزامهم أمامه في غزو أحد مفضلا العودة، مكتفيا بالصياح "الحرب سجال"... مع أنه كان من المحتمل نظريا ان يصفي جيش المسلمين بما في ذالك النبي وكبار الصحابة. وها نحن نراه في غزوة الأحزاب يرجع بجيش الأحزاب الذي كان تحت قيادته، لمجرد أن عاصفة من الريح باردة قد هبت على المنطقة التي كان معسكرا فيه ، فاسحا المجال للمسلمين للخروج من الضيق الشديد الذي كانوا عليه ومن غير المستبعد أن يكون عالما بذلك!

عندما عاد الرسول إلى المدينة أمر أصحابه بالتوجه إلى أحياء يهود بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع الرسول وقرروا الانضمام إلى الأحزاب كما قلنا. حاصر النبي بني قريظة هؤلاء في حصونهم خمسا وعشرين ليلة، وعندما أنهكهم الحصار طلبوا من الرسول أن يفعل فيهم ما فعل في بني النضير (أي الجلاء) فرفض وأبى إلا محاكمتهم، واستشار الأوس الذين طالبوا بـ"التحكيم" فيهم. فطلب منهم الرسول أن يعينوا حكما من بينهم، فاختاروا رئيسهم الذي كان جريحاً من السهم الذي أُصيب به في الخندق، فأصدر حكمه قائلا: "إني أحكم أن تقتلوا الرجال، وتسبوا النساء والذرية". فقال له الرسول: "لقد حكمت فيهم بحكم الله يا

سعد"، فقد خانوا وغدروا؛ ثم تم تنفيذ الحكم فيهم وجمعت غنائمهم وكانت كثيرة. ذالك هو مجمل وقائع هذه الغزوة، ولابد من استحضارها لتتبع ما نزل في شأنها.

لم يكن موضوع "غزوة الأحزاب" هو الوحيد الذي تعرضت له هذه السورة، بل هناك موضوع آخر، يتعلق بزوجات النبي (ص) وما يرتبط به، شغل فيها حجما أكبر من الذي شغلته هذه الغزوة (غزو الأحزاب 9 آيات من 73 آية خصصت كلها تقريبا لموضوع زوجات النبي). وبما أننا سنعقد استطرادا لهذا الموضوع، في آخر تناولنا لهذه السورة، فسنقتصر هنا على الإشارة إلى "أصل الموضوع" الذي انطلقت منه السورة، ذاكرين في الهوامش ما هو ضروري لفهم الآيات. فقد روي من أكثر من جهة أن زوجات النبي عليه السلام، وكن يومئذ تسعا، قد طالبناه بالزيادة في النفقة، فغضب وقرر اعتزالهن شهرا. ولا يستبعد أن تكون الغزوات التي تلاحقت في السنتين الثانية والثالثة قد جعلت الرسول في ضائقة مالية، أضف إلى ذلك أنه قد تزوج نساء قُتل أزواجهن خلال تلك الغزوات، وكان منهم من كانت لها أولاد، ومنهن من عَرضن أنفسهن عليه أو عُرضن عليه ... وعلى كل فقد تدخل كل من أبي بكر وعمر لحل المشكل، وكان لكل منهما بنت من ضمن زوجات الرسول. وعندما انقضى الشهر خيَّر الرسول زوجاته بين أن يطلقهن أو يمكثن عنده، وقد اخترن المكوث، وكان ذلك على أسس جديدة كما سنرى في السورة. وفي الاستطراد تفاصيل أوفى.

هذا ومما يذكره المفسرون بخصوص هذه السورة ما روي من أن حجمها (73 آية) كان يعدل حجم سورة البقرة (286 آية) زمن النبي (ص) وقبل جمع القرآن على عهد عثمان. وقد ناقشنا تفاصيل هذه المسألة في "المدخل إلى القرآن". الفصل التاسع بعنوان: "جمع القرآن ومسألة الزيادة فيه و النقصان"، فليرجع إليه.

نص السورة

1- مقدمة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (اجعله، وما ينزل عليك من الوحي، وقاية لك فلا تخف ولا ترغب في مرضاة أحد سواه) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[1]. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[2]. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[3].

2- مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ... تحريم التبني ...

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (يحب بواحد شيئا وبآخر شيئا آخر)(1). **وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ** (الذي يقول لزوجته "أنت علي كظهر أمي"، يريد أنها حرام عليه، مخطئ فهي لا تصير ظهر أمه بمجرد هذا التصريح) (2)، **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ** (3)، (وكذلك الشأن في الأشخاص الذين تتبنونهم وتنسبونهم إليكم، فهذا لا يجعل منهم أبناء لكم) –**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ** (وهو أنّ غير الابن لا يكون ابناً) **وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**[4].- **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ** (أعدل) **عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** (إن كانوا من ملتكم) **وَمَوَالِيكُمْ** (إن كانوا ممن أعتقتم من الرق)، **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ** (في الكلام كأن تدعو شخصا : يا ابني مثلا، وأنتم لا تقصدون البنوة الفعلية)، **وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** (هو الذي فيه جناح عليكم). **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**[5]. **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** (إذا

---

1 - أورد المفسرون عدة روايات تربط مناسبة نزول هذه الآية بأشخاص يذكرون أسماءهم وأشهرهم شخص كان يدعي أن له قلبان الخ. ونحن نرى أن المعنى واضح من السياق تبينه الآية التالية، فالذي يقول لزوجته "أنت علي كظهر أمي"، أي يحرمها على نفسه كما تحرم عليه أمه، يجمع بين كراهية الزوجة ومحبة الأم في قلبه أي بين مختلفين متناقضين في قلب واحد. والمقصود النهي عن استعمال العبارة المذكورة. وينطبق هذا أيضا على تبني النبي لزيد بن حارثة فالرجل لا يمكن أن يتعامل بقلبين أحدهما لأبنائه والآخر لمن تبناهم.

2- سيرد الكلام في هذا الموضوع لاحقا في سورة "المجادلة".

3- يجمع المفسرون على أن المعني هنا ينصرف إلى قضية زيد بن حارثة. فقد روي أنه كان مسبيا من الشام، فابتاعه ابن أخ خديجة زوج النبي فوهبه لها، ثم وهبته هي للنبيَ (قبل النبوة)، فأقام عنده مدة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما عليه السلام: "خيّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء". فاختار الرق مع النبي على حريته وقومه؛ فنادى النبي عند ذلك: "يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه"، وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك، فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا. وقد روي عن ابن عمر أنه قال عنه: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، وهذا دليل على أن التبنّي كان معمولاً به في الجاهلية واستمر الحال كذلك في الإسلام إلى أن نزلت هذه الآية فحرمته.

دعاهم إلى شيءٍ فأولى أن يطيعوه، من أن يطيعوا ما تدعوهم إليه أنفسهم)، **وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** (حرام عليهم الزواج بهن كما تحرم عليهم أمهاتهم)، **وَأُولُو الْأَرْحَامِ** (الأقارب) **بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** (في الميراث)، **فِي كِتَابِ اللَّهِ** (في حكمه)، **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ** (وكان الرسول قد ربط بعضهم بعض بنظام المؤاخاة فيتوارثون الخ: وهذه الآية إسقاط لهذا النظام) **إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا** (أن تخصوهم بمقدار في إطار الوصية)، **كَانَ ذَلِكَ** (حكم الله) **فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**[6]. و (اذكر يا محمد) **إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**[7] (على أن يوفوا ويبلغوا ما يوحى إليهم ويصدقوا بعضهم بعضا) : **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**[8].

3- غزوة الأحزاب: هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ (الأحزاب: قريش وغطفان وقريظة والنضير، حاصروا المسلمين أيام غزوة الخندق : راجع التقديم) **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا** (قلعت مخيمهم) **وَجُنُودًا** (من الملائكة) **لَمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ** (كانوا يحفرون الخندق) **بَصِيرًا**[9]. **إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ** (من قبل المشرق، يعني: قريظة والنضير) **وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** (قريش من ناحية مكة)، **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ** (فيكم : مالت وشخصت) **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** (من شدة الخوف)، **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**[10] (ظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون)! **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ** (اختبر) **الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**[11]. **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** (ضعيف إيمانهم) **مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**[12]! **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ** (أي المنافقون) **يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ** (لا فائدة لكم هنا في ساحة الحرب) **فَارْجِعُوا** (إلى منازلكم)، **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** (غير محصنة نخاف أن يقتحمها العدو)، **وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**[13]. **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ** (المدينة) **مِنْ أَقْطَارِهَا** (من جوانبها) **ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ** (طلب العدو منهم الردة) **لَآتَوْهَا، وَمَا تَلَبَّثُوا** (ترددوا) **بِهَا إِلَّا يَسِيرًا**[14]. **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ** (غزوة الأحزاب) **لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ** (لا يهربون) **وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا**[15]. **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ، وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا**[16] (لأن الموت سيأتي في أجله)! **قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي**

يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[17]. قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ (الذين يثبطون الناس عن نصرة محمد) وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا (اتركوا محمدا وتعالوا إلينا) وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ (ولا يحضرون الحرب) إِلَّا قَلِيلًا[18] (يكثرون من الأعذار): أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ (بخلاء بأنفسهم وأموالهم)! فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ (آذوكم بالكلام)، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ (وجادلوكم في الغنيمة). أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[19]. يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا (لم ينصرفوا بعد هزيمتهم)، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ (يرجع الأحزاب كرة ثانية) يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ (غائبون في البادية) فِي الْأَعْرَابِ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا[20] (فقط من أجل الرياء وليس عن اقتناع). لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي (ثبات وصمود) رَسُولِ اللَّهِ (يوم أحد) أُسْوَةٌ (قدوة) حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا[21]. وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ (الانتصار)، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا[22]. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ (مات في وقعة أحد)، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا[23]؛ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[24]. وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ (في غزوة الأحزاب)، لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، (لم يظفروا بالمسلمين) وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ (بما أرسل عليهم من ريح الخ)، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا[25]. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (ساعدوهم) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (يهود قريظة) مِنْ صَيَاصِيهِمْ (من حصونهم وكان النبي قد حاصرهم حتى استسلموا) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ: فَرِيقًا تَقْتُلُونَ (الرجال) وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا[26] (الذراري)، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا (خيبر)، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا[27].

4- نساء النبي ... وقضية زواجه عليه السلام من زوجة مولاه زيد.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[28] (نزلت حين طلبت نساؤه الزيادة في النفقة)، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا

عَظِيمًا[29]. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (بمعصية ظاهرة) يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[30]. وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ (تخلص الطاعة) لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا[31]. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (لا تقلن قولاً يجد منافقٌ به سبيلاً إلى أن يطمع في موافقتكنّ له)، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا[32] (بما يوجبه الدين). وَقَرْنَ (اجلسن بوقار) فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (لا تظهرن الزينة من أجل لفت نظر الرجال)، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (كل عمل مستنكر) أَهْلَ الْبَيْتِ (نساء النبي) وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا[33]. وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا[34]. إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا[35]. وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ (الاختيار) مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا[36] [(4)]. وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (زيد، اشتراه النبي فأعتقه): أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (لا تطلقها) وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ (أنت يا محمد) مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ (مظهره، أي رغبتك في التزوج منها)، وَتَخْشَى النَّاسَ (مقالة الناس)، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ! فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا (حاجته) زَوَّجْنَاكَهَا، لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي (التزوج بـــ) أَزْوَاجِ (زوجات) أَدْعِيَائِهِمْ (أبنائهم بالتبني) إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا (لم يعد لهم فيهن رغبة وطلقوهن)، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا[37]. مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ (أحل له من النساء)،

4- قيل: نزلت في زينب أخت عبد الله بن جحش خطبها منه الرسول لمولاه زيد بن حارثة، وظنّت أنّه خطبها لنفسه، فلمّا علمت أنّه يريدها لزيدٍ صدمت، ثم امتثلت فتزوجت زيدا ومكثت عنده حينا. ثمّ إن الرسول عليه السلام أتى منزل زيد ذات يومٍ لحاجة، فأبصرها قائمةً في درعٍ وخمارٍ، فأعجبته وكأنّها وقعت في نفسه، وقال: "سبحان الله مُقلِّب القلوب". فسمعته. فلمّا جاء زيدٌ أخبرته بذلك، وأُلقي في نفس زيد كراهتها، فأراد فراقها، فأتى الرسول فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي؛ فإنّها تؤذيني بلسانها".

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ (من الأنبياء مثل داوود وسليمان اللذين أكثرا من الزوجات)، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا[38]، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا[39]. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (فتقولوا تزوج امرأة ابنه)، وَلَكِنْ (هو) رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[40]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا[41]، وَسَبِّحُوهُ (صلوا) بُكْرَةً وَأَصِيلًا[42]. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ (يغفر لكم ويرحمكم) وَمَلَائِكَتُهُ (يستغفرون لكم)، لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا[43]. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا[44]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا (على قومك بإبلاغ الرسالة) وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[45]، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا[46]. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا[47]. وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ (لا تعاقبهم عليه حتى تؤمر على ذلك)، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[48].

5- الزوجات: ما أحل للنبي منهن وفيهن

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (أن تجامعوهن) فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ (أعطوهن ما يستمتعن به علاوة على ما فرض لهن كحق وهو نصف الصداق) وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[49] (أي بالمعروف وبالتي هي أحسن). يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (من الإماء) مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ (من مسبيات مع الغنائم في الحرب)، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ (دون اللاتي لم تهاجرن)، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ (من غير ولي، ولا مهر، ولا شاهد) [5] إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا (يتزوجها على هذه الصفة)، خَالِصَةً لَكَ (وهذا جائز لك دون

---

5 – المعنى: لا يحلّ لك من النساء إلا ابنة عمّ أو ابنة عمة، أو ابنة خال أو ابنة خالة، أو امرأة وهبت نفسها لك، من كان منهنّ هاجر معه عليه السلام. واختلفوا في المرأة المقصودة هنا، بعضهم قال: هي ميمونة بنت الحارث. وقال آخرون : هي أمّ شريك. وقال بعضهم: زينب بنت خزيمة"، وقيل: خولة بنت حكيم بن الأوقص. وذُكر أن الرسول كان قبل نزول هذه الآية يتزوج في أيّ النساء شاء، لم يحرّم ذلك عليه، فكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا فلما أنزل الله: إني قد حرّمت عليك من الناس سوى ما قصصت عليك، أعجب ذلك نساءه" (الطبري).

غيرك) مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ (وهو أن لا نكاح إلاّ بوليٍّ وشاهدين) وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ [6]، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[50]. تُرْجِي (نوبة) مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ (تقدم نوبة) مَنْ تَشَاءُ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ (طلبت منهن) مِمَّنْ عَزَلْتَ (هجرت منهن) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ. ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ، وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا[51] [7]. لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ (بعد هؤلاء التسع المذكورة أعلاه الآية: 50)، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا[52] [8].

6- تنظيم تعامل أصحابه مع بيته، وفرض الحجاب على زوجاته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ، غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (لا تسبقوه إلى بيته وتنتظروه)، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا (ماكثين في بيته) مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ [9]. وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ (زوجات النبي) مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ. وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا[53] [10]. إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[54]. لَا

6- المعنى: "لا يحلّ لغير النبيّ إلاّ أربع زوجات يتزوجهن بوليٍّ وشاهدين، يضاف إليهن ملك اليمين، وهذا الذي ذكر في هذه الآية يبين أنه ليس عليك "حرج" (إثم وضيق) في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف التي أبحت لك نكاحهنّ من المسميّات في هذه الآية"

7- قالوا: "لما أشفقن أن يطلقهنّ، قلن: يا نبيّ الله، اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت فكان ممن أرجأ منهنّ سودة بنت زمعة، وجُوَيرية، وصفية، وأمّ حبيبة، وميمونة وكان ممن آوى إليه: عائشة، وأمّ سلمة، وحفصة، وزينب. (الطبري)

8- "ولمّا خيّر النبيّ صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه ورضين به، قصره الله سبحانه عليهنّ، وحرّم عليه طلاقهنّ والتزوّج بسواهنّ، وجعلهنّ أمّهات المؤمنين". وفرض عليه من بعد هؤلاء التسع أن لا يطلّق واحدة منهن ولا يتزوّج بدلها أخرى أعجبته بجمالها إلاّ ما ملكت يمينه من الإماء فإنهنّ حلالٌ له". تسوية لنزاع بينه وبينهن بالنصفة.

9- قيل: " نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحيّنون طعام النبي (ص)، فيدخلون عليه قبل الطّعام إلى أن يدرك، ثمّ يأكلون ولا يخرجون".

10- قيل: "إنّ رجلاً من أصحابه عليه السلام قال: "لئن قبض رسول الله لأنكحنّ عائشة".

جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ (ليس عليهن أن يلبسن الحجاب) فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ (نساء المؤمنين الحرائر) وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ؛ وَاتَّقِينَ (فعل أمر) اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا[55]. إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[56]. إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا[57]. وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا[58]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (يرخين أرديتهنّ وملاحفهنّ)، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (فلا يتعرض لهنّ)، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[59]. لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (من ألحاق الأذى بك بالتكلم في الأعراض)، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (نسلطنك) ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا[60] (إلا أياما ثم يرحلون)، مَلْعُونِينَ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا (وجدوا) أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا[61]. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[62]. يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا[63]. إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا[64]، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[65]، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا[66]؛ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا[67]، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا[68].

7- خاتمة: لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى (فرموه بالبرص) فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا[69]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[70] (طيبا) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا[71]. إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ (الحرية المسؤولية) عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا[72] (11)، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[73].

---

11 – "عن ابن عباس، قوله: إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ: الطاعة عرضها عليها قبل أن يعرضها على آدم، فلم تطقها، فقال لآدم: يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السموات

تعليق

تشتمل السورة على سبع فقرات تتناول كما قلنا في التقديم موضوعين رئيسيين: غزوة أحد من جهة، وتوتر العلاقة بين النبي وزوجاته وإعادة تنظيمها، وبيان الكيفية التي يجب أن يكون عليها سلوك المؤمنات عموما. وكما جرت العادة تبدأ السورة بمقدمة وتنتهي بخاتمة.

1- لقد جاءت المقدمة وجيزة ومركزة كما هو الشأن في الغالب وتطرح بكيفية من الكيفيات موضوع السورة. وهكذا تبدأ هنا بتوجيه أمر عام إلى النبي عليه السلام : تدعوه إلى التقوى وعدم طاعة المنافقين والكفار الخ، وكما سيلاحظ القارئ فإن هذا الأمر العام "يغطي" القضايا التي ستطرح بعده: مسألة التبني، مسألة الظهار، العلاقة بين الأزواج والزوجات وفي مقدمتها علاقة النبي مع زوجاته.

2- تخصص السورة الفقرة الثانية لتأكيد حقيقة نفسية اجتماعية وهي : "مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ". فالذين يحرمون على أنفسهم زوجاتهم بقول الواحد منهم لزوجته "أنت علي كظهر أمي"، كما جرت عادة العرب قبل الإسلام، يقولون ما لا يعقل: فزوجته لا تصير أمه بمجرد هذا التصريح، وهو لا يمكنه أن يجمع بين أمه وزوجته في قلبه: هو يريد أن يعبر عن كراهيته لزوجته بالقول إنها حرام عليه كما تحرم عليه أمه، فأمه تحرم عليه من ناحية النسب وليس من الناحية العاطفية. ومقصود الآية من هذا كله أن تبين أن العلاقة الزوجية علاقة مبنية على الحب (الذي يربط الذكر بالأنثى) وعلى التعاقد. أما على علاقة الابن مع أمه فهي مبنية على نوع آخر من الحب هو عبارة عن ارتباط عضوي، رحمي ولا علاقة له بالتعاقد. هذه العلاقة العضوية الحميمية هي نفسها التي تربط الآباء بالأبناء، وهي تختلف عن علاقة التبني. لذلك لا يجوز الخلط بين هذه وتلك. فالتبني نوع من علاقة التعاقد، وهي علاقة تبقى لكل واحد شخصيته على الرغم من أن أصلها هو الرق. والله لم يخلق نوعا من الناس ليكونوا عبيدا لنوع آخر منهم، بل خلقهم "سواسية كأسنان المشط": "وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ (أعدل) عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا

والأرض والجبال، فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ فقال: يا رب: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوما جَهُولاً" (الطبري).

آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ". وكذلك الشأن في الميراث، فهو وإن كان النبي عليه السلام قد جعله عند مقدمه مهاجرا إلى المدينة، منضويا تحت علاقة "المؤاخاة" فإن ذلك كان لضرورة تنظيم العيش في المدينة بما يضمن للمهاجرين= لقمة العيش إلى أن يدبوا أمرهم في المجتمع الجديد. أمَا اتخاذ هذه "المؤاخاة" - التي عمل بها النبي للضرورة- مبدأ للتعاقد بين الناس كما صار كثير من الأعراب وغيرهم يفعلون، يتعاقدون على أن يرث الواحد منهم الآخر، "أرثني وأرثك"، فهذا لا يجوز. فمن يمنع الواحد منهم من تدبير اغتيال أو تسميم أو قتل صاحبه ليرثه! هنا ينقلب الغرض من المؤاخاة إلى عكسه تماما. وبما أن الوضع قد استقر بالمهاجرين في المدينة وأخذوا يكسبون رزقهم بأنفسهم، فإنه لابد من الرجوع للوضع الطبيعي وهو أن التوارث هو بين ذوي الأرحام فقط. إن علاقة الرحم هي علاقة غريزية فطرية للتناصر والتعاون والتراحم والتكافل ومن هنا كان "أُولُو الْأَرْحَامِ، بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ، فِي كِتَابِ اللَّهِ".

3- بعد هذا تنتقل السورة في الفقرة الثالثة إلى الكلام عن "غزوة الأحزاب" لتركز على شجب مواقف المنافقين وفضحها. وفضح موقف يهود بني قريظة وما يجب فيهم من القصاص. كما تذكر بموقف المنافقين المتخاذل في غزوة أحُد، وفي المقابل تنوه بموقف الصابرين من المجاهدين وتؤكد الوعد لهم بالجنة. بعد ذلك تعرض بشيء من التفصيل لوقائع غزو "الأحزاب" وكيف أن قلق المسلمين من تحالف الأطراف التي تحزبت ضد المسلمين قد انقلب إلى نصر حينما هبت عاصفة باردة أثناء الليل ألقت الرعب في ذلك التحالف فتسابقوا لمغادرة المكان والرجوع على مسكنهم و"كفى الله فيه المؤمنين القتال" (انظر التفاصيل في التقديم).

4- بعد ذلك تنتقل السورة في الفقرة الرابعة إلى مسألة تبني الرسول عليه السلام لمولاه زيد بن حارثة، وطلاق هذا لزوجته زينب، وزواج النبي بها (وقد شرحنا ملابسات ذالك في الهوامش). وقد طرحت السورة بصراحة تامة ما كان قد حدث من توتر بين النبي وزوجاته مما أدى إلى تخييرهن بين أن يطلقهن، وبين أن يبقين معه على أساس أن يهدأن ولا يتنافسن أو يغار بعضهن من بعض الخ. وقد اشتمل التخيير على إنصاف الطرفين:

فمن جهة فرض على زوجات النبي، نظرا لخصوصية وضعهن، سلوكا معينا يذهب عنهن الشبهات : "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (لا تقلن قولاً يجد منافقٌ به سبيلاً إلى

أن يطمع في موافقتكنَ له)، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا[32] (بما يوجبه الدين). وَقَرْنَ (اجلسن بوقار) فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى. وأيضا: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (يرخين أرديتهن وملاحفهن)، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ. وفي هذا الإطار تندد السورة بالمنافقين وإيذائهم لأعراض النبي المؤمنين. وتتوعدهم.

من جهة أخرى حددت السورة عدد زوجات النبي في تسع، وهن اللائي كن في عنقه وقت التخيير، ومنعته من الزيادة عليهن بقوله تعالى: "لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ (بعد هؤلاء التسع)، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ". وفي المقابل أباحت له الاختيار، بالإبقاء على من يرغب فيهن وعمل النوبة لهن، وعزل أو إرجاء من لم تعد له فيهن رغبة (وكان من بينهن مسنات. ذلك هو قوله تعالى: "تُرْجِي (نوبة) مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ (تقدم نوبة) مَنْ تَشَاءُ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ (طلبت) مِمَّنْ عَزَلْتَ (هجرت منهن) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ" (انظر التفاصيل الاستطراد).

6- وفي الفقرة السادسة تطرح الكيفية التي يجب أن تبنى على أساسها تنظيم علاقة أصحابه مع بيته وزوجاته: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ، غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (لا تسبقوه إلى بيته وتنتظروه)، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا (ماكثين في بيته) مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ الخ،. هذا مع وضع الضوابط التالية: تحريم الزواج بزوجات النبي في حالة طلاقهن أو وفاته. فرض الحجاب عليهن إلا على آبائهن الخ، ثم فرضه على نساء المؤمنين الخ، ذلك هو قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (يرخين أرديتهن وملاحفهن)، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ. وتندد السورة بالمنافقين وتشجب إيذاءهم لأعراض النبي وأعراض المؤمنين، وتوعدهم وتهددهم : "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (من إذايتك والتكلم في الأعراض)، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (نسلطنك) ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا[60] (إلا أياما ثم يرحلون)، مَلْعُونِينَ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا (وجدوا) أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا[61].

7- وتأتي خاتمة السورة لتستعيد أولا نفس الخطاب الذي وجهته إلى النبي في مقدمتها، فتوجهه إلى أصحابه المؤمنين على ضوء ما تم تقريره في الفقرات السابقة: تذكرهم بالسلوك المؤذي الذي كان يتعرض له موسى من أناس من قومه حين رموه بالبرص وتوصيهم بتجنب الكلمة المؤذية وتحضهم على

الطيب من الكلام، وتنبههم إلى أنهم مسؤولين يتحملون مسؤولية أقوالهم وأفعالهم، وأن هذا هو ما يميزهم على غيرهم المخلوقات. إنها الأمانة التي عرضها الله عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"[72]: الأمانة التي يترتب عنها الثواب والعقاب: "لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"[73].

- استطراد: نساء النبي

سنخصص هذا الاستطراد لما روي في موضوع نساء النبي عليه السلام، مما سيلقي أضواء إضافية على ما قلناه في شرح الفقرة الخاصة بهذا الموضوع في السورة التي نحن ضيوف عليها. وسنعتمد أساسا على ما رواه ابن إسحاق مع إضافات أوردها صاحب "السيرة الحلبية" نقلا من مراجع أخرى. سنبدأ بذكر زوجات النبي أولا، ثم نعرض لموضوع "توتر العلاقات" بينهن وبينه، وهو الموضوع الذي أشارت إليه السورة.

1- عدد زوجاته ...

قال ابن إسحاق : كان جميع من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ عشْرةَ :

1-خديجة بنت خُويلد، وهي أول من تزوج، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بَكْرة (الناقة الفتية البَكْرة "التي لم يَضْرِبْها الفحل قطُّ") ، فولدت له أولادَه كلّهم إلا إبراهيم، (وكان زوجها الثالث إذ كانت قبله عند اثنين آخرين)

2-عائشة : وتزوج عائشةَ بنت أبي بكر الصديق بمكة، وهي بنتُ سبع سنين، وبنى بها بالمدينة، وهي بنت تسع سنين أو عشر، ولم يتزوج بكراً غيرها، وأصدقها أربعمائة درهم. "وَعَائِشَةُ مِمَّنْ وُلِدَ فِي الإِسْلاَمِ، وَهِيَ أَصْغَرُ مِنْ فَاطِمَةَ بِثَمَانِي سِنِينَ، وَكَانَتْ تَقُولُ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ. وَكَانَتِ امْرَأَةً بَيْضَاءَ جَمِيلَةً. وَمِنْ ثَمَّ يُقَالُ لَهَا: الْحُمَيْرَاءُ. وَلَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِكْرًا غَيْرَهَا، وَلا أَحَبَّ امْرَأَةً حُبَّهَا، وَلا أَعْلَمُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بَلْ وَلا فِي النِّسَاءِ مُطْلَقًا، امْرَأَةً أَعْلَمَ مِنْهَا. مُسْنَدُ" عَائِشَةَ يَبْلُغُ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَعَشَرَةَ أَحَادِيثَ. اتَّفَقَ لَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ حَدِيثًا، وَانْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ، وَانْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ.(الذهبي: سير أعلام النبلاء)

3- سَوْدة : بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، مات عنها زوجها بمكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة، فخلف عليها (ص).

4- زينب بنت جحش : ابن رئاب الأسدية، وقد وأصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند مولاه زَيْد بن حارثة، وفيها نزل قوله تعالى :"فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا" (الأحزاب: 37). انظر هامش رقم 4 السورة أعلاه.

5- أم سلَمة : بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند. وكانت قبله عند أبي سَلِمَة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، وكانت من الذين هاجروا إلى الحبشة. فلما مات أبو سلمة قال لها رسول الله: سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيراً، فقالت: ومن يكن خيراً من أبي سلمة؟ وكان خطبها أبو بكر فأبت، وخطبها عمر فأبت. فلما جاءها من يخطبها للرسول قالت معتذرة: إني امرأة مسنة، وإني أم أيتام (كان معها أربع بنات)، وإني شديدة الغيرة، ثم ليس لي ههنا أحد من أوليائي فيزوجني. فأتاها النبي وتكفل بما ذكرت، ثم خاطبت ابنها : زَوِّجْ رسول الله ، فزوجها على متاع منه رحي وجفنة وفراش حشوه ليف، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم، وقيل أربعون درهماً. قالت: فتزوجني رسول الله، وأدخلني بيت زينب أم المساكين بعد أن ماتت، فإذا جرة فيها شيء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب: أي ظرف الأدم، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت الكعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم".

6- حفصة: بنتَ عمر بن الخطاب أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند خنَيْس بن حُذافة السَّهْمي. وقد حدثت لها مع النبي عليه السلام مشكلة، قيل إنه كان قد طلقها بسببها، وظروف هذه المشكلة كما يلي: قيل استأذنت النبي عليه السلام في زيارة أبيها -وقيل في زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين- فأذن لها. وحينها أرسل إلى مارية القبطية التي كان المقوقس قد أهداها إليه، وأدخلها بيت حفصة وواقعها، فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبي (ص) في بيتها، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، وقالت له: يا رسول الله لقد جئت إليّ بشيء، ما جئت به إلى أحد من نسائك، في يومي وفي بيتي وعلى فراشي، فلما رأى الرسول في وجهها الغيرة، قال لها: «أما ترضين أن أحرمها على نفسي ولا أقربها أبداً؟ قالت: بلى، وحلف أن لا يقربها». (وستنزل آية في الموضوع في سورة التحريم لاحقا)، وأوصاها «لا تخبري بما أسررت إليك». لكنها سارعت فأخبرت بذلك عائشة، فقالت لها: قد أراحنا الله من مارية، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمها على نفسه وقصت عليها القصة. ولما أفشت حفصة عنها سره طلقها ثم راجعها رحمة لعمر، وقيل همّ بتطليقها ولم يفعل" (السيرة الحلبية).

7- أم حبيبة : واسمها رَملة بنت أبي سفيان بن حرب، وهي ربيبة كانت في حجر عثمان. وزوجُها عبيد الله بن جحش الأسدي وكانا قد هاجرا إلى الحبشة، وهناك تنصر زوجها وثبتت هي على الإسلام، ومن ثم زوَّجها للرسول خالد بن سعيد بن العاص، وأصدقها النجاشيُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار. ولما علم أبو سفيان بزواج النبي بابنته حبيبة علق قائلا: "ذلك الفحل لا يقدع أنفه" فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة"[12] للإسلام.

8- جويرية : بنت الحارث بن أبي ضرار الخُزاعية، كانت في سبايا غزوة بني المصطلِق من خزُاعة، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشمَّاس الأنصاري، فكاتبها على نفسها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها. فقال لها: هل لك في خير من ذلك؟ قالت : وما هو؟ قال : أقض عنك كتابتك وأتزوجك ؟ فقالت : نعم، فتزوجها. وروي أن عائشة قالت عنها: كانت جويرية عليها ملاحة وحلاوة، لا يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه. وكانت بنت عشرين سنة.

9- صفية : بنت حيُيَ بنت حُيى بن أخطب، سباها من خيبر، فاصطفاها لنفسه، ، وكانت قبله عند كِنانة ابن الربيع بن أبي الحُقَيْق.

10- ميمونة : بنت الحارث ابن حَزْن بن بَجير بن هُزَم، زوجه إياها عمه العباس بن عبد المطلب، وهو الذي أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند أبي رُهم بن عبد العُزَّى بن أبي ويقال إنها كانت على بعير عندما علمت أن الرسول خطبها، فقالت : "البعير وما عليه لله ولرسوله". فأنزل الله تبارك "وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ " "الأحزاب: 50" ويقال : إن التي وهبت نفسها للنبي غير هذه...

11- زينب : بنت خُزيمة ابن الحارث بن عبد الله، وكانت تُسمى أم المساكين؟ لرحمتها إياهم، ورقتها عليهم وقد أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل عُبيدة عند جَهْم بن عمرو بن الحارث، وهو ابن عمها.

"فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة، فمات قبله منهن ثنتان : خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزَيمة . وتوفى هو عن التسع الباقيات. وقد تزوج غير ما ذكر اثنتين لم يدخل بهما: 1) أسماء بنت

12- الزمخشري، الكشاف. ج4، ص 91.

النعمان الكندية، تزوجها فوجد بها بياضا فمتّعها (أعطاها ما تنتفع به) وردها إلى أهلها، 2) وعَمْرة بنت يزيد الكِلابية وكانت حديثة عهد بكفر؟ فلما قدمت عليه استعاذت بالله فقال الرسول: "منيعٌ عائذ اللّه"، فردها إلى أهلها. ويقال : إن بعض أزواج النبي هن اللاتي أوصينها بالتعوذ أمامه بدعوى أنه يجب ذلك". وقيل إن التي استعاذت من رسول الله (ص) كِندية بنت عم لأسماء بنت النعمان، دعاها، فقالت : إنا قوم نُؤتَى ولا نَأتِي؟ فردها إلى أهلها. وذكر أن ريحانة بنت يزيد، يهودية من بني النضير وقيل من بني قريظة، وكانت جميلة وسيمة، وقعت في سبي بني قريظة، فكانت صفيَّ رسول الله، فخيرها بين الإسلام ودينها، فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوّجها. وقيل كانت موطوءة له بملك اليمين.

وأما سراريه فأربع: مارية القبطية أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش، وأخرى اسمها زليخة القرظية.

"والحاصل أن جملة من خطبه من النساء ثلاثون امرأة منهن من لم يعقد عليها ومنهن من عقد عليها، وهذا القسم أيضاً منه من دخل بها ومنه من لم يدخل به. وفيرواية أخرى: جملة من عقد عليه ثلاث وعشرون امرأة، واللاتي دخل عليها منهن اثنتا عشرة وغير المدخول بها غزية، وهي أم شريك العامرية، وهذه قبل دخوله بها، طلقها ولم يراجعها. وهناك أم شريك أخرى، وهي خولة أو خويلة ولم يدخل بها. وهناك أم شريك ثالثة وهي الغفارية. وأم شريك رابعة وهي الأنصارية. ومن جملة اللاتي لم يدخل بها النبي (ص) المرأة التي ماتت من الفرح، لما علمت أنه تزوج بها وهي عز أخت دحية الكلبي، ومن جملتهن سودة القرشية التي خطبها فاعتذرت ببنيها، وكانوا خمسة، وقيل ستة، فقال لها خيراً.

2- توتر علاقته مع زوجاته:

في السيرة الحلبية وغيرها : عن عائشة أنها قالت: «أرسل أزواج النبي (ص) بنته فاطمة إليه فجاءته واستأذنت و هو معي، فأذن لها فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة" (تعني عائشة)، أي يطلبن أن تعدل بينهنّ وبينها «فقال النبي (ص): أي بنية ألست تحبين ما أحب؟ فقالت بلى، قال فأحبي هذه يعنيني (عائشة). فقامت فاطمة فخرجت فجاءت أزواج النبي (ص) فحدثتهنّ بما قالت وبما قال لها فقلن لها: ما أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى النبي، فقالت: والله لا أكلمه فيها أبداً. فأرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش فاستأذنت عليه وهو

في بيت عائشة فأذن لها، فدخلت فقالت: يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ثم وقعت (أخذت) تسمعني ما أكره، فطفقت أنظر إلى النبي (ص) حتى يأذن لي فيها، فلم أزل حتى عرفت أن النبي (ص) لا يكره أن أنتصر، فوقعت بها أسمعها ما تكره، فتبسم النبي (ص) وقال لها: إنها ابنة أبي بكر». يقال: إن طلبهنّ أن يعدل بينهن وبين عائشة أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة".

اختلف المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" (سورة الأحزاب أعلاه 28). قيل نزلت لما طلبن منه زيادة في النفقة، فاعتزلهن شهراً، ثم أمر بتخييرهن بين البقاء معهن أو مفارقته. روي أن أبا بكر جاء النبي فوجد الناس جلوساً ببابه ليأذن لهم، فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجدا النبي (ص) جالساً، حوله نساؤه قد سألنه النفقة وهو حاجم ساكت لا يتكلم، فقال عمر: لأقولن شيئاً أضحك به النبي (ص). فقال: يا رسول الله لو رأيت فلانة يعني زوجته سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي (ص) وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها، وكل يقول: تسألن رسول الله (ص) ما ليس عنده، ثم أقسم رسول الله أن لا يجتمع بهن شهراً. وفي رواية أخرى أن عمر سأله: "أطلقت يا رسول الله نساءك"؟ قال عمر: "فرفع رأسه إليّ وقال لا، فقلت: الله أكبر، ثم قلت: كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن، فكلمت فلانة يعني زوجته فراجعتني (ردت عليه بما يخالف قوله) فأنكرت عليها، فقالت تنكر عليّ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي (ص) لتراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك وخسر، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها بغضب زوجها، فتبسم رسول الله، فذهبت إلى حفصة فقلت: أتراجعن رسول الله ؟ فقالت: نعم، وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها بغضب رسول الله ؟ لا تراجعي رسول الله (ص) ولا تسألينه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله (ص) منك؟ يعني عائشة، فتبسم أخرى، فقلت، استأنس يا رسول الله قال نعم، فجلست وقلت: يا رسول الله قد أثر في جنبك زمل هذا الحصير (كان متكئا عليه) وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً

وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيبـاتهم فـي الحيـاة الدنيا، فقلت: أستغفر الله يا رسول الله. فلما مضى تسع وعشرون يوماً أنـزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه في قوله تعالى: "يا أيها النبي قل لأزواجك" الآية، فنزل ودخل على عائشة، فقالت له: يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وقـد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوماً، أعددهن! قال: إن الشهر تسع وعـشرون، وفي رواية: يكون هكذا وهكذا وهكذا... ثم قال: يا عائشة إني ذاكر لك أمراً فـلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك. فقالت: وما هو يا رسول الله، فقرأ: "يا أيها النبي قل لأزواجك" الآية. قلت، أفي هذا أستأمر أبوي، فـإني أريـد الله، ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم قلت له: لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلـت. فقال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني متعنتاً ولكـن بعثنـي معلماً بشيراً. ثم فعل أزواجه مثل ما فعلت عائشة".

96- سورة الممتحنة

- تقديم

هذه السورة مدنية باتفاق وسميت بـ "الممتحنة" (بالفتح وهو المشهور)، قيل سميت بهذا الاسم لورد الأمر فيها بامتحان النساء اللاتي يأتين الرسول من مكة ويصرحن بإسلامه، وقيل: المقصود المرأة التي خضعت لامتحان عقب إلقاء القبض عليها وهي تحمل رسالة تجسس على النبي من رجل مؤمن في المدينة إلى مشركي مكة يخبرهم فيها عن اعتزامه عليه السلام الذهاب إلى مكة. ولما علم الرسول بذلك بعث جماعة من الصحابة لتعقبها وإعادتها إلى المدينة. وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: "بعثني رسول الله (ص) -ونفر من المهاجرين- فقال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (بين مكة والمدينة)، فإن بها ظعينة (مركب امرأة) معها كتاب، فخذوه منها. فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فوجدنا امرأة، فقلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ليس معي كتاب، قلنا: لتخرجنّ الكتاب، أو لنلقينّ الثياب، فأخرجته من عِقَاصها (ج. عقيصة، ضفرة شعر المرأة في رأسها)، وأخذنا الكتاب فانطلقنا به إلى رسول الله (ص) فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ص)، فقال رسول الله (ص): «يا حاطِبُ ما هَذَا؟» قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم يكن لي فيهم قرابة، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات، يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ فيها يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله (ص): "قَدْ صَدَقَكُمْ". فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ". قيل وفيه نزلت الآية الأولى من هذه السورة "يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ" الخ.

ويفهم من الرواية أن الرسالة كانت تتعلق بتجهيز الرسول عليه وسلّم للحديبية. قيل: "لما أراد النبي (ص) أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد

خيبر وأسرّ إلى ناس من أصحابه منهم حاطب بن أبي بلتعة المذكور وهو من أصحاب بدر، أنه يريد مكة. بمعنى أنه يريد عمرة الحديبية (أو صلح الحديبية وليس عمرة القضاء وفتح مكة)، لأن خيبر فتحت قبل فتح مكة. وبالنظر إلى أن عمرة الحديبية هذه كانت سنة ست فإن هذه السورة تكون قد نزلت قبلها في نفس السنة.

نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ (قريشا) أَوْلِيَاءَ (أصدقاء) تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ (تمدونهم بأخبار النبي وأسراره) وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ (من الدين: القرآن)، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ (من دياركم بمكة) أَنْ تُؤْمِنُوا (لأنكم آمنتم) بِاللَّهِ رَبِّكُم، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي (جواب الشرط مقدم على الشرط: لا تتخذوهم أولياء إن كنتم تبتغون مرضاتي) (1) : تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ. وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[1]. إِنْ يَثْقَفُوكُمْ (إن يظفروا بكم) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ[2]. لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ (مع قريش الذين تتخذونهم أولياء)، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ (الله) بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[3].

2- دعوة المسلمين إلى الاقتداء بموقف إبراهيم من قومه.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ (قدوة) حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ. (اقتدوا بإبراهيم) إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ (قتدوا به إلا في استغفاره لأبيه فذلك مجرد دعاء)، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (إن الله عاقبك على كفرك به، ولا أغني عنك

---

1 - الطبري: ووجه الكلام: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي، وابتغاء مرضاتي، يخرجون الرسول وإياكم بسبب أنكم آمنتم ا بالله ربكم.

منه شيئا. فدعا إبراهيم ربه) رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ[4]، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق، فيفتتنوا بذلك) وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[5]. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ (إبراهيم والمؤمنين به) أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ (يرجع إلى الكفار) فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[6]. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ (من أقاربكم في مكة) مَوَدَّةً، وَاللَّهُ قَدِيرٌ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[7]. (ذلك أنه) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ (من أهل مكة) لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا (تعدلوا وتحسنوا) إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[8]، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا (تحالفوا وتناصروا) عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[9] [2].

3- النساء اللائي يلتحقن بالمسلمين واللائي يلتحقن بالمشركين...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ (من مكة) فَامْتَحِنُوهُنَّ (اختبروهن)، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ. فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ[3]، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ (لأنهم مشركون) وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ (للسبب نفسه)، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا (أعطوا لأزواجهن الكفار ما دفعوا لهن من المهر) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن)، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ (بمعنى إن لحقت بالمشركين واحدة من نسائكم فلا تتمسكوا بهن لكونكم أزواجا لهن)، وَاسْأَلُوا (اطلبوا ممن يتزوجهن من الكفار) ما

---

2 – المعنى إن الله لا ينهاكم عن التعاطف مع أقاربكم في مكة ممن لم يقاتلوكم، ولكن ينهاكم أن تتحولوا إلى جواسيس للملأ من قريش للذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم.

3– قيل نزلت بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردَّ إلى أهل مكة مَنْ جاء من المؤمنين منهم، وهذه الرواية لا تستقيم مع كون هذه السورة نزلت قبل صلح الحديبية، لأن مضمون الرسالة التي كانت قد حملتها تلك المرأة إلى قريش صريح في أن الآية التي نزلت في شأنها وبالتالي السورة كلها كانت سابقة لتحرك النبي إلى الحديبية. ولا شيء يمنع من القول إنها نزلت قبل ذلك، والحفاظ على وحدة السورة أولى من الأخذ بروايات لا شيء يسندها سوى أنها لا تتعارض مع آياتها، فالقاعدة هي أن ما يسمى بـ "أسباب النزول" إنما يبحث عنها أو تختلق اختلاقا لتطابق آية سبق أن نزلت. فهي محاولة بعدية للشرح وليست سابقة للنزول، إلا ما يزكيه لفظ النزول مثل هذه الأسبقية.

أَنْفَقْتُمْ (عليهنّ من المهر) وَلْيَسْأَلُوا (أي المشركون) مَا أَنْفَقُوا (ما أعطوا من المهر لزوجاتهم اللائي يسلمن ويلتحقن بالمدينة وتتزوجون بهن)، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[10]. وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ (إن لحقت بهم من ارتدت من نسائكم) فَعَاقَبْتُمْ (فغزوتموهم وانتصرتم)، فَآتُوا (أعطوا من الغنائم لهؤلاء) الَّذِينَ ذَهَبَتْ (ارتدت) أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا (عليهن)؛ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ[11]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ (لا يأتين بولدٍ ينسبنه إلى الزّوج زورا)، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ (على هذا الأساس) وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[12].

4- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (يعني مشركي قريش)، قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ (قد كفروا بالبعث ويئسوا منه) كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ (في كل قوم من عودة أقاربهم) مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ[13] (أي من موتاهم).

- تعليق

تتميز هذه السورة بوحدة الموضوع : تنظيم العلاقات بين المسلمين بالمدينة والمشركين بمكة. وهذه المسألة قد أخذت تطرح نفسها بإلحاح عقب اشتعال الحرب بين قريش في مكة والمسلمين في المدينة: غزوة بدر، غزو أحد، غزوة الأحزاب، وغزوات جانبية أخرى. ذلك أن هذه الغزوات قد ضاعت الاحتكاك بين الطرفين على كثير من الأصعدة، فعلاوة على الزيارات العادية المتبادلة كالحج والعمرة والتجارة، أصبح هناك الآن في كل من مكة والمدينة نساء فقدن أزواجهن في القتال وأصبحن أياما في بلدهن ومعهن يتامى، وبالمقابل صار من المطلوب بدافع القبيلة أو غيره أن يكون هناك نوع من تبادل النساء: رجال من قريش يريدون الزواج بأخريات في المدينة والعكس صحيح أيضا. وفي مثل هذه الظروف ينشط التجسس، كل طرف يتجسس على خصمه مستخدما النساء، كما ينشط التواصل بين الأقارب الذين فرقت بينهم الحرب الخ. حول تنظيم العلاقات الناجمة عن الاتصال الذي تفرضه الحرب تدور هذه السورة

1- تبدأ السورة في المقدمة بنهي المسلمين من اتخاذ عدو الله وعدوهم، يعني مشركي قريش، أصدقاء يمدونهم بأخبار النّبيِ وأسرَاره، والإشارة هنا إلى الشخص الذي بعث رسالة إلى أهل مكة يخبرهم فيها بعزم النبي على الذهاب إلى مكة (انظر التفاصيل في التقديم).

2- وفي الفقرة الثانية تدعو المسلمين بالمدينة إلى الاقتداء بإبراهيم والمؤمنين به "الذين قَالُوا لقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ". ثم تستثني السورة الذين من أهل مكة لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم فهؤلاء لا ينهاهم من أن يبروهم ويحسنوا إليهم.

3- وتأتي الفقرة الثالثة لتطرح مسألة برزت في صفوف المهاجرين في المدينة تخص "التنافي بين العلاقة الزوجية وعلاقة القرابة، ذوي الأرحام : ذلك هناك مهاجرين تركوا في المدينة زوجاتهم، ومهاجرات تركن في مكة أزواجهن. ويبدو أن هذه الظاهرة قد تنامت بعد الهجرة : رجال ينتقلون من مكة بعد إسلامهم إلى المدينة ويتركون زوجاتهم اللاتي لم يسلمن في مكة، ونساء يفعلن الشيء نفسه: يفدن على المدينة ليبايعن الرسول ويتركن أزواجهن في مكة، إضافة إلى رجال أو نساء مسلمين ومسلمات يعودون إلى مكة من المدينة، مع بقائهم على الإسلام أو الردة... لقد بينت هذه الفقرة كيفية معالجة هذه الظاهرة، فلم تحكم بالقتل على المرتدين والمرتدات كما أنها لم تحرم الأزواج والزوجات من حقهن في المهر سواء كان الانتقال إلى هذه الجهة أو تلك. والآيات واضحة ومفصلة.

وما تطرحه هذه السورة بصدد "المهر" يعطينا فكرة واضحة عن أهمية المهر أو الصداق في الحياة الزوجية في القبائل العربية في المجالين للاجتماعي والاقتصادي. وقد تحدث القرآن عنه في كثير من الأحيان كما في هذه السور باسم "الأجر"، كأن الزواج بامرأة نوعا من المعاملة التجارية، كانت قيمة المرأة -ولا تزال- تقاس بمقدار مهرها الذي كان يراد منه أن يعكس مكانة أسرتها في المجتمع. ولا بد من الإشارة كذلك إن أن المهر كان ينظر إليه بمقياس التبادل الاقتصادي بين القبائل إذ كان يتم بالعملة كما يتم بالإبل والمتاع...

4- وتأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة كالعادة فتكرر النهي عن موالاة الكفار وعدم الثقة بهم لأنهم لا وازع لهم: هم قوم غضب الله عليهم، لأنهم مصرون على إنكار البعث والقيامة والحساب، وبالتالي فهم لا يخافون ترهيبا ولا يؤثر فيهم ترغيب.



97- سورة النساء

- تقديم

يبدو من تسلسل السور السابقة أن هذه السورة واحدة من نفس السلسلة من حيث المضمون، أعني الموضوعات التي تناولتها، كما يبدو من بعض الوقائع التي ذكرتها أو أشارت إليها أن ترتيبها في الرتبة التي وضعناها فيها مبرر تماما: فمجيئها بعد سورة الأحزاب تزكيه الآية الثانية منها وهي قوله تعالى : "وَآتُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ"، التي قيل إنها نزلت في رجل من غطفان، وغطفان أسلموا بعد وقعة الأحزاب، التي جرت سنة خمس، كما يزكيه نزول آية التيمم التي قيل إنها نزلت في هذه السنة أيضا. هذا من جهة ومن أخرى يمكن النظر إلى هذه السورة على أنها استعادة لموضوع السورتين السابقتين وتفصيل القول في جانب آخر من موضوع النساء. كل ذلك يفيد أنها نزلت في أوائل السنة السادسة.

- نص السورة

1- مقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ[1] اتَّقُوا رَبَّكُمُ (اتبعوا ما نزل عليكم من أحكام) الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ (هي آدم) وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [2] وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً.

---

1 - بعض المفسرين يعتبرون هذه الآية مكية لكونها تبدأ بـ"يا أيها الناس" وليس بـ"يا أيها الذين آمنوا"، على اعتبار أن النداء الأول استعمل في مكة وحدها وأن الثاني استعمل في المدينة، وهذا غير مطرد ولا يصلح كقاعدة عامة. فكلمة "الناس" تفيد العموم.

2- للمفسرين أقول في هذا الموضوع ترجع كلها إلى ما ورد في التوراة من أن الله خلق حواء من ضلع آدم، ويقولون بما قالت التوراة في مسألة خطيئة "التفاحة"، في حين أنه ليس في القرآن ما يحمل المرأة مسؤولية هذه الخطيئة، بل إن جميع الآيات الواردة في هذا=

الموضوع تفيد أن آدم هو من ارتكب الخطيئة وأن المرأة إنما تبعته. ولكي يلمس القارئ الفرق بين التوراة والقرآن في هذا الموضوع نورد هنا ما جاء في التوراة. ففي سفر التكوين بعد أن خلق الله السماوات والأرض والكائنات الحية وخلق الإنسان (آدم) "على صورته" : " 15أَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا. 16وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، 17وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوتُ ... 18ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: لَيْسَ مُسْتَحْسَناً أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيداً. سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. 19وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْماً لَهُ. 20وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. 21فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، 22وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. 23فَقَالَ آدَمُ: هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِئٍ أُخِذَتْ. 24لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. 25وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ 25وكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهِمَا الْخَجَلُ. وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ: «أَحَقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ 2فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، 3مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ لِكَيْ لاَ تَمُوتَا. 4فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: »لَنْ تَمُوتَا، 5بَلْ إِنَّ اللهَ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلاَنِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. 6وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، 7فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّينِ. 8ثُمَّ سَمِعَ الزَّوْجَانِ صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَآ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ الإِلَهِ بَيْنَ شَجَرِ الْجَنَّةِ. 9فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: أَيْنَ أَنْتَ؟ 10فَأَجَابَ: سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَاخْتَبَأْتُ خَشْيَةً مِنْكَ لأَنِّي عُرْيَانٌ. 11فَسَأَلَهُ: مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟ 12فَأَجَابَ آدَمُ: إِنَّهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا رَفِيقَةً لِي. هِيَ الَّتِي أَطْعَمَتْنِي مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ. 13فَسَأَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ الْمَرْأَةَ: مَاذَا فَعَلْتِ؟ فَأَجَابَتْ: أَغْوَتْنِي الْحَيَّةُ فَأَكَلْتُ. 14فَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: لأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ، عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ، وَمِنَ التُّرَابِ تَأْكُلِينَ طَوَالَ حَيَاتِكِ، 15وَأُثِيرُ عَدَاوَةً دَائِمَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ نَسْلَيْكُمَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَلْدَغِينَ عَقِبَهُ". قلت (الجابري) : واضح أن الأفق الذي تتكلم التوراة فيه هنا ليس هو الأفق الذي يتكلم فيه القرآن، فالقرآن يتحدث صراحة عن سبب خطأ الإنسان وهو الهوى (المعبر عنه بالشيطان ووسوسته)، وقد تحدث عن المرآة (حواء) كتابعة للرجل (كضحية له) وليس كـ "حية" تلدغ. وإذا كان من الممكن اعتبار "الحية" رمزا للشيطان كما يقول شراح التوراة فإن الإدانة ستبقى -لغويا على الأقل- للأنثى، والضحية هو الرجل.=

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ (فتقولون مثلا: أسألك بـــالله والرحم)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[1].

2- وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ...

وَآتُوا الْيَتَامَى (الذين أنتم أوصياء عليهم) أَمْوَالَهُمْ (إذا بلغوا ورشدوا) وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ (ولا تستبدلوا الــحرام علــيكم من أمــوالهم بــأموالكم الــحلال) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ (لا تخلطوها فتأكلوا من أموالهم)، إِنَّـــهُ كَانَ حُوبًا (إثما) كَبِيرًا[2]. وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَــابَ (حل) لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِــدَةً أَوْ مَــا مَلَكَــتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى (أقرب) أَلَّا تَعُولُوا[3] (تميلوا ولا تعــدلوا) [(3)]. وَآتُــوا النِّــسَاءَ

والقرآن بالعكس من هذا تماما. أما قوله تعالى "خلق منها زوجها" فلا شيء فيه يفهم منه أنـــه خلقها من "ضلع آدم" : والأقرب إلى الفهم الصحيح للقرآن (الفهم الذي يعتمــد مبــدأ "القــرآن يفسر بعضه بعضا") هو أن نقول : المقصود بـ"النفس" هنا هو النوع، كما فهمنا قوله تعــالى في سورة النحل "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا" (النحل: 72) أي جعل لكــم مــن نــوعكم الإنساني أزواجا. وبالتالي فمعنى "خلق منها زوجها" (أي خلق زوجها من نفس نوعها) وهــو كقولــه تعالى: "إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ" (آل عمران: 164) وقولــه: "لَقَـدْ جَـآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ" (التوبة: 128)، أي بشر مثلكم مــن نــوعكم الآدمــي الإنــساني، والنــوع الإنساني هو ما يطلق عليه القرآن "بني آدم"، فكما خلق آدم من تراب فواجب أن تخلق حــواء أيضا من تراب، لأنهما نوع واحد "نفس واحدة".

3- لابد من الإشارة أولا إلى ما قلناه في تقديم السورة السابقة من أن ظــروف الحــرب بــين المسلمين في المدينة وغيرهم من الكافرين في مكة وغيرها كان لابد أن ينجم عنها كثرة مــن الأرامل والأيتام، ولا بد أن يكون هناك من يريد اســتغلال هــذه الظــاهرة لفائدتــه الخاصــة الاقتصادية أو الزوجية الخ. بعد هذا التنبيه نذكر ما ورد من آراء متعــدد فــي الطبــري فــي الموضوع نلخصها فيما يلي: "الرأي الأول مبني على رواية عن عائشة سئلت في الموضــوع فقالت: "هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله، فــيعجبه مالها وجمالــها، فيريــد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن" على أن لا يتجاوزوا أربعا. وأما الرأي الثاني فمؤداه: "النهي عن نكاح ما فوق الأربع، حذرا علــى أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم، وذلك أن قريشا، كــان الرجــل مــنهم يتزوّج العشر من النساء، والأكثر والأقل، فإذا صار معدما، مال على مال يتيمــه الــذي فــي حجره، فأنفقه، أو تزوّج به، فنهوا عن ذلك". وأما الرأي الثالث فيقول: "كانوا يتخوفون مــن=

صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً (أعطوهن مهورهن وجوبا وفريضة) [4] فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا (أعطينكم من صداقهن بطيب خاطر) فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا[4] (بريئا من الضرر والخداع). وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ[5] أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا (فيكونون هم القيمون عليها)، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (أطعموهم منها) وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا[5]. وَابْتَلُوا الْيَتَامَى (واختبروا عقول يتاماكم في أفهامهم وصلاحهم) حَتَّى

أموال اليتامى ألا يعدلوا فيها، ولا يتخوفون في النساء ألا يعدلوا فيهنّ، فقيل لهم: كما خفتم أن لا تعدلوا في اليتامى، فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهنّ، ولا تنكحوا منهنّ إلا من واحدة إلى الأربع، ولا تزيدوا على ذلك، وأن خفتم ألا تعدلوا أيضا في الزيادة على الواحدة، فلا تنكحوا إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيهنّ من واحدة أو ما ملكت أيمانكم". ورأي رابع يقول: "إن تحرّجتم في ولاية اليتامى وأكل أموالهم، إيمانا وتصديقا، فكذلك فتحرّجوا من الزنا، وانكحوا النساء نكاحا طيبا". وأخيرا يختار الطبري الرأي التالي: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك خافوا في النساء، فلا تنكحوا منهنّ إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهنّ، من واحدة إلى الأربع، فإن خفتم الجور في الواحدة أيضا فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم؟ "ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا" : فإنكم أحرى أن لا تجوروا عليهنّ، لأنهنّ أملاككم وأموالكم، ولا يلزمكم لهنّ من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور. (قلت: ولكن يبقى تحديد معنى الجور ونوعه: هل الجور في المال فقط، أو في المعاملة عامة، أو في حق الزوجية من حب وجماع، أو في عدم الزنا عليهن الخ، ثم هل الجور على الإماء ليس جورا، حتى ولو سكتنا عن وضعيتهم كمسبيات وأسيرات! أليس للأسير في الإسلام حقوق الخ؟

4 – السؤال هنا هو: الخطاب لمن؟ هل للزوج أو للوصي؟ بعضهم قال الخطاب للزوج : لا بد أن يدفع لمن يريد أن يتزوج منها صداقا مسمى معلوما. وقيل: الخطاب لأولياء اليتامى: من النساء، وذلك أنهم كانوا يأخذون مهورهن: كان الرجل إذا زوّج أيمة (امرأة بقيت بدون زواج لمدة طويلة) أخذ صداقها دونها"، وقيل: "بل كان ذلك من أولياء النساء، بأن يعطي الرجل أخته لرجل، على أن يعطيه الآخر أخته، على أن لا كثير مهر بينهما".

5– اختلفوا في معنى السفهاء هنا: منهم من قال هم النساء والأولاد الصغار، ومنهم من قال: هم الصغار وحدهم، وآخرون قالوا: هن النساء، زوجات أو أمهات أو بنات، وقال آخر: النساء من أسفه السفهاء ... ويعترض الطبري على هذه التأويلات فيقول: "والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا : أن الله جلّ ثناؤه عمّ بقوله: "وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ" فلم يخصص سفيها دون سفيه، فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيها ماله، صبيا صغيرا كان أو رجلاً كبيرا ذكرا كان أو أنثى. والسفيه، الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله، هو المستحقّ للحجر بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ذلك". والسفيه في اللغة: خفيف العقل، الجاهل".

إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ (سن الرشد)، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا (عقولاً وصلاحا) فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا (بالإسراف فيما هو حلال لكم منها)، وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا(بالمبادرة إلى استغلال الفرصة قبل أن يكبروا ويتسلموها منكم)، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا (عن أجر ولايته لمال اليتيم) فَلْيَسْتَعْفِفْ (فليتنازل عن ذلك الأجر) وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ (ينفق على نفسه منها) بِالْمَعْرُوفِ (فلا يسرف ولا يبالغ. وقال بعضهم عليه أن يرد إذا استغنى)، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ (بحضور شهود)، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا[6].

3- الإرث ... والوصية

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ (المتوفون) وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا[7] (لابد من تسليمه لأهله) (6). وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ (قسمة الإرث) أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ (أعطوهم أيها الورثة شيئا قبل القسمة) (7)، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا[8] (واعتذروا لهم أيها الأولياء، إذا كان الورثة صغارا، بأنكم لا تملكون التصرف في الإرث). وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ (بعد موتهم) ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ (أن يضر الموصي بذريته فيوصي لغيرهم بما يضعف ميراثهم منه) فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[9] (8). إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى

---

6 – مما ذكروا في سبب نزول آيات الميراث: عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت: يا رسول الله، إن سعداً هلك وترك بنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما تنكح النساء على أموالهن. وهذه العبارة الأخيرة تلقي الضوء على أهمية المهر (الصداق، أو الأجر في التقاليد العربية، وبالتالي عناية القرآن بحق المرأة في الصداق وفي الإرث. وفي هذا الإطار يدخل تعدد الزوجات أيضا.

7- بعضهم جعل ذلك ندبا وبعضهم جعله فرضا. والمعنى هنا ينصرف إلى قرابة المتوفى ممن لا نصيب له من الإرث حسب لائحة الورثة الذين سيذكرون بعد.

8 – المعنى: وليخش من كانوا حاضرين ساعة احتضار الرجل الذي هو على فراش الموت، وكانوا ممن لهم أولاد صغارٌ يخافون عليهم من بعدهم الفقر والضياع... ليخشوا أن يبالغ المحتضر في الوصية لليتامى والمساكين وأقاربه الذين لا يرثون، بما يحرم ورثته من ميراثهم، فيكون هذا المحتضر قد أوصى بما لم يكون الحاضرون ساعة احتضاره ليفعلوه لو كانوا هم على فراش الموت، ولذلك فالواجب عليهم أن ينصحوه بما كانوا سيفعلون، هم الذين

ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[10] (9). يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ (من ميراث أبيهم المتوفى إذا لم يكن له وارث غيرهم) (10). فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً (=بنات الميت) فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ (دون سائر ورثته، إذا لم يكن الميت خلف ولدا ذكرا معهن)، وَإِنْ كَانَتْ (بنتا) وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ (أمه وأبيه)، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ (ذكرا كان و أنثى، واحدا أو جماعة)، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ (وللأب الثلثان) (11)، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ (اثنين أو أكثر، ذكورا أو إناثا) فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ (تنفيذ) وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ (قضاء) دَيْنٍ (ثبت عليه، حتى ولو استغرق الدين التركة كلها، فالأولوية له على الوصية، ومثل هذا يقال في الدين والوصية فيما يأتي). آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا (فأعطوهم حقوقهم من ميراث ميتهم)، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[11]! وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ (من مال وميراث) إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ (يوم يتوفين، لا ذكر ولا أنثى)، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ (ذكر أو أنثى) فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ (متوفى) يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ (متوفاة تورث كلالة) (12) (أي لم يترك أي منهما

يخشون على صغارهم الفقر والضياع. وتلافيا للمبالغة في الوصية ستحصر الآية التالية الوصية في الثلث فقط.

9- قيل : الخطاب هنا للمشركين حين كانوا لا يورثونهم ويأكلون أموالهم.

10- قالوا: كان العرب قبل الإسلام يخصون بميراث الميت من كان من أبنائه يلاقي العدوّ ويقاتل في الحروب دون النساء والذرية، ويعطونه الأكبر فالأكبر... قيل: "لما نزلت الفرائض (=الآيات أعلاه التي تحدد كيفية قسمة الميراث) كرهها الناس أو بعضهم، وقالوا: (لماذا) تعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة؟! (وأضافوا :) اسكتوا عن هذا الحديث، لعلّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ينساه، أو نقول له فيغيره! فقال بعضهم: يا رسول الله، أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم، ونعطي الصبيّ الميراث، وليس يغني شيئا؛ وقال آخرون: بل نزل ذلك من أجل أن المال كان للولد، وللوالدين الوصية.

11- في الحديث : "إن كل ميت فأقرب عصبته به أولى بميراثه"، بعد إعطاء ذوي السهام المفروضة سهامهم من ميراثه.

12 - انظر معنى الكلالة في آخر السورة، بعد الخاتمة.

ولدا ولا والدا)، وَلَهُ (للمتوفى أو المتوفاة) أَخٌ أَوْ أُخْتٌ (من أمهما) فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا (الأخ والأخت) السُّدُسُ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ، غَيْرَ مُضَارٍّ (غير ملحق ضررا بورثته بسبب وصية فيها إسراف. وجميع ما تقدم هو) وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ"[12] (13). تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ (تفصل بين المطلوب وغير المطلوب) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

13 – قال القرطبي في توزيع الإرث: وأجمع العلماء على أن الأولاد إذا كان معهم من له فرض مسمًّى أعطيه، وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لقوله عليه السلام: «ألحقوا الفرائض بأهلها» –رواه الأئمة– يعني الفرائض الواقعة في كتاب الله تعالى. وهي ستة: النصف والربُع والثُّمن والثُّلثان والثُّلث والسدُس. فالنصف فرضُ (نصيب) خمسةٍ: ابنةُ الصُّلب، وابنةَ الابن، والأُخت الشقيقة، والأُخت للأب، والزوج. وكل ذلك إذا انفردوا عمن يحجبهم عنه. والربُع فرض الزوج مع الحاجب، وفرض الزوجة والزوجات مع عدمه. والثمن فرض الزوجة والزوجات مع الحاجب. والثلثان فرض أربع: الاثنتين فصاعداً من بنات الصلب، وبنات الابن، والأخوات الأشقاء، أو للأب. وكل هؤلاء إذا انفردنَ عمن يحجبهن عنه، والثلث فرض صنفين: الأم مع عدم الولد، وولد الابن، وعدم الاثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات، وفرض الاثنين فصاعداً من ولد الأم. وهذا هو ثلث كل المال. فأما ثلث ما يبقى فذلك للأم في مسألة زوج أو زوجة وأبوان؛ فللأم فيها ثلثُ ما يبقى.ن وقد تقدم بيانه. وفي مسائل الجدّ مع الإخوة إذا كان معهم ذو سهم وكان ثلثُ ما يبقى أحظى له. والسدس فرض سبعة: الأبوان والجدّ مع الولد وولد الابن، والجدّة والجدّات إذا اجتمعن، وبنات الابن مع بنت الصلب، والأخوات للأب مع الأُخت الشقيقة، والواحد من ولد الأم ذكراً كان أو أُنثى. وهذه الفرائض (الأنصبة) كلها مأخوذة من كتاب الله تعالى إلا فرض الجدّة والجدّات فإنه مأخوذ من السنة. والأسباب الموجبة لهذه الفروض بالميراث ثلاثة أشياء: نسب ثابت، ونكاح منعقد، وولاء عتاقةٍ. وقد تجتمع الثلاثة الأشياء فيكون الرجل زوج المرأة ومولاها وابن عمها. وقد يجتمع فيه منها شيئان لا أكثر، مثل أن يكون زوجها ومولاها، أو زوجها وابن عمها؛ فيرث بوجهين ويكون له جميع المال إذا انفرد: نصفه بالزوجية ونصفه بالولاء أو بالنسب. ومثل أن تكون المرأة ابنة الرجل ومولاته، فيكون لها أيضاً جميع المال إذا انفردت: نصفه بالنسب ونصفه بالولاء. ولا ميراث إلا بعد أداء الدَّيْن والوصية؛ فإذا مات المتوفى أخرج من تركته الحقوق المعيَّنات، ثم ما يلزم من تكفينه وتقبيره، ثم الديون على مراتبها، ثم يخرج من الثلث الوصايا. وما كان في معناها على مراتبها أيضاً، ويكون الباقي ميراثاً بين الورثة، وجملتهم سبعة عشر. عشرة من الرجال: الابن وابن الابن وإن سفل، والأب وأب الأب و هو الجدّ وإن علا. والأخ وابن الأخ، والعمّ وابن العمّ والزوج ومولى النعمة. ويرث من النساء سبعٌ: البنت وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدّة وإن علت، والأخت والزوجة، ومولاة النعمة وهي المعتقة.

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[13]. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا، خَالِدًا فِيهَا، وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ[14].

4- النساء: ما لهن وما عليهن ... حكم أولي في الزنا...

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ (الزانيات من نساء المدينة اللائي اشتهر ذلك عنهن، وليس بالضرورة زوجات المؤمنين فقد يكن غير محصنات أو أرامل) فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ (14)، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ

14- قال القرطبي: "جعل الله الشهادة على الزنا -خاصة- أربعةً، تغليظاً على المدّعي وستراً على العباد؛ وتعديل الشهود بالأربعة في الزنا حكم ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن". وأضاف: "وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم (قد) زنَيا فقال: (النبي (ص) "ائتوني بأعلم رجلين منكم"، فأتوهُ بابنَيْ صُوريا فنشدهما: "كيف تجدان أمر هذين في التوراة" ؟ قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعةٌ أنهم رأوْا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحُلة رُجما. قال: "فما يمنعكما أن ترجموهما"؛ قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل؛ فدعا رسول الله (ص) بالشهود، فجاؤوا فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة؛ فأمر رسول الله (ص) برجمهما". هذا وقد ورد في التوراة بشأن الزنا والطلاق ما يلي: "22وَإِذَا ضَبَطْتُمْ رَجُلاً مُضْطَجِعاً مَعَ امْرَأَةٍ مُتَزَوِّجَةٍ تَقْتُلُونَهُمَا كِلَيْهِمَا، فَتَنْزِعُونَ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكُمْ. 23وَإِذَا الْتَقَى رَجُلٌ بِفَتَاةٍ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ آخَرَ فِي الْمَدِينَةِ وَضَاجَعَهَا، 24فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى سَاحَةِ بَوَّابَةِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، ارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا، لأَنَّ الْفَتَاةَ لَمْ تَسْتَغِثْ وَهِيَ فِي الْمَدِينَةِ، وَالرَّجُلَ لأَنَّهُ اعْتَدَى عَلَى خَطِيبَةِ الرَّجُلِ الآخَرِ، فَتَسْتَأْصِلُونَ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكُمْ. 25وَلَكِنْ إِنِ الْتَقَى ذَلِكَ الرَّجُلُ بِالْفَتَاةِ الْمَخْطُوبَةِ فِي الْحَقْلِ، وَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا، يُرْجَمُ الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَيَمُوتُ، 26وَأَمَّا الْفَتَاةُ فَلاَ تُرْجَمُ، لأَنَّهَا لَمْ تَرْتَكِبْ خَطِيئَةً جَزَاؤُهَا الْمَوْتُ، بَلْ تَكُونُ كَرَجُلٍ هَاجَمَهُ آخَرُ وَقَتَلَهُ، 27لأَنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ تَكُونَ الْفَتَاةُ الْمَخْطُوبَةُ قَدِ اسْتَغَاثَتْ فِي الْخَلاَءِ حَيْثُ وَجَدَهَا الرَّجُلُ، فَلَمْ يَأْتِ مَنْ يُنْقِذُهَا. 28وَإِذَا= وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ فَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا وَضُبِطَا مَعاً، 29يَدْفَعُ الرَّجُلُ الَّذِي ضَاجَعَ الْفَتَاةَ خَمْسِينَ قِطْعَةً مِنَ الْفِضَّةِ وَيَتَزَوَّجُهَا، لأَنَّهُ قَدِ اعْتَدَى عَلَيْهَا. وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا مَدَى حَيَاتِهِ. 30لاَ يَتَزَوَّجْ أَحَدٌ أَرْمَلَةَ أَبِيهِ لأَنَّ هَذَا عَارٌ وَإِهَانَةٌ لأَبِيهِ. (سفر التثنية 22) إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ فَتَاةٍ وَلَمْ تَرُقْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لأَنَّهُ اكْتَشَفَ فِيهَا عَيْباً مَا، وَأَعْطَاهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَصَرَفَهَا مِنْ بَيْتِهِ، 2فَتَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ آخَرَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ طَلِيقَةً، 3ثُمَّ كَرِهَهَا الزَّوْجُ الثَّانِي وَسَلَّمَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَصَرَفَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ هَذَا الزَّوْجُ. 4فَإِنَّهُ يُحْظَرُ عَلَى زَوْجِهَا الأَوَّلِ الَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا مَرَّةً أُخْرَى، بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ... 5إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ حَدِيثاً يُعْفَى مِنَ الْجُنْدِيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ لِمُدَّةِ سَنَةٍ، يَقْضِيهَا حُرّاً فِي بَيْتِهِ لِيُسْعِدَ زَوْجَتَهُ وَيَسُرَّهَا. (التثنية 24).

(اسجنوهن) (15) حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا[15] (مخرجا وطريقا إلى النجاة مما أتين به من الفاحشة) (16). وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا (أي الفاحشة) مِنكُمْ (أي الرجل والمرأة من المسلمين) فَآذُوهُمَا، (لم يتحدد بعد نوع الأذى، مع استبعاد الرجم، لأنه فوق الأذى)، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا (17)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا[16]. إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ (بمجرد ما يعلمون أن ما فعلوه منهي عنه)، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[17]. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[18].

---

15 ــ لم يقل في بيوتكم ولا في بيت زوجها ولا في بيت أهلها، ولكنه قال "البيوت" بدون تحديد، فهل كان اسم "البيوت"، بهذه الصيغة (جمع، معرف بأل) يستعمل علما على السجون؟ ابن عاشور فهمها كذلك ولكن دون توضيح. ومع أننا لم نقف على ما يفيد أن لفظ "البيوت"= قد استعمل بمعنى السجون فإن استعمالاته في العربية التي لا تكاد تحصى تسمح بافتراض ذلك. ويحتمل ن يكون السجن في بيت داخل منزل زوجها أو أهلها.

16– قالوا: كانت المرأة، قبل الإسلام وحين نزول هذه، إذا زنت حبست في البيت حتى تموت ويأخذ زوجها مهرها فهو له، ثم جعل الله لهنّ سبيلاً، فكان سبيل من أحصن جلد مائة ثم رمي بالحجارة وكان مهرها ميراثا، وسبيل من لم تحصن جلد مائة ونفي سنة. وروي في الحديث قوله عليه السلام: "قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، والبِكْرُ بِالبِكْرِ؛ أما الثَّيِّبُ فَتُجْلَدُ ثم تُرْجَمُ؛ وأما البِكْرُ فتجلَدُ ثم تُنْفَى. ويلي هذا المعنى في القرآن لاحقا. أما قول بعضهم إن هذا الحديث قد نسخ الآية أعلاه بناء على قولهم إن "السنة تنسخ القرآن" فغير مسلم.

17– اختلفوا في تأويل قوله تعالى: «وَاللاَّتِي» وقوله: «وَاللَّذَانِ»، بعضهم قال "الآية الأولى في النساء عامّة محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال خاصة، وبيّن لفظ التثنية صنفي الرجال: من أحصَن ومن لم يُحصن؛ فعقوبة النساء الحبسُ، وعقوبة الرجال الأذى. وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نصُّ الكلام أصناف الزناة. ويؤيّده من جهة اللفظ قوله في الأولى: «مِنْ نِسَائِكُمْ» وفي الثانية «مِنْكُمْ» (القرطبي). ونحن نرى أن هذا الرأي لا يستقيم ولا يردم الهوة بين "اللاتي" وبين "اللذان"، وأن الأقرب إلى الصواب ما أثبتناه أعلاه. انظر التفصيل في التعليق.

5- مسألة العضل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (ورثة الميت) لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا [18] (زوجات المتوفين غير راضيات)، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ (النساء أي زوجاتكم) لِتَذْهَبُوا (لتطالبوهن) بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ [19]، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (بدون رد فعل من جانبكم، على ما أتينه، من فاحشة يزيد الموقف توترا بل تكون معاشرتكم لهن عادية)، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ (فتثبتوا ولا تتعجلوا بالطلاق)، فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[19]! وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ

---

18 – لا يحل لكم أن تُكرهوهن وتُقسروهن على أن تتزوجوهن أو تُزوجوهن غيركم، أو تأخذوا ميراثهن من أزواجهن المتوفين الخ. قالوا: "وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها (يمنعها من الزواج) حتى تموت أو تردّ إليه صداقها، فنهاهم الله عن ذلك". وقيل: "كان إذا توفي الرجل كان ابنه الأكبر هو أحقّ بامرأته يَنكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنَها هي، أو يُنكِحها من شاء، أخاه أو ابن أخيه"، وقيل : "فإن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه، فإذا مات وترك امرأته، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحقّ بها أن يَنكحها بمهر صاحبه أو يُنكِحها يزوجها لغيره فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهم أحقّ بنفسها، حتى ترضى بأن تكونَ زوجةَ لمن ترضاه. وقال آخرون: "بل معنى ذلك: لا يحلّ لكم أيها الناس أن ترثوا النساء تركاتهن كرها. وقال غيرهم في معنى الآية: وإنما قيل ذلك كذلك لأنهم كانوا يعضلون أياماهن (=اللاتي مات أزواجهن)، وهن كارهات للعضل، حتى يَمُتن فيرثوا أموالهن". وواضح أن اختلاف هذه الأقوال يعكس اختلاف عادات القبائل العربية

19- المفسرون لهذه الآية فريقان: فريق فسر الفاحشةَ هنا بالزنا فقالوا ما ملخصه: "إنّ الرجل إذا تحقّق زنى زوجته فله أن يعضلها، فإذا طلبت الطلاق فله أن لا يطلّقها حتى تفتدي منه ببعض صداقها، لأنها تسبّبت في بَعْثَرة حال بيت الزوج وأحوجته إلى تجديد زوجة أخرى. وإنّما لم يَجْعل المفاداةَ بجميع المهر لئلا تصير مدّةُ العصمة عريّة عن عوض مقابل، وأضاف غيرهم : هذا الحكم نسخ بحدّ الزنا وباللعان، فحرّم الإضرار والافتداء". وفريق فسر "الفاحشة" هنا بـ"النشوز"، أي كراهة امرأة لزوجها وبغضها له، فقالوا : "إذا نشزت جاز له أن يأخذ منها". وهذه آراء محتملة، باستثناء القول بأن هذه الآية نسخت بآية حد الزنا في سورة النور (رقم 2) . أما نحن فنرى أنه لا تناقض بين الآيتين، كل ما هناك هو أن الظروف التي نزلت فيها هذه الآية كانت تقتضي ما فيها من التخفيف، فالحكم الوارد فيها حكم أولَي، من نوع الحكم الذي سيرد بعد قليل في قضية "الخمر"، وهو قوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"، فالآية لم تحرم الخمر، وإنما نهت عنه في حالة الصلاة، فهذا حكم أولي بالقياس إلى الحكم النهائي الذي سيأتي، انظر التعليق.

مَكَانَ زَوْجٍ (أي إذا أردتم الطلاق بدون سبب إلا الرغبة في الاستبدال) وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا (وكنتم قد أعطيتم مهرا كبيرا للتي تريدون تطليقها) فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا[20]! وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[21] (أي ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج وتراض على المهر بموجب عقد وميثاق هو عقد الزواج).

6- المحرمات من النساء .. وزواج المتعة .. والزواج بالإماء

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ (أو كما نكح) (20) آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ (وحدث قبل نزول هذه الآية)، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا[22]. حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ، وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ (بأن تكونوا قد طلقتموهن قبل الدخول عليهن) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ؛ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[23]؛ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ (المتزوجات المسلمات محرمات عليكم كذلك) إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (21). كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (ذلك أمر الله). وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ (أي من غير المحرمات المذكورة، وفي إطار: من واحدة إلى أربع) أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ (زوجات) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (غير زانين)، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ

20- بعضهم حمل ما على غير العاقل (أي نكاح) وقالوا لو كان المقصود "نساء آبائكم" لقال لا تنكحوا مَن نكح (أي زوجات آبائكم) أو اللاتي نكحوهن... وبالتالي فالمقصود لا تتزوجوا على عادة آبائكم إلا ما قد سلف..

21- بعضهم قال: "هن ذوات الأزواج غير المسبيات منهنّ. وملكُ اليمين: السبايا اللواتي فرّق بينهنّ وبين أزواجهنّ السباء، فحللن لمن صرن له بملك اليمين من غير طلاق كان من زوجها الحربيّ لها". وآخرون قالوا: "هنّ كل ذات زوج من النساء حرام على غير أزواجهنّ، إلا أن تكون مملوكة اشتراها مشترٍ من مولاها فتحل لمشتريها، ويُبطل بيع سيدها إياها النكاحَ بينها وبين زوجها". وهذا كله والتعقيدات الأخرى التي فرعوا منها لم تعد ذات موضوع في زمن يحرم فيه الرق. وإذا كان الإسلام لم يحرم الرق فإن أحكامه ومقاصده وأخلاقياته كانت كلها تسير في اتجاه التخلص منه.

أُجُورَهُنَّ (مهورهن) فَرِيضَةً[22]، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ [23]، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[24]. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا (ليس له من المال ما يمكنه من) أَنْ يَنْكِحَ (يتزوج الحرائر) الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَـ(ليتزوج) مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ (إمائكم) الْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ (مالكيهن)، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) بِالْمَعْرُوفِ، (على أن يكن) مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ (غير باغيات) وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ (أصحاب)؛ فَإِذَا أُحْصِنَّ (أي صرن محصنات : ممنوعات الفروج إما بالزواج وإما بالإسلام) فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ (الحرائر) مِنَ الْعَذَابِ (العقاب) [24]، ذَلِكَ (أي التزوج بالإماء) لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ (خاف من الزنا وعقوبته)؛ وَأَنْ تَصْبِرُوا (فلا تتزوجوا الإماء) خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[25] [25]. يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (من

22- هناك خلاف عميق حول مضمون "ما استمتعتم به منهن"، وهو ما يعرف بـ زواج المتعة)، وسنخصص له استطرادا بعد انتهائنا من الشرح والتعليق.

23 - اختلفوا في هذه العبارة حسب اختلافهم في التي قبلها : فريق قال: لا حرج عليكم أيها الأزواج إن أدركتكم عُسرة بعد أن فرضتم لنسائكم أجورهنّ فريضة فيما تراضيتم به، من أن تنقصوا منه بالتراضي مع زوجاتكم. وفريق قال: "معنى ذلك: ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم أنتم والنساء اللواتي استمتعتم بهنّ إلى أجل مسمى، إذا انقضى الأجل الذي حددتموه بينكم وبينهن في الفراق، أن يزدنكم في الأجل وتزيدوا من الأجر والفريضة، قبل أن يستبرئن أرحامهنّ".

24 - أي خمسون جلدة، ونفي ستة أشهر، لأن عقاب الحرّة إذا هي أتت بفاحشة قبل الإحصان بالزوج: جلد مائة، ونفي سنة.

25- هناك تفسير آخر للآية يقوم على فهم لفظ "الطول" على أنه الهوى : بمعنى من غلبه حب أمة فله أن يتزوجها، إذا كانت محصنة غير زانية الخ كما هو مبين أعلاه. ومن المفسرين من يعارض بشدة هذا الرأي وفي مقدمتهم الطبري الذي كتب في تفسيره يقول: "قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى الطول في هذا الموضع: السعة والغنى من المال، لإجماع الجميع على أن الله تبارك وتعالى لم يحرّم شيئا من الأشياء سوى نكاح الإماء لواجد الطول إلى الحرة... فإذ كان ذلك إجماعا من الجميع فيما عدا نكاح الإماء لواجد الطول، فمثله في تحريم نكاح الإماء لواجد الطول: لا يحلّ له من أجل غلبة هوى سرّه فيها، لأن ذلك، مع وجوده الطول إلى الحرة، منه قضاء لذة وشهوة وليس بموضع ضرورة تدفع ترخصه كالميتة للمضطر الذي يخاف هلاك نفسه، فيترخص في أكلها ليحيي بها نفسه،

الديانات السماوية) وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[26]، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا[27]. يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا[28].

7- الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا أَنْفَقُوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (بالربا والقمار وما أشبه) إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً (ربحا من بيع وشراء) عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (أي بعضكم بعضا) إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا[29]، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[30]، إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ (26) نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا[31] وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ

وما أشبه ذلك من المحرّمات اللواتي رخص الله لعباده في حال الضرورة والخوف على أنفسهم الهلاك منه ما حرم عليهم منها في غيرها من الأحوال. ولم يرخص الله تبارك وتعالى لعبد في حرام لقضاء لذة، وفي إجماع الجميع على أن رجلاً لو غلبه هوى امرأة حرة أو أمة أنها لا تحل له إلا بنكاح أو شراء على ما أذن الله به، ما يوضح فساد قول من قال: معنى الطول في هذا الموضع: الهوى، وأجاز لواجد الطول لحرة نكاح الإماء. فتأويل الآية إذ كان الأمر على ما وصفنا: ومن لم يجد منكم سعة من مال لنكاح الحرائر، فلينكح مما ملكت أيمانكم". هناك فريق من الصحابة والمفسرين يجيزون الزواج بالأمة : فعن علي بن أبي طالب أنه قال: " إذا نُكحت الحُرّة على الأمَة كان للحرّة يومان وللأمَة يوم. قال: ولم ير عليٌّ به بأسا". ووي عن مجاهد قوله "ممّا وسّع الله على هذه الأمّة. نكاحُ الأمَة والنّصرانية، وإن كان موسراً"، وأضاف القرطبي الذي أورد هذا :"وبه قال أبو حنيفة أيضاً". وقد رُوي عن مالك في الذي يجد طَوْلا لحرّة أنه يتزوّج أمَة مع قدرته على طَوْل الحُرّة؛ قالوا : لأن كل مال يمكن أن يتزوّج به الأمَة يمكن أن يتزوّج به الحرّة، فالآية على هذا أصلٌ في جواز نكاح الأمَة مطلقاً". هذا وقد أوردنا هذه التفاصيل، وهناك غيرها كثير، لنفهم طريقة تفكير المفسرين القدامى في هذه المسائل، وهو تفكير تقيده ظاهرة الرق التي كانت سائدة في العصور السابقة. أما اليوم فالرق محرم (دوليا) والنصوص القرآنية كانت ولا تزال تتجه إلى تحريمه، وإذن ففقه "ملك اليمين" صار من فقه الماضي، ويجب أن يكون كذلك.

26- اختلفوا في الكبائر ما هي وما عددها: قال بعضهم : هي ما نهى الله عنه من أول هذه السورة (سورة النساء إلى الآية الثلاثين منها) أي هذه الآية. وقال آخرون: الكبائر سبع ورووا في ذلك جزءا من خطبة للخليفة علي ابن أبي طالب بمسجد الكوفة ورد فيها : الكبائر سبع: "الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف (الجهاد)، والتعرّب بعد الهجرة"، قيل: "التعرّب هو أن يهاجر الرجل

اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ (27)، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[32]. وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ (أي ورثة) مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ (فكان الواحد منهم يعاقد الآخر أيهما مات ورثه الآخر) فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ (28)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا[33]. الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ (29)، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ (طائعات لأوامر الله

مع النبي من مكة إلى المدينة حتى إذا وقع سهمه في الفيء ووجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابيا كما كان. وقيل سئل ابن عباس عن الكبائر السبع فقال: "هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار. ويري الطبري عمن قال "سمعت أنس بن مالك قال "ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلّم الكبائر أو سئل عن= الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين. فقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور أو قال شهادة الزور".

27- روي أن أم سلمة، إحدى زوجات النبي عليه السلام، قالت: يا رسول الله (نحن النساء) لا نعطى الميراث (إلا نصف ما أعطي للرجل)، ولا نغزو في سبيل الله فنقتل (فتكون لنا الشهادة)، فنزلت "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض".

28- قالوا: " كان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك؛ فلما جاء الإسلام، بقي منهم ناس، فأمروا أن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس". وذلك قبل إلغاء هذا العرف بقوله تعالى: "وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ"، قالوا هذه الآية نسخته، وما هو بنسخ، بل هو تشريع جديد حل محل العرف القديم.

29- فسر الطبري هذه الآية كما يلي: "الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهن والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهنّ لله ولأنفسهم؛ "بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ" : يعني بما فضل الله به الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهنّ مهورهنّ، وإنفاقهم عليهنّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مؤنهن. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوّاما عليهنّ، نافذي الأمر عليهنّ فيما جعل الله إليهم من أمورهنّ". قلت (الجابري) : ليس في الآية ما يفيد أن الله جعل الرجال قوامين على النساء "في تأديبهن"، والتأديب يشمل الضرب. ولكي يزكي الطبري والقائلون بأن القوامة تشمل التأديب والضرب ساقوا أخبار مؤداها أن هذه الآية نزلت لتبطل حكما نطق به النبي عليه السلام في رجل لطم امرأته، فاشتكته إليه فحكم لها بالقصاص من لطمة زوجها. وفضلا عن أن إقحام "سبب نزول" من هذا النوع في آية مندرجة في سياق متماسك هو "عزل" لهذه الآية مع العلم أن مكانها توقيفي... ومما يوهن من هذه الأخبار كون أحدهما يقول إنه بهذه المناسبة نزل أيضا قوله تعالى"وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ" (طه 114)، وهذه الآية من سورة طه وقد نزلت في مكة قبل الهجرة!

مجتنبات لنواهيه) حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ (لأسرار أزواجهن) بِمَا حَفِظَ اللَّهُ (بما أوصى بحفظها)[30]؛ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ (تعانون من) نُشُوزَهُنَّ (من استعلائهن عليكم، وكراهتهن لكم كأزواج، وامتناعهن عليكم في فراش الزوجية) فَعِظُوهُنَّ (اطلبوا منهن بلطف الرجوع إلى المضجع)، وَ (إن امتنعن) اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ (لا تجامعوهن بالقوة) وَاضْرِبُوهُنَّ (في المضاجع ضربا غير مبرح: بلطف) [31]، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا[32]. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا[34]. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا (إن علمتم أن النزاع بينهما قد ازداد وتعمق رغم ذلك)، فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا [33]. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا[35].

30- ويضيف الطبري: إذا كنّ هكذا، فأصلحوا إليهنّ" وهذا في نظري لا يقتضيه الكلام باعتبار أن "الصالحات" مبتدأ و"قانتات" خبر. والعبارة التالية استئناف.

31- عن ابن عباس "...ويضربها حتى تطيعه في المضاجع، فإذا أطاعته في المضجع فليس له عليها سبيل إذا ضاجعته". هذا وقد ذكروا أحديث نبوية في سياق هذا الموضوع منها: قوله عليه السلام: "لا تَهْجُرُوا النِّسَاءَ إلاّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبا غيرَ مُبَرِّح"، وقال عن الضرب غير المبرح هو مثل الضرب بالسواك ونحوه، غير مؤثر، ونسبوا مثل هذا إلى ابن عباس أيضا. وفي لسان العرب : "السِّواك ما يُدْلَكُ به الفَمُ من العيدان". وأيضا: "السَّوَاكُ والتَّسَاوُكُ : السير الضعيف". "قال الأزهري تقول العرب جاءت الغنم هَزْلَى تَساوكُ أي تتمايل من الهزال والضعف في مشيها". إذن فالضرب المعني هنا ليس من النوع الذي يجعل المرأة تخاف وتذعن، بل هو من قبيل "التسوك" (دلك الفم بالسواك) وهو بحركة السير الضعيف أشبه. وإذن: ألا يعني ذلك نوعا من المداعبة الهادئة على الفراش لاستثارتهن وجعلهن يُقبلن على الجماع أو يطلبنه بالأحرى؟ وفي الحديث: من جهات متعددة: "خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ... ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُمْ (الرجال) فِيهِنَّ، فَقَالَ: عَلَامَ يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ... وَقَالَ لِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الْفَحْلِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُهَا".

32 - قالوا: إذا أطاعته فليس له عليها سبيل إذا ضاجعته. فلا يكلفها أن تحبه، لأن قلبها ليس في يديها، فلا يقول لها : إنك لست تحبيني وأنت لي مبغضة، فيضربها على ذلك أو يؤذيها فذلك بغي عليها.

33- "اختلفوا فيما يبعث له الحكَمان، وما الذي يجوز للحكمين من الحكم بينهما، وكيف وجه بعثهما بينهما"؟

8- الإحسان إلى الوالدين والمر بالنفقة على الفقراء والماسكين...

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى (في النسب) وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى (القريب)، وَالْجَارِ الْجُنُبِ (الأبعد من الأول)، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (المرافق في السفر)، وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر المحتاج)، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (عبيدكم)؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا (متعاظما) فَخُورًا[36] (يفتخر على الناس): الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [(34)]! وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[37]، وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا[38]. وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ؟ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا[39]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا[40]. فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ (المذكورين) أعلاه شَهِيدًا[41] ؟ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا[42].

9- لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى... إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [(35)]، وَلَا (تقربوها إن كنتم) جُنُبًا (على جنابة، لم تغتسلوا)، إِلَّا (إذا كنتم)

34- بعض المفسرين يجعلون الضمائر هنا تعود على اليهود، ولاشيء في السياق يبرر هذا التخصيص. ونحن نرجح أن يكون لفظ "الذين" والضمائر التي تعود عليه وصفا عائدا على "كل مختار فخور". أي كل متكبر متفرعن متعال على الله والناس...

35- ورد النهي أول مرة في القرآن عن شرب الخمر في سورة البقرة أي بعد الهجرة إلى المدينة وذلك في إطار الأسئلة التي كانت تلقى على الرسول، فنزل قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ (القمار)، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة 219). وفي رواية أنهم قالوا : "يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله. فسكت عنهم"، بمعنى: دعنا نستفيد من جانب المنفعة فيها، فتركهم ولكنهم لم يتجنوا جانب الإثم فيها. فنزلت الآية أعلاه. وفي رواية ذكرها أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر. فأخذت الخمر منا. وحضرت الصلاة فقدموني (ليَؤُمَّ بهم) فقرأت : "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون"، فانزل الله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا

عَابِرِي سَبِيلٍ (مسافرين والعادة لا يجد المسافر الماء)، حَتَّى تَغْتَسِلُوا؛ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ (جامعتموهن)، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا (حجرا أو ترابا طاهرا): فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا[43]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ (من يهود المدينة) يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ[44] (36). وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا[45]. مِنَ الَّذِينَ هَادُوا (من اليهود أناس) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا (أقوال محمد) وَعَصَيْنَا (أوامره)، وَ(يقولون للنبي) اسْمَعْ (ويقولون في أنفسهم) غَيْرَ مُسْمَعٍ (لا سمعت)، وَ (يقولون للنبي) رَاعِنَا (ظاهريا : تمهل في حديثك) لَيًّا (وباطنا سبًّا) بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا[46] (منهم). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ (37). وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا[47]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا[48]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ

مَا تَقُولُونَ ..." (النساء 43)، "فقالوا : يا رسول الله لا نشربها عند اقتراب وقت الصلاة، فسكت عنهم" (الطبري وغيره). وستنزل فيما بعد آية ثالثة تأمر بتجنبها نهائيا.

36 – ابن إسحق: "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له بعضهم : على أي دين أنت يا محمد؟ قال على ملة إبراهيم ودينه قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلم إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه. فأنزل الله تعالى فيهم الآية أعلاه.

---

37 – أي الذين يعتدون على حرمة يوم السبت الذي حُرِم عليهم الكسب فيه. قيل: إن الواحد منهم كان يأخذ مساء الجمعة خيطاً ويضع فيه وَهَقة، ويلقيه في البحر بينما الطرف الآخر من الخيط مربوط إلى وتِد، ثم يتركه كذلك إلى يوم الأحد. وفشا هذا فيهم حتى كثُرَ صيد الحوت. فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت عن ذلك. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولاحظوا أنه لم يخرج من المعتدين أحد. فقالوا: إن للناس لشأناً؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم. فعرفت القِردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القِردة تأتي نسيبها من الإنس فتَشَمّ ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكمْ فتقول برأسها نعم. قالوا: صار الشبان قِردة والشيوخ خنازير (كما سيأتي بعد)، فما نجا إلا الذين نهوْا وهلك سائرهم.

(اليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الخ)، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[49]. انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا[50]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ (الأصنام)، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (من قريش) هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا[51]! أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا[52]. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟ فَإِذًا (لو كان لهم نصيب) لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا[53] (لا ينفعونهم في شيء)؟ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ (النبي والمسلمين) عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ (يعني النبوة والرئاسة في أهل المدينة بموجب بيعة العقبة والصحيفة)؟ (فلماذا هذا الحسد): فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ (التوراة) وَالْحِكْمَةَ (وكتب الحكمة) وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا[54] (على عهد داوود وسليمان): فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ (بما آتاهم الله) وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا[55] (عذابا محرقا لمن لم يؤمن): إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا[56]. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا[57].

10- فضح سلوك المنافقين والتعبئة للجهاد ...

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا (نعم ما) يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا[58]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[59]. (38) أَلَمْ تَرَ إِلَى (المنافقين) الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ

38- قالوا في سبب نزول هذه الآية أنّها نزلت يوم فتح مكة وكانت سدانة الكعبة بيد عثمان بن طلحة وفي قومه بني عبد الدار، فسلمها للنبي عليه السلام، فطلبها منه عمه العباس بن عبد المطلب لتجتمع عنده سدانة الكعبة مع السقاية التي كانت بيده وفي قومه بني هاشم، فلم يستجب له الرسول عليه السلام ودعا عثمان بن طلحة وابنَ عمّه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فدفع لهما مفتاح الكعبة وتلا هذه الآية. قلت: (الجابري) هذه الرواية لا تستقيم هنا لأن السورة نزلت قبل فتح مكة، علاوة على ما قيل من ضعف إسنادها. ولا شيء يبرر القول بأنها نزلت يوم فتح مكة ووضعت هنا في هذه السورة. وكما يذكر جميع المفسرين هذه الرواية=

يقولون أيضا إنها نزلت في "ولاة أمور المسلمين"، وهذا ما رجحه الطبري إذ كتب يقول في تفسيره: "وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي قول من قال: هو خطاب من الله إلى ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولّوا في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم في الأقضية، والقَسْم بينهم بالسوية. يدلّ على ذلك ما وعظ به الرعية في الآية التالية لها: "أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلأمْرِ مِنكُمْ" فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة" وبهذا المعنى فسر بعضهم الأمانات فقال: "والأمانات: هي الفيء الذي استأمنهم على جمعه وقسمه، والصدقات التي استأمنهم على جمعها وقسمها".
وواضح هذا المعنى لا يتعارض مع روح الرسالة المحمدية وتشهد له بالصحة آيات أخرى في سور عديدة. ومع ذلك فإن مثل هذه المعاني التي تمليها على المفسر ظروفه وظروف المسلمين من قبله منذ وفاة الرسول، فيها نوع من الفصل بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة.
فظروف الدعوة يوم نزلت هذه الآية، لا تتحمل ظرفيا -وليس تشريعيا- مثل هذه المعاني، ذلك أنه لم يكن للمسلمين يومئذ "ولاة" بالمعنى الذي حدث بعد توسع الفتوحات. إن مسيرة الدعوة يومئذ كانت مؤطرة بصراع النبي عليه السلام مع ثلاثة أطراف: مشركي قريش، اليهود، المنافقين. ولم يكن هناك للمسلمين "ولاة" لا حكاما ولا سلاطين، فضلا عن أنها نزلت قبل فتح مكة. ومن هنا كان من الأرجح فهم الآية على أنها خطاب أبدي إلى المسلمين أفرادا كانوا أو جماعات، حاكمين كانوا أو محكومين. وإذا فسرنا "الأمانة" بالمسؤولية كما فعلنا سابقا في قوله تعالى : "إنا عرضنا الأمانة" الآية، فإن معنى هذه الآية سيكون عاما، غير مخصوص. "ردوا الأمانات إلى أهلها" أي تحملوا مسؤوليتكم وتصرفوا على ضوئها. ويعزز هذا المعنى قوله تعالى مباشرة : "وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ". ولعل الزمخشري هو وحده من المفسرين القدماء الذين ربطوا دلالة هذه الآية بموقف واضح من الصفة التي يجب أن يكون عليها ولاة الأمر حتى يستحقوا الطاعة بمقتضى هذه الآية. لقد كتب في تفسيره "الكشاف" يقول: "لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم. والمراد بأولي الأمر منكم: أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله: "وَأُولِي ٱلأمْرِ مِنكُمْ" قال: أليس قد= نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: "فَإِن تنازعتمْ في شيء فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ". ثم أورد الزمخشري رأيا آخر مفاده أن المقصود هم أمراء النبي على جند المسلمين في غزواته مستندا إلى حديث يقول فيه عليه السلام فقال: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن يعص أميري فقد عصاني"، وأضاف : وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. "فَإِن تَنَازَعْتُمْ في شيء" معناه:=

فإن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر منكم في شيء من أمور الدين، فردوه إلى الله ورسوله، أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة في الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدّون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله= وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة". وقوله: "ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا": إشارة إلى الرد إلى الكتاب والسنة "خَيْرٌ" لكم وأصلح وأحسن عاقبة. وقيل: أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم. لا شك أن هذا الكلام يعبر عن روح الإسلام وأخلاقيته في موضوع الحكم وولاة من المسلمين. ولكن ربط نسار التنزيل بمسيرة الدعوة كما قلنا في الهامش السابق يقتضي في نظر فهم معنى "أولوا الأمر منكم" في إطار الحديث الذي أورده الزمخشري، وبالتالي فالمقصود بـ "أولي الأمر منكم": هم أمراء الجيش الذي لهم أن يأمروا الجنود ويقودوهم الخ. هذا من جهة ومن جهة أخرى فالمخاطبون المباشرون في هذه الآية والتي قبلهم هم المنافقون هم أنفسهم المخاطبون في الآية التي بعد هذه (الآية 60) التي تتحدث عن الذين " يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ" والذين "، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا" الخ. في الفقرة السابقة كن المخاطب هو اليهود وهنا، في هذه الآيات: المخاطب هم حلفاؤهم المنافقون. وقد ذكر الطبري أن هذه الآية نزلت في رجل من المنافقين دعا رجلاً من اليهود في خصومة كانت بينهما إلى بعض الكهان ليحكم بينهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: "والمراد بـ"أولي الأمر منكم" أمراء الحق، لأن أمراء الجور: الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق، والأمر بهما والنهي عن أضدادهم، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا "يعني طاعة الأمويين" في قوله: "وأولي الأمر منكم"، قال: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول". ويضيف الزمخشري قائلا: "وقيل هم "أولو الأمر" أمراء السرايا. وعن النبي (ص) "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن يعص أميري فقد عاصني". وقيل: هم العلماء الدينون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. "فإن تنازعتم في= شيء": فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين فردوه إلى الله ورسوله: أي ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة". ثم يعلق الزمخشري قائلا: "وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك، وهو أنه أمرهم أولا بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخرا بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل. وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئا إلى كتاب ولا سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة". غير أن=

إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ (الطاغي)، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا[60]، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا[61]. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ: (قائلين) إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا[62]! أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا[63] (الوعد والوعيد). وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا[64]. فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (أي المنافقون) حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ (في ما اختلفوا فيه)، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[65] (39). وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ (على المنافقين) أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (40)

أقدم الروايات تجعلهم أمراء الرسول على السرايا، أي فرق المجاهدين. قال الشافعي في "الرسالة": "قال بعض أهل العلم: أولو الأمر: أمراء سرايا رسول الله. والله أعلم، وهكذا أخبرنا. وهو يشبه ما قال، والله أعلم، لأن كل من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة، وكانت "العرب" تأنف أن يعطي بعضها بعضا طاعة الإمارة. فلما دانت لرسول الله لم تكن ترى ذلك يصلح لغير رسول الله، فأمروا أن يطيعوا أولي الأمر الذين أمرهم رسول الله، لا طاعة مطلقة، بل مستثناة، فيما لهم وعليهم فقال: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله". يعني: إن اختلفتم في شيء. وهذا -إن شاء الله- كما في أولي الأمر، إلا أنه يقول: "فإن تنازعتم" يعني -والله أعلم- هم وأمراؤهم الذين أمروا بطاعتهم، "فردوه إلى الله والرسول": يعني -والله أعلم- إلى ما قال الله والرسول إن عرفتموه، فإن لم تعرفوه سألتم الرسول عنه إذا وصلتم، أو من وصل منكم إليه". ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال عن الآية التي نحن بصددها (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) إنها "نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية" الخ.

39- واضح أن الكلام هنا عن المنافقين، فالآية متصلة مع ما قبلها والسياق واحد. ومع ذلك يرون حادثة بين الزبير ابن عمة النبي ورجل من الأنصار حصل بينهما شجار حول ماء السقي فاشتكيا إلى الرسول عليه السلام فحكم لصالح الزبير مما أثار غضب خصمه الأنصاري فقال للرسول: "اعدل يا نبيّ الله وإن كان ابن عمتك"، فجاءت الآية جوابا على ذلك. ونحن نرى أنه لا ضرورة للخروج من السياق إلى حادثة لم تسجل في حينها ولا يُعلم يقينا أنها ذات علاقة بالآية. والآية التالية مباشرة تتحدث عن المنافقين.

40- ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك المحتكمين إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضا بالخناجر لم يفعلوا إلا قليل منهم (البقرة 54)...، وهذا تعريض بعلاقة هؤلاء المنافقين مع اليهود.

أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ، إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا[66]، وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا[67]، وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[68]. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا[69]. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا[70]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ (اخرجوا للقتال جماعة بعد أخرى) أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا[71] (مع النبي)؛ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ (وهم المنافقين) فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ، إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا[72]، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ، كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا[73]. فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ (يبيعون) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[74]. وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا (مكة، وأهلها قريش) وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا[75]. الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ (طغاة قريش عبدة الأصنام)! فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا[76]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ (لا تستعملوا العنف مع المشركين في مكة، وكانوا يستأذنون الرسول في ذلك ويلحون) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ (في المدينة) إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا (أخرت موتنا) إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ [41]! قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا[77]. أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ! وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ! قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا[78]. مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[79]. مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا[80]. وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ (أي نحن

41- في رواية عن ابن عباس أوردها الطبري أن هذه الآية تشير إلى "عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: يا رسول الله، كنا في عزّ ونحن مشركون (قبل إسلامهم في مكة)، فلما آمنا صرنا أذلة! فقال: "إني أُمِرْتُ بالعفو فلا تُقاتِلوا" فلما حوّلهم الله إلى المدينة أمروا بالقتال فكفوا".

نطيع الله والرسول)! فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ (قالت) طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ (يقولون ويغيرون)، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[81]. (هؤلاء الذين يحرفون ما تقول:) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ (ليعلموا أن ما تقول هو الحق)؟! وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا[82]. وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ (أي خبر عن سرية غازية من المسلمين لم تحقق بعد مهمتها) أَذَاعُوا بِهِ (أفشوه وشنعوا به قبل أن يعلنه النبي)، وَلَوْ رَدُّوهُ (أي ذلك الخبر الذي وصلهم عن السرية) إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ (قادة السرايا) لَعَلِمَهُ (لعرف حقيقته: هل يبعث على الأمن أم على الخوف) الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (أي المختصون من القادة أولي الأمر في هذا الشأن)، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا[83]. فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ (42) وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا[84]. مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً (من يستجيب بصدق نية ويشفع المسلمين بمعنى: يؤازرهم في حربهم) يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا (من نتيجتها: غنائم)، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً (يعين أعداء المسلمين) يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا (نصيب من الوزر والخسارة والعقاب)، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا[85] (حفيظا وحسيبا). وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (43)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

42- يقول الطبري في شرح هذه العبارة : "لا يكلفك الله فيما فرض عليك من جهاد عدوّه وعدوّك، إلا ما حملك من ذلك دون ما حمل غيرك منه". وفسرها الزمخشري بما يلي: "قال (الله): "فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" إن أفردوك وتركوك وحدك ... لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ" : غير نفسك وحدها أن تقدّمها إلى الجهاد، فإنّ الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم اللقاء فيها، فكره بعض الناس أن يخرجوا فنزلت، فخرج وما معه إلا سبعون لم يلو على أحد، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده". قلت: لعل= الأنسب أن نقول إن الآيات السابقة كلها نوع من التعبئة لغزوات قادمة، بما فيها الذهاب إلى الحديبية. والآية التالية تزكي هذا الفهم : " وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا".

43- جل المفسرين تعاملوا مع هذه الآية على مستوى العموم وبقطع النظر عن السياق. ونحن نرى أن الآية مرتبطة بما قبلها : فالآية السابقة طرحت مسألة العون (الشفاعة) للمسلمين في مواجهة عدوهم، إيجابا أو سلبا، وتأتي هذه الآية لتوصي بالترحيب بمن استجاب (استجابة إيجابية) ترحيبا بمقدار استجابته أو بأكثر منها.

حسيبًا[86] الله لا إله إلا هو، ليجمعنكم إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ (للحساب)، ومن أصدق مِن اللهِ حديثًا[87].

11- المسلمون الذين لم يهاجوا من مكة... والقتل العمد والقتل الخطأ

فَمَا لَكُمْ (مختلفون) فِي الْمُنَافِقِينَ (في جماعة منهم كانت ما تزال مقيمة في مكة على) فِئَتَيْنِ (فئة ترى فيهم رأيا وأخرى ترى رأيا مخالفا)، و (الحال أن) واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ (أهلكهم) بِمَا كَسَبُوا، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا[88]. وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً (كفارا مثلهم)، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (كما هاجرتم)، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[89]، إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ (ينتمون) إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ (ضاقت) صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ (فهؤلاء كفوا عنهم)، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُم فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ (اجنحوا إلى السلم معهم)، فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا[90] (ليس لكم مبرر لقتالهم). سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ (44)، كُلَّ مَا (كلما) رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا (انغمسوا فيها) فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ (يسالموكم) وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ، وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا[91]. وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً (45)، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا (يتنازلوا عن حقهم في الدية، ويبقى على القاتل تحرير رقبة مؤمنة بالغة)، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ

44- تعددت الروايات حول المقصودين في هذه الآية، تقول إحداها: "هم ناس كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا (إن لم يبقوا على الحياد) ويصلحوا".

45- واضح أن الصلة بين هذه الفقرة وما قبلها قائمة. فالأوامر التي صدرت أعلاه بقتل المنافقين العملاء والانتهازيين والمتجسسين الخ مشروطة بوجوب أن تتم في إطار الدفاع عن النفس. وقتلهم بدون توافر تلك الشروط قد يؤدي إلى ردود فعل تطالب بالثأر ثم الثأر للثأر الخ، ولذلك وجب التمييز هنا بين القتل الخطأ والقتل العمد وهؤلاء المنافقون يشهروا الإيمان، فلا يجوز قتلهم عمدا.

عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ (46)، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ (رقبة يحررها، في هذه الحالة أو تلك) فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ: تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[92]. وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ (زيادة على القصاص) جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا[93]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (سافرتم للجهاد في سبيل الله) فَتَبَيَّنُوا (لا تتعجلوا في القتل)، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ (47). كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ (تحفزن إيمانكم عن المشركين) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (بالإسلام) فَتَبَيَّنُوا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[94]. لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الذين يعتذرون عن المشاركة في الحرب) –غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ (الذين لاشيء يمنعهم من المشاركة فيها)– وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ! فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا[95]: دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[96]. إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ (لم يهاجروا مع النبي إلى المدينة وبقوا في مكة) قَالُوا (قال لهم الملائكة) فِيمَ كُنْتُمْ (كيف كان موقفكم من دينكم)؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (نخاف المشركين في مكة)! قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا[97]، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ (الذين كانوا) لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً (ولا قوة) وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا[98] (للخروج من مكة)، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ. وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا[99]. وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا (أوضاعا وتحولات كثيرة) وَسَعَةً (في الرزق)؛ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[100].

46– قالوا: "كان الرجل يسلم، ثم يأتي قومه فيقيم فيهم وهم مشركون، فيمرّ بهم جيش لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقتل ذلك الرجل فيمن يقتل، فيعتق قاتله رقبة ولا دية له".

47– ذكر أن هذه الآية نزلت في قتيل قتلته سرية بعد ما عرف بنفسه كمسلم، وذلك من أجل غنيمة كانت معه أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه.

12- الصلاة وقت الحرب... وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ...

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ (مسافرين) فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ (48) إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا[101]. وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ (يا محمد) فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ: فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ. وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[102]. فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (مجموعين) إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا[103]. وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ (طلب العدو)، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[104]. إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا[105] (لا تقف ضدهم بل احكم بالعدل كيفما كان المتخاصمون)، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ (إن حدث أن انحزت) إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[106]. وَلَا تُجَادِلْ (تدافع) عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ (يخونون) أَنْفُسَهُمْ (جعلوا من أنفسهم خونة يخونون ما للغير)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا[107]: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ (خوف العار) وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ (يؤلفون) مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا[108]. هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا[109]؟(49) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ (بارتكابه ذنبا يعاقب به) ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ (يتوب) يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا[110]. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[111]. وَمَنْ يَكْسِبْ

48- اختلفوا حول التقصير من الصلاة ومقداره، وكثيرون منهم ميزوا بين تقصير الركعات من أربع إلى اثنتين بالنسبة للمسافر أيا كان، وإلى ما دن ذلك في الحرب (صلاة الخوف) حيث يقسم المحاربون إلى فئتين: فئة تقيم الصلاة وأخرى تحرسها، بالتناوب كما في الآيات أعلاه.

49- قالوا نزلت هذه الآيات من قوله (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الآية 105) في رجل اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعا من حديد وقال أصحابه من المؤمنين للنبيّ: اعذره في الناس بلسانك! ورموا بالدرع رجلاً من يهود بريئا. انظر تفاصيل القصة في الطبري.

خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ (شخصا آخر) بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا[112]. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ (وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن المدافعة عنه)، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ (من هؤلاء الذين يظلمون أنفسهم) أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ؛ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا[113]. لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ (لا خير في كثير من المتناجين من الناس) إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[114] وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ (يعاديه) مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى (من بعد ما أسلم) وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى (نجعل ناصره ما استعان به من الأصنام، وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه) (50) وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا[115]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا[116] (51). إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا (أشياء ميتة لا روح فيها) (52) وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا[117] (متمردا على الله يدفع إلى المعاصي)، لَعَنَهُ اللَّهُ! وَقَالَ (إبليس في قصته مع آدم) لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا[118]. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ (53) آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (بالإخصاء)! وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا[119]، يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا[120]. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

50- ما زال الكلام عن الخائنين المذكورين من قبل : لما أبى طعمة بن الأبيرق التوبة ولحق بالمشركين من عبدة الأوثان بمكة مرتدًا مفارقًا الرسول (ص) وسلم ودينه.

51- قال الطبري في هذه الآية: "إن الله لا يغفر لطعمة إذ أشرك ومات على شركه بالله، ولا لغيره من مات من خلقه بشركهم وكفرهم به؛ "وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ" يقول: ويغفر ما دون الشرك بالله من الذنوب لمن يشاء.

52- "الإناث: كل شيء ميت ليس فيه روح، خشبة يابسة، أو حجر يابس، الخ. وقيل المعنى: "إلا ما سموه بأسماء الإناث كاللات والعزّى وما أشبه ذلك"

53- البتك في البحيرة والسائبة، كانوا يُبتِّكون – يقطعون- آذانها لأصنامهم : كانوا إذا نُتِجَتِ الناقةُ أو الشاةُ عَشَرَةَ أبطُنٍ بَحَروها، وتركوها تَرْعَى وحَرَّموا لَحْمَها -إذا ماتَتْ- على نِسائهِمْ وأكَلَها الرِّجالُ، أو التي خُلِّيَتْ بلا راعٍ أو التي إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أبطُنٍ والخامِسُ ذَكَرٌ نَحَروه، فأكَلَهُ الرِّجالُ والنِّساءُ، وإن كانت أُنْثَى بَحَروا أُذُنَها، فكانَ حَراماً عليهِم لَحْمُها ولَبَنُها ورُكوبُها، فإذا ماتَتْ حَلَّتْ للنِّساءِ، أو هي ابْنَةُ السَّائبةِ، وحكمُها حُكْمُ أُمِّها، أو هي في الشَّاءِ خاصَّةً".

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا[121] (لا بديلا). وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا[122]. لَيْسَ (ذلك : الجنة) بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ! مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[123]. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا[124]. وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، (وقد) وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا[125]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا[126].

13– ... كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ...

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ! قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَ (من جملة ذلك) مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ (وبالخصوص في هذه السورة حيث وردت فتاوى) فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ، وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا[127]. وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ (54)، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ (المرأة شحيحة، مفرطة في حرصها على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها". وَإِنْ تُحْسِنُوا (إلى زوجاتكم) وَتَتَّقُوا (وتتجنبوا الطلاق وما في معناه) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[128]. وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ (إذا تزوجتم على زوجتكم الأولى) وَلَوْ حَرَصْتُمْ، (ولذلك) فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ (إلى الزوجة الجديدة) فَتَذَرُوهَا (الزوجة الأولى) كَالْمُعَلَّقَةِ (لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة)، وَإِنْ تُصْلِحُوا (تعدلوا بينهن) وَتَتَّقُوا (ولا تتركوا إحداهن كالمعلقة) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[129]. وَإِنْ يَتَفَرَّقَا (لم يتفق الزوج الذي يريد الزواج على امرأته وزوجته هذه) يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا[130]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ

54– الطبري: "عن ابن عباس في قوله: "وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا" قال: هي المرأة تكون عند الرجل حتى تكبر، فيريد أن يتزوّج عليها، فيتصالحا بينهما صلحا، على أن لها يوما ولهذه يومان أو ثلاثة" وكثير من المفسرين ذهبوا هذا المذهب. وعن عائشة: "قالت هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد ولها صحبة، فتقول: لا تطلقني وأنت في حلّ من شأني".

وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا[131]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[132]. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا[133]. مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا[134]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ (قوموا بالعدل عند شهادتكم) وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، (ولا تميلوا لأحد ضد آخر) إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى (فيمنعكم) أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا (ضد طرف) أَوْ تُعْرِضُوا (عنه) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[135]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ (التوراة)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا[136]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا (هم المنافقون أصدقاء اليهود وعملاء قريش آمنوا وارتدّوا، ثم آمنوا وارتدّوا، ثم ازدادوا كفرا بموتهم على كفرهم)، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا[137]. بَشِّرِ (هؤلاء) الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[138]. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ! أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا[139]. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ (أيها المنافقون) فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا (من طرف اليهود وقريش) فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ! إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا[140]. (إن المنافقين هم) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ (أيها المؤمنون): فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ (نصر وغنيمة) قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ (وطلبوا نصيبا من الغنيمة)، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ (من الغلبة) قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ (ننحز إليكم) وَنَمْنَعْكُمْ (وطلبوا النصيب من الغنيمة) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا[141]. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ (يكذبون) وَهُوَ خَادِعُهُمْ (عالم بما في قلوبهم)، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا[142]، مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ! وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا[143]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا[144] (حجة واضحة)؟ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا[145]؛ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، فَأُولَئِكَ

مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا[146]. مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ (لا منفعة له في عذابكم) إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ؟ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا[147]. لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ (فله حق الشكوى والتظلم). وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا[148]. إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا[149]. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ (محمد)، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا[150] (طريقا ومذهبا)، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا؛ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[151]. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[152].

14- يطلب أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ!

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ (يهود المدينة) أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ (خاصا بهم يثبت نبوتك وتكليفك بدعوتهم. لا تتعجب من طلبهم)! فَقَدْ سَأَلُوا (يعني أسلافهم) مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (عيانا نراه بأبصارنا) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ (أنفسهم عندما طلبوا رؤية الله)، ثُمَّ (إنهم) اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ (قبل ذلك، عندما بعثناك لتحريرهم من اضطهاد فرعون) فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا[153]. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (جبل، وكان جبلا من الدخان الخانق) بِمِيثَاقِهِمْ (بعد أن أخذنا منهم العهد بالعمل بالتوراة فنكثوا) وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ (باب حطة) سُجَّدًا (فدخلوا غير ساجدين)، وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا (لا تتجاوزا حرمات الميثاق) فِي السَّبْتِ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[154] (بذلك). فَبِمَا (=بسبب) نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ (مغطاة لا تسمع دعوتك) -بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا[155] (منهم)- وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا[156] (اتهموها بالزنا)، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا[157] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[158]، وَإِنْ (=ما من أحد) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (اليهود) إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ (بعيسى كمسيح منتظر) قَبْلَ مَوْتِهِ (أما بعد أن قتلوه -بزعمهم- فقد كفروا به ولم يعودوا يعترفون به كمسيح منتظر)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا[159]، فَبِظُلْمٍ

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا (فمن أجل جميع ما ذكر من المعاصي التي ارتكبها اليهود طوال تاريخهم) حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ، وَ (قد استحقوا هذا العقاب أيضا) بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا[160]، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ (في التوراة)[(55)]، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَ (علاوة على هذا العقاب الدنيوي : تحريم الطيبات) أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[161]. لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ (بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر) يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْمُقِيمِينَ[(56)] الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

---

55 – 5في التوراة: "...ولَكِنْ إِنْ كَانَ الْمَرْءُ صَالِحاً يُمَارِسُ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، 6وَلَمْ يَصْعَدْ إِلَى الْجِبَالِ لِيَأْكُلَ أَمَامَ الأَنْصَابِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى أَصْنَامِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَزْنِ مَعَ امْرَأَةِ جَارِهِ وَلَمْ يُعَاشِرِ امْرَأَةً طَامِثاً، 7وَلَمْ يَظْلِمْ أَحَداً، بَلْ رَدَّ لِلْمَدْيُونِ رَهْنَهُ، وَلَمْ يَسْلِبْ قَطُّ، وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ خُبْزَهُ وَكَسَا الْعُرْيَانَ ثَوْباً، 8وَلَمْ يُقْرِضْ بِالرِّبَا وَلَمْ يَأْخُذْ حَرَاماً، وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ ارْتِكَابِ الإِثْمِ، وَقَضَى بِالإِنْصَافِ وَالْحَقِّ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانٍ. 9وَمَارَسَ فَرَائِضِي، وَأَطَاعَ أَحْكَامِي بِأَمَانَةٍ، فَهُوَ صِدِّيقٌ وَحَتْماً يَحْيَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. 10فَإِنْ أَنْجَبَ ابْناً لِصّاً سَفَّاكاً لِلدِّمَاءِ، فَاقْتَرَفَ بِحَقِّ أَخِيهِ بَعْضاً مِنْ ذَلِكَ الشَّرِّ، 11وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ الْخَيْرِ، بَلْ صَعِدَ إِلَى الْجِبَالِ لِيَأْكُلَ أَمَامَ الأَنْصَابِ، وَزَنَى مَعَ امْرَأَةِ جَارِهِ، 12وَجَارَ عَلَى الْبَائِسِ وَالْمِسْكِينِ وَسَلَبَ وَلَمْ يَرُدَّ الرَّهْنَ، وَالْتَفَتَ إِلَى الأَصْنَامِ لِيَعْبُدَهَا وَارْتَكَبَ الأَرْجَاسَ، 13وَأَقْرَضَ بِالرِّبَا وَأَخَذَ رِبْحاً حَرَاماً، أَفَيَحْيَا؟ إِنَّهُ لاَ يَحْيَا! لأَنَّهُ اقْتَرَفَ جَمِيعَ هَذِهِ الْمُوبِقَاتِ فَإِنَّهُ حَتْماً يَمُوتُ، وَيَكُونُ دَمُهُ عَلَى رَأْسِهِ.

14أَمَّا إِنْ أَنْجَبَ ابْناً شَهِدَ جَمِيعَ مَا ارْتَكَبَهُ أَبُوهُ مِنْ ذُنُوبٍ وَلَمْ يَقْتَرِفْ مِثْلَهَا، 15فَلَمْ يَأْكُلْ عَلَى الْجِبَالِ أَمَامَ الأَنْصَابِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى أَصْنَامِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ لِيَعْبُدَهَا، وَلَمْ يَزْنِ مَعَ امْرَأَةِ جَارِهِ، 16وَلَمْ يَظْلِمْ أَحَداً، وَلَمْ يَحْتَفِظْ بِرَهْنٍ وَلَمْ يَسْلِبْ قَطُّ، بَلْ أَطْعَمَ خُبْزَهُ لِلْجَائِعِ وَكَسَا الْعُرْيَانَ ثَوْباً. 17وَلَمْ يُسِيءْ إِلَى الْبَائِسِ، وَلَمْ يُقْرِضْ بِالرِّبَا وَلاَ بِالرِّبْحِ الْحَرَامِ، وَقَضَى بِالإِنْصَافِ وَمَارَسَ فَرَائِضِي وَأَطَاعَ أَحْكَامِي، فَإِنَّهُ لاَ يَمُوتُ بِإِثْمِ أَبِيهِ، بَلْ حَتْماً يَحْيَا. 18أَمَّا أَبُوهُ فَلأَنَّهُ ظَلَمَ وَسَلَبَ أَخَاهُ وَارْتَكَبَ مَا هُوَ طَالِحٌ بَيْنَ شَعْبِهِ، فَهُوَ حَتْماً يَمُوتُ بِإِثْمِهِ. 19وَمَعَ ذَلِكَ تَقُولُونَ: لِمَاذَا لاَ يُعَاقَبُ الابْنُ بِوِزْرِ أَبِيهِ؟ حِينَ يُمَارِسُ الابْنُ الإِنْصَافَ وَالْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِكُلِّ فَرَائِضِي فَإِنَّهُ حَتْماً يَحْيَا. 20أَمَّا النَّفْسُ الَّتِي تُخْطِيءُ فَهِيَ تَمُوتُ. لاَ يُعَاقَبُ الابْنُ بِإِثْمِ أَبِيهِ وَلاَ الأَبُ بِإِثْمِ ابْنِهِ. يُكَافَأُ الْبَارُّ بِبِرِّهِ وَيُجَازَى الشِّرِّيرُ بِشَرِّهِ. (كتاب حزقيال)

56– تعددت تخمينات المفسرين واللغويين في تفسير مجي هذا اللفظ هكذا (والمقيمين) وليس"المقيمون" كما تقتضي قواعد اللغة. ونحن نرى أن جميع ما أدلوا به من تبريرات فيه من العدوان على اللغة أكثر من ورود لفظ "المقيمين" خارج قواعد اللغة. ذلك أن قواعد اللغة وضعت بعد نزول القرآن ولم يكن قبل إقرار تلك القواعد غير السليقة، السليقة ليست خطأ في اللغة بل هي اللغة قبل أن يدخلها قانون النحاة في الصواب والخطأ.

أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا[162]. إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا[163]، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا[164]: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[165]. لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[166]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا[167]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا[168]، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[169].

15- خاتمة: قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا..

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[170]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ! انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[171]. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا[172]. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[173]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا[174]. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[175].

3ب- مسألة الكلالة

يَسْتَفْتُونَكَ: قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ (حفظا لكم من) أَنْ تَضِلُّوا. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[176] (57).

---

57 – روي أن النبي (ص) أنه قال: الكلالة: "من مات وليس له ولد ولا والد".

- تعليق : النساء: ما لهم وما عليهن

تشتمل هذه السورة على ثلاث عشرة فقرة، مع أخرى إضافية. المقدمة والفقرات الخمس التي تليها، وكذا الفقرة الإضافية هي استمرار، من حيث الموضوع، لما ورد في السور السابقة، حول الشؤون العائلية : الحياة الزوجية، مسألة الإرث، السلوك العائلي الخ. وبما أننا قد أسهبنا في شرح الموضوعات التي تكلمت فيها السورة، سواء داخل نص التنزيل أو في الهوامش، فسنقتصر في هذا التعليق على تسجيل مواقف وملاحظات تخص النساء عموما، ما لهن وما عليهن، فنقول:

يتضح من هذه السورة ومن السورة المدنية أن المرأة في مدينة الرسول كان لها شأن. يتجلى ذلك من تصريح بعض زوجاته بأنهن كن يراجعن النبي عليه السلام، أي يعترضن، كما يتجلى من قولة عمر بن الخطاب عندما ذهب يستفسر الرسول عن حقيقة ما كان قد أشيع من أنه طلق زوجاته. قال عمر موجها الخطاب للنبي عليه السلام : "كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن، فكلمت فلانة يعني زوجته فراجعتني (ردت عليه بما يخالف قوله) فأنكرت عليها، فقالت تنكر عليّ أن أراجعك؟ فو الله إن أزواج النبي (ص) لتراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل". وقد بينا أن ذلك كان حينما طالبت زوجات النبي بالزيادة لهن في النفقة، مما أدى بالرسول إلى اعتزالهن مدة شهر (راجع الاستطراد آخر سورة الأحزاب. ثم لما نزلت آية "التخيير" التي منحت للنبي حق تخيير نسائه بين أن يبقين معه أو يطلقهن، وقد اخترن البقاء؛ وهكذا حسمت الآية الموقف بأن حددت لكل من الطرفين ما له وما عليه. وكان مما أقرته حصر عدد زوجات النبي في تسعة هن اللاتي كن عنده حين نزول الآية وعد السماح له بإضافة أخرى عليها، وفرضت على زوجاته سلوكا خاصا في تعاملهن مع أصحابه منه احتجابهن. أما السورة التي نحن الآن ضيوف عليها (سورة النساء) فهي بمثابة تكميل وتتمة للتشريعات السابقة الخاصة بالحياة الزوجية والعائلية. لقد طرحت في البداية قضية اليتامى وأموالهم، والزواج بهن أو بأمهاتهن الأرامل، كما وضعت حدودا لظاهرة تعدد الزوجات التي كانت مستشرية وبكيفية عامة "الذكورية" المفرطة التي كانت منتشرة في كثير من القبائل العربية وفي مقدمتها قريش، كما سنرى.

1- تبدأ السورة بمقدمة لها دلالتها : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ". ما يجب الانتباه إليه هنا هو الإشارة إلى أن الله خلق الناس (بني أدم) من نفس واحدة، وهذا إقرار لمبدأ المساواة بين الناس ذكورا وإناثا. فمن نفس آدم خلق زوجها (أي حواء)، وهذا ليس معناه أن زوجة آدم خلقت من جزء منه كشخص، بل خلقت هي وإياه من أصل واحد هو التراب: وَمن هذه النفس الواحدة بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً. وقد سبق لنا أن بينا معنى الزوجية في القرآن [58] ، وكيف أن جميع مخلوقاته تنتظمها الدورة الزوجية، الثنائية، التي لا فضل ولا امتياز لزوج منها على آخر إلا بالتقوى. وقد جمعت هذه المقدمة في عبارة واحدة بين الله والأرحام من زاوية أن العرب كانوا يعظمون الأرحام ويقسمون بها : هذه الإشارة إلى النفس التي خلق الله منها زوجها مصحوبة بالتذكير بالاحترام الذي يوليه الناس للأرحام (الوالدان والأقربون نسبا)، تنبئ بالموضوع الرئيس في السورة : موضوع الزوجات من جهة والأرحام من جهة أخرى (الإرث).

2- تبدأ الفقرة الثانية (بعد المقدمة) بالحث على حفظ أموال اليتامى فتوجه الخطاب إلى أوصيائهم طالبة منهم عدم المس بها فهي أمانة في عنقهم، حتى إذا بلغ الصغار سن الرشد سلموها إليهم، وبما أن زمن نزول هذه السورة كان زمن حرب بين المسلمين بقيادة النبي عليه السلام وبين مشركي قريش، وبما أنه كان من عادة بعض العرب التزوج بالنساء اللاتي مات عنهن أزواجهن، رغبة في الوصاية على أولاهن، خصوصا إذا ترك آباؤهن المتوفون أموالا، فقد كان لابد من إعادة تنظيم هذه الظاهرة وفق الخلقية الإسلامية. وهكذا جاءت الفقرة الأولى من هذه السورة، لا لتلغي هذا العرف بالمرة، بل لتشجع عليه -ضمنيا على الأقل لأنه كانت هناك بنات يتّمتهُن الحرب بين النبي وقريش- بل جاءت (السورة) لتنظم العلاقات بين الأطراف المعنية بهذه الظاهرة الجديدة على أساس الخلقية الإسلامية المبنية على الحث على العدل والإنصاف. ولا يستبعد أن يكون بعض الصحابة قد تحرجوا من الزواج بأمهات اليتامى خوف الجنوح إلى الإضرار بهم أو بأمهاتهن.

58- الله جعل مخلوقاته كلها مبينة على الدورة الزوجية: سماء وأرض، ليل ونهار، صيف وشتاء، عسر ويسر، ذكر وأنثى وحياة وممات، وموت فبعث الخ. أنظر القسم الثاني : سورة الروم، تعليق

مع أن الزواج منهن كان يخفف، من بعض الوجوه من ظاهرة الترمل واليتم. وكما رأينا في الاستطراد الذي ختمنا به كلامنا عن سورة الأحزاب فقد تزوج النبي نساء مُسنات ولهن أولاد استشهد أزواجهن في بعض الغزوات. ذلك هو السياق العام، التاريخي والاجتماعي والأخلاقي، الذي نزلت فيه الآية التالية : "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ (حل) لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا أن لا تعدلوا). ومع أن الصيغة اللفظية لهذه الآية تدل على أن الخطاب خطاب لـ"العموم"، ومع أن تعدد الزوجات كان قائما قبل الإسلام وحين قيامه، فلا شيء يمنع من فهم هذه الآية على مستوى "الخصوص"، بمعنى أن الخطاب فيها كان موجها للصحابة الذين ربما كانوا يتحرجون من الوصاية على اليتامى: فلقد أوصى القرآن مرارا باحترام أموال اليتامى وتوعد الذين يأكلون أموالهم، من ذلك قوله تعالى : "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا" (الإسراء-34). وبهذا النوع من الفهم يمكن فك العقدة التي استعصت على المفسرين، أعني فهم العلاقة بين اليتامى وإباحة تعدد الزوجات إلى أربع (انظر الهامش رقم 2 أعلاه).

3- نأتي الآن إلى الفقرة الثالثة وموضوعها كيفية توزيع الإرث أو "الفرائض" بالاصطلاح الفقهي، (لأن موضوعها بيان ما فرض الله لكل وارث، أي تحديد نصيبه من الميراث). ولنا في هذا الموضوع ملاحظتان رئيسيتان: أولاهما هي أن موقف القرآن في هذا الموضوع قد جاء مخالفا، إن لم يكن مناقضا تماما، لما ورد في الروايات التي تتحدث عن الأعراف العربية قبل الإسلام في هذا المجال. لقد احتفظ القرآن كما هو معلوم بكثير من العادات والأعراف والتقاليد التي تنسب إلى العرب قبل الإسلامية إما بعد تعديلها أو بدون تعديل، حسب قربها أو بعدها من الخلقية الإسلامية كما هو الحال في شعائر الحج والجنايات الخ. أما هنا، في مسألة الإرث فالأمر يختلف. ومع أن المسألة برمتها تقع ضمن إطار "القبيلة"، إطار "ذوي القربى" والأرحام، وهذا شيء طبيعي لأن الإرث هو انتقال مال المتوفى إلى ورثته كل حسب درجة قربه، فإن ما يتميز به نظام الإرث، كما حدده القرآن في الآيات التالية، هو إدخال المرأة في الحساب ضدا على ما سائدا في كثير من القبائل العربية. وقد يرجع هذا في جزء منه إلى الامتياز الذي كان للمرأة في المدينة ولم يكن لأختها في مكة، بمعنى أن درجة "الذكورية" في المدينة كانت أخف منها في مكة. لكن هذا لا يخفي حقيقة أساسية وهي أن القرآن المكي قد ساوى في خطابه

بين الذكر والأنثى" إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (البروج 10) "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (نوح 28) " مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40 غافر)، أضف إلى ذلك أننا لا نعثر فيه قط على ما يمكن أن يعتبر حطا من قيمة المرأة. ومع ذلك كله، فإن نظام الإرث كما حدده القرآن في هذه السورة (مع غض النظر عن تفريعات وتأويلات بعض الفقهاء الذين يلاحظ لديهم ميل لاشعوري نحو الحط من قيمة المرأة)، يبدو وكأنه يوفق بين ما جرت به العادة من طغيان الذكورية لدى قريش، وبالتالي ما حمله المهاجرون المكيون معهم إلى المدينة من بعض مظاهر هذه العادة، وبين ما كانت تتمتع به المرأة في المدينة من قوة الشخصية وحق "المراجعة" للرجال بما فيهم زوجها وأقاربها. إننا نلمح هنا نفس الإنصاف الذي عالج به القرآن ذلك التوتر الذي حدث بين النبي وزوجاته. وهكذا يعطيها القرآن الحق في الإرث –الشيء الذي لم يكن لديها قبل– وفي نفس الوقت يضع مسؤولية النفقة والإسكان الخ على الرجل، مع الاحتفاظ لها بمالها الخاص كحق لها وحدها دون زوجها.

– ذلك هو المبدأ الأول الذي تقرره السورة التي نحن ضيوف عليها : "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ (المتوفون) وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا"[7]. وهذا النصيب يتدرج كما يلي: " يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ (ذكرا كان و أنثى، واحدا أو جماعة)، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ (وللأب الثلثان) ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ (تنفيذ) وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ (قضاء) دَيْنٍ" الخ. هكذا يتوزع الإرث على أساس "للذكر مثل حظ الأنثيين"، على ستة أجزاء: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس. فالنصف مثلا فرض (نصيب) خمسة: ابنةُ الصلب، وابنة الابن، والأخت الشقيقة، والأخت للأب، والزوج. والربع والثمن الخ فرضُ آخرين بينتهم الآية أعلاه.

– أما المبدأ الثاني فهو المعبر عنه بـ "الحجب". وهو مبدأ يتحكم في التوزيع السابق فيسقط حق بعض الورثة كليا أو ينزل به إلى أدنى مما هو في الأصل. وقد حدد الفقهاء عدد من لهم حق الحجب كما يلي: الأخ الشقيق يحجب الأخ

للأب، والأخ للأب يحجب بني الأخ الشقيق، وبني الأخ الشقيق يحجبون أبناء الأخ للأب، وبنو الأخ للأب أولى من بني ابن الأخ للأب والأم، وبنو الأخ للأب أولى من العم أخي الأب، وابن العم أخي الأب الشقيق أولى من ابن العم أخي الأب للأب. وكل واحد من هؤلاء يحجبون بَنِيهم، ومن حَجب منهم صنفا فهو يحجب من يحجبه ذلك الصنف. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن الإرث في المجتمع القبلي، كالمجتمع العربي، يتحرك على مستوى النسب عموما، وعلى مبدأ الأقرب فالأقرب على مستوى "القبيلة". فالزوج والزوجة طرفان، ينتمي كل منهما إلى فرعين مختلفين داخل القبيلة الواحدة، أو ينتميان إلى قبيلتين ... وتحرك الزوجات (أو تبادل الزوجات) بين فروع القبيلة أو القبائل يكون مصحوبا دوما بتحرك المال على مستوى الصداق كما على مستوى الإرث، وقد سبق أن رأينا كيف اشتكت لدى النبي عليه السلام، امرأة مات زوجها مخلفا ابنتين فجاء أخ الزوج (عم البنتين) فاستولى على تركة أخيه كلها، ولم يترك للبنتين شيئا، فاحتجت الأرملة أم البنتين قائلة : "إنما تنكح النساء على أموالــهن". ومال المرأة : صداقها وما ترثه من أبيها. والمرأة قبل أن تتزوج لا تملك إلا مصدرا واحدا للمال هو الإرث، وحين يكون الإرث جالبا للزوج فهو يجلب الصداق أيضا. فالعلاقة الزوجية والعلاقة الاقتصادية والعلاقة القبلية هي علاقات متداخلة. وهي أيضا علاقة سياسية، إذ من المبادئ التي تبنى عليها العلاقات الاجتماعية السياسية في المجتمع القبلي، مبدأ "أكسره" : فحينما تكون هناك مشكلة اجتماعية أو سياسية بين رجل وآخر ينتميان لقبليتين أو لفرعين في القبيلة الواحدة، يُنصَح زعيم أحدهما بالعمل باستراتيجية : "أكسر صاحبك" أي تزوج ابنته، فتنقلب الخصومة بينهما مودة.

وكمثال على ذلك نذكر أن أبا سفيان الذي تولى زعامة قريش، بعد مقتل أبو جهل في غزوة بدر، والذي كان زعيم بني أمية المتنافسين مع بني هاشم بوصفهم بني عمومة يجمعهم النسب عند جدهم الأعلى عبد مناف، أقول إن أبا سفيان قد تغير موقفه المعادي للنبي، عندما بادر عليه السلام إلى الزواج من أم حبيبة ابنة أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر هناك. وعندما علم أبو سفيان بزواج النبي بابنته "لانت عند ذلك عريكته واسترخت شكيمته في العداوة"، وقال عن النبي (ص) عندما عيَّره بعض القرشيين بكونه رضي أن تتزوج ابنته خصمه محمدا عليه السلام رد بقوله : "ذلك الفحل لا يقدع أنفه"[59]. ويبارك

---

59 – الزمخشري، الكشاف. ج4، ص 91.

القرآن هذه البادرة بقوله تعالى : "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة..." (الممتحنة 10). وبعد ذلك بقليل تبرم قريش، بزعامة أبي سفيان، "صلح الحديبية" مع النبي عليه السلام، ويأتي الوحي، والمسلمون في طريق عودتهم من الحديبية إلى المدينة بعد إبرام الصلح، يأتي الوحي بسورة تبشر النبي بـ"الفتح". فتح مكة، مستعملة صيغة "الماضي" مكان المستقبل إشارة إلى أن المسألة قد أصبحت الآن مسألة وقت فقط، قال تعالى : "إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا" (الفتح 1/48-3). وقد سجلنا، سابقا، في موقف أبي سفيان تحولات في هذا الاتجاه في كل من غزوة أحُد وغزو الأحزاب (انظر التقديم في سورة الأحزاب). وإذا استحضرنا من جهة أخرى موقف العباس بن عبد المطلب عم النبي على السلام الذي بقي في مكة تاجرا من شخصيات قريش المرموقة وصديقا لأبي سفيان، وأنه كان يزود النبي بالأخبار -ولذلك أطلق سراحه يوم تم أسره في موقعة بدر- وأنه هو الذي فاوض أبا سفيان نيابة عن النبي يوم ذهب لفتح مكة، وأنه هو الذي سلمها له بدون قتال، إذ استسلمت تحت نداء "ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن" الخ. وإذا أضفنا إلى ذلك تعيين ابنه معاوية ضمن كتاب الوحي للنبي ثم تعيينه واليا على الشام فيما بعد، سهل علينا أن نفهم كيف أن أكبر دولتين في الإسلام هما:" دولة بني أمية ثم دولة بني العباس. إن "القضية" بدأت يوم تزوج النبي عليه السلام أم حبيبة بنت أبي سفيان ...

4- لنغادر الفقرة الثالثة التي فصّلت القول في مسألة الإرث والوصية ولننتقل إلى الفقرة الرابعة التي اهتمت بما يخص العلاقة الزوجية، وبالتحديد قضية الزنا. قال تعالى: "وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا. إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا". لقد شرحنا هذه الآية وزودنا شرحنا بهامش يوضح فهمنا لها، ونريد هنا أن نفصل قليلا في الفهم الذي اقترحناه بعيدا عن تأويلات المفسرين المتناقضة فنقول: المقصود بـ"اللاتي يأتين بالفاحشة" هن من اشتهر ذلك عنهن، سواء كن "باغيات" معروفات أو يمارسن البغاء بنوع من التخفي. وهنا تصبح شهادة أربعة شهود ممكنة، وحكمهن ما ذكر، وهو "السجن" وهو حكم مناسب. ويجب أن لا ننسى أن هذه الآية نزلت في بداية التشريع، في وقت كانت فيه دور البغاء موجودة ومعروفة في مكة والطائف المدينة ... أما قوله تعالى "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ"، أي

المسلم والمسلمة، اللذان يزنيان أحدهما مع الآخر، في إطار العلاقات الفردية وخارج نطاق البغاء، فالحكم هو "فَآذُوهُمَا : أي ألحقوا الأذى بهما، ولم يتحدد نوع الأذى، ونحن نرجح أن مجرد إدانتهما مع النهي الصريح عن هذا العمل كانا يكفيان في هذه المرحلة، تماما كما كان كافيا في ذلك الوقت النهي عن تناول الخمر حين الصلاة في قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ". يؤيد هذا الذي ذهنا إليه بصدد هذين "اللذين يأتيان بالفاحشة" قوله تعالى : "فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا".

5- وتختص الفقرة الخامسة بمسألة العضل وقد بينا طريقة فهمنا لهذه الآية في الهامش على الشرح، ونريد هنا أن نبين كيف تأدينا إلى ذلك الفهم من خلال تأمل تركيب عبارات الآية الخاصة بالموضوع، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (ورثة الميت) لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ (الزوجات) كَرْهًا (بأن تتزوجوا زوجات المتوفين غير راضيات). وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ (لا تمنعوا النساء زوجاتكم) لِتَذْهَبُوا (لتطالبوا) بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (بدون رد فعل على تلك الفاحشة –زنا كانت أو نشوزا– يزيد الموقف توترا، بل يجب أن تكون معاشرتكم لهن عادية)، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ (لم تعودوا راغبين فيهن كزوجات فتثبتوا ولا تتعجلوا بالطلاق)، فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[19]! وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ (أي إذا أردتم الطلاق بدون سبب إلا الرغبة في الاستبدال) وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا (وكنتم قد أعطيتم مهرا كبيرا للتي تريدون تطليقها) فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" (كذبا ومعصية)؟! "وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ (وقد كان بموافقة منكما ورضا) وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[21] (لأنه منصوص عليه في عقد الزواج كفريضة لها)...
وقد اختلف المفسرون في فهم تركيب هذه الآية فجعلوا الضمير في "ولا تعضلوهن" يعود إلى النساء في "أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا"، وكأن نفس النساء المنهي عن ورثتن كرها هن أنفسهن المنهي عن عضلهن، فوقعوا في اضطراب لا مخرج منه. هذا في حين أن الأمر على خلاف ذلك. فقوله تعالى : "إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"، ينصرف معناه إلى الزوجات اللاتي في عنق أزواج أحياء كما هو واضح. وإذن فالآية التي نحن بصددها قسمان: القسم الأول هو قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (ورثة الميت) لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا (والمقصود زوجات المتوفين من أقاربكم الذين أنتم ورثتهم). والقسم الثاني هو قوله "وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ

لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ" الخ. القسم الأول يخص زوجات المتوفين وما كان من التحايل على الاستيلاء على إرثهن كما هو مشروح في الهامش على الشرح، أما القسم الثاني فيخص زوجات رجال أحياء، يكرهون زوجاتهم ويفارقوهن في المضاجع، ويتركوهن هكذا حتى يمتن أو يطلبن الطلاق ليكون من حق الزوج مطالبتهن برد صداقهن إليه.

6- وتأتي الفقرة السادسة من السورة لتبين من يحل ومن لا يحل للمسلم الزواج بهن، فتميز بين ثلاثة أنواع من الزيجات:

أ- الزواج الشرعي بشروطه : ويحرم فيه الزواج بنساء الآباء (والمفهوم في حالة وفاتهم)، "إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ" حين نزول هذه الآية (أي باستثناء ما تم من هذا الزواج بين المسلمين والمسلمات قبل الإسلام، إلى نزول هذه الآية). أما ما عدا ذلك فالآية تحدد لائحة المحرمات كما يلي: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ..." الآية. وتضيف الآية: أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ (أي من غير المحرمات المذكورة، وفي إطار: من واحدة إلى أربع) : أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ (زوجات) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (غير زانين).

ب- زواج المتعة وقد نصت عليه الآية في قوله تعالى "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) فَرِيضَةً، أي واجبة لهن حسب ما هو منصوص عليه في عقد الزواج الذي وافق عليه الزوج والزوجة وهو عقد إلى أجل. وتضيف السورة : إنه يجوز لهما أن ينقصوا برضاهما من مقداره الأجر إذا تعرض الزوج لضائقة مالية، وقيل يجوز لهما أيضا أن يزيدا في أجله. لنكتف هنا بهذا التذكير فسنخصص بعد قليل استطرادا لزواج المتعة.

ج – الزواج من الإماء لمن لا يملك من المال ما يدفع به الصداق للحرائر، شرط أن تكون الزوجة/الأَمَة مسلمة محصنة وأن يكون ذلك بصداق مهما قلت قيمته وبإذن أهلهن. على أن لا يكن باغيات أو ذوات أصحاب "فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ (الحرائر) مِنَ الْعَذَابِ" (العقاب)، ذَلِكَ (أي التزوج بالإماء مباح) لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ (خاف من الزنا وعقوبته)؛ وَأَنْ تَصْبِرُوا (فلا تتزوجوا الإماء) خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ". وبما أن العصر الحاضر هو عصر إلغاء الرق. إذ لم يبق منه في بلاد المسلمين إلا ما هو في إطار السرية، فإن إباحة الزواج بـ "الإماء" للمضطر في وقت كان فيه الرق سائدا وعاديا، يمكن -في وقت لم يعد فيه مقبولا- أن يتخذ دليلا ومرشدا في حالة اضطرار كما سنقول في الاستطراد.

7- تواصل السورة في الفقرة السابعة الكلام في موضوع النساء لتطرح مسألة المساواة بينهما خصوصا ما أثارته بعض زوجات النبي عليه السلام من تساؤلات حول مبدأ "للذكر حظ الأنثيين" [60] وحول قوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء"، الشيء الذي يفهم منه في "الظاهر" أن الدين الجديد يضع المرأة في مرتبة أدنى من مرتبة الرجل. ولما كان مضمون تساؤلات النساء في هذا الموضوع يتعلق بـــ "السلطة" على صعيد الأسرة كما على صعيد المجتمع (السلطة السياسية لم تكن مطروحة لأن القيادة كانت للرسول عليه السلام)، فإن من جملة ما كان يثوي وراء هذه التساؤلات : الحقوق الاقتصادية. ولابد من التذكير هنا بكون وضعية المرأة كانت في المدينة أقوى مما كانت عليه في مكة [61].

انطلقت الفقرة في معالجة المسألة المطوحة من الزاوية الاقتصادية فنهت المؤمنين عن التعامل غير المشروع في مجال المال "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا

---

60 – قيل: "لما نزل: "لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ" جرى نقاش في الموضوع فقالت النساء: كذلك على الرجال صيبان من الذنوب، كما لهم نصيبان من الميراث. وقال النساء: لو كان جعل أنصبتنا في الميراث كأنصبة الرجال! وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهنّ في الميراث! فأنزل الله: "لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ"، وبالتالي: المرأة تجزى بحسنتها عشر أمثالها كما يجزي الرجل، قال الله تعالى: "وَسْــَٔلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ"! وقال بعضهم : "للرجال نصيب مما ورثوا، وللنساء نصيب مما ورثن"؛ وقد رد الطبري على هذا الرأي الأخير بقوله إن معنى الآية: "أن لكلّ فريق من الرجال والنساء نصيبا مما اكتسب، وليس الميراث مما اكتسبه الوارث، وإنما هو مال أورثه الله عن ميت لقريبه بغير اكتساب، وإنما الكسب : العمل، والمكتسب: المحترف". (الطبري). وهذا النوع من التوزيع للإرث قد جاء ضد العرف الذي كان سائدا قبل الإسلام، على الأقل لدى بعض القبائل العربية، والذي بمقتضاه: "كان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك؛ فلما جاء الإسلام، بقي منهم ناس، فأمروا أن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس". وذلك قبل إلغاء هذا العرف بقوله تعالى: "وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ"، قالوا هذه الآية نسخت ذلك العرف، وما هو بنسخ، بل هو تشريع جديد حل محل العرف القديم.

61 – نذكر هنا بقولة عمر بن الخطاب يوم ذهب إلى النبي لاستطلاع أسباب التوتر بينه عليه السلام وبين زوجاته حتى هددهن بالطلاق، فقال (عمر) : "كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن". ويدخل في هذا الإطار ما يحكى من أن النبي عقد على امرأة فدعاها إليه فردت عليه قائلة: "إنا قوم نُؤتَى ولا نأتي! فردها إلى أهلها".

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ"، وبينت مجال المعاملة المشروعة، وهو المبادلات التجارية القائمة على التراضي دون ضغط أو غش أو ربا، مما يولد الحنق والنزاع وغير ذلك مما يمكن أن يفهم من هذه العبارة العامة.

من هنا توجهت السورة إلى تعميم هذا الأمر "لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ"، لتجعله ينطبق كذلك على المعاملة بين الرجال والنساء. قال تعالى موجها الخطاب إلى النساء والرجال: "وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ (في الرزق والثروة): لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ"[62]. ففي هذا المجال، مجال العمل والكسب المشروع بالتجارة أو غيرها، لا فرق مطلقا بين الرجل والمرأة، فليس من حق الرجل أن يأخذ مما اكتسبته المرأة بجهدها كما أنه ليس من حق المرأة الأخذ مما كسبه الرجل إلا أن يكون ذلك مهرا أو هبة أو عطاء بالتراضي. ومع ذلك فإن على الزوج القيام بما هو واجب عليه نحو زوجته من نفقة وحماية الخ. وهذا القيام بما يجب على الرجال من واجبات نحو نسائهم هو "القوامة"، وهو معنى قوله تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ".

فسر الطبري هذه الآية كما يلي: "الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهن والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهنّ لله ولأنفسهم؛ "بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ" : يعني بما فضل الله به الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهنّ مهورهنّ، وإنفاقهم عليهنّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مؤنهن. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوّاما عليهنّ، نافذي الأمر عليهنّ فيما جعل الله إليهم من أمورهنّ". والحق أنه ليس في الآية ما يفيد أن الله جعل الرجال قوامين على النساء "في تأديبهن"، والتأديب يشمل الضرب. ولكي يزكي الطبري والقائلون بأن القوامة تشمل التأديب والضرب ساقوا أخبار مؤداها أن هذه الآية نزلت لتبطل حكما نطق به النبي عليه السلام في رجل لطم امرأته، فاشتكته إليه فحكم لها بالقصاص من لطمة زوجها. وفضلا عن أن إقحام "سبب نزول" من هذا النوع في آية مندرجة

---

62 – نذكر بما روي من أن روي أن أم سلمة (ابنة أبي أمية بن المغيرة)، إحدى زوجات النبي عليه السلام، قالت: يا رسول الله (نحن النساء) لا نعطى الميراث (إلا نصف ما أعطي للرجل)، ولا نغزو في سبيل الله فنقتل (فتكون لنا الشهادة)، فنزلت "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض". ومع أن سياق الفقرة أعلاه لا يحتاج إلى هذا الرواية كـ "سبب نزول"، إلا أن مضمونها يتسق مع ما ذكرناه قبل من "تساؤلات النساء" و"مراجعتهن" للرجال من أزواجهن وآبائهن فضلا عن إخوانهن، في إطار المطالبة بالمساواة.

في سياق متماسك هو "عزل" لهذه الآية مع العلم أن مكانتها توقيفي... ومما يوهن من هذه الأخبار كون بعضهم يقول إنه بهذه المناسبة نزل أيضا قوله تعالى: "وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ" (طه 114)، وهذا خلط بين الأمور كما لا يخفى: فهذه الآية من سورة طه وقد نزلت في مكة قبل الهجرة.

لكن العلاقة بين المرأة والرجل لا تنحصر في مجال الإرث والكسب فحسب، بل هناك مجال آخر هو العلاقة الزوجية التي تتجاوز المعاملات الظاهرة إلى العلاقة الحميمية. وهي في القرآن مبنية على التساوي : فعلى الزوجة أن تشبع الرجل حاجته الجنسية (الجماع) وعلى الزوج الشيء نفسه. والعلاقة الزوجية مبينة أساسا على الحب أي الميل العاطفي، فضلا عن التراضي. ولكن قد يحدث لسبب من الأسباب أن يجمد هذا الميل العاطفي فينقلب إلى هجر وكراهية ونشوز. وقد طرحت الفقرة التي تتحرك فيها هذه المسألة بوضوح ورسمت لها حلولا على أساس المساواة. وما يهمنا هنا التركيز عليه، بعدما قلناه أعلاه في الهوامش الخاصة بهذه المسألة، هو ما أثير ويثار حول تنصيص الآية الخاصة بنشوز المرأة على "ضرب الزوجات". وقد فهم كثير من القدماء والمحدثين "الضرب" كما يفهم في حال الخصومة، أي اللكم والإيذاء باليد أو بالعصا وما أشبه، وذلك نتيجة عدم ربط هذه الكلمة بسياقها ولا بما روي في شأنها من أخبار تحدد معناها. إن "الضرب المطروح هنا ليس هو "الاعتداء بالضرب" بمعناه الذي يفهم عند الخصومة والعداوة. كلا، هذا لا وجود له في القرآن. إن الضرب المنصوص عليه في هذه الآية ليس من ذلك النوع بل هو وسيلة للتخفيف من نشوز المرأة وإعراضها عن تلبية رغبة الرجل في المضاجع، رغبته في الجماع. قال تعالى : "وَاللَّاتِي تَخَافُونَ (تعانون من) نُشُوزَهُنَّ (من استعلائهنّ عليكم، وكراهتهن لكم كأزواج، وامتناعهن عليكم في فراش الزوجية) فَعِظُوهُنَّ (اطلبوا منهن بلطف الرجوع إلى المضجع)، وَ(إن امتنعن) فـ"اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ (لا تجامعوهن بالقوة) وَاضْرِبُوهُنَّ (هناك في المضاجع ضربا غير مبرح: وقد رويت عدة أخبار في تحديد معنى الضرب غير المبرح، منها حديث نبوي ورد فيه، عندما سئل النبي عن معنى الضرب هنا، قوله : "الضرب غير المبرح هو مثل الضرب بالسواك ونحوه"، غير مؤثر؛ ونسبوا مثل هذا إلى ابن عباس أيضا. وفي لسان العرب : "السِّواكُ ما يُدلَكُ به الفَمُ من العيدان". وأيضا: "السَّواكُ والتَّساوُكُ : السير الضعيف". تقول العرب "جاءَت الغنم هزلَى تساوكُ أي تتمايل من الهزال والضعف في مشيها". وفي الحديث: من جهات متعددة: "خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ... ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُمْ

(الرجال) فِيهِنَّ، فَقَالَ: عَلَامَ يَجْلِدُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ... وَقَالَ لِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الْفَحْلِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُهَا". إذن فالضرب المعني هنا ليس من النوع الذي يجعل المرأة تخاف وتذعن، بل هو من قبيل "التسوك" (دلك الفم بالسواك) وهو بحركة السير الضعيف أشبه. وإذن: ألا يعني ذلك نوعا من المداعبة الهادئة على الفراش لاستثارتهن وجعلهن يُقبلن على الجماع أو يطلبنه بالأحرى؟

وهذا النوع من الفهم يجد ما يزكيه في السياق تزكية تامة. ذلك أن الآية قد استعملت لفظ الضرب بعد لفظ "الوعظ" (فَعِظُوهُنَّ) ثم أردفت "فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ" بعد ذلك النوع من "الضرب" الذي هو مثل دلك الفم بالسواك، أي بعد مداعبتهن (ومن المداعبة بالضرب الخفيف ما يثير المرأة ويهيج الغريزة الجنسية فيها) فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أي لا تطلبوا منهن أكثر من ذلك، كأن ينجذبن إليهم انجاب الحب والغرام فذلك ليس يقع تحت الإرادة والتصرف الذي تحكمه الإرادة، وبالأحرى لا تعاقبوهن على نشوزهن. وإن استمر النزاع بينهما إلى الدرجة التي قد تجرهما إلى الطلاق فالواجب على أهلهما أن يبادروا إلى المصالحة بينهما بتعيين حكم مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَم مِنْ أَهْلِهَا، فإذا مالا إلى المصالحة فالله "يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا".

إلى هنا ينتهي القسم الذي خصصته السورة للنساء، أما الفقرات الباقية وهي من الثامنة إلى الخامسة عشرة فتتناول قضايا متعددة: الإحسان إلى الوالدين والنفقة على المساكين، والنهي عن شرب الخمر وقت الصلاة، و"الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك"، وفضح سلوك المنافقين والتشهير به، وقضية المسلمين الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا وما قد يحدث من تعقيدات في هذه الوضع كالقتل، خطأ أو عمدا، وصلاة الخوف حين المعركة مع العدو، والأمر بالعدل في أداء الشهادة، والرد على اليهود الذين تحدوا النبي بأن طالبوه بأن يَنَزِّل عَلَيْهِم كتابا من السماء. وأخيرا تأتي الخاتمة لتجدد الدعوة إلى الناس لتقوى الله، والإيمان بما جاء به رسول الله، وهذه الدعوة موجهة لليهود والنصارى والذين آمنوا بمن الرجال والنساء والمؤمنين الصادقين والمؤمنين المترددين، وهم المنافقون.

استطراد : حول زواج المتعة

نخصص هذا الاستطراد لمسألتين لعلهما من أكثر المسائل إثارة للجدل بين المفسرين والفقهاء في موضوع الزواج، وهما : زواج المتعة من جهة، والزواج من الإماء من جهة أخرى. ومع أننا قد تعاملنا مع هذين الموضوعين حين الشرح بنوع من التفصيل فقد ارتأينا أن نجمل هنا أبرز مع قيل في الموضوع لندلي نحن بناء على ذلك برأينا في الموضوع. لنبدأ باستعادة الآية التي شرعت لموضوع زواج المتعة أولا. قال تعالى بعد ذكر ما حرم من النساء على المسلمين: "وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ (أي من غير المحرمات المذكورة، وفي إطار: من واحدة إلى أربع) أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ (نساء)، مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (غير زانين)، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) فَرِيضَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"[24].

وابتغاء النساء بالأموال (أي بدفع أجور لهن) يكون إما بالزواج الكامل : مهر وعقد إلى غير أجل، وإما بزواج المتعة الذي يكون بمهر وعقد إلى أجل. وإما بالونا وهذا محرم.

زواج المتعة وهو موضوعنا هنا. وسنعرض ما قيل فيه من وجهة نظر أهل السنة. أما الشيعة الإمامية فهو معمول به عندهم ولهم في ذلك مستندهم خصوصا ما روي عن علي بن أبي طالب، وسنذكر ما ترويه عنه المصادر السنية.

<u>الاستمتاع، والمواقف من زواج المتعة</u>

قال القرطبي في بيان معنى الاستمتاع والأجر المنصوص عليهما في الآية السابقة ("فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً") : "الاستمتاع التلذذ. والأجور المهور؛ وسُمِّيَ المهر أجراً لأنه أجر الاستمتاع، وهذا نصٌّ على أن المهر يسمى أجراً، و(ذلك) دليل على أنه في مقابلة البُضع؛ لأن ما يقابل المنفعة يُسمَّى أجراً. وقد اختلف العلماء في المعقود عليه في النكاح ما هو: بَدَنُ المرأة، أو منفعة البُضع، أو الحِلّ: ثلاثة أقوال، والظاهر المجموع، فإن العقد يقتضي كل ذلك".

هذا عن الاستمتاع والأجر من الناحية اللغوية. لكن المقصود بالاستمتاع في الآية المذكورة موضوع خلاف كبير. بعضهم فسر قوله "فما استمتعتم به منهن" بالقول : "فما نكحتم منهنّ فجامعتموهنّ"، ومعلوم أن النكاح على معنيين: الجماع

والتزويج بعقد ومهر وشهود الخ (الزواج الشرعي). والاستمتاع في إطار هذا النكاح موضوع الحكم في الآيات السابقة هو استمتاع الزوج بزوجته في كل ما يخص العلاقة الزوجية. وهذا النوع من الفهم غير مسلم به لوجود أدلة على أن المقصود شيء آخر. هو : ما تمتعتم به منهنّ بأجر، "تمتع اللذة، لا بنكاح مطلق على وجه النكاح الذي يكون بوليّ وشهود ومهر"، وهذا هو المسمى "زواج المتعة"، وحوله خلاف كثير وآراء متباينة متناقضة.

روى الطبري عن السُّدي (وهو من المرجعيات الرئيسية في التفسير عند أهل السنة) أنه قرأ هذه الآية كما يلي: "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ إلى أجَلٍ مُسَمًى فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ"، وقال : "فهذه (هي) المتعة : الرجل ينكح المرأة بشرط إلى أجل مسمى، ويُشهد شاهدين، وينكح بإذن وليها، وإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها (تحيض، علامة على خلو رحمها من الحمل)، وليس بينهما ميراث، ليس يرث واحد منهما صاحبه". وقيل إن الآية وردت في مصحف أبي هكذا: "فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ إلى أجل مسمّى". وعن ابن عباس كذلك، أي بإضافة "إلى أجل مسمى"، وروي أن سعيد بن جبير كان يقرأ: "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ إلى أجَلٍ مُسَمًى فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ". ونسب إلى علي بن أبي طالب قوله: "لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي"، كما نسب إلى ابن عباس قوله: ما كانت المُتعة إلاّ رحمة من الله تعالى، رحم بها عبادَه، ولولا نهْيُ عمر عنها ما زنَى إلاّ شَقِيّ".

وفي مقابل هذا الموقف المجيز لزواج المتعة، هناك آراء أخرى تقول العكس. يقول القرطبي "وقال الجمهور: المراد (في الآية) نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام. ثم نهىَ عنه النبيّ (ص). وقال سعيد بن المسيب: إن الآية السابقة نسختها آية الميراث؛ إذْ كانت المتعة لا ميراث فيها. ونسب إلى عائشة وغيرها القول بتحريم زواج المتعة استنادا إلى قوله تعالى: "وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلا عَلَىَ أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ" (المؤمنون: 5- 6)، "وليست المتعة نكاحاً ولا مِلْكَ يَمين". كما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: نهى رسول الله (ص) عن المتعة، مضيفا وإنما كانت لمن لم يجد، فلما نزل النّكاح والطّلاق والعِدّة والميراث بين الزوج والمرأة نُسخت. ونسب إليه أيضا قوله: نَسخ صوم رمضان كلّ صوم، ونسخت الزكاةُ كلّ صدقة، ونسخ الطلاقُ والعدّةَ والميراثُ

المتعة، ونسخت الأُضحية كلّ ذَبْح. كما نسب إلى ابن مسعود أنه قال: المتعة منسوخة، نسخها الطلاق والعدّة والميراث.

ويضيف القرطبي: "واختلف العلماء كم مرّة أبيحت ونُسخت؛ ففي صحيح مُسلم عن عبد اللـــه قال: كنا نَغْزُو مع رسول اللـــه (ص) وسلّم ليس لنا نساء؛ فقلنا: ألا نَسْتَخْصِي ؟ فنهانا عن ذلك، ثم رَخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجَل. ونقل عن أبي حاتم البُستِيّ في صحيحه قوله : إن سؤالهم "ألا نستخصي؟" دليل على أن المُتْعة كانت محظورة قبل أن أُبيح لهم الاستمتاع، ولو لم تكن محظورة لم يكن لسؤالهم عن هذا معنًى، ثم رخّص لهم في الغزو أن ينكحوا المرأة بالثوب إلى أجل، ثم نهى عنها عامَ خَيْبَر، ثم أذن فيها عامَ الفتح، ثم حرّمها بعد ثلاث، فهي محرّمة إلى يوم القيامة"(هل هو طلاق بائن!؟ وكيف؟ كلام فيه تحكم ولا سند له). وقال ابن العربيّ: "وأما مُتعة النساء فهي من غرائب الشريعة؛ لأنها أُبيحت في صدر الإسلام ثم حُرّمت يومَ خيبر، ثم أُبيحت في غزوة أوْطاس، ثم حُرّمت بعد ذلك واستقرّ الأمر على التحريم". وقال غيره ممن جمع طرق الأحاديث فيها: إنها تقتضي التحليل والتحريم سبع مرّات.

قلت (الجابري): أما ما ذكروه من كون هذه لآية نسخت ثم عاد العمل بها ثم نسخت سبع مرات، أو أقل أو أكثر، فدليل على أن مفهوم "النسخ" لا معنى له ولا أصل! فكيف يعقل أن تنسخ آية حكم أخرى ثم يعود العمل بالأولى نسخا للنسخ الأول، وهكذا دواليك؟ ثم إننا نشك في صحة ما روي عن النبي والصحابة من كونهم استعملوا كلمة "نسخت" بكثرة في هذه المسألة، بينما لم يرد عنهم -حتى عند المروجين لهذا اللفظ- أنهم استعملوا هذا اللفظ في أمور أخرى استعمل فيها الفقهاء فيها مفهوم "النسخ". هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن هذا الذي قلناه يدل على أن الترويج لمفهوم النسخ في هذه المسألة كان متأخرا، وأنه كانت وراءه دوافع مذهبية خصوصا عندما تمسكت الشيعة بهذا النوع من الزواج : زواج المتعة. أما ما نراه نحن ويستفاد من أقوالهم جميعا فهو أن زواج المتعة كان بسبب ظروف خاصة، كلما انتفت تلك الظروف تم العدول عنه، وإذا تجددت كانت العودة إليه.

وبناء على هذا فنحن نؤيد موقف الرازي حين سئل عن زواج المتعة، خصوصا جوابه الأخير: فقد سئل عدة مرات فكان جوابه مرة : القول بالإباحة المطلقة، : وسئل : أسفاح هي أم نكاح؟ قال: لا سفاح ولا نكاح. هي متعة كما قال تعالى. وسئل هل لها عدة؟ فقال نعم عدتها حيضة. وسئل : هل يتوارثان؟ قال: لا. وقد استنكر أناس هذه الإجابات حتى إن بعضهم قال فيه شعرا (من نوع الهجاء)

فكان رد فعله أن قال: "قاتلهم الله إني ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق، لكني قلت: "إنها تحل للمضطر كما تحل الميتة والدم ولحم الخنزير له".

ونحن نرى أن في عصرنا ما يحمل على النظر إلى زواج المتعة على أنه "يحل للمضطر"، فغلاء المهور، والصعوبات التي يواجهها معظم شباب اليوم في العثور على سكن مقبول وبثمن مقبول الخ، مما يضطره إلى الزنا أو إلى ما يسمى بـ"الزواج العرفي" أو بغيره من الأسماء التي في معناه ... كل ذلك يبرر العودة إلى العمل به، بوصفه من المباح للمضطر.

<u>من لم يستطع طولا:</u>

ونحن نعتقد أن الحل الذي قررته الآية التالية لآية "نكاح المتعة" تفسح المجال لعقد مقارنة تزكي ما ذهبنا إليه. يقول تعالى، بعد الآية السابقة مباشرة: "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا (ليس له من المال ما يمكنه من) أَنْ يَنْكِحَ (يتزوج الحرائر) الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَـ(ليتزوج) مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ (إمائكم) الْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ (مالكيهن)، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) بِالْمَعْرُوفِ، (على أن يكن) مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ (باغيات) وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ" (من ذوات "الأصحاب").

ومع أن الاتجاه العام والمبدئي في القرآن هو تحرير الإماء والعبيد وعتقهن (وقد حض على ذلك مرارا وجعله من الكفارات، بل من طرق النجاة "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ : فَكُّ رَقَبَةٍ (البلد 11-13) فإنه أباح زواج الإماء لمن لا يملك المال الذي يمكنه من الزواج بالحرائر. إنه زواج المضطر، ويقع في سياق تحرير الرقيق... وبما أن الرق قد صار اليوم محرما دوليا، وهذا ينسجم مع التوجه القرآني. فإن باب الإباحة الذي فتح لزواج المضطر من الإماء، وهو مغلق الآن بمنع الرق، يجب أن يفتح في وجه زواج المتعة. وإلا فإن الزنا بـ "الرقيق الأبيض" سيبقى مفتوحا ينتج مزيدا من الزناة ومزيدا من الرقيق الأبيض.

98- سورة الحديد

- تقديم

اختلاف كبير حول كون هذه السورة مكية أو مدنية، لكن "الجمهور على أنها مدنية". ويفهم من بعض الروايات انها نزلت على الأرجح في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة. أما رتبتها في لوائح ترتيب النزول فقد وردت مع المدني برتبة 94 في الأكثر، بعد الزلزلة والنساء. وبما أننا قد رجحنا ترتيب الزلزلة مع القرآن المكي، فرتبة هذه السورة تأتي بعد سورة النساء مباشرة.

هذا وسنخصص قسما كبيرا من التعليق لمناقشة مصداقية المرويات التي وردت حول هذه السورة.

- نص السورة

1- مقدمة : وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1]؛ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[2]. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ (1)، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[3]. هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

1- قال الطبري في تفسير هذه الآية: "هو الأول قبل كل شيء بغير حدّ ... والآخر بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جلّ ثناؤه: كُلُّ شَيْءٍ هالكٌ إلاّ وَجْهَهُ. وقوله والظَّاهِرُ : هو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه. وهو الباطن لجميع الأشياء، فلا شيء أقرب إلى شيء منه، كما قال: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ". وهذا الذي قال به الطبري هو الحد الأقصى لما يسمح به مذهب أهل السنة في هذا المجال. أما المتصوفة والشيعة ومختلف أصناف الباطنية فإن ما قاله الطبري هنا هو عندهم "المعنى الظاهر"، يبقى بعد ذلك "المعنى الباطن" الذي "يختصون" به. وهذه الآية يستدلون بها على=

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[4]. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[5]، يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[6].(2)

2- آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ (3): فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا، لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ[7]. وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[8]؟ (4) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ

مشروعية التأويل الباطني ومصداقيته. انظر تفاصيل أوفى عن التفسير الباطني وأنواعه في كتابنا "بنية العقل العربي" : قسم العرفان...

2 - استند الذين قالوا بأن هذه السورة مكية على هذه المقدمة التي تشبه القرآن المكي في مضمونها وأسلوبها، ولكن إذا نحن اعتبرنا ما يطبع مقدمات كثير من السور المكية والمدنية من كون كثير منها يأتي في صيغة دعاء، أو في صيغة الافتتاح بالتأكيد على ثوابت العقيدة. سهل علينا تجاوز القول بأنها مكية. انظر تفاصيل عن الموضوع في التعليق.

3 - قال الطبري: "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه: أنفقوا مما خولكم الله من المال الذي أورثكم عمن كان قبلكم، فجعلكم خلفاءهم فيه في سبيل الله". أما الزمخشري فيقول: "يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة. وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوّاب، فأنفقوا منها في حقوق الله، وليهُن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه". ثم ذكر المعنى الذي ذكره الطبري. ونحن نفهم من الحث على النفقة في هذه الآية أن المطلوب هو النفقة على تجهيز سرايا وجند النبي عليه السلام، فالظرف هو ظرف الصراع المسلح مع قريش، كما سيتبين بعد قليل، ومناسبة هذه الفقرة مع المقدمة واضحة. فالتذكير هنا بجميع ما ورد في المقدمة من قوله "سبح لله ما في السماوات والأرض إلى قوله "وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"، كل ذلك يشعر بأن موضوع السورة هو الدعوة للعمل في سبيل الله، وبالتالي النفقة في سبيل الله عن عقيدة وإيمان. فالله يعلم تسبيح السماوات والأرض "و عليم بذات الصدور"، يعلم من انفق عن إيمان صادق، ومن أنفق رياء، كما يعلم ما تخفيه صدور الذين يتخذون أعذارا واهية لكي لا ينفقون. وهذا كله وارد في سور سابقة وسيرد بصيغ أخرى في هذه السورة.

4- يقول الزمخشري: "وقيل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان: حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر، وأزاح عللكم، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول=

(محمد) آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"[9]. وَمَا لَكُمْ أَلَّا (في أن لا) تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (أنفقوا ليكون ذلكم لكم سبيلا إلى استحقاق الغنيمة بعد النصر في الغزوات القادمة فضلا عن الوعد بالجنة)؟ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ [5] وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً (في الدنيا والآخرة) مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[10]. مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ"[11] (وهذا الأجر هو أنه) : يَوْمَ (القيامة) تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (من جهة اليمين، يقال لهم)، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[12]. يَوْمَ (القيامة) يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: انْظُرُونَا (انتظرونا) نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ! قِيلَ (لهم) ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا، فَـ (لما رجعوا وراءهم) ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ (داخله) فِيهِ الرَّحْمَةُ (وهو مقام المؤمنين) وَظَاهِرُهُ (في الخارج منه) مِنْ قِبَلِهِ (في الجهة الموازية) الْعَذَابُ[13] (جهنم)! (والمنافقون) يُنَادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ (انحرفتم بها)، وَتَرَبَّصْتُمْ (ترددتم وقعدتهم) وَارْتَبْتُمْ (في النصر) وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ (أمانيكم في أن لا ينتصر المؤمنون) حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ (بالنصر)، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ"[14] (غركم الشيطان بأن لا عذاب). فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ (ولا كفارة

وتنبيه الرسول، فما لكم لا تؤمنون "إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" لموجب مَا. أما الطبري فذكر أن المعنى: "أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صُلب آدم، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه". أما نحن فنرى خصوص إلى جانب هذا العموم، فقوله تعالى: "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين"، خطاب موجه إلى المسلمين في المدينة، وبالتحديد، للمنافقين أو لمن هم على هواهم، يذكرهم بميثاق بيعة العقبة، وبميثاق الصحيفة التي عقدها النبي مع جميع سكان المدينة مسلمين ويهود، والتي تنص على التزام الجميع بالدفاع عن المدينة التي أصبحت الآن مهددة بغارات الأعراب وبجيوش قريش و"الأحزاب". وإذن فهذه الآية لا يستقيم مضمونها مع القول إنها مكية. فهاهنا عتاب وتعريض بالمنافقين في المدينة. والآيات التاليات تؤكد هذا.

5- رجح معظم المفسرين أن المقصود بـ"الفتح" فتح مكة وبعضهم قال "صلح الحديبية"، وهذه السورة سابقة على هذين الحدثين، فلماذا الخلط بين الأزمنة والأحداث بدل فهم الكلمة في معناها العام الذي يعني "النصر" والنبي كان يخوض حربا ضروسا مع مشركي مكة وكان يدعو إلى النفقة في سبيل الله أي يدعو إلى الانخراط في السرايا والغزوات القادمة وتجهيزها.

تمحو الذنب)، وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ (أولى بكم) وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[15].

3- وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[23]، الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ.

أَلَمْ يَأْنِ (ألم يحن الوقت) لِلَّذِينَ آمَنُوا (ولم يجعلوا إيمانهم الظاهري معبرا عن إيمان داخلي حقيقي: الخطاب إلى المنافقين) أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ؟ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[16]! اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (تيقنوا بالبعث والحساب)، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[17]. إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ (للنبي والقرآن بألسنتهم وقلوبهم)، وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقوا من أجل تجهيز رجال السرايا والغزوات)، يُضَاعَفُ لَهُمْ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ[18]. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ (أي في أعلى درجات التصديق). وَالشُّهَدَاءُ (القتلى في سبيل الله) عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[19]. اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا! وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ (للكفار) وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ (للمؤمنين)، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ[20]. سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[21]. مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا (أن نحدث تلك المصيبة)، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[22]، (وهذا نقوله) لِكَيْ لَا تَأْسَوْا (تحزنوا) عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[23]، (=المختالون الفخورون) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[24].

4- لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ (بالحجج والدلائل) وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ (ميزان العقل) لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (لتقوم العلاقات بين الناس على العدل فلا يكون هناك طغيان كطغيان قريش)، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (تصنع منه السيوف للحرب كما تصنع منه الفؤوس والمناجل

للحرث)، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (يؤمن به) وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ (لا يطلبون أن يروا الله بأبصارهم كما طلبت اليهود من موسى، بل يؤمنون به من خلال استخلاص الأدلة من صنع الله كالحديد الذي قد يكون سيفا وقد يكون فأسا)، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[25]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[26]، ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ (نصروه) رَأْفَةً وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ (ولكن زادوها على ما طلبنا منهم، وما فعلوا ذلك) إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[27].

5- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ (نصيبين) مِنْ رَحْمَتِهِ (نصيب في الدنيا بالنصر والغنائم بعد النفقة على السرايا والمقاتلين، ونصيب في الجنة)، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (مهتدين لا ضالين)، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[28]، لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (نجعل لكم هذا النور ليبقى اليهود على جهل بأنهم لا يقدرون على شيء)، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[29].

- تعليق

لعل القارئ يتفق معنا على أن هذه السورة مدنية من ألفها إلى يائها فهي حث على النفقة على تجهيز السرايا والمقاتلين في سبيل إيقاع الهزيمة بمشركي مكة ومن يتحالف منهم، وبالتالي فلا شيء فيها يشكك في كونها مدنية جملة وتفصيلا. وبهذا المناسبة نخصص هذا التعليق على المرويات التي تجعل منها أو من بعض أجزائها نص مكيا.

كتب ابن عاشور في تقديم هذه السورة ما يلي: "وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلف مثله في غيرها". ونحن سنذكر هنا ما جمعه من المرويات، ومع أنه ذو حس نقدي فقد انساق مع طريقة المفسرين في التعامل مع القرآن كـ "آيات" بل كألفاظ وعبارات دون إيلاء كبير اهتمام للسياق، فضلا عن أنهم جميعا لا يتعاملون مع كل سورة كوحدة مستقلة مكتملة، بل

ينساقون مع "تداعي" الألفاظ والمرويات فينسون السورة وبنيتها ووحدة الموضوع فيها. وسنقدم للقارئ من خلال ما جمعه ابن عاشور حول " أسباب نزول" هذه السورة و"تاريخ نزولها" وانقسام آياتها إلى مكي ومدني، في زعمهم، نموذجا يمكن مقارنته مع منهجنا...

نقرأ، إذن، في تفسير ابن عاشور عن هذه السورة ما يلي: قال: "قال الجمهور: مدنية. وحكى ابن عطية عن النقاش: أن ذلك إجماع المفسرين. وقد قيل: إن صدرَها مكي لما رواه مسلم في "صحيحه" والنسائي وابنُ ماجه عن عبد اللــه بن مسعود أنه قال: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللــه بهذه الآية "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ" إلى قولــه: "وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" (الحديد: 16) إلا أربع سنين. وعبد اللــه بن مسعود من أول الناس إسلاماً، فتكون هذه الآية مكية".

ويضيف ابن عاشور قائلا: "وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابنِ عباس: أن نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنةً أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن، فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح. ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصح سنداً، وكلامُ ابن مسعود يرجَح على ما رُوي عن أنس وابن عباس لأنه أقدم إسلاماً وأعلم بنزول القرآن، وقد علمت آنفاً أن صدر هذه السورة كان مقروءاً قبل إسلام عمر بن الخطاب. قال ابن عطية "يشبه صدرها أن يكون مكياً واللـــه أعلم، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً". وروي أن نزولـــها كان يوم ثلاثاء استناداً إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبد اللـــه". ثم يضيف: "وأقول: الذي يظهر أن صدرها مكي كما توسمه ابن عطية وأن ذلك ينتهي إلى قولـــه: "وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحديد: 9) وأن ما بعد ذلك فبعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكة مثل آية "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ" (الحديد: 16) الآية كما في حديث مسلم. ويشبه أن يكون آخر السورة قولـــه: "إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" (الحديد: 25) نزل بالمدينة، ألحق بهذه السورة بتوقيف من النبي صلى اللـــه عليه وسلم في خلالـــها أو في آخرها". ويقول: "قلت: وفيها آية "لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ"" (الحديد: 10) الآية، وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية، فإنه أُطلق عليه اسم الفتح وبه سميت "سورة الفتح"، فهي متعينة لأن تكون مدنية فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني".

ثم يضيف: وقد عدت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور جرياً على قول الجمهور: إنها مدنية فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزالة وقبل سورة القتال (سورة محمد)، وإذا روعي قول ابن مسعود: إنها نزلت بعد البعثة بأربع سنين، وما روي من أن سبب إسلام عمر بن الخطاب أنه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد [6] لم يستقم هذا العدّ لأن العبرة بمكان نزول صدر السورة لا نزول آخرها فيُشكِل موضعها في عد نزول السورة. وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولــها آخر سنة أربع من البعثة فتكون من أقدم السور نزولاً فتكون نزلت قبل سورة الحجر وطه وبعد غافر، فالوجه أن معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزلة".

ذلك ما ذكره ابن عاشروه من آراء الأقدمين. أما رأيه هو فقد اعتمد فيه نفس المخرج الذي يلجأ إليه الأقدمون عندما يكونون أمام تعارض الروايات، وهذا المخرج هو القول بــ "الجمع بين الروايتين" المتعارضتين بالاعتماد على أخرى تصلح في نظرهم أن تكون جسرا بينهما.

نحن نعتقد أن جميع ما تقدم هو مجرد تخمينات. وفي نظري أنه من المفيد الاطلاع عليه ولكن دون الانسياق مع ما يروى، ولا معنى لطرح صحة سندها أو عدم صحته، فالمعول عليه هنا هو نص السورة، وليس السند. فلا يجوز إخضاع نص السورة أو الآية وتطويعه ليقترب لما تقوله المرويات، بل العكس هو الذي يجب أن يحصل. خصوصا وهذه الاختلاف الكبير منفي عن القرآن بصريح قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء 82).

والحق أن تدبر القرآن –بالعقل وبالعقل النقدي خصوصا وليس بالروايات وحدها– يقودنا إلى ما يلي: إن "صدر السورة" الذي جعلهم يقولون إن السورة مكية أو على الأقل "صدرها مكي"، هو ما ندعوه بــ "مقدمة السورة". وقد سبق أن بينا في مكان آخر كيف أن جميع سور القرآن –باستثناء بعض القصار منها– ذات بنية واحدة: المقدمة، التحليل والتفصيل، ثم الخاتمة. المقدمة تطرح بصورة إجمالية موضوع السورة من خلال التأكيد على أركان العقيدة، أو بعضها، (نبوة محمد عليه السلام والكتاب الذي أنزل إليه، والتوحيد، والبعث)، وهذا التأكيد يكون تارة بعبارات مباشرة قوية تستعيد نمط الآيات المكية في الموضوع، كما نبهنا

---

6 – رواية مصنفة مع الضعيف من الروايات.

على ذلك في الهامش الذي كتبناه أسفل المقدمة، ويكون تارة بالإشارة أو بالمثل الخ. والعلاقة بين المقدمة والتحليل تبقى عضوية مهما تنوعت موضوعات السورة. ثم تأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة ولترتفع بها إلى مستوى يجعلها كنتيجة للتحليل، وأحيانا تأتي أيضا كتمهيد أو إشعار بموضوع السورة التالية. إن تدبر معاني السورة بوصفها وحدة مكتملة، لها مقدمة وتحليل وخاتمة، يجعل كثيرا - وأحيانا جميع- المرويات حولها غير ذات موضوع، كما هو الحال في هذه السورة.

99- سورة محمد

- تقديم

وهذه سورة اختلفوا فيها أيضا حول كونها مدنية أم مكية مع أن كل شيء فيها يشير إلى أنها مدنية حتى الاسم الثاني الذي عرفت به وهو "سورة القتال". أما لوائح ترتيب النول فتضعها في المدني بعد سورة الحديد، وهو مكان مناسب تماما.

- نص السورة

1- مقدمة : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا (مشركو قريش) وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ (الله) أَعْمَالَهُمْ[1]، وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ[2] (شأنهم). ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ[3] (تصنيفهم إلى كفار ومؤمنين).

2- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ...

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (الذين أنتم معهم في حرب) فَضَرْبَ الرِّقَابِ (فقاتلوهم) حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ (غلبتموهم وانتصرتم عليهم وتوقفت الحرب) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ (قيدوا من بقي منهم أحياء، حتى لا يستغفلونكم فيهاجموكم، وبعد ذلك): فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ (إطلاق سراحهم بدون مقابل)، وَإِمَّا فِدَاءً [1] (وإما مقابل

---

1 - بعض المفسرين قالوا إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى. أما الطبري فيرى أنها لا ينطبق عليها النسخ كما حدده من وجهة نظره: قال: " والصواب من القول عندنا في ذلك=

فدية يدفعونها) حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (تنتهي الحرب بينكم وبينهم) ؛ ذَلِكَ، وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ (الله) أَعْمَالَهُمْ[4]، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ[5]، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ[6] (جعلهم على بينة منها). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ (تقاتلوا في سبل الله) يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ[7]؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ (خزي) وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ[8]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[9]. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ وَلِلْكَافِرِينَ (مشركي مكة) أَمْثَالُهَا[10] (ذلك التدمير)، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ[11]. إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ (في الدنيا) وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًى (مسكن) لَهُمْ[12]. وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ (مكة) الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ (أهلكنا أهلها)، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ[13]. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (هو الرسول عليه السلام) كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (وهم مشركو

أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، ما قد بيّنا في غير موضع في كتابنا، إنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ والفداء والقتل إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورا في هذه الآية، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى، وذلك قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ. الآية، بل ذلك كذلك، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضا، ويفادي ببعض، ويمنّ على بعض، مثل يوم بدر قتل عقبة بن أبي مُعَيْط وقد أُتي به أسيرا، وقتل بني قُرَيظة، وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلما، وهو على فدائهم، والمنّ عليهم قادر، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أسروا ببدر، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفيّ، وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتا من سيره في أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم، إلى أن قبضه إليه صلى الله عليه وسلّم دائما ذلك فيهم، وإنما ذكر جلّ ثناؤه في هذه الآية المنّ والفداء في الأسرى، فخصّ ذكرهما فيها، لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرّرا". وأضاف القرطبي: قال غيرهم إنها محكمة" أي الآية محكمة، والإمام مخيّر في كل حال؛. وهو الاختيار (اختيار القرطبي)؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك". وما يستفاد من هذا أنه لا ناسخ ولا ناسخ هنا، فالأخذ بحكم دون آخر، من جملة أحكام نزلت في أحوال متطابقة أو متشابهة، يرجع إلى الإمام يختار ما فيه المصلحة كما كان الرسول يفعل.

مكة)، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ[14]؟! مَثَلُ الْجَنَّةِ [(2)] الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (غير نتن، غير فاسد)، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ؛ (أَمَن هو في مثل هذه الجنة) كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا (شديد السخونة) فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ[15].

3- وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ...

وَمِنْهُمْ (من المنافقين) مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: مَاذَا قَالَ آنِفًا؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ[16]. وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ[17]. فَهَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً؟ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (علاماتها)، فَأَنَّى لَهُمْ (لا ينفعهم) -إِذَا جَاءَتْهُمْ (الساعة)- ذِكْرَاهُمْ[18] (اتعاظهم وتوبتهم)؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ (تقلب الأحوال بكم) وَمَثْوَاكُمْ[19] (واستقراركم). وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا (هلا) نُزِّلَتْ سُورَةٌ (تدعونا للجهاد والقتال)؟ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ (لا لبس فيها) وَذُكِرَ فِيهَا (الدعوة إلى) الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (هم المنافقون) يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ (خوف) الْمَوْتِ -فَأَوْلَى لَهُمْ[20] (وعيد لهم)- (ويردون قائلين) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ، فَإِذَا عَزَمَ (جاء) الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ[21]. فَهَلْ عَسَيْتُمْ (ومن يدري؟! -استفهام إنكاري- فربما) إِنْ تَوَلَّيْتُمْ (وأعرضتم عن الاستجابة لأمر القتال) أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ[22]. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ[23]. أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ (ألا يتعظون ببيان القرآن: الخطاب لهؤلاء المنافقين) أَمْ عَلَى قُلُوبِ

---

2 – قالوا: "مثل الجنة": معناه صفة الجنة أو وصفها. لكن لفظ "المثل" في القرآن غالبا ما يأتي بمعنى الشبيه، وعبارة : "ضرب الله مثلا" كثيرة في القرآن، ومعناها: أتى بمثال للتوضيح، ذكر شبيها أو تصويرا للشيء بهدف تقريبه للأذهان. وعلى هذا فليست الجنة هي الأنهار والأشجار الخ، بل هي رمز للتمتع والسعادة، كما أن النار رمز للعذاب والشقاء. انظر استطرادا في الموضوع في آخر سورة القمر: فهم القرآن القسم الأول. وانظر كذلك آخر فقرة في خاتمة القسم الثاني بعنوان : "الآخرة من أجل الدنيا وليس العكس"!

(قلوبهم) أَقْفَالُهَا[24]. إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ (كفارا) مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ[25]؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا (للمنافقين) لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ (من الأمر بالقتال) سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ [26](ما يتسارون به)، فَكَيْفَ (لا يعلم حالهم) إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ (وهم) يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ[27]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[28]. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ[29] (أحقادهم)، وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ (بعلامات النفاق التي تبدو عليهم) وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (أي من خلال كلامهم لما فيه من التواء وتردد)! وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ[30]. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ (نختبركم أيها المؤمنون عندما تدعون إلى القتال) حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ[31]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا(عصوا) الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ[32].

4- خاتمة: هَا أَنْتُمْ تُدْعَوْنَ .. لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ!

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ (مكة) الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ (أهلكنا أهلها)، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ[13]. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (هو الرسول عليه السلام) كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (وهم مشركو مكة)، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ[14]؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا (ثواب) أَعْمَالَكُمْ[33] (بالتردد والشك). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ[34]، فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ (يضيع) أَعْمَالَكُمْ[35]. إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ (لا يطلب) أَمْوَالَكُمْ[36]، إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ (فيلح في الطلب) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ[37] (حقيقة ما بأنفسكم). هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ[38].

– تعليق

هذه السورة مكملة للسابقة أعني أنها تتحرك في نفس الموضوع الذي تحركت فيه السورة السابقة، وهما على نفس الخط الذي تحركت فيه الفقرات الأخيرة من سورة النساء، التي تفضح المنافقين وتشرع للعلاقات الحربية بين المسلمين ومشركي قريش. ويجب أن لا تنسى أن غزوة "الخندق" التي تحالفت فيها قريش والقبائل واليهود ضد المسلمين والتي خرج منها المسلمون سالمين بفضل ريح باردة هبت في الليل فزرعت الخوف في صفوف الأحزاب مما دفعهم إلى العودة إلى أوطانهم دون الدخول في حرب مع المسلمين. ولا بد أن يكون الرسول يفكر في احتمال عودة الأحزاب، وبالتالي لابد أن يعمل على الاستعداد للمفاجأة المحتملة، خصوصا وقد سبق لسورة الأنفال أن طلبت من المسلمين البقاء على حذر واستعداد : "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ (وهم المنافقون) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (الأنفال 60).

ثلاثة أشياء نبهت إليها آية الأنفال: أ) الحرب مع مشركي قريش، ب) خذلان المنافقين الذين هم في صفوف المؤمنين والذين يتجنب الرسول القطيعة معهم حتى لا ينضموا نهائيا للخصوم، ج) الحث على النفقة من أجل التجهيز العسكري والمادي. وتلك هي الموضوعات الرئيسية في هذه السورة وفي التي قبلها.

تشتمل هذه السورة على أربع فقرات: مقدمة، وفقرتين، فخاتمة.

1- في المقدمة تذكر السورة بما حدث للمشركين في الغزوات السابقة، -خصوصا غزوة الأحزاب- لقد أضل الله في هذه الغزوات أعمال المشركين فضاعت حملاتهم وكانت بغير نتيجة، أما المؤمنين، وإن كانوا لم يحققوا نصرا معتبرا، فقد كفر الله عن سيئاتهن، أي عن الأخطاء التي ارتكبوها في غزو أحد. وأصلح "بالهم"، أي شأنهم المادي والمعنوي.

2- أما الفقرة الثانية فهي توجه نداء صريحا إلى المؤمنين : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"، إن تنصروا الله بتجهيز الجيش لمواجهة مشركي قريش وبإنفاقكم عليه، فالله سيثبت أقدامكم ويجعلكم تحققون النصر المبين. وتخاطب الرسول ومن ورائه المؤمنين لتذكرهم بأن الله

أهلك قرى كانت أشد وأقوى من أهل مكة، وكذلك سيكون مصير هؤلاء. إنهم سينهزمون وستنتصرون، لأنه يمكن أن يكون من هو "عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ .. كمن اعتقد في صواب عمله وهو خطأ فترك الحق واتبع هواه.

3- وتأتي الفقرة الثالثة لتواصل فضح المنافقين وتسفه سلوكهم المتخاذل كلما دعوا للخروج لقتال خصوم الدعوة المحمدية من مشركي مكة أو لجعل حد لتحديات اليهود ومخاتلتهم.

4 ثم تأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة على مستوى أعلى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا (ثواب) أَعْمَالَكُمْ"[33] (بالتردد والشك). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ"[34]، فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ (يضيع) أَعْمَالَكُمْ"[35].

100- سورة الطلاق

- تقديم

في صحيح مسلم أن ابن عمر طلق امرأته حائضاً على عهد الرسول (ص) فسأل الرسولَ فطلب منه أن يراجعها ، فردّهـا. وقـال: إذا طهـرت فلتطلـق أو لتيُمسك. "قال ابن عمر وقرأ النبي: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ" (الطلاق: 1). وقيل إنها "نزلت بسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة". واستندوا في ذلك إلى الآية الأولى من هذه السورة التي ورد فيها : "يَـا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ. وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئاً من ذلك لم يصح وأن الأصح أن الآية نزلت بياناً لشرع مبتدأ.

-نص السورة

1- مقدمة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ (طاهرات من الحيض ومن غير جماع) وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ (احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق)، **وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ. لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ** (لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهنّ من بيوتهنّ التي كنتم أسكنتموهنّ فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهنّ)، **إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** [1]**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ. لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**[1]. [2]

---

1 - اختلفوا في المقصود بـ "الفاحشة" هنا، بعضهم قال : الزنى ورتب على ذلك أحكاماً منها أن هذه الآية تنسخ آيات سابقة بخص ص زنى المحصنات الـخ، وبعضهم قال إن المقصود هو إيذاء أهل زوجها، وآخرون قالوا إلى الفاحشة هنا هي المعصية أيا كانت. أما الطبري فقد اختار هذا القول الأخير بعد أن استعرض ما قيل في الموضوع. قال: "والصواب

2- الحمل.. والطلاق.. والرضاعة...

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (أي من غير الإضرار بهن كتطويل العدة والنقصان منها) وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ (يشهدان على الرجعة أو الفراق) [3]، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ. ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ

من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن= الفاحشة هي كلّ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرقة والبذاء على الأحماء،وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأيّ ذلك فعلت وهي في عدتها، فلزوجها إخراجها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها". القرطبي: "روى الدّارَقطنيّ من حديث عبد الرزاق أخبرني عَميّ وهب بن نافع قال: سمعت عكرمة يحدّث عن ابن عباس يقول: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حلالان ووجهان حرامان؛ فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً عن غير جماع وأن يطلقها حاملاً مُستبيناً حَمْلُها. وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض، أو يطلّقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرّحم على ولد أم لا". وأضاف القرطبي: "من طلّق في طُهْر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السُّنّة. وإن طلقها حائضاً نفذ طلاقه وأخطأ السُّنة. وقال سعيد بن المسيّب: لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة. وإليه ذهبت الشّيعة. وفي الصحيحين واللفظ للدّارَقطنيّ : عن عبد الله بن عمر قال: طلقت امرأتي وهي حائض؛ فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فتغيّظ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: «ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلّقها فيها فإن بدا له أن يطلّقها فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يَمَسّها فذلك الطلاق للعِدة كما أمر الله». وكان عبد الله بن عمر طلّقها تطليقة، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلّم. في رواية عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «هي واحدة». وأضاف: "طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة: وهو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهراً، لم يَمَسّها في ذلك الطهر، ولا تقدّمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق في طُهْر يتلوه، وخلا عن العوض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدّم

2 – القرطبي: "وقال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة. ومعنى القول: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث؛ فإنه إذا طلّق ثلاثاً أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً. وقال مقاتل: «بَعْدَ ذَلِكَ» أي بعد طلقة أو طلقتين «أمْراً» أي المراجعة من غير خلاف".

3 – قالوا : "وفائدة الإشهاد ألاّ يقع بينهما التجاحد، وألاّ يُتّهمَ في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث". قالوا في الرجعة: "إذ قَبّل أو باشر أو لامَس بشهوة فهو رجعة. والوطء "مراجعة على كل حال، نواها أو لم ينوها"،

كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا[2] (من كل شدة)، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ. إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا[3]. وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ، إِنِ ارْتَبْتُمْ (في طبيعة الدم الذي ينزل منها هل هو حيض أو غيره) فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ (وقيل: لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدّة" (4)). وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ. وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا[4]. ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا[5]. أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى[6]. لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا[7].

3- قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا: رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا[8]، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا[9]. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا[10]. رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ (شريعته) مُبَيِّنَاتٍ، لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا[11].

4- خاتمة: ... وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[12]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[12].

---

4 – وقد اختلفوا في عدة المرتابة فجعل بعضهم عدتها سنوات! لأنه لم يكن من الممكن التعرف على خلوها من الحمل، أما اليوم فالمشكل لم يعد مطروحا فالطبيب يعرف ذلك وأكثر.

– تعليق

مما ورد في موضوع الطلاق:

القرطبي: روى الثّعلبيّ من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق". وعن عليّ: عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: "تزوّجوا ولا تطلّقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش". وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذوّاقين ولا الذوّاقات". وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق". وروى الدّارقُطْنيّ عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «يا معاذ ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحبّ إليه من العِتاق ولا خلق الله شيئا (على وجه الأرض) أبغض من الطلاق. فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حرّ إن شاء الله فهو حرّ ولا استثناء له (لا اعتبار لقوله إن شاء الله). وإذا قال الرجل لامرأته أنتِ طالق (إن شاء الله) فله استثناؤه ولا طلاق عليه". وفي حديث آخر: "ما أحلّ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق".

101- سورة البينة

- تقديم

اختلفوا في مكان نزولها هل في مكة أم في المدينة،كما اختلفوا في تاريخ نزولها. أما لوائح ترتيب النزول فتضعها مع مدنيات تحت رقم 101، وسنرى أن مضمونها يحتم كونها مدنية.

- نص السورة

1- مقدمة : البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (يهود المدينة) وَالْمُشْرِكِينَ (قريش مكة) مُنْفَكِّينَ (لم يكونوا ليتفرقوا ويختلفوا) حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ[1]، (وهذه البينة هي) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً[2]، فِيهَا كُتُبٌ (نصوص) قَيِّمَةٌ[3] (ناطقة بالحق لا اعوجاج فيها، والمقصود: القرآن) (1).

2- لما جاءتهم تفرقوا... فمصيرهم جهنم

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (يهود المدينة) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ[4] (الرسول الذي كذبوه مع تبشير التوراة به). وَمَا أُمِرُوا (في التوراة) إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، حُنَفَاءَ (ملتزمين بالدين الحنيف، دين إبراهيم)، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ (الملة) الْقَيِّمَةِ[5]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

---

1 - اختلف المفسرون في شرح هذه الآيات وقد اخترنا ما قاله الزمخشري لكونه أقرب إلى دلالة الكلمات، قال: "كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلّم: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد صلى الله عليه وسلّم، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: "وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ". يعني أنهم كانوا يعدون باجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلاّ مجيء الرسول صلى الله عليه وسلّم.

أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ[6] (شر المخلوقات. من برأ الله الخلق: أوجدهم).

3- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ[7] جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[8]

- تعليق

كتب الزمخشري يقول في شرح هذه السورة: "كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلّم: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد صلى الله عليه وسلّم، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: "وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ" يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرّهم على الكفر إلاّ مجيء الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ ... والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم ولا يتركونه إلاّ عند مجيء البينة. و"الْبَيِّنَةُ" الحجة الواضحة. و"رَسُولٌ" بدل من البينة. وفي قراءة عبد الله: «رسولا» حالاً من البينة {صُحُفاً} قراطيس "مُّطَهَّرَةً" من الباطل. "فِيهَا كُتُبٌ" مكتوبات "قَيِّمَةٌ" مستقيمة ناطقة بالحق والعدل؛ والمراد بتفرقهم: تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه. أو تفرقهم فرقاً؛ فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر، وقال: ليس به؛ ومنهم من عرف وعاند. فإن قلت: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أوّلاً ثم أفرد أهل الكتاب في قوله: "وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ" ؟ قلت: لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف"

"وَمَآ أُمِرُواْ" يعني في التوراة والإنجيل إلاّ بالدين الحنيفي، ولكنهم حرفوا وبدلوا " "ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ" أي: دين الملة القيمة. وقرئ: "وذلك الدين القيمة" على تأويل الدين بالملة. فإن قلت: ما وجه قوله: "وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ" ؟ قلت: معناه: وما أمروا بما في الكتابين إلاّ لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة. وقرأ ابن مسعود: «إلا أن يعبدوا»، بمعنى: بأن يعبدوا. قرأ نافع: «البريئة» بالهمز؛ والقرّاء على التخفيف. والنبيّ، والبرية: مما استمر الاستعمال على تخفيفه

ورفض الأصل وقرئ: «خيار البرية» جمع خير، كجياد وطياب: في جمع جيد وطيب".

لست أدري هل استوعب القارئ هذا الشرح، أما الرازي الفيلسوف المتكلم فقد ابتدأ شرحه لهذه لآية بقوله: "المسألة الأولى: قال الواحدي في كتاب البسيط: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها. وأنا (الرازي) أقول: وجه الإشكال أن تقدير الآية: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ" التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين، عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك: "وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ" وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر، هذا منتهى الإشكال فيما أظن". ثم راح يشرح هذا "التناقض" يقترح حلولا في صفحات طويلة، ضاربا ذات اليمين وذات الشمال.

ونحن نعتقد أن استحضار ظروف نزول هذه الآية يجعل كل ما قاله الزمخشري والواحدي والرازي غير ذي موضوع. فالظروف التي نزلت فيها هي نفس الظروف التي كان النبي عليه السلام يخوض فيها صراعا مع كل من مشركي مكة ويهود المدينة، وكانت غزوة الأحزاب التي تجند لها مشركو قريش واليهود في صف واحد (الأحزاب) ثم تفرقوا .. ثم تنازع اليهود بعضهم مع بعد، أقول كانت هذه الغزوة المعبر الرئيس عن هذه الظاهرة: التحالف والانفكاك: ويمكن أو نوسع نظرتنا إلى هذا الصراع بالرجوع قليلا إلى الوراء:

1- فالمقدمة : تقرر أن مشركي مكة ويهود المدينة الذين كانوا قبل الهجرة مرتبطين بعضهم ببعض، وأن مشركي مكة كانوا يبعثون إلى يهود المدينة يطلبون منهم ما به يحرجون الرسول، لكونهم أهل كتاب، وأن اليهود كانوا يقترحون عليهم إحراجه بأسئلة من نوع تلك التي تخص "أهل الكهف" وذي القرنين والروح" الخ. لكن هذه الارتباط والتحاف بين مشركي مكة ويهود المدينة لم يدم، فقد كانت إجابات القرآن واضحة، بينت لليهود أن القرآن الذي جاء به

محمدا بن عبد الله قد جاء مصدقا لما في التوراة، وأكثر من ذلك فضحهم وأدانهم بإخفاء التبشير الذي حملته التوراة بمجي نبي هو محمد عليه السلام.

2- وتأتي الفقرة الثانية، بعد أن بينت المقدمة كيف فك الارتباط بين المشركين واليهود، لتبين من جهة أخرى أن ما حصل بين المشركين، من الفرقة، قد حصل أيضا بين اليهود، بعضهم مع بعض. فلقد أدركوا من خلال مخاطبة القرآن إياهم وسرد وقائع تاريخهم المليء بالتمرد على الله وعلى موسى نبيهم، أن "البينة" (القرآن) المنزل على محمد لم تأمرهم بالتعامل مع المشركين والتعاون معهم، وإنما أمرتهم بشيء واحد هو أن يَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، حُنَفَاءَ (ملتزمين بالدين الحنيف، دين إبراهيم)، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ[5] (ملة إبراهيم الفطرية المستقيمة). وهكذا فإنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أي الذين لم يلتزموا بدين شيخ أنبيائهم إبراهيم هم ومشركو مكة سواء، لكونهم لم يلتزموا هم أيضا بدين جدهم إبراهيم. كلاهما انحرف عن دين إبراهيم. وكلاهما سيكون مصيره جهنم خالدين فيها... أولئك هم شر المخلوقت.

3- وتأتي الخاتمة: لتقرر أنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالرسول والقرآن وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هممُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ[7] : جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[8]

102- سورة الحشر

- تقديم

سميت بهذا الاسم لكونها ذُكر فيها إخراج الرسول يهود بني النضير من ديارهم أي من قريتهم المسماة الزهرة قريباً من المدينة. فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات، وبعضُهم خرجوا إلى خيبر، وبعضهم إلى الحِيرة. وهي تسمى أيضا "سورة بني النضير"، والقصة كما يلي: بعد موقعة أحُد التي انهزم فيها المسلمون قام الرسول (ص) بتنظيم عدة حملات على الأعراب خارج المدينة دفعا لطمعهم في النيل من المسلمين بعد هزيمتهم تلك ولم يحصل اصطدام، ولكن حصل المسلمون على غنائم فضلا عن الفوائد المعنوية. ثم حدثت حادثة إجلاء يهود بني النضير، وذلك عندما هموا على الغدر بالنبي (ص) حينما ذهب إليهم يطلب منهم، طبقا للصحيفة/المعاهدة، المساهمة في دفع دية رجلين كان قد أعطاهما الأمان وقتلهما أحد المسلمين دون أن يعرف بذلك، فاظهر اليهود الموافقة ثم تآمروا على اغتياله.

قال ابن إسحاق: "ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة. لكن المؤامرة فشلت. والقصة كما رواها ابن إسحق كما يلي:

فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، قام أبو بكر وعمر في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم،

فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم.قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهي عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها.

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عدو الله عبد الله بن أبي سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة. ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه،فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث: أنهم استقلوا بالنساء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم، وإن فيهم لأم عمرو صاحبة عروة بن الورد العبسي، التي ابتاعوا منه، وكانت إحدى نساء بني غفار، بزهاء وفخر وما رئي مثله من حي من الناس في زمانهم. ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان يامين بن عمير، أبو كعب بن عمرو بن جحاش؛ وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها".

– نص السورة

1- مقدمة : القوي الشديد في انتقامه الحكيم في تدبيره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1] (العزيز أي القوي في انتقامه من بمي النضير ، الحكيم في تدبير إجلاء هم دون قتلهم).

2- وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (يهود بني النضير) مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ؛ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ،

فَأَتَاهُمُ (أمر) اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ: يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ[2]. وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ، لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا (بالقتل والسبي، ولكنه رفع عنهم ذلك وجعل عذابهم الجلاء) [(1)] وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ[3]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (انشقوا ولم يلتزم بالمعاهدة/الصحيفة التي كانت تنص على أن يشاركوا في الديات)، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[4].

3- كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ...

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ (نخلة) أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ[5] [(2)]. وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ (ما رد الله) عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ (من أموال بني النضير)، فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ (لم تحملوا عليهم ولم تقاتلوهم)، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ (هنا: بني النضير) وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[6]. مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى (وهذا ومثله مما رد الله إلى رسوله من أموال أهل القرى دون قتال) فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ (فهو للرسول) وَلِذِي الْقُرْبَى (قرابة النبي) وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ (وحدهم دون غيرهم)، (وقد خصه الله بهؤلاء) كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (يتداولون بينهم فيزيدهم غنى)؛ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (وهذا رد على من كان يطالب بتوزيعه على الجميع)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[7]. (وأيضا: هذا الفيء خاص) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[8] (فهم أحوج الناس

---

1 – عن ابن عباس أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ويسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء". لم يقتلهم مع أنه العزيز القوي، ولكن فاوضهم على الجلاء وذلك تدبير حكيم.

2 – اللينة : "ضَرْبٌ من أجْوَدِ التَّمْر بالمدينة ونَخلتُها تسمى لِينَةً"؛ وذكروا أن هذه الآية تشير إلى ما حدث من نقاش حول قطع النخل عند محاصرة النبي عليه السلام لبني النضير، فقد روي "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قطع نخل بني النضير وحرقها قالت بنو النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك كنت تنهى عن الفساد وتعيبه فما بالك تقطع نخلنا وتحرقها، فأنزل الله هذه الآية فأخبرهم أن ما قطع من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ترك فعن أمر الله فعل. وقال آخرون بل نزل ذلك لاختلاف كان من المسلمين في قطعها وتركها ..." (الطبري). ونحن نرى أنه يمكن الجمع بين الروايتين في هذه النازلة. فالواحدة منهما تكمل الأخرى.

إليه). وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ (سكنوا المدينة) وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ (وهم الأنصار فهم) يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا (ما أعطي للمهاجرين)، وَيُؤْثِرُونَ (يقدمون المهاجرين) عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ (ميلها الغريزي إلى البخل) فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[9]. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ (أسلموا من بعد هؤلاء وأولئك) يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا (حقدا) لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[10].

4- تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى...

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا (جماعة من المنافقين) [3] يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (من يهود المدينة، وهم بنو النضير) : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ (لئن أخرجكم المسلمون من دياركم) لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا (ينهانا أو يصدنا عنكم)، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ (قاتلكم الرسول) لَنَنْصُرَنَّكُمْ! وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ (أي هؤلاء المنافقين) لَكَاذِبُونَ[11]. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ (يتركونهم ويهربون) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ[12] (لا يتم النصر لليهود). لَأَنْتُمْ (أيها المسلمون) أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ (يرهبونكم أكثر مما يخافون الله)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[13] (لا يتصورون قدر عظمة الله). لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا (مجتمعين) إِلَّا (وهم) فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ (جدران قراهم تلك)، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ (استقواء بعضهم على بعض) شَدِيدٌ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى (متنازعون، متخاصمون)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ[14] (يتصرفون بأهوائهم لا بعقولهم). كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[15] (الإشارة إلى إخوانهم بني قنيقاع)[4]. (مثل أولئك المنافقين الذين وعدوا بني النضير بالقتال معهم) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ! فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ[16]. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ[17].

---

3 - روي أنهم "عبد الله بن أبيّ ابن سلول، ووديعة، ومالك ابنا نوفل وسُويد وداعس بَعَثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتُوا وتمنّعوا، فإنا لن نُسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم، خرجنا معكم. فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة".

4 - انظر تفاصيل عن صراع النبي مع يهود المدينة في مقدمة الكتاب.

5- خاتمة: لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ (خافوا الله ولا تكونوا كأولئك المنافقين) وَلْتَنْظُرْ (كل نفس) نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ (ليوم الحساب)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[18] (حتى في الخفاء)، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[19]. لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ[20]. (كيف يتصور أن تنسوا الله ولا تخافوه والحال أننا) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ! وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[21] (وهذا من الأمثال التي نريد بها تنبيه الناس).

- تعليق

- تشتمل هذه السورة على خمس فقرات، تدور كلها حول إجلاء يهود بني النضير من مساكنهم في المدينة وما ترتب عن ذلك من مسائل تخص توزيع الأموال التي أخذت منه وهي المسماة بـ"الفيء".

1- فالمقدمة تقرر أن الله قوي شديد في انتقامه، من بني النضير الذين أرادوا اغتيال نبيه عليه السلام، ولكنه في الوقت نفيه حكيم في تدبيره فلم يقتلهم ولم يسبي نساءهم وإنما اقترح عليهم "الجلاء"، أي مغادرة مساكنهم في المدينة إلى جهة أخرى حتى لا تتكرر محاولاتهم الهادفة إلى اغتيالهم الرسول والإساءة إلى المسلمين.

2- وفي الفقرة الثانية تؤكد السورة أن ذلك (الإجلاء) هو مصير كل من يشاقق الله ورسوله، أي ينصب نفسه عدوا لله ورسوله، والخطاب موجه هنا بالخصوص إلى القبائل اليهودية المتبقية في المدينة وما حولها كما سيرد لاحقا في سور أخرى.

3- أما الفقرة الثالثة فتتحدث عن توزيع أموال بني النضير، وكان بعض المسلمين قد طالبوا بقسمتها على الجميع، فجاء الرد من القرآن في آية واضحة صريحة: قال تعالى: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى (مما رد الله إلى رسوله من أموال أهل القرى دون قتال) فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ (فهو للرسول) وَلِذِي الْقُرْبَى (قرابة النبي) وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ (وحدهم دون غيرهم)، (وقد خصه الله بهؤلاء) كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (يتداولون بينهم فيزيدهم غنى)؛ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا".

وقد أسهب المفسرون في شرح هذه الآية، فأبرزوا كيف أن الله جعل أموال بني النّضير للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خاصّةً يضعها حيث شاء؛ وقد قسمها النبيّ عليه السلام بين المهاجرين. قال الواقديّ: ورواه ابن وهب عن مالك؛ ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر محتاجين؛

وفي صحيح مسلم عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خاصّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنة، وما بقى يجعله في الكُراع والسلاح عُدّةً في سبيل الله. واحتج بعضهم أنه لما ترك بنو النّضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظ كالغنائم؛ واحتجوا بأنه قد جرى ثَمّ بعضُ القتال؛ لأنهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء، فبيّن الله تعالى أنها فَيْءٌ، ولم يكن قتال على التحقيق، بل حصار.

ومعنى قوله تعالى: لا يَكونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ" : كيلا يكون الفيء الذي حقّه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها، بينما الأغنياء يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم. ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة.

قالوا المراد بذي القربى قرابته صلى الله عليه وسلّم، والمراد بهم بنو هاشم، وبنو المطلب لأنه (ص)وسلّم وضع السهم فيهم دون بني أخيهما شقيقهما عبد شمس، ومن ذريته عثمان، وأخيهما لأبيهما نوفل مجيباً عن ذلك بقوله عليه السلام نحن : "نحن وبنو المطلب شيء واحد"، وشبك بين أصابعه، رواه البخاري، أي لم يفارقوا بني هاشم في نصرته (ص) جاهلية ولا إسلاماً، وكأنه لمزيد تعصيبهم وتوافقهم ـ حتى كأنهم على قلب رجل واحدـ قيل: "لذي القربى دون لذوي بالجمع". وروي أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَيّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً. ألا وإني بادٍ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلّم فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين؛ أنا وأصحابي : أُخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا".

4- وفي الفقرة الرابعة تفضح السورة موقف المنافقين من يهود بني النضير: لقد واعدوهم إن أمر الرسول بإخراجهم سيخرون معهم ويقاتلون إلى

جانبهم. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل لقد كان موقفهم مع بني النــضير هــو نفس موقفهم من قبل مع بني قينقاع؟

5- وتأتي الخاتمة لتذكر المسلمين بأخذ العبرة من كل ذلك وألا يكونـــا" كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ":نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق أنفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده الثاني: "فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ" أي أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله: "لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِــدَتُهُمْ" (إبــراهيم: 43) "وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى" (الحج: 2).



103- سورة النور

- تقديم

تتميز هذه السورة بخاصية لا نجدها في غيرها من السور وهي استهلال مقدمتها بكلمة "سورة" بمعنى هذه سورة (مبتدأ) "أنزلناها وفرضناها" (خبر). وهناك قراءتان لقوله تعالى: "فرضناها": بالتخفيف وبالتشديد". قال الطبري: وأما قوله: وفرضْناها فإن القرّاء اختلفت فـي قراءته، فقرأه بعض قرّاء الحجاز والبصرة: "وفرَّضْناها" بالتخفيف ويتأوّلونه: وفصّلناها ونزّلنا فـيها فرائض مختلفة" (والمقصود أحكاما مختلفة منها ما هو في العقيدة ومنها ما في الشريعة). وقال القرطبي: وقرأ أبو عمرو: "وفرّضناها" بالتشديد أي قطّعناها في الإنزال نُجُماً نُجُماً. والفرض القطع؛ ومنه فُرْضة القوس. وفرائض الميراث وفرض النفقة". وقال الزمخشري: والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو لأنّ فيها فرائض شتى. وفي رأي الطبري : "أنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكل واحدة منهما علـماء من القرّاء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وذلك أن الله قد فصلها، وأنزل فـيها ضروبـا من الأحكام، وأمر فـيها ونهى، وفرض علـى عبـاده فـيها فرائض، ففيها المعنيان كلاهما: التفريض، والفرض فلذلك قلنا بأية القراءتين قرأ القارئ فمصيب الصواب". ونحن نرجح القراءة بالتشديد لأنها أنسب لمضامين السورة، لأنها تشتمل على أحكام مختلفة في ميادين متنوعة : بعضها في الشريعة وبعضها في العقيدة وأخرى في الأخلاق الخ، ولكنها مع ذلك تشكل وحدة متكاملة.

ولا عبرة للقول هنا إنها نزلت مفرقة في مدد مختلفة. فالتنصيص على أنها "سورة" والإشارة إليها بوصفها كذلك "أنزلناها وفرضناها" يدل على أنها نزلت مرة واحدة. وقد وردت كلمة "سورة" داخل بعض السورة دن أن تكون اسما لها مثل "قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ" وقوله : "فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ" الخ. أما استهلال السورة بلفظ "سورة" بمعنى هذه سورة فشيء تختص به هذه السورة مما يؤكد كونها وحدة متكاملة مع أنها متعددة الموضوعات الخ. أما تاريخ نزولها فيستفاد

من ورود قصة الإفك فيها المرتبطة بغزوة بني المصطلق، التي جرت في السنة السادسة، فتكون قد نزلت في أواخر هذه السنة قبل صلح الحديبية.

نص السورة

1- مقدمة : سورة فرضناها...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(هذه) سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا (1) وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (أحكاما واضحة) لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[1].

2- الخيانة والقذف... في الحياة الزوجية

(من هذه الأحكام :) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ (لا تتساهلوا معهم) إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (2)، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا (عقابهما) طَائِفَةٌ (ممن حضر) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[2]. الزَّانِي لَا يَنْكِحُ (يتزوج) إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ[3] (3). وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ (يتهمون

1- انظر التقديم أعلاه.

2 - قالوا: يكون الجلد بسوط من جلد، متوسط اللين، ويكون على الظهر. قال الزمخشري: وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم جلد الجسم إلى اللحم". قالوا: وعلى الضارب أن لا تفارق يده إبطه عند الضرب، فلا يحدث عاهة أو إضرارا بالجسم، ولا يقيم الجلد إلا الإمام (قسم القضاء في الدولة) ... أما عن "الرجم" فيرى بعضهم أنه "ليس في كتاب الله الرجم، فلا رجم"، وقال آخرون ثبت الرجم زمن النبي، وقالوا "حد الزاني المحصن الرجم". فعلا، ثبت أن النبي عليه السلام حكم بالرجم على يهودي بناء على ما ورد في التوراة عندما تحاكم إليه أهل ذلك اليهودي آملين أن لا يكون هناك رجم، لكن الرسول عليه السلام طلب منهم الحكم المنصوص عليه في كتابهم فتبين أنه الرجم فطبق عليهم ما في التوراة، وسيرد تفصيل ذلك لاحقا. والذين قالوا بالرجم من الفقهاء بناء على هذه الحادثة مع عدم وجود نص من القرآن بنوا ذلك على أن السنة نسخت ما في سورة النور... وهذا على رأي من يقول إن السنة تنسخ القرآن وهذا غير مسلم.

3 - اختلف المفسرون اختلافا كبيرا حول هذه الآية: ذكر الطبري رواية مفادها أن هذه الآية نزلت في بعض من استأذن رسول الله (ص) في نكاح نسوة كن معروفات بالزنى من أهل الشرك، وكن أصحاب رايات، يكرين أنفسهن، فأنزل الله تحريمهن على المؤمنين،=

فقال: الزاني من المؤمنين لا يتزوّج إلاّ زانية أو مشركة، لأنهنّ كذلك، والزانية من أولئك البغايا لا ينكحها (يتزوجهن) إلاّ زان من المؤمنين أو المشركين أو مشرك مثلهن، لأنهنّ كنّ مشركات. وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فحرّم الله نكاحهنّ في قول أهل من قال بهذه المقالة في هذه الآية. أما في القرطبي فنقرأ كلاما طويلا واختلافات لا حد ولا نهاية لها حول هذه الآية"، منها قوا من قال إن هذه الآية منسوخة وبالتالي فالتزوج بالزانية صحيح. فإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وأضاف : وقال قوم من المتقدمين: الآية محكمة غير منسوخة، وبناء عليه : فإذا زنى الرجل فسد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها. وقال قوم من هؤلاء: لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثِم، ولا يجوز التزوّج بالزانية ولا من الزاني. لكن لو ظهرت التوبة فحينئذٍ يجوز النكاح. قلت (الجابري) : يبدو لي أن هذه الآية قد جاءت مكملة للآية السابقة في سورة النساء وهي قوله تعالى: "وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ (الباغيات من نساء المدينة) فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ (اسجنوهن) حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا[15]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى : "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا (الفاحشة) مِنْكُمْ (المؤمنين والمؤمنات) فَآذُوهُمَا (ولم يتحدد نوع الأذى في سورة النساء) فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا"[16]. وكما قلنا في سورة النساء فهذه الآية قسمان: "اللاتي يأتين الفاحشة"، وهن التي ذكر الطبري في الرواية أعلاه، وحكمهن في آية النساء واضح حاسم وهو "السجن حتى الموت (أو يجعل الله لهن سبيلا كأن يسلمن ويتبن ويبقين على التوبة). ومضمون هذا الحكم هو وجوب إغلاق دور البغاء بحبس المتعاطيات للبغاء فيها حتى الوفاة أو... أما القسم الثاني من آية النساء فهو قوله تعالى: "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ" (أي الزاني والزانية من المسلمين) فَآذُوهُمَا (ولم يتحدد نوع الأذى). وقد جاء التحديد في هذه السورة – سورة النور– وهو قوله تعالى : "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ". فهو تحديد لنوع الأذى وهو الجلد مائة جلدة على النحو الذي ذكرناه. أما قوله "الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"، فواضح أن الحكم في هذه الآية هو "حرم ذلك على المؤمنين". وما قبلها معناه أن الباغيات لا يتزوجهن إلا أمثالهن من الرجال الذين يمارسون البغاء، وعطف "المشرك" على هذا النوع لجعلهما سواء : بمعنى أن استباحة البغاء من أوصاف المشركين فكل من فعل فعلهم كان مثلهم. أما ما نسبه القرطبي إلى القائلين بأن هذه الآية منسوخة، وأنه بناء عليه يكون التزوج بالزانية صحيح الخ، فهذا لا وجه له من الصحة، والصحيح هو ما نسبه لبعض المتقدمين، سواء الذين قالوا بأن الآية محكمة غير منسوخة، وبالتالي فالزنى يفسخ الزواج سواء كان الزاني هو الزوج أو الزوجة، أو الذين قالوا "لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثم، ولا يجوز التزوّج بالزانية ولا من الزاني، بل لو ظهرت التوبة فحينئذٍ يجوز النكاح. وهكذا نرى أنه=

بالزنى الزوجات المحصنات) ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[4]، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5]. وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ (بالزنى) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ[6]، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[7]. وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ (العقاب عن الزوجة المتهمة) أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ[8]، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ[9]. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ[10]. (وهذه هي الملاعنة، أو اللعان).

3- قضية الإفك ... تبرئة وعتاب

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ (4)، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ (أي أتى باتهام عائشة والمقصود عبد الله بن أبي) لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[11]. لَوْلَا (هلا) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا، وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ[12]. لَوْلَا (هلا) جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ[13]. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ (من الكذب على عائشة) عَذَابٌ عَظِيمٌ[14]. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ[15]. وَلَوْلَا (هلا) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ[16]. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[17]، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[18]. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا

بربط هذه الآية بآية "اللذان..." (في سورة النساء) ترتفع جميع الإشكالات التي أثارها المفسرون حول هذه الآيات. وهذا وفاقا مع قوله تعالى عن هذه السورة : "فرضناها" أي جعلناها تعالج مسائل متنوعة من بينها مسائل لم يكن قد حسم فيها من قبل.

4 – الإفك: الكذب والبهتان. قال الطبري عن ابن عباس: "قوله: جاءوا بالإفك عصبة منكم. الآية، الذين افتروا على عائشة: وعلى رأسهم عبد الله بن أبي. ذلك أنهم اتهموا عائشة زوج النبي بالخلوة مع صفوان بن المعطل وإتيان الفاحشة معه" عند العودة من غزوة بني المصطلق ، وروجوا ذلك في المدينة مما أساء إلى النبي كثيرا، حتى جاءت الآيات أعلاه تثبت براءتها وتعاتب الذين تحدثوا في هذا الموضوع من المؤمنين (انظر تفاصيل قصة الإفك، كما روتها عائشة، في الاستطراد في هذه السورة)

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[19]، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ(لكان مصيركم العذاب)، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[20]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا (اهتدى) مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[21]. وَلَا يَأْتَلِ (لا يحلف ويقسم) أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا (أن لا يعطوا) أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا[(5)]، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[22]. إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ (العفيفات) الْغَافِلَاتِ (عن الفواحش) الْمُؤْمِنَاتِ، لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[23]، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[24]، يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ[25]. الْخَبِيثَاتُ (ذوات السلوك الخبيث) لِلْخَبِيثِينَ (من الرجال) وَالْخَبِيثُونَ (وذوو السلوك الخبيث من الرجال) لِلْخَبِيثَاتِ (من النساء)، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[26].

4-قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا (تستأذنوا)[(6)] وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[27]. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا (يأذن لكم) فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا، هُوَ أَزْكَى لَكُمْ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[28]. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ، فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ [(7)]، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ[29]. قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ [(8)] وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ (من الزنى)، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ

---

5 – قال الطبري: المعني هنا هو أبو بكر في حلفه بالله لا ينفق على مسطح، وهو ابن خالته. وكان مسطح من الذين روجوا لحادثة الإفك، إذ كان من المرافقين لها وكان فقيرا محتاجا. وهو من الذين هاجروا، وشهد بدرا...

6 – قال ابن عباس وغيره هي "وتستأذنوا" وأخطأ الكاتب فكتب "تستأنسوا". وقال آخرون هي "تستأنسوا" بمعنى تشعروا أهل الدار بوجودكم بالتنحنح أو ما أشبه.

7 – قالوا هي بيوت في طرق المدينة كان المسافرون يضعون فيها أمتعتهم ...

8 – الغض: صرف المرء بصره عن التحديق في الشيء وتثبيت النظر فيه. قلت (الجابري): جميع ما قاله المفسرون والفقهاء حول الحجاب أساسه الشرعي "غض البصر". ولكنهم=

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ[30]. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا (ما يظهر في العادة الجارية) [(9)]، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ [(10)]، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ، أَوْ آبَائِهِنَّ، أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ أَبْنَائِهِنَّ، أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ [(11)]، أَوْ نِسَائِهِنَّ (أي غيرهن من النساء)، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ (من عبيد وإماء)، أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ (غير ذوي الرغبة الجنسية) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا (لم يبلغوا ولا شهوة لهم مع النساء) عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ (ليلفتن الانتباه إليهن) لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ. وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[31]. وَأَنْكِحُوا

اهتموا فقط بالمرأة واعتبروها وحدها مصدر الفتنة. إن تطبيق الشريعة في هذا المجال كما في المجالات الأخرى يقتضي تطبيق الحكم على الرجل والمرأة إذا جاء شاملا لهما معا، وإذن فالواجب أن يغض الرجل بصره حتى لا يرى ما يعتبر فتنة في المرأة، وعلى الرجل أن لا يبدي من الزينة ما يمكن أن يفتن المرأة. المفسرون والفقهاء يفهمون الآية وكأنها خاصة بالمرأة وحدها، والحال أن الأصل الذي بني عليه كل شيء في هذه المسألة هو قوله تعالى: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ" ثم "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ". هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالغض من الأبصار مقرون سواء بالنسبة للرجل أو للمرأة بـ "حفظ الفرج" وهو المقصود. فلماذا كثرة الكلام في الحجاب والسكوت عن "حفظ الفرج". أليس حفظ الفرج مع السفور أهم من الحجاب مع "عدم حفظ الفرج"؟ وبعد، فنحن لا نقول هذا طعنا في نوايا الرجال الفقهاء، وإنما نقوله تنبيها إلى أن مسألة الحجاب مظهر يختلف من بلد إلى بلد حسب العرف والعادة، أما "حفظ الفرج" فهو ثابت لا يتغير.

9 - الرازي: "فأمروا بستر ما لا تؤدي/الضرورة إلى كشفه ورخص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة إلى إظهاره". وأضاف: اتفقوا على تخصيص قوله: "وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا" بالحرائر دون الإماء، والمعنى فيه ظاهر، وهو أن الأمة مال فلا بد من الاحتياط في بيعها وشرائها، وذلك لا يمكن إلا بالنظر إليها على الاستقصاء بخلاف الحرة"!

10 - "قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن، وإن جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن، فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلي في الأذن والنحر وموضع العقدة منها".

11 - قال الرازي أما السبب في إباحة نظر هؤلاء إلى زينة المرأة فلأنهم مخصوصون بالحاجة إلى مداخلتهن ومخالطتهن ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن، ولما في الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار وللنزول والركوب. قلت: (الجابري) وهذا ينطبق اليوم على المرأة عموما، فهي تدرس وتشتغل وتذهب إلى السوق...

(زوّجوا) الْأَيَامَى [12] مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[32]. وَلْيَسْتَعْفِفِ (ليتمسك بالعفة) الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا (بسبب غلاء المهور مثلا) حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (أي العبد الذي يريد أن يشتري حريته من سيده بمبلغ من المال يدفعه له أقساطا). فَكَاتِبُوهُمْ [13] إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ (تنازلوا لهم ببعض ما كاتبتموهم عليه). وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ (إماءكم) عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[33].

5- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ (علامات وظواهر كونية تبين لكم أن الله خالق السماوات والأرض الخ)، وَمَثَلًا (بمعنى أمثالا ضربناها لكم) مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ (من الأقوام السابقة)، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ"[34] (أنزلنا تلك الآيات والأمثال، لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور، ذلك أن) : اللَّهُ نُورُ[14]، (هو الهادي لـ) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (والمدبر لشأنهما)، مَثَلُ نُورِهِ (مثل هدايته وتدبيره للكون والإنسان ولجميع المخلوقات) كَمِشْكَاةٍ (كوة، فتحة في جدار) فِيهَا مِصْبَاحٌ (مصدر النور والهداية الوحي)، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ (القرآن، الكتاب)، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ (القرآن في بيانه مثل كوكب مضيء) يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

---

12 - "كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها"

13 - "الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمى مالاً معلوماً يؤديه في نجمين أو أكثر (يعني قسطين أو أقساطا)، ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم، ويقول إذا أديت ذلك المال فأنت حر، أو نوى ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت".

14 - جرت عادة المتصوفة على الفصل بين هذه الآية وما قبلها ليعطوا لقوله تعالى "الله نور السماوات والأرض..." دلالة خاصة، تجعل من النور "حقيقة الذات الإلهية" في حين أن القرآن يستخدم لفظ "النور" بمعناه المتعارف عليه لدى العرب وغيرهم أي بمعنى المعرفة والسعة في مقابل الجهل الظلمة والظلمات" : "يخرجكم من الظلمات إلى النور". أما حقيقة الذات الإلهية فيعرفها القرآن بقوله تعالى: "ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير" وأيضا "هو الله أحد الله الصمد ... ليس له كفوا أحد". وقد ذهب الغزالي في تأويل آية النور هذه على طريقة المتصوفة الإشراقيين، مذهبا قصيا، وذلك في كتابه "مشكاة الأنوار" الذي انتهى فيه إلى القول بوحدة الوجود.

مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ (شجرة المعرفة، علم الله)، لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، (ليست يهودية ولا نصرانية) يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ (بالعقل وحده) وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ (ولو لم يكن هناك رسول)! نُورٌ (بيان بدون رسول هو نور العقل المتأمل لخلق السماوات والأرض) عَلَى نُورٍ (على بيان الرسول)! يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ (لبيان القرآن) مَنْ يَشَاءُ. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ (كما في مثال النور والمشكاة والزجاجة والكوكب الدري ...)، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[35]. (يهدي الله لنوره أي لبيان القرآن) فِي بُيُوتٍ (في مساجد) أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ (تبنى) وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (إشارة إلى قوله تعالى: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ" الخ. البقرة 127)؛ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[36] رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَ(ولا عن) إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ"[37] (يوم القيامة)، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[38]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (أرض مستوية) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ[39]، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ (كبير عميق) يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ : ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ[40]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ[41]. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"[42]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي (يسوق) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ (المطر) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ (ينزل من السماء من برد يتجمع منه مقدار جبال)، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ (برق السحاب) يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ[43]. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ[44]. وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[45]. لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[46]. (آخر هذه الفقرة يذكر بأولها: "وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ" الخ. وهذا يزكي اختيارنا جعلها فقرة واحدة).

6- وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ ...

وَيَقُولُونَ (والمقصود: المنافقون الذين لم يهتدوا هداية كاملة بالآيات التي أنزلها الله): آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى (يتراجع ولا يلتزم) فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ[47]. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ[48] (عن الدعوة). وَإِنْ يَكُنْ (ولو كان) لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ[49] (مسرعين. فما المانع لهم من تلبية الدعوة). أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (شك)، أَمِ ارْتَابُوا، أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ (أن يشدد عليهم) عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[50]. إِنَّمَا كَانَ (ينبغي أن يكون) قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[51]. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[52]. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ (معك لقتال المشركين)! قُلْ لَا تُقْسِمُوا، (فهذه) طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ (منكم، وهي كذب)! إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[53]. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا (تتولوا: تمتنعوا) فَإِنَّمَا عَلَيْهِ (على الرسول) مَا حُمِّلَ (بتبليغه)، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ (القيام بما أمركم به)؛ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا. وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[54]. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا: يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا. وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[55]. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[56]. لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ (الله إذا أراد عقابهم) فِي الْأَرْضِ (في الدنيا)، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ[57].

7- خاتمة: من آداب المعاشرة...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (ليستأذن في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم، وأطفالكم فلا يدخلوا عليكم في غرفكم حين خلوكم بزوجاتكم، وذلك في الأوقات الثلاث التالية)، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ (لأنكم تضعون فيها ثيابكم وتخلون بأهليكم). لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ (الأولاد والخدم) جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ (بعد تلك الأوقات فهم) طَوَّافُونَ

عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[58]. وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا (في كل وقت) كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من الكبار)، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[59]. وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ (ينزعن) ثِيَابَهُنَّ (الذي يحتجبن به) غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ (يلبسنها) خَيْرٌ لَهُنَّ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [60]. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا. فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[61]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ (مجتمعين مع النبي) عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ (يهم الجماعة) لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ (في الذهاب والمغادرة للاجتماع). إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[62]. لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ (حديثكم إليه) كَدُعَاءِ (كحديث) بَعْضِكُمْ بَعْضًا، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا (ينصرفون عن النبي خفية)، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[63]. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[64].

تعليق

تشتمل هذه السورة كسابقاتها على مقدمة وتحليل موضوعات ثم خاتمة.

1- جرت العادة أن تشتمل المقدمة على فكرة تلخص مضمون السورة أو المجال الذي تتحرك فيه. ثم يأتي التحليل والتفصيل في نفس الإطار. هنا في هذه السورة جاءت المقدمة فريدة، فهي تقتصر على التعريف بهذه السورة دون الدخول في تفاصيل موضوعاتها. وهذه أول مرة يتناول فيها استهلالها التعريف بها: هذه سورة أنزلناها كغيرها من السور، ولكن "فرضناها" أي جعلناها أحكاما

موزعة على قضايا مختلفة متنوعة، فيها شريعة وفيها عقيدة وفيها آداب المعاشرة...

2- في هذا الإطار جاءت الفقرة الثانية لتطرح قضية الزنى، وكانت هذه القضية قد طرحت من قبل في سورة النساء، حيث تم التنصيص على عقوبة الزانيات المحترفات صاحبات البيوت بسجنهم إلى الموت... من جهة، وعلى إلحاق الأذى (بدون تحديد) على الزاني والزانية من المؤمنين والمؤمنات من جهة أخرى. وقد جاءت هذه السورة لتحدد نوع الأذى وهو الجلد مائة جلدة. أما الزواج بالزانيات المحترفات -وهو موضوع طرح من خلال الرجل الذي سأل الرسول في حكم ذلك- فقد أوضحت السورة الحكم فيه، وهو أنه لا يجوز ذلك للمؤمنين: فقد روي أن رجلاً من المسلمين استأذن النبيّ في امرأة يقال لها أمّ مهزول، كانت تسافح الرجل وتشترط له أن تنفق عليه، وأنه استأذن فيها النبيّ (ص) وذكر له أمرها، قال: فقرأ النبيّ عليه السلام: الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ" الآية.

3 – تأتي بعد ذلك الفقرة الثالثة لتفصل في قضية الإفك، قضية اتهام السيدة عائشة. وسنشرحها بتفصيل في الاستطراد ويأتي الكلام في هذه الحادثة في مركز آيات التشريع في السورة . ومما يلفت النظر أن حادثة توتر العلاقة بين النبي زوجاته ذكرت في قلب الآيات التي حددت للنساء ما لهن وما عليهن، ومن بين ذلك الحشمة في اللباس، كما أن حادثة الإفك طرحت هنا كذلك في سياق بيان الموقف من الزنى وتحديد عقوبته، مع تأكيد الأمر بالحشمة والارتفاع به إلى "غض الأبصار" : الرجل إزاء النساء، والنساء إزاء الرجال، وأضافت إلى ذلك الأمر بتغطية الصدر وعدم إظهار المرأة زينتها إلا للمحارم الخ.

5 – في الفقرة الخامسة تطرح السورة موضوعا له علاقة بالموضوع السابق. لقد بينت السورة إلى حد الآن جملة أحكام فيها بيان للمؤمنين وهداية لهم إلى سبيل الرشاد على مستوى السلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية. وقد أردت السورة أن تبين طريق الهداية وأسبابه. وهكذا فما أن الله هو خالق السماوات وما بينهما والأرض وما عليها، فهو الذي يدبر أمور جميع المخلوقات أي يرسم لها الطريق ويهديها إلى الصراط المستقيم. يدخل في ذلك ما يشرعه من أوامر ونواه للناس ليستقيم سلوكهم وتنضبط العلاقات بينهم ذكورا وإناثا. ولكي تبين كيف تتم الهداية الإلهية. جاءت بمثال "المصباح المشكاة" والنور المنبعث منها : نور النبوة (الوحي، القرآن) نور العقل. الذي هو مثل الكوكب الدري...

6- وتختص الفقر السادسة بفضح المنافقين والكشف عن تخاذلهم واهتمام بالغنائم وحدها الخ، حينما يدعون إلى الخروج مع المسلمين، وترد عليهم بأن الله سيفي بوعده للمؤمنين سواء شارك المنافقون في الجهاد ضدا على المشركين وحلفائهم أم لم يشاركوا : "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا: يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا".

7- وتأتي الخاتمة : لتركز على موضوع آداب المعاشرة داخل العائلة وأدام الاجتماع مع النبي في جلساته التي يقوم فيه بمشاورة المؤمنين والاستعداد للمستجدات...

استطراد : قصة الإفك

روى كل من البخاري والطبري وغيرهما من جهات متعددة جملة روايات متكاملة حول قضية الإفك أشهرها رواية الزهري نوردها فيما يلي: قال الزهري: "زعموا أن عائشة قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج مسافرا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها (غزاة بني المصطلِق" [15] فخرج سهمي فخرجت معه، بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أُحمَل في هودج وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت (لقضاء الحاجة) حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون بي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن، ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه، وكنت جارية حديثة السن (14 سنة)، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم (المكان الذي كانوا فيه) وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش (مكلفا بما يسقط من الحملة)،

15- غزوة بني المُصطَلِق جرت في السنة السادسة وعمر عائشة لا يتجاوز حوالي أربعة عشر عاما. ذلك أن الحارث بن أبي ضرار، سيدَ بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أُحُد، كان قد أخذ يجمع الجموع لحرب المسلمين ، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير، معه ناس من المنافقين، ولما بلغ الحارث مجيء المسلمين لحربه، أصابه هو وجنده خوفا شديداً حتى تفرق عنه بعضهم عن بعض. ولما وصل المسلمون إلى مكان يقال له المُرَيْسِيع تَصَافَّ الفريقان للقتال، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فلم يتركوا لهم مجالاً للهرب، فقتلوا منهم وأسروا النساء والذرية، واستاقوا الإبل والشياه، قيل: وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة آلاف، وكان في نساء المشركين بَرَّة بنت الحارث سيد القوم، فتزوجها الرسول وسماها جويرة فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا= ينبغي أسرهم في أيدينا فمنوا عليهم بالعتق، فأسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم. وفي الرجوع من هذه الغزوة حدثت قصة الإفك.

فأصبح عند منزلي(مكاني)، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، وكـان يراني قبـل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه، حين أناخ راحلته، فوطئ يده فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سـلول، فقـدمنا المدينـة، فاشتكيت (مرضت) بها شهرا، يفيضون من قول أصحاب الإفـك، ويريبنـي فـي وجعي: أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، وإنما يدخل فيسلم، ثم يقول: (كيف تيكم). لا أشعر بشيء من ذلك حتـى نقهت. فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع، فتبرزنا، لا نخرج إلا ليلا إلى ليـل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرُنا أمر العرب الأول في البرية، أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا شهد بدرا، فقالت: يا هنتاه ألم تسمعي ما قالوا، فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلـى مرضـي، فلمـا رجعت إلى بيتي، دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم، فقـال: (كيـف تيكم). فقلت: ائذن لي إلى أبوي، (قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبـر مـن قبلهما)، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوي، فقلت لأمـي: مـا يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلمـا كانـت= امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا؟ قالت عائشة: فبت الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لـي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بـن أبي طالب وأسامة ابن زيد، حين استلبث الوحي (أبطأ)، يستشيرهما في فراق أهله (طلاقي)، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: يا بريرة، هل رأيت شيئا يريبـك. فقالـت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرا أغمصه عليها أكثر مـن أنهـا جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الدواجن فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر (تبرأ) من عبد الله بن أبي ابن سـلول، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كـان يدخل على أهلي إلا معي". فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك

منه: إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد ابن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية، فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لتقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل فخفضهم، حتى سكتوا وسكت، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، قد بكيت ليلتين ويوما، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، قالت (عائشة): فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد، ثم قال: "يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بشيء فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، قلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدقني، والله ما أجد لي ولو مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون". ثم تحولت إلى فراشي، وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحي، ولأني أحقر في نفسي من أن يتكلم القرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: "يا عائشة، احمدي الله، فقد برأك الله". فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: "إن

الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم". الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا، بعد ما قال في عائشة. فأنزل الله تعالى: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة – إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم". فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يُجري عليه (النفقة). وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: "يا زينب، ما علمت، ما رأيت"؟. فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا. قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع."

تلك هي قصة الإفك كما رواها البخاري عن الزهري.

104- سورة المنافقون

- تقديم

يرجح كتاب المغازي وبعض المفسرين أن هذه السورة نزلت في غـزوة بني المصطلق، جوابا على قول زعيم المنافقين عبد الله بن أبـيّ ابـن سـلول: «ليُخْرجن الأعز منها الأذل»، وذكروا روايات (أوردها الطبري) تختلف في بعض ألفاظها، منها الرواية التالية : « عن زيد بن أرقم أنه قال: كنا في غـزا، فكَسع رجل من المهاجرين (ضرب برجله) رجلاً جُهَنِيًّا حَليفاً للأنصار، فقال الجهني: يَا للأنصار؟! وقال المهاجري: يا للمهاجرين؟! فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: كسَع رجل من المهاجرين رجلاً مـن الأنصار، فقال: «دَعُوها فإنها مُنْتِنَة» (أي دعوا دعوة الجاهلية فإنهـا كريهـة). سمع عبد الله بن أُبيّ زعيم المنافقين بالحادثة فقال: أقد فعلوها؟ أمَـا والله لـئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرجن الأعزّ منها الأذّل». وقال: لا تنفقوا علـى مَـن عنـدَ رسول الله حتى ينفضوا من حوله. قال زيد بن أرقم: فسمعت ذلك فأخبرت به عَمي فذكره للنبي صلى الله عليه وسلّم فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ذلك، فكذّبني رسول الله وصدّقه، فأصابني همّ لم يصبني مثلُه. فقال عمّي: ما أردتَ إلا أن كذبك رسول الله، فلما أصبحنا قرأ رسول الله "سورة المنافقين" وقال لي: "إن الله قد صدقك".

- نص السورة

1- مقدمة: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا (بظاهر لسانهم) نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ (حقا)، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ[1].

2- هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (اتخذوا قسمهم ذاك سترة لكفرهم الذي في قلوبهم) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (أعرضوا عن دين الله)، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ (لم يعد بإمكانهم الرجوع إلى الإيمان) فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ[3] (ولم يعودوا يفرقون بين الحق والباطل). وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ (فهي كأجسام الناس ليس فيها عيب)، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ (فهو كأقوال الناس ليس فيه خلل، ولكنهم في الحقيقة صور وأشباح بلا عقول)، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (مجسمات في صور إنسان)، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ (ولكنهم كلما سمعوا كلاما للمسلمين اعتقدوا أنه يعنيهم ويتوعدهم، هم يسيئون الظن بالنبي والمسلمين)! هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ (أخزاهم)، أَنَّى يُؤْفَكُونَ[4] (إلى أين يهربون منه). وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ[5]. سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[6]. هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ (لأصحابهم) لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (من المهاجرين) حَتَّى يَنْفَضُّوا (كي يتفرقوا عنه)، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ[7]. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ (القوي) مِنْهَا الْأَذَلَّ : (الضعيف، انظر التقديم)، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ[8]. (والفقرة التالية ترد عليهم في دعواهم الناس إلى الكف عن الإنفاق على المهاجرين).

3- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[9]. وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ[10]. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[11].

- تعليق

إن نزول سورة خاصة في المنافقين دليل على أن محاربتهم للرسول قد بلغت أوجها، وأنها صارت علانية ودعوة مضادة. وهذا ما أبرزته السورة بوضوح:

1- في المقدمة : تكذيب صريح لهم في دعواهم أنهم يؤمنون بالرسول وبرسالته.

2- وفي الفقرة الثانية تفضح كيف أنهم اتخذوا دعواهم بالإيمان بالرسول سبيلا للتمكن من محاربته من الداخل: يشككون ويستهزئون ويتوعدون ويصدون الناس عن النفقة في تجهيز جند الرسول، وفي الوقت نفسه يحرصون على إظهار مشاركتهم في غزواته لينسحبوا بغرض التسبب في هزيمة، أو يسايرون الحملة حين يبدو لهم أن النصر للمسلمين، لينالوا نصيبا من الغنائم...

3- وفي الفقرة الثالثة التي هي الخاتمة تدعو السورة المؤمنين، بعد أن فضحت المنافقين وأهدافهم، إلى الرد عليها بالنفقة على تجهيز جند النبي عليه السلام لنشر الإسلام ومحاربة المشركين.

ومن أجل التعريف بالمنافقين وبأعدادهم وتغلغلهم في المدينة وعلاقاته مع اليهود ننقل في الاستطراد التالي ما ذكره عنهم ابن اسحق فيما جمعه من روايات.

- استطراد : أخبار عن المنافقين

2- زعيما المنافقين

قال ابن إسحاق: وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبد الله بن أبي بن سلول العوفي ... لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان. لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل غيرِه، من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام. وكان ومعه في الأوس رجل، هو في قومه من الأوس شريف مطاع، أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، وكان يقال له: الراهب. فشقيا بشرفهما وضرّهما.

فأما عبد الله بن أُبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليُتَوِّجوه ثم يُملّكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، وهم على ذلك. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا. فلما رأى قومَه قد أبَوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن. وأما أبو عامر فأبى إلا الكفرَ والفراقَ لقومهِ حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج منهم إلى مكة ببضعةَ عشرَ رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... لا تقولوا : الراهب، ولكن قولوا الفاسق. وروى ابن إسحق أن أبا عامر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، قبل أن يخرج إلى مكة فقال : ما هذا الدين الذي جئتَ به؟ فقال جئت بالحنيفية دِين إبراهيم، قال : فأنا عليها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لستَ عليها، قال، بلى، قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال : ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً – يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم – أي أنك جئتَ بها كذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به، فكان هو ذلك عدو الله، خرج إلى مكة، فلما افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكةَ خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام. فمات بها طريداً غريباً وحيداً.

قال ابن إسحاق : وأما عبد الله بن أبي فأقام على شرفه في قومه مترددا حتى غلبه الإسلام، فدخل فيه كارهاً.

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عُروة بن الزبير، عن أسامة بن زيد بن حارثة، حِبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : ركب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، إلى سعد بن عُبادة يعوده من شَكْو أصابه على حمار عليه إكافٌ (بردعة)، فوقه قطيفة فَدَكِية (من قرية فدك)، مُخْتَطمة (معها لجام) بحبل من ليف، وأردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه : قال : فمر بعبد الله بن أبي، وهو في ظل مُزَاحمَ أطُمِه (حصنه)، وحوله رجال من قومه. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَذَمم (استحيا) من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلّم ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل، وذكّر بالله وحذّر، وبشّر وأنذر قال : وهو زَامُّ لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته، قال : يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حَقا فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه (تثقل عليه) به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه. قال : قال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى، فاغشَنا به، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله ما نحبُّ. ومما أكرمنا الله به وهدانا له، فقال عبد الله بن أبي حين رأى من خلاف قومه ما رأى: وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل على سعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبيّ، فقال : والله يا رسولَ الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه، قال أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبي : فقال سعد : يا رسول الله ! ارفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لنَنْظِمَ له الخرز لنتوِّجَه. فوالله إنه ليرى أن قد سَلَبْتَهُ مُلكاً.

2- أسماء المنافقون في المدينة

قال ابن إسحاق : وكان ممن انضاف إلى يهود ممن سمى لنا من المنافقين من الأوس والخزرج، والله أعلم :

- من الأوس، من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، ثم من بنى لَوْذان بن عمرو بن عوف : زُوَيّ بن الحارث.

- ومن بني حُبيب بن عمرو بن عوف : جُلاس بن سُوَيْد بن الصامت وأخوه الحارث بن سُوَيْد. وجُلاس الذي قال – وكان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك – "لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحُمُر"، فرَفَع ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عميرُ بنُ سعد، أحدهم، وكان في حِجر جُلاس، خَلَفَ جُلاس على أمه بعد أبيه، فقال له عُمَيْر بن

سعد : والله يا جُلاس، إنك لأحبُّ الناس إليَّ، وأحسنهم عندي يداً، وأعزهم عليَّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني، ولإحداهما أيسرُ عليَّ من الأخرى. ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له ما قال جُلاس، فحلف جُلاس بالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كذب عليَّ عُمَيْر، وما قلتُ ما قال عُمَيْر بن سعد. فأنزل الله عز وجل فيه : "يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " (التوبة: 74). قال ابن إسحاق : فزعموا أنه تاب فحسُنت توبته، حتى عُرِفَ منه الخيرُ والإسلام.

وأخوه الحارث بن سُوَيْد، الذي قتل المجذَّرَ بنَ زياد البلوي، وقيسَ بن زيد، أحد بني ضُبَيْعة، يوم أحد. خرج مع المسلمين، وكان منافقاً، فلما التقى الناس عدا عليهما، فقتلهما ثم لحق بقريش. قال ابن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما يذكرون – قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، ففاته، فكان بمكة، ثم بعث إلى أخيه جُلاس يطلب التوبة، ليرجع إلى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه – فيما بلغني عن ابن عباس: " كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86) إلى آخر القصة.

– ومن بني ضُبَيْعة بن زيد بن مالك بن عَوْف بن عمرو بن عوف : بِجَاد بن عثمان بن عامر.

– ومن بني لَوْذان بن عَمْرو بن عَوْف : نَبْتَل بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم– فيما بلغني – : من أحبَّ أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث، وكان رجلاً جسيماً أذلم (مسترخي الشفتين) ثائر شعر الرأس، أحمر العينين أسفَع الخدَّين (عليهما حمرة تضرب إلى السواد) ، وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال : إنما محمد أُذن، من حدّثه شيئاً صدقه. فأنزل الله عز وجل فيه : "وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(61) " (التوبة: 61). ...

– ومن بنى ضُبَيعة : أبو حبيبة بن الأزعَر، وكان ممن بنَى مسجدَ الضرار، وثعلبة بن حاطب، ومُعَتب بن قُشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن أتانا من فضله لنصدَّقَنَّ ولنكونن من الصالحين الخ القصة. ومُعَتّب الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله "وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا " (آل عمران: 154) إلى آخر القصة. وهو الذي قال يوم الأحزاب : كان محمد يَعِدُنا أن نأكلَ كنوزَ كسرى وقيصر، وأحدُنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط فأنزل الله عز وجل فيه : "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا" (الأحزاب: 12).

قال ابن إسحاق : وعَبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حُنَيف وبَحْزَج، وهم ممن كان بنى مسجد الضرَار[1]، وعمرو بن خِذَام، وعبد الله بن نَبْتَل. ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عَوْف : جارية بن عامر بن العَطَّاف، وابناه : زيد ومُجمَّع، ابنا جارية. وهم ممن اتخذ مسجدَ الضرار. وكان مُجَمَّع غلاما حدثا قد جمع من القرآن أكثره، وكان يصلى بهم فيه، ثم إنه لما أخرب المسجدُ، وذهب رجال من بني عمرو ابن عوف، كانوا يصلون ببني عمرو بن عوف في مسجدهم، وكان زمان عمر بن الخطاب، كلّم في مُجَمِّع ليصلى بهم فقال : لا، أو ليس بإمام المنافقين في مسجد الضِّرار؟ فقال لعمر : يا أمير المؤمنين، والله الذي لا إله إلا هو، ما علمتُ بشيء من أمرهم، ولكني كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا لا قرآنَ معهم، فقدموني أصلى بهم، وما أرى أمرَهم، إلا على أحسن ما ذكروا، فزعموا أن عمر تركه فصلى بقومه

– ومن بني أمية بن زيد بن مالك : وَديعة بن ثابت، وهو ممن بنى مسجدَ الضرار، وهو الذي قال : إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله تبارك وتعالى : " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ" (التوبة: 65) إلى آخر القصة .

– ومن بني عُبَيد بن مالك : خِذام بن خالد، وهو الذي أخرج مسجد الضرار من داره، وبشرٍ ورافع، ابنا زيد.

– ومن بني التبيت: عمرو بن مالك ابن الأوس.

---

1 – مسجد بناه المنافقون يجتمعون فيه ويتآمرون على النبي والمسلمين

– ثم من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: مِربع بن قَيْظِي، وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجاز في حائطه (بستانه) ورسول الله صلى الله عليه وسلم عامد إلى أحد : لا أحِل لك يا محمد، إن كنت نبيا، أن تمر في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال : والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرَك لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه، فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة . فضربه سعد ابن زيد، أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجَّه . وأخوه أوس بن قَيْظى وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : يا رسول الله، إن بيوتنا عوْرة، فأذنْ لنا فلنرجعْ إليها. فأنزل الله تعالى فيه : "يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُون إِلَّا فِرَارًا" (الأحزاب: 13).

– ومن بني ظَفَر، واسم ظَفَر : كعب بن الحارث ابن الخزرج : حاطب بن أمية بن رافع، وكان شيخاً. جسيماً قد عَسَا (أسن) في جاهليته وكان له ابن من خيار المسلمين، يقال له يزيد ابن حاطب، أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار بني ظفر. قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه اجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون أبشر يا بن حاطب بالجنة، قال : فنجم (ظهر) نفاقُه حينئذٍ، فجعل يقول أبوه : أجل جنة والله من حَرْمل، غررتم والله هذا المسكين من نفسهِ.

– وبُشَيْر بن أُبَيْرِق، وهو أبو طُعمَة، سارق الدِّرْعين، الذي أنزل الله تعالى فيه : "وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمً" (النساء: 107) : وقُزْمان : حليف لهم. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه لمن أهل النار. فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً حتى قتلَ بضعةَ نفر من المشركين، فأثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار بنى ظَفر، فقال له رجال من المسلمين : أبشر يا قُزْمَان، فقد أبليتَ اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله . قال : بماذا أبشر، فوالله ما قاتلتُ إلا حميةٌ عن قومي، فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهماً من كِنانتِه، فقطع به رواهش (عصب) يده، فقتل نفسَه.

– ولم يكن في بنى عبد الأشْهل منافق ولا منافقة يُعلم، إلا أن الضحاك بن ثابت، أحد بنى كعب، رهْط سعد بن زيد، وقد كان يُتهم بالنفاق وحُب يهود وكان جلاس بن سُوَيْد بن صامت قبل توبته – فيما بلغني– ومُعتِّب بن قُشَير، ورافع بن

زيد، وبشر، وكانوا يُدْعَوْن بالإسلام، فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعوهم إلى الكهان، حكام أهل الجاهلية، فأنزل الله عز رجل فيهم : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا " (النساء: 60) إلى آخر القصة .

– ومن الخزرج، ثم من بني النجار : رافع بن وديعة، وزَيْد بن عَمرو، وعَمْرو بن قيْس، وقَيس بن عَمْرو بن سَهْل.

– ومن بني جُشَم بن الخزرج، ثم من بني سَلِمَة : الجدُّ بن قَيْس، وهو الذي يقول : يا محمد، ائذن لي ولا تفتني، فأنزل الله تعالى فيهم " وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" (التوبة: 49) : إلى آخر القصة.

– ومن بني عَوْف بن الخزرج : عبدُ الله بنُ أبَيٍّ ابنُ سَلول، وكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون وهو الذي قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، في غزوة بني المصْطَلق. وفي قوله ذلك، نزلت سورة المنافقين بأسرها. وفيه وفي وديعة – رجل من بني عوف – ومالك بن أبي قَوْقَل، وسُوَيْد، ودَاعس وهم من رهط عبد الله بنُ أبي ابن سَلُول : وعبد الله بن أبي ابن سَلول . فهؤلاء النفر من قومِهِ الذين كانوا يدُسُّون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن اثبتوا، فوالله لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتلتم لننصرنكم، فأنزل الله تعالى فيهم : "أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " (الحشر: 11) ثم القصة من السورة حتى انتهى إلى قوله : " كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" (الحشر: 16)

3- المنافقون من أحبار اليهود

قال ابن إسحاق : وكان ممن تعوَّذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق، من أحبار يهود.

– من بني قينُقاع : سعد بن حُنَيْف، وزَيْد بن اللُّصيْت، ونعمان بن أوْفَى بن عمرو، وعثمان بن أوفى . وزيد بن اللُّصَيْت، الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع، وهو الذي قال، حين ضلت ناقةُ رسول الله

صلى الله عليه وسلم: يزعمُ محمد أنه يأتيه خبرُ السماء وهو لا يدري أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الخبر بما قال عدوُّ الله في رحله، ودَلّ الله،تبارك وتعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم على ناقته : "إن قائلا قال : يزعمُ محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، فهي في هذا الشِعْب، قد حبستها شجرة بزمامِها، فذهب رجال من المسلمين، فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما وصف . ورافع ابن حُرَيْملة، وهو الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - حين مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين ورفاعة بن زَيْد بن التَّابوت، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هبت عليه الريح، وهو قافل من غزوة بنى المصْطَلَق، فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوا، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التَّابوت مات ذلك اليوم الذي هَبَّت فيه الريح . وسِلْسلة بنَ بِرْهام وكنانة بن صُورِيا.

4- طرد المنافقين من المسجد :

وكان هؤلاء المنافقون يحضُرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويَسْخَرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم، خافضي أصواتهم، قَد لصق بعضُهم ببعض، فأمر بهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، فقام أبو أيوب، خالدُ ابنُ زيد بنُ كُلَيْب، إلى عُمر بن قَيْس، أحد بني غَنْم بن مالك بن النجار - كان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول : أتخرجني يا أبا أيوب من مرْبد بني ثعلبة، ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وَدِيعة، أحد بني النجار فلبَّبه بردائه ثم نتره نتراً شديداً، ولطم وجهَه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له : أفٍّ لك منافقاً خبيثاً . أدراجَك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : وقام أبو محمد، رجل من بنى النجار، كان بدْرياً، و أبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصْرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار: إلى قَيْس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلاماً شاباً، وكان لا يُعلم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد. وقام رجل من

بَلْخُدْرَة بن الخزرج، رهط أبي سعيد الخُدْري، يقال له : عبد الله بن الحارث حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراج المنافقين من المسجد إلى رجل يقال له : الحارث بن عَمْرو، وكان ذا جُمَّة، فأخذ بجُمته فسحبه بها سحباً عنيفاً،على ما مر به من الأرض، حتى أخرجه من المسجد. قال يقول المنافق : لقد أغلظْتَ يا بن الحارث فقال له : إنك أهل لذلك، أي عدوَّ الله لما أنزل الله فيك : فلا تقربنَّ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك نَجِس وقام رجل من بني عَمْرو بن عَوْف إلى أخيه زُوَيٍّ بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وأفَّف منه، قال : غلب عليك الشيطان وأمْرُهُ .

فهؤلاءِ من حضر المسجدَ يومئذ من المنافقين، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .



105- سورة المجادلة

- تقديم

الجمهور على أن هذه السورة مدنية نزلت بعد سورة المنافقين. وفي "سبب نزولها" روايات من جهات مختلفة ذكرها الطبري ومضمونها واحد، منها الرواية التالية عن ابن عباس، قال: "ذلك أن خولة بنت الصامت، امرأة من الأنصار، ظاهر منها زوجها، فقال: أنت عليّ مثل ظهر أمي! فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالت: إن زوجي كان تزوّجني وأنا أحبّ، حتى إذا كبرت ودخلت في السنّ قال: أنت عليّ مثل ظهر أمي، فتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رُخصة يا رسول الله تنعشني وإياه بها فحدّثني بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما أُمِرْتُ فِي شأنِكِ بِشَيْءٍ حتى الآنَ، ولَكِنْ ارْجِعي إلى بَيْتِكِ، فإنْ أُومَرْ بِشَيْءٍ لا أُغْمِمْهُ عَلَيْكِ إنْ شاءَ اللّهُ». فرجعت إلى بيتها، وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلّم في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها: "قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الّتِي تجادِلُكَ فِي زَوْجِها" إلى قوله: وَللكافِرِينَ عَذَابٌ إليمٌ". فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى زوجها فلما أتاه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما أرَدْتَ إلى يَمِينِكَ الّتِي أقْسَمْتَ عَلَيْها؟» فقال: وهل لها كفّارة؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟» قال: إذن يذهب مالي كله، الرقبة غالية وأنا قليل المال، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَينِ؟» قال: لا والله لولا أني آكل في اليوم ثلاث مرّات لكلّ بصري، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُطْعِمَ سِتّينَ مِسْكِينا؟ قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك بعون وصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّي مُعِينُكَ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعا، وأنا دَاعٍ لَكَ بالبَرَكَةِ» فأصلح ذلك بينهما".

وإذا صح أن ذلك كان سبب نزول هذه الآية فإنها لم تتناول هذا الموضوع وحده بل تناولت موضوعات أخرى كما سيتضح.

- نص السورة

1- مقدمة: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ"1 (1):

2- حكم الذين يظهرون من نسائهم...

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ (يحرّمونهن عليهم بقول الواحد منهم لزوجته "أنت علي كظهر أمي") مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ؛ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ"2. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا (يريدون أن يتراجعوا عما قالوا لتحليل ما حرّموا على أنفسهم، فكفارتهم :) فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا (قبل أن يمارسا الجماع، وقد خص بعضهم المنع في الفرج وحده)، ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"3. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ (رقبة، عبدا أو أمة، يحررها) فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ"4. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ (يخالفون أحكام) اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا (أصابهم خزي) كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؛ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ"5. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"6.

3- إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ...

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"7. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى (الحديث المسيء للنبي يجري

---

1 - انظر التقديم.

بين اليهود) ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ؟ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ (كانوا يقولن "السام" أي السم عليكم، وكان يرد عليهم بلفظ "عليكم" وحده)، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا (هلا) يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ! حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ[8]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[9]. إِنَّمَا النَّجْوَى (مناجاة اليهود والمنافقين) مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[10].

4- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا (توسعوا ولا تتزاحموا) فِي الْمَجَالِسِ (مجلس الرسول)، فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ. وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا (أي ارتفعوا، وقوموا إلى قتال عدوّ، أو صلاة، أو عمل خير، أو تفرّقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقوموا)، فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[11]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً (أعطوا صدقة للمساكين قبل دخولكم إليه)، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا (ما تتصدقون به) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[12] [(2)]. أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ؟ (بعضهم استثقل ذلك، فجاء الجواب) فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[13].

5- المنافقون اتخذوا اليهود أولياء وحلفاء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ! (هم المنافقون اتخذوا اليهود أولياء وحلفاء ضد النبي والمسلمين)، مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[14]. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[15]. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (سترة) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَهُمْ عَذَابٌ

---

2 - عن ابن عباس، قوله: فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً: وذلك أن المسلمين أكثروا السؤال على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه. فلما قال ذلك صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فوسّع الله عليهم، ولم يضيق.

مُهِينٌ[16]. لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[17]. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ[18]. اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ! أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ[19]. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ (يخالفون ويعاكسون أمر) اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ[20] (المكتوب عليهم الذل والمهانة).

6- خاتمة: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي...

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[21]. لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ (يتوادون مع) مَنْ حَادَّ (عادى) اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ (القوم المؤمنون حقا وصدقا) كَتَبَ (الله) فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[22].

- تعليق

تتناول هذه السورة كسابقاتها جملة من معطيات الحياة اليومية في المدينة زمن النبوة، وهي تدور كلها تقريبا حول الأحوال الشخصية والحياة الاجتماعية ومناورات اليهود والمنافقين وآداب مجالس الرسول.

- 1- في المقدمة : إشارة إلى المرأة التي جاءت تشتكي زوجها إلى الرسول. انظر التقديم.

2- وفي الفقرة الثانية تقرير حكم الله في زوج هذه المرأة وأمثاله الذين كانوا يقولون لزوجاتهم "أنت علي كظهر أمي" كما كانت العرب تفعل قبل الإسلام، يريدون بذلك فراقها وتطليقها. وقد ورد هذا المعنى في سورة النساء، في قوله تعالى : "وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ"، ولم يرد هناك تحريم ولا كفارة، وإنما مجرد نفي أن تكون زوجاتهم اللاتي يظاهرون منهن أمهاتهم بالفعل، وفي ذلك معنى النهي. أما هنا فنحن أمام نص على تحريم هذه الممارسة وإيجاب الكفارة على من يريد التراجع عن قوله ذاك. وإذن فلا معنى للقول إن آية هذه السورة نزلت قبل آية الأحزاب، بل العكس هو الصحيح، فالآية هنا

صريحة في التحريم والكفارة، بينما ذكرت آية الأحزاب هذه المسألة في إطار قوله تعالى :"مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ"، الذي يقع تحته تحريم التبني وقضية زيد بن حارثة مولى النبي الخ.

3- في الفقرة الثالثة تندد السورة بما كان يقوم به اليهود من المنجاة بينهم حينما يرون الرسول إظهارا بأنهم يتحدثون عنه ويؤذونه بألسنهم، فتفضحهم السورة وتنبههم إلى أن ما يكون من نجوى إلا والله مع المتناجين، قلوا أو كثروا، ثم تتوعدهم...

4- وفي الفقرة الرابعة تتحدث السورة إلى زوار النبي الذي يتزاحمون على مجالسه يسألون ويتنافسون ويضيق بعضهم على بعض فتطلب منهم أن يستجيبوا لنداء النبي حين يدعوهم إلى أن يفسحوا ولا يضيقوا على بعضهم في مجالس النبي. وكان النبي قد طلب من الذين يردون حضور مجالسه أن يبادروا إلى إعطاء الصدقة على المساكين قبل الدخول عليه وذلك كتدبير يخفف من الزحام. ويبدو حسب الروايات أن هذه الصدقة قد جعلت كثيرا منهم يتقاعس عن حضور مجالس النبي فجاءت هذه السورة لتلغي إلزامهم بالصدقة ولتؤكد مطالبتهم بعدم التهاون في أداء الفرائض، "فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[13].

5- في الفقرة الخامسة تعود لتواجه المنافقين المتحالفين مع اليهود في إيذاء المسلمين فتنزع عنهم صفة المؤمن وتتوعدهم بالنار يوم القيامة، وتحذر المؤمنين من الثقة بهم : "لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[17]. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ[18]

6- وتأتي الفقرة الأخيرة لتؤكد أن الغلبة والنصر سيكونان في نهاية المطاف لله ورسوله، والذين يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يعرفون هذا، ولذلك فإنك لا تجدهم "يُوَادُّونَ أعداء الله من كفار ومنافقين حتى ولو كانوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...



106- سورة الحجرات

- تقديم

سورة مدنية باتفاق ورتبتها في معظم اللوائح 106، نزلت قبل المجادلة وقبل التحريم. موضوع آياتها في آداب السلوك مع النبي عليه السلام، في مجالسه وعند مناداته. وردت ست روايات كـ "أسباب نزول" لها، وليس ثمة ما يزكي الواحدة منها على الأخرى. ويكفي أن يقال : "قال العلماء: كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم وتلقيب الناس. فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب"؛ وهذا خصوصا بعد أخذ الأعراب يتوافدون على المدينة بعد انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب وغزوة المصطلق وتتابع سرايا النبي نحو القبائل.

- نص السورة

1- مقدمة: آداب التعامل مع النبي (ص)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (لا تقضوا أمرا دون رسول الله)(1)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[1]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ (2)، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

---

1 - الطبري: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله. وقال غيره: لا تقضوا أمرا دون رسول الله.

2 - الطبري: قيل: "قال: «أتى أعرابيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم من وراء حجرته، فقال: يا محمد، يا محمد فخرج إليه النبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال: «مالكَ مالكَ»، فقال: تعلم أنْ مدحي لزين، وأن ذمي لشين، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «ذاكُمُ اللّهُ»، فنزلت يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوقَ صَوْتِ النّبِيِّ».

(كأن تنادوه: يا محمد، بل يا نبي الله) أَنْ (حتى لا) تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ[2]. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[3]. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[4] (3). وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5].

2- ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ[6]. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ (لنالتكم المشقة والعناء في كثير من الأمور)، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ[7]. فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[8]. وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[9]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[0] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ (لا يطعن بعضكم علي بعض)، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ (كأن تقولوا : يا فاسق، يا فاجر)، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ (قبيح أن يسمى الشخص فاسقا بعد أن صار من المؤمنين)، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[11]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ (السيئ بالمؤمنين) إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا (على بعضكم) وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا (لا تقوا في الغائب منكم ما يكره لو كان

---

3 - جاء أناس من العرب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكا نعش في جناحه! قال: فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فأخبرته بذلك، قال: ثم جاؤوا إلى حجر النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فجعلوا ينادونه. يا محمد، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلّم: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ قال: فأخذ نبيّ الله بأذني فمدّها، فجعل يقول: «قَدْ صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يا زَيْدُ، قَدْ صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يا زَيْدُ».

حاضرا) [4]؛ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ"[12]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ [5] لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[13].

3- قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا! قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا،

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا! قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا (بمعنى: استسلمتم خوف السباء والقتل) [6]، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ. وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ (لا ينقص) مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[14]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"[15]. قُلْ (لهؤلاء الأعراب) أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ (بقولكم آمنا؟) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[16]. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا! قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[17] [7]. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "[18].

---

4 – في الحديث : "عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: «هَلْ تَدْرُونَ ما الْغِيْبَةُ»؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ»، قيل له: أرأيت إن كان في أخي ما أقول له قال: «إنْ كان فِيهِ ما تَقُولُ فَقَد اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ما تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ».

5 – الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة؛ فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل.. وسميت الشعوب بهذا الاسم لأنّ القبائل تشعبت منها.

6 – المعنى: قولوا : "دخلنا في السلم، وتركنا المحاربة والقتال بقولهم: لا إله إلاّ الله. وفي الحديث أن النبي عليه السلام قال: "«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فإذا قالُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ على اللَّه». وعلى هذا قالوا: الإسلام: القول، والإيمان : العمل.

7 – قيل نزلت في قوم من بني أسد امتنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: آمنا من غير قتال، ولم نقاتلك كما قاتلك غيرنا. فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

تعليق

تعكس هذه السورة والتي قبلها واقعا جديد في المدينة بدأ يبرز منذ هزيمة الأحزاب.. هذا الواقع الجديد هو توافد الأعراب على المدينة لمجالسة النبي أو إعلان إسلامهم الخ. والمدينة مجتمع حضري، يعيش نوعا من "رقة الحضارة"، تسود فيه تقاليد مدينية مثل تبادل الاحترام وإنزال الناس منازلهم مع مراوغات ومناورات كما رأينا في سلوك المنافقين. أما الأعراب فكان سلوكهم مطبوعا بـ"خشونة البداوة " حسب عبارة ابن خلدون. وتكاد تختص هذه السورة في تعليم الأعراب الذين كانوا يأتونها آداب السلوك، وبالخصوص كيفية معاملة الرسول وهو رئيس المدينة، فضلا عن كونه رسول من الله وصاحب الدعوة والدولة.

1- في المقدمة تنهى السورة أصحاب النبي والوافدين عليه لحضور مجالسه عن المبادرة إلى الكلام والاقتراحات قبل الاستماع إلى النبي، فقد يكون لديه وحي يريد تبليغه أو أمر مما يختص به رؤساء القوم عادة. يتعلق الأمر إذن بمبدأ أساسي لتنظيم المشورة والحوار في مجالس النبي.

2- وفي الفقرة الثانية تطرح السورة كيفية بناء العلاقات داخل المجتمع الجديد. لقد خلق الله الناس من ذكر وأنثى فهم متساوون، ولكنهم يتمايزون بأنسابهم. والمجتمع العربي قبل الإسلام كان يعتمد في الترتيب الاجتماعي واعتبار منازل الناس على النسب. فجاءت السورة لتذكرهم بأن فائدة الأنساب هو تحديد الانتماء إلى "شعوب وقبائل"، تحديد النسب القريب والنسب البعيد. أما التفاضل بين الناس والتفاخر وتزكية الأفراد والجماعات فيجب أن يقوم على التقوى، على السلوك القيم والعمل الصالح: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم". وعلى هذا الأساس يجب أن يبنى تقدير الأشخاص. واعتبار مصداقية ما يقولون، وعلى هذا الأساس أيضا يجب الوقوف مع المظلوم في وجه الظالم، سواء كان الأمر يتعلق بالأفراد أو بالجماعات، واعتماد العدل والإنصاف. وتواصل السورة فتنهى عن ما يسبب النزاع في المجتمع، فتشجب سخرية البعض من البعض، والاغتياب البعض للبعض، والابتعاد عن التنابز بالألقاب، كما يجب تجنب سوء الظن بالناس والتزام حسن الظن بالمؤمنين.

3- وفي الفقرة الثالثة تعرّف الأعراب الفرق بين الإسلام والإذعان لسلطة جماعة المسلمين من جهة، وبين الإيمان الذي هو اعتقد داخلي يمليه ضمير الفرد ولا شيء غيره. كان من الأعراب من كان يرى أن كونه قد أسلم من دون

قتال يجعله يستحق منزلة أعلى من الذين أسلموا بفعل الحملات العسكرية. وتـــرد عليهم السورة بأن المنازل في الإسلام تقوم على الإيمان، ولـــيس علـــى مجـــرد الاستسلام بدافع الخوف أو الطمع. إن المؤمن ليس هو من أعلـــن إســـلامه بـــل "الْمُؤْمِنُونَ (هم) الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَـــمْ يَرْتَـــابُوا وَجَاهَـــدُوا بِـــأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"[15]



107- سورة التحريم

- تقديم

رى البخاري في صحيحه عن عائشة زوج النبي عليه السلام أن سبب نزول هذه السورة أنه (ص) شرب يوما عسلاً عند زينب بنت جحش إحدى نسائه، وكانت عند مولاه زيد بن حارثة، فعلمت بذلك عائشة فتواطأت هي وحفصة، (عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وهما من أقوى زوجاته عليه السلام)، على أن أيَّتهما دخل عليها تقول له: «إني أجد منك ريح مغافير، أَكَلْتَ مغافير» (صمغ شجر رائحته كريهة)؛ وكان النبي عليه السلام يكره أن توجد منه رائحة. قيل: إنما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زماناً يشرب فيه عسلاً. فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: بل شربتُ عسلاً عند فلانة ولن أعود له، أراد بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة، ومع ذلك أخبرت حفصة عائشة فنزلت الآيات التاليات. وضعف هذه الرواية في كونها لا تتطابق تماما مع الآيات الواردة في السورة.

وإلى جانب هذه الرواية هناك ما رواه الطبري في تفسيره من أن الأمر يتعلق بإيتائه إحدى مملوكاته في بيت زوجته حفصة. من هذه الروايات ما يلي: قالوا: "كان ذلك مارية، مملوكته القبطية، حرّمها على نفسه بيمين أنه لا يقربها طالبا بذلك رضا حفصة بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارت بأن خلا بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم في يومها وفي حجرتها". وهذه الرواية غير صحيحة تاريخيا. ذلك أن هذه السورة نزلت قبل صلح الحديبية، ومارية القبطية كان قد أهداها له المقوقس حاكم الإسكندرية هي وجارية أخرى اسمها سيرن، وذلك في إطار هدايا أرسلها المقوس إلى النبي جوابا على رسالته إليه يدعوه إلى الإسلام بعد صلح الحديبية [1].

---

1 - انظر تفصيل ذلك في : المدخل إلى القرآن الفصل الثاني فقرة 4-و

وفي روية أخرى : "كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فتاة، فغشيها، فبصُرت به حفصة، وكان اليوم يومَ عائشة، وكانتا متظاهرتين (متحالفين)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «اكْتُمي عَلَيَّ وَلا تَذْكُرِي لِعائِشَةَ ما رأيْتِ»، فذكرت حفصة لعائشة، فغضبت عائشة. فلم تزل بنبيِّ الله صلى الله عليه وسلّم حتى حلف أن لا يقربها أبدا، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يكفر يمينه، ويأتي جاريته".

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: "يا أيّها النّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللّهُ لَكَ"، إلى قوله: "وَهُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ"، قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين وكانتا زوجتي النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فذهبت حفصة إلى أبيها، فتحدثت عنده، فأرسل النبيِّ صلى الله عليه وسلّم إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيره شديدة، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم جاريته، ودخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله لقد سُئْتَنِي، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «واللهِ لأُرْضِيَنّكِ فإنّي مُسِرّ إليْكِ سِرا فاحْفَظِيهِ» قالت: ما هو؟ قال: «إنّي أُشْهِدُكِ أنّ سُرِّيّتِي هَذِهِ عَلَيَّ حَرَامٌ رِضا لكِ»، وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرّت إليها أن أبشري إن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قد حرّم عليه فتاته، وعلم النبي بأن حفصة أفشت السر لعائشة، فنزلت الآيات التي تتحدث عن الموضوع في صدر هذه الآية. وهذه الرواية أقرب إلى هذه الآيات.

- نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] ؟ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ[(2)]، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[2].

2 - معنى الآية : لِمَ تحلف وتحرم على نفسك شيئا قد أحله الله لك وهو إيتاء ما ملكت يمينك؟ لماذا تفعل ذلك إرضاء لزوجاتك؟ "فأمره الله أن يكفر عن يمينه، وعوتب في ذلك،=

2- عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ...

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ (حفصة بنت عمر بن الخطاب) **حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ** (عائشة بنت أبي بكر) **وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ** (أعلمه الله بذلك) **عَرَّفَ** (أخبر النبي حفصة) **بَعْضَهُ** (بعض ذلك الحديث)، **وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ. فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ** (لما أخبر حفصة بإفشائها السر لعائشة) **قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا؟ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**[3]. إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ (فهو خير لكما) **فَقَدْ صَغَتْ** (مالت وزاغت) **قُلُوبُكُمَا، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ** (تتعاونان على الوقوف ضد النبي) **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ، وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**[4] (معينون له). عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ: مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا[5].

3- تحذير ووعد للمؤمنين ... ووعيد للكافرين والمنافقين...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ (تجنبوا أنتم وأهليكم) **نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**[6] (فلا تروجوا لكلام يؤذي النبي في عرضه وحياته الخاصة مع زوجاته). **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا** (وأنتم تفعلون ذلك سيقال لكم يوم القيامة) **لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[7]. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** (صادقة)، **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[8]. **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ** (بالسيف) **وَالْمُنَافِقِينَ** (باللسان) **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** (بالوعيد) **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**[9].

3- مثال الزوجات المؤمنات الصالحات، والزوجات الكافرات

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا: امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ (يقال لهما يوم القيامة) **ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**[10]. **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ**

فقال: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" الخ، أي جعل الله فيها كفارة يمين. قيل: إن النبيّ عليه السلام كفر يمينه، وأصاب جاريته".

فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[11]، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ، وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ[12].

- تعليق

يطرح التشابه بين الآية الخامسة من هذه السورة، وهي قوله تعالى: "عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ: مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"[5]، وبين الآية الثامنة والعشرين من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا"[28]، أقول يطرح هذا التشابه مسألة العلاقة بين الآيتين. وقد سبق أن بينا في سورة الأحزاب أن الآية الثامنة والعشرين التي تخير نساء النبي بين البقاء معه وبين أن يسرحهن، كانت جواب على طلب زوجاته منه عليه السلام الزيادة في النفقة عليهن خصوصا بعد أن أفاء الله عليه أموال بني النضير وبني قريظة، وأنه عليه السلام غضب وهاجرهن شهرا، ثم تدخل كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب ونزلت الآية المذكورة وأخرى في نفس الموضوع أعادت بناء العلاقة بين النبي وزوجاته بالصورة التي شرحناها هناك في سورة الأحزاب.

أما هنا في سورة التحريم فالأمر يتعلق، لا بطلب زوجاته الزيادة في النفقة، بل بغيرة زوجاته، بعضهن على بعض، وبالخصوص "عدم النظر بعين الرضا" من جانبهن إلى علاقته الجنسية مع "ما ملكت يمينه" من الجواري.

قلت: والذي يجب أن يأخذه المرء بعين الاعتبار بصدد زوجات النبي وعلاقة بعضهن ببعض، وغيرة بعضهن على بعض هو أنه عليه السلام لم يكن يتزوج دائما من أجل الشهوة أو العلاقات الجنسية، بل كثيرا ما كان يتخذ من علاقات المصاهرة وسيلة لضمان استمالة جهة من الجهات إلى الإسلام وتوطيد العلاقة مع جهات أخرى لهذا الغرض، وأحيانا أخرى كان يتزوج امرأة منعا لتشردها هي وأبناؤها بعد استشهاد زوجها في غزوة من غزواته عليه السلام.

وفي هذا الإطار نستحضر المعطيات التالية:

1- في المرحلة المكية لم يتزوج أكثر من واحدة هي زوجته الأولى خديجة بنت خويلد، تزوجها قبل النبوة، وكان عمرها حين تزوجها نحو 45 سنة،

وسنه هو نحو 25 سنة. وقد توفيت في السنة العاشرة للنبوة عن عمر يناهز الخامسة والستين.

1- بعد وفاتها خطبت له امرأة من معارفه عائشة بنت أبي وكانت صبية في السابعة أو التاسعة من عمرها. وتفيد بعض الروايات أنها كانت مخطوبة أو على وشك أن تتم خطوبتها مع شاب من معارف أهلها، ولكن أهلها لم يكونوا متحمسين له، فجاءت خطبة المرأة الوسيط كنوع من حل المشكل، ذلك أن المرأة الوسيط هي التي عرضت على الرسول الزواج بعد وفاة خديجة واقترحت عليه فتاة صغيرة لم تصل بعد سن الدخول عليها هي عائشة. ولا يستبعد أن تكون على علم بعدم ارتياح أبي بكر إلى العائلة التي خطبتها فتكون المرأة الوسيط قد تصرفت وهي تعرف ما تفعل... تعرف على الأقل أن عائشة الصبية لا يمكن أن تقوم في الحين مقام الزوجة.

2- وفي نفس الوقت تقريبا خطبت له هذه المرأة الوسيط امرأة أخرى مطلقة ومسنة هي سودة بنت زمعة، وكانت قبله عند ابن عمها، وكان قد هاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها، فلما انقضت عدتها اقترحتها المرأة الوسيط على النبي فقبل الدخول بها في مكة -ربما حلا لمشكلتها بوصفها أرملة فقدت زوجها المسلم في الهجرة إلى الحبشة التي اضطر إليها كغيره من المسلمين المضطهدين من طرف قريش. تزوجها الرسول عليه السلام وهي مسنة وهاجر بها إلى المدينة، ولما شبت عائشة وقرر الدخول عليها عرض على سودة أن يطلقها فطلبت منه الإبقاء عليها عنده وأنها تتنازل عن ليلتها راضية لعائشة، لأنه لم يكن لها ملجأ آخر، خصوصا وقد بلغت من العمر ما لم يعد لها معه أمل في الزواج ثانية.

3- ثم تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب، ولم تكن شابة، بل كانت أرملة فقد زوجها خنيس بن خذافة السهمي، قيل في غزوة بدر وقيل في غزو أحد. ويمكن النظر إلى زواجه منها بكونه مبررا من ناحيتين، فهي بنت عمر بن الخطاب الرجل الثاني في الدعوة بعد أبي بكر، وأيضا لكونها ترملت في زوجها في غزوة من أجل انتصار الإسلام مثلها مثل سودة. وقد أصبحت صديقة لعائشة، وهذا مفهوم.

4- وتزوج عليه السلام، وفي نفس الإطار، زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها أياهم ورقتها

عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، وعندما استشهد في موقعة أحد تزوجها الرسول لنفس السبب.

5- بعدها تزوج عليه السلام أم سلمة، هند بنت أبي أمية، كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فمات عنها في الحبشة وكان قد هاجر إليها ممن هاجر من المسلمين، هذا جانب وجانب آخر وهي أنها كانت من قبيلة بني مخزوم التي كانت من ألد خصوم الدعوة المحمدية وكان زعيمها أبو جهل قد قتل في بدر، فهذا زواج مصالحة ورد اعتبار.

6- وتزوج زينب بنت جحش بن رباب من بنى أسد بن خزيمة، وهي بنت عمته كانت تحت موله زيد بن حارثة تزوجها، في قصة سبق عرضها.

7- تزوج بعد ذلك جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بنى المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها، وحررها وتزوجها وأصبح بنو المصطلق يفتخرون بكونهم أصبحوا أصهار رسول الله، فأعتق السلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يجوز اعتبارهم أسرى.

8- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر، وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أميه الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة 7 هـ. خطب عليه أم حبيبة فزوجها فأصبح أبو سفيان زعيم قريش صهرا للنبي... والبقية تأتي..

فهذه ثمان نساء من أصل عشرة تزوج بهن بعد وفاة خديجة. وكما رأينا فقد كان زواجه منهن جميعا في إطار الدعوة وما اقتضته من تحالفات وتوطيد علاقات، وهن جميعا من قبائل مختلفة ووضعيات متباينة وقبائل متنوعة، ومنازل متفاوتة.

108- سورة التغابن

- تقديم

سورة مدنية في قول الأكثرين. وعن ابن عباس أن الآيتين 14-15 "نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا الهجرة فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعُوهم يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلّم".

- نص السورة

1- مقدمة : منكم كافر ومنكم مؤمن، ويعلم ما تسرون وما تعلون !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (يعبدنه: يخضعون لتدبيره)، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ، فَمِنْكُمْ كَافِرٌ (منكر لخلقه إياكم) وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ (بذلك) وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[2]. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (بما يحفظ لها نظامها وانتظام حركاتها)، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ[3]. يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[4] (بالضمائر والنيات).

2- جزاء الذين كفروا من قبل ... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ (عاقبة كفرهم) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[5]: ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[6]. زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا! قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[7]. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا (أي القرآن)، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[8]: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ (البعث)، ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ (شعور أهل النار بالغبن إزاء أهل الجنة)؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[9]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[10].

3- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (بتقديره)؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ (لليقين)[1]. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[11]. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[12]. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[13]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[14]. [2] إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[15] [3].

4- خاتمة : وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ (من يتغلب على ميل نفسه نحو البخل) فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[16]. إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (تنفقوا في سبيل الله) يُضَاعِفْهُ لَكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[18].

- التعليق

تتناول هذه السورة موضوعا خاصا ، هو وضعية المسلمين الذي بقوا في مكة ولم يهاجروا.

---

1 - المصائبُ التي أصابت المسلمين من معاملة المشركين فأنبأهم الله بما يسليهم عن ذلك بأن الله عالم بما ينالهم. وقال القرطبي «قيل سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب».

2 - في رواية ذكرها الطبري عن ابن عباس، في معنى قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُم عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ" قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده، فقال الله: إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا، وامضوا لشأنكم، فكان الرجل بعد ذلك إذا مُنِع وثُبط مرّ بأهله وأقسم، والقسم يمين ليفعلنّ وليعاقبنّ أهله في ذلك، فقال الله جلّ ثناؤه وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِن اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

3 - انظر التقديم.

1- في المقدمة نوع من التسلية للمؤمنين الذين اضطروا للبقاء مع المشركين في مكة، فترتفع بقضيتهم من مستوى الخاص إلى مستوى العام: كل ما في السماوات والأرض وما يجري فيهما من حركات وحوادث، ومما يسر الإنسان وما لا يسره، هو من تدبير الله. خلق الناس ذكورا وإناثا فمنهم كافر ومنهم مؤمن. خلق السماوات والأرض بالحق، أي بما يحفظ نظامها وحركاتها واتساق أجزائها نجوما وكواكب، فجاءت على أفضل ما يكون، وخلق الإنسان فصوره في أحسن صورة، يعلم ما تسرون وما تعلنون، وإليه المصير. مصير الكل.

2- وتأتي الفقرة الثانية لتنتقل من كتاب الطبيعة وما وراء الطبيعة إلى كتاب التاريخ وما وراء التاريخ: أقوام سابقون ظلموا وكذبوا رسلهم فلاقوا وبال أمرهم في الدنيا إذ جاءتهم الصواعق فأهلكتهم، وفي الآخرة سيكون مصيرهم جهنم. وإذا كان مشركو مكة ينكرون البعث فهم واهمون : إنهم سيبعثون كما سيبعث الذين آمنوا وحين الحشر والجمع سيشعر الكفار بالغبن عندما يرون المؤمنين يسارعون إلى الجنة بينما هم يساقون إلى النار.

3- وتأتي الفقر الثالثة بعد هذين التمهيدين لتطرح الموضوع طرحا مباشرا، فتخاطب المسلمين الذين بقوا في مكة وسط المشركين مضطرين : "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (بتقديره)؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" (لليقين). إذن: وضعيتهم ليست استثناء، إنها جزء من النظام الكوني الذي هو من تدبير الله وتقديره، فليتغلبوا على معاناتهم باستحضار هذه الحقائق العامة ومغالبة وضعهم الخاص باليقين. وإذا كان من أهليهم وأولادهم من لم يؤمنوا ولم يتحرروا من تهديدات وإغراءات مشركي مكة، الهادفة إلى استعمالهم للتأثير على آبائهم المؤمنين، فعلى هؤلاء أن ينتبهوا إلى هذا النوع من الضغوط ويحذروا من الاستسلام لها. وعليهم أن لا يردوا الفعل بصورة سلبية، بل عليهم أن يعفو ويصفحوا عن أهليهم الذين يستعملهم مشركو مكة للضغط عليهم. إن الأولاد والمال فتنة، تفتن الإنسان فتدفعه إلى اتخاذ قرارات متطرفة في هذا الاتجاه أو ذاك، فليتجنبوا السقوط فيها.

4- وتختم السورة بتوجه الخطاب إلى المؤمنين بكيفية عامة تدعوهم إلى اتقاء فتنة المال والأولاد : "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[16].



109- سورة الصف

- تقديم

الأكثرون أن هذه السورة مدنية، وأنها نزلت بعد وقعة أحد. فقد روي من جهات مختلفة أن نَفَراً من أصحاب رسول الله (ص) تذاكروا فقالوا : "لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله لعملناه" فأنزل الله تعالى: "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1]، يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ ما لاَ تَفْعَلُونَ"[2]؟ قال الراوي: فقرأها علينا رسول الله" وأضافت رواية أخرى : "حتى ختمها أو فقرأها كلها". وفي رواية أخرى: "كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن اللــه عزّ وجلّ دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به. فأخبر اللــه أن أحب الأعمال: إيمان به، وجهاد أهل معصيته، الذين خالفوا الإيمان ولم يُقرّوا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم. فأنزل اللــه سبحانه وتعالى: "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفعَلُونَ"، وفي رواية أخرى: "أنهم قالوا: لو نعلم أحبّ الأعمال إلى اللــه لسارعنا إليها فنزلت "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[10]" الآية، فابتلوا يوم أحد فنزلت "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ" تعيّرهم بترك الوفاء.

- نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ[2]؟ كَبُرَ مَقْتًا (قولا كريها) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ[3]؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِــي سَــبِيلِهِ صَــفًّا كَــأَنَّهُمْ بُنْيَــانٌ مَرْصُوصٌ[4].

2- زيغان قوم موسى وتكذيب قوم عيسى. ووعد للذين آمنوا وجاهدوا..

و(اذكر) إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ؟ فَلَمَّا زَاغُوا (مالوا عن تصديقه) أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (عن الحق) وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[5]. وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ (عيسي) بِالْبَيِّنَاتِ (المعجزات) قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[6]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ؟! وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[7]. يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[8] [1]. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[9]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[10] [2]: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[11]: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[12]، وَأُخْرَى (منحة في الدنيا) تُحِبُّونَهَا (وهي) : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[13].

3- خاتمو: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ! فَآمَنَتْ

---

[1] - قيل: "وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس: أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً؛ فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتّم أمره؛ فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها.

[2] - قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: لو أذنت لي فطلّقتُ خَوْلَةَ، وتَرهَّبْتُ واختَصَيْتُ وحرّمْتُ اللّحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أُفطر بنهار أبداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّ مِن سُنّتي النكاح ولا رَهْبَانية في الإسلام إنما رهبانيةُ أمتي الجهادُ في سبيل الله وخِصاءُ أمتي الصومُ ولا تُحرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم. ومِنْ سُنّتي أنام وأقوم وأفْطِر وأصوم فمن رَغِب عن سُنّتي فليس مني». فقال عثمان: والله لَودِدْتُ يا نبي الله أي التجارات أحبّ إلى الله فأتّجر فيها؛ فنزلت. وقيل: "يأيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ (أي سأدلكم) عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ".

طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ[14] (غالبين منتصرين) [(3)].

- تعليق

تتميز هذه السورة عن سابقاتها بكونها تقوم بتعبئة المسلمين بصورة مباشر للاستعداد لعمل يتطلب تجهيزا وإنفاقا.

1- المقدمة: وجهت خطاب لوم وعتاب إلى الذين آمنوا : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ" ؟ والمقصود هنا هو أنهم يتعهدون ويتنافسون على صعيد القول بأنهم سيقاتلون عند استدعائهم لقتال المشركين وسيقومون قومة رجل ويحملون عليهم فلا يتركون لهم مجالا لا للكر ولا للفر! الشيء الذي تشكك فيه السورة فتدعوهم إلى القتال صفا واحدا، فعلا وليس قولا، وتؤكد "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ"[4].

2- وفي الفقرة الثانية تذكرهم بالموقف المتخاذل الذي وقفه كل من اليهود مع موسى، والنصارى مع عيسى، لتؤكد لهم أن الله بعث محمدا بالدين الحق ليظهره على الدين كله، وبالتالي فالدعوة المحمدية مستمرة على هذا الطريق، ونفسها طويل، فإذا هم يريدون حقا القيام بـ"تجارة" تنجيهم من عذاب أليم يوم القيامة، فالسبيل واضح : "تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[11]. وهنا تكشف السورة عن جزاء آخر في الدنيا عبرت عنه بقوله تعالى: "وَأُخْرَى (منحة في الدنيا) تُحِبُّونَهَا (وهي) : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[13]. و"الفتح القريب" المعني هنا هو صلح الحديبية، الذي مهد لاستسلام أهل مكة. وستأتي سورة الفتح بعد السورة التالية لتتحدث عن هذا الفتح "القريب" حين يصير حقيقة واقعية، وبشرى مؤكدة.

3- وتختم السورة باستعادة سؤال عيسى حوارييه: "مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ"، وتوجه السؤال نفسه إلى الذين آمنوا برسالة النبي محمدا عليه السلام : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ". وتؤكد لهم أنهم إن انقسموا، كما انقسم بنو

---

[3] - سبق أن شرحنا ملابسات هذه المسألة في "المدخل إلى القرآن" الفصل الأول فقرة 3-أ

إسرائيل إزاء عيسى إلى طائفتين: طائفة نصرته وطائفة كذبته، فإن الله سيؤيد "الَّذِينَ آمَنُوا برسوله محمد عليه السلام، وسيكون النصر حليفهم، كما أيد الَّذِينَ آمَنُوا بعيسى عَلَى عَدُوِّهِمْ، "فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ"[14] (غالبين منتصرين).

110- سورة الجمعة

- تقديم

هذه السورة مدنية بالاتفاق. وجل ما ورد حولها من أخبار يدور حول الاسم الذي سميت به، أعني "الجمعة": معنى الجمعة، وصلاة الجمعة. سنتحدث هنا عن الموضوع الأول تاركين الثاني إلى التعليق. في المرويات التي تعرض لنسب النبي عليه السلام أن جده السابع كعب (بن لُؤَيّ بن غالب بن فهر الملقب بقريش) [1] كان يجمع قومه "يوم العروبة": أي يوم الرحمة الذي هو يوم الجمعة. ويقال إنه أول من سماه يوم الجمعة لاجتماع قريش فيه إليه، قيل: وكان بينه وبين مبعث الرسول خمسمائة سنة وستون سنة. وقيل إن كعباً هذا هو أول من قال "أما بعد" فكان يقول: أما بعد: فاسمعوا وافهموا، وتعلموا واعملوا، ليل ساج، ونهار صاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم، الدار أمامكم". قيل سمي كعبا لعوه وارتفاعه، (لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب، وقيل للكعبة كعبة). ولعلوه وارتفاع شأنه أرّخوا بموته، حتى كان عام الفيل فأرخوا به، ثم أرخوا بعد عام الفيل بموت عبد المطلب.

- نص السورة

1- مقدمة : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

---

1 - هو: محمد بن عبد اللّه، بن عبد المطلب (واسم عبد المطلب : شَيْبَة)، بن هاشم (واسم هاشم : عَمرو)، بن عبد مناف (واسم عبد مناف : المُغيرة)، بن قُصي، بن كِلاب، بن مُرَّة، بن كعب، بن لُؤَيّ ، بن غالب بن فهر (وهو الملقب بـ "قريش") ابن مالك، بن النَّضر، بن كنانة، بن خُزيمة، بن مُدْرِكة، (واسم مدركة:عامر)، بن إلياس، بن مُضر، ابن نزار، بن معد بن عدنان، بن أدّ (ويقال أُدَد)، بن مُقَوِّم، بن ناحور، بن تَيْرَح، بن يَعْرُب، بن يَشْجُب، بن نابت، بن إسماعيل، بن إبراهيم.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ (الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به") الْعَزِيزِ (القوي) الْحَكِيمِ[1] (يتصرف بحلم وحكمة). هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ (وهم العرب سمو بذلك لأنهم ليس لديهم كتاب من الله)[2] رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (القرآن) وَالْحِكْمَةَ (حسن الفهم والتصرف)، وَإِنْ كَانُوا (الأميين/العرب) مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[2]، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ (من الأميين من غير العرب بُعث الرسول محمد إليهم كذلك) لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ (لم يلتحقوا بعد بالإسلام)، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[3]. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ (إرسال الرسل) يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[4] (3).

2- مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ (اليهود، وهم الذين يسمون غيرهم بالأميين من "الأمم" لكونهم ليس لهم كتاب) ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا (لم يعملوا بها) كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (كتبا لا يعلم ما فيها: فما استفادوا من الكتاب المنزل إليهم)، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ (ما أقبح أن يشبه الإنسان بالحمار) وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[5]. قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ (أحباء) لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[6] (لأنهم لو كانوا فعلا أحباء الله كما يقولون لكانت الجنة مضمونة لهم ولتمنوا الموت أي المسارعة إلى الجنة) ؛ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا (بسبب ما) قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (من مخالفة أوامر الله)، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[7]. قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ، ثُمَّ تُرَدُّونَ

---

2 – ذكر القرطبي عن ابن عباس أنه قال: "الأميُّون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب".

3 – قالوا: "إن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم وينشر رسالته إلى جميع النّاس من بلاد العرب، والدلائل على عموم رسالته من القرآن كما في سورة الأعراف "قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً" وفي سورة سبأ "وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً". وروي عن أبي هريرة أنه قال: كنّا جلوساً عند النبي (ص) فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ "وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ" قال له رجل: من هم يا رسول الله"؟ قال الراوي: "فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، ووضع رسول الله يده على سلمان، وقال: لو كان الإيمانُ عند الثريا لناله رجال من هؤلاء"؟ قالوا: "وهذا وارد مورد التفسير لقوله تعالى: "وَآخَرِينَ"...

إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (إلى الله الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون) فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[8].

3- خاتمة: قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[9] (ذلك ما سيجعلكم مميزين عن أهل الكتاب الذين لا يعملون بما في التوراة). فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (بالعمل والتجارة)، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[10]. وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا (4) انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا! قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[11].

- تعليق

تشتمل السورة على ثلاث فقرات:

- الفقرة الأولى (المقدمة) تعلن أن الله بعث إلى "الأميين" (العرب) رسولا منهم، جاءهم بكتاب يرتفع به شأنهم من أمة لا كتاب لها إلى أمة لها كتاب، يتحدث إليهم بلغتهم وحسب معهودهم...

- الفقرة الثانية تتحدث عن اليهود الذين كانوا وحدهم "أهل الكتاب" وكيف أنهم لم يعودوا يعرفون ما في هذا "الكتاب" ولا يطبقون ما فيه من تعاليم، فصار حالهم أشبه بحال حمار يحمل أسفارا..

---

4 - ذكر القرطبي عن قتادة أنه: بينما رسول الله (ص) يخطب الناس يوم الجمعة، فجعلوا يتسللون ويقومون حتى بقيت منهم عصابة، فقال: كم أنتم؟ فعدّوا أنفسهم فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة ثم قام في الجمعة الثانية فجعل يخطبهم قال سفيان: ولا أعلم إلا أن في حديثه ويعظهم ويذكرهم، فجعلوا يتسللون ويقومون حتى بقيت عصابة، فقال: كم أنتم، فعدّوا أنفسهم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة ثم قام في الجمعة الثالثة فجعلوا يتسللون ويقومون حتى بقيت منهم عصابة، فقال كم أنتم؟ فعدّوا أنفسهم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوِ اتَّبَعَ آخِرُكُمْ أَوَّلَكُمْ لَالْتَهَبَ عَلَيْكُمُ الْوَادِي نَارًا"، وأنزل الله عزّ وجلّ: "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا". و"عن جابر بن عبد الله، قال: كان الجواري إذا نكحوا (أي تجوزا وعرسوا) يمرّون بالكبر والمزامير فيسرع من في المسجد يصلون مع النبي ويتركونه قائما على المنبر، وينفضون إليها، فأنزل الله "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا".

ووجه الصلة بين هذه الفقرة والتي سبقتها هو الرد على يهـود المدينـة الذين كانوا يكتمون ما ورد من التبشير بأن محمد بن عبد الله هو رسول من الله من جهة، ومن جهة أخرى لم يعد اليهود يعملون بما في التوراة مـن تـشريعات وأوامر نواه. لقد كلفوا بالعمل وفق ما ورد في التـوراة ولكـنهم تخلـوا عنهـا فأصبحوا كالحمار يحمل كتبا لا يعرف قيمتها ولا مضمونها...

3- وتأتي الخاتمة لتدعو المؤمنين أصحاب النبي عليه إلى احترام دينهم والعمل به وملازمة الرسول حين صلاة الجمعة إلى النهاية، فاضحة سلوك كثيرين منهم الذين كانوا إذا سمعوا ضجيج مقدم قافلة تجارية أو حفل عـرس يهرعـون إليه قاطعين الصلاة، تاركين النبي يقوم بالصلاة مع أفراد قليلين.

وبخوص صلاة الجمعة نورد المرويات والأخبار التالية

ثبت أن أهل المدينة (أعني الذين أسلموا منهم) قد أدوا صلاة الجمعة قبل قدوم الرسول عليه السلام مهاجرا إليها. ولما جاء المدينة ثبتها فقد رُوي عن ابن سيرين أن الأنصار جمّعوا الجمعة قبل أن يقدمَ النبي (ص)المدينة قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه، وللنصارى يوم مثل ذلك، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه. وقالوا: إن لليهود السبت وللنصارى الأحد فـاجعلوه يـوم العَروبة. فاجتمعَوا إلى أسعدَ بنِ زُرَارةَ فصلى بهم يومئذٍ ركعتين وذكّرهم. وعندما هاجر الرسول إليهم ثبتها "فكانَ فرضها ثابتاً بالسنة قولاً وفعلاً".

وفي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: "بينما نحن نصلّي مع النبي (ص) وهو يخطب يوم الجمعة إذْ أقبلتْ عير (قافلة) من الـشام تحمـل طعامـاً فانفتـل (انصرف) الناس إليها حتى لم يبق مع النبي (ص) إلا اثنا عشر رجلاً أنا فـيهم". وفي رواية أخرى: وفيهم أبو بكر وعمر، فأنزل الله فيهم هذه الآيـة التـي فـي الجمعة : "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً".

وفي رواية أخرى: "كان النبي صلى الله عليه وسلّم يخطب فقدم دِحية بن خليفة الكلبي بتجارة فتلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس". وفـي أخـرى "أن أهـل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بتجارة من زيت الشام وطعام وغير ذلك فخرج الناس من المسجد خشية أن يُسبقوا إلى ذلك".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى : قال جابر بن عبد الله "كانت الجواري إذا نَكحن (تزوجن) يمرّرن بالمزامير والطّبْل فانفضّوا إليها"، فلذلك قـال الله تعـالى: "وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئماً". قيل إن ذلك تكـرر ثـلاث مرات، فلا شك أن خروجهم كان تارة لأجل مجيء العير، وتارة لحضور اللهو.

111- سورة الفتح

- تقديم

اتفقوا على أن هذه السورة نزلت عند رجوع النبي من صلح الحديبية أواخر سنة ست للهجرة. (تقع الحديبية على 22 ميلا على غرب مكة_على طريق جدة). وفيما يلي تفصيل لهذا الحدث التاريخي المهم كما روته مختلف المصادر:

أخبر عليه السلام المسلمين أنه يريد العمرة، "واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه، حذراً من أن تردّهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤوا عليه لأنهم خافوا هزيمة المسلمين فاعتذروا قائلين: "شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا"، فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والأنصار في نحو ألفٍ وخمسمائة، وأخرج الهَدْيَ (للعمرة) ليعلم الناس أنه لا يقصد مكة محاربا بل معتمرا، "ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرُب". سار جيش الرسول حتى وفي الطريق جاءه مخبروه بأن قريشاً قررت صده عن مكة واستعدوا لمحاربته، فاتخذ الرسول طريقا آخر غير معتاد إلى مكة إذ جاءها من أسفلها، الشيء الذي كان سيجعل المسلمين يهزمون قريشا لو هجموا عليهم، لكن الرسول فضل تجنب القتال حتى لا يقتل المسلمون إخوانا لهم في مكة يخفون إسلامهم. وهكذا أمر بالنزول في الحديبية. وهناك جاءه مبعوث من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين، فأخبره عليه السلام بأنه يقصد العمرة، لا الحرب. رجع مبعوث قريش إليهم وأخبرهم بذلك فشكوا في صدقه لأنه من قبيلة محالفة للرسول، فبعثوا آخر من حلفائهم فأكد لهم ما جاء به الأول من أن "القوم أتَوا معتمرين". ثم بعثوا ثالثا ليتأكد، وهو "سيد أهل الطائف"، فتعرف على الوضع وعاد ونصح قريشا بعد الحيلولة دون أداء العمرة التي جاء من المسلمون أجلها. فكان جوابهم "تردّه عامنا ويرجع إلى قابل". فقرر الرسول أن يبعث إليهم مبعوثا من عنده فاختار عثمان بن عفان لوجود أهله هناك (بنو أمية) يحمونه، ذهب عثمان في جوار أحد أكابر الأمويين، وأبلغ قريشا رسالة النبي، فرفضوا قبول دخوله عليهم عنوة، ثم إنهم حبسوه، فشاعَ عند المسلمين أن

عثمان قُتِلَ، فقرر عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك خوض الحرب، ودعا أصحابه ومن جاء معه للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان، فشاعَ أمر هذه البيعة (بيعة الرضوان) في قريش فداخلهم منها رعب، ثم أرسلوا فرقة من مقاتليهم لاختبار المسلمين فأسروا.

عند ذلك مالت قريش إلى الصلح وبعثت مبعوثا منها إلى الرسول وقع معادة الصلح مع قريش وتنص على ما يلي:

- تبادل الأسرى.
- هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات.
- من جاء المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون ردّه.
- أن يرجع النبي من غير عمرة ذلك العام، ثم يأتي في العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القرب والقوس.
- من أراد من القبائل أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

قبل عليه والسلام كل هذه الشروط بينما استاء المسلمون منها، وقالوا: كيف نَرُدُّ إليهم من جاءنا مسلماً، ولا يردّون مَنْ جاءهم مُرتَداً؟ فقال عليه والسلام: «إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». على أن أشد ما اغتاظوا منه هو صدُّهم عن الطواف بالبيت ذلك العام لأن الرسول كان أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين. ومضى الرسول يملي شروط الصلح بين الطرفين، وكان الكاتب علي بن أبي طالب، قال له عليه السلام اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال ممثل قريش: "اكتب باسمك اللهمّ" على عادة العرب، وهم لا يعترفون بـ "الرحمان الرحيم" فأمر الرسول عليا بكتابة ذلك. ثم أملى: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»... فقاطعه ممثل قريش قائلا: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك، اكتب محمد بن عبد الله. فأمر عليه السلام عليّاً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله، فامتنع، فمحاها الرسول بيده. وكتبت نسختان: نسخة لقريش ونسخة للمسلمين.

وبعد كتابة المعادة جاء بعض المسلمين كانت قريش قد منعتهم من الهجرة، يطلبون الانضمام إلى إخوانهم في المدينة فردهم الرسول وطلب منه الصبر وأوضح لهم أنه عقد مع قريش صلحا وأنه على ذلك وأنه لن يغدر بهم.

هذا، وقد دخلت قبيلة خُزاعة في عهد الرسول الله، بينما دخل بنو بكر في عهد قريش، وبينما نزاع موروث. وفي النهاية، أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا الهدْي ليتحللوا من عمرتهم، فصعب ذلك على المسلمين حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال، فتقدم عليه السلام إلى هَدْيِهِ فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا، ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وقد أمن كل فريق الآخر.

وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه هذه السورة : سورة الفتح.

- نص السورة

1- مقدمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا[1] (الإشارة إلى اعتراف قريش بدعوته وتوقيعها معه معاهدة صلح هي المعروفة بـ "صلح الحديبية")، **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**[(1)]، **وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**[2]، **وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا**[3].

2- هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ...

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ (الاطمئنان) **فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ** (بسبب الصلح) **لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** (فصرف المشركين عنكم بالصلح)، **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**[4]: **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا**[5]. **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ** (ظنوا أن المشركين سيخوضون حربا يهزمون فيها المسلمين)،

---

1 - اختلفوا في المقصود بالذنب هنا، قال بعضهم : ذنبه في الجاهلية، وقيل: ما ذكر حول ما أغار زوجاته عليه (سورة التحريم) حيث حرم على نفسه ما لم يحرمه الله عليه من جهة ومن اشتهائه زوجة زيد الخ.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (الهزيمة ستدور عليهم)، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا[6]. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[7]. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا (على قومك) وَمُبَشِّرًا (يحمل البشرى) وَنَذِيرًا[8] (ينذر ويتوعد)، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ (تعظمون الله) وَتُوَقِّرُوهُ (وتجلوه) وَتُسَبِّحُوهُ (تصلون له) بُكْرَةً (صباحا) وَأَصِيلًا[9] [2]. إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ (يوم الحديبية على أن يقاتلوا ولا يفروا) إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (قوته أكبر من قوتهم)، فَمَنْ نَكَثَ (من تخاذل ولم يلتزم بالبيعة) فَإِنَّمَا يَنْكُثُ (يتخاذل) عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[10].

3- سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ: شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ...

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ (الذين لم يخرجوا معك): شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا. يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ (كذبوا في اعتذارهم، والحقيقة أنهم توقعوا الهزيمة)! قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[11]. بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ (الهلاك للمسلمين) وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا[12] (جبناء لا قيمة لكم). وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا (أعددنا) لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا[13]. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[14]. سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ (مغانم خيبر) لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ (الذي خص تلك المغانم بمن شاركوا في الحديبية)! قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا، كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ (أي قوله عنكم: تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم)؛ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا (أن نصيب معكم نصيبا من الغنائم) بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا[15] (لا يفهمون أن غنائم خيبر مخصصة لأهل الحديبية). قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (هوازن وغطفان يوم حنين)[3]، تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[16]. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى

---

2 - كانت الصلاة في الأصل مرتين في اليوم، صبحا ومساء.

3 انظر مسلسل الأحداث والغزوات في مقدمة الكتاب.

الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ (في عدم الخروج) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا[17].

4- لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ (من الشعور بالغبن بسبب ما ورد في المعاهدة)، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا[18] (صلح الحديبية كان منطلقا لمسلسل سينتهي بعد أقل من عامين باستسلام مكة، وأثابهم كذلك) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[19]. وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا (لو لم يقع الصلح ولم تم النصر بالقتال) فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ (=غنائم خيبر)، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ (أي أيدي قريش بفضل الصلح)، وَلِتَكُونَ (عملية الصلح) آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[20]. وَأُخْرَى (غنائم مكة) لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا (بسبب الصلح) قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا[21]. وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (مشركو قريش) لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ (لفرّوا)، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[22]. (ولكن) سُنَّةَ اللَّهِ (تقدير للأشياء) الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ (اقتضت الصلح وعدم القتال)، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[23]. وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ (فلم يقع اصطدام مع أنهم كانوا فريسة سهلة للمسلمين) مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا[24]. هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْهَدْيَ (سبعين بدنة: ناقة) مَعْكُوفًا (محبوسا ومنعوه من) أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ (محل نحره في مكة). وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ (كانوا في مكة وسط المشركين) لَمْ تَعْلَمُوهُمْ (لا تستطيعون تمييزهم وتجنب قتلهم) أَنْ تَطَئُوهُمْ (فتطؤون أجسامهم مع أجسام المشركين) فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ (فيعيركم الناس بأنكم قتلتم إخوانكم المؤمنين) لِيُدْخِلَ اللَّهُ (منهم) فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (... لولا هؤلاء لما كف الله أيدكم عنهم). لَوْ تَزَيَّلُوا (لو تميزوا عن المشركين) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[25] (بقتالكم إياهم). إِذْ (وحين) جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (فامتنعوا من ذكر عبارة "رسول الله" في المعاهدة)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (ولم يعطوا الفرصة للمشركين لينسحبوا من الاتفاق)، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى (قبلوا عبارة "باسمك اللهم" ومعناها باسم الله، لا إله إلا الله) وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا (بعبارة "باسمك

اللهم" أي "باسم الله")، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[26]. لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ (الرؤيا التي رآها في المنام وهو يدخل مكة. وفعلا) لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ (قبل تحقق الرؤيا) فَتْحًا قَرِيبًا[27] (هو اعتراف قريش بالنبي: معادة صلح الحديبية).

5- خاتمة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ ...

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[28] (تأكيد على أن الإسلام سيصير بعد صلح الحديبية هو الدين المنتصر). مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ؛ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (تفرخ وتفرع) فَآزَرَهُ (قواه)، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ؛ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا[29].

- تعليق

واضح من السورة أن صلح الحديبية كان حدثا تاريخيا، فاصلا بين عهدين. لقد تم فيه اعتراف قريش بالرسول والمسلمين، فتعاملوا معهم معاملة الند للند. ومع أن شروط الحديبية قد بدت لجل المسلمين وكأن فيها غبن لهم، خصوصا وكانوا في وضعية إستراتيجية تمكنهم من النصر على جيش قريش، ومن غنائم كثيرة، فإن الرسول كان يرى شيئا آخر: لم تكن الغنائم بالنسبة له هدفا في ذاتها، ولا كان كسب معركة هو ما كان يسعى عليه. لقد هاجر من مكة بعد أن تعاقد مع أهل المدينة لنصرته من أجل هدف أسمى من القتل ومن الغنائم. وقد عبرت هذه السورة عن هذا الهدف بقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ"، الشيء الذي يعني أن الهدف هو انتصار الدعوة وليس انتصار جيوش. وهل هناك أعظم من اضطرار العدو إلى الاعتراف بصاحب الدعوة، صاحب القضية؟ ذلك أنه بعد هذا الاعتراف سيتحول كل شيء إلى "مسألة وقت". وما يرتبط بالوقت بابه مفتوح على إمكانيات لا تحصى...

وهكذا فالسنوات العشر التي نصت عليها المعاهدة كفترة هدنة، قد تقلصت فعلا إلى سنتين لا غير. لقد استسلمت مكة في السنة الثامنة.

ولكي يعطي الرسول لهذا النصر السلمي الاستراتيجي الذي حصل عليه في الحديبية أبعاده الإستراتيجية كاملة بادر إلى توجيه رسائل إلى ملوك وأمراء المنطقة بما فيهم هرقل الروم وكسرى فارس وحاكم مصر، فضلا عن رؤساء القبائل العربية الذين كانوا أمراء في مناطقهم جنوبا وشرقا وشمالا... وفي جميع هذه الرسائل دعوة إلى الإسلام، وليس إلى الاستسلام: دعوة إلى اعتناق عقيدة التوحيد، والارتباط الروحي بالرسول، بوصفه نبيا ورسولا، لا بوصفه فاتحا أو إمبراطورا. وهكذا كان كل رئيس أو أمير، اعتنق الإسلام دينا، يكتسب بهذا الدين، ومن خلاله، شرعية البقاء في مركزه السياسي أميرا أو ملكا الخ. (انظر رسائل الرسول إلى الملوك والأمراء في "المدخل الفصل الثاني الفقرة **4** أ-و)؟

بعد هذا التذكير ننقل كلمة موجزة حول مضمون السورة:

1- تبدأ السورة بمقدمة تصف ما حدث من صلح بالحديبية بأنه "فتح مبين" وخطوة إلى "نصر عزيز" قوي... سيكون استسلام قريش مكة.

2- وتأتي الفقرة الثانية لتؤكد أن القلق الذي أصاب بعض المسلين من شروط الصلح قد تبدد، إذ أنزل الله السكينة والاطمئنان في قلوب المؤمنين. أما مبايعة المؤمنين للرسول على القتال حتى الموت عندما استنفرهم لذلك، فهي في الواقع مبايعة لله وميثاق معه، ذلك أن أيديهم التي بايعوا الرسول بها، كانت فوقها يد الله وستبقى، بمعنى أن النصر بيد الله، ولذلك "فَمَنْ نَكَثَ (من تخاذل ولم يلتزم بالبيعة) فَإِنَّمَا يَنْكُثُ (يتخاذل) عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"[10].

3- وتذكر السورة في الفقرة الثالثة بتخلف الأعراب واعتذارهم بالقول "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا". وترد عليهم بأنهم: "يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبهم)! ثم تخاطبهم: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ (الهلاك للمسلمين) وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا". ثم تخبرهم بأنهم سيتعرضون للامتحان قريبا عندما يدعون "إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (هوازن وغطفان يوم حنين)[4]، تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ. فَإِنْ تُطِيعُوا

---

4 انظر مسلسل الأحداث والغزوات في مقدمة الكتاب. انظر أيضا استطرادا في الموضوع في آخر سورة النصر - لاحقا.

يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا". وتنتهي الفقرة إلى التنبيه إلى أن ما قيل في الأعراب وتخلفهم لا ينطبق على غيرهم ممن لهم أعذار حقيقة مقبولة : "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ،وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ (في عدم الخروج).

4- تتجه السورة بعد ذلك إلى المؤمنين الذين بايعوا الرسول "بيعة الرضوان" فتثني عليهم، وتطمئنهم بأن المغانم التي كان من المتوقع أن يحصلوا عليها بانتصارهم على قريش في الحديبية، والتي جاء الصلح ليحول دونها، ستعوض بمغانم كثيرة آتية في الطريق، وأن غنائم خيبر التي حصلوا عليها عقب عودتهم من الحديبية هي مجرد "تسبيق" معجل. ومن جهة أخرى أكدت لهم السورة أن الرؤيا التي رآهم فيها الرسول وهم يقومون بشعائر العمرة في المسجد الحرام ستتحقق، قريبا، وبذلك بشرتهم بأن الفتح (فتح مكة) آت وأن المسألة هي مسألة وقت فقط.

5- وتختم السورة بتأكيد هذه البشري بشرى استسلام مكة وسقوط الشرك، وانتصار دين الله على كل دين: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا".

112- سورة المائدة

- تقديم

هي مدنيّة باتّفاق، ولكنهم اختلفوا في تاريخ نزولها، فقد روي عن عبد الله بن عَمْر وعائشة أنّها آخر سورة نزلت، لكن الأغلبية على أن سورة التوبة هي آخر ما نزل من السور، وقيل: إنّها نزلت بعد النساء، وما نزل بعدها إلاّ سورة براءة، بناء على أنّ براءة آخر سورة نزلت، وقال آخرون إن هذه السورة نزلت في طريق الرسول عليه السلام إلى "حجّة الوداع" (السنة العاشرة)، لاشتمالها على آيات قيل إن الرسول قرأها خلال خطابه أثناء حجة الوداع وهي قوله تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" الخ (المائدة: 3). أما نحن فنرجح نزولها عقب صلح الحديبية وأن ما ورد في الآيتين الأولى والثانية منها لا يرتبط بحجة الوداع التي جرت في السنة العاشرة، بل بـــ "عمرة القضاء" المنصوص عليها في صلح الحديبية والتي حدد تاريخها "العام القادم" أي السنة السابعة للهجرة. والجزء الأخير من الآية الثانية يشير إلى واقعة الحديبية بصيغة الماضي القريب: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ (يحملنكم) شَنَآنُ (بغض) قَوْمٍ (بسبب) أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (في واقعة الحديبية) أَنْ تَعْتَدُوا (عليهم انتقاما)، وَ(وبدلا من ذلك) تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[2]. وبناء عليه فتاريخ نزلها هو السنة السابعة، وما ورد فيها من ذكر لشعائر الحج ومن المحرمات الخ كان بمناسبة عمرة القضاء وليس بمناسبة حجة الوداع (انظر مزيدا من التفصيل في الهامش رقم 3 أدناه)

- نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (قال ابن عباس : "عقود الله التي أوجبها علـيكم ، فـيما أحل لكم وحرّم علـيكم" ومنها ما يلي:).

2- ما حرم على المؤمنين وما أحل لهم...

أ- **أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** (الإبل البقر والغنم، كبارها وصغارها وأجنتها إذا ذبحت باسم الله) **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** (إلا ما سيأتي ذكره)، **غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ** (ولا يحل لكم صيد الوحش) **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** (في حالة إحرام)؛ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**[1].

ب- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا** (لا تستبيحوا لا تعتدوا على) **شَعَائِرَ اللَّهِ** (أي ما حرم عليكم)، **وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ** (قيل رجب، وقيل ذو القعدة، وهو الشهر الذي حرم الله القتال فيه)، **وَلَا الْهَدْيَ** (لا تغصبوا أو تمنعوا ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام)، **وَلَا الْقَلَائِدَ** (قيل: كان الرجل، في الجاهلية، يأخذ لحاء شجرة من شجر الحرم فيتقلدها، أي يضعها في رقبته ورقاب والبهائم، ثم يذهب حيث شاء، فيأمن بذلك)، **وَلَا** (تستبيحوا أموال أناس وأنتم) **آمِّينَ** (قاصدين) **الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ** (ربحا في تجارة) **وَرِضْوَانًا. وَإِذَا حَلَلْتُمْ** (خرجتم من حال الإحرام) **فَاصْطَادُوا** (1)، **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ** (يحملنكم) **شَنَآنُ** (بغض) **قَوْمٍ** (بسبب) **أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** (في واقعة الحديبية) **أَنْ تَعْتَدُوا** (عليهم انتقاما وأخذا بالثأر)، **وَ**(بدلا من ذلك) **تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[2].

ج- **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ** (2) **وَالدَّمُ** (المسفوح) **وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** (ما ذبح باسم غير الله)، **وَالْمُنْخَنِقَةُ** (الميتة اختناقا)، **وَالْمَوْقُوذَةُ** (الميتة بالضرب)، **وَالْمُتَرَدِّيَةُ** (الميتة بالسقوط من مكان عال أو في بئر)، **وَالنَّطِيحَةُ** (الميتة بالتناطح مع غيرها)، **وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ** (ما أكل منه) **إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ** (باستثناء ما أدركتم حيا من ذلك فذبحتموه باسم الله – ولا يدخل في الاستثناء: الخنزير وما ذبح باسم غير الله)، **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** (أي على الحجارة المتخذة أوثانا حرام عليكم كذلك)، **وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ** (لا تطلبوا من الأقداح أن تقسم لكم بما يحل بكم في السفر أو غيره) **ذَلِكُمْ فِسْقٌ. الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ** (أن ترتدوا عن) **دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ؛ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** (3)، **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ**

---

1 – كان قد حرم الصيد من قبل في حالة الإحرام "غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ" الآية 1

2 – المقصود : "هو كل ما فارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية مما أحل الله أكله".

3 – جل المفسرين إن لم يكن جميعهم يقولون إن الآيتين: "الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ؛ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

(بسبب الجوع إلى أكل ما حرمت عليكم مما ذكر) غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ (أي متعمد تلبية رغبة في) أكل الحرام، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[3].

د- يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ؟ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ (أي ما أحل لكم من الذبائح المذكورة قبل)، وَ(أحل لكم كذلك) مَا عَلَّمْتُمْ (دربتم) مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ (طيورا أو كلابا) تُعَلِّمُونَهُنَّ (على الصيد) مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[4]. الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ. وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (زانين) وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (صاحبات وعاشقات). وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"[5].

دِينًا" نزلتا بعرفة في حجة الوداع، وبعضهم أضاف أن الأخيرة منهما هي آخر ما نزل الخ. وهذا كله لا يستقيم مع السياق، فالكلام الذي قبلهما متصل بالذي بعدهما ومكمل له. فالفقرة ج، أي الآية رقم 3 نص واحد وسياق واحد. فبعد أن عدد الله ما حرم، قال إن ذلك يفصل بينكم وبين المشركين وبه لن تختلط شعائر الإسلام مع شعائر الجاهلية، وبذلك يكون دينكم (أي شعائركم في الحج قد كملت وانفصل عن ما كان في الجاهلية الخ، ثم أردف "فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ" الخ، بمعنى فمن اضطره الجوع اضطرارا إلى أكل بعض ما سبق ذكره، فلا جناح عليه، فالله غفور رحيم. ويستمر نفس الموضوع (ما حرم وما أحل) في الفقرة التالية. وواضح إذن جميع التأويلات التي أدلى بها الرواة والمفسرون (انظر الطبري مثلا) تخرق السياق وبالتالي تتدخل في المعنى بغير وجه صحيح. أما القول بأن الآيتين المشار إليهما نزلتا في حجة الوداع فيقتضي ضرورة أن تكون هذه السورة (المائدة) قد نزلت بعد سورة النصر (فتح مكة)، ففي السيرة أن فتح مكة كان في السنة الثامنة، أما حجة الوداع فقد كانت في آخر السنة العاشرة. لكن هذا يتعارض مع قوله في هذه السورة : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (المنافقون) يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ؛ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ (بنصر: فتح مكة) أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ"[52]. فالسورة إذن نزلت قبل فتح مكة سنة ثمانية، والذي نراه هو أن هذه السورة -المائدة- نزلت عقيب الحديبية في السنة السابعة للهجرة بمناسبة "عمرة القضاء"- كما قلنا في التقديم. وهذا الحضور الأول للرسول عليه السلام في مكة -بعد الهجرة- هو المناسبة التي اقتضت بيان شعائر الله، شعائر الحج، والتفصيل في الحلال والحرام الخ. من وجهة نظر الإسلام، وطرح قضية علاقة أهل الكتاب مع التوراة والإنجيل الخ. وبالتالي فهذه السورة هي للتشريع وليس في القصص أو العقيدة أو التعبئة من أجل هذه الغزوة أو تلك.

3- الوضوء والتيمم، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ(المقصود: الوضوء)؛ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا (على جنابة) فَاطَّهَّرُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ (جامعتموهن) فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا (ذلك هو التيمم) صَعِيدًا طَيِّبًا: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ. مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[6]. وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا (عندما أسلمتم وآمنتم)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[7].

4- "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا"! اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ (نفذوا أوامر الله)، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ (بالعدل)، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (لا تحملنكم عداوة قوم على عدم التزام العدل معهم)! اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[8]. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[9]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[10]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ (اليهود) أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ (حين هموا باغتيال الرسول والسيطرة على المسلمين) فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ (ففشلوا)، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[11].

5- اليهود نقضوا ميثاقهم، والنصارى "نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ"...

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا(4) وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ (نصرتموهم) وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقتم في سبيل الله) لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[12]؛ فَبِمَا (بسبب) نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (خشنة كالدرهم المغشوش)، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ (في التوراة) عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا (قسما) مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (فيها)، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ (خيانة) مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ (عن محاولتهم قتلك) وَاصْفَحْ (سمح) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[13]. وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ،

4 - انظر المدخل إلى القرآن: القصص في القرآن الكريم. 5- القصص في المدينة فقرة 9

فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ (بين كنائسهم ورهبانهم) الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[14]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا (محمدا) يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ! قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ (محمد: هاد يهدي إلى الحق) وَكِتَابٌ مُبِينٌ (القرآن)[15]، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ (الجهل والشقاق) إِلَى النُّورِ (الهداية) بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[16]. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا! وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[17]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ! قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ[18]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ (انقطاع) مِنَ الرُّسُلِ أَنْ (كي لا) تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[19].

<u>6- ... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..</u>

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ[20]. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ[21]. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ[22]. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[23]. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ[24]. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[25]. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[26]. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ[27]. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ[28]. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ[29]. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[30]. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ! قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ[31]. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ؛ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ"[32]. إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا (هم قطاع الطرق ومن في معناهم) : أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[33]، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ؛ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[34]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[35]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[36]. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ"[37]. وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا (عقوبة) مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[38]، فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[39]. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[40].

7- لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ...

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ (هم المنافقون). وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ (من اليهود خارج المدينة) لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ (أحكام التوراة) مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ (من بعد وضع الله ذلك مواضعه): يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا [(5)]! وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[41]. سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ، أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ (للرشوة)، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ

---

5 – روي أنهم " اليهود، زنت منهم امرأة، وكان الله قد حكم في التوراة في الزنا بالرجم، فتنفسوا أن يرجموها، وقالوا: انطلقوا إلى محمد فعسى أن يكون عنده رخصة، فإن كانت عنده رخصة فاقبلوها. فأتوْه فقالوا: يا أبا القاسم إن امرأة منا زنت، فما تقول فيها؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «كَيْفَ حُكْمُ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ فِي الزَّانِي؟» فقالوا: دعنا من التوراة، ولكن ما عندك في ذلك فقال: «ائْتُونِي بِأَعْلَمِكُمْ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى». فقال لهم: «بِالَّذِي نَجَّاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَبِالَّذِي فَلَقَ لَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَاكُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ إِلاَّ أَخْبَرْتُمُونِي مَا حُكْمُ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ فِي الزَّانِي"، قالوا: حكمه الرجم. فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم فرجمت".

تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[42]. وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ[43]. إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ؛ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ[44]. وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[45]. وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ، فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ[46]، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[47]. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[48]. وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ[49]. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ (وعندهم حكم الله في التوراة)؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[50]؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[51]. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (المنافقون) يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ؛ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ (بنصر: فتح مكة) أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ[52]. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ! حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ[53].

8- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[54]. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ[55]. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ[56]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[57]. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ[58]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ[59]. قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً (ثوابا) عِنْدَ اللَّهِ؟ (إنه) مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَ(مَنْ) عَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا (شر مرتبة عند الله) وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ[60]. وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا! وَ(الحال أنهم) قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ (بقوا كما كانوا: لم يؤمنوا)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ[61]. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[62]. لَوْلَا (هلا) يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ! لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[63]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (مقبوضة، غير كريمة)! غُلَّتْ (قبضت) أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا (ما أنزلنا عليك من فضائهم سيزيدهم طغيانا وكفرا)، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[64]، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ[65]. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا (طبقوا) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ (لكثرت الخيرات عندهم)، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ (جماعة لا تغالي في القول والعقيدة)، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ[66]. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (حول تصرفات اليهود وغيرهم ولا تخش شيئا فالله حافظك من أذى الناس)، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[67]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا (تطبقوا) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا (ما قصصناه عليك من أمرهم سيزيدهم حقدا عليك)، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[68] (فلا تحزن على تكذيبهم لك ولا تخاف). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى، (كل) مَنْ آمَنَ (منهم) بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[69]. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ، فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ[70]. وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ (أن لا يكون اختبار من الله لهم)، فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ؛ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[71].

9- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ...

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ! وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[72]. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[73]. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ! وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[74]. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ! انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ[75] (أين يهربون من هذه الحقيقة). قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[76]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ[77]. لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[78]. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[79]. تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ (ينصرون) الَّذِينَ كَفَرُوا! لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ (فجرَ عليهم) أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ[80]. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[81]. لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا: الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا! وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا: الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[82]، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ[83] (6). وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ[84]. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[85]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[86].

10- كفارة اليمين. والْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[87]. وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ[88]. لَا

---

6 - قيل: " بعث النجاشيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم اثنى عشر رجلاً يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم القرآن فبكوا. وكان منهم سبعة رهبان وخمسة قسيسون".

يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[89]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[90]. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[91]؟. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[92]. لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا (قبل تحريم الخمر) [7] إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[93].

11- لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ... أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ (صيد البر)، تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ، لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ [8]، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ[94]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ (الإبل والبقر والغنم)، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ. عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ؛ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[95]. أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ (المسافرين)، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[96]. جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[97]. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[98]. مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ[99]، قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[100].

---

7 – انظر في نهاية شرحنا لهذه السورة استطرادا حول "أسباب النزول: تحريم الخمر نموذجا"

8 – "عن ابن عباس، قوله: أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله تعالى به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا نالوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه".

12- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ[101]. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ[102]. مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ (9)، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[103]، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ[104]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[105].

13- الشهادة على الوصية حين الوفاة...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ (ليشهد بينكم)، إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ (وأراد أن يوصي)، اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ (أنتم رفاقه في السفر)، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ، (إن كنتم في غربة مسافرين) فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ، لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ، إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ[106] (10)، فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا، إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ[107]. ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

---

9 - قالوا من عادة العرب : "أن الناقة إذا تابعت ثنتي عشرة إناثا ليس فيها ذكر سيبت. فلم يركب ظهرها ولم يجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف. فهي (السائبة). فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقّ أذنها ثم خلي سبيلها مع أمها في الإبل، فلم يركب ظهرها ولم يجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فُعل بأمها، فهي البحيرة ابنة السائبة. والوصيلة: أن الشاة إذا نتجت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس فيهنّ ذكر جعلت وصيلة، قالوا: وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك لذكورهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شيء فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامي: أن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهنّ ذكر حُمي ظهره، ولم يركب، ولم يجزّ وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك".

10 - فإذا أنتم أوصيتم إليهما ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال فأصابتكم مصيبة الموت. فأدّيا إلى ورثتكم ما ائتمنتموها وادّعوا عليهما خيانة خاناها مما ائتمنا عليه. فإن الحكم فيهما حينئذ أن تحبسوهما ، فيحلفان بالله من بعد الصلاة إن اتهمتموهما بخيانة فيما ائتمنا عليه من تغيير وصية أوصى إليهما بها، أو تبديلها.

الْفَاسِقِينَ[108]. يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ: مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[109].

14- معجزات عيسى ... هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ...

(واذكر) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[110]، وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ[111]، إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[112]. قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ[113]. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا، وَآيَةً مِنْكَ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[114]. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ[115] (11).

15- خاتمة: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ ...

و (اذكر) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[116]. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[117]. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[118]. قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ

---

11 – في إنجيل يوحنا: " وَقَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَيَسُوعُ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَرْحَلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، فَإِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمُ الآنَ أَقْصَى الْمَحَبَّةِ: 2فَفِي أَثْنَاءِ الْعَشَاءِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ وَضَعَ فِي قَلْبِ يَهُوذَا بْنِ سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ أَنْ يَخُونَ يَسُوعَ، 3وَكَانَ يَسُوعُ عَالِماً أَنَّ الآبَ قَدْ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ وَأَنَّهُ مِنَ اللهِ خَرَجَ وَإِلَى اللهِ سَيَعُودُ، 4نَهَضَ عَنْ مَائِدَةِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ رِدَاءَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً لَفَّهَا عَلَى وَسَطِهِ، 5ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي وِعَاءٍ لِلْغَسْلِ، وَبَدَأَ يَغْسِلُ أَقْدَامَ التَّلامِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي عَلَى وَسَطِهِ".

جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[119]. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[120].

- تعليق

قلنا في تقديم هذه السورة، وفي الهامش رقم 3 أنها نزلت في السنة السابعة للهجرة بمناسبة "عمرة القضاء"، أي العمرة التي تأجلت لمدة عام بموجب صلح الحديبية. وكنا قد أشرنا إلى أن النبي عليه السلام كان قد بادر مباشرة – بعد صلح الحديبية الذي سجل اعتراف قريش برئاسته للدولة الجديدة التي كانت تتشكل في المدينة تحت قيادته– بادر إلى مراسلة ملوك ورؤساء الدول في المنطقة (هرقل الروم، كسرى فارس، نجاشي الحبشة، مقوقس مصر، أمراء ورؤساء الإمارات والقبائل العربية) يطلب منهم الإسلام، أي اعتناق عقيدة التوحيد، مع إمكانية بقائهم في مناصبهم السياسية.

وإلى جانب هذه الحملة الدبلوماسية قام الرسول بـ"عمرة القضاء" التي أخلت فيها قريش مكة للمسلمين لأداء الطواف وغيره من المناسك. وإخلاء قريش لمكة كان منصوصا عليه في عقد صلح الحديبية، ولكن تطبيقه كان بمثابة صورة مصغرة لما سيحدث بعد سنة فقط من استسلام قريش برئاسة أبي سفيان وتسليمهم مكة إلى الرسول. هنا كان لابد من إقامة فاصل بين عادات قريش في الحج والعمرة وغيرهما من العادات والأعراف التي كانت سائدة بينهم في المأكل والمشرب الخ، وبين الشعائر الدينية والحلال والحرام في الإسلام، فنزلت هذه السورة من أجل هذا الغرض. كما شرعت لمسائل أخرى تخص العبادات كالوضوء والتيمم وألحت على التزام العدل في المعاملات وعدم الانسياق مع دافع الرغبة في الانتقام أو الأخذ بالثأر ممن أضر بالمسلمين من قبل الخ... وقد خصصت السورة القسم الأول منها لهذه الموضوعات (الفقرات 1–2–3–4).

بعد ذلك طرحت السورة علاقة أهل الكتاب بالتوراة وأنحت باللائمة عليهم لعدم التزامهم بتعاليمها، وذكرت ببعض ما ورد فيها من أحكام في مجال القصاص، ثم حددت عقاب السرقة غير مبتعدة عن الأعراف العربي، وتوعدت المرتدين من المنافقين أولياء اليهود، ونصحت أهل الكتاب بعدم الغلو في دينهم، ودعتهم إلى الدخول في الإسلام...

وانتقلت السورة بعد ذلك إلى تشريعات تخص المجتمع الإسلامي فحرمت الخمر والميسر (انظر الاستطراد أدناه) وحرمت صيد البحر في حالة الإحرام

وأباحت صيد البحر. ثم ألحت على الشهادة في الوصية، في حال السفر –وكان السفر يدوم أسابيع وأكثر فكان لا بد من تنظيم العلاقات بين المسافرين خصوصا في حالة الوفاة والوصية بدين أو غيره ...

وأخيرا ختمت السورة بخاتمة تبدو ظاهريا وكأن لا صلة لها بما تقدم. غير أن المتأمل فيها وفي ظروف نزول السورة، ظروف انفراد الرسول وصحبه بمكة التي أخلاها أهلها له لأداء شعائر العمرة، يمكن أن يتبين من قراءة "ما وراء" هذا الحدث التاريخي معنى عميقا ينطوي يرتفع بمقدمة السورة من مستوى "الخاص" الضيق إلى فضاء "العام" الرحب: فضاء الوفاء بالعقود"، ليس –هذه المرة– من "الذين آمنوا" كما في مقدمة السورة بل من جانب "وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ".

لقد أثبتت هذه الخاتمة براءة عيسى ممن اتخذوا منه ومن أمه إلهين... "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[116]. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"[117].

إن موقف قوم عيسى الذين أشركوا بأن قالوا :"إن الله ثالث ثلاثة"، شبيه بموقف قوم الرسول محمد (ص) "الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (وقالوا) مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى": كلا الطرفين اتخذ وسيطا شريكا لله. وكما قال عيسى جوابا على سؤال ربه: "مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ"، قال الرسول محمد الشيء نفسه عن قومه مرارا وتكرارا. ويأتي موقف عيسى من قومه متسامحا مرجئا أمرهم إلى الله : "إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[118]، يأتي هذا الموقف ملهما بالموقف الذي سيتخذه محمد عليه السلام، بعد عام فقط من عمرة القضاء، حين استسلم أهل مكة. إنه لم يقتلهم ولم يتخذهم أسرى... بل قال لهم : "اذهبوا فأنتم الطلقاء ... أحرار.

استطراد : أسباب النزول:

تحريم الخمر نموذجا

عبارة "أسباب النزول" مصطلح إسلامي قديم، وقد كان محل اهتمام كبير في جميع العصور الإسلامية، سواء عند المفسرين والمحدِّثين والفقهاء أو عند المؤلفين في "علوم القرآن"، هؤلاء الذين أبرزوا جميعا أهميتها بوصفها إحدى الوسائل الضرورية لفهم القرآن. وعند معظمهم أن "سبب النزول" لا يعني أنه الدافع أو العلة للنزول بل "هو ما نزلت الآية أو الآيات متـحدِّثةً عنه أو مُبَـيِّنَة لـحكمه". وقد اختلفوا في تقدم أو تأخر الآية عما يعتبر سببا في نزولها، وقد اشترط بعضهم مساوقة النزول لوقوع ما يعتبر سببا له، كأن يكون سؤالا وجه إلى النبي عليه السلام أو حادثا حدث بمحضره فنزل الوحي في شأنه.

وإذا كان بعض المفسرين، خصوصا منهم ذوي الاتجاه الباطني، الصوفي أو الشيعي، قد قللوا من شأن المعرفة بـ"أسباب النزول" لكونها تنتمي إلى التاريخ وليس إلى الفهم القائم على "التدبر" والتعرف على المعنى" بـ "الذوق والكشف" أو من خلال "إرث الإمام" لأسرار التنزيل الخ، وإذا كان آخرون يشكون في جدواها لكثرة ما يعتري الروايات التي ترويها من اختلاف وتعدد، فإن الفقهاء والأصوليين يلحون على ضرورة المعرفة بها لفهم القرآن خصوصا عندما يتعلق الأمر بمجال الأحكام.

وقد خصص الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" فصلا حاول فيه تعداد فوائد "أسباب النزول" (وعنه أخذ السيوطي) فذكر جملة منها مع أمثلة لها من القرآن. منها معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها أنه قد يكون اللفظ عاما ويقوم سبب النزول بالتخصيص، ومنها أن بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني الكتاب العزيز وهو أمر تحصّل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ...

ويضيف الزركشي: أما السبيل إلى معرفتها فهو "النقل الصحيح" "عـمن شاهدوا التنزيل ووقفوا علـى الأَسباب وبحثوا عن علـمها"، ومن هنا طبقوا على

رواية "أسباب النزول" نفس المنهج المطبق في رواية الحديث، فاعتبروا سبب النزول المروي عن الصحابي في مرتبة الحديث المرفوع، والمروي عن التابعي في مرتبة الحديث المرسل. لكن هذا التقييد لم يمنع من تضارب روايات أسباب النزول، كما لم يمنع، لا الحديث ولا غيره من المرويات، من التضخم مع الزمن، ولا من تجنب الأخذ من الإسرائيليات...

ومع ذلك فليس من المعقول التشطيب عن جميع ما تنقله روايات أسباب النزول. ذلك لأن "أسباب النزول" تفرض نفسها علينا من زاويتين:

أ- فمن جهة لم ينزل القرآن جملة واحدة حتى يمكن التعامل معه كنص مكتمل منذ البداية -بقطع النظر عن اعتبار الظرف الذي نزل فيه أو عدم اعتباره- بل لقد استمر تنزيل القرآن منجما، مفرقا، على مدى يزيد عن عشرين سنة:

- كان منه ما أنزل ابتداء كخطاب يشرح العقيدة، أو كقصص أو كنصوص تشريعية، أو أخلاقية الخ. وهذا الصنف لا يتعلق في الغالب بأسباب أو مناسبات خاصة، وبالتالي فهو ليس مما يرجع فيه إلى "أسباب نزول"، على الرغم عن قول بعضهم "إنه ما من آية في القرآن إلا ولها سبب لنزولها". إن عنصر المبالغة في هذه العبارة واضح! ذلك لأن ما هو متداول من "أسباب النزول" قليل جدا بالنسبة لآي الذكر الحكيم.

- وكان منه ما نزل جوابا عن سؤال طرح على النبي عليه السلام أو على المسلمين، أو بمناسبة حال خاصة بالنبي وشؤونه الشخصية، أو بصحابي معين أو بأحوال تتعلق بعامة المسلمين زمن النبوة، أفرادا أو جماعة. وهنا تطرح أسباب النزول نفسها كمرجع -ضروري أحيانا- لفهم المقصود من هذه العبارة أو تلك.

ب- ومن جهة ثانية إن ما تورده الروايات المختلفة بصدد أسباب النزول يعكس أحد شيئين : إما الواقع التاريخي الذي كانت له علاقة فعلا بنزول هذه الآية أو تلك، سواء كان من أسباب نزولها أو لم يكن، وهو في الحالتين معا عنصر في معهود العرب الذي نزل القرآن جملة وتفصيلا حسب أحواله ومقتضياته، وإما "الواقع" الفكري والإيديولوجي الذي حرك "أصحاب" تلك الروايات للتركيز على سبب معين لكونه يعطي للآية دلالة خاصة تخدم ما يريدون تكريسه في وقت من الأوقات كرأي للشريعة. في هذه الحالة تعطي روايات "أسباب النزول" الجواب، لا عن أسئلة طرحت قبل أو حين نزول هذه الآية أو تلك، بل عن أسئلة حاضر "الراوي". والراوي الحقيقي في هذه الحالة قد يكون ذلك الذي ينتهي إليه السند

في الماضي (زمن الرسول والصحابة)، كما قد يكون أحد الرواة الذين تتكون منهم حلقات سلسة السند، ابتداء من الحلقة التي تنتمي إلى "الحاضر"، حاضر جامع أو "واضع" هذا السند. وفي كلتا الحالتين يكون الدافع الإيديولوجي (المذهب الديني، الانتماء السياسي الخ) هو المحرك والموجه. وإلى ذلك لا بد من أن ندخل في حسابنا هنا الجانب الشخصي. فالانتظام في سلسلة الرواة، سواء في مجال الحديث والتفسير أو مجال اللغة والأدب والقصص، مطمح كل من يسعى إلى الشهرة وتخليد الاسم. والسبيل إلى هذا الانتظام هو التقليد، وذلك بإعادة إنتاج نفس "سبب النزول" في قالب آخر ربما "خدمة لقضية"، وربما رغبة في الشهرة. والمسافة الزمنية بين زمن النزول وزمن تدوين روايات أسبابه، مسافة طويلة تسمح بهذا النوع من إعادة إنتاج "نفس السبب" في قالب قصصي آخر.

ومن هنا نرى ضرورة عدم الاقتصار على ما تعطيه روايات "أسباب النزول" مهما كان سندها. فنقد السند هنا لا يكفي في بناء مصداقيتها، بل لابد من التعامل معها بنظرة نقدية. إن المصداقية في هذا المجال تتحدد في نظرنا بثلاثة عناصر :

الأول: عدم تعارض المعنى الذي يعطيه ما يعتبر "سببا" لنزول آية معينة مع المعنى الذي يقبله السياق الذي تندرج تحته تلك الآية. إن "أسباب النزول"، كما هي مدونة في التفاسير أو في الكتب الخاصة بها أو في كتب "علوم القرآن"، تحمل الباحث الناقد على الشك في مصداقية كثير منها، خصوصا عندما تبتعد بالآيات عن سياقها إلى الدرجة التي تحمل على التساؤل عن الهدف من "أسباب النزول": هل هو ربط كل آية بحادثة تبرر سبب نزولها، أم بيان المناسبات التي تشكل فعلا سببا لنزول هذه الآية أو تلك؟ وليس من سبيل للخروج من هذا الإشكال غير اعتبار أولية سياق الآيات وعدم الاعتداء عليه بانتزاع جزء منه والتعامل معه تحت مظلة "أسباب النزول"...

الثاني: التوافق مع ترتيب النزول ومع مسار السيرة النبوية. إن مراعاة "ترتيب نزول السور" قد يساعد كثيرا على التغلب على هذه المسألة، خصوصا وهناك سور معروفة نزلت مرة واحدة، فضلا عن ارتباط مضمون بعض الآيات بحوادث وقعت في أوقات معلومة.

الثالث: التوافق مع معهود العرب، الاجتماعي الاقتصادي والفكر والحضاري.

ونحن نعتقد أن التزامنا بهذه الشروط قد مكننا من فهم موضوعي لكثير من الآيات التي كانت منذ بدء التفسير إلى اليوم موضوعا لإشكالات، أو مجالا للضباب الغفلة والنسيان. ولعل ما قمنا به هنا من ربط سورة المائدة بظروف "عمرة القضاء"، الشيء الذي مكننا من بناء فهم متماسك لفقراتها ومضمونها وإيحاءاتها، قد بين فعلا أن هناك معقولية واضحة ومقبولة في ربط السورة بظروف هذه العمرة، لا نجدها لها سبيلا لو ربطناها بحجة الوداع كما ذهب إلى ذلك المفسرون، اعتمادا على مرويات لا يقبلها لاوضع السورة العام ولا مضمونها ولا إيحاءاتها.

هذا جانب، وهناك جانب آخر نريد أن نعري عنه بممارسة نو من النقد على المرويات التي تتحدث عن مراحل تحريم الخمر. خاصة المرحلة الأخيرة منها التي وردت في هذه السورة (الآية 219).

نبدأ أولا بالإشارة إلى ذكر الخمر في القرآن المكي - والقرآن المكي في جملته قرآن دعوة وليس قرآن تشريع. لقد ورد ذكر الخمر فيه بالاسم في سورة يوسف، حكاية عن فتى كان معه في السجن، قال إنه رأى في المنام أنه يعصر "خمرا"، ففسر له يوسف ذلك الحلم بكونه سيسقى سيده "خمرا"، أي سيخرج من السجن (يوسف 36). كما وردت الإشارة إليها، ولكن دون ذكر اسمها، في سياق تعداد نعم الله على الناس في قوله تعالى: "وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ [ما] تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (النحل 67). والمعنى أن الله أنعم عليكم بثمرات النخيل والعنب : ومن تلك الثمرات ما تتخذون منه ما يسكر بفعل التخمير (كالتمر والعنب)، ومنها ما تأكلونه في حالته الطبيعية رزقا حسنا : تمرا وعنبا. وكان الصحابة آنذاك، يشربون الخمر، إذ كان حكمها ما يزال على الإباحة. أما في القرآن المدني فقد ذكرت الخمر في عدة آيات، منها واحدة تتحدث عن الخمر بوصفها "لذة للشاربين" (محمد 15) (وهي غير مسكرة)، وذلك في إطار تعداد نِعم الجنة.

وما يهمنا هنا هي الآيات التي نزلت في تحريم الخمر وهي أربعة حرص المهتمون بـ "أسباب النزول" على إيراد روايات وقصص عن وقائع ونوازل يقولون إنها جاءت تلك الآيات استجابة لها نوعا من الاستجابة، أي كأسباب نزول. وهذه الآيات كما يلي حسب ترتيب نزولها:

أ- الآية الأولى: تذكر روايات عديدة، تزكيها الآية التي تعنينا هنا، أن النبي عليه السلام لما هاجر إلى المدينة سأله أهلها عن الخمر، هل هي حلال أم حرام،

-وقد سألوه من قبل ومن بعد عن أشياء كثيرة- فنزل قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ (القمار)، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة 219). وفي رواية أنهم قالوا : "يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم"، بمعنى : دعنا نستفيد من جانب المنفعة فيها، فتركهم. ولكن لما يتجنوا جانب الإثم فيها، نزلت فيها الآية التالية.

ب- الآية الثانية: في رواية ذكرها أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذتِ الخمرُ منا، وحضرتْ الصلاةُ فقدموني (ليَؤمَّ بهم) فقرأت : "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون"، فأنزل الله: "يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون ..." (النساء 43)". (السيوطي اللباب، الطبري الخ). "فقالوا : يا رسول الله لا نشربها عند اقتراب وقت الصلاة، فسكت عنهم.

ج- الآية الثالثة: تذكر الروايات عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: "فيَّ نزل تحريم الخمر: صنع رجل من الأنصار طعاما، فدعانا فأتاه ناس، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر، فتفاخروا : فقالت الأنصار: الأنصار خيرٌ، وقالت قريش: قريش خير. فأهوى رجل بلحي جزور (فك الذبيحة) فضرب على أنفي ففزره (شقه)"، قال: "فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" (المائدة 90-91).

هناك روايات أخرى عن سبب تحريم الخمر في الآية السابقة، منها أنَّ عليا بن أبي طالب وجد ذات يوم ناقة له قد أُبْقِرت وقُطع سنمُها وأُخِذ من أكبادها. فلما سأل عمَّن فعل بها ذلك قالوا له: حمزة (عمه). فذهب وأخبر الرسول عليه السلام بالحادث وبوجود حمزة في بيت شراب يشرب مع رفاق له. فانطلق الرسول عليه السلام حتى جاء البيت الذي فيه حمزة "فإذا هو ثمل محمرة عيناه، فقال (حمزة): "وهل أنتم إلا عبيد لأبي، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى". "وكانت هذه القصة من الأسباب الموجبة لنزول تحريم الخمر" (البخاري). وفي رواية أخرى أن عبد الله بن عمر قال : "إن هذه الآية التي في القرآن "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" هي في التوراة، هكذا: "إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب (لعب القمار) والزفن (الرقص) والمزامير والكبارات، يعني البرابط (من آلات الملاهي)، والزمارات، يعني الدف، والطنابير والشعر والخمر مرة لمن طعمها، وأقسم ربي بيمينه وعزة حيله لا يشربها عبد بعدما حرمتها عليه إلا عطشته يوم القيامة، ولا يدعها بعد ما حرمتها إلا سقيته إياها من حظيرة القدس". (قلت، الجابري): وقد ورد هذا المعنى – تقريبا– في "سفر إشَعْيَاء").

د- الآية الرابعة: في رواية عن أنس بن مالك، قال: "بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجرّاح ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبي دجانة، حتى مالت رءوسهم من خليط بسر (تمر قبل النضج) وتمر، فسمعنا مناديا ينادي: ألا إن الخمر قد حرّمت! قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال. وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا فأصبنا من طيب أمّ سليم ثم خرجنا إلى المسجد، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقرأ: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ". إلى قوله: "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ".

وتضيف الرواية: "فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة من مات منا وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة 93). وتذكر المصادر روايات أخرى للسؤال نفسه، بصيغ متقاربة، بوصفه سبب نزول الآية المذكورة. والمبدأ في الإسلام، في مجال الحلال والحرام، هو ما روي عنه عليه السلام من "أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد الشرع بخلاف ذلك". فشرب الخمر قبل نزول آية تحريمها كان حلالا. وقد خص الله نبيه الكريم بوضع خاص في هذا الشأن فبشره بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (الفتح 2). (انظر مزيدا من التفاصيل والروايات حول تحريم الخمر في كتب التفسير مثل تفسير الطبري وتفسير ابن كثير وكتب الحديث).

هناك رواية أخرى عن عمر بن الخطاب تستغني عن ما ذكر في الروايات الأخيرة، فقد روي عنه أنه قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزل :

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة 219). ولما قرئت عليه هذه الآية، فقال: "اللهم بين لنا من الخمر بياناً شافياً"، (يقصد حكما واضحا جازما، إما بالتحليل وإما بالتحريم)، فنزل قوله تعالى: "يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَقرَبوا الصَلاةَ وَأَنتُم سُكارى" (النساء 34)، ولما قرئت عليه فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً"، فنزلت هذه الآية "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ..." (المائدة 90-91)، فدُعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ القارئ: "فَهَل أَنتُم مُنتَهونَ"؟ قال عمر: انتهينا".

ما يلفت الانتباه في هذه الرواية هو أنها تجعل الروايات التي أوردناها قبل غير ذات موضوع. ومع ذلك فهذه الرواية كسابقاتها تقيم تطابقا زمنيا ومنطقيا بين ما تذكره كـ"أسباب نزول"، وبين الترتيب الذي وردت به الآيات التي تحدثت عن الخمر. ومثل هذا التطابق يثير بعض الشكوك، على الأقل من حيث إن منطق الواقع لا يتماشى دائما مع منطق العقل. أما إقحام ردود فعل الذين طلبوا السماح لهم بمواصلة شربها في المرة الأولى من أجل النفع الذي فيها، ليطلبوا في المرة الثانية السماح لهم بشربها قبل اقتراب موعد الصلوات، وليثيروا في المرة الثالثة منزلة من مات مؤمنا وكان يشربها قبل تحريمها، ثم قيام بعضهم، في رواية أخرى، بربط جميع مراحل تحريم الخمر بردود فعل عمر بن الخطاب... أقول إن ذلك التطابق المزعوم، يشكل اعتداء على بنية الآيات التي كانت ردود الفعل المذكورة سببا في نزولها، حسب زعمهم، فضلا عن تمزيق السياق العام الذي تندرج تحته تلك الآيات.

إن الترتيب الذي وردت عليه تلك الردود لا يستقيم إلا إذا كانت تلك الآيات تنتمي جميعا إلى "لحظة" واحدة. هذا في حين أن سورة البقرة التي تضم الآية الأولى نزلت ما بين السنة الأولى والثانية. وما ذكروه حول سبب نزول تلك الآية من كونها نزلت بعد الهجرة وأن السؤال عن حكم الخمر كان نتيجة ملاحظة تفشي شرب الخمر بالمدينة، يوحي بأن تلك الآية نزلت في أوائل الهجرة، في السنة الثالثة على أكبر تقدير. أما سورة النساء التي تضم الآية الثانية (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقد نزلت بعد ذلك بسنوات، ما بين الخامسة والسادسة. وأما سورة المائدة فهي من أواخر السور، وهناك من يعتبرها آخر ما نزل. لكن المرجح أنها نزلت كما قلنا في السنة السابعة.

وإذا نحن وضعنا بين قوسين روايات "أسباب النزول" واتجهنا إلى الآيات التي تتعلق بالخمر وسياقاتها فإننا سنلاحظ ما يلي:

1- وردت الآية الأولى ضمن جملة أسئلة طرحت على النبي عليه السلام بصورة متتابعة وفي سياق واحد فجاء الجواب على كل منها في حينه، وبصيغة "قل". قال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ..."، "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلِ الْعَفْوَ..."، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ..."، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ..." (البقرة 222)، يلي ذلك حكم الأيمان (القسَم) والطلاق والرضاعة الخ. وهذه الآيات التي وردت متتابعة تنتمي إلى سياق عام واحد موضوعه التشريع في عدة أمور، يبتدئ من قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ..." (آية 168) إلى آيات "يسألونك... قل" والتي تليها. إلى قوله تعالى : " كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (242). وواضح أن معنى آياته هنا: شريعته. وهكذا نرى أن ما ذكر من أسباب لنزول قوله تعالى : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"، لا يتوافق مع السياق من حيث أن "الأسباب" لا يكون لها تأثير ولا فائدة إلا إذا عزلنا هذه الآية عن سياقها واعتبرناها مستقلة بنفسها. أما إذا اعتبرنا السياق واكتفينا به فإن المعنى سيكون أوضح، وخال من أي تشويش. والشيء نفسه يمكن قوله بشأن الآية الثانية.

2- ذلك أن جميع الروايات التي اطلعنا عليها والتي تقدم "أسبابا" لنزول قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ..." لا تستقيم إلا إذا سلخنا هذا المقطع من جملة الآية التي يقع ضمنها، واعتبرناه مستقلا ومنفصلا عما بعده. ذلك أن نص الآية كاملة هو: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (النساء 43). وواضح أن سياق هذه الآية متصل متلاحم وأنه لا يمكن عزل "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ..." عنه أو فيه، وإلا استحال فهم ما بعدها. إن شرح معنى الآية كاملة يقتضي عبارة واحدة متصلة كقولنا: يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوا الصلاة وأنتم على جنابة ولا تقربوا المصلى (المسجد) حتى تغتسلوا إلا إذا كنتم مارين به مجرد مرور، وفي حالة ما إذا كان بكم مرض يتضرر بالماء (كالجرح)، أو كنتم على

سفر، أو جاء أحدكم من الغائط، أو جامعتم زوجاتكم، ولم تجدوا الماء لتغتسلوا، فتيمموا حجرا نظيفا فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُمْ... ثم صلوا. وواضح أنه لا مكان هنا لروايات أساب النزول المذكورة.

3- أما الآية الثالثة، وهي قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة 90). فهي تقع، هي الأخرى، ضمن سياق تستقل به عن "أسباب النزول" التي رويت في شأنها، وهو سياق تشريعي واحد وطويل يبدأ بقوله تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (المائدة 87)، يلي ذلك ما يتعلق بالأيمان (جمع يمين) والكفارة الواجبة فيها، ثم الحكم على الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها "رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ" يجب اجتنابه، خصوصا والخمر والميسر يبعثان على الشجار والعداوة والبغضاء ويصرفان عن الصلاة، يلي ذلك "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا". وهذا استثناء يخص من شربها من المسلمين قبل تحريمها. وهذا النوع من الاستثناء يعم جميع الأحكام التي وردت في السياق العام الذي تندرج تحته آية تحريم الخمر والذي يبدأ من الآية 78 إلى آخر السورة (آية 120)، ويشتمل على عدة أحكام نتبين في كل حكم منها جانبين : الأول التحليل أو التحريم أو ما في معناهما، والثاني استثناء أو استدراك وتوضيح، تماما كما هو الحال في الخمر: تحريمها ثم مباشرة بيان حكم من كان يشربها من المؤمنين ومات قبل التحريم، الشيء الذي لا يدع مجالا للبس ولا يترك زمانا لردود فعل ولا لطرح أسئلة من النوع الذي ذكرته روايات "أسباب النزول". إن هذا السياق الذي حددناه كإطار للآية التي أمرت باجتناب الخمر والميسر والأزلام الخ، والذي قلنا إنه يبدأ بالآية 78، أي بقوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" ، وينتهي مع انتهاء السورة، يدل على أن المسلمين، أو بعضهم، كانوا يحرمون على أنفسهم "الطيبات" كالزينة ولذات الأكل والشرب والجماع مما لم يحرمه الله. وهذا يدل على أن آيات تحريم الخمر جزء من كل، وبالتالي فما حكي من روايات كـ "أسباب لنزولها" لا تستقيم معها.

يبقى بعد ذلك تحديد فائدة روايات أسباب النزول عموما.

ركزنا في نظرتنا النقدية لروايات "أسباب النزول" على إبراز كون تلك الروايات تتعارض، أو على الأقل، لا تحترم بالقدر الكافي، سياق الآيات، كما بينا أنه يمكن الاستغناء عن تلك الروايات أصلا، فهل يمكن ذلك؟

بالنسبة للفقهاء والأصوليين تبدو أسباب النزول ضرورية -على الأقل في نظر معظمهم- في مجال الأحكام، باعتبار أن القرآن نزل منجما مفرقا حسب مقتضى الأحوال الخ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فخطاب الشرع (قرآنا وحديثا) يأتي عادة في مثل هذه الأحوال على صيغة العموم وبالتالي فإن الفائدة الأولى، وربما الأهم، التي يجنيها الفقيه منها أو الأصولي، هي أنها تساعده على بناء نوع من العلاقة بين عموم الخطاب وخصوص السبب.

ذلك أن العلاقة بين العام والخاص، وبعبارة أخرى بين الكلي والجزئي، لا تتحدد فقط بما يمكن أن يُرجع فيه إلى العقل والمنطق، بل قد تحتاج إلى معرفة "الأسباب" أي الوقائع الجزئية التي اقترن بها الخطاب. ذلك لأن المنهج الذي يعتمده الإنسان بكيفية آلية، كيفما كان مستواه الفكري، في عملية الانتقال بفكره من الجزئي إلى الكلي هو القياس، وهو الاستدلال بالمعلوم لديه على المجهول. وهذا المنهج الذي سلكه القرآن في البيان والبرهان، مستعملا ضرب الأمثال والقصص ودعوة الإنسان إلى التفكر والتدبر فيما هو مشاهد لديه لاكتساب معرفة أو عبرة، بما هو وراء ما يشاهده، ويتيقن به عن طريق الحس والخبرة، أقول هذا المنهج هو الذي قامت عليه العلوم العربية الإسلامية، خصوصا في مجال اللغة والفقه والكلام. لقد ترسم هذا المنهج في الفقه خاصة مع قيام علم أصول الفقه، وهو علم منهجي، من أركانه الأساسية مبحث القياس. وسرعان ما تحول "القياس" من مبحث منهجي، إلى أصل من أصول التشريع في الإسلام. وبما أن القياس (قياس شيء على شيء، وفي الفقه قياس ما لم يرد فيه نص أي المستجدات على العموم، على ورد فيه نص) فإن القيام بهذه العملية يحتاج إلى معرفة "النازلة" التي ورد فيه نص لتحديد طبيعتها بالصورة التي تمكن من إبراز معقولة قياس هذا المستجد من "النوازل" أو ذاك، أو عدم معقوليته.

ففي مثال تحريم الخمر طرحت مسألة النبيذ، هل يطبق عليه حكم التحريم أم لا. ذلك لأن "الخمر" في معناه اللغوي هو من عصير العنب، وفي هذا المعنى ورد في القرآن. أما في روايات أسباب النزول التي ذكرت حول تحريم الخمر فقد وصفت الخمر -كما رأينا في بعضها- على أنها مصنوعة من التمر (خليط تمر غير ناضج مع تمر ناضج)، فهل يجوز قياس النبيذ على الخمر مع اختلاف أصل

كل منهما؟ كان هناك من لم يقل بتحريمه (ينسب ذلك إلى أبي حنيفة) لهذا السبب.
ولما طرحت الغاية من تحريم الخمر كان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى قوله تعلى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" (النساء 43)، الشيء الذي يفهم منه أن السبب في النهي عن شرب الخمر هو أنها تسكر وتفقد الإنسان القدرة على التحكم في ما يقول. ولما طرحت مسألة كون النبيذ لا يسكر منه القدر الذي يسكر من الخمر كان الجواب: لما كان السبب في تحريم الخمر هو أنها تسكر، مع أن القليل منها لا يسكر، استخلص الفقهاء من ذلك قاعدة أصولية اجتهادية تقول "ما يسكر قليله فكثيره حرام"، وقد التمس لها بعضهم سندا من المرويات.

من هذا العرض السريع نلاحظ أن التفكير الفقهي انتقل من روايات "أسباب النزول" كمرجع أول برهن على أنه وحده لا يكفي، إلى مقاصد الشرع، كمرجع ثان مكمل، برهن على أنه أقدر على توفير الحلول للمسائل المستجدة. ذلك لأن أفق المقاصد رحب واسع بينما أفق القياس ضيق لكونه محدودا بحدود النوازل الماضية، لأن القياس أصلا هو "قياس على مثال سبق". وإذا كان الأمر كذلك، وهو بالفعل كذلك، فلماذا لا نعتمد أولا وأخيرا على مقاصد الشرع؟ هذا ما ذهب إليه الشاطبي وفقهاء آخرون.

ومع ذلك فلا أحد ينكر خلو روايات أسباب النزول من الفائدة، ذلك أنه إذا كانت فائدتها قليلة في مجال التشريع (مجال الأحكام)، وفيها ما ذكرنا بصدد مكامن الطعن فيها مثل ضعف السند وسهولة الوضع والزيادة والنقصان والاهتمام بالغريب العجيب وانتزاع آيات أو أجزاء منها من السياق الذي يعطيها معنى والإطار العام الذي تندرج تحته، إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه من ضيق مجال تطبيقها وضرورة اللجوء إلى الاستعانة بمقاصد الشرع الخ، أقول : ومع مكامن الطعن تلك وهي خاصة بمجال التشريع، فإن فائدتها في مجال "فهم القرآن"، مجال التفسير بكيفية عامة، لا يمكن نكرانها.

ذلك أن استحضار معهود العرب ضروري في هذا المجال، وفي مجال التشريع كذلك. وروايات أسباب النزول، تزودنا بعناصر كثيرة من هذا المعهود. فهي من هذه الناحية أحق بأن تعتمد في تصور معهود العرب من المصادر الأخرى، كالشعر وأساطير القصاص والموروث الأدبي عامة التي يأتي عنصر التخييل فيها أوسع وأكثر "حرية" منه في روايات "أسباب النزول". إن "أسباب النزول" من هذه الناحية جزء لا يتجزأ من "التاريخ" كما كان يكتب في الثقافة

العربية الإسلامية منذ بداية الكتابة فيه إلى العصر الحديث. وحتى أولئك الذين انتقدوا تساهل المؤرخين في مجال معقولية الأخبار التي يوردونها مثل ابن خلدون، لم يستطيعوا تجاوز مرحلة النقد إلى مرحلة التطبيق في مؤلفاتهم التاريخية.

وكمثال على ذلك نشير إلى الروايات التي أوردناها سابقا بصدد تحريم الخمر. إنها من ناحية التاريخ الاجتماعي مفيدة كثيرا في الاطلاع على بعض مظاهر الوضع الاجتماعي والفكري في محيط النبي عليه السلام، الشيء الذي من شأنه أن يساعد على فهم أفضل للظروف التي كان يتم فيها الانتقال من حال "الجاهلية" التي تتسم بغياب الدولة وسيادة الأعراف إلى حال الإسلام الذي بنى دولة على أساس عقيدة وشريعة. كما أنها مفيدة من حيث أن كثيرا منها يكشف عن مدى ارتباط القرآن بالواقع الإنساني، مما يؤكد ما سبق أن أبرزناه من أهمية المعرفة بأسباب النزول في مجال استحضار معهود العرب لفهم آياته وأحكامه، الشيء الذي قد يمنع من توظيف آيات الذكر الحكيم في شأن من الشؤون، كالإفتاء والتفسير والوعظ الخ، توظيفا يخرج بها عن "أسباب نزولها" ودلالتها ومقاصدها.

113- سورة التوبة

- تقديم

كانت هزيمة الأحزاب في "غزوة الخندق" نقطة تحول عميق في الصراع بين الرسول ومشركي مكة. لقد بدأ هؤلاء يدركون أن مسلسل هذا الصراع سينتهي بانتصار الرسول، عليه السلام، ومن ثمة بدأ بعض رجالهم -وهم تجار- يفكرون في تدشين مسلسل من الاتصال مع الرسول تمهيدا لإيجاد حل يحفظ ما وجههم ويبقي على مصالحهم. لقد أخذوا إذن في مراجعة حساباتهم.

وفي هذا الصدد حكى عمرو بن العاص، وكان يوم الخندق في صفوف قريش، أنه بعد عودته إلى مكة جمع رجالا من قريش وقال لهم : "تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وإني قد رأيت... أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي... وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا الخير"، فوافقوا وذهبوا إلى النجاشي يحملون الهدايا، غير أن هذا الأخير أقنع عمرو بن العاص بالإسلام -فيما يحكي هذا عن نفسه- فعاد قاصدا رسول الله (ص) في المدينة والتقى في الطريق خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فسأله إلى أين فأجابه خالد: "والله قد استقام المنسم" (تبين الطريق). لقد قرر هو الآخر الدخول في الإسلام، فذهبا معا إلى النبي (ص) للمدينة وأعلنا إسلامهما.

والواقع أن فشل تحالف "الأحزاب" (قريش وغطفان وبني سليم ...)، الذي كان يضم عشرة آلاف مقاتل، كان انتصارا للمسلمين لا يعدله إلا انتصارهم يوم بدر. لقد تبين لقريش بعد فشل "الأحزاب" أن القضاء على محمد وأصحابه صار من شبه المستحيل. لقد أصبحت لهم اليوم دولة، وقوتهم المادية، رجالا وأموالا، في تزايد مستمر، وسمعتهم وسط القبائل العربية في ارتفاع وانتشار، ونفوذهم خارج المدينة يقوى يوما بعد يوم... وإذن فالتجارة، تجارة قريش إلى الشام، ستختنق بإحكام المسلمين السيطرة على الطرق، وهم جادون في ذلك، وقد سبق للرسول (ص) قبل حصار "الأحزاب" بنحو نصف سنة (السنة الخامسة للهجرة) أن

قاد غزوة على دومة الجندل، على نحو 500 ميل شمال المدينة ليعترض تجمعا لقضاعة وغسان كان يقصد الحجاز، وربما للسيطرة على خطوط المواصلات بين المدينة والشام. وإذن فلم يعد المسلمون يقطعون الطريق على تجارة قريش وحسب، مستفيدين من موقع المدينة، بل إنهم أصبحوا قادرين كذلك على التوغل شمالا والسيطرة على الطرق الأخرى، بما في ذلك تلك التي تمر عبر العراق والتي كان أبو سفيان قد حاول استعمالها، كما أشرنا قبل. وأمام هذه التطورات لم يكن أمام قريش إلا أن تراجع حساباتها، خصوصا وزعيمها أبو سفيان يتقن المزج بين الحسابات التجارية والحسابات السياسية.

أما المسلمون فقد كان طبيعيا أن يشعروا بقوتهم ويعملوا على تكثيف الضغط على قريش بكل الوسائل، بما في ذلك الوسائل السلمية. وكان الوحي قد نزل عقب انتصار المسلمين في بدر يوصيهم باستعمال السلاحين معا : سلاح الحرب وسلاح السلم : "أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل... وإن جنحوا للسلم فاجنح لها... " (الأنفال 60-61). بالفعل جمع النبي (ص) في خطته بين الأمرين في صلح الحديبية الذي عقده مع قريش في السنة الموالية : السنة السادسة للهجرة. فقد خرج قاصدا مكة "يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا وساق معه الهدايا: سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل". وسمعت قريش بالخبر فأخذت تستعد لمنعه من دخول مكة، فلما سمع بذلك قال : "ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم أعلو قاتلوا وبهم قوة" (ابن إسحاق). ولا شك أن هذه كانت "رسالة" إلى قريش، ولا شك أنها قد تلقتها. إن الاتجاه الآن ليس إلى الملأ من قريش فقد انتهى أمرهم أو كاد، بل الاتجاه إلى المستقبل، إلى "سائر العرب". فلماذا لا ينضم إلى الإسلام من بقي من قريش للعمل جميعا على دخول "العرب" في الإسلام، وتحت قيادتهم ؟

لم يكن من المنتظر أن تستجيب قريش لمضمون هذه "الرسالة" بين عشية وضحاها، فالحلول السياسية تمر دوما عبر مراحل ووسائط : بدأت الوساطة أولا. رجال من خزاعة، وخزاعة من اليمن وهم حلفاء تاريخيون لبني هاشم، جاءوا النبي "فكلموه وسألوه ما الذي جاء به إلى الحديبية؟ فاخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته"! وهل كانت قريش تدافع عن شيء آخر غير "حرمة البيت"، من منظورها التجاري طبعا؟ ألا يعني حج المسلمين، ثم العرب جميعا عندما يسلمون، إلى مكة، أن عائدات قريش من الحج والتجارة لن

ينالها مكروه بل ربما تزداد؟ خواطر لا بد أن تكون قد جالت في ذهن أبي سفيان. ولكن الاستسلام بدون مقدمات غير ممكن، إذ لا بد من انقاذ ماء الوجه. وهكذا كان : لقد جاء رجال خزاعة الوسطاء إلى مكة وخاطبوا أهلها قائلين : "يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد. إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت". فكان مما جاء في جواب قريش : "إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدَّث بذلك عنا العرب". ومعنى ذلك أنه لا بد من المفاوضة والصلح. فكان صلح الحديبية!

بعد صلح الحديبية مباشرة قام النبي بمبادرة ذات دلالة سياسية، على صعيد "القبيلة" فبعث إلى الحبشة من يخطب له أم حبيبة بنت أبى سفيان، وكانت قد هاجرت إليها مع زوجها الذي توفي عنها هناك. ويبارك القرآن هذه البادرة بقوله تعالى : "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة... " (الممتحنة 60). وهكذا "تزوج رسول الله (ص) أم حبيبة فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة"، وقال عن النبي (ص) عندما علم بالأمر: "ذلك الفحل لا يقدع أنفه" (الزمخشري).

مرت سنتان بين صلح الحديبية وفتح مكة قام النبي خلالهما (في السنة السابعة للهجرة) بـــ "عمرة القضاء"، العمرة التي نص عليها الصلح، فأقام في مكة ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة. وخلال الفترة نفسها جهز النبي (ص) ما لا يقل عن 17 غزوة وسرية. وباستثناء غزوة خيبر فإن جميع هذه الحملات كانت موجهة ضد القبائل البدوية، إما تأديبا لها أو من أجل حملها على الإسلام، أو من أجل ضمان الأمن في الطريق التجارية من المدينة والشام، مما وسع من نفوذ الإسلام.

أما "خيبر" فكانت عبارة عن تجمع سكني محصن لليهود يقع خارج المدينة. وبما أن علاقاتهم مع المسلمين لم تكن مستقرة ولا خالصة فقد رأى النبي (ص) أن ينهي المشكلة معهم، مباشرة بعد عودته من الحديبية. فخرج في السنة السابعة للهجرة إلى حصون خيبر ففتحها واحدا بعد الآخر بعد حصار، فطلب أهلها من الرسول "أن يسيرهم (= ينفيهم) وأن يحقن دماءهم ففعل. وكان رسول الله (ص) قد حاز أموالهم كلها من جميع الحصون. فلما سمع بهم يهود "فدك" قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله (ص) يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله (ص) أن يعاملهم في الأموال (الأرض) على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم

وأعمر لها (=زرعها ورعاية نخلها)، فصالحهم رسول الله (ص) على النصف، على أنا (نحن المسلمين) إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل "فدك"، على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئا للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله (ص)، لأنهم (المسلمون) لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب". "وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله (ص) ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم. ثم قسم رسول الله (ص) الكتيبة وهي واد خلّص بين قرابته وبين نسائه وبين رجال المسلمين ونساء أعطاهم منها" لكل منهم عدد معين من الأوساق من "قمح وشعير وتمر وغير ذلك، قسمه على قدر حاجتهم، وكانت الحاجة في بني عبد المطلب أكثر، ولهذا أعطاهم أكثر" (ابن إسحق)..

وحدث في هذه الأثناء (ما بين صلح الحديبية وفتح مكة) أن اعتدت قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة، وكانت الأولى حليفة لقريش والثانية حليفة للمسلمين، وقد تم هذا التحالف على هامش اجتماع الحديبية، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين بعد أن أيدت قريش حليفتها بني بكر. وخافت قريش أن يعتبر النبي (ص) ذلك خرقا لمعاهدة الحديبية فيهاجم مكة، فانتدبت أبا سفيان -وقد أصبح الآن صهرا للنبي- ليعتذر له باسم قريش، فجاء المدينة وقصد بيت ابنته أم حبيبة زوجة النبي (ص). ثم اتصل بأبي بكر ثم بعمر وعلي يطلب التدخل لدى الرسول (ص). وأخيرا رجع إلى مكة بينما أمر رسول الله (ص) بالاستعداد للسير إلى مكة. ولما استكمل التجهيز مضى في عشرة آلاف من المسلمين. وعندما بدأ يقترب منها خرج للقائه عمه العباس الذي لم يغادر مكة قط إلا عندما خرج مع قريش إلى بدر، فأُسر وأفدى نفسه بالمال وعاد إلى تجارته بمكة دون أن يعلن عن إسلامه، خرج العباس إذن ليلتقي برسول الله (ص) وجيشه في الطريق. أما زعيم قريش، أبو سفيان، فقد خرج هو الآخر إلى ضواحي مكة مع رفقة له "يتحسسون الأخبار وإذا به يلتقي بالعباس الذي كان عائدا على بغلة الرسول في اتجاه مكة وكأنه كان معه على موعد. ركب أبو سفيان مع العباس على بغلة رسول الله (ص) قاصدا النبي ليعلن له عن إسلامه. ويتم ذلك بالفعل، ويقول العباس للنبي : "يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحبّب هذا الفخر فاجعل له شيئا. قال : نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن".

ثم أمر الرسول (ص) بتنظيم استعراض لجيوش المسلمين أمام أبي سفيان فأخذت الكتائب تمر أمامه الواحدة بعد الأخرى. وعندما انتهى الاستعراض التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له : "والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك

الغداة عظيما"، فرد عليه العباس. "يا أبا سفيان : إنها النبوة". فقال أبو سفيان : "نعم إذن!". ثم قال له العباس أسرع إلى قومك وأخبرهم بما حصل. فأسرع أبو سفيان إلى قومه بمكة "حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة -وكان أبوها قد قتل يوم بدر- فأخذت بشاربه فقالت : "اقتلوا الحمِّيت الدسم الأحمس (= السمين الغليظ)، قُبِّح من طليعة القوم. قال أبو سفيان لقومه : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد". ودخل النبي وجيشه مكة وكان "يوم النصر". واجتمع أهل مكة حوله وخطب فيهم : "ما ترون أني فاعل بكم"؟ قالوا : "أخ كريم وابن أخ كريم". قال : "اذهبوا فانتم الطلقاء". وأمر النبي بتكسير الأصنام فكسرت. وبما أنه منع استباحة مكة وسبي أموالها، الشيء الذي يحرم جيشه من الغنيمة، فقد عمد إلى اقتراض مبالغ من أصحاب الأموال من تجار مكة ووزعها على الفقراء من جيشه تعويضا لهم عن الغنيمة.

ثم بعث النبي السرايا إلى ما حول مكة تدعو إلى الإسلام. وكانت قبائل هوازن وثقيف تحشدان الحشود غير بعيد من مكة لشن الهجوم عليها بعد أن استسلمت للرسول (ص). وكانت هاتان القبيلتان تنافسان قريشا في التجارة فطمعتا في الحلول محلها. وهكذا خرج النبي بجيشه، بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين "الطلقاء" بمن فيهم أبو سفيان، وعسكر بمكان بين مكة والطائف يقال له حُنين (في السنة الثامنة للهجرة) واشتبك مع حشود هوازن وثقيف، ومالت الكفة لصالح هؤلاء في أول الأمر، ثم عادت لتنتهي المعركة بانتصار المسلمين، فأمر الرسول (ص) بجمع الغنائم، وأرجأ توزيعها إلى حين الانتهاء من تعقب الفارين. كانت الغنائم كثيرة : عدد كبير من النساء والذراري وستة آلاف بعير وما لا يحصى من الغنم. فخير الرسول المنهزمين بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا الأبناء والنساء فأطلقهم، ووزع الأموال على المهاجرين والمسلمين الجدد دون الأنصار فكان نصيب الواحد أربعة من الإبل وأربعين شاة، ومن كان فارسا أخذ سهم فرسه أيضا. كل ذلك من الأخماس الأربعة المخصصة للمقاتلين[1].

---

[1] - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 173

ولا بد من الإشارة هنا إلى بعض جوانب الضعف التي بدأت تظهر في صفوف المسلمين نتيجة هذه التطورات، خصوصا منها كثرة الغنائم ودخول الناس في الإسلام جملة ولم يكن ثمة متسع من الوقت يسمح بالارتفاع بإسلامهم السياسي الحربي إلى مستوى إسلام العقيدة والإيمان. من نقاط الضعف تلك ما يحكى من أنه لما فرغ رسول الله (ص) من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، الإبل والغنم، حتى ألجأوه إلى شجرة فاختطفت الشجرة عنه رداءه. فقال : ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعما لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا "[2]. وعندما وزع الرسول (ص) الغنائم وأعطى للمسلمين الجدد "المؤلفة قلوبهم"، كان نصيب "عباس بن مرداس السلمي أباعر، فتسخطها وعاب فيها رسول الله -في أبيات من الشعر- فقال رسول الله (ص) أذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فزادوه حتى رضي فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به". ثم أخذ الرسول من الخمس المقرر لله والرسول الخ، هدايا خص بها "أشراف العرب" من المسلمين الجدد فأعطى أبا سفيان مائة بعير (وقيل ثلاثمائة)، وأعطى يزيد ابنه مائة وأعطى لمعاوية ابنه كذلك مائة وهكذا، فبلغ ما وزعه على "المؤلفة قلوبهم" أزيد من ألفي بعير.

ومن ذلك أيضا ما يحكى من أن رجلا من بني تميم يقال له ذو الخويصرة (واسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمي (الذي يجعله المؤرخون والمحدثون أول الخوارج؟) وقف على الرسول وهو يعطي الناس فقال : "يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال الرسول (ص): أجل، فكيف رأيت؟ فقال : لم أرك عدلت. فغضب النبي (ص) ثم قال: ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله، ألا أقتله. فقال : لا، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية" (ابن إسحاق). وفي هذا الإطار يحكى أيضا أنه : "لما أعطى رسول الله (ص) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار شيء منها، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة (= الكلام السيئ)، حتى قال قائلهم : لقد لقي رسول الله (ص) قومه! فدخل سعد بن عبادة (زعيم الأنصار) على الرسول فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في

---

2 - نفس المرجع، ج 2، ص 175، والبخاري ، ج4 ص 204. عالم الكتب. بيروت د-ت

أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال : أين أنت من ذلك يا سعد؟ قال يا رسول الله : ما أنا إلا من قومي. قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة"، فجمعهم وخطب فيهم رسول الله (ص) فذكرهم بسابقتهم وفضلهم وقال: "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (نعيم) من الدنيا فألَّفْتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... قالوا : رضينا رسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله (ص) وتفرقوا". وعاد الرسول إلى المدينة وسكت الأنصار راضين. ولكن "شيئا ما" في صدورهم سيفصح عن نفسه بمجرد ما يعلن عن وفاة النبي عندما سيجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار سعد بن عبادة زعيمهم خليفة للنبي (ص)، فربما فهموا من قول الرسول لهم : ما الأحسن لكم أن ترجعوا بالشياه والبعير أم برسول الله، واختيارهم الرسول ... أقول ربما فهموا من ذلك أن خلافة الرسول بعد وفاته تكون لهم!

تلك مظاهر من الضعف البشري ظهرت بمناسبة غنائم "حنين"، وهو شيء طبيعي تماما في مجتمع لم يمر عليه بعد من الوقت ما يكفي ليمتص سلبيات الحرب، ولكل حرب سلبياتها حتى في حال النصر، ولا ما يكفي ليتحول أولئك الذين أسلموا بالسيف أو بالخوف منه إلى "مؤمنين صادقين" وتحقيق الاندماج الاجتماعي والانسجام في الرؤية بين أعضاء مشروع "الأمة" التي كانت ما تزال في طور التكون : أمة "العقيدة" التي يراد منها أن تتجاوز "القبيلة" و"الغنيمة" وتعلو عليهما. إن أمة "العقيدة" التي تشكلت من "السابقين الأولين" في مكة، ثم من "المهاجرين والأنصار" بعد ذلك في المدينة، قد انتفخت بفعل "الفتح"، فتح مكة خاصة، فصارت تضم إضافة إلى "المنافقين" من أهل يثرب، جموعا غفيرة من المسلمين الجدد، فيهم المنافق والمتردد والمنبهر، هذا فضلا عن "الأعراب" الذين أسلموا ولم يتجاوز إسلامهم مرتبة الولاء السياسي السطحي. كان لا بد إذن من ظهور جوانب الضعف إذ لم يعد الغزو بدافع "العقيدة" وحدها، بل لقد غدا لدى كثير من المسلمين الجدد، إن لم نقل عند جلهم، يخضع لاعتبارات "القبيلة" و"الغنيمة" كما حدث في غزوة "الخندق" وشهدت به سورة "الأحزاب" وشجبته ونددت به، وكما حصل أيضا يوم حنين كما رأينا.

وتأتي غزوة "تبوك" (مدينة قديمة كانت تسمى تابو، وتقع شمال المدينة قريبا من الشام وكانت تحت سيطرة الروم البيزنطيين) لتكون هي الأخرى مناسبة

لظهور جوانب الضعف البشري بصورة أقوى مما حدث من قبل. إن الأمر يتعلق هذه المرة، لا بغزو داخلي، غزو قبيلة أو قبائل أو فتح مدينة أو حصار حصن. بل يتعلق الأمر هذه المرة بمواجهة دولة كبرى، دولة الروم البيزنطيين. ذلك أن فتح مكة لم يكن من الأحداث العادية التي كانت تجري في جزيرة العرب بين القبائل، بل كانت حدثا دوليا: فمكة كما بينا قبل مركز ديني وتجاري دولي، والدعوة المحمدية لم تعد مجرد دعوة بل لقد أصبحت دولة، وإذن فالطرق التجارية الدولية أصبحت مهددة في إحدى محطاتها الرئيسية، فكان من الطبيعي أن يأتي رد فعل الروم الذين تهمهم مكة كمحطة تجارية ضرورية. لقد جهز هرقل جيشا ضم إليه جموعا من القبائل العربية النازلة بالشام وفلسطين يريد اقتحام المدينة والقضاء على الدولة الجديدة في المهد.

ولما علم النبي (ص) بالخبر، ولم يكن قد مضى على رجوع المسلمين من حنين سوى بضة أشهر، قرر أن يأخذ المبادرة فيهاجم الروم قبل أن يهاجموه، فاستثقل الناس ذلك، وكان الوقت وقت صيف وجني الثمار "والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه. أضف إلى ذلك أن العرب كانت تخاف الروم والفرس وتتجنب الاصطدام معهما، خصوصا وذكرى غزوة "مؤتة" كانت ما تزال حية في النفوس: كان النبي قد بعث رسولا إلى هرقل فاعترضه أحد شيوخ القبائل في الشام وقتله، فجهز النبي جيشا من ثلاثة آلاف للثأر له، فكان من سوء حظ المسلمين أن وجدوا هرقل ينتظرهم في جيش كبير فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وقتل منهم عدد كبير، منهم قادته الثلاثة على التوالي، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، ولم ينقذ البقية الباقية من المسلمين إلا تدبير حربي قام به خالد بن الوليد مكنهم من الانسحاب إلى الصحراء والرجوع إلى المدينة.

كانت هذه الانتكاسة حية في النفوس عندما أمر الرسول (ص) بالاستعداد لحرب الروم، فكان ذلك مما حمل الكثير منهم على التقاعس والتماس الأعذار للتخلف عن الخروج. ولكن الرسول مضى في تجهيز الجيش وطلب من أصحابه "السابقين الأولين" المساهمة في النفقة عليه، وكانوا قد كسبوا أموالا بالغنائم والتجارة : ساهم أبو بكر بأربعة آلاف درهم، وعمر بن الخطاب بنصف أمواله، وتكفل عثمان بثلث نفقة الجيش كله، ويقال إنه أنفق ألف دينار[3]. ومضى الرسول

3 – الواقدي، كتاب المغازي، ج 3، ص 1 99.

(ص) على رأس هذا الجيش الذي عانى كثيرا في تجهيزه حتى سمي بـ "جيش العسرة". ويقال إنه كان يضم ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس[4]. ولكنه ما إن أخذ يتقدم نحو تبوك، على مشارف الشام. حتى بدأ بعض رجاله يتملصون وينسحبون تحت تأثير ما كان يروج في صفوفهم من كلام حول صعوبة مواجهة الروم وما تنطوي عليه العملية من خطورة. وعندما وصل النبي إلى تبوك وجد أن هرقل قد غادرها إلى حمص، فجاءه أهل بعض تلك النواحي وصالحوه على الجزية، وبعث خالد بن الوليد في سرية إلى بعض المناطق المجاورة فصالحوه على الجزية أيضا، ثم عاد الرسول (ص) إلى المدينة وكان هذا آخر خروج له للحرب (السنة التاسعة للهجرة).

وتنزل سورة تبوك لتخصص القسم الأكبر منها لذكر ما عاناه الرسول في تجهيز جيش هذه الغزوة وما حصل خلال ذلك وأثناء الرحلة من أنواع السلوك والتصرفات التي تميط اللثام عن بعض جوانب الوضعية التي أصبح عليها واقع مجتمع الدعوة/الدولة الجديد. والحق أن سورة "التوبة" التي نزلت قبل سنة من وفاة الرسول (ص)، وتفيد روايات معتبرة أنها آخر سورة نزلت من القرآن[5]، قد جاءت بمثابة تقرير نقدي، قوي وشديد، عن الوضعية الداخلية في دولة الدعوة. لقد نددت بجوانب الضعف وأوضحت المسؤوليات، ولكن من موقف القوة والشدة لا من موقف اللين والضعف. ولعل مما له دلالة أنها السورة الوحيدة التي لا تبدأ بـ "بسم الله الرحمان الرحيم"، بل دخلت في الموضوع مباشرة. ونظرا لما في عباراتها من قوة وشدة سماها المفسرون بأسماء عديدة. يقول الزمخشري : سورة التوبة "لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافزة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب. ذلك لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تتبرأ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم". ويضيف الزمخشري: "وعن حذيفة رضي الله عنه : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب. والله ما تركت أحدا إلا نالت منه. فإن قلت : هلا صدرت بآية التسمية (=بسم الله الرحمان الرحيم) كما في

---

4 – الواقدي، نفس المرجع، ج 2، ص 102.

5 – السيوطي، الإتقان ، ص 10-87، البخاري، ج 6، ص123، الزمخشري، ج 2، ص 723

سائر السور؟ سئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال : اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النبذ... والمحاربة".

هذا وقد اتّفقت الروايات على أنّ النبي عليه السلام لمّا قفل من غزوة تبوك، في رمضان سنة تسع، عقد العزم علي أن يحجّ في شهر ذي الحجّة من عامه، ثم أمسك عن الحجّ تلك السنة، وأمّر أبا بكر الصديق على أن يحجّ بالمسلمين، وأمّره أن يخبر المشركين بأن لا يحجّ بعد عامه ذلك مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان –على عادة العرب قبل الإسلام– وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة براءة (في مصحفنا 37 آية). ثم أردفه بعلي بن أبي طالب ليقرأها على الناس.

نص السورة

1– مقدمة : بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...

(هذه) بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1] (فسخ لما يربط المسلمين بهم من معاهدات) : فَسِيحُوا (أيها المشركون) فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ (لكم أجل أربعة أشهر)، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ[2] (6).

---

6 – الطبري: "اختلف المفسرون فيمن بريء الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين فأذن له في السياحة في الأرض أربعة أشهر، فقال بعضهم: صنفان من المشركين: أحدهما: كانت مدة العهد بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقلّ من أربعة أشهر، وأمهل بالسياحة أربعة أشهر، والآخر منهما كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقُصّر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو (يصبح في حالة) حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يُقتَل حيثما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب". وبعد أن استعرض الطبري مختلف الأقوال في الموضوع، أدلى برأيه فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله (ص) لى الله عليه وسلّم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جلّ ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلّم بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: إلا الذين عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أحدا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ

2- وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ...

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ (أيها المشركون) فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[3]، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[4]. فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5]. وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ (طلب جوارك وحمايتك) فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ[6]. كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،

عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِينَط. وأضاف : فإن ظنّ ظانّ أن قول الله تعالى ذكره: فإذا انسَلَخَ= الأَشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المُشْرِكينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ يدلّ على خلاف ما قلنا في ذلك، إذ كان ذلك ينبىء عن أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم قتل كل مشرك، فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التي تتلو ذلك تنبىء عن صحة ما قلنا وفساد ما ظنه من ظنّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك كان له عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلّم أو لم يكن له منه عهد، وذلك قوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إلاّ الّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إنّ اللّهَ يُحِبُّ المُتّقِينَ فهؤلاء مشركون، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم وترك مظاهرة عدوّهم عليهم. وبعد: ففي الأخبار المتظاهرووجهته البلقاء (المملكة الأردنية الهاشمية)، وكان الجيش الثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة، ووجهته منطقة بصرى.ة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه حين بعث عليًا رضي الله عنه ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادي به فيهم، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلّم عهد، فعهده إلى مدته أوضح= الدليل على صحة ما قلنا وذلك أن الله لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلّم بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهده بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود، فأما من كان أجل عهده محدودا ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورا، بذلك بعث مناديه ينادي به في أهل الموسم من العرب"

فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (7)، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[7]؟ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ (إن يتفوق هؤلاء المشركون عليكم) لَا يَرْقُبُوا (لا يراعوا) فِيكُمْ إِلًّا (قرابة) وَلَا ذِمَّةً (عهدا)، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ! وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ[8]. اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[9]. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ[10]. فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ؛ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[11]. وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ[12]. أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ (فأخرجوه)، وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[13]. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ[14]، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[15]. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً (أولياء)؛ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[16].

3- مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ...

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ[17]. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ[18]. أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ (8) لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[19]. الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[20]. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ

---

7 - يتعلق الأمر بقبائل بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية إلى المدة التي كانت بين رسول الله (ص) وبين قريش، فأمر بإتمام العهد إلى مدته لمن لم يكن نقض عهده منهم.

8 - قيل، المعنيُّ هنا هو عم النبي العباس بن عبد المطلب، وأنه: "حين أُسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاجّ، ونفك العاني قال الله: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجّ. إلى قوله: الظَّالِمِينَ. يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبَلُ ما كان في الشرك".

مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ[21]، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[22].

4- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (ممن لم يهاجروا وفضلوا البقاء في مكة) لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[23]. قُلْ (قل لهم يا محمد) إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا (هو سبب تقاعسكم عن الهجرة)، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[24]. لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ: وَيَوْمَ حُنَيْنٍ [9] إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ[25]، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ[26]؛ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[27]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا (تتركوهم) يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً (حاجة وفقرا) فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[28].

5- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ...

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ

---

9 - إشارة إلى معركة حنين (وحنين ماء بين مكة والطائف) التي قاتل فيه الرسول وجنده قبائل هوازن وثقيف. ذكروا أنه خرج يومئذ مع الرسول اثنا عشر ألفا، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطلقاء، فكان النصر للمسلمين في نهاية المطاف. فلما أخذ الرسول في توزيع الغنائم تألف أناسا من الناس فيهم أبو سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل= بن عمرو والأقرع بن حابس، فقالت الأنصار: حنّ الرجل (أي الرسول) إلى قومه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: «يا مَعْشَرَ الأنصار، ما هَذا الذِي بَلَغَنِي؟ أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وكُنْتُمْ أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ وكُنْتُمْ، وكُنْتُمْ ... يا مَعْشَرَ الأنصار أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَنْقَلِبَ النَّاسُ بالإبلِ والشَّاءِ، وتَنْقَلِبُونَ برَسُولِ اللَّهِ إلى بُيُوتِكُمْ؟" فسكتوا ورضوا".

يَدٍ (يعطونها بأيدهم) وَهُمْ صَاغِرُونَ[29] (وذلك هو الصغار) [(10)]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ[30]. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[31]. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[32]. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[33]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[34]. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ: هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ[35]. إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ (هي رجب، وذو الْقَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ). ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ (لا تخرقوا حرمتها فلا قتال ولا عدوان ولا ظلم)، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً (جميعا) كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (جميعا من غير تمييز)، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[36]. إِنَّمَا النَّسِيءُ [(11)] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ (ليوافقوا عدد) مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ؛ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[37].

6- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا (اخرجوا غزاة) فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ[(12)]! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ

---

10 – قال الطبري: "ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم الذي يبذلونه للمسلمين دفعا عنها".

11 – عن ابن عباس: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ قال: فهو شهر المحرّم: كان يحرّم عاما وصفر عاما، وزيد صفرٌ آخر في الأشهر الحرم، وكانوا يحرّمون صفرا مرّة ويحلونه مرّة، فعاب الله ذلك، وكانت هوزان وغطفان وبنو سليم تفعله".

12 – أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد الطائف، وبعد حنين. أمروا بالنفير في الصيف حين خُرِفَت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشقّ عليهم المخرج.

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ[38]! إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ (الله) عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا؛ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[39]. إِلَّا تَنْصُرُوهُ (محمدا) فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ: إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ، إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ (الرسول) لِصَاحِبِهِ (أبي بكر): لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[40]. انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا (شبانا وكبارا) وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[41].

7- أعذار المنافـقـين ...

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ! وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ (المسافة)، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ! وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[42]. عَفَا اللَّهُ عَنْكَ! لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ (لمن اعتذر منهم في عدم الخروج) حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ[43]؟ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ[44]. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ[45]. وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ (خروجهم) فَثَبَّطَهُمْ، وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ[46]. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (فسادا وضررا)، وَلَأَوْضَعُوا (لأسرعوا) خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[47]. لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَارِهُونَ[48]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي (اتركني لا تبتليني برؤية نساء الروم وبناتهم)! أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[49]. إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ[50]. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا؛ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[51]. قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ (إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والجنة)؟ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ[52].

8- وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الخ.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ[53]. وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى، وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ[54]. فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[55]. وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ[56] (يخافونكم) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا (حفرة في الأرض) لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ[57] (مسرعين). وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ (يطعن في توزيعك) فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ[58]. وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ[59]. إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ (المقيمين في بيوتهم) وَالْمَسَاكِينِ (الذين يسعون ويطلبون الصدقة) وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا (جامعيها) وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ (الذين يُستمالون بالعطاء من المسلمين الجدد) وَفِي الرِّقَابِ (الأرقاء المكاتبون يعطون لاسترجاع حريتهم) وَالْغَارِمِينَ (الذين عليهم ديون بسبب حادثة أفقدتهم كل شيء كالحريق...) وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ (للدفاع عن الإسلام) وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر الذي لم يعد لديه ما يمكنه من متابعة طريقه)، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ (نصيب خصهم الله به)؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[60].

9- الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ...

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ (يتأثر بما يقال له)! قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ (خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل منكم ما تقولون)، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ (يصدق به) وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ (يصدقهم، ولا يصدق الكاذبين أمثالكم)، وَ(هو) رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ؛ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[61]. يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ، إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ[62]. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ (يخالف ويحارب) اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا؟ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ[63]. يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا؛ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ[64]. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ[65]؟ لَا تَعْتَذِرُوا! قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ[66]. الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ (عن النفقة). نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[67]. وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ

خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ[68]. كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ (من الكذب وغيره) فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[69]. أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[70].

10- وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[71]. وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[72]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[73]. يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا! وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ [(13)]، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا (هموا أن يتخلصوا من النبي فما استطاعوا)، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ [14]، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[74]. وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ: لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ[75]. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ[76]. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[77]. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[78]. الَّذِينَ يَلْمِزُونَ (يتهمون بالرياء) الْمُطَّوِّعِينَ (المتطوعين فوق المطلوب) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[79]. اسْتَغْفِرْ

---

13 – قيل: إشارة إلى رجل قال : "إن كان ما جاء به محمد حقًا، لنحن أشرّ من حميرنا هذه التي نحن عليها"، فأخبر الرسول بذلك واستدعاه، فأنكر وحلف أنه لم يقل ذلك، فنزلت ....

14 – قيل كان الذي قال كلمة الكفر واسمه الجلاس قد قتل له مولى له، فأمر له الرسول بديته، فاستغنى، فذلك قوله: وما نَقَمُوا إلا أنْ أغْنَاهُمُ اللَهُ ورَسُولُهُ مِنْ فضْلِهِ

لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ! إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[80].

11- فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، وكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا ...

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ (الذين تُركوا في منازلهم ولم يخرجوا مع الرسول) خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ (حرارة الصيف)! قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ[81]. فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[82]. فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ (رجعت من الغزوة) إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ[83] (القاعدين من المرضى والمعوقين). وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ[84]. وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[85]. وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ (الأغنياء) مِنْهُمْ وَقَالُوا: ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ[86]. رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ (كالنساء)، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ[87]. لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[88]. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[89].

12- ليس عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ (المعتذرون) مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[90]. لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[91] وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ[92]. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ (مع النساء)، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[93]. يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا! لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ، قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[94]. سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[95]. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[96]. الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[97]. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا (غرما وغصبا)، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ؛ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[98]. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[99].

13- وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ، وَمِنْ أَهْلِ المدينة ... كذلك..

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا؛ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[100]. وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا (تدربوا) عَلَى النِّفَاقِ، لَا تَعْلَمُهُمْ! نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ. سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ[101]. وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[102]. خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ؛ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[103]. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[104]. وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[105]. وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ (متروكون) لِأَمْرِ اللَّهِ: إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[106].

14- وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا[15] وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، وَاللَّهُ يَشْهَدُ

---

15 – كان قوم من المنافقين أتوا الرسول وهو يتأهب لغزوة تبوك، فقالوا له : إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية. وطلبوا منه أن يصلي فيه.

إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[107]. لَا تَقُمْ (لا تصلي) فِيهِ أَبَدًا. لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ؛ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ[108]. أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[109]. لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[110].

15– إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ..

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ. وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[111]. التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ؛ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[112]. مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[113] (16). وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ (وعد) وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ (رحيم) حَلِيمٌ[114]. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ؛ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[115]. إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[116].

---

16 – قالوا : "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بها عند اللَّه. قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ". حدث ذلك عند وفاة أبي طالب الذي كان يحمي النبي من قريش، وكانت وفاته قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين. وفي هذه الآية نوع من العتاب للنبي لكونه قال له : "وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ". والمقصود هنا حث المسلمين بالمدينة على القطيعة مع أقاربهم الكفار.

16- لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ (غزوة تبوك) مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ (من شدة الحر والضيق)، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[117]. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا (والذين قال عنهم قبل : "وآخرون مرجون لأمر الله الآية 106)"، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ (وفقهم للتوبة) لِيَتُوبُوا؛ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[118]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[119]. مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ (مجاعة) فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[120]. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[121]. وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً (ليس من الواجب أن يخرجوا كلهم للحرب)، فَلَوْلَا (الأحسن أن يبقى منهم) نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ: مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[122]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[123]. وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[124]. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا (نفاقا ونتنا) إِلَى رِجْسِهِمْ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ[125]. أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ (بالأمراض والأوجاع الخ)، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ، وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ[126]. وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ (تفضح نفاقهم) نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ (يتساءلون من أخبر الرسول بما قالوا أو فعلوا نفاقا)، ثُمَّ انْصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (عن الاهتداء) بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[127] (لا يعقلون ولا يعتبرون).

17- خاتمة: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ..

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (من بينكم)، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (صعب عليه ما تعانون من مشاق)، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[128]. فَإِنْ

تَوَلَّوْا (فإن أعرضوا عنك) فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"[129].

– تعليق

تتألف هذه السورة من قسمين رئيسيين: أولهما: الإعلان عن إلغاء المعاهدات التي أبرمها الرسول من قبل مع مشركي مكة لأسباب تشرحها السورة، ويشغل هذا الموضوع الفقرات الخمس الأولى (إلى الآية 37). أما القسم الثاني وهو باقي السورة (ابتداء من الفقرة السادسة، الآية 38) فيشرح ما عاناه الرسول في تجهيز جيش غزو تبوك، مع فضح مفصل لمواقف المنافقين ومن في معناهم ممن كانوا يلتمسون الأعذار لإعفائهم عن الخروج مع الرسول. وفيما يلي عرض لمضمون هذين القسمين، كلا على حدة.

2/1- في الفقرة الأولى والثانية تعلن السورة التوبة عن نقض وإلغاء ما كان الرسول (ص) قد أبرمه من معاهدات عدم اعتداء مع المشركين، وتمنحهم أربعة أشهر كآخر أجل لإعلان إسلامهم أو وضع أنفسهم في موقع العدو- باستثناء أولئك الذين أبرمت معهم معاهدة لمدة معينة ولم ينقضوها، فهؤلاء يمهلون حتى تنتهي تلك المدة، قيل ومنهم أهل الحديبية. ثم تذكر السورة المسلمين بأن المشركين لم يلقوا السلاح بعد، وأنهم سيواصلون محاربتهم والتآمر ضدهم، مما يجعل المعركة قائمة ويفسح المجال للاختبار والامتحان فيتبين المؤمنون الصادقون من غيرهم.

3- ثم تنتقل السورة في الفقرة الثالثة إلى أولئك الذين -من المسلمين- يشفعون لأنفسهم بكونهم قد عملوا قبل الإسلام على عمارة المسجد الحرام وسقاية الحجاج فتُبِّن لهم أن عمارة المسجد الحرام في حال الكفر ليست بشيء وأن سقاية الحاج لا يمكن أن تعدل وتساوي الإيمان بالله واليوم الآخر، إن ذلك يعني أن "مآثر" الجاهلية لا اعتبار لها في الإسلام، وبالتالي فمراتب الناس وتراتبهم الاجتماعي يجب أن يتغير ليصبح مبنيا على "السابقة في الإسلام".

4- وهكذا تؤكد السورة أن الذين آمنوا قبل الهجرة وعانوا من اضطهاد قريش، ثم هاجروا تاركين أموالهم وديارهم ثم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، هؤلاء لا يمكن أن يكونوا على درجة سواء مع غيرهم من الذين أسلموا بعد فتح مكة : أولئك "قطعوا" مع الآباء والأبناء والأموال والأزواج، وهؤلاء لم يفعلوا، بل اتخذوا من أولئك أولياء لهم من دون الله، فكيف يستوون؟ وإذا كان تعداد الجيش قد ازداد

بالمسلمين الجدد فإن الكثرة ليست هي التي تأتي بالنصر. فلقد كان النصر حليف المسلمين يوم كانوا قلة من المؤمنين الصادقين، وكادت تلحق بهم الهزيمة في "حنين"، رغم كثرة عددهم.

5- ثم ترد السورة في الفقرة الخامسة على أولئك الذين كانوا يشتكون من كون "القطيعة" مع المشركين وما تقتضيه من منعهم من الحج سيترتب عنها نقصان عائدات الحج عنهم مما يؤدي بهم إلى الفقر، ترد على هؤلاء بتوجيه أنظارهم إلى قتال المشركين من أهل الكتاب (الذين قالوا عزير ابن الله وهم اليهود، أو المسيح ابن الله وهم النصارى) حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون. والجزية في هذه الحالة ستعوض عائدات الحج. وهنا تحذر السورة من أكل أموال الناس بالباطل، ومن كنز الذهب والفضة، ومن الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله (لتجهيز الجيوش خاصة). كما تحذر من كسب المال عن طريق التلاعب بالشهور وحرمتها ثم تحدد الأشهر الحرم وتحرم "النسيء"، أي التمديد في هذه الأشهر بتأخيرها أو الزيادة فيها، لتخلص بعد ذلك إلى نوع صريح وعنيف من "المكاشفة" واللوم والعتاب مما يعطينا صورة واضحة عن "الوضعية الداخلية" في دولة الدعوة يومئذ. وقد خصصت لهذا الموضوع بقية السورة (الفقرات 6-14)

- تبدأ الآية الثامنة والثلاثون الحديث عما حصل من تقاعس وتهرب، حين الاستعداد لغزوة تبوك، بلهجة عنيفة فيها تقريع وتوعد: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض" الخ، وتخاطب السورة المتثاقلين المتقاعسين فتذكرهم بأن الله نصر نبيه حين كان ثاني اثنين حين الهجرة: "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها" الخ. ثم تستحثهم على الخروج مع النبي لقتال المشركين والمتربصين بالدولة الجديدة : "انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله".

- وتنتقل السورة إلى المتقاعسين من أصحاب الأموال الذين تحركهم "الغنيمة" أكثر مما يحركهم شيء آخر فتقول عنهم مخاطبة النبي : "لو كان عرضا قريبا (غنيمة سهلة) وسفرا قاصدا (لا مشقة فيه) لاتبعوك" الخ، ويتوجه الخطاب إلى النبي ويعاتبه على أن أذِن بالقعود لمن استأذنوه مدلين بأعذار واهية: "عفا الله عنك، لِمَ أذنت لهم" الخ، وتشير السورة إلى أحد كبار المتمولين من أهل المدينة، اسمه الجد بن قيس الذي اعتذر للنبي عن الخروج إلى غزو الروم

بدعوى أن الأنصار يعلمون أنه مغرم بالنساء، ولذلك فهو يخاف أن يفتتن إذا رأى نساء "بني الأصفر" أي بنات الروم، فتقول في شأنه : "ومنهم من يقول ائذن لي (بالقعود) ولا تفتني" الخ.

– وتعرض السورة لجماعة كانوا ينتقدون الكيفية التي وزع بها النبي الغنائم. خصوصا على المؤلفة قلوبهم، وقيل هو ذو الخويصرة التميمي الذي سبقت الإشارة إليه، وقيل هم جماعة من المنافقين قال بعضهم : "ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل"، يقول تعالى : "ومنهم من يلمزك في الصدقات، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون" الخ، وبهذه المناسبة تنزل الآية التي تحدد هوية المستحقين للصدقات (الزكاة) : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين رفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم" (58 – 60).

– وتفضح السورة سلوك جماعة أخرى كانوا يقولون إن النبي (ص) يسمع لأي كان: "ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن. قل أذن خير لكم، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين (يصدقهم) ورحمة للذين آمنوا منكم". ويروى أنه "بينما رسول الله (ص) يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه. هيهات هيهات"! فلما وقف النبي لتوبيخهم على ما صدر منهم أنكروا وقالوا إنما كنا "في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر"، فردت السورة عليهم :"لا تعتذروا، قد كفرتم بعد إيمانكم") الخ. ثم تشير إلى تآمر جماعة منهم على أن يدفعوه عن راحلته ليلا إلى الوادي، وبدءوا في تنفيذ المؤامرة، غير أن بعض الصحابة على رأسهم عمار، أنقذوا الموقف".

– وتعرض السورة لطائفة أخرى من أثرياء "الغنيمة" الذين بخلوا عن الإنفاق على جيش تبوك واستهزءوا من الصحابة الذين أنفقوا بسخاء: "الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم. استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله. والله لا يهدى القوم الفاسقين".

– وتنتقل السورة إلى الذين اعتذروا عن الخروج إلى تبوك بدعوى شدة الحر، في حين أنهم إنما فعلوا ذلك حرصا على أموالهم وجني ثمارهم: "وقالوا لا

تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون"، وتوصي السورة النبي عليه السلام بعدم التعامل معهم مستقبلا: فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا، ولن تقاتلوا معي عدوا. إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين. ولا تصل على أحد منهم مات، أبدا، ولا تقم على قبره. إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون"...

- وهناك طائفة أخرى اعتذرت عن الخروج إلى تبوك وهم "الأعراب"، والمقصود بهم هنا القبائل البدوية القوية مثل قبائل أسد وغطفان، لا القبائل الفقيرة كما سيتبين من السياق : "وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم". أما الضعفاء منهم وهم قبائل مزينة وجهينة وبنو عذرة فلا شيء عليهم : "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل (لمؤاخذتهم)... إنما السبيل (اللوم) على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف (النساء والصبيان) وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون (...) الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما (يعتبر ما يعطي من زكاة وصدقات بمثابة إتاوات، وهم أسد وغطفان وتميم) ويتربص بكم الدوائر" (ينتظرون أن يصيبكم مكروه فينقضوا عليكم. وذلك ما حدث فعلا، إذ ما أن شاع، بعد سنة فقط، مرض النبي (ص) حتى ارتدت القبائل المذكورة). (...) "وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق (يمارسونه منذ زمان) لا تعلمهم، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين (في الدنيا بفضحهم) ثم يردون إلى عذاب عظيم" (يوم القيامة).

- ثم تعرض السورة لطائفة أخرى تخلفوا عن الخروج إلى تبوك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة. ولما عاد النبي (ص) ندموا فأوثقوا أنفسهم في سواري المسجد وحلفوا ألا يحلهم إلا النبي (ص) فحلهم وأخذ ثلث أموالهم وفيهم نزلت الآيات التالية : "وآخرون اعترفوا بذنوبهم (بعدم الخروج) خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم"...

- وتتحدث السورة عن جماعة أخرى لم يخرجوا مع النبي إلى تبوك، وهم ثلاثة أشخاص تخلفوا كلا ولم يقدموا توبة. "وآخرون مُرْجَون لأمر الله (أرجيء اتخاذ القرار في شأنهم)، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم".

ثم قرر النبي في شأنهم أن يهجرهم الناس فبقوا خمسين ليلة لا يكلمهم أحد ثم تابوا فنزلت آية بتوبتهم. انظر لاحقا.

– ثم تنتقل السورة إلى الكشف عن مؤامرة دبرها راهب شارك في القتال مع المشركين يوم أحد وتحدى النبي وقال له : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هاربا إلى الشام وأرسل إلى "المنافقين" أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود لأخرج محمدا وأصحابه من المدينة. فبنى أصحابه مسجدا بجانب مسجد قباء وقالوا للنبي إننا بنيناه لذي العلة والحاجة والليلة المطرة، وهم إنما أرادوا أن يكون مركزا لتجميع أنصارهم انتظارا لمجيء الروم والانقضاض على المسلمين. فلما عاد النبي (ص) من تبوك وعلم بحقيقة الأمر أمر أصحابه بهدم ذلك المسجد، وإلى هؤلاء ومسجدهم تشير السورة : "والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين،(ينافسون به مسجد قباء) وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل (انتظارا للراهب المذكور) وليحلفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون".

16/15– وبعد فضح تلك الطوائف والجماعات من أصحاب الأموال والأعراب والمنافقين والمتآمرين تنتقل السورة في الفقرتين 16/15 إلى الثناء على المؤمنين الصادقين الذين استجابوا بإخلاص للنبي في دعوته للخروج إلى تبوك، ثم تعود السورة لتعاتب النبي وبعض الصحابة لكونهم أرادوا أن يستغفروا لآبائهم وقد ماتوا على الشرك : "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (وكان بعض الصحابة يحتجون باستغفار إبراهيم لأبيه الذي كان مشركا، ويأتي الجواب : "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه (مجرد وعد) فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لاواه رحيم". وتعود السورة إلى ظروف التعبئة من أجل الخروج إلى تبوك وإلى ظروف هذه الغزوة فتشير إلى الثلاثة الذين تخلفوا في المدينة –وكان النبي قد أمر بمقاطعتهم– وتعلن قبول توبتهم. "وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت (بسبب المقاطعة) وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم". ثم تتوجه السورة إلى المؤمنين جميعا وتطلب منهم أن يكونوا مع الصادقين، من المهاجرين والأنصار، وتخاطب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لتحثهم على الامتثال للرسول (ص) وعدم التخلف عن الخروج معه

للقتال. ثم تؤكد السورة مجددا ضرورة التعامل بالشدة مع الكفار والخروج لقتالهم الأقرب فالأقرب.

17 – وتأتي خاتمة السورة كالنتيجة والخلاصة لكل ما سبق : "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم (صعب عليه ما تعانونه من مشاق) حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرض العظيم". وروي أن هذا آخر ما نزل من القرآن.

* * *

وبعد، فيقول ابن إسحاق "وكانت براءة تسمى في زمان النبي (ص) وبعده بـ "المبعثرة، لما كشفت من سرائر الناس". والواقع أنه من وراء "سرائر الناس" تلك يلمس الباحث عن قرب حقيقة الوضعية التي سيترك النبي (ص) عليها هذه الدولة الجديدة. لقد خرج الرسول إلى تبوك في رجب من السنة التاسعة وعاد منها إلى المدينة في رمضان من نفس السنة. وبعد شهرين بعث أبا بكر أميرا على الحج، ونزلت سورة براءة. وفي العام التالي حج الرسول "حجة الوداع" وعاد إلى المدينة وتوفي في 12 ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

ترى ماذا حدث في هذه الفترة الفاصلة بين غزوة تبوك ووفاة النبي، فترة سنة ونصف؟

كان أبرز حدث في السنة التاسعة بعد عودة النبي من غزوة تبوك هو إسلام ثقيف ومبايعتها للنبي. بعد أن كان قد تركها وشأنها بعد حصارها مدة. وهكذا انضمت ثقيف إلى قريش حليفتها التي استسلمت، وبذلك تأكد انتصار النبي على مكة والطائف. وكان من نتيجة ذلك أن أخذت القبائل العربية الأخرى، التي كانت تراقب الوضع باهتمام، تتوافد على المدينة لتهنئة النبي بالنصر وإعلان دخولها في الإسلام. وقد سميت هذه السنة، السنة التاسعة، بـ "سنة الوفود". وقد تتابعت الوفود في السنة العاشرة حتى أصبحت الجزيرة العربية تدين كلها بالولاء للرسول، وقد عين عليه السلام عماله في المناطق والقبائل : من اليمن جنوبا إلى مشارف الشام شمالا وحدود العراق شرقا. غير أن الشيء الذي يجب أن لا يغرب عن البال هو أن إسلام القبائل، كإسلام الأعراب عموما وإسلام من أطلق عليهم اسم "المنافقين" في المدينة وإسلام من أسلم من قريش يوم استسلام مكة، وهم "الطلقاء" وإسلام ثقيف بعد ذلك، كل ذلك كان في الجملة إسلاما سياسيا أكثر منه إسلاما عقائديا. لقد كان من قبيل ذلك الولاء الذي اعتادت القبائل العربية في الجاهلية أن تمنحه لزعيم القبيلة التي تنتصر في غزواتها و"تدوخ البلاد" و"تملك".

وكان عنوان هذا الولاء هو دفع "الإتاوة" والامتناع عن محالفة والأعداء، وفي الغالب كان هذا الولاء ينتهي بموت الزعيم الذي كان الولاء له. وهذا ما حصل فعلا: فما أن سمعت القبائل بمرض النبي (ص) حتى بدأت ترتد. لقد رأى أهل القبائل كيف أن النبوة قد أدت إلى "ظهور" محمد وقريش على العرب جميعا فقاموا يقلدون هذا النموذج : قبائل تلتف حول كاهن أو ساحر يدعي النبوة ثم تنطلق في الغزو تريد الانقضاض على قريش و"ملكـ" ـها. إنها "الردة" التي ستنتشر كالنار في الهشيم بمجرد مرض الرسول، مرض وفاته.

ومما يلفت النظر في هذا المجال أن القبائل كلها قد ارتدت (خاصة وعامة)، ما عدا قريشا وحليفته ثقيف، وهما القبيلتان اللتان كانتا الخصم اللدود للدعوة المحمدية. لم ترتد هاتان القبيلتان لأن دولة الدعوة المحمدية كانت قد أخذت تتطور في الاتجاه الذي يجعل منها دولة قريش. وقد بينا ذلك من خلال تتبع مواقف أبي سفيان منذ بداية النبوة -حين رد بقوة على أبي جهل زعيم المخزميين المنافسين لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية) حين سخر من أن يكون محمد نبيا- إلى إعلانه استسلام مكة للرسول محمد بن عبد الله، مناديا "من دخل دار ابي سفيان فهو آمن"! وفضلا عن الحصة السمينة التي حصل عليها من الرسول، هو وابناه، يزيد ومعاوية، من غنائم حنين، بوصفهم من المؤلفة قلوبهم، فقد عين معاوية من بين كتاب الوحي وعين أخاه يزيد زمن أبي بكر قائدا لجيش فتح البلقاء بالشام (الأردن حاليا)... وقد كتب المقريزي رسالة فريدة في البحث عن الأسباب التي جعلت دولة الإسلام تؤول إلى بني أمية، ختمها بقوله: "فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله (ص) ولا في عمال أبي بكر وعمر (رض) أحد من بني هاشم. فهذا وشبهه هو الذي حدد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم" [17].

هذا، ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نقرر في مرويات تنسب إلى النبي عليه السلام أحاديث كلها تشاؤم بالمستقبل وتنبؤ بانهيار البناء الأخلاقي الذي أقامه وبطغيان الانتهازية والصراعات السياسية بعده الخ فإن الشيء المؤكد هو أنه عليه السلام قد فارق الحياة وهو منفعل ومتأثر ومبتهج بالوفود الكثيرة التي جاءته لتهنئه بالنصر، وأنه رأى فيها انتهاء مهمته، وبالتالي قرب أجله. وقد جاء الوحي بما يلمح إلى ذلك، أعني "سورة النصر" التي سننتقل إليها الآن.

---

17 – انظر نص الرسالة في كتابنا : العقل السياسي العربي. الفصل الرابع الفقرة 5

114- سورة النصر

- تقديم

اختلاف طويل عريض حول مناسبة نزول هذه السورة، ومع ذلك يكاد جميع المفسرين والرواة يجمعون على أن المقصود بـ"النصر" و"الفتح" في قوله تعالى في أول هذه السورة : "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ"، هو فتح مكة (حسب قراءتهم لمعنى "إذا جاء"، إما على أنه يدل على "ماض" والمقصود المستقبل، وإما على أنه يشير إلى حاضر...) أما لوائح ترتيب النزول فبعضها يضع هذه السورة قبل (أو بعد) سورة الحشر، على اعتبار أنها نزلت عند مجيء "أهل اليمن" إلى المدينة لنصرة الرسول، والمقصود "مجيء وفد الأشعريين عام غزوة خيبر" في السنة السابعة. هذا بينما رتبت هذه السورة في آخر اللائحة المعتمدة اليوم كلائحة "رسمية"، الشيء الذي يعني أنها آخر سورة نزلت، ربما باعتبار أنها نزلت "عام الوفود" التي جاءت المدينة من جميع أطراف الجزيرة العربية تهنئ النبي عليه السلام بالنصر النهائي بعد إسلام أهل الطائف حلفاء قريش المستسلمة! لقد كان إعلان إسلامهم تعبيرا عن أن "فتح مكة" قد بات فتحا لا رجعة فيه!

ونحن نرى أن معنى "النصر والفتح" في السورة يحيلان فعلا إلى فتح مكة. ولكن بما أن فتح مكة كان في شهر رمضان سنة ثامنة بينما أن إسلام ثقيف (أهل الطائف) كان في رمضان سنة تاسعة، أي بعد نحو شهر من غزوة تبوك التي نزلت فيها سورة التوبة، والتي تهاطلت بعدها على المدينة، من جميع أنحاء الجزيرة العربية، الوفود المهنئة بالنصر النهائي للدعوة المحمدية، فإنه من المعقول تماما ربط سورة النصر بعام الوفود واعتبارها آخر سورة نزلت، فتكون هي أيضا بمثابة تهنئة قرآنية بإكمال الرسول محمد بن عبد الله، تبليغ رسالته ...

وعن ابن مسعود أن سورة "النصر" تسمى أيضا سورة "التوديع"، لما فيها من الإيماء إلى وداعه (ص)، وهذا تزكيه رواية أخرى عن ابن عباس ورد فيها أنه لما نزلت: "إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ" دعا رسول الله (ص) فاطمة ابنته وقال لها: "قد نُعيتُ إليَّ نفسي، فبكتْ". وإذا صح ما روي عن عبد الله بن عمر من أن رسول الله عاش بعد نزول هذه السورة نحواً من ثلاثة أشهر، فستكون هذه

السورة قد نزلت بُعَيد حجة الوداع. (وكانت حجة الوداع: يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، السنة العاشرة، أي ثلاثة أشهر ونصف قبل وفاته عليه السلام في يوم الاثنين 13 ربيع أول من السنة الحادية عشرة، عن عمر يناهز ثلاثا وستين سنة قمرية، أو واحدا وستين سنة شمسية).

- نص السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ[1]، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا[2]، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا[3].

- تعليق

ثلاث آيات -بالمعنى الاصطلاحي لكلمة "آية" (من القرآن)- تعبر عن ثلاث آيات بالمعنى اللغوي لنفس الكلمة، التي تعني على هذا المستوى: العلامة والدليل والحجة الخ.

- "**إذا جاء نصر الله والفتح**" : (بعد ثلاث وعشرين سنة من الصراع المرير مع قومك قريش والقبائل العربية الأخرى ...)

- "**ورأيت الناس**" (أولئك الناس الذين كنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم، فقابلوا دعوتك بالسخرية والتكذيب والمحاربة ومحاولات الاغتيال... إذا رأيتهم بأم عينك)، "**يدخلون في دين الله أفواجا**"، (فتلك علامة على أنك قد بلَّغت رسالتك وأدَّيت مهمَّتك. وإذن،)

— "**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** (توجه أنت إلى ربك بالحمد والشكر له) **وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**" (واطلب منه المغفرة لهذه الأفواج التي أسلمت... إنه كان، وسيبقى دائما، يقبل توبة التائبين).

كانت البداية: "اقرأ (بلغ) باسم بك الذي خلق"... ولما تمت "القراءة" وصار الناس "يدخلون في دين الله أفواجا" ... لم يبق للرسول إلا أن يودع مسبحا بحمد ربه، مستغفرا لجميع من آمن به.

أما ما عدا ذلك، فليس من مهمة الرسول. فالرسول مبلغ من الله للناس، وليس رئيسا على الناس. أما حدث بعده، فهو مثل ما حدث قبله، من صنع الناس.

المصادر.

فيما يلي لائحة بأهم المصادر التي اعتمدنا عليها :

• في التفسير

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري. دار المعرفة. بيروت 1990.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي القرطبي : تفسير القرطبي دار الكتب العلمية بيروت دت.
- أبو عبد الله فخر الدين الرازي : تفسير الرازي (مفاتيح الغيب من القــرآن الكريم). دار إحياء التراث العربي. بيروت. دت.

جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف. دار الفكـــر العربـــي. بيروت . دت.

- محمد طاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير في تفسير القرآن. دار سحنون. تونس 1997
- الحاكم النيسابوري : تفسير الواحدي

• في السيرة والتاريخ

- ابن هشام : سيرة ابن إسحاق لابن هشام. دار المعرفة. بيروت. دت
- عبد الله الخفاجي : السيرة الحلبية. دار المعرفة. بيروت . دت.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، : تاريخ الطبري. 8 مجلدات دار الكتب العلمية. بيروت 2003
- ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير: ليدن 1325 هجرية 1212 ميلادية.

موضوعات في التعاليق والاستطرادات

في الكتاب بأجزائه الثلاثة

نثبت فيما يلي لائحة بعناوين موضوعات التعليقات والاستطرادات التي ختمنا بها بعض السور في أقسام الكتاب الثلاثة:

القسم الثاني

11- الرؤية والكلام وخلق القرآن. (الشورى).

12- بعث الأرواح لا الأجساد وعذاب القبر(النازعات)،

13- إمكانية الحشر وعذاب القبر (الانفطار)..

14- الخلود وحشر الدواب والتناسخ (الانشقاق).

15- مسألة الروح (الإسراء).

16- مسألة الرؤية (المطففين).

17- الهجرة إلى المدينة (الحج).

القسم الثالث

18- مسألة النسخ في القرآن (البقرة).

19- المحكم والمتشابه (آل عمران).

20- نساء النبي (الأحزاب).

21- حول زواج المتعة (النساء).

22- قصة الإفك. (النور).

23- أخبار عن المنافقين (المنافقين).

24- أسباب النزول: تحريم الخمر نموذجا (المائدة).

فهرس القسم الثالث

1 – وقع قلب في الرقم الترتيبي ا لمسجل جنب سورتي البقرة والقدر. والصحيح ما أثبتناه هنا: (91- سورة البقرة، 92 سورة القدر).

كتب المؤلف

حسب تاريخ صدورها

1 - **العصبية والدولة** : معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي 1971.
2 - **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب** 1973.
3 - **مدخل إلى فلسفة العلوم** : جزآن 1976 (الأول : تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة. الثاني : المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي).
4 - **من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية** 1977.
5 - **نحن والتراث** : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي 1980 ترجم الى الاسبانية والتركية.
6 - **الخطاب العربي المعاصر** : دراسة تحليلية نقدية 1982.
7 - **تكوين العقل العربي** : 1984. (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية).
8 - **بنية العقل العربي** : 1986. (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية).
9 - **السياسات التعليمية في المغرب العربي** 1987.
10 - **إشكاليات الفكر العربي المعاصر** 1988.
11 - **المغرب المعاصر** : الخصوصية والهوية : الحداثة والتنمية 1988.
12 - **العقل السياسي العربي** : 1990 (ترجم إلى التركية والفرنسية).
13 - **حوار المغرب والمشرق** : حوار مع د. حسن حنفي 1990.
14 - **التراث والحداثة** : دراسات ومناقشات 1991.
15 - **مقدمة لنقد العقل العربي** نصوص مترجمة إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان :

Introduction à la critique de la Raison arabe : traduit de l'arabe et présenté par Ahmed Mahfoud et Marc Géoffroy, éd. La Découverte, Paris 1994.

ترجم إلى الإيطالية والإنجليزية والبرتغالية، والإسبانية واليابانية والإندونيسية.

16 - **المسألة الثقافية** 1994.
17 - **المثقفون في الحضارة العربية والإسلامية**، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد 1995.
18 - **مسألة الهوية** : العروبة والإسلام ... والغرب 1995.
19 - **الدين والدولة وتطبيق الشريعة** 1996.
20 - **المشروع النهضوي العربي** 1996.
21 - **الديموقراطية وحقوق الإنسان** 1997.
22 - **قضايا في الفكر المعاصر** 1997.
23 - **التنمية البشرية والخصوصية السوسيوثقافية** 1997 (نشر الأمم المتحدة، الإسكوا، ترجم إلى الإنجليزية).
24 - **وجهة نظر** : نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر 1997.
25 - **حفريات في الذاكرة**، من بعيد ! 1997.
26 - **الإشراف على نشر جديد لأعمال ابن رشد الأصيلة مع مداخل ومقدمات تحليلية** وشروح إلخ 1997-1998 (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تهافت التهافت، كتاب الكليات في الطب، الضروري في السياسة : مختصر سياسة أفلاطون).
27 - **ابن رشد** : سيرة وفكر 1998.
28 - **العقل الأخلاقي العربي** : دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، 2001.
29 - **في نقد الحاجة إلى الإصلاح** 2005.
30 - **سلسلة مواقف**.
31 - **مدخل إلى القرآن الكريم** : التعريف بالقرآن، 2007.
32 - **فهم القرآن الحكيم** : التفسير الواضح حسب ترتيب النزول - ثلاثة أجزاء.

الثمن : 80 درهما